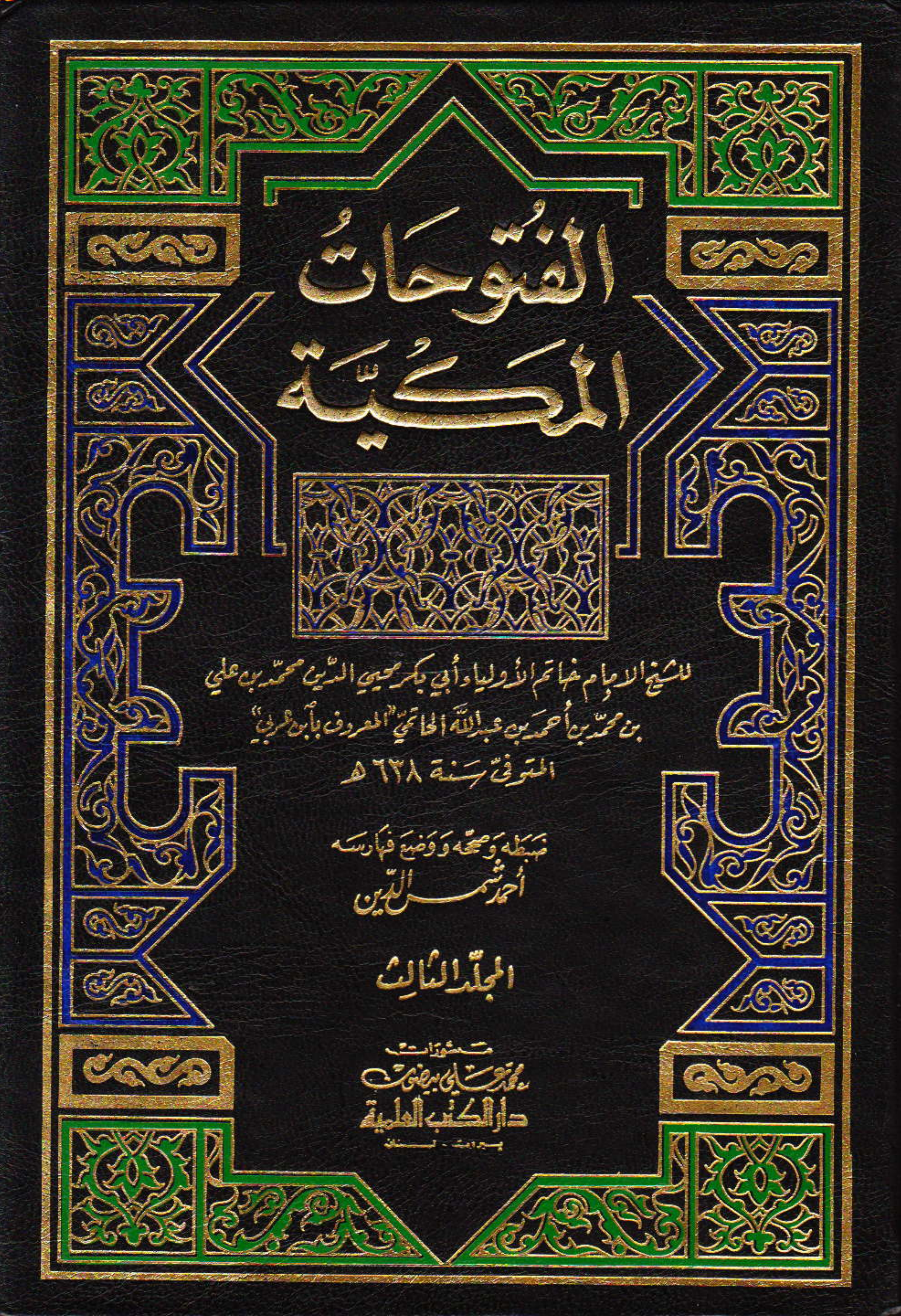

الفتوحات المكية
للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ
ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين
المجلد الثالث
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon





http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com


الفتوحات المكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثالث والسبعون

في معرفة عدد ما يحصل من الأسرار للمشاهد عند المقابلة والانحراف، وعلى كم ينحرف من المقابلة

[نظم: الوافر]

ملائكةُ الإلٰهِ أتتْ إلينا ... لتُوقِفَنا على النَّبأ اليَقينِ
فقالت قَوْلَ مَعْصومٍ عليمٍ ... بريءٍ من مُلابَسَةِ الظُّنونِ
ثمانيةٌ وعشرٌ قدْ أتتنا ... جَهاراً ثم عَشْرٌ في كَمينِ
ثمانيةٌ أشدّاءُ غِلاظٌ ... وخَمْسَتُهم أشدّاءُ بِلِينِ
بأربعةٍ وعشرينَ افتتحنا ... وما يعلو بسبْعَتِهم قريني
وخامسُ عَشْرةٍ في لينِ عيشٍ ... وأربعةٌ لتطبيق الجفونِ
وفي إحدى وعشرين انْسَفَلْنا ... عن التقويم بالبلد الأمينِ
مددنا ظلَّنا لحجاب غصنٍ ... على الأقوام في عَطْفٍ ولينِ
صلاةُ المشركين بها مُكَاءٌ ... مثلَّثَةٌ تُحلِّيني بديني
وواحدٌ استطال فصال قهراً ... ومنحرفٌ توحَّد في الوتينِ
إذا انفشَّ الوحيدُ يصير جمعاً ... ويهوَى مثله يهواه دوني
تفرَّقتِ الهمومُ غَداة ثَبْتٍ ... ويعرفها المتيَّمُ بعد حينِ
بشَفْعٍ من إبانتكم غَنينا ... فكُرِّر واحدُ الصبح المبينِ
وأن زَّوائدَ الأفلاك عشرٌ ... وللبُدَلاء أبراجُ الشُّؤونِ
ومن عَقْدِ المئين لنا ثلاثٌ ... على قلبٍ لآدم عن يقينِ
وأن الأربعين لقلبِ نوحٍ ... على بيضاءَ بالنور المبينِ
على قلبِ الخليل لنا رجالٌ ... سباعيةٌ كآساد العرينِ
وخمسةُ أنفس لهمُ ثَبَاتٌ ... بقلب الطاهرِ الروح الأمينِ
وميكائيلُ يتلوه ثلاثٌ ... تمسَّكهُنَّ بالحبل المتينِ
وإسرافيلُ يتبعه وحيدٌ ... بقلبٍ قد تفنَّن بالفنونِ
يُقَلْقِلُهم عن التَّثْبيتِ خمسٌ ... ولولاهنَّ كانوا في سُكونِ
وينصرني على الإشراك وَتْري ... تلقِّي نصرَ ذلك باليمينِ

نَجِيبٌ من ثمانيةٍ كرام وثِنْتَا عَشْرَةَ نُقَباءُ دِين
أقاليمُ البلاد لها رجالٌ على التمثيل في رأي العيونِ
وتَحْرُسنا بأربعةٍ رجالٍ من الأوتاد في الحِصْنِ الحَصينِ
إماما العالَمين هُما وزيرا مليكِ العالَم القطبِ المَكينِ
وستَّةُ أَنْفُسٍ لجهاتِ ستٍّ أئمتُهُنَّ من نورٍ وطِينِ
فهذا الرمزُ إن فكَّرتَ فيه ترى سرَّ الظُّهور مع الكُمونِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الباب يتضمن أصناف الرجال الذين يحصرهم العدد والذين لا توقيت لهم، ويتضمن المسائل التي لا يعلمها إلاّ الأكابر من عبد الله الذين هم في زمانهم بمنزلة الأنبياء في زمان النبوّة وهي النبوّة العامّة، فإن النبوّة التي انقطعت بوجود رسول الله ﷺ إنما هي نبوّة التشريع لا مقامها، فلا شرع يكون ناسخاً لشرعه ﷺ، ولا يزيد في حكمه شرعاً آخر، وهذا معنى قوله ﷺ: «**إنَّ الرِّسالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَد انْقَطَعَتْ فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلا نَبِيَّ**» أي لا نبيّ بعدي يكون على شرع يخالف شرعي، بل إذا كان يكون تحت حكم شريعتي، ولا رسول أي لا رسول بعدي إلى أحد من خلق الله بشرع يدعوهم إليه. فهذا هو الذي انقطع وسدّ بابه لا مقام النبوّة، فإنه لا خلاف أن عيسىٰ عليه السلام نبيّ ورسول، وأنه لا خلاف أنه ينزل في آخر الزمان حكماً مقسطاً عدلاً بشرعنا لا بشرع آخر ولا بشرعه الذي تعبّد الله به بني إسرائيل من حيث ما نزل هو به، بل ما ظهر من ذلك هو ما قرّره شرع محمد ﷺ، ونبوّة عيسىٰ عليه السلام ثابتة له محققة، فهذا نبيّ ورسول قد ظهر بعده ﷺ وهو الصادق في قوله أنه لا نبيّ بعده، فعلمنا قطعاً أنه يريد التشريع خاصة وهو المعبّر عنه عند أهل النظر بالاختصاص وهو المراد بقولهم: إن النبوّة غير مكتسبة.

وأما القائلون باكتساب النبوّة فإنهم يريدون بذلك حصول المنزلة عند الله المختصة من غير تشريع لا في حق أنفسهم ولا في حق غيرهم، فمن لم يعقل النبوّة سوى عين الشرع ونصب الأحكام قال بالاختصاص ومنع الكسب، فإذا وقفتم على كلام أحد من أهل الله أصحاب الكشف يشير بكلامه إلى الاكتساب كأبي حامد الغزاليّ وغيره فليس مرادهم سوى ما ذكرناه، وقد بيّنا هذا في فصل الصلاة على النبيّ ﷺ في آخر باب الصلاة من هذا الكتاب، وهؤلاء هم المقرّبون الذين قال الله فيهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٨] وبه وصف الله نبيه عيسىٰ عليه السلام فقال: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٥] وبه وصف الملائكة فقال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢].

ومعلوم قطعاً أن جبريل كان ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ ولم يطلق عليه في الشرع اسم نبيّ، مع أنه بهذه المثابة فالنبوّة مقام عند الله يناله البشر وهو مختص بالأكابر من البشر، يعطى للنبيّ المشرّع ويعطى للتابع لهذا النبيّ المشرّع الجاري على سنته، قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٣] فإذا نظر إلى هذا المقام بالنسبة إلى التابع وأنه باتباعه حصل له هذا المقام سمّي مكتسباً والتعمّل بهذا الاتباع اكتساباً، ولم يأته شرع من ربه

يختص به ولا شرع يوصله إلى غيره، وكذلك كان هارون، فسددنا باب إطلاق لفظ النبوّة على هذا المقام مع تحقّقه لئلا يتخيل متخيّل أن المطلق لهذا اللفظ يريد نبوّة التشريع فيغلط، كما اعتقده بعض الناس في الإمام أبي حامد فقال عنه: إنه يقول باكتساب النبوّة في كيمياء السعادة وغيره، معاذ الله أن يريد أبو حامد غير ما ذكرناه، وسأذكر إن شاء الله ما يختص به صاحب هذا المقام من الأسرار الخاصة به التي لا يعلمها إلاً من حصله، فإذا سمعتني أقول في هذا الباب وممّا يختص بهذا المقام كذا فاعلم أن ذلك الذي أذكره هو من علوم أهل هذا المقام، فلنذكر أوّلاً شرح ما بوّبنا عليه من المقابلة والانحراف.

وصل: اعلم أن للحق سبحانه في مشاهدة عباده إياه نسبتين: نسبة تنزيه ونسبة تنزل إلى الخيال بضرب من التشبيه، فنسبة التنزيه تجليه في: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والنسبة الأخرى تجليه في قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وقوله: «**إِنَّ اللَّهَ فِي قِبْلَةِ الْمُصَلِّي**». وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وثمّ ظرف ووجه الله ذاته وحقيقته والأحاديث والآيات الواردة بالألفاظ التي تطلق على المخلوقات باستصحاب معانيها إياها، ولولا استصحاب معانيها إياها المفهومة من الاصطلاح ما وقعت الفائدة بذلك عند المخاطب بها، إذ لم يرد عن الله شرح ما أراد بها مما يخالف ذلك اللسان الذي نزل به هذا التعريف الإلهيّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] يعني بلغتهم ليعلموا ما هو الأمر عليه، ولم يشرح الرسول المبعوث بهذه الألفاظ هذه الألفاظ بشرح يخالف ما وقع عليه الاصطلاح، فنسب تلك المعاني المفهومة من تلك الألفاظ الواردة إلى الله تعالىٰ كما نسبها لنفسه، ولا يتحكم في شرحها بمعان لا يفهمها أهل ذلك اللسان الذي نزلت هذه الألفاظ بلغتهم فنكون من الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٦] ومن الذين ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] وهم يعلمون بمخالفتهم، ونقرّ بالجهل بكيفية هذه النسب، وهذا هو اعتقاد السلف قاطبة من غير مخالف في ذلك، فإذا تقرّر عندك ما ذكرناه من هاتين النسبتين للحق المشروعتين وأنت المطلوب بالتوجّه بقلبك وبعبادتك إلى هاتين النسبتين فلا تعدل عنهما إن كنت كاملاً، أو إلى إحداهما إن كنت نازلاً عن هذه المرتبة الكمالية، إما لما يقوله أهل الكلام في الله من حيث عقولهم، وإما لما توهمه القاصرة عقولهم من تشبيه الحق بخلقه فهؤلاء جهلوا وهؤلاء جهلوا والحق في الجمع بينهما.

وقد ورد الخبر في النشأة الآدمية، أن الله خلق آدم على صورته وورد في القرآن أن الله خلقه بيديه على جهة التشريف لقرينة الحال حين عرف بذلك إبليس لما ادّعى الشرف على آدم بنشأته فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] ولا يسوغ هنا حمل اليدين على القدرة لوجود التثنية، ولا على أن تكون الواحدة يد النعمة والأخرى يد القدرة، فإن ذلك سائغ في كل موجود فلا شرف لآدم بهذا التأويل، فلا بدّ أن يكون لقوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ خلاف ما ذكرناه ممّا يصحّ به التشريف، فتوجهت على خلق الإنسان هاتان النسبتان: نسبة التنزيه ونسبة

التشبيه، فخرج بنو آدم لهذا على ثلاث مراتب: كامل وهو الجامع بين هاتين النسبتين، أو واقف مع دليل عقله ونظر فكره خاصة، أو مشبّه بما أعطاه اللفظ الوارد، ولا رابع لهم من المؤمنين. فالمقابلة أو الانحراف لا تكون إلاّ من جهة نسبة التنزّل الإلهيّ الخياليّ في قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، في هذا هي المقابلة للمعبود، والانحراف عن هذه المقابلة إما بتنزيه وهو انحراف المتكلمين، وإما بتشبيه محدود وهو انحراف المجسمين، والكمل هم أهل القول بالأمرين.

وهذه الحضرة التي ذكرناها تحوي على ستين وثلاثمائة مقام منها ستة وثلاثون أمهات وما بقي فهي نازلة عن هذه الستة والثلاثين تحصل كلها لأهل الشهود من الاسم الدهر، فإن الله هو الدهر، ولا يتوهم من هذا القول الزمان المعروف الذي تعدّه حركات الأفلاك وتتخيّل من ذلك درجات الفلك التي تقطعها الكواكب ذلك هو الزمان، وكلامنا إنما هو في الاسم الدهر ومقاماته التي ظهر عنها الزمان، والزمان على التحقيق قد عرّفناك أنه نسبة لا أمر وجودي وأنه للمحدث بمنزلة الأزل للقديم، فهذه المقامات تحصل لأهل الشهود إذا قابلوها بذواتهم من حيث خلقهم على الصورة، كذلك يقابل الزمان الدهر والأبد يقابله الأزل، ولا يكون منهم عند المقابلة نظر إلى كون أصلاً يميزونه عن ذواتهم وذوات ما قابلوه، فإن وقع لمن هذا مقامه تميّز لكون من الأكوان، أو للذي قابلوه يميّز لهم عمّا قابلوه من ذواتهم، فقد حدّوه وانحرفوا عن المقابلة، وانحطوا بذلك إلى ثمانية عشر مقاماً وهو النصف، فإما أن يكون انحرافهم إليه أو إليهم، فإن كان إليه تعالىٰ فقد غابوا عنهم والمطلوب منهم حضورهم بهم له، وإن كان الانحراف إليهم فقد غابوا عنه والمطلوب حضورهم معه، فإن زاد الانحراف انحطوا إلى نصف ذلك وهو تسعة مقامات فغاب عنهم من الذي انحطوا عنه النصف، فإن زاد الانحراف انحطوا إلى ستة مقامات وهو غاية الانحطاط وهو الثلث من الثمانية عشر والسدس من المجموع الذي هو ستة وثلاثون، فمنزل العبد الكامل يكون بين هاتين النسبتين يقابل كل نسبة منهما بذاته، فإنه لا ينقسم في ذاته وما لا ينقسم لا يوصف بأنه يقابل كل نسبة بغير الذي يقابل بها الأخرى وما ثَمَّ إلاّ ذاته، كالجوهر الفرد بين الجوهرين أو الجسمين يقابل كل واحد ممّا هو بينهما بذاته، لأن ما لا ينقسم لا يكون له جهتان مختلفتان في حكم العقل، وإن كان الوهم يتخيل ذلك كذلك الإنسان من حيث حقيقته ولطيفته يقابل بذاته الحق من حيث نسبة التنزيه، وبذلك الوجه عينه يقابل الحق من حيث صفة النزول الإلهي إلى الاتصاف بالصفات التي توهم التشبيه وهي النسبة الأخرى.

وكما أن الحق الذي هو الموصوف بهاتين النسبتين وله حد في نفسه وأحديته ولم تحكم عليه هاتان النسبتان بالتعداد والانقسام في ذاته، كذلك العبد الكامل في مقابلة الحق في هاتين النسبتين لا يكون له وجهان متغايران، فهذه هي المقابلة للحق من جميع النسب على كثرتها، فإنها وإن كثرت فهي راجعة إلى هاتين النسبتين وليستا بأمر زائد على عين الموصوف بها فالكل عين واحدة وما ثَمَّ كل وجودي، وإنما جئنا به من حيث النسب وهي لا أعيان لها،

فالعين من الحق واحدة والعين من العبد واحدة، لكن عين العبد ثبوتية ما برحت من أصلها ولا خرجت من معدنها، ولكن كساها الحق حلّة وجوده، فعينها باطن وجوده ووجودها عين موجدها، فما ظهر إلاَّ الحق لا غيره، وعين العبد باقٍ على أصله، لكنه استفاد ما لم يكن عنده من العلم بذاته، وبمن كساه حلّة وجوده وبمعرفة أمثاله ورأى العالم بعضه بعضاً بعين وجود ربّه، فمن نظر إلى ذاته بعين ربه ولم يميز فقد انحرف عمّا ينبغي له فهو العبد الموصوف بالجهل في عين الحق، وحكمه في هذا الوصف والحال حكم من لم يتصف بالوجود لأن الجهل عدم، فمن قال في رؤيته ما رأى الله إلاَّ الله فهو العبد الكامل وهكذا في كل نسبة، وهذه أسنى درجات المعارف. وتليها المعرفة الثانية التي يقول فيها صاحبها: كنت مغمض العينين ففتحتهما فما وقعت على شيء إلاَّ كان هو الله فما رأيت إلاَّ الله والأعيان على أصولها لا أثر لها في رؤيتي إياها. والمعرفة الثالثة هي التي يقول فيها صاحبها: ما رأيت شيئاً. والمعرفة الرابعة أن يقول: ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله وهذه رؤية تحديد، وكذلك فيما نزل عن هذه المعرفة من فيه وبعده وعنده وغير ذلك، وهي هذه المعارف التي تعطي التحديد من النسبة النزولية التي توهم التشبيه، والمعارف الأول التي ذكرناها من مقام كون العبد بين النسبتين لا غير.

وأما المعارف التي تحصل من نسبة التنزيه فلا تقال ولا تأخذها عبارة ولا تصحّ فيها الإشارة فانحصر لك الأمر في ثلاث معارف أمّهات: معرفة نسبة التنزيه، ومعرفة نسبة التحديد والتشبيه، ومعرفة أعطاها مقامك بين هاتين النسبتين وهو عينك لا وجود عينك لكون وجود عينك هو وجود الحق فلا ينسب إليك. فمن لا علم له بهذه الأمّهات فهو المنحرف.

واعلم أن الله في كل نوع من المخلوقات خصائص، وقد ذكرنا ذلك في هذا الكتاب، وهذا النوع الإنساني هو من جملة الأنواع ولله فيه خصائص وصفوة، وأعلى الخواص فيه من العباد الرسل عليهم السلام ولهم مقام النبوّة والولاية والإيمان، فهم أركان بيت هذا النوع، والرسول أفضلهم مقاماً وأعلاهم حالاً أي المقام الذي يرسل منه أعلى منزلة عند الله من سائر المقامات وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم كما يحفظ البيت بأركانه، فلو زال ركن منها زال كون البيت بيتاً، ألا إن البيت هو الدين، ألا إن أركانه هي الرسالة والنبوّة والولاية والإيمان، ألا إن الرسالة هي الركن الجامع للبيت وأركانه، ألا إنها هي المقصودة من هذا النوع فلا يخلو هذا النوع أن يكون فيه رسول من رسل الله، كما لا يزال الشرع الذي هو دين الله فيه، ألا إن ذلك الرسول هو القطب المشار إليه الذي ينظر الحق إليه فيبقى به هذا النوع في هذه الدار ولو كفر الجميع، إلاَّ أن الإنسان لا يصح عليه هذا الاسم إلاَّ أن يكون ذا جسم طبيعيّ وروح، ويكون موجوداً في هذه الدار الدنيا بجسده وحقيقته، فلا بدّ أن يكون الرسول الذي يحفظ الله به هذا النوع الإنساني موجوداً في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذى، وهو مجلّي الحق من آدم إلى يوم القيامة.

ولما كان الأمر على ما ذكرناه ومات رسول الله ﷺ بعدما قرّر الدين الذي لا ينسخ

والشرع الذي لا يبدّل، ودخلت الرسل كلهم في هذه الشريعة يقومون بها، والأرض لا تخلو من رسول حيّ بجسمه، فإنه قطب العالم الإنساني، ولو كانوا ألف رسول لا بدّ أن يكون الواحد من هؤلاء هو الإمام المقصود، فأبقى الله تعالىٰ بعد رسول الله ﷺ من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار الدنيا ثلاثة وهم: إدريس عليه السلام بقي حياً بجسده وأسكنه الله السماء الرابعة والسموات السبع هنّ من عالم الدنيا وتبقى ببقائها وتفنى صورتها بفنائها فهي جزء من الدار الدنيا، فإن الدار الأخرى تبدّل فيها السموات والأرض بغيرهما كما تبدّل هذه النشأة الترابية منّا نشآت أخر غير هذه كما وردت الأخبار في السعداء من الصفاء والرقة واللطافة، فهي نشآت طبيعية جسمية لا تقبل الأثقال، فلا يغوطون ولا يبولون ولا يتمخطون كما كانت هذه النشأة الدنياوية، وكذلك أهل الشقاء. وأبقى في الأرض أيضاً إلياس وعيسىٰ وكلاهما من المرسلين وهما قائمان بالدين الحنيفيّ الذي جاء به محمد ﷺ، فهؤلاء ثلاثة من الرسل المجمع عليهم أنهم رسل. وأما الخضر وهو الرابع فهو من المختلف فيه عند غيرنا لا عندنا، فهؤلاء باقون بأجسامهم في الدار الدنيا فكلهم الأوتاد، واثنان منهم الإمامان وواحد منهم القطب الذي هو موضع نظر الحق من العالم، فما زال المرسلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة، وإن لم يبعثوا بشرع ناسخ ولا هم على غير شرع محمد ﷺ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٨].

والواحد من هؤلاء الأربعة الذين هم: عيسىٰ وإلياس وإدريس وخضر هو القطب، وهو أحد أركان بيت الدين، وهو ركن الحجر الأسود، واثنان منهم هما الإمامان، وأربعتهم هم الأوتاد، فبالواحد يحفظ الله الإيمان، وبالثاني يحفظ الله الولاية، وبالثالث يحفظ الله النبوّة، وبالرابع يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفيّ. فالقطب من هؤلاء لا يموت أبداً أي لا يصعق.

وهذه المعرفة التي أبرزنا عينها للناظرين لا يعرفها من أهل طريقنا إلاّ الأفراد الأمناء، ولكل واحد من هؤلاء الأربعة من هذه الأمّة في كل زمان شخص على قلوبهم مع وجودهم هم نوّابهم، فأكثر الأولياء من عامّة أصحابنا لا يعرفون القطب والإمامين والوتد إلاّ النوّاب لا هؤلاء المرسلون الذين ذكرناهم، ولهذا يتطاول كل واحد من الأمّة لنيل هذه المقامات، فإذا حصلوا أو خصّوا بها عرفوا عند ذلك أنهم نوّاب لذلك القطب، ونائب الإمام يعرف أن الإمام غيره وأنه نائب عنه وكذلك الوتد. فمن كرامة رسول الله ﷺ محمد أن جعل من أمّته وأتباعه رسلاً وإن لم يرسلوا فهم من أهل المقام الذي منه يرسلون وقد كانوا أرسلوا فاعلم ذلك، ولهذا صلّى رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بالأنبياء عليهم السلام في السموات لتصحّ له الإمامة على الجميع حساً بجسمانيته وجسمه، فلما انتقل ﷺ بقي الأمر محفوظاً بهؤلاء الرسل، فثبت الدين قائماً بحمد الله ما انهدم منه ركن إذ كان له حافظ يحفظه وإن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه نكتة فاعرف قدرها فإنك لست تراها في كلام أحد منقول عنه أسرار هذه الطريقة

غير كلامنا. ولولا ما ألقى عندي في إظهارها ما أظهرتها لسر يعلمه الله ما أعلمنا به، ولا يعرف ما ذكرناه إلاّ نوّابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء. فاحمدوا الله يا إخواننا حيث جعلكم الله ممّن قرع سمعه أسرار الله المخبوّة في خلقه التي اختصّ الله بها من شاء من عباده، فكونوا لها قابلين مؤمنين بها ولا تحرموا التصديق بها فتحرموا خيرها. قال أبو يزيد البسطاميّ وهو أحد النوّاب لأبي موسىٰ الديبليّ: يا أبا موسىٰ إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة. وسمعت شيخنا أبا عمران موسىٰ بن عمران الميرتلي بمنزله بمسجد الرضى بأشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين لا نرى ذلك من نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا، وما ثم دليل يردّه ولا قادح يقدح فيه شرعاً وعقلاً، ثم استشهدني على ما ذكره، وكان أبو القاسم يعتقد فينا فقرّرت عنده ما قاله بدليل يسلمه من مذهبه فإنه كان محدّثاً فشرح الله صدره للقبول وشكرني الشيخ ودعا لي.

واعلم أن رجال الله في هذه الطريقة هم المسمّون بعالم الأنفاس وهو اسم يعمّ جميعهم، وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة، فمنهم من تجمّع له الحالات كلها والطبقات. ومنهم من يحصل من ذلك ما شاء الله، وما من طبقة إلاّ لها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات التي يظهرون عليها في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٣] كل طائفة في جنسها. ومنهم من يحصره عدد في كل زمان. ومنهم من لا عدد له لازم فيقلّون ويكثرون. ولنذكر منهم أهل الأعداد ومن لا عدد لهم بألقابهم إن شاء الله تعالىٰ.

فمنهم رضي الله عنهم الأقطاب وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو بالنيابة كما ذكرنا، وقد يتوسعون في هذا الإطلاق فيسمون قطباً كل من دار عليه مقام ما من المقامات وانفرد به في زمانه على أبناء جنسه، وقد يسمّى رجل البلد قطب ذلك البلد وشيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، ولكن الأقطاب المصطلح على أن يكون لهم هذا الاسم مطلقاً من غير إضافة لا يكون منهم في الزمان إلاّ واحد وهو الغوث أيضاً وهو من المقرّبين وهو سيد الجماعة في زمانه.

ومنهم من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة، كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن ومعاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز والمتوكل. ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة ولا حكم له في الظاهر كأحمد بن هارون الرشيد السبتيّ وكأبي يزيد البسطاميّ، وأكثر الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر. ومنهم رضي الله عنهم الأئمة ولا يزيدون في كل زمان على اثنين لا ثالث لهما الواحد عبد الرب والآخر عبد الملك والقطب عبد الله، قال تعالىٰ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجن: الآية ١٩] يعني محمداً ﷺ فلكل رجل اسم إلهيّ يخصّه به يدعى عبد الله، ولو كان اسمه ما كان فالأقطاب كلهم عبد الله، والأئمة في كل زمان عبد الملك وعبد الرب وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات، وهما للقطب بمنزلة الوزيرين الواحد منهم مقصور على مشاهدة عالم الملكوت والآخر مع عالم الملك.

ومنهم رضي الله عنهم الأوتاد وهم أربعة في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، رأينا منهم شخصاً بمدينة فاس يقال له ابن جعدون كان ينخل الحناء بالأجرة، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، والتقسيم من الكعبة، وهؤلاء قد يعبر عنهم الجبال لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ: ٦ ـ ٧] فإنه بالجبال سكن ميد الأرض، كذلك حكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض، وإلى مقامهم الإشارة بقوله تعالىٰ عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] فيحفظ الله بالأوتاد هذه الجهات، وهم محفوظون من هذه الجهات، فليس للشيطان عليهم سلطان، إذ لا دخول له على بني آدم إلاّ من هذه الجهات. وأما الفوق والتحت فربما يكون للستة التي نذكر أمرهم بعد هذا إن شاء الله، وكل ما نذكره من هؤلاء الرجال باسم الرجال فقد يكون منهم النساء ولكن يغلب ذكر الرجال، قيل لبعضهم: كم الأبدال؟ فقال: أربعون نفساً، فقيل له: لم لا تقول أربعون رجلاً؟ فقال: قد يكون فيهم النساء ألقابهم عبد الحيّ وعبد العليم وعبد القادر وعبد المريد.

ومنهم رضي الله عنهم الأبدال وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم فيه ولايته الواحد منهم على قدم الخليل عليه السلام وله الإقليم الأول وأسوقهم على الترتيب إلى صاحب الإقليم السابع. والثاني: على قدم الكليم عليه السلام. والثالث: على قدم هارون. والرابع: على قدم إدريس. والخامس: على قدم يوسف. والسادس: على قدم عيسىٰ. والسابع: على قدم آدم على الكل السلام، وهم عارفون بما أودع الله سبحانه في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزولها في المنازل المقدّرة. ولهم من الأسماء أسماء الصفات فمنهم: عبد الحيّ وعبد العليم وعبد الودود وعبد القادر وهذه الأربعة هي أربعة أسماء الأوتاد. ومنهم: عبد الشكور وعبد السميع وعبد البصير لكل صفة إلهية رجل من هؤلاء الأبدال بها ينظر الحق إليهم وهي الغالبة عليه، وما من شخص إلاّ وله نسبة إلى اسم إلهي منه يتلقى ما يكون عليه من أسباب الخير، وهم بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهيّ من الشمول والإحاطة، فعلى تلك الموازنة يكون علم هذا الرجل، وسمّوا هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يخلفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرونه مصلحة وقربة يتركوا به شخصاً على صورته لا يشك أحد ممّن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل وليس هو بل هو شخص روحاني يتركه بدله بالقصد على علم منه، فكل من له هذه القوّة فهو البدل، ومن يقيم الله عنه بدلاً في موضع ما ولا علم له بذلك فليس من الأبدال المذكورين، وقد يتفق ذلك كثيراً، عايناه ورأيناه ورأينا هؤلاء السبعة الأبدال بمكة لقيناهم خلف حطيم الحنابلة وهنالك اجتمعنا بهم فما رأيت أحسن سمتاً منهم، وكنا قد رأينا منهم موسىٰ السدّراتي بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل إلينا بالقصد واجتمع بنا ورأينا منهم شيخ الجبال محمد بن أشرف الرنديّ، ولقي منهم صاحبنا عبد المجيد بن سلمة شخصاً اسمه معاذ بن أشرس كان من كبارهم وبلغني سلامه

علينا، سأله عبد المجيد هذا عن الأبدال بماذا كانت لهم هذه المنزلة؟ فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب المكيّ يعني: الجوع والسهر والصمت والعزلة، وقد يسمّون الرجبيين أبدالاً وهم أربعون، وقد يسمّون الاثني عشر أيضاً أبدالاً، وسيأتي ذكر هؤلاء في الرجال المعدودين. فمن رأى الرجبيين قال: إن الأبدال أربعون نفساً فإنهم أربعون.

ومنهم رضي الله عنهم النقباء وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثني عشر برجاً، كل نقيب عالم بخاصية كل برج، وبما أودع الله في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت فإن للثوابت حركات وقطعاً في البروج لا يشعر به في الحسّ، لأنه لا يظهر ذلك إلاّ في آلاف من السنين، وأعمار أهل الرصد تقصر عن مشاهدة ذلك.

واعلم أن الله قد جعل بأيدي هؤلاء النقباء علوم الشرائع المنزّلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها ومعرفة مكرها وخداعها. وأما إبليس فمكشوف عندهم يعرفون منه ما لا يعرفه من نفسه، وهم من العلم بحيث إذا رأى أحدهم أثر وطأة شخص في الأرض علم أنها وطأة سعيد أو شقيّ مثل العلماء بالآثار والقيافة، وبالديار المصرية منهم كثير يخرجون الأثر في الصخور، وإذا رأوا شخصاً يقولون: هذا الشخص هو صاحب ذلك الأثر، ويكون كذلك وليسوا بأولياء الله، فما ظنك بما يعطيه الله هؤلاء النقباء من علوم الآثار. ومنهم رضي الله عنهم النجباء وهم ثمانية في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم الذين تبدو منهم وعليهم إعلام القبول من أحوالهم وإن لم يكن لهم في ذلك اختيار، لكن الحال يغلب عليهم ولا يعرف ذلك منهم إلاّ من هو فوقهم لا من هو دونهم، وهم أهل علم الصفات الثمانية السبع المشهورة والإدراك الثامن ومقامهم الكرسي لا يتعدّوه ما داموا نجباء، ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطّلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع، والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه وهي كل فلك فيه كوكب.

ومنهم رضي الله عنهم الحواريون وهو واحد في كل زمان لا يكون فيه اثنان فإذا مات ذلك الواحد أقيم غيره. وكان في زمان رسول الله ﷺ الزبير بن العوّام هو كان صاحب هذا المقام مع كثرة أنصار الدين بالسيف، فالحواريّ من جمع في نصرة الدين بين السيف والحجة فأعطي العلم والعبارة والحجة، وأعطي السيف والشجاعة والإقدام ومقاومة التحدّي في إقامة الحجة على صحة الدين المشروع كالمعجزة التي للنبي، فلا يقوم بعد رسول الله ﷺ بدليله الذي يقيمه على صدقه فيما ادّعاه إلاّ حواريه، فهو يرث المعجزة ولا يقيمها إلاّ على صدق نبيّه ﷺ، هذا مقام الحواريّ، ويبقى عليها اسم المعجزة أعني على تلك الدلالة فإنه يقترن بها مع الحواريّ ما يقترن بها مع النبيّ ﷺ، ويضيفها إلى النبيّ كما يضيفها النبيّ إلى نفسه، ولا يسمّى مثل هذا كرامة لوليّ لأنه ما كان معجزة النبيّ على حدّها وشمول لوازمها لا يكون ذلك أبداً كرامة لوليّ، وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني ولكن على غير هذا الوجه

الذي أومأنا إليه، فإن أبا إسحاق يحيل وقوع عين الفعل المعجز وأكثر المتكلمين لا يحيله أن يكون كرامة لا على طريق الإعجاز، فإذا وقع من الشخص على حد ما وقع من النبيّ بطريق الإعجاز لصدق ذلك النبيّ من هذا التابع فإنه يقع ولا بدّ، وهذا لا يكون إلاّ من الحواريّ خاصة، فمن ظهر منه مثل هذا على حد ما رسمناه فهو حواريّ ذلك العصر، وقد رأيناه في زماننا سنة ست وثمانين وخمسمائة فهذا هو المسمّى بالحواريّ.

ومنهم رضي الله عنهم الرجبيون وهم أربعون نفساً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله وهم من الأفراد، وهم أرباب القول الثقيل من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٥] وسمّوا رجبيون لأن حال هذا المقام لا يكون لهم إلاّ في شهر رجب من أول استهلال هلاله إلى انفصاله، ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية، وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق وهم متفرّقون في البلاد، ويعرف بعضهم بعضاً منهم من يكون باليمن وبالشام وبديار بكر لقيت واحداً منهم بدنيسير من ديار بكر ما رأيت منهم غيره وكنت بالأشواق إلى رؤيتهم، ومنهم من يبقى عليه في سائر السنة أمر ما ممّا كان يكاشف به في حاله في رجب، ومنهم من لا يبقى عليه شيء من ذلك، وكان هذا الذي رأيته قد أبقى عليه كشف الروافض من أهل الشيعة سائر السنّة فكان يراهم خنازير فيأتي الرجل المستور الذي لا يعرف منه هذا المذهب قط وهو في نفسه مؤمن به يدين به ربّه فإذا مرّ عليه يراه في صورة خنزير فيستدعيه ويقول له: تب إلى الله فإنك شيعيّ رافضيّ، فيبقى الآخر متعجباً من ذلك، فإن تاب وصدق في توبته رآه إنساناً، وإن قال له بلسانه تبت وهو يضمر مذهبه لا يزال يراه خنزيراً فيقول له: كذبت في قولك تبت، وإذا صدق يقول له: صدقت فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي. ولقد جرى لهذا مثل هذا مع رجلين عاقلين من أهل العدالة من الشافعية ما عرف منهما قط التشيع ولم يكونا من بيت التشيع أدّاهما إليه نظرهما وكانا متمكنين من عقولهما فلم يظهرا ذلك وأصرّا عليه بينهما وبين الله فكانا يعتقدان السوء في أبي بكر وعمر ويتغاليان في عليّ، فلما مرّا به ودخلا عليه أمر بإخراجهما من عنده، فإنّ الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير، وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب، وكانا قد علما من نفوسهما أنّ أحداً من أهل الأرض ما اطلع على حالهما وكانا شاهدين عدلين مشهورين بالسنّة فقالا له في ذلك فقال: أراكما خنزيرين وهي علامة بيني وبين الله فيمن كان مذهبه هذا، فأضمرا التوبة في نفوسهما فقال لهما: إنكما الساعة قد رجعتما عن ذلك المذهب فإني أراكما إنسانين، فتعجبا من ذلك وتابا إلى الله.

وهؤلاء الرجبيون أول يوم يكون في رجب يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرون على أن يطرفوا ولا يتحرّك فيهم جارحة، ويضطجعون فلا يقدرون على حركة أصلاً ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين يبقى ذلك عليهم أول يوم ثم يخف في ثاني يوم قليلاً، وفي ثالث يوم أقل، وتقع له الكشوفات والتجليات

والاطلاع على المغيبات، ولا يزال مضطجعاً مسجّى يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويتكلم معه ويقال له إلى أن يكمل الشهر، فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان قام كأنما نشط من عقال، فإن كان صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله وسلب عنه جميع حاله كله إلاّ من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك شيء أبقاه الله عليه، هذا حالهم وهو حال غريب مجهول السبب، والذي اجتمعت به منهم كان في شهر رجب وكان في هذه الحال.

ومنهم رضي الله عنهم الختم وهو واحد لا في كل زمان بل هو واحد في العالم يختم الله به الولاية المحمدية فلا يكون في الأولياء المحمديين أكبر منه، وثم ختم آخر يختم الله به الولاية العامّة من آدم إلى آخر وليّ وهو عيسىٰ عليه السلام هو ختم الأولياء كما كان ختم دورة الملك فله يوم القيامة حشران يحشر في أمّة محمد ﷺ ويحشر رسولاً مع الرسل عليهم السلام.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثمائة نفس على قلب آدم عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون. فاعلم أن معنى قول النبيّ عليه السلام في حق هؤلاء الثلاثمائة أنهم على قلب آدم، وكذلك قوله عليه السلام في غير هؤلاء ممّن هو على قلب شخص من أكابر البشر أو الملائكة إنما معناه أنهم يتقلبون في المعارف الإلهية تقلب ذلك الشخص، إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب، فكل علم برد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول فإنه يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه، وربما يقول بعضهم: فلان على قدم فلان وهو بهذا المعنى نفسه، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء الثلاثمائة أنهم على قلب آدم، وما ذكر ﷺ أنهم ثلاثمائة في أمته فقط أو هم في كل زمان، وما علمنا أنهم في كل زمان إلاّ من طريق الكشف وأن الزمان لا يخلو عن هذا العدد، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثمائة من الأخلاق الإلهية ثلاثمائة خلق إلهيّ من تخلق بواحد منها صحت له السعادة، وهؤلاء هم المجتبون المصطفون، ويستحبون من الدعاء ما ذكره الحق سبحانه في كتابه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] فمنهم ظالم لنفسه وهو آدم ومن كان بهذه المثابة، ولهذه الطائفة من الزمان الثلاثمائة من السنين التي ذكر الله أنها لبثها أهل الكهف وكانت شمسية ولهذا قال: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٥] فإن الثلاثمائة سنة الشمسية تكون من سني القمر ثلاثمائة وتسع سنين على التقريب، وكل سنة تمام الزمان بفصوله، وهذه الجملة قريبة من ثلث يوم واحد من أيام الرب ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] فإذا أخذ العارف في مشهد من مشاهد الربوبية حصل في مقدار يومها في تلك اللحظة من العلوم الإلهية ما يحصل غيره في عالم الحسّ مع الاجتهاد والتهيؤ من العلوم الإلهية في ألف سنة من هذه السنين المعلومة، وعلى هذا المجرى يكون ما يحصله واحد من هؤلاء الثلاثمائة من العلوم الإلهية إذا اختطف عن نفسه وحصره يوم من أيام الرب، ولا يعرف قدر ما ذكرناه وشرفه إلاّ من ذاقه وانطوى الزمان في حقّه في تلك اللحظة كما

تنطوي المسافة والمقادير في حق البصر إذا فتحه فوقع نظره على فلك الكواكب الثابتة في زمان فتح عينه اتصلت أشعته بأجرام تلك الكواكب.

فانظر إلى هذا البعد وانظر إلى هذه السرعة، وكذلك تعلق إدراك السمع في الزمان الذي يكون فيه الصوت فيه يكون إدراك السمع له مع البعد العظيم، فإن تفطنت لهذا الذي أشرنا إليه علمت معنى رؤيتك ربك مع نفي التحيّز والجهات، وعلمت الرائي منك والمرئيّ والرؤية، وكذلك السامع والسمع والمسموع، وهذه الطبقة هي التي علمت الأسماء الإلهية التي توجهت على الأشياء المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] إذ كان الإنباء بالأسماء عين الثناء على المسمى، والناس يأخذون هذه الآية على أن الأسماء هي أسماء المشار إليهم من حيث دلالتها عليهم كدلالة زيد في علميته على شخص زيد وعمرو على شخص عمرو، وأي فخر في ذلك على الموصوفين بالعلم وهم الملائكة وما تفطن الناس لقولهم نسبح بحمدك وقد فاتهم من أسماء الله تعالىٰ ما توجهت على هؤلاء المشار إليهم. انتهى الجزء الخامس والسبعون.

(الجزء السادس والسبعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ومنهم رضي الله عنهم أربعون شخصاً على قلب نوح عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، هكذا ورد الخبر عن رسول الله ﷺ في هذه الطبقة أنّ في أمّته أربعين على قلب نوح عليه السلام وهو أول الرسل، والرجال الذين هم على قلبه صفتهم القبض، ودعاؤهم دعاء نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٨] ومقام هؤلاء الرجال مقام الغيرة الدينية وهو مقام صعب المرتقى فإنه صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللّٰه غَيورٌ وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ**»، فثبت من هذا الخبر أن الفاحشة هي فاحشة لعينها ولهذا حرّمها، قيل لمحمد عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٣] أي ما علم وما لم يعلم إلاّ بالتوقيف لغموض إدراك الفحش، فكل محرّم حرّمه الله على عباده فهو فحش، وما هو عين ما أحلّه في زمان آخر ولا في شرع آخر فهذا هو الذي بطن علمه، فإنّ الخمر التي أحلّت له ما هي التي حرمت عليه ومنع من شربها، فعلل الأحكام قد تكون أعيان الأشياء، ومذاهب أهل الكلام في ذلك مختلفة، والذي يعطيه الكشف تقرير المذهبين، فإنّ المكاشف يحكم بحسب الحضرة التي منها يكاشف فإنها تعطيه بذاتها ما هي عليه، ومن هنا كان مقام الغيرة مقام حيرة صعب المرتقى، ولا سيما والحق وصف بها نفسه على لسان رسوله ﷺ وهي من صفات القلوب والباطن وهي تستدعي إثبات المغاير، ولا غير على الحقيقة إلاّ أعيان الممكنات من حيث ثبوتها لا من حيث وجودها، فالغيرة تظهر من ثبوت أعيان الممكنات، وعدم الغيرة من وجود أعيان الممكنات، فالله غيور من حيث قبول الممكنات للوجود، فمن هناك حرّم الفواحش ما

ظهر منها وما بطن وما ثَمَّ إلاّ ظاهر أو باطن، والغيرة قد انسحبت على الجميع، ثم إنها في جبلة الحيوانات ولا يشعر لحكمها، فمن غار عقلاً كان مشهوده ثبوت الأعيان، ومن غار شرعاً كان مشهوده وجود الأعيان، وهؤلاء الأربعون هم رجال هذا المقام، وحقيقة مقام ميقات موسىٰ أربعون ليلة لهؤلاء الأربعين، فالليل منها لما بطن والنهار منها لما ظهر ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٢] فأضاف الميقات إلى الربّ، فعلمنا أنّ قوله ﷺ: «**وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي**» أنّ الاسم الله هنا يريد به الاسم الرب، لأنه لا يصحّ أن يطلق الاسم الله من غير تقييد من طريق المعنى، فإنّ الأحوال تقيد هذا الإطلاق باسم خاص يطلبه الحال، فالغيرة للاسم الرب وإن وصف بها الاسم الله.

ولما كانت المكالمة والتجلّي عقيب تمامها لذلك ظهر بتمام هؤلاء الأربعين رجل في العالم مقامه مقام أبيه نوح فإنه الأب الثاني على ما ذكر، وكل ما تفرّق في هؤلاء الأربعين اجتمع في نوح، كما أنه كلما تفرّق في الثلاثمائة اجتمع في آدم، وعلى معارج هؤلاء الأربعين عملت الطائفة الأربعينيات في خلواتهم لم يزيدوا على ذلك شيئاً وهي خلوات الفتح عندهم، ويحتجون على ذلك بالخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ**» كما كانت المكالمة في التجلّي عن مقدّمة الميقات الأربعينيّ الرباني.

ومنهم رضي الله عنهم سبعة على قلب الخليل إبراهيم عليه السلام لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ورد به الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ ودعاؤهم دعاء الخليل: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٣] ومقامهم السلام من جميع الريب والشكوك، وقد نزع الله الغل من صدورهم في هذه الدنيا وسلم الناس من سوء ظنّهم إذ ليس لهم سوء ظنّ بل ما لهم ظنّ فإنهم أهل علم صحيح، فإنّ الظنّ إنما يقع ممّن لا علم له فيما لا علم له به بضرب من الترجيح، فلا يعلمون من الناس إلاّ ما هم عليه الناس من الخير، وقد أرسل الله بينهم وبين الشرور التي همَّ عليها الناس حجاباً وأطلعهم على النسب التي بين الله وبين عباده، ونظر الحق إلى عباده بالرحمة التي أوجدهم بها، فكل خير في الخلق من تلك الرحمة فذلك هو المشهود لهم من عباد الله. ولقد لقيتهم يوماً وما رأيت أحسن سمتاً منهم علماً وحلماً إخوان صدق على سرر متقابلين قد عجلت لهم جناتهم المعنوية الروحانية في قلوبهم مشهودهم من الخلق تصريف الحق من حيث هو وجود لا من حيث تعلّق حكم به.

ومنهم رضي الله عنهم خمسة على قلب جبريل عليه السلام لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ورد بذلك الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ هم ملوك أهل هذه الطريقة، لهم من العلوم على عدد ما لجبريل من القوىٰ المعبر عنها بالأجنحة التي بها يصعد وينزل، لا يتجاوز علم هؤلاء الخمسة مقام جبريل وهو الممد لهم من الغيب ومعه يقفون يوم القيامة في الحشر.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة على قلب ميكائيل عليه السلام لهم الخير المحض والرحمة

والحنان والعطف، والغالب على هؤلاء الثلاثة البسط والتبسّم ولين الجانب والشفقة المفرطة ومشاهدة ما يوجب الشفقة ولا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان، ولهم من العلوم على قدر ما لميكائيل من القوىٰ.

ومنهم رضي الله عنهم واحد على قلب إسرافيل عليه السلام في كل زمان وله الأمر ونقيضه جامع للطرفين، ورد بذلك خبر مرويّ عن رسول الله ﷺ له علم إسرافيل وكان أبو يزيد البسطامي منهم ممّن كان على قلب إسرافيل، وله من الأنبياء عيسىٰ عليه السلام، فمن كان على قلب عيسىٰ عليه السلام فهو على قلب إسرافيل، ومن كان على قلب إسرافيل قد لا يكون على قلب عيسىٰ، وكان بعض شيوخنا على قلب عيسىٰ وكان من الأكبار.

وصل: وأما رجال عالم الأنفاس رضي الله عنهم فأنا أذكرهم وهم على قلب داود عليه السلام ولا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان وإنما نسبناهم إلى قلب داود وقد كانوا موجودين قبل ذلك بهذه الصفة، فالمراد بذلك أنه ما تفرّق فيهم من الأحوال والعلوم والمراتب اجتمع في داود، ولقيت هؤلاء العالم كلهم ولازمتهم وانتفعت بهم وهم على مراتب لا يتعدّونها بعدد مخصوص لا يزيد ولا ينقص وأنا ذاكرهم إن شاء الله تعالىٰ. فمنهم رضي الله عنهم رجال الغيب وهم عشرة لا يزيدون ولا ينقصون هم أهل خشوع فلا يتكلمون إلاّ همساً لغلبة تجلي الرحمن عليهم دائماً في أحوالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٨] وهؤلاء هم المستورون الذين لا يعرفون خبأهم الحق في أرضه وسمائه فلا يناجون سواه ولا يشهدون غيره ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] دأبهم الحياء، إذا سمعوا أحداً يرفع صوته في كلامه ترعد فرائصهم ويتعجبون، وذلك أنهم لغلبة الحال عليهم يتخيلون أن التجلّي الذي أورث عندهم الخشوع والحياء يراه كل أحد، ورأوا أنّ الله قد أمر عباده أن يغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٢] وإذا كنا نهينا وتحبط أعمالنا برفع أصواتنا على صوت رسول الله ﷺ إذا تكلم وهو المبلغ عن الله فغض أصواتنا عندما نسمع تلاوة القرآن آكد والله يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وهذا هو مقام رجال الغيب وحالهم الذي ذكرناه، فيمتاز الحديث النبويّ من القرآن بهذا القدر، ويمتاز كلامنا من الحديث النبويّ بهذا القدر، وأما أهل الورع إذا اتفقت بينهم مناظرة في مسألة دينية فيذكر أحد الخصمين حديثاً عن رسول الله ﷺ خفض الخصم صوته عند سرد الحديث، هذا هو الأدب عندهم إذا كانوا أهل حضور مع الله وطلبوا العلم لوجه الله. فأما علماء زماننا اليوم فما عندهم خير ولا حياء لا من الله ولا من رسول الله، إذا سمعوا الآية أو الحديث النبويّ من الخصم لم يحسنوا الإصغاء إليه ولا أنصتوا وداخلوا الخصم في تلاوته أو حديثه وذلك لجهلهم وقلة ورعهم عصمنا الله من أفعالهم.

واعلم أنّ رجال الغيب في اصطلاح أهل الله يطلقونه ويريدون به هؤلاء الذين ذكرناهم وهي هذه الطبقة، وقد يطلقونه ويريدون به من يحتجب عن الأبصار من الإنس، وقد يطلقونه أيضاً ويريدون به رجالاً من الجنّ من صالحي مؤمنيهم، وقد يطلقونه على القوم الذين لا يأخذون شيئاً من العلوم والرزق المحسوس من الحسّ ولكن يأخذونه من الغيب.

ومنهم رضي الله عنهم ثمانية عشر نفساً أيضاً هم الظاهرون بأمر الله عن أمر الله لا يزيدون ولا ينقصون. في كل زمان ظهورهم. بالله قائمون بحقوق الله مثبتون الأسباب خرق العوائد عندهم عادة آيتهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] وأيضاً: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٨] كان منهم شيخنا أبو مدين رحمه الله كان يقول لأصحابه: أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة يعني خرق العوائد والباطنة يعني المعارف فإن الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [سورة الضحى: الآية ١١] وقال عليه السلام: «التَّحَدُّثُ بِالنِّعَم شُكْرٌ» وكان يقول بلسان أهل هذا المقام: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٠] ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤١] هم على مدارج الأنبياء والرسل لا يعرفون إلاّ الله ظاهراً وباطناً، وهذه الطبقة اختصّت باسم الظهور لكونهم ظهروا في عالم الشهادة، ومن ظهر في عالم الشهادة فقد ظهر بجميع العالم، فكانوا أولى بهذا اللقب من غيرهم.

كان سهل بن عبد الله يقول في رجال الغيب الأول: الرجل من يكون في فلاة من الأرض فيصلي فينصرف من صلاته فينصرف معه أمثال الجبال من الملائكة على مشاهدة منه إياهم فقلت لحاكي هذه الحكاية عن سهل: الرجل من يكون وحده في الفلاة فيصلي فينصرف من صلاته بالحال الذي هو في صلاته فلا ينصرف معه أحد من الملائكة فإنهم لا يعرفون أين يذهب، فهؤلاء هم عندنا رجال الغيب على الحقيقة لأنهم غابوا عنده، فإنّ رجال الغيب قسمان في الظهور: منهم رجال غيب عن الأرواح العلى ظاهرون لله لا لمخلوق رأساً، ورجال غيب عن عالم الشهادة ظاهرون في العالم الأعلى، فرجال الغيب أيضاً أهل ظهور ولكن لا في عالم الشهادة. فاعلم أن الظاهرين بأمر الله لا يرون سوى الله في الأكوان، وأن الأكوان عندهم مظاهر الحق فهم أهل علانية وجهر فكل طبقة عاشقة لمقامها تذب عنه ولهذا لا تعرف منزلة مقامها من المقامات حتى تفارقه، فإذا نظرت إليه نظر الأجنبيّ المفارق حينئذ تعرفه فقبل أن تحصل فيه يكون معلوماً لها من حيث الجملة وترى علوّ منصبه، فإذا دخلت فيه كان ذوقاً لها وشرباً فيحجبها كونها فيه عن التمييز، فإذا ارتقت عنه نظرت إليه بعد ذوق فكانت عارفة بقدره بين المقامات ومرتبته فيقبل كلام هذا الشخص فيه لأنه تكلم عن ذوق وكان شهوده إياه عن صحو فتقبل شهادته لذلك المقام وعليه كما قبلنا شهادة الشبليّ، وقوله في الحلاج ولم نقبل قول الحلاج في نفسه ولا في الشبليّ لأنّ الحلاج سكران والشبلي صاح.

ومنهم رضي الله عنهم ثمانية رجال يقال لهم رجال القوّة الإلهية آيتهم من كتاب الله

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] لهم من الأسماء الإلهية ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] جمعوا ما بين علم ما ينبغي أن تعلم به الذات الواجبة الوجود لنفسها من حيث هي، وبين علم ما ينبغي أن يعلم به من حيث ما هي إله فقدمها عزيز في المعارف لا تأخذهم في الله لومة لائم، وقد يسمّون رجال القهر، لهم همم فعالة في النفوس وبهذا يعرفون، كان بمدينة فاس منهم رجل واحد يقال له أبو عبد الله الدقاق كان يقول: ما اغتبت أحداً قط ولا اعتيب بحضرتي أحد قط، ولقيت أنا منهم ببلاد الأندلس جماعة لهم أثر عجيب وكل معنى غريب وكان بعض شيوخي منهم، ومن نمط هؤلاء رضي الله عنهم خمسة رجال في كل زمان أيضاً لا يزيدون ولا ينقصون هم على قدم هؤلاء الثمانية في القوّة، غير أنّ فيهم ليناً ليس للثمانية، وهم على قدم الرسل في هذا المقام، قال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فهم مع قوّتهم لهم لين في بعض المواطن. وأمّا في العزائم فهم في قوّة الثمانية على السواء ويزيدون عليهم بما ذكرناه ممّا ليس للثمانية، وقد لقينا منهم رضي الله عنهم وانتفعنا بهم.

ومنهم رضي الله عنهم خمسة عشر نفساً هم رجال الحنان والعطف الإلهيّ، آيتهم من كتاب الله آية الريح السليمانية تجري بأمره رخاء حيث أصاب لهم شفقة على عباد الله، مؤمنهم وكافرهم ينظرون الخلق بعين الجود والوجود لا بعين الحكم والقضاء، لا يولي الله منهم قط أحداً ولاية ظاهرة من قضاء أو ملك لأن ذوقهم ومقامهم لا يحتمل القيام بأمر الخلق فهم مع الحق في الرحمة المطلقة التي قال الله فيها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] لقيت منهم جماعة وماشيتهم على هذا القدم وانتقلت منهم إلى الخمسة التي ذكرناهم آنفاً فإنّ مقام هؤلاء الخمسة بين رجال القوّة ورجال الحنان فجمعت بين الطرفين فكانت واسطة العقد وهي الطائفة التي تصلح لهم ولاية الأحكام في الظاهر، وهاتان الطائفتان رجال القوّة ورجال الحنان لا يكون منهم وال أبداً أمور العباد ولا يستخلف منهم أحد جملة واحدة.

ومنهم رضي الله عنهم أربعة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وآيتهم أيضاً في سورة تبارك الملك ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [سورة الملك: الآية ٣] هم رجال الهيبة والجلال: [البسيط]

كأنما الطيرُ منهم فوقَ أرؤسهم ... لا خَوْفَ ظُلمٍ ولكن خَوْفَ إجلالِ

وهم الذين يمدّون الأوتاد الغالب على أحوالهم الروحانية، قلوبهم سماوية، مجهولون في الأرض، معروفون في السماء الواحد من هؤلاء الأربعة هو ممّن استثنى الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] والثاني له العلم بما لا يتناهى وهو مقام عزيز يعلم التفصيل في المجمل وعندنا ليس في علمه مجمل، والثالث له الهمة الفعالة في الإيجاد ولكن لا يوجد عنه شيء، والرابع توجد عنه الأشياء وليس له إرادة فيها ولا همة متعلقة بها أطبق العالم الأعلى على علوّ مراتبهم،

أحدهم على قلب محمد ﷺ والآخر على قلب شعيب عليه السلام، والثالث على قلب صالح عليه السلام، والرابع على قلب هود عليه السلام، ينظر إلى أحدهم من الملأ الأعلى عزرائيل، وإلى الآخر جبرائيل، وإلى الآخر ميكائيل، وإلى الآخر إسرافيل. أحدهم يعبد الله من حيث نسبة العماء إليه، والثاني يعبد الله من حيث نسبة العرش إليه، والثالث يعبد الله من حيث نسبة السماء إليه، والرابع يعبد الله من حيث نسبة الأرض إليه. فقد اجتمع في هؤلاء الأربعة عبادة العالم كله، شأنهم عجيب وأمرهم غريب، ما لقيت فيمن لقيت مثلهم، لقيتهم بدمشق فعرفت أنهم هم وقد كنت رأيتهم ببلاد الأندلس واجتمعوا بي ولكن لم أكن أعلم أن لهم هذا المقام بل كانوا عندي من جملة عباد الله، فشكرت الله على أن عرّفني بمقامهم وأطلعني على حالهم.

ومنهم رضي الله عنهم أربعة وعشرون نفساً في كل زمان يسمون رجال الفتح لا يزيدون ولا ينقصون، بهم يفتح الله على قلوب أهل الله ما يفتحه من المعارف والأسرار، وجعلهم الله على عدد الساعات لكل ساعة رجل منهم، فكل من يفتح عليه في شيء من العلوم والمعارف في أيّ ساعة كانت من ليل أو نهار فهو لرجل تلك الساعة وهم متفرقون في الأرض لا يجتمعون أبداً كل شخص منهم لازم مكانه لا يبرح أبداً، فمنهم باليمن اثنان، ومنهم ببلاد الشرق أربعة، ومنهم بالمغرب ستة، والباقي بسائر الجهات، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [سورة فاطر: الآية ٢] وآية الأربعة الذين ذكرناهم قبل هؤلاء باقي الآية وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢] مع أن قدم أولئك في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ [سورة الملك: الآية ٣].

ومنهم رضي الله عنهم سبعة أنفس يقال لهم رجال العلى في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون هم رجال المعارج العلى، لهم في كل نفس معراج، وهم أعلى عالم الأنفاس، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٥] والله معكم يتخيل بعض الناس من أهل الطريق أنهم الأبدال لما يرى أنهم سبعة، كما يتخيل بعض الناس في الرجبيين أنهم الأبدال لكونهم أربعين عند من يقول إنَّ الأبدال أربعون نفساً، ومنهم من يقول: سبعة أنفس، وسبب ذلك أنهم لم يقع لهم التعريف من الله بذلك ولا بعدد ما لله في العالم في كل زمان من العباد المصطفين الذين يحفظ الله بهم العالم فيسمعون أن ثم رجالاً عددهم كذا، كما أن ثم أيضاً مراتب محفوظة لا عدد لأصحابها معين في كل زمان بل يزيدون وينقصون كالأفراد، ورجال الماء والأمناء والأحباء والأخلاء وأهل الله والمحدّثين والسمراء والأصفياء وهم المصطفون، فكل مرتبة من هذه المراتب محفوظة برجال في كل زمان، غير أنهم لا يتقيدون بعدد مخصوص مثل من ذكرناهم، وسأذكر إذا فرغنا من رجال العدد هذه المراتب وصفة رجالها، فإنا لقينا منهم جماعة ورأينا أحوالهم، فهؤلاء السبعة أهل العروج لهم كما قلنا في كل نفس معراج إلى الله لتحصيل علم خاص من الله فهم مع النفس الصاعد خاصة، ولله

رجال هم مع النفس الرحماني النازل الذي به حياتهم وغذاؤهم وهم أحد وعشرون نفساً.

ومنهم رضي الله عنهم أحد وعشرون نفساً وهم رجال التحت الأسفل، وهم أهل النفس الذي يتلقونه من الله لا معرفة لهم بالنفس الخارج عنهم، وهم على هذا العدد في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] يريد عالم الطبيعة إذ لا أسفل منه ردّه إليه ليحيا به فإنّ الطبع ميت بالأصالة فأحياه بهذا النفس الرحمانيّ الذي ردّه إليه لتكون الحياة سارية في جميع الكون، لأن المراد من كل ما سوى الله أن يعبد الله فلا بدّ أن يكون حياً وجوداً ميتاً حكماً فيجمع بين الحياة والموت ولهذا قال له ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] فيريد منك في شيئيتك أن تكون معه كما كنت وأنت لا هذه الشيئية فلهذا قلنا حياً وجوداً وميتاً حكماً، وهؤلاء الرجال لا نظر لهم إلاّ فيما يرد من عند الله مع الأنفاس فهم أهل حضور مع الدوام.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة أنفس وهم رجال الإمداد الإلهيّ والكونيّ في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، فهم يستمدّون من الحق ويمدّون الخلق، ولكن بلطف ولين ورحمة لا بعنف ولا شدّة ولا قهر، يقبلون على الله بالاستفادة ويقبلون على الخلق بالإفادة، فيهم رجال ونساء قد أهلهم الله للسعي في حوائج الناس وقضائها عند الله لا عند غيره، وهم ثلاثة لقيت واحداً منهم بإشبيلية وهو من أكبر من لقيته يقال له موسىٰ بن عمران سيد وقته كان أحد الثلاثة لم يسأل أحداً حاجة من خلق الله، ورد في الخبر أنّ النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ تَقَبَّلَ لِي بِوَاحِدَةٍ تَقَبَّلْتُ لَهُ بِالجَنَّةِ أَنْ لاَ يَسْأَلَ أَحَداً شَيْئاً**» فأخذها أبان مولى عثمان بن عفان فعمل عليها، فربما وقع له السوط من يده وهو راكب فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه فينيخ راحلته فتبرك فيأخذ السوط من الأرض بيده، وصفة هؤلاء إذا أفادوا الخلق ترى فيهم من اللطف وحسن التأنّي حتى يظنّ أنهم هم الذين يستفيدون من الخلق، وأن الخلق هم الذين لهم اليد عليهم، ما رأيت أحسن منهم في معاملة الناس الواحد من هؤلاء الثلاثة فتحه دائم لا ينقطع على قدم واحدة لا يتنوّع في المقامات وهو مع الله واقف وبالله في خلقه قائم هجيره ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] والثاني له عالم الملكوت جليس للملائكة تتنوّع عليه المقامات والأحوال ويظهر في كل صورة من صور العالم له التروحن إذا شاء كقضيب البان. والثالث له عالم الملك جليس للناس لين المعاطف تتنوّع أيضاً عليه المقامات إمداده من البشر أي من النفوس الحيوانية، وإمداد الثاني من الملائكة شأنهم عجيب ومعناهم لطيف.

ومنهم رضي الله عنهم ثلاثة أنفس إلهيون رحمانيون في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، يشبهون الأبدال في بعض الأحوال وليسوا بأبدال، آيتهم من كتاب الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٥] لهم اعتقاد عجيب في كلام الله بين الاعتقادين، هم أهل وحي إلهيّ لا يسمعونه أبداً إلاّ كسلسلة على صفوان لا غير ذلك ومثل صلصلة الجرس، هذا مقام هؤلاء القوم وما عندي خبر بفهمهم في ذلك لأنه ما حصل عندي من شأنهم هل هم بأنفسهم يعطيهم الله الفهم في تلك الصلصلة إذا تكلم الله بالوحي أو هل

يفتقرون في فهم ما جاء في تلك الصلصلة إلى غيرهم كما قيل عن غيرهم؟ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق فاستفهموا بعد صعقهم فإنّ الله إذا تكلم بالوحي كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة، فإذا أفاقت وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ فلا أدري شأن هؤلاء الثلاثة هل هم بهذه المثابة في سماع كلام الحق أو يعطون الفهم كما أعطيه النبيّ ﷺ؟ فقال: وأحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، فالله أعلم كيف شأنهم في ذلك وما أخبرني أحد عنهم، وسألتهم في ذلك فما أخبرني واحد منهم بشيء إلاّ اطلعت عليه من جانب الحق.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد وقد تكون امرأة في كل زمان آيته: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شهم شجاع مقدام كبير الدعوى بحق يقول حقاً ويحكم عدلاً، كان صاحب هذا المقام شيخنا عبد القادر الجيليّ ببغداد، كانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق، كان كبير الشأن أخباره مشهورة لم ألقه ولكن لقيت صاحب زماننا في هذا المقام، ولكن كان عبد القادر أتم في أمور أخر من هذا الشخص الذي لقيته، وقد درج الآخر ولا علم لي بمن ولي بعده هذا المقام إلى الآن.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد مركب ممتزج في كل زمان لا يوجد غيره في مقامه وهو يشبه عيسىٰ عليه السلام متولد بين الروح والبشر لا يعلم له أب بشريّ، كما يحكى عن بلقيس أنها تولدت بين الجنّ والإنس، فهو مركب من جنسين مختلفين، وهو رجل البرزخ، به يحفظ الله عالم البرزخ دائماً، فلا يخلو كل زمان عن واحد مثل هذا الرجل يكون مولده على هذه الصفة فهو مخلوق من ماء أمه، خلافاً لما ذكر عن أهل علم الطبائع أنه لا يتكوّن من ماء المرأة ولد بل الله على كل شيء قدير.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد وقد يكون امرأة له رقائق ممتدّة إلى جميع العالم، وهو شخص غريب المقام لا يوجد منه في كل زمان إلاّ واحد، يلتبس على بعض أهل الطريق ممّن يعرفه بحالة القطب فيتخيّل أنه القطب وليس بالقطب.

ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد يسمّى بمقامه سقيط الرفرف بن ساقط العرش رأيته بقونية، آيته من كتاب الله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] حاله لا يتعدّاه شغله بنفسه وبربه، كبير الشأن عظيم الحال، رؤيته مؤثرة في حال من يراه، فيه انكسار، هكذا شاهدته صاحب انكسار وذلّ، أعجبتني صفته، له لسان في المعارف شديد الحياء.

ومنهم رضي الله عنهم رجلان يقال لهما رجال الغنى بالله في كل زمان من عالم الأنفاس آيتهم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] يحفظ الله بهم هذا المقام، الواحد منهم أكمل من الآخر، يضاف الواحد منهم إلى نفسه وهو الأدنى، ويضاف الآخر إلى الله تعالىٰ، قال النبيّ ﷺ في صاحب هذا: «**ليس الغنى عن كثرة العرض لكن الغنى غنى النفس**» ولهذا المقام هذان الرجلان وإن كان في العالم أغنياء النفوس ولكن في غناهم شوب، ولا

يخلص في الزمان إلاّ لرجلين تكون نهايتهما في بدايتهما، وبدايتهما في نهايتهما، للواحد منهما إمداد عالم الشهادة، فكل غنى في عالم الشهادة فمن هذا الرجل، وللآخر منهما له إمداد عالم الملكوت فكل غنى بالله في عالم الملكوت فمن هذا الرجل، والذي يستمدّان منه هذان الرجلان روح علويّ متحقق بالحق غناه الله ما هو غناه بالله، فإن أضفته إليهما فرجال الغنى ثلاثة، وإن نظرت إلى بشريتهما فرجال الغنى اثنان، وقد يكون منهم النساء فغنيّ بالنفس وغنيّ بالله وغنيّ غناه الله، ولنا جزء عجيب في معرفة هؤلاء الرجال الثلاثة.

ومنهم رضي الله عنهم شخص واحد يتكرّر تقلبه في كل نفس لا يفتر بين علمه بربه وبين علمه بذات ربه، ما تكاد تراه في إحدى المنزلتين إلاّ رأيته في الأخرى، لا ترى في الرجال أعجب منه حالاً، وليس في أهل المعرفة بالله أكبر معرفة من صاحب هذا المقام يخشى الله ويتقيه، تحققت به ورأيته وأفادني، آيته من كتاب الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦] لا تزال ترعد فرائصه من خشية الله هكذا شهدناه.

ومنهم رجال عين التحكيم والزوائد رضي الله عنهم وهم عشرة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، مقامهم إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء، وحالهم زيادات الإيمان بالغيب واليقين في تحصيل ذلك الغيب فلا يكون لهم غيباً: [مخلع البسيط]

إذ كلُّ غيب لهم شهادهْ وكلُّ حالٍ لهم عَبادَهْ

فلا يصير لهم غيب شهادة إلاّ ويزيدون إيماناً بغيب آخر ويقيناً في تحصيله، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤] بالزيادة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ومنهم رضي الله عنهم اثنا عشر نفساً وهم البدلاء ما هم الأبدال وهم في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وسمّوا بدلاء لأنّ الواحد منهم لو لم يوجد الباقون ناب منابهم وقام بما يقوم به جميعهم، فكل واحد منهم في عين الجميع: [السريع]

وما على الله بمُستَنْكَرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحدِ

ويلتبس على الناس أمرهم مع الأبدال من جهة الاسم، ويشبهون النقباء من جهة العدد، آيتهم من كتاب الله تعالىٰ قول بلقيس: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] تعني عرشها وهو هو فما شبهته إلاّ بنفسه وعينه لا بغيره، وإنما شوّش عليها بعد المسافة المعتاد وبالعادات وصل جماعة من الناس في هذا الطريق.

ومنهم رضي الله عنهم رجال الاشتياق وهم خمسة أنفس وهم أصحاب القلق وفيهم يقول القائل يصف حالهم:

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلى

فالأشواق تقلقهم في عين المشاهدة، وهم من ملوك أهل طريق الله، وهم رجال

الصلوات الخمس، كل رجل منهم مختص بحقيقة صلاة من الفرائض، وإلى هذا المقام يؤول قوله عليه السلام: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» بهم يحفظ الله وجود العالم، آيتهم من كتاب الله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] لا يفترون عن صلاة في ليل ولا نهار، كان صالح البربريّ منهم لقيته وصحبته إلى أن مات وانتفعت به، وكذلك أبو عبد الله المهدويّ بمدينة فاس صحبته كان من هؤلاء أيضاً، حتى أن بعض أهل الكشف يتخيّلون أن كل صلاة تجسّدت لهم ما هي أعيان وليس الأمر كذلك.

ومنهم رضي الله عنهم ستة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، كان منهم ابن هارون الرشيد السبتيّ لقيته بالطواف يوم الجمعة بعد الصلاة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو يطوف بالكعبة وسألته وأجابني ونحن بالطواف، وكان روحه تجسد لي في الطواف حسّاً تجسد جبريل في صورة أعرابي، وهؤلاء الرجال الستة لما اطلعت عليهم لم أكن قبل ذلك عرفت أن ثَمَّ ستة رجال، ولما عرفت بهم في هذا الزمان القريب لم أدر ما مقامهم؟ ثم بعد هذا عرفت أنهم رجال الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم، وما علمت ذلك إلاً من هجيرهم فإن هجيرهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] ولهم سلطان على الجهات الست التي ظهرت بوجود الإنسان، وأخبرت أن واحداً منهم بوكاً من جملة العوانية من أهل أرزن الروم أعرف ذلك الشخص بعينه وصحبته وكان يعظمني ويراني كثيراً واجتمعت به في دمشق وفي سيواس وفي ملطية وفي قيصرية، وخدمني مدّة، وكانت له والدة كان براً بها، اجتمعت به في حران في خدمة والدته فما رأيت فيمن رأيت من يبرّ أمّه مثله، وكان ذا مال، ولي سنون فقدته من دمشق فما أدري هل عاش أو مات.

وبالجملة فما من أمر محصور في العالم في عدد ما إلاً ولله رجال بعدده في كل زمان، يحفظ الله بهم ذلك الأمر، وقد ذكرنا من الرجال المحصورين في كل زمان في عدد ما الذين لا يخلو الزمان منهم ما ذكرناه في هذا الباب، فلنذكر من رجال الله الذين لا يختصون بعدد خاص يثبت لهم في كل زمان بل يزيدون وينقصون، ولنذكر الأسرار والعلوم التي يختصون بها وهي علوم تقسم عليهم بحسب كثرتهم وقلتهم، حتى أنه لو لم يوجد إلاً واحد منهم في الزمان اجتمع في ذلك الواحد ذلك الأمر كله، فلنذكر الآن بعض ما تيسّر من المقامات المعروفة التي ذكرها أهل الطريق وعيّنها أيضاً الشرع أو عيّن أكثرها وسمّاها، ثم بعد ذلك أذكر من المسائل التي تختص بهذا الباب وبالأولياء التي لا يعرفها بالمجموع إلاً الوليّ الكامل، فإن الإمام محمد بن علي الترمذي الحكيم هو الذي نبّه على هذه المسائل وسأل عنها اختباراً لأهل الدعوى لما رأى من الدعاوى العريضة والضعف الظاهر، فجعل هذه المسائل كالمحك والمعيار لدعواهم، ولم يتعرض لخرق العوائد في ظاهر الكون التي اتخذتها العامة دلائل على الولاية وليست بدلائل عند أهل الله، وإنما القوم يختبر بعضهم بعضاً فيما يدّعونه من العلوم الإلهية والأسرار، فإن خرق العوائد عند الصادقين إنما ذلك في

بواطنهم وقلوبهم بما يهبهم الله من الفهم عنه ممّا لا يشاركهم فيه ذوقاً من ليس من جنسهم، وها أنا ذاكر ألقاب الرجال الذين لا يحصرهم عدد ولا يقيدهم أمد، والله المستعان. انتهى الجزء السادس والسبعون.

(الجزء السابع والسبعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

فمنهم رضي الله عنهم الملامية، وقد يقولون الملامتية وهي لغة ضعيفة، وهم سادات أهل طريق الله وأئمتهم وسيد العالم فيهم ومنهم وهو محمد رسول الله ﷺ وهم الحكماء الذين وضعوا الأمور مواضعها وأحكموها وأقرّوا الأسباب في أماكنها، ونفوها في المواضع التي ينبغي أن تنفى عنها، ولا أخلوا بشيء ممّا رتبه الله في خلقه على حسب ما رتبوه، فما تقتضيه الدار الأولى تركوه للدار الأولى، وما تقتضيه الدار الآخرة تركوه للدار الآخرة، فنظروا في الأشياء بالعين التي نظر الله إليها لم يخلطوا بين الحقائق، فإنه من رفع السبب في الموضع الذي وضعه فيه واضعه وهو الحق فقد سفه واضعه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه فقد أشرك وألحد وإلى أرض الطبيعة أخلد، فالملامتية قرّرت الأسباب ولم تعتمد عليها، فتلامذة الملامتية الصادقون يتقلبون في أطوار الرجولية، وتلامذة غيرهم يتقلبون في أطوار الرعونات النفسية، فالملامية مجهولة أقدارهم لا يعرفهم إلاّ سيدهم الذي حاباهم وخصّهم بهذا المقام ولا عدد يحصرهم بل يزيدون وينقصون.

ومنهم رضي الله عنهم الفقراء ولا عدد يحصرهم أيضاً بل يكثرون ويقلّون، قال تعالىٰ تشريفاً لجميع الموجودات وشهادة لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فالفقراء هم الذين يفتقرون إلى كل شيء من حيث أن ذلك الشيء هو مسمّى الله، فإن الحقيقة تأبى أن يفتقر إلى غير الله، وقد أخبر الله أن الناس فقراء إلى الله على الإطلاق والفقر حاصل منهم، فعلمنا أن الحق قد ظهر في صورة كل ما يفتقر إليه فيه فلا يفتقر إلى الفقراء إلى الله بهذه الآية شيء وهم يفتقرون إلى كل شيء، فالناس محجوبون بالأشياء عن الله، وهؤلاء السادة ينظرون الأشياء مظاهر الحق تجلّى فيها لعباده حتى في أعيانهم، فيفتقر الإنسان إلى سمعه وبصره، وجميع ما يفتقر إليه من جوارحه وإدراكاته ظاهراً وباطناً، وقد أخبر الحق في الحديث الصحيح أن الله سمع العبد وبصره ويده، فما افتقر هذا الفقير إلاّ إلى الله في افتقاره إلى سمعه وبصره، فسمعه وبصره إذاً مظهر الحق ومجلاه، وكذلك جميع الأشياء بهذه المثابة، فما ألطف سريان الحق في الموجودات وسريان بعضها في بعض وهو قوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فالآيات هنا دلالات أنها مظاهر للحق، فهذا حال الفقراء إلى الله لا ما يتوهمه من لا علم له بطريق القوم، فالفقير من يفتقر إلى كل شيء وإلى نفسه ولا يفتقر إليه شيء، فهذه أسنى الحالات. قال أبو يزيد: يارب بماذا أتقرب إليك؟ قال: بما ليس لي الذلّة والافتقار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] أي ليتذللوا لي ولا يتذللوا لي حتى يعرفوني في الأشياء، فيذلّوا لي لا لمن ظهرت فيهم أو ظهرت أعيانهم بكونهم مظاهر لي، فوجودهم أنا وما يشهدون من أعيانهم سوى وجودهم فاعلم ذلك والله المرشد منوّر البصائر.

ومنهم رضي الله عنهم الصوفية ولا عدد لهم يحصرهم بل يكثرون ويقلّون، وهم أهل مكارم الأخلاق، يقال: من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوّف. مقامهم الاجتماع على قلب واحد، أسقطوا الياءات الثلاثة فلا يقولون لي ولا عندي ولا متاعي، أي لا يضيفون إلى أنفسهم شيئاً، أي لا ملك لهم دون خلق الله، فهم فيما في أيديهم على السواء مع جميع ما سوى الله مع تقرير ما بأيدي الخلق للخلق لا يطلبونهم بهذا المقام، وهذه الطبقة هي التي يظهر عليهم خرق العوائد عن اختيار منهم ليقيموا الدلالة على التصديق بالدين وصحته في مواضع الضرورة، وقد عاينا مثل هذا من هذه الطائفة في مناظرة فيلسوف.

ومنهم من يفعل ذلك لكونه صار عادة لهم كسائر الأمور المعتادة عند أهلها، فما هي في حقّهم خرق عادة وهي في المعتاد العام خرق عادة فيمشون على الماء وفي الهواء كما نمشي نحن، وكل دابة على الأرض لا يحتاج في ذلك في العموم إلى نيّة وحضور إلاّ الملامية والفقراء، فإنهم لا يمشون ولا يخطو أحد منهم خطوة ولا يجلس إلاّ بنيّة وحضور لأنه لا يدري من أين يكون أخذ الله لعباده، وقد كان ﷺ كثيراً ما يقول في دعائه: «أعوذ بالله أن أغتال من تحتي» وإن كانوا على أفعال تقتضي لهم الأمان كما هي أفعال الأنبياء من الطاعات لله والحضور مع الله، ولكن لا يأمنون أن يصيب الله عامة عباده بشيء فيعمّ الصالح والطالح لأنها دار بلاء ويحشر كل شخص على نيّته ومقامه، وقد أخبر الله بقتل الأمم أنبياءها ورسلها، وأهل القسط من الناس وما عصمهم الله من بلاء الدنيا، فالصوفية هم الذين حازوا مكارم الأخلاق، ثم أنهم رضي الله عنهم علموا أن الأمر يقتضي أن لا يقدر أحد على أن يرضي عباد الله بخلق، وأنه مهما أرضى زيداً ربما أسخط عمراً، فلما رأوا أن حصول مقام عموم مكارم الأخلاق مع الجميع محال نظروا مَنْ أولى أن يعامل بمكارم الأخلاق ولا يلتفت إلى من يسخطه ذلك، فلم يجدوا إلاّ الله وأحباءه من الملائكة والبشر المطهر من الرسل والأنبياء وأكابر الأولياء من الثقلين، فالتزموا مكارم الأخلاق معهم ثم أرسلوها عامّة في سائر الحيوانات والنباتات وما عدا أشرار الثقلين، والذي يقدرون عليه من مكارم الأخلاق مّما أبيح لهم أن يصرفوه مع أشرار الثقلين فعلوه وبادروا إليه، وهو على الحقيقة ذلك الخلق مع الله إلاّ في إقامة الحدود إذا كانوا حكاماً وأداء الشهادات إذا تفرضت عليهم فاعلم ذلك.

ومنهم رضي الله عنهم العباد وهم أهل الفرائض خاصة قال تعالىٰ مثنياً عليهم: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣] ولم يكونوا يؤدّون سوى الفرائض، ومن هؤلاء المنقطعون بالجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية ويسمّون السياح، ومنهم من يلازم بيته وصلاة الجماعات ويشتغل بنفسه، ومنهم صاحب سبب، ومنهم تارك السبب وهم صلحاء الظاهر والباطن قد عصموا من الغل والحسد والحرص والشره المذموم، وصرفوا كل هذه الأوصاف

إلى الجهات المحمودة، ولا رائحة عندهم من المعارف الإلهية والأسرار ومطالعة الملكوت والفهم عن الله في آياته حين تتلى، غير أن الثواب لهم مشهود والقيامة وأهوالها، والجنة والنار مشهودتان دموعهم في محاريبهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦]و﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [سورة الأعراف:الآية ٢٠٥] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢] ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٤] شغلهم هول المعاد عن الرقاد، ضمروا بطونهم بالصيام للسباق في حلبة النجاة ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٧] ليسوا من الإثم والباطل في شيء، عمال وأي عمال عاملوا الحق بالتعظيم والإجلال، سمعت بعضهم رضي الله عنهم وعنه وهو أبو عبد الله الطبخي والي وجدة يتأوّه وينشد ما قاله عمر بن عبد العزيز: [مجزوء الكامل]

حتى متى لا تَرْعَوي ... وإلى متى وإلى متى
ما بعد أن سُمِّيتَ كهـ ... ـلاً واستُلِبْتَ اسمَ الفتى
لا ترعوي لنصيحةٍ ... فإلى متى وإلى متى

وكان منهم خليفة من بني العباس هرب من الخلافة من العراق وأقام بقرطبة من بلاد الأندلس إلى أن درج ودفن بباب عباس منها يقال له أبو وهب الفاضل، خرّج فضائله شيخنا أبو القاسم خلف بن بشكوال رحمه الله فذكر فيها عنه أنه كان كثيراً ما ينشد لنفسه: [الوافر]

برئتُ من المنازل والقبابِ ... فلم يَعْسُرْ على أحد حجابي
فمنزليَ الفضاءُ وسقفُ بيتي ... سماءُ الله أو قِطَعُ السحابِ
فأنت إذا أردتَ دخلت بيتي ... عليَّ مسلماً من غير بابِ
لأني لم أجد مصراعَ باب ... يكون من السماء إلى الترابِ
ولا انشقَّ الثرى عن عود تَخْتٍ ... أؤمل أن أشدَّ به ثيابي
ولا خفتُ الإباقَ على عبيدي ... ولا خفتُ الرُّهَاصَ على دوابي
ولا حاسبتُ يوماً قهرماناً ... فأخشى أن أغلّتْ في الحسابِ
ففي ذا راحةٌ وبلاغُ عيش ... فدأبُ الدهر ذا أبداً ودابي

كان خالنا أبو مسلم الخولانيّ رحمه الله من أكابرهم، كان يقوم الليل فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبان كانت عنده ويقول لرجليه: أنتما أحق بالضرب من دابتي، أيظنّ أصحاب محمد ﷺ أن يفوزوا بمحمد ﷺ دوننا والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً، لقينا منهم جماعة كثيرة ذكرناهم في كتبنا ورأينا من أحوالهم ما تضيق الكتب عنها.

ومنهم رضي الله عنهم الزهّاد وهم الذين تركوا الدنيا عن قدرة، واختلف أصحابنا فيمن ليس عنده بيده من الدنيا شيء وهو قادر على طلبها وجمعها غير أنه لم يفعل وترك الطلب فهل يلحق بالزهاد أم لا؟ فمن قائل من أصحابنا: إنه يلحق بالزهاد. ومن قائل: لا زهد إلاّ في

حاصل فإنه ربما لو حصل له شيء منها ما زهد، فمن رؤسائهم إبراهيم بن أدهم وحديثه مشهور، وكان بعض أخوالي منهم كان قد ملك مدينة تلمسان يقال له يحيىٰ بن يغان، وكان في زمنه رجل فقيه عابد منقطع من أهل تونس يقال له أبو عبد الله التونسيّ كان بموضع خارج تلمسان يقال له العباد كان قد انقطع بمسجد يعبد الله فيه وقبره مشهور بها يزار، فبينا هذا الصالح يمشي بمدينة تلمسان بين المدينتين أقادير والمدينة الوسطى إذ لقيه خالنا يحيىٰ بن يغان ملك المدينة في خوله وحشمه فقيل له: هذا أبو عبد الله التونسيّ عابد وقته فمسك لجام فرسه وسلم على الشيخ فردّ عليه السلام، وكان على الملك ثياب فاخرة فقال له: يا شيخ هذه الثياب التي أنا لابسها تجوز لي الصلاة فيها؟ فضحك الشيخ، فقال له الملك: مم تضحك؟ قال: من سخف عقلك وجهلك بنفسك وحالك ما لك تشبيه عندي إلاَّ بالكلب يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول، وأنت وعاء مليء حراماً وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقك، قال: فبكى الملك ونزل عن دابته وخرج عن ملكه من حينه ولزم خدمة الشيخ فمسكه الشيخ ثلاثة أيام ثم جاءه بحبل فقال له: أيها الملك قد فرغت أيام الضيافة قم فاحتطب، فكان يأتي بالحطب على رأسه ويدخل به السوق والناس ينظرون إليه ويبكون فيبيع ويأخذ قوته ويتصدّق بالباقي، ولم يزل في بلده ذلك حتى درج ودفن خارج تربة الشيخ وقبره اليوم بها يزار، فكان الشيخ إذا جاءه الناس يطلبون أن يدعو لهم يقول لهم: التمسوا الدعاء من يحيىٰ بن يغان فإنه ملك فزهد، ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربما لم أزهد، قال بعض الملوك في حال نفسه وقد تزهّد وانقطع إلى الله تعالىٰ:
[الخفيف]

أنا في الحال الذي قد تراه	إن تأمّلتَ أحسنُ الناس حالا
منزلي حيث شئتُ من مستَقَرِّ الأ	رض أُسقَى من المياه الزلالا
ليس لي والدٌ ولا لي مولو	دٌ أراه ولا أرى إليَّ عيالا
أجعل الساعدَ اليمينَ وسادي	فإذا ما انقلبتُ كان الشمالا
قد تلذَّذْتُ حقبةً بأمور	لو تدبَّرتها لكانت خيالا

فهؤلاء الزهّاد هم الذين آثروا الحق على الخلق وعلى نفوسهم، فكل أمر لله فيه رضى وإيثار قاموا به وأقبلوا عليه وما كان للحق عنه إعراض أعرضوا عنه، تركوا القليل رغبة في الكثير ليس للزهاد خروج عن هذا المقام في الزهد، فإن خرجوا فلم يخرجوا من كونهم زهاداً بل من مقام آخر، وقد ينطلق اسم الزهد في اصطلاح القوم على ترك كلّ ما سوى الله من دنيا وآخرة كأبي يزيد سُئِل عن الزهد فقال: ليس بشيء لا قدر له عندي ما كنت زاهداً سوى ثلاثة أيام، أوّل يوم زهدت في الدنيا، والثاني زهدت في الآخرة، وثالث يوم زهدت في كل ما سوى الله، فنوديت ماذا تريد: فقلت: أريد أن لا أريد لأني أنا المراد وأنت المريد، فجعل ترك كل ما سوى الله زهداً.

ومنهم رضي الله عنهم رجال الماء وهم قوم يعبدون الله في قعور البحار والأنهار لا

يعلم بهم كلّ أحد، أخبرني أبو البدر التماشكيّ البغداديّ وكان صدوقاً ثقة عارفاً بما ينقل ضابطاً حافظاً لما ينقل عن الشيخ أبي السعود بن الشبلي إمام وقته في الطريق قال: كنت بشاطىء دجلة بغداد فخطر في نفسي هل لله عباد يعبدونه في الماء؟ قال: فما استتممت الخاطر إلاّ وإذا بالنهر قد انفلق عن رجل فسلم عليّ وقال: نعم يا أبا السعود لله رجال يعبدون الله في الماء وأنا منهم أنا رجل من تكريت وقد خرجت منها لأنه بعد كذا وكذا يوماً يقع فيها كذا وكذا ويذكر أمراً يحدث فيها ثم غاب في الماء، فلما انقضت خمسة عشر يوماً وقع ذلك الأمر على صورة ما ذكره ذلك الرجل لأبي السعود وأعلمني بالأمر ما كان.

ومنهم رضي الله عنهم الأفراد ولا عدد يحصرهم وهم المقرّبون بلسان الشرع كان منهم محمد الأوانيّ يعرف بابن قائد لوانة من أعمال بغداد من أصحاب الإمام عبد القادر الجيليّ، وكان هذا ابن قائد يقول فيه عبد القادر معربد الحضرة كان يشهد له عبد القادر الحاكم في هذه الطريقة المرجوع إلى قوله في الرجال أن محمد بن قائد الأوانيّ من المفردين وهم رجال خارجون عن دائرة القطب وخضر منهم، ونظيرهم من الملائكة الأرواح المهيمة في جلال الله وهم الكروبيون معتكفون في حضرة الحق سبحانه لا يعرفون سواه، ولا يشهدون سوى ما عرفوا منه، ليس لهم بذواتهم علم عند نفوسهم، وهم على الحقيقة ما عرفوا سواهم ولا وقفوا إلاّ معهم هم وكل ما سوى الله بهذه المثابة مقامهم بين الصدّيقية والنبوّة الشرعية وهو مقام جليل جهله أكثر الناس من أهل طريقنا كأبي حامد وأمثاله لأن ذوقه عزيز هو مقام النبوّة المطلقة، وقد ينال اختصاصاً، وقد ينال بالعمل المشروع، وقد ينال بتوحيد الحق والذلّة له، وما ينبغي من تعظيم جلال المنعم بالإيجاد والتوحيد، كلّ ذلك من جهة العلم، وله كشف خاص لا يناله سواهم كالخضر فإنه كما قلنا من الأفراد، ومحمد ﷺ كان قبل أن يرسل وينبأ من الأفراد الذين نالوا الأمر بتوحيد الحق وتعظيم جلاله والانقطاع إليه، وذلك أنه يحصل في نفوسهم أعني في نفوس من هذا طريقهم أن الله كما أنعم عليه بالإيجاد وأسباب الخير هو قادر على أن يبقي له وعليه نعمة البقاء في الخير الدائم والسعادة حيث أراد، وإن لم يعلم أن ثمّ آخرة ولا أن الدنيا لها نهاية أم لا، ولا إيمان عنده بشيء من هذا لأنه ما كشف له عن ذلك، فإذا أطلعه الحق على الأمور حينئذ التحق بالمؤمنين بما هو الأمر عليه ممّا لا يدرك بالنظر الفكريّ، فلو كان في زمان جواز نبوّة الشرائع لكان صاحب هذا المقام منهم كالخضر في زمانه وعيسىٰ وإلياس وإدريس، وأما اليوم فليس إلاّ المقام الذي ذكرناه والرسالة ونبوّة الشرائع قد انقطعت، ولو كانت الأنبياء والرسل في قيد الحياة في هذا الزمان لكانوا بأجمعهم داخلين تحت حكم الشرع المحمديّ.

وأما الرسالة ونبوّة الشرائع العامّة أعني المتعدّية إلى الأمم والخاصة بكلّ نبي فاختصاص إلهي في الأنبياء والرسل لا ينال بالاكتساب ولا بالتعمل، فخطاب الحق قد ينال بالتعمل، والذي يخاطب به إن كان شرعاً يبلغه أو يخصّه ذلك هو الذي نقول فيه لا ينال بالتعمّل ولا بالكسب وهو الاختصاص الإلهي المعلوم، وكل شرع ينال به عامله هذه المرتبة،

فإن نبيّ ذلك الشرع من أهل هذا المقام وهو زيادة على شريعة نبوّته له فضلاً من الله ونعمة، وهو لمحمد ﷺ بالقطع، وكل شرع لا ينال العامل به هذا المقام فإن نبيّ ذلك الشرع لم يحصل له هذا المقام الذي حصل لغيره من أنبياء الشرائع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال جلّ جلاله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] في وجوه منها هذا، قال الخضر لموسىٰ في هذا المقام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] فإن موسىٰ في ذلك الوقت لم يكن له هذا المقام الذي نفاه عنه العدل بقوله، وتعديل الله إياه بما شهد له به من العلم وما ردّ عليه موسىٰ في ذلك ولا أنكر عليه بل قال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٩] فإنه قال له قبل ذلك: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٦] قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٧] ثم أنصفه في العلم وقال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلم يكن للخضر نبوّة التشريع التي للأنبياء المرسلين، ولا أدري بعد هذا الاجتماع هل حصل لموسىٰ من جانب الحق ذلك المقام الذي كان لخضر أم لا؟ لا علم لي بذلك. فرحم الله عبداً أطلعه الحق على أن موسىٰ قد أحاط بالعلم الذي ناله الخضر بعد ذلك وحصل له هذا المقام خبراً فألحقه في هذا الموضع من كتابي هذا ونسبه إلى نفسه لا إلي.

ومنهم رضي الله عنهم الأمناء قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ أُمَنَاءَ**» وقال في أبي عبيدة بن الجراح إنه أمين هذه الأمة. [نظم: الطويل]

ومستخبر عن سرِّ ليلى رَدَدْتُه ... بعمياءَ من ليلى بغير يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت أمينُها ... وما أنا إن أخبرتُهم بأمينِ

هم طائفة من الملامية لا تكون الأمناء من غيرهم، وهم أكابر الملامتية وخواصهم، فلا يعرف ما عندهم من أحوالهم لجريهم مع الخلق بحكم العوائد المعلومة التي يطلبها الإيمان بما هو إيمان وهو الوقوف عندما أمر الله به ونهى على جهة الفرضية، فإذا كان يوم القيامة وظهرت مقاماتهم للخلق وكانوا في الدنيا مجهولين بين الناس قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ أُمَنَاءَ**» وكان الذي أمنوا عليه ما ذكرناه، ولولا أن الخضر أمره الله أن يظهر لموسىٰ عليه السلام بما ظهر ما ظهر له بشيء من ذلك فإنه من الأمناء، ولما عرض الله الأمانة على الإنسان وقبلها كان بحكم الأصل ظلوماً جهولاً فإنه خوطب بحملها عرضاً لا أمراً، فإن حملها جبراً أعين عليها مثل هؤلاء، فالأمناء حملوها جبراً لا عرضاً فإنه جاءهم الكشف، فلا يقدرون أن يجهلوا ما علموا، ولم يريدوا أن يتميزوا عن الخلق لأنه ما قيل لهم في ذلك أظهروا شيئاً منه ولا لا تظهروه فوقفوا على هذا الحدّ فسمّوا أمناء، ويزيدون على سائر الطبقات أنهم لا يعرف بعضهم بعضاً بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامّة المؤمنين وهذا ليس إلاّ لهذه الطائفة خاصة لا يكون ذلك لغيرهم.

ومنهم رضي الله عنهم القرّاء أهل الله وخاصته ولا عدد يحصرهم، قال النبي ﷺ:

«أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ» وأهل القرآن هم الذين حفظوه بالعمل به وحفظوا حروفه فاستظهروه حفظاً وعملاً، كان أبو يزيد البسطامي منهم؛ حدث أبو موسىٰ الديبلي عنه بذلك أنه ما مات حتى استظهر القرآن، فمن كان خلقه القرآن كان من أهله، ومن كان من أهل القرآن كان من أهل الله، لأنّ القرآن كلام الله وكلامه علمه وعلمه ذاته، ونال هذا المقام سهل بن عبد الله التستري وهو ابن ست سنين ولهذا كان بدؤه في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليّ لله كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب ولا علم أنّ للقلب سجوداً أصلاً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها، فإن سجود القلب إذا حصل لا يرفع أبداً رأسه من سجدته، فهو ثباته على تلك القدم الواحدة التي تتفرع منها أقدام كثيرة وهو ثابت عليها، فأكثر الأولياء يرون تقليب القلب من حال إلى حال ولهذا سمّي قلباً، وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب، ولهذا لما دخل سهل بن عبد الله عبادان على الشيخ قال له: أيسجد القلب؟ قال الشيخ: إلى الأبد، فلزم سهل خدمته، فالله تعالىٰ يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده، كما قال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فكل أمر منه إلى خلقه سبحانه من مقامات القربة في ملك ورسول ونبي ووليّ ومؤمن وسعادة بمجرد توحيد، ومن يبعث أمّة وحده إنما هو من عناية الله به ومنته عليه، فإن توفيق الله للعبد في اكتساب ما قد قضى باكتسابه منّة الله بذلك على عبده واختصاص، وكم من وليّ قد تعرض لنيل أمر من ذلك ولم تسبق له عناية من الله في تحصيله فحيل بينه وبين حصوله مع التعمّل، فأهل القرآن هم أهل الله، فلم يجعل لهم صفة سوى عينه سبحانه، ولا مقام أشرف ممّن كان عين الحق صفته على علم منه.

ومنهم رضي الله عنهم الأحباب ولا عدد لهم يحصرهم بل يكثرون ويقلون، قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فمن كونهم محبين ابتلاهم، ومن كونهم محبوبين اجتباهم واصطفاهم أعني في هذه الدار وفي القيامة، وأما في الجنة فليس يعاملهم الحق إلاّ من كونهم محبوبين خاصة، ولا يتجلى لهم إلاّ في ذلك المقام، وهذه الطائفة على قسمين: قسم أحبهم ابتداء، وقسم استعملهم في طاعة رسوله طاعة لله، فأثمرت لهم تلك محبة الله إياهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فهذه محبة قد نتجت لم تكن ابتداء وإن كانوا أحباباً كلهم.

[نظم: البسيط]

يا قومُ أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا

فلا خفاء فيما بينهم من المنازل، وما من مقام من المقامات إلاّ وأهله فيه بين فاضل ومفضول، وهؤلاء الأحباب علامتهم الصفاء، فلا يشوب ودّهم كدر أصلاً، ولهم الثبات على هذه القدم مع الله، وهم مع الكون بحسب ما يقام فيه ذلك الكون من محمود ومذموم شرعاً، فيعاملونه بما يقتضيه الأدب، فهم يوالون في الله ويعادون في الله تعالىٰ، فالموالاة من حيث

وجود المكوّن، والمعاداة والذمّ من حيث عين المتكوّن لا من حيث ما اتصف به من الكون، لأنّ الكون كون الله فهم يحكمون ولا يحكمون، قد مكّنهم الله من أنفسهم وأقامهم في حضرة الأدب، فهم الأدباء الجامعون للخيرات، يقول الله تعالىٰ فيمن ادّعى هذا المقام: يا عبدي هل عملت لي عملاً قط؟ فيقول العبد: يا رب صليت وجاهدت وفعلت وفعلت ويصف من أحوال الخير، فيقول الله له: ذلك لك، فيقول العبد: يا رب فما هو العمل الذي هو لك؟ فيقول: هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدواً؟ وهذا هو إيثار المحبوب، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢٢] فهم أهل التأييد والقوّة. ورد في الخبر الصحيح: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ**».

ومنهم رضي الله عنهم المحدثون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه منهم، وكان في زماننا منهم أبو العباس الخشاب، وأبو زكرياء البجاي بالمعرّة بزاوية عمر بن عبد العزيز بدير النقيرة وهم صنفان: صنف يحدثه الحق من خلف حجاب الحديث، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[سورة الشورى: الآية ٥١] وهذا الصنف على طبقات كثيرة. والصنف الآخر تحدّثهم الأرواح الملكية في قلوبهم وأحياناً على آذانهم وقد يكتب لهم وهم كلهم أهل حديث، فالصنف الذي تحدثه الأرواح الطريق إليه بالرياضات النفسية والمجاهدات البدنية بأي وجه كان ومن كان فإن النفوس إذا صفت من كدر الوقوف مع الطبع التحقت بعالمها المناسب لها، فأدركت ما أدركت الأرواح العلى من علوم الملكوت والأسرار، وانتقش فيها جميع ما في العالم من المعاني، وحصلت من الغيوب بحسب الصنف الروحاني المناسب لها، فإن الأرواح وإن جمعهم أمر واحد فلكل روح مقام معلوم فهم على درجات وطبقات، فمنهم الكبير والأكبر كجبريل وإن كان من أكابرهم فميكائيل أكبر منه ومنصبه فوق منصبه، وإسرافيل أكبر من ميكائيل، وجبريل أكبر من إسماعيل، فالذي على قلب إسرافيل منه يأتي الإمداد إليه وهو أعلى من الذين هم على قلب ميكائيل، فكل محدث من هؤلاء يحدّثهم الروح المناسب لهم، وكم من محدث لا يعلم من يحدثه، فهذا من آثار صفاء النفوس وتخليصها من الوقوف مع الطبع وارتفاعها عن تأثير العناصر والأركان فيها فهي نفس فوق مزاج بدنها، وقنع قوم بهذا القدر من الحديث ولكن ما هو شرط في السعادة الإيمانية في الدار الآخرة لأنه تخليص نفسي، فإن كان هذا المحدث أتى جميع هذه الصفات التي أوجبت له التخليص من الطبع بالطريقة المشروعة والاتباع النبوي والإيمان الجزم اقترنت بالحديث السعادة، فإن انضاف إلى ذلك الحديث الحديث مع الرب من الرب تعالىٰ إليهم كان من الصنف الأول الذي ذكرنا أنه على طبقات في الحديث، قال بعضهم: [الكامل]

يا مؤنسي بالليل إن هَجَعَ الورى ... ومحدِّثي من بينهم بنهارِ

فذكر هذا القائل أن حديثه مع الله وحديث الله معه أنه من بينيتهم لا أنه كلمه على ألسنتهم، قال تعالىٰ: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] فأكّده بالمصدر لرفع الإشكال، هذا هو المطلوب بالحديث في هذه الطريقة. وأما قوله تعالىٰ ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فذلك لأهل السماع من الحق في الأشياء لا من بين الأشياء، لأنّ بينية الأشياء عبارة عن النسب وهي أمور عدمية لا وجودية، فإذا كان الحديث منها كان بلا واسطة وإذا كان من الأشياء فذلك قوّة الفهم عن الله، ورد في الخبر الصحيح أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فهذا عين قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] والذي نطلبه في هذا الطريق كلام الله من بين الأشياء لا في الأشياء ولا من الأشياء، وإن كان هو عين وجود الأشياء فإنه ليس عين الأشياء، فالأعيان في الموجودات هيولى لها أو أرواح لها، والوجود ظاهر تلك الأرواح وصور تلك الأعيان الهيولانية، فالوجود كله حق ظاهر وباطنه الأشياء، فالحديث الإلهيّ من بين الأشياء أوضح عند السامع في الدلالة أنه هو المكلم، من أن يكلمنا في الأشياء فافهم والله تعالىٰ الملهم.

ومنهم رضي الله عنهم الأخلاء ولا عدد يحصرهم بل يكثرون ويقلّون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥] وقال النبيّ ﷺ: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللّٰهِ»** والمخاللة لا تصح إلاَّ بين الله وبين عبده وهو مقام الاتحاد، ولا تصحّ المخاللة بين المخلوقين وأعني من المخلوقين من المؤمنين، ولكن قد انطلق اسم الأخلاء على الناس مؤمنيهم وكافريهم، قال تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦٧] فالخلة هنا المعاشرة، وقد ورد أن المرء على دين خليله، وقيل في مقام الخلة: [الخفيف]

قد تخلّلتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمّي الخليلُ خليلا

وإنما قلنا لا تصحّ الخلة إلاَّ بين الله وبين عبده لأن أعيان الأشياء متميزة، وكون الأعيان وجود الحق لا غير، ووجود الشيء لا يمتاز عن عينه، فلهذا لا تصحّ الخلة إلاَّ بين الله وعبيده خاصة، إذ هذا الحال لا يكون بين المخلوقين لأنه لا يستفاد من مخلوق وجود عين فاعلم ذلك.

واعلم أن شروط الخلة لا تصحّ بين المؤمنين ولا بين النبيّ وتابعيه، فإذا لم تصحّ شروطها لا تصحّ هي في نفسها ولكن في دار التكليف، فإن النبيّ والمؤمن بحكم الله لا بحكم خليله ولا بحكم نفسه، ومن شروط الخلة أن يكون الخليل بحكم خليله وهذا لا يتصوّر مطلقاً بين المؤمنين ولا بين الرسل وأتباعهم في الدار الدنيا، والمؤمن تصحّ الخلة بينه وبين الله ولا تصحّ بينه وبين الناس، لكن تسمّى المعاشرة التي بين الناس إذا تأكدت في غالب الأحوال خلة، فالنبيّ ليس له خليل ولا هو صاحب لأحد سوى نبوّته، وكذلك المؤمن ليس له خليل ولا صاحب سوى إيمانه، كما أن الملك ليس هو صاحب أحد سوى ملكه، فمن

كان بحكم ما يلقى إليه ولا يتصرّف إلاّ عن أمر إلهيّ فلا يكون خليلاً لأحد ولا صاحباً أبداً، فمن اتخذ من المؤمنين خليلاً غير الله فقد جهل مقام الخلة، وإن كان عالماً بالخلة والصحبة ووفاها حقّها مع خليله وهو حاكم فقد قدح في إيمانه لما يؤدي ذلك إليه من إبطال حقوق الله، فلا خليل إلاّ الله فالمقام عظيم وشأنه خطير والله الموفق لا رب غيره.

ومنهم رضي الله عنهم السمراء ولا عدد يحصرهم وهم صنف خاص من أهل الحديث، قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وهذا الصنف لا حديث لهم مع الأرواح فحديثهم مع الله من قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فجليسهم من الأسماء الإلهية المدَبر المفصل، وهم من أهل الغيب في هذا المقام لا من أهل الشهادة.

ومنهم رضي الله عنهم الورثة وهم ثلاثة أصناف: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] وقال ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ**» وكان شيخنا أبو مدين يقول في هذا المقام: من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، وهذا هو حال الوارث للنبيّ ﷺ فإنه كان يخلو بغار حراء ينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله ويفرّ إلى ربه حتى فجأه الحق ثم بعثه الله رسولاً مرشداً إلى عباده، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمّته ومثل هذا يسمّى وارثاً، فالوارث الكامل من ورثه علماً وعملاً وحالاً، فأما قوله تعالىٰ في الوارث للمصطفى أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] يريد حال أبي الدرداء وأمثاله من الرجال الذين ظلموا أنفسهم لأنفسهم أي من أجل أنفسهم حتى يسعدوها في الآخرة، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» فإذا صام الإنسان دائماً وسهر ليله ولم ينم فقد ظلم نفسه في حقها وعينه في حقها وذلك الظلم لها من أجلها ولهذا قال: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإنه أراد بها العزائم وارتكاب الأشد لما عرف منها ومن جنوحها إلى الرخص والبطالة، وجاءت السنة بالأمرين لأجل الضعفاء فلم يرد الله تعالىٰ بقوله: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الظلم المذموم في الشرع فإن ذلك ليس بمصطفى.

وأما الصنف الثاني من ورثة الكتاب فهو المقتصد، وهو الذي يعطي نفسه حقّها من راحة الدنيا ليستعين بذلك على ما يحملها عليه من خدمة ربّها في قيامه بين الراحة وأعمال البرّ، وهو حال بين حالين: بين العزيمة والرخصة، ففي قيام الليل يسمّى المقتصد متهجداً لأنه يقوم وينام وعلى مثل هذا تجري أفعاله.

وأما السابق بالخيرات وهو المبادر إلى الأمر قبل دخول وقته ليكون على أهبة واستعداد، وإذا دخل الوقت كان متهيأ لأداء فرض الوقت لا يمنعه من ذلك مانع كالمتوضىء قبل دخول الوقت والجالس في المسجد قبل دخول وقت الصلاة، فإذا دخل الوقت كان على

طهارة وفي المسجد فيسابق إلى أداء فرضه وهي الصلاة، وكذلك إن كان له مال أخرج زكاته وعينها ليلة فراغ الحول ودفعها لربها في أوّل ساعة من الحول الثاني للعامل الذي يكون عليها، وكذلك في جميع أفعال البرّ كلها يبادر إليها كما قال النبيّ ﷺ لبلال: «**بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَقَالَ بِلال: مَا أَحْدَثْتُ قَطّ إِلاَّ تَوَضَّأْتُ وَلاَ تَوَضَّأْتُ إِلاَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِهِمَا**» فهذا وأمثاله من السابق بالخيرات، وهو كان حال رسول الله ﷺ بين المشركين في شبابه وحداثة سنّه ولم يكن مكلفاً بشرع فانقطع إلى ربه وتحنث وسابق إلى الخيرات ومكارم الأخلاق حتى أعطاه الله الرسالة.

وصل: واعلم أن الله تعالىٰ قد وصف أقواماً من النساء والرجال بصفات أذكرها إن شاء الله، إذ كان الزمان لا يخلو أبداً عن رجال ونساء قائمين بهذا الوصف مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ثم قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فأعدّ الله لهم المغفرة قبل وقوع الذنب المقدّر عليهم عناية منه، فدلّ ذلك على أنهم من العباد الذين لا تضرّهم الذنوب. وقد ورد في الصحيح من الخبر الإلهيّ: «**اعملْ ما شِئْتَ فقد غَفَرْتُ لك**» فما وقعت من مثل هؤلاء الذنوب إلاَّ بالقدر المحتوم لا انتهاكاً للحرمة الإلهية. قيل لأبي يزيد: أيعصي العارف؟ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٨] فتقع المعصية من العارفين أهل العناية بحكم التقدير لنفوذ القضاء السابق، فلا بدّ من ذكر هؤلاء الأصناف ليتبين من هو المسلم والمسلمة والمؤمن والمؤمنة، ومن وصف الله منهم الذين لهم هذه المرتبة من إعداد المغفرة لهم والأجر العظيم قبل وقوع الذنب منهم وقبل حصول العمل، وأمر قد عظمه الله لا يكون إلاَّ عظيماً. وكذلك قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩] وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] وقد ذكرنا العباد، ثم قال: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] والسياحة في هذه الأمّة الجهاد، وقد قال تعالىٰ في خليله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] فلا بدّ من ذكر الأوّاهين والحلماء، وقال فيه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٥] فأثنى عليه بالإنابة، وقال فيه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] فذكره بالأوبة، فهؤلاء الأصناف لا بدّ من ذكرهم في هذا الباب ليقع عند السامع تعيين هذه الصفة ومنزلة هذا الموصوف بها، وكذلك أولو النهى، وأولو الأحلام، وأولو الألباب، وأولو الأبصار، فما نعتهم الله بهذه النعوت سدى، والمتصفون بهذه الأوصاف قد طالبهم الحق بما تقتضيه هذه الصفات وما تثمر لهم من المنازل عند الله، فإنّ هذا الباب باب شريف من أشرف أبواب هذا الكتاب يتضمن ذكر الرجال وعلوم الأولياء ونحن نستوفيها إن شاء الله أو نقارب استيفاء ذلك على القدر الذي رسم لنا وعينه الحق تعالىٰ في واقعتنا، فإن المبشرات هي التي أبقى الله لنا من آثار النبوّة التي سدّ بابها وقطع أسبابها، فقذف به في قلوبنا ونفث به الروح المؤيد القدسيّ في نفوسنا، وهو الإلهام

الإلهيّ والعلم اللدنيّ نتيجة الرحمة التي أعطاها الله من عنده من شاء من عباده.

فمنهم رضي الله عنهم الأولياء قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٢] مطلقاً ولم يقل في الآخرة فالوليّ من كان على بينة من ربه في حاله فعرف مآله بأخبار الحق إياه على الوجه الذي يقع به التصديق عنده وبشارته حق، وقوله صدق، وحكمه فصل، فالقطع حاصل، فالمراد بالوليّ من حصلت له البشرى من الله كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وأيّ خوف وحزن يبقى مع البشرى بالخير الذي لا يدخله تأويل، فهذا هو الذي أريد بالوليّ في هذه الآية، ثم إن أهل الولاية على أقسام كثيرة فإنها أعمّ فلك أحاطيّ فنذكر أهلها من البشر إن شاء الله وهم الأصناف الذين نذكرهم مضافاً إلى ما تقدم في هذا الباب من ذكرهم ممّن حصرتهم الأعداد ومن لا يحصرهم عدد. انتهى الجزء السابع والسبعون.

(الجزء الثامن والسبعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فمن الأولياء رضي الله عنهم الأنبياء صلوات الله عليهم تولاّهم الله بالنبوّة وهم رجال اصطنعهم لنفسه واختارهم لخدمته واختصهم من سائر العباد لحضرته، شرع لهم ما تعبدهم به في ذواتهم، ولم يأمر بعضهم بأن يعدى تلك العبادات إلى غيرهم بطريق الوجوب، فمقام النبوّة مقام خاص في الولاية، فهم على شرع من الله أحلّ لهم أموراً وحرّم عليهم أموراً قصرها عليهم دون غيرهم، إذ كانت الدار الدنيا تقتضي ذلك لأنها دار الموت والحياة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [سورة الملك: الآية ٢] والتكليف هو الابتلاء، فالولاية نبوّة عامّة، والنبوّة التي بها التشريع نبوّة خاصة تعمّ من هو بهذه المثابة من هذا الصنف وهي مقام الرفعة في الخطاب الإلهيّ إذا لم يؤمر لا غير لا في المشاهدة، فمقام النبوّة علوّ في الخطاب، ومن الأولياء رضوان الله عليهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تولاهم الله بالرسالة، فهم النبيون المرسلون إلى طائفة من الناس، أو يكون إرسالاً عامّاً إلى الناس، ولم يحصل ذلك إلاّ لمحمد ﷺ، فبلغ عن الله ما أمره الله بتبليغه في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٨] فمقام التبليغ هو المعبر عنه بالرسالة لا غير، وما توقفنا عن الكلام في مقام الرسول والنبيّ صاحب الشرع إلاّ أنّ شرط أهل الطريق فيما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبيّ صاحب شريعة في نبوّة التشريع ولا في الرسالة فكيف نتكلم في مقام لم نصل إليه وعلى حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممّن ليس بنبيّ ذي شريعة من الله ولا رسول حرام علينا الكلام فيه؟ فما نتكلم إلاّ فيما لنا فيه ذوق، فما عدا هذين المقامين فلنا الكلام فيه عن ذوق لأنّ الله ما حجره.

ومن الأولياء أيضاً الصدّيقون رضي الله عن الجميع تولاهم الله بالصدّيقية، قال تعالىٰ في الذين آمنوا بالله ورسوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩] فالصدّيق من آمن بالله ورسوله عن قول المخبر لا عن دليل سوى النور الإيمانيّ الذي يجده في قلبه المانع له من تردّد أو شك يدخله في قول المخبر الرسول ومتعلقه على الحقيقة الإيمان بالرسول، ويكون الإيمان بالله على جهة القربة لا على إثباته، إذ كان بعض الصدّيقين قد ثبت عندهم وجود الحق ضرورة أو نظراً ولكن ما ثبت كونه قربة، وهذه الآية تدل على شرف إثبات الوجود، ثم إن الرسول إذا آمن به الصديق آمن بما جاء به وممّا جاء به توحيد الإله وهو قوله: «**قُولُوا لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّه**»، أَوْ «**اعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ**» فعلم أنه واحد في ألوهيته من حيث قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] فذلك يسمّى إيماناً، ويسمّى المؤمن به على هذا الحد صديقاً، فإن نظر في دليل يدل على صدق قوله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وعثر على توحيده بعد نظره فصدق الرسول في قوله، وصدق الله في قوله له: لا إله إلاَّ الله فليس بصديق وهو مؤمن عن دليل فهو عالم، فقد بان لك منزل الصديقية، وأن الصديق هو صاحب النور الإيمانيّ الذي يجده ضرورة في عين قلبه كنور البصر الذي جعله الله في البصر فلم يكن للعبد فيه كسب، كذلك نور الصديق في بصيرته، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩] من حيث الشهادة ونورهم من حيث الصديقية، فجعل النور للصديقية والأجر للشهادة وهي بنية مبالغة في التصديق، والصديق كشرّيب وخمير وسكير، فليس بين النبوّة التي هي نبوّة التشريع والصديقية مقام ولا منزلة، فمن تخطّى رقاب الصديقين وقع في النبوّة الرسالية، ومن ادّعى نبوّة التشريع بعد محمد ﷺ فقد كذب بل كذب وكفر بما جاء به الصادق رسول الله ﷺ، غير أن ثم مقام القربة وهي النبوّة العامة لا نبوّة التشريع فيثبتها نبيّ التشريع فيثبتها الصديق لإثبات النبيّ المشرّع إياها لا من حيث نفسه وحينئذ يكون صديقاً، كمسألة موسىٰ والخضر وفتى موسىٰ الذي هو صديقه ولكل رسول صديقون، إما من عالم الإنس والجانّ أو من أحدهما، فكل من آمن عن نور في قلبه ليس له دليل من خارج سوى قول الرسول «قل» ولا يجد توقفاً وبادر فذلك الصديق، فإن آمن عن نظر ودليل من خارج أو توقف عند القول حتى أوجد الله ذلك النور في قلبه فآمن فهو مؤمن لا صديق، فنور الصديق معد قبل وجود المصدق به، ونور المؤمن غير الصديق يوجد بعد قول الرسول: قل لا إله إلاَّ الله، ونور المؤمن بكونه قربة بعد النظر في الدليل الذي أعطاه العلم بالتوحيد، فهو في علمه بالتوحيد صاحب نور علم لا نور إيمان، وهو في كون ذلك العلم والنظر قربة إلى الله صاحب نور إيمان، فإن نور العلم بتوحيد الله قد شهدوا الله بتوحيده قبل ذلك، والرسل منهم قد وجدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلاً، فإن الرسول ما أشرك قط، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ولم يقل وأولو الإيمان، فرتبة العلم فوق رتبة الإيمان بلا شك وهي صفة الملائكة والرسل، وقد يكون حصول ذلك العلم عن نظر أو ضرورة كيفما كان فيسمى علماً إذ لا قائل ولا مخبر يلزم التصديق بقوله.

وهذ المقام الذي أثبتناه بين الصديقية ونبوّة التشريع الذي هو مقام القربة وهو للأفراد هو دون نبوّة التشريع في المنزلة عند الله، وفوق الصديقية في المنزلة عند الله وهو المشار إليه بالسرّ الذي وقر في صدر أبي بكر ففضل به الصديقين إذ حصل له ما ليس من شرط الصديقية ولا من لوازمها، فليس بين أبي بكر ورسول الله ﷺ رجل لأنه صاحب صديقية وصاحب سرّ، فهو من كونه صاحب سرّ بين الصديقية ونبوّة التشريع ويشارك فيه فلا يفضل عليه من يشاركه فيه بل هو مساو له في حقيقته فافهم ذلك.

ومن الأولياء أيضاً الشهداء رضي الله عن جميعهم تولاّهم الله بالشهادة وهم من المقرّبين وهم أهل الحضور مع الله على بساط العلم به، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم موحدون عن حضور إلهيّ وعناية أزلية فهم الموحدون وشأنهم عجيب وأمرهم غريب، والإيمان فرع عن هذه الشهادة، فإن بعث رسول وآمنوا به أعني هؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء ولهم الأجر التام يوم القيامة، وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولولا قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩] ألحقنا هؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هذه الآية، فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين، فإنهم يشوّشون على المؤمنين إيمانهم، وهؤلاء الشهداء الذين تعمّهم هذه الآية هم العلماء بالله المؤمنون بعد العلم بما قال سبحانه إذ ذلك قربة إليه من حيث قاله الله أو قاله الرسول الذي جاء من عند الله، فقدم الصديق على الشهيد وجعله بإزاء النبيّ فإنه لا واسطة بينهما لاتصال نور الإيمان بنور الرسالة. والشهداء لهم نور العلم مساوق لنور الرسول من حيث ما هو شاهد لله بتوحيده لا من حيث هو رسول، فلا يصحّ أن يكون بعده مع المساوقة فكانت المساوقة تبطل، ولا يصحّ أن يكون معه لكونه رسولاً والشاهد ليس برسول فلا بدّ أن يتأخر فلم يبق إلاّ أن يكون في الرتبة التي تلي الصديقية، فإن الصديق أتم نوراً من الشهيد في الصديقية لأنه صديق من وجهين: من وجه التوحيد، ومن وجه القربة، والشهيد من وجه القربة خاصة لا من وجه التوحيد، فإنّ توحيده عن علم لا عن إيمان، فنزل عن الصديق في مرتبة الإيمان وهو فوق الصديق في مرتبة العلم، فهو المتقدم في رتبة العلم المتأخر برتبة الإيمان والتصديق فإنه لا يصحّ من العالم أن يكون صديقاً، وقد تقدم العلم مرتبة الخبر فهو يعلم أنه صادق في توحيد الله إذا بلغ رسالة الله، والصديق لم يعلم ذلك إلاّ بنور الإيمان المعد في قلبه، فعندما جاءه الرسول اتبعه من غير دليل ظاهر فقد عرفت منازل الشهداء عند الله.

ومن الأولياء رضي الله عنهم الصالحون تولاهم الله بالصلاح وجعل رتبتهم بعد الشهداء في المرتبة الرابعة، لكن الشكل دائرة كما رسمناه في الهامش:

فالنبوّة ابتدأ بها حتى انتهى إلى الصلاح، ونهاية الشكل المستدير إذا كان مجعولاً ترتبط بالبداية حتى تصحّ الدائرة، وما من نبيّ إلاّ وقد ذكر أنه صالح أو أنه دعا أن يكون من الصالحين مع كونه نبياً، فدل على أن رتبة الصلاح خصوص في النبوّة، فقد تحصل لمن ليس بنبيّ ولا صديق ولا شهيد، فصلاح الأنبياء هو مما يلي بدايتهم وهو عطف الصلاح عليهم فهم صالحون للنبوّة فكانوا أنبياء، وأعطاهم الدلالة فكانوا شهداء، وأخبرهم بالغيب فكانوا صديقين، فالأنبياء صلحت لجميع هذه المقامات فكانوا صالحين فجمعت الرسل جميع المقامات، كما صلح الصديقون للصديقية، وصلح الشهداء للشهادة، وكل موجود فهو صالح لما وجد له، غير أن هؤلاء الصالحين الذين أثنى الله عليهم بأنه أنعم عليهم هم المطلوبون في هذا المقام، وهم المنخرطون في سلك هذا النمط، فهم رابعو أربعة، وأراد بالنبيين هنا الرسل أهل الشرع سواء بعثوا أو لم يبعثوا، أعني بطريق الوجوب عليهم، فالصالحون هم الذين لا يدخل علمهم بالله ولا إيمانهم بالله وبما جاء من عند الله خلل، فإن دخله خلل بطل كونه صالحاً، فهذا هو الصلاح الذي رغبت فيه الأنبياء صلوات الله عليهم. فكل من لم يدخله خلل في صديقيته فهو صالح، ولا في شهادته فهو صالح، ولا في نبوّته فهو صالح، والإنسان حقيقته الإمكان، فله أن يدعو بتحصيل الصلاح له في المقام الذي يكون فيه لجواز دخول الخلل عليه في مقامه، لأن النبيّ لو كان نبياً لنفسه أو لإنسانيته لكان كل إنسان بتلك المثابة، إذ العلة في كونه نبياً كونه إنساناً، فلما كان الأمر اختصاصاً إلهياً جاز دخول الخلل فيه وجاز رفعه، فصحّ أن يدعو الصالح بأن يجعل من الصالحين، أي الذين لا يدخل صلاحهم خلل في زمان ما، فهذا نعني بالصالحين في هذا الباب والله الموفق.

ومن الأولياء أيضاً رضي الله عنهم المسلمون والمسلمات، وهكذا كل طائفة ذكرناهم منهم الرجال والنساء تولاهم الله بالإسلام، وهو انقياد خاص لما جاء من عند الله لا غير، فإذا وفى العبد الإسلام بجميع لوازمه وشروطه وقواعده فهو مسلم، وإن انتقص شيئاً من ذلك فليس بمسلم فيما أخلّ به من الشروط، قال رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**» واليد هنا بمعنى القدرة أي سلم المسلمون ممّا هو قادر على أن يفعل بهم ممّا لا يقتضيه الإسلام من التعدّي لحدود الله فيهم، فأتى بالأعمّ وذكر اللسان لأنه قد يؤذي بالذكر من لا يقدر على إيصال الأذى إليه بالفعل وهو البهتان هنا خاصة لا الغيبة فإنه قال: المسلمون، فلو قال: الناس لدخلت الغيبة وغير ذلك من سوء القول، فلم يثبت الشارع الإسلام إلاّ لمن سلم المسلمون وهم أمثاله في السلامة، فالمسلمون هم المعتبر في هذا الحديث وهم المقصود، فإن المسلمين لا يسلمون من لسان من يقع فيهم إلاّ حتى يكونوا أبرياء ممّا نسب إليهم ولذلك فسّرناه بالبهتان، فإن النبيّ ﷺ قال: «**إِذَا قُلْتَ فِي أَخِيكَ مَا لَيسَ فِيهِ فَذَلِكَ البُهْتَانُ**» وفي رواية: «**فَقَد بَهَتَّهُ**» فخاب سهمك الذي رميته به، فإنه ما وجد منفذاً فإنك نسبت إليه ما ليس

هو عليه فسمّاهم الله مسلمين، فمن وقع فيمن هذه صفته فليس بمسلم لأن ذلك الوصف الذي وصفه المسلم به ورماه به ولم يكن المسلم محلاً له عاد على قائله فلم يكن الرامي له بمسلم فإنه ما سلم مما قال إذ صار عليه سهم كلامه الذي رماه به، قال ﷺ: **«مَنْ قَالَ لأَخِيهِ كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»** وقال تعالىٰ في حق قوم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣] فأعاد الصفة عليهم لما لم يكن المسلمون المؤمنون أهل سفه أي ضعف رأى في إيمانهم، فعاد ما نسبوه من ضعف الرأي الذي هو السفه إليهم، فليس المسلم إلاّ من سلم من جميع العيوب الأصلية والطارئة، فلا يقول في أحد شراً ولا يؤثر فيه إذا قدر عليه شرّاً أصلاً، وليس إقامة الحدود بشرّ فإنه خير إذ جعل الله إقامة الحدود كشرب الدواء للمريض لأجل العافية وزوال المرض، فهو وإن كان كريهاً في الوقت فإن عاقبته محمودة، فما قصد الطبيب بشرب الدواء شرّاً للمريض وإنما أعطاه سبب حصول العافية فيتحمل ما فيه من الكراهة في الوقت كذلك إقامة الحدود.

وأما القصاص في مثل قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فلا يخرجه ذلك عن الإسلام، فإن النبيّ ﷺ اشترط سلامة المسلمين ومن آذاك ابتداء عن قصد منه فليس بمسلم فإنك ما سلمت منه، والنبيّ ﷺ يقول: **«مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ»** فلا يقدح القصاص في الإسلام فإنك ما آذيت مسلماً من حيث آذاك فإن المسلم لا يؤذي المسلم بل أسقط عنه القصاص في الدنيا القصاص في الآخرة فقد أنعم عليه بضرب من النعم، فإن عفا وأصلح ولم يؤاخذه وتجاوز عن سيئته فذلك المقام العالي وأجره على الله بشرط ترك المطالبة في الآخرة، وحق الله ثابت قبله لأنه تعدّى حدّه فقدح في إسلامه قدر ما تعدّى فيه، فإن عصى المسلم ربه في غير المسلم هل يكون مسلماً بذلك أم لا؟ قلنا: لا يكون مسلماً فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] والمسلم لا يكون ملعوناً، فلقائل أن يقول هنا بالمجموع كانت اللعنة ونحن إنما قلنا: من آذى الله وحده قلنا كل من آذى الله وحده في زعمه فقد آذى المسلمين، فإن المسلم يتأذى إذا سمع في الله من القول ما لا يليق به فهو مؤاخذ من جهة ما تأذّى به المسلمون من قولهم في الله ما لا يليق به. فإن قيل: فإن لم يعرف ذلك المسلمون منه حتى يتأذوا من ذلك. قلنا: حكم ذلك حكم الغيبة فإنه لو عرف من اغتيب تأذّى وهو مؤاخذ بالغيبة فهو مؤاخذ بإيذائه الله وإن لم يعرف بذلك مسلم، قال ﷺ: **«لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أذى مِنَ اللَّهِ»** المسلم من كان بهذه المثابة وهو السعيد المطلق وقليل ما هم.

ومن الأولياء أيضاً رضي الله عنهم المؤمنون والمؤمنات تولاهم الله بالإيمان الذي هو القول والعمل والاعتقاد، وحقيقته الاعتقاد شرعاً ولغة وهو في القول والعمل شرعاً لا لغة، فالمؤمن من كان قوله وفعله مطابقاً لما يعتقده في ذلك الفعل ولهذا قال في المؤمنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] يريد ما قدّموه من الأعمال الصالحة عند الله فأولئك من الذين ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] قال ﷺ:

«**المؤمنُ من أَمِنهُ الناسُ على أموالِهم وأنفسِهِم**» وقال ﷺ: «**المؤمنُ من أَمِنَ جارُهُ بوائقَهُ**» ولم يخص مؤمناً ولا مسلماً بل قال: الناس والجار من غير تقييد، فإن المسلم قيده بسلامة المسلمين، ففرّق بين المسلم والمؤمن بما قيده به وبما أطلقه، فعلمنا أن للإيمان خصوص وصف وهو التصديق تقليداً من غير دليل ليفرق بين الإيمان والعلم.

واعلم أن المؤمن المصطلح عليه في طريق الله عند أهله الذي اعتبره الشرع له علامتان في نفسه إذا وجدهما كان من المؤمنين، العلامة الواحدة: أن يصير الغيب له كالشهادة في عدم الريب فيما يظهر على المشاهد لذلك الأمر الذي وقع به الإيمان من الإيثار في نفس المؤمن كما يقع في نفس المشاهد له فيعلم أنه مؤمن بالغيب. والعلامة الثانية: أن يسري الأمان منه في نفس العالم كله فيأمنوه على القطع على أموالهم وأنفسهم وأهليهم من غير أن تتخلل ذلك الأمان تهمة في أنفسهم من هذا الشخص وانفعلت لأمانة النفوس فذلك هو المشهود له بأنه من المؤمنين، ومهما لم يجد هاتين العلامتين فلا يغالط نفسه ولا يدخلها في المؤمنين فليس إلاّ ما ذكرناه.

ومن الأولياء أيضاً القانتون لله والقانتات رضي الله عنهم تولاهم الله بالقنوت وهو الطاعة لله في كل ما أمر به ونهى عنه، وهذا لا يكون إلاّ بعد نزول الشرائع، وما كان منه قبل نزول الشرائع فلا يسمّى قنوتاً ولا طاعة ولكن يسمّى خيراً ومكارم خلق وفعل ما ينبغي، قال الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] أي طائعين فأمر بطاعته، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥] وليس يرث الصالح من الأرض إلاّ إتيانها لله طائعة مع السماء حين قال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فورث العباد منها الطاعة لله وهي المعبر عنها بالقنوت، إذ الساجدون لله على قسمين: منهم من يسجد طوعاً، ومنهم من يسجد كرهاً، فالقانت يسجد طوعاً، وتصحيح طاعتهم لله وقنوتهم أن يكون الحق لهم بهذه المثابة للموازنة كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] و «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً**» فالحق مع العبد على قدر ما هو العبد مع الحق.

وقفت يوماً أنا وعبد صالح معي يقال له الحاج مدور يوسف الأستجيّ كان من الأمّيين المنقطعين إلى الله المنوّرة بصائرهم على سائل يقول: من يعطي شيئاً لوجه الله؟ ففتح رجل صرّة دراهم كانت عنده وجعل ينتقي له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل فوجد ثمن درهم فأعطاه إياه وهذا العبد الصالح ينظر إليه فقال لي: يا فلان تدري على ما يفتش هذا المعطي؟ قلت: لا، قال: على قدره عند الله لأنه أعطى السائل لوجه الله فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه، ولكن من شرط القانت عندنا أنه يطيع الله من حيث ما هو عبد الله لا من حيث ما وعده الله به من الأجر والثواب لمن أطاعه. وأمّا الأجر الذي يحصل للقانت فذلك من حيث العمل الذي يطلبه لا من حيث الحال الذي أوجب له القنوت، قال الله تعالىٰ في القانتات من نساء رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا

مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣١] فالأجر هنا للعمل الصالح الذي عملته وكان مضاعفاً في مقابلة قوله تعالىٰ في حقهنّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٠] لمكانة رسول الله ﷺ ولفعل الفاحشة كذلك ضوعف الأجر للعمل الصالح ومكانة رسول الله ﷺ، وبقي القنوت معرى عن الأجر فإنه أعظم من الأجر فإنه ليس بتكليف وإنما الحقيقة تطلبه وهو حال يستصحب العبد في الدنيا والآخرة ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣] يعني يوم القيامة، فالقنوت مع العبودية في دار التكليف لا مع الأجر ذلك هو القنوت المطلوب، والحق إنما ينظر للعبد في طاعته بعين باعثة على تلك الطاعة ولهذا قال تعالىٰ آمراً: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] ولم يسم أجراً ولا جعل القنوت إلاَّ من أجله لا من أجل أمر آخر فهؤلاء هم القانتون والقانتات.

ومن الأولياء أيضاً: الصادقون والصادقات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالصدق في أقوالهم وأحوالهم فقال تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] فهذا من صدق أحوالهم، والصدق في القول معلوم وهو ما يخبر به، وصدق الحال ما يفي به في المستأنف وهو أقصى الغاية في الوفاء لأنه شديد على النفس فلا يقع الوفاء به في الحال والقول إلاَّ من الأشدّاء الأقوياء ولا سيما في القول، فإنك لو حكيت كلاماً عن أحد كان بالفاء فجعلت بدله واواً لم تكن من هذه الطائفة فانظر ما أغمض هذا المقام وما أقواه، فإن نقلت الخبر على المعنى تعرف السامع أنك نقلت على المعنى فتكون صادقاً من حيث إخبارك عن المعنى عند السامع ولا تسمّى صادقاً من حيث نقلك لما نقلته فإنك ما نقلت عين لفظ من نقلت عنه، ولا تسمّى كاذباً فإنك قد عرّفت السامع أنك نقلت المعنى فأنت مخبر للسامع عن فهمك لا عمّن تحكي عنه، فأنت صادق عنده في نقلك عن فهمك لا عن الرسول أو من تخبر عنه أن ذلك مراده بما قال، فالصدق في المقال عسير جداً، قليل من الناس من يفي به إلاَّ من أخبر السامع أنه ينقل على المعنى فيخرج عن العهدة، فالصدق في الحال أهون منه إلاَّ أنه شديد على النفوس فإنه يراعي جانب الوفاء لما عاهد من عاهد عليه، وقد قرن الله الجزاء بالصدق والسؤال عنه فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٤] ولكن بعد أن يسأل الصادقين عن صدقهم، فإذا ثبت لهم جازاهم به وجزاؤهم به هو صدق الله فيما وعدهم به، فجزاء الصدق الصدق الإلهيّ، وجزاء ما صدق فيه من العمل والقول بحسب ما يعطيه ذلك العمل أو القول فهذا معنى الجزاء.

وأما السؤال عنه فمن حيث إضافة الصدق إليهم لأنه قال تعالىٰ عن صدقهم وما قال عن الصدق، فإن أضاف الصادق إذا سُئِل صدقه إلى ربه لا إلى نفسه وكان صادقاً في هذه الإضافة أنها وجدت منه في حين صدقه في ذلك الأمر في الدار الدنيا ارتفع عنه الاعتراض، فإن الصادق هو الله وهو قوله المشروع: لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، فإذا كانت القوّة به وهي الصدق فإضافتها إلى العبد إنما هو من حيث إيجادها فيه وقيامها به، وإن قال عند سؤال الحق

إياه عن صدقه أنه لما صدق في فعله أو قوله في الدنيا لم يحضر في صدقه أن ذلك بالله كان منه كان صادقاً في الجواب عند السؤال، ونفعه ذلك عند الله في ذلك الموطن وحشر مع الصادقين وصدق في صدقه، وهذا من أغمض ما يحتوي عليه هذا المقام، ويطرأ فيه غلط كبير في هذا الطريق وهو أن يقول المريد أو العارف كلاماً ما يترجم به عن معنى في نفسه قد وقع له، ويكون في قوّة دلالة تلك العبارة أن تدل على ذلك المعنى وعلى غيره من المعاني التي هي أعلى ممّا وقع له في الوقت، ثم يأتي هذا الشخص في الزمان الآخر فيلوح له من مطلق ذلك اللفظ معنى غامض هو أعلى وأدق وأحسن من المعنى الذي عبر عنه بذلك اللفظ أولاً، فإذا سُئِلَ عن شرح قوله ذلك شرحه بما ظهر له في ثاني الحال لا بأول الوضع، فيكون كاذباً في أصل الوضع صادقاً في دلالة اللفظ، فالصادق يقول: كان قد ظهر لي معنى ما وهو كذا فأخرجته أو كسوته هذه العبارة ثم إنه لاح لي معنى هو أعلى منه لما نظرت في مدلول هذه العبارة فتركت هذه العبارة عليه أيضاً في الزمان الثاني ولا يقول خلاف هذا، وهذا من خفيّ رياسة النفوس وطلبها للعلوّ في الدنيا، وقد ذمّ الله من طلب علوّاً في الأرض، فإذا أراد العارف أن يسلم من هذا الخطر ويكون صادقاً إذا أراد أن يترجم عن معنى قام له فليحضر في نفسه عند الترجمة أنه يترجم عن الله عن كل ما يحويه ذلك اللفظ من المعاني في علم الله، ومن جملتها المعنى الذي وقع له، فإذا أحضر هذا ولاح له ما شاء الله أن يمنحه من المعاني التي يدل عليها ذلك اللفظ كان صادقاً في الشرح أنه قصد ذلك المعنى على الإجمال والإبهام، لأنه لم يكن يعلم على التعيين ما في علم الله ممّا يدل عليه ذلك اللفظ إحضار مثل هذا عند كل إخبار وقت الإخبار عزيز لسلطان الغفلة والذهول الغالب على الإنسان، فليعوّد الإنسان نفسه مثل هذا الاستحضار فإنه نافع في استدامة المراقبة والحضور مع الحق، وهذا التنبيه الذي نبهت الصادقين عليه ما يشعر به أكثر أهل طريقنا فإنهم لا يحققون معناه، وربما يتخيلون فيه أنه شبهة فيفرّون منه وليس كذلك بل ذلك هو غاية الأدب البشريّ مع الله حيث يعبر عمّا في علم الله، فهذا من الأدوية النافعة لهذا المرض لمن استعمله، وفقنا الله والسامعين لاستعماله واستعمال أمثاله.

ومن الأولياء أيضاً: الصابرون والصابرات رضي الله عنهم تولاهم الله بالصبر، وهم الذين حبسوا أنفسهم مع الله على طاعته من غير توقيت، فجعل الله جزاءهم على ذلك من غير توقيت فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠] فما وقت لهم فإنهم لم يوقتوا فعم صبرهم جميع المواطن التي يطلبها الصبر، فكما حبسوا نفوسهم على الفعل بما أمروا به حبسوها أيضاً على ترك ما نهوا عن فعله، فلم يوقتوا فلم يوقت لهم الأجر، وهم الذين أيضاً حبسوا نفوسهم عند وقوع البلايا والرزايا بهم عن سؤال ما سوى الله في رفعها عنهم بدعاء الغير أو شفاعة أو طب إن كان من البلاء الموقوف إزالته على الطب، ولا يقدح في صبرهم شكواهم إلى الله في رفع ذلك البلاء عنهم، ألا ترى أيوب سأل ربه رفع البلاء عنه بقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] أي أصاب مني، فشكا ذلك

إلى ربّه عزّ وجلّ وقال له: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ففي هذه الكلمة إثبات وضع الأسباب وعرّض فيها لربه برفع البلاء عنه، فاستجاب له ربه وكشف ما به من الضرّ فأثبت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٤] أنّ دعاءه كان في رفع البلاء فكشف ما به من ضر، ومع هذا أثنى عليه بالصبر وشهد له به فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٤٤] أي رجاع إلينا فيما ابتليناه به وأثنى عليه بالعبودية، فلو كان الدعاء إلى الله في رفع الضر ورفع البلاء يناقض الصبر المشروع المطلوب في هذا الطريق لم يثن الله على أيوب بالصبر وقد أثنى عليه به، بل عندنا من سوء الأدب مع الله أن لا يسأل العبد رفع البلاء عنه لأنّ فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي بما يجده من الصبر وقوّته، قال العارف: إنما جوّعني لأبكي، فالعارف وإن وجد القوّة الصبرية فليفر إلى موطن الضعف والعبودية وحسن الأدب ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] فيسأل ربه رفع البلاء عنه أو عصمته منه إن توهم وقوعه، وهذا لا يناقض الرضا بالقضاء، فإنّ البلاء إنما هو عين المقضيّ لا القضاء، فيرضى بالقضاء ويسأل الله في رفع المقضيّ عنه فيكون راضياً صابراً، فهؤلاء أيضاً هم الصابرون الذين أثنى الله عليهم.

ومن الأولياء أيضاً الخاشعون والخاشعات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالخشوع من ذلّ العبودية القائم بهم لتجلي سلطان الربوبية على قلوبهم في الدار الدنيا، فينظرون إلى الحق سبحانه من طرف خفي يوجده الله لهم في قلوبهم في هذه الحالة خفي عن إدراك كل مدرك إياه بل لا يشهد ذلك النظر منهم إلاّ الله، فمن كانت حالته هذه في الدار الدنيا من رجل وامرأة فهو الخاشع وهي الخاشعة فيشبه القنوت من وجه، إلاّ أن القنوت يشترط فيه الأمر الإلهي، والخشوع لا يشترط فيه إلاّ التجلّي الذاتي، وكلتا الصفتين تطلبهما العبودية، فلا يتحقق بهما إلاّ عبد خالص العبودية والعبودة، وله حال ظاهر في الجوارح التي لها الحركات وحال باطن في القلوب، فيورث في الظاهر سكوناً ويؤثر في الباطن ثبوتاً، والقنوت يورث في الظاهر بحسب ما نرد به الأوامر من حركة وسكون، فإن كان القانت خاشعاً فحركته في سكون ولا بدّ إن ورد الأمر بالتحرّك فيورث القنوت في الباطن انتقالات أدق من الأنفاس متوالية مع الأوامر الإلهية الواردة عليه في عالم باطنه، فالخاشع في قنوته في الباطن ثبوته على قبول تلك الأوامر الواردة عليه من غير أن يتخللها ما يخرجها عن أن تكون مشهودة لهذا الخاشع، فالخاشع والقانت خشوعه وقنوته أخوان متفقان في الموفقين من عباد الله.

ومن الأولياء أيضاً المتصدقون والمتصدقات رضي الله عنهم، تولاهم الله بجوده ليجودوا بما استخلفهم الله فيه ممّا افتقر إليه خلق الله، فأحوج الله الخلق إليهم لغناهم بالله فالكلمة الطيبة صدقة، ولما كان حالهم التعمّل في الإعطاء لا العمل دلّ على أنهم متكسبون في ذلك لنظرهم أنّ ذلك ليس لهم وإنما هو لله، فلا يدعون فيما ليس لهم، فلا منّة لهم في الذي يوصلونه إلى الناس أو إلى خلق الله من جميع الحيوانات، وكل متغذ عليهم لكونهم مؤدّين أمانة كانت بأيديهم أوصلوها إلى مستحقيها فلا يرون أن لهم فضلاً عليهم فيما

أخرجوه، وهذه الحالة لا يمدحون بها إلاّ مع الدوام والدؤوب عليها في كل حال، والعارفون هنا في هذه الصفة على طبقتين: منهم من يكون عين ما يعطيه مشهوداً له أنه حق لمن يعطيه لأنّ الله ما خلق الأشياء التي يقع بها الانتفاع لنفسه وإنما خلق الخلق للخلق فهذا معنى الاستحقاق، وطبقة أخرى يكون مشهوداً لهم كون خالق النعمة مختاراً فيبطل عندهم الاستحقاق بأنهم يرون أنّ الله ما خلق الخلق أجمعه إلاّ لعبادته ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وكان إيصال بعض الخلق للخلق بحكم التبعية لا بالقصد الأوّل، وإن لم يكن هناك ما يقال فيه قصد أول ولا ثان، ولكن العبارات من أجل إبراز الحقائق تعطي ذلك، ولله عباد من المتصدّقين أقامهم الحق بين هاتين الطبقتين، فهم ينظرون في حين كونهم متصدّقين الاستحقاق لبقاء عين من تصدّق عليه ليصحّ منه ما خلق له من التسبيح لربّه والثناء عليه، ولكن لا من حيث أنه آكل مثلاً ولا شارب في حق من يكون بقاؤه بالأكل والشرب فذلك لا يكون باستحقاق، وإنما الاستحقاق ما به بقاؤه وأسبابه كثيرة، ثم تنظر هذه الطبقة الثالثة المتولدة بينهما من عين آخر معاً وهو أن تنظر إلى الحق من حيث ما تقتضيه ذاته فيرتفع عندها الاختيار وترى أنّ المظاهر الإلهية هي المسبحة، فلا يسبح الله إلاّ الله، ولا يحمده هو، فهو إلاّ ثناء ذاتيّ لا ثناء افتقار لاكتساب ثناء، فهؤلاء أحق باسم المتصدّقين من غيره حيث أثبتوا أعيانهم ونفوا أحكامهم والله الهادي.

ومن الأولياء أيضاً الصائمون والصائمات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإمساك الذي يورثهم الرفعة عند الله تعالىٰ عن كل شيء أمرهم الحق أن يمسكوا عنه أنفسهم وجوارحهم، فمنه ما هو واجب ومندوب، وأمّا قوله تعالىٰ لهذه الطائفة: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] تنبيهاً على غاية توقيت الإمساك في عالم الشهادة وهو النهار، والليل ضرب مثال محقق للغيب، فإذا وصلوا إلى رتبة مصاحبة عالم الغيب المعبّر عنه بالليل لم يصحّ هنالك الإمساك، فإنّ إمساك النفس والجوارح إنما هو في المنهيات وهي في عالم الشهادة، فإن عالم الغيب أمر بلا نهي، ولهذا سمّوا عالم الأمر، وذلك لأنّ عالم الغيب عقل مجرّد لا شهوة لهم، فلا نهي عندهم في مقام التكليف فهم كما أثنى الله عليهم في كتاب العزيز: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ولم يذكر لهم نهي عن شيء لأنّ حقائقهم لا تقتضيه، فإذا صام الإنسان وانتقل من بشريته إلى عقله فقد كمل نهاره وفارقه الإمساك لمفارقة النهى والتحق بعالم الأمر بعقله، فهو عقل محض لا شهوة عندهم، ألا ترى إلى قوله ﷺ في حقّه «**إذا أقبلَ الليلُ من ههنا وأدبرَ النهار من ههنا وغَرَبَتِ الشمسُ فقد أفطرَ الصائمُ**» يقول: وغربت الشمس عن عالم الشهادة وطلعت على عالم عقله فقد أفطر الصائم أي لم يمتنع فارتفع عنه التحجير لأنّ عقله لا يتغذّى مّما أمره الحق بالإمساك عنه وهو حظ طبعه فاعلم ذلك. وإذا كان الأمر على هذا الحدّ وحصلت له الرفعة الإلهية عن حكم طبعه ورفعه التجلّي عن حكم فكره إذ كان الفكر من حكم الطبع العنصريّ، ولهذا لا يفكر الملك ويفكر الإنسان لأنه مركّب من طبيعة عنصرية وعقل، فالعقل من حيث نفسه له التجلّي فيرتفع عن حضيض

الفكر الطبيعيّ المصاحب للخيال الآخذ عن الحسّ والمحسوس، قال الشاعر: إذا صام النهار وهجر. أي ارتفع النهار، فمن ليست له هذه الرفعة عن هذا الإمساك فما هو الصائم المطلوب المسمّى عندنا، فهذا هو صوم العارفين بالله وهم أهل الله. انتهى الجزء الثامن والسبعون.

(الجزء التاسع والسبعون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ومن الأولياء: الحافظون لحدود الله والحافظات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالحفظ الإلهيّ، فحفظوا به مانعين عليهم أن يحفظوه وهم على طبقتين ذكرهم الله وهم: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فعين وخصّص ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] فعمّم، وقال في الحافظين لحدود الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٥] على ذلك، وهم الذين حبسوا نفوسهم عند الحدود ولم يتعدّوها مطلقاً. وقال في الحافظين فروجهم: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] أي ستراً لأن الفرج عورة تطلب الستر، فهو إنباء عن حقيقة، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] فيسترها غيرة وفيها قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦] والوقاية ستر لأنه يتقي بها ما ينبغي أن يتقي منه، فجعل التقوى لباساً ينبّه أنّ ذلك ستر، والستر الغفر، والعورة هي المائلة يريد المائلة إلى الحق عن نفسه ورؤية شهود وجودها، فأمر بستر ذلك من أجل الأدب الإلهيّ لما نسب إليها من المذامّ وجعلها من الأسرار المكتوبة المستورة، ألا ترى النكاح يسمّى سراً، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] وهذا كله يؤذن بالستر، فمن صبر على حفظ الحدود وسترها فإنّ الله يستره بما تطلبه هذه الحقيقة.

واعلم أنّ الحفظ حفظان وأهله طبقتان، وقد يجتمع الحفظان في شخص واحد، وقد تنفرد طبقة واحدة بحفظ واحد، فلهذا فصل الله بينهما، فأطلق في حق طائفة وقيّد في حق أخرى، ثم إنّ الذين أطلق في حقهم الحفظ لحدود الله هم على طبقتين: فمنهم من عرف الحدود الذاتية فوقف عندها وذلك العالم الحكيم المشاهد المكاشف صاحب العين السليمة، وصاحب هذا المقام قد لا يكون صاحب طريقة معينة لأنّ الإنسانية تطلبها. ومنهم من عرف الحدود الرسمية ولم يعلم الحدود الذاتية وهم أرباب الإيمان. ومنهم من عرف الحدود الرسمية والذاتية وهم الأنبياء والرسل ومن دعا إلى الله على بصيرة من أتباع الرسول ﷺ فهؤلاء هم الأولى بأن يطلق عليهم الحافظون لحدود الله الذاتية والرسمية معاً. وأمّا الحافظون فروجهم فهم على طبقتين: منهم من يحفظ فرجه عمّا أمر بحفظه منه ولا يحفظه ممّا رغب في استعماله لأمور إلهية وحكم ربانية أظهرها إبقاء النوع على طريق القربة. ومنهم من يحفظ فرجه إبقاء على نفسه لغلبة عقله على طبعه وغيبته عمّا سنّه أهل السنن من الترغيب في ذلك، فإن انفتح له عين وانفرج له طريق إلى ما تعطيه حقيقة الوضع المرغب في النكاح فذلك صاحب فرج فلم يحفظه الحفظ الذي أشرنا إليه. وأما صاحب الشرع الحافظ به فلا بدّ له من

الفتح ولكن إذا اقترنت مع الحفظ الهمة، فإن لم تقترن معه الهمة فقد يصل إلى هذا المقام وقد لا يصل، جعلنا الله من الحافظين لحدود الله الذاتية والرسمية فإنّ الله بكل شيء حفيظ.

ومن الأولياء: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات رضي الله عنهم، تولاهم الله بإلهام الذكر ليذكروه فيذكرهم، وهذا يتعلق بالاسم الآخر وهو صلاة الحق على العبد، فالعبد هنا سابق والحق مصل لأنّ المقام يقتضيه فإنه قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فأخّر ذكره إياهم عن ذكرهم إياه، وقال: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيرٍ منهم**» وقال: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذِرَاعاً**» وقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فكل مقام إليه يتأخر عن مقام كوني فهو من الاسم الآخر، ومن باب قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] فالأمر يتردّد بين الاسمين الإلهيين: الأول والآخر، وعين العبد مظهر لحكم هذين الاسمين، وهذا هو الفصل الذي تسميه الكوفيون العماد مثل قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] من قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلولا الاعتماد على عين العبد ما ظهر سلطان هذين الاسمين، إذ العين هنالك واحدة لا متحدة، وفي العبد متحدة لا واحدة، فالأحدية لله والاتحاد للعبد لا الأحدية، فإنه لا يعقل العبد إلاّ بغيره لا بنفسه، فلا رائحة له في الأحدية أبداً، والحق قد تعقل له الأحدية وقد تعقل بالإضافة، لأنّ الكل له بل هو عين الكل لا كلية جمع، بل حقيقة أحدية تكون عنها الكثرة، ولا يصحّ هذا إلاّ في جناب الحق خاصة، فلا يصدر عن الواحد أبداً في قضية العقل إلاّ واحداً لا أحدية الحق، فإن الكثرة تصدر عنها، لأنّ أحديته خارجة عن حكم العقل وطوره، فأحدية حكم العقل هي التي لا يصدر عنها إلاّ واحد، وأحدية الحق لا تدخل تحت الحكم، كيف يدخل تحت الحكم من خلق الحكم والحاكم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فالذكر أعلى المقامات كلها، والذاكر هو الرجل الذي له الدرجة على غيره من أهل المقامات كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨] ومن الذكر سمّي الذكر الذي هو نقيض الأنثى فهو الفاعل والأنثى منفعلة كحوّاء من آدم، فقد نبهتك بذكر الحق عن ذكرك من كونه مصلياً، فحوّاء عن ذكر بشري صوريّ إلهي، وعيسىٰ عن ذكر روحيّ ملكيّ في صورة بشر، فذكر حوّاء أتم بسبب الصورة، وذكر عيسىٰ أتم بالملكية المتجلية في الصورة البشرية المخلوقة على الحضرة الإلهية، فجمع بين الصورة والروح فكان نشأة تمامية ظاهره بشر وباطنه ملك فهو روح الله وكلمته، فـ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢] أي من أجل الله لمن ظهر من المخلوقين بالعزّة فذلّوا لهم تحت العزّة الإلهية، إذ لا يصحّ ذلّة إلاّ بظهورها، فالأعزاء من الخلائق هم مظاهر العزّة الإلهية، فالمتواضع من تواضع تحت جبروت المخلوقين، والفقير على الحقيقة من افتقر إلى الأغنياء من المخلوقين، لأنّ غنى المخلوق هو مظهر لصفة الحق، فالفقير من افتقر إليها ولم يحجبه المظهر عنها، وهكذا كل صفة علوية إلهية لا تنبغي إلاّ لله،

يكون مظهرها في المخلوقين، فإن العلماء بالله يذلّون تحت سلطانها ولا يعرف ذلك إلاَّ العلماء بالله، فإذا رأيت عارفاً يزعم أنه عارف وتراه يتعزّز على أبناء الدنيا لما يرى فيهم من العزّة والجبروت فاعلم أنه غير عارف ولا صاحب ذوق، وهذا لا يصحّ إلاَّ للذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أي في كل حال، هذا معنى الكثير، فإنه من الناس من يكون له هذه الحالة في أوقات ما ثم تنحجب، فدلّ انحجابه على أنها لم تكن هذه المعرفة عنده عن ذوق وإنما كانت عن تخيّل وتوهّم وتمثّل لا عن تحقّق.

ومن الأولياء أيضاً: التائبون والتائبات والتوّابون رضي الله عنهم، تولاهم الله بالتوبة إليه في كل حال أو في حال واحد سار في كل مقام. واعلم أن الله سبحانه وصف نفسه بالتوّاب لا بالتائب وذكر محبته للتوّابين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] وهم الراجعون منه إليه. وأمّا من رجع إليه من غيره فهو تائب خاصة فإنه لا يرجع إليه من غيره من هذه صفته إلاَّ إلى عين واحدة، ومن يرجع منه إليه فإنه يرجع إلى أسماء متعدّدة في عين واحدة وذلك هو المحبوب، ومن أحبّه الله كان سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه وجميع قواه ومحال قواه أي هو عين قواه بل محال قواه فما أحبّ إلاَّ نفسه وهو أشدّ الحب من حبّ الغير، فإن حبّ الغير من حبّ النفس وليس حبّ النفس من حبّ الغير، فالحبّ الأصليّ هو حبّ الشيء نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ و ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٧] والتوّابون مجلى صورة التوّاب فرأى نفسه فأحبها لأنه الجميل فهو يحب الجمال، والكون مظاهره فما تعلقت محبته إلاَّ به، فإن الصور منه، وعين العبد في العناية الإلهية غرق، فالتائب راجع إليه من عين المخالفة، ولو رجع ألف مرة في كل يوم فما يرجع إلاَّ من المخالفة إلى عين واحدة وهو القابل التوب خاصة، والتوّاب ينتقل في الآنات مع الأنفاس من الله إلى الله بالموافقات بل لا يكون إلاَّ كذلك، وإن ظهرت في الظاهر ممّن هذه صفته عند الله مخافة فلجهل الناظر بالصورة التي أدخلت عليه الشبهة، فإنه يتخيل أنه قد اجتمع معه في الحكم وما عنده خبر أنه ممّن قيل له اعمل ما شئت وأبيح له ما حجر على غيره، ثم بيّن له فقال: فقد غفرت لك أي سترتك عن خطاب التحجير، فالتوّاب هو المجهول في الخلق لأنه محبوب، والمحب غيور على محبوبه فستره عن عيون الخلق، فإنه لو كشفه لعباده ونظروا إلى حسن المعنى في باطنه لأحبّوه، ولو أحبّوه لصرفوا همتهم إليه فآثروا فيه الإقبال عليهم تخلّقاً حقيقياً من قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فكان سبب إقبال الحق على العبد إقبال العبد على أمر الحق، فما ظنّك بالمخلوق فهو أسرع في الإقبال عليهم لأنه محل يقبل الأثر، فلهذا القبول الصادر منهم لو أحبهم الخلق سترهم فلم يعرفوا فهم العرائس المخدّرات خلف حجاب الغيرة فيقال فيهم مذنبون وليسوا والله بمذنبين بل مصانين محفوظين، وهذا المقام هو مقام التوبة من التوبة، أي من التوبة التي يقال في صاحبها تائب بالتوبة التي يقال في صاحبها توّاب، قال بعضهم في ذلك: [السريع]

يا ربَّةَ العود خذي في الغنا ... وحرّكي من صوته ما وَنَا

فإنّ مسْوَدَّ قميصِ الدجى لونه الصبح بما لوّنا
قد تابَ أقوامٌ كثيرٌ وما تابَ من التوبة إلاّ أنا

ولنا في هذا المقام على أتم إشارة من قول الأوّل: [السريع]

ما فازَ بالتوبة إلاّ الذي قد تابَ منها والورَى نُوَّمُ
فمن يتُبْ أدرك مطلوبَه من توبة الناس ولا يعلموا

فالتوّابون أحباب الله بنص كتابه الناطق بالحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]. ومن الأولياء أيضاً المتطهرون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله القدوس بتطهيره، فتطهيرهم تطهير ذاتيّ لا فعليّ وهي صفة تنزيه، وهو تعمل في الطهارة ظاهراً وفي الحقيقة ليس كذلك، ولهذا أحبّهم الله، فإنها صفة ذاتية له، يدل عليها اسمه: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] فأحبّ نفسه، والصورة فيهم مثل الصورة في التوّابين ولهذا قرن بينهما في آية واحدة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فعين محبته لهم ليعلم أنّ صفة التوبة ما هي صفة التطهير، وجاور بينهما لأحدية المعاملة من الله في حقّهما من كونه ما أحبّ سوى نفسه.

واعلم أنّ المتطهر في هذا الطريق من عباد الله الأولياء هو الذي تطهر من كل صفة تحول بينه وبين دخوله على ربّه، ولهذا شرع في الصلاة الطهارة، لأن الصلاة دخول على الرب لمناجاته، والصفات التي تحول بين العبد وبين دخوله على ربه هي كل صفة ربانية لا تكون إلاّ لله، وكل صفة تدخله على ربّه ويقع بها لهذا العبد التطهير فهي صفاته التي لا يستحقها إلاّ العبد، ولا ينبغي أن تكون إلاّ له، ولو خلع الحق عليه جميع الصفات التي لا تنبغي إلاّ له، ولا بدّ من خلعها عليه لا تبرح ذاته من حيث تجلّى الرب له موصوفة بصفاته التي له، فإن كان التجلّي ظاهراً كان حكم صفاته عليه ظاهراً مثل الخشوع والخضوع وخمود الجوارح وسكون الأعضاء والارتعاش الضروريّ وعدم الالتفات، وإن كان التجلّي باطناً لقلبه كان أيضاً حكم صفاته في باطنه قائماً، وسواء كان موصوفاً في ظاهره في ذلك الحال بصفة ربانية أي حكمها ظاهر عليه من قهر واستيلاء أو قبض أو عطاء أو عطف أو حنان، فالتجلّي في الباطن بصفات العبودة لازم لا ينفك عنه باطن المتطهر أبداً، فإنّ طهارة القلب مثل سجوده إذا تطهر وصحّ تطهيره لا تنتقض طهارته أبداً، وكل من قال في هذا بتجديد طهارة القلب وأنّ طهارته يدخل عليها في القلب ما ينقضها فهو حديث نفس أعني طهره ما تطهر قط، فإنّ طهارة القلب مؤيّدة، وهؤلاء هم المتطهرون الذين أحبّهم الله وهي حالة مكتسبة يتعمّل لها الإنسان، فإنّ التفعل تعمّل الفعل، ثم الكلام في التعمّل في ذلك على صورة ما ذكرناه في التوّاب سواء آنفاً وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

ومن الأولياء أيضاً الحامدون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بعواقب ما تعطيه صفات الحمد فهم أهل عاقبة الأمور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤١] فالحامد من عباد الله من يرى في الحمد المطلق على ألسنة العالم كله، سواء كان

الحامدون من أهل الله أو لم يكونوا، وسواء كان المحمود الله أو كان ممّا يحمد الناس به بعضهم بعضاً، فإنه في نفس الأمر يرجع عواقب الثناء كله إلى الله لا إلى غيره، فالحمد إنما هو لله خاصة بأيّ وجه كان، فالحامدون الذين أثنى الله عليهم في القرآن هم الذين طالعوا نهايات الأمور في ابتدائها وهم أهل السوابق، فشرعوا في حمده ابتداء بما يرجع إليه سبحانه وتعالىٰ جلّ جلاله من حمد المحجوبين انتهاء، فهؤلاء هم الحامدون على الشهود بلسان الحق.

ومن الأولياء أيضاً السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله من رجال ونساء، قال ﷺ: «**سياحة أمّتي الجهاد في سبيل الله**»، قال تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] والسياحة المشي في الأرض للاعتبار برؤية آثار القرون الماضية ومن هلك من الأمم السالفة، وذلك أنّ العارفين بالله لما علموا أنّ الأرض تزهو وتفخر بذكر الله عليها وهم رضي الله عنهم أهل إيثار وسعي في حق الغير ورأوا أنّ المعمور من الأرض لا يخلو عن ذاكر لله فيه من عامّة الناس، وأنّ المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران لا يكون فيها ذاكر لله من البشر، لزم بعض العارفين السياحة صدقة منهم على البيداء التي لا يطرقها إلاّ أمثالهم، وسواحل البحار وبطون الأودية وقنن الجبال والشعاب والجهاد في أرض الكفر التي لا يوحّد الله تعالىٰ فيها ويعبد فيها غير الله، ولذلك جعل النبيّ ﷺ سياحة هذه الأمة الجهاد، فإنّ الأرض وإن لم يكفر عليها ولا ذكر الله فيها أحد من البشر فهي أقل حزناً وهما من الأرض التي عبد غير الله فيها وكفر عليها وهي أرض المشركين والكفار، فكأن السياحة بالجهاد أفضل من السياحة في غير الجهاد، ولكن بشرط أن يذكر الله عليها ولا بدّ، فإنّ ذكر الله في الجهاد أفضل من لقاء العدوّ، فيضرب المؤمنون رقابهم ويضرب الكفار رقاب المؤمنين، والمقصود إعلاء كلمة الله في الأماكن التي يعلو فيها ذكر غير الله ممّن يعبد من دون الله فهؤلاء هم السائحون، لقيت من أكابرهم يوسف المغاور الجلاء ساح مجاهداً في أرض العدو عشرين سنة. وممّن رابط بثغر الأعداء شاب بجلمانية نشأ في عبادة الله تعالىٰ يقال له أحمد بن همام الشقاق بالأندلس، وكان من كبار الرجال مع صغر سنّه، انقطع إلى الله تعالىٰ على هذه الطريق وهو دون البلوغ واستمرّ حاله على ذلك إلى أن مات.

ومن الأولياء أيضاً: الراكعون من رجال ونساء رضي الله عنهم، وصفهم الله في كتابه بالراكعين وهو الخضوع والتواضع لله تعالىٰ من حيث هويته سبحانه ولعزّته وكبريائه حيث ظهر من العالم، إذ كان العارف لا ينظر العالم من حيث عينه وإنما ينظره من حيث هو مظهر لصفات الحق، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وقال: «**الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري مَنْ نازعني واحداً منهما قَصَمْتُه**» فالعين هالكة والصفة قائمة، فالراكعون ركعوا للصفة لا للعين لأنهم سمعوا الحق يقول: **من نازعني واحداً منهما قصمته**، فعلموا أنها صفة الحق لا صفتهم، ولهذا أوقع التنازع فيهما فعرفوا من العالم ما لم يعرف العالم من نفسه، فلو كان الكبرياء والجبروت والعزّة والعظمة التي يدّعيها العزيز الجبار العظيم المتكبّر من العباد صفة لهم

حقيقة لما ذمّهم ولا أخذهم أخذة رابية، كما أنه لم يأخذهم بكونهم أذلاء خاشعين حقراء محقرين، فإنّ الحقارة والذلّة والصغار صفتهم، فمن ظهر بصفته لم يؤاخذه الله لأنه كيف يؤاخذه إذا ظهر بما هو حق له؟ ولما لم يكن لهم الجبروت وما في معناه وظهروا به أهلكهم الله فتحقق عند العارفين أنها صفة الحق تعالىٰ ظهرت فيمن أراد الله أن يشقيه، فتواضع العارفون للجبابرة والمتكبرين من العالم للصفة لا لعينهم، إذ كان الحق هو مشهودهم في كل شيء حتى الانحناء في السلام عند الملاقاة ربما انحنى العارفون لإخوانهم عند ما يلقونهم في سلامهم، فيسُّر بذلك الشخص الذي ينحني من أجله، وسروره إنما هو من جهله بنفسه حيث تخيّل أن ذلك الانحناء والركوع له ممّن لقيه إنما هو لما يستحقه من الرفعة، فيفعله عامّة الأعاجم مقابلة جهل بجهل وعادة وعرفاً وهم لا يشعرون، ويفعله العارفون مشاهدة جبروت إلهيّ يجب الانحناء له إذ لا يرون إلاّ الله، قال لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. والباطل هو العدم بلا شك، والوجود كله حق، فما ركع الراكع إلاّ لحق وجودي باطنه عدم وهو عين المخلوق. فإن قلت: فالراكع أيضاً وجود. قلنا: صدقت فإن الأسماء الإلهية التي تنسب إلى الحق على مراتب في النسبة بعضها يتوقف على بعض، وبعضها لها الهيمنة على بعض، وبعضها أعمّ تعلّقاً وأكثر أثراً في العالم من بعض، والعالم كله مظاهر هذه الأسماء الإلهية، فيركع الاسم الذي هو تحت حيطة غيره من الأسماء للاسم الذي له الهيمنة عليه فيظهر ذلك في الشخص الراكع فكان انحناء حق لحق. ألا ترى الأحاديث الواردة الصحيحة بالفرح الإلهيّ والتبشيش والنزول والتعجّب والضحك أين هذه الصفات من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ومن ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] وأمثال ذلك من صفات العظمة، فمن ركع فبهذه الصفة فهي الراكعة، ومن تعاظم فبتلك الصفة أيضاً الإلهية فهي العظيمة، والراكعون من الأولياء على هذا الحد هو ركوعهم.

ومن الأولياء أيضاً: الساجدون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بسجود القلوب، فهم لا يرفعون رؤوسهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو حال القربة وصفة المقرّبين، ولا يكون السجود إلاّ عن تجلٍ وشهود، ولهذا قال له: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] يعني اقتراب كرامة وبرّ وتحف، كما يقول الملك للرجل إذا دخل عليه فحيّاه بالسجود له بين يديه فيقول له الملك: أدنه أدنه حتى ينتهي منه حيث يريد من القربة، فهذا معنى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ في حال السجود إعلاماً بأنه قد شاهد من سجد له وأنه بين يديه وهو يقول له ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ليضاعف له القربة، كما قال: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» إذا كان اقتراب العبد عن أمر إلهيّ كان أعظم وأتمّ في برّه وإكرامه لأنه ممتثل أمر سيده على الكشف، فهذا هو سجود العارفين الذين أمر الله نبيّه ﷺ أن يطهر بيته لهم ولأمثالهم فقال عزّ من قائل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة الحج: الآية ٢٦] وقال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٨] يريد الذين لا يرفعون رؤوسهم أبداً، ولا يكون ذلك إلاّ في سجود القلب.

ولهذا قال له عقيب قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ثم فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فتعرف باليقين من سجد منك ولمن سجدت، فتعلم أنك آلة مسخّرة بيد حق قادر اصطفاك وطهرك وحلاك بصفاته، فصفاته سبحانه طلبته بالسجود لذاته لنسبتها إليه.

فانظر يا أخي سرّ ما أشرنا إليه في هذه المسألة إذ كانت النسب أو الصفات أو الأسماء لا تقوم بأنفسها لذاتها، فهي طالبة بطلب ذاتيّ لعين تقوم بها فيظهر حكمها بأن توصف تلك العين بها أو تسمّى بها أو تنسب إليها كيف ما شئت من هذا كله فقل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وكذلك انظر في قوله وتنبّه: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٩] فأشار إلى تنوّع الحالات عليه في حال سجوده من غير رفع يتخلّل ذلك، ولقد رفع وقام وركع وثنى السجود، ولم يثن حالة من حالات صلاته إلاّ السجود لشرفه في حق العبد، فأكّده بتثنيته في كل ركعة فرضاً واجباً وركناً لا ينجبر إلاّ بالإتيان به.

ومن الأولياء: الآمرون بالمعروف من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالأمر بالله إذ كان هو المعروف، فلا فرق أن تقول: الآمرون بالله أو الآمرون بالمعروف لأنه سبحانه هو المعروف الذي لا ينكر ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٧] مع كونهم مشركين، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يعني الآلهة ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فهو المعروف عندهم بلا خلاف في ذلك في جميع النحل والملل والعقول، قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فهو المعروف، فمن أمر به فقد أمر بالمعروف، ومن نهى به فقد نهى عن المنكر بالمعروف، فالآمرون بالمعروف هم الآمرون على الحقيقة بالله، فإنه سبحانه إذا أحبّ عبده كان لسانه الذي يتكلم به، والأمر من أقسام الكلام فهم الآمرون به لأنه لسانهم، فهؤلاء هم الطبقة العليا في الأمر بالمعروف، وكل أمر بمعروف فهو تحت حيطة هذا الأمر فاعلم ذلك.

ومن الأولياء أيضاً: الناهون عن المنكر من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالنهي عن المنكر بالمعروف، والمنكر الشريك الذي أثبته المشركون بجعلهم فلم يقبله التوحيد العرفانيّ الإلهيّ وأنكره فصار منكراً من القول وزوراً، فلم يكن ثم شريك له عين أصلاً بل هو لفظ ظهر تحته العدم المحض فأنكرته المعرفة بتوحيد الله الوجوديّ فسمّي منكراً من القول إذ القول موجود وليس بمنكر عينيّ فإنه لا عين للشريك إذ لا شريك في العالم عيناً وإن وجد قولاً ونطقاً، فهم الناهون عن المنكر، وهو عين القول خاصة، فليس لمنكر من المنكرات عين موجودة فلهذا وصفهم الله بأنهم ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] ولكن نهيهم بالمعروف في ذلك.

ومن الأولياء أيضاً: الحلماء من رجال ونساء رضي الله عنهم، وما من صفة للرجال إلاّ وللنساء فيها مشرب تولاهم الله بالحلم، وهو ترك الأخذ بالجريمة في الحال مع القدرة على ذلك فلم يعجل، فإن العجلة بالأخذ عقيب الجريمة دليل على الضجر، وحكمه في المستأنف في المشيئة، فالحليم هو الذي لا يعجل مع القدرة وارتفاع المانع والعلم السابق مانع، وهو محجوب عن العبد قبل الاتصاف بصفة الحلم، فالعبيد على الحقيقة إذا لم يعجلوا بالأخذ

عقيب الجريمة مع القدرة هم الحلماء فإنهم لا علم لهم سابق يمنع من وقوع الأخذ لا في نفس الأمر، فإن حلم العبد من العلم الإلهيّ السابق، ولا يشعر به العبد حتى تقوم به صفة الحلم، فحينئذ يعلم ما أعطاه حكم علم الله في حكمه، ولهذا إن تقدّمه العلم بذلك لا يسمّى حليماً على جهة التشريف، فالحق يوصف بالحلم لعدم الأخذ لا على طريق التشريف، والعبد ينعت بالحليم لعدم الأخذ أيضاً ولكن على طريق التشريف لجهله بما في علم الله من ذلك قبل اتصافه بعدم المؤاخذة والإمهال من غير إهمال، فشرف الحق بالعلم لا بالحلم، وشرف العبد بالحلم لا بالعلم لجهله بذلك، فإن علم قبل قيام صفة الحلم به لم يكن له الحلم تشريفاً، فالأمر فيه بمنزلة من هو مجبور في اختياره، فلا يثنى عليه بالاختيار إلاّ مع رفع العلم عنه بالجبر في ذلك الاختيار سواء، لأنّ الاختيار يناقض الجبر، فيعلم الإنسان عند ذلك ما هو المراد بالاختيار، ويرى أنه ما ثم في الوجودين إلاّ الجبر من غير إكراه فهو مجبور غير مكره، وهذه المسألة من أعظم المسائل في المعارف، وكم هلك فيها من الخلق قديماً وحديثاً.

ومن الأولياء أيضاً: الأواهون من رجال ونساء رضي الله عنهم، لقيت منهم امرأة بمرشانة الزيتون من بلاد الأندلس تدعى بشمس مسنّة تولى الله هذا الصنف بالتأوّه ممّا يجدونه في صدورهم من ردّهم لقصورهم من عين الكمال والنفوذ، ويكون عن وجود أو عن وجود وجد على مفقود، أثنى الله تعالىٰ على خليله إبراهيم عليه السلام بذلك أنّ إبراهيم ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] فتأوّه لما رأى من عبادة قومه ما نحتوه وحلم فلم يعجل بأخذهم على ذلك مع قدرته عليهم بالدعاء عليهم ولهذا سمّي حليماً، فلو لم يقدر ولا مكّنه الله من أخذهم ما سمّاه سبحانه حليماً، ولكنه عليه السلام علم أنه في دار الامتزاج والتحوّل من حال إلى حال، فكان يرجو لهم الإيمان فيما بعد، فهذا سبب حلمه وجود الموطن الذي يقتضي التحوّل من العبد والقبول من الله، فلو علم من قومه ما علم نوح عليه السلام حيث قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٧] ما حلم عنهم، فالأوّاه هو الذي يكثر التأوّه لبلواه، ولما يقاسيه ويعانيه ممّا يشاهده ويراه وهو من باب الغيرة والحيرة، والتأوّه أمر طبيعيّ لا مدخل له في الأرواح من حيث عروها عن الامتزاج بالطبع.

ومن الأولياء: الأجناد الإلهيون الذين لهم الغلبة على الأعداء من رجال ونساء رضي الله عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٣] فأضافهم إليه سبحانه من اسمه الملك، فهم عبيد الملك وهنا سرّ، فإن العالم أجناده سلّط بعضهم على بعض ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] أي ما يحصيهم عدداً تولّى الله طائفة منهم بالعناية الإلهية فأضافهم إلى نفسه بضمير الكناية عن ذاته، ولم يصرّح باسم إلهيّ معين منصوص عليه اكتفاء بتسميتهم جنداً، والأجناد لا تكون إلاّ للملك، فبين أنهم أهل عدّة، إذ كانت العدّة من خصائص الأجناد التي تقع بها الغلبة على الأعداء، والأعداء الذين في مقابلة هؤلاء الأجناد الشياطين والأهواء والمصارف المذمومة كلها وسلطانهم الهوى، وعدّة هؤلاء الجند التقوى والمراقبة والحياء والخشية والصبر والافتقار، والميدان الذي يكون فيه المصاف والمقابلة إذا

﴿تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦١] بينهم وبين الأعداء هو العلم في حق بعض الأجناد والإيمان في حق بعضهم، والعلم والإيمان معاً في حق الطبقة الثالثة من الجند، فإن أجناد الإنابة الذين لهم الغلبة على ثلاث طبقات: الطبقة الخاصة العلية: أهل علم بتوحيد الله، وأهل علم برسول الله عن دليل عقليّ برهاني، وأهل إيمان مبناه على هذا العلم. والطبقة الثانية: أهل علم بتوحيد الله عن دليل قطعيّ من جهة النظر لا عن علم ضروريّ يجدونه في نفوسهم فإنه من الجند، فلا بدّ له من آلة يدفع بها العدو المنازع ولا يقدر يدفعه صاحب العلم الضروريّ لكونه عالماً من هذا الوجه من غير دليل، فإن العدو ما يندفع إلاّ بالدليل وترتيبه، وأصحاب العلم بالله من جهة الضرورة طائفة أخرى لا يتميزون في الأجناد ولا يتعرّضون لدفع عدو بشبهة قادحة. والطبقة الثالثة: أهل إيمان لا أهل علم، فهم أهل إيمان يكون عنه خرق عوائد يقوم لهم ذلك مقام الأدلة للعالم فيدفعون بخرق العوائد أعداء الله وأعداءهم كما يدفعه صاحب الدليل، فمثل هذه الطبقة هم المسمّون جنداً، وأمّا المؤمنون الذين ليس عندهم خرق عادة لدفع عدو فليسوا بأجناد وإن كانوا مؤمنين، والجامع لمعرفة هذه الطبقة أن كل شخص يقدر على دفع عدو بآلة تكون عنده فهو من جنده سبحانه وتعالىٰ الذين لهم الغلبة والقهر، وهو التأييد الإلهيّ الذي به يقع ظهورهم على الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[سورة الصف: الآية ١٤].

ومن الأولياء أيضاً: الأخيار من رجال ونساء رضي الله عنهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٤٧] تولاهم الله بالخيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٨] جمع خيرة وهي الفاضلة من كل شيء، ومنه: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٠] والفضل يقتضي الزيادة على ما يقع فيه الاشتراك ممّا لا يشترك فيه من ليس من ذلك الجنس، فالأخيار كل من زاد على جميع الأجناس بأمر لا يوجد في غير جنسه من العلم بالله على طريق خاص لا يحصل إلاّ لأهل ذلك الجنس، ثم في هذا الجنس العالم بهذا العلم الخاص الذي به سمّوا أخياراً: منهم من أعطى الإفصاح عمّا علمه. ومنهم من لم يعط الإفصاح عمّا علمه في نفسه، فالذي أعطى الإفصاح أخير ممّن هو دونه وهو المستحق بهذا الاسم فإن الخير بالكسر الكلام، يقال في فلان كرم وخير أي كرم وفصاحة، فإذا أعطى الفصاحة عمّا عنده اهتدى به من سمع منه فكانت المنفعة به أتمّ فكان أفضل من غيره فإنه أقرب إلى التشبّه بالاسم النافع، فاعلم ذلك فقد بيّنت لك مرتبة الأخيار، ولهذا ورد في أوصاف المرسلين، لأن الرسول لا بدّ أن يكون مؤيداً بالنطق ليبين لمن أرسل إليه ما أرسل به إليه فهم الأخيار أي أصحاب هذه الفضيلة.

ومن الأولياء أيضاً: الأوّابون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالأوبة في أحوالهم قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥] يقال: آبت الشمس لغة في غابت، فالرجال الغائبون عند الله فلم يشهد حالهم مع الله أحد من خلق الله، فإن الله وصف نفسه بأنه غفور لهم أي ساتر أي يستر مقامهم عن كل أحد سواه لأنهم طلبوا الغيبة

عنده حتى لا يكون لهم مشهود سواه سبحانه. والآيب أيضاً الذي يأتي القوم ليلاً كالطارق والليل ستر، وهم الراجعون إلى الله في كل حال من كل ناحية، يقال: جاؤوا من كل أوبة أي ناحية، فالأوّاب الراجع إلى الله من كل ناحية من الأربع التي يأتي منها إبليس إلى الإنسان من ناحية أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فهم يرجعون في ذلك كله إلى الله أولاً وآخراً فيما ذمّ وحمد من ذلك، ولما اقتضى الأدب أن لا يرجعوا في حصول ما ذمّ إلى الله واقتضى لهؤلاء هذا الحال أن يرجعوا فيه إلى الله سمّى نفسه غفوراً للأوّابين أي يغفر لهم هذا القدر الذي يصحبه من مقام آخر من سوء الأدب، فالرجال الذين هم بهذه المثابة وهذه الصفة هم الأوّابون.

ومن الأولياء أيضاً: المخبتون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإخبات وهو الطمأنينة، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] أي يسكن، والخبت المطمئن من الأرض، فالذين اطمأنوا بالله من عباده وسكنت قلوبهم لما اطمأنوا إليه سبحانه فيه وتواضعوا تحت اسمه رفيع الدرجات وذلّوا لعزّته، وأولئك هم المخبتون الذين أمر الله نبيّه ﷺ في كتابه أن يبشرهم فقال له: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٤] فإن قيل: ومن المخبتون؟ فقل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٥] فهذه صفات المخبتين أي كانوا ساكنين فحرّكهم ذكر الله بحسب ما وقع به الذكر وصبروا أي حبسوا نفوسهم على ما أصابهم من ذلك، ولم يمنعهم ذلك الوجل ولا غلبة الحال عن إقامة الصلاة إذا حضر وقتها على أتم نشأتها لما أعطاهم الله من القوّة على ذلك، ثم مع ما هم فيه من الصبر على ما نابهم من الشدّة، فسألهم سائل وهم بتلك المثابة في رزق علميّ أو حسيّ من سدّ جوعة أو ستر عورة أعطوه ممّا سألهم منه فلم يشغلهم شأن عن شأن، فهذا نعت المخبتين الذي نعتهم الله به وهم ساكنون تحت مجاري الأقدار عليهم راضون بذلك من خبت النار إذا سكن لهبها.

ومن الأولياء أيضاً: المنيبون إلى الله من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإنابة إليه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [سورة هود: الآية ٧٥] والرجال المنيبون هم الذين رجعوا إلى الله من كل شيء أمرهم الله بالرجوع عنه مع شهودهم في حالهم أنهم نوّاب عن الله في رجوعهم، إذ الرجوع عن الكشف إنما هو لله، إذ كانت نواصي الخلق بيده يصرفهم كيف يشاء، فمن شاهد نفسه في إنابته إلى ربّه نائباً عن الله كما ينوب المصلي عن الله في قوله: سمع الله لمن حمده وفي تلاوته كذلك رجوعه إلى الله في كل حال يسمّى منيباً فلهم خصوص هذا الوصف.

ومن الأولياء أيضاً: المبصرون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإبصار وهو من صفات خصائص المتقين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١] فهم علماء أهل تقوى طرأ عليهم خاطر حسن أصله شيطانيّ فوجدوا له ذوقاً خاصاً لا يجدونه إلاّ إذا كان من الشيطان فيذكرهم ذلك الذوق بأنّ

ذلك الخاطر من الشيطان ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي مشاهدون له بالذوق، فإن اقتضى العلم أخذه وقلب عينه ليحزن بذلك الشيطان أخذه ولم يلتفت منه وكان من المبصرين، فعلم كيف يأخذه ما يجب أخذه من ذلك، ففرّق بينه وبين ما يجب تركه كما قال عيسىٰ عليه السلام لما قال له إبليس حين تصوّر له على أنه لا يعرفه فقال له: يا روح الله قل لا إله إلاّ الله رجاء منه أن يقول ذلك لقوله فيكون قد أطاعه بوجه ما وذلك هو الإيمان، فقال له عيسىٰ عليه السلام: أقولها لا لقولك لا إله إلاّ الله، فجمع بين القول ومخالفة غرض الشيطان لا امتثالاً لأمر الشيطان، فمن عرف كيف يأخذ الأشياء لا يبالي على يدي من جاء الله بها إليه، وإن اقتضى العلم ردّ ذلك في وجهه ردّه، فهذا معنى قوله: ﴿ تَذَكَّرُواْ﴾ ولا يكون التذكّر إلاّ لمعلوم قد نسي ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي رجع إليهم نظرهم الذي غاب عنهم رجع بالتذكّر.

ومن الأولياء أيضاً: المهاجرون والمهاجرات رضي الله عنهم، تولاهم الله بالهجرة بأن ألهمهم إليها ووفقهم لها، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠] فالمهاجر من ترك ماأمره الله ورسوله بتركه وبالغ في ترك ذلك لله خالصاً من كل شبهة عن كرم نفس وطواعية لا عن كره وإكراه ولا رغبة في جزاء، بل كرم نفس بمقاساة شدائد يلقاها من المنازعين له في ذلك، ويسمعونه ما يكره من الكلام طبعاً، فيتغير عند سماعه ويكون ذلك كله عن اتساع في العلم والدؤوب على مثل هذه الصفة وتقيده في ذلك كله بالوجوه المشروعة لا بأغراض نفسه، ويكون به كمال مقامه، فإذا اجتمعت هذه الصفات في الرجل فهو مهاجر، فإن فاته شيء من هذه الفصول والنعوت فاته من المقام بحسب ما فاته من الحال، وإنما قلنا هذا كله واشترطناه لما سمّاه الله مهاجراً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٦] فكل ما يدخل تحت هذا اللفظ ممّا ينبغي أن يكون وصفاً حسناً للعبد فيسمى به صاحب هجرة اشترطناه في المهاجر لانسحاب هذه الحقيقة اللفظية في نفس الوضع على ذلك المعنى الذي اشتق من لفظه هذا الاسم.

ومن الأولياء أيضاً: المشفقون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالإشفاق من خشية ربهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥٧] يقال: أشفقت منه فأنا مشفق إذ حذرته، قال تعالىٰ: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٧ ـ ٢٨] أي حذرون من عذاب ربهم غير آمنين يعني وقوعه بهم، ولا يقال: أشفقت منه إلاّ في الحذر، ويقال: أشفقت عليه إشفاقاً من الشفقة والأصل واحد أي حذرت عليه، فالمشفقون من الأولياء من خاف على نفسه من التبديل والتحويل، فإن أمنه الله بالبشرى مع إشفاقه على خلق الله مثل إشفاق المرسلين على أممهم، ومن بشّر من المؤمنين وهم قوم ذوو كبد رطبة لهم حنان وعطف إذا أبصروا مخالفة الأمر الإلهيّ من أحد ارتعدت فرائصهم إشفاقاً عليه أن ينزل به أمر من السماء، ومن كان بهذه المثابة فالغالب على أمره أنه محفوظ في أفعاله، فلا يتصوّر منه مخالفة لما تحقق به من صفة الإشفاق، فلما كانت ثمرة الإشفاق الاستقامة على طاعة الله أثنى الله عليهم بأنهم مشفقون للتغيير الذي يقوم

بنفوسهم عند رؤية الموجب لذلك مأخوذ من الشفق الذي هو حمرة بقية ضوء الشمس إذا غربت أو إذا أرادت الطلوع.

ومن الأولياء: الموفون بعهد الله من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بالوفاء، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٠] وهم الذين لا يغدرون إذا عاهدوا. ومن جملة ما سأل قيصر ملك الروم عنه أبا سفيان بن حرب حين سأله عن صفة النبيّ ﷺ: هل يغدر؟ فالوفاء من شيم خاصة الله، فمن أتى في أموره التي كلّفه الله أن يأتي بها على التمام وكثر ذلك في حالاته كلها فهو وفيّ، وقد وفى، قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] يقال: وفى الشيء وفياً على فعول بضم فاء الفعل إذا تمّ وكثر، وهم على إشراف على الأسرار الإلهية المخزونة ولهذا يقال: أوفى على الشيء إذا أشرف، فمن كان بهذه المثابة من الوفاء بما كلّفه الله وأشرف على ما اختزنه الله من المعارف عن أكثر عباده فذلك هو الوفي. ومن توفّاه الله في حياته في دار الدنيا أي آتاه من الكشف ما يأتي للميت عند الاحتضار إذ كانت الوفاة عبارة عن إتيان الموت، فإذا طولع العبد على هذه المرتبة أوجبت له الوفاء بعهود الله التي أخذها عليه، فقد يكون الوفاء لأهل هذه الصفة سبب الكشف، وقد يكون الكشف في حق طائفة منهم سبب الوفاء.

ومن الأولياء أيضاً: الواصلون ما أمر الله به أن يوصل من رجال ونساء رضي الله عن جميعهم، تولاّهم الله بالتوفيق بالصلة لمن أمر الله به أن يوصل، قال تعالىٰ: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١] يعني من صلة الأرحام، وأن يصلوا من قطعهم من المؤمنين بما أمكنهم من السلام عليهم فما فوقه من الإحسان، ولا يؤاخذ بالجريمة التي له الصفح عنها والتغافل، ولا يقطعون أحداً من خلق الله إلاّ من أمرهم الحق بقطعه، فيقطعونه معتقدين قطع الصفة لا قطع ذواتهم، فإن الصفة دائمة القطع في حق هؤلاء اتصف بها من اتصف، فهم ينتظرون به رحمة الله أن تشمله، والوصل ضدّ القطع. ولما كان الوجود مبنياً على الوصل ولهذا دلّ العالم على الله واتصف بالوجود الذي هو الله فالوصل أصل في الباب والقطع عارض يعرض، ولهذا جعل الله بينه وبين عباده حبلاً منه إليهم يعتصمون به ويتمسكون ليصحّ الوصلة بينهم وبين الله سبحانه، قال النبيّ ﷺ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ**» أي هذه اللفظة أخذت من الاسم الرحمن عيناً وغيباً، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وقطعه إياها هو قطع الله لا أمر زائد، فلما علموا أن الحق تعالىٰ ما دعاهم إليه ولا شرع لهم الطريق الموصل إليه إلاّ ليسعدوا بالاتصال به فهم الواصلون أهل الإنس والوصال. [مجزوء الكامل]

فهمُ الذين همُو همُو ... أهلُ المودَّة في القديمْ

وقد ورد في الخبر: «**لاَ تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً**» فنهوا

عن التقاطع، ألا ترى اتصال الأنفاس داخلها بخارجها يؤذن بالبقاء والحياة، فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين فخرج الداخل يطلب دخول الخارج فلم يجده مات الإنسان لانقطاع تلك الوصلة التي كانت بين النفسين، فالواصلون ما أمر الله به أن يوصل ذلك هو عين وصلتهم بالله تعالىٰ فأثنى عليهم.

ومن الأولياء أيضاً: الخائفون من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالخوف منه أو ممّا خوّفهم منه امتثالاً لأمره فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] وأثنى عليهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] و ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١] فإذا خافوه التحقوا بالملأ الأعلى في هذه الصفة فإنه قال فيهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] فمن كان بهذه المثابة تميّز مع الملأ الأعلى، فمن أدّبهم مع الله أنهم خافوا اليوم لما يقع فيه لكون الله خوّفهم، ومنه ولما تحققوا بهذا الأدب أثنى الله عليهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] فهذا خوف الزمان، وأما خوف الحال فهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فهم أهل أدب مع الله وفقوا له حيث وفقهم، فإن كثيراً من أهل الله لا يتفطنون لهذا الأدب، ولا يعرّجون على ما خوّفوا به من الأكوان، وعلقوا أمرهم بالله، فهؤلاء لهم لقب آخر غير اسم الخائف، وإنما الخائفون الذين استحقوا هذا الاسم فهم الأدباء أوحى الله إلى رسوله موسىٰ عليه السلام: يا موسىٰ خفني وخف نفسك يعني هواك وخف من لا يخافني وهم أعداء الله، فأمره بالخوف من غيره، فامتثل الأدباء أمر الله فخافوهم في هذا الموطن، كما شكروا غير الله من المحسنين إليهم بأمر الله لا من حيث إيصال النعم إليهم على أيديهم، فهم في عبادة إلهية في شكرهم وفي خوفهم، وهذا صراط دقيق خفيّ على العارفين فما ظنّك بالعامّة. وأمّا المتوسطون أصحاب الأحوال فلا يعرفونه لأنهم تحت سلطان أحوالهم.

ومن الأولياء أيضاً: المعرضون عمّن أمرهم الله بالإعراض عنه من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاّهم الله بالإعراض عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣] وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] وقد علمت هذه الطبقة أنه ما ثم إلاّ الله فأعرضوا بأمره عن فعله فكانوا أدباء زمانهم ولم يعرضوا بأنفسهم إذ المؤمن لا نفس له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فمن ادّعى الإيمان وزعم أنّ له نفساً يملكها فليس بمؤمن فقال الحق لمن هذه صفته: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] بها يعني بالنفس التي اشتريتها منك، أعرض بها عن من تولى عن ذكرنا ممّن لم نشتر منه نفسه لكونه غير مؤمن، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الذي أسقطه الله عن أن يعتبر معرضون لكون الحق أسقطه، يقال لما لا يعتدّ به في الديّة من أولاد الإبل لغو أي ساقط، ومنه لغو اليمين لإسقاط الكفارة والمؤاخذة بها فأثنى الله عليهم بالإعراض وإن تحققوا أنه ما ثم إلاّ الله.

ومن الأولياء أيضاً: الكرماء من رجال ونساء رضي الله عنهم، تولاهم الله بكرم النفوس

فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢] أي لم ينظروا لما أسقط الله النظر إليه فلم يتدنسوا بشيء منه، فمرّوا به غير ملتفتين إليه كراماً، فما أثر فيهم فإنه مقام تستحليه النفوس وتقبل عليه للمخالفة التي جبلها الله عليها، وهذه هي النفوس الأبية أي تأبى الرذائل، فهي نفوس الكرام من عباد الله، والتحق بهذه الصفة بالملأ الأعلى الذين قال الله فيهم أنّ صحفه ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآيتان ١٥ و١٦] فنعتهم بأنهم كرام، فكل وصف يلحقك بالملأ الأعلى فهو شرف في حقك، فإن العارفين من عباد الله يجعلون بينهم وبين نعوت الحق عند التحاق بأسمائه ما وصف الله به الملأ الأعلى من تلك الصفة فيأخذونها من حيث هي صفة لعبيد من عباد الله مطهرين لا من حيث هي صفة للحق تعالىٰ، فإن شرفهم أن لا يبرحوا من مقام العبودية، وهذا الذوق في العارفين عزيز، فإن أكثر العارفين إنما يتخلقون بالأسماء الحسنى من حيث ما هي أسماء الله تعالىٰ لا من حيث ما ذكرناه من كون الملأ الأعلى قد اتصف بها على ما يليق به، فلا يتخلق العارف بها إلاّ بعد أن اكتسبت من اتصاف الملأ الأعلى روائح العبودة، فمثل هؤلاء لا يجدون في التخلّق بها طعماً للربوبية التي تستحقها هذه الأسماء، فمن عرف ما ذكرناه وعمل عليه ذاق من علم التجلّي ما لم يذقه أحد ممّن وجد طعم الربوبية في تخلّقه، وصفات أولياء الله في كتاب الله المودع كلام الله كثيرة، ومن أعلى الثناء وأكمله ما أوقع الاشتراك فيه بما يدل على المفاضلة، وأكثر من هذا التنزّل الإلهيّ ما يكون، ولولا أنّ الكيان مظاهر الحق فكان نزوله منه إليه لما أطاق العارفون حمل كلام الحق ولا سماعه، فجعل نفسه أرحم الراحمين بعباده، وأحكم الحاكمين بفصل قضائه، وأحسن الخالقين بتقديره، وخير الغافرين بستر جلاله، وخير الفاتحين لمغالق غيوبه، وخير الفاصلين بأحكام حكمته، فهم لأماناتهم وعهدهم راعون بكلاءته، وبشهادتهم قائمون بين يديه في بساط جلاله، وداعون إليه على بيّنة منه وبصيرة بما يطلبه حسن بلائه، وهم العاملون بأوامره، والراسخون في العلم بشهادة توحيده بلسان إيمانه، وأولو الأبصار بالاعتبار في مخلوقاته، وأولو النهى بما زجرهم به في خطابه، وأولو الألباب بما حفظهم من الاستمداد لبقاء نوره، وهم العارفون عن الناس لما حجبهم به عن الاطلاع إلى سابق علمه، والكاظمون الغيظ لتعدّي حدوده، والمنفقون مما استخلفهم فيه أداء أمانة لمن شاء من عبيده، والمستغفرون بالأسحار عند تجلّيه من سمائه، والشاكرون لما أسداه من آلائه، والفائزون بما وهبهم من معرفته، والسابقون على نجب الأعمال إلى مرضاته، والأبرار بما غمرهم به من إحسانه، والمحسنون بما أشهدهم من كبريائه، والمصطفون من بين الخلائق باجتبائه، والأعلون بإعلاء كلمته على كلمة أعدائه، والمقرّبون بين أسمائه وأنبيائه، والمتفكرون فيما أخفاه من غامض حكمته في أحكامه، والمذكرون من نسي إقراره بربوبيته عند أخذ ميثاقه، والناصرون أهل دينه على من ناوأهم فيه ابتغاء منازعته وإن كان بقضائه، أولئك عباد الله الذين ليس لأحد عليهم سلطان لكونهم من أهل الحجة البالغة، لما تكلموا بالنيابة عنه في كلامه فهو لسانهم، وسمعهم، وبصرهم، ويدهم، في نوره وظلماته، ولو تقصينا ما ذكر الله في كتابه من

صفات أوليائه وشرحنا ما خصّوا به لم يف بذلك الوقت، فإذ ولا بدّ من الاقتصاد في الاقتصار، فليكف هذا القدر الذي ذكرناه من ذلك إجمالاً وتفصيلاً وموقتاً وغير موقت.

واعلم أنه من شم رائحة من العلم بالله لم يقل: لم فعل كذا؟ وما فعل كذا؟ وكيف يقول العالم بالله لم فعل كذا وهو يعلم أنه السبب الذي اقتضى كل ما ظهر وما يظهر وما قدم وما أخّر وما رتب لذاته، فهو عين السبب، فلا يوجد لعلة سواه، ولا يعدم سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، فمشيئته عرش ذاته، كذا قال أبو طالب المكّي إن عقلت، فإن فتح لك في علم نسب الأسماء الإلهية التي ظهرت بظهور المظاهر الإلهية في أعيان الممكنات فتنوّعت وتجنست وتشخصت ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] و ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فسبب ظهور كل حكم في عينه اسمه الإلهي، وليست أسماؤه سوى نسب ذاتية فاعقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع والسبعون.

(الجزء الثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل من هذا الباب

اعلم أن الدعاوى لما استطال لسانها في هذا الطريق من غير المحققين قديماً وحديثاً جرّد الإمام صاحب الذوق التام محمد ابن عليّ الترمذيّ الحكيم مسائل تمحيص واختبار وعددها مائة وخمسة وخمسون سؤالاً لا يعرف الجواب عنها إلاّ من علمها ذوقاً وشرباً، فإنها لا تنال بالنظر الفكريّ ولا بضرورات العقول، فلم يبق إلاّ أن يكون حصولها عن تجلّ إلهيّ في حضرة غيبية بمظهر من المظاهر، فوقتاً يكون المظهر جسمياً، ووقتاً يكون جسمانياً، ووقتاً جسدياً، ووقتاً يكون المظهر روحياً، ووقتاً روحانياً. وهذا الباب من هذا الكتاب ممّا يطلب إيضاح تلك المسائل وشرحها، فجعلت هذا الباب مجلاها إن شاء الله تعالىٰ، فمن ذلك.

السؤال الأوّل: كم عدد منازل الأولياء؟ الجواب: اعلم أن منازل الأولياء على نوعين: حسّيّة ومعنوية، فمنازلهم الحسّيّة في الجنان وإن كانت الجنة مائة درجة. ومنازلهم الحسّيّة في الدنيا أحوالهم التي تنتج لهم خرق العوائد، فمنهم من يتبرز فيها كالأبدال وأشباههم، ومنهم من تحصل له ولا يظهر عليه شيء منها وهم الملامتية وأكابر العارفين وهي تزيد على مائة منزل وبضعة عشر منزلاً وكل منزل يتضمن منازل كثيرة فهذه منازلهم الحسّيّة في الدارين، وأما منازلهم المعنوية في المعارف فهي مائتا ألف منزل وثمانية وأربعون ألف منزل محققة لم ينلها أحد من الأمم قبل هذه الأمّة وهي من خصائص هذه الأمّة ولها أذواق مختلفة لكل ذوق وصف خاص يعرفه من ذاقه، وهذا العدد منحصر في أربعة مقامات: مقام العلم اللدنيّ، وعلم النور، وعلم الجمع والتفرقة، وعلم الكتابة الإلهية. ثم بين هذه المقامات مقامات من

جنسها تنتهي إلى بضع ومائة مقام كلها منازل للأولياء، ويتفرّع من كل مقام منازل كثيرة معلومة العدد يطول الكتاب بإيرادها، وإذا ذكرت الأمهات عرف ذوق صاحبها، فأما العلم اللدنيّ فمتعلقه الإلهيات وما يؤدي إلى تحصيلها من الرحمة الخاصة، وأما علم النور فظهر سلطانه في الملأ الأعلى قبل وجود آدم بآلاف من السنين من أيام الرب، وأما علم الجمع والتفرقة فهو البحر المحيط الذي اللوح المحفوظ جزء منه، ومنه يستفيد العقل الأول، وجميع الملأ الأعلى منه يستمدون، وما ناله أحد من الأمم سوى أولياء هذه الأمّة، وتتنوّع تجلياته في صدورهم على ستة آلاف نوع ومئين، فمن الأولياء من حصل جميع هذه الأنواع كأبي يزيد البسطاميّ وسهل بن عبد الله، ومنهم من حصل بعضها، وقد كان للأولياء في سائر الأمم من هذه العلوم نفثات روح في روع وما كمل إلاّ لهذه الأمة تشريفاً لهم وعناية بهم لمكانة نبيهم سيدنا محمد ﷺ.

وفيه من خفايا العلوم التي هي بمنزلة الأصول ثلاثة علوم: علم يتعلق بالإلهيات، وعلم يتعلق بالأرواح العلوية، وعلم يتعلق بالمولدات الطبيعية، فما يتعلق منه بالإلهيات على قدم واحدة لا يتغير وإن تغيرت تعلقاته، والذي يتعلق منه بالأرواح العلوية فيتنوّع من غير استحالة والذي يتعلق بالمولدات الطبيعية يتنوّع ويستحيل باستحالاتها وهو المعبر عنه بـ: ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٠] فإن المواد التي حصل له منها هذا العلم استحالت فالتحق العلم بها بحكم التبعية، وكما هي أصولها ثلاثة علوم، فالأولياء فيها على ثلاث طبقات: الطبقة الوسطى منهم لهم مائة ألف منزل وثلاثة وعشرون ألف منزل وستمائة منزل وسبعة وثمانون منزلاً أمهات يحتوي كل منزل منها على نازل لا يتسع الوقت لحصرها لتداخل بعضها في بعضها ولا ينفع فيها إلاّ الذوق خاصة، وما بقي من الأعداد فمقسم بين الطبقتين وهما اللذان ظهرا برداء الكبرياء وإزار العظمة، غير أن لهما من إزار العظمة ممّا يزيد على هذا الذي ذكرناه ألف منزل وبضعة وعشرون منزلاً، لهذه المنازل خصوص وصف لا يوجد في منازل رداء الكبرياء، وذلك أن رداء الكبرياء مظهره من الاسم الظاهر، والإزار مظهر من الاسم الباطن، والظاهر هو الأصل والباطن نسبة حادثة ولحدوثها كانت لها هذه المنازل، فإن الفروع محل الثمر فيوجد في الفرع ما لا يظهر في الأصل وهو الثمرة وإن كان مددهما من الأصل وهو الاسم الظاهر لكن الحكم يختلف، فمعرفتنا بالرب تحدث عن معرفة بالنفس لأنها الدليل من عرف نفسه عرف ربّه، وإن كان وجود النفس فرعاً عن وجود الرب فوجود الرب هو الأصل ووجود العبد فرع، ففي مرتبة يتقدم فيكون له الاسم الأول، وفي مرتبة يتأخر فيكون له الاسم الآخر، فيحكم له بالأصل من نسبة خاصة، ويحكم له بالفرع من نسبة أخرى، هذا يعطيه النظر العقليّ، وأما ما تعطيه المعرفة الذوقية فهو أنه ظاهر من حيث ما هو باطن، وباطن من عين ما هو ظاهر، وأول من عين ما هو آخر، وكذلك القول في الآخر، وإزار من نفس ما هو رداء ورداء من نفس ما هو إزار لا يتصف أبداً بنسبتين مختلفتين كما يقرّره ويعقله العقل من حيث ما هو ذو فكر، ولهذا قال أبو سعيد الخرّاز، وقد قيل له: بم

عرفت الله؟ فقال: بجمع بين الضدين، ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فلو كان عنده هذا العلم من نسبتين مختلفتين ما صدق قوله بجمعه بين الضدّين، ولو كانت معقولية الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية في نسبتها إلى الحق معقولية نسبتها إلى الخلق لما كان ذلك مدحاً في الجناب الإلهيّ، ولا استعظم العارفون بحقائق الأسماء ورود هذه النسب بل يصل العبد إذا تحقق بالحق أن تنسب إليه الأضداد وغيرها من عين واحدة لا تختلف، وإذا كان العبد يتصوّر في حقّه وقوع هذا فالحق أجدر وأولى إذ هو المجهول الذات، فمثل هذه المعرفة الإلهية لا تنال إلاّ من هذه المنازل التي وقع السؤال عنها.

وأما عدد الأولياء الذين لهم عدد المنازل فهم ثلاثمائة وستة وخمسون نفساً، وهم الذين على قلب آدم، ونوح، وإبراهيم، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وهم ثلاثمائة وأربعون وسبعة وخمسة وثلاثة وواحد فيكون المجموع ستة وخمسين وثلاثمائة، هذا هو عند أكثر الناس من أصحابنا وذلك للحديث الوارد في ذلك.

وأما طريقتنا وما يعطيه الكشف الذي لا مرية فيه فهو المجموع من الأولياء الذين ذكرنا أعدادهم في أول هذا الباب ومبلغ ذلك خمسمائة نفس وتسعة وثمانون نفساً منهم واحد لا يكون في كل زمان وهو الختم المحمدي وما بقي فهم في كل زمان لا ينقصون ولا يزيدون. وأما الختم فهذا زمانه وقد رأيناه وعرفناه تمّم الله سعادته علمته بفاس سنة خمس وتسعين وخمسمائة، والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات: أمهات أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء. وأما الذين زادوا على هؤلاء في الكشف فطبقات الرجال عندهم الذي يحصرهم العدد ولا يخلو عنهم زمان خمس وثلاثون طبقة لا غير ومرتبة الختمين ولكن لا يكونان في كل زمان، فلهذا لم نلحقهما بالطبقات الثابتة في كل زمان.

السؤال الثاني: أين منازل أهل القربة؟ الجواب: بين الصدّيقية ونبوّة الشرائع، فلم تبلغ منزلة نبي التشريع من النبوّة العامة ولا هو من الصدّيقين الذين هم أتباع الرسل لقول الرسل وهو مقام المقرّبين، وتقريب الحق لهم على وجهين: وجه اختصاص من غير تعمّل كالقائم في آخر الزمان وأمثاله، ووجه آخر من طريق التعمّل كالخضر وأمثاله، والمقام واحد ولكن الحصول فيه على ما ذكرناه، ومن ثم يتبين الرسول من النبيّ ويعمّ الجميع هذا المقام وهو مقام المقربين والأفراد، وفي هذا المقام يلتحق البشر بالملأ الأعلى، ويقع الاختصاص الإلهيّ فيما يكون من الحق لهؤلاء. وأما المقام فداخل تحت الكسب وقد يحصل اختصاصاً ولهذا يقال في الرسالة أنها اختصاص وهو الصحيح، فإنّ العبد لا يكتسب ما يكون من الحق سبحانه فله التعمّل في الوصول، وما له تعمّل فيما يكون من الحق له عند الوصول، ومن هناك منبع العلم اللدنيّ الذي قال الله فيه في حق عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] المعنى: آتيناه رحمة علماً من عندنا وعلمناه من لدنا وهو من الأربعة المقامات الذي هو: علم الكتابة الإلهية، وعلم الجمع والتفرقة، وعلم النور، والعلم اللدنيّ.

واعلم أنّ منزل أهل القربة يعطيهم اتصال حياتهم بالآخرة، فلا يدركهم الصعق الذي يدرك الأرواح بل هم ممّن استثنى الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] وهذا المنزل هو أخصّ المنازل عند الله وأعلاها، والناس فيه على طبقات ثلاث: فمنهم من يحصله برمته وهم الرسل صلوات الله عليهم وهم فيه على درجات يفضل بعضهم بعضاً. ومنهم من يحصل منه الدرجة الثانية وهم الأنبياء صلوات الله عليهم الذين لم يبعثوا بل تعبدوا وبشريعة موقوفة عليهم، فمن اتبعهم كان، ومن لم يتبعهم لم يوجب الله على أحد أتباعهم وهم فيها على درجات يفضل بعضهم بعضاً. والطبقة الثالثة هي دونهما درج النبوّة المطلقة التي لا يتخلل وحيها ملك. ودون هؤلاء الطبقات هم الصدّيقون الذين يتبعون المرسلين، ودون هؤلاء الصديقين الصديقون الذين يتبعون الأنبياء من غير أن يجب ذلك عليهم، ودون هؤلاء الصدّيقين الذين يتبعون أهل الطبقة الثالثة وهم الذين انطلق عليهم اسم المقرّبين أعني أهل الطبقة الثالثة، ولكل طبقة ذوق لا تعلمه الطبقة الأخرى. ولهذا قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] والخبر الذوق وهو علم حال. وقال الخضر لموسىٰ: أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا.

السؤال الثالث: فإن قيل: إنّ الذين حازوا العساكر بأيّ شيء حازوا؟ فلنقل في الجواب: نذكر أولاً ما معنى العساكر وما معنى حيازتهم لهم ثم نبين بأيّ شيء حازوا فإنّ هذا السائل إذا أرسل سؤاله من غير تقييد لفظيّ أو قرينة حال ينبغي للمجيب أن يجيب بالمعاني التي تدل عليها تلك الكلمة في اصطلاحهم، فمهما أخلّ بشيء منها فما وفى الكلمة حقّها. فاعلم أنّ العساكر قد يطلقونها ويريدون بها شدائد الأعمال والعزائم والمجاهدات كما قال القائل: ظلّ في عسكرة من حبّها أي في شدّة. واعلم أنّ مبنى هذا الطريق على التخلّق بأسماء الله فحاز هؤلاء العساكر بالتخلّق باسمه الملك، فإنّ الملك هو الذي يوصف بأنه يحوز العساكر، والملك معناه أيضاً الشديد، فلا تحاز الشدائد والعزائم إلاّ بما هو أشدّ منها، يقال: ملكت العجين إذا شدّدت عجنه. قال قيس بن الحطيم يصف طعنة: ملكت بها كفي فأنهزت فتقها، أي شدّدت بها كفي حين طعنته، فحازوا العساكر بالطريقين باسمه الملك، فأمّا الشدائد التي حازوها في هذا الباب فهي البرازخ التي أوقفهم الحق في حضرة الأفعال من نسبتها إلى الله ونسبتها إلى أنفسهم، فيلوح لهم ما لا يتمكن لهم معه أن ينسبوها إلى أنفسهم، ويلوح لهم ما لا يتمكن لهم معه أن ينسبوها إلى الله، فهم هالكون بين حقيقة وأدب، والتخليص من هذا البرزخ من أشدّ ما يقاسيه العارفون، فإنّ الذي ينزل عن هذا المقام يشاهد أحد الطرفين، فيكون مستريحاً لعدم المعارض.

واعلم أن صاحب هذا المقام هو الذي أعلمه الله بجنوده الذي لا يعلمها إلاّ هو قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٣] فصاحب هذا المقام يعرفه جنود الله الذين لا حاكم عليهم في شغلهم إلاّ الله

ولهذا نسبهم إليه، فهم الغالبون الذين لا يغلبون، فمنهم الريح العقيم، ومنهم الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل، وكل جند ليس لمخلوق فيه تصريف هم العساكر التي حازها صاحب هذا المقام علماً. وقال ﷺ فيهم: «**نُصِرْتُ بالصَّبَا**» وقال: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَي مَسِيرَةِ شَهْرٍ**» فإذا منح الله صاحب هذا المقام علم هؤلاء العساكر رمى بالحصى في وجوه الأعداء فانهزموا، كما رمى رسول الله ﷺ في غزوة حنين فله الرمي وهم لا يكون منهم غلبة إلاَّ بأمر الله ولهذا قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فكل منصور بجند الله فهو دليل على عناية الله به، ولا يكون منصوراً بهم على الاختصاص إلاَّ بتعريف إلهي، فإن نصره الله من غير تعريف إلهيّ فليس هو من هذه الطبقة التي حازت العساكر، فلا بدّ من اشتراط النصر حقاً في ذلك القصد، وصاحب هذا المقام يعين لأصحابه مصارع القوم كما فعل رسول الله ﷺ في غزوة بدر، فإنه ما من شخص من أجناد الله إلاَّ وهو يعرف عين من سلط عليه ومتى يسلط عليه وأين يسلط عليه فتتشخص الأجناد لصاحب هذا المقام في الأماكن التي هي مصارع القوم، كل شخص على صورة المقتول وباسمه، فيراه صاحب هذا المقام فيقول: هذا هو مصرع فلان، وهذا هومقام الإمام الواحد من الإمامين، وأقرب شيء ينال به هذا المقام البغض في الله والحب في الله، فتكون همم هذه الطبقة وأنفاسهم من جملة العساكر التي حازوها بما ذكرناه، وهو الموالاة في الله والعداوة في الله عن عزم وصدق، مع كونهم لا يرون إلاَّ الله، فيجدون من الانضغاط وكظم الغيظ ما لا يعلمه إلاَّ الله، والعين تحرسهم في باطنهم، هل ينظرون في ذلك أنه غير الله؟ فإذا تحققوا ذلك حازوا عساكر الحق التي هي أسماؤه سبحانه إذ أسماؤه تعالىٰ عساكره وهي التي يسلطها على من يشاء ويرحم بها من يشاء، فمن حاز أسماء الله فقد حاز العساكر الإلهية، ورئيس هؤلاء الأجناد الأسمائية، كما قلنا الاسم الملك هو المهيمن عليها، ومن عداه فأمثال السدنة له، ويكفي هذا القدر في الجواب عن هذا السؤال.

السؤال الرابع: فإن قال: إلى أين منتهاهم؟ قلنا في الجواب: لا شك ولا خفاء أن أهل هذه الطبقة هم أصحاب عقد وعهد وهو قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] فإذا حصلت هذه الطبقة فيما قلنا في غزوهم وسلكوا سبيل جهادهم كان منتهاهم إلى حلّ ما عقدوا عليه ونقض ما عسكروا إليه، وذلك أن الأعيان التي عسكروا لها وعقدوا مع الله أن يبيدوها فلما توجهوا بعساكرهم التي أوردناها إليها كانت آثار تلك العساكر فيها إيجاد أعيانها وهو خلاف مقصود العارف بهذه العساكر، إذ كان المقصود إذهاب أعيانها وإلحاقها بمن لا عين له، وما علم أن الحقائق لا تتبدّل، وأن آثار العساكر فيها الوجود، إذ كان سبق العدم لها لعينها، فلا تؤثر فيها هذه العساكر العدم لأن العدم لها من نفسها فلم يبق إلاَّ الوجود، فوقع غير مقصود العارف، وعلم عند ذلك العارف أن تلك الأعيان مظاهر الحق فكان منتهاهم إليه وبدأهم منه وليس وراء الله مرمى. فإن قلت: فالذات الغنية عن العالمين وراء الله. قلنا: ليس الأمر كما زعمت بل الله

وراء الذات وليس وراء الله مرمى، فإن الذات متقدّمة على المرتبة في كل شيء بما هي مرتبة لها، فليس وراء الله مرمى، فحصلوا من العلم بالله ما لم يكن عندهم بالقصد الأول حين حازوا العساكر. وكان الذي حجبهم ابتداء عن هذه المعرفة غيرتهم أن يشترك الحق مع كون من الأكوان في حال أو عين أو نسبة، فلهذا كان مقصودهم أن يلحقوا الأعيان بمطلق العدم، وهو المقام الذي تشير إليه الباطنية بقولها في جواب من يقول لها الله موجود فنقول: ليس بمعدوم، فإذا قلت لهم: الله حيّ، تقول: ليس بميت، فإن قيل لهم: فالله قادر، قالت: ليس بعاجز، فلا تجيب قط بلفظة تعطي الاشتراك في الثبوت فتجيب بالسلب وهذا كله من باب الغيرة ولا تقدر نفي الأعيان، فتستعين بهؤلاء العساكر على إعدام هذه الأعيان وزوال حكم الثبوت منها، فتجد العساكر توجدها وتكسوها حلة الوجود، فإذا رأت أنها مظاهر الحق رضيت بأن تبقيها أعياناً ثابتة ولا تراها موجودة، ويكون عين شهودها ناظرة فيها إلى وجود الحق، وأنه لا وجود اكتسبته من الحق، بل حكمها مع الوجود حكمها ولا وجود، وأن الذي ظهر ما هو غير هذا غايتها وهو قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ [سورة النازعات: الآية ٤٤] فكان منتهاها ربها.

فأما من كانت عساكره العزائم فمنتهاه إلى الرخص من طريقين: الطريق الواحدة أحدية المحبة فيهما فيكون منتهاهم إلى شهودها، وهو الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَىٰ رُخَصُهُ كَمَا تُؤْتَىٰ عَزَائِمُهُ**» فينحل عقد الأخذ بالعزائم بهذه المشاهدة لكونه يفوته من العلم بالله على قدر ما فاته من الأخذ بالرخصة، والطريقة الأخرى تنتهي بهم إلى شهود كونه في العزائم هو عين كونه في الرخص وهم لا نسبة لهم في واحدة منهما، فينحل ما عقدوا عليه انحلالاً ذاتياً لا تعمل لهم فيه، ومن هذا المقام يقول بعضهم بتفضيل الرسل بعضهم على بعض، على أنه في نفس الأمر كما ورد في الخطاب من قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فينتهي بهم هذا الأمر إلى حل عقد التفضيل بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] ومن فضل فقد فرّق، فلولا وحدانية الأمر لما كان عين الجمع عين الفرق، كما أن السالك يمشي حنبلياً أو حنفياً مقتصراً على مذهب بعينه يدين الله به لا يرى مخالفته، فينتهي به هذا المشهد إلى أن يصبح يتعبد نفسه بجميع المذاهب من غير فرقان، ومن هنا يبطل النسخ عنده الذي هو رفع الحكم بعد ثبوته لا انقضاء مدّته، فإلى ما ذكرناه منتهاهم على حسب ما أعطته عساكرهم فإن العساكر تختلف، فإن جند الرياح ما هي جند الطير، وجند الطير ما هو جند المعاني الحاصلة في نفوس الأعداء كالروع والجبن، فمنتهى كل عسكر إلى فعله الذي وجه إليه من حصار قلعة وضرب مصاف أو غارة أو كبسة كل عسكر له خاصية في نفس الأمر لا يتعدّاه، قال تعالىٰ في الطير: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ [سورة الفيل: الآية ٤] وقال في الريح: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٢] وقال في الرعب: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] فانظر منتهى كل عسكر إلى ما أثر في نفس من عسكر إليه. فالحق لا يتقيد إذ كان هو عين كل قيد، فالناس بين

محجوب وغير محجوب، جعلنا الله ممّن أشهد الحق في عين حجابه، وفي رفع حجابه، وفيما كان له من وراء حجابه.

السؤال الخامس: فإن قيل: قد عرفنا أينية منازل أهل القربة، وأينية منتهى العساكر، ومنتهى من حازها، فأين مقام أهل المجالس والحديث؟ قلنا في الجواب: أما أهل المجالس المحدثون فمجالسهم خلف الحجاب الأنزل الأقدس في النزول ولهم ست حضرات، لهم في الحضرة الأولى ثمانية مجالس، المجلس الثاني والسادس يسمى مجالس الراحات وهي من باب رفق الله بالعباد الذين لهم هذه الأحوال، ومجلسان الأول الذي هو الرابع والثامن فهما مجلسا الجمع بين العبد والرب، ومجلس الفصل بين العبد والرب على مراتب أبينها، وأما الأربعة مجالس التي بقيت فالحديث فيها على مراتب متعدّدة، وكذلك الحضرة الثانية، والحضرة الرابعة فيها ثمانية مجالس على ما ذكرناه، وأما في الحضرة السادسة فمجلسان، وأما في الحضرة الثالثة فستة مجالس، وأما في الحضرة الخامسة فأربعة مجالس، وانتهت أمهات مجالس أهل الحديث مع الله من حيث هم محدثون لا من حيث لهم مجالس.

وأما أهل المجالس لا من كونهم محدثين فهم أهل الشهود، وهم على أربع مراتب في مجالسهم، فالمحدثون جلوسهم من حيث هم من خلف ذلك الحجاب، وأهل المجالس فمن حيث المراتب التي أعدّ لهم الحق فمنهم من أعدّ لهم منابر، ومنهم من أعدّ لهم أرائك، ومنهم من أعدّ لهم كراسي، ومنهم من أعدّ لهم درائك، والكل يشهدون جليسهم من غير حديث من الطرفين، فلنذكر مجالس أهل الحديث وهي ثمانية وأربعون مجلساً، وعند الترمذيّ الحكيم ستة وخمسون مجلساً لأن الترمذيّ يراعي من الإنسان حظ طبعه فيزيد اثني عشر مجلساً وهو الصحيح، ومن يقتصر منّا في الإنسان على روحانيته من غير طبيعته فهي ستة وثلاثون مجلساً. فلهذا وقع الخلاف بيننا وبين العلماء من أهل هذه المجالس، فمنا من اعتبر ذلك ومنا من لم يعتبر والأولى اعتبارها.

فأما مجالس الجمع بين العبد والرب فأربعة مجالس يعلم فيما يحادثه به الحق فيها كيف يخاطب الخلق من أجل الله وكيف يثني على الحق تبارك وتعالىٰ ويعلم معنى قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة النمل: الآية ٨] ويحادثه فيها بمثل قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٨] فيعرف من أين طيب له وبما طيب له وبما طاب له، ويعلم الاسم الآخر ما نسبته إلى الحق وما حظ العبد منه، ويعلم ما يقول كلما ورد على ملأ أعلى من روح وبشر في السموات والأرض، ويعلم شهادة التوحيد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إلى الملائكة، وبالنسبة إلى العلماء من البشر الحاصلة لهم من باب الشهود لا من باب الفكر، ويعلم منازل الرسل ومن أين خصّوا بما خصّوا به، وبماذا يفضل بعضهم بعضاً، وبماذا لا يفضل، ومن أيّ نسبة ينسبون إلى الله، وأشياء غير هذا محصورة.

وأما مجالس الفصل فيحصل فيها ما يحصل في هذه المجالس من طريق أخرى وذوق

آخر، غير أنه يختلف عليه الحال عند انتهاء المجالسة بمشاهدة أسماء إلهية لم يكن يعرفها قبل ذلك، أو بمشاهدة أسماء إلهية من حيث أعيان أكوان خاصة، أو بمشاهدة أعيان أكوان خاصة من غير ارتباط بأسماء إلهية وإن كانت في نفس الأمر مرتبطة بها، ولكن يكون بينها وبين هذا العبد حجاب رقيق. وأما المجالس الأربعة التي بقيت ذات المراتب فسأذكر ما يكون فيها وفي هذه الست الحضرات من الحديث في الفصل الثامن في سؤاله ما حديثهم ونجواهم، وهذه المجالس أيضاً توجد في الحضرة الثانية والرابعة، وأما الحضرة الثالثة فمجالسها ستة مجالس، وأما الحضرة الخامسة ففيها أربعة مجالس، وأما الحضرة السادسة ففيها مجلسان، وهذه كلها مجالس أهل الحديث لا مجالس الشهود إلاّ عند بعض العارفين، فإنه قد تكون مجالس شهود متخيل من خلف حجاب الخيال، وأما الاثنا عشر مجلساً الذي لهم على مذهب الترمذيّ كما قرّرنا وهي تمام الثمانية والأربعين مجلساً فحديثهم فيها نذكره عند ذكر الستة والثلاثين مجلساً في الفصل الثامن إن شاء الله فإن ذلك الفصل سورته.

السؤال السادس: فإن قلت: كم عددهم؟ قلنا في الجواب: عدد أهل بدر أهل الحديث منه أربعون نفساً وما بقي فلهم مجالس الشهود من غير حديث، فإن الحديث للحضور مع المعنى الذي يعطيه الكلام لا مع المتكلم، إلاّ أن يكون المتكلم بحيث يتخيله السامع فيجمع بين الحديث والشهود، ولكن ما هو الشهود المطلوب لأهل الأذواق؟ فلا بدّ أن تكون أنت من حيث أنت للاستفادة عند الحديث، ولكن يسمعه لا بعينك بل بظهوره فيك، فمن كونك مظهر تسمع ومن كونك عيناً تكون مظهراً فافهم، وقد أشار لسان الخبر الصدق إلى هذا العدد بقوله: «**مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ**،» أي كان من الحديث بالله عن الله، والصباح ظهور عين العبد مظهراً لا عيناً، وبطون عينه في مظهره كبطون الليل عند وجود الصباح، والأربعون إشارة إلى أعيان هؤلاء الأشخاص فهو عين ما قلنا أن أهل الحديث منه أربعون نفساً، فبقي أهل المجالس من غير حديث مائتين وثلاثة وسبعين نفساً وهم تمام الثلاثمائة والثلاثة عشر، فجلوسهم جلوس مشاهدة للاستفادة من حيث أن أعيانهم مظهر لبصر الحق فيرونه به وهم غيب في ذلك المظهر، وتكون استفادتهم من ذلك التجليّ استفادة أصحاب الرصد، فتعطيهم الأرصاد العلوم من غير حديث لكنه حديث معنويّ بدلالات ظاهرة تقوم تلك الدلالات مقام الخطاب بالحروف والإشارات في عالم الحروف والإشارات، فالغرض الحاصل من هذه المجالس سواء كانت مجالس شهود أو حديث حصول علو ينتقش في عين هذا المظهر من نظر أو سماع وهؤلاء هم المعتنى بهم من أهل الله.

السؤال السابع: فإن قلت: بأيّ شيء استوجبوا هذا على ربهم تبارك وتعالىٰ؟ قلنا في الجواب: الأدب الإلهيّ إذ لا يجب على الله شيء بإيجاب موجب غير نفسه، فإن أوجب هو على نفسه أمراً ما فهو الموجب، والوجوب الموجب عليه لا غيره، ولكن إيجابه على نفسه لمن أوجب عليه مثل قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] يعني الرحمة الواسعة فأدخلها تحت التقييد بعد الإطلاق من أجل الوجوب، ومثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] الآية فهل هذا كله من حيث مظاهره أو هو وجوب ذاتيّ لمظاهره من حيث هي مظاهر لا من حيث الأعيان؟ فإن كان للمظاهر فما أوجب على نفسه إلاَّ لنفسه، فلا يدخل تحت حدّ الواجب ما هو وجوب على هذه الصفة، فإن الشيء لا يذمّ نفسه، وإن كان للأعيان القابلة أن تكون مظاهر كان وجوبه لغيره، إذ الأعيان غيره والمظاهر هويته، فقل بعد هذا البيان ما شئت في الجواب، ويكون الجواب بحسب قيده الموجب، فاستوجبوا ذلك على ربهم في موطن بكونهم ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] على مفهوم الزكاة لغة وشرعاً ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧] فهؤلاء طائفة مخصوصة وهم أهل الكتاب، فخرج من ليس بأهل الكتاب من هذا التقييد الوجوبيّ وبقي الحق عنده من كونه رحماناً على الإطلاق، واستوجبت طائفة أخرى ذلك على ربها ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فقيد بالجهالة، فإن لم يجهل لم يدخل في هذا التقييد وبقيت الرحمة في حقّه مطلقة ينتظرها من عين المنة التي منها كان وجوده أي منها كان مظهراً للحق لتتميز عينه في حال اتصافها بالعدم عن العدم المطلق الذي لا عين فيه، ألا ترى إبليس كيف قال لسهل في هذا الفصل: يا سهل التقييد صفتك لا صفته، فلم ينحجب بتقييد الجهالة والتقوى عمّا يستحقه من الإطلاق فلا وجوب عليه مطلقاً أصلاً، فمهما رأيت الوجوب فاعلم أن التقييد يصحبه، وأما من رأى أنهم استوجبوا ذلك على ربهم من غير ما ذكره تعالىٰ عن نفسه فقالوا ببذلهم مراكبهم في زمان الزيادة طلباً للمواصلة وإيثار الجناب الحق في زعمهم وإن كان في ذلك نقص فهو عين الكمال التام بهذه المراعاة، فهذا عندي مثل ما قال الشاعر لعمر بن الخطاب حين حبسه: [البسيط]

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ... حُمْرِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسِبَهم في قَعرِ مظلمةٍ ... فاغفِرْ هداكَ مليكُ الناسِ يا عمرُ
ما آثروكَ بها إذ قدّموكَ لها ... لا بل لأنفسِهم قد كانتِ الأثرُ

فإن كانوا بذلوا مراكبهم عن طلب إلهيّ يقتضي ذلك وجوباً إلهياً كان مثل الأول، فإنه لو لم يرد عنه تعالىٰ الوجوب على نفسه لم نقل به فإنه سوء أدب من العبد أن يوجب على سيده، غير أن هنا لطيفة دقيقة لا يشعر بها كثير من العارفين بهذه المجالس وذلك أنه كما نطلبه لوجود أعياننا يطلبنا لظهور مظاهره فلا مظهر له إلاَّ نحن ولا ظهور لنا إلاَّ به، فبه عرفنا أنفسنا وعرفناه، وبنا تحقق عين ما يستحقه الإلٰه: [الهزج]

فلولاه لما كنَّا ... ولولا نحنُ ما كانا
فإن قلنا بأنا هُوْ ... يكونُ الحقُّ إيانا
فأبدانا وأخفاه ... وأبداه وأخفانا
فكان الحقُّ أكوانا ... وكنا نحن أعيانا

فـيُـظْـهِـرُنـا لـنـظـهِـرَهُ   سِـرَاراً ثـم إعْـلانـا

فلما وقفوا على هذه الحقائق من نفوسهم ونفوس الأعيان سواهم تميزوا على من سواهم بأن علموا منهم ما لم يعلموا من أنفسهم واطلع الحق على قلوبهم، فرأى ما تجلّت به ممّا أعطتها العناية الإلهية وسابقة القدم الربانيّ استوجبوا على ربهم ما استوجبوه من أن يكونوا أهلاً لهذه المجالس الثمانية والأربعين.

السؤال الثامن: فإن قلت عن أهل هذه المجالس ما حديثهم ونجواهم؟ قلنا في الجواب: بحسب الاسم الذي يقيمهم فلا يتعين علينا تعيينه ولكن الأصول الإلهية محفوظة، وذلك أن حديث أهل الحضرة الأولى في مجالستهم فيها والمجلس الأول الذي بين المثلين من اسمه الظاهر والمبدىء والباعث وكل اسم يعطي البروز ووجود الأعيان تحادث الحق فيه بلسان حياة الأرواح وحياة الهياكل السفلية في البرازخ وعالم الحس والمحسوس والعقل والمعقول، وبلسان من ضاع عن الطريق وانجبر إليه بعدما انكسر خاطره وخاف الفوت، وبلسان: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بيّن أنه أعطى كل شيء خلقه ففرق بين قوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] وقوله له بعينه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وقال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] يُقابل به غلظة فرعون فينكسر لعدم المقاوم، إذ لم يجد قوّة تصادم غلظته فعاد أثرها عليه فأهلكته بالغرق فباللين هلك فرعون، فأعطى كل شيء خلقه في وقته فيحدث نشأة الإنسان مع الأنفاس ولا يشعر وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦١] يعني مع الأنفاس وفي كل نفس له فينا إنشاء جديد بنشأة جديدة، ومن لا علم له بهذا فهو في ﴿لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] لأن الحسّ يحجبه بالصورة التي لم يحسّ بتغييرها مع ثبوت عين القابل للتغيير مع الأنفاس، وبلسان طلب الاستقامة في المزاج ليصحّ نظر العقل في فكره، ومزاج الحواس فيما تنقل إليه، ومزاج القوىٰ الباطنة فيما تؤدّيه من الأمور للعقل، فإنه إذا اختلّ المزاج ضعفت الإدراكات عن صحة النقل فنقلت بحسب ماله انتقلت فكانت الشبه والمغالط فعقل العقل للجهل علماً فيصير العدم وجود أو بلسان إزاحة الأمور التي توجب عدم المواصلة والمراسلة، ففي الحضرة الأولى أربعة مجالس ممّا تشاكل ما ذكرناه، ومثلها في الثانية والرابعة، وأما في الحضرة الثالثة من هذه المجالس فثلاثة، وفي الخامسة اثنان، وفي السادسة واحدة على هذه المشاكلة، لكن في كل حضرة فنون مختلفة ولكن لا تخرج عن هذا الأسلوب، وأما مجالس الراحات في الحضرة الأولى والثانية والرابعة هي ستة مجالس فيها أحاديث معنوية عن مشاهدة كما قيل:

[الطويل]

تَـكَـلَّـمُ مِـنَّـا فـي الـوجـوه عـيـونُـنـا   فـنـحـن سـكـوتٌ والـهـوى يـتـكـلَّـمُ

وكما قلنا في هذا الشكل: [الخفيف]

والـهـوى بـيـنـنـا يـسـوق حـديـثـاً   طـيـبـاً مُـطْـرِبـاً بـغـيـر لـسـانِ

وهي المجالس التي بين الضدّين يحصل منها علم الاعتماد والكشف عن الساق والبرزخ الذي بين الضدّين كالفاتر بين الحار والبارد، وكالإسماع بين المخافتة والجهر، وكالتبسم بين الضحك والبكاء، وكلّ ضدّين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٠ ـ ٢١] فهو مجلس راحة، وليس بين النفي والاثبات برزخ وجوديّ، فصاحبه ينقطع في الحال لأحد الطرفين لأنه لا يجد حيث يستريح، فالبرازخ مواطن الراحات، ألا ترى أن الله جعل ﴿النوم سباتاً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] أي راحة لأنه بين الضدّين: الموت والحياة، فالنائم لا حيّ ولا ميت، فأمثال هذه العلوم هي التي يقع بها الحديث لهم ونجواهم، وفي الحضرة الثالثة والخامسة مجلس واحد في كلّ حضرة، والحضرة السادسة لا مجلس فيها من مجالس الراحة، وأما مجالس الفصل بين العبد والربّ ففيه ذكرنا من حديثه طرفاً آنفاً في السؤال الرابع من هذه السؤالات، وأما الحضرة السادسة والخامسة فليس فيهما من هذه المجالس مجلس البتة، وأما مجالس الفصل الثاني بين العبد والربّ فهي ستة مجالس لا سابع لها في كلّ حضرة من الست مجالس واحد يفصل به بين العبد والربّ من حيث ما هو العبد عبد ومن حيث ما هو الربّ ربّ، ومجالس الفصل الأول بين العبد والربّ من حيث ما هو عبد لهذا الربّ، ومن حيث ما هو ربّ لهذا العبد، فهو فصل في عين وصل، وهذه المجالس الأخر فصل في فصول لا وصل فيها فيحصل له ما يشاء، كلّ هذا الفنّ من العلم الإلهيّ إذ كنت لا تعلمه إلاّ من نفسك، ولا تعلم نفسك إلاّ منه، فهو يشبه الدور ولا دور بل هو علم محقق.

وأما الاثنا عشر مجلساً التي يراها الترمذيّ الحكيم صاحب هذه السؤالات وبها تكمل الثمانية والأربعون من المجالس فإن الأرواح العلوية لا تعلمها وليس لها فيها قدم مع الله وهي مخصوصة بنا من أجل الدعوى، فإذا تجسدت الأرواح العلوية تبعث الدعوى جسديتها فربما تدعى فإن ادّعت ابتليت، وفي قصة آدم والملائكة تحقيق ما ذكرناه، فابتليت بالسجود جبراً لما أخذت من طهارتها الدعوى فكان ذلك للملائكة كالسهو في الصلاة للمصلي، فأمر المصلي أن يسجد لسهوه، كذلك أمرت الملائكة أن تسجد لدعواها، فإن الدعوى سهو في حقّها فكان ذلك ترغيماً للدعوى لا لهم، كما كان سجود السهو منا ترغيماً للشيطان لا لنا فاعلم ذلك.

فأما هذه المجالس الإثنا عشر فستة منها تلتحق بالمجلس الذي بين المثلين والستة الباقية تلتحق بمجالس الفصل الثاني بين العبد من حيث ما هو عبد وبين الربّ من حيث ما هو ربّ، لكن تختلف الأذواق في ذلك آيات هذا السؤال من القرآن: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [سورة التكوير: الآية ١٥] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] إلى آخرها والمدار على القطب. انتهى الجزء الثمانون.

(الجزء الحادي والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال التاسع: فإن قلت: فبأيّ شيء يفتتحون المناجاة؟ قلنا: في الجواب بحسب الباعث والداعي لها، وذلك أن الحق إذا أجلسهم هذه المجالس التي ذكرناها فإنما يجلسهم الحق فيها بعد قرع وفتح واستفتاح وذلك أنه سمعوا الحق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٢] ثم قال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٣] وقال في إنزال الرسول منزلة الحق نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٤] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] لأنه به يدعو إليه سبحانه. وقال ﷺ: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**». وقال: «**يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سُلاَمَىٰ مِنِ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ**» وأفضل الصدقات تصدق الإنسان بنفسه، وأفضل ما يخرجها عليه من يخرجها على نفسه، فإذا إذا أراد العبد نجوى ربّه فليقدم بين يدي نجواه نفسه لنفسه فإن النجوى سامع ومتكلم، والعبد إن لم يكن الحق سمعه فمن المحال أن يطيق فهم كلام الله، وإن لم يكن الحق لسان العبد عند النجوى فمن المحال أن تكون نجواه صادقة الصدق الذي ينبغي أن يخاطب به الله، فإن الحق ناجى نفسه بنفسه، والعبد محل الاستفادة لأنها أمور وجودية والوجود كله هو عينه، والعبد يصدق بنفسه على نفسه لأنها أفضل الصدقات استفتاحاً لنجوى ربه، فكانت المناسبة بين النجوى وما افتتحت به كون الصدقة رجعت إليه وكون الحق كانت نجواه بينه وبينه، فما سمع الحق إلاّ الحق، ولا تصدق العبد إلاّ على العبد فصحّت الأهلية، فمن كان استفتاحه هكذا كان من أهل المجالس والحديث.

وأما مذهب الترمذيّ فإن الذي يفتتحون به المناجاة إنما هو تلبسهم بالكبرياء، ثم يتعرّون من بعضه بوجه خاص ويبقون عليهم ما يليق أن يسمع به كلام الحق ويكلم به الحق لتصحّ النجوى فيكون الابتداء من العبد، فيكوّن له الأولية في هذا الموطن وهو وجه صحيح وهذا هو الباعث الوضعيّ، والذي ذكرناه أولاً هو الباعث الذاتيّ، فإن نجوى هذه الطائفة في هذا الحال بمنزلة الصلاة في العامّة، فإنه من هذه الحضرة التي ذكرناها خرج التكليف بها على ألسنة الرسل للعباد وشرع فيها التكبير لما ذكرناه والصلاة مناجاة، ومن أهل الله من يجعل عاقبة الأمور استفتاحاً فيردها أولاً إذ كان المطلوب عين العواقب كمن يطلب الاستظلال، فأول ما يقع عنده وجود السقف وهو آخر ما يقع به الفعل لأنّ وجوده موقوف على وجود أشياء، فإذا كان من الأمور التي لا توقف لوجودها على شيء كان عين العاقبة عين السابقة، فيكون استفتاح العمل بالعاقبة وهي طريقة عجيبة عملنا عليها وناجينا بها في هذا المقام، ولكن لا بدّ أن تكون النجوى كما قرّرنا بسمع الحق وكلام الحق لأنّ الحقيقة تأبىٰ أن يكلمه غير نفسه أو يسمعه غير نفسه، فقد أعلمتك بماذا يفتتحون المناجاة أهل المجالس والحديث.

السؤال العاشر: فإن قلت: بأيّ شيء يختمونها؟ فلنقل في الجواب: بالمنزلة التي تعطيهم

ذلك الاستفتاح والافتتاح مختلف فالختام مختلف أيضاً فلا يتقيد، غير أنه ثم أمر جامع وهو الوقفة بين الاسمين: بين الاسم الذي ينفصل عنه وبين الاسم الذي يأخذ منه، فإن بينهما اسماً إلهياً خفياً به يقع الختم ولا يشعر به إلاّ أهل المجالس والحديث وهو وجود سار في جميع الموجودات لكن لا يشعر به لدقته، كالخط الفاصل بين الظل والشمس يعقل ولا يدرك بالحسّ، وهي الحدود بين الأشياء لها لكل من هي بينهما وجه خاص مع كونها لا تنقسم فهي بذاتها مع كل محدود، ولهذا يعزّ العثور على الحدود الذاتية بخلاف الحدود الرسمية واللفظية التي بأيدي العلماء فقد يكون ذلك الذي يختم به دليل كون، وقد يكون دليل عين، وقد يكون دليل ذات لا تقبل المظاهر، وهذا أعلى ما تختم به النجوى عندهم ودونه دليل كون وهو ما يعطي مظهراً ما ودونه دليل عين، وهو الذي لا يقبل التغيير، وهو المعبر عنه بباطن المظهر.

واعلم أن الأمر في النجوى دائرة تنعطف بطلب أوّلها فيكون عين الختم هو عين الافتتاح، فتنقسم بين أوّل وآخر وظاهر وباطن، فإذا ابتدأ فهو الظاهر، فإذا انتهى صار الظاهر باطناً وعاد الباطن ظاهراً فإن الحكم له، فيبطن الختم في الافتتاح عند البدء، ويبطن الافتتاح في الختام عند النهاية، قيل في رسول الله ﷺ إنه خاتم النبيين فبطن بظهور ختمه كونه نبياً وآدم بين الماء والطين، ولما ظهر كونه نبياً وآدم بين الماء والطين واستفتح به مراتب البشر كان كونه خاتم النبيين باطناً في ذلك الظهور، وأما الإلهية فالوجود منه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ بينهما ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فيهما ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] حيث أنتم مظاهر أسمائه الحسنى وبها تسعدون وتشقون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٥] فسلم الأمر إليه واستسلم تكن موافقاً لما هو الأمر عليه في نفسه فتستريح من تعب الدعوى بين الافتتاح والختم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الحادي عشر: بماذا يجابون؟ الجواب: بحسب حالهم ووقتهم، وحالهم ووقتهم بحسب الاسم الذي هو الحاكم فيهم بين الافتتاح والختم، فإنه بين الختم والافتتاح تكون أسماء كثيرة إلهية هي الناطقة في تلك الأعيان من أهل المجالس والحديث، فيكون الجواب بحسب ما وقع به حكم الاسم ولكن ما يجابون إلاّ باسم ولا بدّ، فإن كان الحديث معنوياً عن شهود فقد يقع الجواب بالذات معرّاة من الأسماء وهو بمنزلة المجاز من الحقيقة ويجتمع هذا مع الحديث في الإفادة والاستفادة، فمن راعى الاستفادة والإفادة ألحق هذا المقام بأهل المجالس والحديث، وهو الذي قصده الترمذيّ لكونه قال: أهل المجالس والحديث ولم يقل أهل الحديث خاصة، ومن الناس من لا يراعي سوى الحديث فلا يجعل في هذه الحضرة حكماً لحديث معنويّ حاليّ فإنه يقول: مطلبي الحقائق ولكنه صاحب هذا القول كأنه غير محقق، وما أوقعه في ذلك إلاّ تقيد الحديث بالألفاظ، وأما نحن فعلى مذهب الترمذيّ في ذلك فإنا ذقناه في المجالسة حديثاً معنوياً في غاية الإفهام معرى عن الاحتمال والإجمال، بل هو تفصيل محقق في عين واحدة وهو الذي يعوّل عليه في هذا الفصل.

السؤال الثاني عشر: كيف يكون صفة سيرهم يعني إلى هذه المجالس والحديث ابتداء؟

قلنا في الجواب: بالهمم المجرّدة عن السوى وبسط ذلك ما نقول، وهو أن الأمور المعنوية التي لا تقبل الموادّ ولا تحدّدها لا يصحّ السير إلى تحصيلها أو تحصيل ما يكون منها بقطع المسافات وتذريع المساحات، لكن قد يقترن بالهمة حركات مادية مبناها على علم أو إيمان بشرط التوحيد فبهما، فأما سيرهم من حيث ما هم علماء فبتصفية النفوس من كدورات الطبيعة واتخاذ الخلوات لتفريغ القلوب عن الخواطر المتعلقة بأجزاء الكون الحاصلة من إرسال الحواس في المحسوسات فتمتلىء خزانة الخيال فتصوّر القوّة المصوّر منها بحسب ما تعشقت به من ذلك، فتكون هذه الصور حائلة بينه وبين حصول هذه المرتبة الإلهية، فيجنحون إلى الخلوات والأذكار على جهة المدح لمن بيده الملكوت، فإذا صفت النفس وارتفع الحجاب الطبيعيّ الذي بينها وبين عالم الملكوت انطبع في مرآتها جميع ما في صور عالم الملكوت من العلوم المنقوشة، فيطلع الملأ الأعلى على هذه النفس التي هي بهذه المثابة فيرى فيها ما عنده فيتخذها مجلى ظهور ما فيه، فيكون الملأ الأعلى معيناً له أيضاً على استدامة ذلك الصفاء، ويحول بينه وبين ما يقتضيه حجاب الطبع، فتتلقى هذه النفس من العالم العلويّ بقدر مناسبتها منهم من العلم بالله، فيؤدّبهم ذلك العلم إلى التلقي من الفيض الإلهيّ ولكن بوساطة الأرواح النورية لا بدّ من ذلك فيسمّون ذلك سيراً، ولا بدّ من تجريد الهمم في الطلب لذلك، ولولا تعلق الهمة بتحصيل ما تقرّر عندها مجملاً ما صحّ له توجّه إلى الملأ الأعلى، فإن اتفق أن يكون هذا الرجل في سيره مع علمه مؤمناً أو يكون صاحب إيمان من غير علم فإن همته لا تتعلق إلاّ بالله، فإن الإيمان لا يدلّه إلاّ على الله، والعلم إنما يدله على الوسائط وترتيب الحكمة المعتادة في العالم، فصفة سير أصحاب الإيمان ما لهم طريق إلى ذلك إلاّ بعزائم الأمور المشروعة من حيث ما هي مشروعة وهم على قسمين: طائفة منهم قد ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق تعالىٰ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلى بينهم وبين الله، فهؤلاء إذا سارعوا أو سابقوا إلى الخيرات وفي الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق كرابعة العدوية، فهؤلاء إذا حصلوا في المجالس والحديث خاطبهم الحق بالكلام الإلهيّ من غير وساطة لسان معين. وأما الطائفة الأخرى فهم قوم جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالىٰ إلاّ والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون منه أمراً إلاّ ويرون في سيرهم قدم الرسول بين أيديهم ولا يخاطبهم إلاّ بلسانه ولغته كمحمد الأواني قال: تركت الكل ورائي وجئت إليه فرأيت أمامي قدماً فغرت وقلت لمن هذا اعتماداً مني أنه ما سبقني أحد وأني من أهل الرعيل الأوّل فقيل لي: هذه قدم نبيك فسكن روعي، والحالة الأولى هي حالة عبد القادر وأبي السعود بن الشبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم، وأصحاب الإيمان إذا كانوا علماء جمع لهم بين الأمرين فهم أكمل الرجال بشرط أنه إذا ساروا إليه وأخذوا مجالسهم عنده بالحديث المعنويّ كما تقدم وحديث السمع رأوا سريان سرّه تعالىٰ في الموجودات من قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً». ومن كونه ينزل إلى السماء الدنيا التي لا أقرب

منها فإنها أقرب من حبل الوريد، فالتحق عنده عالم الطبع بالعالم الروحانيّ وعاد الوجود عنده كله ملأ أعلى ومكانة زلفى فلم يحجبه كون ولا شغله عين، واستوى عنده الأين وعدم الأين وكان وما كان فرآه في الحجاب والعسس وسمع كلامه وحديثه في الغث والجرس هذا صفة سيرهم على طبقاتهم، ومنهم من كان سيره فيه بأسمائه فهو صاحب سير منه وإليه وفيه وبه، فهو سائر في وقوفه وواقف في سيره، والخضر والأفراد من أهل هذا المقام، ومن هنا كانت قرّة عينه ﷺ في الصلاة لأنه مناج مع اختلاف الحالات المحصورة من قيام وركوع وسجود وجلوس ما ثم أكثر من هذه الأركان وهي حالات تربيع روحانيّ فأشبهت العناصر في التربيع فحدثت صور المعاني من امتزاج هذه الحالات الأربعة كما حدثت صور المولدات الجسمية الطبيعية من امتزاج هذه العناصر.

السؤال الثالث عشر: فإن قلت: ومن الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد ﷺ خاتم النبوّة؟ فلنقل في الجواب: الختم ختمان: ختم يختم الله به الولاية، وختم يختم الله به الولاية المحمدية. فأما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسىٰ عليه السلام فهو الوليّ بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة وقد حيل بينه وبين نبوّة التشريع والرسالة فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً لا وليّ بعده بنبوّة مطلقة، كما أن محمداً ﷺ خاتم النبوّة لا نبوّة تشريع بعده وإن كان بعده مثل عيسىٰ من أولي العزم من الرسل وخواص الأنبياء ولكن زال حكمه من هذا المقام لحكم الزمان عليه الذي هو لغيره فينزل وليّاً ذا نبوّة مطلقة يشركه فيها الأولياء المحمديون فهو منا وهو سيدنا، فكان أوّل هذا الأمر نبيّ وهو آدم، وآخره نبيّ وهو عيسىٰ أعني نبوّة الاختصاص، فيكون له يوم القيامة حشران: حشر معنا وحشر مع الرسل وحشر مع الأنبياء. وأما ختم الولاية المحمدية فهي لرجل من العرب من أكرمها أصلاً ويداً وهو في زماننا اليوم موجود عرّفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عيون عباده وكشفها إليّ بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية منه، وهو خاتم النبوّة المطلقة لا يعلمها كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سرّه من العلم به، وكما أن الله ختم بمحمد ﷺ نبوّة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمديّ الولاية التي تحصل من الورث المحمديّ لا التي تحصل من سائر الأنبياء، فإن من الأولياء من يرث إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ فهؤلاء يوجدون بعد هذا الختم المحمديّ، وبعده فلا يوجد وليّ على قلب محمد ﷺ، هذا معنى خاتم الولاية المحمديّة. وأما ختم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده وليّ فهو عيسىٰ عليه السلام، ولقينا جماعة ممّن هو على قلب عيسىٰ عليه السلام وغيره من الرسل عليهم السلام وقد جمعت بين صاحبيّ عبد الله وإسماعيل بن سودكين وبين هذا الختم ودعا لهما وانتفعا به والحمد لله.

السؤال الرابع عشر: بأيّ صفة يكون ذلك المستحق لذلك؟ الجواب: بصفة الأمانة وبيده مفاتيح الأنفاس وحالة التجريد والحركة، وهذا هو نعت عيسىٰ عليه السلام كان يحيي بالنفخ وكان من زهّاد الرسل، وكانت له السياحة، وكان حافظاً للأمانة مؤدّياً لها، ولهذا عادته

اليهود ولم تأخذه في الله لومة لائم، كنت كثير الاجتماع به في الوقائع، وعلى يده تبت، ودعا لي بالثبات على الدين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ودعاني بالحبيب وأمرني بالزهد والتجريد. وأما الصفة التي استحق بها خاتم الولاية المحمديّة أن يكون خاتماً فبتمام مكارم الأخلاق مع الله وجميع ما حصل للناس من جهته من الأخلاق، فمن كون ذلك الخلق موافقاً لتصريف الأخلاق مع الله، وإنما كان ذلك كذلك لأن الأغراض مختلفة، ومكارم الأخلاق عند من يتخلق بها معه عبارة عن موافقة غرضه، سواء حمد ذلك عند غيره أو ذمّ، فلما لم يتمكن في الوجود تعميم موافقة العالم بالجميل الذي هو عنده جميل نظر في ذلك نظر الحكيم الذي يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي فنظر في الموجودات فلم يجد صاحباً مثل الحق ولا صحبة أحسن من صحبته، ورأى أن السعادة في معاملته وموافقة إرادته، فنظر فيما حدّه وشرعه فوقف عنده واتبعه، وكان من جملة ما شرعه أن علمه كيف يعاشر ما سوى الله من ملك مطهر، ورسول مكرّم وإمام جعل الله أمور الخلق بيده من خليفة إلى عريف، وصاحب وصاحبة، وقرابة وولد، وخادم وداية، وحيوان ونبات وجماد في ذات وعرض، وملك إذا كان ممّن يملك، فراعى جميع من ذكرناه بمراعاة الصاحب الحق، فما صرف الأخلاق إلاّ مع سيده، فلما كان بهذه المثابة قيل فيه مثل ما قيل في رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] قالت عائشة: «**كَانَ الْقُرْآنُ خُلُقَهُ يَحْمَدُ مَا حَمِدَ اللَّهُ وَيَذُمُّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِلِسَانِ حَقّ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**» فلما طابت أعراقه وعمّ العالم أخلاقه ووصلت إلى جميع الآفاق أرفاقه استحق أن يختم بمن هذه صفته الولاية المحمدية من قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ جعلنا الله ممّن مهد له سبيل هداه ووفقه للمشي عليه وهداه.

السؤال الخامس عشر: فإن قلت: ما سبب الخاتم ومعناه؟ فلنقل في الجواب: كمال المقام سببه والمنع والحجر معناه، وذلك أن الدنيا لما كان لها بدء ونهاية وهو ختمها قضى الله سبحانه أن يكون جميع ما فيها بحسب نعتها له بدء وختام، وكان من جملة ما فيها تنزيل الشرائع، فختم الله هذا التنزيل بشرع محمد ﷺ فكان خاتم النبيين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] وكان من جملة ما فيها الولاية العامة، ولها بدء من آدم فختمها الله بعيسىٰ فكان الختم يضاهي البدء ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] فختم بمثل ما به بدأ، فكان البدء لهذا الأمر بنبيّ مطلق وختم به أيضاً.

ولما كانت أحكام محمد ﷺ عند الله تخالف أحكام سائر الأنبياء والرسل في البعث العام وتحليل الغنائم وطهارة الأرض واتخاذها مسجداً وأوتي جوامع الكلم ونصر بالمعنى وهو الرعب وأوتي مفاتيح خزائن الأرض وختمت به النبوّة عاد حكم كلّ نبيّ بعده حكم وليّ، فأنزل في الدنيا من مقام اختصاصه، واستحق أن يكون لولايته الخاصة ختم يواطىء اسمه اسمه ﷺ ويحوز خلقه، وما هو بالمهديّ المسمّى المعروف المنتظر، فإن ذلك من سلالته وعترته، والختم ليس من سلالته الحسيّة ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه ﷺ، أما سمعت الله يقول فيما أشرنا إليه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٤] وجميع أنواع

المخلوقات في الدنيا أمم، وقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] في أثر قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] فجعل لها ختاماً وهو انتهاء مدّة الأجل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فما من نوع إلاّ وهو أمّة، فافهم ما بيّناه لك فإنه من أسرار العالم المخزونة التي لا تعرف إلاّ من طريق الكشف، والله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

السؤال السادس عشر: كم مجالس ملك الملك؟ الجواب: على عدد الحقائق الملكية والنارية والإنسانية واستحقاقاتها الداعية لإجابة الحق فيم سألته منه بسط ذلك. اعلم أوّلاً أنه لا بدّ من معرفة ملك الملك ما أرادوا به، ثم بعد هذا تعرف كمية مجالسه إن كان لها كمية محصورة، فالملك هو الذي يقضي فيه مالكه ومليكه بما شاء ولا يمتنع عنه جبراً فيسمّى كرهاً أو اختياراً فيسمّى طوعاً، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فقال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] والمأمور هو الملك والآمر هو المالك، ولا بدّ من أخذ الإرادة في حدّ الأمر لأنه اقتضاء وطلب من الآمر بالمأمور، سواء كان المأمور دونه أو مثله أو أعلى، وفرّق الناس بين أمر الدون وبين أمر الأعلى، فسمّوا أمر الدون إذا أمر الأعلى طلباً وسؤالاً مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] فلا يشك أنه أمر من العبد لله فسمّي دعاء، وإذا فهمت هذا وعلمت أن المأمور هو بالنسبة إلى الآمر ملكاً والآمر مليك، ثم رأيت المأمور وقد امتثل أمر آمره وأجابه فيما سأل منه أو اعترف بأنه يجيبه إذا دعاه لما يدعوه إليه إن كان المدعوّ أعلى منه فقد صيّر نفسه هذا الأعلى ملكاً لهذا الدون، وهذا الدون هو تحت حكم هذا الأعلى وحيطته وقهره وقدرته وأمره فهو ملكه بلا شك، وقد قرّرنا أن الدون الذي هو بهذه المثابة قد يأمر سيده فيجيبه السيد لأمره فيصير بتلك الإجابة ملكاً له، وإن كان عن اختيار منه فيصحّ أن يقال في السيد أنه ملك الملك لأنه أجاب أمر عبده وعبده ملك له، ومن أمر فأجاب فقد صحّ عليه اسم المأمور وهو معنى الملك، فإذا أجاب السيد أمر عبده وهو ملك فبإجابته صيّر نفسه ملك ملكه وهذا غاية النزول الإلهيّ لعبده إذ قال له: أدعوني أستجب لك، فيقول له العبد: اغفر لي ارحمني انصرني اجبرني فيفعل، ويقول الله له: ادعني أقم الصلاة ائت الزكاة اصبروا ورابطوا جاهدوا فيطيع ويعصي. وأما الحق سبحانه فيجيب عبده لما دعاه إليه بشرط تفرّغه لدعائه، وقد يكون أثر المؤثر فعلاً من غير أمر كالعبد يعصي فيثير كونه عاصياً غضباً في نفس السيد فيوقع به العقوبة فقد جعل العبد سيده يعاقبه بمعصيته، ولو لم يعصه ما ظهر من السيد ما ظهر أو يغفر له، وكذلك في الطاعة يثيبه فيكون من هذه النسبة أيضاً ملك الملك أي ملكاً لمن هو ملكه، وبهذا وردت الشرائع كلها.

وأما قوله: كم مجالسه؟ فإنها لا تنحصر عقلاً، فإنها حالة دوام من سيد لعبد، ومن عبد إلى سيد، فسؤاله لا يخلو إما أن يريد ما قلنا من أنها لا تنحصر عقلاً، فإن أجاب بانحصار في كمية معلومة علم أنه لا علم عنده أو يريد مجالسه من حيث ما شرع فهي مجالس

في الدنيا محصورة وفي الآخرة غير محصورة، لأن الآثار الواقعة في الآخرة كلها أصلها من الشرائع، فلا ينفك حكم الشرع في الدنيا والآخرة، فإن الخلود في الدارين من حكم الشرع، وما يكون من الحق فيهم من حكم الشرع، فإذا مجالس ملك الملك من جهة الشرع لا تنحصر، فإن أراد السائل عن هذا حالة الدنيا خاصة فعددها عدد أنفاس الخلائق عقلاً، وإن أراد ما اقترن به الأمر من العبد خاصة فعلى قدر ما دعا العبد ربّه من حيث ما أمره أن يدعوه به وهي من كلّ داعٍ بحسب ما سبق في علم الله من تكليفه لكلّ عين عبد أن يدعوه، وخلق الله الذين هم بهذه المثابة يفوتون التلفّظ باسم العدد الذي يحصرهم فإنه يدخل في ذلك الملائكة والجنّ والإنس، فحصر كمياتها ما دام زمان الدنيا إلى أن ينقضي في حق الملك والجنّ والإنس محصور الكمية غير متصوّر التلفظ به لأنه قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وهم من الملك الذي يدعو ربّه فيصيره بدعائه ملكاً له، فكمياتها وإن كانت محصورة فهي غير معلومة، وإن علمت فهي غير مقدورة للتلفظ بها لما في ذلك من المشقة، ولكن من وقف على ما رقم في اللوح المحفوظ عرف كمياتها بلا شك وإن تعذّر النطق بها، فمن كل وجه لا يتصوّر الجواب عنها بأكثر من هذا وإنما جعله الترمذيّ على سبيل الامتحان، فإنه جاء بمسائل لا يصحّ الجواب عنها ليعلم أن المسؤول إذا أجاب عنها أنه مبطل في دعواه علم ذلك، إذ لو علم ذلك لكان من علمه به أنه ممّا لا يجب عنه فيعلم صدق دعواه، وسيأتي من ذلك ما تقف عليه في هذه السؤالات إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال السابع عشر: بأيّ شيء حظ كل رسول من ربه؟ الجواب عن هذا لا يتصوّر، لأن كلام أهل طريق الله عن ذوق ولا ذوق لأحد في نصيب كلّ رسول من الله، لأن أذواق الرسل مخصوصة بالرسل، وأذواق الأنبياء مخصوصة بالأنبياء، وأذواق الأولياء مخصوصة بالأولياء، فبعض الرسل عنده الأذواق الثلاثة لأنه وليّ ونبيّ ورسول، قال الخضر لموسىٰ: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] والخبر الذوق، وقال له: أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، هذا هو الذوق.

حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين فسأل بعضهم بعضاً من أيّ مقام سأل موسىٰ الرؤية؟ فقال له الآخر: من مقام الشوق، فقلت له: لا تفعل، أصل الطريق أن نهايات الأولياء بدايات الأنبياء، فلا ذوق للوليّ في حال من أحوال أنبياء الشرائع فلا ذوق لهم فيه، ومن أصولنا أنا لا نتكلم إلاّ عن ذوق ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأيّ شيء نعرف من أيّ مقام سأل موسىٰ الرؤية ربه؟ نعم لو سألها وليّ أمكنك الجواب، فإن في الإمكان أن يكون لك ذلك الذوق، وقد علمنا من باب الذوق أن ذوق مقام الرسل لغير الرسل ممنوع، فالتحق وجوده بالمحال العقليّ لأنّ الذات لا تقتضي إلاّ هذا الترتيب الخاص أو سبق العلم كيف شئت فقل، فإن أراد السؤال عن السبب الذي اقتضى لذلك الرسول هذا الحظ الذي انفرد به، فقد قال صاحب المحاسن: ليس بينه وبين عباده نسب إلاّ العناية ولا سبب إلاّ الحكم ولا وقت غير الأزل وما بقي فعمى وتلبيس.

واعلم أن السبب العام الذي عين المراتب العلية لأربابها إنما هو العناية الإلهية وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [سورة يونس: الآية ٢] وأما السبب الخاص لهذا الرسول للحظ الخاص الذي له من ربّه فيحتاج ذكره إلى ذكر كل رسول باسمه وحينئذ نذكر سببه، ورسل الله في البشر محصورون وفي الملائكة غير محصورين عندنا، لكن من شرط أهل هذه الطريقة إذا ادّعوا هذه المعرفة فلا بدّ أن يعرفوا السبب عند تعيّن الرسول بالذكر، ولكن هو من الأسباب التي لا تذاع لئلا يتعب الخلق أو يتخيل الضعيف الرأي أن الرسالة تكتسب بذلك السبب إذا علم، فيؤدّي ذكر ذلك إلى فساد في العالم فيحفظ عليه الأمناء، وأيضاً فلا فائدة في إظهاره فإنه بكونه رسولاً خصّ به لأنه كان رسولاً بل هو رسول بأمر عام يجتمع فيه المرسلون قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] فكل واحد منهم فاضل مفضول وهو مذهب الجماعة، وقد بين هذا أبو القاسم ابن قسيّ في خلع النعلين وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٤٧] فخصّ آدم بعلم الأسماء الإلهية التي طوى علمها عن الملائكة، فلم تسبح الله بها حتى استفادتها من آدم، وخصّ موسىٰ بالكلام والتوراة من حيث أن الله كتبها بيده قبل أن يخلق آدم بأربع آلاف سنة، وخصّ رسول الله ﷺ بما ذكر عن نفسه من أنه أوتي جوامع الكلم، وخصّ عيسىٰ بكونه روحاً وأضاف النفخ إليه فيما خلقه من الطين ولم يضف نفخاً في إعطاء الحياة لغير عيسىٰ بل لنفسه تعالىٰ إما بالنون أو بالتاء التي هي ضمير المتكلم عن نفسه، وهذا وإن كانت كلها منصوصاً عليها أنها حصلت لهم فليس بمنصوص الاختصاص بها ولكنه معلوم من جهة الكشف والاطلاع.

السؤال الثامن عشر: أين مقام الرسل من مقام الأنبياء؟ الجواب: هو بالإزاء إلاّ أنه في المقام الرابع من المراتب، فإن المراتب أربع التي تعطي السعادة للإنسان وهي: الإيمان والولاية والنبوّة والرسالة. وأما من مقام الأنبياء فهم من أنبياء التشريع في الرتبة الثانية، ومن مقام الأنبياء في الرتبة الثالثة، والعلم من شرائط الولاية وليس من شرطها الإيمان فإن الإيمان مستنده الخبر فلا يحتاج إليه مع الخبر، إما بالمحال كالأينية لله أو بالإمكان وهو الإخبار ببعض المغيبات التي يمكن أن ينسب إليها المخبر ما نسب، فأول مرتبة العلماء بتوحيد الله الأولياء فإن الله ما اتخذ وليّاً جاهلاً، وهذه مسألة عظيمة أغفلها علماء الرسوم فإنه يدخل تحت فلك الولاية كل موحّد لله بأي طريق كان وهو المقام الأول، ثم النبوّة، ثم الرسالة، ثم الإيمان، فهي فينا أعني مرتبة الولاية على ما رتبناه وهي هناك ولاية، ثم إيمان، ثم نبوّة، ثم رسالة، وعند علماء الرسوم وعامّة الناس الخارجين عن الطريق الخاص المرتبة الأولى إيمان، ثم ولاية، ثم نبوّة، ثم رسالة، فأجبنا فيها على ما تعرفه العامة وعلماء الرسوم، وبيّنا المراتب كيف هي بالنظر إلى جهات مختلفة، فالموحدون بأيّ وجه كان أولياء الله تعالىٰ فإنهم حازوا أشرف المراتب التي شرك الله أصحابها من أجلها مع الله فيها فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ففصل لتمييز شهادة الحق لنفسه من شهادة من سواه له بما شهد به

لنفسه فقال: وعطف بالواو والملائكة فقدم للمجاورة في النسبة من كونه إلهاً، والجار الأقرب في الشرع وفي العرف عند أرباب الكرم، والعلم مقدم على الجار الأبعد بكل وجه إذا اتحدا في ذلك الوجه، وفي هذا من رحمة الله بخلقه ما لا يقدر قدره إلاّ العارفون به في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فنحن أقرب جار وللجار حق مشروع يعرفه أهل الشريعة، وكذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فينبغي للإنسان أن يحضر هذا الجوار الإلهي عند الموت حتى يطلب من الحق ما يستحقه الجار على جاره من حيث ما شرع وهو قوله لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] أي الحق الذي شرعته لنا فعاملنا به حتى لا ننكر شيئاً منه ممّا يقتضيه الكرم، فلو علم الناس ما في هاتين الآيتين من العناية بالعباد لكانوا على أحوال لا يمكن أن تذاع يقول تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] وقال ﷺ في مثل هذا المقام: «**أفلا أكون عَبْداً شكوراً**».

ثم قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] يعني من الجنّ والإنس ومن شاركهم من الأمهات، والمولدات العلماء بالله فجعلهم جيران الملائكة لتصح الشفاعة من الملائكة فينا لحق الجوار أنه لا إله إلاّ هو الضمير في أنه يعود على الله من شهد الله فشهادتهم بتوحيده على قدر مراتبهم في ذلك، فلذلك فصل بين شهادته لنفسه وشهادة العلماء له ثم قال: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] أي بالعدل فيما فصل به بين الشهادتين، ثم قال بنفسه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] نظير الشهادة الأولى التي له، فحصلت شهادة العالم له بالتوحيد بين شهادتين إلهيتين أحاطنا بها حتى لا يكون للشقاء سبيل إلى القائل بها، ثم تمّم بقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ ليعلم أن الشهادة الثالثة له مثل الأولى لاقتران العزّة بها أي لا ينالها إلاّ هو لأنها منيعة الحمى بالعزّة، ولو كانت هذه الشهادة من الخلق لم تكن منيعة الحمى عن الله، فدلّ إضافة العزّة لها على أنها شهادة الله لنفسه. وقوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] لوجود هذا الترتيب في إعطاء السعادة لصاحب هذه الشهادة حيث جعلها بين شهادتين منسوبتين إلى الله من حيث الاسم الأول والآخر وشهادة الخلق بينهما، فسبحان من قدر الأشياء مقاديرها وعجز العالم أن يقدورها حق قدرها، فكيف أن يقدروا حق قدر من خلقها؟ وهذا الكشف من مقام وراثة الرسول ﷺ من حيث رسالته من قوله: ﴿ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم العلماء بالله من أهل الله الذين أقامهم الحق مقام الرسل في الدعوة إلى الله بلسان حق عن نبوّة مطلقة اعتنى بهم في أن وصفهم بها لا نبوّة الشرائع بل نبوّة حفظ لأمر مشروع على بصيرة من الحافظ لا عن تقليد.

السؤال التاسع عشر: أين مقام الأنبياء من الأولياء؟ الجواب: هو خصوص فيه وهو بالإزاء أيضاً إلاّ أنه في المقام الثالث على ما تقدم من المراتب، وكان ينبغي أن يكون السؤال عن هذا بتفصيل بين نبوّة الشرائع والنبوّة المطلقة، فهم من الأولياء إذا كانوا أنبياء شريعة في الدرجة الثالثة، وأن كانوا في النبوّة اللغوية فهم في الدرجة الثانية. واعلم أن الأولياء هم الذين

تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة: الهوى والنفس والدنيا والشيطان، والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبي وإن كان سؤاله عن مقام الأنبياء من الأولياء أي أنبياء الأولياء وهي النبوّة التي قلنا أنها لم تنقطع فإنها ليست نبوّة الشرائع، وكذلك في السؤال عن مقام الرسل الذين هم أنبياء، فلنقل في جوابه إن أنبياء الأولياء مقامهم من الحضرات الإلهية الفردانية، والاسم الإلهيّ الذي تعبّدهم الفرد، وهم المسمّون الأفراد، فهذا هو مقام نبوّة الولاية لا نبوّة الشرائع، وأما مقام الرسل الذين هم أنبياء فهم الذين لهم خصائص على ما تعبدوا به أتباعهم كمحمد ﷺ فيما قيل له: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠] في النكاح بالهبة، فمن الرسل من لهم خصائص على أمّتهم، ومنهم من لا يختصه الله بشيء دون أمّته، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أي خصّوا بعلم لا يحصل إلاّ لنبيّ من العلم الإلهيّ ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ولهذا قال في نبيّ الشرائع: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] أي ما هو ذوقك يا موسىٰ مع كونه كليم الله فخرق السفينة وقتل الغلام حكماً وأقام الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهيّ كخسف البلاد على يدي جبريل ومن كان من الملائكة، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمين من الملائكة وأنبياؤهم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء.

السؤال العشرون: وأي اسم منحه من أسمائه؟ الجواب: سؤالك هذا يحتمل أربعة أمور: الواحد أن يكون الضمير المرفوع في منحه يعود على الله. الثاني: أن يعود على المقام. الثالث: على الاسم الإلهيّ. الرابع: أن يكون الضمير في أسمائه يعود على العبد، فيكون الاسم اسم العبد لا اسم الله، وكذلك الضمير المنصوب في منحه الذي هو المفعول الثاني هل هو ضمير اسم إلهيّ أو هل هو المقام؟ فإن كان الضمير المرفوع الله أو المقام فيكون الممنوح الاسم بلا شك، وإن كان الضمير المرفوع الله أو الاسم الإلهيّ أو اسم العبد فيكون المقام هو الممنوح فليكن الضمير المرفوع الله، فالممنوح الاسم الإلهيّ الذي يسمّى به العبد في تخلّقه أو اسم العبد وهو الأصل في القربة الإلهية، فإن العبد لا يتصف بالقرب من الله إلاّ باسمه، قال الله لأبي يزيد: تقرّب إليّ بما ليس لي، قال: يا رب وما ليس لك؟ قال: الذلّة والافتقار. والسبب في ذلك أن أصل العبد أن يكون معلولاً ولا بدّ والمعلولية له لذاته، وكل معلول فقير ذليل بلا شك لا شفاء يرجى له من هذه العلة، فيكون القرب من الله قرباً ذاتياً أصلياً.

وإن كان الممنوح اسماً إلهياً ليتخلق به العبد، كالاسم الرحيم في موطنه، والاسم الملك المتكبر في موطنه، فذلك قرب يعرض له من الشارع الذي عيّنه له، فإن للعبد أسماء يستحقها وأسماء تعرض له مثل الأسماء الإلهية إذا تخلق بها العبد، ولله أسماء يستحقها وأسماء عرضت له من تنزّله لعقول عباده وهي الأسماء التي هي للعبد بحكم الاستحقاق، فهل اتصاف الحق بها يكون تخلّقاً من الله بأسماء عبده أو تلك الصفات لله حقيقة جهلنا معناها بالنسبة إليه وعرفنا معناها بالنسبة إلينا، فيكون العبد متخلقاً بها، وإن كان يستحقها من وجه

معرفته بمعناها إذا نسبت إليه، ومن كون الباري اتصف بها على طريقة مجهولة عندنا فلا نعرف كيف ننسبها إليه لجهلنا بذاته فتكون أصلاً فيه عارضة فينا، فلا نستحق شيئاً لا من أسمائه ولا ممّا نعتقد فيها أنها أسماؤنا، وهذا موضع حيرة ومزلّة قدم إلاّ لمن كشف الله عن بصيرته، ونحن بحمد الله وإن كنّا قد علمناها فهي من العلوم التي لا تذاع أصلاً ورأساً، وبمعرفته بها دعا من دعا إلى الله على بصيرة وهو الشخص الذي هو ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له بصدق البينة التي هو عليها، فالفطن يعلم ما سترناه بإعلام الله في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

هل تلك الأسماء إذا نسبت إلى الله هل تنسب إليه تخلّقاً واستحقاقاً، وإذا نسبت إلى العبد هل تنسب إليه تخلّقاً كسائر الأسماء الإلهية التي لا خلاف فيها عند العام والخاص أو تنسب إليه بطريق الاستحقاق؟ فالشاهد المطلوب هنا أن عين العبد لا تستحق شيئاً من حيث عينه لأنه ليس بحق أصلاً، والحق هو الذي يستحق ما يستحق فجميع الأسماء التي في العالم ويتخيّل أنها حق للعبد حق لله، فإذا أضيفت إليه وسمّي بها على غير وجه الاستحقاق كانت كفراً وكان صاحبها كافراً، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فكفروا بالمجموع، هذا إذا كان الكفر شرعاً، فإن كان لغة ولساناً فهو إشارة إلى الأمناء من عباد الله الذين علموا أن الاستحقاق بجميع الأسماء الواقعة في الكون الظاهرة الحكم إنما يستحقها الحق والعبد يتخلق بها وأنه ليس للعبد سوى عينه، ولا يقال في الشيء أنه يستحق عينه فإن عينه هويته فلا حق ولا استحقاق، وكل ما عرض أو وقع عليه اسم من الأسماء إنما وقع على الأعيان من كونها مظاهر، فما وقع اسم إلاّ على وجود الحق في الأعيان، والأعيان على أصلها لا استحقاق لها فهذا شرح قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له بصدق النسبة أنه عين بلا حكم وكونه مظهراً حكماً لا عيناً، فالوجود لله وما يوصف به من أية صفة كانت إنما المسمّى بها هو مسمّى الله فافهم أنه ما ثم مسمّى وجوديّ إلاّ الله، فهو المسمّى بكل اسم، والموصوف بكل صفة، والمنعوت بكل نعت.

وأما قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] من أن يكون له شريك في الأسماء كلها، فالكل أسماء الله أسماء أفعاله أو صفاته أو ذاته، فما في الوجود إلاّ الله، والأعيان معدومة في عين ما ظهر فيها، وقد اندرج في هذا الفصل إن فهمت جميع ما ذكرناه في تقسيم الضميرين المنصوب والمرفوع، فالوجود له والعدم لك، فهو لا يزال موجوداً وأنت لا تزال معدوماً، ووجوده إن كان لنفسه فهو ما جهلت منه، وإن كان لك فهو ما علمت منه فهو العالم والمعلوم، والذي يقصده أكثر الناس بقولهم أي اسم منح الله الرسول من أسمائه هو الاسم الذي يستدعيه تأييد دعوته وهو المعبر عنه بالسلطان والإعجاز أثره، وإن منحه النبيّ فهو الاسم الذي يتأيّد به في حصول الرتبة النبويّة وصحتها، وقد يكون لكل شخص اسم يمنحه بحسب ما تقتضيه رتبته من مقام نبوّته أو رسالته، غير أن الاسم الواهب هو الذي يعطي ذلك إلاّ إذا كان المقام مكتسباً فقد يعطيه الاسم الكريم أو الجواد أو السخي. انتهى الجزء الحادي والثمانون.

(الجزء الثاني والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الحادي والعشرون: أيّ شيء حظوظ الأولياء من أسمائه؟ الجواب: هنا تفصيل هل يريد بالاسم الذي أوجب لهم هذه الحظوظ أو الاسم الذي يتولاهم فيها أو الاسم الذي تنتجه هذه الحظوظ؟ فإن أراد الاسم أو الأسماء التي أوجبت لهم هذه الحظوظ فالحظوظ على قسمين: حظوظ مكتسبة وحظوظ غير مكتسبة، ولكل واحد من القسمين اسم يخصّه من حيث ما يوجبها، ومن حيث ما يتولاها، ومن حيث ما تنتجه، فما كان من الحظوظ المكتسبة فالأسماء التي توجبها هي الأسماء التي تعطيهم الأعمال التي اكتسبوها بها وهي مختلفة كل عمل بحسب اسمه، فكل عامل إذا كان عارفاً يعلم الاسم الذي يخصّ تلك الحركة العلمية من الأسماء الإلهية ويطول التفصيل فيها والأسماء التي تتولاهم في حال وجودها لهم فهي بحسب ما هو ذلك الحظ، فالحظ يطلب بذاته من يتولاه من الأسماء والحظوظ مختلفة، وكذلك الأسماء التي توجبها الحظوظ وتنتجها فهي بحسب الحظوظ أيضاً، فتختلف الأسماء باختلاف الحظوظ، وعلى هذا النسق الكلام في الحظوظ التي هي غير مكتسبة من التفصيل.

السؤال الثاني والعشرون: وأي شيء علم المبدأ؟ الجواب: سأل بلفظ في العامّة يعطي البدء، وفي الخاصة يعطي موجب النسخ في مذهب من يراه، فلنتكلم على الأمرين معاً ليقع الشرح باللسانين فيعم الجواب. اعلم أن علم البدء علم عزيز وأنه غير مقيّد، وأقرب ما تكون العبارة عنه أن يقال: البدء افتتاح وجود الممكنات على التتالي والتتابع لكون الذات الموجدة له اقتضت ذلك من غير تقييد بزمان، إذ الزمان من جملة الممكنات الجسمانية فلا يعقل إلاّ ارتباط ممكن بواجب لذاته، فكان في مقابلة وجود الحق أعيان ثابتة موصوفة بالعدم أزلاً وهو الكون الذي لا شيء مع الله فيه، إلاّ أن وجوده أفاض على هذه الأعيان على حسب ما اقتضته استعداداتها فتكوّنت لأعيانها لا له من غير بينية تعقل أو تتوهم وقعت في تصوّرها الحيرة من الطريقين: من طريق الكشف ومن طريق الدليل الفكري والنطق عمّا يشهده الكشف بإيضاح معناه يتعذر فإن الأمر غير متخيل، فلا يقال ولا يدخل في قوالب الألفاظ بأوضح ممّا ذكرناه، وسبب عزة ذلك الجهل بالسبب الأول وهو ذات الحق، ولما كانت سبباً كانت إلهاً لمألوه لها حيث لا يعلم المألوه أنه مألوه، فمن أصحابنا من قال: إن البدء كان عن نسبة القهر. وقال بعض أصحابنا: بل كان عن نسبة القدرة والشرع يقول عن نسبة أمر والتخصيص في عين ممكن دون غيره من الممكنات المميزة عنده، والذي وصل إليه علمنا من ذلك ووافقنا الأنبياء عليه أن البدء عن نسبة أمر فيه رائحة جبر إذ الخطاب لا يقع إلاّ على عين ثابتة معدومة عاقلة سميعة عالمة بما تسمع يسمع ما هو سمع وجود ولا عقل وجود ولا علم وجود، فالتبست عند هذا الخطاب بوجوده فكانت مظهراً له من اسمه الأول الظاهر، وانسحبت هذه الحقيقة على هذه الطريقة على كل عين عين إلى ما لا يتناهى، فالبدء حالة مستصحبة قائمة لا تنقطع

بهذا الاعتبار فإن معطي الوجود لا يقيده ترتيب الممكنات فالنسبة منه واحدة فالبدء ما زال ولا يزال، فكل شيء من الممكنات له عين الأولية في البدء، ثم إذا نسبت الممكنات بعضها إلى بعض تعين التقدّم والتأخّر لا بالنسبة إليه سبحانه، فوقف علماء النظر مع ترتيب الممكنات حين وقفنا نحن مع نسبتها إليه والعالم كله عندنا ليس له تقييد إلاّ بالله خاصة والله يتعالىٰ عن الحدّ والتقييد، فالمقيد به تابع له في هذا التنزيه، فأولية الحق هي أوليته إذ لا أولية للحق بغير العالم لا يصحّ نسبتها ولا نعته بها بل هكذا جميع النسب الأسمائية كلها: [نظم: مخلع البسيط]

فـالـعـبـدُ مَـلْـكٌ إذ قـد تـسـمَّـى ... فـي عـيـن حـال بـمـا تَـسَـمَّـى
والـمَـلْـكُ عـبـدٌ فـي عـيـنِ حـالٍ ... إذا تـسـمَّـى بـمـا أُسَـمَّـى
فـإنـه بـي ولـسـتُ أعـنـي ... عـنـي لـكـونـي أصـمَّ أَعْـمَـى
عـن كـل عـيـنِ سـوى عـيـانـي ... لـكـونـه أظـهـرتـه الأَسْـمَـا

هذه طريقة البدء، وأما إذا أراد البداء وهو أن يظهر له ما لم يكن ظهر هو مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩٤] فيكون الحكم الإلهي بحسب ما يعطيه الحال، وقد كان قرّر الأمر بحال معين بشرط الدوام لذلك الحال في توهمنا فلما ارتفع الدوام الحالي الذي لو دام أوجب دوام ذلك الأمر بدا من جانب الحق حكم آخر اقتضاه الحال الذي بدا من الكون فقابل البدا بالبدا، فهذا معنى علم البدالة على الطريقة الأخرى، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] يقول ﷺ: «**اتْرُكُونِي ما تَرَكْتُكُمْ**» وكانت الشرائع تنزل بقدر السؤال، فلو تركوا السؤال لم ينزل هذا القدر الذي شرع، ومعقول ما يفهم من هذا علم البدا. وبعد أن علمت هذا فقد علمت علم الظهور وعلم الابتداء فكأنك علمت علم ظهور الابتداء أو ابتداء الظهور فإن كل نسبة منهما مرتبطة بالأخرى، فإن كان ظهور الابتداء فما حضرة الإخفاء التي منها ظهر هذا الابتداء فلا شك أنه لم يكن يصحّ هذا الوصف إلاّ له ففيه خفي وبه ظهر، فحالة ظهوره عن ذلك الخفاء هو المعبر عنه بالابتداء، وإن كان إبتداء الظهور فهل له نسبة إلى القدم إذ لم يكن له حالة الظهور فما نسبة القدم إليه؟ قلنا: عينه الثابتة حال عدمه هي له نسبة أزلية لا أول لها، وابتداء الظهور عبارة عمّا اتصفت به من الوجود الإلهيّ إذ كانت مظهراً للحق فهو المعبر عنه بابتداء الظهور، فإن تعدّد الأحكام على المحكوم عليه مع أحدية العين إنما ذلك راجع إلى نسب واعتبارات، فعين الممكن لم تزل ولا تزال على حالها من الإمكان، فلم يخرجها كونها مظهراً حتى انطلق عليها الاتصاف بالوجود عن حكم الإمكان فيها فإنه وصف ذاتيّ لها، والأمور لا تتغير عن حقائقها باختلاف الحكم عليها لاختلاف النسب، ألا ترى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فنفى الشيئية عنه وأثبتها له والعين هي العين لا غيرها.

السؤال الثالث والعشرون: ما معنى قوله عليه السلام: «**كانَ اللّهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ**»؟

الجواب: لا تصحبه الشيئية ولا تنطلق عليه، وكذلك هو ولا شيء معه، فإنه وصف ذاتيّ له سلب الشيئية عنه وسلب معية الشيئية لكنه مع الأشياء وليست الأشياء معه، لأن المعيّة تابعة للعلم، فهو يعلمنا فهو معنا ونحن لا نعلمه فلسنا معه. فاعلم أن لفظة «كان» تعطي التقييد الزمانيّ وليس المراد هنا به ذلك التقييد وإنما المراد به الكون الذي هو الوجود، فتحقيق «كان» أنه حرف وجوديّ لا فعل يطلب الزمان ولهذا لم يرد ما يقوله علماء الرسوم من المتكلمين وهو قولهم وهو الآن على ما عليه كان، فهذه زيادة مدرجة في الحديث ممّن لا علم له بعلم كان ولا سيما في هذا الموضع ومنه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٩] وغير ذلك ممّا اقترنت به لفظة كان، ولهذا سمّاها بعض النحاة هي وأخواتها حروفاً تعمل عمل الأفعال وهي عند سيبويه حرف وجوديّ وهذا هو الذي تعقله العرب، وإن تصرفت تصرف الأفعال فليس من أشبه شيئاً من وجه ما يشبهه من جميع الوجوه بخلاف الزيادة بقولهم وهو الآن، فإن الآن تدل على الزمان، وأصل وضعه لفظة تدل على الزمان الفاصل بين الزمانين الماضي والمستقبل ولهذا قالوا في الآن أنه حد الزمانين، فلما كان مدلولها الزمان الوجوديّ لم يطلقه الشارع في وجود الحق، وأطلق «كان» لأنه حرف وجوديّ، وتخيّل فيه الزمان لوجود التصرّف من كان ويكون فهو كائن ومكوّن كقتل يقتل فهو قاتل ومقتول، وكذلك كن بمنزلة أخرج فلما رأوا في الكون هذا التصرّف الذي يلحق الأفعال الزمانية تخيّلوا أن حكمها حكم الزمان، فأدرجوا الآن تتمة للخبر وليس منه فالمحقق لا يقول قط وهو الآن على ما عليه كان فإنه لم يرد ويقول على الله ما لم يطلقه على نفسه لما فيه من الإخلال بالمعنى الذي يطلبه حقيقة وجود الحق خالق الزمان، فمعنى ذلك: الله موجود ولا شيء معه أي ما ثم من وجوده واجب لذاته غير الحق، والممكن واجب الوجود به لأنه مظهره وهو ظاهر به، والعين الممكنة مستورة بهذا الظاهر فيها فاتصف هذا الظهور، والظاهر بالإمكان حكم عليه به عين المظهر الذي هو الممكن، فاندرج الممكن في واجب الوجود لذاته عيناً، واندرج الواجب الوجود لذاته في الممكن حكماً فتدبر ما قلناه.

واعلم أن كلامنا في شرح ما ورد إنما هو على قول الوليّ إذا قال مثل هذا اللفظ أو نطق به من مقام ولايته لا من مقام الرتبة التي منها بعث رسولاً، فإن الرسول إذا قال مثل هذا اللفظ في المعرفة بالله من مقامه الاختصاصي فلا كلام لنا فيه، ولا ينبغي لنا أن نشرح ما ليس يذوق لنا وإنما كلامنا فيه من لسان الولاية، فنحن نترجم عنها بأعلى وجه يقتضيه حالها، هذا غاية الوليّ في ذلك، ولا شك أن المعيّة في هذا الخبر ثابتة والشيئية منفية والمعية تقتضي الكثرة والموجود الحق هو عين وجوده في نسبته إلى نفسه وهويته وهو عين المنعوت به مظهره فالعين واحدة في النسبتين، فهذه المعيّة كيف تصحّ والعين واحدة فالشيئية هنا عين المظهر لا عينه وهو معها لأن الوجود يصحبها وليست معه لأنها لا تصحب الوجود، وكيف تصحبه والوجوب لهذا الوجود ذاتيّ ولا ذوق للعين الممكنة في الوجوب الذاتيّ فهو يقتضيها فيصحّ أن يكون معها وهي لا تقتضيه فلا يصحّ أن تكون معه، فلهذا نفى الشيء أن يكون مع هوية الحق لأن المعيّة نعت تمجيد، ولا مجد لمن هو عديم الوجوب الوجوديّ لذاته، فإن الشيء

لا يكون مع الشيء إلاّ بحكم الوعيد أو الوعد بالخير، وهذا لا يتصوّر من الدون للأعلى، فالعالم لا يكون مع الله أبداً سواء اتّصف بالوجود أو العدم، والواجب الوجود الحق لذاته يصحّ له نعت المعية مع العالم عدماً ووجوداً.

السؤال الرابع والعشرون: ما بدء الأسماء؟ الجواب: إطلاق هذا اللفظ في الطريق يقتضي أمرين: الواحد سؤال عن أوّل الأسماء. والثاني سؤال عمّا تبتدىء به الأسماء من الآثار، وهذان الأمران فرعان عن مدلول لفظ الأسماء ما هو؟ هل هو موجود أو عدم؟ أو لا وجود ولا عدم؟ وهي النسب فلا تقبل معنى الحدوث ولا القدم، فإنه لا يقبل هذا الوصف إلاّ الوجود أو العدم، فاعلم أن هذه الأسماء الإلهية التي بأيدينا هي أسماء الأسماء الإلهية التي سمّى بها نفسه من كونه متكلماً، فنضع الشرح الذي كنّا نوضح به مدلول تلك الأسماء على هذه الأسماء التي بأيدينا وهو المسمّى بها من حيث الظاهر ومن حيث كلامه، وكلامه علمه، وعلمه ذاته، فهو مسمّى بها من حيث ذاته، والنسب لا تعقل للموصوف بالأحدية من جميع الوجوه، إذاً فلا تعقل الأسماء إلاّ بأن تعقل النسب، ولا تعقل النسب إلاّ بأن تعقل المظاهر المعبّر عنها بالعالم، فالنسب على هذا تحدث بحدوث المظاهر، لأن المظاهر من حيث هي أعيان لا تحدث، ومن حيث هي مظاهر هي حادثة، فالنسب حادثة فالأسماء تابعة لها ولا وجود لها مع كونها معقولة الحكم، فإذا ثبت هذا فالقائل ما بدء الأسماء هو القائل ما بدء النسب، والنسبة أمر معقول غير موجود بين اثنين، فإما أن نتكلم فيها من حيث نسبتها إلى الأول، أو من حيث ما دلّ الأثر عليها، فإن نظرنا فيها من حيث المسمّى بها لا من حيث دلالة أثرها كان قوله ما بدء الأسماء معناه ما أول الأسماء، فلنقل أول الأسماء الواحد الأحد وهو اسم واحد مركب تركيب بعلبك ورامهرمز والرحمن والرحيم، لا نريد بذلك اسمين، وإنما كان الواحد الأحد أوّل الأسماء، لأن الاسم موضوع للدلالة وهي العلمية الدالة على عين الذات لا من حيث نسبة ما يوصف بها كالأسماء الجوامد للأشياء، وليس أخصّ في العلمية من الواحد الأحد لأنه اسم ذاتي له يعطيه هذا اللفظ بحكم المطابقة.

فإن قلت: فالله أولى بالأولية من الواحد الأحد لأن الله ينعت بالواحد الواحد ولا ينعت بالله. قلنا: مدلول الله يطلب العالم بجميع ما فيه فهو له كاسم الملك أو السلطان، فهو اسم للمرتبة لا للذات، والأحد اسم ذاتي لا يتوهم معه دلالة على غير العين، فلهذا لم يصحّ أن يكون الله أول الأسماء فلم يبق إلاّ الواحد حيث لا يعقل منه إلاّ العين من غير تركيب، ولو تسمّى بالشيء لسميناه الشيء وكان أول الأسماء لكنه لم يرد في الأسماء الإلهية يا شيء، ولا فرق بين مدلول الواحد والشيء فإنه دليل على ذات غير مركبة، إذ لو كانت مركبة لم يصحّ اسم الواحد ولا الشيء عليه حقيقة فلا مثل له ولا شبه يتميز عنه شخصيته، فهو الواحد الأحد في ذاته لذاته، ومع هذا فقد قرّرنا أن الأسماء عبارة عن نسب فما نسبة هذا الاسم الأول ولا أثر له منه يطلبه؟ قلنا: أما النسبة التي أوجبت له هذا الاسم فمعلومة وذلك أن في مقابلة وجوده أعياناً ثابتة لا وجود لها إلاّ بطريق الاستفادة من وجود الحق، فتكون مظاهره في ذلك

الإتصاف بالوجود وهي أعيان لذاتها ما هي أعيان لموجب ولا لعلة، كما أن وجود الحق لذاته لا لعلة، وكما هو الغني لله تعالىٰ على الإطلاق فالفقر لهذه الأعيان على الإطلاق إلى هذا الغني الواجب الغنى بذاته لذاته، وهذه الأعيان وإن كانت بهذه المثابة فمنها أمثال وغير أمثال متميزة بأمر وغير متميزة بأمر يقع فيه الاشتراك، فلا يصحّ على كل عين منها اسم الواحد الأحد لوجود الاشتراك والمثلية، فلهذا سمينا هذه الذات الغنية على الإطلاق بالواحد الأحد لأنه لا موجود إلاّ هي فهي عين الوجود في نفسها وفي مظاهرها، وهذه نسبة لا عن أثر، إذ لا أثر لها في كون الأعيان الممكنات أعياناً ولا في إمكانها.

وأما إذا كان قوله: ما بدء الأسماء؟ بمعنى ما تبتدىء به الأسماء من الآثار في هذه الأعيان فيطلب هذا السؤال أمرين: الأمر الواحد ما يتبدىء به في كل عين عين، والأمر الآخر ما يبتدىء به على الإطلاق في الجملة ومعناه: ما أول اسم يطلب أن يظهر أثر في هذه الأعيان فاعلم أن ذلك الاسم هو الوهّاب خاصة في الجملة وفي عين عين لا فرق، وهو اسم أحدثته الهبات لهذه الأعيان من حيث فقرها، فلما انطلق عليها اسم مظهر وقد كانت عرية عن هذا الاسم ولم يجب على الغنيّ أن يجعلها مظاهر له طلبت هذه النسبة الاسم الوهّاب ولهذا لا نجعله تعالىٰ علة لشيء لأن العلة تطلب معلولها كما يطلب المعلول علته، والغني لا يتصف بالطلب إذا فلا يصحّ أن يكون علة، والوهب ليس كذلك فإنه امتنان على الموهوب له، وإن كان الوهب له ذاتياً فإنه لا يقدح في غناه عن كل شيء، والذي يبتدىء به من الوهب إعطاء الوجود لكل عين حتى وصفها بما لا تقضيه عينها، فأول ما يبتدأ به من الأعيان ما هو أقرب مناسبة للأسماء التي تطلب التنزيه، ثم بعد ذلك يظهر سلطان الأسماء التي تطلب التشبيه، فالأسماء التي تطلب التنزيه هي الأسماء التي تطلب الذات لذاتها، والأسماء التي تطلب التشبيه هي الأسماء التي تطلب الذات لكونها إلهاً. فأسماء التنزيه كالغنيّ والأحد، وما يصحّ أن ينفرد به، وأسماء التشبيه كالرحيم والغفور، وكل ما يمكن أن يتصف به العبد حقيقة من حيث ما هو مظهر لا من حيث عينه لأنه لو اتصف به من حيث عينه لكان له الغنى ولا غنى له أصلاً، فإذا اتصفت هذه الأعيان التي هي المظاهر بمثل الغنى وتسمّت بالغني فيكون معنى ذلك الغنى بالله عن غيرها من الأعيان لا أن العين غنى بذاته، وكذا كل اسم تنزيه فلها هذه الأسماء من حيث ما هي مظاهر، فإن كان المسمّى لسان الظاهر فيها فهو كونه إلهاً فهو أقرب نسبة إلى الذات من لسان المظهر إذا تسمّى بالغنى، فالمظهر لا يزول عنه اسم الفقر مع وجود اسم الغنى المقيّد له، والظاهر فيه إذا تسمّى بالغنى يصحّ له لأنه يعطي جوداً ومنّة وهو الوهاب الذي يعطي لينعم، وقد يعطي ليعبد، فلا يكون هذا عطاء تنزيه بل هو عطاء عوض، ففيه طلب قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فإعطاء هذا الخلق إعطاء طلب لا إعطاء هبة ومنّة، وإعطاء الوهب إعطاء إنعام لا لطلب شكر ولا عوض ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٩] ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٠] وهو الخنثى. ثم وصف نفسه في ذلك ﴿إِنَّهُ

عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٠] وهو وصف يرجع إليه ما طلب منهم في ذلك عوضاً، كما طلب في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فمنزلة خلقهم له ما هو منزلة خلقهم لهم فخلقهم لهم من أسماء التنزيه، وخلقهم له من أسماء التشبيه، وهذا القدر كاف في الغرض.

السؤال الخامس والعشرون: ما بدء الوحي؟ الجواب: إنزال المعاني المجرّدة العقلية في القوالب الحسيّة المقيدة في حضرة الخيال في نوم كان أو يقظة، وهو من مدركات الحسّ في حضرة المحسوس مثل قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] وفي حضرة الخيال كما أدرك رسول الله ﷺ العلم في صورة اللبن وكذا أول رؤياه قالت عائشة: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلاّ خرجت مثل فلق الصبح» وهي التي أبقى الله على المسلمين وهي من أجزاء النبوّة فما ارتفعت النبوّة بالكلية، ولهذا قلنا: إنما ارتفعت نبوّة التشريع، فهذا معنى لا نبيّ بعده، وكذلك من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه فقد قامت به النبوّة بلا شك، فعلمنا أن قوله: لا نبيّ بعده أي لا مشرع خاصة لا أنه لا يكون بعده نبيّ، فهذا مثل قوله: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، ولم يكن كسرى وقيصر إلاّ ملك الروم والفرس وما زال الملك من الروم، ولكن ارتفع هذا الاسم مع وجود الملك فيهم وتسمّى ملكهم باسم آخر بعد هلاك قيصر وكسرى، كذلك اسم النبيّ زال بعد رسول الله ﷺ، فإنه زال التشريع المنزّل من عند الله بالوحي بعده ﷺ، فلا يشرع أحد بعده شرعاً إلاّ ما اقتضاه نظر المجتهدين من العلماء في الأحكام، فإنه بتقرير رسول الله ﷺ صحّ، فحكم المجتهد من شرعه الذي شرعه ﷺ الذي يعطي المجتهد دليله وهو الذي أذن الله به فما هو من الشرع الذي لم يأذن به الله فإن ذلك كفر وافتراء على الله. فإن قلت: هذا الذي بديء به رسول الله ﷺ من أين؟ نقول: إنه بدء الوحي، قلنا: لا شك ولا خفاء عند المؤمنين والأولياء أن محمداً ﷺ خصّه الله بالكمال في كل فضيلة، فمن ذلك أن خصّه بكمال الوحي وهو استيفاء أنواعه وضروبه وهو قوله عليه السلام: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» وبعث عامّة فما بقي ضرب من الوحي إلاّ وقد نزل عليه به، فلما كان بهذه المثابة وبديء ﷺ بالرؤيا في وحيه ستة أشهر علمنا أن بدء الوحي الرؤيا وأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة لكونها ستة أشهر، وكانت نبوّته ثلاثاً وعشرين سنة، فستة أشهر جزء من ستة وأربعين، ولا يلزم أن يكون لكل نبيّ فقد يوحى لنبيّ لا من بدء الوحي الذي هو الرؤيا بل بضرب آخر من الوحي، فلما بديء بالرؤيا ﷺ قلنا: الرؤيا بدء الوحي بلا شك لأن الكمال الذي وصف به نفسه ﷺ في المقام أعطى أن يكون بدء الوحي ما بديء به رسول الله ﷺ، وكذا ينبغي أن يكون، فإن البدء عندنا هو ما يناسب الحسّ أوّلاً ثم يرتقي إلى الأمور المجردة الخارجة عن الحسّ فلم تكن إلاّ الرؤيا نوماً كان أو يقظة، والوحي هنا تشريع الشرائع من كونه نبياً أو رسولاً كيف ما كان، وهذا كله إذا كان سؤاله عن الوحي المنزّل على البشر، فإن كان سؤاله عن بدء الوحي من حيث الوحي أو عن بدء الوحي في حق كل صنف ممّن يوحى إليه

كالملائكة وغير البشر من الجنس الحيواني مثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] وغير الجنس الحيوانيّ مثل عرضِ الأمانة على السموات والأرض والجبال فإنه كان بوحي، ومثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ومثل قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] وهي نفس كل مكلف وما ثم إلاً مكلف لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] فدخل الملك بالتقوى في هذه الآية، إذ لا نصيب له في الفجور، وكذلك سائر نفوس ما عدا الإنس والجان، فالإنس والجنّ ألهموا الفجور والتقوى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فإن أراد بدء الوحي في كل صنف وشخص شخص فهو الإلهام فإنه لا يخلو عنه موجود وهو الوحي، وهذا جواب عن بدء الوحي من حيث الوحي ومن حيث شخص شخص.

السؤال السادس والعشرون: ما بدء الروح؟ الجواب: أهل الطريق يطلقون لفظ الروح على معان مختلفة فيقولون: فلان فيه روح أي أمر ربّاني يحيى به من قام به يعني قلبه، ويطلقون الروح على الذي سئل عنه رسول الله ﷺ، ويطلقون الروح ويريدون به الروح الذي ينفخ فيه عند كمال تسوية الخلق، والذي مدار الطريق عليه هو الروح الذي يجده أهل الله عند الانقطاع إليه بالهمم والعبادة، فأكثر ما يقع عنه السؤال منهم غالباً، فيكون قوله: ما بدء الروح؟ أي ما ابتداء حصوله في قلب العارف؟ فتقول: إن بدء الروح في نفوس أهله الذين أهّلهم الله لتحصيله أن نفس الرحمن إذا تحكمت في نفوسهم المجاهدات التي تعطيهم رؤية الأغيار عريّة عن رؤية الله فيها وأنها حائلة وقاطعة بين الله وبين هذا العبد، فيكون صاحب هذه المجاهدة صاحب قبض وهم وغم وحجب يريد رفعها، فتهبّ عليه من نفس الرحمن في باطنه ما يؤدّيه إلى رؤية وجه الحق في هذه القواطع على زعمه، وفي هذه الحجب والأشياء التي يجاهد نفسه في قطع ما يتعرض إليه منها في طريقه فيريه ذلك النفس وجه الحق في كل شيء وهو العين والحافظ عليه وجودها فلم ير شيئاً خارجاً عن الحق فزال تعبه من حيث ما يريد قطعها، ويتألم عند ذلك ألماً شديداً حيث يتوهم عدم تلك المعرفة، ثم يعقب ذلك سرور عظيم لوجود هذا النفس فيحيي به معناه ويصير به روحاً وهو قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] ما هو تحت كسبك ولا تعلق لك خاطر بتحصيله، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فهذا العارف ممّن شاء من عباده فيقال فيه عند ذلك إنه ذو روح، ويقال فيه إنه حيّ وقد التحق بالأحياء وهو قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ ومن لم يجعل الله له نوراً [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] وهو هذا الروح ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فكان يجعل الله ولم يضفه إلى الاكتساب فإنه مجهول العين لعدم الذوق، فهذا معنى بدء الروح الذي يجده العارفون في الطريق وهو مقصود السائلين، وهو نور من حضرة الربوبية لا من غيرها، وأصله من الروح الذي هو من أمر ربي أي من الروح الذي لم يوجد عن خلق، فإنّ عالم الأمر كل موجود لا يكون عند سبب كونيّ يتقدّمه، ولكل موجود منه شرب وهو

الوجه الخاص الذي لكل موجود عن سبب وعن غير سبب، فعن هذا الروح يكون هذا الروح المسؤول عنه الذي يجده أهل هذا الطريق.

السؤال السابع والعشرون: ما بدء السكينة؟ الجواب: مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه وما لم يكن ذلك فالسكينة لا تصحّ، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] فجعل الطمأنينة بدء السكينة لما اختلفت عليه وجوه الأحياء فكانت تجاذبه من كل ناحية، فلما أشهده الله الكيفية سكن عمّا كان يجد من القلق لتلك الجذبات التي للوجوه المختلقة، قال بعضهم: [الرمل]

إنما أجْزَعُ ممّا أتّقي ... فإذا حلَّ فما لي والجَزَعْ

وكذا أطمعُ فيما أبتغي ... فإذا فاتَ فما لي والطَّمَعْ

فحصول المطلوب أو اليأس من تحصيله بدء السكينة فيما يطلب، وكذلك على ما يليق به يكون ما يخالف منه فاعلم ذلك، فإذا أكمل الإنسان شرائط الإيمان وأحكمها حصل من الحق تجلّ لقلب هذا المؤمن الذي هو بهذه الصفة يسمّى ذلك التجلّي ذوقاً هو بدء جعل السكينة في قلبه لتكون تلك السكينة له باباً أو سلماً إلى حصول أمر مغيب يقع له الإيمان به فيكون معه وجود السكون لما أعطاه الأمر الأوّل لكونه يصير أمراً معتاداً مثل سكون من تعوّد الأسباب إلى الأسباب، ولا يكون ذلك عن غيب أصلاً بل عن ذوق وهو المعاينة، فإن الإنسان إذا كان عنده قوت يومه سكنت نفسه لما يعطيه قلق يومه لمعاينة ما عنده بحصوله تحت ملكه، فإن حصل الإيمان عنده بهذه المثابة تحت حكمه فهو صاحب سكينة، وإن كان الإنسان تحت حكم الإيمان نازعه العيان فلم تحصل سكينة.

واعلم أنّ المعاني التي تتصف بها القلوب قد يجعل الله علامة على حصولها في نفوس من شاء من عباده أن يحصلها فيه علامات من خارج تسمّى تلك العلامة باسم ذلك المعنى الذي يحصل في نفسه من الله، وإنما يسميه به ليعلم أن تلك العلامة لحصول هذا المعنى نصبت مثل قوله تعالىٰ في تابوت بني إسرائيل إن الله قد جعل﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية٢٤٨] وهي صورة على شكل حيوان من الحيوانات، اختلف الناس في أيّ صورة حيوان كانت، ولا فائدة لنا في ذكر ما ذكروه في صورتها، فكانت تلك الصور إذا هفت أو ظهرت منها حركة خاصة بصروا فسكن قلبهم عند رؤية تلك العلامة من تلك الصورة التي سمّاها سكينة، وأن السكينة المعلومة إنما محلها القلوب، فلم يجعل لهذه الأمّة علامة خارجة عنهم على حصولها، فليس لهم علامة في قلوبهم سوى حصولها، فهي الدليل على نفسها ما تحتاج إلى دليل من خارج كما كان في بني إسرائيل فبدء السكينة قد بيّناه. وأما السكينة فهي الأمر الذي تسكن له النفس لما وعدت به أو لما حصل في نفسه من طلب أمر ما، وسمّيت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود الهبوب إلى غير ما سكنت إليه النفس، ومنه سمّي السكين سكيناً لكون صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه به، وهذا اللفظ مشتق من السكون وهو الثبوت وهو ضدّ الحركة فإن الحركة نقلة، فالسكينة تعطي الثبوت على ما سكنت إليه النفس ولو

سكنت إلى الحركة هذا حقيقتها، ولا يكون ذلك إلاً عن مطالعة أو مشاهدة فتنزل عليهم وهم مؤمنون فتنقلهم بنزولها عن رتبة ما كانوا به مؤمنين إلى مقام معاينة ذلك وهو تضاعف إيمانهم بالعيان ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] ألا إنّ الأمنة هي السكينة لا غيرها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الثامن والعشرون: ما العدل؟ الجواب: العدل هو الحق المخلوق به السموات والأرض. فسهل بن عبد الله وغيره يسمّيه العدل. وأبو الحكم عبد السلام بن برجان يسمّيه الحق المخلوق به لأنه سمع الله يقول: ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٩] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] أي بما يجب لذلك المخلوق ممّا تقتضيه حالة خاصة بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] أي بيّن أنه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي ما خلقه إلاً بالحق وهو ما يجب له، فالعالم على الحقيقة هو الله الذي علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها، وميّز بعضها عن بعض بهذه النسبة الإحاطية، ولولا ذلك لكانت نسبة الممكنات في قضية العقل فيما يجب لها من الوجود نسبة واحدة، وليس الأمر كذلك، ولا وقع كذلك، بل علم سبحانه ما يتقيد من الممكنات في وجوده بأمس لا يمكن عنده أن يوجده اليوم ولا في غد، فإنه من تمام خلقه تعيين زمانه وهو القدر وهي الأقدار أي مواقيت الإيجاد، فهو سبحانه يخلق من غير حكم قدر عليه في خلقه، والمخلوقات تطلب الأقدار بذاتها ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] من زمانه فيمن يتقيّد وجوده بالزمان، ومن حاله فيمن يتقيّد وجوده بالحال، ومن صفته فيمن يتقيّد وجوده بالصفة.

فإن قلت فيه: مختار صدقت. وإن قلت حكيم صدقت. وإن قلت: لم يوجد هذه الأمور على هذا الترتيب إلاً بحسب ما أعطاه العلم صدقت. وإن قلت: ذاته اقتضت أن يكون خلق كل شيء على ما هو عليه ذلك الشيء في ذاته ولوازمه وإعراضه لا تتبدّل ولا تتحوّل ولا في الإمكان أن يكون ذلك اللازم أو العارض لغير ذلك الممكن صدقت. فبعد أن أعلمتك صورة الأمر على ما هو عليه فقل ما تشاء، فإنّ قولك من جملة من أعطى خلقه في ظهوره منك فهو من جملة الإعراض في حقك، وله صفة ذاتية ولازمة وعرضية من حيث نفسه فاعلم ذلك. وأما تحقيق هذا الاسم لهذه النسبة فاعلم أن العدل هو الميل، يقال: عدل عن الطريق إذا مال عنه، وعدل إليه إذا مال إليه، وسمّى الميل إلى الحق عدلاً كما سمّى الميل عن الحق جوراً بمعنى أنّ الله خلق الخلق بالعدل، أي إنّ الذات لها استحقاق من حيث هويتها، ولها استحقاق من حيث مرتبتها وهي الألوهية، فلما كان الميل ممّا تستحقه الذات لما تستحقه الألوهية التي تطلب المظاهر لذاتها سمّي ذلك عدلاً أي ميلاً من استحقاق ذاتيّ إلى استحقاق إلهيّ لطلب المألوه ذلك الذي يستحقه، ومن أعطى المستحق ما يستحقه سمّي عادلاً وعطاؤه عدلاً وهو الحق، فما خلق الله الخلق إلاً بالحق وهو إعطاؤه خلقه ما يستحقونه، وليس وراء هذا البيان وبسط العبارة ما يزيد عليها في الوضوح.

السؤال التاسع والعشرون: ما فضل النبيين بعضهم على بعض وكذلك الأولياء؟ الجواب: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال في حق الناس: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢] هذا عموم في الناس، فدخل الأولياء في عموم هذه الآية. وقال في حق المؤمنين والعلماء: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] فاختلف أصحابنا في مثل هذا، فذهب ابن قسيّ إلى أن كل واحد منهم فاضل مفضول، ففضل هذا هذا بأمر ما، وفضله المفضول ذلك الأمر بأمر آخر، فهو فاضل بوجه ومفضول بوجه لمن فضل عليه، فأدّى إلى التساوي في الفضيلة، فصاحب هذا القول ما حرّر الأمر على ما يقتضيه وجه الحق فيه وذلك أن تنظر المراتب، فإن كان تقتضي الفضيلة فتنظر أية مرتبة هي أعم من الأخرى وأعظم، فالمتصف بها أفضل، ففضل أرباب المراتب بفضل المراتب فقد يزيد، ويفضل بعض الناس غيره بشيء ما فيه ذلك الفضل، فإنّ الفضل في هذا الوجه لا ينظر من حيث أنه زيادة ولكن ينظر من حيث اعتبار زيادات لها شرف في العرف والعقل كالعلم والنجارة والخياطة والعلم بالأحكام الشرعية والعلم بما ينبغي لجلال الله، وكل واحد منهم لا يعلم علم الآخر فيقال: قد فضل النجار على الموحّد بالدليل بالنجارة، هذا لا يقال على جهة الفخر والمدح بل على جهة الزيادة، ويقال: فضل العالم بالله النجار على طريق الشرف والفخر، فمثل هذه المفاضلة هي التي تعتبر وهي أن يزيد كل واحد على صاحبه برتبة تقتضي المجد والشرف، فهذا معنى قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] بما يقتضيه الشرف.

ونحن نجمع إلى ذلك الزيادة فنقول في قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي جعلنا عند كل واحد من صفات المجد والشرف ما لم نجعل عند الآخر، فقد زاد بعضهم على بعض في صفات الشرف، والمراتب التي فضلوا بها بعضهم على بعض ما فيها مفاضلة عندنا لارتباطها بالأسماء الإلهية والحقائق الربانية، ولا تصحّ مفاضلة بين الأسماء الإلهية لوجهين: الواحد أن الأسماء نسبتها إلى الذات نسبة واحدة فلا مفاضلة فيها، فلو فضلت المراتب بعضها بعضاً بحسب ما استندت إليه من الحقائق الإلهية لوقع الفضل في أسماء الله فيكون بعض الأسماء الإلهية أفضل من بعض، وهذا لا قائل به عقلاً ولا شرعاً ولا يدل عموم الاسم على فضله لأنّ الفضلية إنما تقع فيما من شأنه أن يقبل، فلا يتعمل في القبول أو فيما يجوز أن يوصف به فلا يتصف به. والوجه الآخر أن الأسماء الإلهية راجعة إلى ذاته والذات واحدة والمفاضلة تطلب الكثرة والشيء لا يفضل نفسه فإذا المفاضلة لا تصحّ، فمعقول: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا، وأعطينا هذا أيضاً ما لم نعط من فضله ولكن من مراتب الشرف ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فمنهم من فضّل بأن خلقه بيده وأسجد له الملائكة. ومنهم من فضّل بالكلام القديم الإلهيّ بارتفاع الوسائط. ومنهم من فضّل بالخلة. ومنهم من فضّل بالصفوة وهو إسرائيل يعقوب، فهذه كلها صفات شرف ومجد، لا يقال إن خلته أشرف من كلامه ولا أن كلامه أفضل من خلقه بيديه، بل كل ذلك راجع إلى ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا العدد، فهي بالنسبة إلى

كذا خالقة، وبالنسبة إلى كذا مالكة، وبالنسبة إلى كذا عالمة إلى ما نسبت من صفات الشرف والعين واحدة.

وأما المسألة الطفولية التي بين الناس واختلافهم في فضل الملائكة على البشر فإني سألت عن ذلك رسول الله ﷺ في الواقعة فقال لي: إن الملائكة أفضل، فقلت له: يا رسول الله فإن سئلت ما الدليل على ذلك فما أقول؟ فأشار إليّ أن قد علمتم أني أفضل الناس وقد صحّ عندكم وثبت وهو صحيح أني قلت عن الله تعالىٰ أنه قال: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وكم ذاكر لله تعالىٰ ذكره في ملأ أنا فيهم فذكره الله في ملأ خير من ذلك الملأ الذي أنا فيهم، فما سررت بشيء سروري بهذه المسألة فإنه كان على قلبي منها كثير، وإن تدبّرت قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] وهذا كله بلسان التفصيل، وأما جهة الحقائق فلا مفاضلة ولا أفضل لارتباط الأشخاص بالمراتب، وارتباط المراتب بالأسماء الإلهية، وإن كان لها الابتهاج بذاتها وكمالها فابتهاجها بظهور آثارها في أعيان المظاهر أتمّ ابتهاجاً لظهور سلطانها، كما تعطي الإشارة في قول القائل المترجم عنها حيث نطق بلسانها من كناية «نحن» المنزل عن الله في كلامه وهي كناية تقتضي الكثرة: [الخفيف]

نـحـن فـي مـجـلـس الـسـرور ولـكـنْ لـيـس إلاّ بـكـم يـتـمُّ الـسُّـرورُ

فمجلس السرور لها حضرة الذات وتمام السرور لها ما تعطيه حقائقها في المظاهر وهو قوله: بكم، وذلك لكمال الوجود والمعرفة لا لكمال الذات إن عقلت.

السؤال الثلاثون: خلق الله الخلق في ظلمة. الجواب: هذا مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [سورة السجدة: الآية ٩] فهذه أنوار فيك تدرك بها الأشياء، فما أدركت إلاّ بما جعل فيك، وما جعل فيك سوى أنت، فله تعالىٰ ممّا أنت الوجود وأنت من ذلك الوجود المدرك به المعدوم الموجود وما لا يتصف بالعدم ولا بالوجود وهو إدراك الأفئدة ممّا ذكر، فالممكنات على عدم تناهيها في ظلمة من ذاتها وعينها لا تعلم شيئاً ما لم تكن مظهراً لوجوده وهو ما يستفيده الممكن منه وهو قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٢] فخلق هنا بمعنى قدّر، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢] فقدّرهم ولم يكونوا مظهراً لكن كانوا قابلين لتقديره، فأوّل أثر إلهيّ في الخلق التقدير قبل وجودهم وأن يتصفوا بكونهم مظاهر للحق، فالتقدير الإلهيّ في حقّهم كإحضار المهندس ما يريد إبرازه ممّا يخترعه في ذهنه من الأمور، فأوّل أثر في تلك الصورة إنما هو ما تصوّره المهندس على غير مثال، وآية هذا المقام قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] أي انتقالكم من وجود الدنيا إلى وجود الآخرة أقرب في العلم: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٤] من انتقالكم من حال عدم إلى حال وجود، فأنتم في الظلمة فيكم وأنتم في الوجود فيه، غير أن لكم انتقالات في وجوده وظلمتكم تستصحبكم لا تفارقكم أبداً ﴿وَءَايَةٌ

لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] ولم يقل نجعلهم في ظلمة بل زوال عين النور الذي هو الوجود هو عين كونكم مظلمين أي تبقى أعيانكم لا نور لها أي لا وجود لها، ولو لم تكن الظلمة نسبة عدمية وهي كون ذواتكم العينية معدومة لكانت الظلمة من جملة الخلق، فكانت الظلمة تستدعي أن تكون في ظلمة، والكلام في تلك الظلمة كالكلام في الأولى ويتسلسل، فإنّ قوله: خلق الله الخلق في ظلمة قد يريد بالخلق هنا المخلوقات، والظلمة إذا كانت أمراً وجودياً فهي مخلوقة فتكون أيضاً في ظلمة، وإذا كان الخلق هنا مصدراً كأنه قال: قدر الله التقدير في ظلمة أي في غير موجودين يعني تلك الأعيان.

وانظر في قوله تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦] ثم إن الله تعالىٰ في الوجود الأخروي إذا أراد الله بتبديل الأرض كان الخلق في الظلمة دون الجسر، فالظلمة تصحيهم بين كل مقامين إذا أراد الله أن يوجدهم في عالم آخر أي ينشئهم نشأة أخرى لم تكن في أعيانهم فيعلمون بتغيّر الأحوال عليهم أنهم تحت حكم قهار، فيكونون في حال وجودهم مثل حالهم في العدم، ولهذا نبّه الحق سبحانه عقولنا بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] أي قدّرناه في حال شيئيته المتوجّه عليها أمره إلى شيئية أخرى لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ يعني في حال عدمه ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] كلمة وجودية من التكوين فسمّاه شيئاً في حال لم تكن فيه الشيئية المنفية بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فلا بدّ أن يعقل العارف ما الشيئية الثابتة له في حال عدمه في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ وما الشيئية المنفية عنه في حال عدمه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] فالظلمة التي خلق الله فيها الخلق نفى هذه الشيئية عنهم، والنفي عدم محض لا وجود فيه، وقد ذكر المفسرون معنى قوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وليس المقصود إلاّ ما ذكره صاحب السؤال، وأما الآية فمعلوم أمرها عند العلماء بالله في خلق مخصوص وهو الخلق في الرحم لا غير. انتهى الجزء الثاني والثمانون.

(الجزء الثالث والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الحادي والثلاثون: فما قصتهم هناك يعني قصة المخلوقين؟ الجواب: قصتهم هناك الانتظار لما يكسوهم الحق من حلل نور الوجود لكل مخلوق نور على قدره ينفهق منه وهو النور الذي يمشون فيه يوم القيامة، فإنّ يوم القيامة ليس له ضوء جملة واحدة والناس لا يسعون فيه إلاّ في أنوارهم، ولا يمشي مع أحد منهم غيره في نوره كما قال عليه السلام: **«بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ»** وهو الجمع بين النورين: بين نورهم المبطون في أعيانهم الظاهر هناك، وبين النور المبطون في ظلمة الليل الذي ينوب عنه السراج في نفي تلك الظلمة عن طريق الماشي، والمسجد بيت الله يسعى إليه لمناجاته **كذلك**

هذا النور لا يكون لهم إلاّ في الوقت الذي يدعون فيه إلى رؤية ربّهم الذي ناجوه هنا، فيمشون في ذلك الوقت في النور الذي كان مبطوناً في الظلمة التي سعوا فيها في صلاة الصبح والعشاء إلى المساجد وانتظارهم هو انتظار حال، فإنهم غير موصوفين في تلك الظلمة بالعلم، لأنّ الاتصاف بالعلم تابع للوجود وهم غير موجودين بل هم في شيئيتهم القابلة لقول التكوين. ولما جعل الظلمة ظرفاً للخلق كذلك قال هناك فأتى بما يدل على الظرف فهم قابلون للتقدير وإن كان قوله في ظلمة في موضع الحال من الخالق فيكون المراد به العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء الذي أثبته رسول الله ﷺ بهذه الصفة للحق تعالىٰ حين قيل له: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال ﷺ: «**كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ**» فنزّه أن يكون تصريفه للأشياء على الأهواء، فإنه لما كنيّ عن ذلك الوجود بما هو اسم للسحاب محل تصريف الأهواء نفى أن يكون فوق ذلك العماء هواء أو تحته هواء، فله الثبوت الدائم لا على هواء ولا في هواء، فإنّ السؤال وقع بالاسم الرب ومعناه الثابت يقال رب بالمكان إذا أقام فيه وثبت فطابق الجواب ولم يصف الحق نفسه في مخلوقاته إلاّ بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٨] فتخيل من لا فهم له تغيّر الأحوال عليه وهو يتعالى ويتقدّس عن التغيير، بل الحالات هي متغيرة ما هو يتغير بها فإنه الحاكم ولا حكم عليه، فجاء الشارع بصفة الثبوت الذي لا تقبل التغيير، فلا تصرف آياته يد الأهواء لأنّ عماءه لا يقبل الأهواء، وذلك العماء هو الأمر الذي ذكرنا أنه يكون في القديم قديماً وفي المحدث محدثاً وهو مثل قولك أو عين قولك في الوجود إذا نسبته إلى الحق قلت قديم، وإذا نسبته إلى الخلق قلت محدث، فالعماء من حيث هو وصف للحق هو وصف إلهيّ، ومن حيث هو وصف للعالم هو وصف كياني، فتختلف عليه الأوصاف لاختلاف أعيان الموصوفين، قال تعالىٰ في كلامه القديم الأزليّ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فنعته بالحدوث لأنه نزل على محدث لأنه حدث عنده ما لم يكن يعلمه فهو محدث عنده بلا شك ولا ريب، وهذا الحادث هل هو محدث في نفسه أو ليس بمحدث؟ فإذا قلنا فيه أنه صفة الحق التي يستحقها جلاله. قلنا بقدمها بلا شك، فإنه يتعالىٰ أن تقوم الصفات الحادثات به، فكلام الحق قديم في نفسه قديم بالنسبة إليه محدث أيضاً كما قال عند من أنزل عليه، كما أنه أيضاً من وجوه قدمه نسبته إلى الحدوث بالنظر إلى من أنزل عليه، فهو الذي أيضاً أوجب له صفة القدم، إذ لو ارتفع الحدوث من المخلوق لم يصحّ نسبة القدم ولم تعقل، فلا تعقل النسب التي لها أضداد إلاّ بأضدادها، فقصة الخلق في الظلمة التهيؤ والقبول في الأعيان لظهور الحق في صور الوجود لهذه الأعيان.

السؤال الثاني والثلاثون: وكيف صفة المقادير؟ الجواب: المقادير هي الصفات الذاتية للأشياء فلا صفة لها، فهي الحدود المانعة من هو متصف بها أن تكون صفة لغيره، وعندي في حدّ الحدّ نظر، فإن أراد بقوله: صفة المقادير المنع ويجعله صفة من حيث أنك تعبر عنها

بأمر هو عينها بعد علمك بهذا فقل إنّ هذا صفة المقدار. وإن أردت الحقيقة فلا صفة للمقادير لأنّ الشيء لا يكون صفة لنفسه. فإن قلت: فالصفات النفسية ما هي بأمر زائد على الذات. قلنا: صدقت. قال: فإذاً قد وصفت الشيء بنفسه. قلت: إن كان غير مركب فالوصف فيه عين إطلاق لفظ يكون شرحاً للفظ آخر عند السامع يقع به الإفهام عنده، وإن كان الشيء مركباً فذلك الوصف للمجموع، وحكم الشيء من كونه مجموعاً غير حكمه من كونه غير مجموع، فأنت إنما ذكرت آحاد ذلك المجموع المعقول من هذه الجمعية أمراً ما هو عين كل مفرد من هذا المجموع، فهذا الشيء الموصوف بصفاته النفسية إنما تلك أسماء آحاده، ألا ترى الذات لا توصف رأساً فإنها لذاتها هي ذات ولذاتها لا تقبل الوصف! ثم لما قلت: الله من حيث المرتبة استحق أن يوصف من حيث هذا الاسم بما يطلبه هذا الاسم من الحقائق التي تعينها المحدثات المعبّر عنها بالأسماء فما ثم شيء يوصف بنفسه إلاً من حيث شرح لفظ بلفظ آخر، ولذا قسمنا الحدود إلى ثلاث مراتب: ذاتية ورسمية ولفظية، فالمقادير جمع مقدار، والأقدار جمع قدر، فلا يلتبس عليك المقادير بالأقدار، فبعض المقادير محل تأثير الأقدار، فاعلم. فحدود الأمور الذاتية عين مقاديرها، فالوزن القدر، والموازين المقادير، وبها توزن الأشياء، فالأمور لا تعلم إلاً بحدودها، ومن لا حدّ له فذلك حدّه فقد علم.

السؤال الثالث والثلاثون: فما سبب علم القدر الذي طُوي عن الرسل فمن دونهم؟

الجواب: في السؤال حذف وهو أن يقول: ما سبب طيّ علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم؟ فإن كان هذا الرجل يقول بفضل أفضل البشر على أفضل الملائكة فكأنه قال: الذي طوى عن كل ما سوى الله، وإن كان يرى أنّ أفضل الملائكة أفضل من أفضل البشر فقوله: فمن دونهم لا يلزم أن من هو أفضل من الرسل طوى عنه علم القدر، فقد يمكن عنده أن يكون من هو أعلى يعلم ذلك، فبقي الجواب عمّا يقتضيه الأمر في نفسه هل ثم من يعلم علم القدر أم لا؟ قلنا: لا ولكن قد يعلم سرّه وتحكمه في الخلائق وقد أعلمنا به فعلمناه بحمد الله، وأنّ مظاهر الحق في أعيان الممكنات المعبّر عنها بالعالم هي آثار القدر وهي علامة على وجود الحق، ولا دليل أدلّ على الشيء من نفسه فلم يعلم الحق بغيره بل علم بنفسه، ونسبة الوجود إلى هذه الأعيان قد قلنا أنّ ذلك أثر القدر فنعلم القدر بأثره ونعلم الحق بوجوده، وذلك لأنّ القدر نسبة مجهولة خاصة والحق وجود، فيصحّ تعلق العلم بالحق ولا يصحّ تعلق العلم بالقدر، فإنّ علمنا بظهور المظهر في العين هو عين علمنا بالحق والقدر مرتبة بين الذات وبين الحق من حيث ظهوره لا يعلم أصلاً، وحكمه في المظاهر حكم الزمان في عالم الأجسام، فلهذا يطلقه أكثر المحققين على الأوقات المعقولة.

وقد أعلمناك أنّ الزمان نسبة معقولة غير موجودة ولا معدومة وهو في الكائنات، فالوقت أعزّ مقاماً في امتناع العلم به أو تصوّره فلا ينال أبداً، وقد كان العزير رسول الله عليه السلام كثير السؤال عن القدر إلى أن قال له الحق تعالىٰ: يا عزير لئن سألت عنه لأمحون اسمك من ديوان النبوّة، ويقرب منه السؤال عن علل الأشياء في تكويناتها، فأفعال الحق لا

ينبغي أن تعلّل فإنه ما ثم علة موجبة لتكوين شيء إلاّ عين وجود الذات وقبول عين الممكن لظهور الوجود، فالأزل لا يقبل السؤال عن العلل، وأنّ ذلك لا يصدر إلاّ من جاهل بالله، فالسبب الذي لأجله طوي علم القدر هو أنّ له نسبة إلى ذات الحق ونسبة إلى المقادير، فعزّ أن يعلم عزّ الذات وعزّ أن يجهل لنسبة المقادير فهو المعلوم المجهول فأعطى التكليف في العالم فاشتغل العالم بما كلفوا ونهوا عن طلب العلم بالقدر، ولا يعلم إلاّ بتقريب الحق وشهوده شهوداً خاصاً لعلم هذا المسمّى قدراً، فأولياء الله وعباده لا يطلبون علمه للنهي الوارد عن طلبه، فمن عصى الله وطلبه من الله وهو لا يعلم بالنظر الفكري فلم يبق إلاّ أن يعلم بطريق الكشف الإلهيّ، والحق لا يقرّب من عصاه بمعصيته، وطالب هذا العلم قد عصاه في طلبه فلا ينال من طريق الكشف، وما ثم طريق آخر يعلم به علم القدر فلهذا كان مطوياً عن الرسل فمن دونهم، وإن نزع أحد إلى أنّ السائل اعتبر بسؤاله معنى الرسالة فمن حيث إنهم رسل طوي عنهم في هذه المرتبة ومن دونهم من أرسل إليهم وذلك هو التكليف، فسدّ الله باب العلم بالقدر في حال الرسالة، فإن علموه فما علموه من كونهم رسلاً بل من كونهم من الراسخين في العلم، فقد ينال على هذا لولا ما بيّناه من أنّ مرتبته بين الذات والمظاهر، فمن علم الله علم القدر، ومن جهل الله جهل القدر، والله سبحانه مجهول فالقدر مجهول، فمن المحال أن يعرف المألوه الله لأنه لا ذوق له في الألوهة فإنه مألوه، ولله ذوق في المألوهية لكونه يطلبها في المألوه كما يطلبه المألوه، فمن هناك وصف الحق نفسه بما وصف به مظاهر من التعجّب والضحك والنسيان وجميع الأوصاف التي لا تليق إلاّ بالممكنات. فسرّ القدر عين تحكمه في المقادير، كما أنّ الوزن متحكم في الموزون، والميزان نسبة رابطة بين الموزون والوزن بها يتعين مقدار الموزون ومقادير الموزونات على اختلافها فالحق وضع الميزان وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] ويستحقه من أنزل إليه، فكل شيء بقضائه أي بحكمه وقدره أي وزنه وهو تعيين وقت حالاً كان وقته أو زماناً أو صفة أو ما كان، فظهر أنّ سبب طيّ علم القدر سبب ذاتيّ، والأشياء إذا اقتضت الأمور لذواتها لا للوازمها أو أعراضها لم يصحّ أن تتبدّل ما دامت ذواتها، والذوات لها الدوام في نفسها لا لنفسها فوجود العلم بها محال.

السؤال الرابع والثلاثون: لأيّ شيء طُوي؟ الجواب: هذا سؤال اختبار إن كان السائل عالماً فإنه من المعلومات ما يعلل ومنها ما لا يعلل، هذا في المعلومات فكيف ما لا يعلم؟ كيف يصحّ أن يعلّل الجهل به؟ وأما من يرى أنّ القدر معلوم لمن فوق مرتبة الرسل من الملائكة أو من شاء الله من خلقه الذي لا علم لنا بأجناس خلقه فيكون طيّه حتى لا يشارك الحق في علم حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها، إذ لو علم أيّ معلوم كان بطريق الإحاطة من جميع وجوهه كما يعلمه الحق لما تميّز علم الحق عن علم العبد بذلك الشيء ولا يلزمنا على هذا الاستواء فيما علم منه، فإنّ الكلام فيما علم منه على ذلك، فإنّ العبد جاهل بكيفية تعلّق العلم مطلقاً بمعلومه، فلا يصحّ أن يقع الاشتراك مع الحق في العلم بمعلوم ما، ومن

المعلومات العلم بالعلم، وما من وجه من المعلومات إلاً وللقدر فيه حكم لا يعلمه إلاً الله، فلو علم القدر علمت أحكامه، ولو علمت أحكامه لاستقل العبد في العلم بكل شيء وما احتاج إلى الحق في شيء وكان الغنى له على الإطلاق، فلما كان الأمر بعلم القدر يؤدّي إلى هذا طواه الله عن عباده فلا يعلم، فكل شخص في العالم على جهل من نفسه وعلم، فمن حيث جهله يفتقر ويسأل ويخضع ويتضرّع ويعلمه بجهله يقع منه هذا الوصف، هذا إذا اتفق أن يكون ممكناً العلم به، وقد قرّرنا أنه محال لذاته، كما يعلم أنه ليس للمحقق من الصفات النفسية سوى واحدة لأحدّيته وهي عين ذاته، فليس له فصل مقوّم يميز به عمّا وقع له من الاشتراك فيه مع غيره، بل له الأحديّة الذاتية التي لا تعلّل ولا تكون علّة فهي الوجود وما هي، ومن الأسباب التي لأجلها طوى علم ذلك عن الإنسان لكون ذات الإنسان تقتضي البوح به لأنه أسنى ما يمدح به الإنسان ولا سيما الرسل فحاجتهم إليه آكد من جميع الناس، لأنّ مقام الرسالة يقتضي ذلك، وما ثم علم ولا آية أقرب دلالة على صدقهم من مثل هذا العلم، قال رسول الله ﷺ فيما وصف ربّه به ممّا أوحى إليه به: «**إِنَّهُ لا شَيءَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالىٰ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» ولا مدحة فوق المدحة بمثل هذا، ثم إنَّ الله خلق آدم على صورته، فلا شيء أحبّ إلى العبد من أن يمدح ويثنى عليه، وأسنى ما يمدح به العبد العلم بالله وعلمه بالقدر، علمه بالله، فلو فتح للعبد الإنساني العلم بالقدر وقد أمر بالغيرة فيه وطيّه عمّن لا ينبغي أن يظهر عليه، وكان الإنسان وهو مجبول على حبّ المدح والرسالة تعطي الرغبة في هداية الخلق أجمعين، ولا طريق للهداية أوضح من هذا الفنّ، فالذي كانوا يلقونه من الكتم من الألم والعذاب في أنفسهم لا يقدر قدره فخفّف الله عن الرسل مثل هذا الألم فطواه عنهم، فإنّ جميع العالم ممّن له قوّة على إيصال ما في نفسه من الأمور إلى الخلق يكتمون علم مثل هذا وغيره إذا كان عندهم إلاً الجنّ والإنس فإنّ النشأة من هذه القوىٰ العنصرية تقتضي لهم ذلك، فمن كتم منهم فإنما يكتم على كره ممّا ينبغي أن يمدح به إذا بثّه، ولولا أنّ البهائم لم تعط لها قوّة التوصيل لأعلمت بما تشاهده من الأمور الغيبية التي أمر الله من يعلمها بسترها، مثل خوار الميت على نعشه، وعذاب القبر، وحياة الشهداء، فكل دابة تسمعه وتصغي يوم الجمعة شفقاً من الساعة، ولكن لما كوشفت على مثل هذا أعطيت الخرس عن التوصيل، فكتمها الأشياء اضطراري لا اختياري، فطواه الله عن الثقلين لذلك فإنه من الأسرار المكتومة، فهذا من الأسباب التي طوى لها علم القدر.

السؤال الخامس والثلاثون: متى ينكشف لهم سرّ القدر؟ الجواب: سرّ القدر غير القدر، وسرّه عين تحكمه في الخلائق وأنه لا ينكشف لهم هذا السرّ حتى يكون الحق بصرهم، فإذا كان بصرهم بصر الحق ونظروا للأشياء ببصر الحق حينئذ انكشف لهم علم ما جهلوه إذ كان بصر الحق لا يخفى عليه شيء، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ**﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥، ٦] لكونها مظلمة تمدح بإدراك الأشياء فيها كيف يشاء من أنواع الصور والتصوير ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ أي المنيع

الذي نسب لنفسه الصورة لا عن تصوير ولا تصوّر ﴿ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] بما تعطيه الاستعدادات المسوّاة لقبول الصور فيعين لها من الصور ما شاء ممّا قد علم أنها مناسبة له.

قال رسول الله ﷺ عن ربّه تعالىٰ أنه قال: «**مَا تَقَرَّبَ أَحَدٌ بِأَحَبَّ إِليَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرضْتُهُ عَلَيهِ**» لأَنَّهَا عُبُودِيَّةُ اضْطِرَارٍ، «**وَلا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِليَّ بِالنَّوَافِلِ**» وَهِيَ عُبُودِيَّةُ اخْتِيَارٍ «**حَتىٰ أُحِبَّهُ**» إذ جعلها نوافل فاقتضت البعد من الله فلما ألزم عبوديّة الاختيار نفسه لزوم عبودية الاضطرار أحبه، فهو معنى قوله تعالىٰ: «**حتى أحبه**» ثم قال: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِر بِهِ**» الحديث، فإذا كان الحق لهذه الحالة بصر العبد كيف يخفى عليه ما ليس يخفى فأعطته النوافل واللزوم عليها أحكام صفات الحق وأعطته الفرائض أن يكون كله نوراً فينظر بذاته لا بصفته فذاته عين سمعه وبصره فذلك وجود الحق لا وجوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال السادس والسابع والثلاثون: أين ينكشف لهم؟ ولمن ينكشف منهم؟ الجواب: في حال الانفعال عنهم والاتحاد بهم وذلك أنّ من المظاهر من يعلم أنه مظهر، ومن المظاهر من لا يعلم أنه مظهر، فيتخيل أنه عن الحق أجنبيّ، وعلامة من يعلم أنه مظهر أن تكون له مظاهر حيث شاء من الكون كقضيب البان فإنه كان له مظاهر فيما شاء من الكون لا حيث ما شاء من الكون، وأن من الرجال من يكون له الظهور فيما شاء من الكون لا حيث شاء، ومن كان له الظهور حيث شاء من الكون كان له الظهور فيما شاء من الكون، فتكون الصورة الواحدة تظهر في أماكن مختلفة، وتكون الصور الكثيرة على التعاقب تلبس الذات الواحدة في عين المدرك لها، فإذا حصل الإنسان في المكان الذي يعرف فيه تجلّي الحق في الصور المختلفة للشخص الواحد أو الأشخاص الكثيرين، فمعرفته بتلك الحيثية لا تكون إلاَّ ذوقاً، ومن عرف مثل هذا ذوقاً كان متمكناً من الاتصاف بمثل هذه الصفة، وهذا هو علم سرّ القدر الذي ينكشف لهم إذا كانوا في هذا المنزل وبهذه القوّة.

السؤال الثامن والثلاثون: ما الإذن في الطاعة والمعصية من ربنا؟ الجواب: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٨] فالإذن الذي تشترك فيه الطاعة والمعصية هو الإذن الإلهيّ في كون المأذون فيه فعلاً لا من طريق الحكم، لأنّ حكمه في الأشياء بالطاعة، والمعصية هو عين علمه بها بهذه الحالة فلا يكون مراداً فلا يكون الحكم مأموراً به والمحكوم به وعليه هو المراد والمأمور به، فلا يصحّ الإذن في الطاعة والمعصية من حيث إنها طاعة ومعصية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من حيث إنها فعل ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] فأنكر عليهم أن تكون السيئة من عند محمد ﷺ كما قال في موسىٰ: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣١] فقال لهم: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] لا من محمد ﷺ، فاحتجاجنا في مسألتنا إنما هو بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فأضاف الكل إلى الله والكل خير وهو بيده والشرّ ليس إليه، فأوهم السائل المسؤول بلفظ الطاعة والمعصية ليرى ما عنده من العلم فإنه سؤال ابتلاء منه لمدّعي علم الحقائق من طريق الكشف، وقد قرّرنا هذا الفصل في كتاب المعرفة لنا.

السؤال التاسع والثلاثون: وما العقل الأكثر الذي قسمت العقول منه لجميع خلقه؟
الجواب: لما كان في نفس الأمر يقتضي أن يكون مراتب المعلومات من الممكنات ثلاثاً: مرتبة للمعاني المجرّدة عن الموادّ التي من شأنها أن تدرك بالعقول بطريق الأدلة والبداية. ومرتبة من شأنها أن تدرك بالحواس وهي المحسوسات. ومرتبة من شأنها أن تدرك بالعقل أو الحواس وهي المتخيلات وهي تشكل المعاني في الصور المحسوسة تصوّرها القوّة المصوّرة الخادمة للعقل يقتضي ذلك أمر يسمّى الطبيعة فيما ينشأ منها من الأجسام الإنسانية والجنية، فلما إن شاء الله أن يوضح للمكلفين من عباده أسبابِ سعادتهم على ألسنة رسله من البشر إليهم بوساطة الروح العلويّ المنزّل بذلك على قلوب بعض البشر المسمّين رسلاً وأنبياء أجرى المعاني في المخاطبات مجرى المحسوسات في الصور التي تقبل التجزيء والانقسام والقلة والكثرة وجعل محل ذلك حضرة الخيال فحصروا المعاني في الخطاب فتلقتها بالتشبيه العقول كما تتلقى بالمحسوسات التي شبهت بها هذه المعاني التي ليس من شأنها بالنظر إلى ذاتها أن تكون متحيزة أو منقسمة أو قليلة أو كثيرة أو ذات حدّ ومقدار وكيف وكم، وجعل لنا الدليل على قبول ما أتى به من هذا القبيل في هذه الصور ما يراه النائم في نومه من العلم في صورة اللبن فيشربه حتى يرى الريّ يخرج من أظفاره فقيل له: ما أوّلته يا رسول الله؟ يريد ما تؤول إليه صورة ما رأيت؟ فقال: «**العلم**»، ومعلوم أنّ العلم ليس بجسم يسمّى لبناً ولا هو لبن، وإنما هو معنى مجرّد عن الصور التي من شأنها أن تدركها الحواس، فكان منها ما قال الشارع في تقسيم العقول على الناس كما تقسم الحبوب، فمن الناس من حصل له من العقل الممثل في الصور التي من شأنها أن تكال القفيز والقفيزين والأكثر والأقل، والمدّ والمدّين والأكثر من ذلك والأقل، ليبين بهذا تفاضل الناس في العقول لأنه المشهود عندنا لأنا نرى أشخاصاً كلهم يتصفون بأنهم عقلاء ذو وأحلام، فمنهم من يدرك عقله غوامض الأسرار والمعاني ويحمل صورة الكلمة الواحدة من الحكيم على خمسين وجهاً ومائة وأكثر وأقل من المعاني الغامضة، والعلوم العالية المتعلقة بالجناب الإلهيّ أو الروحانيّ أو الطبائع أو العلم الرياضي أو الميزان المنطقي، وعقل شخص ينزل عن هذه الدرجة إلى ما هو أقل وآخر ينزل دون هذا الأقل، وعقل آخر يعلو فوق هذا الأكبر، فلما شاهدنا تفاوت العقول احتجنا أن نقسمها على الأشخاص تقسيم الذوات التي تقبل الكثرة والقلة، ويسمّى المعنى القابل لهذه القسمة المعنوية الممثلة العقل الأكثر أي الذين قسمت منه هذي العقول التي في العقلاء من الموجودات بحسب ما بينهم من التفاوت.

وصورة تكوين العقول من هذا العقل الأكبر في تحقيق الأمر بطريق التمثيل، والتشبيه الأقرب إلى المناسب بالسراج الأوّل فتوقد منه جميع الفتائل فتتعدّد السرج بعدد الفتائل وتقبل

الفتائل من نور ذلك السراج بحسب استعداداتها، ففتيلة طبيعية في غاية النظافة صافية الدهن وافرة الجسم يكون قبولها أعظم في اتساع النور وفي كمية جسم النور، وأكبر من فتيلة نزلت عن هذه في الصفة من النظافة والصفاء فكان التفاوت بين الأنوار بحسب استعدادات الفتائل، ومع هذا فلم ينقص من السراج الأوّل شيء بل هو على كماله كما كان، وكل سراج من هذه السرج يضاهيه ويقول: أنا مثله وبأي شيء فضل عليّ وأنا يوخذ مني كما يؤخذ منه ويصول ويقول وما يرى فضله عليه من وجه أنه الأصل وله التقدّم، والثاني أنه في غير مادة ولا واسطة بينه وبين ربّه وما عداه فلم يظهر له وجود إلاّ به وبالمواد التي قبلت الاشتعال منه فظهرت أعيان العقول هذا كله غاب عنها بل ما لها فيه ذوق كيف يدرك من لا وجود له إلاّ بين أب وأمّ حقيقة من كان وجوده عن غير واسطة، وإذا كانت العقول تعجز عن إدراك العقل الأول التي ظهرت عنه فعجزها عن إدراك خالق العقل الأول وهو الله تعالىٰ أعظم، فإنه أول ما خلق الله العقل وهو الذي ظهرت منه هذه العقول بوساطة هذه النفوس الطبيعية فهو أول الآباء، وسمّاه الله في كتابه العزيز الروح وأضافه إليه فقال في حق النفوس الطبيعية وحق هذا الروح وحق هذه الأرواح الجزئية التي لكل نفس طبيعية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو هذا العقل الأكبر ولهذا يقال فيه العقل الغريزي معناه الذي اقتضته هذه النشأة الطبيعية باستعدادها الذي هو عبارة عن تسويتها وتعديلها لقبول هذا الأمر.

واعلم أنّ أصل كل متكثر الواحد فالأجسام ترجع إلى جسم واحد، والأنفس ترجع إلى نفس واحدة، والعقول ترجع إلى عقل واحد، ولكن لا يكون من الواحد الكثرة بمجرّد أحديته بل بنسب، إذا تأملت ما ذكرناه وجدته كذلك فيكون كأنّ ذلك الواحد انقسم إلى هذه الكثرة لا أنه انقسم في نفسه، إمّا لكونه لا يقبل القسمة كالنفوس والعقول والأصل المرجوع إليه، وإما لكونه في قوّته أن تكون منه هذه الكثرة من غير أن ينقص منه من حيث جسميته كالجسوم التي يتولد عنها الحيوان بماء أو ريح، فذلك الماء أو الريح ليس هو من حدّ هذا الجسم الذي تكوّن عنه ما تكوّن.

السؤال الأربعون: ما صفة آدم عليه السلام؟ الجواب: إن شئت صفته الحضرة الإلهية، وإن شئت مجموع الأسماء الإلهية، وإن شئت قول النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**» فهذه صفته، فإنه لما جمع له في خلقه بين يديه علمنا أنه قد أعطاه صفة الكمال فخلقه كاملاً جامعاً ولهذا قبل الأسماء كلها، فإنه مجموع العالم من حيث حقائقه فهو عالم مستقل وما عداه فإنه جزء من العالم، ونسبة الإنسان إلى الحق من جهة باطنه أكمل في هذه الدار الدنيا، وأما في النشأة الآخرة فإنّ نسبته إلى الحق من جهة الظاهر والباطن، وأما الملك فإن نسبته من جهة الظاهر إلى الحق أتم ولا باطن للملك ولكن إلى الحق من حيث هو مسمّى الله لا من حيث ذاته، فإنه من حيث ذاته هو لذاته، ومن حيث مسمّى الله يطلب العالم، فكأن العالم لم يعلم من الحق سوى المرتبة وهي كونه إلهاً رباً، ولهذا لا كلام له فيه إلاّ في هذه النسب والإضافات، وسمّي بآدم لحكم ظاهرة عليه فإنه ما عرف منه سوى ظاهره، كما أنه ما عرف من الحق سوى الاسم

الظاهر وهو المرتبة الإلهية، فالذات مجهولة، وكذلك كان آدم عند العالم من الملائكة، فمن دونهم مجهول الباطن، وإنما حكموا عليه بالفساد أي بالإفساد من ظاهر نشأته لما رأوها قامت من طبائع مختلفة متضادّة متنافرة، فعلموا أنه لا بدّ أن يظهر أثر هذه الأصول على من هو على هذه النشأة، فلو علموا باطنه وهو حقيقة ما خلقه الله عليه من الصورة لرأوا الملائكة جزءاً من خلقه، فجهلوا أسماءه الإلهية التي نالها بهذه الجمعية لما كشف له عنه فأبصر ذاته فعلم مستنده في كل شيء ومن كل شيء، فالعالم كله تفصيل آدم، وآدم هو الكتاب الجامع، فهو للعالم كالروح من الجسد، فالإنسان روح العالم والعالم الجسد، فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير والإنسان فيه. وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته كالجسد المسوّى بغير روح، وكمال العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح، والإنسان منفوخ في جسم العالم فهو المقصود من العالم، واتخذ الله الملائكة رسلاً إليه ولهذا سمّاهم ملائكة أي رسلاً من المألكة وهي الرسالة، فإن أخذت الشرف بكمال الصورة قلت: الإنسان أكمل، وإن أخذت الشرف بالعلم بالله من جانب الحق لا من طريق النظر فالأفضل والأشرف من شرّفه الله بقوله: هذا أفضل عندي، فإنه لا تحجير عليه في أن يفضل من شاء من عباده، فإن العلم بالله الذي يقع به الشرف لا حدّ له ينتهي إليه.

السؤال الحادي والأربعون: ما توليته؟ الجواب: إن الله تولاه بثلاث: منها توليته في خلقه بيديه. ومنها بما علمه من الأسماء التي ما تولى بها ملائكته. ومنها الخلافة وهي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فإن كان قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾ لقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] فهو نائب الحق في أرضه وعليه يقع الكلام، وإن أراد بالخلافة أنه يخلف من كان فيها لما فقد فما نحن بصدد ذلك، وكان المقصود النيابة عن الحق بقوله: ﴿خَلِيفَةً﴾لقولهم: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهذا لا يقع إلاَّ ممّن له حكم، ولا حكم إلاَّ لمن له مرتبة التقدّم وإنفاذ الأوامر، فأما مقصود السائل فإنه يريد الخلافة التي هي بمعنى النيابة عن الله في خلقه فأقامه بالاسم الظاهر وأعطاه علم الأسماء من حيث ما هي عليه من الخواص التي يكون عنها الانفعالات فيتصرّف بها في العالم تصرفها، فإنه لكل اسم خاصة من الفعل في الكون يعلمها من يعلم علم الحروف وترتيبها من حيث ما هي مرقومة، ومن حيث ما هي متلفظ بها، ومن حيث ما هي متوهمة في الخيال. فمنها ما له أثر في العالم الأعلى وتنزيل الروحانيات بها إذا ذكرت أو كتبت في عالم الحسّ. ومنها ما له أثر في العالم الجبروتيّ من الجنّ الروحانيّ. ومنها ما يؤثر ذكره في خيال كل متخيل وفي حسّ كل ذي حسّ. ومنها ما له أثر في الجانب الأحمى الأعلى الذي هو موضع النسب، ولا يعرف هذا التأثير الواحد وأسماءه إلاَّ الأنبياء والمرسلون سلام الله عليهم وهي أسماء التشريع، والعمل بتلك الشرائع هو المؤثّر في هذا الجانب النسبي وهو جناب عزيز لا يشعر به جعله الحق سبحانه موضع أسراره ومجلى تجلياته، وهو الذي يعطي النزول والاستواء والمعية والفرح والضحك والمقدار، وما يفهم منه من الآلات التي لا تكون إلاَّ لذوات المقادير والكميات والكيفيات.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ فجاء بالهوية بما ينبغي أن يظهر به في السموات من الألوهية بالاسم الذي يخصّها ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] بالاسم الذي ينبغي أن يظهر به في الأرض من كونه إلهاً، فكان آدم نائباً عن هذا الاسم، وهذا الاسم هو باطنه وهو المعلم له علم التأثيرات التي تكون عن الأسماء الإلهية التي تختص بالأرض حيث كانت خلافته فيها، وهكذا هو كل خليفة فيها، ولهذا قال: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٥] أي يخلف بعضنا بعضاً فيها في تلك المرتبة، مع وجود التفاضل بين الخلفاء فيها، وذلك لاختلاف الأزمان واختلاف الأحوال، فيعطي هذا الحال والزمان من الأمر ما لا يعطيه الزمان والحال الذي كان قبله والذي يكون بعده، ولهذا اختلفت آيات الأنبياء باختلاف الأعصار، فآية كل خليفة ورسول من نسبة ما هو الظاهر والغالب على ذلك الزمان وأحوال علمائه أي شيء كان من طب أو سحر أو فصاحة وما شاكل هذا، وهو قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يقول للخلفاء: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٥] وهاتان الصفتان لا تكونان إلاً لمن بيده الحكم والأمر والنهي.

فهذا النسق يقوّي أنه أراد خلافة السلطنة والملك وهي التولية الإلهية، وأعظم تأثيراتها الفعل بالهمة من حيث إن النفس ناطقة لا من حيث الحرف والصوت المعتاد في الكلام اللفظيّ، فإن الهمّة من غير نطق النفس بالنطق الذي يليق بها، وإن لم يشبه نطق اللسان لا يكون عنها انفعال بوجه من الوجوه عند جماعة أصحابنا، وأوقعهم في هذا الإشكال حكم النيابة عن الله الذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ وهو المعبّر فينا بالهمة ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: الآية ٨٢] وهو المعبر عنه فينا بالنطق أو الكلام بحسب ما يليق بالمنسوب إليه ذلك، فما اكتفى سبحانه في حق نفسه بالإرادة حتى قرن معها القول وحينئذ وجد التكوين، ولا يمكن أن يكون النائب عنه وهو الخليفة بأبلغ في التكوين ممّن استخلفه، فلهذا لم يقتصروا على الهمة دون نطق النفس. وأما نحن فنقول بهذا في موطنه وهو صحيح، غير أن الذات غاب عنهم ما تستحقه لكون المرتبة لا تعقل دونها، فكان كون المرتبة إنما هو عن الذات بلا شك، لأن الذات تطلبها طلباً ذاتياً لا طلباً يتوقف على همّة وقول، بل عين همتها وقولها هو عين ذاتها، فكون الألوهة لها هو ما يكون عن ذات الخليفة من حيث إنها ذات خليفة، فهي الذات الخلافية لا ذات الخلق التي هي نشأة جسمه وروحه، ومع هذا فلا بدّ من النسب الثلاث لوجود التكوين عقلاً في موازين العلوم وشرعاً، فأما في العقل فأصحاب الموازين يعرفون ذلك، وأما في الشرع فإنه قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ فهذا الضمير الذي هو النون من قولنا عين وجود ذاته تعالىٰ وكناية عنه فهذا أمر واحد، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أمر ثان. وقوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] أمر ثالث فذات مريده قائلة يكون عنها التكوين بلا شك، فالاقتدار الإلهيّ على التكوين لم يقم إلاً من اعتبار ثلاثة أمور شرعاً، وكذلك هو الإنتاج في العلوم بترتيب المقدّمات وإن كانت كل مقدمة مركبة من محمول وموضوع، فلا بدّ أن يكون أحد الأربعة

يتكرّر، فيكون في المعنى ثلاثة، وفي التركيب أربعة، فوقع التكوين عن الفردية وهي الثلاثة لقوّة نسبة الفردية إلى الأحدية، فبقوّة الواحد ظهرت الأكوان، فلو لم يكن الكون عينه لما صحّ له ظهور، فالوجود المنسوب إلى كل مخلوق هو وجود الحق إذ لا وجود للممكن، لكن أعيان الممكنات قوابل لظهور هذا الوجود، فتدبر ما ذكرناه في هذه التولية التي سأل عنها سمينا وابن سمي أبينا محمد بن عليّ الترمذيّ في كتاب ختم الأولياء له، وهي هذه المسائل التي أذكرها في هذا الباب.

السؤال الثاني والأربعون: ما فطرته يعني فطرة آدم أو الإنسان؟ الجواب: إن أراد فطرته من كونه إنساناً فله جواب، أو من كونه خليفة فله جواب، أو من كونه إنساناً خليفة فله جواب، أو من كونه لا إنسان ولا خليفة فله جواب وهو أعلاها نسبة، فإنه إذا كان حقاً مطلقاً فليس بإنسان ولا خليفة كما ورد في الخبر: «**كنت سمعه وبصره**» فأين الإنسانية هنا؟ إذ لا أجنبية، وأين الخلافة هنا؟ وهو الأمر بنفسه، فأثبتك ومحاك وأضلك وهداك أي حيّرك فيما بين لك فما تبينت إلاّ الحيرة فعلمت أن الأمر حيرة، فعين الهدى متعلقه الضلال فقال: أنت وما أنت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وما رمى إلاّ محمد فما رمى إلاّ الله، فأين محمد؟ فمحاه وأثبته، ثم محاه، فهو مثبت بين محوين: محو أزليّ وهو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ومحو أبديّ وهو قوله: ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وإثباته قوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فإثبات محمد في هذه الآية مثل الآن الذي هو الوجود الدائم بين الزمانين: بين الزمان الماضي وهو نفي عدم محقق، وبين الزمان المستقبل وهو عدم محض.

وكذلك ما وقع الحسّ والبصر إلاّ على رمي محمد، فجعله وسطاً بين محوين مثبتاً فأشبه الآن الذي هو عين الوجود، والوجود إنما هو وجود الله لا وجوده، فهو سبحانه الثابت الوجود في الماضي والحال والاستقبال، فزال عنه التقييد المتوهم فسبحان اللطيف الخبير، ولهذا قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فجاء بالخبرة، أي قلنا: هذا اختباراً للمؤمنين في إيمانهم لنا في ذلك من تناقص الأمور الذي يزلزل إيمان من في إيمانه نقص عمّا يستحقه الإيمان من مرتبة الكمال الذي في: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فهذا الجواب عن الوجه الرابع الذي هو أصعب الوجوه قد بان، فأمّا فطرته من حيث ما هو إنسان ففطرته العالم الكبير، وأما فطرته من حيث ما هو خليفة ففطرته الأسماء الإلهية، وأما فطرته من حيث ما هو إنسان خليفة ففطرته ذات منسوب إليها مرتبة لا تعقل المرتبة دونها ولا تعقل هي دون المرتبة، قال تعالىٰ: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠١] وهو قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] والفطر الشق، وقال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] وهو الفطرة، كما أنه لا تبديل لكلمات الله وهو قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] أي قولنا واحد لا يقبل التبديل.

وقال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**» فالألف واللام هنا للعهد أي: الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد تكون الألف واللام لجنس الفطرة كلها، لأن الناس أي هذا الإنسان لما كان

مجموع العالم ففطرته جامعة لفطر العالم، ففطرة آدم فطرة جميع العالم، فهو يعلم ربّه من حيث كل علم نوع من العالم من حيث هو عالم ذلك النوع بربه من حيث فطرته، وفطرته ما يظهر به عند وجوده من التجلّي الإلهيّ الذي يكون له عند إيجاده، ففيه استعداد كل موجود من العالم، فهو العابد بكل شرع، والمسبح بكل لسان، والقابل لكل تجلّي، إذا وفى حقيقة إنسانيته وعلم نفسه فإنه لا يعلم ربه إلاَّ من علم نفسه، فإن حجبه شيء منه عن درك كله فهو الجاني على نفسه وليس بإنسان كامل ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَرْيَمُ وَآسِيَةُ**» يعني بالكمال معرفتهم بهم، ومعرفتهم بهم هو عين معرفتهم بربهم، فكانت فطرة آدم علمه به فعلم جميع الفطر ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] وكل يقتضي الإحاطة والعموم الذي يراد به في ذلك الصنف، وأما الأسماء الخارجة عن الخلق والنسب فلا يعلمها إلاَّ هو لأنه لا تعلق لها بالأكوان. وهو قوله عليه السلام في دعائه: «**أوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» يعني من الأسماء الإلهية، وإن كان معقول الأسماء ممّا يطلب الكون ولكن الكون لا نهاية لتكوينه فلا نهاية لأسمائه، فوقع الإيثار في الموضع الذي لا يصحّ وجوده، إذ كان حصر تكوين ما لا يتناهى محال، وأما الذات من حيث هي فلا اسم لها إذ ليست محل أثر ولا معلومة لأحد ولا ثم اسم يدل عليها معرى عن نسبة ولا بتميكن، فإنّ الأسماء للتعريف والتمييز وهو باب ممنوع لكل ما سوى الله، فلا يعلم الله إلاَّ الله، فالأسماء بنا ولنا، ومدارها علينا، وظهورها فينا، وأحكامها عندنا، وغاياتها إلينا، وعباراتها عنا، وبداياتها منا.

[نظم: الهزج]

فلولاها لما كنّا	ولولانا لما كانَتْ
بها بِنّا وما بِنَّا	كما بانَتْ وما بانَتْ
فإن خَفِيَتْ لقد جلَّتْ	وإن ظهرت لقد زانَتْ

انتهى الجزء الثالث والثمانون.

(الجزء الرابع والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثالث والأربعون: ما الفطرة؟ الجواب: النور الذي تشق به ظلمة الممكنات ويقع به الفصل بين الصور فيقال: هذا ليس هذا، إذ قد يقال: هذا عين هذا من حيث ما يقع به الاشتراك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١] هو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والعالم كله سماء وأرض ليس غير ذلك، وبالنور ظهرت قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] والله مظهرها فهو نورها، فظهور المظاهر هو الله فهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ففطر السماء والأرض به فهو فطرتها، والفطرة التي فطر الناس عليها، فكل مولود يولد على الفطرة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فما فطرهم إلاَّ عليه، ولا فطرهم إلاَّ به، فبه تميزت الأشياء وانفصلت وتعينت، والأشياء في ظهورها الإلهيّ لا

شيء، فالوجود وجوده، والعبيد عبيده، فهم العبيد من حيث أعيانهم وهم الحق من حيث وجودهم، فما تميز وجودهم من أعيانهم إلاَّ بالفطرة التي فصلت بين العين ووجودها، وهو من أغمض ما يتعلق به علم العلماء بالله كشفه عسير وزمانه يسير.

السؤال الرابع والأربعون: لم سمّاه بشراً؟ الجواب: قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] على جهة التشريف الإلهيّ، فقرينة الحال تدل على مباشرة خلقه بيديه بحسب ما يليق بجلاله فسمّاه بشراً لذلك، إذا اليد بمعنى القدرة لا شرف فيها على من شرف عليه، واليد بمعنى النعمة مثل ذلك، فإنّ النعمة والقدرة عمّت جميع الموجودات، فلا بدّ أن يكون لقوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ أمر معقول له خصوص وصف بخلاف هذين، وهو المفهوم من لسان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم، فإذا قال صاحب اللسان أنه فعل هذا بيده فالمفهوم منه رفع الوسائط، فكانت نسبة آدم في الجسوم الإنسانية نسبة العقل الأول في العقول.

ولما كانت الأجسام مركبة طلبت اليدين لوجود التركيب ولم يذكر ذلك في العقل الأول لكونه غير مركب، فاجتمعا في رفع الوسائط، وليس بعد رفع الوسائط في التكوين مع ذكر اليدين إلاَّ أمر من أجله سمّي بشراً وسرت هذه الحقيقة في البنين فلم يوجد أحد منهم إلاَّ عن مباشرة، ألا ترى وجود عيسىٰ عليه السلام لما تمثل لها الروح بشراً سوياً فجعله واسطة بينه تعالىٰ وبين مريم في إيجاد عيسىٰ تنبيهاً على المباشرة بقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] وبشرة الشيء ظاهره، والبشرى إظهار علامة حصولها في البشرة، فقوله للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] بالحرفين الكاف والنون بمنزلة اليدين في خلق آدم، فأقام القول للشيء مقام المباشرة، وأقام الكاف والنون مقام اليدين، وأقام الواو المحذوفة لاجتماع الساكنين مقام الجامع بين اليدين في خلق آدم وأخفى ذكره كما خفيت الواو من ﴿كُن﴾ غير أن خفاءها في ﴿ كُن﴾ لأمر عارض، وخفاء الجامع بين اليدين لاقتضاء ما تعطيه حقيقة الفعل وهو قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] وهو حال الفعل لأنه ليس في حقائق ما سوى الله ما يعطي ذلك المشهد، فلا فعل لأحد سوى الله، ولا فعل عن اختيار واقع في الوجود، فالاختيارات المعلومة في العالم من عين الجبر، فهم المجبورون في اختيارهم، والفعل الحقيقيّ لا جبر فيه ولا اختيار لأن الذات تقتضيه فتحقق ذلك، فلمباشرة الوجود المطلق الأعيان الثابتة لظهور الوجود المقيّد سمّي الوجود المقيّد بشراً واختصّ به الإنسان لأنه أكمل الموجودات خلقاً، وكلّ نوع من الموجودات ليس له ذلك الكمال في الوجود فالإنسان أتم المظاهر فاستحقّ اسم البشر دون غيره من الأعيان.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فسمّي المكلم هنا بشراً بهذه الضروب كلها من الكلام لما يباشره من الأمور الشاغلة له عن اللحوق برتبة الروح التي له من حيث روحانيته، فإن ارتقى عن درجة البشرية كلّمه الله من حيث ما كلّم الأرواح، إذ كانت

الأرواح أقوى في التشبّه لكونها لا تقبل التحيّز والانقسام وتتجلّى في الصور من غير أن يكون لها باطن وظاهر، فما لها سوى نسبة واحدة من ذاتها وهي عين ذاتها، والبشر من نشأته ليس كذلك فإنه على صورة العالم كله، ففيه ما يقتضي المباشرة والتحيّز والانقسام وهو مسمّى البشر، وفيه ما لا يطلب ذلك وهو روحه المنفوخ فيه، وعلى بشريته توجهت اليدان فظهرت الشفعية في اليدين في نشأته، فلا يسمع كلام الحق من كونه بشراً إلاّ بهذه الضروب التي ذكرها أو بأحدها، فإذا زال في نظره عن بشريته وتحقق بمشاهدة روحه كلّمه الله بما يكلم به الأرواح المجرّدة عن المواد مثل قوله تعالىٰ في حق محمد ﷺ وفي حق الأعرابيّ ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وما تلاه عليه غير لسان محمد ﷺ، فأقام محمداً ﷺ في هذه الصورة مقام الروح الأمين الذي نزل بكلام الله على قلب محمد ﷺ وهو قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني لذلك البشر فيوحي إليه بإذنه ما يشاء الله تعالىٰ ممّا أمره أن يوحي به إليه فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ يريد هنا إلهاماً بعلامة يعلم بها أن ربّه كلّمه حتى لا يلتبس عليه الأمر ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يريد إسماعه إياه لحجاب الحروف المقطعة والأصوات كما سمع الأعرابيّ القرآن المتلو الذي هو كلام الله، أو حجاب الآذان أيضاً من السامع، أو حجاب بشريته مطلقاً فيكلمه في الأشياء كما كلّم موسىٰ: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] فوقع الحدّ بالجهة وتعيّن البقعة لشغله بطلب النار الذي تقتضيه بشريته، فنودي في حاجته لافتقاره إليها، والله قد أخبر أن الناس فقراء إلى الله فتسمّى الله في هذه الآية باسم كلّ ما يفتقر إليه غيرة إلهية أن يفتقر إلى غير الله، فتجلّى الله له في عين صورة حاجته، فلما جاء إليها ناداه منها فكان في الحقيقة فقره إلى الله، والحجاب وقع بالصورة التي وقع فيها التجلّي، فلولا ما ناداه ما عرفه، وفي مثل هذا يقع التجلّي الإلهيّ في الآخرة الذي يقع فيه الإنكار، وقوله ﴿حَكِيمٌ﴾ أي ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بما تقتضيه المراتب التي ذكرها وأنزلها منزلتها، وقوله ﴿حَكِيمٌ﴾ يريد بإنزال ما علمه منزلته، ولو بدل الأمر لما عجز عن ذلك، ولكن كونه عليماً حكيماً يقضي بأن لا يكون الأمر إلاّ كما وقع، ولما أخبر نبيّه بهذه المراتب كلها التي تطلبها البشرية قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] يعني الروح الأمين الذي نزل به على قلبك الذي هو روح القدس أي الطاهر عن تقييد البشر، فقد علمت معنى البشر الذي أردنا أن نبيّنه لك بما تقتضيه هذه اللفظة باللسان العربي.

السؤال الخامس والأربعون: بأيّ شيء نال التقدمة على الملائكة؟ الجواب: إن الله قد بيّن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] يعني الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد الملائكة والملائكة لا تعرفها، ثم أقام المسمّين بهذه الأسماء وهي التجليات الإلهية التي هي للأسماء كالمواد الصورية للأرواح فقال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني

الصور التي تجلّى فيها الحق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهل سبحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجليات التي أتجلاها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ذواتنا عن الجهل بك فهل قدستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجليات، وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبحوني بها؟ فقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ فمن علمهم بالله أنهم ما أضافو التعليم إلاّ إليه تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما لا يعلم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢] بترتيب الأشياء مراتبها، فأعطيت هذا الخليفة ما لم تعطنا ممّا غاب عنّا، فلولا أن رتبة نشأته تعطي ذلك ما أعطت الحكمة أن يكون له هذا العلم الذي خصصته به دوننا وهو بشر، فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] بأسماء هؤلاء الذين عرضناهم عليهم، فأنبأ آدم الملائكة بأسماء تلك التجليات وكانت على عدد ما في نشأة آدم من الحقائق الإلهية التي تقتضيها اليدان الإلهية ممّا ليس من ذلك في غيره من الملائكة شيء، فكان هؤلائك المسمّون المعروضة على الملائكة تجلّيات إلهية في صورة ما في آدم من الحقائق، فأولئك هم عالم آدم كلهم فلما علمهم آدم عليه السلام قال لهم الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو ما علا من علم الغيوب ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما في الطبيعة من الأسرار ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما هو من الأمور ظاهر ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] أي ما تخفونه على أنه باطن مستور، فأعلمتكم أنه أمر نسبيّ بل هو ظاهر لمن يعلمه. ثم قال لهم بعد التعليم ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] سجود المتعلمين للمعلم من أجل ما علمهم فلآدم هنا لام العلة والسبب أي من أجل آدم، فالسجود لله من أجل آدم سجود شكر لما علمهم الله من العلم به وبما خلقه في آدم عليه السلام، فعلموا ما لم يكونوا يعلمون فنال التقدمة عليهم بكونه علمهم فهو أستاذهم في هذه المسألة وبعده، فما ظهرت هذه الحقيقة في أحد من البشر إلاّ في محمد ﷺ فقال عن نفسه: إنه أوتي جوامع الكلم وهو قوله في حق آدم عليه السلام ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وكلها بمنزلة الجوامع، والكلم بمنزلة الأسماء، ونال التقدمة بها وبالصورة التي خلقه الله عليها.

قال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» بِالنَّشْأَةِ مِنْ أَجْلِ الْيَدَيْنِ وَجَعَلَهُ بِالخِلافَةِ عَلَىٰ صُورَتِهِ وهي المنزلة فأعطته الصورتان التقدّم حيث لم يكن ذلك لغيره من المخلوقات، فليس فوق هذه المنزلة منزلة لمخلوق، فلا بدّ أن يكون له التقدّمة على من سواه، وكذلك الأمر الذي أعطاه هذا يتقدّم على جميع الأمور كلها.

السؤال السادس والأربعون: كم عدد الأخلاق التي منحه عطاء؟ الجواب: ثلاثمائة خلق وهي التي ذكر النبيّ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ ثَلاثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ تَخَلَّقَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» ولهذا قال في الثلاثمائة إنهم على قلب آدم عليه السلام يعني هذه الأخلاق التي منح الله آدم، فمن كملت نشأته من بنيه قبل هذه الثلاثمائة من الخلق ومن لم يكمل كمال آدم فله منها على قدر ما أعطى من الكمال، فمنهم الكامل والأكمل، وهذه الأخلاق خارجة عن الاكتساب، لا تكتسب بعمل بل يعطيها الله اختصاصاً، ولا يصحّ التخلّق بها لأنه لا أثر لها في الكون، وإنما هي إعدادات

بأنفسها لتجلّيات إلهية على عددها، لا يكون شيء من تلك التجلّيات إلاّ لمن له هذه الأخلاق، فناهيك من أخلاق لا نعلق لها لمن كان عليها واتصف بها إلاّ بالله خاصة ليس بينها وبين المخلوقين نسب أصلاً، فقول النبيّ ﷺ: «**مَنْ تَخَلَّقَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا**» أراد من اتصف بشيء منها أي من قامت به، فإن الأخلاق على أقسام ثلاثة: منها أخلاق لا يمكن التخلّق بها إلاّ مع الكون كالرحيم، وأخلاق يتخلق بها مع الكون ومع الله كالغفور، فإنه يقتضي الستر لما يتعلق بالله من كونه غيوراً ويتعلق بالكون، وأخلاق لا يتخلق بها إلاّ مع الله خاصة وهي هذه الثلاثمائة ولها من الجنات جنة مخصوصة لا ينالها إلاّ أهل هذه الأخلاق، وتجلياتها لا تكون لغيرها من الجنات، ولكن هذه الأخلاق هي لهم كالخلوق الذي يتطيّب به الإنسان، فإنه وجود الريح من الطيب لا تعمل فيه للمتطيّب به، فإنه يقتضي تلك الريح لذاته، والتخلّق تعمل في تحصيل الخلق وهذا ليس كذلك، فالثناء على الطيب لا على من قام به، فكذلك هذا الخلق إذا رأى على عبد قد اتصف به لم يقع منه ثناء عليه أصلاً، وإنما يقع الثناء على الخلق خاصة، فكل خلق تجده بهذه المثابة فهو من هذه الأخلاق الثلثمائة، فإن الكرم خلق من أخلاق الله، ولكن إذا تخلّق به العبد أثنى عليه بأنه كريم وكذلك الرحمة يقال فيه رحيم، وهذه الأخلاق لا ينطلق على من اتصف بها اسم فاعل جملة واحدة، لكن ينطلق عليه اسم موصوف بها، وسبب ذلك لأنه لا تعلق لها بالكون إلاّ بحكم الاشتراك كالغفور، ولا بحكم الاختصاص كالشديد العقاب، ويعطيها الاسم الوهاب من عين المنّة لا غير.

السؤال السابع والأربعون: كم خزائن الأخلاق؟ الجواب: على عدد أصناف الموجودات وأعيان أشخاصها، فهي غير متناهية من حيث ما هي أشخاص، ومتناهية من حيث ما هي خزائن، وما سميت خزائن لكون الأخلاق مخزونة فيها اختزاناً وجودياً، وإنما جعلت خزائن لما تتضمنه في حكم من اتصف بها من الصفات التي لا نهاية لوجودها وهي خزائن في خزائن، وأصلها الذي ترجع إليه الجامع للكل ثلاث خزائن: خزانة تحوي على ما تقتضيه الذوات من حيث ما هي ذوات. وخزانة تحوي على ما تقتضيه النسب الموجبة للأسماء من حيث ما هي نسب. وخزانة تحوي على ما تقتضيه الأفعال من حيث أنها أفعال لا من حيث المفعولات ولا الانفعالات ولا الفاعلية، وكل خزانة من هذه الخزائن الثلاث تنفتح إلى خزائن، وتلك الخزائن إلى خزائن، هكذا إلى غير نهاية، فهي تدخل تحت الكم بوجه ولا تدخل تحت الكم بوجه، فما حصل منها في الوجود حصره الكم.

السؤال الثامن والأربعون: إن لله مائة وسبعة عشر خلقاً ما تلك الأخلاق؟ الجواب: إن هذه الأخلاق مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام ليس لمن دونهم فيها ذوق ولكن لمن دونهم تعريفاتها، فتكون عن تلك التعريفات أذواق ومشارب لا يحصيها إلاّ الله علماً وعدداً، فمن هذه الأخلاق خلق الجمع الدال على التفريق، والجمع الذي يتضمن التفريق، والفرق الذي يتضمن الجمع، ويظهر هذا الخلق من حضرة العزّة والإبانة والحكمة والكرم، ومن هذه الأخلاق خلق النور المستور وهو من أعزّ المعارف إذ لا يتمكن في النور أن يكون مستوراً فإنه

لذاته يخرق الحجب ويهتك الأستار، فما هذا الستر الذي يحجبه إلاً أن ذلك الحجاب هو أنت كما قال العارف: [الطويل]

فأنتَ حجابُ القلب عن سرِّ غَيْبِهِ ... ولولاك لم يَطْبَعْ عليه خِتَامَهُ

ومن هذه الأخلاق خلق اليد وهو القوّة وهو مخصوص بالقلوب وأصحابها وهو على مراتب، ومن هذه الأخلاق خلق إعدام الأسباب في عين وجودها وهو على مراتب وقفت منها في الأندلس على مائة مرتبة لا توجد في الكمال إلاً في روحانية ذلك الإقليم، فإنه لكل جزء من الأرض روحانية علوية تنظر إليه، ولتلك الروحانية حقيقة إلهية تمدها، وتلك الحقيقة هي المسماة خلقاً إلهياً، وأما بقية الأخلاق فلها مراتب دون هذه التي ذكرناها في الإحاطة والعموم، ولكل خلق من هذه الأخلاق درجة في الجنة لا ينالها إلاً من له هذا الخلق، وهذه الأربع التي ذكرناها منها للرسل، ومنها للأنبياء، ومنها للأولياء، ومنها للمؤمنين، وكل طبقة من هؤلاء الأربع على منازل بعددهم، فمنها ما يشاركهم فيها الملأ الأعلى، ومنها ما تختص به تلك الطبقة وذلك أن كل أمر يطلب الحق ففيه يقع الاشتراك، وكل أمر يطلب الخلق فهو يختص بذلك النوع من الخلق يقتصر عليه، ومن الباقي أربعة عشر خلقاً لا يعلمها إلاً الله، والباقي من الأخلاق تعينها أسماء الإحصاء وهي أسماء لا يعرفها إلاً وليّ أو من سمعها من رسول الله ﷺ من الصحابة، وأما من طريق النقل فلا يحصل بها علم، وأما الثلاثة عشر فيختصّ بعلمها سبحانه وما بقي فيعلمه أهل الجنة وهم في العلم بها على طبقات، وأعني بأهل الجنة الذين هم أهلها فإنه لله سبحانه أهل هم أهله لا يصلحون لغيره كما ورد في الخبر: «**إنَّ أَهْلَ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**» وللجنة أهل هم أهلها لا يصلحون إلاً لها لا يصلحون لله وإن جمعتهم حضرة الزيارة ولكن هم فيها بالعرض، وللنار أهل هم أهلها لا يصلحون لله ولا للجنة، ولكل أهل فيما هم فيه نعيم بما هم فيه ولكن بعد نفوذ أمر سلطان الحكم العدل القاضي إلى أجل مسمّى، وكل طائفة لها شرب وذوق في هذه الأخلاق المذكورة في هذا الباب، فانقسمت هذه الأخلاق على هؤلاء الطبقات الثلاث، كل خلق منها يدعوهم إلى ما يقتضيه أمره وشأنه من نار أو جنان أو حضور عنده حيث لا أين ولا كيف، وللمعاني المجرّدة منها أخلاق، ولعالم الحسّ منها أخلاق، ولعالم الخيال منها أخلاق، فجنة محسوسة لمعنى دون حسّ، وجنة معنوية لحسّ دون معنى، وحضور مع الحق معنويّ لحسّ دون معنى، وحضور مع الحق محسوس لمعنى، ونار محسوسة لمعنى دون حسّ، ونار معنوية لحسّ دون معنى، وتتفاضل مشارب هؤلاء الطبقات فيها، فمنهم التام والأتم، والكامل والأكمل، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] في كلّ حضرة فإنه كلما أثبتناه من أعيان أكوان في نار وجنان فليس إلاً الحق إذ هي مظاهره، فالنعيم به لا يصحّ أصلاً في غير مظهر فإنه فناء ليس فيه لذّة، فإذا تجلّى في المظاهر وقعت اللذات والآلام وسرت في العالم، ويرحم الله من قال: [المضارع]

فهل سمعتُمْ بصبٍّ ... سليم طَرْفٍ سقيم

منعَّمٍ بعذابٍ ... معذَّبٍ بنعيمٍ

فبه النعيم وبه العذاب، فلا يوجد النعيم أبداً إلاً في مركب وكذلك العذاب. وأما النعيم والعذاب البسيط فلا حكم له في الوجود فإنه معقول غير موجود، فأهل المظاهر هم أهل النعيم والعذاب، وأهل أحدية الذات لا نعيم عندهم ولا عذاب. قال أبو يزيد: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما المساء والصباح لمن تقيد بالصفة ولا صفة لي.

السؤال التاسع والأربعون والموفي خمسين: كم للرسل سوى محمد ﷺ منها؟ وكم لمحمد ﷺ منها؟ الجواب: كلها إلاً اثنين وهم فيها على قدر ما نزل في كتبهم وصحفهم إلاً محمداً ﷺ فإنه جمعها كلها بل جمعت له عناية أزلية، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فيما لهم به من هذه الأخلاق. فاعلم أن الله تعالىٰ لما خلق الخلق خلقهم أصنافاً وجعل في كلّ صنف خياراً واختار من الخيار خواص وهم المؤمنون، واختار من المؤمنين خواص وهم الأولياء، واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم، واختار من النقاوة شرذمة قليلة هم صفاء النقاوة المروقة وهم الرسل أجمعهم، واصطفى واحداً من خلقه هو منهم وليس منهم هو المهيمن على جميع الخلائق جعله عمداً أقام عليه قبة الوجود، جعله أعلى المظاهر وأسناها، صحّ له المقام تعييناً وتعريفاً، فعلمه قبل وجود طينة البشر وهو محمد رسول الله ﷺ لا يكاثر ولا يقاوم، وهو السيد ومن سواه سوقة، قال عن نفسه: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ وَلا فَخْرَ**» بالراء والزاي روايتان أي أقولها غير متبجح بباطل، أي أقولها ولا أقصد الافتخار على من بقي من العالم، فإني وإن كنت أعلى المظاهر الإنسانية فأنا أشد الخلق تحقّقاً بعيني، فليس الرجل من تحقق بربه وإنما الرجل من تحقق بعينه لما علم أن الله أوجده له تعالىٰ لا لنفسه، وما فاز بهذه الدرجة ذوقاً إلاً محمد ﷺ وكشفاً إلاً الرسل، وراسخو علماء هذه الأمّة المحمدية ومن سواهم، فلا قدم لهم في هذا الأمر، وما سوى من ذكرنا ما علم أن الله أوجده له تعالىٰ بل يقولون: إنما أوجد العالم للعالم، فرفع﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢]وهو ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] هذا مذهب جماعة من العلماء بالله.

وقالت طائفة من العارفين: إن الله أوجد الإنس له تعالىٰ والجنّ وأوجد ما عدا هذين الصنفين للإنسان. وقد روي في ذلك خبر إلهيّ عن موسىٰ ﷺ: «**إِنَّ الله أَنْزَلَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ مِنْ أَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي فَلا تَهتِكْ مَا خَلَقْتُ مِنْ أَجْلِي فِيما خَلَقْتُ مِنْ أَجْلِكَ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وتقتضي المعرفة بالله أن الله خلق العالم وتعرّف إليهم لكمال مرتبة الوجود ومرتبة العلم بالله لا لنفسه سبحانه، وهذه الوجوه كلها لها نسب صحيحة ولكن بعضها أحق من بعض وأعلاها ما ذهبنا إليه، ثم يلي ذلك خلقه لكمال الوجود وكمال العلم بالله، وما بقي فنازل عن هاتين المرتبتين.

واعلم أن كلّ خلق ينسب إلى جناب الحضرة الإلهية فلا بدّ من مظهر يظهر فيه ذلك

الخلق، فإمّا أن يعود من المظهر التخلّق به على جناب الحق أو يكون متعلقه مظهر آخر يقتضيه في عين ممكن ما من الممكنات لا يكون إلاَّ هكذا، وأما الحق من حيث هو لنفسه فلا خلق، فمن عرف النسب فقد عرف الله، ومن جهل النسب فقد جهل الله، ومن عرف أن النسب تطلبها الممكنات فقد عرف العالم، ومن عرف ارتفاع النسب فقدعرف ذات الحق من طريق السلب فلا يقبل النسب ولا تقبله، وإذا لم يقبل النسب لم يقبل العالم، وإذا قبل النسب كان عين العالم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ نسبة خاصة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فتعلم من عبده ومن العابد والمعبود، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] لا تعبد أنت فإن عبدته من حيث عرفته فنفسك عبدت، وإن عبدته من حيث لم تعرفه فنسبته إلى المرتبة الإلهية عبدت، وإن عبدته عيناً من غير مظهر ولا ظاهر ولا ظهور بل هو هو لا أنت، وأنت أنت لا هو، فهو قوله: فاعبده فقد عبدته، وتلك المعرفة التي ما فوقها معرفة فإنها معرفة لا يشهد معروفها، فسبحان من علا في نزوله ونزل في علوّه، ثم لم يكن واحداً منهما ولم يكن إلاَّ هما لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم.

السؤال الحادي والخمسون: أين خزائن المنن؟ الجواب: في الاختيار المتوهم المنسوب إليه وإليك فأنت مجبور في اختيارك فأين الاختيار؟ وهو ليس بمجبور وأمره واحد فأين الاختيار؟ ولو شاء الله فما شاء و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] وليس بمحل للحوادث بل الأعيان محل الحوادث وهو عين الحوادث عليها فإنها محال ظهوره ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] والذكر كلامه وهو الذي حدث عندهم، وكلامه علمه وعلمه ذاته، فهو الذي حدث عندهم فهو خزائن المنن والمنن ظهور ما حدث عندهم فيهم وهو لا أين له فلا أينية لخزائن المنن.

ولما كانت المنن متعدّدة طلب عين كل نسبة منه خزانة فلهذا تعدّدت الخزائن بتعدّد المنن وإن كانت واحدة ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] فهذه منتان: منة الهدى ومنة الإيمان، وجميع نعمه الظاهرة والباطنة مننه، وإذا كان هو عين المنة فأنت الخزانة، فالعالم خزائن المنن الإلهية، ففينا اختزن مننه سبحانه، فما هو لنا بأين، ونحن له أين، فمن لا أينية له هو نحن فأعياننا أين لظهوره، فحقيقة المكان لا تقبل المكان، ودع عنك من يقول المتمكن في المكان مكان لمكانه، وفرض بين التمكن والمكان حركتين متضادّتين تعطي حقيقة المكانية لكل واحد منهما، وهذا من قائله توهّم من أجل ما ذهب إليه، والحقيقة هي ما قرّرناه من أن المكان لا يقبل المكان، فلا أين للأين لمن هو أين له وهذا كله في المظاهر الطبيعية، وأما في المعاني المجرّدة عن الموادّ فهي المظاهر القدسية

للأسماء التي لا تقبل نسب التشبيه، فالعلم بها أن لا علم. كما روي عن الصدّيق أنه قال في مثل ما ذكرناه: العجز عن درك الإدراك إدراك، فانقلب التنزيه عن الأين لمن يقبل التشبيه فلا تشبيه في العالم ولا تنزيه، فإن الشيء لا يتنزه عن نفسه ولا يشبه بنفسه، فقد تبينت الرتب وعلم ما معنى النسب، والحمد لله وحده أن علم عبده.

السؤال الثاني والخمسون: أين خزائن سعي الأعمال؟ الجواب: ذوات العمال، فإن أراد تجسّد هذا السعي فخزانته الخيال، وإن أراد أين يختزن ففي سدرة المنتهى، فإن أراد ما لها من الخزائن الإلهية فخزانة الاسم الحفيظ العليم.

واعلم أن خزائن هذا السعي خمس خزائن لا سادسة لها، وعباد الله رجلان: عامل ومعمول به، فالمعمول به ليس هو مقصودنا في هذا الباب من هذا الفصل، وإنما مقصودنا سعي الأعمال من حيث نسبتها إلى العاملين والعاملون ثلاثة: عامل هو حق، وعامل بحق، وعامل هو خلق، وكلّ له سعي في العمل بحسب ما أضيف إليه، فإن الله قد نسب الهرولة إليه وهي ضرب من السعي سريع وقد قال: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَىٰ تَمَلُّوا**» ثبت هذا في الحديث الصحيح، فأمّا سعي العمل الذي هو حق فالعمل يطلب الأجر بنفسه ليجود به على عامله، والعامل هنا ما يعطي حقيقته قبول الأجر ولا بدّ من الأجر فيكون إذاً الأجر الثناء لا غير، فإنه يقبل الثناء هذا العامل الذي هو حق، ولا يقبل القصور ولا الحور ولا الولدان ولا التجليات، فإن كان العمل مّما يتضمن الحسن والقبح أو لا حسن ولا قبح فلا يضاف العمل إلى هذا العامل من حيث ما هو محكوم عليه بحسن أو قبح أو لا حسن ولا قبح، بل يضاف إليه معرى عن الحكم بنفي أو إثبات، وصاحبه أكمل الناس نعيماً في الجنة ولذة وأرفعهم درجة، وماله من الجنات من حيث هذا العمل سوى جنة عدن، والعمل يطلب نصيبه في جميع الجنان من حيث ما هو عمل لا غير فيعود به على صاحبه، بل يكون له مركباً إلى كلّ درجة في جميع الجنات وهو المراد بقوله تعالىٰ عنه: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] إلى هنا. وقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] ليس هم هؤلاء بل العاملون بحق وبخلق إلاً أن يريد بقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الثناء فهو لهم، فإن لفظة نعم وبئس للمدح والذم، والعامل هنا حق والثناء له حق، ونعم كلمة محمدة ومدح فيكون بهذا التأويل تمام الآية له والتبوّؤ في الجنات للعمل لا له.

فالمحل الذي ظهر فيه العمل وهو أنت هو الذي يتبوّأ من الجنة بعناية عمله الظاهر فيه ما شاء، إذ الصورة الطبيعية منه تطلب النعيم المحسوس والمتخيّل، فلهذا أبيحت الجنات له بحكم مشيئته بشفاعة العمل الحق، فخزائن هذا السعي كلها أنوار مباحها، ومندوبها، وواجبها، ومحظورها، ومكروهها، في حكم الظاهر المقرّر عند علماء الرسوم ممّن ليس له كشف منهم، وهو عند علماء الرسوم الذين لهم الكشف الأتم في معرفة الشرائع، أعني هذا الذي ظهر فيه هذا العمل على هذه الصفة ما تصرّف إلاً فيما حسنه الشرع وقبله ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧].

وأما سعي من كان عمله بحق فيقرب من هذا أنه لما شاهد ذاته عاملة وهو من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ومن أهل: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، نقص عن ذلك الأوّل، فكان صاحب كشف في عمله لأخذ الحق بناصيته في جميع ما يتصرّف فيه، فامتلأت خزائنه الخمسة عندنا والستة عند أبي حنيفة نوراً خالصاً ونوراً غير خالص ونوراً مزيلاً لظلمة كانت قبله، فكان ممتزج الأحوال، فلولا عناية هذا الحضور والكشف في حال السعي لما تمّ له هذا السعد الذي حصل له من إزالة ظلمته، فهذان الصنفان من أصحاب الأعمال في النور فلهم أجرهم ونورهم، وأما من كان سعى عامله خلق فترفع له خزائن الواجبات أعني الفرائض في العمل والترك والمندوبات في العمل والترك ممتلئة نوراً مشوباً بكون دون أنوار من ذكرناهم، وترفع لهم خزائن المباحات فارغة في العمل والترك إلاّ من ترك المباح أو عمله لكونه مباحاً ففيها نور يليق بهذا النوع، فكأنه نور من وراء حجاب مثل ضوء الشمس من خلف السحاب الرقيق، فإن نظر إلى تضمن ذلك المباح ترك محظوراً أو مكروه ولم يخطر له ترك واجب أو مندوب، فإن نوره يكون أتمّ قليلاً وأضوأ من النور الأول المعرّى عن هذا الخاطر، فإن خطر له أن ذلك المباح يتضمن ترك مندوب أو واجب من واجب يوجبه على نفسه، كمن نذر صيام يوم لا بعينه وله إن شاء أن يصومه في هذا اليوم وهو صوم واجب ولكن لا في هذا اليوم ولا بدّ وإن صامه في هذا اليوم المباح له ترك الصوم فيه فقد أدّى واجباً، فإن نوره في خزانته هذه بين النورين المتقدّمين وترفع له خزائن المحظورات في العمل والترك والمكروهات في العمل والترك، أما خزائن المحظورات ظلمة محضة، وأما خزائن المكروهات فسدفة، فإن كان حصره في وقت المحظور الإيمان به أنه في محظور وكذلك في المكروه فيكون خزائن المحظور ممتلئة سدفة، وخزائن المكروه كالأسفار والشفق، وما ثم عامل في المؤمنين أو الموحدين إلاّ هؤلاء خاصة، وأما من سوى المؤمن أو الموحد فلا كلام لنا معه في هذا الفصل من حيث قصد السائل، وأما من حيث سعي الأعمال فإن لكلّ عامل مدخلاً في هذا الفصل بحسب سعيه من معطل، ومشرك، وكافر، وجاحد، ومنافق، وما ثم شقيّ سوى هؤلاء الخمسة وفي الكلام على مناهجهم تفصيل يطول وكل يجري في طلقه إلى أجل مسمّى، وما منهم إلاّ من يقول: أنا من الأشياء فلا بدّ لي من الرحمة، فإن قائلها ليس من صفته التقييد، إذ لو تقيد لخرج عنه ما لا يمكن أن يكون إلاّ به، فمن المحال خروج شيء عنه، فمن المحال تقييده، فمنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن الوجوب، ومنا من تفيض عليه الرحمة من خزائن المنن التي ذكرناها، فالكل طامع والمطموع فيه واسع ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] أترى هذه السعة الربانية تضيق عن شيء هي لم تضق عن الممكنات إذ كانت في الشرّ المحض، فكيف تضيق عن الممكنات إذ هي في الشرّ المشوب؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] فيخصّه بالرحمة الموجبة بالصيفة الموجبة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف:

الآية ١٥٦] ممّن لم يتق فيخصّه برحمته المطلقة وهي رحمة الامتنان ولا تتقيد بحصر، فهذا جواب خزائن سعي الأعمال على الإيجاز والبيان.

السؤال الثالث والخمسون: من أين تعطى الأنبياء؟ الجواب: الأنبياء على نوعين: أنبياء تشريع وأنبياء لا تشريع لهم، وأنبياء التشريع على قسمين: أنبياء تشريع في خاصتهم كقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٣] وأنبياء تشريع في غيرهم وهم الرسل عليهم السلام. أما الأنبياء الذين هم الرسل فمن حضرة الملك الذي هو ملك الملك، وأما الأنبياء غير المرسلين فمن حضرة الاختصاص، وأما الأنبياء الذين لا يوحى إليهم الروح المخصوص بذينك الصنفين فمن حضرة الكرم والكل من عين المنة والرحمة وهو الجامع، فأما الدائرة العظمى العامة التي هي النبوّة المطلقة فمن أعطيها من حيث إطلاقها فلا يعرف أحد ما لديه وما اتحفه به ربه، وهو أيضاً لا يعرف قدر ذلك لأنه لا يقابله ضد فيها فيتميز عنه، وأما من أعطي منها من باب الرحمة به وتولّى الحق بضرب من العطف عليه تعليمه فتعرف إليه بعوارفه، ثم عرفه من غيبه ما شاء أن يعرفه كخضر الذي قال فيه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] أي رحمناه فأعطيناه هذا العلم الذي ظهر به، وإن أراد تعالىٰ أنه أعطاه رحمة من عنده جعلها فيه ليرحم بها نفسه وعباده فيكون في حق الغلام رحمة أن حال بينه وبين ما كان يكتسبه لو عاش من الآثام إذ قد كان طبع كافراً، وأما رحمته بالملك الغاصب حتى لا يتحمل وزر غصبه تلك السفينة من هؤلاء المساكين فالرحمة إنما تنظر من جانب الرحيم بها لا من جانب صاحب الغرض فإنه جاهل بما ينفعه، كالطبيب يقطع رجل صاحب الأكلة رحمة به لبقاء نفسه، فالرحمة عامة من الرحيم الراحم، ولم أر أحداً أعطي النبوّة المطلقة التي لا تشريع لها إلاّ إن كان وما عرفته فهذا لا يبعد، فإني رأيت من أولياء الله تعالىٰ ما لا أحصيهم عدداً أنفعنا الله بهم. وأما من أعطى النبوّة المقيدة بالشرع الخاص به فما على الأرض منهم اليوم أحد ولا يراهم أحد إلاّ في الموافقة وهي المبشرات. وأما النبوّة المقيدة بالشرائع ففي الزمان منهم اليوم إلياس ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٢٣] وإدريس وعيسىٰ، واختلف في الخضر بين النبوّة والولاية فقيل: هو نبيّ، وقيل: وليّ.

السؤال الرابع والخمسون: أين خزائن المحدثين من الأولياء؟ الجواب: في حضرة الحق من الحضرات الإلهية، وفي المظاهر الإلهية ممّا وقعت عليه العين أو بعض الحواس من صامت معتاد وناطق. [الطويل]

تحدّثني في ناطق ثم صامت　　　وغمز عيون ثم كسر حواجب

قال رسول الله ﷺ في هذا الفصل: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ فَإِنَّ الله قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» فهذا من حديث الله مع خلقه. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فكلم الله الأعرابي بلسان رسوله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ هو الذي تلا عليه القرآن، والقرآن كلام الله، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] لأنه حدث عندهم وإن كان قديماً في

نفس الأمر من حيث إنه كلام الله. وقال ﷺ في عمر إنه من المحدثين إن يكن في هذه الأمّة منهم أحد وأريد حديثه تعالىٰ مع أوليائه لا مع الأنبياء والرسل، فإن الأذواق تختلف باختلاف المراتب، فنحن لا نتكلم إلاّ فيما لو ادعيناه لم ينكر علينا لأن باب الولاية مفتوح، ولهذا سأل عن خزائن المحدثين من الأولياء، فأكمل المحدثين من فهم عن الله ما حدّثه به في كل شيء وهم أهل السماع المطلق من الحق، فإن أجابوه به فهو حديث، وإن أجابوه بهم فهي محادثة، وإن سمعوا حديثه به فليس بحديث في حقّهم وإنما هو خطاب أو كلام، وأهل الحقائق يمنعون المحادثة ولا يمنعون المناجاة، فإن الحق لا يحدث عنده شيء، فهو سبحانه يحدّث من شاء من عباده ولا يحدّثه منهم أحد لكن يناجونه ويسامرونه كالمتهجدين هم أهل المسامرة، فالعالم خزائن المحدثين من الأولياء إذا سمعوا بهم فالمحدثون أنزل الدرجات في مقامات الأولياء وهم عند العامة في الرتبة العليا لأن علومهم ليست عن ذوق وإنما هي علوم نقل أو علوم فكر لا غير.

فأما حديث الله في الصوامت فهو عند العامّة من علماء الرسوم حديث حال أي يفهم من حاله كذا وكذا حتى أنه لو نطق لنطق بما فهمه هذا الفاهم منه، قال القوم في مثل هذا: قالت الأرض للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد لها: سلي من يدقني، فهذا عندهم حديث حال وعليه خرجوا. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] إباية حال، وأما عند أهل الكشف فيسمعون نطق كل شيء من جماد ونبات وحيوان يسمعه المقيد بأذنه في عالم الحسّ لا في الخيال كما يسمع نطق المتكلم من الناس والصوت من أصحاب الأصوات، فما عندنا في الوجود صامت أصلاً بل الكل ناطق بالثناء على الله، كما أنه ليس عندنا في الوجود ناطق أصلاً من حيث عينه بل كل عين سوى الله صامتة لا نطق لها، إلاّ أنها لما كانت مظاهر كان النطق للظاهر، قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] فالكلام في المظاهر هو الأصل، والصمت فيها عرض يعرض في حق المحجوب، والصمت في الأعيان هو الأصل، والكلام المسموع منها عرض يعرض في حق المحجوب فلأصحاب الحرف والصوت عذر عند هؤلاء، ولمنكر الصوت والحرف عذر أيضاً عندهم. انتهى الجزء الرابع والثمانون.

(الجزء الخامس والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الخامس والخمسون: ما الحديث؟ الجواب: ما يتلقاه السامع إذا سمعه به لا بربه فذلك هو الحديث لا غير، فإن سمعه بربه فليس ذلك بحديث، ومعنى قوله سمعه بربه قول الله تعالىٰ: كنت سمعه الذي يسمع به. فاعلم أن وصفه بأنه سميع هو عينه لا أمر زائد. واعلم أن تحقيق هذا أنه لكل اسم إلهي نسبة كلام، والإنسان محل لاختلاف الأحوال عليه

عقلاً وحسّاً، وذلك أن الألوهية تعطي ذلك لذاتها، فإنها بالنسبة إلى العالم بهذه الصفة قال تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فكل حال في الكون فهو عين شان إلهي. وقد تقرّر في العلم الإلهي أنه تعالىٰ لا يتجلّى في صورة واحدة لشخصين ولا في صورة واحدة لشخص مرّتين، وكل تجلّ له كلام، فذلك الكلام لهذا الحال من هذا التجلّي هو المعبّر عنه بالحديث، فالحديث لا يزال أبداً، غير أنه من الناس من يفهم أنه حديث، ومن الناس من لا يعرف ذلك بل يقول: ظهر لي كذا وكذا ولا يعرف أن ذلك من حديث الحق معه في نفسه لأنه حرم عين الفهم عن الله فيما يحسب أنه خاطر، والذين قسموا الخواطر إلى أربعة فذلك التقسيم لا يقع في الحديث، فإن الحديث حديث في كل قسم، وإنما الأقسام وقعت في الذوات التي فهم منها ما أريد بالحديث فيقال خاطر شيطاني وهو حديث رباني، وقول إلهيّ لما أراده الحق قال له: ﴿كُن﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] فكان، فناجاه الاسم البعيد، كما يتلقاه من الحديث الإلهيّ في الخاطر الملكي الاسم القريب، كما يتلقاه من الحديث الإلهي في الخاطر النفسي الاسم المريد، كما يتلقاه من الحديث الإلهي في الخاطر الرباني الاسم الحفيظ، فهذه الخواطر كلها من الحديث الإلهيّ الذي لا يشعر به إلاّ رجال الله، فالعالم كله على طبقاته لا يزالون في الحديث، فمن رزق الفهم عنه تعالىٰ وعرفه فذلك المحدث وهو من أهل الحديث، وعلم أن كل ما سمعه حديث بلا شك، وإن اختلفت ألقابه كالسمر والمناجاة والمناغاة والإشارات فالكلام كله حادث قديم حادث في السمع قديم في المسمع فافهم.

السؤال السادس والخمسون: ما الوحي؟ الجواب: ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة من غير عبارة، فإن العبارة تجوز منها إلى المعنى المقصود بها ولهذا سميت عبارة، بخلاف الإشارة التي هي الوحي فإنها ذات المشار إليه، والوحي هو المفهوم الأوّل والإفهام الأوّل، ولا أعجل من أن يكون عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه، فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست صاحب وحي، ألا ترى أن الوحي هو السرعة ولا سرعة أسرع ممّا ذكرناه، فهذا الضرب من الكلام يسمّى وحياً، ولما كان بهذه المثابة وأنه تجلّ ذاتيّ لهذا ورد في الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ صَعِقَتِ المَلائِكَةُ**» ولما تجلّى الرب للجبل تدكدك الجبل وهو حجاب موسىٰ فإنه كان ناظراً إليه طاعة لأمر الله فلاح له عند تدكدك الجبل الأمر الذي جعل الجبل ﴿دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] قالت الملائكة ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] قالت الحقيقة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] هذه النسبة من حيث هويته، فالوحي ما يسرع أثره من كلام الحق تعالىٰ في نفس السامع، ولا يعرف هذا إلاّ العارفون بالشؤون الإلهية، فإنها عين الوحي الإلهيّ في العالم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦٦] فافهم.

وقد يكون الوحي إسراع الروح الإلهيّ الأمري بالإيمان بما يقع به الأخبار والمفطور عليه كل شيء ممّا لا كسب له فيه من الوحي أيضاً، كالمولود يتلقى ثدي أمّه ذلك من أثر الوحي

الإلهيّ إليه كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فلولا ما فهمت من الله وحيه لما صدر منها ما صدر، ولهذا لا يتصوّر المخالف إذا كان الكلام وحياً فإن سلطانه أقوى من أن يقام ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [سورة القصص: الآية ٧] وكذا فعلت ولم تخالف مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ولم تخالف ولا تردّدت ولا حكمت عليها البشرية بأن إلقاءه في اليم في تابوت من أخطر الأشياء، فدلّ على أن الوحي أقوى سلطاناً في نفس الموحى إليه من طبعه الذي هو عين نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] وحبل الوريد من ذاته.

فيا أيها الوليّ إذا زعمت أن الله أوحى إليك فانظر في نفسك في التردّد أو المخالفة، فإن وجدت لذلك أثراً بتدبير أو تفصيل أو تفكّر فلست صاحب وحي، فإن حكم عليك وأعماك وأصمك وحال بين فكرك وتدبيرك وأمضى حكمه فيك فذلك هو الوحي وأنت عند ذلك صاحب وحي، وعلمت عند ذلك أن رفعتك وعلوّ منصبك أن تلحق بمن تقول إنه دونك من حيوان ونبات وجماد، فإن كل ما سوى مجموع الإنسان مفطور على العلم بالله إلاّ مجموع الإنسان والجان فإنه من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله كسائر ما سواهما من المخلوقات من ملك ونبات وحيوان وجماد، فما من شيء فيه من شعر وجلد ولحم وعصب ودم وروح ونفس وظفر وناب إلاّ وهو عالم بالله تعالىٰ بالفطرة بالوحي الذي تجلّى له فيه وهو من حيث مجموعيته، وما لجمعيته من الحكم جاهل بالله حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه فيعلم أن له صانعاً صنعه وخالقاً خلقه، فلو أسمعه الله نطق جلده أو يده أو لسانه أو رجله لسمعه ناطقاً بمعرفته بربّه مسبحاً لجلاله ومقدّساً ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] فالإنسان من حيث تفصيله عالم بالله، ومن حيث جملته جاهل بالله حتى يتعلم أي يعلم بما في تفصيله فهو العالم الجاهل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٧] فالإنسان من حيث تفصيله صاحب وحي، ومن حيث جملته لا يكون في كل وقت صاحب وحي.

السؤال السابع والخمسون: ما الفرق بين النبيين والمحدّثين؟ الجواب: التكليف، فإن النبوّة لا بدّ فيها من علم التكليف، ولا تكليف في حديث المحدثين جملة ورأساً، هذا إن أراد أنبياء الشرائع، فإن أراد أصحاب النبوّة المطلقة فالمحدثون أصحاب جزء منها، فالنبيّ الذي لا شرع له فيما يوحى إليه به هو رأس الأولياء وجامع المقامات مقامات ما تقضيه الأسماء الإلهية ممّا لا شرع فيه من شرائع أنبياء التشريع الذين يأخذون بوساطة الروح الأمين من عين الملك والمحدث ما له سوى الحديث وما ينتجه من الأحوال والأعمال والمقامات، فكل نبيّ محدث وما كل محدث نبيّ، وهؤلاء هم أنبياء الأولياء. وأما الأنبياء الذين لهم الشرائع فلا بدّ من تنزّل الأرواح على قلوبهم بالأمر والنهي، وما عدا ما ينزلون به من الأمر

والنهي مثل العلوم الإلهية والإخبارات عن الكوائن والأمور الغائبة فذلك خارج عن نبوّة الشرائع وهو من أحوال الأنبياء على العموم ويناله المحدث، فإن ظهر من أصحاب النبوّة المطلقة حكم من الأحكام الظاهرة من أنبياء الشرائع من قتل أو أخذ مال أو فعل من الأفعال يناقض حكم شرع الزمان المقرّر فاعلم أن هذا النبيّ الذي ما له شرع ليس ذلك من شرع نزل إليه وخوطب به، بل لا يزال تابعاً لرسول قد شرع له ما شرع، وإنما اتفق أنه أخبر باتباع شرع رسول قد شرع له ممّا لم شرع لرسول آخر، وحكمه في حق هذا الرسول يعارض حكم الرسول الآخر، فإذا اجتمع هذا الشخص الذي هو بهذه المثابة مع رسول من الرسل كالخضر مع موسىٰ عليه السلام فحكم في قتل الغلام بما حكم وأنكر عليه موسىٰ قتل نفس زكية في ظاهر الشرع بغير نفس ممّا لم يكن ذلك حكمه في شرعه. فقال له: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٤] أي ينكره شرعي، وقال له الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] يعني في كلّ ما جزى منه، فكان الخضر في حكمه على شرع رسول غير موسىٰ، فحكم بما حكم به ممّا يقتضيه شرع الرسول الذي اتبعه.

ومن شرع ذلك الرسول حكم الشخص بعلمه، فحكم بعلمه في الغلام أنه كافر فلم يكن حكم الخضر فيه من حيث أنه صاحب شرع منزّل، وإنما حكم فيه مثل حكم القاضي عندنا بشرع رسول الله ﷺ، فعلى هذا الحدّ تصدر الأحكام من أنبياء الأولياء. فإن قيل: هذا يجوز في زمان وجود الرسل واليوم فما ثم شرع إلاّ واحد فهل يتصوّر أن تحكم أنبياء الأولياء بما يخالف شرع محمد ﷺ؟ قلنا: لا نعم، فأما قولنا لا فإنه لا يجوز أن يحكم برأيه. وأما قولنا نعم فإنه يجوز للشافعيّ أن يحكم بما يخالف به حكم الحنفيّ وكلاهما شرع محمد ﷺ فإنه قرّر الحكمين فخالفت شرعه بشرعه، فإذا اتفق أن تخبر أنبياء الأولياء فيما يعلمهم الحق من أحكام شرع رسول الله ﷺ أو يشهدون الرسول ﷺ فيخبرهم بالحكم في أمر يرى خلافه أحمد والشافعيّ ومالك وأبو حنيفة لحديث رووه صحّ عندهم من طريق النقل فوقفت عليه أنبياء الأولياء وعلمت من طريقها الذي ذكرناه أن شرع محمد يخالف هذا الحكم وأن ذلك الحديث في نفس الأمر ليس بصحيح وجب عليهم إمضاء الحكم بخلافه ضرورة، كما يجب على صاحب النظر إذا لم يقم له دليل على صحة ذلك الحديث وقام لغيره دليل على صحته وكلاهما قد وفى في الاجتهاد حقّه، فيحرم على كلّ واحد من المجتهدين أن يخالف ما ثبت عنده وكلّ ذلك شرع واحد، فمثل هذا يظهر من أنبياء الأولياء بتعريف الله أنه شرع هذا الرسول فيتخيل الأجنبيّ فيه أنه يدّعي النبوّة وأنه ينسخ بذلك شرع رسول الله ﷺ فيكفره، وقد رأينا هذا كثيراً في زماننا وذقناه من علماء وقتنا فنحن نعذرهم لأنه ما قام عنده دليل صدق هذه الطائفة وهم مخاطبون بغلبة الظنون، وهؤلاء علماء بالأحكام غير ظانين بحمد الله، فلو وفوا النظر حقّه لسلموا له حاله كما يسلم الشافعيّ للمالكيّ حكمه ولا ينقضه إذا حكم به الحاكم، غير أنهم رضي الله عنهم لو فتحوا هذا الباب على نفوسهم لدخل الخلل في الدين من المدّعي صاحب الغرض فسدوه وقالوا إن الصادق من هؤلاء لا يضره سدنا هذا الباب

ونعم ما فعلوه. ونحن نسلم لهم ذلك ونصوبهم فيه ونحكم لهم بالأجر التام عند الله. ولكن إذا لم يقطعوا بأن ذلك مخطىء في مخالفتهم فإن قطعوا فلا عذر لهم فإن أقل الأحوال أن ينزلوهم منزلة أهل الكتاب لا نصدقهم ولا نكذبهم، فإنه ما دلّ لهم دليل على صدقهم ولا كذبهم، بل ينبغي أن يجروا عليهم الحكم الذي ثبت عندهم مع وجود التسليم لهم فيما ادعوه، فإن صدقوا فلهم، وإن كذبوا فعليهم، فعلى هذا تجري الأحكام من أنبياء الأولياء لا أنهم أرباب شرائع بل اتباع ولا بدّ، ولا سيما في هذا الزمان الذي ظهرت فيه دولة محمد ﷺ والمحدثون ليست لهم هذه الرتبة بل رتبتهم الحديث لا غير، فهم ناظرون في كلّ شيء، آخذون من عين كل شيء من كون كلّ شيء مظهر حق، غير أنهم لا يتعدون حدود الله جملة، فإن صدر منهم ما هو في الظاهر تعدّ لحدّ من حدود الله فذلك الحدّ هو بالنسبة إليك حدّ وبالنسبة إليه مباح لا معصية فيه وأنت لا تعلم وهو على بينة من ربّه في ذلك، فما أتى محرماً من هذه صفته فإنه ممّن قيل له اعمل ما شئت فما عمل إلاّ ما أبيح له عمله فإنه أمر لا على جهة الوعيد مثل قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٠] فهذا وعيد.

وإنما قولنا فيمن قيل له اعمل ما شئت فقد غفرت لك فعمل على كشف وتحقق وهذا ثابت في شرعنا بلا شك، فأهل الحديث أيضاً لهم في مثل هذا قدم ولكن ليس هم مخصوصين به بل يشاركهم فيه من ليس بمحدث من الأولياء، وقد عرفت صفة المحدثين فيما قبل وصفة النبيين فقف عند ذلك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

السؤال الثامن والخمسون: أين مكانهم منهم؟ الجواب: مكان التابع من المتبوع وهو المشي على الأثر، قال شيخنا محمد بن قائد: رأيت في دخولي عليه أثر قدم أمامي فغرت فقيل لي: هذه قدم نبيك فسكن ما بي. فاعلم أن هذه الدولة المحمدية جامعة لأقدام النبيين والمرسلين عليهم السلام، فأيّ وليّ رأى قدماً أمامه فتلك قدم النبيّ الذي هو له وارث.

وأما قدم محمد ﷺ فلا يطأ أثره أحد ﷺ كما لا يكون أحد على قلبه، فالقدم التي رآها محمد بن قائد أو يراها كلّ من يراها فتلك قدم النبيّ الذي هو له وارث، ولكن من حيث ما هو محمدي لا غير ولهذا قيل له: قدم نبيك ولم يقل له هذه قدم محمد ﷺ، فإن كان الشيخ فهم منه ما ذكرناه فهو من أهل الحديث والكمال، وإن كان فهم منه قدم محمد ﷺ فذلك صدع أصاب عين فهمه. ولهذا قال السائل: أين مكانهم منهم؟ ولم يقل منه، والمكان هنا يعني به المكانة.

وحكي عن عبد القادر الجيليّ أنه قال حين قيل له ما قاله هذا الشيخ كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة يعني الخلعة التي أعطى لأنه سئل عنه فقال: ما رأيته في الحضرة فقيل ذلك لعبد القادر فلذلك قال: كنت في المخدع وسمى النوالة وكان كما قال. وإنما قال في المخدع ولم يسم مكان صونه وعينه بهذا الاسم ليعلم بخداع الله محمد بن قائد حيث حكم بأنه رأى عبد القادر في الحضرة في معرض النفاسة عليه، فإن حضرة محمد بن قائد في هذه الواقعة هي حضرته التي تختص به من حيث معرفته بربه، لا حضرة الحق من حيث يعرفه

عبد القادر أو غيره من الأكابر، فستر عنه مقام عبد القادر خداعاً. فهم ذلك عبد القادر فقال: كنت في المخدع. وقوله: إن من عنده خرجت النوالة له يدل على أن عبد القادر كان شيخه في تلك الحضرة وعلى يديه استفادها وجهل ذلك محمد بن قائد، فإن الرجال في ذلك كانوا تحت قهر عبد القادر فيما يحكى لنا من أحواله وأحوالهم وكان يقول هذا عن نفسه فيسلم له حاله، فإن شاهده يشهد له بصدق دعواه فإنه كان صاحب حال مؤثرة ربانية مدة حياته لم يكن صاحب مقام، وما انتقل إلى حال أبي السعود وإن كان تلميذه إلا عند موته وهي الحال الكبرى، وكانت هذه الحال مستصحبة لأبي السعود طول حياته فكان عبداً محضاً لم تشب عبوديته ربوبية فاعلم ذلك.

ثم لتعلم أن مكان كلّ واحد من نبيه الذي هو وارثه إنما مكانه منه على الحال التي أثمر له طريقه. فإنه لا يرث أحد نبياً على الكمال، إذ لو ورثه على الكمال لكان هو رسولاً مثله أو نبيّ شريعة تخصه يأخذ عمن يأخذ عنه وليس الأمر كذلك، إلا أن الروح الذي يلقى على ذلك النبيّ تمتد منه رقيقة ملكية لقلب هذا الرجل الوارث في صورة حالة مشوبة في ظاهرها بصورة ذلك الملك، وتسمى تلك الروحانية باسم ذلك الملك وتخاطب هذا الوارث ويخاطبها هذا الوارث بقدر حاله، وينطلق على تلك الرقيقة اسم ذلك الروح، وربما بعض الورثة يتخيل أنه عين الروح الذي كان يلقى على ذلك النبيّ، وأنه الروح عينه والصور مختلفة، وليس الأمر كذلك، والخطاب من حيث الصورة لا من حيث الروح وتتعين المرتبة بالصورة، فمعرفة الإنسان بنفسه ومرتبته لا تعلم إلا من الصورة، ومن هنا يتخيل من لا تمكن له في المعارف الإلهية ذوقاً، أنه نبيّ أوقد نال درجة أنبياء الشرائع، ولهذا قال بعض السادة من رجال الله: جعلك الله محدثاً صوفياً ولا جعلك صوفياً محدثاً، فإن الغالب أن تكون بحكم الأصل المتقدم إلا أن يعصم الله، فمعرفة الكان الذي لنا من الأنبياء واجب علينا العلم به لئلا نكون ممن لبس عليه في ذلك ولا سيما والله يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] ولو كان رجلاً لظهر في صورة ملك للالتباس المطلوب الذي هو صورة عملهم، ليعلم أنه ما أتى عليهم إلا منهم، فما جنوا إلا ثمرة أعمالهم، هذا هو الحق.

السؤال التاسع والخمسون: أين سائر الأولياء؟ الجواب: في النور خلف حجاب السبحات الوجهية من الأنوار والظلم في نور ممتزج بينهما كنور الأسحار وهو السدفة. وأمّا المؤمنون فإنهم في النور العام المبطون في ظلم الحجب، ومنه تخلص الأولياء إلى هذا النور الممتزج والأكابر أحرقتهم أنوار السبحات، وخواص الأكابر أحرقهم نور البصر، فالأولياء لا يتجاوز علمهم الصفات الذاتية من حيث ما هي منسوبة إلى الحق الموصوف بها لا من حيث ما دلت عليها دلائل الآثار، فهم يعرفون العالم من الله ويعرفون الله بالله، ومن دونهم يعرفون الله من العالم، وأما العالم فلا يعرفه من نفسه إلا أكابر الرجال الذين لا يعرفون الأشياء أو

المعلومات إلا من نفوسها وأعيانها، فلا يتخذون دليلاً على الشيء أو المعلوم سوى نفس ذلك المعلوم وذلك لارتفاع المناسبات ولسريان الأحدية في كلّ معلوم، فكما أنه لا مناسبة بين الله وبين خلقه كذلك لا مناسبة بين أعيان العالم والمظاهر فلا يعرفون شيئاً بشيء ولا معلوماً بمعلوم غيره، وسائر الأولياء ما لهم هذه المرتبة، وكيف يعرف الشيء بغيره ولا يجتمع بالدليل والمدلول؟ فإن أحدهما إذا انتفى بوجود الآخر جهلت المناسبة المتخيلة، فذلك المدلول إنما عرفته حين ظهر لك بنفسه، وأما حين نظرك في الدليل على زعمك فلا علم لك إلا بذات الدليل لأن ذاته عرفتك بذاته لا بما جعلته دليلاً عليه، فإن المدلول في حين علمك بالدليل لست بعالم به، فهذا الذي جعل أكابر الرجال لا يتخذون أمر الأمر وإنما يتخذون كلّ أمر لنفسه وعينه، فيعلمون هؤلاء الله بالله والعالم بالعالم والأسماء بالأسماء، فلا فكر لهم في استنباط شيء كما لسائر الأولياء فلهم الشهود الدائم فأينية سائر الأولياء في الأدلة فلا يشهدون مدلولاً أبداً، وعلى هذا جرت أحكامهم، وأما أينيتهم في القيامة فهم الذين لا يخافون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] لأنهم ما لهم تبع وهم في أنفسهم آمنون، فتغبطهم الأنبياء في ذلك الموطن خاصة.

وأما أينيتهم في الكثيب يوم الزور الأعظم فلهم الكراسي عليها يقعدون والمنابر والأسرة والمراتب لغيرهم ولكن من حيث هم رسل وأنبياء ومؤمنون، وأما الأكابر في العلم بالله فإن لهم قوّة على التحوّل في رقايق لتحوّل التجلي في الصور، فيبعثون لكل تجل في صورة رقيقة صورية من ذواتهم تشاهد ما يشاهده أهل الجمع وهم في تلك الحال في قصورهم ينعمون في صورة أجسامهم الطبيعية ومع الله من حيث كونه إحدى الذات بحقايقهم، وفي الكثيب عند الرؤية برقايقهم المعنوية التي أوجدوها لصور التجلي ومن سواهم، فحالهم إذا كانوا في الجنان لا يكونون في الكثيب، وإذا كانوا في الكثيب لا يكونون في الجنان، فتفقدهم جواريهم وولدانهم، وأكابر القوم لا يفقدهم شيء من ملكهم فهؤلاء بأيديهم ملكوت ملكهم.

السؤال الستون: ما خوض الوقوف؟ الجواب: دخول بعضهم في بعض طلباً للتخلص مما هم فيه من شدة ذلك اليوم وكربه، فمنهم الخائض في طلب من يشفع له. ومنهم الخائض في طلب من يتكرم عليه لينقذه من هول ذلك اليوم. ومنهم الخائض في طلب من يشهد له ومنهم الخائض في طلب الخصم لطلب القصاص ومنهم الخائض ليختفي ويستتر من خصمائه. ومنهم الخائض ليستتر حياء من معارفه، وعلى هذا كان يعمل شيخنا أبو عمران موسى بن عمران الميرتلي قلت له يوماً: تقلل من معارفك؟ فقال: ربما لا أكون هناك بذاك فأستحي من معارفي، فإذا لم أر من أعرف هان عليّ بعض الحال. ومنهم الخائض ليعرف بمنزلته لما هو فيه من المكانة عند ربه ليغيظ بهم الكفار، وأمثال هذا هو خوض الوقوف إذا تأملت.

وأما الطائفة التي كانت تخوض في آيات الله وكانوا بها يستهزئون فإن الله يخوض بهم في غمرات أعمالهم كما كانوا في الدنيا في خوضهم يلعبون، يكونون في الآخرة في خوضهم

يحزنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ـ٣٢] فهذا خوضهم في الدنيا ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين ٣٣، ٣٤] الصورة بالصورة فهذا خوضهم في الوقوف قال تعالى يوصينا ويحذرنا ممن هذه صفته: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام: ٦٨] إنكم إذن مثلهم إذا أقمتم معهم وهم بهذه المثابة وإن لم تخض معهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنبكوت: ٥٦] فهؤلاء في الوقوف يخاض بهم حيث يكرهون كما خاضوا هنا حيث يكره الحق منهم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الحادي والستون: كيف صار أمره كلمح البصر؟ الجواب: الضمير في أمره يعود على الوقوف، فاعلم أن الكيفيات لاتنقال ولكن تقال بضرب من التشبيه فإن أمره واحدة أي كلمة واحدة مثل لمح البصر، فإن اللمحة الواحدة من البصر نعم من أحكام المرئيات من حيث الرائي إلى الفلك الأطلس جميع ما يحوي عليه ما أدركه البصر في تلك اللمحة من الذوات والأعراض القائمة بها من الأكوان والألوان وفي العبادات كل مصل والخلق كله مصل من حيث دعى يناجي ربه في الآن الواحد، كذلك أمره في الوقوف مع كون ذلك بالمقدار الزماني خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وهو يوم ذي المعارج، ويوم الرب من يوم ذي المعارج مثل نصف خمس الخمس، فالأيام وإن اختلفت مقاديرها وعدها اليوم الشمسي فإن أمر الله فيها مثل لمح البصر للإفهام والتوصيل، وربما هو في القله أقل من هذا المقدار، بل مقداره الزمان الفرد المتوهم الذي هو يوم الشأن، فالشأن بالنظر إلى الحق واحد منه، وبالنظر إلى قوابل العالم كله شؤون لولا الوجود حصرها لقلنا إنها لا نهاية لها، فانظر الحكم الواحد من الحاكم كيف تعدّد وعظم بحيث لا يمكن أن يحصره عدد من حيث العالم وإنما يحصيه من ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨]فكما صارت الخمسون ألف سنة كيوم واحد وفي يوم واحد كذلك صار أمره كلمح البصر، وسبب ذلك أن الذي يصدر منه الأمر لا يتقيد فهو في كل مأمور بحيث أمر، فينفذ الأمر بحكمه دفعة واحدة، وهذا إذا لم يبعد في المحدثات وجوده بهذه السعة، فما ظنك بالأمر الحق فإن الهواء حكمه في كل شيء من العالم الطبيعي أسرع من لمح البصر وهو واحد كالإنسان الواحد، وكذلك الروح الأمري في العقول وفي الأجسام الطبيعية، فمثل هذا لا يستبعده إلا من لا علم له بالأمور والحقائق، ولا سيما وإن أعاد الضمير في سؤاله من أمره على الضمير المذكور في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وهو الذي أراد والله أعلم، مع أنه يسوغ أن يعود على الوقوف وعلى الخوص، فإن الزمان الواحد يجمع الخائضين في خوضهم، والله الهادي من شاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

السؤال الثاني والستون: أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب؟ الجواب: سميت الساعة

ساعة لأنها تسعى إلينا بقطع هذه الأزمان لا بقطع المسافات وبقطع الأنفاس، فمن مات وصلت إليه ساعته وقامت قيامته إلى يوم الساعة الكبرى التي هي لساعات الأنفاس، كالسنة لمجموع الأيام التي تعينها الفصول باختلاف أحكامها، فأمر الساعة وشأنها في العالم أقرب من لمح البصر، فإن عين وصولها عين حكمها، وعين حكمها عين نفوذ الحكم في المحكوم عليهم، وعين نفوذه عين تمامه، وعين تمامه عين عمارة الدارين ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ولا يعرف هذا القرب إلا من عرف قدرة الله في وجود الخيال في العالم الطبيعيّ، وما يجده العالم به من الأمور الواسعة في النفس الفرد والطرفة ثم يرى أثر ذلك في الحس بعين الخيال فيعرف هذا القرب وتضاعف السنين في الزمن القليل من زمان الحياة الدنيا.

ومن وقف على حكاية الجوهريّ رأى عجباً وهو من هذا الباب. فإن قلت: وما حكاية الجوهري؟ قلنا: ذكر عن نفسه أنه خرج بالعجين من بيته إلى الفرن وكانت عليه جنابة فجاء إلى شط النيل ليغتسل فرأى وهو في الماء مثل ما يرى النائم كأنه في بغداد وقد تزوّج وأقام مع المرأة ست سنين وأولدها أولاداً غاب عني عددهم ثم ردّ إلى نفسه وهو في الماء ففرغ من غسله وخرج ولبس ثيابه وجاء إلى الفرن وأخذ الخبز وجاء إلى بيته وأخبر أهله بما أبصره في واقعته، فلما كان بعد أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى أنه تزوّجها في الواقعة تسأل عن داره فلما اجتمعت به عرفها وعرف الأولاد وما أنكرهم وقيل لها: متى تزوّج؟ فقالت: منذ ست سنين وهؤلاء أولاده مني، فخرج في الحس ما وقع في الخيال. وهذه من مسائل ذي النون المصريّ الستة التي تحيلها العقول، فلله قوى في العالم خلقها مختلفة الأحكام كاختلاف حكم العقل في العامة من حكم البصر من حكم السمع من حكم الطعم وغير ذلك من القوى التي في عامة الناس، فاختص الله أولياءه بقوى لها مثل هذه الأحكام فلا ينكرها إلا جاهل بما ينبغي للجناب الإلهيّ من الاقتدار، وفي معراج رسول الله ﷺ ما فيه كفاية في هذا الباب مع بعد هذه المسافات التي قطعها في الزمان القليل.

السؤال الثالث والستون: ما كلام الله تعالى لعامة أهل الوقوف؟ الجواب: يقول لهم ما جئتم به فيقع في أسماع السامعين ذلك مختلفاً باختلاف أحوالهم فتختلف أحوالهم بأسماعهم، بل تختلف أسماعهم بحسب أحوالهم في الموقف، ولا يحصل في سمع واحد منهم ما حصل في سمع الآخر، وهو السؤال عن النفس الذي قبض فيه، ولا يكون هذا الكلام إلا لأهل الوقوف خاصة الذين هم في هول ذلك اليوم. وأمّا المتصرّفون فيه كالأنبياء والرسل والدعاة إلى الله وكالمستريحين من أهل المنابر الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر وكالمصونين في سرادقات الجلال خلف حجاب الإنس فهؤلاء كلهم وأمثالهم ما هم من أهل الوقوف، فأهل الوقوف هم الذين ينتظرون حكم الله فيهم فيجيبونه عند هذا الكلام بما فهم كلّ واحد منهم.

السؤال الرابع والستون: ما كلامه للموحدين؟ الجواب: يقول لهم: فيماذا وحدتموني؟

وبماذا وحدتموني؟ وما الذي اقتضى لكم توحيدي؟ فإن كنتم وحدتموني في المظاهر فأنتم القائلون بالحلول، والقائلون بالحلول غير موحدين لأنه أثبت أمرين: حال ومحل، وإن كنتم وحدتموني في الذات دون الصفات والأفعال فما وحدتموني فإن العقول لا تبلغ إليها والخبر من عندي فما جاءكم بها، وإن كنتم وحدتموني في الألوهة بما تحمله من الصفات الفعلية والذاتية من كونها عيناً واحدة مختلفة النسب فبماذا وحدتموني؟ هل بعقولكم أو بي؟ وكيفما كان فما وحدتموني لأنّ وحدانيتي ما هي بتوحيد موحد لا بعقولكم ولابي، فإنّ توحيدكم إياي بي هو توحيدي لا توحيدكم وبعقولكم كيف يحكم علي بأمر من خلفته ونصبته، وبعد أن ادّعيتم توحيدي بأيّ وجه كان أو في أيّ وجه كان فما الذي اقتضى لكم توحيدي إن كان اقتضاه وجودكم فأنتم تحت حكم ما اقتضاه منكم فقد خرجتم عني فأين التوحيد؟ وإن كان اقتضاه أمري فأمري ما هو غيري، فعلى يدي من وصلكم إن رأيتموه مني فمن الذي رآه منكم وإن لم تروه مني فأين التوحيد يا أيها الموحدون؟ كيف يصح لكم هذا المقام وأنتم المظاهر لعيني وأنا الظاهر والظاهر يناقض الهوية فأين التوحيد؟ لا توحيد في المعلومات، فإنّ المعلومات أنا وأعيانكم والمحالات والنسب فلا توحيد في المعلومات، فإن قلتم في الوجود فلا توحيد فإن الوجود عين كل موجود، واختلاف المظاهر يدل على اختلاف وجود الظاهر، فنسبة عالم ما هي نسبة جاهل ولا نسبة متعلم فأين التوحيد؟ وما ثم إلا المعلومات أو الموجودات. فإن قلت: لا معلوم ولا مجهول ولا موجود ولا معدوم وهو عين التوحيد. قلنا: بنفس ما علمت أن في تقسيم المعلومات من يقبل هذا الوصف فقد دخل تحت قسم المعلومات فأين التوحيد؟ فيا أيها الموحدون استدركوا الغلط فما ثم إلا الله والكثرة في ثم وما هم سواه فأين التوحيد؟ فإن قلتم: التوحيد المطلوب في عين الكثرة. قلنا: فذلك توحيد الجمع فأين التوحيد؟ فإنّ التوحيد لا يضاف ولا يضاف إليه استعدوا أيها الموحدون للجواب عن هذا الكلام إذا وقع السؤال، فإن كان أهل الشرك لا يغفر لهم فبحقيقة ما نالوا ذلك لأنه لو غفر لهم ما قالوا بالشريك فشاهدوا الأمر على ما هو عليه. فإن قلت: فمن أين جاءهم الشقاء وهم بهذه المثابة وأن عدم المغفرة في حقهم ثناء عليهم؟ قلنا: لأنهم عينوا الشريك فأشقاهم توحيد التعيين فلو لم يعنيوا لسعدوا ولكن هم أرجى من الموحدين لدرجة العلم، جعلنا الله ممن وحده بتوحيد نفسه جلّ علاه.

السؤال الخامس والستون: ما كلامه للرسل؟ الجواب: ما قاله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] فآووا إلى ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فعلموا أنهم لما وجهوا ادعوا إلى الله تعالى أممهم ظاهراً وباطناً بدعوة واحدة، فلو كلفوا الظواهر لم يكن قولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ جواباً، ومن هنا لم يصح جميع فروع أحكام الشريعة من المنافق لأنه ما أجاب بباطنه لدعوته مثل ما أجاب بظاهره، وصحت فروع أحكام الشريعة من العاصي المؤمن بباطنه، فعلمنا أن المقصود للشرع الباطن ولكن بشرط مخصوص وهو أن يعم الإيمان جميع فروع الأحكام وأصولها، فإن آمن ببعض وكفر ببعض فلا يعتبر مثل ذلك الإيمان وهو الكافر

حقاً فيقول الله تعالى للرسل: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ إذا كان كلامه لهم في حق ما كلفهم من الدعوة إليه، فإن أراد السائل ما كلامه للرسل فيما يختص بذواتهم من كونم عبيداً مقرّبين فيكلمهم بما يكلم به المقرّبين من عباده، فكلامه للرسل المقرّبين ممن اعتقدتم القربة هل اعتقدتم أن اقترابكم إلينا أو إلى سعادتكم أو إلى معرفة ذواتكم أو إلى معرفتي، فإن اعتقدتم اقترابكم، إلينا فقد حددتموني وأنا لا حدّ لي، وهذا اللسان الذي أذكره في هذا الفصل إنما هو كلام الحق لمن دعا إلى الله على بصيرة كما قال: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] فهذا لسان من اتبعه في دعوته إلى الله نيابة عنه، فكأنه رسول الله ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة من حيث دعا الرسول لأنهم ورثة، وإنما قلنا هذا لأن كلامه للرسل لا يعرفه إلا الرسل ولا ذوق لنا فيه، ولو عرفنا به ما عرفناه، ولو عرفناه لكنا رسلاً مثلهم، ولاحظ لنا في رسالتهم ولا في نبوّتهم، وكلامنا لا يكون إلا عن ذوق.

فالجواب عن هذا السؤال: إذا أراد الرسل ترك الجواب فأردنا أن نفيد أصحابنا في أن نتكلم في كلامه تعالى للرسل الذين هم الورثة رسل رسل الله لما ادعوا إلى الله على بصيرة وشرك رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله على بصيرة بينه وبين من اتبعه، فاعلما من أين نتكلم وفيمن أتكلم وعمن نبين، ثم نرجع إلى ما كنا بسببيله فنقول: فيقول فقد حددتموني وأنا لا حدّ لي، فنقول: هذا الذي تقول لسان العلم وأنت خاطبتنا بلسان الإيمان فآمنا فقلت: من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً، فما حددناك إلا بحدك، فأنت حددت نفسك بنا وحددتنا بك، وإلا فمن أين لنا أن نحد ذواتنا؟ فكيف أن نحدك وجعلت الإيمان بما ذكرناه قربة إليك؟ فهذا كلامك ولسان الإيمان ونحن لا جراءة لنا على أن نقول ما قلته عن نفسك، فيقول: صدقتم هذا لسان الإيمان، فتقول طائفة منهم: اقتربنا إلى سعادتنا، فيقول: سعادتكم قائمة بكم وما برحت معكم في حال طلبكم القربة إليها فإن لم تعلموا ذلك فقد جهلتم وإن علمتموه فما صدقتم إذاً فلا قربة. فإن قالت طائفة: إنما اعتقدنا القربة إلى معرفة ذواتنا، فيقول لهم: الشيء لا يجهل نفسه لكنه لا يعرف أنه يعرف نفسه لأنّ معرفة الشهود تحجب عن معرفة المشهود فطلبكم القربة من معرفة ما هو معروف لا يصح. فإن قالت طائفة: ولا بدّ أن تقول: إنما اعتقدنا القربة من معرفتك، فيقول لهم: كيف يعرف من ليس كمثله شيء فلو كان شيئاً لجمعتهما الشيئية فيقع التماثل فيها إذا فلا شيئية له فليس هو شيئاً ولا هو لا شيء فإنّ لا شيء صفة المعدوم فيماثله المعدوم في أنه لا شيء وهو لا يماثل فليس مثله شيء وليس مثله لا شيء، ومن هو بهذه المثابة كيف يعرف؟ فبطل اقترابكم إلى معرفتي فبطل أن يكونوا من المقرّبين فيقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فيقول: أنتم رسل وحقيقة الرسول، أن يكون بين مرسل ومرسل إليه وهو حامل إليهم رسالة ليعلموا بحكم ما تقتضيه تلك الرسالة، فالرسول لما كانت مرتبته البينية كان أقرب من المرسل إليهم إلى الاسم الذي أرسله، وكان المرسل إليهم أقرب إلى الاسم القابل لما جاء به الرسول من الرسول فالكل من المقرّبين فإن لم يقبلوا الرسالة كان

الرسول من المقرّبين وكان المرسل إليهم غير متصفين بالقربة فكانوا من المبعدين.

السؤال السادس والستون: إلى أين يأوون يوم القيامة من العرصة؟ الجواب: إلى ساق العرش، ويوم القيامة له مواطن كثيرة، فالرسل يأوون يوم القيامة من العرصة في كلّ موطن إلى الموضع الذي يكون فيه تجلي الحكم الإلهيّ الذي يليق بذلك الموطن، فموطن للسؤال، وموطن للموازين، وموطن لأخذ الكتب، وموطن للصراط، وموطن للحوض فمواطن القيامة تكون الرسل فيها بين يدي الحق سبحانه كالوزعة بين يدي الملك، وأقربهم منزلة من هو أدنى من قاب قوسين وهو التقاء قطري الدائرة، ثم يأوون في السؤال العام إلى لا علم لنا، وفي السؤال الخاص بحسب ما يقتضيه ذلك السؤال من الجواب، وللحق سؤال في كل عرصة من عرصات القيامة فيأوون إلى الاسم الذي يتضمن الجواب عن ذلك السؤال الخاص.

السؤال السابع والستون: كيف مراتب الأنبياء والأولياء يوم الزيارة؟ الجواب: أن الناس إذا جمعهم الله يوم الزيارة في جنة عدن على كثيب المسك الأبيض نصب لهم منابر وأسرة وكراسي ومراتب. فالأنبياء على رتبتين: أنبياء شرائع وأنبياء أتباع، فأنبياء الشرائع في الرتبة الثانية من الرسل، والأنبياء الأتباع في الرتبة الثالثة، والرتبة الثالثة تنقسم قسمين: قسم يسمى أنبياء، وقسم يسمى أولياء، والرتبة للأولياء بالاسم العام، فإذا كان يوم الزيارة فكل نبيّ أخذ معرفة ربه من ربه إيماناً لم يشبها بنظر فكريّ فإنه يشاهد ربه بعين إيمانه، والوليّ التابع له في إيمانه بربه يراه بمرآة نبيه، فإن كان هذا الوليّ حصل معرفة به بنظره واتخذ ذلك قربة من حيث إيمانه فله يوم الزيارة رؤيتان: رؤية علم ورؤية إيمان، وكذلك إن كان النبيّ له في معرفته بربه نظر فكريّ له رؤيتان: رؤية علم ورؤية إيمان، فإن كان الوليّ من أولياء الفترات ولم يحصل له في معرفته بربه من المعارف الإلهية التي جاءت بها الرسل وكانت معرفتهم بربهم إمّا عن نظر وإمّا عن تجل إلهيّ لقلبه أو كلاهما فمثل هؤلاء يكونون بما هم أهل نظر في مرتبة أهل النظر في الرؤية، وإن كانت معرفتهم عن كشف إلٰهيّ فإن لهؤلاء صفاً على حدة يتميزون به عن سائر الخلق، والجامع لهذا الباب أن الرؤية يوم الزيارة تابعة للاعتقادات في الدنيا، فمن اعتقد في ربه ما أعطاه النظر وما أعطاه الكشف وما أعطاه تقليد رسوله، فإنه يرى ربه في صورة وجه كل اعتقاد ربط عليه إلا أنه في تقليد نبيه يراه بصورة نبيه من حيث ما أعلمه ذلك الرسول مما أوحى به إليه في معرفته بربه، فلمثل هذا ثلاث تجليات بثلاثة أعين في الآن الواحد، وكذلك حكم صاحب النظر وحده، أو صاحب الكشف وحده، أو صاحب التقليد وحده، فتتميز مراتب الأولياء الأتباع في الزيارة بتقديم الأنبياء عليهم، والطبقتان اللتان ليستا بأنبياء ولا أتباع فهم أولياء الله لا يحكم عليهم مقام يتميزون عن الجميع بالنسب الصحيح إلى ربهم، غير أن أصحاب النظر منهم في الرتبة دون أصحاب الكشف، فبين الحق وبينهم في الرؤية حجاب فكرهم، كلما أرادوا أن يرفعوا ذلك الحجاب لم يستطيعوا، كأتباع الأنبياء كلما هموا برفع حجب الأنبياء عنهم حتى يروه دون هذه الواسطة لم يستطيعوا ذلك، فلا تكون الرؤية الخالصة من الشوب إلا للأنبياء الرسل أهل الشرائع ولأهل الكشف خاصة، ومن

حصل له هذا المقام مع كونه تابعاً أو صاحب نظر جمع له على قدر ما عنده ولو كان على ألف طريق.

وأمّا الرجال الذين صوّبوا اعتقاد كل معتقد بما وصله إليه وعلمه وقرّره فإنه يوم الزيارة يرى ربّه بعين كل اعتقاد، فالناصح نفسه ينبغي له أن يبحث في دنياه على جميع المقالات في ذلك ويعلم من أي أثبت كل واحد ذو مقالة مقالته، فإذا ثبت عنده من وجهها الخاص بها الذي به صحّت عنده وقال بها في حق ذلك المعتقد ولم ينكرها ولا ردّها، فإنه يجني ثمرتها يوم الزيارة، كانت تلك العقيدة ما كانت، وهذا هو العلم الإلهي الواسع، والأصل في صحة ما ذكرناه أن كل ناظر في الله تحت حكم اسم من أسماء الله، فذلك الاسم هو المتجلّي له وهو المعطي له ذلك الاعتقاد بتجلّيه له من حيث لا يشعر، والأسماء الإلهية كلها نسبتها إلى الحق صحيحة، فرؤيته في كل اعتقاد مع الاختلاف صحيحة ليس فيها من الخطأ شيء، هذا يعطيه الكشف الأتم فلم يخرج عن الله نظر ناظر ولا يصحّ أن يخرج، وإنما الناس حجبوا عن الحق بالحق لوضوح الحق، فهذه الطائفة التي هي بهذه المثابة من العلم بالله صف يوم الزيارة بمعزل إذا انصرفوا من الزيارة يتخيّل كل صاحب اعتقاد أنه منهم لأنه يرى صورة اعتقاده فيها كصورته، فهو محبوب لجميع الطوائف من يكون بهذه الصفة، وكذلك كان في الدنيا، وهذا القول الذي ذكرناه لا يعرفه إلاّ الفحول من أهل الكشف والوجود، وأما أصحاب النظر العقلي فلا يشمّون منه رائحة، فاجعل بالك لما ذكرناه واعمل عليه تعطي الألوهية حقّها وتكون ممّن أنصف ربّه في العلم به، فإن الله يتعالىٰ أن يدخل تحت التقييد أو تضبطه صورة دون غيرها، ومن هنا تعرف عموم السعادة لجميع خلق الله واتساع الرحمة التي وسعت كل شيء. انتهى الجزء الخامس والثمانون.

(الجزء السادس والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثامن والستون: ما حظوظ الأنبياء من النظر إليه؟ الجواب: لا أدري فإني لست بنبيّ، فذوق الأنبياء لا يعلمه سواهم إن أراد الأنبياء الذين خصّهم الله بالتشريع العام والخاص بهم، فإن أراد أنبياء الأولياء فحظّهم منه على قدر ما عندهم من وجوه الاعتقادات في الله، فإن حصل على الجميع فحظّه ما للجميع فهو في النعيم العام فيلتذّ بلذّة كل معتقد فما أعظمها من لذّة، وإن حصل على البعض فلذاته بحسب ما حصل له، وإن انفرد بأمر واحد فحظّه ما انفرد به من غير مزيد، فافهم ما ذكرناه.

السؤال التاسع والستون: ما حظوظ المحدثين من النظر إليه؟ الجواب: الحجاب الأقرب، فإذا شاهد ربّه حصل لهم في المشاهدة من الحظ مثل ما يحصل لهم من الكلام، إلاّ أن المحدثين يتميزون في الرؤية عن سائر الخلق بأن التجلّي يتنوّع عليهم في المشهد الواحد وسائر الخلق ليس لهم هذا المقام فإنه مخصوص بالمحدثين.

السؤال السبعون: ما حظوظ سائر الأولياء من النظر إليه؟ الجواب: الأولياء على مراتب، فتختلف حظوظهم باختلاف مراتبهم، فوليّ حظّه من النظر إليه لذة عقلية، ووليّ حظّه من ذلك لذّة نفسية، ووليّ حظه من ذلك لذة حسّيّة، ووليّ حظه من ذلك لذّة خيالية، ووليّ حظّه من ذلك لذة مكيفة، ووليّ حظّه من ذلك لذة غير مكيفة، ووليّ حظّه من ذلك لذة ينقال تكييفها، ووليّ حظّه من ذلك لذّة لا ينقال تكييفها، فهم درجات عند الله كما كانوا في الدنيا كما قال تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٣].

السؤال الحادي والسبعون: ما حظوظ العامّة من النظر إليه؟ الجواب: حظوظ العامة من النظر إليه على قدر ما فهموه ممّن قلّدوه من العلماء على طبقاتهم، فمنهم من ألقى إليه عالمه ما عنده. ومنهم من ألقى إليه عالمه على قدر ما علم من عقله وقبوله، فإن الفطرة مختلفة متفاضلة بحسب ما ألقى الله عندها فإنها أقسام أصلها المزاج الذي ركبه الله عليه وهو السبب في اختلاف نظر العلماء بأفكارهم في المعقولات، فيكون حظّهم في لذّة النظر حظّهم فيما تخيّل لهم، فالعامة حظوظهم خيالية لا يقدرون على التجريد عن الموادّ في كل ما يلتذون به من المعاني في الدنيا والبرزخ والآخرة، بل قليل من العلماء من يتصوّر التجريد الكليّ عن الموادّ، ولهذا أكثر الشريعة جاءت على فهم العامة وتأتي فيها تلويحات للخاصة مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠].

السؤال الثاني والسبعون: أن الرجل منهم ينصرف بحظه من ربه فيذهل أهل الجنان عن نعيمهم اشتغالاً بالنظر إليه. الجواب: ذلك للباس الرائي صورة ما رأى، وسبب ذلك أنّ المقام عظيم في قلب كل طائفة وأنه أعظم ممّا هم فيه من نعيم الأكوان في الجنان، فإذا دعوا إلى الزيارة وبقي الأزواج الجنانيون من الحور والولدان وأشجار الجنان وأنهارها وجميع ما فيها ممّا يتنعم به من الطيور والمراكب وغير ذلك والكل حيوان فإنها الدار الحيوان، فإذا دعي صاحب المنزل ذكراً كان أو أنثى من الثقلين بقي أهل ذلك المنزل مرتقبين ما يأتون به إليهم من الخلع الإلهية التي أورثهم النظر إليه وبأي صورة يرجعون إليهم من ذلك المقام الأعظم إذ كان ذلك مشاهدة الملك، فإذا وردوا عليهم من الزيارة إذا قال الجليل لملائكته: ردّوهم إلى قصورهم وقد غشيهم من نور الرؤية ما غشاهم ممّا لا مناسبة بين ذلك وبين الجمال والبهاء الذي كانوا فيه قبل الزيارة مع تعظيم المقام الذي مشوا إليه في قلوب أهل المنزل ثم إنهم إذا رجعوا إليهم بصفة ما يشاهدونه في الرؤية أشرق الجنان بأنوارهم على مقدارهم بصورة ما رأوه، فيجدون من الزيارة ما لم يكن عندهم ولا كانوا عليه فهذا هو السبب في ذهولهم، وحظ كل شخص من ربه على مقدار علمه وعقده في درجات العقائد واختلافاتها وكثرتها وقلتها، كما قد تقرر قبل في هذه الفصول، فاعلم ذلك والله الهادي، وفي سوق الجنة علم ما أشرنا إليه.

السؤال الثالث والسبعون: ما المقام المحمود؟ الجواب: هو الذي يرجع إليه عواقب

المقامات كلها، وإليه تنظر جميع الأسماء الإلهية المختصة بالمقامات وهو لرسول الله ﷺ، ويظهر ذلك لعموم الخلق يوم القيامة، وبهذا صحّت له السيادة على جميع الخلق يوم العرض. قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وكان قد أقيم فيه آدم صلّى الله عليه وسلم لما سجدت له الملائكة، فإن ذلك المقام اقتضى له ذلك في الدنيا وهو لمحمد ﷺ في الآخرة وهو كمال الحضرة الإلهية، وإنما ظهر به أوّلاً أبو البشر لكونه كان يتضمن جسده بشرية محمد ﷺ وهو الأب الأعظم في الجسمية والمقرّب عند الله وأول هذه النشأة الترابية الإنسانية، فظهرت فيه المقامات كلها حتى المخالفة إذ كان جامعاً للقبضتين: قبضة الوفاق وقبضة الخلاف، فما تحرّك من آدم لمخالفة النهي إلاّ النسمة المجبولة على المخالفة، فكانت مخالفته نهي الله من تحرّك تلك النسمة التي كان يحملها في ظهره فإن المقام يقتضي له ذلك. وسألت شيخنا أبا العباس عن ذلك فقال: ما عصى من آدم عليه السلام إلاّ ما كان من أولاده المخالفين في ظهره، وكانت العاقبة لمحمد ﷺ في الدار الآخرة فظهر في المقام المحمود ومنه يفتح باب الشفاعات، فأوّل شفاعة يشفعها عند الله تعالىٰ في حق من له أهلية الشفاعة من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن وحيوان ونبات وجماد، فيشفع رسول الله ﷺ عند ربّه لهؤلاء أن يشفعوا، فكان محموداً لكل لسان وبكل كلام، فله أوّل الشفاعة ووسطها وآخرها، يقول الله: شفعت الملائكة وشفع النبيّون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، فيتقضي سياق الكلام أن يكون أرحم الراحمين يشفع أيضاً فلا بدّ ممّن يشفع عنده وما ثم إلاّ الله.

فاعلم أن الله يشفع من حيث اسماؤه فيشفع اسمه أرحم الراحمين عند اسمه القهّار والشديد العقاب ليرفع عقوبته عن هؤلاء الطوائف، فيخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقد نبّه الله تعالىٰ على هذا المقام فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فالمتقي إنما هو جليس الاسم الإلهيّ الذي يقع منه الخوف في قلوب العباد، فسمّى جليسه متقياً منه فيحشره الله من هذا الاسم إلى الاسم الإلهيّ الذي يعطيه الأمان ممّا كان خائفاً منه وهو الرحمن فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي يأمنون ممّا كانوا يخافون منه، ولهذا يقول في الشفاعة: وبقي أرحم الراحمين، فبهذه النسبة تنسب الشفاعة إلى الحق من الحق من حيث آثار أسمائه، وهذا هو مأخذ العارفين من الأولياء، فلا يجمع المحامد يوم القيامة كلها إلاّ محمد ﷺ، فهذا الذي عبّر عنه بالمقام المحمود، قال ﷺ في هذا المقام: «**فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ**» وهذا يدلك أن علوم الأنبياء والأولياء أذواق لا عن فكر ونظر، فإن الموطن يقتضي هنالك بآثاره أسماء إلهية يحمد الله بها ما يقتضيه موطن الدنيا فلهذا قال: لا أعلمها الآن، وهذا المقام هو الوسيلة لأن منه يتوصل إلى الله فيما توجّه فيه من فتح باب الشفاعة وهو شفاعته في الجميع، ألا تراه ﷺ يقول في الوسيلة: «**إِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيهِ الشَّفَاعَةُ**» فجعل الشفاعة ثواب السائل ولهذا سمّى المقام المحمود الوسيلة، وكان ثوابهم في هذا السؤال أن يشفعوا، وهذا هو منصب إلهيّ جامع من عين ملك الملك، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فكان المرجع إليه، فكذلك ترجع المقامات كلها والأسماء إلى هذا المقام المحمود. قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**».

السؤال الرابع والسبعون: بأيّ شيء ناله؟ الجواب: قال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَاسْتَعْجَلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» لعلمه بموطن الآخرة أكثر من علم غيره من الأنبياء. فاعلم أنه لما كان المقام المحمود إليه ترجع المقامات كلها وهو الجامع لها لم يصحّ أن يكون صاحبه إلاً من أوتي جوامع الكلم لأنّ المحامد من صفة الكلام، ولما كان بعثه عاماً كانت شريعته جامعة جميع الشرائع، فشريعته تتضمن جميع الأعمال كلها التي تصحّ أن تشرع.

واعلم أن جنات الأعمال ما بين الثمانين إلى السبعين لا تزيد ولا تنقص، والإيمان بضع وسبعون باباً أدنى ذلك إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعه قول: لا إله إلاّ الله، قال تعالىٰ في حق العاملين: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] فلم يحجر بهذا لمن عمل بكل عمل، فإنّ الإنسان في الدنيا أي عمل عمله من الأعمال أعمال الإيمان لا يحجر عليه إذا شاء عمله، فلما ظهر ﷺ بجميع شعب الإيمان كلها التي هي بعدد الجنات العملية إمّا بالفعل وإمّا بالدلالة عليها فإنه الذي سنّها لأمّته فله أجر من عمل بها، ولا يخلو واحد من الأمّة أن يعمل بواحدة منها فهي في ميزانه ﷺ من حيث العمل بها فيتبوّأ من الجنة حيث يشاء، وهذا لا يصلح إلاّ لمحمد ﷺ فإنه عنه ظهرت السنن الإلهية، فبهذا نال المقام المحمود وبجوامع الكلم وبالبعثة العامّة، فإنه بالعناية الأخروية صحّت له هذه المقامات في الدنيا، وباتصافه بهذه الأحوال في الدنيا نال تلك المقامات الأخروية، فهو دور بديع مختلف الوجوه حتى يصحّ الوجود عنه.

السؤال الخامس والسبعون: كم بين حظ محمد ﷺ وحظوظ الأنبياء عليهم السلام؟ الجواب: أما بينه وبين الجميع فحظ واحد وهو عين الجمعية لما تفرّق فيهم، وأما بينه وبين كل واحد منهم فثمانية وسبعون حظاً ومقاماً إلاّ آدم فإنه ما بينه وبين رسول الله صلّى الله وسلّم عليهما إلاّ ما بين الظاهر والباطن، فكان في الدنيا محمد ﷺ باطن آدم عليه السلام، وآدم عليه السلام ظاهر محمد ﷺ، وبهما كان الظاهر والباطن، وهو في الآخرة آدم عليه السلام باطن محمد ﷺ، ومحمد ﷺ ظاهر آدم، وبهما يكون الظاهر والباطن في الآخرة، فهذا بين حظ محمد ﷺ وبين حظوظ الأنبياء عليهم السلام، وأكثر أصحابنا يمنعون معرفة التوقيت في ذلك وهو غلط منهم، وفي هذا الفصل تفصيل عظيم تبلغ فصول التفصيل فيه إلى مائة ألف تفصيل وأربعة وعشرين ألف تفصيل بعدد الأنبياء عليهم السلام، لأنه يحتاج إلى تعيين كل نبيّ ومعرفة ما بين حظ محمد ﷺ وبين ذلك النبيّ، والحظوظ محصورة من حيث الأعمال في تسعة وسبعين، وقد يكون للنبيّ من ذلك أمر واحد، ولآخر أمران، ولآخر عشر العدد وتسعه وثمنه وأقل من ذلك وأكثر، والمجموع لا يكون إلاّ لرسول الله ﷺ ولهذا لم يبعث بعثاً عاماً

سوى محمد ﷺ وما سواه فبعثه خاص ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨].

السؤال السادس والسبعون: ما لواء الحمد؟ الجواب: لواء الحمد هو حمد الحمد وهو أتمّ المحامد وأسناها وأعلاها مرتبة. لما كان اللواء يجتمع إليه الناس لأنه علامة على مرتبة الملك ووجود الملك كذلك حمد المحامد تجتمع إليه المحامد كلها فإنه الحمد الصحيح الذي لا يدخله احتمال ولا يدخل فيه شك، ولا ريب أنه حمد لأنه لذاته يدل فهو لواء في نفسه، ألا ترى لو قلت في شخص إنه كريم أو يقول عن نفسه ذلك الشخص إنه كريم يمكن أن يصدق هذا الثناء ويمكن أن لا يصدق، فإذا وجد العطاء من ذلك الشخص بطريق الامتنان والإحسان شهد العطاء بذاته بكرم المعطي فلا يدخل في ذلك احتمال، فهذا معنى حمد الحمد فهو المعبر عنه بلواء الحمد، وسمّي لواء لأنه يلتوي على جميع المحامد فلا يخرج عنه حمد لأنّ به يقع الحمد من كل حامد وهو عاقبة العاقبة فافهم، ولما كان يجمع ألوان المحامد كلها لهذا عمّ ظلّه جميع الحامدين.

قال ﷺ: «**آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» وإنما قال: فمن دونه لأنّ الحمد لا يكون إلاّ بالأسماء وآدم عالم بجميع الأسماء كلها فلم يبق إلاّ أن يكون من هناك تحته ودونه في الرتبة لأنه لا بدّ أن يكون مثنياً باسم ما من تلك الأسماء، ولما كانت الدولة في الآخرة لمحمد ﷺ المؤتى جوامع الكلم وهو الأصل فإنه ﷺ أعلم بمقامه فعلمه وآدم بين الماء والطين لم يكن بعد، فكان آدم لما علمه الله الأسماء في المقام الثاني من مقام محمد ﷺ فكان قد تقدّم لمحمد ﷺ علمه بجوامع الكلم والأسماء كلها من الكلم، ولم تكن في الظاهر لمحمد ﷺ عين فتظهر بالأسماء لأنه صاحبها، فظهر ذلك في أوّل موجود من البشر وهو آدم، فكان هو صاحب اللواء في الملائكة بحكم النيابة عن محمد ﷺ لأنه تقدّم عليه بوجود الطينة، فمتى ظهر محمد ﷺ كان أحق بولايته ولوائه، فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمان آدم فهم في الآخرة تحته، فتظهر في هذه المرتبة خلافة رسول الله ﷺ على الجميع.

السؤال السابع والسبعون: بأيّ شيء يثني على ربّه حتى يستوجب لواء الحمد؟ الجواب: بالقرآن وهو الجامع للمحامد كلها ولهذا سمّي قرآناً أي جامعاً، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة: ٢ ـ ٤] وما أنزلت على أحد قبله، ولا ينبغي أن تنزل إلاّ على من له هذا المقام، فإنه سبحانه لا ينبغي أن يحمد إلاّ بما يشرع أن يحمد به من حيث ما شرعه لا من حيث ما تطلبه الصفة الحمدية من الكمال فذلك هو الثناء الإلهيّ، ولو حمد بما تعطيه الصفة لكان حمداً عرفياً عقلياً ولا ينبغي مثل هذا الحمد لجلاله.

السؤال الثامن والسبعون: ماذا يقدم إلى ربّه من العبودية؟ الجواب: العبودية وهو انتساب العبد إليه، ثم بعد ذلك تكون العبودية، وهو انتسابه إلى المظهر الإلهيّ. فبالعبودة

يمتثل الأمر دون مخالفة، وهو إذا يقول له﴿كُن فَيَكُونُ﴾ من غير تردّد، فإنه ما ثم إلاّ العين الثابتة القابلة بذاتها للتكوين، فإذا حصلت مظهراً وقيل لها افعل أو لا تفعل فإن خالفت فمن كونها مظهراً، وإن امتثلت ولم تتوقف فمن حيث عينها: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فبهذه العبودية يتقدّم إلى الله في ذلك اليوم، ألا تراه يسجد من غير أن يؤمر بالسجود؟ لكن السجود في ذلك اليوم هو المأمور بالتكوين ولم يكن له محل إلاّ عين محمد ﷺ، فتكوّن السجود في ذاته لأمر الحق له بتكوينه، فسجد به محمد ﷺ من غير أمر إلهيّ ورد عليه بالسجود فيقال له: «ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع»، ثم بعد ذلك في موطن آخر يؤمر الخلق بالسجود ليتميز المخلص من غير المخلص فذلك سجود العبودية، فالعارفون بالله في هذه الدار يعبدون ربهم من حيث العبودة فما لهم نسبة إلاّ إليه سبحانه، ومن سواهم فإنهم ينسبون إلى العبودية فيقال: قد قاموا بين يديه في مقام العبودية، فهذا الذي يقدّمه من العبودية إلى ربه وكل محقق بهذه المثابة يوم القيامة.

السؤال التاسع والسبعون: بأيّ شيء يختمه حتى يناوله مفاتيح الكرم؟ الجواب: يختمه بالعبودية وهو انتسابه إلى العبودة كما قرّرنا وهي الدرجة الثانية، فإنّ هذا المقام ما هو سوى درجتين: درجة العبودة وهي العظمى المقدّمة، ودرجة العبودية وهي الختام لأنه ما أمر بما يقتضيه أمر العبودة إلاّ بعد وجوده، فأمر ونهى بوساطة هذا التركيب، فأطاع وعصى وأناب وآمن وكفر ووحّد وأشرك وصدّق وكذّب، ولما وفى حق الدرجة الثانية بما تستحقه العبودية من امتثال أوامر سيده ونواهيه ناوله مفاتح الكرم برد ما قدّم إليه.

السؤال الثمانون: ما مفاتيح الكرم؟ الجواب: سؤالات السائلين منّا ومنه وبنا وبه، فأما منّا وبنا فسؤال ذاتيّ لا يمكن الانفكاك عنه، وصورة مفتاح الكرم في مثل هذا وقوفك على علمه بأنه بهذه المثابة وغيرك ممّن هو مثلك يجهله ولا يعرفه، فتكرّم عليك بأن عرّفك كيف أنت وما تستحقه ذاتك أن توفي به بما لا يمكن انفكاكها عنه، وأما منه وبه فإن سؤال السائل بما هو عارض له أي عرض له ذلك بعد تكوينه، وذلك أنه لما كان مظهراً للحق وكان الحق منه هو الظاهر فسأل من جعله مظهراً بلسان الظاهر فيه، فهذا سؤال عارض عرض له بعد أن لم يكن، فعبّر عن مثل هذا السؤال بمفتاح الكرم أي من كرم الله تعالىٰ إن سأل نفسه بنفسه وأضاف ذلك إلى عبده فهو بمنزلة ما هو الأمر عليه بأنه يخلق في عباده طاعته ويثني عليهم بأنهم أطاعوا الله ورسوله وما بأيديهم من الطاعة شيء غير أنهم محل لها.

سأل إبليس الاجتماع بمحمد ﷺ فلما أذن له قيل له اصدقه وحفّت به الملائكة وهو في مقام الصغار والذلّة بين يدي محمد ﷺ فقال له: يا محمد إن الله خلقك للهداية وما بيدك من الهداية شيء، وخلقني للغواية وما بيدي من الغواية شيء فصدقه فصدّقه. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ثم أثنى مع هذا عليهم فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢] يا ليت شعري ومن خلق التوبة فيهم والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفظ لحدود الله إلاَّ الله؟ فمن كرمه أنه أثنى عليه بخلق هذه الصفات والأفعال فيهم ومنهم، ثم أثنى عليه بأن أضاف ذلك كله إليهم إذ كانوا محلاً لهذه الصفات المحمودة شرعاً، أليس هذا كله مفاتيح الكرم؟ فإنه يفتح بها من العطايا الإلهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] يا ليت شعري ومن أقامهم من المضاجع حين نوم غيرهم إلاَّ هو؟ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] يا ليت شعري ومن أنطق ألسنتهم بالدعاء ومن خوّفهم وطمعهم إلاَّ هو؟ أترى ذلك من نفوسهم؟ لا والله إلاَّ من مفاتيح كرمه فتح بها عليهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣] فممّا رزقهم التجافي عن المضاجع وعن دار الغرور، وممّا رزقهم الدعاء والابتهال، وممّا رزقهم الخوف منه والطمع فيه، فأنفقوا ذلك كله عليه فقبله منهم، فلا تعلم نفس عالمة ما أخفى لهم أي لهؤلاء الذين هم بهذه المثابة من قرّة أعين ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٤] فكانت هذه الأعمال عين مفاتيح الكرم لمشاهدة ما أخفى لهم فيهم، وفي هذه الأعمال من قرّة أعين، فكلما هو في خزائن الكرم فإن مفاتيحه تتضمنه فهو فيها مجمل وهو في الخزائن مفصل، فإذا فتح بالأعمال تميزت الرتب وعرفت النسب وجاءت كل حقيقة تطلب حقّها وكل علم يطلب معلومه.

السؤال الحادي والثمانون: على من توزع عطايا ربنا؟ الجواب: على كل حسن السيرة من الولاة وكل شخص وال بالولاية العامّة وهي تولية القلب على القوىٰ المعنوية والحسيّة في نفسه، والولاية كل من له ولاية خارجة عن نفسه من أهل وولد ومملوك وملك، فتوزع العطايا على قدر الولاية وقدر ما عاملهم به من حسن السيرة فيهم، فإن كان الوالي من العلماء بالله الذين يكون الحق سمعهم وبصرهم فليس له حظ في هذه العطايا فإنها عطايا غني لفقراء، وإنما يعطي من هذه صفته عطاء غنيّ لغنيّ ظاهر في مظهر فقير لما أعطى عن فقر ذاتيّ فأخذ هذا المعطي له من الاسم الله لا من الاسم الربّ، فما أعظم الغفلة على قلوب العباد، هيهات متى تبلغ البشر درجة من لا يوصف بالغفلة وهم الملأ الأعلى الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون في غير ليل ولا نهار، يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وكفى بالبشرية نقصاً.

واعلم أن العطايا تختلف باختلاف المستحقين، فمنهم من يكون عطاؤه هو، ومنهم من يكون عطاؤه معرفته بنفسه، ومنهم من يكون عطاؤه ما هو منه، فإن كان المستحق يقول بالاستحقاق الذاتيّ فلا يلزمه إلاَّ شكر إيجاد العين حيث كان مظهراً له جلّ وتعالىٰ، وإن كان يقول بالاستحقاق العرضيّ وهو يرى أنه تعالىٰ جعل له استحقاقاً فهذا يتضاعف عليه الشكر فإنه دون الأوّل في المرتبة، وإن كان المستحق يرى الاستحقاق للظاهر في مظهر ما من حيث ما هو ظاهر لذلك المظهر ولا يرى أن عينه تستحق شيئاً فهذا لا يجب عليه شكر إلاَّ إن أوجبه

على نفسه كإيجاب الحق عن نفسه في مثل قوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢] فتتوزع العطايا على مقادير من توزع عليه في العلم والعمل والحال والزمان والمكان والقصد وملازمة العمل ومغبته ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] قال فرعون لموسىٰ وهرون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] وهو الذي يستحقه، فالرب هو القاسم العطايا.

السؤال الثاني والثمانون: كم أجزاء النبوّة؟ الجواب: أجزاء النبوّة على قدر آي الكتب المنزّلة والصحف والأخبار الإلهية من العدد الموضوع في العالم من آدم إلى آخر نبيّ يموت ممّا وصل إلينا وممّا لم يصل، على أنّ القرآن يجمع ذلك كله، فإنّ النبيّ ﷺ يقول فيمن حفظ القرآن أنّ النبوّة أدرجت بين جنبيه، فهي وإن كانت مجموعة في القرآن فهي مفصلة معينة في آي الكتب المنزّلة مفسرة في الصحف متميزة في الأخبار الإلهية الخارجة عن قبيل الصحف والكتب، ويجمع النبوّة كلها أمّ الكتاب ومفتاحها بسم الله الرحمن الرحيم، فالنبوّة سارية إلى يوم القيامة في الخلق وإن كان التشريع قد انقطع فالتشريع جزء من أجزاء النبوّة، فإنه يستحيل أن ينقطع خبر الله وأخباره من العالم، إذ لو انقطع لم يبق للعالم غذاء يتغذّى به في بقاء وجوده ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وقد أخبر الله أنه ما من شيء يريد إيجاده إلاّ يقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذه كلمات الله لا تنقطع، وهي الغذاء العام لجميع الموجودات، فهذا جزء واحد من أجزاء النبوّة لا ينفد فأين أنت من باقي الأجزاء التي لها؟

السؤال الثالث والثمانون: ما النبوّة؟ الجواب: النبوّة منزلة يعينها ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] ينزلها العبد بأخلاق صالحة وأعمال مشكورة حسنة في العامة تعرفها القلوب ولا تنكرها النفوس، وتدل عليها العقول وتوافق الأغراض وتزيل الأمراض، فإذا وصلوا إلى هذه المنزلة فتلك منزلة الانباء الإلهي المطلق لكل من حصل في تلك المنزلة من ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإن نظر الحق من هذا الواصل إلى تلك المنزلة نظر استنابة وخلافة ألقى الروح بالانباء من أمره على قلب ذلك الخليفة المعتنى به فتلك نبوّة التشريع، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ فهي عامة لأن «من» نكرة ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] نبوّة خاصة نبوّة تشريع ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] مثل ذلك ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥ ـ ١٦] نبوّة تشريع لا نبوّة عموم ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٤] فالإنذار مقرُون أبداً بنبوّة التشريع، ولهذه النبوّة هي تلك الأجزاء التي سأل عنها والتي وردت في الأخبار.

وأما النبوّة العامة فأجزاؤها لا تنحصر ولا يضبطها عدد فإنها غير مؤقتة لها الاستمرار دائماً دنيا وآخرة، وهذه مسألة أغفلها أهل طريقنا فلا أدري عن قصد منهم كان ذلك أو لم يوقفهم الله عليها أو ذكروها وما وصل ذلك الذكر إلينا والله أعلم بما هو الأمر عليه. ولقد حدّثني أبو البدر التماشكي البغداديّ رحمه الله عن الشيخ بشير من ساداتنا بباب الأزج عن إمام العصر عبد القادر أنه قال: معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوا. فأما قوله أوتيتم اللقب أي حجر علينا إطلاق لفظ النبيّ وإن كانت النبوّة العامة سارية في أكابر الرجال. وأما قوله: وأوتينا ما لم تؤتوا هو معنى قول الخضر الذي شهد الله تعالىٰ بعدالته وتقدمه في العلم وأتعب الكليم المصطفى المقرّب موسىٰ عليه السلام في طلبه مع العلم بأن العلماء يرون أن موسىٰ أفضل من الخضر فقال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، فهذا عين معنى قوله: أوتينا ما لم تؤتوا، وإن أراد رضي الله عنه بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء أهل النبوّة العامة، فيكون قد صرّح بهذا القول أن الله قد أعطاه ما لم يعطهم، فإن الله قد جعلهم فاضلاً ومفضولاً فمثل هذا لا ينكر.

السؤال الرابع والثمانون: كم أجزاء الصدّيقية؟ الجواب: بضع وسبعون جزءاً على عدد شعب الإيمان الذي يجب على الصدّيق التصديق بها، وليست الصديقية إلاّ للأتباع، والأنبياء أصحاب الشرائع صدّيقون، بخلاف أنبياء الأولياء الذين كانوا في الفترات، وإنما كانت الأنبياء أصحاب الشرائع صدّيقين، لأن أهل هذا المقام لا يأخذون التشريع إلاّ عن الروح الذي ينزل بها على قلوبهم وهو تنزيل خبريّ لا تنزيل علميّ، فلا يتلقونه إلاّ بصفة الإيمان، ولا يكشفونه إلاّ بنوره، فهم صدّيقون للأرواح التي تنزل عليهم بذلك، وكذلك كل من يتلقى عن الله ما يتلقاه من كون الحق في ذلك الإلقاء مخبراً فإنما يتلقاه من جانب الإيمان ونوره لا من التجلّي، فإنّ التجلّي ما يعطى الإيمان بما يعطيه، وإنما يعطى ذلك بنور العقل لا من حيث هو مؤمن، فأجزاء الصدّيقية على ما ذكرناه لا تنحصر فإنه ما يعلم ما يعطي الله في إخباراته لمن أخبرهم، فأجزاء الصدّيقية المحصورة هو ما وردت به الأخبار الإلهية بأنّ اعتقاد ذلك الخبر قربة إلى الله على التعيين وهي متعلقة بالاسم الصادق لا بدّ من ذلك، فيتصوّر هنا من أصول طريق الله وأنه ما ثم إلاّ صادق فإنه ما ثم مخبر إلاّ الله، فينبغي أن لا يكذب بشيء من الأخبار. قلنا: الصدّيق من لا يكذب بشيء من الأخبار إذ تلقّى ذلك من الصادق، ولكن الصدّيق إن كان من العلم بالله بحيث أن يعلم أنه ما ثم مخبر إلاّ الله فيلزمه التصديق بكل خبر على حسب ما أخبر به المخبر، فإذا أخبر الصادق الحق بأن قوماً كذبوا في أمر أخبروا به صدق الله في خبره أنهم كذبوا في كل ما أخبر به أنهم كذبوا فيه، وأنّ الكذب هي صفة بالنسبة إليهم لا بالنسبة إلى الخبر، فإنّ الخبر إذا نسبته إلى الصادق كان صدقاً، وإذا نسبته إلى الكاذب فيه كان كذباً، وإذا نسبته إلى الكاذب لا فيه كان محتملاً، والذي يرى أن المخبر هو الله الصادق فإنّ ذلك الخبر في ذلك الحال هو صدق والمؤمن به صدّيق، ثم أخبر الصادق الحق أنّ ذلك الخبر الذي نسبته إليّ بأنه صدق أنسبه إلى الذي ظهرعلى لسانه نسبة كذب

فاعتقد أنه كذب فيعتقد فيه أنه بالنسبة إلى ذلك الشخص لكونه محلاً لظهور عين هذا الخبر كذب لأن مدلوله العدم لا الوجود، فالصدق أمر وجوديّ، والكذب أمر عدميّ، وصورة الصدق في الكذب أنّ المخبر الكاذب ما أخبر إلاّ بأمر وجوديّ صحيح العين في تخيّله، إذ لو لم يتخيله لحصول المعنى عنده لما صحّ أن يخبر عنه بما أخبر فهو صادق في خبره ذلك والمؤمن به صدّيق، ثم أخبر الحق عن ذلك الخبر أنه بالنسبة إلى الحسّ كذب وما تعرض إلى الخيال كما لم يتعرّض المخبر في خبره ذلك إلى الحسّ، وإنما السامع ليس له في أول سماعه الأخبار إلاّ أوّل مرتبة وهي الحسّ، ثم بعد ذلك يرتقي في درجات القوىٰ، فاعتقد بعد هذا بإخبار الحق عنه أن ذلك كذب في الحسّ أنه كذب في الحسّ، أي ليس في الحسّ منه صورة من حيث الحكم الظاهر فهو صدّيق للخبر الحق، فماللوجود كذب ولا في العدم صدق، فإن الصدق أصله الصادق وهو الوجود المحض الذي لا نسبة للعدم إليه، والكذب هو العدم المحض الذي لا نسبة للوجود إليه.

وأما الكذب النسبيّ بالنظر إلى الخيال يكون صدقاً، وبالنظر إلى الظاهر على شرط مخصوص يكون كذباً، فالصديق يتعلق به من حيث نسبته إلى ما هو موجود به، والعامّة تتعلق به من حيث إنه لا وجود له في المرتبة التي يطلبها فيه من يكذبه فاعلم ذلك، فإن شئت قلت بعد هذا إن للصدّيقية أجزاء منحصرة، وإن شئت قلت: لا تدخل تحت الحصر أجزاؤها، وإن أردت بأجزاء الصدّيقية الصفة التي بها تحصل الصدّيقية للصديق فهذا سؤال آخر يمكن أن يسأل عنه، فالجواب عن مثل هذا الوجه أن من أجزائها سلامة العقل والفكر الصحيح والخيال الصحيح والإيمان بصدق المخبر، وإن أحاله العقل الذي ليس بسليم عند أهل هذه الصفة والقول باستحالات الإمكان في الأعيان الممكنات بالنظر إلى ما تقتضيه ذات الواجب الوجود لذاته أو إلى سبق العلم منه عند من يقول بذلك، فإذا كان بهذه المثابة حصلت له الصدّيقية، ويكون هذا المجموع أجزاءها لأنها ليست بزائدة على عين المجموع وهذا هو النور الأخضر.

السؤال الخامس والثمانون: ما الصدّيقية؟ الجواب: نور أخضر بين نورين يحصل بذلك النور شهود عين ما جاء به المخبر من خلف حجاب الغيب بنور الكرم، وذلك أن اسم الله المؤمن الذي تسمّى الله لنا به في كتابه من حيث هو نور أعني الكتاب فقال عزّ من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] إلاّ أن المؤمن هنا له وجهان: معطي الأمان، ومصدق الصادقين من عباده عند من لم يثبت صدقهم عنده، ولهذا قال تعالىٰ حكاية عمّا يقوله الصادق يوم القيامة لربّه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١١٢] ليثبت صدقي عند من أرسلتني إليهم فيما أرسلتني به، فجاء بلفظ يدل على أنه وقع وهو عند العامّة ما وقع، فإنه يوم القيامة وما أخبر الله إلاّ بالواقع فلا بدّ أن يكون، ثم حضرة إلهية فيها وقوع الأشياء دائماً لا تتقيد بالماضي فيقال: قد وقعت ولا بالمستقبل فيقال تقع، ولكن متعلقها الحال الدائم، وبين القلوب وبين هذه الحضرة حجاب التقييد، فإذا كوشف العبد على خلوصه من التقييد وظهر بصورة حق في حضرة مطلقه شهد ما يقال فيه يقع واقعاً،

وشهد ما يقال فيه واقعاً، فلم يزل واقعاً ولا يزال واقعاً، فعنه تقع الحكايات الإلهية بأنه يقع مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ [سورة النحل: الآية ١١١] فعلق بالمستقبل، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١] فأتى بالماضي، وكلا التقييدين يدل على العدم والحال له الوجود والعدم لا يقع فيه شهود ولا تمييز، فلا بدّ أن يكون المخبر عنه بأنه كان كذا أو يكون كذا له حالة وجودية في حضرة إلهية عنها تقع الإخبارات، والواقف فيها يسمّى صديقاً وهي بنفسها الصديقية ولها اطلاع من خلف حجاب هذا الهيكل المظلم في حق شخص، والهيكل المنوّر في حق شخص، فإن وجدت عيناً مفتوحة سليمة من الصدع أبصرت هذه العين بهذا النور من هذه الحضرة صدق المخبرين كانوا من كانوا فيسمّون صدّيقين بذلك وتسمّى هذه الحالة صدّيقية، وللملأ الأعلى منها شرب، وللرسل فيها شرب، وللأنبياء فيها شرب، وللأولياء فيها شرب، وللمؤمنين فيها شرب، ولغير المؤمنين من جميع أهل النحل والملل شرب، فيسعد بها قوم ويشقى بها قوم، لشروط تتعلق بها ولوازم بها يقال: مؤمن وكافر، ومشرك وموحّد، ومعطل ومثبت، ومقرّ وجاحد، وصادق وكاذب، فقد عمّت الصدّيقية جميع الهياكل المنوّرة والمظلمة والنورية والنارية والطبيعية العنصرية ولا يشعر بها إلاّ الأكابر من الرجال وهم العارفون بسريانها في الموجودات، فإذا نظرت أرباب هذه الهياكل أنفسها مجرّدة عن هياكلها خرجت عن حضرة الصدّيقية وكانت من أهل المعاينة، فصارت ترى من بعدما كانت كأنها ترى، فالحق سبحانه من كونه مؤمناً له حضرة الصدّيقية فيها يصدق الحق عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فصدقهم في كونهم ما عبدوا سواه في الهياكل المسمّاة شركاء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٣] وبهذا يصدق العباد في الأخبار كلها من غير توقف فلها حكم في الطرفين، فإنّ في هذا الذي قلناه ﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٧] ما فيه آية لقوم يتفكرون ولا لقوم يعلمون على الإطلاق إلاّ إن أراد بيعلمون يعقلون، فالصدّيقية مستندها من الأسماء الإلهية المؤمن، وكذلك أثرها في المخلوقات الإيمان، وكذلك أسماؤهم المؤمنون الصدّيقون لهم النور لصدقهم، إذ لولا النور لما عاينوا صدق المخبر وصدق الخبر من خلف حجاب هذا الهيكل ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ثم طوبى ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٩]. انتهى الجزء السادس والثمانون.

(الجزء السابع والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال السادس والثمانون: على كم سهم ثبتت العبودية؟ الجواب: على تسعة وتسعين سهماً على عدد الأسماء الإلهية التي من أحصاها دخل الجنة، لكل اسم إلهيّ عبودية تخصّه بها يتعبد له من يتعبّد من المخلوقين، ولهذا لا يعلم هذه الأسماء الإلهية الأولى ثابت الولاية، فإنّ رسول الله ﷺ ما ثبت عندنا أنه عينها وقد يحصيها بعض الناس، ولا يعلم أنها هي التي ورد

فيها النص كما يكون ولياً، ولا يعلم أنه وليّ، ومن رجال الله من عرّفهم الله بها من أجل ما يطلبه كل اسم منها من عبودية هذا العبد، فيعين له هذا الوليّ العارف من العبودية بحسب الاسم الذي له الحكم عليه في وقته، فمن أحصى هذه الأسماء الإلهية دخل الجنة المعنوية والحسّيّة، فأما المعنوية فبماذا تطلبه هذه الأسماء من العلم بالعبودية التي تليق بها. وأما الحسّيّة فبماذا تطلبه هذه الأسماء من الأعمال التي تطلبه من العباد فلا بدّ من تمييزها، وكيف يعرف اسم العبودية من لا يعلم من الله ما يطلبه منه؟ فبهذا النظر يكون للعبودية سهام ويكون عددها ما ذكرناه، والعاملون بهذه العبودية رجلان: رجل يعمل بها من حيث شرعه ومن عمل بها من حيث شرعه فقد عمل بها من حيث عقله. ورجل عمل بها من حيث عقله ومن عمل بها من حيث عقله قد لا يعمل بها من حيث شرعه، فالعامل بها من حيث عقله ينسبها إلى هياكل منوّرة أو عقول مجرّدة عن المواد لا بدّ من ذلك. والعامل بها من حيث شرعه ينسبها إلى الله سبحانه وينسبها من حيث آثارها وما تنظر إليه لوضع الوسائط بينك وبينها إلى الهياكل النورية والعقول المجرّدة عن المواد.

وأمّا العامة فلا يعرفونها إلاّ لله خاصة أو للأسباب القريبة المعتادة المحسوسة خاصة لا يعلمون غير هذا، وما رأيت ولا سمعت عن أحد من المقرّبين أنه وقف مع ربّه على قدم العبودة المحضة، فالملأ الأعلى يقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] والمصطفون من البشر يقولون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] ويقولون: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: الآية ٢٦] ويقولون: إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض من بعد اليوم. وهذا كله لغلب الغيرة عليهم واستعجال لكون الإنسان خلق ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١] فهي حركة طبيعية أظهرت حكمها في الوقت فانحجب عن صاحبها من العبودة بقدر استصحاب مثل هذا الحكم لصاحبها، وكل ما كان يقدح في مقام ما ويرمي به ذلك المقام فإنّ صاحب ذلك المقام لم يتصف في تلك الحال بالكمال الذي يستحقه، وإن كان من الكمل فنور العبودية على السواء من نور الربوبية فإنه من أثره، وعلى قدر ما يقدح في العبودية يقدح في الربوبية، وإن كان مثل هذا القدح لا يقدح ولا يؤثر في السعادة الطبيعية ولكن يؤثر في السعادة العلمية، وأعمّ الدرجات في ذلك درجتان: درجة العجلة التي خلق الإنسان عليها ودرجة الغفلة التي جبل الإنسان عليها، ولولا أنّ الملأ الأعلى له جزء في الطبيعة ومدخل من حيث هيكله النوريّ ما وصفهم الحق بالخصام في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: الآية ٦٩] ولا يختصم الملأ الأعلى إلاّ من حيث المظهر الطبيعيّ الذي يظهر فيه كظهور جبريل في صورة دحية، وكذلك ظهورهم في الهياكل النورية المادية وهي هذه الأنوار التي تدركها الحواس فإنها تدركها إلاّ في مواد طبيعية عنصرية، وأما إذا تجرّدت عن هذه الهياكل فلا خصام ولا نزاع إذ لا تركيب ومهما قلت اثنان كان وقوع الخصام ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[سورة الأنبياء: الآية ٢٢].

فالوحدة من جميع الوجوه هو الكمال الذي لا يقبل النقص ولا الزيادة، فانظر من حيث هي لا من حيث الموحّد بها، فإن كانت عين الموحّد بها فهي نفسها، وإن لم تكن عين

الموحّد بها فهو تركيب، فما هو مقصودنا ولا مطلب الرجال، ولهذا اختلفت أحكام الأسماء الإلهية من حيث هي أسماء، فأين المنتقم والشديد العقاب والقاهر من الرحيم والغافر واللطيف؟ فالمنتقم يطلب وقوع الانتقام من المنتقم منه، والرحيم يطلب رفع الانتقام عنه وكل ينظر في الشيء بحسب حكم حقيقته فلا بدّ من المنازعة لظهور السلطان، فمن نظر إلى الأسماء الإلهية قال بالنزاع الإلهيّ ولهذا قال تعالىٰ لنبيه: ﴿وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥] فأمره بالجدال الذي تطلبه الأسماء الإلهية وهو قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾. كما ورد في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا جادل بالإحسان جادل كأنه يرى ربّه، ولا يرى ربّه مجادلاً إلاّ إذا رآه من حيث ما تطلبه الأسماء الإلهية من التضادّ فاعلم ذلك.

وما منعني من تحصيل هذا المقام إلاّ الغفلة لا غير فليس بيني وبينه إلاّ حجاب الغفلة وهو حجاب لا يرفع، وأما حجاب العجلة فأرجو بحمد الله أنه قد ارتفع عني، وأما حجاب الغفلة فمن المحال رفعه دائماً مع وجود التركيب حيث كان في المعاني أو في الأجسام، ولو ارتفع هذا الحجاب لبطل سرّ الربوبية في حق هذا الشخص وهو الذي أشار إليه سهل بن عبد الله أو من كان يقوله أن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية لكنه ممكن الحصول بالنظر إلى نفسه، ولكن لا أدري هل تقتضي الذات تحصيله وظهوره في الوجود أم لا غير أني أعلم أنه ما وقع، ومع هذا فلا أقطع يأسي من تحصيله مع علمي باستحالة ذلك، وينبغي للناصح نفسه أن يقارب هذا المقام جهد الاستطاعة، وأما القائلون بالتشبه بالحضرة الإلهية جهد الطاقة وهو التخلّق بالأسماء أنه عين المطلوب والكمال فهو صحيح في باب السلوك لا في عين الحصول، وأما في عين الحصول فلا تشبه بل هو عين الحق والشيء لا يشبه نفسه، فأعلى المظاهر مظاهر الجمع وهو عين التفريق.

السؤال السابع والثمانون: ما يقتضي الحق من الموحدين؟ الجواب: أن لا مزاحمة، وذلك أنّ الله لما تسمّى بالظاهر وبالباطن نفى المزاحمة، إذ الظاهر لا يزاحم الباطن والباطن لا يزاحم الظاهر، وإنما المزاحمة أن يكون ظاهران أو باطنان، فهو الظاهر من حيث المظاهر، وهو الباطن من حيث الهوية، فالمظاهر متعددة من حيث أعيانها لا من حيث الظاهر فيها، فالأحدية من ظهورها والعدد من أعيانها، فيقتضي الحق من الموحدين الذين وصفوا بصفة التوحيد أن يوحّدوه من حيث هويته، وإن تعددت المظاهر فما تعدد الظاهر فلا يرون شيئاً إلاّ كان هو المرئيّ والرائي، ولا يطلبون شيئاً إلاّ كان هو الطالب والطلب والمطلوب، ولا يسمعون شيئاً إلاّ كان هو السامع والسمع والمسموع، فلا تزاحم فلا منازعة، فإن النزاع لا يحمله إلاّ التضادّ وهو المماثل والمنافر وهو عين المماثل هنا، إذ قد يكون الضدان ما ليس بمثلين، بخلاف المخالف فإن حكم المخالف لا يقع منه مزاحمة ولا منازعة، ولهذا نفى الحق أن تضرب له الأمثال لأنها أضداد تنافي حقيقة ما ينبغي له، ولا ينافيه ما سميّ به حيث نفى التشبيه فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] خلق الله التفاحة تحمل اللون والطعم والرائحة، ولا مزاحمة في الجوهر الذي لا ينقسم، ويستحيل

وجود لونين أو طعمين أو ريحين في ذلك الجزء الذي لا ينقسم، فلا يصحّ إلهان لأنهما مثلان، ويصحّ وجود جميع الأسماء للعين الواحدة لأنها خلاف والخلاف قابل للاجتماع بخلاف المماثل، فإذا استحال الاجتماع فلحكم الضديّة لا لحكم الخلاف إذ الاجتماع لا يناقض الخلاف، فكل اجتماع يطلب الخلاف وما كل خلاف يطلب الاجتماع، وإنما يقتضي الحق من الموحّدين عدم المزاحمة ليبقى الرب رباً والعبد عبداً، فلا يزاحم الرب العبد في عبوديته، ولا يزاحم العبد الرب في ربوبيته مع وجود عين الرب والعبد، فالموحد لا يتخلق بالأسماء الإلهية. فإن قلت: فيلزم أن لا يقبل ما جاء من الحق من اتصافه بأوصاف المحدثات من معية ونزول واستواء وضحك فهذه أوصاف العباد وقد قلت أن لا مزاحمة فهذه ربوبية زاحمت عبودية. قلنا: ليس الأمر كما زعمت ليس ما ذكرت من أوصاف العبودية، وإنما ذلك من أوصاف الربوبية من حيث ظهورها في المظاهر لا من حيث هويتها، فالعبد عبد على أصله، والربوبية ربوبية على أصلها، والهوية هوية على أصلها فإن قلت: فالربوبية ما هي عين الهوية. قلنا: الربوبية نسبة هوية إلى عين، والهوية لنفسها لا تقتضي نسبة، وإنما ثبوت الأعيان طلبت النسب من هذه الهوية فهو المعبر عنها بالربوبية، فاقتضى الحق من الموحدين أن يوحدوا كل أمر لترتفع المزاحمة فيزول النزاع فيصحّ الدوام للعالم فيتعين عند ذلك ما معنى الأزل بمعقولية الأبد وهو قولك: لا يزال، فلولا النقطة المفروضة في الخط التي تشبه الآن ما فرّق بين الأزل والأبد كما لا نفرّق بين الماضي والمستقبل بانعدام الآن من الزمان إلاّ أن النقطة هي الربوبية ففرقت بين الهوية والأعيان وهو المسمّى المظاهر، إلاّ أن النقطة أنت فتميز هو وأنا بأنت، فإذا علمت هذا فأنت موحّد فأعط الحق ما يقتضيه منك إذا اقتضاه، فإن قال لك: أليس قد تبين لك في المرتبة الأخرى أنه ما ثم إلاّ الله وبيّنت في ذلك ما بيّنت فلماذا نزعت هنا هذا المنزع قلنا: لأنك سميت نفسك مقتضياً منا من كوننا موحدين أمراً ما لا يقتضي أنت ما يعطيك نحن، نحن ما أعطيناك إنما أعطينا للمقتضى فلا تكلمنا بغير لغتنا إذ أنت القائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] يكون المقتضى في هذا الفصل مشهودنا، ويخاطبنا اسم آخر ليس مشهودنا هذا خطاب ابتلاء وتمحيص.

السؤال الثامن والثمانون: عن الحق المقتضي ما الحق؟ الجواب: سمّي الحق حقاً لاقتضائه من عباده من حيث أعيانهم ومن حيث كونهم مظاهر ما يستحق، إذ لا يطلب الحق إلاّ بالحق وهو العلم الحاصل بعد العين، وهو ما يجب على المقتضى منه ما يعطيه إذا طلبه منه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أي أوجبها فصارت حقاً عليه قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فهو الحق لا غيره، وهو المستحق والمحق، وهو الذي تجب عليه الحقوق من حيث إيجابه لا من حيث ذاته، فالأعيان لولا ما تستحق أن تكون مظاهر ما ظهر الحق فيها، ولم يكن حكيماً لما كان يلزم من الخلل في ذلك، ولو لم تكن الهوية تستحق الظهور في هذه المظاهر العينية لظهور سلطان الربوبية ما ظهرت في هذه الأعيان لأنّ الشيء لا يظهر في نفسه لنفسه، فلا بدّ من عين يظهر فيها لها،

فيشهد نفسه في المظهر فيسمّى مشهوداً وشاهداً، فإن الأعيان لا تستحق ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ولم يقل إنّ الأعيان تستحق الرحمة، فالأعيان ليس لها استحقاق إلاّ أن تكون مظاهر خاصة: [الوافر]

فقلْ للحقِّ إنّ الحقَّ ما هو ... سواه فهو حقٌّ في الحقيقةْ

فلم أنظُرْ بعيني غيرَ عيني ... فعينُ الحقِّ أعيانُ الخليقةْ

الحق هويته الحق اسمه خلق هو المخلوق به خلق كل شيء حقّه أعطى كل شيء خلقه ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٥] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٩] ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] الحق طلب الحقوق، فبالحق يطلب الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢] فالحق الوجود والضلال الحيرة في النسبة، فالحق المنزّل، والحق التنزيل، والحق المنزّل، والحق من الله من حيث هو ربنا، ومن صرف عن الحق إلى أين يذهب؟ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٦ ـ ٢٧] أصحاب العلامات والدلائل، فالحق المسؤول عنه في هذا السؤال هو المقتضى الذي يقتضي من الموحدين لما ذكرناه، فسمّي حقاً لوجوب وجوده لنفسه، فاقتضاؤه إنما اقتضى من نفسه، فإنه إنما اقتضاه من الظاهر في مظهره، وهويته هي الظاهرة في المظهر الذي به كانت رتبة الربوبية، فما اقتضى إلاّ منه، وما كان المقتضى إلاّ هو، والذي اقتضى هو حق وهو عين الحق، فإن أعطى فهو الآخذ، وإن أخذ فهو المعطي، فمن عرفه عرف الحق.

السؤال التاسع والثمانون: وماذا بدؤه؟ الجواب: الضمير يعود على الحق وبدؤه من الاسم الأوّل الذي تسمّى الحق به، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فسمّى لنا نفسه أوّلاً فبدؤه أوّلية الحق وهي نسبة لأنّ مرجع الموجودات في وجودها إلى الحق، فلا بدّ أن تكون نسبة الأوّلية له، فبدؤه نسبة الأوّلية له، ونسبة الأوّلية له لا تكون إلاّ في المظاهر، فظهوره في العقل الأول الذي هو القلم الأعلى وهو أول ما خلق الله، فهو الأول من حيث ذلك المظهر لأنه أول الموجودات عنه، فالذات الأزلية لا توصف بالأولية وإنما يوصف بها الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ فهو المسبح ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيث أعيانهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾المنيع الحمى من هويته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحديد: الآية ١] بمن ينبغي أن يسبح ﴿لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولهذا يسبحه أهلهما لأنهم مقهورون محصورون في قبضة السموات والأرض ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يحيي العين ويميت الوصف فالعين لها الدوام من حيث حييت والصفات تتوالى عليها فيميت الصفة بزوالها عن هذه العين ويأتي بأخرى ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] أي شيئية الأعيان الثابتة يقول: إنها تحت الاقتدار الإلهيّ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] الضمير يعود على الله من لله والأول خبر الضمير الذي هو المبتدأ وهو في موضع الصفة لله ومسمّى الله إنما هو من حيث المرتبة، وأول مظهر ظهر القلم الإلهيّ وهو

العقل الأول والعين ما كانت مظهراً إلاً بظهور الحق فيها فهي أول، والكلام في الظاهر في المظهر لأنّ به يتميز، فالأول هو الله والعقل حجاب عليه ومجنّ تتوالى الصفات عليه. ولما كانت الأعيان كلها من كونها مظاهر نسبتها إلى الألوهية نسبة واحدة من حيث ما هي مظاهر تسمّى بالآخر فهو الآخر آخرية الأجناس لا آخرية الأشخاص، وهو الأول بأولية الأجناس وأولية الأشخاص لأنه ما أوجد إلاً عيناً واحدة وهو القلم أو العقل كيفما شئت سميته، ولما كان العالم له الظهور والبطون من حيث ما هومظاهر كان هو سبحانه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] لنسبة ما ظهر منه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لنسبة ما بطن منه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ شيئية الأعيان وشيئية الوجود من حيث أجناسه وأنواعه وأشخاصه، فقد تبيّن أنّ بدأه عين وجود العقل الأول. قال النبيّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْلَ**» وهو الحق الذي خلق به السموات والأرض، وقد مشى معنا هذا في سؤاله في العدل في السؤال الثامن والعشرين من هذه السؤالات.

السؤال التسعون: أيّ شيء فعله في الخلق؟ الجواب: إن كان قوله في الخلق من كونهم مقدّرين فالإيجاد وهو حال الفعل، وإن كان قوله في الخلق من كونهم موجودين فحال الفناء، وذلك أنّ الله تعالىٰ قال للإنسان: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي قدّرناه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] نبهه على أصله فأنعم عليه بشيئية الوجود وهو عين وجود الظاهر فيه، وإنما خاطب الإنسان وحده لأنه المعتبر الذي وجد العالم من أجله، وإلاً فكل ممكن بهذه المنزلة هذا الذي تعطيه نشأته لكونه مخلوقاً على الصورة الإلهية وأنه مجموع حقائق العالم كله، فإذا خاطبه فقد خاطب العالم كله وخاطب أسماءه كلها. وأما الوجه الآخر الذي ينبغي أيضاً أن يقال وهو دون هذا في كونه مقصوداً بالخطاب، وذلك أنه ما ادّعى أحد الألوهية سواه من جميع المخلوقات، وأعصى الخلائق إبليس وغاية جهله أنه رأى نفسه خيراً من آدم لكونه من نار لاعتقاده أنه أفضل العناصر، وغاية معصيته أنه أمر بالسجود لآدم فتكبر في نفسه عن السجود لآدم لما ذكرناه وأبى فعصى الله في أمره فسمّاه الله كافراً، فإنه جمع بين المعصية والجهل والإنسان ادّعى أنه الرب الأعلى فلهذا خصّ بالخطاب في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلذا قلنا الفناء أي أحاله على هذه الصفة أن يكون مستحضراً لها.

وأما الفعل الخاص بكل خلق فهو إعطاؤه ما يستحقه كل خلق ممّا تقضيه الحكمة الإلهية وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين أنه تعالىٰ أعطى كل شيء خلقه حتى لا يقول شيء من الأشياء قد نقصني كذا، فإنّ ذلك النقص الذي يتوهمه هو عرض عرض له لجهله بنفسه وعدم إيمانه إن كان وصل إليه قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فإنّ المخلوق ما يعرف كماله ولا ما ينقصه لأنه مخلوق لغيره لا لنفسه، فالذي خلقه إنما خلقه له لا لنفسه فما أعطاه إلاً ما يصلح أن يكون له تعالىٰ، والعبد يريد أن يكون لنفسه لا لربّه، فلهذا يقول: أريد كذا وينقصني كذا، فلو علم أنه مخلوق لربّه لعلم أنّ الله خلق الخلق على

أكمل صورة تصلح لربّه ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٧] وهذه المسألة ممّا أغفلها أصحابنا مع معرفة أكابرهم بها وهي ممّا يحتاج إليها في المعرفة المبتدىء والمنتهي والمتوسط، فإنها أصل الأدب الإلهيّ الذي طلبه الحق من عباده وما علم ذلك إلاّ القائلون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧] وأما الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فما وقفوا على مقصود الحق من خلقه الخلق، ولو لم يكن الأمر كما وقع لتعطّل من الحضرة الإلهية أسماء كثيرة لا يظهر لها حكم. قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يُذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**» فنبّه أن كل أمر يقع في العالم إنما هو لإظهار حكم اسم إلهيّ، وإذا كان هكذا الأمر فلم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم ولا أكمل، فما بقي في الإمكان إلاّ أمثاله إلى ما لا نهاية له، فاعلم ذلك فهذا فعله في الخلق. وأما الجواب العامّ في هذه المسألة أن يقال فعله في الخلق ما هو الخلق عليه في جميع أحواله.

السؤال الحادي والتسعون: وبماذا وكّل؟ يعني الحق الجواب: وكّل بتمشية أوامر الله وإنفاذ كلماته لا غير، فهو مخصوص بالشرائع الإلهية سنّها من سنّها كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ فذمّهم لما لم يرعوها فقال: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧]. وقال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» فالخير يطلب الثواب بذاته، والشرع مبين للناس توقيت ذلك الثواب كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] وقال الله لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمن تقدّمك أو نيابة عنا بالاسم الظاهر الذي لنا فقد خلعناه عليك لتظهر به في خلقي ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فعرفنا أنّ الحق سبحانه قد وكّل الحق بتمشية دينه فقال لخلفائه: احكموا بما يقتضيه أمر هذا الوكيل ولا تتبعوا الهوى، وهو إرادة النفوس التي يخالفها حكم الحق الموكل بتمشية الكلمات الإلهية المشروعة، وكل مخاطب راع ومسؤول عن رعيته، فكان العدل صفة هذا الحق الذي وكّله الله أن يصرفها في المخلوقات بمساعدة الخلفاء والله المرشد.

السؤال الثاني والتسعون: وما ثمرته؟ يعني فيمن حكم به من الخلفاء. الجواب: الوقوف دائماً مع العبودة هذه ثمرته، ولكن جوائح الربوبية تمنع من ظهور هذه الثمرة ولا سيما في البشر، ولكن له ثمرة أخرى دون هذه الثمرة وهو أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، ثم إنّ له في كل شخص من الثمر بحسب ما أمضاه في سلطانه من أحكامه، وأما ثمرته التي يعمل عليها ولها أكثر العقلاء من أهل الله فتهيؤ مراداتهم بمجرّد الهمم، فمنهم من ينال ذلك في الدنيا، ومنهم من يدّخر له ذلك إلى يوم القيامة، فإنّ أكابر الرجال مع معرفتهم بما خلقوا له لو وقفوا مع التكوين قوبلوا، ولكنهم تركوا الحق يتصرّف في خلقه كما هو في نفس الأمر، وأبوا أن يكونوا محلاً لظهور التصريف، وإن ظهر عليهم من ذلك شيء فما هو عن قصد منهم لذلك، ولكن الله أجراه لهم وأظهره عليهم لحكمة علمها الحق وهؤلاء

عن ذلك بمعزل، وأما أن يقصدوا ذلك فلا يتصوّر منهم إلاّ أن يكونوا مأمورين كالرسل عليهم السلام فذلك إلى الله وهم لا يعصون الله ما أمرهم، فإنهم معصومون من إضافة الأفعال إليهم إذا ظهرت منهم فيقولون: هي للظاهر من أسمائه في مظاهره فما لنا وللدّعوى فنحن لا شيء في حال كوننا مظاهر له، وفي غير هذه الحال وهذا المقام يسمّى راحة الأبد والقائم فيه مستريح، وهذا هو الذي وفى الربوبية حقّها لأن الحكم للمرتبة لا للعين، ألا ترى أن السلطان تمشي أوامره في مملكته فلا يعصى ويخاف ويرجى وما هو لكونه إنساناً فإن الإنسانية عينه، وإنما هو لكونه سلطاناً وهي المرتبة، فالعاقل من الناس يرى أن المتحكم في المملكة إنما هي المرتبة لا عينه، إذ لو كان ذلك لكونه إنساناً فلا فرق بينه وبين كل إنسان، وهكذا كل المظاهر، فرجال الله ينظرون أنفسهم من حيث أعيانهم لا من حيث كونهم مظاهر، فكانت المرتبة الحاكمة لا هم، وهذه هي ثمرة الحق التي جنوها حين حكموا به وفازوا بالعبودة والعبودية عبادة الفرائض وعبادة النوافل.

السؤال الثالث والتسعون: وما المحق؟ الجواب: معطي الحق، وهو الموصوف بالحكم العدل، وذلك أني أنبهك على تحقيق هذا الأمر، فاعلم أن المحق إذا كان هو معطي الحق فليس إلاّ الله، ومقصود الطائفة من المحق أن يكون الصادق الدعوى في طلب الحق الذي يستحقه وهي مسألة صعبة، فإن الله أعطى كل شيء خلقه وهو ما يستحقه، فقد أعطى كل شيء استحقاقه فهذا الطالب ما يستحقه، كيف يصحّ أن يكون ممنوعاً عنه ما يستحقه مع قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فلنقل: اعلم أن قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ إنما هو ممّا يقوم ذات ذلك الشيء من الفصول المقومة لذاته، وأما ما تطلبه تلك الفصول من اللوازم والأعراض فما أعطاه ذلك لأن أعراض كل ذات لا يتناهى ما دام موصوفاً بالبقاء في الوجود، وما لا يمكن فيه التناهي لا يصحّ أن يدخل في الوجود بل على التتالي والتتابع، فالطالب المحق هو الذي لا يطلب ما لا تستحقه ذاته من لوازمها وأعراضها، كمن ليس من حقيقته أن يقبل التفكّر فيطلب أن يتصف بالفكر فما هو محق في طلبه، فإذا طلبه الإنسان إذا كان الغالب عليه الوقوف مع المحسوسات فله أن يطلب الاشتغال بالتفكّر في خلق السموات والأرض وجميع الآيات فهو محق في طلبه صادق الدعوى في نفي التفكّر عنه لاستيلاء الغفلة عليه، فهذا هو المحق الذي لا يعارض طلب حقه الذي يستحق بذاته طلبه قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فقد تبين لك كيف ينبغي لك أن تسأل وماذا تسأل فيه.

ومن أوصاف المحق أن لا يسأل إلاّ من بيده قضاء ذلك الحق المسؤول، فإن لم يفعل فقد شكى إلى غير مشتكى، كان شيخنا أبو العباس بن العريف الصنهاجيّ يقول في دعائه: اللهم إنك سددت باب النبوّة والرسالة دوننا ولم تسد باب الولاية، اللهم مهما عينت أعلى رتبة في الولاية لأعلى وليّ عندك فاجعلني ذلك الوليّ، فهذا من المحقين الذين طلبوا ما يمكن أن يكون حقاً لهم، وإن كانت النبوّة والرسالة ممّا يستحقه الإنسان عقلاً لكون ذاته قابلة لها، لكن لما علم أن الله قد سدّ بابها شرعاً وسدّ باب نبوّة الشرائع لم يسألها وسأل ما

يستحقه، فإن الله ما حجر الولاية علينا، ومن هذا الباب سؤال الوسيلة وإن لم يكن مثلها لكن يقرب منها، وإنما ألحقناها بها في التشبيه لقرينة حال وهي درجة في الجنة لا ينالها أو لا تنبغي إلاَّ لرجل واحد، قال ﷺ: **«وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»** فلو سأل واحد منّا ربه الوسيلة في حق نفسه لما سأل ما لا يستحقه لأنه ربما لا ينالها إلاَّ شخص هو على صفة مخصوصة والله يقول لنا: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٥] إلاَّ أنه لم يقل منه فقد يمكن أن يكون هذه من التوسّل، وتلك الصفة إما موهوبة أو مكتسبة، ولم يعينها رسول الله ﷺ ولا حجرها على واحد بعينه، ولم يقل أنها لا تنبغي إلاَّ لمن هو أفضل عند الله من البشر، ونحن نعلم أنه أفضل الناس عند الله بما نصّ على نفسه فكان يكون ذلك تحجيراً.

ولم ينص أيضاً في وحدانية ذلك الشخص هل هو واحد لعينه أو واحد تلك الصفة فتكون الأحدية لتلك الصفة، ولو ظهرت في ألف لكان كل واحد من الألف له الوسيلة لأن تلك الصفة تطلبها، فلما لم يقع من الشارع شيء من هذا كله ساغ لنا أن نطلبها لأنفسنا، ولكن يمنعنا من ذلك الإيثار وحسن الأدب مع الله في حق رسول الله ﷺ الذي اهتدينا بهديه، وقد طلب منّا أن نسأل الله له الوسيلة فتعين علينا أدباً وإيثاراً ومروءة ومكارم خلق أن لو كانت لنا لوهبناها له، إذ كان هو الأولى بالأفضل من كل شيء لعلو منصبه وما عرفناه من منزلته عند الله، ونرجوا بهذا أن يكون لنا في الجنة ما يماثل تلك الدرجة مثل قيمة المثل عندنا في الحكم المشروع في الدنيا، وذلك أن بيننا وبينه ﷺ أخوة الإيمان، وإن كان هو السيد الذي لا يقاوم ولا يكاثر ولكن قد انتظم معنا في سلك الإيمان فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠] وثبت في الشرع أن الإنسان إذا دعى لأخيه بظهر الغيب قال الملك له: ولك بمثله ولك بمثليه، فإذا دعونا له بالوسيلة وهو غائب عنا قال الملك: ولك بمثله فهي له والمثل للداعي فينال من درجات مجموعه ما يناله صاحب الوسيلة من الوسيلة مثل قيمة المثل لأن الوسيلة لا مثل لها أي ما ثم درجة واحدة تجمع ما جمعت الوسيلة، وإن كانت ما جمعت الوسيلة متفرّقاً في درجات متعدّدة ولكن للوسيلة خاصية الجمع.

السؤال الرابع والتسعون: فأين محل من يكون محقاً؟ الجواب: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] فإن الحقوق ما يطلبها المحق إلاَّ وهو في المقعد الصدق لأنه صادق، ولا تطلب الحقوق إلاَّ عند من يعلم أنه قادر على إيصالها وملك ماضي الكلمة في ملكه فلهذا قلنا: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ فاجتمع هذا المحق مع المتقي في هذا المحل ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٤] وإن كان المحق كذلك، ولكن لما كان الفرق بين المتقي وبين هذا معلوماً لم تكن الجنات كالجنات ووقع الاشتراك في كونه محقاً مع المتقي، فالمتقي ما نال المقعد الصدق إلاَّ من كونه محقاً ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ حضرة بقاء العين والاقتدار والتأييد، ولهم أماكن مختلفة بحسب الحضرات التي ينزلونها من حضرات الأسماء محلهم الاسم الصادق والحق والناصر وما في معنى هذه الأسماء، فأي اسم

من هؤلاء الأسماء نظر إليه كان محله، وأما في الذاتيات فمحله الواجبات، وأما في الألوهية فمحلها بالظفر بالمطلوب، وأما في العبودية فمحلها عبودية الفرائض، وأما في الأحوال فالتأثير، وأما في المقامات فالصدق، وأما في الجنان فارتفاع الحجب، وأما في الدنيا فالفعل بالهمة، وأما في المعارف فإن يكون مع الحق من حيث أمره ومع عالمه من حيث عدله ووفائه فيعين كل طالب حق فمقامه لا يتزلزل ولا ينخرم، فإن له في كل حضرة مقعداً ومجلساً فحيث حل فهو بيته، فلا يفطر إن كان صائماً ولا يقصر الصلاة فإنه مقيم غير مسافر لأن السفر فيه لا يجوز فيه القصر ولا الفطر فهو كمثل عائشة قالت: «**لا أَقْصُرُ فَإِنِّي أُمُّ المُؤْمِنِينَ فَحَيثُ مَا حَلَلْتُ حَلَلْتُ عِنْدَ بَنِيَّ فَأَنَا فِي بَيْتِي**» والسفر إليه بخلاف ذلك فإنه يقصر ويفطر فهو فطر الصائمين.

السؤال الخامس والتسعون: ما سكينة الأولياء؟ الجواب: إذا اتبع الوليّ الأسباب وقطعها سبباً سبباً، وولي مملكة جابر قينا وجابر سينا، وجمع له بين المشرقين والمشارق والمغربين والمغارب، واطلع على المشرق والمغرب، ووفى المقامات حقّها، وأعطى الأنبياء حقّهم، وأنبياء الشرائع حقّهم، وأنصف الملأ الأعلى، وأحال الأسماء الإلهية على الأسماء الإلهية ولم يتوجه لمخلوق عليه حق فإنه غير وارث ولا رسول ولا إمام ولا صاحب منصب يخاف عليه فيه عدله أو جوره ويرجى فيه فضله وجهل قدره ولم يعرف حقّه، وتمنّى الرسل في موطن ما أن تكون مثله وجمع هذا كله، فتلك سكينة الأولياء التي يسكنون إليها، فهم العرائس المصانون رجال أيّ رجال يسكنون إليها ولا تحصل لهم دائماً لكن لهم اختلاسات فيها كالبروق فهي تشبه المشاهد الذاتية في كونها لا بقاء لها، فإن المواطن تحكم عليهم وطبيعتهم تطلبهم، فإن اتفق أن تحصل لأحد وقتاً ما قصيراً أو طويلاً فإن الدوام محال، فيكون الوليّ في تلك الحال ناظراً لمن يطلب طبيعته فيكون كالمتفرّج ويرى الظاهر فيه المسؤول ذلك، إما يعطيها ما سألته، وإما يمنعها وهو مهيمن على ذلك من حيث عينه، إلاّ أن هذه هي العبودة المحضة التي لا يتخللها شوب من الربوبية.

السؤال السادس والتسعون: ما حظ المؤمنين من قوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾[سورة الحديد: الآية ٣]. الجواب: كل مصدق بأمر لم يعلمه إلاّ من الذي أخبره به فقد بطن عنه ما صدقه فيه وظهر له ما صدقه فيه عند إخباره وحظّه من الأول أن لا يتوقف في تصديقه عند سماعه الخبر منه، وحظه من الآخر أن لا يتردّد فيما صدّقه فيه إن قدح فيه نظره عند التفكّر فيما أخبره به المخبر، وذلك أن الإيمان نور شعشعانيّ ظهر عن صفة مطلقة لا تقبل التقييد، فإذا خالط هذا النور بشاشة القلوب كان حكمه ما ذكرناه من ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ والمؤمنون فيه على قسمين: مؤمن عن نظر واستدلال وبرهان فهذا لا يوثق بإيمانه ولا يخالط نوره بشاشة القلوب فإن صاحبه لا ينظر إليه إلاّ من خلف حجاب دليله، وما من دليل لأصحاب النظر إلاّ وهو معرض للدخل فيه والقدح ولو بعد حين، فلا يمكن لصاحب البرهان أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وهذا الحجاب بينه وبينه. والمؤمن

الآخر الذي كان برهانه عين حصول الإيمان في قلبه لا أمر آخر، وهذا هو الإيمان الذي يخالط بشاشة القلوب فلا يتصوّر في صاحبه شك لأن الشك لا يجد محلاً يعمره فإن محله الدليل ولا دليل، فما ثم على ما يرد الدخل ولا الشك بل هو في مزيد. ثم إن المؤمن على نوعين: مؤمن له عين فيه نور بذلك العين إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك المغيبات التي متعلقها الإيمان. ومؤمن ما لعينه نور سوى نور الإيمان فنظر إليه به ونظر إلى غيره به، فالأول يمكن أن يقوم بعينه أمر يزيل عنه النور الذي إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك الأمور التي ألزمه الإيمان القول بها، وهو المؤمن الذي لا دليل له، وينظر الأشياء بذاته فيدخله الشك ممّن يشككه، فإن فطرته تعطي النظر في الأدلة إلاً أنه لم ينظر فإذا نبّه تنبّه، فمثل هذا إن لم يسرع إليه الذوق وإلاً خيف عليه، والمؤمن الآخر هو بمنزلة الجسد الذي قد تسوّت بنيته واستوت آلات قواه وتركّبت طبقات عينه غير أنه ما نفخ فيه الروح فلا نور لعينه، فإذا كان الإنسان بهذه المثابة من الطمس فنفخ فيه روح الإيمان فأبصرت عينه بنور الإيمان الأشياء فلا يتمكن له إدخال الشكوك عليه جملة ورأساً، فإنه ما لعينه نور سوى نور الإيمان والضدّ لا يقبل الضدّ، فماله نور في عينه يقبل به الشك والقدح فيما يراه، وهكذا هي الأذواق وهذه فائدتها، ومتى لم يكن الإيمان بهذه المثابة والفطرة بهذه المثابة وإلاً فقليل أن يجيء منه ما جاء من الأنبياء والأولياء من الصدق بالإلهيات، فالفطرة الذكية التي تقبل النظر في المعقولات من أكبر الموانع لحصول ما ينبغي أن يحصل من العلم الإلهيّ، والفطرة المطموسة هي القابلة التي لا نور لعينها من ذاتها إلاً من نور الإيمان، فلا تعطي فطرته النظر في الأمور على اختلافها، وممّا يعضد ما قلناه حديث إبار النخل وحديث نزوله بأصحابه يوم بدر وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] أي ما لي علم ولا نظر بغير ما يوحى إليّ، وهذا باب لا يعرفه إلاً أهل الله، ومنزلة الأنبياء فيما يأخذونه من الغيب بطريق الإيمان من الملائكة منزلة المؤمنين مع ما يأخذونه من الأنبياء، فالأنبياء مؤمنون بما يلقى إليهم الروح، والروح مؤمن بما يلقى إليه من يلقى إليه، فحظ المؤمن كان من كان من الظاهر ما ألقي إليه، وحظه من الباطن ما استتر به، وحظه من الأول علم الخواطر الإلهية، وحظه من الآخر إلحاق بقية الخواطر بالخواطر الإلهية وهو تتميم قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣].

السؤال السابع والتسعون: ما حظ المؤمنين من قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾؟ [سورة القصص: الآية ٨٨] الجواب: المؤمن هو الذي ذكرناه الذي لا نور لعين بصيرته إلاً نور الإيمان، فكل شيء عنده هالك عن شيئيته شيئية ثبوته وشيئية وجوده إلاً وجهه وجه الشيء ذاته وحقيقته ووجهه مظهره أي ظهوره في الأعيان، فأما شيئية ذاته فهي المستثناة لا بدّ من ذلك، وأما وجهه في المظهر فبعض أصحابنا يدخلها في ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾ وبعض أصحابنا لا يدخلها هنالك، فأما من أدخلها في الهلاك فاعتبر مظهراً خاصاً، وأما من لم يدخلها في الهلاك فاعتبر أنها لا تخلو عن مظهر ما، وأما نحن فلا نثبت إطلاق لفظ الشيئية على ذات الحق لأنها ما وردت ولا خوطبنا بها والأدب أولى، والأولى أن يكون هنا وجهه مثل إطلاق

الأول يريد المظهر لا هويته، والمظهر له مناسبة بينه وبين الوجه الظاهر فيه فلذلك صحّ الاستثناء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فسمّاه شيئاً في حال هلاكه، فكل شيء موصوف بالهلاك لأن هالك خبر المبتدأ الذي هو ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي كل ما ينطلق عليه اسم شيء فهو ﴿هَالِكٌ﴾ وإن كان مظهراً فهو في حال كونه مظهراً في شيئية عينه وهي هالكة فهو هالك في حال اتصافه بالوجود، كما هو هالك في حال اتصافه بالهلاك الذي هو العدم، فإن العدم للممكن ذاتيّ أي من حقيقة ذاته أن يكون معدوماً، والأشياء إذا اقتضت أموراً لذواتها فمن المحال زوالها، فمن المحال زوال حكم العدم عن هذه العين الممكنة، سواء اتصفت بالوجود أو لم تتصف، فإن المتصف بالوجود ما هو عين الممكن، وإنما هو الظاهر في عين الممكن الذي سمّي به الممكن مظهراً لوجود الحق فكل شيء هالك، فلهذا نفينا عن الحق إطلاق لفظ الشيء عليه ويكون الاستثناء استثناء منقطعاً مثل قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [سورة الحجر: ٣٠،٣١] ألا ترى لما استحق الحق الوجود لذاته استحال عليه العدم، كذلك إذا استحق الممكن العدم لذاته استحال وجوده، فلهذا جعلناه مظهراً.

قلنا في كتاب المعرفة: إن الممكن ما استحق العدم لذاته كما يقوله بعض الناس، وإنما الذي استحقه الممكن تقدم اتصافه بالعدم على اتصافه بالوجود لذاته لا العدم، ولهذا قبل الوجود بالترجيح إذن، فالعدم المرجح عليه الوجود ليس هو العدم المتقدم على وجوده، وإنما هو العدم الذي له في مقابلة وجوده في حال وجوده إن لو لم يكن الوجود لكان العدم، فذلك العدم هو المرجح عليه الوجود في عين الممكن، هذا هو الذي يقتضيه النظر العقلي، وأما مذهبنا فالعين الممكنة إنما هي ممكنة لأن تكون مظهراً إلاّ لأن تقبل الاتصاف بالوجود فيكون الوجود عينها إذن، فليس الوجود في الممكن عين الموجود بل هو حال لعين الممكن به يسمّى الممكن موجوداً مجازاً لا حقيقة، لأن الحقيقة تأبى أن يكون الممكن موجوداً، فلا يزال كل شيء لك كما لم يزل لم يتغير عليه نعت ولا تغير على الوجود نعت، فالوجود وجود والعدم عدم، والموصوف بأنه موجود موجود والموصوف بأنه معدوم معدوم، هذا هو نفس أهل التحقيق من أهل الكشف والوجود، ثم يندرج في هذه المسألة الوجه الذي له الإمام وهو الوجه المقيد بالنظر وبه تميز عن الخلف، فإذا كان الشخص يرى من خلفه مثل ما يرى من أمامه كان وجهاً كله بلا قفا فلا يهلك من هذه صفته لأنه يرى من كل جهة فلا يهلك لأن العين تحفظه بنظرها، فمن أي جهة جاءه من يريد إهلاكه لم يجد سبيلاً إليه لكشفه إياه، كما يتقي صاحب الوجه المقيد من يأتيه من أمامه. انتهى الجزء السابع والثمانون.

(الجزء الثامن والثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الثامن والتسعون: كيف خصّ ذكر الوجه؟ الجواب: لأنّ السبحات له فهي

مهلكة والمهلك لا يكون هالكاً. فاعلم أن الحقائق لا تتصف بالهلاك ووجه الشيء حقيقته. وإنما يتصف بالهلاك الأمور العوارض للحقائق من نسبة بعضها إلى بعض، فهي أعني الأمور العوارض حقيقتها أن تكون عوارض فلا يهلك وجهها عن كونها عوارض، فاتصاف من عرضت له نسبة ما ثم بها زالت تلك النسبة بحصول نسبة أخرى، فإزالة تلك النسبة العارضة تسمّى هلاكاً، ويسمّى ذلك المحل المنسوب إليه ذلك العارض بزواله هالكاً، وما ثم إلاّ حقائق، فما ثمَّ إلاّوجوه غير هالكة، وما ثم إلاّ نسب، فما ثم إلاّ هالك، فانظر كيف شئت وانطق بحسب ما تنظر، فلهذا خصّ الوجه لاستحالة اتصافه بالهلاك إذ كانت الحقيقة لا تهلك.

السؤال التاسع والتسعون: ما مبتدأ الحمد؟ الجواب: مبتدأه الابتداء، وهو المعنى القائم في نفس الحامد، فلا بدّ أن يكون مقيداً من طريق المعنى أنه ابتداء حادث، فلا بدّ له من سبب والسبب عين التقييد، ومن طريق التلفّظ بالحمد فمبتدأه الإطلاق، ثم بعد ذلك إن شئت قيدته بصفة فعل إلهيّ، وإن شئت نزهته في التقييد بصفة تنزيه وما ثم أكثر من هذا، وإن أراد السائل بالحمد هنا العبد فإنه عين الثناء على الحق بوجود عينه، فمبتدؤه الحق الذي أوجده لما أوجده وإن أراد بالحمد، ومبتدئه إضافة المبدأ إلى الحمد أي بما يبتدأ الحمد فنقول بالوجود، سواء اقترنت سعادة بذلك الموجود أو شقاوة، وإن أراد بالحمد حمد الحمد فمبتدؤه الوهب والمنة، وإن أراد بمبتدأ الحمد حمد الحق الحمد أو حمد الحق نفسه أو حمد الحق مخلوقاته فالثناء على الثناء بأنه ثناء ثناء عليه فمبتدؤه العلم بأنه ثناء، وإن أراد به حمد الحق نفسه فمبتدؤه الهوية فهو غيب لا يظهر أبداً، وإن أراد به حمد الحق خلقه فمبتدؤه إضافة الخلق إله تعالىٰ لا إلى غيره، وإن أراد بالحمد الفاتحة التي هي السورة فمبتدؤها الباء، إن نظرت الحق من حيث دلالة الخلق عليه فيكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية من سورة الفاتحة، وإن كان ينظرها من حيث الحق مجرّداً عن تعلّق العالم به للدلالة فمبتدؤها الألف من ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم تتصل بأمر ولا ينبغي لها أن تتصل ولم يتصل بها فإنها تتعالى في الفاتحة أن يتصل بها، فإنه ما اتصل بها في المعنى إلاّ أسماؤها وأسماؤها عينها فلم يتصل بها سواها، فإن أراد بالحمد عواقب الثناء فمبدؤه من حيث هو عواقب رجوع أسمائه إليه فإنه لا أثر لها إلاّ في الظاهر في المظاهر، وعلى الظاهر يقع الثناء وليس الظاهر في المظاهر غيره، فلا مثنى ولا مثنى عليه إلاّ هو، والتبس على الناس ما يتعلق بالمظاهر من الثناء فلهذا قالوا: ما مبتدأ الحمد، والظاهر من سؤال هذا السائل أنه أراد الفاتحة لأنه قال في السؤال الذي يليه: ما معنى آمين؟ وهي كلمة شرعت بعد الفراغ من الفاتحة فهو ثناء بدعاء، وكل ثناء بدعاء فهو مشوب، ولهذا قال: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَينِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ولِعَبْدي مَا سَأَلَ**» فآمين المشروعة لما فيها من السؤال وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ومن طلب شيئاً من أحد فلا بدّ أن يفتقر إليه بحال طلبه فمبتدأ الحمد على هذا هو الافتقار، ولهذا سأل في الإجابة.

ثم إنه ما أوجب له الافتقار إليه إلاّ أثر غناه تعالىٰ بما افتقر إليه فيه، فمبتدأ الحمد غنى الحق عن العالمين، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فقدّم الفقر على الغنيّ في اللفظ وغنى الحق مقدّم في المعنى على فقراء الخلق إليه، لا بل هما سؤالان تقدّم أحدهما على الآخر، فإن الغني عن الخلق لله أزلاً، والفقر للممكن في حال عدمه إلى الله من حيث غناه أزلاً، والموصوفان بالأزل نفياً وإثباتاً لا يتقدّم أحدهما على الآخر لأن الأزل لا يصحّ فيه تقدّم ولا تأخّر فافهم.

السؤال الموفي مائة: ما قوله آمين؟ الجواب: لما أراد الثناء بما هو دعاء في مصالح ترجع إلى الداعي لهذا قيل له قل آمين وهي تقصر وتمدّ، قال الشاعر في القصر: [الطويل]

تَبَاعَدَ مني فَطْحَلٌ وابنُ أُمِّهِ ... أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعْدَا

يعني حتى يتفرد مع الحق الذي لا يقبل البينية. وقال الشاعر في المد: [البسيط]

يا ربُّ لا تسلبَنِّي حُبَّها أبداً ... ويرحمُ الله عبداً قال آمينَا

يعني في دعائه بالبعد بينه وبين من يقبل البينية. وورد في الشرع الجهر بها والإخفاء، لأن الأمر ظاهر وباطن، فالباطن يطلب الإخفاء والظاهر يطلب الجهر غير أن الظاهر أعمّ، فإذا جهر بها فقد حصل حظ الباطن، وإذا أسر بها لم يعلم الظاهر ما جرى، والباطن خصوص والأسرار بها خاص لخاص، والظاهر عموم فالجهر بها عام لعام، وخاص: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**». وكل مذكور في ملأ فهو مذكور في النفس، وما كل ما هو مذكور في النفس يكون مذكوراً في الملأ، قوله عليه السلام: «**أَو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْم غَيْبِكَ**» هي أسماء لا يعلمها إلاّ هو فعلم السر أتم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فالمفاتيح العلم بها خاص له، والغيب قد يظهر على غيبة من يرتضيه من رسله ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن: الآية ٢٧] فالسر بها أتم مقاماً من الجهر بها، والجهر بها أعمّ منفعة من السر، السر بها آمين معناه أجب دعاءنا، لا بل معناه قصدنا إجابتك فيما دعوناك فيه، يقال: أمّ فلان جانب فلان إذا قصده ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] أي قاصدين، وخفّف أمين للسرعة المطلوبة في الإجابة، والخفة تقتضي الإسراع في الأشياء، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة فقد غفر له ولم يقل فقد أجيب لأنه لو أجيب لما غفر له، لأن المهدي ما له ما يغفر أي فمن أمّن مثل تأمين الملائكة، هذا معنى الموافقة لا الموافقة الزمانية، وقد تكون الموافقة الزمانية فيحويهم زمان واحد عند قولهم آمين.

والملائكة لا يخلو قولها في آمين هل يقولونها متجسدين أو يقولونها غير متجسدين؟ فإن قالتها متجسدة فربما يريد الموافقة الزمانية خاصة لأن التجسّد يحكم عليهم بالإتيان بلفظة آمين أي بترتيب هذه الحروف. وإن قالتها غير متجسدة فلم تبق الموافقة إلاّ أن يقولها العبد بالحال التي يقولها الملك، والحال هنا على أقسام الحال الواحدة أن يقولها بربّه، فإن الملك يقولها كذلك أو يقولها بحاله التي تقتضيها ذاته، فالإنسان إذا قالها كذلك قالها من حيث

روحانيته لا من حيث حسّه أو يقولها بحكم النيابة، فالملك قد يقولها كذلك أو يقولها وهو هو، فالملك قد يقولها كذلك، وقول الإنسان بحكم النيابة هو قوله بحكم الصورة التي خلق عليها، فينبغي للإنسان أن يقولها بكل حال يقولها الملك من هذه الأقسام التي ذكرناها، فإذا قالها غفر الله له، ولا بدّ أن يستره الله عن كل أمر يضادّ الهداية بما تنتج لا بدّ من ذلك لأن نتيجة الهداية سعادة، وقد يكون في حياته الدنيا غير مهدي والعناية قد سبقت فيجني ثمرة الهداية، فلهذا لم يقل أجيب وقال غفر، فهذا معنى قوله آمين، وكل داع بحسب ما دعا فإن الله يستجيب له بأمر سعادي لا بما عينه فقد أجابه بما فيه سعادته إذ هي المطلوب الأعم في كل دعاء داع.

السؤال الحادي ومائة: ما السجود؟ الجواب: السجود من كل ساجد مشاهدة أصله الذي غاب عنه حين كان فرعاً عنه، فلما اشتغل بفرعيته عن أصليته قيل له اطلب ما غاب عنك وهو أصلك الذي عنه صدرت، فسجد الجسم إلى التربة التي هي أصله، وسجد الروح إلى الروح الكل الذي عنه صدر، وسجد السر لربه الذي به نال المرتبة، والأصول كلها غيب، ألا تراها قد ظهرت في الشجر أصولها غيب؟ فإن التكوين غيب لا يشاهده أحد، الجنين يتكوّن في بطن أمّه فهو غيب، حيوان آخر يتكوّن في البيض فإذا كمل تشقق عنه الحق، أصل وجود الأشياء وهو غيب لها، السجود تحية الملوك لما كان السوقة دون الملك، فالملك له العلو والعظمة، فإذا دخل عليه من دونه سجد له، أي منزلتنا منك منزلة السفل من العلو، فإنهم نظروا إليه من حيث مكانته ومرتبته فإنهم على السواء في النشأة، سجدت الملائكة لمرتبة العلم فكان سجودها لا علم لها وهو الجهل، سجدت الظلال لمشاهدتها من خرجت عنه وهي الأشخاص يتستّر ظل الشخص عن النور بأصله الذي انبعث عنه لئلا يفنيه النور، فلم يكن له بقاء إلاّ بوجود الأصل فلا بقاء للعالم إلاّ بالله ،السلطان ظل الله في أرضه، العرش ظل الله يوم القيامة العرش عين الملك، يقال: ثل عرش الملك إذا اختلّ ملكه عليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] أي على ملكه سجود القلب إذا سجد لا يرفع أبداً لأن سجوده للأسماء الإلهية لا للذات، فإنها هي التي جعلته قلباً فهي تقلبه من حال إلى حال دنيا وآخرة فلهذا سمته قلباً، فإذا تجلّى له الحق مقلباً فيرى أنه في قبضة مقلبه وهو الأسماء الإلهية التي لا ينفكّ مخلوق عنها فهي المتحكمة في الخلائق، فمن مشاهد لها وهو الذي سجد قلبه، ومن غير مشاهد لها فلا يسجد قلبه وهو المدعي الذي يقول أنا، وعلى من هذه صفته يتوجّه الحساب والسؤال يوم القيامة والعقاب إن عوقب، ومن سجد قلبه فلا دعوى له فلا حساب ولا سؤال ولا عقاب، فلا حالة أشرف من حالة السجود لأنها حالة الوصول إلى علم الأصول، فلا صفة أشرف من صفة العلم فإنه معطي السعادة في الدارين والراحة في المنزلتين أصل الأعداد الواحد فلا وجود لها إلاّ به وبه بقاؤها، فمن لا علم له بأحدية خالقه كثرت آلهته وغاب عن معرفته بنفسه فجهل ربه: [مخلع البسيط]

فصار عبداً لكل ربٌ ... فهو محلٌ لكل ذنبِ

والسجود يقتضي الديمومية، ولهذا قال الشيخ أيضاً لسهل بن عبد الله إلى الأبد لأن السجود الخضوع، والإسجاد إدامة النظر، وكل من تطأطأ فقد سجد. وقلن له اسجد لليلى فأسجدا. أي طأطأ البعير لها لتركبه، والتطأطؤ لا يكون إلاّ عن رفعة، والرفعة في حق كل ما سوى الله خروج عن أصله، فقيل له: اسجد أي تطأطأ عن رفعتك المتوهمة واخضع من شموخك بأن تنظر إلى أصلك فتعرف حقيقتك، فإنك ما تعاليت حتى غاب عنك أصلك، فطلبك على أصلك طلبك الغيب عينه، ومن عرف أصله عرف عينه أي نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربّه، ومن عرف نفسه لم يرفع رأسه، ومن عرف ربّه رفع رأسه فإنه مخلوق على صورة ربّه، ومن نعوت ربّه الرفيع فلا بدّ أن يرفع نفسه وبعد هذه الرفعة يقال له اسجد فيسجد وجهه فيسجد قلبه فيرفع وجهه من السجود فلا يدوم، فإن القبلة التي سجد لها لا تدوم، والجهة التي سجد لها لا تدوم، فرفع لرفع المسجود له وسجد القلب فلم يرفع لأنه سجد لربه فقبلته ربه وربه لا يزول ولا ترتفع عن الوجود ربوبيته، فالقلب لا يرفع رأسه من سجوده أبداً لأن قبلته لا ترتفع، فهذا معنى السجود.

السؤال الثاني ومائة: ما بدؤه؟ الجواب: بدؤ السجود الذي أسجدك تنوّع الحالات وتغيراتها عليك، فنبهك ذلك على النظر في السبب الموجب لذلك فطلبت فعلمت أنك معلول وكل معلول فلا قيام له بنفسه، فإن المريض لا يمرض نفسه، وما كل ما تقام فيه من تغيّر الأحوال يرضيك، وإذا لم يرضك فقد أمرضك فلا بدّ من ممرض، ومن طلب الممرض فقد افتقر، فعلمت أنك فقير، وإذا افتقرت فهو كسر فقار ظهرك لم يتمكن لك أن ترفع رأسك فأنت موصوف بالسجود دائماً فهذا بدء السجود، وإن أراد بقوله ما بدؤه يعني ما بدؤه فيك أي ما هو أوّل شيء يعطيك السجود من منحه فنقول: القربة والقربة مؤذنة ببعد متقدّم، وكل ذلك يؤدّي إلى الحدّ ولا حدّ فإنه البعيد القريب، فاعلم أن الهوية المسمّاة بالبعيد القريب هي التي أعطتك السجود وبدأك بها منحة، ولكن من كونها تسمّى بالبعيد القريب فنقلتك من النعت البعيد إلى النعت القريب، فنقلتك من البعد إلى القربة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] ولم يقل غير ذلك من الأحوال، فدل على أن أول شيء يمنحك السجود هو القربة، ثم بعد ذلك تعطى من مقام القربة ما يليق بالمقربين من الملائكة والنبيين، فتلك عوارف التقريب والتقريب منحة السجود والسجود منحة النظر في تغيّر الأحوال، والنظر في تغيّر الأحوال حكم تغير الأحوال، وتغيّر الأحوال كونك على الصورة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكونك على الصورة كونك مظهراً للأسماء الإلهية، وكونك مظهراً للأسماء الإلهية أعطاك الرفعة، ولاتصافك بالرفعة أمرت بالسجود فاعلم.

السؤال الثالث ومائة: ما قوله: «العزّة إزاري»؟ الجواب: لما أنعم الحق على عباده حين دعاهم إلى معرفته بالتنزّل بضرب الأمثال لهم ليحصلوا بذلك القدر الذي أراد منهم أن يعلموا منه مثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] لقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فجعل النور نفسه لأنه خبر المبتدأ أي صفته وهويته النور من

حيث إنه الله النور، وأين نور المصباح من قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ وكذلك الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفوَانٍ**» وأين كلام الحق تعالىٰ من ضرب سلسلة على صفوان كذلك قوله: العزّة إزاري، فأنزل نفسه لعباده منزلة من يقبل الاتصاف بالإزار، وأن مراده من علمهم به في مثل هذا ما يناسب الإزار وما يستره الإزار. واعلم أن الإزار يتخذ لثلاثة أمور: الواحد للتجمّل. والثاني: للوقاية. والثالث: للستر. والمقصود في هذا الخبر من الثلاثة الوقاية خاصة لأجل قوله العزّة، فإن العزّة تطلب هنا الامتناع من الوصول إليه، لأن الإزار بقي موضع الغيرة أن تطلع إليه الأبصار. ولما كانت العزّة منيعة الحمى أن يتصف بها على الحقيقة خلق من المخلوقات أو مبدع من المبدعات لاستصحاب الذلّة للمخلوقات والمبدعات وهي تناقض العزّة، فلما اتزر الحق بالعزّة منع العقول أن تدرك قبول الأعيان للإيجاد الذي اتصفت به وتميّزت لأعيانها، فلا يعلم ما سوى الله صورة إيجاده ولا قبوله ولا كيف صار مظهراً للحق ولا كيف وصفه بالوجود، فقيل فيه موجود وقد كان يقال فيه معدوم فقال الحق: العزّة إزاري أي هي حجاب على ما من شأن النفوس أن تتشوّف إلى تحصله ولهذا قال: من نازعني واحداً منهما قصمته، فأخبر أنه ينازع في مثل هذه الصفات التي لا تنبغي إلا له، مثل العزّة والعظمة والكبرياء، والعزّة القهر الذي نجده عن إدراك السرّ الذي به ظهور العالم.

السؤال الرابع ومائة: ما قوله: والعظمة ردائي؟ الجواب: إن الله قد نبّه أن العظمة التي تلبسها العقول رداء يحجبها عن إدراك الحق عند التجلّي، فليست العظمة صفة للحق على التحقيق وإنما هي صفة للقلوب العارفة به، فهي عليها كالرداء على لابسه وهي من خلفه تحجبها تلك العظمة عن الإدلال عليه وتورثها الإذلال بين يديه، ومن الدليل على أن يوصف العظيم بالعظمة أنه راجع إلى العالم به لا إليه، أن المعظم إذا رآه من لا يعرفه لا يجد لذلك النظر في قلبه هيبة ولا تعظيماً لجهله به، والذي يعلم مكانته ومنزلته له على قلبه سلطان العلم به فيورثه ذلك العلم عظمة في قلبه فهو الموصوف بالعظمة لا العظيم. وقد ورد خبر ذكره أبو نعيم الحافظ في دلائل النبوّة: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْرَىٰ بِهِ فِي شَجَرَةٍ فِيهَا كَوكَرَيْ طَائِرٍ فَقَعَدَ جِبْرِيلُ فِي الْوَاحِدِ وَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الآخَرِ فَلَمَّا وَصَلاَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا تَدَلَّىٰ إِلَيْهِمَا شِبْهُ الرَّفْرَفِ دُرّاً وَيَاقُوتاً، فَأَمَّا جِبْرِيلُ فَغُشِيَ عَلَيهِ، وَأَمَّا مُحَمدٌ ﷺ فَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ مَا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَعَلِمْتُ فَضْلَ جِبْرِيلَ عَلَيَّ فِي العِلْمِ لأَنَّهُ عَلِمَ مَا رَأَىٰ وَأَنَا مَا عَلِمْتُهُ**» فالعظمة التي حصلت في قلب جبريل إنما كانت من علمه بما تدلّ إليه، فقلب جبريل هو الموصوف بتلك العظمة فهي حال للرائي لا للمرئيّ، ولو كانت العظمة حالة للمرئيّ لعظمه كل من رآه، والأمر ليس كذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ وَفِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَسْتَعِيذُونَ مِنْهُ وَلا يَجِدُونَ لَهُ تَعْظِيماً وَيُنْكِرُونَهُ لِجَهْلِهِمْ بِهِ فَإِذَا تَجَلَّىٰ لَهُمْ فِي العَلاَمَةِ التي يَعْرِفُونَهُ بِهَا أَنَّهُ رَبُّهُمْ حِينَئِذٍ يَجِدُونَ عَظَمَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَالهَيْبَةَ**» فلهذا قلنا في قوله: العظمة ردائي أي هي رداؤه لذي تلبسه عقول العلماء به، وجعلها رداء ولم يجعلها ثوباً فإن الرداء له كمية واحدة والثوب مؤلف من كميات

مختلفة ضمّ بعضها إلى بعض كالقميص، وكذلك أيضاً الإزار مثل الرداء، ولم يقل السراويل لأن ذلك أقرب إلى الأحدية من الثوب المؤلف لتنوّع الشكل.

السؤال الخامس ومائة: ما الإزار؟ الجواب: حجاب الغيرة والستر على تأثير القدرة الإلهية في الحقيقة الخامسة، الكلية الظاهرة في القديم قديمة وفي المحدثات محدثة، وهو ظهور الحقائق الإلهية، والصور الربانية في الأعيان الثابتة الموصوفة بالإمكان التي هي مظاهر الحق، فلا يعلم نسبة هذا الظهور إلى هذا المظهر إلاّ الله سبحانه وتعالىٰ، فالحجاب الذي حال بيننا وبين هذا العلم هو المعبّر عنه بالإزار وهي كلمة: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ولا أريد به حرف الكاف والواو والنون وإنما أريد به المعنى الذي به كان هذا الظهور.

السؤال السادس ومائة: ما الرداء؟ الجواب: العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامع للحقائق الإمكانية والإلهية وهو المظهر الأكمل الذي لا أكمل منه الذي قال فيه أبو حامد: ما في الإمكان أبدع من هذا العالم لكمال وجود الحقائق كلها فيه وهو العبد الذي ينبغي أن يسمّى خليفة ونائباً وله الأثر الكامل في جميع الممكنات وله المشيئة التامّة وهو أكمل المظاهر. واختلف العلماء هل يصحّ أن يكون منه في الوجود شخصان فصاعداً أو لا يكون إلاّ شخص واحد؟ فإن كان شخص واحد فمن هو ذلك الشخص؟ ومن أيّ قسم هو من أقسام الموجودات؟ هل من البشر أو من الجنّ أو من الملائكة؟ وإنما سمّاه رداء لأنه مشتق من الرّدى المقصور وهو الهلاك، لأنه مستهلك في الحق استهلاكاً كلياً بحيث أن لا يظهر له وجود عين مع ظهور الانفعالات الإلهية عنه، فلا يجد في نفسه حقيقة ينسب بها شيئاً من تلك الانفعالات إليه فيكون حقاً كله وهو قوله ﷺ: **«واجْعَلْنِي نُوراً»** أي يظهر فيّ كل شيء ولا أظهر بشيء، وقد يستهلك الحق فيه فلا ينسب بوجوده شيء إلى الحق وهو الوجه الذي اعتمد عليه من أثبت الحق المخلوق به كأبي الحكم بن برجان وسهل بن عبد الله التستري وغيرهما، وإليه أشرنا بقولنا: [البسيط]

أنا الرداءُ أنا السرُّ الذي ظهرتْ ... بي ظلمةُ الكونِ إذ صيَّرتُها نورا

فالمرتدي هو الهالك بهذا الرداء، فانظر من هو المرتدي فاحكم عليه بأنه مستهلك فيه فتجد حقيقة ما ذكرناه، فكل مرتد محجوب بردائه عن إدراك الأبصار، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] لأن الرداء يحجب الأبصار عنه ولا يحجبه عنها، فهو يدركها ولا تدركه، فالأبصار تدرك الرداء والرداء هو الذي استهلك المرتدي فيه بظهوره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤].

السؤال السابع ومائة: ما الكبر؟ الجواب: ما ظهر عن دعاوى الخلق في حضرة الربوبية من «أنا» على طبقات القائلين بها الكبر حال من أحوال القلوب من حيث ما هي عالمة بمن ينبغي أن ينسب إليه الكبرياء، فإن الحق معلوم عند كل موجود ويتبع العلم الكبرياء، فمن كان أعلم به كان كبرياء الحق في قلبه أعظم ممّن ليس في قلبه ما يوجب ذلك، فلو كان الكبرياء صفة للذات لكانت الذات مركبة، وإن كان عين الذات وتجلّى سبحانه وسلب العلم به في تجلّيه لم يجد المتجلّيٰ له أثر كبر

عنده لهذا المتجليّ لجهله به، فإن رزقه العلم به تبعه الكبر، والعلم مّما يوصف به العالم لا المعلوم، كذلك الكبر يوصف به من يوصف بالعلم بمن يكون الكبرياء من أثره في قلب هذا الشخص، ولهذا قد ورد: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي**» فهو حجاب بين العبد وبين الحق، يحجب العبد أن يعرف كنه المرتدي به وهو نفسه فأحرى أن يعرف ربه، ومع هذا فلا يضاف الكبر إلاّ لغير لابسه فإنه حالة عجيبة، وكذلك العظمة فإن الحق ما هي صفته لا ذاتية ولا معنوية، فإنه يستحيل على ذاته قيام صفات المعاني بها، ويستحيل أن تكون صفة نفسية من أجل ما ورد من إنكار الخلق له في تجلّيه مع كونه هو هو، وإذا بطل الوجهان فلم يبق إلاّ أن تكون صفة للمتجلّى له وهو الكون، أو حالة تعقل بين المتجلّي والمتجلّى له لا يتصف بها المتجلّي له لأن العبودة تقابل الكبر وتضادها، ومحال أن تقوم بنفسها بينهما، فلم يبق إلاّ أن تكون من أوصاف العلم، فتكون نسبة كبر وتعظيم وعزّة تتصف بها نسبة علم بمعلوم محقق من حيث ما يؤدّي إليه ذلك العلم من وجود هذه النسب ذوقاً وشرباً، كما تقول في التشبيه: وضرب المثل سواد مشرق وعلم حسن، فوصف السواد بالإشراق والعلم بالحسن وهو وصف من لا قيام له بنفسه بما لا قيام له بنفسه، فلذلك جعلنا الكبرياء والعظمة حالة نابعة للعلم بالمعظم والمكبر في نفس من عظّمه وكبّره.

السؤال الثامن ومائة: ما تاج الملك؟ الجواب: تاج الملك علامة الملك، وتتويج الكتاب السلطانيّ خط السلطان فيه، والوجود كتاب مرقوم يشهده المقرّبون، ويجهله من ليس بمقرّب، وتتويج هذا الكتاب إنما يكون بمن جمع الحقائق كلها وهي علامة موجده، فالإنسان الكامل الذي يدل بذاته من أوّل البديهة على ربّه هو تاج الملك وليس إلاّ الإنسان الكامل وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فلم يظهر الكمال الإلهيّ إلاّ في المركب، فإنه يتضمن البسيط ولا يتضمن البسيط المركب، فالإنسان الكامل هو الأوّل بالقصد والآخر بالفعل والظاهر بالحرف والباطن بالمعنى، وهو الجامع بين الطبع والعقل، ففيه أكثف تركيب وألطف تركيب من حيث طبعه، وفيه التجرّد عن المواد والقوىٰ الحاكمة على الأجساد، وليس ذلك لغيره من المخلوقات سواه، ولهذا خصّ بعلم الأسماء كلها وبجوامع الكلم، ولم يعلمنا الله أن أحداً سواه أعطاه هذا إلاّ الإنسان الكامل، وليس فوق الإنسان مرتبة إلاّ مرتبة الملك في المخلوقات، وقد تلمذت الملائكة له حين علمهم الأسماء، ولا يدل هذا على أنه خير من الملك ولكنه يدل على أنه أكمل نشأة من الملك، فلما كان مجلىّ الأسماء الإلهية صحّ له أن يكون للكتاب مثل التاج لأنه أشرف زينة يتزيّن بها الكتاب، وبذلك التتويج ظهرت آثار الأوامر في الملك، كذلك بالإنسان الكامل ظهر الحكم الإلهيّ في العالم بالثواب والعقاب، وبه قام النظام وانخرم، وفيه قضى وقدّر وحكم.

السؤال التاسع ومائة: ما الوقار؟ الجواب: حمل أعباء التجلّي قبل حصوله والفناء فيه كسكرات الموت قبل حلوله، وذلك أن للتجلّي مقدّمات كطلوع الفجر لطلوع الشمس، وكما ورد في الخبر عن مقدّمات تجلّي الرب للجبل بما ينزل من الملائكة والقوىٰ الروحانية في الضباب وهي أثقال التجلّي التي تتقدّمه من الوقر وهو الثقل، وإذا حصل الثقل ضعف الإسراع

والحركة، فسمّى ذلك السكون وقاراً أي سكون عن ثقل عارض لا عن مزاج طبيعيّ، فإن السكون الكائن عن الأمر الذي يورث الهيبة والعظمة في نفس الشخص يسمّى وقاراً وسكينة، والسكون الطبيعيّ الذي يكون في الإنسان من مزاجه لغلبة البرد والرطوبة على الحرارة واليبس لا يسمّى وقاراً، إنما الوقار نتيجة التعظيم والعظمة، ولا سيما أن تقدم التجلّي خطاب إلهيّ فصاحبه أشدّ وقاراً، لأنّ خطاب الحق بوساطة الروح يورث هيبة ولا سيما إن كان قولاً ثقيلاً. وقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كصلصلة الجرس يجد منه مشقة عظيمة ويورثه سكوناً وغشياً مع الواسطة، فكيف به إذا خاطبه الحق بارتفاع الوسائط مثل موسىٰ عليه السلام ومن كلّمه الله، فإذا كان هذا وأمثاله من مقدمات التجلّي الإلهيّ فكيف يكون حال الإنسان بعد حصول التجلّي من الوقار؟ ألا ترى إلى ما يحصل في قلوب الناس من هيبة الصالحين المنقطعين إلى الله الذين لم تجر العادة عند العامّة برؤيتهم، فإذا وقع نظرهم عليهم ظهر عليهم من الوقار والسكينة والخمود برؤيتهم ما لا يقدر قدره إلاّ الله وهو إجلال المتجلّي، يقول بعضهم: [البسيط]

كأنما الطيرُ منهم فوق أرؤسهم ... لا خوفَ ظلمٍ ولكنْ خوفَ إجلالِ

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

أشتاقه فإذا بدا ... أطرقتُ من إجلالهِ

لا خيفةً بل هيبةً ... وصيانةً لجمالهِ

فهذا الإطراق هو عين الوقار. وقال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] وقال عليه السلام: «**فَلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَونَ يَعْنِي الجُمُعَةَ واتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ**» أي امشوا مشي المثقلين، وهذا لا يكون إلاّ إذا تجلّى لهم في جلال الجمال.

السؤال العاشر والمائة: وما صفة مجالس الهيبة؟ الجواب: لما كانت الهيبة تورث الوقار سأل عن صفة مجلسه أي ما صفته في قعوده بين يديه؟ فمن صفته عدم الالتفات، واشتغال السرّ بالمشاهد، وعصمة القلب من الخواطر، والعقل من الأفكار، والجوارح من الحركات، وعدم التمييز بين الحسن والقبيح، وأن تكون أذناه مصروفة إليه، وعيناه مطرقتين إلى الأرض، وعين بصيرته غير مطموسة، وجمع الهم وتضاؤله في نفسه، واجتماع أعضائه اجتماعاً يسمع له أزيز، وأن لا يتأوّه مع جمود العين عن الحركة، وأن لا تعطيه المباسطة الإذلال، فإن جالسه بتقييد جهة كما كلّمه بتقييد جهة من حضرة مثالية كجانب الطور الأيمن ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠] فليكن سمعه بحيث قيده، فإن أطلق سمعه لأجل حقيقة أخرى تعطيه عدم التقييد وهو تعالىٰ قد قيّد نفسه به في جانب خاص فقد أساء الأدب، وليس هو في مجلس هيبة، ولا يكون صاحب مجلس الهيبة صاحب فناء لكنه صاحب حضور أو استحضار، لا يرجح ولا يجرح ولا يرفع ميزاناً ولا يسمّى إنساناً، فإن الإنسان مجموع أضداد ومختلفات.

السؤال الحادي عشر ومائة: ما صفة ملك الآلاء؟ الجواب: روحاني وذلك أن الملك لا يتصف به إلاَّ الجماد خاصة وهو أشدّ الخلق طواعية لله سبحانه المعترف بأنه ملك لله سبحانه، على أن جميع ما سوى الله ملك لله، ولكن الفضل في الملك أن يعلم أنه ملك، وأن يكون معاملته مع الله معاملة من هو ملك لله، وليس ذلك إلاَّ للمهيّمين من الملائكة والجمادات، وأما النبات فلم يتصف بذلك كل النبات، فإن منه من لا يخرج إلاَّ نكداً ولكن باقي الخلائق فيهم من قام بحق كونه ملكاً ومنهم من لم يقم بذلك في كلّ صنف، وبهذا وصفهم الحق سبحانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فالطائع في الإمكان أن يكون صاحب كره، والكاره في الإمكان أن يكون طائعاً، فأعظم الآلاء وأتمّها بل هي النعمة المطلقة أن يرزق الخلائق طاعة الله، فإنهم لذلك خلقوا فملك الآلاء هو الذي ملكته النعمة لله وهو قوله عليه السلام: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» وكل ما سوى الله متغذ، فكلّ ما سوى الله منعم عليه، فكل من تعبّدته نعمة الله لله، فهو ملك الآلاء والآلاء من جملة الملك فيحتاج إلى نعمة، وتلك النعمة عين وجودها وبقائها في المنعمين عليهم، فالنعم ملك الآلاء أيضاً، فإذا كان ملك الآلاء المنعم عليهم ردّتهم النعمة إلى الله فكان ملكهم لله بتلك النعم فهم ملك الآلاء فملك الآلاء من كل بهذه الصفة، وإذا كان ملك الآلاء عبارة عن عين الآلاء فصفة هذا العين أن لا تنسب إلاَّ إلى الله، فإن نسبت إلى غير الله فذلك من جهة المنعم عليه لا من جهة النعمة، والمنعم عليه هو المذموم بقدر ما أضاف من الآلاء إلى غير الله لما تلا رسول الله ﷺ سورة الرحمن العامّة لجميع ما خلق الله دنيا وآخرة وعلواً وسفلاً على الجن فما قال في آية منها: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن: الآية ١٣] إلاَّ قالت الجن: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فمدحهم رسول الله ﷺ لأصحابه بحسن الاستماع حين تلاها عليهم ولم يقولوا شيئاً من ذلك، ولم يكن سكوتهم عن جهل بأن الآلاء من الله، ولا أن الجن أعرف منهم بنسبة الآلاء إلى الله، ولكن الجن وفت بكمال المقام الظاهر حيث قالت: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فإن الموطن يقتضيه.

ولم تقل الصحابة من الإنس حين تلاها عليهم شغلاً منهم بتحصيل علم ما ليس عندهم ممّا يجيء به رسول الله ﷺ فشغلهم ذلك الحرص على تعمير الزمان الذي يقولون فيه ما قالت الجن أن يقوله النبيّ ﷺ ما يقول من العلم فيستفيدون فهم أشدّ حرصاً على اقتناء العلم من الجن، والجن أمكن في توفية الأدب بما يقتضيه هذا الموطن من الجواب من الإنس، فمدحهم رسول الله ﷺ بما فضلوا به على الإنس، وما مدح الإنس بما فضلوا به على الجنّ من الحرص على مزيد العلم بسكوتهم عند تلاوته ولا سيما والحق يقول لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] والسورة واحدة في نفسها كالكلام غير التام، فهم ينصتون حتى يتمّها. فجمع الصحابة من الإنس بين فضيلتين لم يذكرهما رسول الله ﷺ وذكر فضل الجن فيما نطقوا به، فإن نطقه تصريح بالعبودية بلسان الظاهر وهم بلسان الباطن أيضاً عبيد فجمعوا بين اللسانين بهذا النطق. والجواب: ولم يفعل الإنس من

الصحابة ذلك عند التلاوة فنقصهم هذا اللسان، فكان توبيخ رسول الله ﷺ إياهم تعليماً بما تستحقه المواطن أعني مواطن الألسنة الناطقة ليتنبهوا فلا يفوتهم ذلك من الخير العملي فإنهم كانوا في الخير العلمي في ذلك الوقت، وحكم العمل في موطنه لا يقاومه العلم، فإن الحكم للموطن وحكم العلم في موطنه لا يقاومه العمل، والجن غرباء في الظاهر، فهم يسارعون في الظهورية ليعلموا أنهم قد حصل لهم فيه قدم لكونهم مستورين، فهم إلى الباطن أقرب منهم إلى الظاهر، والتلاوة كانت بلسان الظاهر، والإنس في مرتبة الظاهر فحجبهم عن الجواب الذي أجابت به الجن كونهم أصحاب موطن الظاهر، فذهلوا عن الجواب لقرينة حال موطنهم، ولو وفوا به لكان أحسن في حقّهم، فنبّههم رسول الله ﷺ على الأكمل في موطنه وهو المعلم فنعم المؤدّب. فمن أراد تحقيق ملك الآلاء فليتدبّر سورة الرحمن من القرآن وينظر إلى تقديم الإنس على الجن في آيتها وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣] أيضاً فابتدأ به تقديراً ومرتبة نطقية تهمماً به على الجن وإن كان الجن موجوداً قبله يؤذن بأنه وإن تأخرت نشأته فهو المعتنى به في غيب ربّه.لأنه المقصود من العالم لما خصّه به من كمال الصورة في خلقه باليدين وعلّمه الأسماء والإفصاح عمّا علّمه بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤].

وبعض أصحابنا يطلق ملك الآلاء على ما يحصل للعبد من مزيد الشكر على نعم الله، فذلك القدر لمن حصل له يسمّى ملك الآلاء فهو ملك الشاكرين، فمن شكر نعم الله بلسان حق وناب الحق مناب العبد من اسمه الشكور وهو شكره لعباده على ما كان منهم من شكرهم على ما أنعم عليهم ليزيدوا في الأعمال في مقابلة شكره، فيكون ما جازاهم به من ذلك على قدر علم الشاكر بالمشكور، والله هو الشاكر في هذا الحال وهو العالم بنفسه، فالجزاء الذي يليق بهذا الشاكر لو جوزي هو الذي يحصل لهؤلاء الشاكرين الذين لهم هذا الحال، فهذا الجزاء يسمّى ملك الآلاء وهو أعظم الملك وهو قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٢ ـ ٢٣] أي نعم ربها جمع آلاء، وإلى ربها المضافة إليه هنا الذي يستحقها لو قبل الجزاء الذي هذه صفته، فتكون تلك جزاء هؤلاء، وهذا من باب ما طلبه الله من عباده فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] و﴿ٱعْبُدُونِيۚ﴾ [سورة فاطر: آية ٣٦] ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٠] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]. وهذا كله جزاء من العبد في مقابلة ما أنعم الله عليه به من الوجود خاصة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك ما خلق من أجله من النعم المعنوية والحسيّة؟ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فعلّل فيعبدوه لكونه أنعم عليهم بالإيجاد لكمال مرتبة العلم والوجود من حيث من ذكر من الأجناس فاعلم ذلك لا لكمال مرتبة الوجود والمعرفة من غير هذا التقييد، فإن ذلك يكفي فيه خلق محدث واحد، وإيجاد العلم المحدث فيه المتعلق بالله والكون، ولكن لما كانت الأجناس منحصرة عند الله وأوجدها كلها وبقي هذان الجنسان أوقع الأخبار عنهما بما ذكر فشرحناه بما يعطيه الحال المقصودة لخالقهما تعالىٰ بهما. انتهى الجزء الثامن والثمانون.

(الجزء التاسع والثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الثاني عشر ومائة: ما صفات ملك الضياء؟ الجواب: قال تعالىٰ في القرآن: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٨] فكل ما أضاء بالقرآن فهو ملك الضياء، وكذلك جعل الشمس ضياء، فكل ما أضاء بالشمس في الدنيا ويوجد به عينه فهو من ملك الضياء وكلّ نور أعطى ضياء فهو من ملك الضياء ممّا لا يقابله معطي الضياء بنفسه، أي نوع كان من الأنوار فضياؤه هو الضوء الذي لا يكون معه الحجاب عمّا يكشفه والنور حجاب، قال رسول الله ﷺ في حق الحق تعالىٰ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**» وقال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» والضياء ليس بحجاب، فالضياء أثر النور وهو الظل، فإن النور صيّره الحجاب ضياء فهو بالنسبة إلى الحجاب ظل وإلى النور ضياء، فله الكشف من كونه ضياء، وله الراحة من كونه ظلاً، فملك الضياء ملك الكشف فهو ملك العلم، وملك الراحة فهو ملك الرحمة، فجمع الضياء بين الرحمة والعلم، قال تعالىٰ في منّته على عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهو الظل ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهو الضياء أي الكشف الضيائي وهو أتم الكشوف، وإنما قلنا النور حجاب لقوله عليه الصلاة والسلام: «**نورٌ أنَّى أراه**» أي النور لا يتمكن أن تدركه الأبصار لأنها تضعف عنه فهو حجاب على نفسه بنفسه، والضياء ليس كذلك فالضياء روح النور والضياء للنور ذاتي، فملك الضياء ملك ذاتي، وضوء الذات الأسماء الإلهية، فملك الضياء ملك الأسماء والقرآن ضياء فملكه ما أظهره القرآن، فعلم الخضر في زمان موسىٰ عليه السلام جزء من أجزاء ما يحويه صاحب القرآن المحمديّ من العلوم، فبالقرآن يكشف جميع ما في الكتب المنزّلة من العلوم، وفيه ما ليس فيها، فمن أوتي القرآن فقد أوتي الضياء الكامل الذي يتضمن كل علم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] وهو القرآن العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] وبه صحّ لمحمد ﷺ جوامع الكلم. فعلوم الأنبياء والملائكة وكل لسان علم فإن القرآن يتضمنه ويوضحه لأهل القرآن بما هو ضياء، فهو نور من حيث ذاته لأنه لا يدرك لعزّته وهو ضياء لما يدرك به ولما يدرك منه، فمن أعطى القرآن فقد أعطي العلم الكامل، فما ثم في الخلق أتمّ من المحمديين وهم: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] ثم ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [سورة يونس: الآية ٥] لوجود روح الحياة في العالم كله، وبالحياة رحم العالم، فالحياة فلك الرحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وكذلك نسبة الحياة إلى الذات الإلهية شرط في صحة كل نسبة نسبت إلى الله من علم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر وإدراك، فلو رفعت نسبة الحياة إليه ارتفعت هذه النسب كلها، فهي الرحمة الذاتية التي وسعت جميع الأسماء، فهي ضياء النور الذاتي وظل الحجاب النسبيّ لأنه لا يعقل الإله إلاّ بهذه النسب، وتعقل الذات نوراً لا من حيث هذه النسب، فكونه إلهاً حجاب على الذات فكانت الألوهية عين الضياء فهي عين

الكشف والعلم، وكانت عين الظل النسبية فكانت عين الرحمة، فجمعت الألوهية بين العلم والرحمة في حق الكون وهو المألوه، وفي حق الأسماء الإلهية فما أعطاه هذا المقام الإلهي فهو ملك الضياء وهو أرفع من ملك السموات والأرض وما بينهما ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] بل لا يؤمنون، وقد نبهتك على ما فيه غنية وشفاء في ملك الضياء:

[مجزوء الكامل]

فـالـكُـلُّ فـي مـلـك الـضـيـا ... ءِ ولـيـس عـنـدَهُـمُ خَـبَـرْ
والـكـلُّ فـي عـيـن الـظِّـلا ... ل وهـو الـمـسـمَّـى بـالـمَـقَـرّ
فـالـحـمـدُ لله الـذي ... قـد حُـزْتُـهُ بـيـن الـبـشَـرْ
فـي عـصـرنـا هـذا فـهـل ... فـي وقـتـنـا مـن مُـدَّكِـرْ
يـعـرف مـا قـد قـلـتُـه ... كـمـا أتـانـا فـي الـزُّبُـرْ
هـذا هـو الـعِـلْـمُ الـذي ... يـقـضـي عـلـى عـلـم الـخَـضِـرْ
هـل كـان إلاَّ خَـرْقـهُ ... سـفـيـنـةً ذاتَ دُسُـرْ
وقـتـلَ نـفـسٍ رحـمـةً ... لـو أنـه يـحـيـا كَـفَـرْ
وسـتْـرَهُ كـنـزَ الـذي ... كـان يـتـيـمـاً يـحـتَـقِـرْ
وعِـلْـمُـنـا بـالله لا ... بـعـيـنِ كـونٍ عـن نَـظَـرْ
فـأيـن ذا مـن ذاك يـا ... أهـلَ الـقَـلـوبِ والـبَـصَـرْ
هـذا هـو الـعـلـمُ الـذي ... يُـقـال سـحـرٌ مـسـتـمِـرّ
ودونـه الـشـمـسُ الـتـي ... تُـكْـسَـفُ فـيـه والـقَـمَـرْ
فـي مـقـعـدِ مـن صِـدْقِـهِ ... عـنـد مـلـيـكٍ مُـقْـتَـدِرْ
مـتَّـكـىءٍ عـلـى سُـرُرْ ... وسْـطَ جـنـانٍ فـي نَـهَـرْ

السؤال الثالث عشر ومائة: ما صفات ملك القدس؟ الجواب: قالت الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] تعني ذواتها أي من أجلك لنكون من أهل ملك القدس، فالمتطهرون من البشر من أهل الله من ملك القدس، وأهل البيت من ملك القدس، والأرواح العلا كلها من غير تخصيص من ملك القدس، فتختلف صفات ملك القدس باختلاف ما تقبله ذواتهم من التقديس، ولما نعت الله اسم الملك بالاسم القدوس والملك يطلب الملك فيضاف الملك إلى القدس كما يضاف إلى الآلاء وغيرها، وذوات ملك القدس على نوعين في التقديس: فمنهم ذوات مقدسة لذاتها وهي كل ذات كونية لم تلتفت قط إلى غير الاسم الإلهيّ الذي عنه تكوّنت فلم يطرأ عليها حجاب يحجبها عن إلٰهها فتتصف لذلك الحجاب بأنها غير مقدسة أي لا تضاف إلى القدس فتخرج عن ملك القدس وهم الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] أي ينزّهون ذواتهم عن التقديس العرضي بالشهود الدائم، وهذا مقام ما ناله أحد من البشر إلاَّ من استصحب حقيقته من حين خلقت شهود الاسم الإلهيّ الذي عنه تكوّنت وبقي عليها هذا الشهود حين أوجد الله لها مركبها الطبيعيّ

الذي هو الجسم، ثم استمرّ لها ذلك إلى حين الانتقال إلى البرزخ من غير موت معنويّ وما مات حسّاً، وهذا والله أعلم ناله محمد ﷺ فإنه قال: **«كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ»** يريد أن العلم بنبوته حصل له وآدم بين الماء والطين، واستصحبه ذلك إلى أن وجد جسمه في بلد لم يكن فيه موحّد لله، ولم يزل على توحيد الله لم يشرك كما أشرك أهله وقومه، ثم إنه لما استقامت آلاته الحسيّة وتمكن من العمل بها بحسب ما وجدت له واستحكم بنيان قصر عقله وخزانة فكره واعتدلت مظاهر قواه الباطنة لم يصرفها إلاّ في عبادة خالقه، فكان يخلو بغار حرا للتحنّث فيه إلى أن أرسله الله إلى الناس كافة فكان يذكر الله على كل أحيانه كما ذكرت عنه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد قال ﷺ عن نفسه وهو الصادق: **«أَنَّهُ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ»** فأخبر عن قلبه أنه لا ينام عند نوم عينه عن حسّه، فكذلك موته إنما مات حسّاً كما نام حسّاً، فإن الله يقول له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] وكما أنه لم ينم قلبه لم يمت قلبه، فاستصحبته الحياة من حين خلقه الله، وحياته إنما هي مشاهدة خالقه دائماً لا تنقطع.

وقد أخبر ذو النون المصري حين سئل عن قوله تعالىٰ في أخذ الميثاق فقال: كأنه الآن في أذني يشير إلى علمه بتلك الحال، فإن كان عن تذكّر فلم يلحق بالملائكة في هذا المقام، وإن لم يكن عن تذكّر بل استصحاب حال من حين أشهد إلى حين سئل فيكون ممّن خصّه الله بهذا المقام فلا أنفيه ولا أثبته، وما عندي خبر من جانب الحق تعالىٰ في ذلك مروي ولا غير مروي أنه ناله أحد من البشر، وإنما ذكرنا ذلك في حق رسول الله ﷺ أعني أنه ناله على طريق الاحتمال لا على القطع فإنه لا علم لي بذلك، والظاهر أنه تخلّله في هذا المقام ما يتخلّل البشر فإنه كثيراً ما أوحى إليه في القرآن أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦] فاستروحنا من هذا أن حكمه حكم البشر إلاّ ما خصّه الله به من التقريب الإلهيّ الذي ورد وثبت عندنا، وقد ثبت عنه أنه قال: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ وَأَرْضَىٰ كَمَا يَرضَىٰ البَشَرُ»** والرضى والغضب من صفات النفس الحيوانية في البشر لا من صفات النفس الناطقة، وإن اتصفت النفوس الناطقة بالرضى والغضب فما هو على حد ما أراده بقوله: **«أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ وَأَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ»** وإذا قلنا بإضافة ذلك إلى النفس الحيوانية لما نشاهده من الحيوانات من ذلك.

وقد ثبت النهي عن رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم وجميع الحيوان كله من صفته المباشرة التي بحقيقتها سمّي الإنسان بشراً، وبهذا القدر تبين فضل الملك على الإنسان في العبادة لكونه لا يفتر، لأن حقيقة نشأته تعطيه أنه لا يفتر، فتقديسه ذاتي لأن تسبيحه لا يكون إلاّ عن حضور مع المسبح، وليس تسبيحه إلاّ لمن أوجده، فهو مقدس الذات عن الغفلات فلم تشغله نشأته الطبيعية النورية عن تسبيح خالقه على الدوام مع كونهم من حيث نشأتهم يختصمون، كما أن البشر من حيث نشأته تنام عينه ولا ينام قلبه، ولم يعط البشر قوّة الملك في ذلك لأن الطبيعة يختلف مزاجها في الأشخاص، وهذا مشهود بالضرورة في عالم العناصر، فكيف بمن هو في نسبته إلى الطبيعة أقرب من نسبة العناصر إليها، وعلى قدر ما

يكون بين الطبيعة المجرّدة وبين ما يتولد عنها من وسائط المولدات يكثف الحجاب وتترادف الظلم، فأين نسبة آخر موجود من الأناسي من ربه من حيث خلق جسد آدم بيديه من نسبة آدم إلى ربه من حيث خلقه بيديه، فآدم يقول: خلقني ربي بيديه، وابنه شيث يقول: بيني وبين يدي ربي أبي، وهكذا الموجودات الطبيعية مع الطبيعة من ملك وفلك وعنصر وجماد ونبات وحيوان وإنسان وملك مخلوق من نفس إنسان، وهذا الملك آخر موجود طبيعيّ، ولا يعرف ذلك من أصحابنا إلاَّ القليل فكيف من ليس من أهل الإيمان والكشف.

وأما القسم الذي تقديسه لا من ذاته فهي كل ذات يتخلّل شهودها خالقها غفلات، فالأحيان التي تكون فيها حاضرة مع خالقها هي من ملك القدس، وسنبين ما ذكرناه في سؤاله ما القدس إذا أجبنا عنه بعد هذا إن شاء الله، فمن صفات ملك القدس التباعد عن الطبيعة بالأصل، والتباعد عن مشاهدة آثار الأسماء الإلهية بمشاهدة الأسماء الإلهية لا من كونها مؤثرة بل بما تستحقه الألوهية والذات، فإذا كان القدس عين الملك وأضيف إلى عينه لاختلاف اللفظ واختلاف معنى الملك والقدس فإنه يدل على المبالغة في الطهارة والمبالغة في الطهر هي نسبة في الطهر ما هي عين الطهر لوجود الطهر دونها، وما هي غير الطهر فإن المبالغة ليست سوى استقصاء هذه الصفة، فيكون ملك القدس استقصاء وهو المبالغة فيه فيكون سؤاله عن صفاته الذاتية، فإن هذه المراتب نشآت في المعاني كالنشآت الطبيعية، وقد علمت أن النشء الطبيعيّ كما أخبر الله مخلقة وغير مخلقة أي تامة الخلق وغير تامة الخلق، والغير التامة الخلق داخلة في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فأعطى النقص خلقه أن يكون نقصاً، فالزيادة على النقص الذي هو عينه لو كانت لكانت نقصاً فيه ولم يعط النقص خلقه فتمام النقص أن يكون نقصاً.

السؤال الرابع عشر ومائة: ما القدس؟ الجواب: الطهارة وهي ذاتية وعرضية، فالذاتية كتقديس الحضرة الإلهية التي أعطيها الاسم القدوس فهي القدس عن أن تقبل التأثر فيها من ذاتها، فإن قبول الأثر تغيير في القابل، وإن كان التغيير عبارة عن زوال عين بعين إما في محل أو مكان، فيوصف المحل أو المكان بالتغيير، ومعنى ذلك أنه كان هذا المحل مثلاً أصفر فصار أخضر، أو كان ساكناً فصار متحرّكاً، فتغير المحل أي قبل الغير، فالقدس والقدوس لا يقبل التغيير جملة واحدة، وأما القدس العرضي فيقبل الغير وهو النقيض، وما تفاوت الناس إلاَّ في القدس العرضي، فمن ذلك تقديس النفوس بالرياضات وهي تهذيب الأخلاق، وتقديس المزاج بالمجاهدات، وتقديس العقول بالمكاشفات والمطالعات، وتقديس الجوارح بالوقوف عند الأوامر والنواهي المشروعات، ونقيض هذا القدس ما يضاده ممّا لا يجتمع معه في محل واحد في زمان واحد، فهذا هو القدس الذي ذكرنا ملكه، فالقدس العارف لا يكون إلاَّ في المركبات، فإذا اتصف المركب بالقدس فذلك المسمّى حظيرة القدس أي المانعة قبول ما يناقض كونها قدساً، ومهما لم تمنع فلا تكون حظيرة قدس فإن الحظر المنع ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] أي ممنوعاً، فالقدس حقيقة إلهية سيالة سارية في

المقدسين، لا يدرك لنورها لون مخصوص معين، ولا عين تسري في حقائق الكون، ليس لعالم الأرواح المنفصلين عن الظلمة عليها أثر، وذلك أن الأرواح المدبّرة للأجسام العنصرية لا يمكن أن تدخل أبداً حظيرة القدس، ولكن العارض الكامل يشهدها حظيرة قدس فيقول العارف عند ذلك: إن هذه الأرواح لا تدخل حظيرة القدس أبداً لأن الشيء يستحيل أن يدخل في نفسه فهي عنده حظيرة قدس، وغير العارف يشارك العارف في هذا الإطلاق فيقول: إنها لا تدخل حظيرة القدس أي لا تتصف بالقدس أبداً، فإن ظلمة الطبع لا تزال تصحب الأرواح المدبّرة في الدنيا والبرزخ والآخرة فاختلفا في المشهد وكل قال حقاً وأشار إلى معنى وما تواردوا على معنى واحد، ولهذا لا يتصوّر الخلاف الحقيقيّ في هذا الطريق، فإذا كان ملك القدس كل من اتصف بالطهارة الذاتية والعرضية، والقدوس اسم إلهيّ منه سرت الطهارة في الطاهرات كلها، فمن نظر الأشياء كلها بعين ارتباطها بالحقائق الإلهية كان ملك القدس جميع ما سوى الله من هذه الحيثية، ومن نظر الأشياء من حيث أعيانها فليس ملك القدس منها إلاّ من كان طهوره عرضياً.

وأما الطهور الذاتيّ فلا ينبغي أن يكون ملك القدس إلاّ أن يكون ملك القدس عين القدس، فحينئذ يصحّ أن يقال فيه ملك القدس، وطهور كل مطهر بحسب ما تقضيه ذاته من الطهارة، فطهارة حسّيّة وطهارة معنوية، فملك القدس منه ما هو من عالم المعاني، ومنه ما هو من عالم الحسّ، وقد تورث الأسباب الحسّيّة المطهرة طهارة معنوية، وقد تورث الأسباب المعنوية المطهرة طهارة حسّيّة، فأما الأول: فقوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] وسبب هذه الطهارة المعنوية كلها إنما هو نزول هذا الماء من السماء. وأما الثاني فقول النبيّ ﷺ لأبي هريرة حين كان جنباً فانتزع أبو هريرة يده من يد النبي ﷺ تعظيماً له لكونه غير طاهر لجنابة أصابته فقال له رسول الله ﷺ: «**إنَّ المُؤمِنَ لاَ يَنجَسُ فَعَرَقُ المُؤْمِنِ وَسُؤْرُهُ طَاهِرٌ**» فهذه طهارة حسّيّة عن طهر معنويّ، وكذلك المقدس طهارته الحسّيّة عن طهر معنويّ فإن له التواضع وهو مسيل الحياة والعلم والحياة مطهرة والعلم كذلك فبالمجموع نال الطهارة، فإن الأودية كلها طاهرة وإنما تنجس بالعرض، وكل واد به شيطان فهو نجس، فما يجد المؤمن فيه خيراً لأجل ذلك الشيطان كما ثبت عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ هٰذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ**» فارتفع عنه وصلّ في موضع آخر. ووادي عرنة بعرفة موقف إبليس، وكذلك بطن محسر، فلهذا أمرنا بالارتفاع يوم عرفة عن بطن عرنة، وأمرنا بالإسراع في بطن محسر، ولهذا يعتبر الأولياء أهل الكشف ألفاظ الذكر، كان شيخنا يقول: الله الله، فقلت له: لم لا تقول لا إله إلاّ الله؟ فقال: أخاف أن أموت في وحشة النفي إذ كان كل حرف نفس، فهذا مثل الإسراع في بطن محسر لئلاّ يدركه الموت في مكان غير طاهر، ولأولياء الله في هذا الكشف التام نظر دقيق جعلنا الله من أهله.

السؤال الخامس عشر ومائة: ما سبحات الوجه؟ الجواب: وجه الشيء ذاته وحقيقته، فهي أنوار ذاتية بيننا وبينها حجب الأسماء الإلهية ولهذا قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾

[سورة القصص: الآية ٨٨] في أحد تأويلات هذا الوجه، وهذه السبحات في العموم باللسان الشامل أنوار التنزيه وهو سلب ما لا يليق به عنه وهي أحكام عدمية، فإن العدم على الحقيقة هو الذي لا يليق بالذات وهنا الحيرة فإنه عين الوجود فإذا لا ينزّه عن أمر وجوديّ، ولهذا كانت الأسماء الإلهية نسباً إن تفطنت أحدثت هذه النسب أعيان الممكنات لما اكتسبت من الحالات من هذه الذات، فكل حال تلفظ باسم يدل عليه من حيث نفسه إما بسلب أو إثبات أو بهما، وهي هذه الأسماء على قسمين: قسم كله أنوار وهي الأسماء التي تدل على أمور وجودية، وقسم كله ظلم وهي الأسماء التي تدل على التنزيه، فقال: «**إِنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً أَوْ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» فإنه لو رفع الأسماء الإلهية ارتفعت هذه الحجب، ولو ارتفعت الحجب التي هي هذه الأسماء ظهرت أحدية الذات، ولا يقف لأحديتها عين تتصف بالوجود، فكانت تذهب وجود أعيان الممكنات، فلا توصف بالوجود لأنها لا تقبل الاتصاف بالوجود إلاَّ بهذه الأسماء، ولا تقبل الاتصاف بهذه الأحكام كلها عقلاً وشرعاً إلاَّ بهذه الأسماء، فالممكنات من خلف هذه الحجب مّما يلي حضرة الإمكان، فهو تجلٍ ذاتي أورثها الاتصاف بالوجود من خلف حجاب الأسماء الإلهية، فلم يتعلق لأعيان الممكنات علم بالله إلاَّ من حيث هذه الأسماء عقلاً وكشفاً.

السؤال السادس عشر ومائة: ما شراب الحب؟ الجواب: تجلّ متوسط بين تجليين؛ وهو التجلّي الدائم الذي لا ينقطع وهو أعلى مقام يتجلى الحق فيه لعباده العارفين وأوله تجلّي الذوق. وأما التجلّي الذي يقع به الريّ فهو لأصحاب الضيق فغاية شربهم ريّ. وأما أهل السعة فلا ريّ لشربهم كأبي يزيد وأمثاله، فأول ما أقدّم في هذا السؤال معرفة الحب وحينئذ يعرف شرابه الذي أضيف إليه وكأسه.

فاعلم أن الحب على ثلاث مراتب: حب طبيعي وهو حب العوامّ وغايته الاتحاد في الروح الحيوانيّ فتكون روح كل واحد منهما روحاً لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة ونهايته من الفعل النكاح، فإن شهوة الحب تسري في جميع المزاج سريان الماء في الصوفة بل سريان اللون في المتلون. وحب روحانيّ نفسيّ وغايته التشبّه بالمحبوب مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره. وحب إلهيّ وهو حب الله للعبد وحب العبد ربه كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] ونهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مظهراً للحق وهو لذلك الحق الظاهر كالروح للجسم باطنه غيب فيه لا يدرك أبداً ولا يشهده إلاَّ محب، وأن يكون الحق مظهراً للعبد فيتصف بما يتصف به العبد من الحدود والمقادير والأعراض ويشاهد هذا العبد وحينئذ يكون محبوباً للحق، وإذا كان الأمر كما قلناه فلا حدّ للحب يعرف به ذاتيّ، ولكن يحد بالحدود الرسمية واللفظية لا غير، فمن حدّ الحب ما عرفه ومن لم يذقه شرباً ما عرفه، ومن قال: رويت منه ما عرفه فالحب شرب بلا ريّ. قال بعض المحجوبين: شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً، فقال أبو يزيد: الرجل من يحسي البحار ولسانه خارج على صدره من العطش وهذا هو الذي أشرنا إليه.

واعلم أنه قد يكون الحب طبيعياً والمحبوب ليس من عالم الطبيعية، ولا يكون الحب طبيعياً إلاّ إذا كان المحب من عالم الطبيعة لا بدّ من ذلك، وذلك أن الحب الطبيعيّ سببه نظرة أو سماع فيحدث في خيال الناظر ممّا رآه إن كان المحبوب ممّن يدرك بالبصر، وفي خيال السامع ممّا سمع فحمله في نشأته فصوّره في خياله بالقوّة المصوّرة، وقد يكون المحبوب ذا صورة طبيعية مطابقة لما تصوّر في الخيال أو دون ذلك أو فوق ذلك، وقد لا يكون للمحبوب صورة ولا يجوز أن يقبل الصور، فصور هذا المحبّ من السماع ما لا يمكن أن يتصوّر، ولم يكن مقصود الطبيعة في تصوير ما لا يقبل الصورة إلاّ اجتماعها على أمر محصور ينضبط له مخافة التبديد والتعلّق بما ليس في اليد منه شيء، فهذا هو الداعي لما ذكرناه من تصوير من ليس بصورة، أو من تصوير من لم يشهد له صورة وإن كان ذا صورة، وفعل الحبّ في هذه الصورة أن يعظم شخصها حتى يضيق محل الخيال عنها فيما يخيّل إليه فتثمر تلك العظمة والكبر التي في تلك الصورة نحولاً في بدن المحبّ فلهذا تنحل أجساد المحبين، فإن موادّ الغذاء تنصرف إليها فتعظم وتقل عن البدن فينحل، فإن حرقة الشوق تحرقه فلا يبقى للبدن ما يتغذى به، وفي ذلك الاحتراق نموّ صورة المحبوب في الخيال فإن ذلك أكلها، ثم إن القوّة المصوّرة تكسو تلك الصورة في الخيال حسناً فائقاً وجمالاً رائقاً يتغير لذلك الحسن صورة المحب الظاهرة فيصفرّ لونه وتذبل شفته وتغور عينه، ثم إن تلك القوّة تكسو تلك الصورة قوّة عظيمة تأخذها من قوّة بدن المحبّ فيصبح المحبّ ضعيف القوىٰ ترعد فرائصه، ثم إن قوّة الحبّ في المحب تجعله يحبّ لقاء محبوبه ويجبن عند لقائه لأنه لا يرى في نفسه قوّة للقائه، ولهذا يغشى على المحب إذا لقي المحبوب ويصعق، ومن فيه فضلة وحبّه ناقص يعتريه عند لقاء محبوبه ارتعاد وخبلان كما قال بعضهم: [الوافر]

أفـكِّـرُ مـا أقـول إذا افـتـرقـنـا ... وأُحْـكِـمُ دائـبـاً حُـجَـجَ الـمَـقَـالِ

فـأنـسـاهـا إذا نـحـن الـتـقـيـنـا ... وأنـطـقُ حـيـن أنـطـقُ بـالـمُـحَـالِ

ثم إن قوّة الحبّ الطبيعيّ تشجع المحب بين يدي محبوبه له لا عليه، فالمحب جبان شجاع مقدام، فلا يزال هذا حاله ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله إلى أن يموت وينحل نظامه أو تزول عن خياله فيسلو. ومن الحب الطبيعيّ أن تلتبس تلك الصورة في خياله فتلصق بصورة نفسه المتخيلة له، وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً وتلتصق به لصوق الهواء بالناظر يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره ويضيع ولا ينضبط له للقرب المفرط فيأخذه لذلك خبال وحيرة مثل ما يأخذ من فقد محبوبه، وهذا هو الاشتياق والشوق من البعد، والاشتياق من القرب المفرط.

كان قيس ليلى في هذا المقام حيث كان يصيح ليلى ليلى في كل ما يكلم به فإنه كان يتخيّل أنه فقيد لها ولم يكن، وإنما قرب الصورة المتخيلة أفرطت في القرب فلم يشاهدها فكان يطلبها طلب الفاقد، ألا تراه حين جاءته من خارج فلم تطابق صورتها الظاهرة الصورة الباطنة المتخيلة التي مسكها في خياله منها فرآها كأنها مزاحمة لتلك الصورة فخاف فقدها فقال

لها: إليك عني فإن حبّك شغلني عنك، يريد أن تلك الصورة هي عين الحبّ فبقي يطلبها ليلى ليلى، فإذا تقوت تلك الصورة في خيال المحبّ أثرت في المحبوب تأثير الخيال في الحسّ مثل الذي يتوهم السقوط فيسقط أو يتوهم أمراً ما مفزعاً فيتغير له المزاج فتتغير صورة حسّه، كذلك هذه الصورة إذا تقوّت أثرت في المحبوب فقيدته وصيرته أشد طلباً لها منها له، فإن النفوس قد جبلت على حبّ الرياسة، والمحب عبد مملوك بحبه لهذا المحبوب، فالمحبوب لا يكون له رياسة إلاً بوجود هذا المحب فيعشقه على قدر عشقه رياسته، وإنما يتيه عليه للطمأنينة الحاصلة في نفس المحبوب بأن المحب لا يصبر عنه وهو طالب إياه فتأخذه العزّة ظاهراً وهو الطالب له باطناً، ولا يرى في الوجود أحداً مثله لكونه ملكه، فالمحب لا يعلّل فعل المحبوب لأنّ التعليل من صفات العقل ولا عقل للمحب، يقول بعضهم: ولا خير في حب يدبر بالعقل.

وأنشدني أبو العباس المقراني وكان من المحبين لنفسه: الحب أملك للنفوس من العقل. والمحبوب يعلل أفعال المحب بأحسن التعليل لأنه ملكه، فيريد أن يظهر شرفه وعلوه حتى يعلو المحبوب إذ هو المالك وهو يحب الثناء على نفسه وهذا كله فعل الحب فعل في المحبوب ماذ كرناه وفعل في المحب ما ذكرناه، وهذا من أعجب الأشياء أنّ المعنى أوجب حكمه لمن لم يقم به وهو المحبوب فإنه أثر فيه حب المحب كما أثر في المحب، كمسألة المعتزلي أن الله مريد بإرادة لم تقم بمحل بل خلقها إما في محل أو في لا محل وأراد بها، وهذا خلاف المعقول إيجاب المعاني أحكامها لمن لم تقم به، وكذلك الحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد، فلا بدّ أن يكون حكم الحب يناقض حكم العقل، فالعقل للنطق والتهيام للخرس. ثم إنه من شأن الحب الطبيعي أن تكون الصورة التي حصلت في خيال المحب على مقدار المحل الحاصلة فيه بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل به شيئاً أصلاً، وإن لم يكن كذلك فما هي صورة الحب، وبهذا تخالف صورة الحب سائر الصور كما كانت صورة العالم على قدر الحضرة الإلهية الأسمائية، فما في الحضرة الإلهية اسم إلهي إلاً وهو على قدر أثره في نشء العالم من غير زيادة ولا نقصان، ولهذا كان إيجاد العالم عن حب.

وقد ورد ما يؤيّد هذا في السنّة وهو قوله: «**كنتُ كنزاً لم أُعْرَفْ فأحببتُ أن أُعْرَفَ فخلقْتُ الخلقَ وتَعَرَّفْتُ إليهم فعرفوني**». فأخبر أن الحب كان سبب إيجاد العالم فطابق الأسماء الإلهية، ولولا تعشق النفس بالجسم ما تألم عند مفارقته مع كونه ضداً له، فجمع بين المقادير والأحوال لوجود النسب والأشكال، فالنسب أصل في وجود الأنساب، وإن كانت الأرواح تخالف الأشباح والمعاني تخالف الكلمات والحروف، ولكن تدل الكلمة على المعنى بحكم المطابقة بحيث لو تجسد المعنى لما زاد على كمية الكلمة، ومثل هذا النوع يسمى حباً.

وأما الحب الروحاني فخارج عن هذا الحد وبعيد عن المقدار والشكل، وذلك أن القوىٰ الروحانية لها التفات نسبي، فمتى عمّت النسب في الالتفاتات بين المحب والمحبوب عن نظر أو سماع أو علم كان ذلك الحب، فإن نقص ولم تستوف النسب لم يكن حباً، ومعنى

النسب أن الأرواح التي من شأنها أن تهب وتعطي متوجهة على الأرواح التي من شأنها أن تأخذ وتمسك وتلك تتألم بعدم القبول وهذه تتألم بعدم الفيض وإن كان لا ينعدم إلاَّ أن كونه لم تكمل شروط الاستعداد والزمان سمّي ذلك الروح القابل عدم فيض وليس بصحيح، فكل واحد من الروحين مستفرغ الطاقة في حب الآخر، فمثل هذا الحب إذا تمكن من الحبيبين لم يشك المحبّ فرقة محبوبه لأنه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد، فتقع المفارقة بين الشخصين أو يؤثر فيه القرب المفرط كما فعل في الحب الطبيعيّ، فالمعاني لا تتقيد ولا تتحيّز ولا يتخيلها إلاَّ ناقص الفطرة فإنه يصوّر ما ليس بصورة، وهذا هو حبّ العارفين الذين يمتازون به عن العوام أصحاب الاتحاد، فهذا محب أشبه محبوبه في الافتقار لا في الحال والمقدار، ولهذا يعرف المحب قدر المحبوب من حيث ما هو محبوب.

وأما الحب الإلهي فمن اسمه الجميل والنور فيتقدّم النور إلى أعيان الممكنات فينفر عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها فيحدث لها بصراً هو بصره إذ لا يرى إلاَّ به، فيتجلى لتلك العين بالاسم الجميل فتتعشق به فيصير عين ذلك الممكن مظهراً له، فيبطن العين من الممكن فيه وتفنى عن نفسها فلا تعرف أنها محبة له سبحانه، أو تفنى عنه بنفسها مع كونها على هذه الحالة فلا تعرف أنها مظهر له سبحانه، وتجد من نفسها أنها تحب نفسها، فإن كل شيء مجبول على حب نفسه وما ثم ظاهر إلاَّ هو في عين الممكن، فما أحب الله إلاَّ الله، والعبد لا يتصف بالحب إذ لا حكم له فيه فإنه ما أحبه منه سواه الظاهر فيه وهو الظاهر، فلا تعرف أيضاً أنها محبة له فتطلبه وتحب أن تحبه من حيث أنها ناظرة إلى نفسها بعينه، فنفس حبّها أن تحبه هو بعينه حبّها له، ولهذا يوصف هذا النور بأنه له أشعة أي أنه شعشعاني لامتداده من الحق إلى عين الممكن ليكون مظهراً له بنصب الهاء لا اسم فاعل، فإذا جمع من هذه صفته بين المتضادّات في وصفه فذلك هو صاحب الحب الإلهي، فإنه يؤدّي إلى إلحاقه بالعدم عند نفسه كما هو في نفس الأمر، فعلامة الحب الإلهي حب جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيلة، ولكل حضرة عين من اسمه النور تنظر بها إلى اسمه الجليل فيكسوها ذلك النور حلة وجود، فكل محب ما أحب سوى نفسه، ولهذا وصف الحق نفسه بأنه يحب المظاهر والمظاهر عدم في عين، وتعلق بالمحبة بما ظهر وهو الظاهر فيها، فتلك النسبة بين الظاهر والمظاهر هي الحب، ومتعلق الحب إنما هو العدم فمتعلقها هنا الدوام والدوام ما وقع فإنه لا نهاية له وما لا نهاية له لا يتصف بالوقوع، ولما كان الحب من صفات الحق حيث قال: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ومن صفات الخلق حيث قال ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] اتصف الحب بالعزّة لنسبته إلى الحق ووصف الحق به وسرى في الخلق بتلك النسبة العزية، فأورثت في المحل ذلّة من الطرفين، فلهذا ترى المحب يذلّ تحت عزّ الحب لا عزّ المحبوب، فإن المحبوب قد يكون مملوكاً للمحب مقهوراً تحت سلطانه ومع هذا تجده يذلّ له المحب، فعلمنا أن تلك عزّة الحب لا عزّة المحبوب، قال أمير المؤمنين هارون الرشيد في محبوباته: [الكامل]

مَلَكَ الثلاث الآنساتِ عَنَاني | وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تطاوعني البريةُ كلُّها | وأطيعُهُنّ وهنَّ في عِصْياني
ما ذاك إلاً أنَّ سلطانَ الهوى | وبه قَوَيْنَ أَعَزُّ من سلطاني

فأضاف القوّة إلى الهوى بقوله: سلطان الهوى، يقول الله في غير ما موضع من كتابه متلطفاً بعباده: «يا عبادي اشتَقْتُ إليكم وأنا إليكم أشدُّ شوقاً»، ويخاطبهم بنزول من لطف خفي، وهذا الخطاب كله لا يتمكن أن يكون منه إلاً من كونه محباً، ومثل ذلك يصدر من المحبين له تعالىٰ، فالمحب في حكم الحب لا في حكم المحبوب، ومن هي صفته عينه فعينه تحكم عليه لا أمر زائد فلا نقص، غير أن أثره في المخلوقين التلاشي عند استحكامه لأنه يقبل التلاشي، فلهذا يتنوّع العالم في الصور فيكون في صورة، فإذا أفرط فيها الحب من حيث لا يعلم وحصل التجلّي من حيث لا يظهر تلاشت الصورة وظهرت في العين صورة أخرى وهي أيضاً مثل الأولى في الحكم راجعة إليه، ولا يزال الأمر كذلك دائماً لا ينقطع، ومن هنا غلط من يقول: إن العالم لا بدّ له من التلاشي، ومن نهاية علم الله في العالم حيث وصف نفسه بالإحاطة في علمه بهم، ثم إنه من كرمه سبحانه أن جعل هذه الحقيقة سارية في كل عين ممكن متصف بالوجود، وقرن معها اللذة التي لا لذة فوقها، فأحب العالم بعضه بعضاً حب تقييد من حقيقة حب مطلق فقيل: فلان أحب فلاناً، وفلان أحب أمراً ما، وليس إلاً ظهور حق في عين ما أحب ظهور حق في عين أخرى كان ما كان، فمحب الله لا ينكر على محب حبّ من أحب، فإنه لا يرى محباً إلاً الله في مظهر ما، ومن ليس له هذا الحب الإلهي فهو ينكر على من يحب، ثم إنه ثم دقيقة من كون من قال: إنه يستحيل أن يحب أحد الله تعالىٰ فإن الحق لا يمكن أن يضاف إليه ولا إلى ما يكون منه نسبة عدم أصلاً، والحب متعلقه العدم، فلا حب يتعلق بالله من مخلوق، لكن حبّ الله يتعلق بالمخلوق لأنّ المخلوق معدوم، فالمخلوق محبوب لله أبداً دائماً، وما دام الحبّ لا يتصوّر معه وجود المخلوق فالمخلوق لا يوجد أبداً، فأعطت هذه الحقيقة أن يكون المخلوق مظهراً للحق لا ظاهراً، فمن أحبّ شخصاً بالحبّ الإلهيّ فعلى هذا الحدّ يكون حبّه إياه فلا يتقيد بالخيال ولا بجمال مّا فإنها كلها موجودة له فلا يتعلق الحبّ بها، فقد بان الفرقان بين المراتب الثلاثة في الحبّ، واعلم أنّ الخيال حق كله والتخيّل منه حق ومنه باطل.

السؤال السابع عشر ومائة: ما كأس الحبّ؟ الجواب: القلب من المحب لا عقله ولا حسّه، فإنّ القلب يتقلب من حال إلى حال، كما أنّ الله الذي هو المحبوب ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فيتنوّع المحب في تعلّق حبّه بتنوّع المحبوب في أفعاله، كالكأس الزجاجيّ الأبيض الصافي يتنوّع بحسب تنوّع المائع الحالّ فيه، فلون الحب لون محبوبه وليس هذا إلاً للقلب، فإنّ العقل من عالم التقييد، ولهذا سمّي عقلاً من العقال والحسّ، فمعلوم بالضرورة أنه من عالم التقييد بخلاف القلب، وذلك أنّ الحبّ له أحكام كثيرة مختلفة متضادّة، فلا يقبلها إلاً من في قوّته الانقلاب معه فيها وذلك لا يكون إلاً للقلب، وإذا أضفت مثل هذا إلى الحق فهو قوله: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وأن الله لا

يملّ حتى تملّوا. ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. والشرع كله أو أكثره في هذا الباب وشرابه عين الحاصل في الكأس، وقد بينّا أنّ الكأس هو عين المظهر، والشراب عين الظاهر فيه، والشرب ما يحصل من المتجلّي للمتجلّى له، فاعلم ذلك على الاختصار. انتهى الجزء التاسع والثمانون.

(الجزء التسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الثامن عشر ومائة: من أين؟ الجواب: من تجلّيه في اسمه الجميل. قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» وهو حديث ثابت، فوصف نفسه بأنه يحب الجمال وهو يحب العالم، فلا شيء أجمل من العالم وهو جميل والجمال محبوب لذاته، فالعالم كله محب لله، وجمال صنعه سار في خلقه والعالم مظاهره، فحب العالم بعضه بعضاً مذهب من حب الله نفسه، فإنّ الحب صفة الموجود، وما في الوجود إلاّ الله، والجلال والجمال لله وصف ذاتي في نفسه وفي صنعه، والهيبة التي هي من أثر الجمال، والأنس الذي هو من أثر الجلال نعتان للمخلوق لا للخالق ولا لما يوصف به ولا يهاب ولا يأنس إلاّ موجود ولا موجود إلاّ الله، فالأثر عين الصفة، والصفة ليست مغايرة للموصوف في حال اتصافه بها بل هي عين الموصوف، وإن عقلت ثانياً فلا محب ولا محبوب إلاّ الله عزّ وجلّ، فما في الوجود إلاّ الحضرة الإلهية وهي ذاته وصفاته وأفعاله، كما تقول: كلام الله علمه وعلمه ذاته، فإنه يستحيل عليه أن يقوم بذاته أمر زائد أو عين زائدة، ما هي ذاته تعطيها حكماً لا يصحّ لها ذلك الحكم دونها ممّا يكون كمالاً لها في ألوهيتها، بل لا تصحّ الألوهة إلاّ بها وهو كونه عالماً بكل شيء، ذكر ذلك عن نفسه بطريق المدحة لذاته ودلّ عليه الدليل العقليّ، ومن المحال أن تكمل ذاته بغير ما هي ذاته فتكون مكتسبة الشرف بغيرها، ومن علمه بذاته علم العلماء بالله من الله ما لا تعلمه العقول من حيث أفكارها الصحيحة الدلالة، وهذا العلم ما تقول فيه الطبيعة أنه وراء طور العقل، قال تعالىٰ في عبده الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤] فأضاف التعليم إليه لا إلى الفكر، فعلمنا أن ثم مقاماً آخر فوق الفكر يعطي العبد العلم بأمور شتى: منها ما يمكن أن يدركها من حيث الفكر. ومنها ما يجوّزها الفكر وإن لم يحصل لذلك العقل من الفكر. ومنها ما يجوّزها الفكر وإن كان يستحيل أن يعينها الفكر. ومنها ما يستحيل عند الفكر ويقبلها العقل من الفكر مستحيلة الوجود لا يمكن أن يكون له تحت دليل الإمكان فيعلمها هذا العقل من جانب الحق واقعة صحيحة غير مستحيلة ولا يزول عنها اسم الاستحالة ولا حكم الاستحالة عقلاً.

قال ﷺ: «**إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ العُلَمَاءُ بِاللَّهِ فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يُنْكِرْهُ إِلاَّ أَهْلُ الغِرَّةِ بِاللَّهِ**» هذا وهو من العلم الذي يكون تحت النطق، فما ظنك بما عندهم من العلم ممّا هو خارج عن الدخول تحت حكم النطق فما كل علم يدخل تحت العبارات، وهي علوم

الأذواق كلها، فلا أعلم من العقل ولا أجهل من العقل، فالعقل مستفيد أبداً فهو العالم الذي لا يعلم علمه وهو الجاهل الذي لا ينتهي جهله.

السؤال التاسع عشر ومائة: ما شراب حبّه لك حتى يسكرك عن حبك له؟ الجواب: إن أراد باللام الذي في لك وله الأجلية فجوابه مغاير لجوابه إذا كانت لا للأجلية، إذ يكون المعنى ما شراب حبّه إياك حتى يسكرك عن حبّك إياه، فجواب الوجه الأول والثاني متغاير، نقول: تغاير التجلّيات إنما كان من حيث ظهوره فيك فوصف نفسه بالحب من أجلك فأسكرك هذا العلم الحاصل لك من هذا التجلي عن أن تكون أنت المحب له أي المحب من أجله، فلم تحب أحداً من أجله وهو أحبّ من أجلك، فلو زلت أنت لم يتصف هو بالمحبة وأنت لا تزول فوصفه بالحب لا يزول، فهذا جواب يعم الأول والثاني لفرقان بين ما يستحقه الأوّل منه والثاني دقيق غامض.

وأما الجواب عن الثاني أن شراب حبّه إياك وهو حبّه إياك أن تحبه فإذا أحببته علمت حين شربت شراب حبّه إياك أن حبّك إياه عين حبّه إياك وأسكرك عن حبّك إياه مع إحساسك بأنك تحبّه فلم تفرق وهو تجلّي المعرفة، فالمحب لا يكون عارفاً أبداً، والعارف لا يكون محباً أبداً، فمن ههنا يتميز المحب من العارف والمعرفة من المحبة، فحبّه لك مسكر عن حبك له وهو شراب الخمر الذي لو شربه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لغوت عامّة الأمة، وحبّك له لا يسكرك عن حبّه لك وهو شراب اللبن الذي شربه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فأصاب الله به الفطرة التي فطر الله الخلق عليها فاهتدت منه في ذوقها وشربها وهو الحفظ الإلهيّ والعصمة وعلمت ما لها وماله في حال صحو وسكر، فشراب حبّه لك هو العلم بأن حبّك إياه من حبّه إياك فغيبك عن حبك إياه فأنت محب لا محب ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] مثل هذا البلاء في فنون من المقامات يظهر فيه كما ظهر في حق رسول الله ﷺ في رميه التراب في وجوه الأعداء، فأثبت أنه رمى ونفى أنه رمى فعبر عنه الترمذيّ بالسكر إذ كان السكران هو الذي لا يعقل فإن الترمذيّ كان مذهبه في السكر مذهب أبي حنيفة وكان حنفيّ المذهب في الأصل قبل أن يعرف الشرع من الشارع وهو الصحيح في حدّ السكر، ولكن من شيء يتقدم هذا السكران قبل سكره من شربه طرب وابتهاج وهو الذي اتخذه غير أبي حنيفة في حدّ السكر وهو ليس بصحيح، فكل مسكر بهذه المثابة فهو الذي يترتب عليه الحكم المشروع، فإن سكر من شيء لا يتقدّم سكره طرب لم يترتب عليه حكم الشرع لا بحدّ ولا بحكم.

السؤال العشرون ومائة: ما القبضة؟ الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] والأرواح تابعة للأجسام ليست الأجسام تابعة للأرواح، فإذا قبض على الأجسام فقد قبض على الأرواح فإنها هياكلها، فأخبر أن الكل في قبضته، وكل جسم أرض لروحه وما ثم إلاّ جسم وروح غير أن الأجسام على قسمين: عنصرية ونورية

وهي أيضاً طبيعية، فربط الله وجود الأرواح بوجود الأجسام وبقاء الأجسام ببقاء الأرواح. وقبض عليها ليستخرج ما فيها ليعود بذلك عليها فإنه منها يغذيها ومنها يخرج ما فيها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [سورة المرسلات: الآية ٢٠] وهي دخان ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] فهي من العناصر فهي أجسام عنصريات، وإن كانت فوق الأركان بالمكان فالأركان فوقهنّ بالمكانة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] فيقبض منها ما يبسطها بها فلا يعطيها شيئاً من ذاته فإنها لا تقبله فلا وجود لها إلاّ بها، فالممكنات إنما أقامها الحق من إمكانها فقيامها منها بها، والحق واسطة في ذلك مؤلف رائق فائق ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ لأنه كذا أوجدها بإمكانها ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] بإمكانهما لو لم يكن الفتق ممكناً لما قام بهما فما أثر في الممكنات إلاّ الممكنات لكن العمى غلب على أكثر الخلق ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[سورة الروم: الآية ٧].

ألا ترى ما هو محال لنفسه هل يقبل شيئاً ممّا يقبله الممكن؟ فبنفسه تمكّن منه الواجب الوجود بالإيجاد فأوجده، وهذه هي الإعانة الذاتية، ألا ترى الحجر إذا رميت به علواً فيقال: إنّ حركته نحو العلو قهرية لأنّ طبيعته النزول إما إلى الأعظم وإما إلى المركز، فلولا أن طبيعته تقبل الصعود علواً بالقهر لما صعد، فما صعد إلاّ بطبعه أيضاً مع سبب آخر عارض ساعده الطبع بالقبول لما أراد منه، فالقبضة على الحقيقة قوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] ومن أحاط بك فقد قبض عليك لأنه ليس لك منفذ مع وجود الإحاطة، وإلاّ فليست إحاطة وما هو محيط، وصورة ذلك أنه ما من موجود سوى الله من الممكنات إلاّ وهو مرتبط بنسبة إلهية وحقيقة ربانية تسمّى أسماء حسنى، فكل ممكن في قبضة حقيقة إلهية فالكل في القبضة.

واعلم أن القبضة تحتوي على المقبوض بأربعة عشر فصلاً وخمسة أصول عن هذه الأربعة عشر فصلاً ظهر نصف دائرة الفلك وهي أربع عشرة منزلة وفي الغيب مثلها، وهذه الفصول تحوي جميع الحروف إلاّ حرف الجيم فإنها تبرّأت منه دون سائر الحروف وما علمنا لماذا، وما أدري هل هو ممّا يجوز أن يعلم أم لا؟ فإنّ الله تعالىٰ ما نفث في روعنا شيئاً ولا رأيته لغيرنا ولا ورد في النبوّات، فرحم الله عبداً وقف عليه فألحقه في هذا الموضع من كتابي هذا وينسب ذلك إليه لا إليّ، فتحصل الفائدة بطريق الصدق حتى لا يتخيل الناظر فيه أن ذلك ممّا وقع لي بعد هذا، فإن فتح عليّ به حينئذ أذكره أنه لي، فإن الصدق في هذا الطريق أصل قاطع لا بدّ منه ولا حظ له في الكذب، وهذه الخمسة الأصول متفاضلة في الدرجات فأعلاها وأعمّها هو العلم وهو الأصل الوسط، وعن يمينه أصلان: الحياة والقدرة، وعن يساره أصلان: الإرادة والقول، وكل أصل فله ثلاثة فصول إلاّ أصل القدرة فإن له فصلين خاصة، وإنما سقط عنه الفصل الثالث لأن اقتداره محجور غير مطلق وهو قول العلماء، وما لم يشأ أن يكون أن لو شاء أن يكون لكان كيف يكون، فعلق كونه بلو فامتنع عن نفوذ الاقتدار عليه

لسبب آخر فلم يكن له النفوذ، وهذا موضع إبهام لا يفتح أبداً، ومن هنا وجد في العالم الأمور المبهمة لأنه ما من شيء في العالم إلاّ وأصله من حقيقة إلهية، ولهذا وصف الحق نفسه بما يقوم الدليل العقليّ على تنزيهه عن ذلك، فما يقبله إلاّ بطريق الإيمان والتسليم، ومن زاد فبالتأويل على الوجه اللائق في النظر العقليّ، وأهل الكشف أصحاب القوّة الإلهية التي وراء طور العقل يعرف ذلك كما تفهمه العامة ويعلم ما سبب قبوله لهذا الوصف مع نزاهته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]، وهذا خارج عن مدارك العقول بأفكارها، فالعامة في مقام التشبيه وهؤلاء في التشبيه والتنزيه والعقلاء في التنزيه خاصة، فجمع الله لأهل خاصته بين الطرفين، فمن لم يعرف القبضة هكذا فما قدر الله حق قدره، فإنه إن لم يقل العبد إن الله ليس كمثله شيء فما قدر الله حق قدره، وإن لم يقل أن خلق آدم بيده فما قدر الله حق قدره، وأين الانقسام من عدم الانقسام؟ وأين المركب من البسيط؟ فالكون يغاير مركبه بسيطه وعدده، توحيده وأحديته، والحق عين تركيبه عين بسيطه عين أحديته عين كثرته من غير مغايرة ولا اختلاف نسب، وإن اختلفت الآثار فعن عين واحدة، وهذا لا يصحّ إلاّ في الحق تعالىٰ، ولكن إذا نسبنا نحن بالعبارة فلا بدّ أن نغاير كان كذا من نسبة كذا وكذا من نسبة كذا لا بدّ من ذلك للإفهام.

السؤال الحادي والعشرون ومائة: من الذين استوجبوا القبضة حتى صاروا فيها؟ الجواب: الشاردون إلى ذواتهم من مرتبة الوجوب ومرتبة المحال، إذ لا يقبض إلاّ على شارد، فإنه لو لم يشرد لما قبض عليه، فالقبض لا يكون إلاّ عن شرود أو توقع شرود، فحكم الشرود حكم عليه بالقبض فيه استوجبوا أن يقبض عليهم، فمنهم من قبض عليه مرتبة الوجوب، ومنه من قبض عليه مرتبة المحال وهنا غور بعيد، والإشارة إلى بعض بيانه أن كل ممكن لم يتعلق العلم الإلهيّ بإيجاده لا يمكن أن يوجد فهو محال الوجود فحكم على الممكن المحال وألحقه به فكان في قبضة المحال، وما تعلق العلم الإلهيّ بإيجاده فلا بدّ أن يوجد فهو واجب الوجود فحكم على الممكن الوجوب، فكان في قبضة الواجب وليس له حكم بالنظر إلى نفسه، فما خرج الممكن من أن يكون مقبوضاً عليه إمّا في قبضة المحال وإمّا في قبضة الواجب، ولم يبق له في نفسه مرتبة يكون عليها خارجة عن هذين المقامين فلا إمكان، فإمّا محال، وإما واجب، وإمّا الغور البعيد، فإن جماعة قالوا وذهبوا إلى أنه ليس في الإمكان شيء إلاّ ولا بدّ أن يوجد إلى ما لا يتناهى، فما ثم ممكن في قبضة المحال، ولا شك أنهم غلطوا في ذلك من الوجه الظاهر وأصابوا من وجه آخر، فأما غلطهم فما من حالة من الأكوان في عين ما تقتضي الوجود فتوجد إلاّ ويجوز ضدها على تلك العين كحالة القيام للجسم مع جواز القعود لا نفي القيام، ومن المحال وجود القعود في الجسم القائم في حال قيامه وزمان قيامه، فصار وجود هذا القعود بلا شك في قبضة المحال لا يتصف بالوجود أبداً من حيث هذه النسبة لهذا الجسم الخاص وهو قعود خاص، وأما مطلق القعود فإنه في قبضة الواجب فإنه واقع، وأما وجه الإصابة فإن متعلق الإمكان إنما هو في الظاهر في المظاهر

والمظاهر محال ظهورها وواجب الظهور فيها، والظاهر لا يجوز عليه خلافه فإنه ليس بمحل لخلافه، وإنما المظهر هو المحل وقد قبل ما ظهر فيه ولا يقبل غيره، فإذا وجد غيره فذلك ظهور آخر ومظهر آخر، فإن كل مظهر لظاهر لا ينفك عنه بعد ظهوره فيه، فلا يبقى في الإمكان شيء إلاً ويظهر إلى ما لا يتناهى، فإن الممكنات غير متناهية، وهذا غور بعيد التصوّر لا يقبل إلاً بالتسليم أو تدقيق النظر جداً فإنه سريع التفلت من الخاطر لا يقدر على إمساكه إلاً من ذاقه والعبارة تتعذر فيه.

السؤال الثاني والعشرون ومائة: ما صنيعه بهم في القبضة؟ الجواب: المحض وهو ما هم عليه فهو يرفع ويخفض، ويبسط ويقبض، ويكشف ويستر، ويخفى ويظهر، ويوقع التحريش، ويؤلف وينفر، وصنيعه العام بهم التغيير في الأحوال فإنه صنع ذاتيّ إذ لو لم يغيّر لتعطل كونه إلهاً، وكونه إلهاً نعت ذاتيّ له، فتغيير الصنع في الممكنات واجب لا ينفك كما أنهم في القبضة دائماً.

السؤال الثالث والعشرون ومائة: كم نظرته إلى الأولياء في كل يوم؟ الجواب: بعدد ما يغير عليهم الحال من حيث هو متوليهم لا غير، وينحصر ذلك في مائة مرّة من غير زيادة ولا نقصان، ولكن ما دام الوليّ مظروفاً لليوم، وأما نظره للأولياء إذا خرجوا من الأوقات فنظر دائم لا توقيت فيه ولا يقبل التوقيت فإنه لا يدخل تحت العدد ولا المغايرة ولا التمييز، فإذا دخلوا أو كان حالهم الزمان فمائة مرّة، وكل مرّة يحصل لهم في تلك النظرة ما لا يحدّه توقّت فهو عطاء إلهيّ من غير حساب ولا هنداز.

السؤال الرابع والعشرون ومائة: إلى ماذا ينظر منهم؟ الجواب: إلى أسرارهم لا إلى ظواهرهم، فإن ظواهرهم يجريها سبحانه بحسب الأوقات وسرائرهم ناظرة إلى عين واحدة، فإن أعرضوا أو أطرفوا نقصهم في ذلك الإعراض أو تلك الطرفة ما تقتضيه النظرة، وهو أكثر ممّا نالوه من حين أوجدهم إلى حين ذلك الإعراض، قال بعض السادة فيما حكاه القشيريّ في رسالته، لو أن شخصاً أقبل على الله طول عمره ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر ممّا ناله في عمره، وذلك أن الشيء في المزيد وأن المتأخر يتضمن ما تقدمه، وزيادة ما تعطيه عينه من حيث ما هو جامع، فيرى ما تقدم في حكم الجمع وهو يخالف حكم انفراده وحكم جمعه دون هذا الجمع الخاص، ومن حيث ما تختص به هذه اللحظة من حيث ما هي لنفسها لا من حيث كونها حضرة جمع لما تقدمها، فبالضرورة يفوته هذا الخير، فما أشأم الإعراض عن الله، وفي هذا يتبين لك شرف العلم، فإن العلم هو الذي يفوتك، والعلم هو الذي تستفيده، قال تعالىٰ آمراً لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] فإنه أشرف الصفات وأنزه السمات.

السؤال الخامس والعشرون ومائة: إلى ماذا ينظر من الأنبياء عليهم السلام؟ الجواب: إن أراد العلم فإلى أسرارهم، وإن أراد الوحي فإلى قلوبهم، وإن أراد الابتلاء فإلى نفوسهم، إلاً أن نظره سبحانه على قسمين: نظر بواسطة وهو قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة

الشعراء: الآية ١٩٣] ونظر بلا واسطة وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١٠] فإذا نظر إلى أسرارهم أعطاهم من العلم به ما شاء لا غير، وهو أن يكشف لهم عنهم أنهم به لا بهم، فيرونه فيهم ولا يرونهم، فيعلمون﴿ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٧]، فتقرّ عيونهم بما شاهدوه ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] بهم في كل نظرة، وهو مزيد العلم الذي أمر بطلبه لا علم التكليف، فإن النقص منه هو مطلوب الأنبياء عليهم السلام، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» وقوله: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَمَا كُنْتُمْ تُطِيقُونَهَا**» وإذا نظر إلى قلوبهم قلب الوحي فيهم بحسب ما تقلبوا فيه فلكل حال يتقلبون فيه حكم شرعيّ يدعو إليه هذا النبيّ وسكوته عن الدعوة شرع أي ابقوا على أصولكم، وهذا هو الوحي العرضيّ الذي عرض لهم، فإن الوحي الذاتيّ الذي تقتضيه ذواتهم هو أنهم يسبحون بحمد الله لا يحتاجون في ذلك إلى تكليف بل هو لهم مثل النفس للمتنفس، وذلك لكل عين على الانفراد، والوحي العرضي هو لعين المجموع، وهو الذي يجب تارة ولا يجب تارة، ويكون لعين دون عين، وهو على نوعين: نوع يكون بدليل أنه من الله وهو شرع الأنبياء ومنه ما لا دليل عليه وهو الناموس الوضعي الذي تقتضيه الحكمة يلقيه الحق تعالى من اسمه الباطن الحكيم في قلوب حكماء الوقت من حيث لا يشعرون، ويضيفون ذلك الإلقاء إلى نظرهم لا يعلمون أنه من عند الله على التعيين، لكنهم يرون أن الأصل من عند الله فيشرعونه لمتبعيهم من أهل زمانهم، إذ لم يكن فيهم نبي مدلول على نبوّته، فإن هم قاموا بحدود ذلك الناموس ووقفوا عنده ورعوه جازاهم الله على ذلك بحسب ما عاملوه به في الدنيا والآخرة جزاء الشرع المقرّر المدلول عليه ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] فيما ابتدعوه من الرهبانية. ومن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وأن الله يصدق قول واضع الناموس الحكميّ كما هو مصدق واضع الناموس الشرعي الحكمي، فأما جزاؤه في الدنيا فلا شك ولا خفاء بوقوع المصلحة ووجودها في الأهل والمال والعرض، وأما الآخرة فعلى هذا المجرى وإن لم يتعرّض إليها صاحب الناموس الحكميّ، كما أنه في ناموس الحكم الإلهيّ أن في الآخرة لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويحصل لنا من غير تقدم علم به كذلك الحاصل في الآخرة جزاء لعمل الناموس الذي اقتضته الحكمة عند من ابتدعه للمصلحة، فإن قال في ناموسه: قال الله ، ويكون ممّن قد علم أنه مظهر وأن لا موجود على الحقيقة إلاَّ الله صدق وعفا الله عنه، وإن كان من أهل الحجاب عن هذا العلم فأمره إلى الله وهو بحسب قصده في ذلك، فإنه قد يقصد الرياسة وتكون المصلحة في حكم التبع، وقد يقصد المصلحة وتكون الرياسة تبعاً، وهذا الكلام لا يتصوّر إلاَّ مع عدم الشرع المقرّر بالدليل في تلك الجماعة وذلك المكان خاصة، وإذا نظر إلى نفوسهم ابتلاهم بمخالفة أممهم فاختلفوا عليه واختلفوا فيما بينهم وإن اجتمعوا عليه، وهذا كله إذا اتفق أن ينظر النبيّ إلى نفسه ولا بدّ له من النظر إلى نفسه فإن الجلوس مع الله لا تقتضي البشرية دوامه، وإذا لم يدم فما ثم الاَّ النفس، فيكون نظره في هذا

الحال نظر ابتلاء لأن النبي في تلك الحالة صاحب دعوى أنه قد بلغ رسالة ربه، وكذا ورد: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ قَالَ: قَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ**» وقال: «**ألا هل بلّغت؟**» فأضاف التبليغ إليه، ولم يقل في هذه الحال قد بلغ الله إليكم بلساني ما قد أسمعكم، فلو قال هذا ما ابتلوا ببلاء النفوس، وفي هذا لله حكم خفيّ ليعلم العبد أنه محل للتوفيق ونقيضه، وأنه لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله على ما أمر به ونهى عنه، فالحكم لله العليّ الكبير.

السؤال السادس والعشرون ومائة: كم إقباله على خاصته في كل يوم؟ الجواب: أربعة وعشرون ألف إقبال في كل يوم، يهبهم في ذلك الإقبال ما شاء ويأخذ منهم في الإقبال الثاني ما كان أعطاهم في الإقبال الأول، إما أخذ قبول، وإما أخذ ردّ غير مقبول، فإنّ الله قد أمرهم بالأدب في كل ما يلقى إليهم عند أخذهم، وكذلك إذا ردّوا الأمور إليه يردّونها محلاة بالأدب الإلهيّ فذلك داعية القبول الإلهيّ، فإن أساؤوا الأدب في الأخذ والردّ عاد وبال ذلك عليهم وليسوا عند ذلك بخاصة الله، فالخاصة تحضر مع الله أربعة وعشرين ألف مرة في كل يوم، وإن أردت التحرير في المقال إن لم يكن عندك علم وتخرج من العهدة فقل إقباله على خاصته كل يوم بعدد أنفاسهم كانت ما كانت، فمن اطلع على توقيت أنفاسه علم توقيت إقبال الله عليه في كل يوم، فإنّ ذلك النفس من نفس الرحمن، فهو عين إقبال الحق عليهم، وبه تنوّرت هياكلهم، فهو في الأجسام ريح، وفي اللطائف أرواح جمع روح بفتح الراء وتسكين الواو سكوناً حياً.

السؤال السابع والعشرون ومائة: ما المعية مع الخلق والأصفياء والأنبياء والخاصة والتفاوت والفرق بينهم في ذلك؟ الجواب: قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فالأينية إلينا، وقال لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٦] فنبههما على أنه سمعهما وبصرهما تذكرة لهما أو إعلاماً لم يتقدمه علم به عندهما، فإنه قد صحّ عندنا في الخبر أنّ العبد إذا أحبّه ربّه كان سمعه وبصره الذي يسمع به ويبصر به، فالنبيّ أولى بهذا ممّن ليس بنبيّ، وطبقات الأولياء كثيرة، ولكن ما ذكر منها إلاَّ ما قلناه، فلا نتعدّى بالجواب قدر ما سأل فنقول: إن المعية تقتضي المناسبة، فلا نأخذ من الحق إلاَّ الوجه المناسب لا الوجه الذي يرفع المناسبة، ثم إننا أردنا أن نعمّم الجواب بتعميم قوله تعالىٰ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ من الأحوال ولا يخلو موجود عن حال بل ما تخلو عين موجودة ولا معدومة أن تكون على حال وجودي أو عدميّ في حال وجودها أو عدمها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

فإن قلت: قوله: ﴿كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] لفظة معناها وجوديّ فالمعنى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ من الوجود فنقول صحيح، ولكن من أيّ الوجوه من الوجود من حيث العلم بكم وما ثم إلاَّ هو أو من حيث الوجود الذي يتصف به عين الممكنات من حيث ما هي مظاهر، فحالة منها توصف العين الممكنة بها بالعدم ولهذا نقول: كان هذا معدوماً ووجد، والكون يناقض العدم مع صحة هذا القول، فيعلم عند ذلك أن قوله تعالىٰ:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي على أيّ حالة تكونون من الوصف بالعدم أو الوجود، ثم نقول: أنه مع الخلق بإعطاء كل شيء خلقاً من كونهم خلقاً لا غير فينجرّ معه أنه معهم بكل ما تطلبه ذواتهم من لوازمها، ومعيته مع الأصفياء بما يعطيه الصفاء من التجلي، فإنه قد وصفهم: أنهم أصفياء، فما هو معهم بالصفاء والاصطفاء وإنما هو معهم بما يطلبه الاصطفاء وقدم الخلق فإنه مقدم بالرتبة، فإن الاصطفاء لا يكون إلاً بعد الخلق، بل هم من الخلق عند الحق بمنزلة الصفي الذي يأخذه الإمام من المغنم قبل القسمة، فذلك هو نصيب الحق من الخلق وما بقي فله ولهم، وأما معيته مع الأنبياء فبتأييد الدعوى لا بالحفظ والعصمة إلاً أن أخبر بذلك في حق نبيّ معين، فإن الله قد عرّفنا أن الأنبياء قتلتهم أممهم وما عصموا ولا حفظوا، فلا بدّ أن يكون ظرف المعية التأييد في الدعوى لإقامة الحجة على الأمم فإنه قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] ولا يكون نبياً حتى يقدمه الإصطفاء فلهذا أخّر النبوّة عن الاصطفاء، فإنه ما كل خلق مصطفى وما كل مصطفى نبيّ، ومعيته مع الخاصة بالمحادثة برفع الوسائط بعد تبليغ ما أمر بتبليغه مثل قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ من أيام التبليغ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر: ٢ ـ ٣] أي يرجع إليك الرجوع الخاص الذي يربي على مقام التبليغ، فيجتمع هذا كله في الرسول وهو شخص واحد وفي كل مقام أشخاص، فيكون الشخص الواحد خلقاً مصطفى نبياً خاصاً، وأما معية الذات فلا تنقال، فإن الذات مجهولة فلا تعلم نسبة المعية إليها فهو مع الخلق بالعلم واللطف، ومع الأصفياء بالتولي، ومع الأنبياء بالتأييد، ومع الخاصة بالمباسطة والأنس.

السؤال الثامن والعشرون ومائة: ما ذكره الذي يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟[سورة العنكبوت: الآية ٤٥] الجواب: ذكره نفسه لنفسه بنفسه أكبر من ذكره نفسه في المظهر لنفسه. اعلم أن الله ما قال هذا الذكر ووصفه بهذه الصفة من الكبرياء إلاً في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] إنباء عن حقيقة لأجل ما فيها من الإحرام وهو المنع من التصرّف في شيء ممّا يغاير كون فاعله مصلياً، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تنهى عن غيرها من الطاعات فيها ممّا لا يخرجك فعله عن أن تكون مصلياً شرعاً فيكون قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ فيها أكبر أعمالها وأكبر أحوالها، إذ الصلاة تشتمل على أقوال وأفعال، فتحريك اللسان بالذكر من المصلي من جملة أفعال الصلاة، والقول المسموع من هذا التحريك هو من أقوال الصلاة وليس في أقوالها شيء يخرج عن ذكر الله في حال قيام وركوع ورفع وخفض إلاً ما يقع به التلفظ من ذكر نفسك بحرف ضمير أو ذكر صفة تسأله أن يعطيكها مثل: اهدني وارزقني، ولكن هو ذكر شرعاً لله فإن الله سمّى القرآن ذكراً وفيه أسماء الشياطين والمغضوب عليهم والمتلفظ به يسمّى ذكر الله فإنه كلام الله فذكرتهم بذكر الله، وهذا ممّا يؤيد قول من قال: ليس في الوجود إلاً الله، فالأذكار أذكار الله، ثم إن قوله تعالىٰ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ هذه الإضافة تكون من كونه ذاكراً ومن كونه مذكوراً، فهو أكبر الذاكرين، وهو أكبر المذكورين، وذكره أكبر الأذكار التي تظهر في المظاهر، فالذكر وإن لم

يخرج عنه فإن الله قد جعل بعضه أكبر من بعض، ثم يتوجه فيه قصد آخر من أجل الاسم الله فيقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ بهذا الاسم الذي ينعت ولا ينعت به ويتضمن جميع الأسماء الحسنى ولا يتضمنه شيء في حكم الدلالة ﴿أَكْبَرُ﴾ من كل اسم تذكره به سبحانه من رحيم وغفور ورب وشكور وغير ذلك، فإنه لا يعطي في الدلالة ما يعطي الاسم الله لوجود الاشتراك في جميع الأسماء كلها، هذا إذا أخذنا أكبر بطريق أفعل من كذا، فإن لم نأخذها على أفعل من كذا فيكون إخباراً عن كبر الذكر من غير مفاضلة بأيّ اسم ذكر، وهو أولى بالجناب الإلهيّ، وإن كانت الوجوه كلها مقصودة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إنه كل وجه تحتمله كل آية في كلام الله من فرقان وتوراة وزبور وإنجيل وصحيفة عند كل عارف بذلك اللسان فإنه مقصود لله تعالىٰ في حق ذلك المتأوّل لعلمه الإحاطي سبحانه بجميع الوجوه، وبقي عليه في ذلك الكلام من حيث ما يعلمه هو، فكل متأوّل مصيب قصد الحق بتلك الكلمة، هذا هو الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] على قلب من اصطفاه الله به من عباده، فلا سبيل إلى تخطئة عالم في تأويل يحتمله اللفظ، فإن مخطئه في غاية من القصور في العلم، ولكن لا يلزمه القول به ولا العمل بذلك التأويل إلاّ في حق ذلك المتأوّل خاصة ومن قلّده.

السؤال التاسع والعشرون ومائة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] ما هذا الذكر؟ الجواب: هذا ذكر الجزاء الوفاق. قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[سورة النبأ: الآية ٢٦]، فذكر الله في هذا الموطن هو المصلي عن سابق ذكر العبد، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] أي يؤخّر ذكره عن ذكركم، فلا يذكركم حتى تذكروه، ولا تذكرونه حتى يوفقكم ويلهمكم ذكره، فيذكركم بذكره إياكم فتذكروه به أو بكم فيذكركم بكم وبه بالواو لا بأو فإن له الذكرين معاً، وقد يكون لبعض العلماء الذكران معاً، وقد يكون الذكر الواحد دون الآخر في حق بعض الناس، وتختلف أحوال الذاكرين منا، فمنا من يذكره في نفسه وهم على طبقات طبقة تذكره في نفسها والضمير من النفس يعود على الله من حيث الهو، وشخص يذكره في نفسه والضمير يعود على الشخص، وشخص يذكره في نفسه والضمير يعود على الله من حيث ما هو خالقها لا من حيث ما هي نفسه من كونها ظاهرة في مظهر خاص، فإذا ذكره كل شخص من هؤلاء إما بوجه واحد من هذه الوجوه أو بكل الوجوه، فإنّ الله يذكره في نفسه، وقد يكون قوله: ذكرته في نفسي عين ذكر هذا العبد ربّه في نفسه من حيث ما هو الضمير يعود على الله من نفسه من حيث ما هي نفسه عيناً لا من حيث ما هي نفسه خلقاً، فيكون عين ذكر العبد هو عين ذكر الحق كما قلنا في قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وهو عين مكرهم عين مكر الله بهم لا أنه استأنف مكراً آخر، ويؤيده أيضاً بقوله: ذكرته في نفسي يريد نفس العبد مضافة إلى الله من حيث ما هي ملك له خلقاً وإيجاداً، ويريد أيضاً ذكرته في نفسي نفس الحق لا من حيث الوجه الذي ذكره به العبد من حيث نفسه نفس الحق وهو الوجه الأوّل، فهذه أحوال ذكر النفس بالجزاء الوفاق

في كل وجه، والحالة الثانية أن يذكره في ملأ فيذكره الله في ملأ خير من ذلك الملأ، وقد يكون عين ذلك الملأ وتكون الخيرية بالحال، فحال ذلك الملأ في ذكر هذا العبد لله دون حال ذلك الملأ في ذكر الله فيهم لهذا العبد، فهو في هذه الحال خير منه في حال ذكر العبد والملأ واحد، كما تتشرف الجماعة بالملك إذا كان فيها على شرفها، إذا لم يكن الملك فيها، وعين الجماعة واحدة فهي خير منها، ولكن بشرط أن يكون كل واحد من ذلك الملأ حاله الكشف أن الله قد ذكر هذا العبد فيه وهم يسمعون ذكر الله إياه كما سمعوا ذكر هذا العبد ربه، فحينئذ يكون الشرف في الملأ الواحد يتفاضل، والوجه الآخر أن يكون الملأ مغايراً لذلك الملأ فيكون خيره على هذا الملأ، إما بكون الحق أسمعهم ذكره عبده وهو فيهم، أو يكون خيره لأمر آخر تقتضيه مرتبته عند الله إمّا نشأة أو حالاً أو علماً، وهذه أمور إن تأملتها انفتح لك منها علوم جمة من العلم الإلهيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السؤال الثلاثون ومائة: ما معنى الاسم؟ الجواب: أمر يحدث عن الأثر، أو أمر يكون عنه الأثر، أو منه ما يكون عنه الأثر، ومنه ما يحدث عن الأثر إذا لم ترد به المسمّى، فإن أردت به المسمّى فمعناه المسمّى كان ما كان مركباً تركيباً معنوياً أو حسّياً، أو غير مركب معنوياً أو حسّياً كلفظة رحيم أي ذات راحمة، فالمسمّى بهذه التسمية هي عين تلك النسبة الجامعة بين ذات ورحمة حتى جعل عليها من هذه النسبة اسم فاعل، وإن كانت التسمية جامدة لا يعقل منها غير الذات فليست بمركبة تركيباً معنوياً فقد تكون هذه الذات مفردة معنى وفي نفسها، وقد تكون مركبة حسّاً مثل إنسان تحته مركب حسيّ ومعنويّ، والاسم والرسم عند بعض أصحابنا نعتان يجريان في الأبد على حكم ما كان عليه أزلاً، وفرّق بين الاسم والرسم، وسيأتي ذكرهما في شرح معاني ألفاظ أهل الله من هذا الباب فإنه يطلبها.

السؤال الحادي والثلاثون ومائة: ما رأس أسمائه الذي استوجب منه جميع الأسماء؟ الجواب: الاسم الأعظم الذي لا مدلول له سوى عين الجمع وفيه: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] ولا بدّ. فإن **قلت**: فهو الاسم الله. **قلت**: لا أدري فإنه يفعل بالخاصية، وهذه اللفظة إنما تفعل بالصدق إذا كان صفة للمتلفظ بها بخلاف ذلك الاسم، ولكن الظاهر من مذهب الترمذيّ أن رأس الأسماء الذي استوجب منه جميع الأسماء إنما هو الإنسان الكبير وهو الكامل، وإذا كان هذا فهو الأولى في طريق القوم أن يشرح به رأس الأسماء، فإن آدم علمه الله جميع الأسماء كلها من ذاته ذوقاً فتجلّى له تجلّياً كلياً، فما بقي اسم في الحضرة الإلهية إلاّ ظهر له فيه، فعلم من ذاته جميع أسماء خالقه.

السؤال الثاني والثلاثون ومائة: ما الاسم الذي أبهم على الخلق إلاّ على خاصته؟ الجواب: هذا الاسم الذي استوجب منه جميع الأسماء، وإن شئت **قلت**: هو اسم مركب من عشرين وثلاثين بينهما أحد وأربعون حسّاً ومعنى، وقد يتركب حسّاً لا معنى من ثمانية وثمانين ومائتين وستة عدداً، فإذا جمعتها على وجه مخصوص من غير إسقاط الستة كان اسماً مركباً، وإن أسقطت الستة كان اسماً غير مركب، ولا ينبغي أن يوضح في العامة ما أبهمه

الحق على خلقه وخصّ به خاصته فإن هذا من غاية سوء الأدب، وما أظنّ الترمذيّ قصد بهذا السؤال طلب الشرح والإيضاح لمعناه، وإنما قصد اختبار المسؤول أنه إن كان من أهل الله لا يوضحه، فإن أوضحه فيكون قد تلقاه من أحد غلطاً ممّن تلقاه منه لقرينة حال وذكاء فيه، وأما أهل الله فعندهم من الأدب الإلهيّ ما يمنعهم أن يستروا ما كشف الله أو يكشفوا ما ستره الله.

السؤال الثالث والثلاثون ومائة: بما نال صاحب سليمان عليه السلام ذلك وطوي عن سليمان عليه السلام؟ الجواب: بجمعيته وتلمذته ليعرف الشيخ بما حصل عنده وبسببه وطوى عن سليمان بوجوده في محل التبديد في الوقت، فإن الحكم للوقت ووقته أنه رسول، فهو صاحب وجود مصروف العين إلى من أرسل إليه، وصاحبه في جمعيته على أمر واحد متحقق بها، فظهر بما طوى عن سليمان العمل به تعظيماً لقدر سليمان عليه السلام عند أهل بلقيس وسائر أصحابه، وما طوى عن سليمان العلم به وإنما طوى عنه الإذن في التصرّف به تنزيهاً لمقامه.

السؤال الرابع والثلاثون ومائة: ما سبب ذلك؟ الجواب: إعلام الغير بأن التلميذ التابع إذا كان أمره بهذه المثابة فما ظنك بالشيخ؟ فيبقى قدر الشيخ مجهولاً في غاية التعظيم فلو ظهر على سليمان لتوهم أن هذا غايته، ولا شك أن مشهد سليمان في ذلك الوقت والله أعلم كان مشهد أدب لا يريد أن يكون عنه شرك في التصرّف، كما قال أبو السعود: أعطيت التصرّف وتركته تظرفاً، في حكاية طويلة، والغرض للنبي إنما هو الدلالة وظهورها على يد صاحبه أتم في حقّه، إذ كان هذا التابع مصدقاً به وقائماً في خدمته بين يديه تحت أمره ونهيه، فيزيد المطلوب رغبة في هذا الرسول إذا رأى بركته قد عادت على تابعيه فيرجو هذا الداخل أن يكون له بالدخول في أمره ما كان لهذا التابع، والنفس مجبولة على الطمع وحب الرياسة والتقدم.

السؤال الخامس والثلاثون ومائة: ماذا أطلع من الاسم على حروفه أو معناه؟ الجواب: على حروفه دون معناه، فإنه لو وقف على معناه لمنعه العمل به كما منع سليمان، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ في صاحب موسىٰ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٥] فكانت عليه كالثوب وهو مثل الحرف على المعنى فعمل بها في غير طاعة الله فأشقاه الله، وصاحب سليمان عمل به في طاعة الله فسعد، وما وقف على معناه من الأمم الخالية سوى الرسل والأنبياء، فإنهم وقفوا على معناه وحروفه إلاّ هذه الطائفة المحمدية فإنهم جمع لبعضهم بين حروفه ومعناه، ولبعضهم أعطي معناه دون حروفه، وليس في هذه الأمة من أعطي حروفه دون معناه، وكذلك صاحب الأخدود أعطي حروفه دون معناه، فإنه تلقاه من الراهب كلمات كما ورد وهي الكلمات التي ذكرناها في السؤال الثاني والثلاثين ومائة.

السؤال السادس والثلاثون ومائة: أين باب هذا الاسم الخفيّ على الخلق من أبوابه؟ الجواب: بالمغرب. قال رسول الله ﷺ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ»** وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسدّ باب التوبة ويغلق فلا ينفع نفساً

إيمانها ولا ما تكتسبه من خير بذلك الإيمان، والمؤمن لا يغلق له باب، وكيف يغلق دونه وقد جازه وتركه وراءه، فمن عناية المؤمن غلقه حتى لا يخرج عليه بعدما دخل منه فلا يرتدّ مؤمن بعد ذلك فإنه ليس له باب يخرج منه، فغلق باب التوبة رحمة بالمؤمن ووبالاً بالكافر، وجعله الله بالمغرب لأنه محل الأسرار والكتم، وهو سر لا يعلمه إلاّ أهل الاختصاص، فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهراً عند العام والخاص ووقع به الفساد في العموم وهذا يناقض ما وجد له العالم من الصلاح، وقد جاء في جانب الشرق من الذمّ ما جاء، والشرق بمنزلة الخروج إلى الدنيا وهي دار الإبتلاء للعام والخاص، والغرب بمنزلة الخروج من الدنيا والدخول إلى الآخرة، فإنه انتقال إلى دار التمييز والبيان ومعرفة المنازل والمراتب على ما هي عند الله تعالى، فيعلم السعيد سعادته والشقي شقاوته، فيظهر عند ذلك عين هذا الاسم الخفي لجميع الخلق، ويحرمون الدعاء به لشغلهم بما هم فيه من الهول، فيعظم في قلوبهم شدّة الهول بحيث أن يظنوا أنه ما ثم دعاء يردّ ما هم فيه ولو وفقوا للدعاء به لسعدوا، فسبحان القدير على ما يشاء.

السؤال السابع والثلاثون ومائة: ما كسوته؟ الجواب: حال الداعي به المعنويّ وكسوته على الحقيقة حروفه إذا أخذت الاسم من طريق معناه، فإن أخذته من طريق حروفه فحينئذ يكون كسوته حال الداعي به، فإذا أقيم في شاهد الحسّ في التخيّل أو الخيال فيكون كسوته الثوب السابغ الأصفر يلتوي فيه فإنه غير مخيط، ألا ترى بقرة بني إسرائيل﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٩] ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: ٧١] فحيي بها الميت وهو أعظم الآثار إحياء الموات حياة الإيمان وحياة العلم وحياة الحسّ، وأعظم أثره في زمان الشتاء إذا وقع فيه شهر صفر في أوّل الشتاء إلى انتصافه فهو أسرع أثراً منه في باقي الأزمنة وباقي الشهور، ويكون الثوب صوفاً أو شعراً أو وبراً لا غير ذلك والريش منه، وإنما قلنا هذا لأنه قد يظهر لقوم بنوع من أنواع ما ذكرناه من هذه الأنواع التي تلبس، فلو ظهر في نوع واحد لعرّفناكم به واقتصرنا عليه. وقال بعضهم: رأيت كسوته جلداً أصفر قد صفر بورس أو زعفران، وهكذا رآه الحسين بن منصور ولكن لم يكن سابغ الثوب وإنما ستر بعض أعضائه ستر منه قدر ستة أذرع لا غير.

السؤال الثامن والثلاثون ومائة: ما حروفه؟ الجواب: الألف ولام الألف والواو والزاي والراء والدال والذال، فإذا ركبت التركيب الخاص الذي تقوم به نشأة هذا الاسم ظهر عينه ولونه وطوله وعرضه وقدره وانفعل عنه جميع ما توجهه عليه، هكذا هو عند الطائفة في الواقعة، ولا تنقل عني أني أعلمه لما ذكرت فيه هذا لا يلزم، فقد ننقل من الواقعة والكشف جميع ما سطرته، ولا يلزم أن أكون به عالماً، وإنما قلت هذا لئلا يتوهم أني ما ذكرته إلاّ عن علم به، ولكن مطلبي من الحق العبودة المحضة التي لا تشوبها ربوبية لا حسّاً ولا معنى.

السؤال التاسع والثلاثون ومائة: والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه فأين هذه الأسماء؟ وإنما هي ثمانية وعشرون حرفاً فأين هذه الحروف؟ الجواب: لأنه يفتح الحرف الواحد من الأسماء الإلهية أسماء كثيرة لا يحصرها عدد، وذلك لأنه إنما يفتح أسماء الأسماء

التي تتركب من الحروف بحكم الاصطلاح، وقد ثبت أن الحق متكلم فقد سمّى نفسه من كونه متكلماً بالكلام الذي نسب إليه ويليق به، وهذه الأسماء التي تظهر عن الحروف أسماء تلك الأسماء، فلو أن الحرف الواحد يفتح اسماً واحداً لكان كما قلت من التعجب، ألا ترى في الأسماء المحفوظة في العموم كالملك والمصوّر والمان والمنان والمقتدر والمحيي والمميت والمقيت والمالك والمليك والمقدّم والمؤخر والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمغني والمعز والمذل، فهذا حرف واحد افتتحنا به كذا كذا اسماً إلهياً مع أنا لم نستوف، ثم لتعلم أنّ كل اسم في العالم هو اسمه لا اسم غيره، فإنه اسم الظاهر في المظهر وليس في وسع المخلوقين حصرها ولا إحصاؤها وجميعها مفاتيحها هذه الحروف على قلتها، ولك في اختلاف اللغات أعظم شاهد وأسدّ دليل إن فهمت مقصود القوم.

وأمّا قوله: فأين هذه الحروف؟ فقل له في عوارض الأنفاس تعرض للنفس الرحمانيّ ما يحدث عين الحرف، ويعرض للحروف ما يحدث الأسماء، فأينية الأسماء في الحروف، وأينية الحروف الأنفاس، وأينية الأنفاس الأرواح، وأينية الأرواح القلوب، وأينية القلوب عندية مقلبها، وأسماء الحق لا تتعدّد ولا تتكثر إلاّ في المظاهر، وأما بالنسبة إليه فلا يحكم عليها العدد ولا أصله الذي هو الواحد، فأسماؤه من حيث هو لا تتصف بالوحدة ولا بالكثرة، فسؤال الإمام إنما هو عن الأسماء التي يقع بها التلفّظ في عالم الحروف اللفظية، ويقع بها الرقم في عالم الكتابة، فتارة يراعى الرقم وتارة يراعى اللفظ، وأما غيره فيجعل حروفاً ثوالث وهي الحروف الفكرية وهي ما يضبطه الخيال من سماع المتلفظ بها أو إبصار الكاتب إياها.

السؤال الأربعون ومائة: كيف صار الألف مبتدأ الحروف؟ الجواب: لأنّ له الحركة المستقيمة وعن القيومية يقوم كل شيء. فإن قلت: إنما يقع التكوين بالحركة الأفقية فإنه لا يقع إلاّ بمرض والمرض ميل، ألا ترى إلى القائلين بحكم العقل كيف جعلوا موجد العالم علة العلل؟ والعلة تناقض القيومية. فلنقل إنما وقع الوجود بقيومية العلة فإنه لكل أمر قيومية فافهم، فقيومية الألوهية تطلب المألوه بلا شك. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] وما ثم ما يناسب الألف إلاّ الحرف المركب وهو اللام فإنه مركب من ألف ونون، فلما تركب حدث اللام الرقميّ لا اللفظيّ، فلام اللفظ صورته في الرقم مركب من حرفين: فيفعل بالتلفظ فعل الواحد وهو عينه، ويفعل بالنقش فعل الألف والنون، وهكذا كل حرف مركب، ويفعل فعل الراء والزاي ببعد كما يفعله النون بقرب لأنّ النون حرف مركب من زاي وراء وأريد حروف الرقم فابتدؤوا بالألف في الرقم لما ذكرناه، وانفتحت فيه أشكال الحروف كلها لأنّ أصل الأشكال الخط، كما أن أصل الخط النقطة والخط هو الألف، فالحروف منه تتركب وإليه تنحل فهو أصلها.

وأمّا الحروف اللفظية فالألف يحدثها بلا شك كما يظهر الألف عن الحرف إذا أشبعته الفتح فإنه يدل على الألف، كما أنك إذا أشبعت الحرف الضمّ دلّ على ألف الميل وهو واو

العلة، وإنما ظهر عن الرفع المشبّع لأنّ العلة أرفع من المعلول، فما ظهر عن الحرف إلاً بصفة الرفع البالغ ليعلم أنه وإن مال فإنه ما مال إلاً عن رفعة رحمة بك ليوجدك مظهراً لخالقك، ألا تراه في حرف الإيجاد كيف جاء برفع الكاف المشبع فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فجاء بالكاف مشبعة الضم لتدل على الواو. فإن قلت: وأين الواو؟ قلنا: غيب في السكون الذي هو الثبوت، فإنّ الحق يستحيل عليه الحركة، فلما التقى سكون الواو من «كون» وسكون النون اتصفت الواو بالغيب فلم تظهر ولزمت الهوية، ولهذا هو الهو غيب وضمير عن غائب، وبقيت النون ساكنة تدل على سكون الواو وظهرت النون على صورة الواو في السكون وهو الثبوت كقوله: «**خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» فأثبت الأسماء بوجود النون في ﴿كُن﴾ أي ما ثم كائن حادث إلاً عند سبب، فلا يرفع الأسباب إلاً جاهل بالوضع الإلهيّ، ولا يثبت الأسباب إلاً عالم كبير أديب في العلم الإلهيّ، فعن الحروف اللفظية يوجد عالم الأرواح، وعن الحروف الرقمية يوجد عالم الحسّ، وعن الحروف الفكرية يوجد عالم العقل في الخيال، ومن كل صنف من هذه الحروف تتركب أسماء الأسماء.

السؤال الحادي والأربعون ومائة: كيف كرر الألف واللام في آخره؟ الجواب: هذا يختص بحروف الرقم المناسب المزدوج وهو نظم: ا ب ت ث، لا حروف وضع أبجد، فإنّ لام ألف ما ظهر إلاً في نظم: ا ب ت ث، فإنه ناسب بين الحروف لتناسبها في الصورة بخلاف وضع أبجد، وذلك لأنّ اللام كسوة الألف وجنته فإنه مستور فيها بالنون الملصقة به الذي تمّم وجود اللام وجعلها في آخر النظم ليس بعدها إلاً الياء لأنه ظهر في عالم التركيب وهو آخر العوالم وجاء بعده بالياء فإنه لها السفل، إذ كانت إنما حدثت من إشباع حركة الخفض والخفض سفل والسفل آخر المراتب، فكان تنبيهاً أجري على خاطر الواضع لهذه الحروف وربما لم يقصد ذلك، ونحن إنما ننظر في الأشياء من حيث أنّ الباري واضعها لا من حيث يد من ظهرت منه، فلا بدّ من القصد في ذلك والتخصيص: فشرحنا لكون الحق هو الواضع لها لا غيره.

ولما كانت الأولية للألف انبغى أن تكون له الآخرية، وكماله الظاهر في أوّل الحروف انبغى أن يكون له الباطن في آخر الحروف ليجمع بين ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] والياء هي ألف الميل في عالم الحسّ الذي هو العالم الأسفل لحدوثها عن الخفض، لتدل على الألف التي في لام ألف، ولتدل على السبب الذي في شكل اللام إذا انفردت، فإذا عانقت الألف صغرت النون في الالتواء، وقابل الألف التي في اللام الألف التي في لام الألف حتى لا يكون يقابله إلاً نفسه، فقابل الألف الألف وربطت النون بينهما وهو ألف سرّ العبد الذي تألف بربه وهو من باب الامتنان الإلهيّ، قال الله تعالىٰ ممتناً على عبده: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٣] ولم يقل بين قلوبهم ولا بينها فجاء بهاء الهو في بينهم وجعل ميم الجمع ستراً عليه ليدل على ما ينسب إليه من الجمعية من حيث كثرة الأسماء له تعالىٰ، والمراد أنه سبحانه ألّف بين

قلوب المؤمنين وبينه لأنهم ما اجتمعوا على محمد ﷺ إلاّ بالله ولله، فبه تألّفوا لتألف محمد ﷺ به فافهم لماذا كرّر لام الألف في نظم تناسب الحروف وهو نظم: ا ب ت ث.

السؤال الثاني والأربعون ومائة: من أيّ حساب صار عددها ثمانية وعشرين حرفاً؟ الجواب: لأنها إنما ظهرت أعيان الحروف في العالم العنصريّ وفي عنصر الهواء سلطانها، كما أن التراب والماء للأجسام الحيوانية، كما أن عنصر النار للجان والعالم العنصريّ إنما نسب إلى العناصر لأنها السبب الأقرب، والعناصر إنما حدثت عن حركات الأفلاك، وحركات الأفلاك إنما قطعت ثمانياً وعشرين منزلة في الفلك الذي قطعت فيه، والعالم إنما صدر من نفس الرحمن لأنه نفس به عن الأسماء لما كانت تجده من عدم تأثيرها، والنفس مناسب لعنصر الهواء فتشكلت المنازل الفلكية في الهواء العنصريّ لما ظهرت العناصر، فلما جاء حكمه فيما تولد عن العناصر من المولدات ظهرت في أكمل نشأة المولدات وهو الإنسان صور الحروف ثمانية وعشرين حرفاً عن ثمان وعشرين منزلة، وألحق فيها لام الألف خطاً لينبّه على القاطع في هذه المنازل وهي الكواكب السيارة، فكما عمّت المنازل بقوّتها وتقطع فيها إيجاد الكائنات والحوادث، كذلك أوجدت هذه الحروف جميع الكلمات التي لا نهاية لها دنيا وآخرة، فقد بان لك على التقريب لم كانت ثمانية وعشرين حرفاً، فمن تمكن له أن يضع قلماً على شكل المنازل في طالع مخصوص وتكون الدراري في عقدة الرأس فإنه يكون عن ذلك القلم متى كتب به عجائب في سرعة ظهور ما يكتب له في أيّ شيء كان حتى لو كتب به كاتب دعاء أجيب ذلك الدعاء ولم يتوقف.

السؤال الثالث والأربعون ومائة: ما قوله: «خلق آدم على صورته»؟ الجواب: اعلم أنه كل ما يتصوّره المتصوّر فهو عينه لا غيره فإنه ليس بخارج عنه، ولا بدّ للعالم أن يكون متصوّراً للحق على ما يظهر عينه، والإنسان الذي هو آدم عبارة عن مجموع العالم فإنه الإنسان الصغير وهو المختصر من العالم الكبير، والعالم ما في قوّة إنسان حصره في الإدراك لكبره وعظمه، والإنسان صغير الحجم يحيط به الإدراك من حيث صورته وتشريحه، وبما يحمله من القوىٰ الروحانية، فرتب الله فيه جميع ما خرج عنه ممّا سوى الله، فارتبطت بكل جزء منه حقيقة الاسم الإلهي التي أبرزته وظهر عنها، فارتبطت به الأسماء الإلهية كلها لم يشذ عنه منها شيء، فخرج آدم على صورة الاسم الله، إذ كان هذا الاسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية، كذلك الإنسان وإن صغر جرمه فإنه يتضمن جميع المعاني ولو كان أصغر ممّا هو، فإنه لا يزول عنه اسم الإنسان، كما جوّزوا دخول الجمل في سم الخياط، وأن ذلك ليس من قبيل المحال، لأن الصغر والكبر العارضين في الشخص لا يبطلان حقيقته ولا يخرجانه عنها، والقدرة صالحة أن تخلق جملاً يكون من الصغر بحيث لا يضيق عنه سم الخياط، فكان في ذلك رجاء لهم أن يدخلوا جنة النعيم، كذلك الإنسان وإن صغر جرمه عن جرم العالم فإنه يجمع جميع حقائق العالم الكبير ولهذا يسمّي العقلاء العالم إنساناً كبيراً، ولم يبق في الإمكان معنى إلاّ وقد ظهر في العالم، فقد ظهر في مختصره والعلم تصوّر المعلوم، والعلم من صفات العالم الذاتية فعلمه

صورته وعليها خلق آدم، فآدم خلقه الله على صورته، وهذا المعنى لا يبطل لو عاد الضمير على آدم، وتكون الصورة صورة آدم علماً والصورة الآدمية حسّاً مطابقة للصورة، ولا يقدر يتصوّر هذا إلاّ بضرب من الخيال يحدثه التخيّل. وأما نحن وأمثالنا فنعلمه من غير تصوّر، ولكن لما جاء في الحديث ذكر الصورة علمنا أن الله إنما أراد خلقه على الصورة من حيث إنه يتصوّر لا من حيث ما يعلمه من غير تصوّر، فاعتبر الله تعالىٰ في هذه العبارة التخيّل، وإذا أدخل سبحانه نفسه في التخيل فما ظنك بمن سوى الحق من العالم، صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فهذا تنزيل خيالي من أجل كاف التشبيه، وانظر من كان السائل ومن كان المسؤول ومرتبتهما من العلم بالله، ولم يكن بأيدينا إلاّ الأخبار الواردة بالنزول، والمعية، واليدين، واليد، والعين، والأعين، والرجل، والضحك، وغير ذلك مما ينسب الحق إلى نفسه، وهذه صورة آدم قد فصّلها في الأخبار وجمعها في قوله: «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» فالإنسان الكامل ينظر بعين الله وهو قوله: «**كُنْتُ بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» الحديث، كذلك يتبشبش بتبشبش الله، ويضحك بضحك الله، ويفرح بفرح الله، ويغضب بغضب الله، وينسى بنسيان الله، قال تعالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] وينسب جميع ما ذكرناه إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه مع علمنا بحقيقة كل صفة، فإن كانت الذات المنسوب إليها معلومة علم صورة نسبة هذا المنسوب، وإن جهلت الذات المنسوب إليها كنت بنسبة هذا المنسوب أجهل، فهذا الوجه الذي يليق بجواب سؤال هذا السيد، فلو سأل مثل هذا السؤال فيلسوف إسلاميّ أجبناه بأن الضمير يعود على آدم، أي أنه لم ينتقل في أطوار الخلقة انتقال النطفة من ماء إلى إنسان خلقاً بعد خلق بل خلقه الله كما ظهر، ولم ينتقل أيضاً من طفولة إلى صبي إلى شباب إلى كهولة، ولا انتقل من صغر جرم إلى كبره كما ينتقل الصغير من الذرية، بهذا يجاب مثل هذا السائل، فلكل سائل جواب يليق به.

السؤال الرابع والأربعون ومائة: ليتمنين اثنا عشر نبياً أن يكونوا من أمتي؟ الجواب: لما كانت أمته خير الأمم وعندها زيادة على أنبياء الأمم باتباعهم سنن هدي رسول الله ﷺ فإنهم ما اتبعوه لأنهم تقدّموه، وليس خيراً من كل أمة إلاّ نبيها، ونحن خير الأمم، فنحن والأنبياء في هذه الخيرية في سلك واحد منخرطين، لأنه ما ثم مرتبة بين النبيّ وأمته ومحمد خير من أمته كما كان كل نبيّ خيراً من أمته، فهو ﷺ خير الأنبياء، فهؤلاء الاثنا عشر نبياً ولدوا ليلاً وصاموا إلى أن ماتوا وما أفطروا نهاراً مع طول أعمارهم سؤالاً ورغبة ورجاء أن يكونوا من أمّة محمد ﷺ، فلهم ما تمنّوا وهم مع من أحبوه يوم القيامة، فيأتي النبيّ يوم القيامة وفي أمّته النبيّ والاثنان والثلاثة ويأتي محمد ﷺ وفي أمّته أنبياء أتباع وأنبياء أتباع وأنبياء ما هم أنبياء أتباع فيتبع محمداً ﷺ ثلاثة أصناف من الأنبياء، وهذه مسألة أعرض عن ذكرها أصحابنا لما فيها مما يتطرق إلى الأوهام الضعيفة من الأشكال، وجعلهم الله اثني عشر كما جعل الفلك الأقصى اثني عشر برجاً، كل برج منها طالع نبيّ من هؤلاء الاثني عشر، لتكون جميع المراتب تتمنى أن تكون من أمّة محمد ﷺ من الاسم الظاهر ليجمعوا بينه وبين ما حصل لهم

من اسمه الباطن، إذ كان كل شرع بعثوا به من شرعه عليه السلام من اسمه الباطن إذ كان نبياً وآدم بين الماء والطين، فقوله تعالىٰ له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وما قال بهم إذ كان هداهم هداك الذي سرى إليهم في الباطن من حقيقتك، فمعناه من حيث العلم إذا اهتديت بهداهم فهو اهتداؤك بهديك لأن الأولية لك باطناً والآخرية لك ظاهراً، والأولية لك في الآخرية ظاهراً وباطناً.

السؤال الخامس والأربعون ومائة: ما تأويل قول موسىٰ: اجعلني من أمة محمد ﷺ؟

الجواب: لما عرف موسىٰ أن الأنبياء في النسبة إلى محمد ﷺ نسبة أمته إليه، وأن نسبة أمته إليه من اسمه الظاهر والباطن، ونسبة الأنبياء إليه من اسمه الباطن، أراد موسىٰ أن يجمع الله له بين الاسمين في شرعه. ثم إنه لما علم أنه تبع ولم يشك أراد إقامة جاهه عند محمد ﷺ على غيره من الرسل، إذ كان التباهي يوم القيامة بالتكاثر بالأمم والأتباع وليس في الرسل أكثر أتباعاً من موسىٰ عليه السلام كما أخبر ﷺ في الصحيح حين رأى سواداً أعظم فسأل فقيل له: هذا موسىٰ وأمته. وقد قال ﷺ: «**إِنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» والسيد لا يكاثر، فإذا كان موسىٰ بدعائه من أمة محمد ﷺفي الدرجة ظاهره وباطنه مثل ما نحن زاد هو وأمته في سوادنا بلا شك، وما قال عليه السلام: «**إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ إلاَّ فِي أُمَم لَمْ يَكُنْ لِنَبِيِّهَا مَجموعُ الاسمين اللَّذَيْنِ دَعَا اللَّهَ مُوسَىٰ أَنْ يَكُونا لَهُ**» فكل من جمع بين الاسمَين حشر معنا في أمته ﷺ فيباهي موسىٰ بأمته سائر الأنبياء الذين حشروا معنا، فيكونون معه بمنزلة الأمراء المقدمين على العساكر، فأكبرهم أميراً أكثرهم جيشاً، وأكثرهم جيشاً أعظمهم قدراً وحرمة عند رسول الله ﷺ. ولهذا قال الترمذيّ: أنه يكون في أمّة محمد ﷺ من هو أفضل من أبي بكر الصديق عندما يرى أنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ من المسلمين، فإنه معلوم أن عيسىٰ عليه السلام أفضل من أبي بكر وهو من أمة محمد ﷺ ومتبعيه، وإنما ذكرناه لكون الخصم يعلم أنه لا بدّ أن ينزل في هذه الأمة في آخر الزمان ويحكم بسنة محمد ﷺ مثل ما حكم الخلفاء المهديون الراشدون، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويدخل بدخوله من أهل الكتاب في الإسلام خلق كثير أيضاً.

السؤال السادس والأربعون ومائة: إن لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون بمقاماتهم وقربهم إلى الله تعالىٰ.

الجواب: يريد ليسوا بأنبياء تشريع لكنهم أنبياء علم وسلوك اهتدوا فيه بهدي أنبياء التشريع، وقد ذكرنا مقامهم ومعنى النبوّة وتفاصيلها في هذا الباب وفي غيره من هذا الكتاب، غير أنهم ليس لهم أتباع لوجهين: الواحد لغنائهم في دعائهم إلى الله على بصيرة عن نفوسهم فلا تعرفهم الأتباع وهم المسوّدون الوجه في الدنيا والآخرة من السؤدد عند الرسل والأنبياء والملائكة، ومن السواد لكونهم مجهولين عند الناس، فلم يكونوا في الدنيا يعرفون ولا في الآخرة يطلب منهم الشفاعة، فهم أصحاب راحة عامة في ذلك اليوم. والوجه الآخر أنهم لما لم يعرفوا لم يكن لهم أتباع، فإذا كان في القيامة جاءت الأنبياء خائفة يحزنهم الفزع الأكبر

على أممهم لا على أنفسهم، وجاء غير الأنبياء خائفين يحزنهم الفزع الأكبر على أنفسهم، وجاءت هذه الطائفة مستريحة غير خائفة لا على نفوسهم ولا يحزنهم الفزع الأكبر على أممهم إذ لم يكن لهم أمم، وفيهم قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] أن يرتفع الحزن والخوف فيه عنكم في حق أنفسكم وحق الأمم، إذ لم تكن لكم أمّة ولا تعرفتم لأمة مع انتفاع الأمة بكم، ففي هذا الحال تغبطهم الأنبياء المتبوعون أولئك المهيمون في جلال الله العارفون الذين لم تفرض عليهم الدعوة إلى الله. انتهى الجزء التسعون.

(الجزء الحادي والتسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال السابع والأربعون ومائة: ما تأويل قول بسم الله؟ **الجواب:** هو للعبد في التكوين بمنزلة كن للحق، فبه يتكوّن عن بعض الناس ما شاؤوا، قال الحلاج: بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق، ولكن بعض العباد له كن دون بسم الله وهم الأكابر: جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك أَنَّهُمْ رَأَوْا شَخْصاً فَلَمْ يَعْرِفُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كُنْ أَبَا ذَرٍّ!**» فَإِذا هُوَ أَبُو ذَرٍّ، وَلَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ فَكَانَتْ كنْ مِنه كُن الإِلٰهِيةَ، فإنه قال الله تعالىٰ فيمن أحبه حب النوافل: «كنت سمعه وبصره ولسانه الذي يتكلم به». وقد شهد الله لمحمد ﷺ بأن له نافلة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] فلا بدّ أن يكون سمعه الحق وبصره الحق وكلامه الحق، ولم يشهد بها لأحد من الخلق على التعيين، فعلامة من لم تستغرق فرائضه نوافله وفضلت له نوافل أن يحبه الله تعالىٰ هذه المحبة الخاصة وجعل علامتها أن يكون الحق سمعهم وبصرهم ويدهم وجميع قواهم، ولهذا دعا رسول الله ﷺ أن يكون كله نوراً فإن الله نور السموات والأرض، ولهذا تشير الحكماء بأن الغاية المطلوبة للعبد التشبّه بالإله، وتقول فيه الصوفية التخلّق بالأسماء، فاختلفت العبارات وتوحّد المعنى، ونحن نرغب إلى الله ونضرع أن لا يحجبنا في تخلقنا بالأسماء الإلهية عن عبودتنا.

السؤال الثامن والأربعون ومائة: قوله: السلام عليك أيها النبيّ. الجواب: لما كانت الأنبياء بصفة تقتضي الاعتراض والتسليم شرع للمؤمن التسليم ومن سلم لم يطلب على العلة في كل ما جاء به النبيّ ولا في مسألة من مسائله، فإن جاء النبيّ بالعلة قبلها كما قبل المعلول، وإن لم يجيء بها سلم فقال: السلام عليك أيها النبيّ، وقد بيّنا معناها في باب الصلاة من هذا الكتاب في فصول التشهّد، وإذا قال هذا النبي فالمسلم عليه منه هو الروح.

السؤال التاسع والأربعون ومائة: قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. الجواب: يريد التسليم علينا لنا إذ فينا ما يقتضيه الاعتراض منا علينا، فنلزم نفوسنا التسليم فيه لنا ولا نعترضه، ولا سيما إذا رأينا أن الحكم الذي يقتضي الاعتراض صدر من الظاهر في هذا المظهر الذي هو عيني فنسلم ولا بدّ علينا وعلى عباد الله الصالحين للاشتراك في العطف، أي

لا يصحّ هذا العطف بعباد الله الصالحين إلاً بأن يكون بتلك الصفة الصالحة، وحينئذ يكون السلام علينا حقيقة، وقد بيّنا أيضاً هذا المعنى في باب الصلاة من هذا الكتاب في فصول التشهّد، قال تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النور: الآية ٦١] فقد أمرنا بالسلام علينا لنحظى بجميع المراتب في امتثال الأمر الإلهيّ، وهذا يدلك على أن الإنسان ينبغي أن يكون في صلاته أجنبياً عن نفسه بربه حتى يصحّ له أن يسلم عليه بكلام ربه فإنه قال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فهو سلام الله على عبده وأنت ترجمانه إليك.

السؤال الخمسون ومائة: أهل بيتي أمان لأمتي. الجواب: قال ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**» فكل عبد له صفات سيده. وأنه لما قام عبد الله فأضافه إليه صفة أي صفته العبودة واسمه محمد وأحمد وأهل القرآن هم أهل الله فإنهم موصوفون بصفة الله وهو القرآن، والقرآن أمان فإنه شفاء ورحمة، وأمته ﷺ من بعث إليهم وأهل بيته من كان موصوفاً بصفته، فسعد الطالح ببركة الصالح فدخل الكل في رحمة الله، فانظر ما تحت هذه اللفظة من الرحمة الإلهية بأمة محمد ﷺ، وهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] ووصف النبيّ ﷺ بالرحمة فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وما من أحد من الأمة إلاّ وهو مؤمن بالله، وقد بيّنا فيما تقدّم من هذا الكتاب في باب «**سلمان منا أهل البيت**» فأغنى عن الكلام في أهل البيت طلباً للاختصار، قال تعالىٰ لما وصف ووصى أزواج النبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٣٣] ثم أعلمهم أن ذلك كله بكونهن أزواجه ﷺ حتى لا ينسبن إلى قبيح فيعود ذلك العار على بيت رسول الله ﷺ، فببركة أهل البيت وما أراد الله به من التطهير بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾تفعل الأزواج ما أوصيناهنّ به ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣] من دنس الأقوال المنسوبة إلى الفحش وهو الرجس، فإن الرجس هو القذر، فكان أهل البيت أماناً لأزواج رسول الله ﷺ من الوقوع في المخالفات التي يعود عارها على أهل البيت، فكذلك أمّة محمد ﷺ لو خلدت في النار لعاد العار والقدح في منصب النبيّ ﷺ، ولهذا يقول أهل النار: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [سورة ص: الآية ٦٢] وهو من دخل النار من أمّة محمد ﷺ التي بعث إليها في مشارق الأرض ومغاربها.

فكما طهر الله بيت النبوّة في الدنيا بما ذكره ممّا يليق بالدنيا، كذلك الذي يليق بالآخرة إنما هو الخروج من النار، فلا يبقى في النار موحد ممّن بعث إليه رسول الله ﷺ، بل ولا أحد ممّن بعث إليه يبقى شقياً، ولو بقي في النار فإنها ترجع عليه برداً وسلاماً من بركة أهل البيت في الآخرة، فما أعظم بركة أهل البيت، فإنه من حين بعث رسول الله ﷺ انطلق على جميع من في الأرض من الناس أمّة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فالمؤمنون به منهم يحشرون معه، وغير المؤمنين به يحشرون إليه، وقد أعلم أنه ما أرسل﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة

الأنبياء: الآية ١٠٧]، ولم يقل للمؤمنين خاصة، وقد قيل له لما دعا في الصلاة على رعل وذكوان وعصية «ما بعثك الله سباباً ولا لعاناً» أي طرّاداً أي لا تطرد عن رحمتي من بعثتك إليه وإن كان كافراً وإنما بعثتك رحمة وهو قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً﴾ فإذا حشروا إليه وهم أمّته وهو بهذه المثابة من الرحمة التي فطر عليها والرحمة التي بعث بها فيرحم منهم من يقتضي ذلك الموطن أن يرحم فإنه حكيم، والذي لا يقتضي ذلك الموطن أن يرحمه يقول فيه سحقاً سحقاً أدباً مع الله حتى يتجلى الحق في صفة غير تلك الصفة ممّا يقتضي الإسعاف في الجميع، فعند ذلك تظهر بركته ورحمته ﷺ فيمن بعث إليهم بما يرحمهم الله به وينقلهم من النار إلى الجنان، ومن حال الشقاء إلى حال السعادة، وإن كانوا مخلدين في النار فإن الحكم يقضي بحكم الموطن، كرجل مقرّب عند مليك رأى الملك في حال غضب على عبد من عبيده فلا ينبغي له في الأدب أن يشفع فيه في تلك الحال، ولكن ينبغي له أن يقول: أزيلوه من بين يدي الملك واجعلوه في الحبس وقيدوه فإنه لا يصلح لشيء من الخير هذا العبد الآبق الكافر نعمة سيده كل ذلك بمرأى من سيده، فإذا تجلى ذلك السيد في حال بسط ورضى وزال ذلك العبد إلى السجن والقيد وبعد عن الرحمة وإن كان في رحمة حينئذ يليق بهذا المقرّب أن يقول للسيد: يا مولانا فلان على كل حال هو عبدك وماله راحم سواك وإلى من يلجأ إن طردته؟ ومن يوسع عليه إن ضيقت عليه؟ وهو محسوب عليك، وفي هذا من العار بالحضرة أن يقال فيه أنه لم يحترم سيده إذا رُئي معاقباً، والحضرة أجلّ من أن يقال عنها إنها لم تحترم، فإذا عفوت عنه وألحقته بالسعداء استتر الأمر، وأنا يا مولاي أغار أن ينسب إلى هذه الحضرة ما يشينها، ومثل هذا الكلام مع البسط الذي هو عليه السيد واقتضى الموضع الشفاعة فيه فيأمر السيد بتبديل حال الشقاء عنه بحال السعادة وأن يخلع عليه خلع الرضى، وإن بقي محبوساً فيصير له ذلك الدار والمنزل ملكاً ويهبه له ربه ملكاً ويرجع عذابه نعيماً وهو أبلغ في القدرة، هذا إن كانت تلك الدار سكناه، أو يأمر بإخراجه إلى منازل السعداء، فهكذا الناس يوم القيامة في بركة أهل البيت ممّن بعث إليه ﷺ، فما أسعد هذه الأمّة، فإن اعتبر الله البيت اعتبار الباطن إذ كان كل شرع متقدّم شرع محمد ﷺ بمنزلة طلوع الفجر إلى حين طلوع الشمس فكان ذلك الضوء وتزايده من الشمس، فتكون أمّة محمد ﷺ من آدم إلى آخر إنسان يوجد، فيكون الكل من أمّة محمد ﷺ فينال الكل بركة أهل البيت فيسعد الجميع، ألا تراه يقول يوم القيامة: «**أنا سيد الناس**» فلم يخص ولم يقل: أنا سيد أمتي، ثم إنه ما ذكر بعد هذه اللفظة إلاّ حديث الشفاعة فقال: «**أتدرون بما ذاك؟**» وذكر حديث الشفاعة يوم القيامة وهو معنى ما أشرنا إليه آنفاً، فإن فهمت ما أومأنا إليه فافعل ما شئت فقد غفر لك إنه واسع المغفرة.

السؤال الحادي والخمسون ومائة: قوله: آل محمد. الجواب: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ آلٌ وَعِدَّةٌ وَآلِي وَعِدَّتِي المُؤْمِنُ**» ومن أسمائه تعالىٰ المؤمن وهو العدّة لكل شدّة، والآل يعظم الأشخاص فعظم الشخص في السراب يسمى الآل، فآل محمد ﷺ هم العظماء بمحمد، ومحمد ﷺ مثل السراب يعظم من يكون فيه، وأنت تحسبه محمداً العظيم الشأن، كما تحسب

السراب ماء وهو ماء في رأي العين، فإذا جئت محمداً ﷺ لم تجد محمداً ووجدت الله في صورة محمدية ورأيته برؤية محمدية، كما أنك إذا جئت إلى السراب لتجده كما أعطاك النظر فلم تجده في شيئيته ما أعطاك النظر ووجدت الله عنده أي عرفت أن معرفتك بالله مثل معرفتك بالسراب أنه ماء فإذا به ليس ماء وتراه العين ماء، فكذلك إذا قلت عرفت الله وتحققت بالمعرفة عرفت أنك ما عرفت الله فالعجز عن معرفته هي المعرفة به فما حصل بيدك إلاَّ أنه لا يتحصل لأحد من خلقه، وكل من استند إلى الله عظم في القلوب وعند العارفين بالله وعند العامّة، كما أنه من كان في السراب عظم شخصه في رأي العين، ويسمى ذلك الشخص آلاً وهو في نفسه على خلاف ما تراه العيون من التضاؤل تحت جلال الله وعظمته، كذلك محمد يتضاءل تضاؤل السراب في جنب الله لوجود الله عنده، فهذا إذا فهمت ما قلناه معنى آل محمد.

السؤال الثاني والخمسون ومائة: أين خزائن الحجة من خزائن الكلام من خزائن علم التدبير؟ الجواب في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] بكلّ وجه، فأوّله تدبير وهي الخزائن العامّة وهو قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وفي هذه الخزائن خزائن الكلام لأن خزائن علم التدبير تحوي على خزائن شتى منها خزائن الكلام وهي في قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] بالكلام وفي خزائن الكلام خزائن الحجة في مقابلة المعارض، وهو الذي لا يعرف الله معرفة ذوق وهم أصحاب الأدلة العقلية فإنهم لا يقبلون ما جاءت به الشرائع من صفات الحق التي لو قالها غير النبيّ جهله العقلاء بأدلتهم وكفره المؤمنون وهو ما قال إلاَّ ما قيل له، فمتى ما لم يكن العلم ذوقاً لم يخلص خاطر سامعه من الإنكار بقلبه من حيث عقله، ثم خزائن الحجة خصوص في خزائن الكلام وهو القول المعجز وهو قول الحق والصدق، وكذا رأيته في الواقعة مثل القرآن فهو الحجة من الكلام ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٨] ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٨] لأنه أتى من خزائن الحجة وسائر الكتب والصحف من خزائن الكلام، وسائر المخلوقات من خزائن علم التدبير.

السؤال الثالث والخمسون ومائة: أين خزائن علم الله من خزائن علم البدء؟ الجواب في المساوقة الوجودية لأن الله لم يزل عالماً بأنه الإله، وأن الممكن مألوه، وأن العدم للممكن نعت أزلي، وأنه لم يزل مظهراً للحق، فخزانة علم الله من علم البدء هو معرفة مرتبة الاسم الله من الاسم المبدىء، كما يقال: أين خزانة علم المبدىء من علم المعيد، فإن الظرفية لا تخلو إما أن تكون مكانية أو زمانية، ولا مكان ولا زمان فإنهما هما اللذان يعطيان المقدار، وأين كذا من كذا يطلب المقدار، فغاية أن يقال في المرتبة الأولى التي لا تقبل الثاني وهي مرتبة الواجب الوجود الذاتي كما نقول في الممكن: إنه في مرتبة الوجوب الإمكاني الذاتيّ، والعلم بهذا هو علم سرّ السرّ وهو الأخفى، وهو العلم الذي انفرد به الحق دون ما سواه، ولا يعلم هذا إلاَّ بالتحلي بالحاء المهملة. فإن قلت: وما التحلي؟ قلنا: الاتصاف بالأخلاق الإلهية المعبر عنها في الطريق بالتخلق بالأسماء، وعندنا التحلي ظهور أوصاف العبودة دائماً

مع وجود التخلق بالأسماء، فإن غاب عن هذا التحلي كان التخلق بالأسماء عليه وبالاً، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وتحلى العبد بأوصاف العبودة هو من تخلقه بالأخلاق الإلهية﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣]. فلو عرفوا معنى ما ورد في القرآن والسنة من وصف الحق سبحانه نفسه بما لا يقبله العقل إلاَّ بالتأويل الأنزه ما نفروا من ذلك إذا سمعوه من أمثالنا، فإن العبودة أعني معقولها إن كان أمراً وجودياً فهو عينه، فإن الوجود له وإنما الحق لما كانت أعيان الممكنات مظاهره عظم على العقول أن تنسب إلى الله ما نسبه لنفسه، فلما ظهر المقام الذي وراء طور العقل بالنبوّة وعملت الطائفة عليه بالإيمان أعطاهم الكشف ما أحاله العقل من حيث فكره وهو في نفس الأمر ليس على ما حكم به، وهذا من خصائص التصوّف.

فإن قلت: وما التصوّف؟ قلنا: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي مكارم الأخلاق، وهو أن تعامل كل شيء بما يليق به ممّا يحمده منك ولا تقدر على هذا حتى تكون من أهل اليقظة. فإن قلت: وما اليقظة حتى أكون من أهلها؟ قلنا: اليقظة الفهم عن الله في زجره فإذا فهمت عن الله انتبهت فإن قلت: فما الانتباه؟ قلنا: هو زجر الحق عبده على طريق العناية، وهذا لا يحصل إلاَّ لأهل العبودة.

فإن قلت: وما العبودة؟ قلنا: نسبة العبد إلى الله لا إلى نفسه، فإن انتسب إلى نفسه فتلك العبودية لا العبودة، فالعبودة أتم حتى لا يحكم عليه مقام السوا. فإن قلت: وما السوا؟ قلنا: بطون الحق في الخلق وبطون الخلق في الحق، وهذا لا يكون إلاَّ فيمن عرف أنه مظهر للحق فيكون عند ذلك باطناً للحق وبهذا وردت الفهوانية. فإن قلت: وما الفهوانية؟ قلنا: خطاب الحق كافة في عالم المثال وهو قوله ﷺ في الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» ومن هناك تعلم الهو. فإن قلت: وما الهو؟ قلنا: الغيب الذاتي الذي لا يصحّ شهوده فليس هو ظاهراً ولا مظهراً وهو المطلوب الذي أوضحه اللسن. فإن قلت: وما اللسن؟ قلنا: ما يقع به الإفصاح الإلهيّ لآذان العارفين وهي كلمة الحضرة. فإن قلت: وما كلمة الحضرة؟ قلنا: كن ولا يقال كن إلاَّ لذي رؤية لعلم من يقول له كن على الشهود. فإن قلت: وما الرؤية؟ قلنا: المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة حيث كان وهو لأصحاب النعت. فإن قلت: وما النعت؟ قلنا: ما طلب النسب العدمية كالأوّل ولا يعرفه إلاَّ عبيد الصفة. فإن قلت: وما الصفة؟ قلنا: ما طلب المعنى الوجوديّ كالعالم والعلم لأهل الحدّ. فإن قلت: وما الحدّ؟ قلنا: الفصل بينك وبينه لتعرف من أنت فتعرف أنه هو فتلزم الأدب معه وهو يوم عيدك.

فإن قلت: وما العيد؟ قلنا: ما يعود عليك في قلبك من التجلي بعود الأعمال وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَىٰ تَمَلُّوا فَطُوبَىٰ لأَهْلِ القَدَمِ**» فإن قلت: وما القدم؟ قلنا: ما ثبت للعبد في علم الحق به، قال تعالىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي سابق عناية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة يونس: الآية ٢] في علم الله ويتميز ذلك في الكرسي. فإن قلت: وما الكرسي؟ قلنا: علم الأمر والنهي فإنه قد ورد في الخبر أن الكرسي موضع القدمين قدم الأمر وقدم النهي الذي قيده

العرش. فإن قلت: وما العرش؟ قلنا: مستوى الأسماء المقيدة وفيه ظهرت صورة المثل من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى الآية ١١]وهذا هو المثل الثابت. فإن قلت: وما المثل؟ قلنا: المخلوق على الصورة الإلهية الواردة في قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**» وقال تعالى فيه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهو نائب الحق الظاهر بصورته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] أظهره النائب ومشهد هذا النائب حجاب العزّة ليلاً يغلط في نفسه. فإن قلت: وما حجاب العزّة؟ قلنا: العمى والحيرة فإنه المانع من الوصول إلى علم الأمر على ما هو عليه في نفسه ولا يقف على حقيقة هذا الأمر إلاّ أهل المطلع.

فإن قلت: وما المطلع؟ قلنا: الناظر إلى الكون بعين الحق ومن هنالك يعلم ما هو ملك الملك. فإن قلت: وما هو ملك الملك؟ قلنا: هو الحق في مجازاة العبد على ما كان منه ممّا أمر به وما لم يؤمر به، ويختص بهذا الأمر عالم الملكوت. فإن قلت: وما عالم الملكوت؟ قلنا: عالم المعاني والغيب والارتقاء إليه من عالم الملك. فإن قلت: وما عالم الملك؟ قلنا: عالم الشهادة والحرف وبينهما عالم البرزخ. فإن قلت: وما عالم البرزخ؟ قلنا: عالم الخيال ويسميه بعض أهل الطريق عالم الجبروت وهكذا هو عندي، ويقول فيه أبو طالب صاحب القوت: عالم الجبروت هو العالم الذي أشهد العظمة وهم خواص عالم الملكوت ولهم الكمال. فإن قلت: وما الكمال؟ قلنا: التنزّه عن الصفات وآثارها ولا يعرفها إلاّ الساكن بأرين. فإن قلت: وما أرين؟ قلنا: عبارة عن الاعتدال في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فإن أرين موضع خط اعتدال الليل والنهار فاستعاروه، وقد ذكره منهم عبد المنعم بن حسان الجلباني في مختصره غاية النجاة له ولقيته وسألته عن ذلك فقال فيه ما شرحناه به، وصاحب هذا المقام هو صاحب الرداء. فإن قلت: وما الرداء؟ قلنا: الظهور بصفات الحق في الكون. فإن قلت: وما الكون؟ قلنا: كل أمر وجودي وهو خلاف الباطل. فإن قلت: وما يريد أهل الله بالباطل؟ قلنا: العدم ويقابل الباطل الحق. فإن قلت: وما الحق عندهم؟ قلنا: ما وجب على العبد القيام به من جانب الله وما أوجبه الرب للعباد على نفسه إذ كان هو العالم والعلم.

فإن قلت: وما العالم والعلم؟ قلنا: العالم من أشهده الله ألوهته وذاته ولم يظهر عليه حال والعلم حاله ولكن بشرط أن يفرّق بينه وبين المعرفة والعارف. فإن قلت: وما المعرفة والعارف؟ قلنا: من مشهده الرب لا اسم إلٰهي غيره فظهرت منه الأحوال والمعرفة حاله وهو من عالم الخلق كما أن العالم من عالم الأمر. فإن قلت: وما عالم الخلق والأمر والله يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] قلنا: عالم الأمر ما وجد عن الله لا عند سبب حادث، وعالم الخلق ما أوجده الله عند سبب حادث فالغيب فيه مستور. فإن قلت: وما الغيب في اصطلاحكم؟ قلنا: الغيب ما ستره الحق عنك منك لا منه ولهذا يشار إليه. فإن قلت: وما الإشارة؟ قلنا: الإشارة نداء على رأس البعد يكون في القرب مع حضور الغير ويكون مع البعد في العموم والخصوص. فإن قلت: وما العموم والخصوص عندهم؟ قلنا:

العموم ما يقع في الصفات من الاشتراك، والخصوص ما يقع به الانفراد وهو أحدية كل شيء وهو لب اللب. فإن قلت: وما لب اللب؟ قلنا: مادة النور الإلهيّ ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلب اللب هو قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

فإن قلت: وما اللب؟ قلنا: ما صين من العلوم عن القلوب المتعلقة بالسوا وهو القشر. فإن قلت: وما القشر؟ قلنا: كل علم يصون عين المحقق من الفساد لما يتجلى له من خلف حجاب الظل. فإن قلت: وما الظل؟ قلنا: وجود الراحة خلف حجاب الضياء. فإن قلت: وما الضياء؟ قلنا: ما ترى به الأغيار بعين الحق، فالظل من أثر الظلمة والضياء من أثر النور والعين واحدة. فإن قلت: وما الظلمة والنور اللذان عنهما الظل والضياء؟ قلنا: النور كل وارد إلهي ينفر الكون عن القلب والظلمة قد يطلقونها على العلم بالذات فإنه لا يكشف معها غيرها وأكثر ما يعلم هذين أرباب الأجساد. فإن قلت: وما الجسد؟ قلنا: كل روح أو معنى ظهر في صورة جسم نوري أو عنصريّ حتى يشهده السوا. فإن قلت: وما السوا هنا؟ قلنا: الغير الذي يتعشق بالمنصَّات. فإن قلت: وما المنصة؟ قلنا: مجلى الأعراس وهي تجليات روحانية ألية. فإن قلت: وما الأل؟ قلنا: كل اسم إلهي أضيف إلى ملك أو روحانيّ مثل جبريل وميكائيل أو عبدال وبأيديهم الطبع والختم. فإن قلت: وما الطبع والختم؟ قلنا: الختم علامة الحق على القلوب العارفين، والطبع ما سبق به العلم في حق كل مختص من الإلهيين. فإن قلت: وما الإلهية؟ قلنا: كل اسم إلهيّ يضاف إلى البشر مثل عبد الله وعبد الرحمن وهم الخارجون عن الرعونة. فإن قلت: وما الرعونة؟ قلنا: الوقوف مع الطبع بخلاف أهل الأنية فإنهم واقفون مع الحق. فإن قلت: وما الأنية؟ قلنا: الحقيقة بطريق الإضافة وهم المعتكفون على اللوح المشاهدون للقلم الناظرون في النون المستمدون من الهوية القائلون بالأناية الناطقون بالاتحاد لأجل الجرس.

فإن قلت: وما هذه الألفاظ التي ذكرتها؟ قلنا: أمّا اللوح فمحل التدوين والتسطير المؤجل إلى حدّ معلوم، وأمّا الهوية فالحقيقة الغيبية، وأما النون فعالم الإجمال، وأما الإناية فقولك بك، وأما القلم فعلم التفصيل، وأما الاتحاد فتصيير الذاتين ذاتاً واحدة فإمّا عبد وإمّا رب ولا يكون إلاّ في العدد وفي الطبيعة وهو حال، وأما الجرس فإجمال الخطاب بضرب من القهر لقوّة الوارد وهذا كله لا يناله إلاّ أهل النوالة. فإن قلت: وما النوالة؟ قلنا: الخلع التي تخصّ الأفراد من الرجال وقد تكون الخلع مطلقاً ومع هذا فهم في الحجاب. فإن قلت: وما الحجاب؟ قلنا: ما ستر مطلوبك عن عينك إذا كان الحجاب ممّا يلي المخدع. فإن قلت: وما المخدع؟ قلنا: موضع ستر القطب عن الأفراد الواصلين عندما يخلع عليهم وهو خزانة الخلع والخازن هو القطب. قال محمد بن قائد الأوانيّ: رقيت حتى لم أر أمامي سوى قدم واحدة فغرت فقيل هي قدم نبيك فسكن جأشي. وكان من الأفراد وتخيّل أن ما فوقه إلاّ نبيه ولا تقدّمه غيره، وصدق رضي الله عنه فإنه ما شاهد سوى طريقه فما سلك عليها غير نبيه، وقيل له: هل رأيت عبد القادر؟ قال: ما رأيت عبد القادر في الحضرة، فقيل ذلك لعبد القادر قال:

صدق ابن قائد في قوله فإني كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة وسمّاها بعينها، فسئل ابن قائد عن النوالة ما صفتها؟ فقال مثل ما قال عبد القادر، فكان أحدهما من أهل الخلوة والآخر من أهل الجلوة.

فإن قلت: وما الخلوة والجلوة؟ قلنا: الجلوة خروج العبد من الخلوة بنعوت الحق فيحرق ما أدركه بصره، والخلوة محادثة السر مع الحق حيث لا ملك لا أحد وهناك يكون الصعق. فإن قلت: وما الصعق؟ قلنا: الفنا عند التجلي الربانيّ وهو لأهل الرجاء لأهل الخوف. فإن قلت: وما الرجاء والخوف؟ قلنا: الرجاء الطمع في الآجل، والخوف ما تحذر من المكروه في المستأنف ولهذا يجنح إلى التولي وهو رجوعك إليك منه بعد التلقي. فإن قلت: وما التلقي؟ قلنا: أخذك ما يرد من الحق عليك عند الترقي. فإن قلت: وما الترقي؟ قلنا: التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف نفساً وقلباً وحقاً طلباً للتداني. فإن قلت: وما التداني؟ قلنا: معراج المقربين إلى التدلي. فإن قلت: وما التدلي؟ قلنا: نزول الحق إليه ونزولهم لمن هو دونهم بسكينة. فإن قلت: وما السكينة؟ قلنا: ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب بالحرف. فإن قلت: وما الحرف؟ قلنا: ما يخاطبك به الحق من العبارات مثل ما أنزل القرآن على سبعة أحرف والحرف صورة في السبحة السوداء.

فإن قلت: وما السبحة؟ قلنا: الهباء الذي فتح فيه صور أجسام العالم المنفعل عن الزمردة الخضراء فإن قلت: وما الزمردة الخضراء؟ قلنا: النفس المنبعثة عن الدرة البيضاء. فإن قلت: وما الدرة البيضاء؟ قلنا: العقل الأول صاحب علم السمسمة. فإن قلت: وما السمسمة؟ قلنا: معرفة دقيقة في غاية الخفاء تدق عن العبارة ولا تدرك بالإشارة مع كونها ثمرة شجرة. فإن قلت: وما هذه الشجرة؟ قلنا: الإنسان الكامل مدبر هيكل الغراب. فإن قلت: وما الغراب؟ قلنا: الجسم الكل الذي ينظر إليه العقاب بوساطة الورقاء. فإن قلت: وما العقاب؟ قلنا: الروح الإلهيّ الذي ينفخ الحق منه في الهياكل كأنها أرواحها المحركة لها والمسكنة، والورقاء النفس التي بين الطبيعة والعقل ودون الطبيعة هي العنقاء. فإن قلت: وما العنقاء؟ قلنا: الهباء لا موجود ولا معدوم على أنها تتمثل في الواقعة. فإن قلت: وما الواقعة؟ قلنا: ما يرد على القلب من العالم العلويّ بأيّ طريق كان من خطاب أو مثال أو غير ذلك على يد الغوث. فإن قلت: وما الغوث؟ قلنا: صاحب الزمان وواحده وقد يكون ما يعطيه على يد إلياس. فإن قلت: وما إلياس؟ قلنا: عبارة عن القبض وقد يكون ما يعطيه على يد الخضر. فإن قلت: وما الخضر؟ قلنا: عبارة عن البسط وهذه العطايا من بحر الزوائد. فإن قلت: وما الزوائد؟ قلنا: زيادات الإيمان بالغيب واليقين ولها رجال مخصوصون ذكرناهم في أوّل الباب فإنهم موقنون هم عشرة أشخاص لا يزيدون ولا ينقصون غير أنهم قد يكون منهم نساء يوجدهم الاسم والرسم. فإن قلت: وما الاسم والرسم؟ قلنا: الرسم نعت يجري في الأبد بما جرى في الأزل، والاسم الحاكم على حال العبد في الوقت من الأسماء الإلهية عند الوصل. فإن قلت: وما الوصل؟ قلنا: إدراك الفائت وهو أوّل الفتوح. فإن قلت: وما

الفتوح؟ قلنا: فتوح العبارة في الظاهر، وفتوح الحلاوة في الباطن، وفتوح المكاشفة لتصحيح المطالعة. فإن قلت: وما المطالعة؟ قلنا: توقيعات الحق تعالىٰ للعارفين ابتداء، وعن سؤال منهم فيما يرجع إلى حوادث الكون وفيها أقول: [الرمل]

خرج التوقيعُ لي بالأمانِ ولْتُحَاذِرْ غائِلاتِ الأماني
ينقضي الدهرُ ولا شيءَ منها حاصلٌ قد مَلَكَتْهُ اليدانِ
فاشتغِلْ بي لا تخالِطْ سوايَ فسوايَ شانُهُ غيرُ شاني
لا يغرَّنَّك عبدي المَثَاني فأنا الثاني ولستُ بثاني
يشتهي من ظلَّ بي مستهاماً أن يراني أو يرى من رآني
وأنا أقربُ منه إليه فليزُلْ عنِّيَ حكم المكانِ
فيراني منه فيه بعيني إنَّ عين الغير ليست تراني

والمطالعة لا تكون إلاَّ لأهل الحرية. فإن قلت: وما الحرية؟ قلنا: إقامة حقوق العبودية لله تعالىٰ فهو حر عمّا سوى الله لأجل الغيرة الإلهية، فإن الله غيور ومن غيرته حرم الفواحش. فإن قلت: وما الغيرة؟ قلنا: تطلق في الطريق بإزاء ثلاثة معان: غيرة في الحق لتعدي الحدود، وغيرة تطلق بإزاء كتمان الأسرار والسرائر، وغيرة الحق ضنته على أوليائه وهم الضنائن أصحاب الهمم. فإن قلت: وما الهمة؟ قلنا: تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى، وبإزاء أوّل صدق المريد، وبإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام، هذا عند أهل الغربة. فإن قلت: وما الغربة؟ قلنا: مفارقة الوطن في طلب المقصود، وغربة عن الحال من حقيقة النفوذ فيه، وغربة عن الحق من الدهش عن المعرفة لحكم الاصطلام. فإن قلت: وما الاصطلام؟ قلنا: نعت وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه حذر المكر. فإن قلت: وما المكر؟ قلنا: إرداف النعم مع المخالفة وقد رأيناه في أشخاص وإبقاء الحال مع سوء الأدب وهو الغالب على أهل العراق وما نجى منه في علمنا إلاَّ أبو السعود بن الشبل سيد وقته، وإظهار الآيات والكرامات من غير أمر ولا حدّ، وهي عندنا خرق عوايد لا كرامات إلاَّ أن يقصد بها المتحدث التحدّث بالنعم ولكن تمنع العارفين من مثل هذه الرهبة.

فإن قلت: وما الرهبة؟ قلنا: رهبة الظاهر لتحقيق الوعيد، ورهبة الباطن لتقلب العلم، ورهبة لتحقيق أمر السبق، ولكن بعد سبق الرغبة. فإن قلت: وما الرغبة؟ قلنا: رغبة النفس في الثواب، ورغبة القلب في الحقيقة، ورغبة السر في الحق وهو مقام التمكين. فإن قلت: وما التمكين؟ قلنا: عندنا هو التمكن في التكوين، وعند الجماعة حال أهل الوصول وعدلنا نحن فيه إلى ما قلناه لقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وعدلت الجماعة إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١] وهذه الآية أيضاً تعضدنا فيما ذهبنا إليه، فالتمكين في التلوين أولى. فإن قلت: فما التلوين؟ قلنا: تنقل العبد في أحواله وهو عند الأكثرين مقام ناقص وعندنا هو أكمل المقامات لأنه موضع التشبّه بالمطلوب للإنسان وسببه الهجوم. فإن قلت: وما الهجوم؟ قلنا: ما يرد على القلب بقوّة

الوقت من غير تصنّع منك عقيب البواده. فإن قلت: وما البواده؟ قلنا: ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة إما موجب فرح أو موجب ترح، ولكن مع كونها بواده لا بدّ أن يتقدّمها لوامع. فإن قلت: وما اللوامع؟ قلنا: ما ثبت من أنوار التجلي وقتين وقريب من ذلك بعد الطوالع. فإن قلت: وما الطوالع؟ قلنا: أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار عندما تحكم على الأسرار اللوائح. فإن قلت: وما اللوائح؟ قلنا: ما يلوح للأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال هذا عند القوم، وعندنا هي ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية لا من جهة السلب وهي من أحوال أهل المسامرة. فإن قلت: وما السمر؟ قلنا: خطاب الحق للعارفين من عالم الأسرار والغيوب، نزل به الروح الأمين على قلبك، وهو خصوص في المحادثة. فإن قلت: وما المحادثة: قلنا: خطاب الحق للعارفين من عباده من عالم الملك كالنداء من الشجرة لموسىٰ وهو فرع عن المشاهدة.

فإن قلت: وما المشاهدة؟ قلنا: رؤية الأشياء بدلائل التوحيد وتكون أيضاً رؤية الحق في الأشياء وتكون أيضاً حقيقة اليقين من غير شك وهي تتلو المكاشفة وقد قيل تتلوها المكاشفة. فإن قلت: وما المكاشفة؟ قلنا: تحقيق الأمانة بالفهم وتحقيق زيادة الحال وتحقيق الإشارة التي تعطيها المحاضرة. فإن قلت: وما المحاضرة؟ قلنا: حضور القلب بتواتر البرهان وعندنا مجاراة الأسماء بينها بما هي عليه من الحقائق في وقت التخلي. فإن قلت: وما التخلي؟ قلنا: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشعل عن الحق طلب التجلي بالجيم. فإن قلت: وما التجلي؟ قلنا: ما يكشف للقلوب من أنوار الغيوب بعد الستر. فإن قلت: وما الستر؟ قلنا: كل ما سترك عن ما يغنيك، وقيل هو غطاء الكون، وقد يكون الوقوف مع العادات، وقد يكون الوقوف مع نتائج الأعمال ما لم يغلب سلطان المحق. فإن قلت: وما المحق؟ قلنا: فناؤك في عينه بعد تحكم السحق. فإن قلت: وما السحق؟ قلنا: تفرق تركيبك تحت القهر لأجل الزاجر فإن قلت: وما الزاجر؟ قلنا: واعظ الحق في قلب المؤمن وهو الداعي بحكم الزمان. فإن قلت: وما الزمان؟ قلنا: السلطان فإنه قد يحول بينك وبين الذهاب. فإن قلت: وما الذهاب؟ قلنا: غيبة القلب عن حسّ كلّ محسوس بمشاهدة محبوبه كان المحبوب ما كان قبل الفصل. فإن قلت: وما الفصل؟ قلنا: فوت ما ترجوه من محبوبك وهو عندنا تميزك عنه بعد حال الاتحاد الذي هو نتيجة المجاهدة.

فإن قلت: وما المجاهدة؟ قلنا: حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال، ولكن لا يتمكن له مخالفة الهوى إلاّ بعد الرياضة. فإن قلت: وما الرياضة؟ قلنا: رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب وهي صحة المراد به، وبالجملة فهي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية وذلك عن علة. فإن قلت: وما العلة؟ قلنا: تنبيه الحق لعبده بسبب وبغير سبب وهو من عين اللطف وتسميه أهل الطريق اللطيفة. فإن قلت: وما اللطيفة؟ قلنا: كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة وهي المؤدّية إلى التفريد، وقد يطلقون اللطيفة على حقيقة الإنسان. فإن قلت: وما التفريد؟ قلنا: وقوفك

بالحق معك ومن شرطه التجريد. فإن قلت: وما التجريد؟ قلنا: إماطة السوى والكون عن القلب والسر من أجل حكم الفترة. فإن قلت: وما الفترة؟ قلنا: خمود نار البداية المحرقة وهي حالة تشبه حالة الوقفة التي للواقفين. فإن قلت: وما الوقفة؟ قلنا: الحبس بين المقامين مع العصمة من الوله.

فإن قلت: وما الوله؟ قلنا: إفراط الوجد بمشاهدة السر. فإن قلت: وما السرّ؟ قلنا: سرّ العلم بإزاء حقيقة العالم به، وسرّ الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، وسرّ الحقيقة بإزاء ما يقع به الإشارة من الروح. فإن قلت: وما الروح؟ قلنا: الملقى إلى القلب من علم الغيب على وجه مخصوص يتلقاه منه النفس. فإن قلت: وما النفس؟ قلنا: ما كان معلوماً من أوصاف العبد بحكم الشاهد. فإن قلت: وما الشاهد؟ قلنا: ما تعطيه المشاهدة من الأثر في قلب المشاهد وهو على صورة ما يضبطه القلب من رؤية المشهود، وعلى الشاهد يرد الوارد. فإن قلت: وما الوارد؟ قلنا: ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة من غير تعمّل، وكل ما يرد على القلب من كل اسم إلهيّ، وهو الذي يعطي أحياناً حق اليقين. فإن قلت: وما حق اليقين؟ قلنا: ما حصل من العلم بالعلة ولكن بعد عين اليقين. فإن قلت: وما عين اليقين؟ قلنا: ما أعطته المشاهدة والكشف ابتداء وبعد علم اليقين. فإن قلت: وما علم اليقين؟ قلنا: ما أعطاه الدليل الذي لا يحتمل الشبه الواردة من الخاطر. فإن قلت: وما الخاطر؟ قلنا: ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانياً كان أو غير ربانيّ ولكن من غير إقامة، فإن أقام فهو حديث نفس فصاحبه مفتقر إلى النفس.

فإن قلت: وما النفس؟ قلنا: روح يسلطه الله على نار القلب ليطفىء شررها لأجل سلطان الحقيقة. فإن قلت: وما الحقيقة؟ قلنا: سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فكأنه حال البعد. فإن قلت: وما البعد؟ قلنا: الإقامة على المخالفات وقد يكون البعد منك وتختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يعطيه قرائن الأحوال وكذلك القرب. فإن قلت: وما القرب؟ قلنا: القيام بالطاعة، وقد يطلق على حقيقة قاب قوسين وهو قدر الخط الذي يقسم قطري الدائرة فيشقها بقسمين وهو غاية القرب المشهود، ولا يدركه إلاّ صاحب إثبات لا صاحب محو. فإن قلت: فما المحو وما الإثبات؟ قلنا: الإثبات إقامة أحكام العبادات وإثبات المواصلات، وأما المحو فرفع أوصاف العادة وإزالة العلة، وهو أيضاً ما ستره الحق ونفاه وعنه يكون الذوق. فإن قلت: وما الذوق؟ قلنا: أوّل مباديء التجلي المؤدّي إلى الشرب. فإن قلت: وما الشرب؟ قلنا: الوسط من التجلي من مقام يستدعي الري، وقد يكون من مقام لا يستدعي الري، وقد يكون مزاج الشارب لا يقبل الري. فإن قلت: وما الري؟ قلنا: غايات التجلي في كل مقام، فإن كان المشروب خمراً أدّى إلى السكر.

فإن قلت: وما السكر؟ قلنا: غيبة بوارد قوي مفرح يكون عنه صحو في الكبير. فإن قلت: فما الصحو؟ قلنا: رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي. فإن قلت: وما

الغيبة؟ قلنا: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل الحسّ بما ورد عليه من الحضور. فإن قلت: وما الحضور؟ قلنا: حضور القلب بالحق عند غيبته فيتصف الفناء. فإن قلت: وما الفناء؟ قلنا: فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك وهو شبه البقاء. فإن قلت: وما البقاء؟ قلنا: رؤية العبد قيام الله على كل شيء من عين الفرق. فإن قلت: وما الفرق؟ قلنا: إشارة إلى خلق بلا حق، وقيل مشاهدة العبودة وهو نقيض الجمع. فإن قلت: وما الجمع؟ قلنا: إشارة إلى حق بلا خلق وعليه يرد جمع الجمع. فإن قلت: وما جمع الجمع؟ قلنا: الاستهلاك بالكلية في الله عند رؤية الجمال. فإن قلت: وما الجمال؟ قلنا: نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية باسمه الجميل، وهو الجمال الذي له الجلال المشهود في العالم. فإن قلت: وما الجلال؟ قلنا: نعوت القهر من الحضرة الإلهية الذي يكون عنده الوجود. فإن قلت: وما الوجود؟ قلنا: وجدان الحق في الوجد. فإن قلت: وما الوجد؟ قلنا: ما يصادف القلب من الأحوال المغنية له عن شهوده وإن تقدمه التواجد. فإن قلت: وما التواجد؟ قلنا: استدعاء الوجد وإظهار حالة الوجد من غير وجد لأنس يجده صاحبه.

فإن قلت: وما الأنس؟ قلنا: أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب وهو جلال الجمال فإنه لا يكون عنه الهيبة. فإن قلت: وما الهيبة؟ قلنا: هي مشاهدة جمال الله في القلب، وأكثر الطبقة يرون الأنس والبسط من الجمال وليس كذلك. فإن قلت: وما البسط؟ قلنا: هو عندنا من يسع الأشياء ولا يسعه شيء، وقيل: هو حال الرجاء، وقيل: هو وارد توجبه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس وهو نقيض القبض. فإن قلت: وما القبض؟ قلنا: حال الخوف في الوقت ووارد يرد على القلب توجبه إشارة إلى عتاب وتأديب، وقيل: أخذوا رد الوقت وهاتان الحالتان قد توجدان لأهل المكان. فإن قلت: وما المكان؟ قلنا: منزلة في البساط لا تكون إلاّ لأهل الكمال الذين تحققوا بالمقامات والأحوال وجازوها إلى المقام الذي فوق الجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت. قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة ولا صفة لي، واختلف أصحابنا في هذا القول هل هو شطح أو ليس بشطح؟ فإن المكان اقتضاه له. فإن قلت: وما الشطح؟ قلنا: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين أهل الشريعة. فإن قلت: وما الشريعة؟ قلنا: عبارة عن الأمر بالتزام العبودية الذي لا يكون معها عين التحكم. فإن قلت: وما عين التحكم؟ قلنا: تحدّي الولي بما يريده إظهاراً لمرتبته لأمر يراه فيزعجه. فإن قلت: وما الانزعاج؟ قلنا: أثر الواعظ الذي في قلب المؤمن وفي أصحاب الأحوال التحرّك للوجد والأنس.

فإن قلت: وما الحال؟ قلنا: هو ما يرد على القلب من غير تعمّل ولا اجتلاب، ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل بعد المثل إلى أن يصفو وقد لا يعقبه المثل، ومن هنا نشأ الخلاف بين الطائفة في دوام الأحوال، فمن رأى تعاقب الأمثال ولم يعلم أنها أمثال قال

بدوامه واشتقه من الحلول، ومن لم يعقبه مثل قال بعدم دوامه واشتقه من حال يحول إذا زال، وأنشدوا في ذلك: [السريع]

لـو لـم تَـحُـلْ مـا سـمِّـيْـتَ حـالا وكـــل مـــا حـــال فـــقـــد زالا

وقد قيل: الحال تغير الأوصاف على العبد، فإذا استحكم وثبت فهو المقام. فإن قلت: وما المقام؟ قلنا: عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام وغاية صاحبه أن لا مقام وهو الأدب. فإن قلت: وما الأدب؟ قلنا: وقتاً يريدون به أدب الشريعة، ووقتاً أدب الخدمة، ووقتاً أدب الحق، فأدب الشريعة الوقوف عند مراسمها وهي حدود الله، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها برؤية مجريها، وأدب الحق أن تعرف مالك وماله، والأديب من كان بحكم الوقت أو من عرف وقته. فإن قلت: وما الوقت؟ قلنا: ما أنت به من غير نظر إلى ماض ولا إلى مستقبل هكذا حكم أهل الطريق. فإن قلت: وما الطريق عندهم؟ قلنا: عبارة عن مراسم الحق المشروعة التي لا رخصة فيها من عزائم ورخص في أمكانها، فإن الرخص في أماكنها لا يأتيها إلاّ ذو عزيمة، فإن كثيراً من أهل الطريق لا يقول بالرخص وهو غلط، فإنه يفوته محبة الله في إتيانها فلا يكون له ذوق فيها، فهو كمثل الذي يقضي ولا يتنفل دائماً وهو غاية الخطأ بل المشروع أن يتطوّع، فإن نقصت فرائضه كملت له من تطوّعه وهو النوافل، وإن لم ينتقص منها شيئاً كانت له نوافل كما نواها، ويحصل له ذوق محبة الله إياه من أجلها، فقد أبطل شرع الله من لم تكن هذه حاله، فإنه إن كانت فريضته تامة لم يجز قضاؤها فقد شرع ما لم يشرع له ولم يأذن به الله، وأن الله ما يكتبها له نافلة فإنه ما نواها وقد أساء الأدب مع الله حيث سمّاها الله تطوّعاً وقال: هذا قضاء فلا يحصل له ثمرة النوافل لأنها غير منوية ولا ورد في ذلك شرع أنه يكتب له ما نواه قضاء نافلة، هذا هو الطريق الذي يكون فيه سفر القوم.

فإن قلت: وما السفر؟ قلنا: القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالىٰ بالذكر بحق أو بنفس كيف كان يسمى مسافراً. فإن قلت: وما المسافر؟ قلنا: هو الذي سافر بفكره في المعقولات وهو الاعتبار في الشرع، فعبر من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى وهو العامل السالك. فإن قلت: وما السالك؟ قلنا: هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وهو العمل فكان له عيناً، قال ذو النون: لقيت فاطمة النيسابورية فما ذكرت لها مقاماً إلاّ كان ذلك المقام لها حالاً، وقد يحصل هذا للمراد والمريد. فإن قلت: وما المراد وما المريد؟ قلنا: المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمر له فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة، وأما المريد فهو المتجرّد عن إرادته، وقال أبو حامد: هو الذي صحّ له الأسماء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم، وأما المريد عندنا فنطلقه على شخصين لحالين: الواحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاق ولم تصرفه تلك المشاق عن طريقه. والآخر من تنفذ إرادته في الأشياء، وهذا هو المتحقق بالإرادة لا المراد. فإن قلت: وما الإرادة؟ قلنا: لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة التمني وهي منه، وإرادة الطبع ومتعلقها الحظ النفسي، وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص

وذلك بحسب الهاجس. فإن قلت: وما الهاجس؟ قلنا: الخاطر الأوّل وهو الخاطر الربانيّ الذي لا يخطىء أبداً ويسمونه السبب الأوّل ونقر الخاطر. فهذا قد بيّنا لك ارتباط المقامات والمراتب بضرب من التناسب وتعلق بعضها ببعض، وقليل من سلك في إيضاحها هذا المسلك، وهذا مساق المسلسل في لغات العرب وهي طريقة غريبة أشار إليها إبراهيم بن أدهم وغيره رضي الله عنهم، وبان منها شرح ألفاظ اصطلاح القوم فحصل من ذلك منها فائدتان: الواحدة معرفة ما اصطلحوا عليه. والثاني المناسبات التي بينهما والله الموفق.

السؤال الرابع والخمسون ومائة: ما تأويل أم الكتاب؟ فإنه ادّخرها من جميع الرسل له ولهذه الأمة. الجواب: الأم هي الجامعة، ومنه أمّ القرى، والرأس أمّ الجسد يقال: أمّ رأسه لأنه مجموع القوى الحسّيّة والمعنوية كلها التي للإنسان وكانت الفاتحة أمّاً لجميع الكتب المنزلة وهي القرآن العظيم أي المجموع العظيم الحاوي لكل شيء، وكان محمد ﷺ قد أوتي جوامع الكلم فشرعه تضمن جميع الشرائع وكان نبياً وآدم لم يخلق، فمنه تفرعت الشرائع لجميع الأنبياء عليهم السلام هم إرساله ونوّابه في الأرض لغيبة جسمه، ولو كان جسمه موجوداً لما كان لأحد شرع معه وهو قوله: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتَّبِعَني**» وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٤] ونحن المسلمون وعلماؤنا الأنبياء ونحكم على أهل كل شريعة بشريعتهم فإنها شريعة نبينا إذ هو المقرّر لها وشرعه أصلها، وأرسل إلى الناس كافة ولم يكن ذلك لغيره والناس من آدم إلى آخر إنسان وكانت فيهم الشرائع فهي شرائع محمد ﷺ بأيدي نوّابه فإنه المبعوث إلى الناس كافة، فجميع الرسل نوّابه بلا شك، فلما ظهر بنفسه لم يبق حكم إلاّ له، ولا حاكم إلاّ رجع إليه، واقتضت مرتبته أن تختص بأمر عند ظهور عينه في الدنيا لم يعطه أحد من نوّابه.

ولا بدّ أن يكون ذلك الأمر من العظم بحيث إنه يتضمن جميع ما تفرّق في نوّابه وزيادة وأعطاه أمّ الكتاب فتضمنت جميع الصحف والكتب وظهر بها فينا مختصرة سبع آيات تحتوي على جميع الآيات، كما كانت السبع الصفات الإلهية تتضمن جميع الأسماء الإلهية كلها، ويرجع كل اسم إلهيّ إلى واحد منها بلا شك، وقد فعل ذلك الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني في كتاب الجليّ والخفيّ له فردّ جميع الأسماء إليها وما وجد من الأسماء الإلهية لصفة الكلام إلاّ الاسم الشكور والشاكر خاصة، وباقي الأسماء قسمها على الصفات فقبلتها حيث تتضمنها بلا شك، فمنها ما ألحقه بالعلم، ومنها بالقدرة وسائر الصفات، فكذلك أم الكتاب ألحق الله بها جميع الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء نوّاب محمد ﷺ فادّخرها له ولهذه الأمة ليتميز على الأنبياء بالتقدم، وأنه الإمام الأكبر، وأمته التي ظهر فيها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] لظهوره بصورته فيهم، وكذلك القرن الذي ظهر فيهم خير القرون لظهوره فيه بنفسه وقبل ذلك وبعده بشرعه، فمن جمعية هذه الأمّة أن جعل الله لأوليائها حظاً في نعوت أهل البعد عن الله بطريق القربة، فيقع الاشتراك في اللفظ والمعنى ويتغير

المصرف، كما قلنا في الحرص أنه مذموم، فإذا حرصنا في طلب العلم والتقرّب به إلى الله كان محموداً وهو بإطلاق اللفظ مذموم فإنه ما يستعمل مطلقاً إلاَّ في مذموم، فإذا أريد به الحمد قيد فقيل حريص على الخير، وهكذا الحسد يتعوّذ منه مطلقاً من غير تقييد فإنه بالإطلاق للذمّ ويستعمل في المحمود بالتقييد، فلهذا جمع الله لأولياء هذه الأمّة النظر في مثل هذا، فحصلوا حظوظهم من أسماء الذمّ في الإطلاق حتى لا يفوتهم شيء إذ كانوا الجامعين للمقامات كلها فلهم في كل أمر شرب وحظ: [الطويل]

إذا جاء نعتٌ أي نعتٍ فرضْتَهُ ... لنا فيه حظٌّ وافرٌ ثم مَشْرَبُ
سواءٌ يكون النعتُ في ذمٍّ حالةٍ ... وفي حمدها فالكلُّ للقوم مَطْلَبُ
ألستَ ترى أوصافَه في نُعُوتنا ... وأوصافُنا نعتٌ له لا يكْذِبُ
له فرحٌ في حالة وتبشُّشٌ ... إلى مَلَلٍ قد جاءنا وتَعَجُّبُ
وهُزْءٌ نَسَبْناهُ له وتردُّدٌ ... ومكرٌ وكيدٌ كلُّ ذاك مرتَّبُ
كما كان للعبد الجلالُ ومجْدُهُ ... وعزٌّ وتعظيمٌ لديه مُرَغَّبُ
وهذا من أوصاف الإله فدبِّروا ... كلامي الذي قد قلتُ فيه وطَنِّبُوا
كذلك نعتي الأولياءَ مدحتُهم ... بما ذُمَّ عُزفاً في الأنام فنَقِّبوا
فمن أنكر العلمَ الذي قد شرحتُه ... فليس هو الشخصُ العليم المقرَّبُ

فمنهم الحاسدون، قال عليه السلام: «**لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَهُوَ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ البِرِّ**» فقام أهل النفوس الأبية التي تأبى الرذائل وتحب الفضائل وجماع الخير فقالوا: لا ينبغي الحسد إلاَّ في معالي الأمور، وأعلى الأمور ما تعرف إلاَّ بأربابها ورب الأرباب وذو الصفات العلى والأسماء الحسنى هو الله، فيقال: نتشبه به في التخلق بأسمائه ففعلوا وبالغوا واجتهدوا إلى أن صاروا يقولون للشيء كن فيكون وذلك أقصى المراتب التي تمدح الله بها، فلولا الحسد ما تعمل القوم في تحصيل هذا المقام.

ومنهم الساحرون السحر بالإطلاق صفة مذمومة، وحظ الأولياء منها ما أطلعهم الله عليه من علم الحروف وهو علم الأولياء، فيتعلمون ما أودع الله في الحروف والأسماء من الخواص العجيبة التي تنفعل عنها الأشياء لهم في عالم الحقيقة والخيال، فهو وإن كان مذموماً بالإطلاق فهو محمود بالتقييد، وهو من باب الكرامات وخرق العوائد، ولكن لا يسمون سحرة مع أنه يشاهد منهم خرق العوائد، فسمّي ذلك في حقهم كرامة وهو عين السحر عند العلماء، فقد كان سحرة موسىٰ ما زال عنهم علم السحر مع كونهم آمنوا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[سورة الشعراء: الآية ٤٨] ودخلوا في دين الله، وآثروا الآخرة على الدنيا، ورضوا بعذاب الله على يد فرعون مع كونهم يعلمون السحر، ويسمّى عندنا علم السيمياء مشتق من السمة وهي العلامة أي علم العلامات التي نصبت على ما تعطيه من الانفعالات من جمع حروف وتركيب أسماء وكلمات، فمن الناس من يعطي ذلك كله في بسم الله وحده فيقوم له ذلك مقام جميع الأسماء كلها وتنزل من هذا العبد منزلة ﴿كُن﴾ وهي آية من فاتحة الكتاب، ومن هناك

تفعل لا من بسملة سائر السور، وما عند أكثر الناس من ذلك خبر، والبسملة التي تنفعل عنها الكائنات على الإطلاق هي بسملة الفاتحة، وأما بسملة سائر السور فهي لأمور خاصة. وقد لقينا فاطمة بنت مثنى وكانت من أكابر الصالحين تتصرّف في العالم ويظهر عنها من خرق العوائد بفاتحة الكتاب خاصة، كل شيء رأيت ذلك منها، وكانت تتخيل أن ذلك يعرفه كل أحد وكانت تقول لي: العجب ممّن يعتاص عليه شيء وعنده فاتحة الكتاب لأيّ شيء لا يقرؤها فيكون له ما يريد ما هذا إلاّ حرمان بيّن، وخدمتها وانتفعت بها.

ومنهم الكافرون وهم الساترون مقامهم مثل الملامية والكفار والزراعون لأنهم يسترون البذر في الأرض، وذلك أن أهل الأنس والجمال والرحمة إذا نظروا في القرآن وفي الأشياء كلها لم تقع عينهم إلاّ على حسن وجمال لا على غير ذلك، كان ذلك ما كان، وإذا قرأوا القرآن لم يقم لهم من صور الممقوتين إلاّ ما تتضمنه من مصارف الحسن، فعلى ذلك تقع أعينهم وذلك يشهدهم الحق من تلك الآية التي وصف الله بها من مقته من عباده لقيام تلك الصفة به على حدّ مطلقها، فيأخذون من كل صفة ما يليق بهم في طريقهم، فيصرفون ذلك إليهم بالوجه الأحسن، فيتنعمون بما هو عذاب عند غيرهم والصورة واحدة، والمتصور مختلف منها لاختلاف الناظرين، فلكل منظر عين تخصّه، فالكافر من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة. والكافر من الأولياء من كان ختم الحق على قلبه لأنه اتخذه بيته فقال: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي»، والله غيور فلا يريد أن يزاحمه أحد من خلقه فيه كما ختم الحرم فلم يحل لأحد قتل صيده ولا قطع شجره، فإن الله لا ينظر إلاّ إلى قلب العبد، فلما ختم الله على قلب هذا العبد لم يدخل في قلبه سوى ربه ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فلا يصغي إلى كلام أحد إلاّ إلى كلام ربه ﴿هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣]﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] وهي غطاء العناية، فلا ينظرون إلى شيء إلاّ ولهم فيه آية تدل على الله، فكان هذا الحفظ غشاوة تحول بين أعينهم وبين النظر من غير دلالة ولا اعتبار، وحالت بينهم وبين ما لا ينبغي أن ينظر إليه فهي غشاوة محمودة ولهم عذاب من العذوبة عظيم يعني عظيم القدر، فإن العذاب إنما سمّاه الله بهذا الاسم إيثاراً للمؤمن، فإنه يستعذب ما يقوم بأعداء الله من الآلام فهو عذاب بالنظر إلى هؤلاء.

ومنهم: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١] و ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨] فهم صم عن سماع ما لا يحل سماعه، وعن سماع كل كلام غير كلام سيدهم بكم أي خرس فلا يتكلمون بما لا يرضى سيدهم كما كان أولئك بكم عن الكلام بذكر الله، فاختلف المصرف وصحّ الوصف عمي فلا تقع عينهم على غير الله فاعلاً في الأشياء، وكل واحد من الأولياء على قدر مقامه في ذلك من المعرفة بالله، فإنهم تختلف مآخذهم في المحمود من ذلك، ولا يتسع الوقت لتفصيل ذلك وحصلت الفائدة بالتنبيه على اليسير من ذلك فهم لا يرجعون إلاّ إلى الله ولا يعقلون إلاّ عن الله، لا يرجعون إلى المصارف المذمومة من هذه الصفات حيث وصف بها الأشقياء من عباده، فهم لا يعقلون من هذه الصفات سوى

ما يحمد منها في صرفه، فهي كل صفة بحقيقتها في كل موصوف بها. واختلفوا في المصرف فلم يكن اتصافهم بها مجازاً بل هو حقيقة.

ومنهم: الظالمون قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والمصطفى هو الوليّ. ثم قال في المصطفين: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٢] وهو أن يمنعها حقّها من أجلها أي الحق الذي لك يا نفسي عليّ في الدنيا نؤخره لك إلى الآخرة، وبادر هنا إلى الكدّ والاجتهاد وخذ بالعزائم واجتنب الميل إلى الخرص وهذا كله حق لها فهو ظالم لنفسه نفسه من أجل نفسه، ولهذا قال فيمن اصطفاه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي من أجل نفسه ليسعدها فما ظلمها إلاّ لها.

ومنهم: الساهون وهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [سورة الماعون: الآية ٥] بصلاة الله بهم، فهم يرون أن نواصيهم بيد الله يقيمهم فيها ويركع بهم ويسجد بهم ويقرأ بهم ويكبر بهم ويسلم بهم لأنه سمعهم وبصرهم ولسانهم ويدهم ورجلهم كما ورد في الخبر، ومن كان هذا مشهده وحاله فهو عن صلاته ساه، فإنه لم يقل عن الصلاة فإنه ليس بساه عن الصلاة وإنما سهوهم عن إضافة الصلاة إليهم، فلهذا اعتبروا قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ والويل الذي لهم إنما هو بالنظر لمن جمع في نظره بين صلاته وصلاة الله به فإنه الأكمل، فإذا قست بين الرجلين في هذين المقامين الكبيرين نقص أحدهما ما كان خيراً في حق الآخر الجامع لهما فيكون ذلك النقص ويلاً له بالإضافة حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠].

ومنهم: المراؤون الذين يراؤون الناس وهم الذين يفعلون الفعل ليقتدي بهم فيه علماء هذه الأمة يعلمون الناس بالفعل يقصدون تعليمهم إذ كان الفعل أتم عند الرأي من القول كما قال عليه السلام: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» مع كونه وصف الصلاة لهم، ومع هذا كله صلّىٰ على المنبر ليراه الناس فيقتدوا به، وهكذا في كل ما يمكن من الأعمال، هذا حظ الأولياء من الرياء في الأفعال المقرّبة إلى الله.

ومنهم: المانعون الماعون وحظهم من هؤلاء أن يحجبوا الناس عن رؤية الأسباب ليصرفوا نظرهم إلى مسببها فلا معين إلاّ الله، قيل لهم: قولوا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] لا بالماعون.

ومنهم: الهمازون اللمازون، وهم العيابون وأولياء الله يطلعون كل شخص على عيوب النفس إذ كان لا يشعر كل أحد بذلك، فإذا أخذ العارف يصف عيوب النفوس في حق كل طائفة من أصحاب المراتب كالسلطان وما يتعلق بمرتبته من العيوب والقاضي وجميع الولاة وعيوب نفوس الزهاد والصالحين والعوام فيعرّف كل طائفة عيبها بعدما كان مستوراً عنها هذا حظهم من الهمز واللمز.

ومنهم: الفاسقون الناقضون القاطعون المفسدون الفاسقون الخارجون عن الصفات التي تحول بينهم وبين السعادة والقربة إلى الله، فهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [سورة

البقرة: الآية ٢٧] وذلك أنهم يتعهدون مع الله أن يطيعوه، فإذا حصلوا في مقام التقريب والكشف رأوا أن الله هو العامل بهم ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فرأوا أنهم لا حول لهم ولا فعل ولا قول، فنقضوا عهد الله بردّه إليه سبحانه لأنه ما انعقد ذلك إلاّ مع فاعل يفعله ورأوا مشاهدة أن الله هو الفاعل لذلك، فلم يقع العهد في نفس الأمر إلاّ من الله بين الله وبين نفسه، فعلموا أن الحجاب أعماهم عن هذا الإدراك في حين أخذ العهد، وأن العهد إنما يلزم لأهل الحجاب فانتقض عهدهم والأعمال تجري منهم بالله وهم لا يرونها، فهم المعصومون في أعمالهم عن إضافتها إليهم، وكذلك في قطعهم ما أمرهم الله أن يصلوه من أرحامهم فقال عليه السلام: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِن الرَّحْمٰنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللّٰهُ**» فوصلوها بالرحمن وردّوا القطعة إلى موضعها فشاهدوا الرحمن يمتن عليهم وخرج هؤلاء من الوسط وامتثلوا قول الشارع بصلة الرحم فأخذها الناس على صلة القرابة بالمال ويأخذ هؤلاء على صلة القربى إلى الله فهم يدلون أرحامهم على أصلهم وهو الرحمن ويرون في إعطائهم الصلات، يد الله معطية، ويد الله آخذة، فإنها شجنة من الرحمن، فالعطاء منه والأخذ منه، فانقطع هؤلاء عن صلة الرحم بالمال لأنهم لا يدلهم مع غاية الإحسان في الشاهد والناس لا يشعرون. وكذلك قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧] وفساد دنياهم هو فسادهم في الأرض لأن الجنة في السماء وفي هذا الفساد صلاح آخرتهم في السماء فيصومون ويسهرون ويحملون الأثقال الشاقة، وهذا كله من فساد أرض أجسامهم لما طرأ عليها من النحول والذبول والضعف، وهذا كله وصف أهل الشقاء في الكتاب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٩] ثم وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧].

ومنهم: الضالون، وهم: التائهون الحائرون في جلال الله وعظمته، كلما أرادوا أن يسكنوا فتح لهم من العلم به ما حيّرهم وأقلقهم، فلا يزالون حيارى لا ينضبط لهم منه ما يسكنون عنده بل عقولهم حائرة، فهؤلاء هم الضالون الذين حيّرهم التجلي في الصور المختلفة.

ومنهم: المضلون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] وهو في الاعتبار الذين أظهروا لأتباعهم من المتعلمين طريق الحيرة في الله والعجز عن معرفته وأنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] مع كونه خاطب عباده بالعمل وهو العامل بهم لا هم، فلما نبهوا الناس على ما يقتضيه جلال الله من الإطلاق وعدم التقييد كانوا مضلين أي محيرين من أجل ما حيّروا الخلق في جلال الله، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨] محيرين ﴿ عَضُدًا ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] يعتضد بهم في تحييرهم، بل أنا محيرهم على الحقيقة لا هم مع كونهم لهم أجر ما قصدوه، والدليل على أني محيرهم لا هم ولا اتخذتهم عضداً أن من الناس من يقبل منهم ومن الناس من لا يقبل، ولو كان الأمر بأيديهم لآثروا في الكل القبول، فلما كان الأمر بيدي لا بأيديهم جعلت القبول في البعض دون البعض، فقبلوا الحيرة فيّ فأنا كنت محيرهم لا هم، فعلى هذا يعتبر قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] بل لنأجرهم على ذلك.

ومنهم: الكاذبون وهم الذين يقولون: صلينا وسمعنا وأطعنا، وقيل لهم قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] وغير ذلك مما يدعونه من أعمال البرّ المأمور بها شرعاً، وهم يعلمون أنّ الأمور بيد الله، وأنه لولا ما أجرى الله العمل على أيديهم ما ظهر، ولولا أنّ الله قال لهذا العمل كن في هذا المحل ما كان وهم مع ذلك يضيفونه إلى أنفسهم فهم كاذبون من هذا الوجه، وهكذا يسري في سائر الأعمال.

ومنهم: المكَذبون وهي الطائفة التي ترى هؤلاء المدّعين في أعمالهم ممّن يراها أنها أعمالنا وممّن يراها أنها من الله ولكن يدعونها وهم كاذبون، فتكذبهم هذه الطائفة في دعواهم وإضافتهم ذلك إليه فيقال فيهم مكذبون، والكامل من يضيف الأعمال على حدّ ما أضافها الحق، ويزيلها عن الإضافة على حدّ ما أزالها الحق من علمه بالمواطن، فمن نقص عن هذا النظر وكذب المدعين في كل حال فقد نقصه هذا الأدب مع كونه جليل القدر، فهذا النقص يعبر عنه بالويل في حقّه الذي في العموم ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنه يقول يوم القيامة: إذا رأى ما فاته في تكذيبه من المواطن التي كان ينبغي له أن يقرّر فيها إضافة العمل إليهم فلم يفعل، يا ويلنا لَم لَم أحقق النظر في ذلك حتى أفوز بعلم الأدب الذي هو جماع الخير فيدخل تحت عموم قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٠] أي يقولون: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ [سورة المائدة: الآية ٣١] و ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وإن كانوا سعداء فإنه يوم التغابن. ومنهم: الفجار فإنهم في سجين من السجن، وهم الذين حبسوا نفوسهم وسجنوها عن التصرّف فيما منعوا من التصرّف فيه، ولا يقع التفجير إلاّ في محبوس ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٦] فهم الفجار جاؤوا عيون المعارف التي سدّها الله في العموم لكون الفطر أكثرها لا تسعد بتفجيرها لما يؤدي إليه بالنظر الفاسد من الإباحة والقول الحلول وغير ذلك ممّا يشقيهم، فجاءت هذه الطائفة إلى المعنى ففجرت هذه العيون لأنفسها فشربت من مائها فزادت هدى إلى هداها، وبياناً إلى بيانها، فسعدت وطالت وعظمت سعادتها، فهذا حظ الأولياء من الفجور الذي سمّوا به فجاراً، وعلى هذا الأسلوب نأخذ كل صفة مذمومة بالإطلاق فتقيدها فتكون محمودة ونضع عليك اسماً منها كما يسمّي صاحب إطلاقها فلتتبع الكتاب العزيز والسنّة في ذلك واعمل بحسبها فإنه يعطيك النظر فيها من حيث ما وصف بها الأشقياء ما لا يعطيك من حيث ما وصف بنقيضها الأتقياء فاجعل بالك، وهذا كله من بركة أمّ الكتاب فإنه مثل هذا النظر ما فتح لأمّة من الأمم وعصمت فيه إلاّ لهذه الأمّة، وأعظم صفة في الذمّ الشرك.

ومنهم: المشركون بالله قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] وكذا هو لأنه لو ستر لم يشرك به، وهذا الاسم الله هو الذي وقع عليه الشرك فيما يتضمنه فشاركه الاسم الرحمن قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعل للاسم الله شريكاً في المعنى وهو الاسم الرحمن، فالمشركون هم الذين وقعوا على الشركة في الأسماء الإلهية لأنها اشتركت في الدلالة على الذات وتميزت

بأعيانها بما تدل عليه من رحمة ومغفرة وانتقام وحياة وعلم وغير ذلك، وإذ كان للشرك مثل هذا الوجه فقد قرب عليك مأخذ كل صفة يمكن أن تغفر، فلا تجزع من أجل الشريك الذي شقي صاحبه فإنّ ذلك ليس بمشرك حقيقة، وأنت هو المشرك على الحقيقة لأنه من شأن الشركة اتحاد العين المشترك فيه فيكون لكل واحد الحكم فيه على السواء وإلاَّ فليس بشريك مطلق، وهذا الشريك الذي أثبته الشقي لم يتوارد مع الله على أمر يقع فيه الاشتراك فليس بمشرك على الحقيقة، بخلاف السعيد فإنه أشرك الاسم الرحمن بالاسم الله وبالأسماء كلها في الدلالة على الذات، فهو أقوى في الشرك من هذا، فإنّ الأول شريك دعوى كاذبة، وهذا أثبت شريكاً بدعوى صادقة، فغفر لهذا المشرك بصدقه فيه، ولم يغفر لذلك المشرك لكذبه في دعواه، فهذا أولى باسم المشرك من الآخر.

السؤال الخامس والخمسون ومائة: ما معنى المغفرة التي لنبينا وقد بشّر النبيين بالمغفرة؟ الجواب: الغفر الستر فستر عن الأنبياء عليهم السلام في الدنيا كونهم نوّاباً عن رسول الله ﷺ، وكشف لهم عن ذلك في الآخرة إذ قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فيشفع فيهم ﷺ أن يشفعوا، فإنّ شفاعته ﷺ في كل مشفوع فيه بحسب ما يقتضيه حاله من وجوه الشفاعة، فبشر النبيين بالمغفرة الخاصة، وبشّر محمداً ﷺ بالمغفرة العامّة، وقد ثبتت عصمته فليس له ذنب يغفر فلم يبق إضافة الذنب إليه إلاَّ إن يكون هو المخاطب والقصد أمته كما قيل: إياك أعني فاسمعي يا جارة. وكما قيل له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٤] ومعلوم أنه ليس في شك، فالمقصود من هو في شك من الأمة، وكذلك: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥] وقد علم أنه لا يشرك فالمقصود من أشرك فهذه صفته فكذلك قيل له: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهو معصوم من الذنوب، فهو المخاطب بالمغفرة، والمقصود من تقدّم من آدم إلى زمانه، وما تأخر من الأمة من زمانه إلى يوم القيامة، فإن الكل أمته، فإنه ما من أمة إلاَّ وهي تحت شرع من الله، وقد قرّرنا أن ذلك هو شرع محمد ﷺ من اسمه الباطن حيث كان نبياً وآدم بين الماء والطين وهو سيد النبيين والمرسلين فإنه سيد الناس وهم من الناس، وقد تقدّم تقرير هذا كله فبشر الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] بعموم رسالته إلى الناس كافة، وكذلك قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٨] وما يلزم الناس رؤية شخصه، فكما وجه في زمان ظهور جسمه رسوله علياً ومعاذاً إلى اليمن لتبليغ الدعوة، كذلك وجه الرسل والأنبياء إلى أممهم من حين كان نبياً وآدم بين الماء والطين، فدعا الكل إلى الله، فالناس أمته من آدم إلى يوم القيامة، فبشّره الله بالمغفرة لما تقدّم من ذنوب الناس وما تأخّر منهم، فكان هو المخاطب والمقصود الناس، فيغفر الله للكل ويسعدهم وهو اللائق بعموم رحمته التي وسعت كل شيء، وبعموم مرتبة محمد ﷺ حيث بعث إلى الناس كافة بالنص، ولم يقل أرسلناك إلى هذه الأمة خاصة ولا إلى أهل هذا الزمان إلى يوم القيامة خاصة، وإنما أخبره أنه مرسل إلى الناس كافة، والناس من آدم إلى يوم القيامة، فهم المقصودون بخطاب

مغفرة الله لما تقدم من ذنب وما تأخر: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢١] لكن ثم مغفرة في الدنيا، وثم مغفرة في القبر، وثم مغفرة في الحشر، وثم مغفرة في النار بخروج منها وبغير خروج، لكن يستر عن العذاب أن يصل إليه بما يجعل له من النعيم في النار مّما يستعذ به فهو عذاب بلا ألم.

وقد انتهت سؤالاته رضي الله عنه، وانتهى ما ذكرناه من الأجوبة عليها من غير استيفاء، وما تركناه من ذلك في الجواب أكثر ممّا أوردنا بما لا يتقارب، فإنّ الاختصار أولى من الإكثار إذ باب النطق والإبانة عن حقائق الأمور لا يتناهى، فإنّ علم الله أوسع، فتعليمه لنا لا يقف عند حد، والله الموفق لا ربّ غيره. انتهى الجزء الحادي والتسعون.

الفصل الثاني

في المعاملات

(الجزء الثاني والتسعون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع والسبعون

في التوبة

[نظم: الكامل]

الاعـتـرافُ مَـتَـابُ كـل مـحـقِّـقٍ ... وبـه الإلـهُ الـحـقُّ يـشـرح صَـدْرَهُ

رضـيَ الإلـهُ عـن الـمـخـالِف مِـثـل مـا ... رضـيَ الإلـهُ عـن الـمـوافـق أمْـرَهُ

مـاذا كـغـيـر أن يـنـالَ مَـنَـالَـهُ ... لا سـيـمـا إن كـنـتَ تـعـرف سـرَّهُ

مـن عـيـن مـنَّـتـه يـنـال مـخـالـفٌ ... مـا نـالـه إن كـنـتَ تـجـهـل قَـدْرَهُ

اعلم أيّدنا الله وإياك أنّ الله يقول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] فأمر بالتوبة عباده، ثم لقنهم الحجة لو خالفوا أمره فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] ليقولوا إذا سئلوا ذلك أي لو تبت علينا لتبنا مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] ليقول كرمك فهذا من باب تعليم الخصم الحجة خصمه ليحاجه بذلك إذا كان محبوباً، وجاء بلفظة الإنسان بالألف واللام والإغرار ليعم جميع الناس، فهذا ممّا يدلك على أن إرادة الحق بهم السعادة في المآل، ولو نالهم ما نالهم ممّا يناقضها، غير أن توبة الله مقرونة بعلى، لأن من أسمائه الاسم العلي، وتوبة الخلق مقرونة بإلى لأنه المطلوب بالتوبة فهو غايتها، واجتمع الحق والخلق في مَنْ مِنَ التوبة فهم رجعوا إليه من أنفسهم والعارفون رجعوا إليه منه، والعلماء بالله رجعوا إليه من رجوعهم إليه.

وأما العامة فإنها رجعت من المخالفات إلى الموافقة، والحق عزّ وجلّ رجع إليهم من كناية أن يخذلكم ليرجعوا إليه بحسب ما تقتضيه مقاماتهم التي فصلناها آنفاً، فرجوع الحق عليهم ليرجعوا إليه مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فرجوعه عليهم رجوع عناية محبة أزلية ليتوبوا، فإذا تابوا أحبهم حب من رجع إليه فهو حب جزاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فهذا الحب منه ما هو الأول، وللعبد حب آخر زائد

على قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وهو أنه قال ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فهذا حب جزاء المنعم لما أنعم به عليهم، فهذا الحب منهم في مقابلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] حب جزاء لحب جزاء، والأول حب عناية منه ابتداء وحبّهم إياه حبّ إيثار لجنابه لا حبّ آلاء ونعم. فالتوبة منهم عن محبة منتجة لمحبة أخرى منه فهي بين محبتين متعلقتين بهم من الله كتوبته عليهم عن محبة منهم تنتج محبة أخرى منهم، فتوبته عليهم بين محبتين أيضاً، وهذا من باب خلق الله آدم على صورته، أي جميع ما تقبله الحضرة الإلهية من الصفات يقبلها الإنسان الصغير والكبير وحدها ترك الزلة في الحال والندم على ما فات، والعزم على أنه لا يعود لما رجع عنه، ويفعل الله بعد ذلك ما يريد. فأما ترك الزلة في الحال فلا بدّ منه لأنّ سلطان وقته الحياء والحياء يحول بسلطانه بين من قام به وبين تعدّي حدود الله.

ومن أسماء الله تعالىٰ المذكورة في السنة الحييّ، وأنّ الله يستحيي يوم القيامة من ذي الشيبة، فحياء الله من العبد أنه قد أعلمه أنه سبحانه لا يتوبون إليه حتى يتوب عليهم، فإذا وقف المخذول الذي لم يتب الله عليه فلم يتب إليه وكان في حال وقوفه بين يديه يوم القيامة ذاكراً في نفسه هذه الآية: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] استحيا الله منه أن يؤاخذه بذنب، كما أنّ العبد يستحي من الله في حال توبته إلى الله أن يقع منه زلة وهو في هذا الحال فإنه ليس بتائب في تلك الحال، ونحن تكلمنا في التائب فالحياء له لازم، والحياء يقتضي ترك الزلة في الحال، ومن ترك الزلة في الحال للتائب إذا كان عارفاً هو ترك نسبتها إلى ربّه فينسبها إلى نفسه أدباً مع الله، وفي نفس الأمر الفعل فعل الله والقدر من الله والحكم بكونها معصية وزلة حكم الله، ومع هذا فالأدب يقول له: انسبها إلى نفسك لما تعلق بها لسان الذم، ولهذا قال في حد النفس: كل خاطر مذموم والأصل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨].

ومن العلماء بالله من يكون ترك الزلة في الحال عندهم أن لا يشهدوا أنها زلة وهو عين قضاء الله فيها لأنه الذي حكم أنها زلة، ومن حيث إنها فعل من أفعال الله فهي في غاية الحسن والجمال، وإنما سميت زلة من زلّ إذا زلق أي زلّت من نسبة كونها من أفعال الله إلى حكم الله فيها بالذم، فحكم الله فيها بالزلل عن هذه المرتبة فاعلم.

ومن العلماء بالله من يكون ترك الزلة في حقّه أن يشهد الزلة في ذلك الفعل من كونها زلة لا من كونها فعلاً يتعلق به الذم أو الحمد، فيشهد نسبتها للعبد التي بها سميت زلة ثم يتبعها الذم، وإن كان كل فعل إلهيّ نسب إلى العبد من هذا الباب فجميع الأفعال الكونية كلها زلل محمودها ومذمومها، ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقّه شغله برجوعه إلى ربه، والذلة رجوعه عن ربه فهو في النقيض، ومن هو في النقيض بالحال لا يكون في نقيضه فبالضرورة لا يكون له في هذه الحال زلة. ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقّه هو شغله بشهوده رجوع الحق عليه ليرجع إليه ليفرق ما بين رجوعه عليه ليرجع إليه وبين رجوع آخر لا ليرجع إليه ليميز بين الرجوعين ليقيم على نفسه ميزان ما يجب عليه في

ذلك من الله من عمل من الأعمال من ذكر بلسان أو قلب أو عمل بجارحة أو المجموع أو بعض المجموع، ومن كان بهذه المثابة من الشغل فلا تقوم به زلة في الحال. ومن الناس من يكون ترك الزلة في الحال في حقه أن يشهد رجوع الحق إليه لا ليميز ولا ليرجع إليه، بل ليعلم حقيقة معنى الرجوع الإلهيّ لماذا ينسبه هل إلى الذات أو لاسم إلهيّ؟ وما سبب ذلك الرجوع هل هو ذاتيّ أو غير ذاتيّ أو لا نسبة له إلى الذات؟ فهذه الوجوه وأمثالها ممّا يطلبه ترك الزلة في الحال.

وأما الركن الثاني وهو الندم على ما فات وهو عند الفقهاء الركن الأعظم بمنزلة قوله: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**» لأنه الركن الأعظم، وهنا تتشعب أمور كثيرة في التائبين ميم الندم منقلبة عن باء مثل لازم ولازب وهو أثر حزنه على ما فاته يسمى ندماً، والندب الأثر فقلبت ميماً وجعلت لأثر الحزن خاصة، وأما تعلقه بالفوات فمن أصحابنا من رأى أنه تضييع للوقت فإنه ما فات لا يسترجع، ومن أصحابنا من يرى أنه صاحب الوقت وأنّ فائدته أن يجبر له ما مضى ويحتج بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠].

ومن أصحابنا من يرى أنه لا يندم إلاّ بإحضاره في نفسه ذنبه الحائل بينه وبين ما فاته من طاعة أمر ربه عزّ وجلّ وذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، فينبغي له أن ينسى ذنبه وهو خلاف الأول فإنه قال: التوبة أن لا تنسى ذنبك والكلام فيما فاته، فمنهم من يندم على ما فاته من الاستغفار في عقب كل ذنب. ومنهم من يرى الندم على ما فاته من الوقت. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من الطاعة في وقت المخالفة. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من فعل الكبائر في وقت المخالفة لأنه يشاهد التبديل كل سيئة بما يوازنها من الحسنات، كقتل نفس بإحياء نفس، وذم بمحمدة، وصدقة بغصب أو سرقة أو خيانة.

ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من الحضور مع الله في قضائه بالمعصية في حال المعصية. ومن الناس من يرى الندم على ما فاته من إضافة ذلك الفعل إلى الفاعل في حال الفعل وهو نور عظيم شعشعانيّ حجابه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فقرن به السوء لما أضافه إليه فرآه حسناً ولا بدّ من حضرة وجودية وهي التي أوجبت له الحسن الذي رآه محل الفعل إذ العدم لا يراه الممكن، وما ثم حسن إلاّ كونه من أفعال الله، وما أساءه إلاّ إضافته إلى العبد فإنه قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ بكونه لربه ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من كونه عمله فكسبه السوء ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ بالتزيين الإلهيّ، وزينة الله غير محرّمة فهو في نفس الأمر مزيّن بزينة الله، وعند العبد بحسب ما يحضر فيه، فإن حضرة تزيين الشيطان فهو سوء على سوء، وأن حضرة تزيين الحياة الدنيا فهو غفلة في سوء وإن حضرة تزيين الله والإضافة إلى العبد فهو حسن في سوء، فإن أخذ إضافة السوء إلى العمل أدباً إلهياً فهو حسن في حسن.

[الرمل]

كل شيء أنت فيه حَسَنٌ ... لا يبالي حَسَنٌ ما لَبِسَا

من ثوب مخالفة أو موافقة، فإنك إن لم توافق الأمر وافقت الإرادة، ولولا ما بين السيىء والحسن مناسبة تقتضي جمعهما في عين واحدة يكون بها حسناً سيئاً ما قبل التبديل في قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] ولا كان يتصف سوء العمل بالحسن في رؤيته، فما اتصف بالحسن عنده حتى قبل العمل صفة الحسن في وجه من الوجوه الوجودية فهو سوء بالخبر حسن بالرؤية، فكأنّ الرؤية لا تصدق الخبر وشاهد الرؤية أقطع. [الوافر]

ولكنْ للعيان لطيفُ معنًى ... لذا سأل المعاينةَ الكليمُ

والناس يطلبون أن يصدق الخبر الخبر، والخبر الرؤية، ولم نر أحداً يطلب أن يصدق الخبر الرؤية كما يصدق الخبر الخبر، ولهذا اختلف في شهادة الأعمى ولم يختلف في شهادة صاحب البصر، ولهذا قال في الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي يحيره في مثل هذا حيث وصفه بالسيىء والحسن، فلا يدري المكلف ما يغلب، وبقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ بنية ما لم يسم فاعله فلا يدري من زيّنه؟ هل تزيين الله أو تزيين الشيطان أو تزيين الحياة الدنيا؟ ثم قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي يوفق للإصابة في معنى السوء والحسن لهذا العمل ما معناه وكيف ينبغي أن يأخذه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] أي فلا تكترث لهم حسرة عليهم فهي بشرى من الله بسعادة الجميع، فإنه ما حيل بينه ﷺ وبين إنسانيته فهو إنسان في كل حال ولا تزول الحسرات عنه وهو إنسان كامل إلاَّ باطلاعه على سعادتهم في المآل فلا يبالي من العوارض فإنّ السوء للعمل عارض بلا شك، والحسن له ذاتي، وكل عارض زائل وكل ذاتيّ باق لا يبرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨] أي عليم عن ابتلاء ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] من كل ما يظهر فيكم من الأفعال وعنكم، وفي هذا الركن أيضاً في قوله: ما فات من فات فلان فلاناً جوداً إذا أربى عليه في الجود وزاد فهذا يرى الندم في التوبة على ما فات، أي ما زاد حسن السيئة المبدّلة على حسن الحسنة غير المبدّلة، فإن حسن الحسنة بنفسها لا بأمر آخر، وحسن السيئة إذا أبدلت لها حسنان: حسن ذاتيّ وهو الحسن الذي لكل فعل من حيث ما هو لله، وحسن زائد وهو ما خلع الحق على هذا الفعل بالتبديل، فكسى ما ظهر فيه من السوء حسناً ففات سوء العمل حسن على حسن العمل بما كساه الحق، فالحسنة كشخص جميل في غاية الجمال لا بزة عليه، وشخص جميل مثله في غاية الجمال طرأ عليه وسخ من غبار فنظف من ذلك الوسخ العارض فبان جماله ثم كسى بزة حسنة فاخرة تضاعف بها جماله وحسنه ففات الأوّل حسناً، فالتائب يندم على ما فات حيث لم تكن أفعاله كلها معلومة له أنها بهذه المثابة فيتصل فرحه، قال في هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ أي يستر عمن شاء الوقوف على مثل هذا كشفاً ﴿رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] رحمة به لمعنى علمه سبحانه لم يعينه لنا فندم مثل هذا الذي هو أثر الحزن مثل ما يجده المحب على محبوبه من الوجد والحزن والكرب والندم على ما فرط في حق محبوبه الذي زيّن له، فكان يتلقاه بأعظم ممّا تلقاه من الحرمة والحشمة. يقول لسان آدم: [الطويل]

فيا طاعتي لو كُنْتِ كُنْتُ بحسرة ومعصيتي لولاكِ ما كنتُ مجْتَبَى

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٢] فالله كان التائب لا آدم، والذي صدر من آدم ما اقتضته خاصية الكلمات التي تلقاها وما فيها ذكر توبة، وإنما هو مجرّد اعتراف وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ حيث عرّضوها إلى التلف، وكان حقها عليهم أن يسعوا في نجاتها بامتثال نهي سيدهم ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ أي وإن لم تسترنا عن وارد المخالفة حتى لا يحكم سلطانه علينا وترحمنا بذلك الستر ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] ما ربحت تجارتنا، فأنتج لهم هذا الاعتراف قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٢] أي رجع عليهم بستره، فحال بينهم ذلك الستر الإلهي وبيّن العقوبة التي تقتضيها المخالفة، وجعل ذلك من عناية الاجتباء أي لما اجتباه أعطاه الكلمات وهدى أي بيّن له قدر ما فعل، وقدر ما يستحقه من الجزاء، وقدر ما أنعم به عليه من الاجتباء، ومع التوبة قال له: ﴿فَٱهْبِطْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣] هبوط ولاية واستخلاف لا هبوط طرد، فهو هبوط مكان لا هبوط رتبة:

هُبُوطُ مكان لا هُبُوطُ مكانةٍ لتلقَى به فوزاً وملكاً مخلَّدَا

كما قال من أغواه صدقاً لكونه رآه كلاماً من إله مُسَدَّدَا

فإنّ إبليس قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٠] فسمع ذلك الخطاب من ربه تعالىٰ فكان صدقاً لحسن ظنّه بربه فعرض له من أجل المحل الذي ظهر فيه خطاب الحق وأورثه ظهور السوءأت من أجل المحل وأورثه الأكل الخلد والملك الذي لا يبلى، ولكن بعد ظهور سلطانه ونيابته ونيابة بنيه في خلقه حكماً مقسطاً عدلاً يرفع القسط ويضعه أورثه ذلك كله توبة ربه. واعلم أن توبة ربه مقطوع لها بالقبول، وتوبة العبد في محل الإمكان لما فيها من العلل وعدم العلم باستيفاء حدودها وشروطها وعلم الله فيها، فالعارفون آدميون يسألون من ربهم أن يتوب عليهم، وحظهم من التوبة الاعتراف والسؤال لا غير ذلك، هذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النور: الآية ٣١] أي ارجعوا إلى الاعتراف والدعاء كما فعل أبوكم آدم، فإن الرجوع إلى الله بطريق العهد وهو لا يعلم ما في علم الله فيه خطر عظيم، فإنه إن كان قد بقي عليه شيء من مخالفة فلا بدّ من نقض ذلك العهد فينتظم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧] فلم ير أكمل معرفة من آدم عليه السلام حيث اعترف ودعا وما عهد مع الله توبة عزم فيها أنه لا يعود كما يشترطه علماء الرسوم في حدّ التوبة فالناصح نفسه من سلك طريقة آدم. فإنّ في العزم سوء أدب مع الله بكل وجه، فإنه لا يخلو أن يكون عالماً بعلم الله فيه أنه لا يقع منه زلة في المستأنف أم لا، فإن كان عالماً بذلك فلا فائدة في العزم على أن لا يعود بعد علمه أنه لا يعود، وإن لم يعلم وعاهد الله على ذلك وكان ممّن قضى الله عليه أن يعود ناقض عهد الله وميثاقه، وإن أعلمه الله أنه يعود فعزمه بعد العلم أنه يعود مكابرة، فعلى كل وجه لا فائدة للعزم في المستأنف لا لذي العلم ولا لغير العالم، فالتوبة التي طلب منّا إنما هي صورة ما جرى من آدم عليه السلام، هذا

معنى التوبة عند أهل الله فإن الله يحب كل مفتن توّاب أي كل من اختبره الله في كل نفس فيرجع إلى الله فيه لا عزم أنه لا يعود لما تاب منه فهو جهل على الحقيقة، فإنّ الذي تاب منه من المحال أن يرجع إليه، وإن رجع إنما يرجع إلى مثله لا إلى عينه، فإنّ الله لا يكرّر شيئاً في الوجود، فالعالم بذلك لا يعزم على أنه لا يعود، والذي ينظره أهل الله أنّ التائب يعزم أنه لا يعود أن ينسب إليه ما ليس إليه، وإن عاد بنسبته إليه فقد علم عند العزم أنّ ذلك العود إلى الله لا إليه، فلا تضرّه الغفلة بعد تصحيح الأصل وهو بمنزلة النية عند الشروع في العمل، فإنّ الغفلة لا تؤثر في العمل فساداً، وإن لم يحضر في أثناء العمل ما أحضره عند الشروع فهكذا العازم في عزمه.

واعلم أنّ مقام التوبة من المقامات المستصحبة إلى حين الموت ما دام مخاطباً بالتكليف أعني التوبة المشروعة، وأما توبة المحققين فلا ترتفع دنيا ولا آخرة فلها البداية ولا نهاية لها إلاّ أن يكون الاسم التوّاب في المظهر عين الظاهر، فلا بدء في أحواله ولا نهاية، وإن كانت كل توبة لها بدء والتوبة الكونية ملكية جبروتية عند الجماعة وهو محل إجماعهم، وزاد بعضهم: إنها ملكوتية، فمن لم ير أنها ملكوتية قال: إنها تعطي صاحبها ثمانمائة مقام وثمانية مقامات، ومن رأى أنها ملكوتية قال: إنها تعطي أربعمائة مقام وثلاثة عشر مقاماً، والواقفية أرباب المواقف مثل محمد بن عبد الجبار النفّريّ وأبي يزيد البسطاميّ قال: هي غيبية آثارها حسية وجميع ما تتضمنه هذه المعاملات من المقامات الإلهية الجسام ما فيها مقام يتكرّر على ما قد تقرر في الأصل ولو تاب الخلق كلهم ملك، وإنس، وجان، ومعدن، ونبات، وحيوان، وفلك، ونالوا هذه المقامات كلها لما اجتمع اثنان في ذوق واحد منها وهي منازل فيها ينزلها العبد إذا أحكم ذلك المقام الذي هو التوبة أو غيره، ويعطيه كل منزل منها من الأسرار والعلوم ما لا يعلمه إلاّ الله، ولهذا المقام الحجاب والكشف.

وممّا يؤيد ما ذكرناه من أنّ التوبة اعتراف ودعاء لا عزم على أنه لا يعود ما ثبت في الأخبار الإلهية وصحّ أنّ العبد يذنب الذنب، ويعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ولم يزد على هذا مثل صورة آدم سواء، ثم يذنب الذنب فيعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب فيقول الله له في ثالث مرة أو رابع مرة: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، وهذا مشروع أن الله قد رفع في حق من هذه صفته المؤاخذة بالذنب على من يرى أن الخطاب على غير من ليس بهذه الصفة منسحب. وأما ظاهر الحديث فإن الله قد أباح له ما قد كان حجر عليه لأجل هذه الصفة، كما أحلّ الميتة للمضطرّ وقد كانت محرمة على هذا الشخص قبل أن تقوم به صفة الاضطرار، ثم أنه قد بيّنا أن من عباد الله من يطلعه الله على ما يقع منه في المستأنف فكيف يعزم على أن لا يعود فيما يعلم بالقطع أنه يعود ولم يرد شرع نقف عنده أن من حدّ التوبة المشروعة العزم في المستأنف فلم تبق التوبة إلاّ ما قرّرناه في حديث آدم عليه السلام. ثم يؤيّد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] يعني في الحالتين ما هم أنتم ينظر إليه قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة

الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٥] والإذن الأمر الإلهيّ أمر بعض الشجر أن تقوم فقامت، وأمر بعض الشجر أن تنقطع فانقطعت بإذن الله لا بقطعهم، وبإذن الله لا بتركهم، مع كونهم موصوفين بالقطع والترك، فإنه لا يناقض إذن الله، فإن إذن الله لها في هذه الصورة كالاستعداد في الشيء، فالشجرة مستعدّة للقطع فقبلته من القاطع فقوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني للشجرة كقوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فالنفخ من عيسىٰ لوجود الروح الحيواني، إذ كان النفخ أعني الهواء الخارج من عيسىٰ هو عين الروح الحيواني، فدخل في جسم هذا الطائر وسرى فيه، إذ كان هذا الطائر على استعداد يقبل الحياة بذلك النفس كما قبل العجل الحياة مما رمى فيه السامريّ فطار الطائر بإذن الله كما خار عجل السامريّ بإذن الله ولهذا قال: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة الحشر: الآية ٥] الخارجين عن معرفة هذا الإذن الإلهيّ الذي قطع هذه الشجرة وترك الأخرى.

ولشيوخنا في هذا المقام حدود أذكر منها ما تيسر وأبين عن مقاصدهم فيها بما يقتضيه الطريق، وهكذا أفعل إن شاء الله في كل مقام إذا وجدنا لهم فيه كلاماً، على أنهم إذا سئلوا عن ماهية الشيء لم يجيبوا بالحد الذاتي، لكن يجيبون بما ينتج ذلك المقام فيمن اتصف به، فعين جوابهم يدل على أن المقام حاصل لهم ذوقاً وحالاً، وكم من عالم بحدّه الذاتيّ وليس عنده منه رائحة بل هو عنه بمعزل بل ليس بمؤمن رأساً وهو يعلم حدّه الذاتيّ والرسميّ، فكان الجواب بالنتائج والحال أتم بلا خلاف، فإنّ المقامات لا فائدة فيها إلاَّ أن يكون لها أثر في الشخص لأنها مطلوبة لذلك لا لأنفسها والله المرشد.

واختلف أصحابنا ما أوّل منزل من منازل السالكين فقال بعضهم: اليقظة، وقال بعضهم: الانتباه، وقال بعضهم: التوبة. وروي أن رسول الله ﷺ قال: **«النَّدَمُ تَوْبَةٌ»** فقد يخرج مخرج قوله: **«الحَجُّ عَرَفَةُ»** ولو قال ﷺ: **«النَّدَمُ التَّوْبَةُ»** لكان أقرب إلى الحدّ من قوله: **«النَّدَمُ تَوْبَةٌ»** وقد تقدّم الكلام في الشروط الثلاثة المصححة للتوبة في هذا الباب، قال بعضهم وهو أبو عليّ الدقاق: التوبة على ثلاثة أقسام: لأنّ لها بداية ووسطاً وغاية، فبدؤها يسمّى توبة، ووسطها يسمّى إنابة، وغايتها يسمّى أوبة، فالتوبة للخائف، والإنابة للطائع، والأوبة لراعي الأمر الإلهيّ، يشير بهذا التقسيم إلى أن التوبة عنده عبارة عن الرجوع عن المخالفات خاصة والخروج عما يقدر عليه من أداء حقوق الغير المترتبة في ذمّته ممّا لا يزول إلاَّ بعفو الغير عن ذلك أو القصاص، أو ردّ ما يقدر على ردّه من ذلك. وقال رويم وقد سئل عن التوبة: التوبة من التوبة، كما قال ابن العريف: [السريع]

قد تابَ أقوامٌ كثيرٌ وما تابَ من التَّوبة إلاَّ أنا

ومقالات القوم في التوبة كثيرة مذكورة في كتب المقامات للمنذريّ والقشيري والمطوعي وعمرو بن عثمان المكيّ وغيرهم فلينظر هنالك.

الباب الخامس والسبعون
في ترك التوبة

[نظم: الوافر]

متى خالفته حتى تتوبا ... فتركُ التوب يؤذِنُ بالشُّهودِ
فقل للتائبين لقد حُجبْتُم ... عن إدراك الحقائق بالورودِ
فممن أو إلى من قد رجعتم ... وليس سوى المسوَّدِ والمَسُودِ
فمن عين الذي قد جئتُ منه ... إليه به ومن عينِ العبيدِ
وأسماءُ الإله هي التي لم ... تزَلْ موصوفةً بسَنَا الوجودِ

اعلم وفّقك الله أنه من كان صفته ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٨] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فلا يتوب إلاً من لا يشعر ولا يبصر، هذا القرب والشعور علم إجماليّ قطعي أن ثم مشعوراً به لكن لا يعلم ما هو ذلك المشعور به، فالعلم بالله شعور، والشعور لا علم بما هو عليه المشعور به، وعلمه بنا ليس كذلك، فلا يصرف العبد معناه إلى معنى إلاً والحق في الصارف والمصروف والصرف، فإلى أين أتوب إن نادى فهو المنادي لأنه لا ينادي إلاً من يسمع وهو سمعك فلا تسمع إلاً به فما فقدته في ندائه إياك، هذا حدّ العلم الصحيح ولهذا لم يأمر بالتوبة إلاً المؤمنين فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] بغير ألف لحكمة أخفاها يعرفها العالم ولا يشعر بها المؤمن فهي بالألف هاء التنبيه إذا قال: أيها المؤمنون، وهي بغير الألف هي هويته، قرأها الكسائي برفع هاء أيه وحذف الواو لالتقاء الساكنين يقول: هو المؤمنون لأنه المؤمن وما يسمع نداء الحق إلاً بالحق، والسامع مؤمن، والسامعون كثيرون، فهو المؤمنون، فترك التوبة ترك الرجوع لأنه قال: ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ لمن كان في ظلمة كونه ﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٣] انظروا إلى موجدكم وهو النور الذي به الظهور، فإذا رأيتم النور كشف لكم عنكم فعلمتم أنه أقرب إليكم منكم ولكن لا تبصرون لعدم النور، فلما حصلت لهم المعرفة هنا بهذا القدر لم تصح منهم توبة عندهم أنهم تائبون: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فكان هو التائب على الحقيقة والعبد محل ظهور الصفة ولذلك قال: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] وهو لفظ المبالغة إذ كانت له التوبة الأولى من قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ والثانية من قوله: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ فالتوبتان له من كل عبد فهو التواب لا هم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وهذا حكم سار في جميع أفعال العباد، فما تاب من تاب ولكنّ الله تاب، ولهذا قالت الجماعة: التوبة ترك التوبة والتوبة من التوبة فنفيها إثباتها وإثباتها نفيها، فترك التوبة حال التبرّي من الدعوى، فليست التوبة المشروعة إلاً الرجوع من حال المخالفة

إلى حال الموافقة، أعني مخالفة أمر الواسطة إلى موافقة أمرها لا غير.

والتوبة من التوبة هي الرجوع منه إليه به، فالتوبة من التوبة لها الكشف وما لها حجاب وصاحبها مسؤول لأنه تبرأ من الدعوى بها أعني بالدعوى، وكل مدّع مطالب بالبرهان على صحة دعواه، فالمكمل من يثبت التوبة حيث أثبتها الحق ولمن أثبتها ولا يعديها محلها، فلها رجال يقومون بها ولها رجال يحكمون بها وهم عنها مبعدون لأنها حالة غربة، وهم في الموطن الذي فيه ولدوا، فلا غربة ما يرجع إلى أهله إلاّ الغائب والغائب غريب فالغرباء هم التائبون، فالمحبة من الله لهم محبة أهل الغائب إذا ورد عليهم غائبهم، فمن كان من أهله مشاهداً له في حال غربته لم يفرح به لنفسه فإنه غير فاقد له، وإنما فرحه به لفرحه برجوعه إلى موطنه، فهو فرح موافقة كمحبة المحبوب لمحبة لأنها عين حبه لنفسه، ولهذا يبغض من يبغضه لحبه لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] إليه في كل حال من خلاف ووفاق فهو مقبول محبوب على كل حال، وإذا كانت التوبة تحب لأجل الوصلة فالمتصل لا يتصل فهو أشد في المحبة وأعظم في اللذة وهو المعبر عنه بترك التوبة. ومن رأى أن الأمر الإلهيّ واتساع الحقيقة الربانية لا يدوم لها حال معين ولا ينبغي ولذلك ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ولا يكرّر فلا تصحّ توبة فإنها رجوع، ولا يكون رجوع إلاّ من مفارقة لأمر يرجع إليه والحق على خلافه فلا رجوع فلا توبة.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] لما تغرب الأمر عند المحجوبين عن موطنه بما ادّعوه فيه لنفوسهم قيل لهم: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ لو نظرتم لرأيتم من نسبتم إليه هذا الفعل منكم إنما هو الله لا أنتم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] من دعواكم إنّ الأمر إليكم وهو لله، فالأصل أنه لا رجوع وأنّ الأمر في مزيد إلى ما لا نهاية له ولا إحاطة، إذ لا نهاية لواجب الوجود فلا نهاية للمكنات إذ هو الخلاق دائماً، ولا يصح أن يزول عنه هذا الحكم لأنه ما لا يثبت نفيه إلاّ بإثباته فنفيه محال، فكل باب من أبواب هذا الكتاب ممّا يقتضي ترك ما أثبتناه في الباب الذي قبله فهو كالذيل له فهو منه، فنسوقه مختصراً لأنه لا يحتمل التطويل، وهو فصل من فصول الباب الذي قبله فنقتصر في ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون
في المجاهدة

[نظم: الكامل]

سبِّخ إلهك بكرةً وأصيلاً ... فالنَّغْلُ يرجع بالهدى إكليلا

جاهد هواك ولا تكنْ ذا فَتْرَةٍ ... فيه وكن للنائبات خليلا

إن المجاهد لا يزال مكابداً ... يَهْوَى الخطوبَ ويعشق التَّغْليلا

لا تركننّ إلى البطالة إنها ... تُزْدي وكن للحادثات وَصُولا

اعلموا وفقكم الله أني لما شرعت في الكلام على هذا الباب أريت مبشرة عرفت فيها أن الناس لا بدّ أن ينزل بهم أمر إلهي عارض يحتاجون فيه إلى حمل مشقة وجهد نفسي وحسّي، وقيل لي: لا تغفل في كل باب أن تدرج فيه الحروف الصغار وتبين أن بإشباعها تكون الحروف الثلاثة التي هي حروف العلة وهي حروف المد واللين وهي الحروف المركبة من علة ومعلول ويكون كلامك فيها وإشارتك إلى الأربعة الأصناف، وهم العارفون الذين لهم العوارف الإلهية الوجودية الجودية في معرفتهم، وأهل المواقف عند الحدود الإلهية لتلقي الأدب بين كل مقامين عند الانتقال في حال لا يتصفون فيه بالمقام الأول ولا بالثاني وهم أهل البرازخ، وكذلك أيضاً أهل الوصال والأنس تعين ما لهم من الدرجات في كل مقام كما تبين ما لأهل المواقف سواء حتى لا يختلط على السالك، وكذلك أيضاً المنكرة أحوالهم وهم الملامية الذين يعرفون ولا يعرفون تميّزهم من أهل عوارف المعارف وتظهر ما لهم من الكمال وهم العلماء بالله، فهؤلاء الأربعة لا بدّ من تمشية أحوالهم في كل مقام وهم: العارفون والملامية وأهل الأنس والوصال وأصحاب المواقف والقول وهم الأدباء، فإنك مأمور بالنصح لعباد الله عن أمر الله والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم. فلما فرع وارد البرزخ في الواقعة قمنا من مرقدنا وسألنا الله تعالىٰ العصمة في القول والعمل والحال، وكنت أرى معي في هذه الواقعة صاحبنا تاج الدين عباس بن عمر السراج وهو الذي كان ينبهني عن الحق تعالىٰ على الكلام في الحروف الصغار التي تتولد عنها حروف العلل الثلاثة، فلنبين أولاً ما المراد بالحروف الصغار وما مراتب أولادها وهي حروف العلل، وإن كنا قد ذكرناها في الباب الثاني من باب الحروف من هذا الكتاب فلا بدّ من ذكر طرف هنا منها لأجل الواقعة.

فصل: اعلم أن المراد بالحروف الصغار الحركات الثلاثة وهي: الضمة والفتحة والكسرة، ولهذه الحروف حالان: حال إشباع وحال غير إشباع، فإذا اتصف واحد منها بالإشباع كان علة لوجود معلول يناسبه، فإن أشبعت الضمة كان عنها الواو المعلولة، وإن كانت فتحة كان عنها الألف، وإن كانت كسرة كان عنها الياء المعلولة، وإنما قيدنا الواو والياء بالعلة لأنهما قد يوجدان في مقام الصحة غير موصوفين بالعلية والألف لا توجد أبداً إلاّ معلولة ولذلك لا يكون ما قبلها إلاّ مفتوحاً أبداً، فهذه تسمى حروف العلة أي وجدت معلولة عن هذه العلل فخرجت على صورة عللها في الحكم فأعربت بها الكلمات كما أعربت بعللها، تقول: زيد أخوك فعلامة الرفع في زيد ضمة الدال، وعن إشباع الضمة في قولك: أخوك تكون الواو علامة الرفع في أخوك، وكذلك في النصف في رأيت زيداً أخاك، وفي الخفض: مررت بزيد أخيك، وكذلك رأيت أخاك زيداً الفتحة في زيد علامة النصب، والألف في أخاك المتولدة عن فتحة الخاء علامة النصب، وكذلك مررت بأخيك زيد، فالكسرة في زيد علامة الخفض، والياء في أخيك علامة الخفض، فأعطيت الياء حكم معلوله فأعلت الكلمة هذه الحروف فلها حكم آبائها إلى الذي هو الرفع له من الأسماء العلي، والفتح له من الأسماء الرحمن ما يفتح الله للناس من رحمة، والكسر له من الأسماء المتعالي، وآثار

هذه الأسماء الإلهية في الكون معلومة كما هي في الحق متميزة بحدودها يمتاز بعضها عن بعض، وقد بيّناها في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب، وبيّنا فيه حركات البناء من حركات الإعراب، ومرتبة السكون الحيّ والميت، وإلحاق النون بحروف العلة في حكم الإعراب في الخمسة الأمثلة من الفعل وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وتفعلين، وإثباتها إعراب وحذفها إعراب بحسب العوامل الداخلة عليها.

ولما كان المعلول موصوفاً بالمرض كان ذا جهد ومشقة لما يقاسيه من ألم العلة القائمة به، إذ لا يوجد عن العلة إلاّ معلول، فلهذا جعلناه في باب المجاهدة لأن المجاهدة مشقة وتعب وبها سمّي الجهاد جهاداً، ودين الله يسر وقول الله صدق حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] ولهذا جعلنا باباً لترك الجهاد وهو الذي يلي هذا الباب وهو الباب السابع والسبعون في ترك المجاهدة لا ترك العمل لأن المجاهدة حال الأعمال في وقت والأحوال مواهب والأعمال مكاسب، ولهذا أقيم الكسب مقام العمل والعمل مقام الكسب فجاء في آية ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [سورة النحل: الآية ١١١] وفي آية ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨١] فسمّى العمل كسباً، وناب كل واحد منهما مناب صاحبه، ولهذا قلنا في الأعمال مكاسب، ومن العمال من يكون عليهم في عملهم مشقة وهي المجاهدة، ومنهم من لا يجدها فلا يكون صاحب مجاهدة، فلو اقتضى العمل المشقة لكانت صفة كل عامل.

واعلم أيدك الله أن المجاهدين هم أهل الجهد والمشقة والمكابدة وهم أربعة أصناف: مجاهدون من غير تقييد بأمر وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] والصنف الثاني: مجاهدون بتقييد في سبيل الله وهو قوله: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] والصنف الثالث: المجاهدون فيه وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت الآية ٦٩] أي نبين لهم حتى يعلموا فيمن جاهدوا فيجاهدون عند ذلك أو لا يجاهدون. والصنف الرابع: والمجاهدون ﴿فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فميزهم عن المجاهدين من غير هذا التقييد كالذين يتقون الله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] ويتلون الكتاب ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢١] فهي مرتبة رابعة في الجهاد، وهذه المجاهدة من المقامات المستصحبة للتكليف، فما دام التكليف موجوداً كانت المجاهدة قائمة العين، فإذا زال حكم التكليف زالت المجاهدة، ولهذا نفّس الله عن المكلفين بصنف المباح لما شفعت فيهم الصورة التي خلقوا عليها لأنها غير محجور عليها، فلما رأت من يشبهها قد حجر عليه سألت فيه رفع الحجر عنه فقيل لها: إلى ذلك ما له في الآخرة، فقالت: فلا بد له أن يكون له حكم في الحياة الدنيا ليكون لي بشرى بقبول الشفاعة، فإنك القائل ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] فإن هذه الصورة متنزهي وموضع نظري، فإذا رأت عليها التحجير أرى الانكسار فيها ولا نرى أثراً لعنايتي فيها مع كونها مخلوقة على صورتي ولا تحجير عليّ، فشرع الله لها في الدنيا المباح، فلا تنظر إليها الصورة الإلهية إلاّ في

وقت تصرّفها في المباح وهو أرفع أحوال النفس في الدنيا فإنه من الحياة الأخرى التي لا تحجير فيها، فإذا انتقلت من المباح إلى مكروه أو مندوب أعرضت الصورة عن المكلف قليلاً ونأت بجانبها مع بعض التفات إليها، فإذا انتقلت إلى محظور أو فعل واجب أسدلت الحجاب وأعرضت بالكلية عن ذلك المكلف، فلما رأى ذلك من كلفها وحجر عليها وهو الله تعالىٰ أوجب على نفسه ما أوجبه مثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فرفع الحجاب ونظرت الصورة إلى كل واحد في كل حال من أحوال الأحكام.

فانظر يا ولي ما ألطف الله وما أرأفه بعباده حيث شرّك نفسه معهم في حكم الوجوب، وما أسقط الوجوب عنهم بل أدخل نفسه معهم فيه، إذ قد اتصفوا به ابتداء، فلو أزاله عنهم لم يقم عندهم مقام إدخال نفسه معهم فيه أي ذقنا ما ذوّقناكم هذا، وغاية اللطف في الحكم والتنزّل الإلهيّ كما نزل معهم في العلم المستفاد، إذ كان علمهم مستفاداً فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو العليم فآنسهم وفيه حكم إيمان يعتض به من يسمع ممّن لا يعرف الله قولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات وإن كانوا قصدوا بذلك التنزيه، وهذه مسألة لا يمكن تحققها بالعقل ما لم يكن الكشف بكيفية تعلق العلم الإلهي بالمعلومات، وأنه ليس في حق الحق ماض ولا آت وإن آنه لم يزل ولا يزال لا يتصف آنه بأنه لم يكن ثم كان ولا بانقضاء بعدما كان، وربما يعطي الله هذه القوّة لمن شاء من عباده، وقد ظهر منها نفحة على محمد ﷺ علم بها علم الأوّلين والآخرين، فعلم الماضي والمستقبل في الآن، فلولا حضور المعلومات له في حضرة الآن لما وصف بالعلم بها، فهذا يعلم أن الله يعلم الجزئيات علماً صحيحاً غاب عنه من قصد التنزيه بنفيه عن جناب الحق.

ثم نرجع ونقول: إن المجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية المؤثرة في المزاج وهناً وضعفاً، كما أن الرياضة تهذيب الأخلاق النفسية بحملها على احتمال الأذى في العرض والخارج عن بدنه مّما لا حركة فيه بدنية، ثم إن هذه الحركات البدنية المحمودة شرعاً منها حركات في سبيل الله مطلقاً وهي أنواع سبيل كل برّ مشروع فمنه ما فيه مشقة فيسمى مجاهدة ومنه ما لا مشقة فيه فيرتفع عنها حكم هذا الاسم وهذا الباب مخصوص بما فيه مشقة، وبها أسميناه باب المجاهدة فنظرنا إلى أعظم المشاق فلم نجد أعظم من إتلاف المهج في سبيل الله وهو الجهاد في سبيل الله الذي وصف الله قتلاه بأنهم أحياء يرزقون، ونهى أن يقال فيهم أموات ونفي العلم عمّن يلحقهم بالأموات للمشاركة في صورة مفارقة الإحساس وعدم وجود الأنفاس، وهذا من أدل دليل على إبطال القياس لأن المعتقدين موت المجاهدين المقتولين في سبيل الله إنما اعتقدوه قياساً على المقتول في غير سبيل الله بالعلة الجامعة في كونهم رأوا كل واحد من المقتولين على صورة واحدة من عدم الأنفاس والحركات الحيوانية، وعدم الامتناع ممّا يراد من الفعل بهم من قطع الأعضاء وتمزيق الجلود وأكل سباع الطير والسباع واستحالة أجسامهم إلى الدود والبلى، فقاسوا فأخطؤوا القياس، ولا قياس أوضح من هذا، أو لا أدل في

وجود العلة منه، ومع هذا أكذبهم الله وقال لهم ما هو الأمر في المقتول في سبيلي كالمقتول في غير سبيلي ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] فقال لهم ذلك الحكم الذي حكمتم عليّ ليس بعلم، وإذا لم يكن علماً لم يكن صحيحاً، وإذا لم يصح لم يجز الحكم به مع علمنا بأخبار الله أن ذلك ليس بصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤] فنفى عنهم العلم الذي أعطاهم القياس، فإذا كان حكم هذا القياس على وضوحه وعدم الريب فيه وتوفر أسبابه وظهور علله الجامعة بينه وبين غيره من القتلى وهو باطل بأخبار الله فما ظنك بقياس الفقهاء في النوازل وقياس العقلاء بحكم الشاهد على الغائب في معرفة الله؟ هيهات صدق الله وكذب أهل القياس على الله، والله لا أشبه من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] من مثله الأشياء، فلما كان إتلاف المهج أعظم المشاق على النفوس لهذا سمّي جهاداً، فإن النفوس نفسان: نفس ترغب في الحياة الدنيا لألفتها بها فلا يريد المفارقة وتشق عليها، ونفس ترغب في الحياة الدنيا لتزيد بذلك طاعة وأفعالاً مقرّبة ومعرفة إلهية وترقياً دائماً مع الأنفاس، فشق عليها مفارقة الحياة الدنيا فلهذا سمّي جهاداً في حق الطائفتين.

فأما المجاهدون في سبيل الله وهي الطريق إلى الله أي إلى الوصول إليه من كونه إلهاً فهو جهاد لنيل معرفة المرتبة التي عنها ظهر العالم والأحكام فيه، وعنها تكون الخلائف في الأرض، فينالهم في هذه السبل من المشقة ما يناله المسافر في طريقه المخوفة، فإنه في طريق عرّض نفسه في السلوك فيه إلى إتلاف ماله ونفسه ويتم أولاده وفقد مألوفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥] وقال: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١].

ولما علم الله من العباد أنه يكبر عليه مثل هذا لدعواهم أن نفوسهم وأموالهم لهم كما أثبتها الحق لهم والله لا يقول إلاّ حقاً، فقدم شراء الأموال والنفوس منهم حتى يرفع يدهم عنها فبقي المشتري يتصرّف في سلعته كيف يشاء، والبائع وإن أحبّ سلعته فالعوض الذي أعطاه فيها وهو الثمن أحب إليه ممّا باعه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] وبعد هذا الشراء أمر أن يجاهد بها في سبيل الله ليهون ذلك عليهم، فهم يجاهدون بنفوس مستعارة أعني النفوس الحيوانية القائمة بالأجسام والأموال مستعارة فهم كمن سافر على دابة معارة ومال غيره وقد رفع عنه الحرج مالكها عندما أعاره إن نفقت الدابة وهلك المال فهو مستريح القلب، فما بقي عليه مشقة نفسية إنْ كان مؤمناً إلاّ ما يقاسي هذا المركب الحيواني من المشقة من طول الشقة وتعب الطريق، وإنْ كان في قتال العدوّ فما ينال من الكرّ والفرّ والطعن بالأرماح والرشق بالسهام والضرب بالسيوف والإنسان مجبول على الشفقة الطبيعية فهو يشفق على مركوبه من حيث إنه حيوان لا من جهة مالكه، فإن مالكه قد علم منه هذا المعير أنه يريد إتلافه فذلك محبوب له فلم يبق له عليه شفقة إلاّ الشفقة الطبيعية، فالنفوس التي اشتراها الحق في هذه الآية إنما هي النفوس الحيوانية اشتراها

من النفوس الناطقة المؤمنة، فنفوس المؤمنين الناطقة هي البائعة المالكة لهذه النفوس الحيوانية التي اشتراها الحق منها لأنها التي يحل بها القتل، وليست هذه النفوس بمحل للإيمان وإنما الموصوف بالإيمان النفوس الناطقة، ومنها اشترى الحق نفوس الأجسام فقال: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي النفوس الناطقة الموصوفة بالإيمان ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ التي هي مراكبهم الحسية وهي الخارجة للقتال بهم والجهاد، فالمؤمن لا نفس له فليس له في الشفقة عليها إلاّ الشفقة الذاتية التي في النفس الناطقة على كل حيوان.

وأما المجاهدون الذين لم يقيدهم الله بصفة معينة لا في سبيل الله ولا فيه ولا بحق جهاد فهم المجاهدون بالله الذي ليس من صفته التقييد، فجهاده في كل شيء وهو الجهاد العام، ونسبة الجهاد إليه فيه الذي هو المشقة لكونه سمّاه مجاهداً ولم يقيد فيماذا يجاهد فهو حكم القضاء والقدر في الأشياء التي يحصل منه الكره في المقضي عليه بما قضى به عليه، والحق لا يريد مساءته لما له بهذا العبد من العناية فقال في هذا المقام: ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض نسمة عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدّ له من لقائي، يقول: ولا بدّ له من الموت لما سبق به العلم فيقبضه عن مجاهدة مطلقة غير مقيدة بأذى ولا غيره، ولكن تنبيهه تعالىٰ بالتردد دليل على حكم مناسب حكم المجاهدة فإنه ما جاء به إلاّ ليقيدنا العلم بالأمر على ما هو عليه فإنه سبحانه المعلم عباده العلم وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٠] وهو الذي أعطاهم العلم من اسمه الرحمن الذي قال فيه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥].

فالمجاهدون من العباد الذين لا يتقيدون كما أطلقهم الله هم المتردّدون في الأفعال الصادرة أعيانها فيهم هل ينسبونها إلى الله؟ ففيها ما لا ينبغي أن ينسب إليه أدباً وتبرأ الحق منها كما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١] أو ينسبونها لأنفسهم، ففيها ما ينبغي أن ينسب إلى الله أدباً مع الله ونسبة حقيقية ورأوا الله يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى وأثبت عين ما نفى. ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فجعل الإثبات بين نفيين، فكان أقوى من الإثبات لما له من الإحاطة بالمثبت، ثم قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] في نفس هذه الآية، فعلمنا أن الله حيّر المؤمنين وهو ابتلاؤه بما ذكر من نفي الرمي وإثباته وجعله بلاء حسناً أي إن نفاه العبد عنه أصاب وإن أثبته له أصاب، وما بقي إلاّ أيّ الإصابتين أولى بالعبد وإن كان كله حسناً وهذا موضع الحيرة ولذلك سمّاه بلاء أي موضع اختبار، فمن أصاب الحق وهو مراد الله أي الإصابتين أو أي الحكمين أراد حكم النفي أو حكم الإثبات كان أعظم عند الله من الذي لا يصيب ذلك، فهؤلاء هم المجاهدون الذين فضلهم الله ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عن هذا النظر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥] وما عظم الله فلا يقدر قدره ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] وما جعلها درجة واحدة كما قال في المجاهدين في سبيل الله حيث جعل لهم درجة واحدة ثم زادهم ما ذكر في تمام الآية فهذان صنفان قد ذكرنا.

وأما الصنف الثالث وهم الذين ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]

فالهاء من جهاده تعود على الله أي يتصفون بالجهاد أي في حال جهاده صفة الحق كما ذكرنا في التردّد الإلهي أي لا يرون مجاهداً إلاّ الله، وذلك لأن الجهاد وقع فيه، ولا يعلم أحد كيف الجهاد في الله إلاّ الله، فإذا ردّوا ذلك إلى الله وهو قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ فنسب الجهاد إليه بإضافة الضمير فكان هو المجاهد لا هم، وإن كانوا محل ظهور الآثار فهم المجاهدون لا مجاهدون، قال الله لموسىٰ: «**يَا مُوسَىٰ اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ النِّعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي حَقَّ الشُّكْرِ**» وهذا الحديث خرجه ابن ماجه في سننه، فكل عمل أضفته إلى الله عن ذوق وكشف ومشاهدة لا عن اعتقاد وحال بل عن مقام وعلم صحيح فقد أعطيت ذلك العمل حقّه حيث رأيته ممّن هو له، فحيث ما وقع لك مثل هذا فشرحه ما شرحه بل الله على لسان رسوله فبلغه إلينا وهي طريقة موصلة إلى الله سهلة لينة قريبة المأخذ مستوية﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٧]

والصنف الرابع: هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩] الذين قلنا لهم فيها: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] يعني السبيل التي لكم فيها السعادة، وإلاّ فالسبل كلها إليه لأن الله منتهى كل سبيل فإليه يرجع الأمر كله، ولكن ما كل من رجع إليه سعد، فسبيل السعادة هي المشروعة لا غير، وإنما جميع السبل فغايتها كلها إلى الله أولاً ثم يتولاها الرحمن آخراً، ويبقى حكم الرحمن فيها إلى الأبد الذي لا نهاية لبقائه. وهذه مسألة عجيبة المكاشف لها قليل والمؤمن بها أقل.

ولما كان سبب الجهاد أفعالاً تصدر من الذين أمرنا بقتالهم وجهادهم وتلك الأفعال أفعال الله فما جاهدنا إلاّ فيه لا في العدو، وإذ لم يكن عدواً إلاّ بها، فإذا جاهدنا فيه وتبين لنا بقوله: إذا جاهدنا فيه أن يهدينا سبله أي يبين لنا سبلها فندخلها فلا نرى إذا جاهدنا غيراً فاستغفرنا الله ممّا وقع منا، وكان من السبل مشاهدة ما وقع منا أنه الموقع لا نحن، فاستغفرنا الله أي طلبنا منه أن لا نكون محلاً لظهور عمل قد وصف نفسه بالكراهة فيه، فقد ثبت أنه ما في الوجود إلاّ الله فما جاهد فيه سواه، ولولا ما هدانا سبله ما عرفنا ذلك ولذلك تمّم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩] والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا رأيته علمت أن الجهاد إنما كان منه وفيه.

فهذا قد أعربت لك عن أحوال أهل المجاهدات وهم المجاهدون، والكلام يطول في تفاصيل هذا الباب والكتاب كبير، فإن استقصينا إيراد ما يطلبه منا كل باب لا يفي العمر بكتابته، فإذاً ولا بدّ من الاقتصار، فلنقتصر على ما يجري من كل باب مجرى الأمهات لا غير، وكل أمّ مثل حوّاء مع بني آدم فإنهم بنوها كلهم، فلو أعطانا الله الكتابة الإلهية أبرزنا جميع ما يحويه هذا الكتاب على الاستيفاء في ورقة صغيرة واحدة كما خرج رسول الله ﷺ بكتابين في يده بالكتاب الإلهي الذي ليس لمخلوق فيه تعمل، وأخبر أن في الكتاب الذي في يمينه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من أول خلقهم إلى يوم القيامة، والكتاب الآخر مثله في أسماء أهل الشقاء، ولو كان ذلك بالكتاب المعهود ما وسع ورقه المدينة، فمثل ذلك لو وقع لنا

أظهرناه في اللحظة، وقد رأينا تلك الكتاب وهي كالجنة في عرض الحائط والنار وكصورة السماء في المرآة، فلنذكر ما لهذه الصفة التي هي المجاهدة من المقامات التي هي مراتبها ومنازلها الذين ينزلها أهلها وهم الملامية وهم قسمان: أهل أدب بوقوف عند حدّ، وأهل أنس ووصال، وكذلك ما للعارفين من هذا الباب وهم قسمان: أهل أدب ووقوف عند حدّ، وأهل أنس ووصال وهذا سار في كل مقام، فالذي للملامية منه من الصنف الذي له أدب الوقوف عند الحدود فثلاث وخمسون درجة، وإنما عدلنا إلى ذكر الدرجات لما سمعنا الله يقول بالدرجات في فضلهم فاتبعنا ما قال الله فهو أولى بنا، والتي للملامية أهل الأنس والوصال من الدرجات في هذا الباب أربعمائة درجة وثلاث وخمسون، وأما درجات العارفين أهل الأنس والوصال فلهم أربعمائة درجة وأربع وثمانون درجة، وأما الذي لأهل الأدب والوقوف عند الحدود من العارفين فتسع وثمانون درجة تسعون إلاً واحدة بينه وبين درجات الأسماء الإلهية عشرة.

الباب السابع والسبعون

في ترك المجاهدة

[نظم: الخفيف]

لا تـجـاهِـدْ فـإنَّ عـيـنَ الـمُـنـازعْ ... هـو عـيـنُ الـذي تـجـاهِـدُ فـيـهِ

وإذا كـان واحـداً مـن تـنـاوي ... أيُّ عـقـلٍ يـرضـاه أو يـصـطـفـيـهِ

هـل لـعـيـنِ الـشـريـك عـيـنُ وجـودِ ... فـتـراه بـالـعـلـم أو تـنـفـيـهِ

كيف يُنْفَى من كان في الأصل نفياً ... وهـو نـفـيٌ والـنـفـيُ يَـسْـتَـوْفـيـهِ

لما اطلع المجاهد فيه وفي سبيله وفي الله وفي سبيل الله على السبل التي هداه الله إليها فبانت عنده فرأى أنه ما جاهد غير الله فاستحيى لأجل هذا المشهد فترك الجهاد لاقتضاء الموطن وهو المجاهد تعالىٰ وما هو ممّن يتصف بالمشقة فإنه يقول فيما هو أعظم من هذا: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٧] وليس هذا الهين عن صعوبة في الابتداء، ولهذا القول بالمفهوم ضعيف في الدلالة لأنه لا يكون حقاً في كل موضع ونسب ذلك إلى الله كما شاهده كما ترك رسول الله ﷺ تعظيم عزّة الله إذا اتصف بها أحد من عباد الله مثل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ١ ـ ٢] فإنه ﷺ كان يحب الفأل الحسن، وبعثه بدعوة الحق وإظهار الآيات إنما يظهرها لمن يتصف بأنه يرى، فلما جاءه الأعمى قام له حقيقة من بعث إليهم وهم أهل الأبصار فأعرض وتولى لأنه ما بعث لمثل هذا، فهذا كان نظره ﷺ وما عتبه سبحانه فيما علمه وإنما عتبه جبراً لقلب ابن أم مكتوم وأمثاله لأنهم غائبون عن الذي يشهده ﷺ وأمره أن يحبس نفسه معهم فقال له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] وكان خباب بن الأرت وبلال وغيرهم من الأعبد والفقراء لما تكبر كبراء قريش وأهل الجاهلية عن أن يجمعهم عند رسول الله ﷺ مجلس واحد وأجابهم إلى

ذلك رسول الله ﷺ فيقول لسان الظاهر: إن النبيّ ﷺ كان يفعل لهم ذلك ليتألفهم على الإسلام لأن واحداً منهم كان إذا أسلم أسلم لإسلامه بشر كثير لكونه مطاعاً في قومه، ويترجم عن هذا المقام لسان الحقيقة أن النبيّ ﷺ لم يشاهد سوى الحق، فأينما يرى الصفة التي لا تنبغي إلاّ لله عظمها ولم يشاهد معها سواها وقام لها ووفاها حقها مثل العزّة والكبرياء والغنى فقال له ربه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٥] فنبهه ببنية الاستغفال﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٦] وقد علم أنه لمن تصدّى محمد ﷺ يقول له: وإن كنت تعظم صفتي حيث تراها الغلبة شهودك إياي فقد أمرتك أن لا تشاهدها مقيدة في المحدثين وهو قوله عليه السلام: «**إِنّ اللّهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» وهذا من ذلك التأديب.

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء الأعبد يقول: مرحباً بمن عاتبني فيهم ربي، فكلما جلسوا عنده جلس لجلوسهم لا يمكن لهم أن يقوم ولا ينصرف حتى يكونوا هم الذين ينصرفون، فإن الله قال له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] ولما علموا ذلك منه وأنه عليه السلام قد تعرض له أمور يحتاج إلى التصرّف فيها فكانوا يخففون فلا يلبثون عنده إلاّ قليلاً وينصرفون حتى ينصرف النبيّ ﷺ لأشغاله، فترك ﷺ ذلك الأمر الذي كان له فيه مشهد صحيح إلهيّ مراعاة لحفظ القلوب المنكسرة، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم غيباً يثبته الإيمان وينفيه العيان، وهو عند المتكبرين عيناً يثبته العيان وينفيه الإيمان، فنقل الله نبيه ﷺ من العيان إلى الإيمان وأخبره أن تجليه تعالىٰ في أعيان الأعزاء المتكبرين من زينة الحياة الدنيا فهي زينة الله للحياة الدينا لا لنا، والذي لنا زينة الله من غير تقييد بالحياة الدنيا، وما يلزم من كونه زيناً لزيد أن يكون زيناً لعمرو، فمن الناس من لا شهود له إلاّ زينة الله، ومن الناس من لا شهود له إلاّ زينة الحياة الدنيا من حيث ما هي زينة الله لها لا لنا فيشهدها لها وإن لم تكن لنا زينة، ومن الناس من يشهد زينة الشيطان في عمله وأعمال الخلق في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٣٨] فهم الذين أضلهم الله على علم فيشهدها أهل الله زينة الله للشيطان لأنه عمله. ومن الناس من يشهد من زيّن له عمله ولا يدري من زيّنه هل متعلق تلك الزينة الذمّ أو الحمد وهو موضع الشبهة، كمن يرى رجلاً يحب أن يكون نعله حسناً وثوبه حسناً فلا يدري أهو ممّن يحب زينة الحياة الدنيا أو هو ممّن يتجمل لله في قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] وقد قال عليه السلام للرجل الذي قال له: إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً «**إِنَّ اللّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» فوقع لهذا الرجل الاشتباه فلا يدري لمن ينسب تلك الزينة، كمن يسمع شخصاً يقول: الحمد لله رب العالين فلا يدري هل هو تال أو هو ذاكر من غير قصد تلاوة القرآن، لأن اللفظ واحد وهو المشهود والقصد غيب، والأولى أن تحسن الظنّ بمن يتجمل فإنك مندوب إليه، وسوء الظنّ أنت مأمور باجتنابه في حق المسلمين، ولهذا فسّر النبيّ ﷺ كلامه للرجلين في اعتكافه حين انقلب يشيع صفية: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ الشَّيطَانُ**» فما أساء الظنّ إلاّ بأهله وهو الشيطان، فينبغي لك إذا سمعت من يقول كلمة هي في القرآن كما قلنا فيمن سمع من يقول:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] أن تسمعها تلاوة قرآنية وإن لم يقصدها قائلها فإنك تؤجر أجر من سمع القرآن ولا بدّ، وهذا مشهد عزيز قلّ أن ترى له ذائقاً وهو قريب سهل لا كلفة فيه.

وأمّا قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فمن قوله ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عرفت من زينه وإن لم يذكره، ومع هذا فالاحتمال لا يرتفع عنه فإن الله يقول في مثل هذا: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] فجاء بنون الكناية عن نفسه ونسب الحيرة إليهم بهذا التزيين، فمثل هذا إذا لم يبين الله له في كشفه لمن هو هذا التزيين يقبله على مراد الله فيه من غير تعيين فيكون جزاؤه على الله من غير تعيين عندنا، وإن كان معيناً عند الله فإنه عند الله أيضاً لا معين فإنا لم نعينه فهو يعلمه معيناً لا معيناً بنسبتين مختلفتين فافهم ذلك. انتهى الجزء الثاني والتسعون.

(الجزء الثالث والتسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثامن والسبعون

في معرفة الخلوة

[نظم: الطويل]

خلوتُ بمن أهوَى فلم يكُ غيرُنا ... ولو كان غيري لم يَصُحَّ وجودُهَا

فإذا أحكمتْ نفسي شروطَ انفرادها ... فإن نفوسَ الخلق طرّاً عبيدُهَا

ولو لم يكن في نفسها غيرُ نفسها ... لجادتْ بها جُوداً على من يُجيدُهَا

اعلم وفقنا الله وإياكم أن الخلوة أصلها في الشرع: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُ**» فهذا حديث إلهيّ صحيح يتضمن الخلوة والجلوة، وأصل الخلوة من الخلاء الذي وجد فيه العالم: [الرجز]

فمن خلا ولم يَجِدْ فما خلا ... فهي طريقٌ حكمُها حكمُ البَلاَ

وقال رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**». وسُئِل رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء» ثم خلق الخلق وقضى القضية وفرغ من أشياء وهو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وسيفرغ من أشياء ثم يعمر المنازل بأهلها إلى الأبد.

الخلوة أعلى المقامات وهو المنزل الذي يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه فيه غيره، فتلك الخلوة ونسبتها إليه، ونسبته إليها نسبة الحق إلى قلب العبد الذي وسعه ولا يدخله، وفيه غير بوجه من الوجوه الكونية فيكون خالياً من الأكوان كلها فيظهر فيه بذاته، ونسبة القلب إلى الحق أن يكون على صورته فلا يسع فيه سواه، وأصل الخلوة في العالم الخلاء الذي ملأه العالم، فأوّل شيء ملأه الهباء وهو جوهر مظلم ملأ الخلاء

بذاته ثم تجلّى له الحق باسمه النور فانصبغ به ذلك الجوهر وزال عنه حكم الظلمة وهو العدم فاتصف بالوجود فظهر لنفسه بذلك النور المنصبغ به وكان ظهوره به على صورة الإنسان، وبهذا يسميه أهل الله الإنسان الكبير، وتسمّى مختصره الإنسان الصغير لأنه موجود أودع الله فيه حقائق العالم الكبير كلها، فخرج على صورة العالم مع صغر جرمه، والعالم على صورة الحق، فالإنسان على صورة الحق وهو قوله: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**».

ولما كان الأمر على ما قرّرناه لذلك قال تعالىٰ ﴿**لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] لكن يعلم القليل من الناس، فالإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير، ثم انفتحت في العالم صور الأشكال من الأفلاك والعناصر والمولدات فكان الإنسان آخر مولد في العالم أوجده الله جامعاً لحقائق العالم كله وجعله خليفة فيه فأعطاه قوّة كل صورة موجودة في العالم، فذلك الجوهر الهبائيّ المنصبغ بالنور وهو البسيط، وظهور صور العالم فيه هو الوسيط، والإنسان الكامل هو الوجيز، قال تعالىٰ: ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ليعلموا أن الإنسان عالم وجيز من العالم يحوي على الآيات التي في العالم فأوّل ما يكشف لصاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه لأن العالم قبله كما قال تعالىٰ: ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ**﴾ ثم بعد هذا يريه الآيات التي أبصرها في العالم في نفسه، فلو رآها أولاً في نفسه ثم رآها في العالم ربما تحيل أن نفسه رأى في العالم فرفع الله عنه هذا الإشكال بأن قدّم له رؤية الآيات في العالم كالذي وقع في الوجود فإنه أقدم من الإنسان، وكيف لا يكون أقدم وهو أبوه؟ فأبانت له رؤية تلك الآيات التي في الآفاق وفي نفسه أنه الحق لا غيره وتبين له ذلك، فالآيات هي الدلالات له على أنه الحق الظاهر في مظاهر أعيان العالم، فلا يطلب على أمر آخر صاحب هذه الخلوة، فإنه ما ثم جملة واحدة، ولهذا تمّم تعالىٰ في التعريف فقال: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ من أعيان العالم ﴿**شَهِيدٌ**﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] على التجلي فيه والظهور، وليس في قوّة العالم أن يدفع عن نفسه هذا الظاهر فيه ولا أن لا يكون مظهراً وهو المعبر عنه بالإمكان، فلو لم يكن حقيقة العالم الإمكان لما قبل النور وهو ظهور الحق فيه الذي تبين له بالآيات، ثم تمّم وقال: ﴿**إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ**﴾من العالم ﴿**مُّحِيطٌۢ**﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] والإحاطة بالشيء تستر ذلك الشيء فيكون الظاهر المحيط لا ذلك الشيء، فإن الإحاطة به تمنع من ظهوره فصار ذلك الشيء وهو العالم في المحيط كالروح للجسم، والمحيط كالجسم للروح الواحد شهادة وهو المحيط الظاهر والآخر غيب وهو المستور بهذه الإحاطة وهو عين العالم.

ولما كان الحكم للموصوف بالغيب في الظاهر الذي هو الشهادة وكانت أعيان شيئيات العالم على استعدادات في أنفسها حكمت على الظاهر فيها بما تعطيه حقائقها

فظهرت صورها في المحيط وهو الحق، فقيل: عرش وكرسيّ وأفلاك وأملاك وعناصر ومولدات وأحوال تعرض وما ثم إلاَّ الله، فالحق من كونه محيطاً، كبيت الخلوة لصاحب الخلوة فيطلب صاحب الخلوة فلا يوجد فإن البيت يحجبه فلا يعرف منه إلاَّ مكانه ومكانه يدل على مكانته، فقد أعطيتك مرتبة الخلوة التي نريد في هذا الكتاب لا الخلوة المعهودة عند أصحاب الخلوات ودرجاتها ألف وسبع وستون درجة فظهر في الدرجات صورة الوترية، وإذا لم يعمر الخلاء إلاَّ العالم فهو في خلوة بنفسه هذا أصله، ثم إنه لما انصبغ بالنور كان في خلوة بربه، وبقي في تلك الخلوة إلى الأبد لا يتقيد بالزمان لا بأر بعين يوماً ولا بغير ذلك، فالعارف إذا عرف ما ذكرناه عرف أنه في خلوة بربه لا بنفسه ومع ربه لا مع نفسه، فيرى من حيث أثره في المحيط به بالصور التي ظهر بها المحيط نفسه بنفسه، ومن حيث تعدد أعيانه رأى منه به وكانت كل عين مغايرة لصاحبتها، ولذلك اختلفت صور العالم وإن كان واحداً كما اختلفت صورة الإنسان في نفسه، وإن كان الإنسان واحداً فيده ما هي رجله، ورأسه ما هو صدره، وعينه ما هو أذنه ولا لسانه ولا فرجه، وعقله ما هو فكره ولا خياله، فهو متنوع متعدّد العين بالصور المحسوسة والمعنوية، ومع هذا يقال فيه أنه واحد ويصدق ويقال فيه كثير ويصدق.

فمن حيث أحديته نقول: رأى نفسه بنفسه، ومن حيث كثرته نقول: رأى بعضه ببعضه، فتكلم بلسانه، وبطش بيده، وسعى برجله، واستنشق بأنفه، وسمع بأذنه، ونظر بعينه، وتخيّل بخياله، وعقل بعقله، فهذا كثير وما ثم إلاَّ هو، فمن حصل له هذا العلم كما قرّرناه كان صاحب خلوة، ومن حرمه فليس بصاحب خلوة، فقد تبين لك أنّ الحق بالعالم والعالم بالحق، فهويته عين المجموع، كما أنّ المجموع هو الإنسان بغيبه وشهادته ونطقه وحيوانيته فهو واحد في الكثرة وكثير في الأحدية، فالخلوة من المقامات المستصحبة دنيا وآخرة إلى الأبد من حصلت له لا تزول فإنه لا أثر بعد عين. وأما الخلوة المعروفة المعهودة فليست مقاماً ولا تصح إلاَّ لمحجوب. وأما أهل الكشف فلا تصح لهم خلوة أبداً فإنهم يشاهدون الأرواح العلوية والأرواح النارية ويرون الكائنات ناطقة أكوان ذاته وأكوان بيت خلوته فهو في ملأ كما هو في نفس الأمر، فإذا أخذ الله عن بصره هذه المدركات وفصل بين الحيوان والجماد والملائكة وعالم الصمت من عالم الكلام وعالم السكون من عالم الحركات ويجب أن يخلو بربه حتى لا يشغله عنه نطق كون ولا حركة كون، فمنهم من يطلب الخلوة لمزيد علم بالله من الله لا من نظره وفكره وهذا أتم المقاصد فإنه مأمور بذلك، والعمل على الأمر الإلهي هو غاية كمال العمل والله يقول له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فمن تحدّث في خلوته في نفسه مع كون من الأكوان فما هو في خلوة.

قال بعضهم لصاحب خلوة: اذكرني عند ربك في خلوتك، فقال له: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة. ومن هنا تعرف قوله تعالىٰ: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرنِي» فإنه لا يذكره حتى يحضر

المذكور في نفسه إن كان المذكور ذا صورة في اعتقاده أحضره في خياله، وإن كان من غير عالم الصور أو لا صورة له أحضرته القوّة الذاكرة، فإن القوّة الذاكرة من الإنسان تضبط المعاني، والقوّة المتخيلة تضبط المثل التي أعطتها الحواس أو ما تركبه القوّة المصوّرة من الأشكال الغريبة التي استفادت جزئياتها من الحس لا بدّ من ذلك ليس لها تصرّف إلاّ به، فمن شرط الخلوة في هذا الطريق الذكر النفسي لا الذكر اللفظيّ، فأوّل خلوته الذكر الخياليّ وهو تصوّر لفظة الذكر من كونه مركباً من حروف رقمية ولفظية يمسكها الخيال سمعاً أو رؤية فيذكر بها من غير أن يرتقي إلى الذكر المعنويّ الذي لا صورة له وهو ذكر القلب، ومن الذكر القلبيّ ينقدح له المطلوب والزيادة من العلوم، وبذلك العلم الذي انقدح له يعرف ما المراد بصور المثل إذا أقيمت له، وأنشأها الحسّ في خياله في نوم ويقظة وغيبة وفناء، فيعلم ما رأى وهو علم التعبير للرؤيا.

ومنهم من يأخذ الخلوة لصفاء الفكر ليكون صحيح النظر فيما يطلبه من العلم، وهذا لا يكون إلاّ للذين يأخذون العلم من أفكارهم، فهم يتخذون الخلوات لتصحيح ما يطلبونه إذا ظهر لهم بالموازين المنطقية وهو ميزان لطيف أدنى هواء يحرّكه فيخرجه عن الاستقامة فيتخذون الخلوات ويسدون مجاري الأهواء لئلا تؤثر في الميزان حركة تفسد عليهم صحة المطلوب، ومثل هذه الخلوة لا يدخلها أهل الله وإنما لهم الخلوة بالذكر ليس للفكر عليهم سلطان ولا له فيهم أثر، وأيّ صاحب خلوة استنكحه الفكر في خلوته فليخرج ويعلم أنه لا يراد لها وأنه ليس من أهل العلم الإلهيّ الصحيح، إذ لو أراده الله لعلم الفيض الإلهي لحال بينه وبين الفكر.

ومنهم من يأخذ الخلوة لما غلب عليه من وحشة الأنس بالخلق فيجد انقباضاً في نفسه برؤية الخلق حتى أهل بيته، حتى أنه ليجد وحشة الحركة فيطلب السكون فيؤدّيه ذلك إلى اتخاذ الخلوة. ومنهم من يتخذ الخلوة لاستحلاء ما يجد فيها من الالتذاذ، وهذه كلها أمور معلومة لا تعطي مقاماً ولا رتبة، وصاحب الخلوة لا ينتظر وارداً ولا صورة وشهوداً، وإنما يطلب علماً بربه فوقتاً يعطيه ذلك في غير مادّة، ووقتاً يعطيه ذلك في مادة، ويعطيه العلم بمدلول تلك المادّة الخلوة لها الدعوى وصاحبها مسؤول لها الحجاب الأقرب هي نسبة ما هي مقام، أعني الخلوة المعهودة عند القوم لا الخلوة التي هي مقام التي ذكرناها في أول الباب، وهذه وإن لم تكن مقاماً فإنها تحصل لصاحبها بالذكر مقامات لها إحاطة بالملك والملكوت والجبروت عند العارفين والملامية من الأدباء أرباب المواقف، وأما أهل الوصال والأنس من العارفين والملامية فلا يرون لها في الملكوت دخولاً وأنها مخصوصة بعالم الجبروت والملك لا غير إلاّ أنها لها قرب من الملكوت ما بينها وبينه إلاّ درجتان، فالأدباء الواقفون من الملامية يرون لها ستمائة درجة وإحدى وأربعون درجة، والعارفون من أهل الأنس يرون لها ألف درجة وسبعاً وستين درجة، والأدباء من العارفين الواقفين يرون لها ستمائة درجة وسبعاً وستين درجة، والملامية من أهل الأنس والوصال يرون لها ألف درجة وستة وثلاثين درجة.

الباب التاسع والسبعون

في ترك الخلوة وهو المعبر عنه بالجلوة

[نظم: البسيط]

إذا لم يـر الإنسـانُ غـيـر إلـهـه ... لـدى كـل عـيـنٍ فـالـخـلاءُ مُـحَـالُ

فإن كنتَ هذا كنتَ صاحبَ خلوةٍ ... ولله فـيـه فَـيْـصَـلٌ ومَـقَـالُ

اعلم أيّدنا الله وإياكم أن الكشف يمنع من الخلوة وإن كان فيها فإن الحجاب لها، فإذا كوشف علم أنه لم يكن في خلوة، فاتخاذ الخلوة المعهودة دليل على جهل متخذها فإنه عند الكشف يعرف جهله، فكل من جهل أنه جهل فهو صاحب جهلين، ومن عرف أنه جهل فهو ذو جهل واحد، والذين علموا أن الظاهر من كونه ظاهراً في أعيان العالم وما ثم سواه فهو في خلوة في نفسه إذا لم ينظر إلى من ظهر فيه فأورثه الملأ والجلوة فلا تصحّ له الخلوة من هذا الوجه، فمن الناس من يرجح صاحب الخلوة، ومن الناس من يرجح نقيضه وهو صاحب الجلوة، فالاسم الأول والباطن يطلبان الخلوة، والاسم الآخر والظاهر يطلبان تركها وهي الجلوة، وأنت لأيّ اسم غلب عليك ولا مفاضلة في الأسماء من وجه، ومآل الخلق إلى القلوب من المآل وهو الملأ، فالخلوة دنيوية، والجلوة أخروية والآخر خير.

الباب الموفي ثمانين

في العزلة

[نظم: البسيط]

إذا اعـتـزلـتَ فـلا تـركَـنْ إلـى أحـدِ ... ولا تـعـرّجْ عـلـى أهـلٍ ولا ولَـدِ

ولا تـوالـي إذا والـيـتَ مـنـزلـةً ... وغِبْ عن الشرك والتوحيد بالأحَدِ

وانـزِعْ إلـى طـلـب الـعـلـيـاءِ مـنـفـرداً ... بـغـيـر فـكـرٍ ولا نـفـسٍ ولا جَـسَـدِ

وسـابـقِ الـهـمَّـةَ الـعـلـيـاءَ تَـحْـظَ بـمـن ... سـمـا بـأسـمـائـه الـحـسـنـى بـلا عَـدَدِ

واعـلـمْ بـأنـك مـحـبـوسٌ ومُـكْـتَـنَـفٌ ... بـالـنـور حـبـسـاً جـلـيـاً لا إلـى أمَـدِ

لا يعتزل إلاّ من عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه، فليس له مشهود إلاّ الله من حيث أسماؤه الحسنى وتخلقه بها ظاهراً وباطناً، وأسماؤه الحسنى سبحانه على قسمين: أسماء يقبلها العقل ويستقل بإدراكها وينسبها ويسمّى بها الله تعالىٰ، وأسماء أيضاً إلهية لولا ورود الشرع بها ما قبلها فيقبلها إيماناً ولا يعقلها من حيث ذاته إلاّ إن أعلمه الحق بحقيقة نسبة تلك الأسماء إليه كما علمها أنبياءه واولياءه، فصاحب العزلة هو الذي يعتزل بما هو له من غير تخلق بما ينفرد به في زعم العقل من الأسماء الإلهية المشروعة التي لولا الشرع ما سمّى العقل الله بها فهي للحق وقد جبل الإنسان عليها وخلقه مجلالها فهو المسمّى بها، ولا يتمكن له الاعتزال عن مثل هذه الأسماء الإلهية، وبقي القسم الآخر من الأسماء الإلهية يعتزل عنها لما

يطرأ عليه منها من الضرر كما قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فيعتزل عن مثل هذه الأسماء الإلهية لما فيها من الذمّ لمن تسمّى بها وظهر بحكمها في العالم، فالإنسان حقيقته أن يكون عائلاً والعائل لا يكون متكبراً فإنه ظهر بما ليس هو له بنعت ولذلك لا ينظر الله إليه وهو واحد من الثلاثة، الشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر. ذكره مسلم في صحيحه.

فمن رأى التخلق بالأسماء الحسنى ومزاحمة الحق فيها لكونه خلق على الصورة فلا بدّ أن يظهر بها ويتلبس على الحدّ المشروع المحمود فهذه مزاحمة عبودية ربوبية، وذلك لما رأى أن له أسماء هي له حقيقة ينفرد بها، ورأى أن الحق زاحمه فيها كالضحك والفرح والتعجب والمحب والمتردّد والكاره والناسي والاستحياء وما أشبه ذلك ممّا ورد ذكره في الكتاب والسنّة، إلى ما يداخل النشأة من يد ويدين وأيد ورجل وعين وأعين، إلى ما يداخل النشأة من الأحوال من استواء ومعية ونزول وطلب وشوّق وأمثال ذلك، ورأى هذا المعتزل قبل اعتزاله أنّ الحق قد زاحمه في هذه النعوت التي ينبغي أن تكون للعبد كما هي في نفس الأمر عنده قال: الأليق بي أن أعتزل بأسمائي عن أسمائه ولا أزاحمه فيها تكون عارية عندي إذ كانت العارية أمانة مؤدّاة، وحامل الأمانة موصوف بالتعريف الإلهيّ بالظلم والجهل، فاعتزل صاحب هذا النظر التخلق بالأسماء الحسنى وانفرد بفقره وذلّه وصغاره وعجزه وقصوره وجهله في بيته، كلما قرع عليه الباب اسم الإلهيّ قيل له: ما هنا من يكلمك، فإذا انقدح له بهذا الاعتزال أنّ الله له نفي الأولية وأنه أزليّ الوجود ونظر في كلامه سبحانه وفيما أمر نبيه ﷺ أن يوصله إلينا من صفاته وأسمائه لنعرفه بذلك ويخلع علينا بهذا التعريف خلع العلم تشريفاً لنا فأعلمنا أنّ هذه الصفات التي زعمنا أنا نستحقها وأنها لنا حقيقة أنّ الأمر على خلاف ذلك إذ قد اتصف هو بها وتسمى بها ونحن ما كنا، فلا فرق بين هذه الأسماء والتي اعتزلنا عنها، فإمّا أن نعتزل عن الجميع، وإما أن نتسمى بالجميع، فقلنا له: اعتزل عن الجميع واترك الحق إن شاء سمّاك بالأسماء كلها فاقبلها ولا تعترض، وإن شاء سماك ببعضها، وإن شاء لم يسمك ولا بواحد منها ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] فرجع العبد إلى خصوصيته وهي العبودة التي لم تزاحم الربوبية فتحلى بها وقعد في بيت شيئية ثبوته لا بشيئية وجوده ينظر تصريف الحق فيه وهو معتزل عن التدبير في ذلك، فإن تسمى من هذه حالته بأيّ اسم كان فالله مسميه ما هو تسمى وليس له ردّ ما سماه به فتلك الأسماء هي خلع الحق على عباده وهي خلع تشريف فمن الأدب قبولها لأنها جاءته من غير سؤال ولا استشراف، وقد أمره رسول الله ﷺ بأخذ مثل هذا العطاء وترك ما استشرفت النفس إلى أخذه وتمنّى ذلك بالاستطلاع إليه ووقف عند ذلك على أنه كان غاصباً لله فيما كان يزعم أنه له فإذا هو لله وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فأخذ منه جميع ما كان يزعم أنه له إلاّ العبادة فإنه لا يأخذها إذ كانت ليست بصفة له فقال له تعالىٰ

لما قال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ إليّ ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهو أصله الذي خلق له ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فالعبادة اسم حقيقيّ للعبد، فهي ذاته وموطنه وحاله وعينه ونفسه وحقيقته ووجهه.

فمن اعتزل هذه العزلة فهي عزلة العلماء بالله لا هجران الخلائق ولا غلق الأبواب وملازمة البيوت وهي العزلة التي عند الناس أن يلزم الإنسان بيته ولا يعاشر ولا يخالط ويطلب السلامة ما استطاع بعزلته ليسلم من الناس ويسلم الناس منه، فهذا طلب عامّة أهل الطريق بالعزلة، ثم إن ارتقى إلى طور أعلى من هذا فيجعل عزلته رياضة وتقدمة بين يدي خلوته لتألف النفس قطع المألوفات من الإنس بالخلق، فإنه يرى الإنس بالخلق من العلائق والعوائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الأنس بالله والانفراد به، فإذا انتقل من العزلة بعد أحكامه شرائطها سهل عليه أمر الخلوة هذا سبب العزلة عند خاصة أهل الله، فهذه العزلة نسبة لا مقام، والعزلة الأولى التي ذكرناها مقام مطلوب، ولهذا جعلناها في المقامات من هذا الكتاب، وإذا كانت مقاماً فهي من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة، فللعارفين من أهل الأنس والوصال في العزلة من الدرجات خمسمائة درجة وثمان وثلاثون درجة، وللعارفين الأدباء الواقفين مائة وثلاث وأربعون درجة، وللملامية فيها من أهل الأنس خمسمائة درجة وسبع درجات، وللملامية من أهل الأدب الواقفين معهم مائة واثنتي عشرة درجة، والعزلة المعهودة في عموم أهل الله من المقامات المقيدة بشرط لا تكون إلاّ به وهي نسبة في التحقيق لا مقام إلاّ أنها تحصل عنها فوائد أقلها العصمة لها الدعوى صاحبها مسؤول وعلتها سوء الظنّ بنفسك أو بمن اعتزلت عنهم، وهذا كله في عزلة العموم وهي من عالم الجبروت والملكوت ما لها قدم في عالم الشهادة فلا تتعلق معارفها بشيء من عالم الملك.

الباب الحادي والثمانون

في ترك العزلة

[نظم: الكامل]

لا تفرحنّ بالاعتزال فإنه	جهلٌ وأين الله والأرواحُ
نورُ الإله أجلُّ منك نَفَاسَةً	ومع الجلال جليسُه المصبَاحُ
لم يعتزلْ عن نور كونٍ حادثٍ	وإلى التعلُّق ذاته تَرْتَاحُ
لو أنّ نورَ الحق معتزلٌ لما	ظهر الوجودُ ودَامَتِ الأفراحُ
بالنور من فَلَكِ البهاء إذا بدا	للناظرين أضاءت الأشْبَاحُ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن مثير العزلة إنما هو خوف القواطع عن الوصلة بالجناب الإلهيّ أو رجاء الوصلة بالعزلة به لما كان في حجاب نفسه وظلمة كونه وحقيقة ذاته يبعثها على طلب الوصلة ما هي عليه من الصورة الإلهية، كما يطلب الرحم الوصلة بالرحمن لما كانت شجنة منه، ثم إن العبد رأى ارتباط الكون بالله ارتباطاً لا يمكن الانفكاك عنه لأنه

وصف ذاتيّ له وتجلّي له في هذه الارتباط وعرف من هذا التجلي وجوبه به وأنه لا تثبت لمطلوبه هذه الرتبة إلاً به، وأنه سرّها الذي لو بطل لبطلت الربوبية، ورآه في كل شيء مثل ما هو عنده، ونسبة كل شيء إليه كنسبته هو إليه فلم يتمكن له الاعتزال فتأدّب مع قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] أي صفة نوره صفة المصباح ولم يقل صفة الشمس فإن الإمداد في نور الشمس يخفى بخلاف المصباح فإن الزيت والدهن يمده لبقاء الإضاءة فهو باق بإمداد دهني من شجرة نسبة الجهات إليها نسبة واحدة منزّهة عن الاختصاص بحكم جهة وهو قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وهذا الإمداد من نور السبحات الظاهرة من وراء سبحات العزة والكبرياء والجلال فما ينفذ من نور سبحات هذه الحجب هو ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ومثله كمثل المصباح والنور الذي في الدهن معلوم غير مشهود، وضوء المصباح من أثره يدل عليه وعلى الحقيقة ما هو نور وإنما هو سبب لبقاء النور واستمراره، فالنور العلمي منفر ظلمة الجهل من النفس، فإذا أضاءت ذات النفس أبصرت ارتباطها بربها في كونها وفي كون كل كون فلم تر عمّن تعتزل، وجعل هذا النور في مشكاة وزجاجة مخافة الهواء أن يجيره ويشتدّ عليه فيطفئه فكان مشكاته وزجاجته نشأته الظاهرة والباطنة فإنهما من حيث هما عاصمان، فإنهما من الذين يسبحون بحمد الله الليل والنهار لا يفترون، وهما اللذان يشهدان على النفس المدبرة إذا أنكرت بين يدي الله فهما أهل عدالة، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٠] وهما من النشأة الباطنية ﴿وَجُلُودُهُم﴾ وهي من النشأة الظاهرة، فما من شخص يروم مخالفة حق إلاً ونشأتاه تقولان له: لا تفعل أيها الملك ولا تحوجنا أن نكون سبباً في إهلاكك، فإنّ الله إن استشهدنا شهدنا، ألا ترى الرسول ﷺ لما بلغ وأنذر ووعد وأوعد قال لقومه: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ وَأَدَّيْتَ، فَقَالَ: اللَّهُمَ اشْهَدْ**».

وقد سأل هود قومه مع شركهم فقال: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٥٤] فاستشهدهم لعلمه أنهم لا بدّ أن يسألهم، ونحن رعيتك ولا حركة لنا إلاً بك فلا تحرّكنا إلاً في أمر يكون لك لا عليك، والمحجوب غافل عن هذا غير سامع لصمم قام به من شدّة الهواء الذي أصمه، فالله يجعلنا ممّن سمع نطق جوارحه بالموعظة قبل سماعه إياها بالشهادة إنه وليّ جواد كريم ذو الفضل العظيم.

الباب الثاني والثمانون

في الفرار

[نظم: مخلع البسيط]

جـزاءُ مـن فـرَّ أن يـنـبّـا ... فـرار مـوسـىٰ لـمـا تـأبّـا

مـن فـرّ مـنـه بـه إلـيـه ... صـيَّـر مـحـبـوبَـه مُـحِـبًّـا

وكـان وتـراً فـصـار شـفـعـاً وكـان عـيـنـاً فـصـار قَـلْـبَـا
أظـهـرنـي فـي الـوجـود تـاجـاً فـعـدْتُ فـي سـاعـديـه قَـلْـبَـا
أعـطـانـي كُـنْ ثـم قـال عـبـدي فـقـال كـن بـي تـكـون ربَّـا

الضمير في ساعديه يعود على الوجود، قال الله تعالىٰ حكاية عن موسىٰ عليه السلام أنه قال لفرعون وآله ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] ثم قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٢] فقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٨] فتلك النعمة تربية فرعون، والمنّ يبطل الإنعام لأنه استعجال جزاء، فلو لم يقل لنفعه ذلك عند الله إذ كان من شأن فرعون إذلال بني إسرائيل وموسىٰ منهم، وكان قد أعزه وتبناه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والفرار أنتج لموسىٰ الرسالة والحكم، فكان خليفة رسولاً، لأن الرسول لا يكون حاكماً حتى يكون خليفة، ثم قال لنا ربّنا لما قضاه من أن جعلنا ورثة النبيين والمرسلين في نبوّتهم ورسالتهم ما أعطانا الله من حفظ دينه والفتيا فيه والاجتهاد في استنباط الحكم فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] فجاء بالاسم الجامع، والمراد منه اسم خاص يقتضي لنا ما اقتضى لموسىٰ عليه السلام في فراره وهو الاسم الوهاب الذي يعطي لينعم خاصة، وذلك الوهب يجعله رسولاً ضرورة لأن الحكم في غير محكوم عليه لا يصحّ.

وقال فيمن تربص في أهله ولم يفرّ إليه ما ذكره في كتابه وهو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] والتربص نقيض الفرار ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] وقد ذكرنا هذا الفرار الموسويّ في كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، وسميت هذا الفرار الموسويّ سفر الطلب فلنحقق هنا معنى الفرار وكيف هو مقام وما ينتج؟ فإنه يظهر أنه نسبة لا مقام كالعزلة والخلوة فإن كونه من المقامات مجهول عند أكثر أهل الله.

فاعلم أن الفرار بين طرفي ابتداء وانتهاء، فابتداؤه من وانتهاؤه إلى، فقد يكون السبب الموجب للفرار من كفرار موسىٰ عليه السلام ولا يتعين إلى فإنّ الفارّ مِنْ مَنْ إنما يطلب النجاة من غير تعيين غاية، والفارّ إذا كان هو السبب الموجب للفرار لا بدّ أن يكون معيناً ولا يتعين من وهو عكس الأول، ولما كان الأمر بهذه المثابة أمرنا الله أن نفرّ إليه ولا بدّ، وقد نفرّ إليه منه مثل قوله: وأعوذ بك منك، وقد نفر إليه من كون ما من الأكوان أو من صفة ما من الصفات إلهية كانت أو غير إلهية، أو صفة فعل أو غير صفة فعل، فعلمنا الله كيف نفرّ في قوله إلى الله، وهذه عناية من الله بنا أعني بهذه الأمة المحمدية يستروح منها ما لا يخفى على أحد، فإنّ الأنبياء عليهم السلام يصدقون في كل ما يخبرون به من أحوالهم منزّهون أن يلبسوا ثوبي زور فقال موسىٰ عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] فأنتج له ذلك الفرار الحكم الذي هو الإمامة والخلافة والرسالة مع كون

السبب الموجب الذي ذكره وما ذكر إلى أين فرّ، فإذا فرّ الفارّ إلى الله وعيّن من فرّ إليه وأبهم ما فرّ منه فما ترون تكون جائزته؟ فإن جائزة موسىٰ جائزة منقطعة فإن الخلافة هنا تترك والرسالة كذلك ينقطع الأمران بالموت والانقلاب إلى الدار الآخرة، فهذا أعطى حكم ما فرّ منه لما كان منقطعاً فإنه انقطع بغرقه أو بموته لو مات ولا بدّ له من الموت، فكانت النتيجة والهبة مناسبة بما أعطيه من انقطاعهما بالموت، فإن الإمامة والرسالة ينقطعان بالموت، والفرار إلى الله يعطي ما يبقى ببقاء الله ولا أعين فإن التعيين في ذلك إلى الله، وسواء كان الفرار من الله أو لم يكن فإن المراعاة هنا لمن فرّ إليه وفي حق موسىٰ لما فرّ منه، وإذا كانت هذه الأمّة مع الأنبياء بهذا الحكم وهذه المنزلة فما ظنّك بمنزلة أمم الأنبياء منا، والله ما يعرفون على أي طريق سلكت هذه الأمّة في فرارها، فإن الله مجهول الأينية والفرار كان إليه، فلا يدري أحد يفرّ إليه إذا تلقاه وأخذ بيده إلى أين يسير به، فإنّ الله أسرع إلى من فرّ إليه من تلقيه من الفارّ إليه فإنه يقول وهو الصادق تعالىٰ: «**مَنْ أَتَانِي يَسْعَىٰ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» فوصف نفسه بالإقبال على عبده إذا أتاه بأضعاف مّما يأتيه به من الحال، وإتيان الفار أشدّ من الهرولة، فيكون إتيان الحق إليه أشد من ذلك، فتحقق هذا في العلم الإلهيّ تر العجب فيما أعطى الله هذه الأمّة بعناية محمد ﷺ.

فاعلم أن مقامك من الفرار لا يتعين فنتكلم عليه، فإن حكمه في الفار بحسب ما فرّ منه وهي أمور كثيرة لا تنضبط جزئياتها وإن انحصرت أمّهاتها أو ما فرّ إليه وهي أسماء كثيرة إلهية أو أحكام بحسب ما يراه الفارّ إليه، ولكن الذي أمر الله به أن نفرّ إلى الله والفرار إلى الله لا يصحّ من حيث المجموع فإنا منه نفرّ إليه، فإن فيه ما نفرّ منه، ومن وإلى لا يجتمعان فإنّ أحكامهما مختلفة. فإن قلت: فقوله: « وأعوذ بك منك». قلنا: فيه وجهان: الواحد أن قوله: وأعوذ بك ما هو حكم الباء هنا حكم إلى فإنه يستعيد بالله في حال فراره وما بلغ إلى حكم إلى ونحن إنما نتكلم في لفظة إلى من حيث ما تدل عليه وهذا التعويذ النبويّ إنما وقع بالباء فلا وجه لقولك هذا بالاستعاذة، والوجه الآخر أنه وإن جعلت مطلوب إلى عين المستعاذ به في نهاية الفرار فمعلوم أنه لو كان عين من تفرّ منه عين من يفرّ إليه من غير اختلاف نسبة لم يصح فرار فلا بدّ من اختلاف النسبة، فالنسبة التي جعلتك تفرّ منه عين النسبة التي فررت إليه من أجلها والعين واحدة مثل قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فالعين التي تحشر منها هي العين التي تحشر إليها وبعينها ما وصفت به، فانظر أيّ اسم يكون مشهود المتقي فما تجده الرحمن وإن كان معه في حال اتقائه، ولكن تحشر إليه لينفرد بك دون أن تكون لاسم آخر تصرف فيك.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٠] تعلم ما هو الاسم الذي من أجله كان الإنذار المبين من المنذر لك. وقوله: ﴿ مِّنْهُ﴾ يعود على الله هو الذي وجهه إليك ليأمرك بالفرار إلى الله، وإنما جاء بالاسم الجامع إذ كان في عرف الطبع الاستناد إلى الكثرة، يقول النبيّ ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**» فالنفس يحصل لها الأمان باستنادها إلى الكثرة، والله مجموع أسماء الخير إذا حققت معرفة الأسماء الإلهية وجدت أسماء الأخذ قليلة وأسماء الرحمة كثيرة

في الاسم الله، فلذلك أمرك بالفرار إلى الله فاعلم ذلك، وما من اسم إلهيّ إلاً ويريد أن يربطك به ويقيدك وتكون له لظهور سلطانه فيك، وأنت قد علمت أن سعادتك في المزيد، والمزيد لا يكون لك إلاً بالانتقال إلى حكم اسم آخر لتستفيد علماً لم يكن عندك، والذي أنت عنده لا يتركك فتعين الفرار ويكون الإنذار أن لا يحكم عليك الاسم الذي أنت عنده بالبقاء معه ففررت إلى موطن الزيادة، الفرار حكم يستصحب العبد في الدنيا والآخرة، ودرجات العارفين من أهل الإنس والوصال منه خمسمائة واثنتا عشرة درجة، ودرجات العارفين من أهل الأدب والوقوف مثلهم، ودرجات الملامية من أهل الإنس والوصال أربعمائة وإحدى وثمانون درجة، ودرجات الملامية من أهل الأدب والوقوف مثلهم.

الباب الثالث والثمانون

في ترك الفرار

[نظم: البسيط]

أين الفرارُ وما في الكون إلاً هُوْ ... وهل يجوز عليه هل هو أو ما هُوْ

إن قلت هل فشهودُ العين يُنْكِرُهُ ... أو قلت ما هو فما هو ليس إلاً هُوْ

فلا تفرَّ ولا تركَنْ إلى طلبٍ ... فكلُّ شيء تراه ذلك اللَّهُ

اعلم أيّدك الله أن قوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] عقيب ما تعدد من الأعيان إذن وأمر بالتربص إن كان الله مشهوداً لكم في كل ما ذكرناه، فإن ذلك الشهود هو المطلوب بهذا الفرار لأن الله أمرنا بالفرار إلى الله، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] أي من أجل الله، أي شهودكم الله في هذه الأعيان أحب إليكم من شهودكم إياه في أعيان غيرها للمناسبة القريبة التي بينكم وبين هذه الأشياء المذكورة، وإن كان الكامل منا يشهده في كل عين، ولكن بعض الأعيان قد يكون لبعض الأشخاص أحب من أعيان أخر. وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ومن أجل رسوله حيث أمركم ببر هؤلاء وجعل لهم حقوقاً عليكم، فحقوق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر معلومة منصوص عليها لا تخفى على من وقف على العلم المشروع، وكذلك حقوق الأموال نعم المال الصالح للرجل الصالح، وحقوق التجارة معلومة فإن صدق التجارة لا يكون لغيرها، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع النبيين والشهداء كذا قال ﷺ. وقوله: ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] يقول: تخافون أن تتركوها لأجل الكساد طلباً للأرباح، وأيّ ربح أعظم من ربح صدق التاجر. وقوله: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] أي ومن أجل أيضاً شهودكم إياه تعالىٰ في الجهاد في سبيله لأنه أمركم بهذا وعلمتم أنه مشهودكم في كل ما ذكرناه. ولما ذكرناه منزلة شريفة عندكم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي لا تفرّوا فإنه ما أمرنا بالفرار إلاً لكوننا ليست لنا هذه المشاهدة. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] وهو قيام الساعة أو الموت الذي يخرجكم عن مشاهدة هؤلاء، وقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٤] يقول: الخارجين عن حكم هذه المشاهدة التي أنتم فيها والتي دعيتم إليها، فما هي في حق أصحاب هذا النظر آية وعيد، وإنما هي آية وعد وبشرى وتقرير حال وسكون، أي تربصوا إذا كان هذا مشهدكم فقد حصل المطلوب، فإن انتقلتم بعد هذا فهو انتقال من خير إلى خير أو من خير أدنى إلى خير أعلى، فتفهم وتدبر ما ذكرنا تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

الباب الرابع والثمانون

في تقوى الله

[نظم: الرجز]

ما يتقي الله سوى جامعٍ ... لكل ما في الكون من حكمتِهِ

فيتَّقي النقمةَ في نعمتِهِ ... ويتقي النِّعمةَ في نقْمتِهِ

فكلُّ ما في الكون من ظاهرٍ ... وباطنٍ فيه فمن نغْمَتِهِ

وهي التي أَسْبَغَها مِنَّةً ... منه على المختار من أمَّتِهِ

فكل ما يُجْريه سبحانه ... من كل ما يقضي فمن هِمَّتِهِ

اعلموا يا إخواننا أنار الله بصائركم وأصلح سرائركم وخلص من الشبه أدلتكم أنه لما امتنّ الله علينا بالاسم الرحمن فأخرجنا من الشرّ الذي هو العدم إلى الخير الذي هو الوجود ولهذا امتنّ الله تعالىٰ علينا بنعمة الوجود فقال: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] فما تولانا منه سبحانه ابتداء إلاَّ الرحمة ولهذا قال: «إنّ رحمة الله سبقت غضبه»، فلما نظرنا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٩] أي اتخذوه وقاية من كل ما تحذرون ورأينا مسمّى الله يتضمن كل اسم إلٰهيّ فينبغي أن يتقي منه ويتخذ وقاية، فإنه ما من اسم من الأسماء الإلهية للكون به تعلق إلاَّ ويمكن أن يتقي منه وبه، إما خوفاً من فراقه إن كان من أسماء اللطف، أو خوفاً من نزوله إن كان من أسماء القهر، فما يتقي إلاَّ حكم أسمائه، وما تتقى أسماؤه إلاَّ بأسمائه الاسم الذي يجمعها هو الله، فإذا كان الله مجموع الأسماء المتقابلة وقد علمنا أنّ المتقابلين إذا كانا على ميزان واحد سقط حكمهما لأن المحل لا يقبل حكم تقابلهما فيسقطان، فإذا رجح ميزان أحدهما كان الحكم للراجح، وقد رجح اسم اللطيف بوجودنا لأنّ الاسم الرحمن يحفظنا فترجحت الرحمة فنفذ حكمها فهي الأصل بالإيجاد والانتقام حكم عارض والعوارض لا ثبات لها فإن الوجود يصحبنا فمآلنا إلى الرحمة وحكمها، فلهذا أمرنا بتقوى الله أي نتخذه وقاية ونتقيه لما فيه من التقابل وهو مثل قوله في الاستعاذة منه به فقال: «وأعوذ بك منك»، وهو من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة، فإنه إذا اتقيت أحكام الأسماء ولا سيما في الجنة التي حكم الإنسان فيها للصورة الإلهية التي فطر عليها فيقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ذلك الشيء، فربما يحجبه هذا المقام عن الذي هو أعلى في حقه، فيذهل عن الكثيب الذي هو خير له مما هو فيه، فيأتي الاسم المذكر الإلهيّ

فيذكره بشرف رتبة الكثيب وما يحصل له فيه وما يرجع به إلى أهله، فيتقي هذا الاسم الذي مسكه في الجنة عن التشوق إلى ما هو أفضل في حقّه مّما يحصل له في الكثيب، فلهذا قلنا باستصحاب مقام التقوى في الدنيا والآخرة.

فإذا علمت هذا علمت أنّ مقام التقوى تقوى الله مكتسب للعبد ولهذا أمر به، وهكذا كل مأمور به فهو مقام يكتسب، ولهذا قالت الطائفة: إن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، والتقوى الإلهية على قسمين في الحكم فينا أي انقسم فيها الأمر قسمين: قسماً أمرنا الله أن نتقيه حق تقاته من كوننا مؤمنين، وقسماً أمرنا فيه أن نتقيه على قدر الاستطاعة، وما عين في هذا التكليف صفة تخصّ بها طائفة من الطوائف مثل ما عينها في حق تقاته، وإن كان المؤمنون قد تقدم ذكرهم فأعاد الضمير عليهم، ولكن مثل هذا لا يسمّى تصريحاً ولا تعييناً فينزل عن درجة التعيين فيحدث لذلك حكم آخر فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ابتدأ آيه بفاء عطف وضمير جمع لمذكور متقدم قريب أو بعيد، فإن المضمرات تلحق بعالم الغيب والمعينات تلحق بعالم الشهادة، لأن المضمر صالح لكل معين لا يختص به واحد دون آخر فهو مطلق والمعين مقيد، فإنك إذا قلت زيد فما هو غيره من الأسماء لأنه موضوع لشخص بعينه. وإذا قلت أنت أو هو أو إنك فهو ضمير يصلح لكل مخاطب قديم وحديث، فلهذا فرقنا بين المضمر والمعين بالاسم أو الصفة، والصفة برزخية بين الأسماء وبين الضمائر، فإنك إذا قلت: المؤمن أو الكاتب فقد ميّزته من غير المؤمن، فأشبه زيداً من وجه ما عينته الصفة، وأشبه الضمائر من وجه إطلاقه على كل من هذه صفته، غير أن الضمير الخطابي مثلاً يعم كل مخاطب كائناً من كان من مؤمن وغير مؤمن، وإنسان وغير إنسان، فتقوى الله حق تقاته هو رؤية المتقي التقوى منه وهو عنها بمعزل، ما عدى نسبة التكليف به فإنه لا ينعزل عنها لما يقتضيه من سوء الأدب مع الله، فحال المتقي لله حق تقاته كحال من شكر الله حق الشكر وقد تقدّم معنى ذلك.

وهذه الآية من أصعب آية مرت على الصحابة، وتخيّلوا أن الله خفف عن عباده بآية الاستطاعة في التقوى، وما علموا أنهم انتقلوا إلى الأشدّ وكنا نقول بما قالوه، ولكنّ الله لما فسّر مراده بالحقية في أمثال هذا هان علينا الأمر في ذلك، وعلمنا أن تقوى الله بالاستطاعة أعظم في التكليف، فإنه عزيز أن يبذل الإنسان في عمله جهد استطاعته لا بدّ من فضلة يبقيها وفي حق تقاته ليس كذلك، وعلمنا أن الله أثبت العبد في الاستطاعة، فلا ينبغي أن ننفيه عن الموضع الذي أثبته الحق فيه فإن ذلك منازعة لله، وفي حق تقاته أثبت له النظر إليه في تقواه وهو أهون عليه، فما كان شديداً عندهم كان في نفس الأمر أهون وعند من فهم عن الله، وما كان هيناً عندهم كان في نفس الأمر شديداً، وعند من فهم عن الله جعلنا الله ممّن فهم عنه خطابه فآتاه رحمة من عنده وهو ما أعطاه من الفهم ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فلم يكله إلى عنديته ولا إلى نفسه، بل تولى تعليمه ليريحه لما هو عليه من الضعف، ولولا أن العبد ادّعى الاستطاعة في الأفعال والاستقلال بها ما أنزل الله تكليفاً قط ولا شريعة، ولهذا جعل حظ المؤمن من هذه الدعوى أن يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

وقال في حقنا وحق أمثالنا ممّن تبرأ من الأفعال الظاهر وجودها منه قولوا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، عن أن يشارك فيها فهي له خالصة، فكم بين الحالين بين التبرّي والدعوى، فالمدعي مطالب بالبرهان على دعواه، والمتبرّي غير مطالب بذلك، ولا تقل إن التبرّي دعوى فإن التبرّي لا يبقى شيئاً، وعلى ذلك ينطلق اسم المتبرّي، ونحن نتكلم في الأمر المحقق، فإن كتابنا هذا بل كلامنا كله مبناه في الكلام على الأمور بما هي عليه في أنفسها، والتبرّي صفة إلهية سلبية، والعبد حقيقته سلب، والدعوى صفة إلهية ثبوتية لا تنبغي إلاّ لله عزّ وجلّ، والعبد إذا اتصف بها لم يزاحم الله فيها ويقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ومهما قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنما يقولها تالياً لا حقيقة فله ما نوى وهو بحيث علم.

ولولا ما ظهر العبد بالدعوى ما قيل له ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] بالقوّة التي جعلتها لكم فيكم بين الضعفين، فمن تنبّه على أن قوّته مجعولة وأنها لمن جعلها لم يدع فيها بل هي أمانة عنده لا يملكها، والإنسان لا يكون غنياً إلاّ بما يملكه، والأمانة عارية لا تملك مأمور من هي عنده بردّها إلى أهلها وهو قوله: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أي القوّة قائمة بالله لا بنا، فالمدعون في القوّة يجعلون ما من قوله ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مصدرية، وأهل التبرّي يجعلونها للنفي في الآية، فنفى عندهم الاستطاعة في التقوى وأثبتها عند من جعلها مصدرية، ولما كان المعنى في التقوى أن تتخذ وقاية ممّا ينسب إلى المتقي، فإذا جاءت النسبة حالت الوقاية بينها وبين المتقي أن تصل إليه فتؤذيه فتلقتها الوقاية، فلا أحد أصبر على أذى من الله، فإن السهم والطعن والحجر والضرب بالسيف وما أشبه ذلك عند المثاقف إنما تتلقاها الوقاية وهي المجن الذي بيده وهو من ورائها ماسك عليها لكنه يحتاج إلى ميزان قوي لأمور عوارض عرضت للنسبة تسمى مذمومة فيقبلها العبد، ولا يجعل الله وقاية أدباً وإن كان لا يتلقاها إلاّ الله في نفس الأمر، ولكن الأدب مشروع للعبد في ذلك، ولا تضرّه هذه الدعوى لأنها صورة لا حقيقة، وإذا علم الله ذلك منك جازاك جزاء من ردّ الأمور إليه وعول في كل حال عليه، وسكن تحت مجاري الأقدار، وتفرج فيما يحدث الله في أولاد الليل والنهار، فهذا تقوى الله قد أومأنا إلى تحقيقه إيماء، فإن للكلام في معناه مجالاً رحباً يطول، فاكتفينا بهذا وانتقلنا إلى تقوى الحجاب والستر، والكل من تقوى الله فإنه الأصل. انتهى الجزء الثالث والتسعون.

(الجزء الرابع والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس والثمانون

في تقوى الحجاب والستر

[نظم: السريع]

مــن يــتــقــي الــسّــتْــرَ فــذاك الــذي ... يــعــلــم أن الــسّــتْــرَ مــن نــفــســهِ

إذا أتى يومٌ عليه يُرَى   يبكي على ما فات في أمسهِ
لو رفع السِّتْرَ بدار الفنا   من قبل أن يُرْفَعَ في رَمْسِهِ
لنال ما نال رجال سمت   همتهم عن جنتي قدسه
ولاح وجهُ الحقِّ في سرِّهمْ   في بدره وقتاً وفي شَمْسِهِ
فلا يرى التَّرجيحَ فيما يرى   بعقله من ذاك أو حِسِّهِ
كما يخافُ العقلُ من عقله   كذا يخافُ الحسُّ من حِسِّهِ
لأجل هذا يتَّقي المُتَّقي   كمُتَّقِي الشيطان من مَسِّهِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الله تعالىٰ قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] وقال ﷺ: «**إنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» فانظر ما ألطف هذه الحجب وما أخفاها فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] مع وجود هذه الحجب التي تمنعنا من رؤيته في هذا القرب العظيم، وما نرى لهذه الحجب عيناً فهي أيضاً محجوبة عنا. وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] نعم يا ربنا ما نبصرك ولا نبصر الحجب، فنحن خلف حجاب، الحجب وأنت منا بمكان الوريد أو أقرب إلينا منا، وهذا القرب هو سبب عدم الرؤية منا أن تتعلق بك الإنسان لا يرى نفسه فكيف يراك وأنت أقرب إلينا من أنفسنا؟ فغاية القرب حجاب، كما غاية البعد حجاب، وإنما العجب الذي قصم الظهر وحيّر العقل قولك وعلمنا أن الله يرى في قولك توبيخاً وتنبيهاً: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] وقولك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ثم قلت: إنك لو رفعت الحجب بيننا وبينك من كونك موصوفاً بالسبحات الوجهية لاحترق ما أدركه بصرك بسبحات وجهك وبالنور صحّ ظهور العالم وهو وجوده، فكيف يعدم من حقيقته؟ الإيجاد هنا هي الحيرة، ثم إنه على الأمرين: أدخلت نفسك تحت حكم التحديد وهذا ينكره ما جعلته فينا من القوّة العقلية الناظرة بالصفة الفكرية وما لنا إلاَّ حسّ وعقل، فبالحسّ ما ندرك وبالعقل ما ندرك، فقد وقع الحدّ، إن كنت خلف الحجاب فأنت محدود، وإن كنت أقرب إلينا من الحجاب فأنت محدود، وإن كنت بكل شيء محيط فأنت أقرب إلى نفي الحدّ، فلماذا أدخلت نفسك في الحدّ بما أعلمتنا به من الحجب الحايلة بينك وبيننا، وبيننا وبينك حارت العقول، وما خاطب إلاَّ العقول ونصب أدلتها متقابلة فما أثبته دليل نفاه آخر ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٥] وأيّ غفر أشدّ من هذا؟ جزى الله عنا موسىٰ عليه السلام خيراً إذ ترجم عنا بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اختبرت عبادك بالأدلة وما ثم دليل يوصل إليك الدليل موضوع ليدل على واضع لا يدل على حقيقة واضعه، فما رأينا بعد السبر والتقسيم وما أعطاه الكلام القديم إلاَّ أن تكون أنت عين الحجب ولهذا احتجبت الحجب فلا نراها مع كونها نوراً وظلمة وهو ما تسميت به لنا من الظاهر والباطن وقد أمرتنا أن نتقي الله، فإن لم يكن الله عين الحجاب عليه النوري من الاسم الظاهر والظلمي من الاسم الباطن وإلاَّ كنا مشركين، وقد

ثبت أنا موحدون فثبت أنك عين الحجاب فما احتجبنا عنك إلاَّ بك، ولا احتجبت عنا إلاَّ بظهورك، غير أنك لا تعرف لكوننا نطلبك من اسمك كما نطلب الملك من اسمه وصفته وإن كان معنا غير ظاهر بذلك الاسم ولا بتلك الصفة بل ظهور ذاتي، فهو يكلمنا ونكلمه ويشهدنا ونشهده ويعرفنا ولا نعرفه، وهذا أقوى دليلٍ على أن صفاته سلبية لاثبوتية، إذ لو كانت ثبوتية لأظهرته إذا ظهر بذاته، فما نعرف أنه هو إلاَّ بتعريفه، فنحن في المعرفة مقلدون له، فلو كانت صفاته ثبوتية لكانت عين ذاته وكنا نعرفه بنفس ما نراه ولم يكن الأمر كذلك فدل على خلاف ما يعتقده أهل النظر وأرباب الفكر الصفاتين من المشبهة من أرباب العقول، وهذا الأمر أدّانا إلى أن نعتقد في الموجودات على تفاصيلها أن ذلك ظهور الحق في مظاهر أعيان الممكنات بحكم ما هي الممكنات عليه من الاستعدادات، فاختلفت الصفات على الظاهر لأن الأعيان التي ظهر فيها مختلفة، فتميزت الموجودات وتعدّدت لتعدّد الأعيان وتميزها في نفسه، فما في الوجود إلاَّ الله وأحكام الأعيان، وما في العدم الشيء إلاَّ أعيان الممكنات مهيأة للاتصاف بالوجود فهي لا هي في الوجود لأن الظاهر أحكامها فهي ولا عين لها في الوجود فلا هي كما هو ولا هو لأنه الظاهر، فهو والتميز بين الموجودات معقول ومحسوس لاختلاف أحكام الأعيان، فلا هو فيا أنا ما هو أنا ولا هو ما هو هو مغازلة رقيقة وإشارة دقية ردّها البرهان ونفاها وأوجدها العيان وأثبتها، فقل بعد هذا ما شئت فقد أنبت لك عن الأمر ما هو فما أخطأ معتقد في اعتقاده ولا جهل منتقد في انتقاده: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلاَّ الله والـكـونُ حـادثٌ ... ومـا ثَـمَّ إلاَّ الله والـكـونُ ظـاهـرُ
فما العلمُ إلاَّ الجهلُ بالله فاعْتَصِمْ ... بقولي فإني عن قريب أسافِرُ
ومـا لـيَ مـالٌ غـيـرَ عـلـمـي ووارثٌ ... سوى عينِ أولادي فذا المالُ حاضِرُ

الباب السادس والثمانون

في تقوى الحدود الدنياوية

اعلم وفّقك الله: [البسيط]

الـمـتَّـقُـونَ حـدودَ الله أفـرادُ ... بـهـذه الـدار والأفـرادُ آحـادُ
إن الحدودَ إذا حقَّقْتَ صورتَها ... برازخٌ وهي في التحقيق أشْهَادُ
فلتتَّقي حدَّكَ الرسميَّ إن له ... غوراً وفي غور ذاك الغور إلْحادُ
وقفْ لدى حظِّك الذاتيِّ تحْظَ بما ... حظي به من له سَعْدٌ وإسعادُ
الفقرُ والعجزُ في دنيا وآخرة ... فغايةُ القرب قربٌ فيه إبعادُ
هذي طريقةُ أقوام لهم هِمَمٌ ... فازوا بها وبها على الورى سادوا

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٢٥] وأي عقوبة أشدّ من عقوبة تعم المستحق بها وغير المستحق؟ والظالم وغير الظالم؟ والبريء والفاعل؟ وهي هذه الحدود الدنيوية لأنها دار امتزاج ونطفة

أمشاج، فتعمّ عقوبتها لعدم التمييز، وحدود الآخرة ليست كذلك فإنها دار تمييز فلا تصيب العقوبة إلاَّ أهلها، فلو كانت نشأة الآخرة من نطفة أمشاج كما ذهب إليه ابن قسي لعمت العقوبة أهلها وغير أهلها، ومن هنا إن نظرت تعرف نشأة الآخرة أنها على غير مثال سبق، كما أن نشأة الدنيا على غير مثال سبق وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] أنها كانت على غير مثال، ولهذا أتى بكلمة التحضيض، وهذه الفتنة العامّة والعقوبة الشاملة والحدود المتداخلة من صفة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] فإن ظاهرها لا يقتضي العدل وباطنها يقتضي الفضل الإلهيّ، ففي الآخرة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤] وهنا ليس كذلك في عموم صورة العقوبة، ولكن ما هي في البريء عقوبة وإنما هي فتنة وفي الظالم عقوبة لأنها جاءته عقيب ظلمه فما يستوجبها البريء، ولكن حكم الدار عليه كما يحكم على أهل دار الكفر الدار، وإن كان فيها من لا يستحق ما يستحقه الكفار، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة هود: الآية ١١٣] والنبيّ ﷺ قد جعل مولى القوم منهم في الحكم وما هو منهم في نفس الأمر، جعلنا الله ممّن عامله بفضله ولم يطلبه بواجب حقّه إذا قال الله في حق من اصطفاه من عباده أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٥] حيث حمل الأمانة، وهذا هو ظلم المصطفين من عباد الله لا ظلم يتعدّى الحدود الإلهية فإنه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١] لأن لنفسه حداً تقف عنده وهي عليه في نفسها، وذلك الحد هو عين عبوديتها، وحد الله هو الذي يكون له، فإذا دخل العبد في نعت الربوبية وهو الله فقد تعدّى حدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩] لأن حدّ الشيء يمنع ما هو منه أن يخرج منه وما ليس منه أن يدخل فيه، هذه هي الحدود الذاتية فمن يتقيها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٢] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فوصفهم بالتقوى إذا لم يتعدوها وجعلوها وقاية لهم، وليس بأيدينا من الحدود الذاتية لله شيء، والذي عندنا إنما هي الحدود الرسمية ولهذا اجترأ العباد عليها وتعدوها ومنها عوقبوا، كما إذا أدخلهم الحق صاحب الحد فيما هو له لم يتصف بالظلم فما استوجب عقوبة، ولما كان حداً رسمياً قبل العبد الدخول فيه، فإن دخل فيه بنفسه من غير إدخال صاحبه فقد عرض نفسه للعقوبة، فصاحب الحد بخير النظرين: إن شاء عاقب وإن شاء عفى وإن شاء أثنى، كالمتصف بالكرم والعفو والصفح، وهذه كلها حدود رسمية للحق، فاعلم ما نبتهك عليه من العلم الغريب في هذه المسألة فإنها من لباب المعرفة بالله. وأما حدود الله اللفظية فما حجر منها شيئاً سوى كلمة الله، واختلفوا في كلمة الرحمن بالألف واللام، وكذلك أيضاً لم يتسم أحد بالرحمن الرحيم على أن يكون من الأسماء المركبة مثل: بعل بك، ورام هرمز، وبلال أباذ، والحماية لهذا الاسم لم يكن عن أمر إلهيّ مشروع، وإنما كانت حماية غيبية أغفل الله عن التسمية بهذا الاسم المركب الناس، ويكفي هذا القدر من تقوى الحدود.

الباب السابع والثمانون
في تقوى النار

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣١] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦].

[نظم: السريع]

مــن يـتــقــي الــنــارَ فــذاك الــذي ... يُـحْـشَـرُ لـلـرحـمـن مـن قَـبْـرِهِ
فـمــن اسـمــه الـجـبـار أو مـثـلـه ... فـلـيـشـكـرِ الله عـلـى شُـكْـرِهِ
لا سـيـمـا والـنـارُ مَـشْـهُـودُهُ ... فـي ذلـك الـيـوم عـلـى كِـبْـرِهِ
لا تـتَّـقـي الـنـار ولا مـثـلـهـا ... فـإن تَـقْـوَى الـنـار مـن مَـكْـرِهِ
لا تـتَّـقـي غـيـر الإلـه الـذي ... أبْـطَـنَ نَـفْـعَ الـشـخـص فـي ضُـرِّهِ

اعلم وفّقك الله وفهمك أن النار قد تتخذ دواء لبعض الأمراض فهي وقاية وهو الداء الذي لا يتقى إلاً بالكي بالنار، فقد جعل الله النار وقاية في هذا الموطن من داء هو أشدّ من النار في حق المبتلى به، وأي داء أكبر من الكبائر، فجعل الله لهم النار يوم القيامة دواء كالكي بالنار في الدنيا، فدفع بدخولهم النار يوم القيامة داء عظيماً أعظم من النار، وهو غضب الله الذي قام مقام الداء الذي يكوي من يخاف عليه منه بالنار، ولهذا يخرجون بعد ذلك من النار إلى الجنة قد امتحشوا، كما يخرج إلى العافية صاحب الكي بالنار، هذا إذا جعلناها وقاية، كما جعلنا في الحدود الدنياوية وقاية من عذاب الآخرة ولهذا هي كفارات أي تستره هذه الحدود عن عذاب الآخرة، ومن هنا قلنا في المحاربين الله ورسوله أن المعنيّ بهم الكفار، فإن الله لما عاقبهم في الدنيا لم يجعل عقوبتهم كفارة مثل ما هي الحدود في حق المؤمنين بل قال: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٣] وهذا لا يكون إلاً للكفار، والعذاب العظيم هو أن يعمّ الظاهر والباطن، بخلاف عذاب أهل الكبائر من المؤمنين فإن الله يميتهم في النار إماتة حتى يعود واحماً شبه الفحم، فهؤلاء ما أحسّوا بالعذاب لموتهم فليس لهم حظ في العذاب العظيم فتتقي النار لما يكون من الألم عند تعلقها بنا، والذين هم جمر لها يزيدون في فعلها فإنهم المحرقون بالنار مثل الجمرات، ثم تفعل النار بوساطة الجمرات التي ظهرت فيها فعلاً آخر قد يكون فيه منفعة، كالمجرات التي تكون تحت القدر لإنضاج ما في القدر ليقع بذلك الإنضاج منفعة المتمتع بما نضج.

ولما كانت كرة الأثير واسعة الشمس تؤثر في مولدات الفواكه والمعادن بحرارتها نضجاً، لما في ذلك من المنفعة لنا كانت رحمة مع كونها ناراً، كذلك من عرف نشأة الآخرة وموضع الجنة والنار وما في فواكه الجنة من النضج الذي يقع به الالتذاذ لأكله من أهل الجنان علم أين النار وأين الجنة، وأن نضج فواكه الجنة سببها حرارة النار التي تحت مقعر أرض

الجنة، فتحدث النار حرارة في مقعر أرضها فيكون صلاح ما في الجنة من المأكولات، وما لا يصلح إلاَّ بالحرارة من حرارة النار وهو لها كحرارة النار تحت القدر، فإن مقعر أرض الجنة هو سقف النار، وقد بيّنا ذلك في التنزلات الموصلية والشمس والقمر والنجوم كلها في النار وعن أحكامها بما أودع الله فيها كانت منافع الحيوانات بها، فتفعل بالأشياء هنالك علواً، كما كانت تفعل هنا سفلاً، وكما هو الأمر هنا، كذلك ينتقل إلى هنالك بالمعنى وإن اختلفت الصور، ألا ترى أرض الجنة مسكاً وهو حار بالطبع لما فيه من النار وأشجار الجنة مغروسة في تلك التربة المسكية، كما يقتضي حال نبات هذه الدار الدنيا الزبل لما فيه من الحرارة الطبيعية لأنه معفن، والحرارة تعطي التعفين في الأجسام القابلة للتعفين، وهذا القدر كاف في تقوى النار أعاذنا الله منها في الدارين.

الباب الثامن والثمانون

في معرفة أسرار أصول أحكام الشرع

[نظم: الكامل]

الـشـرعُ مـا شَـرَعَ الإلٰـهُ تَـخَـلُّـقـاً ... فـهـو الـعـلـيـمُ بـحـقـهـم وبـحـقِّـهِ

فـإذا أتـى عـبـدٌ يـشـرِّعُ شِـرْعَـةً ... قـام الإلـهُ بـحـقـهـا فـي حـقِّـهِ

والـشـرعـتـان هـمـا مـن أصلٍ واحـدٍ ... مـا لـم يـقـلْ قـال الإلـهُ لـخَـلْـقـهِ

فـإذا يـقـول فـإنـهـا أُخـبُـولـةٌ ... نَـجَـمَ الـقـريـنُ بـنـجـمـهـا من أُفْـقـهِ

لـيـصـدِّقـوا مـا قـلَّـدوا أفـكـارَهـم ... فـهـو الـكـذوبُ وإن أتـاك بـصِـدْقـهِ

فـلـتـعـتـبرْ أحـكـامَ أصـل كـتـابِـهـا ... فـلـربـمـا غـصَّ الـلـعـيـنُ بـريـقـهِ

اعلم أن أصول أحكام الشرع المتفق عليها ثلاث: الكتاب والسنّة المتواترة والإجماع. واختلف العلماء في القياس فمن قائل: بأنه دليل وأنه من أصول الأحكام. ومن قائل: بمنعه وبه أقول، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] مثل قوله في عبده الخضر: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فجعل إعطاءه العلم عبده من رحمته، والتقوى عمل مشروع لنا، فلا بدّ أن تكون التقوى نسبة حكمه إلى دليل من هذه الأدلة أو إلى كلها في أيّ مسألة يلزمنا فيها تقوى الله. قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة وهما الأصلان الفاعلان، والإجماع والقياس إنما يثبتان وتصحّ دلالتهما بالكتاب والسنّة فهما أصلان في الحكم منفعلان، فظهرت عن هذه الأربع الحقائق نشأة الأحكام المشروعة التي بالعمل بها تكون السعادة، فإن الموجودات ظهرت عن أربع حقائق إلهية وهي: الحياة والعلم والإرادة والقدرة، والأجسام ظهرت عن أربع حقائق: عن حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، والمولدات ظهرت عن أربعة أركان: نار وهواء وماء وتراب، وجسم

الإنسان والحيوان ظهر عن أربعة أخلاط: صفراء وسوداء ودم وبلغم، فالحرارة والبرودة فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلتان فاعلم.

ولما كان من لا يؤمن بالشرائع المنزلة يشاركنا بالرياضة والمجاهدة وتخليص النفس من حكم الطبيعة يظهر عليه الاتصال بالأرواح الطاهرة الزكية ويظهر حكم ذلك الاتصال عليه مثل ما يظهر من المؤمنين العاملين منا بالشرائع المنزلة بما وقع من التشبيه والاشتراك فيما ذكرناه عند عامة الناس ونطقنا بالعلوم التي يعطيها كشف الرياضة وإمداد الأرواح العلوية، وانتقش في هذه النفوس الفاضلة جميع ما في العالم فنطقوا بالغيوب. قال الجنيد: علمنا هذا. وإن وقع فيه الاشتراك بيننا وبين العقلاء فأصل رياضتنا ومجاهدتنا وأعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما كان من عملنا على الكتاب والسنّة، فهذا معنى قوله: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة، وتتميز يوم القيامة عن أولئك بهذا القدر فإنهم ليس لهم في الإلهيات ذوق، فإن فيضهم روحانيّ وفيضنا روحانيّ وإلهيّ لكوننا سلكنا على طريقة إلهية تسمّى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالىٰ لأنه جعلها طريقاً إليه فاعلم ذلك.

ولما كان شرع الله وحكمه في حركات الإنسان المكلف لا يؤخذ إلاَّ من القرآن كذلك لم توجد إلاَّ بالمتكلم به وهو الله تعالىٰ فقال للشيء ﴿كُن﴾ فكان، فالقرآن أقوى دليل يستند إليه، أو ما صحّ عن رسول الله ﷺ الذي قام الدليل على صدقه أنه مخبر عن الله جميع ما شرعه في عبيد الله، وقد يكون ذلك الخبر إمّا بإجماع من الصحابة وهو الإجماع أو من بعضهم بنقل العدل عن العدل وهو خبر الواحد وبأيّ طريق وصل إلينا فنحن متعبدون بالعمل به بلا خلاف بين علماء الإسلام، ولهذا يقول أهل الأصول في الإجماع: إنه لا بدّ أن يستند إلى نص وإن لم ينطق به. وأمّا القياس فمختلف في اتخاذه دليلاً وأصلاً فإن له وجهاً في المعقول، ففي مواضع تظهر قوّة الأخذ به على تركه، وفي مواضع لا يظهر ذلك، ومع هذا فما هو دليل مقطوع به فأشبه خبر الآحاد، فإنّ الاتفاق على الأخذ به مع كونه لا يفيد العلم وهو أصل من أصول إثبات الأحكام، فليكن القياس مثله إذا كان جلياً لا يرتاب فيه، وعندنا وإن لم نقل به في حقي، فإني أجيز الحكم به لمن أدّاه اجتهاده إلى إثباته أخطأ في ذلك أو أصاب، فإن الشارع أثبت حكم المجتهد وإن أخطأ وأنه مأجور.

فلولا أن المجتهد استند إلى دليل في إثبات القياس من كتاب أو سنّة أو إجماع أو من كل أصل منها لما حلّ له أن يحكم به بل ربما يكون في حكم النظر عند المنصف القياس الجليّ أقوى في الدلالة على الحكم من خبر الواحد الصحيح، فإنا إنما نأخذه بحسن الظن برواته ولا نزكيه علماً على الله، فإن الشرع منعنا أن نزكي على الله أحداً، ولنقل: أظنه كذا وأحسبه كذا، والقياس الجلي يشاركنا فيه النظر الصحيح العقلي، وقد كنّا أثبتنا بالنظر العقليّ الذي أمرنا به شرعاً في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٤] وفي القرآن من مثل هذا كثير، فقد اعتبر الشارع حكم النظر العقلي في إثبات وجود الله أولاً وهو الركن الأعظم، ثم

اعتبره في توحيده في ألوهته، فكلفنا النظر في أنه لا إله إلاَّ الله بعقولنا، ثم نظرنا بالدليل العقلي ما يجب لهذا الإله من الأحكام، ثم نظرنا بالنظر العقلي الذي أمرنا به في تصديق ما جاء به هذا الرسول من عنده إذ كان بشراً مثلنا، فنظرنا بالعقول في آياته وما نصبه دليلاً على صدقه فأثبتناه، وهذه كلها أصول لو انهدّ ركن منها بطلت الشرائع، ومستند ثبوتها النظر العقلي واعتبره الشرع وأمر به عباده والقياس نظر عقلي، أترى الحق يبيحه في هذه المهمات والأركان العظيمة ويحجزه علينا في مسألة فرعية ما وجدنا لها ذكراً في كتاب ولا سنّة ولا إجماع، ونحن نقطع أنه لا بدّ فيها من حكم إلهيّ مشروع، وقد انسدت الطرق فلجأنا إلى الأصل وهو النظر العقلي، واتخذنا قواعد إثبات هذا الأصل كتاباً وسنّة، فنظرنا في ذلك فأثبتنا القياس أصلاً من أصول أدلة الأحكام بهذا القدر من النظر العقلي حيث كان له حكم في الأصول، فقسنا مسكوتاً عنه على منطوق به لعلة معقولة لا يبعد أن تكون مقصودة للشارع تجمع بينهما في مواضع الضرورة إذا لم نجد فيه نصاً معيناً، فهذا مذهبنا في هذه المسألة، وكل من خطأ عندي مثبت القياس أصلاً أو خطأ مجتهداً في فرع كان أو في أصل فقد أساء الأدب على الشارع حيث أثبت حكمه والشارع لا يثبت الباطل، فلا بدّ أن يكون حقاً ويكون نسبة الخطأ إلى ذلك نسبة أنه خطأ دليل المخالف الذي لم يصحّ عند المجتهد أن يكون ذلك دليلاً، والمخطىء في الشرع واحد لا بعينه فلا بدّ من الأخذ بقوله ومن قوله إثبات القياس فقد أمر الشارع بالأخذ به، وإن كان خطأ في نفس الأمر فقد تعبده به، فإن للشارع أن يتعبد بما شاء عباده، وهذه طريقة انفردنا بها في علمنا، مع أنا لا نقول بالقياس بالنظر إلينا ونقول به بالنظر لمن أدّاه إليه اجتهاده لكون الشارع أثبته، فلو أنصف المخالف لسكت عن النزاع في هذه المسألة فإنها أوضح من أن ينازع فيها والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ثم نبين في هذا الباب ما يتعلق بأصول الأحكام عند علماء الإسلام كما عملنا في العبادات، وكان الأولى تقديم هذا الباب في أول العبادات قبل الشروع فيها ولكن هكذا وقع، فإنا ما قصدنا هذا الترتيب عن اختيار، ولو كان عن نظر فكري لم يكن هذا موضعه في ترتيب الحكمة فأشبه آية قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] بين آيات طلاق ونكاح وعدّة وفاة يتقدّمها ويتأخرها، فيعطي الظاهر أن ذلك ليس موضعها، وقد جعل الله ذلك موضعها لعلمه بما ينبغي في الأشياء، فإن الحكيم من يعمل ما ينبغي لما ينبغي كما ينبغي، وإن جهلنا نحن صورة ما ينبغي في ذلك فالله تعالىٰ رتب على يدنا هذا الترتيب فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا، فالله يملي على القلوب بالإلهام جميع ما يسطره العالم في الوجود فإن العالم كتاب مسطور إلهي، وإذا تعارض آيتان أو خبران صحيحان وأمكن الجمع بينهما واستعمالهما معاً فلا نعدل عن استعمالهما، فإن لم يمكن استعمالها معاً بحيث أن يكون في أحدهما استثناء فيجب أن يؤخذ بالذي فيه الاستثناء، وإن كان في أحدهما زيادة أخذت الزيادة وعمل بها، فإن لم يوجد شيء من ذلك وتعارضا من جميع الوجوه فينظر إلى التاريخ فيؤخذ بالمتأخر منهما، فإن جهل التاريخ وعسر العلم به فلينظر إلى أقربهما إلى

رفع الحرج في الدين فيعمل به لأنه يعضده ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] ودين الله يسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] «**وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَدَعُوهُ**» فإن تساويا في رفع الحرج فلا يسقطان وتكون مخيراً فيهما تعمل بأيّ الخبرين شئت أو الآيتين، وإذا تعارض آية وخبر صحيح من جميع الوجوه من أخبار الآحاد وجهل التاريخ أخذ بالآية وتركنا الخبر، فإن الآية مقطوع بها وخبر الواحد مظنون، فإن كان الخبر متواتراً كالآية وجهل التاريخ ولم يمكن الجمع بينهما كان الحكم التخيير فيهما إلاّ أن يكون أحدهما فيه رفع الحرج فيقدم الأخذ به، وكل خبرين أو آيتين تعارضا أو آية وخبر صحيح متواتراً وغير متواتر وفي أحدهما زيادة حكم قبلت الزيادة. وعمل بها وترجح الأخذ بحديث الزيادة على معارضه ولا يؤخذ من الحديث إلاّ ما صحّ، فإن كان المكلف مقلداً وبلغ إليه حديث ضعيف مسند إلى رسول الله ﷺ وقد عارضه قول إمام من الأئمة أو صاحب لا يعرف دليل ذلك القول فيأخذ بالحديث الضعيف ويترك ذلك القول، فإن قصاراه أن يكون في درجة ذلك القول إن كان الحديث في نفس الأمر ليس بصحيح ولا يعدل عن الحديث.

وأما إذا صحّ الحديث وعارضه قول صاحب أو إمام فلا سبيل إلى العدول عن الحديث ويترك قول ذلك الإمام والصاحب للخبر، فإن كان الخبر مرسلاً أو موقوفاً فلا يعول عليه إلاّ إذا علم من التابع أنه لا يرسل الحديث إلاّ عن صاحب لا غير، وإن لم يعين ذلك الصاحب فيؤخذ بالمرسل فإنه في حكم المسند وهو أن يقول التابع: قال رسول الله ﷺ، ولا يذكر الصاحب الذي عنه رواه ويعلم أنه ممّن أدرك الصحابة وصحبهم وهو ثقة في دينه، ويعلم منه أنه ممّن لا يرى الكذب على النبيّ ﷺ في المصالح، فإن علم منه ذلك لم يؤخذ بحديثه ولو أسنده، ولا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله.

وإذا ورد الخبر عن قوم مستورين لم يتكلم فيهم بجرح ولا تعديل وجب الأخذ برواياتهم، فإن جرح واحد منهم بجرحة تؤثر في صدقهِ ترك حديثه، وإن كانت الجرحة لا تتعلق بنقله وجب الأخذ به إلاّ شارب الخمر إذا حدّث في حال سكره، فإن علم أنه حدّث في حال صحوه وهو ممّن هذه صفته أخذ بقوله والإسلام العدالة والجرحة طارئة، وإذا ثبتت على حد ما قلناه ترك الأخذ بحديث صاحب تلك الجرحة، ولا فرق بين الأخذ بخبر الواحد الصحيح وبين المتواتر إلاّ إن تعارضا كما قلناه، وما أوجب الله علينا الأخذ بقول أحد غير رسول الله ﷺ مع كوننا مأمورين بتعظيمهم ومحبتهم.

وأما النسخ فلا أقول به على حد ما يقولون به، فإنه عندنا انتهاء مدة الحكم في علم الله، فإذا انتهى فجائز أن يأتي حكم آخر من قرآن أو سنّة، فإن سمّي مثل هذا نسخاً قلنا به، وإذا كان الأمر على هذا فيجوز نسخ القرآن بالقرآن وبالسنّة فإن السنّة مبينة لأنه عليه السلام مأمور بأنه يبين للناس ما نزل إليهم وأن يحكم بما أراه الله لا بما أرته نفسه فإنه لا يتبع إلاّ ما

يوحى إليه سواء كان ذلك قرآناً أو غير قرآن، ويجوز نسخ السنّة بالقرآن والسنّة، وإذا ورد نص من آية أو خبر لا يجوز الوقوف عن الأخذ بذلك القرآن أو الخبر حتى يرى هل له معارض أم لا؟ بل يعمل بما وصل إليه، فإن عثر بعد ذلك على خبر أو آية ناسخ أو مخصص أو معمّم للمتقدم كان بحكم ما وصل إليه بشروطه وهو أن يبحث عن التاريخ، فإن الخاص قد يتقدم على العام كما يتقدم العام على الخاص والأصل أن الحكم للمتأخر.

وإذا وردت الآية أو الخبر بلفظ ما من اللسان فالأصل أن يؤخذ بما هو عليه في لغة العرب، فإن أطلقه الشارع على غير المفهوم من اللسان كاسم الصلاة واسم الوضوء واسم الحج واسم الزكاة صار الأصل ما فسره به الشارع وقرّره، فإذا ورد بعد ذلك خبر بذلك اللفظ حمل على ما فسّره به الشارع ولم يحمل على ما هو عليه في اللسان حتى يرد من الرسول في ذلك اللفظ أنه به ما هو عليه في اللسان فيعدل عند ذلك إليه في ذلك الخبر على التعيين، وأوامر الشرع كلها محمولة على الوجوب ونواهيه مخمولة على الحظر ما لم يقترن بالأمر قرينة حال تخرجه عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة، وكذلك النهي إن اقترنت به قرينة تخرجه من الحظر إلى الكراهة، فإن تعرّى الأمر عن قرينة الندب أو الإباحة تعين الوجوب، وكذلك النهي، وقد يرد الأمر الإلهي أو النبوّيّ على النهي برفع التحجير خاصة لا لوجوب فعل المأمور به، والإجماع إجماع الصحابة بعد رسول الله ﷺ لا غير، وما عدا عصرهم فليس بإجماع يحكم به، وصورة الإجماع أن يعلم أنّ المسألة قد بلغت لكل واحد من الصحابة فقال فيها بذلك الحكم الذي قال به الآخر إلى أن لم يبق منهم أحد إلاّ وقد وصل إليه ذلك الأمر وقال فيه بذلك الحكم، فإن نقل عن واحد خلاف في ذلك فليس بإجماع أو نقل عنه سكوت فليس بإجماع، وإن وقع خلاف في شيء وجب ردّ الحكم فيه إلى الكتاب والخبر النبويّ فإنه ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩].

ولا يجوز أن يدان الله بالرأي وهو القول بغير حجة ولا برهان لا من كتاب ولا من سنّة ولا من إجماع، وإن كنا لا نقول بالقياس فلا نخطىء مثبته إذا كانت العلة الجامعة معقولة جلية يغلب على الظنّ أنها مقصودة للشارع، وإنما امتنعنا نحن من الأخذ بالقياس لأنه زيادة في الحكم، وفهمنا من الشارع أنه يريد التخفيف عن هذه الأمّة وكان يقول: «**اتْرُكُونِي ما تَرَكْتُكُمْ**»، وكان يكره المسائل خوفاً أن ينزل عليهم في ذلك حكم فلا يقومون به كقيام رمضان والحج في كل سنة وغير ذلك، فلما رأيناه على ذلك منعنا القياس في الدين، فإن النبيّ ﷺ ما أمر به ولا أمر به الحق تعالىٰ فتعين علينا تركه فإنه ممّا يكرهه ﷺ، وحكم الأصل أن لا تكليف، وأنّ الله خلق لنا ما في الأرض جميعاً، فمن ادّعى التحجير علينا فعليه بالدليل من كتاب أو سنّة أو إجماع، وأما القياس فلا أقول به ولا أقلد فيه جملة واحدة.

وأما أفعال النبيّ ﷺ فليست على الوجوب، فإنّ في ذلك غاية الحرج إلاّ فعل بين به أمراً تعبدنا به فذلك الفعل واجب مثل قوله: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وَخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وأفعال الحج، ولولا نطقه في ذلك في بعض الأفعال لم يكن يلزمنا ذلك الفعل،

فإنه بشر يتحرّك كما يتحرّك البشر، ويرضى كما يرضى البشر، ويغضب كما يغضب البشر، فلا يلزمنا اتباعه في أفعاله إلاَّ إن أمر بذلك، وتعين عليه أن لا يفعل فعلاً سرّاً بحيث لا يراه أحد كما تعين عليه فيما أمر بتبليغه أن لا يتكلم به وحده بحيث لا يسمعه أحد حتى ينقله إلى من لم يسمعه. وأما شرع من قبلنا فما يلزمنا إتباعه إلاَّ ما قرّر شرعنا منه مع كون ذلك شرعاً حقاً لمن خوطب به لا نقول فيه بالباطل، بل نؤمن بالله ورسوله وما أنزل إليه وما أنزل من قبله من كتاب وشرع منزّل.

والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حيّ ولا ميت، ويتعين على السائل إذا سأل العالم أن يقول له: أريد حكم الله أو حكم رسوله في هذه المسألة، فإن قال له المسؤول: هذا حكم الله في المسألة أو حكم رسوله تعين عليه الأخذ بها فإن المسؤول هنا ناقل حكم الله وحكم رسوله الذي أمرنا بالأخذ به فإن قال: هذا رأيي أو هذا حكم رأيته أو ما عندي في هذه المسألة حكم منطوق به ولكن القياس يعطي أن يكون الحكم فيه مثل الحكم في المسألة الفلانية المنطوق بحكمها لم يجز للسائل أن يأخذ بقوله ويبحث عن أهل الذكر فيسألهم على صفة ما قلنا، ويتعين على كل مسلم أن لا يسأل إلاَّ أهل الذكر وهم أهل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] وأهل الحديث، فإن علم السائل أن هذا المسؤول صاحب رأي وقياس فيتركه ويسأل صاحب الحديث فإن كان المسؤول صاحب رأي وقياس وحديث فيسأله فإذا أفتاه تعين عليه أن يقول له هذا الحكم رأي أو قياس أو عن حديث، فإن قال: عن رأي أو قياس تركه، وإن قال: عن خبر أخذ به، ولا حكم للخطأ والنسيان إلاَّ حيث جاء في قرآن أو سنّة أن يكون لهما حكم فيعمل به مثل صلاة الناسي وقتل الخطأ، وكل مسكوت عنه فلا حكم فيه إلاَّ الإباحة الأصلية، وخطاب الشرع متوجّه على الأسماء والأحوال لا على الأعيان، فلا يكون حكم الفرض إلاَّ على من حاله قبول الفرض من أمر ونهي في عمل أو ترك، فكل من عجز عن شيء من ذلك ممّا كلفه الله به بل ما هو مخاطب به إن الله ما كلف نفساً إلاَّ وسعها وإلاَّ ما آتاها ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وكل عمل مقيد بوقت موسعاً كان أو مضيقاً فلا يجوز عمله إلاَّ في وقته لا قبله ولا بعده فإنّ ذلك حدّ الله المشروع فيه فلا يتعدّى، وحكم الاجتهاد في الأصول والفروع واحد، والحق في الفروع حيث قرّره الشرع وقد قرّر حكم المجتهدين ولا يقرّر إلاَّ ما هو حق فكله حق.

وأما نسبة الخطأ إلى المجتهد الذي له أجر واحد فهو كونه لم يعثر على حكم الله أو حكم رسوله في تلك المسألة وقد تعبده الله بما انتهى إليه اجتهاد، فلو لم يكن حقاً عند الله بالنظر إليه لما تعبده به فإن الله لا يقرّ الباطل، فإذا وصل إليه بعد ذلك حكم الله تعالىٰ أو رسوله في تلك المسألة بما يخالف دليله وعلم أن ذلك الحكم متأخر عن حكم دليله وجب عليه الرجوع عن ذلك الحكم الأول ولا يحل له البقاء عليه. ولهذا كان من علم مالك بن أنس ودينه وورعه أنه إذا سئل عن مسألة في دين الله يقول نزلت فإن قيل له نعم أفتى وإن قيل لم تنزل لم يفت، وسببه ما ذكرنا لأن المصيب للحكم المعين في تلك المسألة واحد لا بعينه

والمخطىء واحد لا بعينه، ولهذا قالت العلماء: كل مجتهد مصيب، فإما مصيب للحكم الإلهيّ فيها على التعيين، أو مصيب للحكم المقرّر الذي أثبته الله له إذا لم يعثر على ذلك الحكم المعين وأخطأه، وهذا القدر كاف في أصول أحكام الشرع في هذا الكتاب لأنه لا يحتمل الاستقصاء.

وأمّا أسرار أصول أحكام الشرع المتفق عليها والمختلف فيها فإن سرّ الكتاب هو ما يكون من الله للعبد بترك الوسائط كما قال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢٢] فهم كتاب الله، وهو قول الشارع: «**دَعْ مَا يُرِيبكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبكَ**» وقوله: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**» والكتابة ضم المعاني الإلهية بما يليق بجلاله من نسبة أسماء الله الحسنى إلى المعاني التي لنا من التخلق بتلك الأسماء أي بمعانيها، أو تكون أخلاقاً لنا لا تخلقاً، وهي نسبتها إلينا على ما يليق بنا فهو الرؤوف الرحيم، وقد قال في رسول الله ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وهذا مدح، وسمّى نفسه بالعزيز الكريم، وقد قال في بعض عباده ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] وهو ذم وكلها أسماء الله وأسماء الخلق ومدلولاتها معقولة المعنى بآثارها فيمن تسمّى بها، وإن كانت نسبها مختلفة فنسبتها إلى الله لا تشبه نسبتها إلى العبد فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وإن كان آثار الكريم أن يعطي وقد وجد العطاء من الله ومن العبد على جهة الإنعام، فإن انضمّ المعنى إلى المعنى من وجه فقد افترقا من وجه لأنّ الموصوف المسمّى لا يشبه الموصوف المسمّى الآخر، فمن الوجه الذي يقع الاشتراك وهو الأثر من ذلك الوجه يكون كتابة، لأنّ الكتابة الضم وبضم الحروف بعضها إلى بعض سميت كتابة والكتيبة ضم الخيل بفرسانها بعضها إلى بعض، فلو جاؤوا متفرقين وحداناً ما سمّوا كتيبة فهو المؤمن وقد كتب في قلب عبده الإيمان فأوجب له ذلك الكتاب حكماً سمّي به مؤمناً وليس الاسم غير المسمّى، فهو الظاهر في عين الممكن والممكن له مظهر، وكل ظاهر في مظهر فقد انضم الظاهر إلى المظهور وانضم المظهر إلى الظاهر ولذلك صحّ أن يكون مظهراً للظاهر فيه، فهذا سرّ أصل الأخذ بالكتاب دليلاً على ثبوت الحكم.

وأما سرّ السنّة في إثبات الحكم فإنه لما كان الرسول عليه السلام لا ينطق عن الهوى وأنّ حكمه حكم الله وهو ناقل عن الله ومبلغ عنه بما أراه الله والله على صراط مستقيم، والسنّة الطريقة والطريق لا يراد لنفسه وإنما يراد لغايته، فالسنّة ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] لأنها صراطه وهو غاية صراطه، فلا بدّ للسالك عليه من الوصول إليه، فالصراط الواسطة وبوساطة استعداد المظهر بما هو عليه في نفسه حكم على الظاهر بما سمّى به فهو أعطاه ذلك الاسم وذلك الحكم صحيح ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٦١] فنحن إذا سألنا الحق في أمر يعن لنا كان أثر سؤالنا في الله الإجابة فسمّي مجيباً، فلولا سؤالنا ما ثبت هذا الحكم ولا أطلق عليه هذا الاسم، ونحن طريقة له في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فما أجابه حتى دعاه، فهذا سرّ استدلاله بالسنّة. وأما الإجماع فهو ما أجمع عليه الرب والمربوب في أنّ

الله خالق والعبد مخلوق، وهكذا كل إضافة، فلا خلاف بين الله وبين عباده في مسائل الإضافة أين ما وجدت، وكذلك في المعلومات من حيث ما هي معلومات.

وأما القياس عند مثبتيه فهو ظهور رب بصفة عبد، وظهور عبد بصفة رب عن أمر رب، فإن لم يكن عن أمر رب فلا يتخذ دليلاً على حكم أو عن حميد خلق كريم فإنه أيضاً يتخذ دليلاً. وأما ظهور رب بصفة مربوب فلا يشترط فيه الأمر الواجب، ولكن قد يكون عن دعاء وطلب وصفته صفة الأمر والمعنى مختلف، وإن كان هذا مسموعاً ممتثلاً والآخر كذلك ولكن بينهما فرقان، فهذا حكم سرّ القياس في الاستدلال، وهو قياس الغائب على الشاهد لحكم معقول جامع بين الشاهد والغائب، وينسب لكل واحد من المنسوبين إليه بحسب ما يليق بجلاله، وإنما قلنا بجلاله لأن الجليل من الأضداد يطلق على العظيم وعلى الحقير، وقد انتهت أسرار أصول أحكام الشرع. انتهى الجزء الرابع والتسعون.

(الجزء الخامس والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والثمانون

في معرفة النوافل على الإطلاق

[نظم: الكامل]

إنّ النوافلَ ما يكون لعينها ... أصلٌ يشاهَدُ في الفرائض كلِّهَا

فالفرضُ كالأجرام إن قابَلْتَها ... بالنور والنَّفْلُ المزادُ كظلِّهَا

يبدو بصورتها وليس فريضةً ... فيعود فرضاً في الحساب كمثْلِهَا

جاء الحديث به فبيِّن فَضْلَها ... شرعاً وميِّز أصْلهَا من أصلها

فإذا أتيتَ بهنَّ فاعلم أنه ... ذَخَرَ الإلهُ لكم نتيجةَ فعلهَا

فيكون عين قواك ربك فاغترف ... من طَلِّها حتى تفوزَ بوبْلِهَا

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنّ للنوافل حكماً في الحضرة الإلهية جامعاً ينوب صاحبها فيه مناب الحق، من ذاقه عرف قدره وعجز عمّا يستحقه واهبه من الشكر عليه، ثم إنّ النوافل تتفاضل وتعلو بعلوّ فرائضها، إذ كانت النوافل كل عمل له أصل في الفرائض عن ذلك الأصل يتولد وبصورته يظهر كما ظهرنا نحن بصورة الحق فنحن له نافلة وهو أصلنا، ولهذا نقول فيه إنه واجب الوجود لنفسه ونحن واجبون به لا بأنفسنا، فبهذه الدرجة يتميز عنا ونتميز عنه، وما عدا النوافل فيسمّى عبادة مستقلة وسنناً مبتدءات نذكرها بعد هذا الباب إن شاء الله، وإذا كانت النوافل تعلو بعلوّ فرائضها التي هي أصولها فأعلى نوافل التنزيه في الخيرات الصيام لأنّ فرضه صوم رمضان ورمضان اسم الله والصوم عبادة لا مثل لها وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ففضل نوافل سائر العبادات فإنه يمنع من النكاح فله أثر فيه أي في منعه، وكل

من له قوّة المنع فإنّ الممنوع متصف بالضعف بالنسبة إلى تلك القوّة، فإن كان لهذا الممنوع من القوّة بحيث يؤثر في محل هذه العبادة حتى يزيل حكمها كان أقوى بلا شك، فنافلة النكاح أقوى لما له من التأثير في إبطال الصوم والصلاة وغيرها.

والنكاح أفضل نوافل الخيرات وله أصل وهو النكاح المفروض فما زاد عليه كان نافلة، وهو على نوعين أعني وقوعه فقد يقع على نسبة المحبة مطلقة، وقد يقع على نسبة محبة التوالد والتناسل، فإذا وقع عن محبة التوالد والتناسل التحق بالحب الإلهيّ ولا عالم فأحب أن يعرف فتوجه بالإرادة لهذه المحبة على الأشياء في حال عدمها القائمة في استعداد إمكانها مقام الأصل فقال لها ﴿كُن﴾ فكانت ليعرف بجميع وجوه المعارف وهي المعرفة المحدثة التي لم يكن تعلق لها به، إذ لم يكن العارف بها متصفاً بالوجود وذلك محبة طلب كمال المعرفة وكمال الوجود، فما كمل الوجود ولا المعرفة إلاً بالعالم ولا ظهر العالم إلاً عن هذا التوجّه الإلهيّ على شيئية أعيان الممكنات بطريق المحبة للكمال الوجودي في الأعيان والمعارف وهي حال تشبه النكاح للتوالد، فكان النكاح المفروض أفضل الفرائض، ونافلته أفضل نوافل الخيرات، ولاشتراك غيره من العبادات في اسم النوافل نال من استعملها على اختلاف أنواعها منالها، والأصل نوافل النكاح، لأنّ العمل إذا أنتج ما لم يكن له عين قبل ذلك فذلك من حكم النكاح، وما من عمل إلاً وهو منتج بحسب حقيقته وطريقته، فكان النكاح أصل في الأشياء كلها فله الإحاطة والفضل والتقدّم.

وقال أبو حنيفة في النكاح إنه أفضل نوافل الخيرات، ولقد قال حقاً أو صادف حقاً كان رسول الله ﷺ حبّب إليه النساء وكان أكثر الأنبياء نكاحاً لما فيه من التحقق بالصورة التي خلق عليها، ولكن لا يعلم ذلك إلاً قليل من الناس من طريق الكشف بل من العارفين من أهل الله.

وقدم علينا بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة أبو الحجاج يوسف الغليريّ من أهل غليرة وكان من أهل الأحوال، فبينما هو قاعد معي إذ كشف له عن هذا المقام ممثلاً فذكره لي في غلبة حاله بصورة ما رآه ممّا لا يمكنني ذكره فكوشف على العالم وفي أيّ صورة هو أبوه تعريفاً من الحق فما زلت أسكنه وهو هائج حتى سكن، فوجود الحق هو الفرض في نفس الأمر، ووجود العبد نافلة عن ذلك الفرض ولذلك خرج على صورته، فنافلة النكاح قد ذكرنا ما نتج منها، ونافلة الصلاة تنتج وجود العبد في حظه من القسمة منه قوله: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي**» فيعرف من نوافل هذه الصلاة حظه من القسمة لا حظ ربه كما يعرف من فرضها حق ربه وقسمه منها، ولكل حال شرب معلوم، فإنّ الذي يعطي الفرض في عامله من الحكم خلاف الذي يعطي النفل لأنه في الفرض عبد مضطرّ، وفي النفل عبد مخيّر مختار موصوف بصفة إلهية وهي المشيئة، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

ونافلة الصيام ما يحصل للعبد من التنزيه في نفي المماثلة من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، وما مثله إلاً من خلق على صورته، فنفى سبحانه أن يماثل هذا المثل فهو أحق أن لا يماثل، وماله من الصورة إلاً الاسم خاصة،

فإنّ العالم كما أعطاه الله اسم الوجود الذي هو له تعالىٰ حقيقة أعطاه العالم باستعداده وكونه مظهراً له الأسماء الحسنى ما علمنا منها وما لم نعلم، فهذا كونه على صورته.

ونافلة الزكاة أعطت في الإنسان البركة وهي الزيادة التي حصلت له على ما أعطته الفريضة لا غيره. ونافلة الحج أعطت له القصد بظهور الكون في الأطوار المختلفة مع أحدية التوجه. ونافلة العمرة أعطته الدخول عليه تعالىٰ في كل عبادة بين طرفي تحليل وتحريم وفيها ذوق وشرب، وهما تجليان معروفان عند أهل الله. ونافلة الذكر الذي فرضه لا إله إلاّ الله، وتكبيرة الإحرام والسلام من الصلاة وشهادة التعيين وكل فرض يتعلق بالقول فإنه يعطيك نافلته، والمواظبة عليه أن تقول لما تريده في الكون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] كما يعطيك الفرض أن تقول للحق تعالىٰ افعل فيفعل، والباب الجامع لما يعطي جميع النوافل أن يكون الحق يحبه، فأنتجت النوافل محبة الله لعبده ولكن ما كل محبة، بل المحبة التي بها يكون الحق سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تبصر به، ويديك التي تبطش بها، ورجلك الذي تسعى به، وهذا منعنا أن نقول في المفاضلة في الأشياء لأن العرف يعطي أن البصر أفضل من الرجل عند الجماعة، وهنا قد أنزل الحق نفسه أنه بصرك الذي تبصر به ورجلك التي تسعى بها، وأعطى لكل حق حقيقة منه، وهو لا يفضل نفسه فإنه هو الظاهر في كل ما ذكر أنه هو كما يليق بجلاله، فليس البصر بأعلى ولا أفضل من الرجل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] فهذا قد ذكرنا ما تعطيه نوافل الخيرات على الإطلاق وعلى التقييد نافلة نافلة.

الباب الموفي تسعين
في معرفة الفرائض والسنن

[نظم: الكامل]

إن الفرائضَ كالركائب والسُّنَنْ ... مثلُ الطريق لها إلى غاياتها

فإذا قطعتَ الضربَ كنتَ فريضةً ... فتكون سَمْعَ الحقِّ في آياتها

عكس النوافل فاعتبرها والتزمْ ... طرقَ الفضائل واسْعَ في إثباتها

الفرائض هي الأعمال أو التروك التي أوجبها الله تعالىٰ على عباده وقطعها عليهم وأثم من لم يقم بها وهي على قسمين: فرض عين وهو الذي لا يسقط عنه إذا عمله غيره، وفرض كفاية وهو الذي يسقط عنه إذا قام به غيره، وقد كان قبل قيام الغير به متعيناً عليه وعلى ذلك الغير كالصلاة على الجنازة وغسل الميت والجهاد، وثم فرض آخر يلوح بينهما له طرف إلى كل واحد منهما يخالف حكم الآخر مثل الحج المفروض إذا لم يستطع، وهو إن كان غير مخاطب به إلاّ مع الاستطاعة فهو فرض متوقف على شرطه، فإذا حج عنه وليّه سقط عنه وكان له الأجر أجر الأداء، وليس هذا في فرض الكفاية لوجود الأجر، ولا في فرض الصلاة لعدم سقوطها عمن صليت عنه، فلا يشبه فرض الصلاة ولا يشبه فرض الكفاية.

وأما السنن فكل ما عدا ما تعين عمله وهو على قسمين: سنة أمر بها وحرض عليها أو

فعلها بنفسه وخيّر أمّته في فعلها، وسنّة ابتدعها واحد من الأمّة فاتبع فيها فله أجرها وأجر من عمل بها، فالفرض إذا جاء به العبد موفى فقد وفى ما تستحقه الربوبية عليه من العبودة فينتج له عمل الفريضة أمراً هو أعلى من أن يكون الحق سمعه، فإنّ كون الحق سمع العبد حال للعبد، وحكم الفرض يحول بينه وبين هذه الحال وهو أن يكون سمعاً للحق فيسمع الحق بالعبد وهو قوله: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**»، وأما هذه الحيلولة التي أعطاها الفرض من أن يكون الحق سمعه هي مقام محقق ثابت كما هو في نفس الأمر، فيعرف عند ذلك العبد أنّ الحق هو لا هو، وصاحب الحال يقول أنا والسنن طرق الاقتداء، وأعلاها الاقتداء بالحق حتى أكون في إطلاق أسمائه عليّ قريباً من التحقق بها لا من التخلق، وأدناها في حق الوليّ الاقتداء بالذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] والعلماء ورثة الأنبياء وما ورثوا إلاّ العلم، فالسنّة النبوية عالية المقام وهي الجمعية على الدين وإقامته وأن لا يتفرق فيه فهي تعلو بمن يأتيها ويسلك فيها في الحضرات المحمدية إلى غاياتها في المعارف والأحوال والتجلي.

وأما السنن التي هي الشرائع المستحسنة بعد رسول الله ﷺ وهو الاستحسان عند الفقهاء الذي قال فيه الشافعي رحمه الله: من استحسن فقد شرّع، فأخذها الفقهاء منه على جهة الذم، وهو رضي الله عنه نطق بحقيقة مشروعة له لم تفهم عنه فإنه كان من الأربعة الأوتاد وكان قيامه بعلم الشرع حجبه عن أهل زمانه ومن بعده.

روينا عن بعض الصالحين أنه لقي الخضر فقال له: ما تقول في الشافعيّ؟ فقال: هو من الأوتاد، فقال: فما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال: رجل صدّيق. قال: فما تقول في بشر الحافي؟ قال: ما ترك بعده مثله. فهذه شهادة الخضر في الشافعيّ رحمه الله. ولما صحّ عند الشافعيّ أن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً**» الحديث فلا شك أنّ الشرع قد أباح له أن يسنّ سنّة حسنة وهي من جملة ما ورث من الأنبياء وهي حسنة أي يستحسنها الحق منه وهو سنّها، فمن استحسن أي من سنّ سنّة حسنة فقد شرع، ويا عجباً من عدم فهم الناس كلام الشافعيّ في هذا وهم يثبتون حكم المجتهد وإن أخطأ في نفس الأمر وقد أقرّه الشارع وهو حكم شرعيّ مقبول لا يحلّ لأحد من الحكام ردّه، وقواعد الشرع وأصوله تحفظه. وكالمصالح المرسلة في مذهب مالك ولما قرّر الشارع حكمها مجملاً وأبان أن واضعها ومتبعيه فيها مأجورون ونهاية التابعين فيها إلى واضعها على قدره وقدر ما سنّ نبهتك بهذا أن تكون أوقاتك معمورة بالشرائع النبوية والسنن الأصلية، فإنّ الكيس ينبغي أن لا يكون غاية عمله إلاّ نبوّة أصلية لا فرعية، إذ كان له الاختيار في الاختيار لما كانت الأمور في أنفسها تقبل الاختيار كما فعل سبحانه في جميع الموجودات، فاختار من كل أمر في كل جنس أمراً ما، كما اختار من الأسماء الحسنى كلمة الله، واختار من الناس الرسل، واختار من العباد الملائكة، واختار من الأفلاك العرش، واختار من الأركان الماء، واختار من الشهور رمضان، واختار من العبادات الصوم، واختار من القرون قرن النبيّ ﷺ، واختار من أيام الأسبوع يوم الجمعة، واختار من الليالي ليلة القدر، واختار من الأعمال الفرائض، واختار من

الأعداد التسعة والتسعين، واختار من الديار الجنة، واختار من أحوال السعادة في الجنة الرؤية، واختار من الأحوال الرضى، واختار من الأذكار لا إله إلاَّ الله، واختار من الكلام القرآن، واختار من سور القرآن سورة يس، واختار من آي القرآن آية الكرسي، واختار من قصار المفصل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] واختار من أدعية الأزمنة دعاء يوم عرفة، واختار من المراكب البراق، واختار من الملائكة الروح، واختار من الألوان البياض، واختار من الأكوان الاجتماع، واختار من الإنسان القلب، واختار من الأحجار الحجر الأسود، واختار من البيوت البيت المعمور، واختار من الأشجار السدرة، واختار من النساء مريم وآسية، واختار من الرجال محمداً ﷺ، واختار من الكواكب الشمس، واختار من الحركات الحركة المستقيمة، واختار من النواميس الشريعة المنزّلة، واختار من البراهين البراهين الوجودية، واختار من الصور الصور الآدمية لذلك أبرزها على الصورة الإلهية، واختار من الأنوار ما يكون معه النظر، واختار من النقيضين الإثبات، ومن الضدّين الوجود، واختار الرحمة على الغضب، واختار من أحوال أفعال الصلاة السجود، ومن أقوالها ذكر الله، ومن أصناف الإرادات النية فلها الحكم في قبول العمل وردّه، فإنه لكل امرىء ما نوى، ويلحق غير العامل بالعامل في الأجر وزيادة.

وأما ذكر الله من أقوال الصلاة فإنّ ذكر الله منها أكبر ما فيها هكذا قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فإنّ الصلاة مناجاة والذاكر جليسه الحق، فإن ذكره به فهو تعالىٰ لسانه. وأما اختياره السجود في أفعال الصلاة فلما فيه من العصمة من الشيطان، فإنه لا يفارقه في شيء من أفعال الصلاة إلاَّ في السجود خاصة لأنه خطيئته، وعند السجود يبكي ويتأسف ويندم والندم توبة، ولا بدّ من قبول ذلك القدر فهو يتوب عند كل سجدة، وأن الله يحب كل مفتن تواب، ثم يعود إلى الإغواء عند الرفع من السجود هكذا.

وأما اختياره الرحمة على الغضب فلأنها تفعل بالمنة وتفعل بالوجوب و ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٧] والغضب من الأشياء التي وسعته الرحمة، فما ثم غضب خالص غير مشوب برحمة والرحمة لا يشوبها غضب ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨١] فالغضب جعله يهوي، فإذا هوى وهو السقوط وهو حكم الغضب لا غير فيسقط في الرحمة فتسعه وتتلقاه فلا يسقط إلاَّ إليها، وبالرحمة التي في الغضب سقط، فهي التي جعلت الغضب يهوي به لتستلمه الرحمة الخالصة، كالرحمة التي في الدواء الكريه فيشربه العليل على كراهة فيه رحمة خفية، من أجلها استعمل الدواء الكريه في الوقت لتسلمه إلى العافية وهي الرحمة الخالصة، ولهذا كان المآل إلى الرحمة وحكمها، وإن لم يخرجوا من النار فلهم فيها نعيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٤] ألا ترى إلى ما جعل الله في النار في الدنيا من المنافع والراحات ولو لم يكن إلاَّ الكي بها لبعض العلل فإنه أقطع الأدوية ولقوته في أثره قدح في التوكل لأنه يقوم في الفعل مقام الشافي والمعافي، فحكمت الغيرة على المكتوي بأنه غير متوكل.

وأما اختيار الوجود من الضدين فلأنه صفته فاختار للمكنات صفته ولا يصحّ إلاّ هذا، فإن له الاقتدار، والاقتدار لا يكون عنه إلاّ الوجود، ألا تراه لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ قال: ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] فأبى الاقتدار إلاّ الوجود، وعلق الإرادة بالإعدام، وله الاسم المانع والمنع عدم. وأما اختياره الإثبات فهو عين الشيء الذي يقول له ﴿كُن﴾ لأنه في حال عدمه رجح له الإثبات على النفي حتى لا يزال ممكناً في حال عدمه وهي مسألة دقيقة في الترجيح في حال العدم، وبذلك الافتقار الذاتيّ الذي في الممكن قبل الوجود إذا أراده الحق منه وأسرع إليه بحكم الإثبات الذي هو عليه.

وأما النور المختار من الأنوار فإنّ الأنوار حجب ولذلك قال في الأنوار الحجابية: نور أنّى أراه، ثم وعد بالرؤية وهو نور، فلا بدّ أن يكون النور الذي يظهر فيه لعباده مختاراً من تلك الأنوار الحجابية كنور الأحدية والعزّة والكبرياء والعظمة، فهذه كلها ترفع عن البصر ويبقى حكمها في القلب، فبرفعها تقع الرؤية للحق تعالىٰ ويبقى حكمها في القلب ويفنى العبيد عن الرؤية، ولولا ذلك لشهدوا نفوسهم عند شهوده.

وأما اختياره الصورة الآدمية فلأنه خلق آدم على صورته فأطلق عليه جميع أسمائه الحسنى، وبقوتها حمل الأمانة المعروضة وما أعطته هذه الحقيقة أن يردها كما أبت السموات والأرض والجبال حملها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لو لم يحملها ﴿جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لأنّ العلم بالله عين الجهل به العجز عن درك الإدراك إدراك، فإنه إذا علم أن ثم ما لم يعلم فما علم وهو العلم بأن ثم ما لا يعلم وليس لعلمه متعلق إلاّ الجهل به.

وأما اختياره البراهين الوجودية من البراهين الجدلية وغيرها فلما تعطيه من تمام العلم بثبوت الحق وإبطال حجة الخصم، والبراهين الجدلية ليست لها هذه القوّة فإنها تبطل حجة الخصم وقد لا تثبت حقاً، والبراهين السوفسطائية تنتج حيرة وهي أقرب إلى البراهين الوجودية في العلم الإلهيّ من وجه من البراهين الجدلية. وأما اختياره الشريعة المنزّلة فلما لها من عموم التعلّق بالدار الآخرة ومصالح الدنيا، وليست النواميس الحكمية الموضوعة لمصالح الدنيا وبقاء الخير في عالم الدنيا لها حكم لتحكم على الله بالقرب الإلهيّ وقبول الأعمال ورفع الدرجات وإثبات الجنات ودار الشقاء لا يستقل بذلك كله إلاّ الشرع المنزّل من عند الله. وأما الذين ابتدعوا عبادات ورعوها حق رعايتها ابتغاء رضوان الله ممّا لم يكتبها الله عليهم فهم أصحاب شرع منزّل من عند الله فسنوا فيه سنناً حسنة مناسبة لما سنّها الشرع بالشرع المنزّل فيهم وأباح لهم أن يسنّوا. وأما النواميس الحكمية فما هي التي سنّها هؤلاء ولهذا جعل لهم الأجر.

وأما اختياره الحركة المستقيمة فإنه على صراط مستقيم كما قال عن نفسه، واختصّ بها الإنسان الذي خلقه الله على صورة الحق وفيها يحشر السعيد يوم القيامة فهي له دنيا وآخرة فإن المجرمين يحشرون منكوسين وهي الحركة المنكوسة كما قال تعالىٰ في حق المجرمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٢] والحركة المعوجة الأفقية في البهائم فلم تصحّ الحركة المستقيمة إلاّ لمن خلقه الله على الصورة، وذلك الإنسان

الكامل الذي له هذه الصفة في الدنيا والآخرة، ولهذا خصّ بها ذكر آدم لأنه من أهل السعادة التي تبقى عليه هذه الحركة المستقيمة ولهذا نعت بالخلافة.

وأما اختياره الشمس فلما لها من الإمداد في جميع الكواكب المستنيرة علوّاً وسفلاً ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٨] واختصت على المذهبين بالقلب من الكرة وهي السماء الرابعة وفيها إدريس عليه السلام والله قد ذكر أنه رفعه ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٧] فعلوّ هذا المكان من كونه قلب الأفلاك فهو مكان عال بالمكانة وما فوقه وإن كان دونه فهو أعلى بالمسافة بنسبته إلى رؤوسنا وهو الذي أحدث الليل والنهار بطلوعه وغروبه الذي جعل الله لهما الغشيان وهو النكاح والإيلاج لظهور أعيان المولدات وما يحدث الله في الليل والنهار من المخلوقات عن هذا الإيلاج والغشيان وجعل لكل واحد من هذين الموجودين عن الحركة الشمسية الطلب الحثيث لإبراز أعيان الحوادث عن هذا الطلب.

وأما اختياره محمداً ﷺ فلما اقتضاه مزاجه دون الأمزجة الإنسانية من الكمال والاعتدال إذ به شاهد نبوّته وآدم بين الماء والطين وهو متفرّق الأجزاء في المولدات العنصرية وهي مسألة دقيقة لا يعرفها إلاً من عرف أخذ الذرية من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] وهي الفطرة التي ولد الناس عليها وإليها ينتهون، وفي هذا الجمع قال: الأرواح أجناد مجندة ولما جمعهم جمعهم في حضرة التمثيل فما كان وجهاً لوجه هناك تعارفوا هنا وما وقع ظهر الظهر هناك تناكر هنا وما بينهما من وجه إلى ظهر وجانب وغير ذلك، وفي هذا أقول: [البسيط]

إن القلوبَ لأجْنَادٌ مجندة ... في حضرة الجمع تبدو ثم تنْصَرفُ
فما تعارفَ منها فهو مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مختلفُ

وأن كل أحد يقرّب بهذه الشهادة في الآخرة ولا ينكر ولا يدعي لنفسه ربوبية يقول تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٦] فكان ﷺ أعظم مجلى إلٰهي علم به علم الأوّلين والآخرين، ومن الأوّلين علم آدم بالأسماء وأوتي محمد ﷺ جوامع الكلم وكلمات الله لا تنفد، وله السيادة التي لا تبعد على الناس يوم القيامة فيشفع في الشافعين أن يشفعوا من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، وله المقام المحمود في اليوم المشهود.

وأما اختياره مريم وآسية فهو إلحاقهما بالكمال الذي للرجال مع وجود الدرجة التي للرجال عليهنّ فإنّ تلك الدرجة وجودية فلا تزول. وأما اختياره السدرة فلأنها موضع انتهاء أعمال العباد وموضع الفضل وبظلّها تستظل صور الأعمال وغشاها الله من الأنوار ما غشى، إلا إنّ تلك الأنوار أنوار الأعمال فلا يستطيع أحد أن ينعتها، وتلك الأنوار كما قلنا أنوار الأعمال تنبعث من صورها فتغشاها فلا يستطيع أحد أن ينعتها فإنّ النعت للأشياء تقييد وتمييز والأعمال تختلف ولها مراتب، وأنوارها على قدر مراتبها فعال وأعلى ومضيء وأضوأ، ونعت العالي يناقض الأعلى، ونعت المضيء يقابل الأضوأ من حيث ما هو أضوأ فلا يتقيد بنعت

لأنك إن قيدتها بنعت أبطله لك نقيضه فما وفيتها حقّها في النعتية، إذ لم تكن أنوار الأعمال على درجة واحدة، وقد غشيتها هذه الأنوار وغطتها فلا يقدر أحد يصل إلى نعتها فهم وإن استظلّوا بها فقد كسوها من ملابس الأنوار ما فضلت به جميع الأشجار وهي طعام وغاسول ونبقها كالقلال منه ترزق أرواح الشهداء.

وأما اختياره البيت المعمور فلأنه مخصوص بعمارة ملائكة يخلقون كل يوم من قطرات ماء نهر الحياة الواقعة من انتفاض الروح الأمين فإنه ينغمس في نهر الحياة كل يوم غمسة لأجل خلق هؤلاء الملائكة عمرة البيت المعمور وهم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لا يعودون إليه أبداً، وبقي السرّ في المكان الذي يعمرونه هؤلاء الملائكة وما ثم خلاء والعالم كله قد ملأ الخلا فابحث عليه فإنه علم جليل، يوقفك على علم استحالات الأعيان في الأعيان وتقلب الخلق في الأطوار فتعلم أنّ الله على كل شيء قدير لا على ما ليس بشيء، فإن لا شيء لا يقبل الشيئية، إذ لو قبلها ما كانت حقيقته لا شيء ولا يخرج معلوم عن حقيقته فلا شيء محكوم عليه بأنه لا شيء أبداً وما هو شيء فمحكوم عليه بأنه شيء أبداً.

وأما اختياره الحجر الأسود فلأنه أنزله ليقيمه مقام يمينه في البيعة الإلهية إذ لم يكن في المعارف والعبادات أعظم ملازمة لما عرف ولما تعبد به من العبادات فإنها فطرت على المعرفة والعبادة المحضة التي عجزت عنها حقيقة النبات والحيوان ولهذا ليس شيء منه في الإنسان جملة واحدة، فإن جميع ما في الإنسان يقبل النموّ وهو للنبات، كما أنّ الحيوان له التصرّف في الجهات، فكلما فارق موجود المعدن التبس بصورة الدعوى بحقيقته فهي منازعة خفية لا يشعر بها كل عالم، وقد نبّه على بعض ذلك سهل وما وفى الأمر فيها ما هو عليه، فلا أدري هل علم واكتفى بما ذكر أو ما أطلعه الله في ذلك الوقت على أكثر ممّا ذكر؟ والله أعلم فاختاره الله يميناً.

وأما اختياره من الإنسان القلب وهو الذي وسعه لأنه كل يوم في شأن، واليوم قدر نفس المتنفس في الزمان الفرد، وبه سمّي قلباً لتقلبه، ألا تراه بين أصبعي الرحمن فما يقلبه إلاَّ الرحمن ليس لغيره من الأسماء معه فيه دخول ولا يعطي الاسم الرحمن إلاَّ ما في حقيقته، فرحمته وسعت كل شيء، فما من أمر تراه في تقلبه ممّا يؤدّي إلى عناء وعذاب وشقاء إلاَّ وفيه رحمة خفية لأنه بأصابع الرحمن يقلب، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه عن تلك الإقامة فهو ميل إضافي، فمآل القلب إلى الرحمة بحكم سلطان هذا الاسم الذي قلبه في الزيغ كما قلبه في الإقامة فهي بشرى من الله إلى عباده: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وما ذكر سرفاً من سرف فعمّ جميع حالات المسرفين في السرف ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ فإنّ الذي أزاغكم أصبع الرحمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وهو حبر لا يدخله النسخ فيجمع بين قوله هذا وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] فيؤاخذ على الشرك ما شاء الله ثم يحكم عليه أصبع الرحمن فيؤول إلى الرحمن وأمور أخر من الزيغ ممّا دون الشرك يغفر منها ما يغفر بعد العقوبة وهم أهل الكبائر الذين يخرجون من

النار بالشفاعة بعدما رجعوا جمعاً مع كونهم ليسوا بمشركين، والإيمان بذلك واجب، ومنها ما يغفر ابتداء من غير عقوبة فلا بدّ من المآل إلى الرحمة.

وأما اختياره من الأكوان الاجتماع فإنه يعطي الافتراق بالتمييز في عين الجمع، فلا بدّ من رب ومربوب ومن قادر ومقدور، فالجمع مختار لا بدّ منه لما تعطيه حقائق الأسماء الإلهية من التعلّق. وأما اختياره من الألوان البياض فلأن الملونات كلها تستحيل إليه ولا يستحيل إليها بل بياضيته كامنة فيه مستورة لحجاب اللون الذي يظهر في العين من سواد وحمرة وصفرة وغير ذلك، فمنه ما يكون لوناً قائماً بالمحل، ومنه ما يكون لوناً في ناظر العين وليس كذلك في نفس المتلون كسواد الجبال البيض على البعد فإذا جئتها رأيتها بيضاً وقد كنت تحكم عليها بالسواد وأنت غالط في ذلك الحكم، وصحيح في ظهور السواد به مصيب والكيفية في ذلك مجهولة، وبهذه المثابة زرقة السماء إنما هي لنظر العين وإن كانت في نفسها على لون يخالف الزرقة.

وأمّا اختياره من الملائكة الروح لأنه المنفوخ فيه في كل صورة ملكية وفلكية وعنصرية ومادية وطبيعية وبها حياة الأشياء وهو الروح المضاف إليه وهو نفس الرحمن الذي يكون عنه الحياة والحياة نعيم والنعيم ملتذ به والالتذاذ بحسب المزاج كما قلنا في مزاج المقرور يتنعم بما به يتعذب المحرور فافهم، ويكفيك تنبيه الشارع لو كنت تفهم بأن للنار أهلاً هم أهلها، وللجنة أهلاً هم أهلها، وذكر في أهل النار أنهم لا يموتون فيها ولا يحيون فهم يطلبون النعيم بالنار لوجود البرد وهذا من حكم المزاج.

وأمّا اختياره البراق من المراكب لكونه مركب المعارج فجمع بين ذوات الأربع وذوات الجناح فهو علوي سفلي كبعض الحيوانات بري بحري. وأما اختياره دعاء يوم عرفة فإنه دعاء في حال تجريد وذلّة وخضوع في موطن معرفة ليوم زماني لما فيه من الجمع بين الليل والنهار. وأما اختياره ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلأنها مخصوصة به ليس فيها ذكر كون من الأكوان إلاّ أحدية كل أحد أنها لا تشبه أحديته تعالىٰ خاصة، وفي إتيانها في هذه السورة علم غريب لمن فتح الله به عليه، فإنه افتتح السورة بأحديته وختمها بأحدية المخلوقين، فاعلم أن الكائنات مرتبطة به ارتباط الآخر بالأوّل لا ارتباط الأوّل بالآخر، فإن الآخر يطلب الأوّل والأول لا يطلب الآخر، فهو الغني عن العالمين من ذاته، ويطلب الآخر من مسمّى الله المنعوت بالأحدية فهذا قد نبهتك على مآخذ هذا العلم الذي تحويه هذه السورة بالأحدية المتأخرة التي هي مع ارتباطها بالأول لا تماثلها لكونها تطلبه ولا يطلبها ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥].

وأما اختياره من الآي آية الكرسي الآيات العلامات ولا شيء أدل على الشيء من نفسه، وهذه آية الكرسي كلها أسماؤه أو صفته لا يوجد ذلك في غيرها من الآيات، فدل على نفسه بنفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنفى وأثبت بضمير غائب على اسم حاضر له مسمّى غيب ﴿ٱلْحَىُّ﴾ صفة شرطية في وجود ماله من الأسماء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على كل ما سواه بما كسب فإنه

أعطى كل شيء خلقه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صفة تنزيه عمّا يناقض حفظ العالم الذي لولا قيوميته ما بقي لحظة واحدة ﴿ لَّهُۥ﴾ الضمير يعود عليه وهو ضمير غيب ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً له وعبداً معين الحفظ لبقاء الحكم بالألوهة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾ شفعية الوتر بالحكم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ضمير غيب ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ عدم الاستقلال بالحكم دونه فلا بدّ من إذنه إذ كان ثم شفيع أو شفعاء ﴿يعلم مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الشفعاء والمشفوع فيهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو ما هم فيه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وهو ما يؤولون إليه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦ﴾ بالأشياء ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ منها لا بكلها ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ علمه ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العلو والسفل ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ لأنه حفظ ذاتيّ معنويّ وإمداد غيبي وخلق دائم في سفل وعلو ﴿وَهُوَ﴾ ضمير غيب ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ بغناه عن خلقه من ذاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] في قلوب العارفين بجلاله فله الهيبة فيها. فهي آية ذكر الله فيها ما بين اسم ظاهر ومضمر في ستة عشر موضعاً من هذه الآية لا تجد ذلك في غيرها من الآيات، منها خمسة أسماء ظاهرة: الله الحيّ القيوم العليّ العظيم، ومنها تسعة ضميرها ظاهر فهي مضمرة في الظاهر ومنها اثنان مضمران في الباطن لا عين لها في الظاهر وهما ضمير العلم والمشيئة، وكذلك علمه ومشيئته لا يعلمها إلاّ هو فلا يعلم أحد ما في علمه ولا ما في مشيئته إلاّ بعد ظهور المعلوم بوقوع المراد لا غير، فلذلك لم يظهر الضمير فيها.

وأما اختياره يس من القرآن فلأنها قلب القرآن، ومن قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرّات، والقلب أشرف ما في الصورة الصادية، كذلك السورة السينية وهي المنزلة ولها من الأبراج بيت شرف الشمس وهو برج الأولية زمان الربيع إقبال النشء وظهور البدء وابتداء زينة عالم الطبيعة وتلطيف بخارات الأنفاس التي كشفها زمان الشتاء لبرودة الجوّ كان يعطي الجمد في البخارات الخارجة من المتنفسين عندما تخرج يكثفها ثم يردّها ماء وهو ما تجد في يديك إذا تنفست فيه في زمان الشتاء من النداوة، وله الشؤون الإلهية التي لا يزال في كل نفس فيها جلّ جلاله.

وأما اختياره من الكلام القرآن وهو الذي له صفة الجمع وفي الجمع عين الفرقان إذ الجمع دليل الكثرة والكثرة آحاد فهي عين الافتراق في عين الجمع فهو الفرقان القرآن. وأما اختياره لا إله إلاّ الله فإنه ذكر عمّ النفي والإثبات وليس ذلك لغيره من الأذكار. وأما اختياره الرضى من الأحوال فإنه آخر ما يكون من الحق لأهل السعادة من البشرى فلا بشرى بعدها فإنها بشرى تصحب الأبد كما ورد في الخبر وهي بشرى بعد رجوع الناس من الرؤية، لا بل هي من الله لهم في الكثيب عند الرؤية في الزور الأعظم. وأما اختياره الجنة فإنها دار بقاء السعادة والنظر الساترة لأهلها عن كل مكروه يكون في الدار التي تقابلها وما يعطيه سلطان أسماء الانتقام. وأما اختياره الرؤية فإنها غاية البصر فاللذة البصرية لا تشبهها لذة فإنها عين اليقين في المعبود.

وأما اختياره من الأعداد التسعة والتسعين فلأنها وتر الأسماء الجامع بين الآحاد والعقد

أن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلاً واحداً من أحصاها دخل الجنة بمجرّد الإحصاء حفظاً ولفظ وإحاطة فإن الله وتر يحب الوتر. وأما اختياره الفرائض فلأن نتيجتها أن يكون العبد نعت الحق سمعه وبصره، فإن حب النوافل يعطي أن يكون الحق سمع العبد وبصره، والنفل لا يكون إلاً في الدرجة النازلة عن الفرض، فالفرض له الأولية ولا ينزل الحق إلى أن يكون سمعاً للعبد كما قال بما يقتضيه من الجلال، فلا بدّ أن ينزل الله بصفته وهو كون العبد صفة الحق للصورة التي خلق عليها فهي مقتطعة من الصورة الإلهية كما هي الرحم شجنة من الرحمن والفرض القطع، فإذا أدّاه ظهر له في ذلك أنه صفة للحق، فإذا تنفل كان صفة الحق له فتميز الفرض من النفل وكانت الدرجة العليا للفرض، ولولا ما أعطي الفرض ذلك ما ثبت أن يقول: جعت فلم تطعمني وأنا أشدّ شوقاً إلى لقاء عبدي يريد إياي فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وما تردّدت في شيء أنا فاعله، وأمثال هذا من الإخبارات الإلهية.

وأما اختياره ليلة القدر فإن الأمور لا تتميز إلاً بأقدارها عند الحق والحق غيب فاختصّ القدر بالليلة لأن الليل ستر كما يستر الغيب. وأما اختياره من الأيام يوم الجمعة لأن فيه ظهرت الصورتان وجعل الله ذلك اليوم للصور وهو الشهر الخامس لمسقط النطفة وهو يوم مؤنث له الزينة وتمام الخلق، واختار الله فيه ساعة من ساعاته هي كالنكتة في المرآة وهو موضع صورة المتجلي من مرآة اليوم فيرى فيها نفسه وعلى الصورة الظاهرة بين المرآة والناظر فيها يقع الخطاب والتكليف وبها تحدث أسماء الإشارات من ذا وذان وتا وتان وأولاء، وأسماء الضمائر مثل هو وهي وهما وهم وهنّ وك وك وكما وكم وكن وأنت وأنت وأنتما وأنتم وأنتن، وياء ضمير المتكلم المؤثرة في آنيته إن لم تحفظها نون الوقاية ولا بدّ لها من تأثير إما في الآنية أو في نون الوقاية لا بدّ لها من ذلك ولهذا نون الوقاية له الفتوة والإيثار من عالم الحروف، ولهذا سميت نون الوقاية فلها منزلة لكاف من قوله: ﴿ أَعُوذُ بِكَ ﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]، ولنا فيها: [البسيط]

نونُ الوقاية نونٌ ليس يُشْبهها	من الوجود سوى صوم وخَلاّقِ
له الفتوَّةُ والإيثارُ نشأتُه	فما لنا غيره في اللفظ من واقِ
شَطْرُ الوجود له من نَعْتِ خالقه	من المكانة فهو الدائمُ الباقي

وأما اختياره الثلاثة القرون على الترتيب فإن الأول من ذلك لظهور كمال محمد ﷺ غيباً وشهادة، فسنّ الشريعة بنفسه ونسخ ما كان سنّة نوابه بوجوده وقرّر منه ما قرّر وأقرّ الإيمان بجميعه ما نسخ منه وما لم ينسخ، وهذا هو القرن الأوّل، ثم اثنان بعده، والكل أهل فتح وظهور بمنزلة الثلاث الغرر من كل شهر، يقول ﷺ: «**يَغزُو فِئام مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الأَوَّلُ، ثُمَّ يَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رأى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الثَّانِي، ثُمَّ يَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ مَنْ رَأَى مَنْ رأى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ وَهٰذَا هُوَ القَرْنُ الثَّالِثُ**». وما زاد ﷺ على هذا، وذلك أنه

ما ثم سوى الحضرة الإلهية، وهي عبارة عن الذات والصفات والأفعال، فهذا معنى: «**خَيْرُ الْقُرُونِ**» فبعناية القرن الأوّل فتح للجميع وهي ذات رسول الله ﷺ فأعطت قوّة نوره وسلطان ظهوره الفتح الإلهيّ لمن رآه أو رأى من رآه أو رأى من رأى من رآه فهو قوله: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» وإنما شبهناهم بالثلاث الغرر من الشهر، وجعلنا زمان دعوته مشبهة بالشهر لأنهم اختلفوا في القرن ما قدره من الزمان، فمن جملة أقوالهم أن القرن ثلاثون سنة فلهذا أنزلنا الثلاثة القرون من زمان دعوته إلى يوم القيامة منزلة شهر، وجعلنا الثلاثة القرون كالثلاث الغرر منه.

وأما اختياره الصوم فإن النبيّ ﷺ قال لشخص سأله: «**عَلَيكَ بالصَّوم فإنّه لاَ مثْلَ لَهُ**» فنفى المثلية عن الصوم فأشبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]. وقال: «**الصوم لي**»، وجعل جميع العبادات كلها للإنسان إذ كان الصوم صفة تنزيه ولا ينبغي التنزيه إلا له تعالى. وأما اختياره من الشهور شهر رمضان فلمشاركته في الاسم فإن رمضان من الأسماء الإلهية فتعينت له حرمة ما هي لسائر شهور السنة وجعله من الشهور القمرية حتى تعمّ بركته جميع شهور السنة فيظهر في كل شهر من شهور السنة، فيحصل لكل يوم من أيام السنة حظ منه، فإن أفضل الشهور عندنا شهر رمضان، ثم شهر ربيع الأوّل، ثم شهر رجب، ثم شعبان، ثم ذو الحجة، ثم شوّال، ثم ذو القعدة، ثم المحرّم، وإلى هنا انتهى علمي في فضيلة الشهور القمرية، وأبهم عليّ ترتيب الفضل فيما بقي من شهور السنة القمرية وذلك شهر صفر، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ما عندي علم بترتيب الفضلية في هؤلاء أو هي متساوية في الفضل وهو الغالب على ظني فإنه أظهر ذلك وما تحققته فلم يتمكن لي أن أقول ما ليس لي به علم.

وأما اختياره من الأركان ركن الماء لأنه من الماء جعل كل شيء حي حتى العرش لما خلقه ما كان إلاّ على الماء فسرت الحياة فيه منه فهو الركن الأعظم كما قال: «**الحج عرفة**» وإن كان سبب الحياة أشياء معه ولكنه الركن الأعظم من تلك الأشياء. وأما اختياره من الأفلاك العرش لأن له الإحاطة بجميع الأجسام ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] وله الأولية في الأفلاك فما تحتها فهو الأوّل المحيط فاختار للاستواء لما بين الصفتين، فإن كان العرش الملك فأجرى أن يكون هو من غير اختيار لأنه ما ثم إلاّ الله وملكه وكل شيء ما سواه ملكه، وقد ورد تمييزه عن غيره، فتعين أن يكون مختاراً للأولية والإحاطة لأن السموات والأرض في جوف الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في جوف العرش كحلقة في فلاة. واختار من العباد الملائكة فإنهم مخلوقون من النور فأجسامهم نورية بالأصالة فهم أقرب نسبة من سائر المخلوقات إلى النور الإلهيّ ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو أن يجعله الله نوراً لما يعرف من ظلمة الطبيعة. واختار من الأينيات العماء فكان له قبل خلق الخلق ومنه خلق الملائكة المهيمة فهيمها في جلاله ثم خلق الخلق فشغلهم هيمانهم في جلال جماله أن يروا سواه، فهم الذين لا يعرفون أن الله خلق أحداً ما أشرفها من حالة فجعل العماء أينية له، والعرش مستوى له، والسماء الدنيا لنزوله، والأرض لمعيته فهو معنا أينما كنا.

واختار من الناس الرسل ليبلغوا عن الله ما هو الأمر عليه فإنه ما أخرجهم إلاّ للعلم به لأنه أحب أن يعرف فتعرف إليهم بالرسل بما بعثهم به من كتب وصحف فعرفوه معرفة ذاتية كما عرفوه بالعقول التي خلق لهم وأعطاها قوّة النظر الفكري فعرفوه بالدلائل والبراهين معرفة وجودية سلبية لم يكن في قوّة العقل في استقلاله أكثر من هذا، ثم بعد ذلك جاءت الرسل من بعده بمعرفة ذاتية، فعبد الخلق الإله الذي تعرف إليهم بشرعه إذ العقل لا يعطي عملاً من الأعمال ولا قربة من القرب ولا صفة ذاتية ثبوتية للحق، وما حظ العقل من الشرع ممّا يستقل به دليله إلاّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف لا على إثباتها صفة، فاختار الرسل لتبليغ ما لا يستقل العقل بإدراكه من العلم بذاته وبما يقرب إليه من الأعمال والتروك والنسب.

واختار من الأسماء الاسم الله فأقامه في الكلمات مقامه فهو الاسم الذي ينعت ولا ينعت به، فجميع الأسماء نعته وهو لا يكون نعتاً ولهذا يتكلف فيه الاشتقاق فهو اسم جامد علم موضوع للذات في عالم الكلمات والحروف لم يتسم به غيره جلّ وعلا فعصمه من الاشتراك كما دلّ أن لا يكون ثم إله غيره، فهذا قد ذكرنا من الاختيارات الإلهية ما يخرج مخرج التنبيه للعقول الغافلة عمّا دعيت إليه من الاعتبار والاستبصار، ولم نستوف الأمر حدّه لأنا ما نعرف بطريق الإحاطة تفصيل ما خلق الله من الموجودات، وإن كنا نقدر بما أقدرنا الله على حصر الموجودات فيدخل في ذلك كل شيء ونحن ما تصدينا في هذا إلاّ لمعرفة آحاد ما اختاره واصطفاه من كل نوع نوع من المخلوقات المحصورة في الوجود القائمة بنفسها والمتحيزة وغير المتحيزة من القائمة بنفسها وغير القائمة بنفسها، والنوع الذي لا يقبل التحيز إلاّ بالتبعية وما تألف من ذلك وما لم يتألف، وانحصرت أقسام العالم والموجودات فيما ذكرناه، وثم تفصيل نسبي يمكن أن يستقل به العقل وهي مفاضلة الأشياء بعضها على بعض بتميز مراتبها، وانفعال بعضها على بعض، وتأثير بعضها في بعض، وتوقف بعضها على بعض، ولكن مفاضلة القرب الإلهيّ بطريق العناية بهم لا بما تعطيه حقائقهم، لا يكون ذلك إلاّ بتعريف الله إيانا بما يعطيه في قلوبنا من علوم الإلهام، أو بما يبلغنا من ذلك في الكتب المنزّلة والإخبارات النبوية. وأما طريق آخر غير ذلك فما هو ثم، فالسنن الدلالات العقلية لأنها طرق، والفرائض هي التعريفات الشرعية بما هو الحق تعالىٰ عليه بالنسبة إليه وبالنسبة إلى خلقه، فاعبدوا الله عباد الله على النعت الذي وصف به نفسه في كتابه أو على لسان ألسنة رسله من غير زيادة ولا نقصان ولا تأويل يؤدّي إلى تطفيف أو رجحان، بل سلم إليه جل جلاله ما وصف به نفسه، وإن استحال أو تناقض فذلك لقصورنا وجهلنا بما هو الأمر عليه، وقد وفينا ما أعطته القوّة العقلية النظرية من العلم في وجوده بصدق المبلغين عنه تعالىٰ ما أنزله على عبيده قلنا القبول من غير اعتراض، ولو تناقض الأمر واستحال فما هو للعقل مجهول بالذات كيف يدخله فيما يرجع إلى ذاته في وجوب أو جواز أو استحالة، فلا يتعدّى العقل حدّه ويسلم إليه سبحانه ما أنزله وعرفنا به ممّا هو عليه، فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فلنا الإيمان به

وبما جاء من عنده على علمه في ذلك في كتاب وعلى لسان رسوله، والله يوفقنا للوقوف عند ذلك فإنه لا يهلك على الله إلاَّ هالك. انتهى الجزء الخامس والتسعون.

(الجزء السادس والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الحادي والتسعون

في معرفة الورع وأسراره

[نظم: الكامل]

وَرَعُ الطريقة في اجْتِنَاب مَحَارِمِ — مهما أتتك وما له وجهانِ

فإذا أتاك مخلّصاً لجلاله — وتركْتَه وَرَعاً فمن نُقْصَانِ

لما جهلتَ الأمر قلتَ بعكسه — وتبيَّن النقْصانُ في الإيمانِ

الورع الاجتناب وهو في الشرع اجتناب الحرام والشبه لا اجتناب الحلال، قال ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبكَ**» فِي هَذٰا الْبَابِ وهذا عين ما قلناه، وهذا الحديث من جوامع الكلم وفصل الخطاب. وقال بعضهم: ما رأيت أسهل عليّ من الورع كلما حاك له شيء في نفسي تركته عملاً بهذا الحديث. فأما الحرام النص فمأمور باجتنابه لأنه ممنوع تناوله في حق من منع منه لا في عين الممنوع، فإن ذلك الممنوع بعينه قد أبيح لغيره لكون ذلك الغير على صفة ليست فيمن منع منه إباحته له تلك الصفة بإباحة الشارع، فلهذا قلنا: لا في عين الممنوع فإنه ما حرم شيء لعينه جملة واحدة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩] فعلمنا أن الحكم بالمنع وغيره مبناه على حال المكلف وفي مواضع على اسم الممنوع، فإن تغير الاسم لتغير قام بالمحرّم تغير الحكم على المكلف في تناوله إمّا بجهة الإباحة أو الوجوب، وكذلك إن تغير حال المكلف الذي خوطب بالمنع من ذلك الشيء واجتنابه لأجل تلك الحال فإنه يرتفع عنه هذا الحكم ولا بدّ، وإذا كان الأمر على هذا الحدّ فما ثم عين محرّمة لعينها. وأمّا اجتناب الشبهة فالشبهة هي التي لها وجه إلى الحرام ووجه إلى الحل على السواء من غير تغليب، فليس اجتنابها بأولى من تناولها ولا تناولها بأولى من اجتنابها، فالورع يترك تناولها ترجيحاً لجانب الحرمة في ذلك، وغير الورع لا يترك ذلك فبينهما هذا القدر. وأما ترك ما لا شبهة فيه فذلك الحلال المحض، فإن تركه أعني ترك الفضل منه لأنه لا يصحّ إلاَّ ترك الفضل منه فذلك الترك زهد لا ورع، فإن الزهد في الحرام والشبهة ورع، والترك في الحلال الفاضل زهد. وأمّا غير الفاضل وهو الذي تدعو إليه الحاجة فالزهد فيه معصية وما بقي إلاَّ توقيت الحاجة إلى ذلك، وما حدّ الفاضل منه الذي يصحّ فيه الزهد، فنذكر ذلك في باب الزهد إن شاء الله.

والورع من المقامات المشروطة ويستصحب العبد ما دام مكلفاً ولا يتعين استعماله إلاَّ عند وجود شرطه وهو عام في جميع تصرّفات المكلف ما هو مخصوص بشيء من أعماله

دون شيء بل له السريان في جميع الأعضاء المكلفة في حركاتها وسكونها وما ينسب إليها من عمل وترك، وقد قيل: إن للورع حكماً في الأسرار والأرواح وليس ذلك بصحيح في الورع المشروع، فإن الشبهة في المعاني والمعارف والأسرار مستحيلة عند العارفين، وإنما تكون الشبهات في العلوم النظرية الحاصلة بالأدلة العقلية، فأولئك يجب عليهم الورع في النظر الفكري حتى يخلصوه من النظر المحرّم كالنظر في الذات الإلهية، ويخلصوه من الشبهة كالنظر لله أو للسمعة، فيخفى على بعض النفوس ذلك لشرف العلم فيتخيل أنه يطلبه لله وهو يطلبه للدنيا، أو لغير الله فيجتنب نية ذلك الطلب لا يجتنب العلم فإن طلب العلم ليس بمحرّم عليه، فمتعلق التحريم تلك النية الفاسدة، وهنا نظر هل تقدح تلك النية في فضل طلب العالم أو يبقى طلب العلم على فضله يعطي حقيقة سعادته في الآخرة وتكون العقوبة على مجرّد النيّة في ذلك وهو الذي نعتمد عليه في باب تحقيق الموازنة الإلهية؟ فمن قال: الكون كله شبهة وبه نقول فليس ذلك كما يتوهمه السامع وإنما الصورة الرحمانية أدتنا إلى هذا القول، ومثل ذلك لا يتورع فيه ولا يجتنب فإنك لا تعرف منه إلاّ أنت، فإن انتقلت عنك فقد جهلت ذاتك، ومن أوجدك فإنه قال: من عرف نفسه عرف ربه، فالورع في هذه الشبهة محال، بل ينبغي أن تتناول من حيث أنها شبهة فذلك محلها الذي يحلها فإنها لا تخلص لأحد الطرفين أبداً، وهذا بحر هلك فيه أكثر العقول وأكثر العارفين إلاّ من رحم الله وركب سفينة نوح نجاته.

والجامع لباب الورع أن تجتنب في ظاهرك وباطنك وجميع أعمال أعضائك المكلفة كل عمل، وترك لا يكون لله على الحدّ المشروع فيه المخلص له الذي لا شبهة تضره ولا تقدح فيه، فهذا اللام الذي في لله هي الرابطة لهذا الباب، وكل مقام في طريق الله تعالىٰ فهو مكتسب ثابت، وكل حال فهو موهوب غير مكتسب غير ثابت إنما هو مثل بارق برق، فإذا برق إمّا يزول لنقيضه وإمّا أن تتوالى أمثاله، فإن توالت أمثاله فصاحبه خاسر، وكل مقام فإمّا إلهيّ أو ربانيّ أو رحمانيّ غير هذه الثلاث الحضرات لا يكون، وهي تعم جميع الحضرات وعليها يدور الوجود وبها تنزلت الكتب وإليها ترتقي المعارج، والمهيمن عليها ثلاثة أسماء إلهية، الله والرب والرحمن، من حكم اسم ما من الأسماء الإلهية ينعت به في ذلك الوقت أحد هذه الأسماء الثلاثة ويكون حكمه بحسب مقام هذا العبد المحكوم عليه المؤثر فيه من حيث ما هو مسلم أو مؤمن أو محسن، وآثاره في عالم ملك العبد أو في عالم جبروته أو في عالم ملكوته، وعمله فيه إمّا بحكم الإطلاق وهو العمل الذاتيّ، وإمّا بحكم التقييد وهو عمل الصفة وحكمه بعمل الصفة إما بصفة تنزيه وسلب وإما بصفة فعل، هذا هو الضابط للمقامات وأحوالها سواء عرفه السالك أو لم يعرفه فإنه لا يخلو من هذه الأحكام كل كون لكنه لا يعرف ذلك كل أحد فأقول: إن الورع له مقام ولمقامه حال وهو مشروط كما ذكرنا وينتهي بانتهاء التكليف، فأما مقام الورع فهو التقييد بصفة التنزيه لأن حقيقته الاجتناب وهو إلهيّ وصاحبه مجهول لا يعرف، وحاله أن يكون صاحب علامة في نفسه أو في المتورع فيه والاسم الله ينظر

إليه دائماً فينظر إليه في عالم ملكه من حيث ما هو مسلم فيؤثر في أفعاله وكلما ظهر على جوارحه، فيجتنب كل ما يقدح في حصول هذا المقام وينظر إليه في عالم جبروته من حيث ما هو مؤمن فيؤثر فيه فلا تكذب له رؤيا جملة واحدة، ويجتنب في خياله كما يجتنب في ظاهره لأن الخيال تابع للحسّ، ولهذا إذا احتلم المريد برؤيا عاقبه شيخه، ألا ترى أنه ما احتلم نبيّ قط ولا ينبغي له ذلك ولا العارفون بالله ذوقاً، فإن الاحتلام برؤيا في النوم أو في التصوّر في اليقظة فإنما هو من بقية طبيعية في خياله وهو كذب فإنه يظن أنه في الحسّ الظاهر، وقد قلنا: إن الورع يجتنب الكذب فلو اجتنبه في الحسّ لأثر في خياله، فإذا رأيتم صاحب مقام الورع يغتسل من نوم فذلك لماء خرج منه وهو نائم لضعف الأعضاء الباطنة وهو مرض طرأ في مزاجه لا عن رؤيا أصلاً لا في حلال ولا في حرام. وأما إذا نظر إليه في عالم ملكوته فأثره فيه اجتناب التأويل فيما يرد عليه من المخاطبات الإلهية والتجلي الإلهيّ إذا كان كل ذلك في السور فلا يعبر ما رآه ولا يتأوّل ما خوطب به فإنه كله إلهيّ وكل إلهيّ مجهول، كما أن الورعين مجهولون لأنه اجتناب وترك ولا يتميز الأمر من خارج إلاّ بالفعل، فإن نطق الورع بما ينبغي أن يجتنب ذلك الأمر ولأجله اجتنبه فقد أخلّ بمقام الورع فإنه مقامه أن يكون مجهولاً وقد عرف بأنه ورع فزال عنه حكم مقامه بل ما كان قط في مقام الورع وورعه في اجتنابه معلول فلا يسلم له، وأما الربانيّ والرحمانيّ فعلى هذا المجرى سواء فخذه واعمل عليه ترى عجباً، فقلّ أن تجده في غير هذا الكتاب، فإن أكثر الناس بل ربما كلهم ما أبانوا عن هذه المقامات والأحوال بما يعطيه تفصيل الوجود، وإن كانوا يعرفونها فإنهم اتكلوا في ذلك، على أن السالك إذا دخل وصدق في التوجّه أبينت له الأمور على ما هي عليه فيعرف حاله.

الباب الثاني والتسعون

في معرفة مقام ترك الورع

[نظم: الكامل]

شَـفْـعِـيَّـةُ الإنـسـان تُـؤْذِنُ بـالـورَعْ والـوتْـرُ فـيـهـا مُـوجـبٌ تَـرْكَ الـوَرَعْ

الـعـيـنُ واحـدةٌ إذا حـقَّـقْـتَـهـا مَضَت المطامعُ فانتفى حُكْمُ الطَّمَعْ

مـا تـطـلـب الأعـمـالُ عـينَ وجـودهـا إلاّ لـضَـعْـفٍ فـي الـبـصـائـر أو صَـدَعْ

لما كانت الأمور كلها لها أربعة أحكام: حكم ظاهر، وحكم باطن، وحكم حدّ، وحكم مطلع، وكان الورع يحكم على ظاهر صاحبه وباطنه بالحدّ فأبان له هذا العمل وجه الحق في كل شيء وهو المطلع فاطلع فما وقعت عينه على الأشياء وإنما وقعت عينه على وجه الحق فيها الذي ارتبطت في وجودها به والذي ظهرت عنه فاقتضى حاله ترك الورع، لأنه لا ينبغي أن يجتنب رؤية وجه الحق في الأشياء وما هو من حكم ما لا ينبغي، فإن العبد لا يقدر أن يدفع عن نفسه التجلي إذا كان حقيقة فهو محكوم عليه به، ولست أعني بقولي ترك الورع أن صاحبه يتناول الحرام أو الشبهة بعد علمه بذينك هذا لا يقول به أحد، وإنما صاحب

هذا المقام يتناول الأشياء بحسب ما خاطبه به الشرع، فلا يأكل إلاً حلالاً، ولا يتصرّف إلاً حلالاً، فإن العلامة أزالها الحق عنه برؤية الوجه، والورع بغير علامة سوء ظن بالناس، وحاشى أهل الله ولا سيما أصحاب مشاهدة الوجه أن يسيؤا الظن بعباد الله أو يخطر شيء من قبائحهم ببال صاحب هذا الحال المتمكن في مقامه، ولقد لقي بعض أصحابنا بعض الأبدال في سياحته، فأخذ يذكر له ما هم الناس عليه من فساد الأحوال في الملوك والولاة والرعايا فغضب البدل وقال له: ما لك وعباد الله؟ لا تدخل بين السيد وعبده، فإن الرحمة والمغفرة والإحسان لهؤلاء يطلبون، أتريد أن تبقى الألوهية معطلة الحكم؟ اشتغل بنفسك وأعرض عن هذه الأشياء وليكن نظرك إليه تعالىٰ وشغلك بالله، ولقد اتفق لي في بدايتي وما ثم إلاً بداية، وأما النهاية فمقولة غير معقولة دخلت على شيخنا أبي العباس العريبي وأنا في مثل هذه الحال وقد تكدر عليّ وقتي لما أرى الناس فيه من مخالفة الحق فقال لي صاحبي: عليك بالله، فخرجت من عنده ودخلت على شيخنا أبي عمران الميرتلي وأنا على تلك الحالة فقال لي: عليك بنفسك، فقلت له: يا سيدنا قد حرت بينكما هذا أبو العباس يقول: عليك بالله، وأنت تقول: عليك بنفسك، وأنتما إمامان دالان على الحق، فبكى أبو عمران وقال لي: يا حبيبي الذي دلّك عليه أبو العباس هو الحق وإليه الرجوع، وكل واحد منا دلّك على ما يقتضيه حاله، وأرجو إن شاء الله أن يلحقني بالمقام الذي أشار إليه أبو العباس فاسمع منه فإنه أولى بي وبك فما أحسن إنصاف القوم، فرجعت إلى أبي العباس وذكرت له مقالة أبي عمران وقال لي: أحسن في قوله هو دلّك على الطريق وأنا دللتك على الرفيق فاعمل بما قال لك وبما قلته لك فتجمع بين الرفيق والطريق، وكل من لا يصحب الحق في سفره فليس هو على بينة من سلامته فيه، وكل من تورع بغير علامة له من الله في الأشياء وما ثم حكم معين في ذلك الأمر من رؤية معاملة خاصة مشاهدة في الوقت تقتضي الحرام أو الشبهة فصاحب هذا الورع مخدوع مقطوع به عن الله، فإن حاله سوء الظن بعباد الله، فباطنه مظلم وخلقه سيء، فهو ولا شيء في حكم واحد، بل لا شيء أحسن منه، فينبغي للإنسان أن يتحفظ إذا أراد أن يكون ورعاً، كما أوجب الله عليه بأن يتحقق ويكون على بصيرة فيما يتورع، وهذا قليل العلم به لمن لا علامة له لأن الإنسان لو رأى إنساناً على مخالفة حق مشروع وفارقه لحظة ثم رآه في اللحظة الأخرى وحكم عليه بالحالة الأولى فما وفى الألوهية حقّها ولا الأدب مع الله حقّه وكان قرين إبليس حليف الخسران سيىء الظن بالله وبعباده وكان ورعه مقتاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والتسعون

في الزهد

[نظم: الكامل]

الـزُّهْـدُ تَـرْكُ مـحـلَّـلٍ ومـحـلَّـلِ ... ومـحـلَّـلٍ فـازهَـدْ فـزُهْـدُكَ أَزْهَـدُ

والـتَّـرْكُ شـيءٌ لا وجـودَ لـعـيـنـه ... ولـه لـسـانٌ فـي الـشـريـعـة يُـحْـمَـدُ

فـي الـزهـد تَـعْـظـيـمُ الأمـور ومـا لـه		عـنـد الـمـحـقِّـق قـيـمـةٌ لا تُـجْـحَـدُ

الزهد لا يكون إلاً في الحاصل في الملك، والطلب حاصل في الملك، فالزهد في الطلب زهد لأن أصحابنا اختلفوا في الفقير الذي لا ملك له هل يصحّ له اسم الزاهد أو لا قدم له في هذا المقام؟ فمذهبنا أن الفقير متمكن من الرغبة في الدنيا والتعمّل في تحصيلها ولو لم يحصل فتركه لذلك التعمّل والطلب والرغبة عنه يسمّى زهداً بلا شك وذلك الطلب في ملكه حاصل. فلهذا حددناه بما ذكرنا. ولقد فاوضت في هذه المسألة جماعة من أهل الله فأكثرهم قال بقولنا، وسبب ذلك أن صاحب الذوق لا بدّ أن يرى لتركه طلب الدنيا والرغبة فيها أثراً إلهياً في قلبه، فلو لم يكن للأمر وجود عند الله واعتبار ما صحّ أن يكون له أثر في التجلي الإلهيّ لصاحب هذا الحال وهو الصحيح فلنقل أن للزهد الذي ذكرناه مقاماً وحالاً، فمقامه الإلهيّ مطلق وهو زهده في كل اسم إلهيّ يحول بينه وبين عبوديته، والربانيّ مقيد بصفة التنزيه عن حكم هذا الاسم عليه، والرحماني هو صرفه على ما يستحقه أعني هذا المزهود فيه، فأما في الملك من كونه مسلماً فالزهد في الأكوان وهو الحجاب الأبعد الأقصى. وأما في الجبروت من كونه مؤمناً فالزهد في نفسه وهو الحجاب الأدنى الأقرب. وأما في الملكوت من كونه محسناً فالزهد في كل ما سوى الله وهنا يرتفع الحجاب عند الطائفة. قال أبو يزيد الأكبر: ليس الزهد عندي بمقام إني كنت زاهداً ثلاثة أيام: أول يوم زهدت في الدنيا واليوم الثاني زهدت في الآخرة واليوم الثالث زهدت في كل ما سوى الله، فناداني الحق: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن لا أريد لأني أنا المراد وأنت المريد، وقد انتقد عليه هذا القول بعض أهل الطريق وجهل مقام أبي يزيد في ذلك، وقد تكلمنا على قصده بهذا القول وبيّنا فساد هذا القول أعني قول المعترض عليه في غير هذا الموضع وهو من المقامات المستصحبة للعبد ما لم ينكشف له، فإذا كشف الغطاء عن عين قلبه لم يزهد ولا ينبغي له أن يزهد فإن العبد لا يزهد فيما خلق له، ولا يكون زاهداً إلاً من يزهد فيما خلق من أجله وهذا لا يصحّ كونه، فالزهد من القائل به جهل في عين الحقيقة لأنه ما ليس لي لا أتصف بالزهد فيه، وما هو لي لا يمكنني الانفكاك عنه فأين الزهد؟ فلنقل صاحب هذا الحكم هذا هو الزهد الذي يستحق هذا الاسم ولنا في هذا المقام الزهدي نظم: [الكامل]

الـعـيـب مـنـك وأنـت لا تـدري		فـالـزُّهْـدُ مـثـلُ صـلاتـي الـوتْـرِ
وسـراجُ نـفـسـك نـورُه مـتـعـلِّـقٌ		بـجـمـيـع مـا فـي الـكـون مـن أمْـرِ
فـاطـفِ الـسـراج يـزول كـل تـعـلُّـقٍ		فـالـزهـدُ فـيـك كـلـيـلـة الـقَـدْرِ
هي من غروب الشمس حتى تنتهي		بـالـحـكـم فـيـك كـمـطـلـع الـفَـجْـرِ

يقول: لو رأيت الحق لم تزهد، فإن الله ما زهد في الخلق وما ثم تخلق إلاً بالله فبمن تتخلق في الزهد، انظر إلى هذا المعنى فإنه دقيق جداً.

الباب الرابع والتسعون

في معرفة مقام ترك الزهد

[نظم : البسيط]

الزُّهْدُ تَرْكٌ وتركُ التَّرْكِ معلومٌ — بأنه مَسْكُ ما في الكف مَقْبُوضُ
الأرضُ قَبْضَتُه وهو الغنيُّ فأيـ — ـن الترك فهو محالٌ فيك مفروضُ
لا ينعم الحقُّ بالنعما فأنت لها — وقد زَهِدْتَ فهذا اللفظ تَعْرِيضُ
فالزهدُ ليس له في العلم مرتبةٌ — وتَرْكُهُ عند أهل الجَمْع مَفْروضُ

اعلم أن ترك الترك إمساك، والزهد ترك، وترك الزهد ترك الترك، فهو عين رجوعك إلى ما زهدت فيه، لأن العلم الحق ردّك إليه والحال يطلبه فماله حقيقة في باطن الأمر لكن له حكم ما في الظاهر فيصحّ هذا القدر منه، وبقي هل يقع الإمساك الذي هو ترك الزهد عن رغبة في الممسوك أو لا عن رغبة، فاختلفت أحوال الناس فيه، فمن أمسك لا عن رغبة فهو زاهد أمين على إمساك حقوق الغير حتى يؤديها إلى أربابها في الأوقات المقدرة المقررة، وقد يكون عن كشف وعلم صحيح بأعيان أصحابها وقد لا يكون غير أنه لا يتناول منها شيئاً في حق نفسه إذ كان بهذه المثابة، ومن أمسك عن رغبة في الممسوك وهم رجلان: الواحد راجع عن مقام الزهد بلا شك لمرض قام به في نفسه فهذا ليس بشيء، والرجل الآخر وهم الأنبياء والكمل من الأولياء فامسكوا باطلاع عرفانيّ أنتج لهم أمراً عشقه بما في الإمساك من المعرفة والتحلّي بالكمال لا عن بخل وضعف يقين، أرسل الله على أيوب رجل جراد من ذهب فسقط عليه فأخذ يجمعه في ثوبه فأوحى الله إليه: ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ فقال: لا غنى لي عن خيرك، فانظر ما أعطته معرفته، وما زهد من زهد إلاَّ لطلب الأكثر فزهد في الأقل ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٧] فأين الزهد؟ فما تركوا الدنيا إلاَّ حذراً أن يرزأهم في الآخرة فهذا عين الطمع والرغبة فيما يتخيل فيه أنه زهد وهذا هو مقام ترك الزهد، وأما حالة فالزهد في الدنيا ولهذا لا يثبت.

الباب الخامس والتسعون

في معرفة أسرار الجود وأصناف الأعطيات مثل الكرم والسخاء والإيثار على الخصاصة وعلى غير الخصاصة والصدقة والصلة والهدية والهبة وطلب العوض وتركه

[نظم: الكامل]

رُتَبُ العطاء كثيرةٌ لا تُحْصَرُ — وبها على أعدائنا نَسْتَنْصِرُ
بالجود صحَّ وجودُنا في عيننا — بل نحن منه على الحقيقة مَظْهَرُ

فصل الجود: عن الجود صدر الوجود، والجود بفتح الجيم المطر الكثير وهو مقلوب

وجد مثل جذب وجبذ فحروفهما واحدة بالاشتراك في المعنى، فمتعلق الجود من الحق في الأعيان التي هي المظاهر ظهوره فيها ومتعلق الجود من المظاهر على الظاهر ما جادت به عليه باستعدادها الذاتي من الثناء بالأسماء الإلهية التي كسبه جودها من وجودها، فالجود من الحق امتنان ذاتي، والجود من الأعيان ذاتي لا امتناني فهذا الفرق بين الجودين، وهذا معنى قولهم في الجود إنه العطاء قبل السؤال.

فصل الكرم: وأما عطاء الكرم فهو العطاء بعد السؤال وهو على نوعين: سؤال بالحال وسؤال بالمقال، فسؤال الحال عن كشف من الطرفين، وسؤال المقال من العبد معلوم: يا رب يا رب أعطني، اغفر لي، ارحمني، اهدني، ارزقني، اجبرني، عافني، اعف عني، لا تخزني، لا تفتني، وأمثال ذلك. وسؤال الحق: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] وكل طلب تصوّر من الحق يطلبه من عباده وهي الفرائض كلها، فمن الكرم تؤدّي الفرائض، ومن الجود تكون النوافل إلاّ لمثل رسول الله ﷺ فإنها من الجود فهي تلحق بالفرائض وكون ذلك نافلة أخبار صادق قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩].

فصل السخاء: ورد في حديث أبي بكر النقاش في مواقف القيامة اسم السخي على الله وهو مذكور في هذا الكتاب في باب الجنة منه. وأما عطاء السخاء فهو العطاء على قدر الحاجة وذلك عطاء الحكمة فهو من اسمه الحكيم، فسخاء الحق قول موسىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٨] ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٧] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١]. وأما سخاء العبد فإعطاؤه كل ذي حق حقه وإنصافه، فلنفسه عليه حق، ولأهله عليه حق، ولعينه عليه حق، ولزوره عليه حق.

فصل الإيثار: أما الإيثار فليس للحق منه صفة إلاّ بوجه بعيد في ذكره سوء أدب بل ما هو حقيقة فتركه أولى، وما ذهب إليه إلاّ من لا علم له ولا أدب من أهل الشطح، فلنقل أنّ الإيثار قد يكون عطاء محتاج لمحتاج، وقد يكون على الخصاصة ومع الخصاصة أو توهم الخصاصة، وأما في جانب الحق فهو إعطاؤه الجوهر الجود لخلق عرض من الأعراض لتعلق الإرادة بإيجاده لا بإيجاد المحل، فيوجد المحل تبعاً ضرورة، إذ من شرط وجود العرض وجود المحل، والجوهر محتاج فيما أعطاه الحق من خلق العرض فيه، إذ لا يكون له وجود إلاّ بوجود عرض ما، وسواء كان الجوهر متحيزاً أو غير متحيز، ومؤلفاً مع غيره أو غير مؤلف، فهذا عطاء على خصاصة مع خصاصة، وأما على غير الخصاصة فهو اتصاف العبد في التخلّق بالأسماء الإلهية واتصاف الحق في نزوله بأوصاف المحدثات، وهذا كله واقع قد ظهر حكمه في الوجود وتبين.

فصل الصدقة: فقد ذكرنا ذلك في باب الزكاة وهي ههنا تصدق الحق على العبد بإبقاء

عينه في الوجود بإيجاده أوّلاً مع علمه بأنه إذا أوجده يدعي الألوهية ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] ولا بدّ من إيجاده لما سبق في العلم والصدقة من العبد على الحق، فإنّ العبد يجد في نفسه عزّة الصورة ومع هذا يقرّ بالعبودة لعزّة الله، وأيضاً هي ما يظهر من المحامد المحدثة التي لا تصح لله إلاّ بعد وجود المحدث وهو كل ما سوى الله، وإنما سميت صدقة لأن العبد المختار في محامد الله في نفسه فإنه قال تعالىٰ في حقه لما بين له السبيل إلى سعادته: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] فإنه ذو اختيار في أفعاله، ولهذا يصحّ منه القبول والرد ويعاقب ويثاب، وعلى هذا قام أصل الجزاء من الله تعالىٰ لعباده.

فصل عطاء الصلة: وأما عطاء الصلة فهي لذوي الأرحام حقاً وخلقاً، يقول تعالىٰ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ**» فنسبتها للحق نسبتها للعبد، فالرحمن رحم لنا ونحن رحم للرحمن.

فصل عطاء الهدية: وهو عطاء عن بيان، ولهذا اشتركت في حروف الهدي لأنه بالهدي أهدى، فهدية الحق للعبد نفسه، وهدية العبد للحق ردّ تلك النفس إليه بخلعة تكسبه محبة ربه ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١].

فصل عطاء الهبة: وهو من الحق إعطاء لينعم لا يقترن معه طلب جزاء، ومن العبد عمله لحق الربوبية لا للجزاء.

فصل: وأما طلب العوض وتركه فمن الحق قوله ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّه لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» و : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] ومن العبد هو ما يطلبه من الجزاء على عمله الذي وعده الله به ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢].

فصل: وأما ترك طلب العوض فمن الحق أنه العامل، ولا يتصوّر من المالك إذا كان هو العامل أن يطلب ما هو عنده، فإن الحاصل لا يبتغي، ومن العبد فإنه لا يرى نفسه عاملاً، فما فعل شيئاً يطلب بذلك الفعل عوضاً من الله حيث أعطاه من نفسه، فهذه فصول محققة نبهناك بها على ما هو الأمر عليه وتفصيلاتها تبدو لك مع الآنات في نفس سلوكك، وهذا كله مقام إلهيّ في المحسنين خاصة، وصاحبه مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرّف. ثم إنّ هذا العطاء لا بدّ أن يكون مطلقاً أو مقيداً، فمن أعطى بيد حق أطلقه فيعمّ عطاؤه جميع عباد الله لا يخصص عيناً من عين ممّا يصلح لذلك المعطي مثل ذلك، إن كانت الأعطية من النقود فلا يعطيها إلاّ من له التصرّف فيها وهو الإنسان، ولا يشترط فيه صغيراً ولا كبيراً ولا ذكراً ولا أنثى ولا غنياً ولا فقيراً ولا مؤمناً ولا كافراً ولا عاقلاً ولا مجنوناً، بل هو في ذلك العطاء كمطلق الرزق على كل حيوان، وكذلك إن كان مما يلبس مثل النقود سواء يعطيه لأهله، وأما إن كان مأكولاً فيعطيه لكل متغذ يأكل ذلك الصنف من الغذاء من حيوان أوإنسان وليس له اختيار ولا تمييز بل هو مع أول من يلقاه، فإن ردّه عليه حينئذ أعطاه الثاني وهكذا حتى يجد من يأخذه منه، وهذا لا يكون إلاّ للربانيين من الاسم الرب، والرحمانيين من الاسم الرحمن، وليس للإلهيين مدخل في العطاء المطلق، وأثر هذا العطاء ظاهر في كل موجود لا أحاشي أعني من الأصناف لا في آحاد أشخاص الموجودات،

وهذا عطاء المحسن لا المؤمن ولا المسلم. وأما إن كان العطاء مقيداً فهو بحسب ما تقيد به، فحكم ذلك راجع إلى حكم الشرع فيه، فيعمل الأولى فالأولى، ويبتدىء بالذي أمره الشارع أن يبتدىء به ويبحث عنه حتى يجده، ولا يعطي على هذا الحد إلاَّ الإلهيّ من الاسم الله المؤمن المحسن المسلم وأثر هذا العطاء أيضاً عام.

الباب السادس والتسعون

في الصمت وأسراره

[نظم: الكامل]

الله قال على لسان عبيده ... فالصَّمْتُ في الأكوان نَعْتٌ لازِمُ

ما ثَمَّ إلاَّ من يكلِّم نفْسَهُ ... فهو السميع كلامه والعالمُ

وهو الوجودُ فليس إلاَّ عَيْنُه ... هذا هو الحقُّ الصريحُ الحاكِمُ

اعلم وفقك الله أنّ الصمت أحد الأربعة الأركان التي بها يكون الرجال والنساء أبدالاً، قيل لبعضهم: كم الأبدال؟ قال: أربعون نفساً، قيل له: لِمَ لَمْ تقل رجلاً؟ قال: قد يكون فيهم النساء كما قال ﷺ في الكمال، فذكر أنه يكون أيضاً في النساء وعيّن منهن مريم إبنة عمران وآسية امرأة فرعون وله حال ومقام، فأما مقامه فهو أنه لا يرى متكلماً إلاَّ من خلق الكلام في عباده وهو الله تعالىٰ خالق كل شيء، فالعبد صامت بذاته متكلم بالعرض، وأما حاله فهو أن يرى أنّ الله وإن خلق الكلام فيه فالعبد هو المتكلم فيه كما هو المتحرّك بخلق الحركة فيه، ولا يصحّ أن يصمت مطلقاً أصلاً فإنه مأمور بذكر الله تعالىٰ في أحوال مخصوصة أمر وجوب، فهو مقام مقيد بصفة تنزيه لأنه وصف سلبي وحكمه في ظاهر الإنسان، وأما باطنه فلا يصحّ فيه صمت فإنه كله ناطق بتسبيح الله فالصمت محال، وإنما الكلام على الصمت المعلوم بالعرف، ومن تخلل صمته كلام في غير فرض ولا ذكر لله فما صمت، فالصامت هنا هو الذي يقيم نشأة مصمتة الأجزاء لا يتخللها حين فارغ مقدر حينئذ يكون صامتاً، وإذا أراد الإنسان أن يختبر نفسه هل هو ممّن صمت كما ينبغي فلينظر هل له فعل بالهمة المجردة فيما من شأنه أن لا يفعل إلاَّ بالكلام أم لا؟ فإن أثر وحصل المقصود فهو صامت حقيقة، مثل أن يريد أن يقول لخادمه: اسقني ماء وائتني بطعام، أو سر إلى فلان فقل له كذا وكذا ولا يشير إلى الخادم بشيء من هذا كله فيجد الخادم في نفسه ذلك كله بأن يخلق الله في سمع الخادم عن ذلك يقول فلان: قال لي افعل كذا وكذا يسمع ذلك حسّاً بأُذنه ولكن يتخيل أنه صوت ذلك الصامت وليس كذلك، فمن ليست له هذه الحالة فلا يدعي أنه صامت. وأما الصامت المتكلم بالإشارة فهو يتعب نفسه وغيره ولا ينتج له شيئاً بل هو ممّن يتشبه بالأخرس الذي يتكلم بالإشارة فلا يعوّل عليه، وهذا ممّا غلط فيه جماعة من أهل الطريق، فمن نصح نفسه فقد أقمنا له ميزان هذا المقام الذي يزنه به حتى لا يتلبس عليه الأمر، وهذا لا يكون إلاَّ للإلهيين المحسنين، لا لغيرهم من المؤمنين والمسلمين الذين لم يحصل لهم مقام الإحسان.

الباب السابع والتسعون

في مقام الكلام وتفاصيله

[نظم: البسيط]

إنّ الكلامَ عباراتٌ وألفاظُ ... وقد تنوب إشاراتٌ وإيماءُ
لولا الكلامُ لكنا اليوم في عَدَم ... ولم تكن ثَمَّ أحكامٌ وأنباءُ
وإنه نَفَسُ الرحمن عيَّنَهُ ... عقلٌ صريحٌ وفي التشريع أنباءُ
فيه بدَتْ صورُ الأشخاص بارزةً ... معنًى وحسّاً وذاك البَدْوُ إنشاءُ
فانظر تَرَ الحكمةَ الغرَّاءَ قائمةً ... فيها لعين اللّبيبِ القلبِ أشياءُ

الكلام صفة مؤثرة نفسية رحمانية مشتقة من الكلم وهو الجرح فلهذا قلنا مؤثّرة كما أثر الكلم في جسم المجروح، فأول كلام شق أسماع الممكنات كلمة ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فما ظهر العالم إلاّ عن صفة الكلام وهو توجّه نفس الرحمن على عين من الأعيان ينفتح في ذلك النفس شخصية ذلك المقصود فيعبر عن ذلك الكون بالكلام وعن المتكوّن فيه بالنفس، كما ينتهي النفس من المتنفس المريد إيجاد عين حرف فيخرج النفس المسمّى صوتاً، ففي أي موضع انتهى أمد قصده ظهر عند ذلك عين الحرف المقصود إن كان عين الحرف خاصة هو المقصود، فتظهر الهاء مثلاً إلى الواو وما بينهما من مخارج الحروف، وهذه تسمّى معارج التكوين فيها يعرج النفس الرحمانيّ، فأي عين عين من الأعيان الثابتة اتصفت بالوجود فلا بدّ لكل متكلم من أثر في نفس من كلمة، غير أنّ المتكلم قد يكون إلهياً وربانياً ورحمانياً، فمن كونه ربانياً ورحمانياً لا يشترط في كلامه خلق عين ظاهرة سوى ما ظهر من صورة الكلام التي أنشأها عند التلفظ، فإن أثرت نشأة كلامه نشأة أخرى وهو أن يقول لزيد: قم فهذا المتكلم قد أنشأ نشأة قم، فإن قام زيد لأمره فقد أنشأ هذا الآمر صورة القيام في زيد عن نشأة لفظة قم فهو إلهيّ لأن إنشاء الأعيان إنما هو لله وهذا عام في جميع الخلق، فإن لم يسمع منه ولا أثرت فيه نشأة أمره فهو قاصر الهمة وليس بإلهيّ في هذه الحال وإنما هو ربانيّ أو رحمانيّ، ولا يلزم للربانيّ والرحمانيّ سوى إقامة نشأة الكلام خاصة، والإلهيّ هو الذي ذكرناه، غير أن الإلهيّ على نوعين: إلهيّ كما ذكرناه وإلهيّ يؤثر كلامه في الأشياء مطلقاً من جماد ونبات وحيوان وكون أي كون كان علواً وسفلاً، فهذا هو الإلهيّ المطلوب في هذا الطريق، ولا يصحّ وجوده عاماً أبداً في هذه الدار بل محله الجنان فإنه لا أكبر من محمد ﷺ وقد قال: لمن ﴿حَقَّتْ﴾ عليه ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١] قل لا إله إلاّ الله فما ظهر عن نشأة أمره نشأة لا إله إلاّ الله في محل المأمور وإن كان على بصيرة فيه ولكنه مأمور أن يأمر وهو حريص على الأمة، فالمأمور ما امتنع وإنما الممتنع لا إله إلاّ الله، فإنّ هذا اللفظ هو المأمور أن يكون في هذا المحل فلم يكن، فلو تكوّن في محل هذا الشخص لظهر عينه وأعطاه اسم الإسلام، كما أن هذا الشخص لما قال له الحق: ﴿كُن﴾ وهو في العدم لم يتمكن له إلاّ أن

يكون ولا بدّ فقد علمت من هو المأمور بالوجود في التحقيق وهو قول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] أي إنك لا تقدر على من تريد أن تجعله محلاً لظهور ما تريد إنشاءه فيه أن يكون محلاً لوجود إنشائك فيه، فليس كل متكلم في الدنيا بإلهيّ مطلق، لكن له الإطلاق فيما يريد أن ينشئه في نفسه لا في غيره، فاعلم سرّ هذا واعلم هل أنت متكلم أو لافظ.

الباب الثامن والتسعون

في معرفة مقام السهر

[نظم: البسيط]

مـن لا تـنـام لـه عـيـنٌ ولـيـس لـه ... قـلـبٌ يـنـام فـذاكَ الـواحـدُ الأَحَـدُ

مَـقَـامُـه الـحـفْـظُ والأعـيـانُ تـعـبـده ... ولا يُـقـيِّـده طَـبْـعٌ ولا جَـسَـدُ

هـو الإمـامُ ومـا تـسـري إمـامـتُـه ... فـي الـعـالـمـيـن فـلـم يـظـفَـرْ بـه أَحَـدُ

كُـرْسـيُّـه تُـخْـزَنُ الأكـوانُ فـيـه ولا ... يَـؤوده حـفْـظُ شـيء ضـمَّـه عَـدَدُ

هذا المقام يسمّى مقام القيومية، واختلف أصحابنا هل يتخلق به أم لا؟ ولقيت أبا عبد الله بن جنيد من شيوخ الطائفة من أهل قبر فيق من أعمال رندة وكان معتزلي المذهب فرأيته يمنع من التخلق بالقيومية فرددته عن ذلك من مذهبه فإنه كان يقول بخلق الأفعال للعباد، فلما رجع إلى قولنا وأبنت له معنى قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤] فقد أثبت لهم درجة في القيومية، وكان قد أتى إلى زيارتنا فلما رجع إلى بلده مشيت إلى زيارته في بلده فرددته وجميع أصحابه عن مذهبه في خلق الأفعال فشكر الله على ذلك رحمه الله، فيتخيل من لا معرفة له بالحقائق أنها من خصائص الحق، ولا فرق عندنا بينها وبين سائر الأسماء الإلهية كلها في التخلق بها على ما تعطيه حقيقة الخلق كما هي لله بحسب ما تعطيه ذاته تعالىٰ وتقدس والسهر من أحد الأربعة الأركان التي قام عليها بيت الأبدال وهي: السهر والجوع والصمت والعزلة، وقد أفردنا لمعرفة هذه الأربعة جزءاً عملناه بالطائف سميناه حلية الأبدال ونظمناها في أبيات في الجزء المذكور سؤال صاحبي عبد الله بدر الخادم ومحمد بن خالد الصدفيّ. وهذه هي الأبيات: [الكامل]

يـا مـن أراد مـنـازلَ الأبْـدالِ ... مـن غـيـر قَـصْـدٍ مـنـه لـلأعـمـالِ

لا تـطـمـعـنَّ بـهـا فـلـسـتَ مِـنَ أهـلـهـا ... إن لـم تـزاحـمْـهـم عـلـى الأحـوالِ

بـيـتُ الـولايـة قُـسِّـمَـتْ أركـانُـه ... سـاداتُـنـا فـيـه مـن الأبْـدالِ

مـا بـيـن صَـمْـتٍ واعـتـزالٍ دائـم ... والـجـوعِ والـسـهـرِ الـنـزيـهِ الـعـالـي

فجعلوا السهر ركناً من أركان المقام الذي يكون من صفات الأبدال، وآيتهم من كتاب الله تعالىٰ سيدة آي القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فانظر ما أعجب هذه الآية، ولهذه الصفة عنت الوجوه منا، والمراد بالوجوه حقائقنا إذ وجه الشيء حقيقته فقال تعالىٰ:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [سورة طه: الآية ١١١] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] فإذا لم يحفظ العبد بسهر قلبه ذاته الباطنة كما يحفظ بسهر عينه ذاته الظاهرة وإن كان نائماً فيكون ممّن تنام عينه ولا ينام قلبه ويحفظ غيره بحفظه فما سهر من ليست هذه صفته، وتكون الخمسة من الأعداد أتم منه في مقامها في حفظها نفسها وغيرها، ومن لا يقدر أن يكون له درجة الخمسة من العدد وهي جزء ممّا لا يتناهى فإنها جزء من العدد والعدد لا نهاية له فكيف يتمكن له أن يتخلق بالقيومية مطلقاً ليس ذلك في وسع البشر مثل الكلام سواء، وغاية من يقوم بها قطب الوقت فإنّ له الأكثرية فيها من سواه، فالذي يتعين علينا حفظ هذه الصفة، فنحن نسهر لحفظ الكون وإقامته ما يلزمنا أكثر من هذا والله حفيظ عليم لا نحن، فإذا قامت هذه الصفة بنا فقد وفينا المقام حقّه، فينبغي لصاحب هذا المقام إذا سهر أن يسهر بعين الله، وعين الله حافظته بلا شك الحفظ الذي يعلمه الله لا الحفظ العرضي، فإن الله تعالىٰ ما رأيناه يحفظ على كل عين صورتها بل الواقع غير ذلك وهو مطلق الحفظ، فإذن ليس الحفظ ما يتخيل من حفظ الصور على أعيانها، وإنما ينظر صاحب هذا المقام إلى الحفظ المطلق وينظر في المحفوظ، وإذا كان من عالم التغيير والاستحالات فيحفظ عليه التغيير والاستحالات، فإن لم يتغير ولا استحال فما حفظ عليه ما تستحقه ذاته، فينظر صاحب هذا المقام مراتب الموجودات ويكون حفظه في سهره بحسب ما تعطيه رتبة ذلك العالم، ولا يلتفت إلى أغراض أشخاص ذلك النوع فإن الضدين لا يجتمعان، فإذا أراد السكون أن يحفظ عليه ذاته في ساكن معين لم يتمكن أن يجيبه إلى ذلك، فإن الساكن مأمور من الله بتغيير حاله من سكون إلى قيام لصلاة أو لأمر مشروع أو طبع كقضاء حاجته، ولا يكون هذا إلاّ بأن يتغير وينتقل إلى حكم الحركة، وكذلك المتحرّك إذا توجّه عليه الأمر بالسكون فالحافظ هنا إنما يحفظ عليه حكم التغيير، فإن لم يحفظ عليه ذلك فما سهر ولا تحقق بالقيومية، فهذا ما يعطيه مقام السهر وحاله فافهم فإنه ما من مقام وإلاّ ويتسع المجال فيه لو تكلمنا على تفاصيله، لكن نومىء إلى ما لا بدّ منه في كل مقام وحال بأمر كليّ تقع به المنفعة ويندرج فيه كل تفصيل يحتمله، فإذا بحثت عليه في كلامنا تجدنا قد وفينا المقصود. انتهى الجزء السادس والتسعون.

(الجزء السابع والتسعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب التاسع والتسعون

في مقام النوم

[نظم: البسيط]

النومُ جامعُ أمرٍ ليس يجمعه	غيرُ المنامِ ففكِّرْ فيه واعتَبِرِ
إن الخيالَ له حكمٌ وسلْطَنَةٌ	على الوجودين من معنًى ومن صُوَرِ
وليس يُدْرَكُ في غيرِ المنامِ ولا	تبدو له صُوَرٌ في حضرة السُّوَرِ

يُخْتَصُّ بالصاد لا بالسين حَضْرَتُه فهو المحيطُ بما في الغيب من صُورِ
من لا يُكَيَّفُ يأبى النَّوْمَ يحْصُرُهُ بالكَيْفِ والكَمِّ للتحديد بالعِبَرِ

اعلم أيّدك الله أن النوم حالة تنقل العبد من مشاهدة عالم الحسّ إلى شهود عالم البرزخ وهو أكمل العالم فلا أكمل منه، هو أصل مصدر العالم له الوجود الحقيقي والتحكم في الأمور كلها يجسد المعاني ويرد ما ليس قائماً بنفسه قائماً بنفسه، وما لا صورة له يجعل له صورة ويرد المحال ممكناً ويتصرّف في الأمور كيف يشاء، فإذا كان له هذا الإطلاق وهو خلق مخلوق لله فما ظنك بالخالق سبحانه الذي خلقه وأعطاه هذه القوّة، فكيف تريد أن تحكم على الله بالتقيد وتقول: إن الله غير قادر على المحال وأنت تشهد من نفسك قدرة الخيال على المحال والخيال خلق من خلق الله، ولا تشك فيما تراه من المعاني التي جسدها لك وأراها إياك أشخاصاً قائمة، فكذلك يأتي الله بأعمال بني آدم مع كونها إعراضاً صوراً قائمة توضع في الموازين لإقامة القسط، ويؤتى بالموت مع كونه نسبة فوق العرض في البعد عن التجسد في صورة كبش أملح يريد أنه في غاية الوضوح لهذا وصفه بالملحة وهي البياض فيعرفه جميع الناس فهذا محال مقدور فأين حكم العقل على الله وفساد تأويله؟ وكذلك نعيم الجنان في فواكهه﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣] ، فيتأوّله من لا علم له بحمله على فصول السنة أن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانها ثم تعود في السنة الأخرى، وفاكهة الجنة دائمة التكوين لا تنقطع، هذا مبلغ علمهم في هذه المسألة، وهي عندنا كما قال الله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ فإن الله جاعل لنا فيها رزقاً يسمّى قطفاً وتناولاً، كما جعل الله لعالم الجنّ في العظام رزقاً وما ترى ينقص من العظم شيء، ونحن بلا شك نأكل من فاكهة الجنة قطفاً دانياً مع كون الثمرة في موضعها من الشجرة ما زال عينها لأنها دار بقاء لما يتكوّن فيها فهي دار تكوين لا دار إعدام، وكذلك سوق الجنة ندخل في أيّ صورة شئنا من صور السوق مع كوننا على صورتنا لا ينكرنا أحد من أهلنا ولا من معارفنا، ونحن نعلم أن قد لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا على صورتنا، فأين العقول والمعقول هنا؟ [البسيط]

لا يَعرفُ الله إلاّ الله فاعتبروا ما عَقْلُ عَيْنٍ كعَقْلٍ قَلَّدَ الفِكَرَا

ولما نزّه الله نفسه عن صفة النوم فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] أي ما يغيبه شهود البرازخ عن شهود عالم الحسّ عن شهود المعاني الخارجة عن المواد في حال عدم حصولها في البرزخ وتحت حكمه، وقد يمنح الله بعض عباده بهذا الإدراك مع كونه لا يتصف بأنه لا ينام أعني في حالة الدنيا ونشأتها، وأما في الآخرة فإنه لا ينام أهل الجنة في الجنة ولا يغيب عنهم شيء من العالم، بل كل عالم على مرتبته مشهود لهم مع كونهم غير متصفين بالنوم، يقال: نام فلان فرأى كذا أي رأى مقلوبه وهو مان أي كذب في عرف العادة، فإن العلم ما هو لبن والقرآن ما هو عسل ولكن هكذا تراه، فإذا كملت رأيته علماً في حضرة المعاني في حال رؤيتك إياه لبناً في حضرة البرزخ وهو هو لا غيره، فتحقق ما أعلمناك به فقد أرحناك بما ذكرناه راحة الأبد، وقد عرفناك بالإله المعرفة المطلوبة منا، وإذا تحققت ما أومأنا

إليه في هذا الباب علمت جميع ما جاء به الشرع في الكتاب والسنة قديماً وحديثاً من النعوت الإلهية التي تردّها العقول ببراهينها القاصرة عن هذا الإدراك، فمعرفة وجود الحق مدرك العقول من حيث ما هي مفكرة وصاحبة دلالات، ومعرفة ما هو الحق عليه في نفسه هو ما أعطاه الوجود لكل إدراك في عالمه، فما ثم إلاً حق ومصيب، فسبحان من طوّر الأطوار وجعل في اليوم حقيقة الليل والنهار وأنزل الأحكام وشرعها على التفصيل لا على الإجمال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والنوم من أحكام الطبيعة في مولدات العناصر خاصة، والنشأة الآخرة ليست من مولدات العناصر بل هي من مولدات الطبيعة فلذلك لا تنام ولا تقبل النوم كالملائكة وما علا عن العناصر، ونشأة الإنسان في الآخرة على غير مثال كما كانت نشأته في الدنيا على غير مثال، فما ظهر قبله من هو على صورته ولهذا جاء: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ يعني على غير مثال ﴿تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] على غير مثال يعني في نشأة الآخرة. وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] أنها كانت على غير مثال سبق، فاشحذ فؤادك ووفر زادك فإنك راحل عن نشأة أنت فيها وما أنت فيها.

الباب الموفي مائة

في مقام الخوف

[نظم: الطويل]

خَفِ الله يا مسكينُ إن كنتَ مؤمناً — إذا جاء سلطانُ المنازِع في الأَمْرِ
فإن جنحوا للسَّلْم فاجنَحْ لها تنَلْ — بها رُتَبَ العلياء في عَالَم الأَمْرِ
وما قُلْتُه بل قاله الله مُعْلِماً — كما جاء في القرآن في مُحْكَم الذِّكْرِ

اعلم أيّدك الله وعصمك أن الخوف مقام الإلهيين له الاسم الله لأنه متناقض الحكم، فإنه يخاف من الحجاب ويخاف من رفع الحجاب، أما خوفه من الحجاب فلما فيه من الجهل بما هو حجاب عنه، وأما خوفه من رفع الحجاب فلذهاب عينه عند رفعه فتزول الفائدة، والإلتذاذ بالجمال المطلق آية المحجوب قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] في معرض الذم. وأما الحديث فقوله ﷺ في الحجب: «**لَوْ كَشَفَهَا أَوْ لَوْ رَفَعَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**». وما أشبه هذا المقام بقول القائل: [البسيط]

الليلُ إن وَصَلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ — أشكو من الطُولِ ما أشكو من القِصَرِ

فمقام الخوف مقام الحيرة، والوقوف لا يتعين له ما يرجح لقيام شاهد كل جانب عنده، ومن خرج عن هذا الخوف إلى الخوف من متعلق غيره فهو خوف وليس بمقام، فإن كل خوف ما عدا هذا فليس له هذا الحكم، فإن المقام كل ما له قدم راسخ في الألوهة، وما ليس له ذلك فليس بمقام وإنما هو حال يرد ويزول بزوال حكم التعلّق والمتعلق ببشرى أو بغيرها، والخوف الذي هو مقام يستصحب للعالم بالله الذي يعلم ما ثم، ومن لا يعلم ذلك فلا

يستصحبه خوف إلاّ إلى أول قدم يضعه من الصراط في الجنة أو حاضرها، فالخائف هو الذي يعلم ما هو التجلي وما هو الذي يرى يوم القيامة، وهو الذي يعلم أن أهل النار لهم تجلّ يزيد في عذابهم، كما أن لأهل الجنة تجلّياً يزيد في نعيمهم ،أهل النار محجوبون عنه ولهذا قال عنهم ربهم أهل النار والرد المربي والمصلح، فباب العلم بالله دون ما سواه مغلق من حيث ذاته وهو المطلوب بالتجلي، فالخلق في عين الجهل بهذا الذي ذكرناه إلاّ من رحم الله، ولقد أصابت المعتزلة في إنكارها الرؤية لا في دليلها على ذلك، فلو لم تذكر دلالتها لتخيلنا أنها عالمة بالأمر كما علمه أهل الله، لكنها في دلالتها كانت كما قال بعضهم لصاحبه حين قال له ما أعجبه وأخذ به فلما ذكر له الإسناد فيما أورده زال عنه ذلك الفرح وقال له: أفسدت حين أسندت، فمن لم يعرف الله هكذا لم يعرفه المعرفة المطلوبة منه.

الباب الأحد ومائة

في مقام ترك الخوف

[نظم: البسيط]

لـمـا تـعـلّـقَ عـلـمُ الـخـوف بـالـعَـدَمِ ... لـم أخْـشَ مـنـه فـحُـزنـا رُتْـبَـةَ الـقِـدَمِ

أنـا الـوجـودُ فـلا خـوفٌ يـصـاحـبـني ... لأن ضــدِّيَ مــنـسَــوبٌ إلــى الـعَــدَمِ

إن الـذي خِـفْـتَ مـنـه لا وجـودَ لـه ... فـاتـرُكْ مَـخَـافَـتَـهُ لـحـمـاً عـلـى وَضَـمِ

قال ﷺ: **«واجعلني نوراً»** في دعائه. وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] والسبحات أنوار، والنور لا يحترق بالنور ولكن يندرج فيه أي يلتئم معه للمجانسة وهذا هو الالتحام والاتحاد، وهنا سرّ عظيم وهو ما يزيد في نور المتجلي من نور المتجلي له إذا انضاف إليه واندرج فيه، ولما وقف ﷺ على مقام الخوف الذي ذكرناه أدّاه إلى أن طلب أن يكون نوراً فكأنه يقول: اجعلني أنت حتى أراك بك فلا تذهب عيني برؤيتك لكن أندرج فيك. كما قال النابغة: [الطويل]

بـأنـك شَـمْـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ ... إذا طَـلَـعَـتْ لـم يَـبْـدُ مـنـهـنَّ كـوكـبُ

وما ذهب لها عين، وما ظهر لها عين، فهي ترى ولا ترى، لأنها خلف حجاب النور الأعظم الذي له الحكم في ظاهر الأمر، ولأنوار الكواكب حكم في باطن الأمر مندرج في النور الأعظم يعلم ذلك أرباب علم التعاليم فهم أسعد الناس بهذا المقام وهو مقام جليل نبويّ، وما حجره الحق على المؤمنين إلاّ رحمة بهم، لأن الغالب في العالم الجهل بحقائق الأمور والعلماء أفراد فرحمهم الله بما حجر عليهم من ذلك. وأما العلماء بالله فلا حرج عليهم فيه فإنهم عالمون كيف ينسبون وكيف لا يعلمون والله يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وهو ما يعطيه من الآثار في العالم كما تعطى كل آلة للصانع بها ما عملت له، والصنعة مضافة للصانع لا للآلة، فاعلم ذلك وكن بحسب ما تعطيه قوتك والسلام.

واختلف أصحابنا في صاحب هذا المقام هل يأمن من المكر الإلهي أم لا؟ أما مع

البشرى فيأمن ولا بد، وأعني إذا جاءت البشرى بالأمن من مكر الله ولا أقدر أبسط في هذا المقام شيئاً أكثر ممّا ذكرناه في هذا الوقت لأسباب، ولا أصرح بمذهبنا فيه إلاَّ بقدر ما ذكرنا منه في البشرى فإنه أمر محقق تدل عليه العقول والشرع، وذلك أن صاحب هذا المقام إن كانت عجلت له الجنة بوجه لا يمكن استبداله فالأمن حاصل ويصحّ له هذا المقام وإن لم تكن له هذه الحالة فالله أعلم.

الباب الثاني ومائة

في مقام الرجاء

[نظم: البسيط]

إن الرجاءَ كمِثْل الخوفِ في الحُكْمِ ... فاعزمْ عليه وكُنْ منه على عِلْمِ
إن الرجاءَ مَقَامٌ ليس يعلمه ... إلاَّ أولو العلم بالرحمن والفَهْمِ
يَلْتَذُّ صاحبُه في وقته فإذا ... يفوته كان مثْلَ الخَوْفِ في الحُكْمِ
وإنَّ ما أنت راجيه لَفِي عَدَمٍ ... ولستَ من فَقْدِهِ المعلوم في عُدْمِ

الرجاء متعلقه ما ليس عنده، وهو مقام مخوف يحتاج صاحبه إلى أدب حاضر حاصل ومعرفة ثابتة لا يدخلها شبهة، فإنه مقام عن جانب الطريق ما هو في نفس الطريق تحته مهواة بأدنى زلة يسقط صاحبه من الطريق وهو على طريق الحياة الدائمة التي بها بقاء العالم في النعيم، والحال التي ينبغي أن يظهر سلطانه فيها عند الاحتضار، وأما قبل ذلك فيساوي بين حكمه وبين حكم الخوف إن كان مؤمناً حقيقة، قال الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً**». وكذلك ينبغي أن يظن بنفسه شراً لا بربه إلاَّ عند الموت فإنه يشتغل بربه في تلك الحال ويظن به خيراً ويعرض عن ظنّه بنفسه جملة واحدة بخلاف حاله في دنياه، والرجاء المطلوب من أهل الله هو ما يطلبه وقته لأن المرجو معدوم في تلك الحال، فيخاف على الراجي أن يفوته حكم للوقت، فإذا كان متعلق رجائه ما يطلب الوقت فهو صاحب وقت ولا بدّ، وما يرسم في ديوان من لم يتأدب مع وقته، ثم إن وقته لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أن يكون صاحب وقت مرضي فمتعلق رجائه ما يطلبه الوقت المرضي، وإن كان غير مرضي أو لا مرضي ولا غير مرضي كالمباح فمتعلق رجائه إزالته عنه بما هو مرضي في النفس الثاني والزمان الذي يليه، فمتى خرج عن هذا التعلق الخاص فليس هو الرجاء الذي هو قام في الطريق، وهو من المقامات المستصحبة في الدنيا والآخرة لا ينقطع، لأن الإنسان حيث كان لا يزال صاحب قوت لأن الأمر لا يتناهى، وكلامنا في الفائت المستأنف، وأما الفائت الماضي فإنه لا يعود إذ لو عاد لتكرر أمر ما في الوجود ولا تكرار للتوسّع الإلهي، غير أنه إن كان الفائت الماضي مرضياً وهو لا يعود فحكم ذلك الفعل الفائت الماضي فهو إنما يجنيه في الآخرة لو اتصف به في الدنيا فقد يتعلق الرجاء بتحصيل ما لو كان الفائت الماضي لم يفت حصل له فيحصل له مثل ذلك برجائه إن كان قد كان له وجود وانقضى، أو عين ذلك المرجو إن كان لم يكن برجائه فإنه فائت

مستأنف كان مهيأ للفائت الماضي هذا غاية قوة الرجاء، وقد قال ﷺ في الذي يفوته خير الدنيا ويرى من له شيء من ذلك الخير يعمل به في طاعة الله: «**لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا العَامِلِ مِنَ الخَيْرِ لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**» فهذا قد فاته العمل وجنى ثمرته بالتمني وساوى من لم يفته العمل وربما أربى عليه لا بل أربى عليه، فإن العامل مسؤول ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٨] وهذا غير مسؤول لأنه ليس بعامل، ولا يكون هذا إلاً لمن لم يعطه الله أمنيته من الخير الذي تمنى العمل به، فإن أعطاه ما تمناه من الخير فليس له هذا المقام ولا هذا الأجر، وينتقل حكمه إلى ما يعمله فيما أعطاه الله من الخير ولا يبقى للتمني في الآخرة أثر، فإن عمل به براً كان له، وإن عمل غير ذلك كان في حكم المشيئة، وليس رجاء القوم رجاء العاصين في رحمة الله ذلك رجاء آخر ما هو مقام، وكلامنا في المقام والرجاء عند بعضهم مقام إلهيّ، واستدلوا عليه بقوله في غير آية لعل وعسى، ولهذا جعلها علماء الرسوم من الله واجبة.

الباب الثالث ومائة

في ترك الرجاء

[نظم: الكامل]

لا تَـرْكَـنَـنَّ إلـى الـرجـاء فـربَّـمـا ... أصبحْتَ من حُكْم الرجاءِ على رَجَا

فـاضْـرَعْ إلـى الـرحـمـن فـي تَـحْـصـيـلِـهِ ... فـيـه نَـجَـاتُـك فـالـسَّـعـيـدُ مـن الْـتَـجَـا

اعلم أيّدك الله أن حكم صاحب هذا المقام شهود نفسه من حيث ما تطلبه به الحضرة الإلهية، وضعف العبودية عن الوفاء بما تستحقه أو بما يمكن أن يوفيها من طاقتها المأمور بها في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] هذا من جهتنا، وأما من جانب ما تستحقه الربوبية على العبودية فقوله: ﴿ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] وليس لهم من الأمر شيء، فقطع بهم هذا الأمر فهو مقام صعب وحالة شديدة، فمن ترك الرجاء فقد ترك نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف خوف ونصف رجاء وكلاهما متعلقهما عدم، فإذا حصل العلم حصل الوجود وزال العدم وأزال العلم حكم الإيمان لأنه شهد ما آمن به فصار صاحب علم، والإيمان تقليد والتقليد يناقض العلم إلاً أن يكون المخبر معصوماً عند المؤمن وفي نفسه من الكذب وليس بينك وبينه واسطة في أخباره، فإن الدليل الذي حكم لك بصدقه وعصمته عن الخطأ والكذب فكنت فيه على بصيرة وهي العلم ينسحب لك على ما يخبرك به عن الله فيكون عندك خبره علماً لا تقليداً، وهذا لا يكون اليوم إلاً عند أهل الكشف والوجود خاصة، وأما عند أهل النقل فلا سبيل، فالصحابة الذين سمعوا شفاهاً من الرسول ما لا يحتمله التأويل بما هو نص في الباب لا فرق بينهم وبين أهل الكشف والوجود فهم علماء غير مقلدين ما داموا ذاكرين لدليلهم، فإن غابوا عن الدليل في وقت الإخبار فهم مقلدون مع ارتفاع الوسائط، فاجعل دليلك ربك على الأشياء

فلا تغفل عنه، فإنك إذا كنت بهذه المثابة كنت صاحب علم وهو أرفع ما يكون من عند الله ولهذا أمر نبيه ﷺ بالزيادة منه دون غيره من الصفات، فمن علم الماضي والحال والمستأنف لم يبق له عدم فلم يبق له متعلق رجاء فلم يبق له رجاء من: [الرمل]

إنـمـا أجْـزَعُ مـمّـا أتّـقـي فـإذا حـلَّ فـمـا لـي والـجَـزَعْ
وكـذا أطْـمَـعُ فـيـمـا أبـتـغـي فـإذا فـاتَ فـمـا لـي والـطَّـمَـعْ

فهذان البيتان جمعا ترك الرجاء والخوف بحصول المخوف وقوعه وفوت المرجو حصوله إلى. وهذا وإن كان صحيحاً في الرجاء فلا يكون هذا في رجاء المقام فإنه ما له خوف فوت الماضي وإنما له خوف فوت المستأنف لفوت سببه الذي مضى.

الباب الرابع ومائة

في مقام الحزن

[نظم: البسيط]

الـحـزنُ مَـرْكَـبُـهُ صـعـبٌ وغـايـتُـه ذَهَـابُـه فـولـيُّ الله مـن حَـزنَـا
قـلـبُ الـحـزيـن هـنـا تَـقْـوَى قـواعـدُه هـنـاك والـغَـرَضُ الـمـقـصـودُ منك هُـنَـا
دارُ الـتـكـالـيـفِ دارٌ مـا بـهـا فَـرَحٌ فـالله لـيـس يـحـبُّ الـفـارِحَ الـلَّـسِـنَـا

الحزن مشتق من الحزن وهو الوعر الصعب، والحزونة في الرجل صعوبة أخلاقه، والحزن لا يكون إلاَّ على فائت، والفائت الماضي لا يرجع لكن يرجع المثل، فإذا رجع ذكر بذاته من قام به مثله الذي فات ومضى، فأعقب هذا التذكّر حزناً في قلب العبد، ولا سيما فيمن يطلب مراعاة الأنفاس وهي صعبة المنال لا تحصل إلاَّ لأهل الشهود من الرجال، وليس في الوسع الإمكانيّ تحصيل جملة الأمر فلا بدّ من فوت فلا بدّ من حزن، وهذه الدار وهذه النشأة نشأة غفلة ما هي نشأة حضور إلاَّ بتعمّل واستحضار، بخلاف نشأة الآخرة فطلب منا أن ننشىء نفوسنا في هذه الدار نشأة أخرى يكون لها الحضور لا الاستحضار، فهل ما طلب منا نعجز عنه أو لا نعجز؟ ومحال أن يطلب منا ما لم يجعل فينا قوّة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإنه حكيم، وقد أعطانا في نفس هذا الطلب علمنا بأن فينا قوّة ربانية، ولكن من حيث أنا مظهر لها أكسبناها قصوراً عمّا تستحقه من المضاء في كل ممكن فطلبنا المعونة منه فشرع لنا أن نقول ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، فمن كان هذا مشهده فلا يزال حزنه دائماً أبداً، وهو مقام مستصحب للعبد ما دام مكلفاً، وفي الآخرة ما لم يدخل الجنة فإن في الآخرة لهم حزن التغابن لا حزن الفزع الأكبر، والخوف يرتفع عنهم مطلقاً إلاَّ أن يكونوا متبوعين، فإن الخوف يبقى عليهم على الأتباع كالرسل، فالحزن إذا فقد من القلب في الدنيا خرب لحصول ضدّه إذ لا يخلو والدار لا تعطي الفرح لما فيه من نفي المحبة الإلهية عمّن قام به وما يزيل الحزن إلاَّ العلم خاصة وهو قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [سورة يونس: الآية ٥٨] فالحزن مثل العلم سواء يرتفع بارتفاع المحزون عليه ويتضع كذلك كالعلم

يشرف بشرف المعلوم، والحزن مقام صعب المرتقى قليل من الخلق عليه هو للكمل من الناس.

الباب الخامس ومائة

في ترك الحزن

[نظم: مجزوء الرجز]

الحقُّ أعطى كلَّ شيء خلقَهُ ثم هَدَى
الحزنُ حكمٌ واقعٌ لفائتٍ وما عَدَا
فما تَرَى من فائتٍ قد فات فالحُزنُ سُدَى
هذا فلا تَحفِلْ به فإنه حكمُ البَدَا

هو حال وليس بمقام، وهو مؤدّ إلى خراب القلوب، وفي طيّه مكر إلهيّ إلاّ للعارف، فإنه لا يخرج عن مقام الحزن إلاّ من أقيم في مقام سلب الأوصاف عنه، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء إنما هي لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، وذلك لما سأله بكيف وهي للحال وهو من أمهات المطالب الأربعة. وله من النسب الإلهية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] على قراءة الكسائي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ويخفض القسط ويرفعه، فهذا مقام الكيف في الإلهيات. وأما أبو يزيد فما قصد التمدّح بهذا القول وإنما قصد التعريف بحاله، فإنّ الصباح والمساء لله لا له وهو المقيد تعالىٰ بالصفة، والعبد العنصري مقيد بالصباح والمساء غير مقيد بالصفة ولهذا نفى الصفة فقال: لا صفة لي﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٢] ، فالصباح والمساء يملكه ولا ملك لأبي يزيد عليهما لأنهما بالصفة يملكان وأبو يزيد لا صفة له، فمن لا علم له بالمقام يتخيل أن أبا يزيد تألّه في هذا القول ولم يقصد ذلك رضي الله عنه، بل هو أجل من أن يعزى إليه مثل هذا التأويل في قوله هذا، فإن قال من يتأول عليه خلاف ما قلنا من أنه تأله في قوله بقوله: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي فاعلم أنه ثم تجلٍّ يضحك، وما رأيت أحداً في هذا الطريق من أهل الضحك إلاّ واحداً يقال له عليّ السلاوي سحت معه وصحبته سفراً وحضراً بالأندلس لا يفتر عن الضحك شبه المولّه وما رأيته جرى عليه قط لسان ذنب.

وأما البكاؤون فما رأيت منهم إلاّ واحداً يوسف المغاور الجلا سنة ست وثمانين وخمسمائة بإشبيلية، وكان يلازمنا ويعرض أحواله علينا، كثير الجزع لا تفتر له دمعة، صحبته في الزمان الذي صحبت الضحاك. وأما كون أبي يزيد انتقل عن هذين المقامين إلى المقام الذي بينهما فإنهما من الأمور المتقابلة التي ما يكون بينهما واسطة كالنفي والإثبات لا كالوجود والعدم والحار والبارد فإن بينهما واسطة تأخذ من كل طرف بنسبة تميزه عن الطرفين، وكذلك إذا لم يكن الشخص في موجب ضحك ولا موجب بكاء كحالة البهت لأهل

الله فهو لا ضاحك ولا باك فوصفه البهت والتعرّي عن الموجبين فأراد التعريف ما أراد التمدح.

الباب السادس ومائة

في معرفة الجوع المطلوب

[نظم: مجزوء الرجز]

الجوعُ موتٌ أبيضٌ وهو مِنَ أعلام الهُدَى
ما لم يؤثِّرْ خَبَلاً فهو دواءٌ وهْوَ دَا
فاحكُمْ به تَكُنْ بهِ موفقاً مُسَدَّدَا

الجوع حلية أهل الله، وأعني بذلك جوع العادة وهو الموت الأبيض، فإن أهل الله جعلوا في طريقهم أربع موتات هذا أحدها، وموت أخضر وهو لباس المرقعات إلاً المشهرات كان لعمر بن الخطاب ثوب يلبسه فيه ثلاث عشرة رقعة إحداهنّ قطعة جلد وهو أمير المؤمنين، وموت أسود وهو تحمّل الأذى، وموت أحمر وهو مخالفة النفس في أغراضها وهو لأهل الملامية، فالجوع المطلوب في الطريق هو للسالكين جوع اختيار لتقليل فضول الطبع ولطلب السكون عن الحركة إلى الحاجة. فإن علا فلطلب الصفة الصمدية وحده عندنا صوم يوم فإن زاد فإلى السحر، هذا هو الجوع المشروع الاختياريّ، وما لنا طريق إلى الله إلاً على الوجه المشروع، ولولا أن الله جعل هذا حدّ المصلحة في عموم خلقه لما وقته إلى هذا القدر فلا يكون الإنسان في الزيادة عليه أعلم بمصالح الجوع في العبد من ربه هذا غاية سوء الأدب، فإن كان ممن يطعم ويسقى في مبيته وفنائه ويجد أثر ذلك في قوّته وصحة عقله وحفظ مزاجه فليواصل ما شاء فإنه ليس بصاحب جوع، وكلامنا في الجوع وإن كان أيضاً ممن يستغرقه حال ووارد قوي يحول بينه وبين الطعام كأبي عقال فإن كان صاحب فائدة فهي المطلوب، وإن لم يكن فذلك مرض يعرض حاله على الأطباء وما ذلك مطلب القوم.

وأما جوع الأكابر فجوع اضطرار، فإن الذي ينتجه الجوع قد حصل لهم ملكة لا تزول عنهم في حال جوع ولا شبع فلم يبق إلاً التقليل، ولكن من الحلال إما للنشاط في الطاعات وإما لخفة الحساب، فإن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيم هَذٰا الْيَوم**» ولم يكن سوى تمر وماء، وما أدخل نفسه في الجماعة، فإن لله عباداً سليمانيين يقول الله لهم: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص، الآية ٣٩] وهم سبعون ألفاً في هذه الأمّة قد نعتهم النبيّ ﷺ والخبر صحيح وعكاشة منهم بالنص عليه، فينبغي للصالح السالك أن لا يزيد على الحد المشروع فيكون متبعاً، فإن ترك العمل بالاتباع أعظم أجراً من العمل بالابتداع فإنّا بالاتباع بحكم الأصل، فإن وجودنا تبع لوجود من أوجدنا، فلتكن أفعال العلماء بهذه المرتبة على ذلك، ولما قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ فَسُدُّوا مَجَارِيَهُ**

بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ» لم يختلف أحد من العلماء ولا من أهل الله أنه أراد الصوم والتقليل من الطعام في السحور المسنون لمن واصل، وفي الإفطار لمن أفطر، فإنه قال بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فلا يتعدّى المريد الحدّ الذي سنّه من شرع الطريق إلى الله به، ولا تعرف قدر ما دللتك عليه إلاّ في نتيجته إن فتح لك هنا، ولا تجع من غير صوم فإنه غير طريق مشروعة، ولا تجعل سبب ذلك حديث أجر الصوم فذلك ليس لك إنما هو للعمل، ودع النفس ترغب في الأجرة التي لها على ذلك فإن فيها من يطلب ذلك، وأنت بالسرّ الإلهيّ والروح الأمريّ بمعزل عن هذا الطلب الذي تطلبه النفس الحيوانية فإنك مجموع، ولا تلحق بأهل الغلط من أهل هذه الطريق الذين يجوّعون تلامذتهم من غير صوم أو يصوّمونهم ثم يطعمونهم قبل غروب الشمس ذلك غلط منهم وجهل بطريق الله تعالىٰ وإن كانوا يقصدون بذلك مخالفة النفوس فما هذا موضعه، وإنما ينبغي أن يخالفوها في تعيين المأكول على حدّ مخصوص ووجه معين وميزان مستقيم يعرفه أهل الله، فإذا مالت إلى طعام خاص معين عندها حتى لا تكره شيئاً من نعم الله، ولقد عملت على هذا زماناً حتى طاب لي كل شيء كنت لا أقدر على أكله وتمجّه نفسي، وكذلك في التقليل منه وهو أشدّ ما على النفس أن تشرع في الشيء، ثم يحال بينها وبين التملي منه، والله الموفق لا رب غيره.

الباب السابع ومائة

في ترك الجوع

[نظم: البسيط]

الجوعُ بئسَ ضَجيعُ العبدِ جاء به ... لفظُ النبيِّ فلا تَرْفَعْ به راسَا

قد أدرك القومَ في تعيينه غَلَطٌ ... ولم يقيموا له وزناً وقِسْطَاسَا

من قال ما الجوعُ لم يعرفْ حقيقَتَهُ ... وقد أضلَّ بما قد قاله النَّاسَا

جوعُ العوائدِ محمودٌ ولستُ أرى ... فيما أراه من استعماله باسَا

جوعُ الطبيعةِ مذمومٌ وليس يَرَى ... فيه المحقِّقُ بالرحمن إيْنَاسَا

ترك الجوع عند القوم ليس الشبع، وإنما هو إعطاء النفس حقها من الغذاء الذي جعل الله به صلاح مزاجها وقوام بنيتها، فإذا أحسّ صاحب هذه الحالة بالجوع فذلك جوع العادة. خرّج أبو بكر البزار في مسنده أن النبيّ ﷺ: «كان يتعوّذ من الجوع ويقول: إنه بئس الضجيع» ولا يذم حال يعطي الفوائد، فدل أنه لا فائدة في مثل هذا الجوع، وأن الفوائد فيما أظهر الشرع ميزانه من ذلك، فترك الجوع عبادة وطريق موصلة إلى الله، وبهذا فضّل سلمان على أبي الدرداء وشهد له بذلك رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقاً، فَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ وَأَفْطِرْ وَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَإِنَّكَ لاَ تَدْخُلُ عَلَىٰ الحَقِّ أَبَداً وَلأَحَدٍ عَلَيْكَ حَقٌّ**» وأعظم الحقوق حق الله ثم حق نفسك. انتهى الجزء السابع والتسعون بانتهاء السفر الثالث عشر والحمدلله.

[السفر الرابع عشر]

(الجزء الثامن والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن ومائة

في معرفة الفتنة والشهوة وصحبة الأحداث والنسوان وأخذ الأرفاق منهنّ ومتى يأخذ المريد الأرفاق؟

[نظم: البسيط]

لا تصحبَنْ حَدَثاً إن كنتَ ذا حَدَثٍ ... ولا نساءً وكُنْ بالله مُشْتغلاً
واحذَرْ من الفتنة العمياءِ إنَّ لها ... حكماً قوياً على القلب الذي غفَلا
وشهوةُ النفس فاحذرها فكم فتَكَتْ ... بسيِّدٍ قلبُه عن ربه غَفَلا
ولا يُرَى آخذاً رِفْقاً من امرأة ... إلاَّ الذي من رجال الله قد كَمُلاَ

اعلم أيّدك الله أن الفتنة الاختبار، يقال: فتنت الفضة بالنار إذا اختبرتها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٥] أي اختبرناكم بهما هل تحجبكم عنا وعما حدّدنا لكم أن تقفوا عنده، وقال موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي تحير ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٥] ومن أعظم الفتن التي فتن الله بها الإنسان تعريفه إياه خلقه على صورته ليرى هل يقف مع عبوديته وإمكانه أو يزهو من أجل مكانة صورته، إذ ليس له من الصورة إلاَّ حكم الأسماء فيتحكم في العالم تحكم المستخلف القائم بصورة الحق على الكمال، وكذلك من تأييد هذه الفتنة قول النبيّ ﷺ يحكيه عن ربه: «**إنَّ العَبْدَ إِذَا تَقَرَّبَ إِلَىٰ اللّه بِالنَّوَافِلِ أَحَبَّهُ فَإِذا أَحَبَّهُ كَانَ سَمْعَهُ الذَّي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» وذكر اليد والرجل الحديث. وإذا علم العبد كنه بهذه المثابة يسمع بالحق، ويبصر بالحق، ويبطش بالحق، ويسعى بالحق، لا بنفسه وبقي مع هذا النعت الإلهيّ عبداً محضاً فقيراً ويكون شهوده من الحق وهو بهذه المثابة كون الحق ينزل إلى عباده بالفرح بتوبتهم والتبشيش لمن يأتي إلى بيته، والتعجب من الشاب الذي قمع هواه واتصافه بالجوع نيابة عن جوع عبده وبالظمأ نيابة عن ظمأ عبده، وبالمرض نيابة عن مرض عبده مع علمه بما تقتضيه عزة ربوبيته وكبريائه في ألوهيته، فما أثر هذا النزول في جبروته الأعظم ولا في كبريائه الأنزه الأقدم، كذلك العبد إذا أقامه الحق نائباً فيما ينبغي للرب تعالىٰ يقول العبد: ومن كمال الصورة التي قال إنه خلقني عليها أن لا يغيب عني مقام إمكاني ومنزلة عبوديتي وصفة فقري وحاجتي، كما كان الحق في حال نزوله إلى صفتنا حاضراً في كبريائه وعظمته، فيكون الحق مع العبد إذا وفى بهذه الصفة يثني عليه بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] حيث لم تؤثر فيه هذه الولاية الإلهية، ولا أخرجته عن فقره واضطراره، ومن تجاوز حده في التقريب انعكس إلى الضد وهو البعد من

الله والمقت فاحذر نفسك، فإنّ الفتنة بالاتساع أعظم من الفتنة بالحرج والضيق.

وأما الشهوة فهي آلة للنفس تعلو بعلو المشتهي وتستفل باستفال المشتهى، والشهوة إرادة الالتذاذ بما ينبغي أن يلتذ به، واللذة لذتان: روحانية وطبيعية، والنفس الجزئية متولدة من الطبيعة وهي أمها والروح الإلهيّ أبوها، فالشهوة الروحانية لا تخلص من الطبيعة أصلاً وبقي من يلتذ به فلا يلتذ إلاّ بالمناسب ولا مناسبة بيننا وبين الحق إلاّ بالصورة، والتذاذ الإنسان بكماله أشدّ الالتذاذ، فالتذاذه بمن هو على صورته أشد التذاذ، برهان ذلك أن الإنسان لا يسري في كله الالتذاذ ولا يفنى في مشاهدة شيء بكليته ولا تسري المحبة والعشق في طبيعة روحانيته إلاّ إذا عشق جارية أو غلاماً، وسبب ذلك أنه يقابله بكليته لأنه على صورته، وكل شيء في العالم جزء منه فلا يقابله إلاّ بذلك الجزء المناسب، فلذلك لا يفنى في شيء يعشقه إلاّ في مثله، فإذا وقع التجلي الإلهي في عين الصورة التي خلق آدم عليها طابق المعنى المعنى ووقع الالتذاذ بالكل وسرت الشهوة في جميع أجزاء الإنسان ظاهراً وباطناً، فهي الشهوة التي هي مطلب العارفين الوارثين، ألا ترى إلى قيس المجنون في حب ليلى كيف أفناه عن نفسه لما ذكرناه؟ وكذلك رأينا أصحاب الوله والمحبين أعظم لذة وأقوى محبة في جناب الله من حب الجنس، فإن الصورة الإلهية أتم في العبد من مماثلة الجنس، لأنه لا يتمكن للجنس أن يكون سمعك وبصرك، بل يكون غايته أن يكون مسموعك ومدركك اسم مفعول، وإذا كان العبد مدرك بحق هو أتم فلذته أعظم وشهوته أقوى، فهكذا ينبغي أن تكون شهوة أهل الله.

وأما صحبته الأحداث وهم المردان وأهل البدع الذين أحدثوا في الدين من التسنين المحمود الذي أقرّه الشارع فينا فينظر العارف في المردان من حيث أنه أملس لا نبات بعارضيه كالصخرة الملساء فإن الأرض المرداء هي التي لا نبات فيها، فذكره مقام التجريد وأنه أحدث عهد بربه من الكبير، وقد راعى الشرع ذلك في المطر، فكلما قرب من التكوين كان أقرب دلالة وأعظم حرمة وأوفر لدواعي الرحمة به من الكبير البعيد عن هذا المقام، وأما كونهم أحداثاً لهذا المعنى لأنهم حديثو عهد بربهم وفي صحبتهم تذكر حدثهم ليتميز قدمه تعالىٰ به فهو اعتبار صحيح وطريق موصلة، وأما إن كان من أحداث التسنين فيؤيده قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] فذم من لم يتلقَّه بالقبول، فهكذا نظر العارفين فيه، وأما المريدون والصوفية فحرام عليهم صحبة الأحداث لاستيلاء الشهوة الحيوانية عليهم بسبب العقل الذي جعله الله مقابلاً لها، فلولا العقل لكانت الشهوة الطبيعية محمودة.

وأما النسوان فنظر العارفين فيهنّ وفي أخذ الإرفاق منهنّ، فحنين العارفين إليهن حنين الكل إلى جزئه كاستيحاش المنازل لساكنيها التي بهم حياتها، ولأن المكان الذي في الرجل الذي استخرجت منه المرأة عمره الله بالميل إليها فحنينه إلى المرأة حنين الكبير وحنوّه على الصغير. وأما أخذ الأرفاق منهنّ فإنه يأخذه منهن لهن كما أخذه رسول الله ﷺ حين أمرهنّ

أن يتصدقن لأنه يسعى في خلاصهن لما رآهن أكثر أهل النار فأشفق عليهن حيث كن منه فهو شفقة الإنسان على نفسه، ولأنهن محل التكوين لصورة الكمال فحبهنّ فريضة واقتداء به عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِليَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاَث: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**» فذكر النساء أترى حبّب إليه ما يبعده عن ربه لا والله بل حبّب إليه ما يقرّبه من ربه، ولقد فهمت عائشة أم المؤمنين ما أخذ النساء من قلب رسول الله ﷺ حين خيرهن فاخترنه فأراد الله تعالىٰ جبرهن وإيثارهن في الوقت ومراعاتهن وإن كان بخلاف مراد رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] فأبقى عليه رحمة به لما جعل في قلبه من حب النساء ملك اليمين، وهذه من أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ فقالت عائشة: ما كان الله ليعذب قلب نبيه ﷺ والله ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء، فمن عرف قدر النساء وسرهنّ لم يزهد في حبهنّ، بل من كمال العارف حبهنّ فإنه ميراث نبويّ وحبّ إلهيّ، فإنه قال ﷺ: «**حبّب إليّ**» فلم ينسب حبّه فيهن إلاّ إلى الله تعالىٰ فتدبر هذا الفصل تر عجباً.

وأما المريدون الذين هم تحت حكم الشيوخ فهم بحكم أشياخهم فيهم، فإن كانوا شيوخاً حقيقة مقدّمين من عند الله فهم أنصح الناس لعباد الله، وإن لم يكونوا فعليهم وعلى أتباعهم الحرج من الله لأن الله قد وضع الميزان المشروع في العالم لتوزن به أفعال العباد، والأشياخ يسألون ولا يقتدى بأفعالهم إلاّ إن أمروا بذلك في أفعال معينة قال تعالىٰ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] وهم أهل القرآن أهل الله وخاصته، وأهل القرآن هم الذين يعملون به وهو الميزان الذي قلنا، ولا ينبغي أن يقتدي بفعل أحد دون رسول الله ﷺ فإن أحوال الناس تختلف، فقد يكون عين ما يصلح للواحد يفسد به الآخر إن عمل به، والعلماء الذين يخشون الله أطباء دين الله المزيلون علله وأمراضه العارفون بالأدوية، فإذا كان رسول الله ﷺ قد اختلف الناس في أفعاله هل هي على الوجوب أم لا؟ فكيف بغيره مع قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وهذا كله ليس بنص منه في وجوب الأتباع في أفعاله فإنه ﷺ قد اختصّ بأشياء لا يجوز لنا اتباعه فيها ولو اقتدينا به فيها كنا عاصين مأثومين، فينبغي لكل مؤمن ويجب على كل مدع في طريق الله إذا لم يكن من أهل الكشف والوجود والخطاب الإلهيّ وممّن لا يكون يطفىء نور معرفته نور ورعه أن يجتنب كل أمر يؤدّي إلى شغل القلب بغير الله فإنه فتنة في حقّه، ويجب عليه أن يغلب عقله على شهوته، بل يسعى في قطع المألوفات وترك المستحسنات الطبيعية، وما يميل الطبع البشريّ ويجتنب مواضع التهم وصحبة المبتدعين في الدين ما لم يأذن به الله وهم الأحداث، وكذلك صباح الوجوه من المردان مجالسة والنساء وأخذ الأرفاق فإن القلوب تميل إلى كل من أحسن إليها والطبع يطلبهم، والقوّة الإلهية على دفع الشهوات النفسية ما هي هناك، والمعرفة معدومة من هذا الصنف من الناس، وما صبر تحت الاختبار الإلهيّ إلاّ الذهب الخالص المعدني الذي حاز رتبة الكمال وما بقي فيه من تربة

المعدن شيء، وكل تكليف فتنة وجميع المخلوقات فتنة، والاطلاع على نتائج الأعمال فتنة، وهي حالة مقام يستصحب إلى الجنة، وكان رسول الله ﷺ وهو صاحب الكشف الأتم والعالم بما ثم يستعيذ من فتنة القبر وعذاب النار وفتنة المحيا والممات.

وأما الشهوة فهي إرادة الملذوذات فهي لذة والتذاذ بملذوذ عند المشتهي، فإنه لا يلزم أن يكون ذلك ملذوذاً عند غيره ولا أن يكون موافقاً لمزاجه ولا ملايمة طبعه، وذلك أن الشهوة شهوتان: شهوة عرضية وهي التي يمنع من اتباعها فإنها كاذبة وإن نفعت يوماً ما فلا ينبغي للعاقل أن يتبعها لئلا يرجع ذلك له عادة فتؤثر فيه العوارض، وشهوة ذاتية فواجب عليه اتباعها فإن فيها صلاح مزاجه لملائمتها طبعه وفي صلاح مزاجه وفي صلاح دينه سعادته، ولكن يتبعها بالميزان الإلهيّ الموضوع من الشارع وهو حكم الشرع المقرر، وفيها سواء كان من الرخص أو العزائم إذا كان متبعاً للشرع لا يبالي فإنه طريق إلى الله مشروعة، فإنه تعالىٰ ما شرع إلاّ ما يوصل إليه بحكم السعادة، ولا يلزم أيضاً أن يكون ما يشتهيه في هذه الحال أن يشتهيه في كل حال ولا في كل وقت، فينبغي له أن يعرف الحال الذي ولد تلك الشهوة عنده والوقت الذي اقتضاها، وقد تتعلق بأعمال الطاعات هذه الشهوات العرضية فتوجب بعداً كمن يرى موضعاً يستحسنه طبعه فيشتهي أن يصلي فيه أو لفضيلة يعلمها في ذلك الزمان على غيره، فإن ذلك يؤثر في حاله مع الله أثر سوء وميزان ذلك الإلتذاذ بعمل لا لشهود إلهيّ، وهذا من المكر الخفي.

ولأبي يزيد في هذا قدم راسخة، وقد نبّه على ذلك لما سألته أمه في ليلة باردة أن يسقيها ماء وكان برّاً بها فثقل عليه القيام وقد كان ملتذاً في جميع أحواله في خدمة أمّه فاتهم نفسه في تلك اللذة إذ كان يتخيل أنه لا يلتذ بخدمة أمه إلاّ لإقامة حق الله، ولا بعبادة إلاّ لإقامة حق الله فيها، فرمى كل عبادة تقدمت له كان له التذاذ بها وتاب توبة جديدة، فأغوار النفوس لا يدركها إلاّ فحول أهل الله، فلا تفرح بالالتذاذ بالطاعات ورفع المشقة فيها عنك دون ميزان القوم في ذلك، فإذا اقترنت هذه الشهوة بصحبة أهل البدع وهم الأحداث وبصحبة الصبيان الصباح الوجود والنساء في الله تعالىٰ فيما تخيل له أنه في الله تعالىٰ ففي طيّ هذا التعلق مكر إلهيّ خفيّ، ولو تعلق ذلك الالتذاذ منه بغير هؤلاء الأصناف فليس ذلك بميزان يعرف به مكر الله حتى يفرّق بين الصحبة لله والصحبة لشهوة الطبع إلاّ أن يصحب العلماء بالله أهل الورع أو شيخه إن كان من أهل الأذواق فذلك أمر آخر.

والذي ينبغي له أن يزن به حاله في دعواه أنه ما صحب الأحداث والنساء إلاّ لله إذا وجد ألماً ووحشة عند فقده إياه وهيجاناً إلى لقائهم وفرحاً به عند إقبالهم، فتعلم عند ذلك أن الصحبة لهذا الصنف معلولة ليست لله وإن وقعت المنفعة للمصحوب منه فيسعد المصحوب ويشقى هذا المحب شقاوتين: الواحدة فقد المحبوب والأخرى بالجهل وعدم العلم فيما كان يتخيل أنه علم وأنه صحب لله وفي الله. وأما إن كان ممّن تتعلق تلك المحبة منه بجميع المخلوقات، ومن جملة المخلوقات أيضاً هؤلاء الأصناف، فقد يكون ذلك خديعة نفسية وميزانه أن لا يستوحش عند مفارقة واحد واحد فإنه لا يخلو عن مشاهدة مخلوق فمحبوبه معه ما فارقه، فإن العين

واحدة لو غاب عضو من أعضاء محبوبك مع بقاء عينه معك ما وجدت ألماً، والخلق كلهم أعضاء بعضهم لبعض، وأيضاً إن تعلق بجميع المخلوقات على علم من صاحبه بعموم التعلق ابتداء في غير هؤلاء الأصناف ثم تظهر هؤلاء الأصناف ولا يجد مزيداً في ميزانه فيدخلهم في عموم ذلك التعلق فذلك مبناه على أصل صحيح، وإن انجرّ معه الطبع في هذا الصنف ووجد معه الألم عند فقده على الخصوص فذلك لا يؤثر في خلوص تعلّقه الإلهيّ في دعوته ونصيحته لصحة الأصل، فإن حدث عنده عموم التعلق في ثاني الحال من تعلقه بصحبة هذا الصنف فلا يعوّل عليه فذلك تلبيس من النفس فليحذر منه وليترك صحبتهم جملة واحدة، وكلامنا إنما هو مع أهل الطريق، ولا بدّ من تمحيص هذا التعميم الذي وجده في ثاني حال من صحبتهم، كما يمحص نفسه صاحب السماع المقيد بالنغمات إذا أرسله مطلقاً بعد تحصيله ابتداء من المقيد بالنغمات فهو أصل معلول، فلا يعتمد من هذه حالته على سماعه المطلب المكتسب في ثاني حال فإن ذلك تلبيس النفس حتى لا تترك السماع المقيد، والإنسان إذا أنصف لربه من نفسه ولنفسه من نفسه عرف حاله، بل كان أعرف بحاله من غيره إلاّ من العارفين بالله فإنهم أعرف به من نفسه، لأن العارفين لهم أعين في قلوبهم فتحتها لهم المعرفة يرون بها منك ما تجهله أنت من نفسك لأنه ليست لك تلك العين، ولهذا قال الجنيد: العارف من ينطق عن سرك وأنت ساكت والسكوت عدم الكلام، فمعناه يعرف منك ما لا تعرفه أنت من نفسك، كالخفي من سوء المزاج يعرفه الطبيب منك إذ نظر إليك ولا تعرفه أنت، وهؤلاء أطباء النفوس.

واعلموا أن الشيوخ إنما حذروا من أخذ الإرفاق من النساء ومن صحبة الأحداث لما ذكرناه من الميل الطبيعي، فلا ينبغي للمريد أن يأخذ رفقاً من النساء حتى يرجع هو في نفسه امرأة، فإذا تأنّث والتحق بالعالم الأسفل ورأى تعشق العالم الأعلى به وشهد نفسه في كل حال ووقت ووارد منكوحاً دائماً ولا يبصر لنفسه في كشفه الصوري وحاله ذكراً ولا أنه رجل أصلاً بل أنوثة محضة ويحمل من ذلك النكاح ويلد وحينئذ يجوز له أخذ الرفق من النساء ولا يضره الميل إليهن وحبهنّ. وأما أخذ العارفين فمطلق لأن مشهودهم اليد الإلهية المقدسة المطلقة في الأخذ والعطاء، وكل شخص يعرف حاله والطريق صدق كله وجد لا يقبل الهزل ولا الطفيلي عنده وإن سامح الحق.

الباب التاسع ومائة

في معرفة الفرق بين الشهوة والإرادة، وبين شهوة الدنيا وشهوة الجنة، والفرق بين اللذة والشهوة، ومعرفة مقام من يشتهي ويشتهى، ومن لا يشتهي ولا يشتهى، ومن يشتهي ولا يشتهى، ومن يشتهى ولا يشتهي

[نظم: الكامل]

ربُّ الإرادة سيدٌ متحكِّمٌ ... تجري أمورُ الكائنات بوفْقِهِ

والاشْتِهَاءُ من الطبيعة أصلُهُ ... فمنِ اشتهى فالطبعُ مالِكُ رقِّهِ

لا يفرحَنْ أبداً عُبَيْدُ طبيعةٍ ... في ملْكِهِ في المنزلين بعتْقهِ

والإلتذاذُ تَقَسَّمَتْ أحكامُه في كل موجودٍ بِطَالِعِ أُفْقِهِ
فتراه والأعيانُ تطلب حقَّهَا يعطي لكل منه واجبَ حقِّهِ
يعطي الجزيلَ وما له ملكٌ سوى ما أودعَ الملكُ الجوادُ بحقِّهِ
الوَهْبُ يأتيه بكل فضيلةٍ تبدو عليه بخَلْقه وبخُلْقهِ
فعطاؤه الممزوجُ يشهد أنه فيما يجود عطاؤه من صِدْقِهِ
أما العبيدُ فرزقُهم معبودُهم فالكل إن حقَّقْتَ عابدُ رزقهِ

اعلم أيّدك الله أن المتمكن الكامل والعابد أيضاً من أهل الله صاحب المقام يشتهي ويشتهى لكماله، فيعطي كل ذي حق حقه، فإنه يشاهد جمعيته ففيه من كل شيء حقيقة، وصاحب الحال صاحب فناء لا يشتهي ولا يشتهى لأنه لا يشهد سوى الحق بعين الحق في حال فناء عن رؤية نفسه، فلا يشتهي لأن الحق لا يوصف بالشهوة، ولا يشتهى لأنه مجهول لا يعرف غير ربه لا تعرف الأكوان ولا نفسه لغيبته بربه عن الكل فهو غيب، لا يشتهي لأن العلم بالمشتهى من لوازم هذا الحكم، والزاهد لا يشتهي ويشتهى فإن النعم له خلقت فهو يراها حجباً موضوعة فينفر منها فلا يشتهيها وهي تشتهيه لعلمها بأنها خلقت له فيتناولها الزاهد جوداً منه عليها وإيثاراً إذا كان صاحب مقام، والمخلط الكاذب الذي يعصي الله بنعمه يشتهى ولا يشتهى، فيشتهى لغلبة الطبع عليه، ولا يشتهى لأن النعم إنما تشتهي من تراه يقوم بحقها وهو شكر المنعم على ما أنعم الله به عليه.

ثم اعلم أن الشهوة إرادة طبيعية مقيدة، والإرادة صفة إلٰهية روحانية طبيعية متعلقها لا يزال معدوماً وهي أعم تعلقاً من الشهوة، فإن كل حقيقة منهما تتعلق بالمناسب، والمناسب ما يشركها في الأصل، فلا تتعلق الشهوة إلاّ بنيل أمر طبيعي، فإن وجد الإنسان ميلاً إلى غير أمر طبيعي كميله إلى إدراك المعاني والأرواح العلوية والكمال ورؤية الحق والعلم به فلا يخلو عند هذا الميل إما أن يميل إلى ذلك كله بطريق الالتذاذ عن تخيّل صوري فذلك تعلق الشهوة وميلها لأجل الصورة، فإن الخيال إذا جسد ما ليس بجسد فذلك من فعل الطبيعة، وإن تعلق ذلك الميل بغير هذا التخيل الحاصل بل يبقى المعاني والأرواح والكمال على حاله من التجرّد عن التقييد وضبط الخيال له بالتخيّل فذلك ميل الإرادة لا ميل الشهوة، لأن الشهوة لا مدخل لها في المعاني المجرّدة، فالإرادة تتعلق بكل مراد للنفس، والعقل كان ذلك المراد محبوباً أو غير محبوب، والشهوة لا تتعلق إلاّ بما للنفس في نيله لذّة خاصة، ومحل الشهوة النفس الحيوانية، ومحل الإرادة النفس الناطقة، والشهوة تتقدّم اللذّة بالمشتهى في الوجود، ولها لذة متخيلة تتعلق بتصوّر وجود المشتهى، فتلك اللذة مقارنة لها في الوجود فتوجد في النفس قبل حصول المشتهى، واللذة مقارنة لوجود حصول المشتهى في ملك المشتهي فتزول شهوة التحصيل وتبقى اللذة، فليس عين الشهوة عين اللذة لفنائه بحصول المشتهي وبقاء اللذة غير أن الطبع يحدث له أو يظهر له عن كمون غيب إلهيّ شهوة أخرى تتعلق ببقاء المشتهى دائماً لا تنقطع فهذه شهوة لا لذّة لها، فإن البقاء دائماً غير حاصل مطلقاً فلا يتناهى الأمر ولا يوجد البقاء، فإن جدّد البقاء بزمان مخصوص ومقدار معين فذلك البقاء المشتهى يكون للشهوة لذة بحصوله موجوداً،

فاللذة مقارنة لحصول المشتهى خاصة لا تتأخر عنه ولا تتقدمه بوجود عين ووجود خيال.

وأما شهوة الدنيا فلا تقع لها لذة إلاً بالمحسوس الكائن. وشهوة الجنة يقع لها اللذة بالمحسوس وبالمعقول على صورة ما يقع بالمحسوس من وجود الأثر البرزخي عند نيل المشتهى المعقول سواء، ولا أعني بالجنة أن هذه الشهوة التي هذا حكمها لا توجد إلاً في الجنة المعلومة في العموم، إنما أعني حيث وجد هذا الحكم لهذه الشهوة الذي ذكرناه فهو شهوة الجنة سواء وجد في الدنيا أو وجد في الجنة، وإنما أضفناها إلى الجنة لأنها تكون فيها لكل أحد من أهل الجنة وفي الدنيا لا تقع إلاً لآحاد من العارفين، والشهوة لنا نسبة واحدة إلى عالم الملك، ونسبتان إلى عالم الملكوت، ولها مقامات وأسرار وهي الدرجات بقدر ما لحروف اسم الشهوة من العدد بالجمل الكبير بالتعريف وهو الشهوة وبالتنكير وهو شهوة وبالاتصال بكلام، فتعود هاء السكت تاء فلها عدد التاء وعدد الهاء في حال التنكير والتعريف فاجمع الأعداد بعضها إلى بعض فما اجتمع لك من ذلك فهو قدر درجات ما يناله صاحب ذلك المقام ولا يعتبر فيه إلاً اللفظ العربي القرشي فإنه لغة أهل الجنة سواء كان أصلاً وهو البناء أو فرعاً وهو الإعراب، وغير العربي والمغرب لا يلتفت إليه، وكذلك تعمل في كل اسم مقام وهو قولهم لكل إنسان من اسمه نصيب ومعناه لكل موجود من اسمه نصيب ولهذا جاءت أسماء النعوت فلا تطلب إلاً أصحابها وهي زور على من تطلق عليه وليست له وهذا من أصعب المسائل، فإن الاسم إطلاق إلهيّ فلا بدّ من نصيب منه لذلك المسمّى، غير أنه يخفى في حال مسمّى ما ويظهر في آخر ومدرك ذلك عزيز، وعلى هذا الحدّ الإرادة، فالمريد إلهيّ رباني رحماني، والمشتهى رباني رحماني خاصة، والمسلم المؤمن المحسن هو المريد، وصاحب الشهوة مسلم نصف مؤمن نصف محسن لأنه مع الإحسان المقيد بالتشبيه.

الباب العاشر ومائة

في مقام الخشوع

[نظم: الخفيف]

لا يكون الخشوعُ إلاّ إذا ما ... يُبْصرُ القلبُ من تَدَلَّى إليهِ

وتجلَّى له بصورةِ مِثْلٍ ... غير هذا فلا يكون لديْه

فإن اعتزَّ في مَقَام التَّجَلِّي ... فله الحكمُ لا يكون عليهِ

الخشوع مقام الذلة والصغار وهو من صفات المخلوقين ليس له في الألوهية مدخل، وهو نعت محمود في الدنيا على قوم محمودين، وهو نعت محمود في الآخرة في قوم مذمومين شرعاً بلسان حق وهو حال ينتقل من المؤمنين في الآخرة إلى أهل العزّة المتكبرين الجبارين الذين يريدون علواً في الأرض من المفسدين في الأرض، فالمؤمنون في صلاتهم خاشعون، وهم ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ من الرجال ﴿ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ من النساء الذين ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] ونعت أصحابه في الآخرة فقال: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾

[سورة الشورى: الآية ٤٥] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢ ـ ٦] ولا يكون الخشوع حيث كان إلاَّ عن تجلّ إلهيّ على القلوب في المؤمن عن تعظيم وإجلال، وفي الكافر عن قهر، وخوف، وبطش. قال عليه السلام حين سئل عن كسوف الشمس: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ» أخرجه البزار وإذا وقع التجلي حصل الخشوع وأورث التجلي العلم والعلم يورث الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] والخشية تعطي الخشوع، والخشوع يعطي التصدع وهو انفعال الطبع للخشوع، والتصدّع تقصف وتكسر في الأعضاء والغطيط الذي يسمع فيها كل ذلك من أثر الطبع القابل لأثر الوارد في التجلي الإلهيّ وهو الذي كنى عنه الشرع بالغتّ والغطّ في نزول الوحي عليه كصلصلة الجرس وهو أشده عليه، فإن نزوله شديد على هذا الهيكل البشري ولا سيما إن كان النزول بالقرآن كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] وقد يكون من الجبال القوة الماسكة الطبع الذي من شأنه الميل نظير الميد في الأرض، ويكون من الأرض أرض الأجسام الطبيعية أو كلم به الموتى.

ومن أصناف الموت الجهل يقول تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] لكان هذا القرآن يحيا بما فيه من العلم ويقطع به الأرض وتسير الجبال بما فيه من الزجر والوعيد. وقوله ﴿ قُرْءَانًا﴾ [سورة يوسف: الآية ٢] بالتنكير دليل على أحد أمرين: إما على آيات منه مخصوصة كما ضرط الجبار عندما سمع صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإما أن يكون ثم أمر آخر ينطلق عليه اسم قرآن غير هذا لغة ولو حرف امتناع لامتناع فهل هو داخل تحت الإمكان فيوجد، أو ما هو ثم إلاَّ بحكم الفرض والتقدير، فأما عندنا فكل كلام إلهيّ من كلمة مركبة من حرفين إلى ما فوق ذلك من تركيبات الحروف والكلمات المنسوبة إلى الله بحكم الكلام فإنه قرآن لغة وله أثر في النزول في المحل المنزّل عليه إذا كان في استعداده التأثر بنزوله، فإن لم يكن فلا يشترط، والاستعداد من المحل أن يكون حاله العبودة والعبودية وأثره في حال العبودية أتمّ منه في حال العبودة، فإن سمع المحل أو نزل عليه في حال كون الحق سمعه حصل له النزول ولم يظهر له أثر عليه لأنه حق في تلك الحالة فينتفي عنه الخشوع، وهذا أصل يطرد في كل وصف لا يكون له في الألوهة مدخل، كالذلّة والافتقار والخشوع والخوف والخشية فإنه يتأثر صاحب هذا الحال، وكل كون يكون حالة نعت إلهيّ كالكرم والجود والرحمة والكبرياء فإنه لا يؤثر في صاحبه أصلاً فإنه نعت حق فله العزّة والمنع هذا مطرد، وقد نزل علينا من القرآن ذوقاً عرفنا من ذلك صورة نزوله على نبيه ﷺ فوجدنا له ما لم نجد لحفظ حروفه ولا لتدبّر معانيه، ونزل علينا في الحالين فأثر في الحال الواحد الكوني ولم يؤثر في الحال الإلهي إلاَّ لذة خاصة فإنه لا بدّ منها، وأما خشوعاً فلا، ولهذا ينسب إلى الجناب الإلهيّ الأقدس ما ينسب من الفرح وهو التذاذ.

ثم إن الله جعل مثل هذا أمثالاً مضروبة للناس ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] الخارج عن الحالين والعاري عن التلبس بالحكمين وهي حالة الغافلين عمّا خلقوا له وعمّا فضلوا به، لم يمت أبو يزيد حتى استظهر القرآن وهو تنزيله عليه ذوقاً، و«من استظهر القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه »كذا قال ﷺ، وهذا الفرق بين تنزّله على النبيّ ﷺ وبين تنزّله علينا، فإنه منزل في النبي ﷺ على قلبه وفي صدره فنبوّته له مشهودة، وينزل علينا بين جنبينا من وراء حجابنا فهو لنا في الظهر لا في الظهور، فنبوّتنا مستورة عنا مع كوننا محلاً لها، فمن خشع تصدع ومن علم يخشى.

الباب الحادي عشر ومائة

في ترك الخشوع

[نظم: الخفيف]

من تجلَّى لنفسه كيف يخْشَعْ وبه تنظُرُ العيونُ إليهِ
فقُوانا قُواه من غير شكٍّ هكذا نصَّ لي الرسولُ عليهِ

إذا كان العبد في نعت إلهيّ وورد التجلّي عليه وتلقاه بذلك النعت أورثه لذة وفرحاً وابتهاجاً وسروراً، ولم يجد خشوعاً ولا ذلة، فينسب ذلك الفرح للظاهر في المظهر لا من حيث هو ظاهر فهو سرور بكمال، وأثره في المظهر من حيث ما هو مظهر، فهو محجوب عن ذاته بربه في حال صحوه وظهوره وحضوره وإثباته وبقائه، وترك الخشوع لمن ليست هذه حالته مذموم مطرود.

الباب الثاني عشر ومائة

في مخالفة النفس

[نظم: الكامل]

خالِفْ هواكَ فإنه محمودُ واعلمْ بأنك وحدَك المقصودُ
الكلُّ يسعد غير من هو مثله فَلْتُلْقِ سمْعَك لي وأنت شهيدُ
أنت العزيزُ فذُقْ وبَالَ صفاتِه يوم القيامة والأنامُ شُهودُ

اعلم أيّدك الله أن مخالفة النفس هو الموت الأحمر وهو حال شاق عليها وهي المخالفة نفسها فالمخالف عين المخالف، وهذا من أعجب الأمور أعني وجود المشقة، نعم لو كان المخالف نفساً أخرى لم يكن التعجب من حصول المشقة في ذلك، ونحن بحمد الله حيث قلنا بمخالفتها ولم نقل تخالف بالمقابل، فقد يكون الخلاف بما ليس بمقابل، فيجمع بين وجود الخلاف وبين المساعدة، وسيأتي في الباب الذي بعد هذا الباب وفائدة المخالفة عظيمة. واعلم أنه لا يخالف النفس إلاّ في ثلاثة مواطن: في المباح والمكروه والمحظور لا غير. وأما إذا وقعت لها لذة في طاعة مخصوصة وعمل مقرّب فهنالك علة خفية يخالفها بطاعة أخرى وعمل مقرّب، فإن استوى عندها جميع التصرّفات في فنون الطاعات سلمنا لها

تلك اللذة بتلك الطاعة الخاصة، وإن وجدت المشقة في العمل المقرّب الآخر الذي هو خلاف هذا العمل فالعدول إلى الشاق واجب لأنها إن اعتادت المساعدة في مثل هذا أثرت في المساعدة في المحظور والمكروه والمباح، وإنما صعب على النفس المخالفة لكريم أصلها وعلوّ منصبها، فإن النيابة الإلهية في العالم لها فتقول في نفسها بيدي أزمة الأمر وملاكه ولا سيما وقد خلقني الله تعالىٰ على الصورة، فمخالفتي مخالفة الحق من هذا المقام يكون لها المخالفة موتاً أحمر، وحجبت هذه النفس عن الاتساع الإلهيّ وعما خلقت له، وعن العلم بأن الصورة ليست لكل نفس، وإنما هي للنفس الكاملة كنفوس الأنبياء ومن كمل من الناس، فلو كملت هذه النفس ما كانت المخالفة لها موتاً أحمر، فإن لذة العرفان تعطيها الحياة التي لا موت فيها، فالوجود والفتح مقرونان بمخالفتها في كل شيء ينبغي أن تخالف فيه فافهم.

الباب الثالث عشر ومائة

في معرفة مساعدة النفس في أغراضها

[نظم: الخفيف]

ساعد النَّفْسَ إنها نَفَسُ الحـ ـقّ ونعتٌ له فأين تغيبُ

انظُرِ الحقَّ في الوجود تراه عَيْنَه فالبغيضُ فيه الحبيبُ

ليس عيني سواه إن كنتَ تدري فهو عَيْنُ البعيد وهو القريبُ

إن رآني به فمنّي أراه أو دعاني إليه فهو المجيبُ

مخالفتها عين مساعدتها فإنها بها تخالفها فانتقلت منها إليها فما زلت عنها. ثم اعلم أن للنفس غرضين: ذاتيّ وعرضيّ، فالذاتيّ هو جلب المنافع ودفع المضار، والعرضيّ هو ما عرض لها من جانب الشريعة، وقد يكون من جانب الغرض، وقد يكون من جانب ملائمة الطبع، وقد يكون من جانب طلب الكمال، فكلها في الطريق الذي نحن بسبيله غير معتبر إلاَّ جانب الشريعة خاصة فإنها التي وضعت الأسباب الفاضلة التي بفعل ما أمرت بفعله وبترك ما نهت عن فعله وجبت السعادة وحصلت المحبة الإلهية، وكان الحق سمع العبد وبصره، ففصل الشارع لها جميع ما يرضيه منها وما يسخطه من ذلك عليها إن فعلته وما لا سخط فيه ولا رضى، فما كان ممّا يرضي الله فهو إلقاء ملكيّ، وفي حق النبيّ إلقاء ملكيّ وإلهيّ، وليس للإلقاء الإلهيّ مدخل في الأولياء الأتباع جملة واحدة أعني في الأحكام بتحليل أو تحريم، وما كان ممّا يسخط الله فهو إلقاء شيطانيّ لا ناريّ، فمن الجنّ من يلقي الخير في قلوب الصالحين لهم بهم تلبس عظيم وامتزاج ومحبة، فما كان ممّا يلقي الشيطان فهو ملذوذ للنفس ومحبب لها ومزيّن في عينها في الوقت مر العاقبة في المآل، وإلقاء الملك قد يكون مراً في الوقت لكنه ملذوذ في المآل، وكلتا الحالتين لا تقتضيهما النفس من ذاتها، فلا ينبغي للعاقل أن يساعد النفس فيما تتعلق به من الأمور التي تأمره بها مما يقع له فيها غرض، إما عرضيّ أو ذاتيّ، إلاَّ المؤمن والعارف، فالمؤمن يساعدها في الغرض الذاتي وهو كل ما تأمره به من

المباح خاصة، ومن ملذوذات الطاعات، وأما العارف الذي الحق سمعه وقواه فيساعدها في جميع أغراضها فإنه نور كله والنور ما لا ظلمة فيه، ولذلك كان ﷺ يقول في دعائه: «**واجْعَلْنِي نُوراً**» لأن النفس ما ينسب إليها ذمّ إلاّ بعد تصريفها آلتها في المذموم وهو الظلمة فيقال: قد اغتاب الغيبة المحرّمة عليه، وقد كذب الكذب المحرّم عليه، وقد نظر النظر المحرّم عليه، وما لم يظهر الفعل على الآلات لم يتعلق بها ذمّ، والعارف قد وقع الإخبار الإلهيّ عنه بأن الحق جميع قواه فذكر الآلات، فلهذا أبحنا للعارف مساعدة النفس لما هو عليه من العصمة في ظاهره الذي هو الحفظ.

الباب الرابع عشر ومائة

في معرفة الحسد والغبط

[نظم: مجزوء الرمل]

حَسَدُ القلب حَصَادُ ... وهوى النَّفس بُعَادُ

عينُه في الجنس تبدو ... وهو المَلْكُ الجَوادُ

فأنا أَحْسُدُ مثلي ... وبهذا القَوْمُ سادوا

ما لنا مثلُ سوانا ... حسَدَ الحقَّ العبادُ

لو درى النَاسُ الذي قـ ... ـلت لما كان العِنَادُ

الحسد وصف جبليّ في الإنس والجان، وكذلك الغضب والغبط والحرص والشره والجبن والبخل، وما كان في الجبلة فمن الحال عدمه إلاّ أن تنعدم العين الموصوف بها. ولما علم الحق أن إزالتها من هذين الصنفين من الخلق لا يصحّ زوالها عين لها مصارف يصرفها فيها فتكون محمودة إذا صرفت في الوجه الذي أمر الشارع أن تصرف فيه وجوباً أو ندباً، وتكون مذمومة إذا صرفت في خلاف المشروع، وإذا عرفت هذا فلا عناد ولا نزاع، قال ﷺ: «**زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً وَلا تَعُدْ**» وقال: «**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا وَطَالِبُ عِلْم**» فطلب الدنيا قد يكون مذموماً وقد يكون محموداً، وطلب العلم محمود بكل وجه، غير أن المعلومات متفاضلة فبعضها أفضل من بعض وتختلف باختلاف القصد، فإن طلب العلم بالمثال من جهة من قامت بهم لا من حيث أعيانها، وطلب بعضها بطريق التجسّس مذموم، فما ثم على التحقيق ما هو مخلص لأحد الجانبين أين قوله: ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ [سورة الفلق: الآية ٥] من قوله: «**لاَ حَسدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ**» وكذلك أين الغضب لله من غضب الإنسان لنفسه من غضبه حمية جاهلية، فجميع ما جبلت النفس عليه لا يزول بالمجاهدة ولا بالرياضة، وإنما تختلف مصارفها فيختلف اللسان عليها بالذمّ والحمد، فإن أخذ بها جهة اليمين فبخل بدينه وحرص على فعل الخير وغضب لله حمد، وإن أخذ بها جهة الشمال فغضب حمية جاهلية وبخل بما فرض عليه الجود به كالزكاة وتعليم العلم ذمّ حقاً وخلقاً، وعلم هذا الباب فيه راحة عظيمة ومنفعة للناس وهم عنها غافلون. انتهى الجزء الثامن والتسعون.

(الجزء التاسع والتسعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس عشر ومائة

في معرفة الغيبة ومحمودها ومذمومها

[نظم: المتقارب]

إذا نـــزلَ الـــحـــقُّ مـــن عـــزِّهِ — إلـى مـنـزل الـجـوع والـمَـزْحَـمَـهْ
فـخـذه عـلـى حـدِّ مـا قـالـه — فـإن بـه تَـخـصـلُ الـمَـكْـرُمَـهْ
ولا تُـلْـقـيَـنْـهُ عـلـى جـاهـلٍ — فـتـخـصَـلُ فـي مـوقـف الـمَـنْـدَمَـهْ
فـغـيَّـبَـكَ الـحـقُّ فـي ذكـره — بـمـا لـم يَـقُـلْ وهـي الـمَـشْـأَمَـهْ
وإن كـان حـقـاً ولـكـنـه — إذا قـالـه قـائـلٌ قـال مَـهْ

اعلم فهمك الله ما أسمعك أن الغيبة ذكر الغائب بما لو سمعه ساءه وهي حرام على المؤمنين، فالحق لا يغتاب لأنه السميع البصير في نفس الأمر، وعند العلماء به، وقد أبان لعباده ما يكرهه منهم وما يحمده ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فلا يغتاب أيضاً اسم فاعل واسم مفعول، فالغيبة حرام على المكلفين فيما بينهم، ويجتنبها أهل المروءات من غير المؤمنين نزاهة وشرف نفس لأن اجتنابها يدل على كرم الأصول إلاَّ في مواطن مخصوصة فإنها واجبة وقربة إلى الله، وأهل الورع من المؤمنين يعرّضون بها ولا يصرحون، فمن ذلك في طريق الجرح الذي يعرفه المحدثون في رواة الأحكام المشروعة روينا عن بعض العلماء بالله أنه كان يقول في ذلك لصاحبه: تعال نغتب في الله، ومنها عند المشورة في النكاح فإنه مؤتمن والنصيحة واجبة، ومنها الغيبة المرسلة وهو أن يغتاب أهل زمانه من غير تعيين شخص بعينه، ومنها غيبة المشايخ المريدين في حال التربية إذا كان فيها صلاح المريد إذا وصل ذلك إليه، ومع كون الغيبة محمودة في هذه المواطن فعدم التعيين فيها أولى من التعيين، فإن النبيّ ﷺ يقول: «**لا غَيْبَةَ فِي فَاسِقٍ**» نهياً لا نفياً، على هذا أخذ أهل الورع هذا الخبر وطريق التعريض هين المأخذ، وما عدا أمثال هذه المواطن فهي مذمومة يجب اجتنابها، ومن هذا الباب تجريح الشهود إذا عرف المشهود عليه أنهم شهدوا بالزور فوجب عليه نصرة الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله، ومن هنا يتبين لك أن العدم هو الشر، فإن شهداء الزور مالوا إلى جانب العدم ورجحوه على الوجود ووصفوا بالكون ما ليس بكائن، وجعله الله على لسان رسوله من الكبائر لأنه ما مدلول قولهم إلاَّ العدم، ومع هذا كله إن استطاع من هو من أهل طريق الله التعريض لا التصريح حتى يفهم عنه ما يريد إذا علم أن في ذلك منفعة دينية فليفعل فهو أولى، ويحصل الغرض ويكون اللسان قد وفى ما تعين عليه من غير فحش في المنطق، وهذا كله ما دام يسمى مؤمناً.

وأما إن كان هذا الشخص في مقام من كان الحق سمعه وبصره ولسانه فحاله غير حال المؤمن مع أنه من أهل الإيمان. واعلم أن الله تعالىٰ ما خلق داء إلاّ وخلق له دواء، والأدوية على نوعين: دواء العامة وهو الذي يقدر عليه كل أحد والدواء الآخر دواء ملكي وهو الذي لا يقدر عليه إلاّ الملوك والأغنياء لنفاسته وغلو ثمنه، فلا يقدر عليه إلاّ المتمكن من المال والسلطان، وهكذا قسم الأدوية أهل الطب وصادقوا الحق في ذلك، فأما الدواء العام النافع الداخل تحت قدرة كل أحد من غنيّ وفقير وسوقة وملوك من داء جميع الذنوب والمعاصي فهو التوبة وإرضاء الخصوم من شروطها مما يقدر عليه من ذلك، وعينه عليه الشارع إذ كان ذلك الداء ممّا ينبغي أن يرضى فيه الخصوم، وإذا كان مما لا ينبغي فيتوب ولا يرضى خصمه، فإنه إن أرضاه قد يقع في محظور أشدّ ممّا كان قد تاب عنه فلا يغفل عنه.

وأما الدواء الملكي فلا يستعمله إلاّ العارفون السادة من رجال الله وهم الذين يكون الحق سمعهم وبصرهم ولسانهم وهو قوله عقيب قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] هذا خطاب عام ثم قال: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] هذا هو الدواء، ومعناه اتخذوه وقاية بينكم وبين هذه الأمور المذمومة التي الغيبة منها، فإذا اتخذتموه جنة تعاورت هذه الجنة سهام هذه الأفعال وهي قوية لا تنفذها هذه السهام فيكون المتقي بها في حمايتها، ولا يكون الحق وقاية للعبد حتى يتلبس به البعيد كما يتلبس المتوقي بالجنن من الدرع الحصينة وغيرها، وصورة تلبسه أن يكون الحق سمعه ولسانه وجميع قواه وجوارحه في حال تصرّفها فيما هي له فيكون نوراً كله، فنبّه الله في كتابه على هذه الأدواء الملكية السلطانية مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ والغيبة من الفجور ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] أي الذي يتخذه وقاية من هذا الفجور، ولم يجعل الفجور من أوصافها وإنما جعله مجعولاً فيها من الملهم لها كما أيّد هذا بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨] فما جعل التزيين له بل قال: ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٤] ولما أضاف التزيين إليه سبحانه قال: ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤] أي يحارون والحيرة من صفات الأكابر، وصفة الحيرة في مثل هذا أنه الأمر في إيجاده للملهم المزيّن والمجعول فيه الملهم والمزيّن له مأمور باجتنابه وهو الاتصاف بما ألهم له وما زيّن من قبل أن يظهر بالفعل فهو مذموم غير مؤاخذيه حتى يتلبس به في الظاهر.

ثم قال في أمور من هذا الباب: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠] وهو البعيد من الرحمة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي وكونوا مع الاسم القريب من الرحمة. ومن أسمائه سبحانه البعيد، فمن اتخذ الحمق جنة ووقاية كما أمر لم تضرّه هذه الأشياء فإنّ الله تعالىٰ ما نبّهه على استعمال هذه الأدواء إلاّ لإقامة العذر منه إذا سئل عن مثل هذا، والمؤمن غيب خلف جنته فهو في حمى فلا يخرج عن حماه، والفاسق الذي لا غيبة فيه ليس بغائب خلف جنته بل هو خارج عنها لأن الفسوق الخروج فقال: لا غيبة في فاسق، فمن أخرج غيباً

يستحق أن يكون غيباً إلى شهادة فقد أخطأ ولهذا أضاف الغيبة إلينا فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] فجعلنا نشأة واحدة ذات أبعاض، فإن الجزء والتفصيل إنما يرد على الكل، فما خرجنا عنا ولا وقعنا إلاّ فينا فشدّد الأمر علينا في ذلك، فإن القاتل نفسه حرمت عليه الجنة وهي الساترة فإن الشيء لا يستتر عن نفسه، وكل من ذكر غائباً فقد صيّره شهادة وغربه عن موطنه وموت الغريب شهادة، فالمغتاب فاعل خير في حق من اغتابه، وإن كان يكره ذلك ففيه منفعة كشارب الدواء الكره ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦] وإذا كان فاعل خير من غير قصد فهو ممّن أجرى الله الخير لزيد على يديه فيكون جزاؤه جزاء من وفق لعمل خير من غير قصد في حق من اغتابه لكن ذلك مقصود لمن ألهمه إياه وسمّاه فجوراً في حقّه، فيصلح الله يوم القيامة بين عباده لما يراه المظلوم من الخير الواصل إليه على يدي أخيه فيشكره على ذلك فيسعدان جميعاً.

وفي الخبر الصحيح: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فالغيبة وإن كانت مذمومة فهي من ذلك الوجه محمودة في حق من اغتيب، فمآل ذلك إلى الخير، إذ كانت الجنة والوقاية الحائلة بينهما الحق والحق والغيبة وجود ما هي عدم، فوقع التناسب بين الموجودين، فاندرج الأضعف في الأقوى فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر ومائة

في معرفة القناعة وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن القناعةَ بابٌ أنت داخِلُهُ ... إن كنتَ ذاك الذي يُرْجَى لخدمتهِ

فاقنَعْ بما أعطتِ الأيامُ من نِعَمٍ ... من الطبيعة لا تقنَعْ بنعمتهِ

لو كان عندك مالُ الخلق كلِّهِمُ ... لم يأكلِ الشخصُ منه غيرَ لُقْمتهِ

ليست القناعة عندنا الاكتفاء بالموجود من غير طلب المزيد، أرسل الله تعالىٰ على أيوب وهو نبيّ مكرّم قيل فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] وأثنى عليه بالصبر مع دعائه ربه في كشف الضرّ عنه فأزاله، فلما أرسل عليه رجلاً من جراد من ذهب فأخذ يجمعه في ثوبه فقال له ربه: ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ فقال: يا رب لا غنى بي عن خيرك، فإن كان فعل هذا لما هو عليه ظاهر الحال فهو ما أردنا، وإن كان ليقتدي به في ذلك فما فعل إلاّ ما هو أولى بالقربة إلى الله من تركه، وهو من الذين هدى الله وأمر الله نبيه ﷺ بالاقتداء بهداهم وقال لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] والقناعة عندنا على بابها في اللسان وهي المسألة، والقانع السائل، والسؤال من الله لا من غيره، يقال: قنع يقنع قنوعاً إذا سأل وهو الذي رفع سؤاله إلى الله وهو قوله في الظالمين يوم القيامة: ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٣] أي رافعين إلى الله يسألونه المغفرة عن جرائمهم، ويجتمع الحدّان في أمر وهو أن السائلين الله قنعوا به في سؤالهم والتجائهم إليه فلم

يسألوا غيره تعالىٰ، فهذا معنى قول الأكابر الاكتفاء بالموجود وهو الله بالسؤال عن طلب المزيد وهو أن يتعدّى بالسؤال إلى غيره، والخلق عيال الله أي الفقراء إلى الله، فمن سأل غير الله فليس بقانع ويخاف عليه من الحرمان والخسران، فإن السائل موصوف بالركون لمن سأله والله يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٣] ومن ركن إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم فإن الله يقول في الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لحمله الأمانة وما من أحد من الناس إلاَّ حملها، فلا تركن إلى غير الله واكتف بالله في سؤالك تسعد إن شاء الله.

وللقناعة درجات عند العارفين من أهل الأنس والوصال وهي ستمائة واثنتان وخمسون درجة، ودرجاتها عند العارفين من أهل الأدب والوقوف مائتان وسبع وخمسون درجة ودرجاتها عند الملامية من أهل الأنس والوصال ستمائة وإحدى وعشرون درجة، ودرجاتها عند الملامتية من أهل الأدب والوقوف مائتان وست وعشرون درجة، وللقناعة الدعوى ولها نسبتان: نسبة إلى عالم الجبروت، ونسبة إلى عالم الملكوت، وليس لها إلى عالم الملك نسبة ظاهرة بل لها نسبة باطنة إلى عالم الملك يظهر ذلك القنوع، وهذا القدر كاف فيها والله الموفق.

الباب السابع عشر ومائة

في مقام الشره والحرص في الزيادة على الاكتفاء

[نظم: البسيط]

لا تَـقْـنَـعَـنَّ بـشـيء دونـه أبـداً ... واشْـرَهْ فإنـك مـجـبـولٌ عـلـى الـشَّـرَهِ

واحرصْ على طلب العَلْياءِ تَحْظَ بها ... فـلـيـس نـائـمُـهـا عـنـهـا كـمُـنْـتَـبِـهِ

إن الـحـلالَ حـلالٌ مـا وثـقْـتَ بـه ... ولـيـس مـالُ حَـرَام مـثـلَ مُـشْـتَـبِـهِ

اعلم أيّدك الله أن هاتين الصفتين مجبول عليهما الإنسان بما هو إنسان، وكل ما هو الإنسان مجبول عليه فمن المحال زواله، فهو مقام لا حال فإنه ثابت، ويتطرق إليه الذم من جهة متعلقه إذا كان مذموماً شرعاً وعقلاً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٩٦] وقال ﷺ: «**زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً ولا تَعُدْ**» فالآية موجهة لطرفي الحمد والذم لولا الضمير الذي في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ فإنه يعود على قوم مذمومين، وقرينة الحال تدل على أن مساقه الحرص فيها على الذم تكذيباً لهم فيما ادعوه من أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس. فمن نظر في الحرص هنا الدلالة على كذبهم كان محموداً فيهم لأنه دليل إلهيّ على كذبهم، فهو من جانب الحق فيهم عليهم حجة لله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] والمذموم هو المذموم من كل وجه من حيث ما هو فيهم لا من حيث دلالته عليهم، وكان متعلقه ما يفنى وتكذيب الصادق كان مذموماً.

وأما في الخبر الذي أوردناه فهو محمود لأنه حرص على أداء عبادة مفروضة، ثم إنه مع هذا فإنهما صفتان من صفات العالم الوارث المكمل الذي هو سائس أمّة فهو ينظر فيما فيه

صلاحهم كما قال في نبيه ﷺ يمدحه به ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] فمدحه بالحرص على ما تسعد به أمته، وشرهه وحرصه على إسلام عمّه أبي طالب إلى أن قال له: «قلها في أذني حتى أشهد لك بها»، لعلمه بأن شهادته مقبولة وكلامه مسموع، فيعرف الكامل نائب الله في عباده نوائب الزمان المستأنفة فيستعدّ لها عن الأمر الذي كان له منه الاطلاع على منازلتها، فيتخيل من لا علم له أنه سعى في حق نفسه وليس الأمر كذلك وهو كذلك، فإنه يباهي الأمم بالأتباع من أمته فكان يطلب الكثرة من المؤمنين، ولكن لا بدّ لهذا الشره من وجود الشرطين: الاطلاع والأمر الإلهي وهو الشرط الأعظم.

وأما الاطلاع وإن اشترط فهو شرط ضعيف فإنه لا يشترط إلاَّ لمن ادّعى أنه يدخر في حق الغير، ثم يتناول من ذلك المدخر في حق نفسه فيقال له: هل أطلعك الله على من له هذا المدخر عندك؟ وهل اطلعت على أنه لا يصل إليهم إلاَّ على يدك؟ فإن قال: نعم سلم له الإدّخار. وإن قال: لا قيل له: فحرصك ما قام على أصل مقطوع بصحته فدخله الخلل. فإن قيل: فقد قالت طائفة: من صحّ توكله في نفسه صحّ توكله في غيره. قلنا: هذا صحيح وهذا لا يناقض حال هذا الحريص على الكسب والادّخار والمزاحمة لأبناء الدنيا الذين لا توكل لهم على ذلك، فإن التوكل أمر باطن وهو الاعتماد على الله، وهذا المدخر إن كان اعتماده على ما ادّخره فهذا يناقض التوكل، وإن لم يعتمد عليه فليس يناقض، لكن يناقض التجريد الظاهر وقطع الأسباب، وليس هذا من أحوال المكملين، وإنما هو من أحوال السالكين ليكون لهم ما اتخذوه عقداً ذوقاً، فإن الذوق أتم في التمكن فإنه يزيل الاضطراب في حال عدم السبب الذي من عادة النفس أن تسكن إليه، وسيرد تحقيق هذا في مقام التوكل بعد هذا إن شاء الله.

ولهذا الشره والحرص من الدرجات عند العارفين سواء كانوا من أهل الأدب والوقوف أو من أهل الأنس والوصال ثمانمائة وخمس وستون درجة، وعند الملامتية سواء كان الملامي من أهل الأنس والوصال أو من أهل الأدب والوقوف ثمانمائة درجة وثلاث درجات، فإن كان العارفون من أهل الأسرار فلهم من الدرجات ألف وخمسمائة وخمس وثلاثون درجة، وإن كانوا من أهل الأنوار فلهم ثمانمائة درجة وخمس وستون درجة، وإن كان الملامية من أهل الأسرار فلهم ألف وأربعمائة وثلاث وسبعون درجة، وإن كانوا من أهل الأنوار فلهم ثمانمائة وثلاث درجات وهو نعت إلهيّ فإنه يقول: عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، وكذلك الحرص نعت إلهيّ أيضاً وهو الذي يقتضيه قول الله لملائكته في المتشاحنين: انظروا هذين حتى يصطلحا، وتسخير الملائكة في حق المؤمنين بالاستغفار والدعاء لهم فهذا من ثمرته، وإن لم يرد الإطلاق اللفظي به فإن هذه الأمور على قسمين: منهما ما ورد إطلاق اللفظ بأسمائها على الجناب الإلهي، ومنها ما وجد منه آثارها ولم يطلق عليه منها اسم، ومنها ما نسب الفعل الذي يكون منها إليه ولم يطلق عليه منه اسماً، ومنه ما أطلق عليه منه اسماً في جماعة بحكم التضمين، فمثل ما نسب إليه الفعل ولم يطلق الاسم قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] وقوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٩] ومثل ما نسب إليه الفعل وأطلق عليه الاسم

في جماعة بحكم التضمين قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] ومثل ما أطلق عليه منه اسم قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٢] ومثل ما وجد منه آثارها ولم يطلق عليه منها اسم ولا فعل قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٨].

الباب الثامن عشر ومائة

في مقام التوكل

[نظم: الكامل]

مـن يـتَّـخِـذْ ربَّ الـعـبـاد وكـيـلا سَـلَـكَ الـصـراطَ وكـانَ أَقْـوَمَ قِـيـلاَ

إن الـذي فـيـه يـوكِّـلُ ربَّـهُ عـبـد الإلـه يُـقَـارِنُ الـتَّـنْـزيـلاَ

يـا طـالـبـاً مـا لـيـس يُـعْـلَـمُ مـا لـه لا تـتَّـخِـذْ غـيـرَ الإلـه وَكـيـلاَ

التوكل اعتماد القلب على الله تعالىٰ مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم التي من شأن النفوس أن تركن إليها، فإن اضطرب فليس بمتوكل وهو من صفات المؤمنين فما ظنك بالعلماء من المؤمنين؟ وإن كان التوكل لا يكون للعالم إلاَّ من كونه مؤمناً كما قيده الله به وما قيده سدى، فلو كان من صفات العلماء ويقتضيه العلم النظري ما قيده بالإيمان فلا يقع في التوكل مشاركة من غير المؤمن بأي شريعة كان، وسبب ذلك أن الله تعالىٰ لا يجب عليه شيء عقلاً إلاَّ ما أوجبه على نفسه، فيقبله بصفة الإيمان لا بصفة العلم فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] فلما ضمن ما ضمن وأخبر بأنه يفعل أحد الممكنين اعتمدنا عليه في ذلك على التعيين وصدقناه لأنه بالدليل والعلم النظري فعلم صدقه فسكوننا وعدم اضطرابنا عند فقد الأسباب إنما هو من إيماننا بضمانه، فلو بقينا مع العلم اضطربنا، فالعالم إذا سكن، فمن كونه مؤمناً وكونه مؤمناً من كونه عالماً بصدق الضامن وتحقيق الوكالة من يستحقها هل الله أو هل العالم أو هل لله منها نصيب وللعالم نصيب، فاعلم أن الوكالة لا تصحّ إلاَّ في موكل فيه، وذلك الموكل فيه أمر يكون للموكل ليس لغيره فيقيم فيه وكيلاً ويتصرّف فيما للموكل أن يتصرّف فيه مطلقاً، فمن نظر أن الأشياء ما عدا الإنسان خلقت من أجل الإنسان كان كل شيء له فيه مصلحة يطلبها بذاته ملكاً له، ولما جهل مصالح نفسه ومصالحه ما فيها سعادته خاف من سوء التصرف في ذلك، وقد ورد فيما أوحى الله لموسى: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فقال: إذ وقد خلق الأشياء من أجلي فما خلق إلاَّ ما يصلح لي وأنا جاهل بالمصلحة التي في استعمالها نجاتي وسعادتي فلأوكله في أموري فهو أعلم بما يصلح لي، فكما أنه خلقها هو أولى بالتصرف فيها، هذا يقتضيه نظري وعقلي من غير أن يقترن بذلك أمر إلهي، فكيف وقد ورد به الأمر الإلهي فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] نبّه بهذا الأمر أنه لا ينبغي الوكالة إلاَّ لمن هو إله لأنه عالم بالمصالح إذ هو خالقها كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٤] فاتخذه المؤمن العالم وكيلاً وسلم إليه أموره وجعل زمامها بيده كما هو في

نفس الأمر، فما زاد شيئاً مما هو الأمر عليه في الوجود ومدحه الله بذلك وما أثر في الملك شيئاً وهذا غاية الكرم الثناء بالأثر على غير المؤثر بل الكل منه وإليه فهذا حظ الناظر الأول، والناظر الثاني هو أن يقول: ما خلق الله الأشياء من أجل الأشياء وإنما خلقها ليسبحه كل جنس من الممكنات بما يليق به من صلاة وتسبيح لتسري عظمته في جميع الأكوان وأجناس الممكنات وأنواعها وأشخاصها فقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فالكل له تعالىٰ ملك.

وإذا كان الأمر على هذا ولم يخلق على الصورة الإلهية سوانا ووصف نفسه بالغيب عن الأشياء وأسدل الحجب بينها وبين أن ندركه فهو يدركها ولا تدركه لأنها لا تعرفه فأقام الإنسان خليفة وهو الوكيل فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فحدّ لنا في الوكالة أموراً لا نتعدّاها فما هي وكالة مطلقة مثل ما وكلناه نحن، فحدّ حدوداً لنا إن تعديناها تعدينا حدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١] وعلى النظر الأول جاء القرآن كله فإنه ما قال إلاَّ ﴿تَوَكَّلُوا﴾ [سورة يونس: الآية ٨٤] وقال: ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٧] فرجح النظر الأول، وهو أن نتخذ وكيلاً في المصلحة لنا لا في الأشياء فيجمع بين النظرين، وهي حالة ثالثة شهدناها وما رأيناها لا حدّ من طريقتنا فقلنا: إنه خلق الأشياء له لا لنا ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠].

ومن خلقنا افتقارنا إلى ما يكون صلاحنا حيث كنا من دنيا وآخرة، ولا نعلم طريقنا إلى المصلحة لأنه ما خلق الأشياء من أجلنا فوكلناه ليسخر لنا من هذه الأشياء ما يرى فيه المصلحة لنا امتناناً منه وامتثالاً لأمره، فنكون في توكلنا عليه عبيداً مأمورين ممتثلين أمره نرجو بذلك خيره، فوقع التوكل في المصالح لا في عين الأشياء، وهذا برزخ دقيق لا يشعر به كل أحد للطافته وهو جمع بين الاثنين وتثبيت للحكمين، وإن كان قد تكلم أهل هذا المقام فيه وما من أحد منهم إلاَّ نزع لأحد الطرفين من غير جمع بينهما، فالرجال المنعوتون بهذا المقام منهم من يكون بين يدي الله فيه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ولا يعترض عليه في شيء، ومنهم من حالته فيه حال العبد مع سيده في مال سيده، ومنهم من حاله فيه حال الولد مع والده في مال ولده، ومنهم من حاله فيه حال الوكيل مع موكله بجعل كان أو بغير جعل، والذي عليه المحققون وبه نقول: إن التوكل لا يصحّ في الإنسان على الإطلاق على الكمال، لأن الافتقار الطبيعي بحكم ذاته فيه والإنسان مركب من أمر طبيعي وملكوتي.

ولما علم الحق أنه على هذا الحد وقد أمر بالتوكل وما أمر به إلاَّ وهو ممكن الاتصاف به وقد وصف نفسه بالغيرة على الألوهية فأقام نفسه مقام كل شيء في خلقه إذ هو المفتقر إليه بكل وجه وفي كل حال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وما خصّ مؤمناً ولا غيره ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فما افتقرتم إليه من الأشياء هو لنا وبأيدينا وما هو لنا فما يطلب إلاَّ منا فإلينا الافتقار لا إليه إذ هو غير مستقل إلاَّ بنا. وليكن للتوكل أحوال يصحّ

الاتصاف بها يسمى توكلاً. وبلغني عن واحد من أهل طريق الله أنه قال بما أشرنا إليه في هذه المسألة: متنا وما شممنا لهذا التوكل رائحة لأنه يطلب سريانه في الكل للافتقار الطبيعيّ الذي فيه، والتوكل مقام لا يتبعض إلاّ بالمجاز، ونحن أهل حقائق فلو صحّ في وجه كما يزعم هذا المدعي لصحّ في جميع الوجوه وله الدعوى وصاحبه مسؤول وله الكشف، ودرجاته عند العارفين أربعمائة وسبع وثمانون، ودرجات الملاميين فيه أربعمائة وست وخمسون، وله نسب إلى العالم كله من ملك وملكوت وجبروت.

الباب التاسع عشر ومائة

في ترك التوكل

[نظم: البسيط]

أنت الخليفةُ فيما أنت مالِكُهُ ... والحقُّ ليس به نَفْعٌ ولا ضَرَرُ
تَرْكُ التوكُّلِ حالٌ ليس يعلمه ... غيرُ الوكيلِ فلا روحٌ ولا بَشَرُ
كيف التوكُّلُ والأعيانُ ليس سوى ... عينِ الموكِّلِ لا عينٌ ولا أَثَرُ

التوكل مشروع فينال الحدّ المشروع منه، والتوكل الحقيقي غير واقع من الكون في حال وجوده، فما هو إلا للمعدوم في حال عدمه، وما ثم مقام يتصف به المعدوم، ولا يصحّ في الموجود من جهة الحقيقة إلاّ التوكل، فلا يزال المعدوم موصوفاً بالتوكل حتى يوجد فإذا وجد خرج عنه التوكل فذلك المعبر عنه بترك التوكل. ثم أقول: لا يصحّ ترك التوكل المعروف عند العامة من أهل الله إلاّ لرجلين: الواحد علم أنه لا يصحّ فترك الشروع فيه لأنه عنده لا يمكن تحصيله لما رأى نفسه إذا أخذه ألم الجوع وعنده ما يدفعه به تناوله ليزيل ألم الجوع، فلا فرق بينه وبين من يسترقي ويتطبب ويلجأ إلى محل الأمن من الأمور المخوفة مع الصحو وتوفر العقل والعلم التام، فالتوكل من حيث ما هو مقام هو حاصل، ومن حيث حاله ليس بحاصل، فالتوكل يصحّ لا يصحّ.

وأمّا الرجل الآخر قال: إن الله أعلم بمصالح الخلق وقد ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ففيم التوكل مع هذا الفراغ فترك التوكل، فإنه ما بقي له ما يعتمد على الله فيه لأنه قال: فرغ ربك، ومع هذا فهو واقف مع الأمر والنهي عامل بما أمر به أو نهى عنه من الأعمال، قائم بالحكم المشروع عليه. فمن أسرار التوكل ترك التوكل، فإن ترك التوكل يبقي الأغيار، والتوكل ينفي الأغيار، وعند أكثر القوم أن الأعلى ما ينفي لا ما يبقي، وعندنا وعند شيخنا أبي السعود بن الشبلي وأبي عبد الله الهواري بتنس من بلاد المغرب، وأبي عبد الله الغزال بالمرية ببلاد الأندلس وأبي عمران موسىٰ بن عمران الميرتلي بإشبيلية وغيرهم أن الأعلى ما يفني ما ينبغي ويبقي ما ينبغي في الحال التي تنبغي والوقت الذي ينبغي، وبه كان يقول عبد القادر الجيلي ببغداد فإن الله تعالىٰ أفنى وأبقى، يقول تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فلا تعتمد عليه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فتعتمد على الله في بقائه فأفنى وأبقى.

والإفناء حال أبي مدين في وقت إمامته، ولا أدري هل انتقل عنه بعد ذلك أم لا، لأنه انتقل عن الإمامة قبل أن يموت بساعة أو ساعتين - الشك مني لبعد الوقت - وصاحب ترك التوكل ما له دعوى وهو غير مسؤول لأنه أمر عدمي، فجرى مجرى الأصل في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] يريد عدمه في عينه لأنه كان مذكوراً لله تعالىٰ، والدهر اسم من أسماء الله، ولهذا الاشتراك اللفظي نهي عن سبّ الدهر وقال: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ**» وما ثم عين تسبّ لعينها وإنما تسبّ لما يصدر منها، وما يصدر كون إلاّ من الله، والدهر الزمانيّ نسبة. وقوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ يعني الإنسان في ذلك الحين، أي موجوداً في عينه مع وجود الأعيان، ولكن ما تعرفه حتى تذكره ولا هي ذات فكر حتى تجمعه في ذهنا تقديراً فتذكره، فإن الفكر من القوىٰ التي اختصّ بها الإنسان لا توجد في غيره، ثم إن هذه الآية من أصعب ما نزل في القرآن في حق نقصان الإنسان وفيما يظهر من عدم الإعتناء الإلهي به، وعندنا ما أخّر الله نشأته ووجود عينه إلاّ اعتناء الله به، لأنه لو أوجده الله أوّل الأشياء كان يمرّ عليه وقت لا يكون فيه خليفة، فإنه ما ثم من قد هيّأه لمرتبة الخلافة والنيابة عنه، فلا بدّ أن يتأخّر وجود عينه عن وجود الأعيان حتى لا يزول عنه اسم الخلافة دنيا ولا آخرة، فما وجد إلاّ مليكاً سيداً، كما أنه مع غيره لله عبد مملوك ففضل العالم كله بالخلافة فلم تكن لغير الإنسان، وهذه المرتبة أوجبت له أن يخلق على الصورة، ومن قال إن هذه الآية تدل على عدم الاعتناء الإلهي بالإنسان لأن الله متكلم أزلاً عالم بما يكون أزلاً، ونفى أن يكون الإنسان شيئاً مذكوراً مع أنه شيء ولا بدّ لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فما يؤمر إلاّ من يسمع بسمع ثبوتي أو وجودي، ونفى أن يكون الإنسان مذكوراً في حين من الدهر، والدهر هنا الزمان والحين جزء منه لم يكن فيه الإنسان مذكوراً مع وجوده صورة إنسان، وجهل من شاهد صورته مراداً لله فيه، وما علم له اسم رتبة يذكر به، ولا ماله عند الله من العناية به التي ظهر أثرها عليه حين أقامه خليفة في أرضه وما غرّبه عن موطنه، وهو التراب الذي خلق منه ومواطن ذلّته لشهود عبوديته فإن الأرض ذلول فما حجبته الخلافة عن عبودته، وإن كانت أعلى المراتب فهو فيها بالذات والملائكة المقرّبون فيها بالعرض، يقول تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لكونه يحيي الموتى ويخلق ويبرىء ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ ثم عطف فقال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢] وهم العالون عن العالم العنصري المولد، فهم أعلى نشأة، والإنسان أجمع نشأة فإن فيه الملك وغيره فله فضيلة الجمع، ولهذه جعله معلم الملائكة وأسجدهم له، فمساق الآية يوزن بتقرير النعم عليه، وإنما وقعت الصعوبة في هذا الذكر كونه نكرة، والنكرة تعمّ في مساق النفي، فالتنكير يوزن بتعميم نفي الذكر عنه من كل ذاكر، وهو دليل على أن الله ما ذكره لمن أوجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكوراً له في نفسه ثم ذكره لملائكته بمرتبته التي خلق لها لا باسمه العلم الذي هو آدم فاعلم.

الباب العشرون ومائة

في معرفة مقام الشكر وأسراره

[نظم: البسيط]

الشُّكْرُ شكران شُكْرُ الفَوْز والرِّفَدِ ... هذا من الروح والثاني من الجَسَدِ

فالشكرُ للرِّفْدِ يعطيني زيادتَه ... والشكرُ للفوز مثلُ السَّلْب للأحَدِ

والشكر للفوز محصورٌ بغايته ... والشكرُ للرِّفْد لا يجري إلى أَمَدِ

اعلم أن درجات الشكر في الأسرار الإلهية ألف درجة ومائتان وإحدى وخمسون درجة عند العارفين من أهل الله، وعند الملامية منهم ألف ومائتان وعشرون، ودرجاته في الأنوار عند العارفين خمسمائة وإحدى وخمسون درجة، وعند الملامية من أهل الأنوار خمسمائة وعشرون درجة. اعلم أيّدك الله أن الشكر هو الثناء على الله بما يكون منه خاصة لصفة هو عليها من حيث ما هو مشكور، ومن أسمائه الشكور وشاكر وقد قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] فهي صفة تقتضي الزيادة من المشكور للشاكر وهي واجبة بالاتفاق عقلاً عند طائفة وشرعاً عند طائفة، فإن شكر المنعم يجب عقلاً وشرعاً، وما تسمى الله تعالىٰ بشاكر لنا إلاَّ لنزيده من العمل الذي أعطاه أن يشكرنا عليه لنزيده منه كما يزيدنا نعمة إذا شكرناه على نعمه وآلائه، ولا يصحّ الشكر إلاَّ على النعم فتفطن لنسبة الشكر إليه تعالىٰ ببنية المبالغة في حق من أعطاه من العمل ما تعين على جميع أعضائه وقواه الظاهرة والباطنة في كل حال بما يليق به، وفي كل زمان بما يليق به، فيشكره الحق على كل ذلك بالاسم الشكور وهذا من خصوص أهل الله.

وأما العامة فدون هذه الرتبة في أعمال الحال والزمان وجميع الكل، فإذا أتوا بالعمل على هذا الحد من النقص تلقاهم الاسم الشاكر لا الشكور، فهم على كل حال مشكورون ولكن قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] فهم خاصة الله الذين يرون جميع ما يكون من الله في حقهم وفي حق عباده نعمة إلهية سواء سرهم ذلك أم ساءهم فهم يشكرون على كل حال، وهذا الصنف قليل بالوجود وبتعريف الله إيانا بقلتهم.

وأما الشاكرون من العباد فهم الذين يشكرون الله على المسمى نعمة في العرف خاصة، والشكر نعت إلهي وهو لفظي وعلمي وعملي، فاللفظي الثناء على الله بما يكون منه على حد ما تقدم. والعملي قوله تعالىٰ: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] فهذا هو الشكر العملي. وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١١] فهو موجّه له وجه إلى اللفظ وهو الذكر بما أنعم الله به عليه، فإذا ذكر ما أنعم الله به عليه من النعم المعلومة في العرف من المال والعلم فقد عرض نفسه لنقصد في ذلك فيجود به على القاصد فيدخلك في الشكر العملي لأن من النعم ما يكون مستوراً لا يعرف صاحبها أنه صاحب نعمة فلا يقصد، فإذا حدث بما أعطاه الله وأنعم عليه به قصد به ذلك،

فلهذا أمر بالحديث بالنعم، والتحدّث بالنعم شكر والإعطاء منها شكر على شكر، فجمع بين الذكر والعمل فيقول: الحمد لله المنعم المفضل. وأما الشكر العلمي وهو حق الشكر فهو أن يرى النعمة من الله فإذا رأيتها من الله فقد شكرته حق الشكر. خرّج ابن ماجه في سننه عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ مُوسَىٰ يَا مُوسَىٰ اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَىٰ إِذَا رَأَيْتَ النعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي حَقَّ الشُّكْرِ**» هذا حال من رأى النعمة.

ومن نعمته على عبده أن يوفقه لبذل ما عنده من نعم الله على المحتاجين من عباده، فيعطيهم بيد حق لا بيده، فهم ناظرون في هذه النعمة، وهي رؤيتهم ذلك التصريف من عند الله في مرضاة الله، فيدخلون في حزب من شكره حق الشكر، وهذا هو أعلى الشكر في الشاكرين، وهو هين على العارفين المتجردين عن أوصافهم برد الأمور إلى الله، وليس لهذا المقام نسبة إلاّ لعالم البرازخ وهو الجبروت ليعم الطرفين، فإن البرازخ أتم المقامات علماً بالأمور وهو مقام الأسماء الإلهية فإنها برزخ بيننا وبين المسمّى، فلها نظر إليه من كونها اسماً له، ولها نظر إلينا من حيث ما تعطي فينا من الآثار المنسوبة للمسمّى فتعرف المسمّى وتعرفنا.

واختلف أصحابنا في الزيادة التي يعطيها الشكر هل هي من جنس ما وقع الشكر عليه أو لا يكون إلاّ من نعم أخر أو منهما، فالمحققون يجعلونها من الجنس المشكور من أجله، وما لم يكن من جنسه فما هو من الزيادة التي أوجبها الشكر، بل تكون تلك النعم من باب المنة ابتداء لا من باب الجزاء. ومنهم من قال: أي نعمة وقعت بعد الشكر فهي جزاء وهي الزيادة، وما لم يقع عقيب شكر من النعم فهو من عين المنة، وإنما قالوا ذلك لعدم معرفتهم بالمناسبة بين الأشياء التي اختارها الحكيم سبحانه، وقصد القوم القائلون بهذا تنزيه الحق عن التقييد، بل يعطي ممّا شاء من غير تقييد، فالمحققون أكبر علماً منهم وهؤلاء في الظاهر أنزه، وفي المعنى: الكل سواء في تنزيه الحق، والله الموفق. انتهى الجزء التاسع والتسعون.

(الجزء الموفي مائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأحد والعشرون ومائة

في مقام ترك الشكر

[نظم: الطويل]

إذا كان حالُ الشُّكر يُعطِي زيادة ... وكان الإلهُ الحقُّ سمْعَك والبَصَرْ

فلا يقْبَلُ الحقُّ الزيادةَ فانتقدْ ... كلامي تجِدْهُ عبرةً لمن اعتَبَرْ

فقد زال حكمُ الشكر من كل عالِم ... بما قلته فالتَّرْكُ للشكر قد شَكَرْ

اعلم أنه ما من عمل إلاّ وهو أمر وجودي، وما من أمر وجودي إلاّ وهو دلالة على

وجود الله وتوحيده، سواء كان ذلك الأمر مذموماً عرفاً وشرعاً، أو محموداً عرفاً وشرعاً، وإذا كان دلالة فهو نور والنور محمود لذاته، فما ثم ما يجري عليه لسان ذم على الإطلاق، كما أنه ما ثم معصية من مؤمن خالصة غير مشوبة بطاعة وهي الإيمان بكونها معصية فتحقق هذا ثم حقيقة أخرى أنه ما ثم تكليف من عمل أو ترك إلاّ والأولوية تصحبه لا بدّ من ذلك فيقال: تركه أولى من العمل، أو العمل به أولى من تركه، وما دخلته الأولوية فما هو خالص لأمر معين، هذا معلوم دلالة عقل وكشف، والله قد جعل الشكر عبادة والعبادات لا تترك، وجعل الصدق عبادة، وما أطلق عليه الحمد في كل موطن، فإنّ الغيبة صدق وهو صدق مذموم، والنميمة بالسوء صدق وهو مذموم، ومواطن كثيرة للصدق يكون الصدق مذموماً فيها مع الإطلاق، إذ الصدق صفة محمودة، فإذا أخذه التفصيل ميزته المواطن عرفاً وشرعاً، كما أن الكذب بمطلقه صفة مذمومة، فإذا أخذه التقييد والتفصيل ميزته المواطن عرفاً وشرعاً، فإذا شكر الإنسان ربه ورأى الشكر والنعمة منه فقد أتى صفة محمودة وهو عبادة، فمن أدّاها من حيث ما هي عبادة خاصة ولم يخطر له الشكر من أجل المزيد من جهة هذه العبادة كما أنه أيضاً طلب المزيد من العلم عبادة مأمور بها فهنالك يكون طلب الزيادة عبادة، وأمّا في غير ذلك الموطن فما هو عبادة مشروعة.

فإذا أدّى الإنسان شكر رب النعمة بفصولها من غير طلب الزيادة فكأنه ترك ما يعطيه الشكر، وما يقتضيه طبع النفوس بذاتها من طلب زيادات النعم، ولا يمنع هنا كون الحق سمعه وبصره أن يكون تاركاً لطلب الزيادة إذا كان الحق لا ينقصه شيء، فإن الله قد اتصف بكونه شاكراً وشكوراً، وطلب الزيادة من أعمالنا من كونه شكوراً، فتعين علينا بل وجب أن نعطي الشكر الإلهي حقّه وهو الزيادة منا فيما شكر منا، والزيادة عبادات سواء كان ذلك تركاً أو عملاً، فترك الشكر برؤية العمل من الإنسان ترك صحيح لحق الشكر الذي يجب له وهذا مقام العموم، فيصحّ ترك الشكر من العامة من أهل الله. وأما من قال: شكر النعمة أنه حجاب على المنعم فما عنده معرفة بالحقائق، فإنّ ذلك لا يصحّ في كل من شكر نعمة فبالضرورة شكر المنعم بها، غير أن بعض الناس لا يرى المنعم إلاّ السبب، وبعض الناس يرى المنعم الله سبحانه، والكمل من الناس يرون الله والسبب فيشكر الله حقيقة، ويشكر السبب عن أمر الله عباده من حيث أمرهم بشكره فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] وقال: لا يشكر الله من لم يشكر الناس، فهذا مقام ترك الشكر، أي ترك توحيد شكر المنعم الأصلي لأنه شرّك في شكره بين المنعم بالأصالة وبين السبب عن أمر الله فإنه مقام صعب غامض أعني ترك الشكر لكون الله اتصف بالشكر وطلب الزيادة ممّا شكرنا من أجله فالتخلص من ذلك عسير، وأمّا إذا كان مجلاه ووقته أن يكون الحق هو الشاكر والمشكور وسلب الأفعال عن المخلوقين فقد ترك الشكر في حال كونه شاكراً فيرى الحق إمّا شاكراً مطلقاً والعبد لا شكر له البتة، وإمّا أن يرى الحق تعالىٰ شاكراً به أي بعبده بما هو العبد عليه من الشكر، فهذا تارك للشكر من وجه موصوف بالشكر من وجه، وهذا سار في جميع ما يصدر من العبد من الأفعال مشهد عزيز من عين المنة.

هذه المسألة كانت عندي من أصعب المسائل، وما فتح لي فيها بما هو الأمر عليه على القطع الذي لا أشك علماً سوى ليلة تقييدي لهذا الباب في هذه المجلدة وهي ليلة السبت السادس من رجب الفرد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فإنه لم يكن تتخلص لي إضافة خلق الأعمال لأحد الجانبين، ويعسر عندي الفصل بين الكسب الذي يقول به قوم وبين الخلق الذي يقول به قوم، فأوقفني الحق بكشف بصري على خلقه المخلوق الأوّل الذي لم يتقدّمه مخلوق إذ لم يكن إلاّ الله وقال لي: هل هنا أمر يورث التلبيس والحيرة؟ قلت: لا، قال لي: هكذا جميع ما تراه من المحدثات ما لأحد فيه أثر ولا شيء من الخلق فأنا الذي أخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب فتتكوّن عن أمري، خلقت النفخ في عيسىٰ، وخلقت التكوين في الطائر، قلت له: فنفسك إذا خاطبت في قولك افعل ولا تفعل، قال لي: إذا طالعتك بأمر فالزم الأدب فإن الحضرة لا تحتمل المحاققة قلت به وهذا عين ما كنا فيه ومن يحاقق ومن يتأدّب وأنت خالق الأدب والمحاققة، فإن خلقت المحاققة فلا بدّ من حكمها، وإن خلقت الأدب فلا بدّ من حكمه، قال: هو ذلك فاستمع إذا قرىء القرآن وأنصت، قلت: ذلك لك أخلق السمع حتى أسمع وأخلق الإنصات حتى أنصت وما يخاطبك الآن سوى ما خلقت، فقال لي ما أخلق إلاّ ما علمت وما علمت إلاّ ما هو المعلوم عليه ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] وقد أعلمتك هذا فيما سلف فالزمه مشاهدة فليس سواه ترح خاطرك ولا تأمن حتى ينقطع التكليف ولا ينقطع حتى تجوز على الصراط، فحينئذ تكون العبادة من الناس ذاتية ليست عن أمر ولا نهي يقتضيه وجوب أو ندب أو حظر أو كراهة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون ومائة
في معرفة مقام اليقين وأسراره

[نظم: البسيط]

إن اليقينَ مَقَرُّ العلم في الخَلَدِ ... في كل حالٍ بوَعْد الواحد الصَّمَدِ
إن اليقينَ الذي التَّحقيقُ حصَّلَهُ ... اعكُفْ عليه ولا تنظُرْ إلى أَحَدِ
فإن تَزَلْزَل عَن حُكْم الثباتِ فما ... هو اليقينُ الذي يَقْوَى به خَلَدي

واليقين هو قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] وحكمه سكون النفس بالمتيقن أو حركتها إلى المتيقن، وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة أي شيء كان، فإذا كان حكم المبتغي في النفس حكم الحاصل فذلك اليقين سواء حصل المتيقن أو لم يحصل في الوقت، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١] وإن كان لم يأت بعد ولكن تقطع النفس المؤمنة بإتيانه، فلا فرق عندها بين حصوله وبين عدم حصوله وهو قول من قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، مع أن المتيقن ما حصل في الوجود العيني فقال الله لنبيه ولكل عبد يكون بمثابته: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ فإذا أتاك اليقين علمت

من العابد والمعبود ومن العامل والمعمول به، وعلمت ما أثر الظاهر في المظاهر، وما أعطت المظاهر في الظاهر.

واعلم أن لليقين علماً وعيناً وحقاً ولكل حق حقيقة، وسيرد ذلك في باب له مفرد بعد هذا من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ، وإنما جعل له علماً وعيناً وحقاً لأنه قد يكون يقيناً ما ليس بعلم ولا عين ولا حق، ويقطع به من حصل عنده وهو صاحب يقين لا صاحب علم يقين، واختلف أصحابنا في اليقين هل يصحّ أن يكون يقين أتم من يقين أم لا؟ فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال في عيسىٰ عليه السلام: «**لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء**» أشار به إلى ليلة الإسراء وأن باليقين صحّ له المشي في الهواء، وهذا التفسير ليس بشيء فإنه أسرى به ربه ليريه من آياته وبعث إليه بالبراق فكان محمولاً في إسرائه. ومثل هذا الحديث لا يصحّ عن رسول الله ﷺ أنه أشار بذلك إلى نفسه، ومعلوم أنه ليس أحد من البشر يماثله في اليقين، لكنه ما مشى في الهواء بيقينه، وإنا جاءه جبريل عليه السلام بدابة دون البغل وفوق الحمار تسمّى البراق فكان والبراق هو الذي مشى في الهواء، ثم أنه ﷺ لما انتهى البراق به إلى الحدّ الذي أذن له نزل عنه وقعد في الرفرف وعلا به إلى حيث أراد الله وغفل الناس عن هذا كله، فما أسرى به ﷺ لقوّة يقينه بل يقينه في قلبه على ما هو به من التعلّق بالمتيقن العام كان ما كان لكنه ممّا فيه سعادته، لأنه وصف به في معرض المدح، ولنا في اليقين جزء شريف وضعناه في مسجد اليقين مسجد إبراهيم الخليل في زيارتنا لوطاً عليه السلام، فقد يتيقن الجاهل أنه جاهل والظان أنه ظان والشاك أنه شاك فيما هو فيه شاك، وكل واحد صاحب يقين قاطع بحاله الذي هو عليه علماً كان أو غير علم.

فإن قلت: فأين شرفه؟ قلنا: شرفه بشرف المتيقن كالعلم سواء ولهذا جاء بالألف واللام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] يريد متيقناً خاصاً ما هو يقين يقع المدح به بل هو يقين معين. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] يريد ما هو مقتول في نفس الأمر لا عندهم بل شبه لهم، فهذا يقين مستقل ليس له محل يقوم به فإنهم متيقنون أنهم قتلوه والله ليس بمحل لليقين فلم يبق محل لليقين سوى القتل، وهذا من باب قيام المعنى بالمعنى، فإن اليقين معنى والقتل معنى، فالقتل قد تيقن في نفسه أنه ما قام بعيسىٰ عليه السلام، فالقتل موصوف في هذه الآية باليقين، وأصدق المعاني ما قام بالمعاني، وهذه المسألة عندنا من محارات العقول ممّا لا يقضى فيها بشيء، وعند بعضنا يلحقه بالمحال، وعند بعضهم ممكنة واقعة، وبالجملة فاليقين عزيز الوجود في الأمور الطبيعية المعتادة، فإن العادة تسرق الطبع ولا سيما في الأمور التي بها قوام البدن الطبيعي، فإذا فقد ما به يصل إلى ما به قوامه فإنه يتألم والألم لا يقدح في اليقين فإنه ما يضادّه، ولكن قل إن يتألم ذو ألم إلاً ولا بدّ أن يضطرب ويتحرّك في نفسه، ولا سيما ألم الجوع والعطش والبرد والحرّ، والاضطراب يضادّ اليقين، فإن اليقين سكون النفس إلى من بيده هذه الأمور المزيلة لهذه الآلام، فيريد من قامت به الآلام سرعة زوالها طبعاً، وإذا كان هذا فنسلك في اليقين طريقة

غير ما يتخيلها أهل الطريق، وهو أن الاضطراب لا يقدح في اليقين إذا كان هبوب اليقين في إزالة تلك الآلام إلى جناب الحق لا إلى الأسباب المزيلة في العادة، فإن شاء الحق أزالها بتلك الأسباب أزالها بأن يوجد عنده تلك الأسباب، وإن شاء أزالها بغير ذلك فصار متعلق اليقين الجناب الإلهي لا غير، وهذا قد يكون كثيراً في رجال الله، ودرجات اليقين عند العارفين مائتا درجة ودرجة واحدة، وعند الملامية مائة وسبعون درجة وهو ملكوتي جبروتي له إلى الملكوت نسبة واحدة، وعند العارفين نسبتان لأنه عند العارفين مركب من ست حقائق، ونشأته عند الملامية من أربع حقائق، وله السكون الميت والحي، فبالسكون الحيّ يضطرب صاحبه، وبالسكون الميت يتعلق بالله، فما يضطرب فيه من غير تعيين مزيل بل بما أراد الله أن يزيله.

الباب الثالث والعشرون ومائة

في معرفة مقام ترك اليقين وأسراره

[نظم: الوافر]

إذا وقفَ العبيدُ مع المريدِ ... يُزيلُ يقينُه حُكْمَ الإرادَهْ

ويُعطي الحقَّ رُتْبَتَه لئلا ... يقيِّدَه فيقْدَحَ في العبادَهْ

فيفعل ما يشاء كما يشاء ... بلا جَبْرٍ ولا حُكم لعادَهْ

وقد دلَّ الدليلُ بغير شكٍّ ... ولا ريبٍ على نَفْيِ الإعادَهْ

لأن الجَوْهَرَ المعلومَ باقٍ ... على ما كان في حُكم الشَّهادَهْ

فيخلع منه وقتاً أو عليه ... بمِثْلٍ أو بضدٍّ للإفادَهْ

اعلم وفقك الله أني أردت بنفي الإعادة الذي نقول إنه لا يتكرر شيء في الوجود للاتساع الإلهي، وإنما هي أعيان أمثال لا يدركها الحسّ، إذ لا يدرك التفرقة بينها، أريد بين ما انعدم منها وما تجدد، وهو قول المتكلمين أن العرض لا يبقى زمانين لما كان اليقين فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي مثل الصبر ترك أهل الله الاتصاف به وتعلمه وطلبه من الله، فإذا أتى من عند الله من غير تعمّل من العبد قبله العبد أدباً مع الله ولم يرده على الله إذا أراد الله أن يصير هذا العبد محلاً لوجود هذا اليقين، ويكون حكمه في هذا المحل التعلّق بالله في دفع الضرر عن هذا العبد، فيكون ذلك سؤال اليقين، وتعلّقه بجناب الحق لا بتعلّق العبد ولا بسؤاله، وذلك لما كان العبد سبباً في ظهور عين اليقين لعدم قيام اليقين بنفسه كان للمحل عند هذا اليقين يد أراد مكافأتها، فيسأل اليقين موجده تعالىٰ رفع الضرر عن هذا المحل إذ اليقين لا يوجد إلاّ لرفع الضرر، وأما في حال المنفعة فلا حكم له إلاّ في استدامتها لا فيها فإنها حاصلة. فإن توهم العبد إزالتها فإن اليقين بطلب من الله استمرار وجودها في محله، فبهذا القدر يكون ترك اليقين أي العبد لا يعترض على اليقين في سؤاله ربه ما شاء فهو تاركه يفعل ما يريد، فلا يتصف العبد هنا بشيء، ومع هذا التحقيق فالمسألة غامضة بعيدة التصوّر، فالعبد

في أصله مضطرب متزلزل الملك فلا يقين له من حيث حقيقته فإنه محل لتجدد الإعراض عليه، واليقين سكون وهو عرض فلا ثبوت له زمانين والله تعالىٰ كل يوم في شأن، وأصغر الأيام الزمن الفرد، فقد أبنت لك أن أهل الله في نفوسهم بمعزل عما يطلبه اليقين وأن اليقين هو السائل، ولهذا قال له: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فيكون اليقين هو الذي يسأل ويتعب وأنت مستريح فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فإن الوقوف مع إرادة الله لا يتمكن معها سكون أصلاً لأنه خروج عن حقيقة النفس، والشيء لا يخرج عن حقيقته إذ خروج الشيء عن حقيقته محال، فلا طمأنينية مع المريد إلاَّ عن بشرى فإنه يسكن عند ذلك لصدق القول وتكون البشرى معينة موقتة وحينئذ يكون له السكون إليها وهو اليقين. وقد ورد أن الملائكة يخافون من مكر الله ولا يقين مع الخوف فإن سكن العبد إلى قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] لا يزول عنه فذلك السكون قد يسمّى يقيناً، ولكن يورث في المحل خلاف ما يطلب من حكم اليقين الذي اصطلح عليه أهل الله. وأما نحن فاليقين عندنا موجود في كل أحد من خلق الله، وإنما يقع الخلاف بماذا يتعلق اليقين، فاليقين صفة شمول وليست من خصوص طريق الله التي فيها السعادة إلاَّ بحكم متيقن ما، فهذا تحقيقه والله الموفق لا رب غيره.

الباب الرابع والعشرون ومائة
في معرفة مقام الصبر وتفاصيله وأسراره

[نظم: الطويل]

تـنـوَّعَ شـربُ الـصـبـر فـي كـل مَـشْـرَبِ ... بـعَـنْ وعَـلـى أو فـي وبـالـبـاء والـلام

ولـيـس يـكـونُ الـصـبـرُ إلاَّ عـلـى أذًى ... وجـوداً وتـقـديـراً بـأنـواع آلامِ

وعـيَّـنَ لـلـحـق الـصـبـور أذًى أتـى ... بـمُـحْـكَـم آيـاتِ الـكـتـابِ لأعـلامِ

فـلا صَـبْـرَ فـي الـنَّـعْـمـاء إن كـنـتَ عـالـمـاً ... بـقـولِ إمـام صـادقِ الـحـكـم عَـلاَّمِ

اعلم وفقك الله أن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] فأخبر أنه يؤذى فتسمّى سبحانه بالصبور على أذى خلقه، وكما سأل عباده رفع الأذى مع استحقاقه اسم الصبور، كذلك لا يرفع اسم الصبر عن العبد إذا حلّ به بلاء فسأل الله تعالىٰ في رفع ذلك البلاء كما فعل أيوب عليه السلام فقال: ﴿مَسَّنِيَ﴾ أنت ﴿ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] وأثنى الله عليه فقال مع هذا السؤال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [سورة ص: الآية ٤٤] فليس الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى الله في رفع البلاء أو دفعه، وإنما الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى غير الله والركون إلى ذلك الغير، وقد أبنت لك أنّ الله طلب من عباده رفع الأذى الذي آذوه به مع قدرته على أن لا يخلق فيهم ما خلق من الأذى، فتفطن لسر هذا الصبر فإنه من أحسن الأسرار، وقد ورد أنه لا أحد أصبر على أذى من الله.

وهو من المقامات التي تنقطع وتزول إذا دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة وتميز الفريقان

تميز الانقطاع أن لا يلحق أحد بغير الدار التي هو فيها، والصبر الإلهي يزول حكمه بزوال الدنيا، وهذه بشرى بإزالة اسم المنتقم والشديد العقاب، إذ قد رأينا إزالة الصبور ورحمته سبقت غضبه.

فحكمة زوال الدنيا رفع الأذى عن الله إذ لا يكون إلاّ فيها، فأبشروا عباد الله بشمول الرحمة واتساعها وانسحابها على كل مخلوق سوى الله ولو بعد حين، فإنه بإزالة الدنيا زال الأذى عن كل من أوذي، وبزوال الأذى زال الصبر، ومن أسباب العقاب الأذى، والأذى قد زال، فلا بدّ من الرحمة وارتفاع الغضب، فلا بدّ من الرحمة أن تعم الجميع بفضل الله إن شاء الله، هذا ظنّنا في الله، فإن الله وهو الصادق يقول: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظن بي خيراً»، فأخبر وأمر ولم يقيد في حق الظان ولا في غيره، ولهذا سمّي عذاباً ما يقع به الآلام بشرى من الله لعباده، إن الذي تتألمون به لا بدّ إذا شملتكم الرحمة أن تستعذبوه وأنتم في النار كما يستعذب المقرور حرارة النار، والمحرور برودة الزمهرير، ولهذا جمعت جهنم النار والزمهرير لاختلاف المزاج، فما يقع به الألم لمزاج مخصوص يقع به النعيم في مزاج آخر يضادّه، فلا تتعطل الحكمة ويبقي الله على أهل جهنم ،الزمهرير على المحرورين والنار على المقرورين فينعمون في جهنم فهم على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا بها لاعتدالها.

ثم اعلم أن الصبر يتنوع بتنوع الأدوات، فالصبر في الله إذا أوذي فيه، والصبر مع الله رؤية المعذب في العذاب، والصبر على الله حال فقده لربه بوجود نفسه غير مقترنة بوجود ربه، والصبر بالله أن يكون الحق عين صبره كما هو سمعه وبصره، والصبر من الله حال رفع الحول والقوّة منك فلا تقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله فيزول بالاستعانة، والصبر عن الله وهو أعظمها مقاماً وهو الصبر الذي يزول بالموت ولا يوجد في الآخرة فإن صاحب هذا الصبر ينسب الصبر إليه نسبة الاسم الصبور إلى الله ولهذا يرتفع بزوال الدنيا، وفي العبد بزواله عن الدنيا، ومن زلت عنه فقد زال عنك فهؤلاء أخذوا الصبر عن الله، كما تقول: أخذت هذا العلم عن فلان فأنت فيه كهو كذلك قول سليمان عليه السلام: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [سورة ص: الآية ٣٢] لأنه سمّاه خيراً والخير منسوب إلى الله فقال: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [سورة ص: الآية ٣٢] إياه بالخيرية أحببته، فطفق يمسح بيده على أعرافها وسوقها فرحاً وإعجاباً بخير ربه، فإنه أحب حب الخير، وحب الخير إما أن يريد حب الله إياه أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب، والخير لا يحب إلاّ الأخيار فإنهم محل وجود عينه، فكذلك سليمان عليه السلام قال: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي أنا في حبي كالخير في حبّه، ولهذا لما توارت بالحجاب أعني الصافنات الجياد أشتاق إليها لأنه فقد المحل الذي أوجب له هذه الصفة الملذوذة فإنها كانت مجلى له فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٣٣].

وأما المفسرون الذي جعلوا التواري للشمس فليس للشمس هنا ذكر ولا للصلاة التي يزعمون، ثم إنهم يأخذون في ذلك حكايات اليهود في تفسير القرآن، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نصدّق أهل الكتاب ولا نكذبهم، فمن فسّر القرآن برواية اليهود فقد ردّ

أمر رسول الله ﷺ، ومن ردّ أمر رسول الله ﷺ فقد ردّ أمر الله فإنه أمر أن نطيع الرسول وأن نأخذ ما أتانا به، وأن ننتهي عما نهانا عنه، إذ لا يوصلنا إلى أخبار هؤلاء الأنبياء الإسرائيليين إلاّ نبيّ فنصدقه، أو أهل كتاب فنقف عند أخبارهم إذا لم يكن في كتابنا ولا قول رسولنا ﷺ ولا في أدلة العقول ما يرده ولا يثبته ولا نقضي فيه بشيء، وأما مساق الآية فلا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة.

وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [سورة ص: الآية ٣٤] فليس تلك الفتنة وهو الاختبار إذا كان متعلقه الخيل ولا بدّ فيكون اختباره إذا رآها هل يحبها عن ذكري لها أو هل يحبها لعينها، فأخبر ﷺ أنه أحبها عن ذكر ربه إياها لا نفسها مع حسنها وجمالها وحاجته إليها، وهي جزء من الملك الذي طلب أن لا ينبغي لأحد من بعده، فأجابه الحق إلى ما سأل في المجموع ورفع الحرج عنه وقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٣٩] ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ يعني في الآخرة ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: الآية ٤٠] أي ما ينقصه هذا الملك من ملك الآخرة شيء كما يفعله مع غيره، حيث أنقصه من نعيم الآخرة على قدر ما تنعم به في الدنيا، قال الله تعالىٰ في حق قوم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٠] فالصبر عن الله بهذا التفسير أعظم أنواع الصبر. وأما الصبر عن الله على ما يتخيله العامة من الصبر عن كذا لمفارقته إياه فليس ذلك من شأن أهل الله، والشبلي لما غشي عليه من قول الشاب: إن الصبر عن الله أعظم الصبر غشي عليه لعظم المقام الذي لا يناله إلاّ الكمَّل من الرجال فلما لاح للشبلي من كلام الشاب كان وارده أقوى من محل الشبلي فلذلك أثر فيه الغشي، وهكذا كل وارد يكون أقوى من قوّة المحل، فإنه يفعل فيه الغشي والصعق، وليس لأهل الله قدم في الصبر عن الله على تفسير العامة، وللصبر درجات عند العارفين من أهل الأنوار ثلاثمائة وثلاث وعشرون درجة، وعند أهل الأسرار منهم مائتان وثلاث وتسعون درجة، وعند الملامية من أهل الأنوار مائتان واثنتان وتسعون، وعند أهل الأسرار منه مائتان واثنتان وستون درجة.

الباب الخامس والعشرون ومائة
في معرفة مقام ترك الصبر وأسراره

[نظم: الطويل]

وفي الصبر من سُوءِ الصَّنيعةِ أنه ... يقاوم قَهْرَ الحقِّ في كل إقدامِ

فلا صَبْرَ عند العارفين فإنهم ... من الضَّعْفِ في بحر على سيفه طامِ

اعلم علّمك الله أن في الصبر المعروف عند العامة مقاومة القهر الإلهي وسوء أدب مع الله، وما ابتلى الله عباده إلاّ ليتضرعوا إليه ويسألوه في رفع ما ابتلاهم به من البلاء عنهم، لأنه دواء لما تعطيهم في نفوسهم من المرض الصورة التي خلقوا عليها فيدعيها من لم تكمل فيه الصورة فإنه من كمالها الخلافة وهم المكملون من الرجال، ومن لم تحصل له درجة الخلافة

فما هو على الصورة فإنه بالمجموع يكون بالصورة، قال بعضهم وقد بكى حين أخذه الجوع: إنما جوعني لأبكي فهو يبكي له وعليه، فإن أكابر الرجال لا يحبسون نفوسهم عن الشكوى إلى الله، فإذا مدح الله الصابرين فهم الذين حبسوا نفوسهم عن الشكوى لغير الله، وهذا مذهب الأكابر، ألا ترى سمنون لما أساء الأدب مع الله وأراد أن يقاوم القدرة الإلهية لما وجد في نفسه من حكم الرضى والصبر قال: [مخلع البسيط]

وليس لي في سواك حَظٌّ فكيف ما شئتَ فاختبرني

فابتلاه الله بعسر البول والنفس مجبولة على طلب حظها من العافية، ولما سأل هذا كان في حكم حال العافية، فلما سلبها بهذا البلاء طلبتها النفس بما جبلت عليه، وقد ذكرنا ذلك في صفات النفس وأن الله عين لها مصارف لما علمه من أنها لا تنعدم، إذ لو انعدمت لانعدمت النفس، فهو وصف ذاتيّ لها. ألا ترى إلى عالم العلماء وحاكم الحكماء كيف كان سؤاله العافية وأمر بها فقال: «**إذا سَأَلْتُمُ الله فاسْألُوهُ العَافيةَ**»، فإن كنتم أهل بلاء فقد سألتم العافية، وإن كنتم أهل عافية فقد سألتم دوامها، وهي مشتقة من عفى الأثر إذا ذهب، فالعافية ذهاب أثر البلاء ممّن قام به، فمن الأدب مع الله وقوف العبد مع عجزه وفقره وفاقته، فإن الغناء بالله لا يصحّ عن الله ولا عن المخلوقين من حيث العموم، لكنه يصحّ من حيث تعيين مخلوق ما يمكن أن يستغنى عنه بغيره فإن الله ما وضع الأسباب سدى، فمنها أسباب ذاتية لا يمكن رفعها هنا، ومنها أسباب عرضية يمكن رفعها، فمن المحال رفع التأليف والتركيب عن الجسم مع بقاء حكم الجسمية فيه، فهذا سبب لا يمكن زواله إلاّ بعدم عين الجسم من الوجود، وإذا كانت الأسباب الأصلية لا ترتفع فلنقر الأسباب العرضية أدباً مع الله ولا نركن إليها ونبقي الخاطر معلقاً بالله، ولا يصحّ أن يتعلق بالله لله فإنه محال، وإنما يتعلق بالله للأسباب فهذا حد المعرفة بها، فقد بان لك معنى ترك الصبر.

الباب السادس والعشرون ومائة

في معرفة مقام المراقبة

[نظم: الخفيف]

كُنْ رقيباً عليه في كل شَأْنِ فهو سبحانَه عليكَ رقيبُ

في حضور وغَيْبةٍ لشؤونٍ ولذا لي في كل حالٍ نَصيبُ

فإذا ما أتى أَوانُ فراغٍ لا أُبالي وإنَّ ذا لَعجيبُ

المراقبة نعت إلهي لنا فيه شرب، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] وهو قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] يعني السموات وهو العالم الأعلى، والأرض وهو العالم الأسفل، وما ثم إلاّ أعلى وأسفل، وهو على قسمين: عالم قائم بنفسه، وعالم غير قائم بنفسه، فالقائم بنفسه جواهر وأجسام، وغير القائم بنفسه أكوان وألوان وهي الصفات والأعراض، فعالم الأجسام والجواهر لا بقاء لهما إلاّ بإيجاد

الأعراض فيهما، فمتى لم يوجد فيهما العرض الذي به يكون بقاؤها وجودها تنعدم، ولا شك أن الأعراض تنعدم في الزمان الثاني من زمان وجودها، فلا يزال الحق مراقباً لعالم الأجسام والجواهر العلوية والسفلية كلما انعدم منها عرض به وجوده خلق في ذلك الزمان عرضاً مثله أو ضده يحفظه به من العدم في كل زمان، فهو خلاق على الدوام، والعالم مفتقر إليه تعالىٰ على الدوام افتقاراً ذاتياً من عالم الأعراض والجواهر، فهذه مراقبة الحق خلقه لحفظ الوجود عليه، وهذه هي الشؤون التي عبر عنها في كتابه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩].

ومراقبة أخرى للحق في عباده وهي نظره إليهم فيما كلفهم من أوامره ونواهيه ورسم لهم من حدوده وهذه مراقبة كبرياء ووعيد، فمنهم من وكّل بهم من يحصي عليهم جميع ما يفعلونه مثل قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ١٨] ومثل قوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الانفطار: الآيتان ١١، ١٢] وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: الآية ١٢] ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٤] فهذه مراقبة الحق. وأما مراقبة العبد فهي على ثلاثة أقسام: الواحد منها لا يصحّ والإثنان يصحّ وجودهما من العبد. أما المراقبة التي لا تصحّ فهي مراقبة العبد ربه ولا يعلم ذاته ولا نسبته إلى العالم، فلا يتصور وجود هذه المراقبة لأنها موقوفة على العلم بذات المراقب بفتح القاف، وثم طائفة أخرى قالت بصحة تلك المراقبة، فإن الشرع قد حدّد كما ينبغي لجلاله فهو معنا أينما كنا وهو على العرش استوى، وهو في الأرض يعلم سرّنا وجهرنا، وهو في السماء كذلك، وينزل إليها وهو الظاهر في عين كل مظهر من الممكنات فقد علمنا هذا القدر منه فنراقبه على هذا الحد، فمراقبتنا للأشياء هي عين مراقبتنا إياه لأنه الظاهر من كل شيء، فمن الناس من قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله يعني المراقبة، وآخر بعده، وآخر معه أو آخر فيه، فمثل هؤلاء يصححون هذه المراقبة.

والمراقبة الثانية مراقبة الحياء من قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] فهو يراقب رؤيته وهي تراقبه، فهو يرقب مراقبة الحق إياه فهذه مراقبة المراقبة وهي مشروعة.

والمراقبة الثالثة هي أن يراقب قلبه ونفسه الظاهرة والباطنة ليرى آثار ربه فيها فيعمل بحسب ما يراه من آثار ربه، وكذلك في الموجودات الخارجة عنه يرقبها ليرى آثار ربه فيها منها وهو قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ولهذه المراقبة تعلق بالحق إذ لا فاعل إلاّ الحق، والمراقبة دوام المراعاة بحيث أن لا يتخللها وقت لا يكون العبد فيه مراقباً، فاعلم ذلك وتحققه تعلم شؤون ربك في نفسك، وما يدركه من الموجودات بصرك، وما يصل إليه فكرك وعقلك، وما يشهدك في مشاهدتك، وما تطلع عليه من الغيوب في كونك أو حيث كان ومن هنا تعرف خواطرك، وللمراقبة جاءت الموازين الشرعية وهي خمسة موازين: الفرض والندب والإباحة والحظر والكراهة.

وللمراقبة درجات عند أرباب الأنس والوصال من العارفين ومبلغها سبع مائة درجة

وأربع وسبعون درجة. وعند أرباب الأدب من العارفين: ثلاث مائة درجة وتسع وسبعون درجة. وعند الملامية من أهل الأنس: سبعمائة وثلاث وأربعون درجة. وعند الأدباء منهم: ثمان وأربعون وثلاثمائة درجة، ولها نسب إلى العوالم منها إلى عالم الملك نسبتان، وإلى عالم الملكوت نسبة واحدة عند الأدباء من الطائفتين، وثلاث نسب عند أهل الأنس إلى عالم الجبروت. واعلموا أن الله تعالىٰ أطلعني في ليلة تقييدي هذا الباب على أمر لم يكن عندي في واقعة وقعت لي برزخية قيل لي فيها: ألم تسمع أن الدنيا أمّ رقوب؟ قلت: نعم، قيل لي: فاجعل لها فصلاً في هذا الباب، فاستخرت الله على ذلك.

وصل: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِلدُّنيا أَبْناء**» وَإِذَا كَانَ لَهَا أَبْنَاءٌ فَهِيَ أُمٌّ لِهٰؤُلاَءِ الأَبْنَاءِ، ومن عادة الأمّ أن ترقب أبناءها لأنها المربية لهم ولها عليهم حنو الأمومة والحذر عليهم أن تؤثر فيهم ضرتها وهي الآخرة فيميلون إليها فتحفظهم من مشاهدة خير الآخرة فتشتد مراقبتها لأحوالهم، ثم لتعلموا أن الدنيا هي الدار الأولى القريبة إلينا نشأنا فيها وما رأينا سواها فهي المشهودة وهي الحفيظة علينا والرحيمة بنا، فيها عملنا الأعمال المقربة إلى الله، وفيها ظهرت شرائع الله، وهي الدار الجامعة لجميع الأسماء الإلهية، فظهرت فيها آلاء الجنان وآلام النار، ففيها العافية والمرض، وفيها السرور والحزن، وفيها السر والعلن، وما في الآخرة أمر إلاّ وفيها منه مثل وهي الأمينة الطائعة لله، أودعها الله أمانات لعباده لتؤديها إليهم، وهذا هو الذي جعلها ترقب أحوال أبنائها ما يفعلون بتلك الأمانات التي أدّتها إليهم، هل يعاملونها بما تستحق كل أمانة لما وضعت له؟ فمنها أمانة توافق غرض نفوس الأبناء فترقبهم هل يشكرون الله على ما أولاهم من ذلك على يديها. ومنها أمانات لا توافق أغراضهم فترقب أحوالهم هل يقبلونها بالرضى والتسليم لكونها هدية من الله؟ فيقولون في الأولى: الحمد لله المنعم المفضل، ويقولون فيما لا يوافق الغرض: الحمد لله على كل حال، فيكونون من الحامدين في السراء والضراء، فتعطيهم الدنيا هذه الأمانات نقية طاهرة من الشوب، فبعض أمزجة الأبناء الذين هم كالبقعة للماء والأوعية لما يجعل فيها فيؤثر مزاج تلك البقعة في الماء، فإن الماء كله طيب عذب في أصله وهو المطر، فإذا حصل في بقع الأرض وهي مختلفة البقاع في المزاج ظهر العذب في المزاج الحسن فأبقاه على أصله كما ورد طاهراً لطيفاً، وزاده من مزاجه طيباً وحلاوة زائدة على ما كان عليه وهو الماء النمير، وبقعة أخرى جعلته ملحاً أجاجاً، وبقعة أخرى جعلته قعاماً مراً فأثر في الحال النقي هذه الأوعية، والشرع إنما تعلق بأفعال الأبناء لا بالأم بل قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] وبما قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] فما أوصى الله تعالىٰ بهذه الأمور إلاّ لعلمه بأنه في الأبناء من يصدر منهم مثل هذه الأفعال، فأمرهم أن يراقبوا هذه الأحكام في أفعالهم حتى يأتوا منها ما أمرهم الله، والدنيا شفيقة عليهم حدبة كثيرة الحنو، خائفة أن تأخذهم الضرة الآخرة منها، فإن الدار في هذا الوقت للدنيا والحكم لها ولا ينبغي أن تعزل عنها، كما أن الدار الآخرة لا تتعرض لها الدار

الدنيا إذا انتقل الناس إليها، فالدنيا أنصف من الآخرة في الحكم فإنها في دار سلطانها.

وإذا جاءت الآخرة وكان يومها لا تعترض الدنيا ولا تزاحم الآخرة فما أنصف أحد من الناس، قال قتادة: ما أنصف الدنيا أحد ذمّت بإساءة المسيء فيها ولم تحمد بإحسان المحسن فيها، فلو كانت بذاتها تعطي القبح والسوء ما تمكن أن يكون فيها نبيّ مرسل ولا عبد صالح، كيف والله قد وصفها بالطاعة فقال إن علوّها وسفلها ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وقال: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥] والصالح لا يرث إلاّ المال الصالح الذي يجوز له التصرف فيه فإنه عبد صالح ولم يقل إن جميع العباد يرثها، فدل أن تركتها كان كسباً صالحاً فورثه عباد الله الصالحون.

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا، قَالَتِ الدُّنْيَا: لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ**» فهذا ابن عاق لها. كيف لعنها وصرّح باسمها والدنيا من حنوها على أبنائها لم تقدر أن تلعن ولدها فقالت: لعن الله أعصانا لربه وما قدرت أن تسميه باسمه فهذا حنو الأم وشفقتها على ولدها، فيا عجباً فينا لم نقف عندما أمرنا الله به من طاعته ولا وفقنا ولا وفينا ما رأيناه من أخلاق هذه الأم وحنوها علينا ومحبتها. وقال النبيّ ﷺ: «**نِعْمَتْ مَطِيَّةُ المُؤْمِنِ عَلَيْهَا يَبْلُغُ الخَيْرَ وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ**» فوصفها بأن حذرها على أبنائها تذكرهم بالشرور وتهرب بهم منها وتزين لهم الخير وتشوقهم إليه، فهي تسافر بهم وتحملهم من موطن الشر إلى موطن الخير، وذلك لشدّة مراقبتها إلى ما أنزل الله فيها من الأوامر الإلهية المسمّاة شرائع، فتحب أن يقوم بها أبناؤها ليسعدوا، فهذا ﷺ قد وصفها بأحسن الصفات وجعلها محلاً للخيرات، فينبغي لأهل المراقبة أن يكون بدؤهم في الدخول لاكتساب هذه الصفة أن يرقبوا أحوال أمهم لأن الطفل لا يفتح عينيه إلاّ على أمه فلا يبصر غيرها فيحبها طبعاً ويميل إليها أكثر ممّا يميل إلى أبيه لأنه لا يعقل سوى من يربيه وبأفعالها ينبغي أن يقتدي. فإن قلت: فلماذا تغار من الآخرة؟ قلنا: لما كان الحكم لها وهي من الطاعة بهذه المثابة وليس للآخرة هنا سلطان، والذي في الآخرة هو في الدنيا من اللذات والآلام فالداران متساويتان فيصعب عليها أن يكون أبناؤها ينسبون إلى الآخرة وما ولدتهم ولا تعبت في تربيتهم، وبعد هذا كله فإن الناس نسبوا ما كانوا عليه من أحوال الشرور التي عينها الشارع إلى الدنيا وهي أحوالهم ما هي أحوال الدينا، لأن الشر هو فعل المكلف ما هو الدنيا، ونسبوا ما كانوا عليه من أحوال الخير ومرضاة اللّه التي عينها الشارع للآخرة وهي أحوالهم ما هي أحوال الآخرة، لأن الخير هو فعل المكلف ما هو الآخرة، فللدنيا أجر المصيبة التي أصيبت في أولادها ومن أولادها. فمن عرف الدنيا بهذه المثابة فقد عرفها، ومن لم يعرفها بهذه المثابة وجهلها مع كونه فيها مشاهداً لأحوالها شرعاً وعقلاً فهو بالآخرة أجهل حيث ما ذاق لها طعماً.

وهنا يطرأ غلط لأهل طريق الله في كشفهم إذ لو تيقنوا في هذه الدار وطولعوا بأحوال الآخرة فليست تلك الآخرة على الحقيقة، وإنما هي الدنيا أظهرها الله لهم في عالم البرزخ بعين الكشف أو النوم في صورة ما جهلوه منها في اليقظة، فإنهم غير عارفين منها ما ذكرناه

فيقولون: رأينا الجنة والنار والقيامة، ويذكرون الرؤيا التي رأوها وأين الدار من الدار وأين الاتساع من الاتساع؟ فذلك الذي رأوه حال الدنيا التي خلقها الله عليها من الخير والطاعة والعدل في الحكومة والنصيحة والوعظ والتذكرة، فإنه معلوم أن القيامة ما هي الآن موجودة، فإذا رؤيت في الحياة الدنيا فما هي إلاّ قيامة الدنيا وجنة الدنيا ونار الدنيا، وأن الجنة والنار جاءتا خادمتين للدنيا، إذ قال ﷺ بل رؤي في صلاة الكسوف يتقدم في قبلته ثم تأخر تأخراً كثيراً ومدّ يده حين تقدم فسئل عن ذلك، فقال: «إني رأيت النار حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها، ورأيت الجنة حين تقدمت وحين مددت يدي لأقطف منها قطفاً ولو خرجت به إليكم لأكلتم منه ما بقيت»، وذكر أنه رأى في النار صاحبة الهرة وعمرو بن لحي الذي سيب السوائب وذلك كله في حال الصلاة في يقظته، وما قال رأيت الآخرة ولا جنة الآخرة ولا نارها بل قال في عرض هذا الحائط والحائط من الدار الدنيا، ولذا قال عليه السلام: «**مثلث لِيَ الجَنَّةُ فِي عَرْضِ الحَائِطِ**» ولم يقل هي وقال: رأيت الجنة ولم يصفها، وذكر التمثيل وتمثل الشيء ما هو عين الشيء بل هو شبهه، وقال: مثلت لي كما قال في جبريل عليه السلام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] أترى كان غير جبريل؟ لا والله إلاّ جبريل فما رآهما إلاّ في الدنيا في دارها وحياتها، وقال متمدحاً: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٧] وهما للدار الدنيا، وقد قررنا أنه كل ما في الآخرة هو في الدنيا، فمنه ما عرفناه ومنه ما لم نعرفه، بل في الدنيا من الزيادة ما ليست في الآخرة، فالدنيا أكمل في النشأة، ولولا التكليف وعدم حصول كل الأغراض لم تزنها الآخرة.

فإن قلت: فما الزيادة التي تزيد بها الدنيا على الآخرة؟ قلنا: الآخرة دار تمييز، والدار الدنيا دار تمييز واختلاط، فأهل النار مميزون وأهل الجنة مميزون، فأهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦]، والدار الدنيا فيها ما في الآخرة من التمييز لكن لا يعم، فإنه قد علمنا في الدنيا بإعلام الله أن الرسل والأنبياء ومن عينته الرسل بالبشرى أنه سعيد، يقول الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] فهذا عموم الدنيا، فما ينقلب أحد من أهل السعادة إلى الآخرة حتى يبشر في الدنيا ولو نفس واحد فيحصل المقصود، ومن عينته الرسل بالبشرى أنه شقي فقد تميز بالشقاء يقول سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢١] وسكت عن أكثر الناس فلم يعين منهم أحداً، وظهرت صفات الأشقياء في الآخرة في هذه الدار على السعداء من الحزن والبلاء والبكاء والذلة والخشوع، وظهرت صفات السعداء في الآخرة في هذه الدار من الخير والنعمة والتفكه والوصول إلى نيل الأغراض ونفوذ الأوامر على الأشقياء من أهل النار، إذ هذه النشأة تعطي أن يكون لها حظ ونصيب من هذه الصفات، فمنهم من تجمع له في الدار الواحدة، ومنهم من تكون له في الدارين، فيظهر المؤمن بصفة الكافر حتى يختم له بالإيمان، ويظهر الكافر بصفة المؤمن حتى يختم له بالكفر.

ثم إن الله قد شرك السعيد والشقيّ في إطلاق الإيمان والكفر، وهذان اللفظان معلومان،

فأكثر الناس ما يطلق الإيمان إلاَّ على المؤمن بالله، ولا الكافر إلاَّ على الكافر بالله، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ فسماهم مؤمنين ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٢] فقد أعطت الدنيا ما أعطت الآخرة، وهذه الزيادة التي لا تكون في الآخرة، والتشريع لا يكون في الآخرة إلاَّ في موطن واحد حين يدعون إلى السجود ليرجح بتلك السجدة ميزان أصحاب الأعراف والناس لا يشعرون. ولما أوردناه يقول بعض أهل الله: ولا أزكى على الله أحداً أن وجود الحق في الدنيا في الإنسان أكمل منه في الآخرة. وقد رأينا من ذهب إلى هذا وشافهنا به في مجالس وجعل دليله الخلافة، فالإنسان في الدنيا أكمل في الصفات الأسمائية منه في الآخرة بلا شك لأنه يظهر بالإنعام والانتقام، ولا يكون له ذلك في الآخرة فإنه لا إنعام له على أحد ولا انتقام وإن شفع فبإذن فالإنعام لمن أذن. وأما في الجنة والنار بعد ذبح الموت فلا، بل في القيامة يكون من ذلك طرف انتقام لحكمة ذكرناها في هذا الكتاب مثل قوله عليه السلام: «**فسحقاً سحقاً**» فراقبوا الله هنا عباد الله مراقبة الدنيا أبناءها فهي الأم الرقوب وكونوا على أخلاق أمكم تسعدوا.

الباب السابع والعشرون ومائة

في ترك المراقبة

[نظم: الخفيف]

لا تـراقِـبْ فـلـيـس فـي الـكـون إلاَّ واحـدُ الـعَـيْـن وهـو عَـيْـنُ الـوجـودِ
فـتُـسَـمَّـى فـي حـالـة بـمـلـيـكٍ وتُـكَـنَّـى فـي حـالـةٍ بـالـعـبـيـدِ
ودلـيـلـي مـا جـاء مـن افـتـقـارِ الـ ـفـقـرا إلـى الـغَـنـيِّ الـحـمـيـدِ
هـكـذا جـاء فـي الـتِّـلاوة نـصـاً فـي قـريـبٍ مـن سَـعْـده وبـعـيـدِ
ثـم جـاؤوا بـاقـرضـوا الله قـرضـاً فـبـدى الـنَّـقْـصُ وهـو عَـيْـنُ الـمـزيـدِ

لما كانت المراقبة تنزلاً مثالياً للتقريب، واقتضت مرتبة العلماء بالله أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فارتفعت الأشكال والأمثال ولم يتقيد أمر الإله ولا انضبط وجهل الأمر وتبين أنه لم يكن معلوماً في وقت الاعتقاد بأنه كان معلوماً لنا، ولم يحصل في العلم به أمر ثبوتي، بل سلب محقق ونسبة معقولة أعطتها الآثار الموجودة في الأعيان، فلا كيف ولا أين ولا متى ولا وضع ولا إضافة ولا عرض ولا جوهر ولا كم وهو المقدار، وما بقي من العشرة إلاَّ انفعال محقق وفاعل معين أو فعل ظاهر من فاعل مجهول يرى أثره ولا يعرف خبره ولا يعلم عينه ولا يجهل كونه، فلمن نراقب وما ثم من يقع عليه عين ولا من يضبطه خيال ولا من يحدده زمان ولا من تعدده صفات وأحكام، ولا من تكيّفه أحوال، ولا من تميزه أوضاع ولا من تظهره إضافة، فكيف نراقب من لا يقبل الصفات والعلم يرفع الخيال، فهو الرقيب لا المراقب، وهو الحفيظ لا المحفوظ، فالذي يحفظه الإنسان إنما هو اعتقاده في قلبه، فذلك الذي وسعه من ربه، فإن راقبت فاعلم من راقبت، فما زلت عنك ولا عرفت سوى ذاتك، فالحادث لا يتعلق إلاَّ بالمناسب وهو ما عندك منه وما عندك حادث، فما

برحت من جنسك، وما عبدت على الحقيقة سوى ما نصبته في نفسك، ولهذا اختلفت المقالات في الله وتغيرت الأحوال، فطائفة تقول هو كذا، وطائفة تقول ما هو كذا بل هو كذا، وطائفة قالت في العلم به لون الماء إنائه، فهذا مؤثر بالدليل مؤثر فيه عند صاحب هذا القول في رأي العين، فانظر إلى الحيرة سارية في كل معتقد، فالكامل من عظمت حيرته ودامت حسرته ولم ينل مقصوده لما كان معبوده، وذلك أنه رام تحصيل ما لا يكن تحصيله، وسلك سبيل من لا يعرف سبيله، والأكمل من الكامل من اعتقد فيه كل اعتقاد وعرفه في الإيمان والدلائل وفي الإلحاد، فإن الإلحاد ميل إلى اعتقاد معين من اعتقاد، فاشهدوه بكل عين إن أردتم إصابة العين فإنه عام التجلي له في كل صورة وجه وفي كل عالم حال، فراقب إن شئت أوّلاً تراقب فما ثم إلاّ مثاب ومثيب ومعاقب ومعاقب. انتهى الجزء الموفي مائة.

(الجزء الواحد ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والعشرون ومائة

في معرفة مقام الرضى وأسراره

[نظم: مجزوء الرجز]

سألتُ ربي عِصمةً ... من كل سوءٍ وأذَى
وأن أرَى من أجْلهِ ... كروحه مُنتَبَذَا
مُختَطَفاً عن نفسهِ ... مُستَهلَكاً مُتَّخَذَا
حتى أقولَ صادقاً ... من حالنا يا حَبَّذَا
رضيتُ منه بكذا ... رضيتُ عنه لكَذَا
وهكذا نَنسُبُه ... إليه حُكماً هكَذَا
وهو دليلٌ قاطعٌ ... على يَسيرٍ فإذا
أفْرَدْتَه عن مَنْ وعَنْ ... وصَفْتَه بذا وذا
وكنتَ ذا معرفةٍ ... بحقِّه وجَهْبَذَا

اعلم وفقك الله أن قولي دليل قاطع على يسير أعني الرضى يدل على يسير من كثير، فيرضى به أدباً مع الله لأنه وكله، والرضى أمر مختلف فيه عند أهل الله هل هو مقام أو حال؟ فن رآه حالاً ألحقه بالواهب، ومن رآه مقاماً ألحقه بالكاسب وهو نعت إلهيّ، وكل نعت إلهيّ إذا أضيف إلى الله فليس يقبل الوهب ولا الكسب، فهو على غير المعنى الذي إذا نسبناه للخلق لم يبق له تلك الصفة فحصل له بنسبته للخلق، إن ثبت كان مقاماً، وإن زال كان حالاً، وهو على الحقيقة يقبل الوصفين وهو الصحيح، فهو في حق بعض الناس حال وفي حق بعض الناس مقام، وكل نعت إلهيّ بهذه المثابة فتجري النعوت الإلهية إذا نسبت إلى الخلق مجرى الاعتقادات، فكما أنه يقبل كل اعتقاد ويصدق فيه كل معتقد كذلك النعوت الإلهية إذا

نسبت للخلق تقبل صفات المقامات وصفات الأحوال، هذا هو تحرير هذه الصفة وأمثالها، وهو الذي عليه الأمر، وقد وصف الله نفسه وهو ما أعطاه العبد من نفسه رضي الله به ورضي عنه فيه وإن لم يبذل استطاعته، فإنه لو بذل استطاعته التي إذا بذلها وقع في الحرج كان قد بذلها على جهد ومشقة، وقد رفع الله الحرج عن عباده في دينه فعلمنا أن المراد بالاستطاعة في مثل قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وما آتاها أن حدها أوّل درجات الحرج، فإذا أحسّ به أو استشرف عليه قبل الإحساس به فذلك حد الاستطاعة المأمور بها شرعاً ليجمع بين قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] ودين الله يسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥] في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

ولما فهمت الصحابة من الاستطاعة ما ذكرناه لذلك كانت رخصة لعزمة قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فرضي الله منك إذا أعطيته ممّا كلفك حد الاستطاعة التي لا حرج عليك فيها، ورضيت منه أنت بالذي أعطاك من حال الدنيا ورضيت عنه في ذلك، وقد عرفت أحوال الدنيا أنها الطاعة خاصة كما بيناها في باب المراقبة، وكلما أعطاك الحق في الدنيا والآخرة من الخير والنعم فهو قليل بالنسبة إلى ما عنده، فإن الذي عنده لا نهاية له، وكل ما حصل لك من ذلك فهو متناه بحصوله في الوجود، ونسبة ما يتناهى إلى ما لا يتناهى أقل القليل كما قال الخضر لموسىٰ لما نقر الطائر بمنقره في البحر ليشرب من مائه فشبهه بما هم عليه من العلم وبعلم الله فلذلك قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ في يسير العمل ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] في يسير الثواب لأنه لا يتمكن تحصيل ما لا يتناهى في الوجود لأنه لا يتناهى فلذلك قلنا: متعلق الرضى اليسير وهو الرضى بالموجود فرضي به من الله وعن الله فيه، وما قدم الله رضاه عن عبيد بما قبله من اليسير من أعمالهم التي كلفهم إلاً ليرضوا عنه في يسير الثواب لما علموا أن عنده ما هو أكثر من الذي وصل إليهم، فهو يصل إليهم من الآنات حالاً بعد حال أبد الآباد من غير انقطاع مع انقطاع أعمالهم التي كانت عن تكليف مشروع، فانقطعت الأعمال منهم ولم تتقطع العبادة، فإذا تناهى حد العمل الحسن والقبيح في أهل الجنة وأهل النار بقي جزاؤهم جزاء العبادة في السعداء، وجزاء العبودية في أهل النار، وهو جزاء لا ينقطع أبداً، فهذا أعطاهم اتساع الرحمة وشمولها، فإن المجرمين لم يزل عنهم شهود عبوديتهم وإن ادّعوا ربانية فيعلمون من نفوسهم أنهم كاذبون بما يجدونه فتزول الدعوى بزوال أوانها، وتبقى عليهم نسبة العبودية التي كانوا عليها في حال الدعوى وقبل الدعوى، ويجنون ثمرة قولهم بلى، فكانوا بمنزلة من أسلم بعد ارتداده فحكم على الكل سلطان بلى فأعقبهم سعادة بعدما مسّهم من الشقاء بقدر ما كانوا عليه من زمان الدعوى، فما زال حكم بلى يصحبهم من وقته إلى ما لا يتناهى ديناً وبرزخاً وآخرة، وعرضت عوارض لبعض الناس أخرجتهم في الظاهر عن حكم توحيدهم بما ادّعوه من الألوهة في الشركاء

فأثبتوه وزادوا فقام لهم الشركاء مقام الأسباب للمؤمنين، وكل عارض زائل وحكمه يزول بزواله ويرجع الحكم إلى الأصل والأصل يقتضي السعادة، فمآل الكل إن شاء الله إليها مع عمارة الدارين، ولكل واحدة ملؤها والرحمة تصحبها كما صحبت هنا العبودية لكل أحد ممّن بقي عليها أو ادّعى الربوبية فإنه ادّعى أمراً يعلم من نفسه خلافه، فمقام الرضى ماثلته لك فقل فيه بعد هذا ما شئت حال أو مقام أو لا حال ولا مقام، واعلم الفرق فيه بين النسبتين: نسبته لله ونسبته للخلق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون ومائة

في معرفة ترك الرضى

[نظم: البسيط]

تَرْكُ الرضى عند أهل الرَّسْم مَثْلَبَةٌ ... وعند أهلِ وجودِ الله آياتُ

على تحقُّقِهم بعين مُوْجِدِهِمْ ... من حيثُ ما هم به مَحْوٌ وإثباتُ

يرضى الإلهُ عن النفس التي ربطَتْ ... بحكمِهِ ولهم فيها علاماتُ

والنفسُ راضيةٌ عنه وليس لها ... بالعين علمٌ ولا بالوَجْد لَذَّاتُ

وما سوى النفسِ من عقلٍ فليس له ... رضًى وليست له فيها نهاياتُ

جناب الله أوسع من أن أرضى منه باليسير، ولكن أرضى عنه لا منه، لأن الرضى منه يقطع همم الرجال والله يقول آمراً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] مع كونه قد حصل علم الأوّلين والآخرين وأوتي جوامع الكلم، فإنه لا يعظم على الله شيء طلب منه، فإن المطلوب منه لا يتناهى، فليس له طرف نقف عنده فوسع في طلب المزيد إن كنت من العلماء بالله، وإذا كان اتساع الممكنات لا يقبل التناهي فما ظنك بالاتساع الإلهي فيما يجب له، وما يعطيه من المعرفة كل ممكن على عدم التناهي فيه، فكيف إذا انضاف إلى تلك المعرفة ما لا تعلق للممكن بها لا من سلب ولا من إثبات نسب، فإذا ترك العبد الرضى فعلى هذا الحد يتركه فهو راض عنه لا راض منه، لأن الرضى منه جهل به ونقص، والعبد الكامل مخلوق على صورة الكمال. وأما قول بعضهم لي منذ ستين سنة أو كذا وقت ما أقامني الله في أمر فكرهته قالت المشايخ: أشار إلى دوام الرضى واحتجوا بهذا على ثبوت الأحوال، فإن الرضى عندهم من الأحوال، وهذا لا يصحّ من غير المعصوم والمحفوظ فربما كان هذا القائل من المحفوظين أو المعصومين، فإن لم يكن فيريد الرضى بقضاء الله فيما أقامه لا بكل مقضي فإنه لا ينبغي الرضى بكل مقضي، وإن رأيت وجه الحق فيه فإنك إذا كنت صحيح الرؤية فيه فإنك ترى وجه الحق فيه غير راض عنه، فإن لم تره بذلك العين الإلهيّ وإلاّ فما رأيته إن رضيت به ولا يرضى لعباده الكفر فتحفظ من هذا الحال أو هذا المقام فإنه زهوق لا يثبت عليه الإقدام فإن فيه منازعة الحق.

الباب الموفي ثلاثين ومائة

في مقام العبودة

[نظم: البسيط]

إني انتَسَبْتُ إلى نفسي لمعرفتي ... بأنَّ نِسْبَتَنَا للحق مَعْلُولَهْ
وكَوْنُهُ عِلَّةً للخَلْق مجهلةٌ ... بما له من عُلُوٍّ القَدْر مجهولَهْ
هو الغنيُّ على الإطلاق ليس له ... فَقْرٌ قد اَوْدَعَ الرحمنُ تنزيلَهْ
هذا الذي قلته القرآنُ فَصَّلَهُ ... فابحثْ عليه ترى بالبحث تَفْصيلَهْ

العبودية نسب إلى العبودة، والعبودة مخلصة من غير نسب لا إلى الله ولا إلى نفسها لأنه لا يقبل النسب إليه ولذلك لم تجيء بيا النسب، فأذل الأذلاء من ينتسب إلى ذليل على جهة الافتخار به ولهذا قيل في الأرض ذلول ببنية المبالغة في الذلة، لأن الأذلاء يطؤونها فهي أعظم في الذلة منهم، فمقام العبودية مقام الذلة والافتقار وليس بنعت إلهيّ. قال أبو يزيد البسطامي: وما وجد سبباً يتقرب به إلى الله إذ رأى كل نعت يتقرب به إلى الله للألوهية فيه مدخل فلما عجز قال: يا رب بماذا أتقرب إليك؟ قال الله له: بما جرت عادة الله مع أوليائه أن يخاطبهم به تقرب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار، وهنا سرّ لا يمكن كشفه، فمن أطلعه الله عليه عرفه نطق الله عباده عليه بأن له صاحبة وولداً وأمثالاً وأن له البخل وأنه فقير من العرض بقولهم: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. ثم قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وكتبة الله إيجاب، وهذا موضع السرّ لمن فتح الله عين بصيرته.

ثم في قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فألحقهم في العقاب بالكفار، وهم الذين ستروا ما يجب للحق عليهم من التنزيه والاشتراك في أسماء الصفات لا في مسمياتها. فالعبد معناه الذليل، يقال: أرض معبدة أي مذللة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وما قال ذلك في غير هذين الجنسين لأنه ما ادّعى أحد الألوهية ولا اعتقدها في غير الله ولا تكبر على خلق الله إلاّ هذان الجنسان فلذلك خصّهما بالذكر دون سائر المخلوقات، فقال ابن عباس: معناه ليعرفوني، فما فسّر بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ وإنما تفسيره ليذلوا لي ولا يذل له من لا يعرفه، فلا بدّ من المعرفة به أوّلاً وأنه ذو العزّة التي تذلّ الأعزاء لها، فلذلك عدل ابن عباس في تفسير العبادة إلى المعرفة، هذا هو الظن به، ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله ﷺ فكان عبداً محضاً زاهداً في جمع الأحوال التي تخرجه عن مرتبة العبودية، وشهد الله له بأنه عبد مضاف إليه من حيث هويته واسمه الجامع فقال في حق اسمه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [سورة الجن: الآية ١٩] وقال في حق هويته: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فأسرى به عبداً، ولما أمر بتعريف مقامه يوم القيامة قيد ذلك فقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» بالراء أي ما قصدت الفخر عليكم بالسيادة بل أردت

التعريف بشرى لكم إذ أنتم مأمورون بإتباعي، وقد روي ولا فخز بالزاي ما قلته متبجحاً وأنا لست كذلك، فإن الفخز التبجح بالباطل في صورة حق، فالعبد مع الحق في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابلة السراج، كلما قرب من السراج عظم الظل، ولا قرب من الله إلاّ بما هو لك وصف أخصّ لا له، وكلما بعد من السراج صغر الظل، فإنه ما يبعدك عن الحق إلاّ خروجك عن صفتك التي تستحقها وطمعك في صفته ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وهما صفتان لله تعالىٰ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩].

وهذا قوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» وهذا المقام لا يبقى لك صفة تخصّ الحق وينفرد بها، ولا يمكن حصول اشتراك فيها من النعوت الثبوتية لا النعوت السلبية والإضافية إلاّ ويعلمها صاحب هذا المقام خاصة، ولكن عزّ صاحبه ذوقاً، فإن الوصف الأخص منك إذا تحققت به وانفردت ودخلت به على الحق لم يقابلك إلاّ بالنعت الأخص به الذي لا قدم لك فيه، وإذا جئت بالنعت المشترك تجلّى لك بالنعت المشترك فتعرف سرّ نسبته إليك من نسبته إليه وهو علم غريب قلّ أن تجد له ذائقاً، ومع هذا فهو دون الأوّل الذي هو الأخص بك فاعلم ذلك فتحقق بهذا المقام فهذا أعطاك مقام العبودية.

وأما مقام العبودة فلا تدري ما يحصل لك فيه من العلم به فإنك تنفي النسب فيه عنه تعالىٰ وعن الكون وهو مقام عزيز جداً لأنه لا يصحّ عند الطائفة أن يبقى الكون مع إمكانه بغير نسب وهو بالذات واجب لغيره، والتنبيه على هذا المقام وصف الظاهر في المظهر بنعت العبد، فإن الظاهر ينصبغ بحقيقة المظهر كان ما كان، فلا ينتسب الظاهر إلى العبودية فإنه ليس وراءها نزول، والمنتسب لا بدّ أن يكون أنزل في المرتبة من المنسوب إليه ولا ينتسب الظاهر إلاّ إليه، فإن الأثر الذي أعطاه عين المظهر ليس غير الظاهر وليس وراء الله مرمى والشيء لا ينسب إلى نفسه، فلهذا جاءت العبودة بغير ياء النسب، يقال: رجل بين العبودية والعبودة أي ذاته ظاهرة ونسبه مجهول فلا ينسب فإنه ما ثم إلى من فهو عبد لا عبد.

الباب الأحد والثلاثون ومائة

في مقام ترك العبودية

[نظم: البسيط]

إنِ انتسبْتَ إلى مَغلُول أنتَ له ... وأنت لله لا للخلق فازدجرُوا

نحن المظاهرُ المعبودُ ظاهِرُها ... ومَظْهَرُ الكون عَيْنُ الكون فاعتبرُوا

ما جاء بي عَبَثاً لكن لنَعْبُدَهُ ... حقاً بذا حَكَمَ التشريعُ والنَّظَرُ

ولستُ أعبُدُه إلاّ بصورتهِ ... فهو الإلهُ الذي في طَيِّه البَشَرُ

فما القضاءُ إذا حقَّقْتَ صورتَنا ... وما التصرُّفُ والأحكامُ والقَدَرُ

فكلُّها عِبَرٌ إن كنتَ ذا نظرٍ ... ولا يخيبُ من تسري به العِبَرُ

ترك العبودية لا يصحّ إلاَّ عند من يرى أن عين الممكنات باقية على أصلها من العدم وأنها مظاهر للحق الظاهر فيها، فلا وجود إلاَّ لله ولا أثر إلاَّ لها، فإنها بذاتها تكسب وجود الظاهر ما تقع به الحدود في عين كل ظاهر فهي أشبه شيء بالعدد، فإنها معقول لا وجود له، وحكمه سار ثابت في المعدودات، والمعدودات ليست سوى صور الموجودات كانت ما كانت، والموجودات سبب كثرتها أعيان الممكنات وهي أيضاً سبب اختلاف صور الموجودات، فالعدد حكمه مقدّم على حكم كل حاكم. ولما وصلت في أول هذا الباب من هذه النسخة إلى العدد والمعدودات نمت فرأيت رسول الله ﷺ في منامي وأنا بين يديه وقد سألني سائل وهو يسمع: ما أقل الجمع في العدد؟ فكنت أقول له: عند الفقهاء اثنان، وعند النحويين ثلاثة، فقال ﷺ: «**أَخْطَأَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ**»، فقلت له: يا رسول اللّه فكيف أقول؟ قال لي: «**إِنَّ العَدَدَ شَفْعٌ وَوَتْرٌ**» يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [سورة الفجر: الآية ٣] والكل عدد فميز، ثم أخرج خمسة دراهم بيده المباركة ورمى بها على حصير كنا عليه فرمى درهمين بمعزل ورمى ثلاثة بمعزل وقال لي: ينبغي لمن سئل في هذه المسألة أن يقول للسائل عن أي عدد تسأل عن العدد المسمّى شفعاً أو عند العدد المسمّى وتراً ثم وضع يده على الاثنين الدرهمين وقال: هذا أقل الجمع في عدد الشفع، ثم وضع يده على الثلاثة وقال: هذا أقل الجمع في عدد الوتر، هكذا فليجب من سئل في هذه المسألة كذا هو عندنا، واستيقظت فقيدتها في هذا الباب كما رأيتها حين استيقظت، وخرج عن ذكري مسائل كثيرة كانت بيني وبينه ﷺ مّما يتعلق بغير هذا الباب، وأنا في غاية السرور والفرح برؤيته ﷺ، ووجدت في خاطري عند انتباهي صحة النهي عن البتيرا فإنه تكلم في طريقه فما رأيت معلماً أحسن منه، وأخذت في تقييدي لهذا الكتاب فنرجع ونقول: فالعدد حكمه مقدم على حكم كل حاكم، فحكم على الممكنات بالكثرة كثرة الممكنات، واختلافات استعداداتها على الظاهر فيها مع أحديته فكثرته كثرة الممكنات.

ولما كان الأمر هكذا لم يمكن أن يكون للعبودية عين، فلهذا المقام يقال بترك العبودية، ومنم حكم العدد وقوّة سريانه وإن لم يكن له وجود قول الله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني الاثنين وهذا يعضد رؤيانا المتقدمة، ولا أكثر إلاَّ هو معهم أينما كانوا من المراتب التي يطلبها العدد فينسحب عليها حكم العدد. وقوله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً**» هذا من حكم العدد. وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٣] ولم يكفر من قال إنه سبحانه رابع ثلاثة، وذلك أنه لو كان ثالث ثلاثة أو رابع أربعة على ما توطأ عليه أهل هذا اللسان لكان من جنس الممكنات وهو سبحانه وتعالىٰ ليس من جنس الممكنات فلا يقال فيه أنه واحد منها فهو واحد أبداً لكل كثرة وجماعة ولا يدخل معها في الجنس فهو رابع ثلاثة فهو واحد وخامس أربعة فهو واحد بالغاً ما بلغت فذلك هو مسمّى الله، فهو وإن كان هو الوجود الظاهر بصور ما هي المظاهر عليه فما هو من جنسها فإنه واجب الوجود لذاته وهي واجبة العدم لذاتها أزلاً، فلها الحكم فيمن تلبس بها، كما للزينة الحكم فيمن تزين بها،

فنسبة الممكنات للظاهر نسبة العلم والقدرة للعالم والقادر، وما ثم عين موجودة تحكم على هذا الموصوف بأنه عالم وقادر فلهذا نقول: إنه عالم لذاته وقادر لذاته وهكذا هي الحقائق، فالعدد حاكم لذاته في المعدودات ولا وجود له، والمظاهر حاكمة في صور الظاهر وكثرتها في عين الواحد ولا وجود لها، وليس عندنا في العلم الإلهيّ مسألة أغمض من هذه المسألة، فإن الممكنات على مذهب الجماعة ما استفادت من الحق إلاّ الوجود، وما يدري أحد ما معنى قولهم: ما استفادت إلاّ الوجود إلاّ من كشف الله عن بصيرته، وأصحاب هذا الإطلاق لا يعرفون معناه على ما هو الأمر عليه في نفسه، فإنه ما ثم موجود إلاّ الله تعالىٰ والممكنات في حال العدم.

فهذا الوجود المستفاد إما أن يكون موجوداً وما هو الله ولا أعيان الممكنات. وإما أن يكون عبارة عن وجود الحق، فإن كان أمراً زائداً ما هو الحق ولا عين الممكنات فلا يخلو أن يكون هذا الوجود موجوداً فيكون موصوفاً بنفسه وذلك هو الحق لأنه قد قام الدليل، على أنه ما ثم وجود أزلاً إلاّ وجود الحق فهو واجب الوجود لنفسه، فثبت أنه ما ثم موجود لنفسه غير الله، فقبلت أعيان الممكنات بحقائقها وجود الحق لأنه ما ثم وجود إلاّ هو وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٥] وهو الوجود الصرف فانطلق عليه ما تعطيه حقائق الأعيان، فحدث الحدود، وظهرت المقادير، ونفذ الحكم والقضاء، وظهر العلوّ والسفل والوسط والمختلفات والمتقابلات، وأصناف الموجودات أجناسها وأنواعها وأشخاصها وأحوالها وأحكامها في عين واحدة، فتميزت الأشكال فيها وظهرت أسماء الحق، وكان لها الأثر فيما ظهر في الوجود غيرة أن تنسب تلك الآثار إلى أعيان الممكنات في الظاهر فيها.

وإذا كانت الآثار للأسماء الإلهية والاسم هو المسمّى فما في الوجود إلاّ الله فهو الحاكم وهو القابل فإنه قابل التوب فوصف نفسه بالقبول ومع هذا فتحرير هذه المسألة عسير جداً، فإنّ العبارة تقصر عنها والتصوّر لا يضبطها لسرعة تفلتها وتناقض أحكامها فإنها مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فنفى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فنفى كون محمد وأثبت نفسه عين محمد وجعل له اسم الله، فهذا حكم هذه المسألة بل هو عينها لمن تحقق، فهذا معنى ترك العبودية في خصوص العلماء بالله. وأما من نزل منهم عن هذه الطبقة فإنه يقول: لا يصحّ تركها باطناً لوجود الافتقار الذي لا ينكره المحدث من نفسه فلا بدّ أن يذلّه فتلك الذلّة عين العبودية، إلاّ أن يؤخذ الإنسان عن معرفته بنفسه، وأما تركها من باب المعرفة فهو أن العبد إذا نظرته من حيث تصرّفه لا من حيث ما هو ممكن وأطلقت عليه اسم العبودة من ذلك الباب فيمكن في المعرفة تركها من باب التصرّف لا من باب الإمكان، وذلك أن حقيقة العبودية الوقوف عند أوامر السيد وما هنا مأمور إلاّ من يصحّ منه الفعل بما أمر به، والأفعال خلق الله فهو الآمر والمأمور، فأين التصرّف الحقيقي الذي به يسمّى العبد عبداً قائماً بأوامر سيده أو منازعاً له فيتصف بالأباق، فبقي المسمّى عبداً على ظهور الاقتدار الإلهي بجريان الفعل على ظاهره وباطنه، إما بموافقة الأمر أو بخالفته، وإذا كان هذا على ما ذكرناه فلا عبودية

تصريف فهو أعني العبد موجود بلا حكم، وهذا مقام تحقيقه عند جميع علماء الذوق من أهل الله إلاَّ طائفة من أصحابنا وغيرهم ممّن ليس منّا يرون خلاف ذلك وأن الممكن له فعل، وأن الله قد فوّض إلى عباده أن يفعلوا بعض الممكنات من الأفعال فكلفهم فعلها فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] وأمثال هذا، فإذا أثبتوا أن للعبد فعلاً لم يصحّ ترك عبودية التصريف. وأما عبودية الإمكان فأجمعوا على كونها وأنه لا يتصوّر تركها فإن ذلك ذاتي للممكن، وبعض أصحابنا يلحظ في ترك العبودية كون الحق قوى العبد وجوارحه فإنه يغيب عن عبوديته في تلك الحال، فهو ترك حال لا ترك حقيقة. انتهى الجزء الواحد ومائة.

(الجزء الثاني ومائة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثاني والثلاثون ومائة
في معرفة مقام الاستقامة

[نظم: الكامل]

لـلـمـسـتـقـيـم ولايـةٌ مَـخْـصُـوصـةٌ شملتْ جميعَ الكون في تخصيصها

لـلـلـمُـسـتَـقـيـم تـنـزَّلـتْ أرواحُـه بـالـطَّـيِّـب الـمـكـنـونِ فـي تَـنْـصـيـصِـهَـا

الاسـتـقـامـةُ نـزَّلَـتْ أربـابَـهـا مـنـهـا مـنـازلَ لـم تُـنَـلْ بـخـصـوصِـهَـا

هـي نَـعْـتُـهُ سـبـحـانَـه فـي قـصَّـةٍ قـد قـالـهـا فـانـظُـرْهُ فـي مَـنْـصـوصِـهَـا

جاءت هذه الأبيات لزوم ما لا يلزم من غير قصد وكذلك أمثالها، فإنما أنطق ممّا يجريه الله فينا من غير تعمّل ولا روية.

اعلم وفقك الله أن الله أخبر عن نبيه ورسوله عليه السلام في كتابه أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول في هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلاَّ بعد قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فما ثم إلاَّ من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب، لأنه ما ثم إلاَّ من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو على صراط مستقيم، ونكر لفظ دابة فعم فأين المعوج حتى تعدل عنه؟ فهذا جبر وهذه استقامة، فالله يوفقنا لإنزال كل حكمة في موضعها، فهنالك تظهر عناية الله بعبيده ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وهي أحكام الطريقة التي في قوله: ﴿وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ فكلها مجعولة بجعل الله، فمن مشى في غير طريقه التي عين الله له المشي عليها فقد حاد عن سواء السبيل التي عين الله له المشي عليها، كما أن ذلك الآخر لو ترك سبيله التي شرع الله له المشي عليها وسلك سبيل هذا سميناه حائداً عن سبيل الله، والكل بالنسبة إلى واحد واحد على صراط مستقيم فيما شرع

له، ولهذا خط رسول الله ﷺ خطاً وخط عن جنبتي ذلك الخط خطوطاً، فكان ذلك الخط شرعه ومنهاجه الذي بعث به وقيل له: قل لأمتك تسلك عليه ولا تعدل عنه، وكانت تلك الخطوط شرائع الأنبياء التي تقدّمته والنواميس الحكمية الموضوعة، ثم وضع يده على الخط وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه ولم يقل صراط الله ووصفه بالاستقامة وما تعرّض لنعت تلك الخطوط بل سكت عنها ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الضمير يعود على صراطه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هي شرائع لهم إلاَّ إن وجد حكم منها في شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعاً لهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يعني تلك الشرائع عن سبيله أي عن طريقه الذي جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله لأنّ الكل سبيل الله إذ كان الله غايتها ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] أي تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشي على غيره من السبل وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ من أي شرع كان إذا كان له الزمان والوقت ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على طريقهم التي شرع الله لهم المشي عليها ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهذا التنزّل هو النبوّة العامة لا نبوّة التشريع ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ بالبشر أي ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٠] فإنكم في طريق الاستقامة، ثم قالوا لهم هؤلاء المبشرون من الملائكة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نحن كنا ننصركم في الحياة الدنيا في الوقت الذي كان الشيطان يلقي إليكم بلمته العدول عن الصراط الذي شرع لكم المشي عليه، فكنا ننصركم عليه باللمة التي كنتم تجدونها في وقت التردّد بين الخاطرين هل يفعل أو لا يفعل؟ نحن كنا الذين نلقي إليكم ذلك في مقابلة إلقاء العدوّ فنحن أيضاً أولياؤكم ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣١] بالشهادة لكم أنكم كنتم تأخذون بلمتنا وتدفعون بها عدوّكم، فهذه ولايتهم في الآخرة وولايتهم أيضاً بالشفاعة فيهم فيما غلب عليهم الشيطان في لمته، فيكون العبد من أهل التخليط فتشفع الملائكة فيه حتى لا يؤاخذ بعمل الشيطان فهذا معنى قوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من شهادتنا لها وشفاعتنا فيها في هذا الموطن ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣١] من الدعة ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٢] بشهادتنا وشفاعتنا حيث قبلها فأسعدكم الله بها فستركم في كنفه وأدخلكم في رحمته، هذا معنى الاستقامة المتعلقة بالنجاة.

وأما الاستقامة التي تطلبها حكمة الله فهي السارية في كل كون، قال تعالىٰ مصدقاً لموسىٰ عليه السلام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فكل شيء في استقامة حاصلة، فاستقامة النبات أن تكون حركته منكوسة، واستقامة الحيوان أن تكون حركته أفقية، وإن لم يكن كذلك لم ينتفع بواحد منهما، لأن حركة النبات إن لم تكن منكوسة حتى يشرب الماء بأصولها لم تعط منفعة إذ لا قوّة له إلاَّ كذلك، وكذلك الحيوان لو كانت حركته إلى العلوّ وقام على رجلين مثلنا لم يعط فائدة الركوب وحمل الأثقال على ظهره، ولا حصلت به المنفعة التي تقع بالحركة الأفقية، فاستقامته ما خلق له، فهي الحركة المعتبرة التي تقع بها المنفعة

المطلوبة، وإلاً فالنبات والحيوان لهما حركة إلى العلو وهو قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٠] فلولا الحركة ما نما علواً، وإنما غلبنا عليه الحركة المنكوسة للمنفعة المطلوبة فافهم ذلك، فإن المتكلمين في هذا الفنّ ما حرّروا الكلام في حقيقة هذه الحركات، فالحركة في الوسط مستقيمة لأنها أعطت حقيقتها كحركة الأرض وحركة الكرة، والحركة من الوسط حركة العروج، والحركة إلى الوسط حركة النزول، فحركة النزول ملكية وإلهية، وحركة العروج حركة بشرية وكلها مستقيمة، فما ثم إلاً استقامة لا سبيل إلى المخالفة، فإن المخالفة تشاجر، ألا ترى أنه ما وقع التحجير على آدم إلاً في الشجرة أي لا تقرب التشاجر، والزم طريقة إنسانيتك وما تستحقه، واترك الملك وما يستحقه، والحيوان وما يستحقه، وكل ما سواك وما يستحقه، ولا تزاحم أحداً في حقيقته فإن المزاحمة تشاجر وخلاف، ولهذا لما قرب من الشجرة خالف نهي ربّه فكان مشاجراً فذهبت عنه في تلك الحال السعادة العاجلة في الوقت، وما ذهبت عنه استقامة التشاجر فإنه وفاها حقّها بمخالفة النهي الإلهيّ.

اعوجاج القوس استقامته لما أريد له، فما في الكون إلاً استقامة، فإن موجده وهو الله تعالىٰ على صراط مستقيم من كونه رباً، فإن دخلت السبل بعضها على بعض واختلطت فما خرجت عن الاستقامة: استقامة الأخلاط واستقامة ما وجدت له، فهي في الاستقامة المطلقة التي لها الحكم في كل كون وهي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وهو على صراط مستقيم ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] أي تذلّل له في كل صراط يقيمك فيه لا تتذلل لغيره فإن غيره عدم ومن قصد العدم لم تظفر يداه بشيء، ثم إنه جاء بضمير الغائب في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي لا تقل أنت المدرك فإن الأبصار لا تدركه، إذ لو أدرك الغيب ما كان غيباً، فاعبد ذاتاً منزّهة مجهولة لا تعرف منها سوى نسبتك إليها بالافتقار ولهذا تمّم فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي اعتمد عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] قطع بهذا ظهر المدّعين في هذا المقام إذا لم يكن صفتهم ولا حالهم ولا وصل إليهم علمه. فالاستقامة سارية في جميع الأعيان من جواهر وأعراض وأحوال وأقوال كما قال: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٦] وهي نعت إلهيّ وكوني جعلنا الله ممّن لم يعدل عن استقامته إلاً باستقامته آمين بعزّته.

وأما الاستقامة بلسان عامّة أهل الله فهي أن تقول: الاستقامة عامّة في الكون كما قررنا، فما ثم طريق إلاً وهو مستقيم، لأنه ما ثم طريق إلاً وهو موصل إلى الله، ولكن قال الله تعالىٰ لنبيه ولنا: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٢] لم يخاطبه بالاستقامة المطلقة فإنه قد تقرّر أن ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] وأنه غاية كل طريق، ولكن الشأن إلى أيّ اسم تصل وتصير من الأسماء الإلهية فينفذ في الواصل إليه أثر ذلك الاسم من سعادة ونعيم أو شقاوة وعذاب، فمعنى الاستقامة الحركات والسكنات على الطريقة المشروعة، والصراط المستقيم هو الشرع الإلهيّ، والإيمان بالله رأس هذا الطريق، وشعب الإيمان منازل هذا الطريق التي بين أوّله وغايته وما بين المنزلين أحواله وأحكامه.

ولما كان الصراط المستقيم ممّا تنزلت به الملائكة المعبّر عنها بالأرواح العلوية وهي

الرسل من الله إلى المصطفين من عباده المسمّين أنبياء ورسلاً جعل الله بينها وبين من تنزل عليه من هؤلاء الأصناف نسباً جوامع بينهما بتلك النسب يكون الإلقاء من الملائكة، وبها يكون القبول من الأنبياء، فكل من استقام بما أنزل على هؤلاء المسمّين أنبياء ورسلاً من البشر بعد ما آمن بهم أنهم رسل الله وأنهم أخذوا ما جاؤوا به عن رسل آخرين ملكيين تنزلت الملائكة عليهم أيضاً بالبشرى وكانت لمن هذه صفته جلساء.

ولما كانت هذه الأرواح العلوية حية بالذات كان الاسم الذي تولاها من الحضرة الإلهية الاسم الحيّ كما كان المتولي من الأسماء الإلهية لمن كانت حياته عرضية مكتسبة الاسم المحيي، فما عقل الملك قط إلاّ حياً بخلاف البشر فإنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ولأهل هذه الحياة العرضية من العناصر ركن الماء قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فالماء أصل العناصر، والاسطقسات والعرش الملك وما تم الملك وكمل إلاّ في عالم الاستحالة وهو عالم الأركان الذي أصله الماء، ولولا عالم الاستحالة ما كان الله يصف نفسه بأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فالعالم يستحيل والحق في شأن حفظ وجود أعيانه يمدّه بما به بقاء عينه من الإيجاد، فهو الشأن الذي هو الحق عليه وليس لغير عالم الاستحالة هذه الحقيقة.

ولما صار الماء أصلاً لكل حيّ حياته عرضية كان من استقام سقاه الله ماء الحياة، فإن كان سقي عناية كالأنبياء والرسل حيي به من شاء الله، وإن كان سقي ابتلاء لما فيه من الدعوى كان بحكم ما أريد بسقيه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [سورة الجن: الآية ١٦، ١٧] فهذا سقي ابتلاء، وإنما طلبت الاستقامة من المكلف في القيام بفرائض الله عليه، فإن المكلف من جهة الحقيقة ملقى طريح عند باب سيده تجري عليه تصاريف الأقدار، وما أودع الله في حركات هذه الأكوار ممّا يجيء به الليل والنهار من تنوّع الأطوار بين محو وإثبات لظهور آيات بعد آيات، وقد جعل الله المكلف محلاً للحياة والحركات، وطلب منه القيام من تلك الرقدة بما كلفه من القيام بحقه، فأصعب ما يمرّ على العارفين أمر الله بالاستقامة وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [سورة هود: الآية ١١٢] أي لا ترتفعوا عن أمره بما تجدونه في نفوسكم من خلقكم على الصورة الإلهية فتقولوا: مثلنا لا يكون مأموراً فلا يعرف العلماء بالله هل وافق أمر الله إرادته فيهم أنهم يمتثلون أمره أو يخالفونه، فلهذا صعب عليهم أمر الله واشتدّ وهو قوله عليه السلام: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ**» فإنها السورة التي نزل فيها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأخواتها ممّا فيها هذه الآية أو ما في معناها فهم من ذلك على خطر، وطريق الاستقامة لا تتقيد مراتبه ولا تنضبط كما قال ﷺ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**» يعني طريق الاستقامة وما أحصيتم منها فلن تحصوا ما لكم في ذلك من الأجر والخير، والظاهر إنما أراد لن تحصوا طرق الاستقامة فإنها كثيرة لن يسعها أحد منكم على التعيين، ولهذا اتبع هذا القول بقوله: «**اعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ وَإِذا لَمْ تَسْتَطِيعُوا إِحْصَاءَ**

طُرُقِ الاسْتِقَامَة فَخُذُوا الأَفْضَلَ مِنْهَا» وينظر إلى الاسم الحيّ المحيي بهذه العبادات الاسم القيوم ولهذا قيل للمكلف: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] فالقيوم أخو الحيّ الملازم له، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقال: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١ ـ ٢] وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [سورة طه: الآية ١١١] فما جاء الاسم الحيّ إلاَّ والقيوم معه، فتدبّر هذا الباب فإنه يحتوي على أسرار إلهية.

الباب الثالث والثلاثون ومائة

في مقام ترك الاستقامة

[نظم: السريع]

ألا إلى الله تَصِيرُ الأمور ... فلا تغرَّنَّكَ دارُ الغرور
وكلُّ ما خالف ما قاله ... سبحانَه فإنه قَوْلُ زور
فكلُّ مُعْوَجٍّ له غايةٌ ... إليه حقاً في جميع الأمور
فلا تعيِّنْ واحداً إنه ... حُكْمٌ بجهل حاصلٍ أو قُصُور
فَضَّلَتِ الأشياءُ أغراضَنا ... إلى سعيدٍ وإلى من يَبُور
ورجع الكلُّ إلى قَوْلِهِ ... ألا إلى الله تصيرُ الأمور

اعلم علمك الله أن ترك الاستقامة من أعلام الإقامة عند الله والحضور معه في كل حال كما قالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في حق النبيّ ﷺ من أنه كان يذكر الله على كل أحيانه، فهو في الدنيا موصوف بصفة أرض الآخرة ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٧] ولما كانت الاستقامة تتميز بالاعوجاج ولا اعوجاج فلا استقامة مشهودة: [مجزوء الكامل]

فالكلُّ في عين الوجو ... دِ على طريقٍ واحدِ
والكلُّ في عين الرِّضَى ... من مؤمنٍ أو جاحدِ

وقد يكون مشهد صاحب هذا الشهود النظر في إمكان العالم والإمكان سبب مرضه والمرض ميل والميل ضدّ الاستقامة، والإمكان للعالم نعت ذاتيّ لا يتصوّر زواله لا في حال عدمه ولا في حال وجوده، فالمرض له ذاتيّ فالميل له ذاتيّ فلا استقامة فالعالم مرضه زمانة لا يرجى رفعها، إلاَّ أن الكون محل لوجود المغالطات لأمور تقتضيها الحكمة ويطلبها العقل السليم لعلمه بما يصلح الكون إذ شرع التكليف ولم يكن في الوسع أن تكون آحاد العالم على مزاج واحد، فلما اختلفت الأمزجة كان في العالم العالم والأعلم والفاضل والأفضل، فمنه من عرف الله مطلقاً من غير تقييد، ومنهم من لا يقدر على تحصيل العلم بالله حتى يقيده بالصفات التي لا توهم الحدوث وتقتضي كمال الموصوف، ومنهم من لا يقدر على العلم بالله حتى يقيده بصفات الحدوث فيدخله تحت حكم ظرفية الزمان وظرفية المكان والحد والمقدار.

ولما كان الأمر في العلم بالله في العالم في أصل خلقه وعلى هذا المزاج الطبيعي المذكور أنزل الله الشرائع على هذه المراتب حتى يعمّ الفضل الإلهيّ جميع الخلق كله فأنزل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهو لأهل العلم بالله مطلقاً من غير تقييد، وأنزل قوله تعالىٰ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وهذا كله في حق من قيده بصفات الكمال. وأنزل تعالىٰ من الشرائع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] و﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر: الآية ١٤] ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٧] فعمت الشرائع ما تطلبه أمزجة العالم، ولا يخلو المعتقد من أحد هذه الأقسام والكامل المزاج هو الذي يعمّ جميع هذه الاعتقادات ويعلم مصادرها ومواردها ولا يغيب عنه منها شيء، فمثل هذا لا تتعين له الاستقامة لأنه لا يرى لهذه الحال ضداً تتميز به هذه الحالة لأنه فيها، والكون إذا كان في الشيء لا يدركه عيناً ورؤية بصر وإن عرفه كما لا يدرك الهواء للقرب المفرط كذلك لا يدرك الحق للقرب المفرط فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فسبحان من خلق العالم للسعادة لا للشقاء، فكان الشقاء فيه عرضاً عرض له ثم يزول، وذلك لأن الله تعالىٰ ما خلق العالم لنفس العالم وإنما خلقه لنفسه فقال فيه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ونحن من الأشياء، ثم قال في حقنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فما من أحد منّا يتعزز على الله ولا يتكبر عليه وإن تكبر بعضنا على بعض، وما من صاحب نحلة ولا ملة ولا نظر إلاً وتسأله عن طلبه فتجده مستوفر الهمة على طلب موجده لأنه خلقه للمعرفة به.

واختلفت أحوالهم في إدراك مطلوبهم لاختلاف أمزجتهم، ونزلت الشرائع تصوّب نظر كل ناظر ويتجلى لأهل الكشوف والكل أهل كشف، لكن بعضهم لا يدري أن مطلوبه قد أدركه وهو الذي خشع له، وآخر قد علم أنه لا يرى سوى مطلوبه، فالكل في عين الوجود والشهود ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الطور: الآية ٤٧] فرحم الله الجميع، وهذا معنى قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وسيرد إن شاء الله في منزل الإنعام والآلاء من هذا الكتاب ما أشرنا إليه في هذا الكلام، فإنا جعلنا فيه أن الوجود مدرسة وأن الحق سبحانه هو رب هذه المدرسة وملقي الدروس فيها على المتعلمين وهم العالم، والرسل هم المعيدون، والورثة هم المذنبون وهم معيدو المعيدين.

والعلوم التي يلقيها للمتعلمين في هذه المدرسة وإن كثرت فهي ترجع إلى أربعة أصناف: صنف يلقي عليهم دروس موازين الكلام في الألفاظ والمعاني ليميزوا بها الصحيح من السقيم، وإن كان الكل صحيحاً عند العلماء بالله وإنما يسمّى سقيماً بالنظر إلى ضدّه أو

غرض ما معين. والعلم الثاني هو العلم بتنقيح الأذهان وتدريب الأفكار وتهذيب العقول لأن رب المدرسة إنما يريد أن يعرفهم بنفسه وهو الغاية المطلوبة التي لأجلها وضع هذه المدرسة وجمع هؤلاء الفقهاء فاستدرجهم للعلم به شيئاً بعد شيء، وبعضهم تجلّى لهم ابتداء فعرفوه لصحة مزاجهم كالملائكة والأجسام المعدنية والنباتية والحيوانية، وما احتجب إلاً عن الثقلين ففيهما وضع هذه العلوم ليتدربوا بها للعلم به وهو لا يزال خلف حجاب المعيدين، والعقول ستر مسدل وباب مقفل. ودروس يلقيها أيضاً ليعلمهم بذلك ما سبب وجود هذه الهياكل واختلافات أمزجتها وبما امتزجت، وما سبب عللها وأمراضها وصحتها وعافيتها، ومن أي شيء قامت، وما يصلحها ويفسدها، وما معنى الطبيعة فيها وأين مرتبتها من العالم؟ وهل هي أمر وجودي عيني أو هي أمر وجودي عقلي؟ وهل يخرج عنها شيء أو صنف من العالم أو لا حكم لها إلاً في الأجسام المركبة التي تقبل الحل والتركيب والكون والفساد وما أشبه هذا الفنّ. والدرس الرابع هو ما يلقيه من العلم الإلهيّ وما يجب أن يكون عليه هذا المفتقر إليه الذي هو الله سبحانه وما يستحيل أن ينعت به وما يجوز فعله في خلقه، وما ثم درس خامس أصلاً لأنه ليس وراء الله مرمى، غير أن كل نوع من أنواع هذه العلوم ينقسم إلى علوم جزئية كثيرة يتسع المجال فيها، فمن وقف مع شيء منها ولم يحضر من الدروس إلاً درسها كان ناقصاً عن غيره، ومن ارتفعت همته وعلم أن هذه الدروس ليس المطلوب منها نفسها ولا وضعت لعينها وإنما المقصود منها تحصيل العلم بالله الذي هو رب هذه المدرسة جعل في همته طلب هذا العلم الإلهيّ، فمنهم من طلبه بمقدمات هذه العلوم وهو طلب عقلي، ومنهم من طلبه من المعيد واقتصر عليه فإنه رأى بينه وبين المدرس وصلة ورأى رسولاً يخرج إليه من خلف الحجاب يعرّفه بأمور يلقيها على الحاضرين وأوقات يدخل المعيد إليه ثم يخرج من عنده فقال هذا الطالب: العلم بالله من جهة هذا المعيد أحق وأوثق للنفس من أن تتخذ دليلاً نظرياً أو فكرياً مما تقدم من هذه العلوم الأخر، فلما أخذ علمه من المعيد كان وارثاً وصار معيداً للمعيد وهو المذنب ويسمّى في الشرع الوارث وهم ورثة الأنبياء.

الباب الرابع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام الإخلاص

[نظم: السريع]

مــن أَخْــلَـصَ الـديـنَ فـذاك الـذي ... لـنـفـسـه الـرحـمـنُ يـسـتَـخْـلِـصُـهْ

فــكــلُّ نــقــصــانٍ إذا لــم يــكــن ... فــي كــونــه فــإنــه يــنْــقُــصُــهْ

اعلم أن الاسم الأحد ينطلق على كل شيء من ملك وفلك وكوكب وطبيعة وعنصر ومعدن ونبات وحيوان وإنسان مع كونه نعتاً إلهياً في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] وجعله نعتاً كونياً في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] وما من صنف ذكرناه من هؤلاء الأصناف الذين هم جميع ما سوى الله وقد حصرناهم إلاً وقد

عبد منهم أشخاص، فمنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الكواكب، ومنهم من عبد الأفلاك، ومنهم من عبد العناصر، ومنهم من عبد الأحجار، ومنهم من عبد الأشجار، ومنهم من عبد الحيوان، ومنهم من عبد الجن والإنس، فالمخلص في العبادة التي هي ذاتية له أن لا يقصد إلاً من أوجده وخلقه وهو الله تعالىٰ، فتخلص له هذه العبادة، ولا يعامل بها أحداً ممّن ذكرناه أي لا يراه في شيء ممّا ذكرناه لا من حيث عين ذلك الشيء ولا من حيث نسبة الأحدية له، فإن الناظر أيضاً له أحدية فليعبد نفسه فهو أولى له، ولا يذل لأحدية مثله، إذ ولا بدّ من ذلّته لغير أحدية خالقه، فيكون أعلى همة ممّن ذلّ لأحدية مخلوق مثله، وما من شيء من المخلوقات إلاً وفيه نفس دعوى ربوبية لما يكون عنه في الكون من المنافع والمضار، فما من شيء في الكون إلاً وهو ضار نافع، فهذا القدر فيه من الربوبية العامة وبها يستدعي ذلة الخلق إليه. ألا ترى الإنسان على شرفه على سائر الموجودات بخلافته كيف يفتقر إلى شرب دواء يكرهه طبعاً لعلمه بما فيه من المنفعة له فقد عبده من حيث لا يشعر كرهاً وإن كان من الأدوية المستلذة لمزاج هذا المريض وهو قد علم أن استعماله ينفعه فقد عبده من حيث لا يشعر طوعاً ومحبة، وكذا قال الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد، الآية ١٥].

وخذ الوجود كله على ما بينته لك فإنه ما من شيء في الكون إلاً وفيه ضرر ونفع، فاستجلب بهذه الصفة الإلهية نفوس المحتاجين إليه لافتقارهم إلى المنفعة ودفع المضار، فأداهم ذلك إلى عبادة الأشياء وإن لم يشعروا ولكن الاضطرار إليها يكذبهم في ذلك، فإن الإنسان يفتقر إلى أخس الأشياء وأنقصها في الوجود وهو مكان الخلاء عند الحاجة يترك عبادة ربه، بل لا يجوز له في الشرع أداؤها وهو حاقن فيبادر إلى الخلاء ولا سيما إذا أفرطت الحاجة فيه واضطرته بحيث تذهب بعقله ما يصدق متى يجد إليه سبيلاً، فإذا وصل إليه وجد الراحة عنده وألقى إليه ما كان أقلقه، فإذا وجد الراحة خرج من عنده وكأنه قط ما احتاج إليه وكفر نعمته واستقذره وذمّه، وهذا هو كفر بالنعمة والمنعم.

ولما علم الله ما أودعه في خلقه وما جعل في الثقلين من الحاجة إلى ما أودع الله في الموجودات وفي الناس بعضهم لبعض قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي لا يشوبه فساد ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] أي لا يذل إلاً لله لا لغيره وأمر أن نعبده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وهو الدين المستخلص من أيدي ربوبية الأكوان، فإذا لم ير شيئاً سوى الله وأنه الواضع أسباب المضار والمنافع لجأ إلى الله في دفع ما يضره ونيل ما ينفعه من غير تعيين سبب فهذا معنى الإخلاص، ولا يصحّ وجود الإخلاص إلاً من المخلصين بفتح اللام، فإن الله إذا اعتنى بهم استخلصهم من ربوبية الأسباب التي ذكرناها، فإذا استخلصهم كانوا مخلصين بكسر اللام، وإنما أضاف إليهم الإخلاص ابتلاءً ليرى هل يحصل لهم امتنان بذلك على الحق أم لا؟ وقد وجد في قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ فإن منّوا بذلك وبخوا ونبهوا بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] في دعواكم أنكم مؤمنون فعراهم من هذه الصفة أن تكون لهم كسباً، فينبغي للعاقل أن لا يأمن مكر الله في إنعامه، فإن المكر فيه أخفى منه في البلاء، وأدنى المكر فيه أن يرى نفسه مستحقاً لتلك النعمة وأنها من أجله خلقت فإن الله ليس بمحتاج إليها فهي لي بحكم الاستحقاق، هذا أدنى المكر الذي تعطيه المعرفة، ويسمّى صاحبه عارفاً في العامة وهو في العارفين جاهل، إذ قد بيّنا فيما قبل أن الأشياء إنما خلقت له تعالىٰ لتسبح بحمده، وكان انتفاعنا بها بحكم التبعية لا بالقصد الأول، ففطر العالم كله على تسبيحه بحمده وعبادته، ودعا الثقلين إلى ذلك، وعرف أن لذلك خلقهم لا لأنفسهم ولا لشيء من المخلوقات مع ما في الوجود من وقوع الانتفاع بها بعضها من بعض. وقال تعالىٰ في الحديث الغريب الصحيح: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**» فطلب من عباده إخلاص العمل له، فمنهم من أخلصه له جملة واحدة فما أشرك في العمل بحكم القصد فما قصد به إلاّ الله، ولا أشرك في العمل نفسه بأنه الذي عمل بل عمله خلق لله، فالأول عموم والثاني خصوص وهو غاية الإخلاص، ولا يصحّ إخلاص إلاّ مع عمل أعني في عمل، فإنه لا بدّ من شيء يكون مستخلصاً بفتح اللام وحينئذ يجد الإخلاص محلاً يكون لذلك العمل يسمّى به العمل خالصاً والعامل مخلصاً، والله الموفق لذلك.

الباب الخامس والثلاثون ومائة

في معرفة ترك الإخلاص وأسراره

[نظم: السريع]

مـن أخْـلَـصَ الـديـنَ فـقـد أشْـرَكَـا ... وقَـيَّـدَ الـمُـطْـلَـقَ مـن وَصْـفِـهِ

مـن يَـجْـهَـلِ الأمـرَ فـذاك الـذي ... يُـدرك ذاتَ الـمِـسْـك مـن عَـرْفِـهِ

قال رجل للجنيد: ومن العالم حتى يذكر مع الله وكان من أهل الأحوال وقال تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٠] وقال بعضهم: رؤية الإخلاص منك في العمل مجوسية محضة يريد الشرك، وإنما ينبغي أن يشاهد المكلف مجرى العمل ومنشئه، وكان أبو مدين يأمر أصحابه بإظهار الطاعات فإنه لم يكن عنده فاعل إلاّ الله، والتخليص يوذن بالمنازع ولا بدّ للمنازع أن يطلب من المكلف أن يكون عبداً له، والعمل من جملة أفعال الله الذي المكلف مظهرها، فأجهل الناس من يجعل موجد الفعل تحت طاعة من يفعل من أجله وهو إمّا إبليس وإمّا الرياء إذا كان المكلف يقوم إلى العمل بهذه النية والمنازع ما هو هناك، فالمخلص أثبت العدم وجوداً وجهل الأمر على ما هو في نفسه، فمن حكم عليه ما ذكرناه ورأى نواصي كل دابة بيد الله ورأى ربه على صراط مستقيم، ومن أخذ بناصيتك لم يعدل بك عن طريقه الذي هو عليه، فإذن لم يكن الإخلاص إلاّ عبارة عن رؤيته في مشهد ما معين لا في كل مظهر وهو في كل مظهر، ولا يقدر صاحب هذه الحال أن يرى حجاباً بينه وبين مشهوده، فلا يتمكن له أن يميز شيئاً من شيء، فإن العين واحدة وهي على صراط مستقيم.

الباب السادس والثلاثون ومائة

في معرفة مقام الصدق وأسراره

[نظم: السريع]

الصِّدْقُ سيفُ الله في أَرْضِهِ فاصدُقْ تَرَى الصادقَ من عَرْضِهِ

فإن أتى الدجَّالُ فاضربْ به هامَتَه بالحدِّ من عَرْضِهِ

فالسيفُ محصورٌ بحدَّيْهِ في نَفْلِ من الفعل وفي فَرْضِهِ

ولا تَقُلْ هذا محالٌ فقد يَفْرِضُهُ الفارضُ في فَرْضِهِ

فكم غَنيٌّ يُظْهِرُ الفقرَ إذ يَسْتَقْرِضُ المسكينَ من قَرْضِهِ

الصدق شدة وصلابة في الدين، والغيرة لله من أحواله، ولصاحبه المتحقق به الفعل بالهمة وهو قوّة الإيمان، قيل لأبي يزيد: ما اسم الله الأعظم الذي به تنفعل الأشياء؟ فقال: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم ما هو إلاَّ الصدق أصدق وخذ أي اسم شئت أسماء الله كلها عظيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] أي أصدق حبّاً لله من حبّ المشركين لمن جعلوهم شركاء والصادق من أسمائه، وقال تعالىٰ: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٨] ولهذا له الدعوى، فلا يكون الصادق صادقاً ما لم يقم الصدق به، فإذا قام به كان له ذوقاً وكان كونه صادقاً حال صدقه وهو قد تسمّى بالصادق، فلهذا يسألهم هل صدقهم هو النعت الإلهي الذي به تسمّى الله بالصادق أم لا؟ فإن كان هو طالبهم بأن يقوموا بأحكامه قيامه، فلا يغلبهم شيء ولا يقاومهم في حال صدقهم، فيكون الله صدقهم كما كان سمعهم وبصرهم النسبة واحدة، فإن لم يحكموا هذا المقام ولا وجدوا منه هذه الحال فما هو هذا الصدق الذي هو النعت الإلهيّ، بل هو أمر ظهر بصورة الصدق ظهور الشبهة بصورة الدليل، وكما لا وجه للشبهة لا حقيقة لهذا الصدق، وهذا معنى قول الله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] فلا يؤثر فيهم عوارض يوم القيامة، بل تخاف الناس ولا يخافون، وتحزن الناس ولا يحزنون، وقال في حق طائفة: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [سورة محمد: الآية ٢١] هذا حكمه في النطق فكيف في جميع الأحوال؟

والصدق إذا جاء من خارج جاء بغير صورته، فإنه ظهر في مادة إمكانية فلم يؤثر أثراً في كل من جاء إليه، فإن كان في المحل صدق الإيمان ميّزه وعرفه في المادة التي ظهر فيها فقبله وعمل بمقتضاه فكان نوراً على نور ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] كما زاد من ليست له حالة الصدق ﴿رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٥] والصدق بذاته مؤثر حيث ظهر عينه ظهر حكمه، ومن ليست له هذه الحال المؤثرة في الوقت فهو غائب عن صدقه في ذلك الوقت ولا بدّ ويدعيه من مكان بعيد. فالصدق من حيث تعلّقه بالكون هو حال، ومن حيث تعلّقه من الصادق بالله هو مقام، فمن حيث هو مقام لا يكون عنه أثر فإن تعلّقه بالله، والله ليس بمحل لتأثّر الأكوان فليكون صاحبه صادق التوجّه إلى الله، فإن ظهر عمّن هذه صفته

أثر في الكون فعن غير تعمّل ولا قصد، إنما ذلك إلى الله يجريه على لسانه أو يده ولا علم له به، فإن أثر على علم وادّعى أنه صادق مع الله فهو إمّا جاهل بالأمر وإما كاذب وهذا ليس من صفة أهل الله، فحال الصدق يناقض مقامه، ومقامه أعلى من حاله في الخصوص، وحاله أشهر وأعلى في العموم، وكان للإمام عبد القادر على ما ينقل إلينا من أحواله حال الصدق لا مقامه وصاحب الحال له الشطح وكذلك كان رضي الله عنه، وكان للإمام أبي السعود بن الشبلي تلميذ عبد القادر مقام الصدق لا حاله، فكان في العالم مجهولاً لا يعرف ونكرة لا تتعرف، نقيض عبد القادر عجزاً محققاً لتمكنه في مقام الصدق مع الله، كما كان عبد القادر محققاً متمكناً في حال الصدق فرضي الله عنهما، فما سمعنا في زماننا من كان مثل عبد القادر في حال الصدق، ولا مثل أبي السعود في مقام الصدق، فالصدق الذي هو نعت إلهيّ لا يكون إلاً لأهل الله، والصدق الذي في معلوم الناس سار في كل صادق من مؤمن وكافر، وهذا الصدق للصدق الإلهيّ كالظل للشخص فهو ظله، ولهذا يظهر أثره في كل صادق من كل ملة ولو لم يكن ظلاله ما صحّ عنه أثر، فاجعل بالك لما أشرنا إليه وبسطناه، فالناس عنه في عماية وعن أمثاله من المقامات والأحوال: [الوافر]

فلولا الصدقُ ما كان الوجودُ ولولاه لما كان الشُّهودُ

الباب السابع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام ترك الصدق وأسراره

[نظم: البسيط]

الصِّدقُ يَخْرجُ عن ضَعْفِ العُبُودة إذ هو الصدوقُ الشديدُ القَهْرِ للنفْسِ
وكلُّ ما حالَ بين العبد في طَبَقٍ وضَعْفِهِ فاتركْنُهُ خِيْفَةَ اللَّبْسِ
إذ ليس يَقْهَرُ إلاَّ من يماثِلُهُ ولا يماثِلُه شخصٌ من الإنْسِ
وهو الأتمُّ وجوداً من مُغَايِرِهِ وكلُّ غَيْرٍ ففي قَيْدٍ وفي حَبْسِ
فإنه أَحَدٌ وخَلْقُهُ عددٌ والفَضْلُ ليس له حُكمٌ بلا جِنْسِ

لما كان الصدق يطلب المماثلة وإن كان محموداً فرجال الله أنفوا من الاتصاف به مع حكمه فيهم وظهور أثره عليهم، غير أنه ليس مشهوداً لهم، ثم نظروا إليه من كونه نعتاً إلهياً فلم يجدوا له عيناً هناك ورأوا تعلق الصدق الإلهيّ إنما هو فيما وعد لا في كل ما أوعد. ومن شرط النعت الإلهيّ عدم التقييد فيما هو متعلق له، فعلموا أنه نعت إضافي لاختصاصه ببعض متعلقاته، فلما رأوه على هذا أوجبوا ترك مشاهدته فإنهم كالناظرين في أمر معدوم لا وجود له، والصدق وإن كان نسبة وليست له عين موجودة فله درجات، فدرجاته في العارفين من أهل الأسرار مائة وخمس وتسعون درجة، وفي العارفين من أهل الأنوار مائتان وخمس وعشرون، وفي الملامية من أهل الأسرار مائة وأربع وستون درجة، وفي الملامية من أهل الأنوار مائة وأربع وتسعون درجة، وأنا أعطيك أصلاً مطرداً في كل ما أذكره من ترك كل ما نثبته إنما أريد بذلك

ترك شهوده لا ترك أثره، فإن حكمه لا يتمكن أن يقول فيه ليس فإنه موجود مشهود لكل عين، فعلى هذا تأخذ كل ما أذكره في هذا الكتاب من التروك فاعلم ذلك.

الباب الثامن والثلاثون ومائة

في معرفة مقام الحياء وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الحَياءَ من الإيمان جاء به	لَفظُ النبيّ وخَيرٌ كلُّهُ فبهِ
فليتَّصِفْ كل من يَرْعَى مَشَاهِدَهُ	وليس يعرف هذا غيرُ مُنْتَبِهِ
مُسْتَيْقِظٍ غيرِ نوّامٍ ولا كَسِلٍ	مُرَاقِبٍ قَلْبَهُ لدى تَقَلُّبِهِ
إن الحييَّ من اسماء الإله وقد	جاء التخلُّق بالأسماء فاحْظَ بهِ

ورد في الخبر أن الحييّ اسم من أسماء الله تعالىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] يعني في الصغر، وهو من صفات الإيمان ومن صفات المؤمن، ومن أسمائه تعالىٰ المؤمن، فالحييّ نعت للمؤمن، فإن الحياء من الإيمان، والحياء خير كله، والحياء لا يأتي إلاّ بخير، وهذه كلها أخبار صحيحة، وحقيقتها أعني هذه الصفة الترك لأن الترك من كل موجود بقاء على الأصل، والعمل فرع وجودي زائد على الأصل، فلهذا قيل فيه خير كله فالحياء نعت سلبي، فالعبد إذا ترك ما لله لله وما يقول الكون إنه للعبد من الأمور الوجودية يتركه أيضاً لله على حقيقة ما يترك ما هو لله بالإجماع من كل نفس لله، فقد استحيا من الله حق الحياة، ومن ترك ما لله لله خاصة فقد استحيا من الله ولكن لا حق الحياء، وذلك أن النعوت التي نعت الحق بها نفسه من المسمّى أخبار التشبيه وآيات التشبيه على ما يزعم علماء الرسوم وأنه تنزّل إلهيّ رحمة بالعباد ولطفاً إلهياً، وهو عندنا نعت حقيقي لا ينبغي إلاّ له تعالىٰ، وأنه في العبد مستعار كسائر ما يتخلق به من أسمائه فإنه ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] بالمستهزئين من عباده باستهزاء ومكر هو له ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٥] وهو لا يصف نفسه بالحوادث، فدل أن هذه النعوت بحكم الأصالة لله، وما ظهرت في العبد الإلهيّ إلاّ لكونه خلق على الصورة من جميع الوجوه.

ولما عرف العارفون هذا ورأوا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهذه النعوت الظاهرة في الأكوان التي يعتقد فيها علماء الرسوم أنها حق للعبد من جملة الأمور التي ترجع إلى الله تركوها لله لاستحيائهم من الله حق الحياء وهو من نعوت الاسم المؤمن، والمؤمن المصدق بأن هذه النعوت له أزلاً، وإن لم يظهر حكمها إلاّ في المحدثات فالحياء يدخل في الصدق ولهذا قال: الحياء من الإيمان.

وأما قوله ﷺ في الحياء: «**إِنَّهُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيرٍ**» فهي كلمة صحيحة صادقة، فإن البقاء على الأصل لا يأتي إلاّ بخير فإنها لا تصحبها دعوى، فهو قابل لكل نعت إلهيّ يريد الحق أن

ينعته به، وما في المحل ضد يرده ولا مقابل يصده، فيبقى الحق يفعل ما يريد بغير معارض ولا منازع. وأما نعت الحق به فهو تركه العبد يتصف بنعوت الحق ويسلمها له ولا يخجله فيها بل يصدقه ويعلي بها رتبته ولا يكذبه في دعواه فإنه مجلاه فهذا من كون الحق حيًّا.

ورد في الخبر أن شيخاً يوم القيامة يقول الله له: يا عبدي عملت كذا وكذا، لأمور لم يكن ينبغي له أن يعملها، فيقول: يا رب ما فعلت، وهو قد فعل، فيقول الحق: سيروا به إلى الجنة، فتقول الملائكة التي أحصت عليه عمله: يا ربنا ألست تعلم أنه فعل كذا وكذا؟ فيقول: بلى ولكنه لما أنكر استحييت منه أن أكذب شيبته. فإذا كان الحق يستحي من العبد أن يكذب شيبته ويوقره فالعبد بهذه الصفة أولى، وللحياء درجات عند العارفين وعند الملاميين فدرجاته في العارفين إحدى وخمسون درجة، وفي الملاميين عشرون درجة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثاني ومائة.

(الجزء الثالث ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل: لما كان الحياء صفة تنسب إلى الإيمان فهو من ذات الإيمان، كان أثره من ظاهر صورة الإنسان في الوجه، إذ الوجه ذات الشيء وعينه وحقيقته، فالحياء ينقسم كما ينقسم الإيمان إلى بضع وسبعين شعبة، أرفعها لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والمناسبة بين العالي والدون أن الشرك أذى في طريق التوحيد إماطته الأدلة العقلية والإنباءات الشرعية لما جعلته في طريق التوحيد الشبه المضلة والأهواء الشيطانية، وصورة الحياء الذي يدرك الموحد في توحيده ويزيل الأذى من طريق الخلق تلفظه بنفي الإله قبل وصوله إلى إيجابه إلى من يستحقه وهو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ والنفي عدم فوقع الحياء من العبد المؤمن حيث بدأ بالعدم وهو عينه، لأن المحدث نعته تقدم حال العدم عليه، ثم استفاد الوجود الذي هو بمنزلة الإيجاب لما وقع عليه النفي ولم يتمكن للمحدث أن يقول إلاّ هذا لأنه لا يصحّ العدم بعد الوجود ولا النفي بعد الإثبات، فإنه لو تجلّى له الحق ابتداء لم ينفه في الشريك لأنه كان يراه عينه لو كان له وجود، وإن لم يكن له وجود فيكون نظر الموحد عند وقوعه على وجود الحق لا يتمكن أن يرى مع هذا الوجود عدماً، فكان لا يتلفظ بكلمة التوحيد أبداً ولا يرى نفسه أبداً، فمن رحمة الله تعالىٰ بالإنسان أنه أشهده أولاً نفسه فرأى في نفسه قوى ينبغي أن لا تكون إلاّ لمن هو إله، فلما حقق النظر بعقله ونظر إلى العوارض الطارئة عليه بغير إرادته ومخالفة أغراضه ووجد الافتقار في نفسه علم قطعاً أن عين وجوده شبهة، وأن هذه الصفات لا ينبغي أن تكون لمن هو إله، فنفى تلك الألوهة التي قامت له من نفسه فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ثم إنه لما أمعن النظر وجد نفسه قائماً بغيره غير مستقل في وجوده فأوجب فقال عند ذلك: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلما أثبت نظر إلى هذا الذي أثبته فرآه عين صورة ما نفاه مرتبطاً به ارتباط الظل بالشخص بنور العلم الذي فتح عينه إلى هذا الإدراك، وقد كان نفاه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فاستحى

كيف أطلق ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ولهذا جعلته طائفة من أذكار العموم، وكان بعض شيوخنا لا يقول في ذكره سوى لفظة الله كان لا يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣٥] فسألته عن ذلك فقال: إن روحي بيد الله ما هي في حكمي وفي كل نفس أنتظر الموت واللقاء، وكل حرف من حروف الكلام نفس، فيمكن إذا انصرف أن تكون المفارقة في انصرافه ولا يأتي من الله بعده نفس آخر، فإذا قلت: لا، أو عشت حتى أقول: لا إله ثم أفارق قبل الوصول إلى الإيجاب فأقبض في وحشة النفي لا في أنس الإيجاب فلهذا عدلت إلى ذكر الجلالة إذ ليس لي مشهود سواه، فمن كان هذا حاله فلا بد أن يستحي في قوله: لا إله إلاَّ الله وهو أشد الحياء فكانت أرفع شعب الإيمان، فكانت أرفع شعب الحياء من الله حيث نظر إلى نفسه قبل نظره إلى خالقه وهو قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] إذ كان عين ما نفى عين ما أثبت، فإنه ما نفى إلاَّ الإله، ولا أثبت إلاَّ الإله.

وأما حياؤه في إماطته الأذى عن طريق الخلق فإنه مأمور بإماطته، ثم إنه يرى وجه الحق فيه بالضرورة لأنه أدنى المراتب فهو بمنزلة الآخر من الأسماء الإلهية وإليه ينظر كما كان لا إله إلاَّ الله الاسم الأول وجاءت الهوية فأخذت الاسمين لها فقالت: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فبقي متردداً بين حق ما يستحقه الاسم الآخر الظاهر في كون هذا أذى في طريق الخلق ويرى أن الخلق متصرفون بأسماء إلهية بين هذين الاسمين، فلا تقع عين هذا المؤمن إلاَّ على الله أولاً وآخراً وما بينهما والأمر متوجه عليه بالإماطة، فيستحي من الأمر أن لا يبادر لما أمره به من الإماطة، ويستحي من الاسم الآخر الذي يراه في عين الأذى، فإذا أدركه هذا الحياء ناداه الاسم من الأذى: يا فلان بي تميط هذا الأذى عن طريق الخلق فأنا في الأذى كما أنا في الإماطة ما أزلته بغيري فلا تستحي، انظر في قوله: أدناها إماطة الأذى فعلق الأذى بالإماطة وهو آخر درجات الإيمان، فنحن في عين الإماطة ما نحن غيرها، فيتجبر عند ذلك صاحب هذه الحال فيميطه به كما نفى الإله بالإله.

وإذا كان حال العبد في حيائه من الله في الأول والآخر والأعلى والأدون انحصرت المتوسطات بين هذين الطرفين، فكان معصوم الحال محفوظ المقام كالصلاة تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، فظهرت المنة في الطرفين ليسلم الوسط بينهما وسبب ذلك الحصر فتبين لك بعدما أوقفتك عليه من الحقائق أن الحياء من الله أن يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، فعمّ بهذا جميع شعب الإيمان وهو مقام يصحبه الأمر والنهي والتكليف، فإذا انقضى زمان التكليف كان ينبغي له أن يزول وليس الأمر كذلك، فاعلم أنه من حقيقة وجود الحياء وجود العلم بما يجب لله تعالىٰ وأنت القائم به والمطلوب عقلاً وشرعاً، ومحال أن يقدر مخلوق على الوفاء بما يجب لله تعالىٰ عليه من تعظيمه عقلاً وشرعاً، ولا بد له من لقاء ربه وشهوده ومقامه هذا، فالحياء يصحبه في الدنيا والآخرة لأنه لايزال ذاكراً لما يجب عليه، وذاكراً لعدم قيامه في حق الله بما يجب له، وقد ورد في الخبر ما يؤيّد هذا أن الحق إذا تجلّى لعباده يوم الزور الأعظم ويرفع

الحجب عن عباده، فإذا نظروا إليه جلّ جلاله قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، فهذا الاعتراف أوجبه الحياء من الله عزّ وجلّ، فالحياء أنطقهم بذلك.

الباب التاسع والثلاثون ومائة

في معرفة مقام ترك الحياء

[نظم: الكامل]

تَـرْكُ الـحـيـاء تـحـقُّـقٌ وتَـخَـلُّـقٌ | جـاءت بـه الآيـاتُ فـي الـقـرآنِ
فـلـه الـنَّـفَـاسَـةُ والـنـزاهـةُ عـنـدنـا | إذ لا تُـخَـافُ بـمـنـزل الـعُـذْوانِ
هـذي هـي الـدنـيـا وأنـتَ إمـامُـهـا | وعـبـيـدُهـا بـالـنَّـقْـص والـرَّجـحَـانِ
فـإذا فـهـمـتَ الأمـر يـا هـذا فـكُـنْ | مـثـلَ الـلـسـان بـقـيَّـةَ الـمـيـزانِ
لا تَـعْـدِلَـنَّ إلـى الـشـمـال فـإنـه | نَـقْـصٌ ومِـلْ طـلـبـاً إلـى الأَيْـمـانِ
فـهـوَ الـكـمـالُ لـمـن تـحـقَّـق حَـالـةَ الـ | إسـلام والإيـمـان والإحـسـانِ

ترك الحياء في موطنه نعت إلهيّ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] وسبب ذلك من وجهين: إما أن يكون ما في الوجود إلاّ الله فالوجود كله عظيم فلا يترك منه شيء لأنّ الحياء ترك فهو نعت سلبي وترك الترك تحصيل فهو نعت ثبوتي، فلا إله نعت سلبي وإلاّ الله نعت ثبوتي، فما جئنا بالسلب إلاّ من أجل الإثبات، فما جئنا بالحياء إلاّ من أجل تركه، فإن الحياء للتفرقة، وترك الحياء لأحدية الجمع لا للجمع هذا هو الوجه الواحد. وإما أن يكون في الوجود أعيان الممكنات التي لا قيام لها إلاّ بالله، فينبغي أن لا يترك شيء منها لارتباط كل شيء منها بحقيقة إلهية هي تحفظه، وقد ثبت أن الممكنات لا تتناهى، فالحقائق والنسب الإلهية لا نهاية لها، ولا يصحّ أن يكون في الإلهيات تفاضل لأن الشيء لا يفضل نفسه، ولا مفاضلة في هذه الأعيان إلاّ بما تنتسب إليه لأنه لا فضل لها من ذاتها ولا مفاضلة هناك فلا مفاضلة هنا، فكما هو الأول هو الآخر، كذلك العقل الأوّل الجماد، وكما هو الظاهر هو الباطن، كذلك ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٣] فما ثم تافه ولا حقير، فإن الكل شعائر الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢، ٣٣] زمان نظركم في نفوسكم بها، والأجل المسمى هو أن يكشف لكم عنكم أنكم ما هم أنتم إذ من حقيقته عدم الوجود فالوجود له معار، فإذا تبين لك أنكم ما هو أنتم وهو الأجل المسمى كان محلها وهو محلها إلى البيت العتيق وهو القديم الذي لا يقبل الحدوث، فرأيتم أن الصفة تطلب موصوفها، فزلتم أنتم من كونكم شعائر الله، وصار الحق دليلاً على نفسه، إذ كان من المحال أن يدل شيء على شيء دلالة علم محقق فلا أدل من الشيء على نفسه، ولهذا إذا حددت الأمر الظاهر ترده غامضاً ولهذا لا تطلب حدود الأمور الظاهرة، كمن يطلب حدّ النهار وهو فيه وهو أوضح الأشياء لا يقدر أن يجهله، وإذا كان الأمر كما ذكرنا فلا يستحي فلا حياء ولا حكم له بل يضرب الأمثال

ويقيم الإشكال ويعلم لمن يخاطب ومن يفهم عنه ممّن لا يفهم ولكل فهم، فلو وجد عند السامع ما هو أخفى من البعوضة لجاء بها كما قد جاء بذلك مجملاً بقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] فأمرك وعلمك في هذه الآية أن لا تترك شيئاً إلاَّ وتنسبه إلى الله، ولا يمنعك حقارة ذلك الشيء ولا ما تعلق به من الذم عرفاً وشرعاً في عقدك، ثم تقف عند الإطلاق فلا تطلق ما في العقد على كل شيء ولا في كل حال وقف عند ما قال لك الشارع: قف عنده، فإن ذلك هو الأدب الإلهي الذي جاء به الشرع والأدب جماع الخير، وفي إيراد الإلفاظ يستعمل الحياء لأنك تترك بعضها كما أمرت، وفي العقد لا تترك شيئاً لا تنسبه إلى الله وهو مقام ترك الحياء، فعامل الله تعالى بحسب المواطن كما رسم لك ولا تنازع ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فإنك إذا قلت ذلك لم تزل في مزيد جانياً ثمرة الوجوب.

الباب الأربعون ومائة

في معرفة مقام الحرية وأسراره وهو باب خطر

[نظم: البسيط]

عَبْدُ الهوى آبقٌ عن ملك مَوْلاهُ ... وليس يخرج عنه فهو تَيَّاهُ
الحرُّ من مَلَكَ الأكوانَ أجمَعَهَا ... وليس يملكُه مالٌ ولا جَاهُ
فإن تعرَّضَ للتكوين أبطَلَ ما ... قد كان من أصله من ملْكِ مَوْلاهُ

اعلم وفّقك الله أن الحرية مقام ذاتي لا إلهيّ ولا يتخلص للعبد مطلقاً فإنه عبد الله عبودية لا تقبل العتق، وأحلناها في حق الحق من كونه إلهاً لارتباطه بالمألوه ارتباط السيادة بوجود العبد والمالك بالملك والملك بالملك، انظر في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] فنبّه بإتيان قوم آخرين على هذا الارتباط، فإنه يلزم من حقيقة الإضافة عقلاً ووجوداً تصوّر المتضايفين، فلا حرية مع الإضافة والربوبية والألوهية إضافة، ولما لم يكن بين الحق والخلق مناسبة ولا إضافة بل هو ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وذلك لا يكون لذات موجودة إلاَّ لذات الحق، فلا يربطها كون، ولا تدركها عين، ولا يحيط بها حدّ، ولا يفيدها برهان، وجدانها في العقل ضروري، كما أن نفي صفات التعلق التي تدخلها تحت التقييد نظري، فإذا أراد العبد التحقق بهذا المقام فإنه مقام تحقق لا مقام تخلق، ونظر أنه لا يصحّ له ذلك إلاَّ بزوال الإفتقار الذي يصحبه لإمكانه، ويرى أن الغيرة الإلهية تقتضي أن لا يتصف بالوجود إلاَّ الله لما يقتضيه الوجود من الدعوى، فعلم بهذا النظر أن نسبة الوجود إلى الممكن محال، لأن الغيرة حدّ مانع من ذلك فنظر إلى عينه فإذا هو معدوم لا وجود له وأن العدم له وصف نفسي فلم يخطر له الوجود بخاطر فزال الافتقار وبقي حراً في عدميته حرية الذات في وجودها.

ثم إنه أراد أن يعرف ما يناسب الأسماء الإلهية التي لهذه الذات من ذات الممكن المعدوم، فرأى أن كل عين من عيون الممكنات على استعداد لا يكون في غيره ليقع التمييز بين

الأعيان، فما وقع بين ذات الممكن وذات الحق بالوجود للحق الواجب والعدم للممكن الواجب فجعل هذه الاستعدادات له بمنزلة الأسماء للحق والوجود في أعيان الممكنات لله تعالىٰ، فإذا ظهر في عين من أعيان الممكنات لنفسه باسم ما من الأسماء الإلهية أعطاه استعداد تلك العين اسماً حادثاً تسمى به فيقال: هذا عرش، وهذا عقل، وهذا قلم ولوح وكرسي وفلك وملك ونار وهوى وماء وأرض ومعدن ونبات وحيوان وإنسان ما بين أجناس وأنواع.

ثم سرت هذه الحقيقة في الأشخاص فيقال: زيد وعمرو، وهذا الفرس، وهذا الحجر، وهذه الشجرة، هذا كله أعطاه استعداد أعيان الممكنات، فاستدللت بآثارها في الوجود على ما هي عليه من الحقائق في ذاتها، كما استدللت بآثار الأسماء في الوجود على الأسماء الإلهية، وما للمسمّى عين يقع عليها الإدراك، فإذا وقف الممكن مع عينه كان حراً لا عبودية فيه، وإذا وقف مع استعداداته كان عبداً فقيراً، فليس لنا مقام في الحرية المطلقة إلاَّ أن يكون مشهدنا ما ذكرناه فلا تحدّث نفسك بغير هذا، ومن لا يشهد هذا المقام فإنه لا يعلم أبداً مدلول قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو غني عن الدلالة عليه، إذ لو أوجد العالم للدلالة عليه لما صحّ له الغنى عنه، فعالم المعرفة من نصب العالم دليلاً وعلى من يدل، وهو أظهر وأجلى من أن يستدل عليه بغير أو يتقيد تعالىٰ بسوى، إذ لو كان الأمر كذلك لكان للدليل بعض سلطنة وفخر على المدلول، ولو نصّبه المدلول دليلاً لم ينفك هذا الدليل عن مرتبة الزهو بكونه أفاد الدال به أمراً لم يتمكن للمدلول أن يوصل إليه إلاَّ به، فكان يبطل الغنى والحرية وهما ثابتان لله تعالىٰ، فما نصب الأدلة عليه وإنما نصبها على المرتبة ليعلم أنه لا إله إلاَّ هو، فهذا لسان الخصوص في الحرية. وأما لسان العموم فالحرية عند القوم من لا يسترقه كون إلاَّ الله فهو حر عن ما سوى الله، فالحرية عبودة محققة لله، فلا يكون عبداً لغير الله الذي خلقه ليعبده فوفى بما خلق له فقيل فيه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] أي رجاع إلى العبودة التي خلق لها لأنه خلق محتاجاً إلى كل ما في الوجود، فما في الوجود شيء إلاَّ ويناديه بلسان فقر هذا العبد: أنا الذي يفتقر إليّ فارجع إليّ، فإذا كان عالماً بالأمور علم أن الحق عند من ناداه وأنه فقير إلى ذلك السبب لكونه مستعداً لهذا الفقر إليه فإذا بحقيقته افتقر، ثم نظر إلى معطي ما هو محتاج إليه في هذا السبب فرآه الاسم الإلهيّ فما افتقر إلاَّ إلى الله من اسمه ولا افتقر إلاَّ بنفسه من أثر استعداده، فعلم ما الفقر ومن افتقر ومن افتقر إليه؟ فلهذا أمر ﷺ أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فقد نبهتك على ما فيه كفاية في الحرية وأسرارها ممّا لا تجده في غير هذا الكتاب من مصنفات غيرنا.

الباب الواحد والأربعون ومائة

في مقام ترك الحرية

[نظم: البسيط]

مَن ليس ينفكُّ عن حاجاته أبداً ... كيف التحرُّرُ والحاجاتُ تَطْلُبهُ

فهو الفقيرُ إلى الأشياء أجمَعِها — فالفقرُ مذهبُه والفقر مَكْسَبُهُ
لذا تَسَمَّى بأعيان الكيان لنا — حتى تعيَّنَ في المنطوق مَذْهَبُهُ
فليس في الكون حرٌّ حيث يطلبنا — من كل وجهٍ ومنه نحن نطْلُبُهُ

اعلم وفّقك الله أن ترك الحرية عبودة محضة خالصة تسترق صاحبها الأسباب لتحققه بعلم الحكمة في وضعها فهو يذل تحت سلطانها، فصاحبها كالأرض يطؤها البر والفاجر، وتعطي منفعتها المؤمن والكافر تؤثر فيه تأثير الدعاء من الكون في الحق إجابة دعائه تحققاً بمولاه حين رأى هذا المقام يصحبه مع الغنى المنسوب إليه، فكيف حال من يجوع مركبه ويعرى ويظمأ ويضحي وهو مأمور بحفظه والنظر في شأنه وما يصلحه قد ولاّه الله عليه وأنزله خليفة فيه وليس في قوّته أن يقوم بحقه إلاَّ أن تمكنه الأسباب من نفسها، فبالضرورة يخضع في تحصيلها لأداء حق الله فيه المتوجه عليه، فإن الله يقول له: إن لنفسك عليك حقاً، ولعينك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ومن توجهت عليه الحقوق فأنى له الحرية: [مخلع البسيط]

فكلُّ كون عليه حَقٌّ — فهو عبيدٌ لذلك الحَقْ
وليس حراً فكنْ عليماً — به خبيراً كَمَنْ تَحَقَّقْ
ولا تَكُنْ مثل من تأبَّى — عن أمر مولاه إذ تَخَلَّقْ
الله ربٌّ وأنت عبدٌ — له فكنه فالكون أسْبَقْ
قد قلتُ ذا حين كان سمعي — ومقولي حين كنتُ أَنْطُقْ
ومن يكُنْ مثْلَ ما ذكرنا — فذلك العالِمُ الموفَّقْ

فهو عبد نفسه ما دامت تطلبه بحقها، وعبد عينه ما دام يطلبه بحقه، وعبد زوره ما دام يطلبه بحقه، والنعم الإلهية تطلبه بشكر المنعم بها عليه، والتكليف قائم، والاضطرار لازم، إن رام دفعه لا يندفع يؤثر فيه المدح والثناء فيقول: الحمد لله المنعم المفضل، ويملكه الذمّ والجفاء والأذى فيقول: الحمد لله على كل حال، فتغير حمده لتغير الأحوال، فلو تغيرت الأحوال لتغير حمده لكان حراً عنها، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق: «**مَا أَخرَجَكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الجُوعُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَنَا أَخرَجَنِي الجُوعُ**»، فجاء مع من كان معه من أصحابه إلى دار الهيثم بن أبي التيهان فذبح لهم وأطعمهم فما أخرجهم إلاَّ من حكم عليهم لما توجه له حق عليهم وهو الجوع، والجوع أمر عدمي فموجود يؤثر فيه المعدوم كيف حاله مع الموجود، ومثل هؤلاء المشهود لهم بالحرية ولهذا الذوق ما خرجوا إلاَّ لطلب أداء ما عليهم من الحقوق لأنفسهم، فقد استرقهم الجوع ولو لم يخرجوا وسكنوا لكانوا تحت قهر الصبر وما تطلبه هذه الحال، فغاية نسبة الفضل إليهم أنهم خرجوا كما قلنا يلتمسون أداء حقوق نفوسهم بالسعي فيها إذ كانوا متمكنين من ذلك وأعلى من هذا فلا يكون، فإن قعدوا مع التمكن اتصفوا بالظلم والجهل بالحكم الإلٰهي، وأنى تعقل الحرية فيمن هذه صفته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فواقع لا يقدر على إنكاره جحده ويجحده من نفسه وإن لم يركن إلى الأسباب ولا يعتمد عليها، وغايته أن يعتمد على الله في استعمالها فهو عبد معلول لأنه توجه خاص، وكذلك في الآخرة

عبد شهوته لكونه تحت سلطانها تحكم فيه، ولا معنى للعبودية إلاَّ هذا دخوله تحت الأحكام ورق الأسباب.

ولما أبصر هذا العارف من نفسه علم أن الحرية حديث نفس وحال عرضي لا ثبات له مع الصحو، ثم إن ترك الحريّة نعت إلهيّ فكيف يصحّ له الخروج عنه وغايته أن يكون فيه بصورة حق يلتمس الدعاء ويطلب التوبة من عباده وسؤال المغفرة منهم ويذمّهم إن لم يأتوا بما التمسه منهم حتى قال: لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يتوبون فيغفر لهم، فقد نبهتك عن أسرار هذا المقام، إن وقفت معها عرفت نفسك وعرفت ربك وما تعدّيت قدرك، وإن كان للحريّة درجات في عباد الله فغير الأحرار أعظم عند الله درجة وأكمل وصفاً، والأصل معهم حفيظ يحفظ عليهم ترك الحريّة والاسترقاق لما تعطيه الحكمة. فإن قلت: فكم للحريّة من الدرجات؟ فنقول: لها في العارفين من أهل الأنس ستمائة درجة وتسع وأربعون درجة. وفي العارفين من أهل الأدب أربع وخمسون درجة ومائتا درجة. وفي الملامية من أهل الأنس ستمائة وثمان عشرة درجة. وفي الملامية من أهل الأدب ثلاث وعشرون ومائتا درجة، وهذه الدرجات بأعيانها لمن ترك الحريّة وزيادة ما يعطيه الترك من الدرجات لقيامه بالحكمة وحفظ الأصل لإبقاء الحرية.

الباب الثاني والأربعون ومائة

في معرفة مقام الذكر وأسراره

[نظم: البسيط]

الذِّكرُ سترٌ على مذكوره أبداً ... وكلُّ ذكرٍ فأحوالٌ وأسماءُ

وليس ثَمَّ سوى ما قلته فإذا ... نظرْتَ فيه بدَتْ للعين أشياءُ

تدري بها كلَّ من قام الوجودُ به ... وذلك الحقُّ لا عَقْلٌ ولا مَاءُ

الذكر نعت إلهيّ وهو نفسي وملئي في الحق وفي الخلق، ومع كونه نعتاً إلهياً فهو جزاء ذكر الخلق قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] فجعل وجود ذكره عن ذكرنا إياه وكذلك حاله فقال تعالىٰ: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُمْ**» فأنتج الذكر الذكر، وحال الذكر حال الذكر، وليس الذكر هنا بأن نذكر اسمه بل لنذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من حيث دلالته على العين لا في حقك ولا في حقه. فإن قلت: فقد رجح أهل الله ذكر لفظة الله الله وذكر لفظة هو على الأذكار التي تعطي النعت ووجدوا لها فوائد. قلت: صدقوا وبه أقول ولكن ما قصدوا بذكرهم الله الله نفس دلالته على العين، وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهو من حيث إنهم علموا أن المسمّى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا تقيده الأكوان ومن له الوجود التام، فإحضار هذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم بذلك وقعت الفائدة فإنه ذكر غير مقيد، فإذا قيده بلا إله إلاَّ الله لم ينتج له إلاَّ ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده بسبحان الله لم يتمكن له

أن يحضر إلاً مع حقيقة ما يعطيه التسبيح، وكذلك الله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وكل ذكر مقيد لا ينتج إلاّ ما تقيد به لا يمكن أن يجني منه ثمرة عامّة، فإن حالة الذكر تقيده، وقد عرفنا الله أنه ما يعطيه إلاّ بحسب حاله في قوله: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي**» الحديث، فلهذا رجحت الطائفة ذكر لفظة الله وحدها أو ضميرها من غير تقييد، فما قصدوا لفظة دون استحضار ما يستحقه المسمّى، وبهذا المعنى يكون ذكر الحق عبده باسم عام لجميع الفضائل اللائقة به التي تكون في مقابلة ذكر العبد ربه بالاسم الله، فالذكر من العبد باستحضار، والذكر من الحق بحضور لأنا مشهودون له معلومون وهو لنا معلوم لا مشهود، فلهذا كان لها الاستحضار وله الحضور، فالعلماء يستحضرونه في القوّة الذاكرة، والعامة تستحضره في القوّة المتخيلة، ومن عباد الله العلماء بالله من يستحضره في القوّتين يستحضره في القوّة الذاكرة عقلاً وشرعاً، وفي القوّة المتخيلة شرعاً وكشفاً، وهذا أتم الذكر لأنه ذكره بكله، ومن ذلك الباب يكون ذكر الله له.

ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئاً إلاّ الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلاّ من الذكر قال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤١] وما أتى الذكر قط إلاّ بالاسم الله خاصة معرى عن التقييد فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وما قال بكذا، وقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] ولم يقل: بكذا، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٣] ولم يقل بكذا، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [سورة الحج: الآية ٣٦] ولم يقل بكذا. وقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٨] ولم يقل بكذا. وقال ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لا يَبْقَى عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهَ**» فما قيده بأمر زائد على هذا اللفظ لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا وكل دار يكونون فيها، فإذا لم يبق في الدنيا منه أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرب، وكم من قائل: الله باق في ذلك الوقت، ولكن ما هو ذاكر بالاستحضار الذي ذكرناه، فلهذا لم يعتبر اللفظ دون الاستحضار ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٦] لأنهم لم يسمعوا بذكر شركائهم واشمأزت قلوبهم هذا مع علمهم بأنهم هم الذين وضعوها آلهة ولهذا قال قل سموهم، فإنهم إن سموهم قامت الحجة عليهم، فلا يسمى الله إلاّ الله، ودرجات الذكر عند العارفين من أهل الله إحدى وخمسون وتسعمائة درجة وعند الملامية تسع مائة وعشرون درجة.

الباب الثالث والأربعون ومائة

في معرفة مقام ترك الذكر

[نظم: البسيط]

لا يترك الذكرَ إلاّ من يشاهده ... وليس يشهده من ليس يَذكرهُ

فقد تحيَّرْتُ في أمري وفيه فأيـ ... ـن الحقُّ بينهما عيناً فأوثِرُهُ

مـا إن ذَكَـرْتُـك إلاً قـام لـي عَـلَـمٌ فـحـيـن أبـصـره فـي الـحـيـن يَـسْـتُـرُهُ
فـلا أزال مـع الأحـوال أشـهـدُه ولا أزال مـع الأنـفـاس أذْكُـرهُ
ولا يـزال لـدَى الأعـيـان يَـشْـهَـدُني ولا يـزال مـع الأسـمـاء يَـظْـهَـر هُـو

لا يكتب هنا هو إلاً بالواو لتعرف الهوية لا أنه ضمير اعلم وفقك الله أن الذكر أفضل من تركه، فإن تركه إنما يكون عن شهود، والشهود لا يصحّ أن يكون مطلقاً والذكر له الإطلاق، ولكن الذكر الذي ذكرناه لا الذكر بالتسبيح والتهليل وغيره من الذكر المقيد، فلو كان ترك الذكر لا عن شهود كنا ننظر هل كان سبب تركه مما يقتضي الإطلاق فتحكم فيه بالتساوي والأحوال مقيدة بلا شك، وإن كان الإطلاق تقييداً لأنه قد تميز عن المقيد وسرى في المقيدات كيف ما قلت وبنفس ما تميز فقد تقيد بما تميز به فالإطلاق تقييد، وأعظم ما يقال فيه أنه مجهول لا يعرف، فما خرج بهذا الوصف عن التقييد لأنه قد تميز عن المعلوم، فعلى كل حال ما ثم إلاً مقيد، وما ثم في ما لا ثم إلاً مقيد، فالعدم هو ما لا ثم وهو متميز عن الوجود، والوجود متميز عن العدم، فما ثم معلوم ولا مجهول إلاً وهو متميز، فالتقييد له الحكم وما بقي إلاً تقييد متفاضل أعلاه تقييد في إطلاق وهو ذكر الله والجهل به والحيرة فيه: [الوافر]

وتَـرْكُ الـذكـر أَوْلَـى بـالـشُّـهـودِ فـذِكْـرُ الله أولـى بـالـوجـودِ
فـكـنْ إن شـئـتَ فـي جُـودِ الـشُّـهـودِ وكـن إن شـئـت فـي فَـضْـلِ الـوجـودِ

الباب الرابع والأربعون ومائة

في معرفة مقام الفكر وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الـتـفـكُّـرَ فـي الآيـات والـعِـبَـر لـيـس الـتـفـكُّـرُ في الأحـكـام والـقَـدَرِ
إن الـتـفـكُّـرَ حـالٌ لـسـتُ أجـهـلـه فـالله قـرَّره فـي الآي والـسُّـوَرِ
لـولا الـتـفـكُّـرُ كـان الـنـاسُ في دَعَـةٍ وفـي نـعـيـم مـع الأرواح فـي سُـرُرِ
الـفـكـرُ نـعـتٌ طـبـيـعـيٌّ ولـيـس لـه حكـمٌ علـى أحدٍ يدري سوى البشرِ
ولـو يـكـون الـذي قـلـنـاه مـا نـظـرتْ بـالـغـاً عـيـنـي إلـى الأحـوال والـصـورِ
بـه الـمـؤثِّـرُ والأسـمـاءُ قـائـمـةٌ تـنـفِّـذُ الأمـرَ فـي بَـدْو وفـي حَـضَـرِ

اعلم وفقك الله أن الفكر ليس بنعت إلهيّ إلاً إذا كان بمعنى التدبير والتردّد في الأولى فحينئذ يكون نعتاً إلهياً، وأمّا الفكر بمعنى الاعتبار فهو نعت طبيعي، ولا يكون في أحد من المخلوقين سوى هذا الصنف البشري وهو لأهل العبر الناظرين في الموجودات من حيث ما هي دلالات لا من حيث أعيانها ولا من حيث ما تعطى حقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١] فإذا تفكروا أفادهم ذلك التفكّر علماً لم يكن عندهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١] فما

عدلوا إلى الاستجارة به من عذاب النار إلاّ وقد أعطاهم الفكر في خلق السموات والأرض علماً أشهدهم النار ذلك العلم فطلبوا من الله أن يحول بينهم وبين عذاب النار، وهكذا فائدة كل مفكر فيه إذا أعطى للمفكر علماً ما يسأل الله منه بحسب ما يعطيه، فمقام الفكر لا يتعدى النظر في الإله من كونه إلهاً، وفيما ينبغي أن يستحقه من له صفة الألوهية من التعظيم والإجلال والافتقار إليه بالذات، وهذا كله يوجد حكمه قبل وجود الشرائع، ثم جاء الشرع به مخبّراً وآمراً فأمر به وإن أعطته فطرة لبشر ليكون عبادة يؤجر عليها، فإنه إذا كان عملاً مشروعاً للعبد أثمر له ما لا يثمر له إذا اتصف به لا من حيث ما هو مشروع، وليس للفكر حكم ولا مجال في ذات الحق لا عقلاً ولا شرعاً، فإن الشرع قد منع من التفكّر في ذات الله، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] أي لا تتفكروا فيها، وسبب ذلك ارتفاع المناسبة بين ذات الحق وذات الخلق، وأهل الله لما علموا مرتبة الفكر وأنه غاية علماء الرسوم وأهل الاعتبار من الصالحين وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله وأنفوا منه أن يكون حالاً لهم كما سيأتي في باب ترك الفكر، والفكر حال لا يعطي العصمة ولهذا مقامه خطر، لأن صاحبه لا يدري هل يصيب أو يخطىء لأنه قابل للإصابة والخطأ، فإذا أراد صاحبه أن يفوز بالصواب فيه غالباً في العلم بالله فليبحث عن كل آية نزلت في القرآن فيها ذكر التفكّر والاعتبار، ولا يتعدّى ما جاء من ذلك في غير كتاب ولا سنّة متواترة، فإن الله ما ذكر في القرآن أمراً يتفكّر فيه ونص على إيجاد عبرة أو قرن معه التفكّر إلاّ والإصابة معه والحفظ وحصول المقصود منه الذي أراده الله لا بدّ من ذلك، لأن الحق ما نصبه وخصّه في هذا الموضع دون غيره إلاّ وقد مكّن العبد من الوصول إلى علم ما قصد به هناك فقد ألقيت بك على الطريق وهكذا وجده أهل الله.

فإنّ تعديت آيات التفكّر إلى آيات العقل أو آيات السمع أو آيات العلم أو آيات الإيمان واستعملت فيها الفكر لم تصب جملة واحدة فالتزم الآيات التي نصبها الحق ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣] ولا تتعدى بالأمور مراتبها، ولا تعدل بالآيات إلى غير منازلها، وإذا سلكت على ما قلته لك حمدت مسعاك وشكرتني على ذلك، فابحث على كل آية عبرة وتفكّر تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وكذلك الآيات التي فيها النظر من هذا الباب الفكري مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] ومثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وكذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [سورة الفيل: الآية ١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] الآية. وكذلك آيات التدبّر من هذا الباب مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤] واجعل بالك إذا ذكر الله شيئاً من ذلك بأي اسم ذكره، فلا تتعدّى التفكّر فيه من حيث ذلك الاسم إن أردت الإصابة للمعنى المقصود لله مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فانظر فيه من حيث ما هو قرآن لا من حيث ما هو كلام الله، ولا من حيث ما هو فرقان، ولا من حيث ما هو ذكر من قوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] فكل اسم له حكم وما عينه الحق في الذكر إلاّ حتى يفهمه عباده ويعلمهم كيف ينزلون الأشياء منازلها، فتلك الحكمة وصاحبها الحكيم، وقد مدح الله من شرفه بالحكمة فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٨] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] فإن حكمها يسري في جميع الأشياء وهو أن الحكيم لا يتعدّى بالشيء قدره ولا منزلته.

الباب الخامس والأربعون ومائة

في معرفة مقام ترك الفكر وأسراره

[نظم: البسيط]

تَرْكُ التفكُّر تسليمٌ لخالقه ... فلا تفكِّرْ فإن الفكرَ مَغْلُولُ
إن لم تفكّرْ تكنْ روحاً مطهرةً ... جليسَ حقٍّ على الأَذْكَار مجبولُ
إن لم تفكّرْ تكنْ روحاً مطهرةً ... مثل الملائك لم يَحْجُبْكَ تَفْصيلُ
عن الإلٰه الذي يعطيه مَوَاهِبَه ... جوداً وذاك الذي يعطيه تَنْزيلُ
إما لقاءٌ أو القاءٌ فتعلمه ... أو الكتابةُ أعطتها التَّفَاصيلُ
فبالتَّفَكُّر وُكّلْنا لأنفسنا ... لولاه ما كان إشراكٌ وتَعْطيلُ
إن التَّفَكُّر أمرٌ قد خُصِصْتُ به ... لأنني جامعٌ والجَمْعُ تحصيلُ
لصورة الحقِّ والأسماءِ أجمعِها ... وكل عينٍ فما في الحق تبديلُ
وفي المَوَاطِنِ كُلِّفْنا بخدمته ... أتت بذلك أخبارٌ وتنزيلُ

التاركون للفكر رجال أرادوا رفع اللبس عنهم فيما يريدون العلم به ليلحقوا بوراثة من قيل فيه: وما ينطق عن الهوى، وبما فطر عليه من فطر من المخلوقات كالملائكة، ومن شاء الله من المخلوقين الذين فطروا على العلم بالله والموحى إليهم ابتداء من الله وعناية بهم، ولأن الأفكار على الغلط، والطائفة الأخرى نزحت إلى ترك التفكّر لأن التفكّر جولان في أحد أمرين: إما في المخلوقات، وإما في الإله، وأعلى درجات جولانه في المخلوقات أن يتخذها دليلاً، والمدلول يضاد الدليل فلا يجتمع دليل ومدلوله عند الناظر أبداً، فرأوا ترك التفكّر والاشتغال بالذكر إذ هما مشروعان، فإنه لو مات في حال الفكر في الآيات لمات في غير الله وإن كان يطلبها لله ولكن لا يكون له مشهود إلاّ هي وإن كان جولانه في الإله ليتخذه دليلاً على المخلوقات والكائنات كما يراه بعضهم فقد طلبه لغيره وهو سوء أدب مع الله حيث ما قصد النظر فيه إلاّ ليدله على حكم الكائنات ولو استندت إليه فما طلبه لعينه، وإن ظنّ أنه يجول بفكره فيه ليتخذه دليلاً عليه فهذا غلط بين فإنه لا ينظر فيه إلاّ وهو عالم به، فإن نظر فيه بمعنى هل يصحّ أن يكون دليلاً على نفسه فهذا غاية الجهل، فإنه لا شيء أدل من الشيء على نفسه، فلما رأوا مثل هذا النظر تركوه، فإذا تفكّر من هذه صفته كان مثل الذي يشكر الخلق

لإحسانهم فشكرهم عبادة لأن الله أمر بشكرهم، كذلك أمرهم بالتفكّر فيتفكّرون فيما أمرهم أو عين لهم أن يتفكّروا فيه امتثالاً لأمره، ويكون ما ينتجه من العلم في حكم التبع لأن علوم الفكر بكل وجه ما تقوم مقام علوم الذكر والوحي والوهب الإلهيّ في الرفعة والمكانة. انتهى الجزء الثالث ومائة.

(الجزء الرابع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس والأربعون ومائة

في معرفة مقام الفتوة وأسراره

اعلم أيدك الله: [البسيط]

إن الفُتُوَّةَ ما ينفكُّ صاحبُها ... مقدَّماً عند رب الناس والناسِ
إن الفَتَى من له الإيثارُ تَخلِيَةً ... فحيث كان فمحْمُولٌ على الرَّاسِ
ما إن تُزَلْزِلُهُ الأَهْوَا بقوَّتها ... لكونه ثابتاً كالشَّامخ الراسي
لا حُزْنَ يحكمه لا خوفَ يَشْغَلُهُ ... عن المكارم حالَ الحرب والبَاسِ
انظر إلى كَسْرِه الأصنامَ منفرداً ... بلا مُعينٍ فذاك اللَّيِّنُ القاسي

الفتوة نعت إلهيّ من طريق المعنى، وليس له سبحانه من لفظها اسم إلهيّ يسمّى به كما ثبت شرعاً ودليل عقل أنه له الغنى عن العالم على الإطلاق، فبالشرع قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ودليل العقل لو لم يكن وجوده واجباً لنفسه مع اتصافه بالوجود لكان ممكناً لأنه متصف بالوجود، ولو كان ممكناً لافتقر إلى المرجح في وجوده، فلم يكن يصحّ له اسم الغني على الإطلاق، ولو افتقر بنوع ما فليس بغني مطلق ولكان من جملة العالم، فيكون علامة تدل على مرجحه فهو غني على الإطلاق، ومن له هذا الغنى ثم أوجد العالم فما أوجده لافتقاره إليه، وإنما أوجد العالم للعالم إيثاراً له على انفراده بالوجود وهذا هو عين الفتوة. ومن الفتوة الإلهية الخبران القرآني والنبوي، فأما القرآن فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وصورة الفتوة هنا أنه خلقهم لينعمهم بالوجود ويخرجهم من شر العدم ويمكنهم من التخلق بالأسماء الإلهية ويجعل منهم خلفاً، وهذا كله إيثار لهم على انفراده بكل ما استخلفهم فيه.

ثم علم أن الامتنان يقدح في النعمة عند المنعم عليه فستر ذلك إيثاراً لهم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فأظهر أنه خلقهم من أجله لا من أجلهم. وفي الخبر النبويّ الموسوي أنه تعالىٰ خلق الأشياء من أجلنا وخلقنا من أجله وستر بهذا قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] ليفهم الجميع بإعلامه أنهم يسبحون بحمده حتى لا نشم فيه رائحة الامتنان، ففي الخبر الموسوي: حكم الفتوة أنه خلق الأشياء من أجلنا إيثاراً لنا على

انفراده بالوجود كما خلقنا. وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ غطاء حتى لا يشم فيه رائحة المنة مثل قوله في حقنا ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سواء.

وأما الخبر النبويّ الثاني من الخبرين فما روى عن رسول الله ﷺ عن الله سبحانه أنه قال: «**كُنْتُ كَنزاً لَمْ أُعرَف فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتَ إِلَيْهم فَعَرَفُونِي**» ففي قوله: كنت كنزاً إثبات الأعيان الثابتة التي ذهبت إليها المعتزلة وهي قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذا الخبر من الفتوة كيف كنى عن نفسه أنه أحب أن يعرف، ومن هذه صفته غطى على ما يجب له من الغنى المطلق، لأن المحبة لا تتعلق إلاّ بمعدوم، وقد يكون ذلك المعدوم في معدوم أو في موجود فإن كان في معدوم فلا بدّ أيضاً من وجوده حتى يظهر فيه ما أحب إيجاده، وإن كان في موجود فأظهر فيه ما أحببته فلا بدّ أن يكون ما ذكره ستراً على الغنى المطلق وإيثار الجناب، هذا المحبوب حيث تعلق به من له الغنى فيورثه عزّة في نفسه حيث كان مقصوداً لمن له صفة الغنى وكان سبب الوجود أن الوجود والعلم طلباً بالحال من الله كمال مرتبتهما في التقسيم العقلي فأوجدهما منه لظهور الكمال الوجوديّ والعلمي هذا أصله منة منه، فأعرض عن هذا ونسب وجود العالم لمحبته أن يعرف حتى لا يشم منه كمال الوجود والعلم رائحة المنة أيضاً كما ذكر في القرآن سواء.

وإذا كان الحق قد نزل مع عباده في مكارم الأخلاق التي هي الفتوة إلى هذا الحدّ فالعبد أولى بهذه الصفة أن يتخلق بها، فالفتوة على الحقيقة إظهار الآلاء والمنن وستر المنة والامتنان كما قال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] تخلّقاً إلهياً فإنه سبحانه تصدق علينا بالوجود والمعرفة به وما منّ علينا بذلك. وأما قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] معناه أنه لو منّ لكان المنّ لله لما منّوا عليه ﷺ بالإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ ثم آثر محمداً ﷺ على نفسه سبحانه حتى لا يجعل له نعتاً فيما أجرى عليه لسان ذمّ فقال له قل لهم: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] ولو شاء لقال: بل أنا أمن عليكم أن هداكم الله بي للإيمان الذي رزقكم بتوحيده وأسعدكم به، فما جعله تعالىٰ محلاً للمنّ، هذا من الفتوة الإلهية التي لا يشعر بها، فحكمها موجود في الحق وإطلاقها لم يرد لا في كتاب ولا سنّة، كما يعلم قطعاً أنه لا فرق بين قولنا علمت الشيء وعرفته وأنا عالم بالشيء أو عارف، ومع هذا ورد إطلاق اسم العالم والعليم والعلام عليه تعالىٰ، وما ورد إطلاق الاسم العارف عليه فما يلزم من الأمر الذي لله منه حكم أن يطلق عليه منه اسم، فأسماؤه من حيث إطلاقها عليه موقوفة على ورودها منه فلا يسمّى إلاّ بما سمّي به نفسه، وإن علم فيه مدلول ذلك الاسم فالتوقيف في الإطلاق أولى، وما فعل هذا سبحانه كله إلاّ ليعلم الخلق الأدب معه إذا وقد علم أن من أهل الله من له شطحات ليتأدّبوا فلا يشطحوا فإن الشطح نقص بالإنسان لأنه يلحق نفسه فيه بالرتبة الإلهية ويخرج عن حقيقته فيلحقه الشطح بالجهل بالله وبنفسه، وقد وقع من الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة نقص.

وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم فإنهم رعاع بالنظر إلى هؤلاء السادة، وإذا وقع مثل هذا من السادة فعليهم يقع العتب منا، وقد يشطح أيضاً الأدنى على الأعلى كمثل الشطحات على مراتب الأنبياء وهي أعظم عند الله في المؤاخذة من شطحهم على الله، فإن مرتبة الإله تكذبهم بالحال وعند السامع، وأمّا شطحتهم على الأنبياء فموضع شبهة يمكن أن تقبل الصحة في نفس الأمر فيغتر بها السامع الحسن الظن به الذي لا معرفة عنده بمراتب أصناف الخلق عند الله، فيغار الله لذلك حيث هو حق للغير، وما يؤثر من الضلالة في الناس، فيؤاخذ صاحب الشطحة بها ولا سيما إن ظهرت منه في حال صحو، وكذلك من الشطحات المنقولة عن السادة رؤية فضيلة جنسهم من البشر على الملائكة جهلاً منهم وهم مسؤولون مؤاخذون بذلك عند الله والعالم بالله المكمل هو الذي يحمي نفسه أن يجعل لله عليه حجة بوجه من الوجوه، ومن أراد أن يسلم من ذلك فليقف عند الأمر والنهي وليرتقب الموت ويلزم الصمت إلاّ عن ذكر الله من القرآن خاصة، فمن فعل ذلك فلم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهرباً، وقد استبرأ لنفسه وأعطى كل ذي حق حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه، وهذا هو العاقل مقصود الحق من العالم، وما فوق هذه المرتبة مرتبة لمخلوق أصلاً، هذا قد مشى من الفتوة طرف صالح في حكمها في الجناب الإلٰهي.

وإذا كان الحق يا ولي مع غناه وما له من صفات الجلال ونعوت الكمال قد أريتك ماله من هذه النسبة في إيثاره إياك فأنت أولى بهذه الصفة أن تتصف بها في حقه خاصة لا في حق الخلق كما اتصف هو بها في حق الخلق هذا هو عمدتها فينا، فالفتى من لا يراعي الخلق ولا يتفتى عليهم، فإن التفتي عليهم إنما هو لله كما ذكرنا، فيكون هذا العبد يطلب التفتي على جانب الحق إيثاراً له على الخلق، فلا يتفتى على الخلق إلاّ بصفة حق أو أمر حق، فيكون الحق المتفتي لا هذا العبد، هكذا هو التخلق بالفتوة وإلاّ فلا، إذ كان من المحال أن تسري الفتوة من الفتى في إيثار الغير من غير تأذي الغير لأن الأغراض مختلفة والأهواء متقابلة رياحها زوابع غير لواقح بل هي عقيم تدمر ولا توجد، فما من حالة يرضاها زيد منك إلاّ ويسخطها عمرو، فإذا كان الأمر هكذا فاترك الخلق بجانب إن أردت تحصيل هذا المقام وارجع إلى الله في أصل الفتوة فإن أصلها أن تخرج عن حظ نفسك إيثاراً لحظ غيرك، لا تخرج عن حظ غيرك إيثاراً لحظ غيرك فهذا ليس من الفتوة، ولو كانت الفتوة هذا ما صحّ لها وجود، فإذا تعارضت الأمور فرجح جانب الحق وزلّ عن حظك لما يستحقه جلاله، إذ قد عاملك بصفة الفتوة مع غناه فأنت مع فقرك أحوج إلى ذلك، ومن إيثارك إياه أنه إن طلب منك أن تطلب منه أجراً على ما تفتيت به عليه فمن الفتوة أن تطلب الأجر، فإن امتثالك أمره خروجك عن حظك فيحصل لك حظك بترك حظك مع تحقيق الوصف بالفتوة. إبراهيم عليه السلام جاد بنفسه على النار إيثاراً لتوحيد ربه، فإن كان ذلك عن أمر إلهيّ فهو أعظم في الفتوة، وإن لم يكن عن أمر إلهيّ فهو فتى على كل حال، فإنه من آثر أمر ربه على هوى نفسه فهو الفتى.

فحقيقة الفتوة أن يؤثر الإنسان العلم المشروع الوارد من الله على ألسنة الرسل على هوى نفسه وعلى أدلة عقله وما حكم به فكره ونظره إذا خالف علم الشارع المقرر له. هذا هو الفتى، فيكون بين يدي العلم المشروع كالميت بين يدي الغاسل، ولا ينبغي أن يقال هنا يكون بين يدي الحق كالميت بين يدي الغاسل فإنه غلط ومزلة قدم، فإن الشرع قيدك فقف عند تقييده فما أوجب عليك ممّا هو له أن تنسبه إلى نفسك أو إلى مخلوق من المخلوقات سوى الله، فمن الفتوة أن تنسبه إلى ذلك لا إلى الله حقيقة كما أمرك، وإن دلّك على خلاف ذلك عقلك فارم به وكن مع العلم المشروع، وما أوجب أن تنسبه إليه سبحانه فانسبه إليه تعالىٰ، وما خيّرك فيه فإن شئت أن تقف ولا تعين وإن شئت نظرت بما يتعلق بالمخير فيه من حمد فانسبه إليه، وما تعلق به من ذمّ فانسبه إلى نفسك أدباً مع الله فإن الأدب عبارة عن جماع الخير فما زلت عن مقام الفتوة.

كان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا جاءه مأكول طيب أكله، وإذا جاءه مأكول خشن أكله، وإذا جاع وجاءه نقد علم أن الله قد خيّره إذ لو أراد أن يطعمه أي صنف شاء من المأكولات جاء به إليه فيقول: هذا النقد ثمن المأكول جاء به الله للتخير والاختيار فينظر في ذلك الوقت ما هو الأحب إلى الله من المأكولات بالنظر إلى صلاح المزاج للعبادة لا إلى الفرض النفسي واتباع الشهوة، فإن وافقه كل مأكول حينئذ يرجع إلى موطن الدنيا، وما ينبغي أن يعامل به من الزهد في ملذوذاتها مع صلاح المزاج الذي يقوم بصلاحه العبادة المشروعة، فيعدل بحكم الموطن إلى شظف العيش الذي تكرهه النفس لعدم اللذة به ويكتفي بلذة الحاجة فإنه يتناوله عند الضرورة، فإن لذة الضرورة ما فوقها لذة لأن الطبع يطلبها، وإذا حصل للطبع طلبه التذّ به، فالفتى هو من ذكرناه، ويسري فعله وتصرفه في الجماد والنبات والحيوان وفي كل موجود ولكن على ميزان العلم المشروع. وإن ورد عليه أمر إلهيّ فيما يظهر له يحل له ما ثبت تحريمه في نفس الأمر من الشرع المحمدي فقد لبس فيه فيتركه ويرجع إلى حكم الشرع الثابت، فإنه قد ثبت عند أهل الكشف بأجمعهم أنه لا تحليل ولا تحريم ولا شيء من أحكام الشرع لأحد بعد انقطاع الرسالة والنبوّة من أهل الله، فلا يعوّل عليه صاحب ذلك، ويعلم قطعاً أنه هوى نفسي إذ كان ذلك الأمر المحلل أو المحرم في نفس الأمر هذا شرطه، ولا يمنع التعريف الإلهيّ لأهل الله بصحة الحكم المشروع في غير المتواتر بالمنصوص عليه، وأما في المتواتر المنصوص إذ ورد التعريف بخلافه فلا يعوّل عليه، هذا لا خلاف فيه عند أهل الله من أهل الكشف والوجود، فإنه من المنتمين إلى الله من يطرأ عليهم التلبيس في أحوالهم من حيث لا يشعرون، وهو مكر خفي وكيد متين إلهيّ واستدراج من حيث لا يشعرون.

فإياك أن ترمي ميزان الشرع من يدك في العلم الرسمي والمبادرة لما حكم به، وإن فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس ممّا يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به فلا تعول عليه فإنه مكر نفسي بصورة إلهية من حيث لا تشعر، وقد وقعنا بقوم صادقين من أهل الله ممّن

التبس عليهم هذا المقام ويرجحون كشفهم وما ظهر لهم في فهمهم ممّا يبطل ذلك الحكم المقرر فيعتمدون عليه في حق نفوسهم ويسلمون ذلك الحكم المقرر في الظاهر للغير، وهذا ليس بشيء عندنا ولا عند أهل الله، وكل من عوّل عليه فقد خلط وخرج عن الانتظام في سلك أهل الله ولحق بالأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] وربما يبقى صاحب هذا الكشف على العمل بظاهر ذلك الحكم ولا يعتقده في حق نفسه فيعمله تقريراً للظاهر ويقول: ما أعطي من نفسي لهذا الأمر المشروع إلاّ ظاهري فإني قد اطلعت على سرّه فحكمه على سرّي خلاف حكمه في ظاهري فلا يعتقده في سرّه عند العمل به، فمن عمل على هذا منه ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] وخرج عن أن يكون من أهل الله، ولحق بـ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فهو يظنّ أنه في الحاصل وهو في الفائت، فتحفظوا يا إخواننا من غوائل هذا المقام ومكر هذا الكشف فقد نصحتكم ونصحت هذه الطائفة ووفيت بالأمر الواجب عليّ فيه، فمن لم يعلم الفتوة كما ذكرناها فما علمها.

الباب السابع والأربعون ومائة

في معرفة مقام ترك الفتوة وأسراره

[نظم: البسيط]

تَـرْكُ الـفُـتُـوَّة إيـثـارٌ لـخـالـقـنـا ... هـو الـفُـتُـوَّةُ إن حـقَّـقْـتَ مـعـنـاهَـا

فـنَـفْـيُـهَـا عـيـنُ إثـبـاتٍ لـهـا فـمـتـى ... أمـتَّـهـا جـاء ذاك الـمـوتُ أَحْـيـاهَـا

فـلـيـس يـعـدمـهـا إلاّ الـفَـنَـاءُ فـكُـنْ ... مـن أهـلـه فـيـكـون الـحـقُّ مَـأْواهَـا

اعلم أن ترك الفتوة مشيك في حق نفسك، وحظها إذا مشيت في ذلك عن أمر الله لا لما يقتضيه طبع النفس كنت صاحب فتوة، فصاحب هذا المقام صاحب فتوة لا فتوة متصف بالنقيضين، فالفتوة مثل الحب في الحكم سواء، فإن الحب يقضي في المحب الاتصاف بالنقيضين إذا اتفق أن يكون أحد النقيضين محبوباً للمحبوب ممّا يكرهه المحب لكون الحب لا يطلبه ولا يقتضيه. فاعلم أن الإنسان إنما يرغب في الأعمال التي نصّ الشارع على عملها، أو تركها إن كانت من التروك، ليكون بامتثال ما كلف على حدّ ما أعطاه الكشف والإيمان والعقل في أعلى المراتب ولا يكون ذا همة دنية، فإذا تعرّض له في وقت عملان أعني أمرين من فعل أو ترك عمد إلى أفضلهما. وقد ورد الخبر: «**أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ شَخْصاً وَلَمْ يُقْتَلْ بِهِ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**». وقال فيمن قتل نفسه: بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة، ولم يجعله في المشيئة ولا جعل لعمله كفارة في ماله، فعلمنا أن حق النفس في حقّه آكد عليه، وأعظم في الحرمة من حق غيره. والفتوة العمل في حق الغير إيثاراً على نفسه، وقد قدم الشارع في غير ما موضع أن حق نفس الإنسان عليه أوجب من حق الغير عند الله، والفتى

هو الماشي في الأمور بأمر غيره لا بأمر نفسه، وفي حق غيره لا حق نفسه، لكن بأمر ربه، فهما طرفان: أحدهما يسوغ وهو المشي في الأمور عن أمر الله، والشطر الآخر لا يسوغ في كل موطن.

فالعارف إذا أقيم في مقام أداء الحقوق إلى أصحابها وتعينت الحقوق عليه لأصحابها لم يتمكن له أن يتفتى مطلقاً فيؤثر الغير على الإطلاق فإنه بأداء حق نفسه يبدأ، وإذا بدأ به قدح في شرط الفتوة، وإذا لم يبدأ به قدح في الطرف الآخر من الفتوة الذي هو امتثال أمر الله فيبقى هالكاً، والتخليص من ذلك أن يقول: أنا مؤمن والله تعالىٰ: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] فنفسي للحق لا لي فأبدأ بها وأوثرها على غيرها من النفوس من كونها لله لا لي، فلهذا تكمل الفتوة في تركها المعلوم عند المحجوبين عن إدراك حقائق الأمور فإن مالكها أمرني بتقديمها في أداء الحقوق.

وأما حكاية صاحب السفرة وهي أن شيخاً من المشايخ جاءه أضياف فأمر تلميذه أن يأتيه بسفرة الطعام فأبطأ عليه فسأله: ما أبطأ بك؟ فقال: وجدت النمل على السفرة فلم أر من الفتوة أن أخرجهم فتربصت حتى خرجوا من نفوسهم، فقال له الشيخ: لقد دققت، فجعل هذا الفعل من تدقيق باب الفتوة. ونعم ما قال، ونعم ما فاته، فلو قال أحد لهذا الشيخ: كيف شهد له بالتدقيق في الفتوة على جهة المدح والأضياف متألمون بالتأخير والانتظار ومراعاة الأضياف أولى من مراعاة النمل، فإن قال الشيخ: النمل أقرب إلى الله من حيث طاعتهم لله من الإنسان لما يوجد فيه من المخالفة وكراهة بعض الأمور التي هي غير مستلذة. قلنا: وجلد الإنسان وجوارحه وشعره وبشره ناطق بتسبيح الله تعالىٰ كالنمل، ولهذا تشهد يوم القيامة على النفس الناطقة الكافرة الجاحدة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] فهم عدول وشهادتهم مقبولة، فكان الأولى مراعاة الأضياف الذين أمر الشارع بتعجيل تقديم الطعام لهم، فلو تفتى هذا الخادم وترك السفرة للنمل واستأذن الشيخ وعرفه بالقصة ونظر في تقديم أمر آخر للأضياف كان أولى وأدق في الفتوة.

الباب الثامن والأربعون ومائة

في معرفة مقام الفراسة وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن الفراسةَ نورُ النَّقْلِ جاء به ... لفظُ النبيِّ الرسولِ المصطفَى الهادي
ربُّ الفراسة من كان الإله له ... عيناً وسمعاً وذاك الناشىء الشَّادي
وما النهايةُ إلاَّ أن يقوم به ... عَكْسُ القضية في غَيْبٍ وإشهادِ

الفراسة من الافتراس فهو نعت إلهيّ قهري حكمه في الشوارد خوفاً من صاحب هذه الصفة، والشرود سببه خوف طبيعي، إما على النفس أن تفارق بدنها الذي ألفته وظهر سلطانها

فيه، وإما من حيث ما ينسب إليها من الذمّ الذي يطلقه عليها المفترس بالفراسة الطبيعية أو بالفراسة الإلهية، فلهذا لا تتعلق إلاً بالشاردين، لأن الغالب على العالم الجهل بنفوسهم وسبب جهلهم التركيب، فلو كانوا بسائط غير مركبين من العناصر لم يتصفوا بهذا الوصف، فاعلم أن الفراسة إذا اتصف بها العبد له في المتفرس فيه علامات بتلك العلامات يستدل، والعلامات منها طبيعية مزاجية وهي الفراسة الحكمية، ومنها روحانية نفسية إيمانية وهي الفراسة الإلهية وهو نور إلهي في عين بصيرة المؤمن يعرف به إذ يكشف له ما وقع من المتفرس فيه أو ما يقع منه أو ما يؤول إليه أمره، ففراسة المؤمن أعمّ تعلّقاً من الفراسة الطبيعية، فإن الفراسة غاية ما تعطي من العلوم العلم بالأخلاق المذمومة والمحمودة، وما يؤدّي إلى العجلة في الأشياء والريث فيها والحركات البدنية كلها. وسأورد في هذا الباب طرفاً منهما أعني من الفراستين بعد تحقيق ماهيتهما.

والفراسة الإلهية تتعلق بعلم ما تعطيه الفراسة الطبيعية وزيادة وهي أنها تعطي معرفة السعيد من الشقي، ومعرفة الحركة من الإنسان المرضية عند الله من غير المرضية التي وقعت منه من غير حضور صاحب هذا النور، فإذا حضر بين يديه بعد انقضاء زمان تلك الحركة وقد ترك ذلك العمل في العضو الذي كان منه ذلك العمل علامة لا يعرفها إلاً صاحب الفراسة فيقول له فيها بحسب ما كانت الحركة من طاعة ومعصية كما اتفق لعثمان رضي الله عنه وذلك أنه دخل عليه رجل فعندما وقعت عليه عينه قال: يا سبحان الله ما بال رجال لا يغضون أبصارهم عن محارم الله؟ وكان ذلك الرجل قد أرسل نظره فيما لا يحل له، إما في نظره إلى عورة إنسان، أو نظر في قعر بيت مسكون وما أشبه ذلك، فقال له الرجل: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكنها فراسة، ألم تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**» وعندما دخلت عليّ رأيت ذلك في عينيك، فهذا معنى قولنا: إنها تترك علامة في العضو الذي كان منه ذلك العمل المحمود أو المذموم.

والفراسة الطبيعية تعطي معرفة المعتدل في جميع أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، ومعرفة المنحرف في ذلك كله فيفرق بالنظر في أعضائه ونشأة كل عضو بين الأخرق والعاقل والذكي والفطن والفدم الغمر والشبق وغير الشبق والغضوب وغير الغضوب والخبيث وغير الخبيث والخداع المحتال والسليم المسلم والنزق وغير النزق وما أشبه هذا.

فاعلم أولاً أن الفراسة الإيمانية وبها نبدأ أنها نور إلهيّ يعطاه المؤمن لعين البصيرة يكون كالنور لعين البصر، وتكون العلامة في المتفرس فيه كنور الشمس الذي تظهر به المحسوسات للبصر، فكما يفرق البصر بما فيه من النور وبما كشف له نور الشمس من المحسوسات فيعرف صغيرها من كبيرها، وحسنها من قبيحها، وأبيضها من أسودها من أحمرها من أصفرها، ومتحرّكها من ساكنها، وبعيدها من قريبها، وعاليها من أسفلها، كذلك نور الفراسة الإيمانية يعرف محمودها من مذمومها، وإنما أضيف نور الفراسة إلى الله الذي هو الاسم الجامع لأحكام الأسماء لأنه يكشف المحمود والمذموم، وحركات السعادة في الدار الآخرة،

وحركات الشقاء، إلى أن يبلغ بعضهم إذا رأى وطأة شخص في الأرض وهو أثره والشخص ليس بحاضر يقول: هذا قدم سعيد، وهذا قدم شقي، مثل ما يفعله القائف الذي يتبع الأثر فيقول صاحب هذا الأثر: أبيض مثلاً أعور العين، ويصف خلقته كأنه رآه، وما طرأ عليه في خلقه من الأمور العوارض يرى ذلك كله في أثره من غير أن يرى شخصه ويحكم في الأنساب، ويلحق الولد بأبيه إذا وقع الاختلاف فيه لعدم المناسبة في الشبه الظاهر المعتاد بين الآباء والأبناء، فأضاف نور الفراسة إلى الله لأجل هذا، فلو أضافها إلى الاسم الحميد مثلاً لم ير صاحب هذا النور إلاَّ المحمود السعيد خاصة، وكذلك لو أضاف إلى أي اسم إلهيّ لكان بحسب ما تعطي حقيقة ذلك الاسم، فلما أضاف ذلك النور إلى الله أدرك به الخيرات والشرور الواقعة في الدنيا والآخرة والمذام والمحامد ومكارم الأخلاق وسفسافها، وما تعطيه الطبيعة، وما تعطيه الروحانية. ويفرق بهذا النور بين الأحكام الشرعية وهي خمسة أحكام ويعرف بهذا النور لمن استند صاحب تلك الحركة من الأسماء الإلهية، ومن ينظر إليه من الأرواح العلوية وماله من الآيات من الحركات الكوكبية لأنّ الله ما جعل سباحتها في الأفلاك باطلاً، بل لأمور أودعها الله تعالىٰ في المجموع فيها وفي حركاتها وفي قطعها في البروج المقدّرة في الفلك الأقصى وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فهي تؤدّي في تلك السباحة ما أمنت عليه من الأمور التي يطلبها العالم العنصري.

واعلم أن الطبيعة التي خلقها الله تعالىٰ دون النفس وفوق الهباء، فلما أراد الله إيجاد الأجسام الطبيعية وما ثم عندنا إلاَّ جسم طبيعي أو عنصريّ والعناصر أجسام طبيعية وإن تولد عنها أجساد أخر فكل ذلك من آثار الله فيما خلق الله الطبيعة عليها، والطبيعة عبارة عن أمور أربعة إذا تألفت تألّفاً خاصاً حدث عنه ما يناسب تلك الألفة بتقدير العزيز العليم، فلذلك اختلفت أجسام العالم لاختلاف ذلك المزاج، فأعطى كل جسم في العالم بحسب ما اقتضاه مزاجه، وما زال الأمر ينزل إلى أن خلق الله العناصر وهي الأركان، فضم الحرارة إلى اليبوسة على طريق خاص، فكان من ذلك المزج ركن النار الذي يعبر عنه أيضاً بعنصر النار، ثم الهواء كذلك، ثم الماء، ثم التراب، ثم جعل سبحانه يستحيل بعضها إلى بعض بوسائط وبغير وسائط، فإذا تنافر العنصران من جميع الوجوه استحال إلى المناسب، ثم استحال ذلك المناسب إلى المناسب إليه الآخر الأقرب الذي كان منافراً للمستحيل الأوّل، فقبل الاستحالة إليه بوساطة هذا المناسب الأقرب من سخافة أو كثافة.

ثم خلق الله الجسم الحيواني من أربع طبائع وهما: المرّتان والدم والبلغم وجعل سبحانه في هذه الأخلاط قوى روحانية تظهر آثارها في الجسم المركب عنها، فإن كانت هذه الأخلاط في الجسم الظاهر عنها على الاعتدال أو قريب من الاعتدال أعطت ما يعطيه الاعتدال من الأمور المستحسنة المحمودة والحركات الاقتصادية في الأمور، وإن لم تكن فيه على الاعتدال أعطت بحسب ما انحرفت إليه وظهر في البدن سلطان الأقوى والأكثر من هذه الأخلاط، فيطرأ على الجسم من ذلك علل وعلى النفس من ذلك أخلاق، فالطبيب يداوي

العلل بأن يزيد في الناقص من هذه الأخلاط وينقص من الزائد منها حتى يحصل الاعتدال، والطبيب الإلهيّ يداوي الأخلاق ويسوس الأغراض النفسية بالذكرى والموعظة والتنبيه على معالي الأمور، وما قامت به من السعادة والمحمدة عند الله وعند الناس وعند الأرواح العلى، فتتأيّد بذلك النفس الناطقة وتكون لها هذه الذكرى كالمعينة على صلاح هذا المزاج المنحرف، فتعين الطبيب المدبر لطبيعة هذا البدن وإصلاح ما اختلّ منه، ولهذا بعض الأطباء يأمرون المرضى لأمراض خاصة باستعمال سماع الألحان المطربة والأماكن المستحسنة المتنوّعة الأزهار وخرير المياه وتغاريد الطير كالبلبل وأمثاله، كل ذلك طب روحانيّ يؤدّي إلى صلاح المزاج يعين الطبيب عليه.

وثم علل أخر لا تحتمل الأصوات بل تصلح بنقيض ما ذكرناه، وذلك كله بحسب الخلط الغالب الأقوى وضعف المناقض المقابل له، وهذه العلل منها أصلية في نفس المزاج والخلقة مثل الجحوظة في العينين أو الغؤورة المفرطة أو الأنف الدقيق جدّاً أو الغليظ جدّاً، أو المتسع الثقب المنتفخ أو نقيضه، أو البياض الشديد أو السواد الشديد، أو الجعودة في الشعر أو السبوطة فيه الكثيرة، أو الزرقة الشديدة في العين الفيروزجية، أو الكحولة الغائية، وكذلك سائر الأعضاء في عدم الاعتدال وهو الانحراف من الاعتدال إلى أحد الميلين كما ذكرنا، فإن خلق الإنسان يكون بحسب ما هي هذه الأعضاء عليه من اعتدال وانحراف، فإذا جاء هذا الطبيب الإلهيّ وهو النبيّ أو الوارث أو الحكيم فيرى ما تقتضيه هذه النشأة التي انقادت إليه وجعلت زمامها في يديه ليربيها ويسعى في سعادتها، أو يردّها إلى خلاف ما تقتضيه نشأته إن كان منحرفاً بأن يبين لها مصارف ذلك الانحراف التي يحمدها الله ويكون فيها سعادة هذه النفس، فإنه لا يتمكن له أن ينشأها نشأة أخرى، فقد فرغ ربك من خلق ومن خلق ولم يبق بأيدينا إلاّ تبيين المصارف، فالمعتدل النشأة إذا كان جاهلاً بالأمور السعادية عند الله التي تحتاج إلى موقف وهو رسول الله ﷺ يسأل العلماء عن الأمور التي تعطي السعادة عند الله.

وأما مكارم الأخلاق فلا يحتاج فيها إلى موقف، فإن مزاج نشأته واعتدالها لا تعطيه إلاّ مكارم الأخلاق، بل يحتاج إلى الموقف في بعض الأمور في استعمال الانحراف، وهو في ذلك مكلف لما يكون في ذلك الانحراف من المصالح إما دنيا وإما آخرة وإما المجموع فإن مزاج نشأته واعتدالها لا تعطيه إلاّ مكارم الأخلاق، بل إما دنيا وإما آخرة وإما المجموع.

وأما المنحرف فتصدر منه مذامّ الأخلاق وسفسافها وطلب نفوذ الأغراض القائمة به، ولا يبالي ما يؤول إليه أمره في نيلها، فالطبيب السؤوس يستدرجه حالاً بعد حال بتبيين المصارف كما ذكرناه، فإذا جاء صاحب الفراسة الإيمانية وكان عالماً بما يكون فيه المصلحة لهذا المتفرس فيه ورأى منه حركة تؤدّي إلى مذموم أو تكون تلك الحركة قد وقعت منه مذمومة ساسه حتى يتمكن منه إلى أن يسلم إليه نفسه ليتحكم فيها، فإن كان منحرفاً كان في سلوكه صاحب مجاهدة ورياضة، وإن كان معتدلاً كان في سلوكه طيب النفس ملتذاً صاحب فرح وسرور تهون عليه الأمور الصعاب على غيره ولا تكلف عنده في شيء من مكارم

الأخلاق، فإذا صفت نفسه وزكت ولحقت بالعالم المطهر ونظرت بالعين الإلهيّ وسمعت به وتحرّكت بقوّته عرفت مصادر الأمور ومواردها وما تنبعث عنه وما تؤول إليه، فذلك المعبر عنه بالفراسة الإيمانية وهي موهبة من الله تعالىٰ ينالها السليم الطبع وغير السليم.

وأصل الاعتدال والانحراف في العالم وفي الموجب لغلبة بعض الأصول على بعضها التي لها الحكم في المركبات هي من آثار العلم الإلهيّ الذي منه يرحم الله من يشاء ويغفر ويعذب ويكره ويرضى ويغضب، وأين الغضب من الرضى، وأين العفو من الانتقام، وأين السخط من الرضوان، وكل ذلك جاءت به الأخبار الإلٰهيّة في الكتب المنزّلة، وعلمها أهل الكشف مشاهدة عين، ولولا ما وردت على ألسنة الأنبياء والرسل ونزلت بها الكتب من الله على أيديهم وأيّدوا بالمعجزات ليثبت صدقهم عند الأجانب لأجل هذه الأمور الإلهيّة حتى تقبل منهم إذا وردوا بها، فإن أدلة العقول تحيلها في الجناب الإلهيّ، فلو نطق بها مشاهد لها مكاشف بها من غير تأييد آية تدل على صدقه جهل وطعن في نظره، وأقيمت الدلالات العقلية على فساد عقله وفكره وحكم خياله عليه، وأن الله لا ينبغي أن يوصف بهذه الأوصاف، فهذا كان سبب نزولها على أيدي الرسل والكتب ليستريح إليها المشاهد ويأنس بكلامه إذا أتى بمثل هذا النوع، فلأجل هذه الأمور وردت الشرائع، ولأجل الأحكام التي لا توافق أغراض الرؤساء والمقدّمين لو سمعوها من غير الرسول فلما أنسوا بها من الرسل وألفت النفوس أحكام النواميس الإلهيّة واستصحبتها هان على الملوك والرؤساء أن يتّلمذوا للصالحين ويدخلوا نفوسهم تحت أحكامهم، وإن شق عليهم فهم يرجحون علمهم بذلك على ما يدركونه من مشقة خلاف الغرض، فإنه على هذا الشرط أدخل نفسه، فحجته قائمة على نفسه فسبحان العليم الحكيم، ولولا شرف العلم ما شرفت الفراسة لأنّ الفراسة لولا ما تعطي العلم ما شرّفت ولا كان لها قدر، فالعلم أشرف الصفات وبه تحصل النجاة إذا حكمه الإنسان على نفسه، وتصرّف في أموره بحسب حكمه: رب زدني علماً، رب زدني علماً، رب زدني علماً واستعملني له، واجعله الحاكم عليّ والناظر إليّ، إذ أنت العلم والعالم والمعلوم لك لا لنا فأعطنا منه على قدرنا. وأما الفراسة المذكورة عند الحكماء فأنا أذكر منها طرفاً على ما أصّلوه وما جرّبوه واختبروه، ثم اعتباره في الصفات بما تقتضيه طريقنا في هذا الكتاب مختصراً كافياً إن شاء الله تعالىٰ.

اعلم أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يخلق إنساناً معتدل النشأة ليكون جميع حركاته وتصرّفاته مستقيمة وفق الله الأب لما فيه صلاح مزاجه، ووفق الأمّ أيضاً لذلك، فصلح المني من الذكر والأنثى وصلح مزاج الرحم واعتدلت فيه الأخلاط اعتدال القدر الذي به يكون صلاح النطفة ووقت الله لإنزال الماء في الرحم طالعاً سعيداً بحركات فلكية جعلها الله علامة على الصلاح فيما يكون في ذلك من الكائنات، فيجامع الرجل امرأته في طالع سعيد بمزاج معتدل فينزل الماء في رحم معتدل المزاج فيتلقاه الرحم ويوفق الله الأمّ ويرزقها الشهوة إلى كل غذاء يكون فيه صلاح مزاجها وما تتغذى به النطفة في الرحم، فتقبل النطفة التصوير في مكان معتدل ومواد معتدلة وحركات فلكية مستقيمة، فتخرج النشأة وتقوم على أعدل صورة، فتكون نشأة

صاحبها معتدلة ليس بالطويل ولا بالقصير لين اللحم رطبه بين الغلظ والرقة أبيض مشرباً بحمرة وصفرة معتدل الشعر طويله ليس بالسبط ولا الجعد القطط، في شعره حمرة ليس بذاك السواد، أسيل الوجه أعين عينه مائلة إلى الغور والسواد معتدل، عظيم الرأس سائل الأكتاف في عنقه استواء معتدل اللبة، ليس في وركه ولا صلبه لحم خفي الصوت صاف ما غلظ منه وما رقّ ممّا يستحب منه غلظه أو رقته في اعتدال طويل البنان للرقة سبط الكف قليل الكلام والصمت إلاّ عند الحاجة، ميل طبائعه إلى الصفراء والسوداء، في نظره فرح وسرور، قليل الطمع في المال، ليس يريد التحكّم عليك ولا الرياسة ليس بعجلان ولا بطيء، فهذا قالت الحكماء أعدل الخلقة وأحكمها، وفيها خلق سيدنا محمد ﷺ ليصحّ له الكمال في النشأة كما صحّ له الكمال في المرتبة، فكان أكمل الناس من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً.

فإن اتفق أن يكون في الرحم اختلال مزاج فلا بدّ أن يؤثر ذلك الاختلال في نشأة الإنسان في الرحم في عضو من أعضائه، أو في أكثر الأعضاء أو في أقلها بحسب ما تكون المادّة في الوقت لذلك العضو من القوّة الجاذبة التي تكون في النطفة، فيخرج ذلك إما في كلية النشأة، وإما في بعض أعضائها، فمن ذلك والله الموفق أن البياض الصادق مع الشقرة والزرقة الكثيرة دليل على القحة والخيانة والفسوق وخفة العقل، فإن كان مع ذلك واسع الجبهة ضيق الذقن أزعر أوجن كثير الشعر على الرأس فقال أهل الفراسة من الحكماء: إن التحفّظ ممّن هذه صفته كالتحفظ من الأفاعي القتالة، فإن كان الشعر خشناً دلّ على الشجاعة وصحة الدماغ، وإن كان ليناً دلّ على الجبن وبرد الدماغ وقلة الفطنة، وإن كان الشعر كثيراً على الكتفين والعنق دل على الحمق والجراءة، وإن كثر على الصدر والبطن دلّ على وحشية الطبع وقلة الفهم وحب الجور، والشقرة دليل على الجبن وكثرة الغضب وسرعته والتسلّط، والأسود من الشعر يدل على السكون الكثير في العقل والأناة وحب العدل، والمتوسط بين هذين يدل على الاعتدال، وإن كانت الجبهة منبسطة لا غضون فيها دلّ على الخصومة والشغب والرقاعة والصلف، فإن كانت الجبهة متوسطة في النتوء والسعة وكانت فيها غضون فهو صدوق محب فهم عالم يقظان مدبر حاذق، ومن كان عظيم الأذنين فهو جاهل إلاّ أنه يكون حافظاً، ومن كان صغير الأذنين فهو سارق أحمق، وإن كان الحاجب كثير الشعر دلّ على الغيّ وغث الكلام، فإن امتدّ الحاجب إلى الصدغ فصاحبه تياه صلف، ومن رقّ حاجبه فاعتدل في الطول والقصر وكانت سوداء فهو يقظان، فإن كان العين أزرق فهي أردأ العيون، وأردأ الزرق الفيروزجية، فمن عظمت عيناه وجحظت فهو حسود وقح كسلان غير مأمون، وإن كانت زرقاء كان أشدّ وقد يكون غاشاً، ومن كانت عيناه متوسطة مائلة إلى الغور والكحلة والسواد فهو يقظان فهم ثقة محب، فإذا أخذت العين في طول البدن فصاحبها خبيث، ومن كانت عينه جامدة قليلة الحركة كالبهيمة ميت النظر فهو جاهل غليظ الطبع، ومن كان في عينه حركة بسرعة وحدّة نظر فهو محتال لص غادر، ومن كانت عينه حمراء فهو شجاع مقدام، فإن كان حواليها نقط صفر فصاحبها أشرّ الناس وأرداهم، وإن كان أنفه دقيقاً فصاحبه نزق، ومن

كان أنفه يكاد يدخل في فمه فهو شجاع، ومن كان أفطس فهو شبق، ومن كان أنفه شديد الانتفاخ فهو غضوب، وإذا كان غليظ الوسط مائلاً إلى الفطوسة فهو كذوب مهذار، وأعدل الأنوف ما طال غير طول فاحش، ومن كان أنفه متوسط الغلظ وقناه غير فاحش فهو دليل على العقل والفهم، ومن كان واسع الفم فهو شجاع، ومن كان غليظ الشفتين فهو أحمق، ومن كان متوسط الشفتين في الغلظ مع حمرة صادقة فهو معتدل، ومن كانت أسنانه ملتوية أو ناتئة فهو خداع متحيل غير مأمون، ومن كانت أسنانه منبسطة خفافاً بينهما فلج فهو عاقل ثقة مأمون مدبر، ومن كان لحم الوجه منه منتفخ الشدقين فهو جاهل غليظ الطبع، ومن كان نحيف الوجه أصفر فهو رديء خبيث خداع شكس، ومن طال وجهه فهو وقح، ومن كانت أصداغه منتفخة وأوداجه ممتلئة فهو غضوب، ومن نظرت إليه فاحمر وخجل وربما دمعت عيناه أو تبسم تبسماً لا يريده فهو لك متودّد محب فيك لك في نفسه مهابة، وإن كان ذا صوت جهر دلّ على الشجاعة، والمعتدل بين الكد والتأنّي والغلظ والرقة دلّ على العقل والتدبير والصدق وسرعة الكلام، ورقته يدل على الكذب والقحة والجهل، الغلظ في الصوت دليل على الغضب وسوء الخلق، الغنة في الصوت دليلة على الحمق وقلة الفطنة وكبر النفس، التحرّك الكثير دليل على الصلف والهذر والخداع والوقار في الجلسة، وتدارك اللفظ وتحريك اليد في فضول الكلام دليل على تمام العقل والتدبير وصحة العقل، قصر العنق دليل على الخبث والمكر، طول العنق ورقته دليل على الحمق والجبن والصياح فإن انضاف إليهما صغر الرأس فإنه يدل على الحمق والسخف، غلظ العنق يدل على الجهل وكثرة الأكل، اعتدال العنق في الطول والغلظ دليل على العقل والتدبير وخلوص المودّة والثقة والصدق، البطن الكبير يدل على الحمق والجهل والجبن، لطافة البطن وضيق الصدر يدلان على جودة العقل وحسن الرأي، عرض الكتفين والظهر يدلان على الشجاعة وخفة العقل، انحناء الظهر يدل على الشكاسة والنزاقة، استواء الظهر علامة محمودة، بروز الكتفين دليل على سوء النية وقبح المذهب، إذا طالت الذراعان حتى يبلغ الكف الركبة دلّ على الشجاعة والكرم ونبل النفس، وإذا قصرت فصاحبها جبان محب في الشرّ، الكف الطويلة مع الأصابع الطوال تدل على النفوذ في الصنائع وحكام الأعمال وتدبير الرياسة، اللحم الغليظ في القدم يدل على الجهل وحب الجور، القدم الصغير اللين يدل على الفجور، رقة العقب تدل على الحسن، غلظ العقب يدل على الشجاعة، غلظ الساقين مع العرقوبين دليل على البله والقحة، من كانت خطاه واسعة بطيئة فهو منجح في جميع أعماله مفكّر في عواقبه والضدّ للضدّ.

فهذا ما نقلته من أقوال الحكماء من أهل التجربة من العلماء بالطبيعة، وهذه النعوت قد تكثر وتقل، والحكم للغالب، وقد تتساوى في الشخص فيدفع هذا حكم هذا بأن يكون في الشخص حكم أحدها بوجه في قضية خاصة، وحكم أحدها بوجه آخر في قضية خاصة. وبالجملة فإن الرياضة واستعمال العلم مؤثر في إزالة حكم كل صفة مذمومة ممّا ذكر، ومن جرب وجد صحة ما قلناه فإن العادة طبيعة خامسة لها أثر في الطبيعة الأصلية، هذا كله مجرب.

وصل محقق الاعتبار فيما ذكرناه من العلامات التي أعطت الطبيعة حكمها فيه وشهدت لها التجارب: فاعلم أن لطيفة الإنسان المدبرة جسده لما كان لها وجه إلى النور المحض الذي هو أبوها، ووجه إلى الطبيعة وهي الظلمة المحضة التي هي أمّها، كانت النفس الناطقة وسطاً بين النور والظلمة، وسبب توسطها في المكانة لكونها مدبرة كالنفس الكلية التي بين العقل والهيولى الكل وهو جوهر مظلم، والعقل نور خالص، فكانت هذه النفس الناطقة كالبرزخ بين النور والظلمة تعطي كل ذي حق حقه، فمتى غلب عليها أحد الطرفين كانت لما غلب عليها، وإن لم يكن لها ميل إلى أحد الجانبين تلقت الأمور على الاعتدال وأنصفت وحكمت بالحق، فلنذكر في هذا الوصل اعتبار ما مشى في علامات الفراسة في الجسد فنقول: أما البياض المفرط فاستفراغ الإنسان في النظر في عالم النور بحيث لا يبقى في استفراغه ما يدبر به عالم طبيعته كأبي عقال المغربي وأمثاله فيفسد سريعاً قبل حصول الكمال، وكذلك اعتبار السواد المفرط وهو استفراغه في عالم شهوته وطبيعته بحيث أن يحول بينه وبين النظر في علوم الأنوار وهي العلوم الإلهية فهذا مذموم الحال بلا خلاف، فإذا كان وقتاً ووقتاً ووفى كل ذي حق حقه كما قال ﷺ: **«لِي وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي»** فذلك الإمام العادل.

وأما اعتبار الطول والقصر فهو مدة إقامته في النظر في أحد العالمين، فإما مدة ممتدة وهي الطول أو قليلة وهي القصر، وينبغي من ذلك أن تكون المدة بقدر الحاجة. وأما اعتدال اللحم في الرطوبة وبين الغلظ والرقة فهو اعتدال للإنسان في البرزخيات بين المعنى والحسّ كاللحم بين العظم والجلد. وأما اعتدال الشعر فهو إقامته بين البسط والقبض. وأما كونه أسيل الوجه فهي الطلاقة والبشاشة. وأما كونه أعين فصحة النظر في الأمور. وأما كون عينه مائلة إلى الغور والسواد فهو النظر في المغيبات واستخراج الأمور الخفية. وأما الجحوظة فهو ميله إلى استنباط العلوم من عالم الشهادة وهم أهل الاعتبار. وأما اعتدال عظم الرأس فتوفير العقل. وأما كونه سائل الأكتاف فاحتمال الأذى في الغيبة من غير أثر. وأما استواء العنق فالاستشراف على الأشياء من غير ميل إليها. وأما الطول الزائد في العنق فهو الاستشراف على ما لا ينبغي مثل التجسّس. وأما القصر المفرط فهو التفريط فيما ينبغي أن يستشرف عليه. وأما اعتدال اللبة فاستقامة العبارة بالوزن الذي تقع به المنفعة عند المخاطب. وأما قلة اللحم في الورك والصلب فهو نظره في الأمور التي يتورك عليها ويعول عليها أن يخلصه إلى أحد الطرفين فإنه إن كانت برزخية قد تقدر به في غالب الأمر، وأما كونه خفي الصوت فهو حفظ السرّ في موضع الجهر. وأما صفاء الصوت فهو أن لا يزيد فيه شيئاً. وأما طول البنان فللطافة التناول. وأما بسط الكف فرمي الدنيا من غير تعلق. وأما قلة الكلام والضحك فنظره إلى مواقع الحكمة فيتكلم ويضحك بقدر الحاجة. وأما كون ميل طباعه إلى المرتين فهو أن يغلب عليه في الصفراء الجنوح إلى العالم العلوي وفي السوداء إلى العالم السفلي، واستخراج ما أخفى فيه من قرة أعين ممّا تحجب الطبيعة أكثر العقول في النظر فيها لما يسبق في أذهانهم من ذم الطبيعة، وأما كونه في نظره فرح وسرور فهو استجلاب نفوس الغير إليه بالمحبة. وأما

كونه قليل الطمع في المال فهو البعد عن كل ما يميل به إلى ما لا فائدة له فيه. وأما كونه ليس يريد التحكّم عليك ولا الرئاسة فهو شغله بكمال عبوديته لا به. وأما كونه ليس بعجلان ولا بطيء أي ليس بسريع الأخذ مع القدرة ولا عاجز.

وكذلك أيضاً لما نظرنا إلى أرباب الفراسة الحكمية وجدناهم راجعين في ذلك إلى طرفين وواسطة وقسموا الأمور إلى محمود ومذموم أعني الأخلاق وجعلوا الخير كله في الوسط وجعلوا الانحراف في الطرفين فقالوا في الأبيض الشديد البياض والأشقر الأزرق وما سمعت من الذمّ وأنه غير محمود، وكذلك الشديد السواد والرقيق الأنف جداً مذموم كل هذا والمعتدل بينهما الغير مائل إلى أحد الطرفين مثلاً خارجاً عن الحد هو المحمود على نحو ما تقدم. فلما رأيناهم قد قصروها على ما ذكرنا نظرنا إلى ذلك في هذا العالم الإنساني أين ظهر الحسن والقبح فقلنا: لا حسن يقع به المنزلة عند الله، ولا قبح يقع باجتنابه الخير من الله إلاّ ما حسنه الشرع وقبحه.

فلما رأينا الحمد والذم على الفعل من جهة ما شرعاً نظرنا كيف نجمع طرفين وواسطة لنجعل الطرفين مخالفاً لحكم الوسط الذي هو محل الاعتدال فنقول: لا يخلو الإنسان أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر إلى الشرع وهو: إما أن يكون باطنياً محضاً وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً وفعلاً وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرع كالباطنية والعدول عما أراد الشارع بها، وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة دينية مشروعة فهو مذموم بالإطلاق عند كل مؤمن. وإما أن يكون ظاهرياً محضاً متغلغلاً متوغلاً بحيث أن يؤدّيه ذلك إلى التجسيم والتشبيه، فهذا أيضاً مثل ذلك ملحق بالذم شرعاً، فإما أن يكون جارياً مع الشرع على فهم اللسان حيثما مشى الشارع مشى، وحيثما وقف وقف قدماً بقدم، وهذه حالة الوسط وبه صحّت محبة الحق له، قال تعالىٰ أن يقول نبيه ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فاتباع الشارع واقتفاء أثره يوجب محبة الله للعباد وصحة السعادة الدائمة، فهذا وجه مقابلة النسختين، فإن قال قائل: هذا مجمل فكيف يعرف تفصيله؟ فإنا إذا رأينا رجلاً ساكناً يشهد الصلوات والجماعات وهو مع ذلك منافق مصر فنقول: إن السكون وشهود الصلوات وشبه ذلك من عالم الشهادة وكونه كافراً بذلك في قلبه فهو من عالم الغيب، ونحن إذا حصلت لنا الفراسة الذوقية الإيمانية كما ذكرناها وكما نتمّها إن شاء الله تعالىٰ حكمنا بكونه كافراً في نفوسنا وأبقينا ماله ودمه معصوماً شرعاً لظهور كلمة التوحيد، فمعاملتنا له على هذا الحد وما كلفنا غير هذا.

ثم لتعلم وفّقك الله أن العالم العلوي بالجملة هو المحرك عالم الحسّ والشهادة وتحت قهره حكمة من الله تعالىٰ لا لنفسه استحق ذلك، فعالم الشهادة لا يظهر فيه حكم حركة ولا سكون ولا أكل ولا شرب ولا كلام ولا صمت إلاّ عن عالم الغيب، وذلك أن الحيوان لا يتحرك إلاّ عن قصد وإرادة وهما من عمل القلب، والإرادة من عالم الغيب، والتحرّك وما شاكله من عالم الشهادة، وعالم الشهادة كلما أدركناه بالحسّ عادة، وعالم الغيب ما أدركناه بالخبر الشرعي أو النظر الفكري ممّا لا يظهر في الحسّ عادة فنقول: إن عالم الغيب يدرك بعين البصيرة، كما أن عالم الشهادة يدرك بعين البصر، وكما أن البصر لا يدرك عالم الشهادة

ما عدا الظلمة ما لم يرتفع عنه حجاب الظلم أو ما أشبهه من الموانع، فإذا ارتفعت الموانع وانبسطت الأنوار على المحسوسات واجتمع نور البصر والنور المظهر أدرك المبصر بالبصر المبصرات، كذلك عين البصيرة حجابه الريون والشهوات وملاحظة الأغيار من العالم الطبيعي الكثيف إلى أمثال هذه الحجب فتحول بينه وبين إدراك الملكوت أعني عالم الغيب، فإذا عمد الإنسان إلى مرآة قلبه وجلاها بالذكر وتلاوة القرآن فحصل له من ذلك نور ولله نور منبسط على جميع الموجودات يسمّى نور الوجود، فإذا اجتمع النوران فكشف المغيبات على ما هي عليه وعلى ما وقعت في الوجود غير أن بينهما لطيفة معنى فذلك أن الحسّ يحجبه الجدار والبعد المفرط والقرب المفرط، وعين البصيرة ليس كذلك لا يحجبه شيء إلاَّ ما ذكرنا من الران والكن وأشباه ذلك، إلاَّ أنه أيضاً ثم حجاباً لطيفاً أذكره وهو أن النور الذي ينبسط من حضرة الجود على عالم الغيب في الحضرات الوجودية لا يعمّها كلها ولا ينبسط منه عليها في حق هذا المكاشف إلاَّ على قدر ما يريد الله تعالى، وذلك هو مقام الوحي، دليلنا على ذلك لأنفسنا ذوقنا له، ولغيرنا قوله: ﴿قُلْ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] مع غاية الصفاء المحمدي وهو قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فمهما ظهر ممّن حصل في هذا المقام شيء من ذلك على ظاهره في حق شخص ما فتلك الفراسة وهي أعلى درجات المكاشفة وموضعها من كتاب الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٧٥] من السمة وهي العلامة كما قلنا ولا يخطىء أبداً بخلاف الفراسة الحكمية، وثم كشف آخر في الفراسة وذلك أن الله جعل في العالم حضرة السمات فيها صور بني آدم وأحوالهم في أزمانهم إلى حين انفصالهم وهي مخبوءة عن جميع الخلائق العلوي والسفلي إلاَّ عن القلم واللوح، فإذا أراد الله اصطفاء عبد وأن يخصّه بهذا المقام طهر قلبه وشرحه وجعل فيه سراجاً منيراً من إيمانه خاصة يسرجه من الأسماء الإلهية الاسم المؤمن المهيمن وبيده هذه الحضرة وذلك السراج من حضرة الألوهة يأخذه الاسم المؤمن، فإذا استنار القلب بذلك النور الإلهي وانتشر النور في زوايا قلبه مع نور عين البصيرة بحيث يحصل له إدراك المدركات على الكشف والمشاهدة لوجود هذه الأنوار، فإذا حصل القلب على ما ذكرناه جعل في ساحة من ساحات هذا القلب تلك الحضرة التي ذكرناها، فمن هناك يعرف حركات العالم وأسراره. انتهى الجزء الرابع ومائة.

(الجزء الخامس ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والأربعون ومائة
في معرفة مقام الخلق وأسراره

[نظم: البسيط]

كَوْنُ التَّخَلُّقِ في الإنسان والخُلُقِ ... مثْلُ التكحُل في العينين والكَحَلِ

وإن تَضَاعَفَ فيه أجْرُه فمتى ... ينال مرتبةَ الأملاك والرُّسُلِ

ذاك الوحيدُ الذي يحيا الزمانُ به ... فهو المرتِّبُ للأحكام والدُّوَلِ

تَنْحَطُّ من عزِّها غُلْبُ الرقابِ له ... وهو المثبِّتُ للأعراض والعِلَلِ

قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَهُ مِنْكُمْ**» وهو حديث صحيح، فأدخل نفسه معنا فيما نهانا عنه في الحكم، فالأخلاق كلها نعوت إلهية فكلها مكارم وكلها في جبلة الإنسان ولذلك خوطب بها، فإن بعض من لا معرفة له بالحقائق يقول إنها في الإنسان تخلق وفي الحق خلق، فهذا من قائله جهل بالأمور إن لم يطلق ذلك مجازاً، أو بالنظر إلى تقدم وجود الحق على وجود العبد لأنه واجب الوجود لنفسه، والإنسان موجود بربه، فاستفاد الوجود فاستفاد الخلق منه، فإذا راعى هذا الأصل فقال بالتخلق كان صحيح المقصد، وإن أراد بالتخلق أن ما هو للحق حقيقة واتصف به العبد إن لم يكن عنده إلاّ في الوقت الذي اتصف به فسمّاه لذلك تخلّقاً لا خلقاً وما يكون خلقاً إلاّ ما جبل عليه في أصل نشأته فلا علم له بنشأة الإنسان ولا بإعلام النبيّ ﷺ بأن الله خلق آدم على صورته، ويلزم هذا القائل أن يكون ما جعله من الصفات حقيقة للعبد، ثم رأينا الحق قد اتصف به أن يكون ذلك في الله تخلّقاً من الله بما هو حق للإنسان، وهذا لا يقول به من عنده أدنى شيء من العلم. والصحيح في هذه الأخلاق الإلهية أنها كلها في جبلة الإنسان، وتظهر لمن يعرفها في كل إنسان على حد ما تظهر في الجناب الإلهيّ، فإن كل خلق من هذه الأخلاق لا يصحّ أن تعمّ المعاملة به جميع الأكوان لا من جانب الحق ولا من جانب الإنسان فهو كريم على الإطلاق، وكذلك الإنسان كريم على الإطلاق.

ومع كون الحق كريماً على الإطلاق فمن أسمائه المانع، ومن أسمائه الضار، ومن أسمائه المذلّ، ويغفر ويعذب من يشاء، ويؤتي الملك وينزع الملك وينتقم ويجود، وهو مع هذا التقييد في حق قوم دون قوم مطلق الصفة، وكذا هي في الإنسان فهي خلق أصلي له لا تخلق، ولا يصحّ أن تعم من الإنسان هذه الأخلاق مع كونها مطلقة في حقّه، كما لم يصحّ أن تعمّ من الله في جميع الخلق مع كونه تعالىٰ مطلق الوصف بها، ولا يصحّ في هذه الصفات الاستعارة إلاّ مجازاً كما قلنا من حيث إنه تعالىٰ كان بهذه الصفات وما كنا، فلما كنا كنا بها لا أنا اكتسبناها ولا استعرناها منه فإنها صفة قديمة لله أي نسبة اتصف بها الحق ولا عالم، والصفة لا بدّ لها من موصوف بها فإنها من حقيقتها لأن تقوم بنفسها، ويؤدّي القول باستعارتها إلى قيامها بنفسها وإلى خلو الحق عنها وإلى أن يكون الحادث محلاً لوجود القديم فيه، وهذا كله ما لا يقول به أحد من العلماء بالله، فجميع ما يظهر من الإنسان من مكارم أخلاق وسفساف أخلاق كلها في جبلته وهي له حقيقة لا مجاز ولا معارة، كما أنه سبحانه جميع ما سمّى به الحق نفسه لا وما وصف به نفسه من صفات الأفعال من خلق وإحياء وإماتة ومنع وعطاء وجعل ومكر وكيد واستهزاء وفصل وقضاء وجميع ما ورد في الكتب المنزّلة ونطقت به الرسل من ضحك وفرح وتعجّب وتبشبش وقدم ويد ويدين وأيد وأعين وذراع كل ذلك نعت

صحيح فإنه كلامه تعالىٰ عن نفسه وكلام رسله عنه وهو الصادق وهم الصادقون بالأدلة العقلية، ولكن على حدّ ما يعلمه وعلى حدّ ما تقبله ذاته وما يليق بجلاله لا يزد شيئاً من ذلك ولا نحيله ولا نكفيه ولا نقول بنسبة ذلك كله إليه كما ننسبه إلينا نعوذ بالله، فإننا ننسبه إلينا على حد علمنا بنا، فنعرف كيف ننسبه والحق يتعالىٰ أن تعرف ذاته، فيتعالىٰ أن يعرف كيف تنسب إليه ما نسبه إلى نفسه، ومن ردّ شيئاً أثبته الحق لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله فقد كفر بما جاء به من عند الله وبمن جاء به وبالله، ومن آمن ببعض ذلك ورد بعضه فقد كفر حقاً ومن آمن بذلك وشبهه في نسبة ذلك إليه تعالىٰ مثل نسبتها إلينا أوتوهم ذلك أو خطر على باله أو تصوّره أو جعل ذلك ممكناً فقد جهل وما كفر، هذا هو العقد الصحيح من غير ترجيح.

غير أن ثمّ أسماء تطلق على العبد ولا تطلق على الجناب الإلهيّ وإن كان المعنى يشمل ذلك، كالبخيل يطلق على العبد ولا يطلق على الحق وهو منع، ومن أسمائه المانع ومن بخل فقد منع هذا هو الحق غير أنا نلتمس له وجهاً وهو أن نقول: كل بخل منع وما كل منع بخل، فمن منع المستحق حقُّه فقد بخل، والحق قرّر قول موسىٰ أن الله أعطى كل شيء خلقه، فما بخل عليك من أعطاك خلقك ووفاك حقّك فمنع ما لا يستحقه الخلق ليس بمنع بخل، فبهذا القدر نجعل التفرقة بين المنعين، وكذلك اسم الكاذب ممّا اختصّ به العبد. ولا ينبغي أن يطلق على الحق فهو الصادق بكل وجه، كما أن العبد صادق وكاذب، وصادق أيضاً بكل وجه، ولكن نسبة الصدق إلى العبد بكل وجه معروف عندنا لعلمنا بنا ونسبتها إلى الحق مجهولة لنا فهو الصادق كما ينبغي أن يضاف إليه الصدق، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥]. وقال: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، فقيد نزوله بالزمان، والتقييد بالزمان تقييد بالانتقال، وكل ذلك مجهول النسبة ثابت الحكم متوجّه كما ينبغي لجلاله، وكذلك الاسم الجاهل من أسماء الكون ولا يليق بالجناب الإلهيّ، فالإله عالم من حيث إنه موصوف بالعلم، والعبد عالم من حيث إنه موصوف بالعلم، وجاهل من حيث خصوص تعلّق علمه ببعض الأشياء دون بعض، والحق مطلق العلم عامّ التعلّق، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فحدّد خلاف المعقول.

وأشارت السوداء أن الله في السماء حين قال لها رسول الله ﷺ: «**أَيْنَ اللَّهُ**» وأثبت لها الإيمان في إشارتها، وهذا خلاف دليل العقل، فقد عرف من الله ما لم نعرف ومع هذا فنقول: إن الله هو العالم بنفسه وهو الصحيح، فما من اسم تسمّى العبد به ولم يتسم الحق به وكان في الخلق نعت نقص وسفساف خلق إلاّ والعقل والحق قد منع أن يطلق على الله ذلك الاسم أو ينسب إليه ذلك الخلق، ومع هذا فإنه يخبر بأمور وفصول تقابل أدلة العقول فهو الفعّال لما يشاء، والجاعل في خلقه ما يشاء لا احتكام عليه وهو الحاكم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] وقد نبهناك على أمر جليل وعلم عظيم وسرّ غامض خفي لا يعلمه إلاّ الله، ومن أعلمه من المخلوقين أحاله عقل وورد به نقل وبعد عنه فهم وقبله فهم.

فإن تدبرت فصول هذا الباب وقفت على لباب المعرفة الإلهية وتحققت قوله ﷺ: «مَنْ

عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وقد أوجدتك أنك محل لكل صفة محمودة ومذمومة، ثم أعلمتك معنى الحمد والذمّ وحدّدتك وأطلقتك ذلك لتعلم أنك العالم الذي لا يعلم، وهو سبحانه العالم الذي يعلم ولا يعلم، فلا يعلم ما هو العبد عليه وأعني بالعبد العالم كله والإنسان إلاّ الله تعالىٰ هو يعلمه، ثم أعلم بعض عبيده، فمنا من علم نفسه، ومنا من جهل نفسه، ومنا من تخيّل أنه علم نفسه، ومنا من علم من نفسه بعض ما هو عليه في نفسه، وبذلك القدر ينسب إليه أنه علم من ربه، فإنه «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وكما لا يجتمع الدليل والمدلول لا تجتمع أنت وهو في حدّ ولا حقيقة فإنه الخالق وأنت المخلوق وإن كنت خالقاً، وهو المالك وأنت المملوك وإن كنت مالكاً، فلا يحجبنك الاشتراك في الأخلاق فإنك المخلوق وهو الخلاّق، فهذا مقام الخلق قد أبنته، وما عدا هذا مّما تشير إليه الصوفية من التخلّق فهو تلفيق من الكلام وقولهم في التخلّق بالأسماء كذلك، ونحن قد أطلقنا مثل ما أطلقوه، ولكن عن علم محقق وإطلاق مطلق بأدب إلهيّ عن تحقّق، فهو في الحقيقة خلق لا تخلّق كما أفهمتك، وأكثر من هذا الإيضاح والبيان الذي يطلبه هذا المقام فلا يكون، فإنا ما تعدينا فيه حدود الله في عبارتنا ولا ذكرنا شيئاً ما نسبه إلى نفسه فما خرجنا عن كلامه وما أنزله على الصادقين من عباده ﴿**هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] بل ﴿**هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٣] فهو العليم ولا عالم، وهو الحكيم في ترتيب العالم، فالعالم والعليم أعمّ، والحكيم تعلق خاص للعلم فهذا هو التحقّق بالخلق الإلهيّ.

وأما الأخلاق التي تحتاج إلى معرفتها أهل السلوك وكلنا سالك إذ لا تصحّ نهاية فهو أن نقول: إن العرف والشرع قد وردا بمكارم الأخلاق وسفساف الأخلاق وأمرنا بإتيان مكارمها وإجتناب سفسافها. ثم إن الشرع قد نبّه على أنها على قسمين: من الأخلاق ما يكون في جبلة الإنسان كما قال رسول الله ﷺ للأشج أشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ لَخصْلَتَينِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» وفي لفظ آخر لغير مسلم: «**فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَيْءٌ جُبِلْتُ عَلَيْه؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا**» أو كما قال. ومنها مكتسبة، فالمكتسب هو الذي يعبر عنه بالتخلق وهو التشبّه بمن هي فيه هذه الأخلاق الكريمة جبلية في أصل خلقه، ولا شك أن استعمال مكارم الأخلاق صعب لملاقاة الضدّ في استعمالها في الكون، فإن الغرضين والإرادتين من الشخصين إذا تعارضتا وطلب كل واحد منهما منك أن تصرف معه كريم خلق بقضاء غرضه ولا يتمكن لك الجمع بينهما فمهما أرضيت الواحد أسخطت الآخر، وإذا تعذّر الجمع واستحال تعميم الرضى وتصريف الخلق الكريم مع كل واحد منهما تعين على الإنسان أن يخرج عن نفسه في ذلك ويجعل الحكم فيه للشرع فيتخذه لهذا الباب ميزاناً وإماماً، فاجعل إمامك ما يرضي الله وفيما يرضي الله، ولتصرف خلقك الكريم مع الله خاصة فهو الصاحب والخليفة وهو أولى أن يعامل بمكارم الأخلاق، فما قدّمه الله قدّمه، فإن ذلك التقديم هو تصريف الحق لذلك الخلق مع ذلك العبد وفي ذلك المحل، فتصريف خلقك مع الله أولى من تصريفه مع الكون بل هو واجب لا أولى، فإن جميع الخلق من الملائكة والرسل والمؤمنين يحمدونك على ذلك الفعل والخلق الذي عاملت به ذلك الشخص الذي قدمه الحق وأوجب

عليك أن تعامله به، وما يذمك فيه إلاّ صاحب ذلك الغرض إذا لم يكن مؤمناً ومراعاة الأصل أولى، وإذا لم تتخلق بمكارم الأخلاق على ما رسمته لك لم يصحّ لك هذا المقام ويذمّك فيه كل مخلوق، ألا ترى شاهد الزور فإنه أوّل من يتجرح عنده ولا يعتقد فيه ويذمّه في باطنه من شهد له وقد أسخط الله وملائكته ورسله والمؤمنين.

وليست مكارم الأخلاق إلاّ ما يتعلق منها بمعاملة غيرك لا غير، وما عدا ذلك فلا يسمّى مكارم خلق، وإنما هي نعوت يتخلق بها لتصحيح الصورة أو النسبة لا غير، هذا هو ربط هذا الباب في السالكين والمخلصين سعادة الأبد، وتفاصيل تصاريف الأخلاق مع الموجودات تكثر لو بيّناها وكيفياتها لم يحصرها كتاب. وبعد أن أعطيناك أصلاً فيها تعتمد عليه فاعمل به وهو أن تنظر إلى حكم الشرع في كل حركة منك في حق كل موجود فتعامله بما قال لك الشارع عامله به على الوجوب أو الندب ولا تتعداه تكن في ذلك محمود النقيبة مأموناً معظماً عند الله صاحب نور إلهيّ.

نكتة: فإن كنت فعالاً بالهمة أرضيت جميع الموجودات عنك إذ كان لك التصرّف في الكل وهو مقام عزيز يعلم ويعقل، ولكن ما حصله أحد من خلق الله فهو مخصوص بالحق، ولا يظهر به الحق إلاّ إذا أخذ أهل النار منازلهم وأهل الجنة منازلهم رضي الكل بما هم فيه بإرضاء الحق، فلا يشتهي واحد منهم يخرج عن منزلته وهو بها مسرور وهو سرّ عجيب ما رأينا أحداً نبّه عليه من خلق الله وإن كانوا قد علموه بلا شك وما صانوه والله أعلم إلاّ صيانة لأنفسهم ورحمة بالخلق، لأن الإنكار يسرع إليه من السامعين، ووالله ما نبهت عليه هنا إلاّ لغلبة الرحمة عليّ في هذا الوقت، فمن فهم سعد ومن لم يفهم لم يشق بعدم فهمه وإن كان محروماً والسلام.

الباب الخمسون ومائة

في معرفة مقام الغيرة التي هي الستر وأسراره

[نظم: السريع]

ما أعجبَ الغَيْرَةَ في العالم ... ووَصْفُنَا الله بها أَعْجَبُ
وقولنا الله غيورٌ على ... ما قرَّر الشرعُ وما نَذْهَبُ
وقد قبلناه ولكنَّه ... من أصعب الأمر الذي يُنْسَبُ
وأنه من حيثُ أفكارُنا ... فرضٌ مُحَالٌ عينه يُنْصَبُ
والكَشْفُ مثلُ الشَّرْع في قوله ... وشأنُ ربِّ الكَشْف لا يُحجَبُ
والأمرُ حقٌّ وهو أعجوبةٌ ... من أجلها عقولُهم تَهْرُبُ
قد جعل الشِّبْلِيُّ في حكمه ... أن لها حكماً وذا أصْعَبُ
وهو من أهل الكَشْفِ في عِلْمنا ... ضَرْبُ مثال عندنا يُضْرَبُ
وعند أهل الفكر في زَعْمِهِمْ ... على الذي يُعْطيهِمُ المَذْهَبُ
بأنها من عالِم زَلَّةٌ ... وهي إلى حكم العَمَى أقرَبُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الغيرة نعت إلهيّ، ورد في الخبر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي سَعْدٍ: **«إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ»** وفي هذا الحديث مسألة عظيمة بين الأشاعرة والمعتزلة وهو حديث صحيح، فالغيرة أثبتها الإيمان ولكن بأداة مخصوصة وهي اللام الأجلية أو من أو الباء، وتستحيل بأداة على وهي التي وقعت من الشبلي إمّا غلطة وإمّا قبل أن يعرف الله معرفة العارفين، فالغيرة في طريق الله هي الغيرة لله أو بالله أو من أجل الله، والغيرة على الله محال، فتحقيق كونها نعتاً إلهياً وهو نعت يطلب الغير ولذا سميت غيرة، فلولا ملاحظة الغير ما سمّيت غيرة ولا وجدت، فالإله القادر يطلب المألوه المقدور وهو الغير فلا بدّ من وجود ما يطلب الإله وجوده، فأوجد العالم على أكمل ما يكون الوجود فإنه لا بدّ أن يكون كذلك لاستحالة إضافة النقص إلى الكامل الاقتدار فلذلك قال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] وهو الكمال، فلو لم يوجد النقص في العالم لما كمل العالم، فمن كمال العالم وجود النقص الإضافي فيه، فلذلك قلنا: إنه وجد على أكمل صورة بحيث أنه لم يبق في الإمكان أكمل منه لأنه على الصورة الإلهية. ورد في الخبر: **«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»** فكان في قوّة الإنسان من أجل الصورة أن ينسى عبوديته ولذلك وصف الإنسان بالنسيان فقال في آدم ﴿ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه: الآية ٨٨] والنسيان نعت إلهيّ، فما نسي إلاّ من كونه على الصورة فما زلنا ممّا كنّا فيه، قال تعالىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] كما يليق بجلاله.

فلما علم الحق أن هذا العبد بما كمله الله به من القوّة الإلهية بالصورة الكمالية لا بدّ أن يدّعي في نعوت ما هو حق لله لطلب الصورة الكمالية لذلك النعت وهو من بعض النعوت الإلهية فغار الحق من المشاركة في بعض نعوت الجلال وشغل الإنسان بما أباح له من باقي النعوت الإلهية، فلما علم أيضاً أنه لا يقف عند ذلك وأنه لا بدّ أن يعطي الصورة الكمالية حقّها في الاتصاف بالنعوت الإلهية وأنها تتعدى ما حجر عليها مثل العظمة والكبرياء والجبروت فقال: الصورة الكمالية حقّها في الاتصاف بالنعوت الإلهية وأنها تتعدّى ما حجر عليها مثل العظمة والكبرياء والجبروت فقال: **«الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ»** وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فهذا هو عين الغيرة، غار على هذه النعوت أن تكون لغير الله فحجرها، وكذلك تحجرت على الحقيقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ فلا يدخل مع هذا الطابع قلب كون من الأكوان تكبر على الله ولا جبروت لأجل هذا الطبع، فعلم كل من أظهر من المخلوقين دعوى الألوهية كفرعون وغيره وتكبّر وتجبّر كل ذلك في ظاهر الكون، وهذا الذي ظهرت منه صفة الكبرياء مطبوع على قلبه أن يدخل فيه الكبرياء على الله، فإنه يعلم من نفسه افتقاره وحاجته وقيام الآلام به من ألم جوع وعطش وهواء ومرض التي لا تخلو هذه النشأة الحيوانية عنه في هذه الدار، وتعذر بعض الأغراض أن تنال مرادها وتألمه لذلك، ومن هذه صفته من المحال أن يتكبر في نفسه على ربه، فهذا معنى الطابع الذي طبع الله على قلب المتكبر الذي يظهر لكم به من الدعوى الجبار يجبركم على ما يريد فمنكم المطيع والمخالف ولو هلك

بمخالفته، ولهذا يرجى حكم السعادة في المآل ولو بعد حين، فإن القلوب ما يدخلها كبرياء على الله لكن يدخلها بعضهم على بعض، قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] وإذا علمت السماء أنها أكبر من خلق الناس كانت موصوفة بالكبرياء على الناس وذلك الكبرياء لا يقدح فيها فهذا معنى الغيرة الإلهية، فلا رافع لما حجره، فلا يتكبر على الله فيما بينه وبين الله أحد من خلق الله هذا محال وقوعه، والقدر الذي وقع عليه التحجير الظاهر عليه وقع الذمّ لمن انتهكه وأضافه إلى نفسه وكذبوا على الله فيه.

وأما الغيرة لله ومن أجل الله وبالله فهو أن يرى الإنسان ما حدّه الحق أن يتعداه الخلق فيقوم به صفة الغيرة لله لا لنفسه، ومن أجل الله لا من أجل نفسه، إذ علم أن الخلق عبيد الله، وأنه من حكم العبد أن لا يتعدى حد ما رسم له سيده، وأما أن يغار على الله فإن الغيرة ستر يحجب المغار عليه حتى لا يكون إلاّ عنده خاصة، وطريق الله مبني على أن ندعو الخلق إلى الله، وأن نردّهم إليه ونحببه إليهم ونعرفهم به وبمكانته، وبهذا أمرنا، والغيرة الكونية تأبى ذلك كله لجهلها بالمغار عليه الذي لا يستحق الغيرة عليه، ولولا الوقوع فيمن انتمى إلى الله وجهل بعض ما ينبغي لله وقصد بذلك الخير ولكن ما علم طريقه وإلاّ كنا نذكر جهل هذا القائل بالغيرة على الله، ولكن يكفي تنبيهنا على أن هذا ليس بصحيح، وإنما التبس على مثل هؤلاء الغيرة لله بالغيرة على الله، وما علموا ما بينهما من الفرقان.

ذكر في باب الغيرة القشيري في رسالته عن بعضهم أنه قيل له: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكراً، وليس هذا بغيرة، فالقشيري أخطأ حيث جعل مثل هذا في باب الغيرة من كتابه، وتخيّل أن الشبلي في حال رؤية الذاكرين الله على الغفلة وبعدم الحرمة مثل من يذكره بلغو الأيمان والأيمان الفاجرة، وذكر الله في طلب المعاش في الأسواق فغار أن يذكر بهذه الصفة لما لم يوف المذكور حقّه من الحرمة عند الذكر، والشبلي ما يبعد أن يكون هذا قصده بذلك القول في بدء أمره وفي وقت حجابه عن معرفة ربه. وأما مع المعرفة فلا يكون هذا يعني قوله إذا لم أر له ذاكراً، وأن معنى ذلك عندنا في حق كبراء العارفين أن الذكر لا يكون مع المشاهدة، فلا بدّ للذاكر أن يكون محجوباً وإن كان الله جليس الذاكر ولكنه من وراء حجاب الذكر، وكل من هو خلف حجاب من مطلوبه فإنه لا راحة عنده، فإذا رفع الحجاب وقعت المشاهدة وزال الذكر بتجلي المذكور، فلذلك قال: إنما أستريح إذا لم أر له ذاكراً، فطلب أن تكون مشاهدته تمنعه عن إدراك الذاكرين، أو تمنى للذاكرين أن يكونوا في مقام الشهود الذي يمنعهم من الذكر، إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، على هذا يخرج قول هذا الرجل إن كان من العارفين، وعلى ذوق آخر وهو أنه لا يستريح إلاّ إذا رأى إن الذكر هو الله لا الكون إذا كان الحق لسانه كما هو سمعه وبصره ويده فيستريح لأنه رأى أنه قد ذكره من يعلم كيف يذكره، إذ كان هو الذاكر نفسه بلسان عبده فاستراح عند ذلك فلم ير له ذاكراً غيره.

وأما غيرة الرسول وأكابر الأولياء فغيرتهم لله كما قلنا وهي غيرة أدب، والغيرة كتمان ما ينبغي أن يكتم لعدم احترامه لو ظهر عند من لا يقدر قدره كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] فمن الغيرة ستر مثل هذا، ومن الغيرة الإلهية ستره لضنائنه من أهل الخصوص في كنف صونه فلا يعرفون وذلك رحمة بالخلق، فإنه تعالىٰ لو أبدى مكانتهم ورتبتهم العلية لمن علم منه أنه لا بدّ أن يجري الأذى على يديه في حق هذا المقرب المجتبى ثم جرى منه ذلك الأذى في حقّه لكان عدم احترام للجناب الإلهيّ حيث لم يعظم ما عظمه الله فسترهم عن العلم بهم فما احترموهم وآذوهم لجهلهم بهم وذلك لما قدره الله، ولهذا تسأل هذا الذي آذى ذلك العبد المقرب من نبيّ أو صديق فتقول له من غير تعيين: ما عندك في أولياء الله؟ فيجد عنده من الحرمة لهم والتبرّك بذكرهم والخضوع تحت أقدامهم لو وجدهم، فإذا قلت له: هذا منهم وهو منهم لم يقم عنده تصديق بذلك ولو جئته بأمر معجز، وكل آية ما قدر يعتقد أن ذلك آية ولا أعطته علماً فما آذى إلاّ من جهل لا من علم، وممّا يؤيد ما ذكرناه أنه لو حسن الظنّ بشخص وتخيّل أنه من أولياء الله وليس كذلك في نفس الأمر عظّمه واحترمه، هذا في فطرة كل مخلوق، فما قصد أحد انتهاك حرمة الله في أوليائه وهذا من غيرة الحق. فإن قلت: فقد آذوا الله مع علمهم بأنه الله. قلنا في الجواب عن ذلك: ما علموا أن ذلك أذى وأنهم تأوّلوا فأخطأوا في نفس الأمر لحكم الشبهة التي قامت لهم وتخيّلوا أنها دليل وهي في نفس الأمر ليست كذلك، وهذه كلها من الحق في عباده أمور مقدرة لا بدّ من وقوعها، فمن غيرته حجابهم عن العلم به وبالخاصة من عباده، فجناب الله وأهل الله على الإطلاق محترمون ما لم تعين أو يتأوّل فاعلم ذلك.

الباب الحادي والخمسون ومائة

في معرفة مقام ترك الغيرة وأسراره

[نظم: الرجز]

مَن يُوْقَ شُحَّ نفسه فهو الذي ... بنوره في كل أمر يُهتَدَى

وغَيْرَةُ العبد إذا حقَّقتَها ... شُحٌّ طبيعيٌّ من اسباب الرَّدَى

وغَيْرَة الحقّ إذا عَلِمْتَها ... من رؤية الغَيْر ولا غيرٌ بَدَا

فلا تَقُلْ بغَيْرة فإنها ... مشتقَّةٌ من غير فاتركها سُدَى

وأين عينُ الغير وهو عَدَمٌ ... فاسلُكْ هُدِيْتَ الرُّشْدَ أسبابَ الهُدَى

وانسُبْ إلى الباريء ما قال وما ... جاء به شَرْعٌ ولكن ابْتَدَا

ممّا لَوَ اَنَّ العقلَ يبقى وحدَهُ ... ما قاله معتقداً وقدّدا

فإن يكن بَعْدُ سؤالٌ قاله ... فهو دواءٌ وهو بالبرهان دا

فالحقُّ ما قرّره الشرعُ ولو ... دلَّ على كل مُحَالٍ وبَدا

فالمؤمنُ الحقُّ بهذا مؤمنٌ ... وكل من أوّلَهُ قَدِ اعتَدَى

لأنه ظنَّ وبعضُ الظنِّ قد ... يكون إثماً قائداً نحو الرَّدَى

إذا اقتضى نظر العبد العارف ظهور الحق في أعيان الممكنات الثابتة وأنها ما استفادت

منه الوجود وإنما استفادت منه ما ظهر ممّا هي عليه من الحقائق عند ظهوره فيها، فأعطته كل وصف ونعت اتصف به ممّا تضيفه بطريق الحقيقة إلى الإنسان أو العالم كيفما شئت. قلت: ومن جملة النعوت الغيرة المحكوم بها في نسبة ما ظهر به الظاهر لظهور آخر لحكم آخر من عين آخر، فإذا كانت العين واحدة فلا غيرة إذ لا غير، وإذا نزلت عن هذا النظر إلى قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] لم يصحّ وجود الغيرة، فإن الغيرة متعلقها النسب أو قل الأعمال وهي كلها لله، فعلى من تقع الغيرة وما هو، ثم إذ كانت النسب والأعمال كلها لله والغيرة المعلومة الظاهرة في الكون شحّ طبيعيّ والشحّ في ذلك الجناب العالي وفي الأرواح العلى لا يصحّ، فإذا ظهرت فمن النفس الحيوانية ولهذا توجد الغيرة في الحيوانات، وأصلها ضيق الملك وفقد الغرض، فالكرم المطلق لا يكون معه غيره أصلاً.

الباب الثاني والخمسون ومائة

في مقام الولاية وأسرارها

[نظم: البسيط]

إن الولايةَ عندَ العارفين بها ... نَعْتُ اشتراكٍ ولكنْ فيه إشْرَاكُ

حِبَالَةٌ نُصِبَتْ للعارفين بها ... صَيْدُ العقول وسيْفُ الشَّرْع بتَّاكُ

والعبدُ ليس له في حُكْمها قَدَمٌ ... وكيف يَقْضي بشيء فيه إشراكُ

إن تنصروا الله ينصُرْكُم فقد نَزَلَتْ ... وعينُ تحقيقها ما فيه إدراكُ

وما الإلهُ بمحتاجٍ لنصرتنا ... وقد أتتْكُمْ به رُسْلٌ وأمْلاكُ

فَسَلِّمَنْهُ إلى من جاء منه وقُلْ ... العَجْزُ عن دَرَكِ الإدراك إدراكُ

الولاية نعت إلهيّ وهو للعبد خلق لا تخلق، وتعلّقه من الطرفين عام، ولكن لا يشعر بتعلّقه عموماً من الجناب الإلهيّ، وعموم تعلّقه من الكون أظهر عند الجميع، فإن الولاية نصر الوليّ أي نصر الناصر، فقد تقع لله وقد تقع حمية وعصبية، فلذلك هو عام التعلّق. ولما كان هذا النعت للإله كان عام التعلّق، وهكذا كل نعت إلهيّ لا بدّ أن يكون عام التعلّق، وإن لم يكن كذلك فليس بنعت إلهيّ، لكن بعض النعوت مثل نعت الولاية لا ينسبه الله لنفسه إلاّ بتعلّق خاص للمؤمنين خاصة والصالحين من عباده وهو ذو النصر العام في كل منصور. ولما كان نعتاً إلهياً هذا النصر المعبر عنه بالولاية وتسمّى سبحانه به وهو اسمه الولي وأكثر ما يأتي مقيداً كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧] سرى في كل ما ينسب إليه إلهية ممّا ليس بإله، ولكن لما تقرر في نفس المشرك أن هذا الحجر أو هذا الكوكب أو ما كان من المخلوقات أنه إله وهو مقام محترم لذاته تعين على المشرك احترام ذلك المنسوب إليه لكون المشرك يعتقد أن تلك النسبة إليه صحيحة ولها وجه.

ولما علم الله سبحانه أن المشرك ما احترم ذلك المخلوق إلاّ لكونه إلهاً في زعمه نظر

الحق إليه لأنه مطلوبه، فإذا وفى بما يجب لتلك النسبة من الحق والحرمة وكان أشد احتراماً لها من الموحد وتراءى الجمعان كانت الغلبة للمشرك على الموحد، إذ كان معه النصر الإلهيّ لقيامه بما يجب عليه من الاحترام لله، وإن أخطأ في النسبة وقامت الغفلة والتفريط في حق الموحّد فخذل ولم تتعلق به الولاية لأنه غير مشاهد لأيمانه، وإنما قاتل ليقال فما قاتل لله فإن الله يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فأي شخص صدق في احترام الألوهية واستحضرها وإن أخطأ في نسبتها ولكن هي مشهودة كان النصر الإلهيّ معه غيرة إلهية على المقام الإلهيّ فإنه العزيز الذي لا يغلب، فما جعل نصره واجباً عليه للموحد وإنما جعله للمؤمن بما ينبغي للألوهية من الحرمة ووفى بها من وفى، وهذا من أسرار الولاية التي لا يشعر بها كل عالم فإن هذا لسان خصوص، وأما لسان العموم في هذه الآية وهو: ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنقول: إن الموحّد إذا أخلص في إيمانه وثبت نصر على قرنه بلا شك فإذا طرأ عليه خلل ولم يكن مصمت الإيمان وتزلزل خذله الحق وما وجد في نفسه قوّة يقف بها لعدوه من أجل ذلك الخلل فانهزم، فلما رآه عدوه منهزماً تبعه وظهرت الغلبة للعدو وعلى المؤمن فما نصر الله العدو، وإنما خذل المؤمن لذلك الخلل الذي داخله فلما خذله لم يجد مؤيّداً فانهزم فبالضرورة يتبعه عدوه فما هو نصر للعدو وإنما هو خذلان للمؤمن لما ذكرناه، هذا لسان العموم في هذه المسألة، فالولاية من الله عامة في مخلوقاته من حيث ما هم عبيده، وبهذه الولاية تولاهم في الإيجاد.

ولما كان متعلق الولاية المؤمنين لذلك أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] ولم يقل لهم ألست بواحد لعلمه بأنه إذا أوجدهم أشرك بعضهم ووحد بعضهم واجتمعوا في الإقرار بالربوبية له وزاد المشرك الشريك. ثم إنه سبحانه من عموم ولايته أن تولاهم بالوجود في أعيانهم ويحفظ الوجود عليهم وبتمشية أغراضهم، وتولاهم بما رزقهم ممّا فيه قوام عيشهم ومصالحهم عموماً، ووفق من وفق منهم بولايته لوضع نواميس جعلها في نفوسهم من غير تنزّل الذي هو الشرع، فوضعها حكماء زمانهم وذوو الرأي منهم العلماء بما يصلح العالم فتولاهم سبحانه بأن قرّر في أنفسهم ما ينبغي أن تكون به المصلحة لهم مراعاة لكل جزء منهم، فإن كل جزء من العالم مسبّح لله تعالىٰ من كافر وغير كافر، فإن أعضاء الكافر كلها مسبحة لله ولهذا يشهد عليه يوم القيامة جلده وسمعه وبصره ويده ورجله، غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح وسريان هذه العبادة في الموجودات وهذا من توليه سبحانه.

ثم إنه تولاهم بإنزال الشرائع الصادقة المعرفة بمصالح الدنيا والآخرة، ثم تولاهم بما أوجد من الرحمة فيهم التي يتعاطفون بها بعضهم على بعض في الوالدين بأولادهم في تربيتهم، وبالأولاد على والديهم من البرّ بهم والاعتماد عليهم، وبما جعل من شفقة المالكين على مماليكهم وعلى ما يملكونه من الحيوانات، وتولّى الحيوان بما جعل فيهم من عطف الأمهات على أولادها في كل حيوان يحتاج الولد إلى تدبير أمه، وتولاهم بالأغراض ليهون عليهم المشقات، ويسمّى مثل هذا تسخيراً فيخرج الشخص لنيل غرضه فيما يزعم وهو من

حيث التولي الإلهي ما خرج إلاَّ في حق الغير وهو يتوهم أنه في حق نفسه كالتجار وأمثالهم فألقى في نفس التاجر المسافر طلب الربح في تجارته فقام طيباً نشيط النفس واشترى من البضاعات ما يحتاج إليه أهل ذلك البلد الذي يقصده، فيجوب الأمصار ويركب البحار ويتعدّى الأماكن القريبة من أجل حاجة أهل البلد الذي يقصده بما جعل الله في قلبه من ذلك بولايته، فإذا وصل إلى ذلك البلد باع بربح أو خسارة ونال أصحاب تلك المدينة أغراضهم ووصلوا إلى حوائجهم، وهذا المسخر يتخيل في نفسه أنه ليس بمسخر وإنما سافر ليكسب، فلو خرج بنية التسخير وجعل الكسب تبعاً كان مستريح الخاطر إن كسب وإن لم يكسب، فلهذا قلنا إن ولاية الله عامة التعلّق لا تختص بأمر دون أمر، ولهذا جعل الوجود كله ناطقاً بتسبيحه عالماً بصلاته فلم يتول الله إلاَّ المؤمنين وما ثم إلاَّ مؤمن والكفر عرض، عرض للإنسان بمجيء الشرائع المنزّلة، ولولا وجود الشرائع ما كان ثم كفر بالله يعطي الشقاء ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] وما جاءت الشرائع إلاَّ من أجل التعريف بما هي الدار الآخرة عليه، ولو كانت مقصورة على مصالح الدنيا لوقع الاكتفاء بالنواميس الحكمية المشروعة التي ألهم الله من ألهم من عباده لوضعها لوجود المصالح، فهذه ولاية الحق وأسرارها وهي الولاية العامة وولاية الولاية الكونية البشرية والملكية منها ويكفي هذا القدر.

ولما جعلهم الله أولياء بعضهم لبعض فقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٣] والمؤمنات، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٣] فجعل الولاية بينهم تدور، قال عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٩] لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧] من طغى إذا ارتفع، وقال في حق نفسه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] وهم يعتقدون في الطاغوت الألوهية كما تقدم فلذلك رفعوه، فما عبدوا إلاَّ الرفيع الدرجات ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٠] فاجعل بالك وتدبره تعثر على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣]. انتهى الجزء الخامس ومائة.

(الجزء السادس ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والخمسون ومائة

في معرفة مقام الولاية البشرية وأسرارها

[نظم: البسيط]

مِنْ صُورةِ الحقِّ نلنا من ولايته ... جميعِها فَلَنا في الحرب إقدامُ
لنا الخلافةُ في الدنيا محقَّقةً ... وما لها في جنان الخُلْد أحكامُ
إنا على النِّصْفِ من جنَّاتنا أبداً ... وما لنا في كثيب العين أقدامُ
وهو الكمالُ كمالُ الذات يجمعنا ... فيه ابتهاجٌ بنا ما فيه آلامُ

ودار دنيـاك أمـراضٌ وعـافيـةٌ تـعـصـي الأوامـرَ فـيـهـا وهـو عَـلاَّمُ
يـقـول افـعـلْ فـلا تـسـمَـعْ مـقـالـتَـه ولا يـرى مـنـه عـنـد الـنَّـقْـض إبـرامُ
لـذاك قـلـنـا فـلـم تـسـمَـعْ مـقـالـتَـنَـا وفـيـه لله إتـقـان وإحـكـامُ
لـو قـال مـن قـال كُـنْ بـنَـعْـتِ خـالِـقِـهِ بَـدَتْ لـعـيـنـك أرواحٌ وأجـسـامُ
لـذاك خـصَّ مـن الألـفـاظ لـفْـظَـةَ كُـنْ لـهـا الـوجـودُ ومـا فـي الـكـون إعـدامُ

الولاية البشرية قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة محمد: الآية ٧] وقوله أمراً: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] فعلمنا أنه لو لم يكن ثم مقابل لوجود الحق ولوجوب وجوده يطلبنا ذلك المقابل بالنصر لنكون في قبضته وملكه على وجود الحق ما قال الله لنا: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ على هذا المقابل المنازع وهذه تعرف بالمقابلة المعقولة. ولما كان الحق تعالىٰ له صفة الوجود وصفة وجوب الوجود النفسي وكان المقابل يقال له العدم المطلق وله صفة يسمّى بها المحال فلا يقبل الوجود أبداً لهذه الصفة فلاحظ له في الوجود، كما لاحظ للوجوب الوجود النفسي في العدم. ولما كان الأمر هكذا كنا نحن في مرتبة الوسط نقبل الوجود لذاتنا ونقبل العدم لذاتنا ونحن لما نقبل عليه فيحكم فينا بما يعطيه حقيقته ونكون ملكاً له ويظهر سلطانه فينا، فصار العدم المحال يطلبنا أن نكون ملكاً له، وصار الحق الواجب الوجود لنفسه يطلبنا لنكون ملكه ويظهر فينا سلطانه ونحن على حقيقة نقبل بها الوصفين، ونحن إلى العدم أقرب نسبة منا إلى الوجود، فإنا معدومون ولكن غير موصوفين بالمحال، لكن نعتنا في ذلك العدم الإمكان وهو أنه ليس في قوتنا أن ندفع عن نفوسنا الوجود ولا العدم، لكن لنا أعيان ثابتة متميزة عليها يقع الخطاب من الطرفين فيقول العدم لنا: كونوا على ما أنتم عليه من العدم لأنه ليس لكم أن تكونوا في مرتبتي، ويقول الحق لكل عين من أعيان الممكنات: ﴿كُن﴾ فيأمره بالوجود فيقول الممكن: نحن في العدم قد عرفناه وذقناه وقد جاءنا أمر الواجب الوجود بالوجود وما نعرفه وما لنا فيه قدم، فتعالوا ننصره على هذا المحال العدمي لنعلم ما هذا الوجود ذوقاً فكانوا عند قوله: ﴿كُن﴾ فلما حصلوا في قبضته لم يرجعوا بعد ذلك إلى العدم أصلاً لحلاوة لذة الوجود وحمدوا رأيهم ورأوا بركة نصرهم الله على العدم المحال. فالعالم من حيث جوهريته ناصر لله فهو منصور أبداً.

وجاءت الأعراض فقبلت الوجود فلما ذاقته وعلمته دعاها العدم إلى نفسه وقال لها: إليّ مردّك لأنك عرض ولا بقاء لك في الوجود، إذ العارض حقيقته أنه لا بقاء له فارجع إليّ عن أمري، فلذلك دلّ دليل العقل أن العرض ينعدم لنفسه، إذ الفاعل لا يفعل العدم لأنه حكم لا شيء موجود، فانعدمت الأعراض في الزمان الثاني من زمان وجودها، فحصلت في قبضة العدم المحال فلم ترجع بعد ذلك إلى الوجود بل يوجد الله أمثالها فتشبهها في الحدّ والحقيقة وما هي أعيان تلك التي وجدت وانعدمت للاتساع الإلهي، فهذه ولاية ما سوى الله أي نصر ما سوى الله لله، وهذا من أسرار الولاية البشرية ومدركها عسير، فإن مبناه على العلم بمراتب المعلومات، فإذا فهمت هذا فاعلم أن الولاية البشرية على قسمين: خاصة وعامة، فالعامة

توليهم بعضهم بعضاً بما في قوتهم من إعطاء المصالح المعلومة في الكون فهم مسخرون بعضهم لبعض، الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى، وهذا لا ينكره عاقل فإنه الواقع، فإن أعلى المراتب الملك، فالملك مسخّر في مصالح الرعايا والسوقة، والرعايا والسوقة مسخّرون للملك، فتسخير الملك الرعايا ليس عن أمر الرعايا، ولكن لما تقتضيه المصلحة لنفسه وتنتفع الرعايا بحكم التبع لا أنهم المقصودون بذلك الانتفاع الذي يعود عليهم من التسخير، وتسخير الرعايا على الوجهين: الوجه الواحد يشاركون فيه الملك من أنهم لا يبعثهم على التسخير إلاّ طلب المنفعة العائدة عليهم من ذلك كما يفعله الملك سواء، والتسخير الثاني ما هم عليه من قبول أمر الملك في العسر واليسر والمنشط والمكره وبهذا ينفصلون عن تسخير الملوك فهم أذلاء أبداً لا يرتفع لهم رأس مع حاجة الملوك إليهم وهذا هو القسم العام.

وأما القسم الخاص فهو ما لهم من الولاية التي هي النصرة في قبول بعض أحكام الأسماء الإلهية على غيرها من الأسماء الأخر بمجرّد أفعالهم وما يظهر في أكوانهم لكونهم قابلين لآثار الأسماء فيهم، فينزلون بهذه الولاية منازل الحقائق الإلهية، فيكون الحكم لهم مثل ما هو الحكم للأسماء بما هم عليه من الاستعداد، وهذه الولاية في أصحاب الأحوال أظهر في العامة من ظهورها في أصحاب المقامات، وهي في أصحاب المقامات في الخصوص أظهر من ظهورها في أصحاب الأحوال ولكن مدركها عسير، فإن صاحب المقام على العادة المستمرة وهو متغير في كل زمان مع كل نفس لأنه في كل نفس في شأن إلهيّ لا علم لكل أحد به مع قيامه به من حيث لا يشعر فلا يحمد عليه، وهذا الخاص يحمد عليه وصاحب الحال خارق للعادة فتحيد إليه الأبصار وتقبل عليه النفوس وهو ثابت مدة طويلة على حالة واحدة لا يشعر لتغيرها عليه ويحجبه عن معرفة ذلك حبّه لسلطنته التي أعطاها الحال فهو على النقيض من صاحب المقام، ولو استشعر بنقصه في مرتبته لما رغب في الحال فإنه يدل على جهله.

ولصاحب هذا المقام أحوال مختلفة: منها حال الأمانة، وحال الدنو، وحال القرب، وحال الكشف، وحال الجمع، وحال اللطف، وحال القوّة، وحال الحماسة، وحال اللين، وحال الطيب، وحال النظافة، وحال الأدب، فإذا تجلى في السلطنة ارتاض وقيل فيه سلطان، وإذا تجلى في الجلال تأدّب فهو أديب، وفي تجلّي الجمال نظيف، وفي تجلّي العظمة طاهر زكي قدوس، وإذا تجلّى في الطيب عطر عرفه، وفي الهيبة جعله سيداً، وفي اللطف ذوّبه، وفي الحسن عشقه فروحنه، فللأولياء التفريع والإقبال، ولهم الستور والحجاب إذا قرّبهم صانهم وسترهم وخبأهم فجهلوا، وإذا عاقبهم وليسوا بأنبياء أظهر عليهم خرق العوائد فعرفوا فحجبوا الخلق عن الله وهم مأمورون بدعوتهم إلى الله، فالحق لأصحاب المقامات من الأولياء مطيع ولكلامهم سميع، لهم جميع المقامات والأحوال، وهم ذكران الرجال لا يلحقهم عيب ولا يقوم بهم فيما هم فيه ريب، لهم الآخرة مخلصة كما هي لله، ولهم الدنيا ممتزجة كما هي لسيدهم، فهم بصفات الحق ظاهرون ولذلك جهلوا.

الباب الرابع والخمسون ومائة
في معرفة مقام الولاية الملكية

[نظم: البسيط]

إن الـولايـةَ تَـوْقـيـفٌ عـلـى الـخـبـرِ ... مـن الـمـهـيـمـن فـي الأمـلاك والـبَـشَـرِ
وفـي مـلائـكـة الـتَّـسْـخـيـر أَظْـهَـرَهـا ... ربُّ الـعـبـاد مِـنَ أهـل الـنَّـفْـع والـضَّـرَرِ
أمـا مـلائـكـةُ الـتَّـهْـيَـام لـيـس لـهـم ... فـيـهـا نـصـيـبٌ عـلـى مـا جـاء فـي الـخَـبرِ
مُـهَـيَّـمُـون سـكـارَى مـن مـحـبَّـتـه ... لا يـعـلـمـون بـعـيـنٍ لا ولا أَثَـرِ
الله أكْـرَمـهـم الله قـرَّبـهـم ... الله خَـصَّـهُـمُ بـالـمَـشْـهـد الـخَـطِـرِ
إنـي فـدَيْـتُـهُـمُ مـن كـل حـادثـةٍ ... لا يـعـلـمـون بـهـا بـالـسَّـمْـع والـبَـصَـرِ

اعلم أن الملائكة ثلاثة أصناف: صنف مهيم لما أوجدهم تجلّى لهم في اسمه الجميل فهيمهم وأفناهم عنهم فلا يعرفون نفوسهم ولا من هاموا فيه ولا ما هيمهم فهم في الحيرة سكارى، وهم الذين أوجدهم الله من أينية العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء، وهم وجميع الملائكة أرواح خلقهم الله في هياكل أنوار كسائر الملائكة، إلاّ أن هؤلاء الملائكة ليس لهم من الولاية إلاّ ولاية الممكنات التي ذكرناها في شرح: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة محمد: الآية ٧]. والصنف الثاني الملائكة المسخرة ورأسهم القلم الأعلى وهو العقل الأوّل سلطان عالم التدوين والتسطير وكان وجودهم مع العالم المهيم، غير أنه حجبهم الله عن هذا التجلي الذي هيم أصحابهم لما أراد الله أن يهبه هذا الصنف المسخّر من رتبة الإمامة في العالم، وله ولاية تخصّه وتخصّ ملائكة التسخير. والصنف الثالث: ملائكة التدبير وهي الأرواح المدبرة للأجسام كلها الطبيعية والنورية والهبائية والفلكية والعنصرية وجميع أجسام العالم، ولهؤلاء ولاية أيضاً فأما ملائكة التسخير فولايتهم أعني نصرتهم للمؤمنين إذا أذنبوا وتوجهت عليهم أسماء الانتقام الإلهية، وتوجهت في مقامات تلك الأسماء أسماء الغفران والعفو والتجاوز عن السيئات فتقول الملائكة ما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧] ما يزيدون على ذلك في حق المؤمن العاصي غير التائب اتكالاً منهم على علم الله فيما قصدوه في ذلك الكلام أدباً مع الله سبحانه حيث إنه استحق جناب الله على أهل الله أن يغار من أجله ويدعي على من عصاه ولم يقم بأمره وما ينبغي لجلاله، فإن الملائكة أهل أدب مع الله فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ بقولك: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وهؤلاء العصاة من الداخلين في عموم لفظة كل، وعلماً من قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] فهذا مثل قول العبد الصالح الذي أخبرنا الله بقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] فتأدّب مع الله في هذا القول لما عصى قومه الله تعالىٰ ولم يتوبوا فعلم الله منه أنه تأدّب مع الله وأنه عرّض بالمغفرة لما علم أن رحمته سبقت غضبه، غير أن نفس

الملائكة أقوى في الأدب لأنهم أعلم بالله من هذا العبد وما ينبغي لجلال الله فلم يقولوا: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وإنما قالوا: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فهذا يسمّى تعريض تنبيه على أن الحق بهذه المثابة كما أخبر عن نفسه فقولهم: ﴿ رَّحْمَةً﴾ [سورة غافر: الآية ٧] فقدّموا ذكر الرحمة لأنه تعالىٰ قدّمها لما ذكر عبده خضراً فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] قبل أن يذكر ما أعطاه.

ثم ذكر بعد ذلك الذي أعطاه من أجل رحمته به فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فلهذا قدّمت الملائكة الرحمة وسكتت عن ذكر العصاة في دعائها، فبين كلمة عيسىٰ في حق قومه، وبين دعاء الملائكة في حق العبيد العصاة من الأدب بون كثير لمن نظر واستبصر، ولهذا قام النبيّ محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] ليلة كاملة ما زال يردّدها حتى طلع الفجر، إذ كانت كلمة غيره فكان يكرّرها حكاية وقصده معلوم في ذلك، كما قيل في المثل: إياك أعني فاسمعي يا جارة. ولم يقم ليلة كاملة بآية قول الملائكة لأن مناسبته لعيسىٰ أقرب، ومناسبة عيسىٰ للملائكة أقرب، لأن جبريل توجّه على أمه مريم في إيجاد عيسىٰ بشراً سوياً، فسلك محمد ﷺ طريقاً بين طريقين في طلب المغفرة لقومه، فهذا استنصارهم الله في حق المؤمنين العصاة، وأما نصرتهم بالدعاء لمن تاب منهم فهو قولهم: ربنا ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: الآية ٧] فصرّحوا بذكرهم لما كان هؤلاء قد قاموا في مقام القرب الإلهيّ بالتوبة وقرعوا بابها في رجعتهم إلى الله والملائكة حجبة الحق، فطلبوا من الله المغفرة لهم لما اتصفوا بالتوبة وهذا من الأدب.

ثم إنهم لما عرفت الملائكة أن بين الجنة والنار منزلة متوسطة وهي الأعراف، فمن كان في هذه المنزلة ما هو في النار ولا في الجنة، وعلمت من لطف الله بعباده أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فقالت الملائكة بعد قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي لا تنزلهم في الأعراف بل أدخلهم الجنة ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ الواو هنا بمعنى مع، يقولون مع من صلح ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: الآية ٨] كما قال العبد الصالح: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٨] ولم يقل واحد منهم: إنك أنت الغفور الرحيم أدباً مع الجناب الإلهيّ من الطائفتين، فاجتمعوا بذكر هذين الاسمين في حضرة الأدب مع الله، ثم زادت الملائكة في نصرتها للملائكة الموكلين بقلوب بني آدم، وهم أصحاب اللمات ينصرونهم بالدعاء على أعدائهم من الشياطين أصحاب اللمات الموكلين المسلطين على قلوب العباد المنازعين لما تلقى الملائكة على قلوب بني آدم في لماتها فقالوا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ نصرة للملائكة على الشياطين، ثم تلطفوا في السؤال بقولهم: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ﴾ [سورة غافر: الآية ٩] ثم من نصرتهم لمن في الأرض من غير تعيين مؤمن من غيره قول الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥] مطلقاً من غير تعيين أدباً مع

الله والأرض جامعة، فدخل المؤمن وغيره في هذا الاستغفار.

ثم إن الله بشّر أهل الأرض بقبول استغفار الملائكة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥] ولم يقل: الفعّال لما يريد، ولهذا أيضاً قلنا: إن مآل عباد الله إلى الرحمة وإن سكنوا النار فلهم فيها رحمة لا يعلمها غيرهم، وربما تعطيهم تلك الرحمة إن لو شمّوا رائحة من روائح الجنة تضرّروا بها كما تضرّ رياح الورد والطيب بأمزجة المحرورين، فهذا كله من ولاية الملائكة فعمّ نصرهم بحمد الله فنعم الإخوان لنا.

وأما نصرهم المؤمنين على الأعداء في القتال فإنهم ينزلون مدداً بالدعاء، وفي يوم بدر نزلوا مقاتلين خاصة وكانوا خمسة آلاف وفيه استرواح إذ ليس بنص بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٠] فكانوا من الملائكة أو هم الملائكة الذين قالوا في حق آدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فأنزلهم في يوم بدر فسفكوا الدماء حيث عابوا آدم بسفك الدماء فلم يتخلفوا عن أمر الله. وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٦] أي من عادة البشرية أن تسكن إلى الكثرة، إذ كان أهل بدر قليلين والمشركون كثيرين، فلما رأوا الملائكة وهم خمسة آلاف والمسلمون ثلاثمائة والمشركون ألف رجل اطمأنت قلوب المؤمنين بكثرة العدد مع وجود القتال منهم فما اطمأنوا به برؤيتهم وحصل لهم من الأمان في قلوبهم حتى غشيهم النعاس إذ كان الخائف لا ينام، وما ذكر في الكثرة أكثر من خمسة آلاف لأنّ الخمسة من الأعداد تحفظ نفسها وغيرها وليس لغيرها من الأعداد هذه المرتبة، فحفظ الله دينه وعباده المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين أي أصحاب علامات يعرفون بها أنهم من الملائكة، أو الملائكة الذين قالوا في حقّنا نسفك الدماء فنصرونا على الأعداء بما عابوه علينا إذ أمرهم الله بذلك، ولولاية الملائكة وجوه ومواقف متعددة، ولكن ذكرنا حصر المراتب التي نبّه الله عليها فنصروا أسماء الله وهو أعلى المقامات، ونصروا ملائكة اللمات، ونصروا المؤمنين، ونصروا التائبين، ونصروا من في الأرض، وما ثم من يطلب نصرهم أكثر من هذا، فانحصرت مراتب النصر.

ثم إن الله أثنى عليهم بأنهم يسبحون بحمد ربهم استفتاحاً إيثاراً لجناب الله، ثم بعد ذلك يستغفرون وهو الذي يليق بهم تقديم جناب الله، ولهذا ما قام رسول الله ﷺ في مقام للناس يخطبهم إلاَّ قدم حمد الله والثناء عليه ثم بعد ذلك يتكلم بما شاء ولذلك قال: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ أَوْ قَالَ بِذِكْرِ اللَّهِ ـ فَهُوَ أَجْذَمُ**»» أي مقطوع عن الله، وإذا كان مقطوعاً عن الله فإن شاء الله قبله، وإن شاء لم يقبله، وإذا بدىء فيه بذكر الله فكان موصولاً به غير مقطوع عن الله، أي ليس بأجذم فذكر الله مقبول فالموصول به مقبول بلا شك.

ثم إنه من علم الملائكة أنهم ما يسبحون في هذه الأحوال إلاَّ بحمد ربهم والرب

المصلح ولا يرد الإصلاح إلاّ على فساد وما ذكر الله عنهم أنهم يسبحون بحمد غيره من الأسماء الإلهية إذ قال الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] فعلموا أن المتوجه على العالم إنما هو الاسم الرب، إذ كان الغالب على عالم الأرض سلطان الهوى وهو الذي يورث الفساد الذي قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فعلموا ما يقع لعلمهم بالحقائق، وكذا وقع الأمر كما قالوه، وإنما وقع الغلط عندهم في استعجالهم بهذا القول من قبل أن يعلموا حكمة الله في هذا الفعل ما هي، وحملهم على ذلك الغيرة التي فطروا عليها في جناب الله، لأن المولد من الأضداد المتنافرة لا بدّ فيه من المنازعة، ولا سيما المولد من الأركان فإنه مولد من مولد من مولد من مولد، ركن عن فلك عن برج عن طبيعة عن نفس، والأصل الأسماء الإلهية المتقابلة، ومن هنالك سرى التقابل في العالم فنحن في آخر الدرجات، فالخلاف فيما علا عن رتبة المولد من الأركان أقل وإن كان لا يخلو، ألا ترى إلى الملأ الأعلى كيف يختصمون وما كان لرسول الله ﷺ علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون حتى أعلمه الله بذلك، وسبب ذلك أن أصل نشأتهم أيضاً تعطي ذلك، ومن هذه الحقيقة التي خلقوا عليها قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهو نزاع خفيّ للربوبية من خلف حجاب الغيرة والتعظيم، وأصل النزاع والتنافر ما ذكرناه من الأسماء الإلهية المحيي والمميت والمعزّ والمذلّ والضار والنافع، ولا ينبغي أن يكون الإله إلاّ من هذه أسماؤه مضاف إليها مشيئته وإرادته المقيدتان بلو، وهو حرف امتناع فيه سرّ خفيّ لأهل العلم بالله، فإذا علمت هذا أقمت عذر العالم عند الله، ولهذا كانت الملائكة تبدأ في نصرتها ودعائها بتسبيح ربها والثناء عليه بمثل هذه الأسماء تعريضاً أن أصل ما هم فيه من حقائق قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٦] ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٨] أي الكل بيدك، وحينئذ يستغفرون إقامة لعذرهم عند الله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣].

فكل علم في العالم مستنبط من العلم الإلهي فهو العلم العام ولا يعرفه إلاّ نبيّ أو وليّ مقرّب مجتبى من ملك وبشر. وأما النظر العقلي فإنه لا يصل إلى هذا العلم أبداً من حيث فكره ونظره في الأدلة التي يستقل بها، فهذا قد أريتك بعض ما هي عليه الولاية الملكية إلى ما فوق ذلك من تسخيرهم في إنزال الوحي ومصالح العالم من هبوب رياح ونشء سحاب وإنزال مطر إذ كانوا الصافات، والزاجرات، والتاليات، والمرسلات، والناشرات، والفارقات، والملقيات، والنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، والمقسمات، وهؤلاء كلهم من ملائكة التسخير، وولاية كل صنف من مرتبته التي هو فيها.

وأما ملائكة التدبير وهم الأرواح المدبرة أجسام العالم المركب، وهذه المدبرة هي النفوس الناطقة، فإن الولاية فيها نصرتها لله فيما جعل في أخذها به سعادتها وسعادة جسدها الذي أمرت بتدبيره فيأتي الطبع فيزيد نيل غرضه فينظر العقل ما حكم الشرع الإلهيّ في ذلك

الغرض، فإن رآه محموداً عند الله أمضاه، وإن رآه مذموماً نبّه النفس عليه وطلب منها النصرة على قمع هذا الغرض المذموم فساعدته فنصرت العقل بقبول الخير، وذلك لتكون كلمة الله المشروعة هي العليا على كلمة الله في الذين كفروا التي هي السفلى، كما كانت الصدقة تقع في يد السائل وهي السفلى، والسائل قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] والصدقة تقع بيد الرحمن قبل وقوعها بيد السائل المتلفظ بحروف السؤال، واليد العليا هي المنفقة خير من اليد السفلى وهي السائلة، والمال لله سبحانه هو الغني ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] ونحن مستخلفون فيه بل نحن الخزائن والخزنة لهذا المال، فتحقق ما أومأنا إليه في هذا الباب فإنه نافع جداً، ومزيل جهلاً عظيماً، ومورث أدباً إلهياً فيه سعادة أبدية لمن وقف عنده وفهمه وعمل به.

الباب الخامس والخمسون ومائة

في معرفة مقام النبوّة وأسرارها

[نظم: الكامل]

بين الولاية والرسالة بَرْزَخٌ فيه النبوّةُ حُكْمُها لا يُجْهَلُ
لكنها قسمان إن حققتها قسمٌ بتشريع وذاك الأولُ
عند الجميع وثَمَّ قسمٌ آخرٌ ما فيه تشريعٌ وذاك الأَنْزَلُ
في هذه الدنيا وأما عندما تبدو لنا الأخرى التي هي مَنْزِلُ
فيزول تشريعُ الوجود وحُكْمُهُ وهناك يظهر أنَّ هذا الأفْضَلُ
وهو الأعمُّ فإنه الأصلُ الذي لله فهو نَبا الوليُّ الأكْمَلُ

النبوّة نعت إلهيّ يثبتها في الجناب العالي الاسم السميع، ويثبت حكمها صفة الأمر الذي في الدعاء المأمور به، وإجابة الحق عباده فيما يسألونه فيه، فإنها أيضاً من الله في حق العبد سؤال إلهيّ بصفة افعل ولا تفعل، ونقول نحن: سمعنا وأطعنا، ويقول هو سبحانه: سمعت وأجبت، فإنه قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وصيغة الأمر من العبد في الطلب: ٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَٱعْفُ عَنَّا وَٱرْزُقْنَا وشبه ذلك. وصيغة النهي من العبد في الدعاء: لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ لاَ تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ.

وليست النبوّة بمعقول زائد على هذا الذي ذكرنا إلاّ أنه لم يطلق على نفسه من ذلك اسماً كما أطلق في الولاية، فسمّي نفسه وليّاً وما سمّى نفسه نبياً مع كونه أخبرنا وسمع دعاءنا فهو من الوجهين بهذه المثابة، ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ**» وما انقطعت إلاّ من وجه خاص انقطع منها مسمّى النبيّ والرسول ولذلك قال: «**فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» ثم أبقى منها المبشرات وأبقى منها حكم المجتهدين وأزال عنهم الاسم، أبقى الحكم وأمر من لا علم له بالحكم الإلهي أن يسأل أهل الذكر فيفتونه بما أدّاه إليه اجتهادهم، وإن اختلفوا كما اختلفت الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وكذلك لكل مجتهد

جعل له شرعة من دليله ومنهاجاً وهو عين دليله في إثبات الحكم، ويحرم عليه العدول عنه، وقرّر الشرع الإلهيّ ذلك كله. فحرّم الشافعيّ عين ما أحلّه الحنفيّ وأجاز أبو حنيفة عين ما منعه أحمد بن حنبل. فأجاز هذا ما لم يجز هذا: فاتفقوا في أشياء واختلفوا في أشياء، وكل في هذه الأمة شرع مقرّر لنا من عند الله، مع علمنا أن مرتبتهم دون مرتبة الرسل الموحى إليهم من عند الله. فالنبوّة والرسالة من حيث عينها وحكمها ما نسخت، وإنما انقطع الوحي الخاص بالرسول والنبيّ من نزول الملك على أذنه وقلبه وتحجير لفظ اسم النبيّ والرسول، فلا يقال في المجتهد إنه نبيّ ولا رسول، كما حجر الاجتهاد على الأنبياء فيما شرعه، والمجتهد وإن كان يرشد الناس بما أدّاه إليه دليله واجتهاده فلا يطلق عليه هذا الاسم فهو لفظ خاص بالأنبياء والرسل ما هو لله ولا للأولياء بل هو اسم خاص للعبودية التي هي عين القرب من السيد وعدم مزاحمة السيد في رتبته بخلاف الولاية فإن العبد مزاحم له في اسم الوليّ تعالىٰ، ولهذا شقّ على المستخلصين من العبيد انقطاع اسم النبيّ واسم الرسول لما كان من خصائصها ولم يكن له في الأسماء الإلهية عين.

وإذا كانت النبوّة نعتاً إلهياً في أحكامها ومنها أوجب الحق على نفسه ما أوجب لأن الوجوب للشرع ما هو لغير الشرع فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] هذا من حكم الشرع فاعلم ذلك وتثبت في معرفة ما ذكرناه فإنه سهل المرتقى صعب النزول عنه، هكذا رأيته في الواقعة ليلة أردت أن أقيد هذا الباب، فما تكلمنا في هذا الباب بما تكلمنا به إلاّ بما شاهدناه في الواقعة ورأينا فيها باب اسم الرسول والنبيّ مغلقاً على يميني والمعراج بإدراجه منه إلى الطريق الشارع الذي يمشي الناس عليه وأنا عند الباب واقف وليس فوق ذلك المقام الذي أوقفني الحق فيه مقام لأحد إلاّ ما في داخل ذلك المغلق الموثق الغلق ومع غلقه ما ينحجب عني ما وراءه إلاّ أنه لا قدم لأحد فيه إلاّ الكشف، ولقد طلع إلي شخص فلما وصل بسهولة ورآه توعر عليه النزول وحار ولم يقدر على الثبات فيه فتركني وسلك الطريق الذي عليه جئت أنا إلى ذلك الموضع وراح وتركني راجعاً، واستيقظت على هذه الحالة فقيدت ما أودعته في هذا الباب، ورأيت في هذه الليلة رسول الله ﷺ وهو يكره إدخال الجنازة في المسجد، ويكره أيضاً أن يستر الميت من الذكران بثوب زائد على كفنه، وأمر أن يسلب عنه ويترك على نعشه في كفنه وأن لا يستر في تابوت أصلاً، وأمرني إذا كان البرد أن أسخن الماء للغسل من الجنابة ولا أصبح على جنابة، ورأيته يشكر على الجماع ويستحسن ذلك من فاعله، هذا كله رأيته في هذه الليلة.

ورأيت أحمد بن حنبل في هذه الليلة وذكرت له أن رسول الله ﷺ أمرني أن أسخن الماء للغسل من الجنابة فقال لي: هكذا ذكر البخاري أنه رأى النبيّ ﷺ في النوم فأمره بذلك. ورأى الفربري البخاري في النوم فأمره بذلك. ورآني الفربري في النوم وعلمت أنه رآني في النوم ورأيته أنا في نومه فذكر لي أن البخاري ذكر له هذا فعلمته أنا من قول الفربري وثبت عندي، وها أنا في النوم قد قلته لك فاعمل به، واستيقظت فأمرت أهلي أن يسخنوا لي ماء واغتسلت مع الفجر وهذه كلها من المبشرات.

وأما النبوّة التي هي غير مهموزة فهي الرفعة ولم يطلق على الله منها اسم ولها في الإله اسم رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. ولها أيضاً الاسم العلي والأعلى وهي النبوة المهموزة وهي مولدة عن النبوّة التي هي الرفعة، فالقصر الأصل والمد زيادة، ألا ترى العرب في ضرورة الشعر تجوز قصر الممدود لأنه رجوع إلى الأصل، ولا تجوز مدّ المقصور لأنه خروج عن الأصل، والروح بينه تعالىٰ وبين من شاء من عباده بالبشارة والنذارة، وللأولياء في هذه النبوّة مشرب عظيم كما ذكرنا ولا سيما والنبيّ ﷺ قد قال فيمن حفظ القرآن: «إن النبوّة قد أدرجت بين جنبيه» فإنها له غيب وهي للنبيّ شهادة، فهذا هو الفرقان بين النبيّ والوليّ في النبوّة، فيقال فيه نبيّ، ويقال في الوليّ وارث، والوراثة نعت إلهيّ فإنه قال عن نفسه: ﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٩] فالوليّ لا يأخذ النبوّة من النبيّ إلاَّ بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها إلى الوليّ ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينتسب في ذلك إلى الله لا إلى غيره، وبعض الأولياء يأخذونها وراثة عن النبيّ وهم الصحابة الذين شاهدوه أو من رآه في النوم، ثم علماء الرسوم يأخذونها خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة فيبعد النسب. وأما الأولياء فيأخذونها عن الله تعالىٰ من كونه ورثها وجاد بها على هؤلاء فهم أتباع الرسل بمثل هذا السند العالي المحفوظ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

قال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت.

قال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ في مثل هذا المقام لما ذكر الأنبياء عليهم السلام في سورة الأنعام: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وكانوا قد ماتوا وورثهم الله وهو خير الوارثين. ثم جاد على النبيّ ﷺ بذلك الهدى الذي هداهم به فجعله ﷺ مقتدياً بهداهم والموصل الله، ونعم السند ونعم المولى ونعم النصير. وهذا عين ما قلناه في علم الأولياء اليوم بهدي النبيّ ﷺ وهدي الأنبياء أخذوه عن الله ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة بهم وعناية سبقت لهم عند ربهم كما قال في عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهذه النبوّة سارية في الحيوان مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] وكلهم بهذه المثابة، فمن علمه الله منطق الحيوانات وتسبيح النبات والجماد وعلم صلاة كل واحد من المخلوقات وتسبيحه علم أنّ النبوّة سارية في كل موجود يعلم ذلك أهل الكشف والوجود، لكنه لا ينطلق من ذلك اسم نبيّ ولا رسول على واحد منهم إلاَّ على الملائكة خاصة الرسل منهم وهم المسمّون ملائكة، وكل روح لا يعطي رسالة فهو روح لا يقال فيه ملك إلاَّ مجازاً كالأرواح المخلوقة من أنفاس المؤمنين الذاكرين الله يخلق الله من أنفاسهم أرواحاً يستغفرون لصاحب ذلك الذكر إلى يوم القيامة، وكذلك من أعمالهم كلها المحمودة التي فيها أنفاسهم، ولقد رأيته ﷺ في مبشرة وهو يقول ويشير إلى الكعبة: يا ساكني هذا البيت لا تمنعوا أحداً طاف به وصلّى في أي وقت شاء من ليل أو نهار، فإن الله يخلق له من صلاته ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة، وهؤلاء كلهم أرواح مطهرة، فمن أرسل منهم في أمر سمّي ملكاً.

الباب السادس والخمسون ومائة

في معرفة النبوّة البشرية وأسرارها

[نظمم: البسيط]

إن النبوَّة إخبارٌ لأرواحِ مُقَيَّدين بأرواحٍ وأشْباحِ
لها القُصُورُ عليهم كلما وَرَدَتْ بكل وَجْهٍ من التَّشْريع وَضَّاحِ
وقد تكون بلا شَرْعٍ مُخَبِّرةً بما يكون مِنَ اتْراحٍ وأفراحِ

اعلم أن النبوّة البشرية على قسمين: قسم من الله إلى عبده من غير روح ملكي بين الله وبين عبده، بل إخبارات إلهيّة يجدها في نفسه من الغيب، أو في تجليات لا يتعلق بذلك الإخبار حكم تحليل ولا تحريم، بل تعريف إلهيّ ومزيد علم بالإله، أو تعريف بصدق حكم مشروع ثابت أنه من عند الله لهذا النبيّ الذي أرسل إلى من أرسل إليه، أو تعريف بفساد حكم قد ثبت بالنقل صحته عند علماء الرسوم، فيطلع صاحب هذا المقام على صحة ما صحّ من ذلك وفساد ما فسد، مع وجود النقل بالطرق الضعيفة، أو صحة ما فسد عند أرباب النقل، أو فساد ما صحّ عندهم، والإخبار بنتائج الأعمال، وأسباب السعادات، وحكم التكاليف في الظاهر والباطن، ومعرفة الحد في ذلك والمطلع، كل ذلك ببينة من الله وشاهد عدل إلهيّ من نفسه، غير أنه لا سبيل أن يكون على شرع يخصّه يخالف شرع نبيّه ورسوله الذي أرسل إليه وأمرنا باتباعه فيتبعه على علم صحيح وقدم صدق ثابت عند الله تعالىٰ.

ثم إن لصاحب هذا المقام الاطلاع على الغيوب في أوقات، وفي أوقات لا علم له بها، ولكن من شرطه العلم بأوضاع الأسباب في العالم، وما يؤول إليه الواقف عندها أدباً والواقف معها اعتماداً عليها، كل ذلك يعلمه صاحب هذا المقام، وله درجات الاتباع، وهو تابع لا متبوع، ومحكوم لا حاكم. ولا بدّ له في طريقه من مشاهدة قدم رسوله وإمامه لا يمكن أن يغيب عنه حتى في الكثيب، وهذا كله كان في الأمم السالفة، وأما هذه الأمّة المحمدية فحكمهم ما ذكرناه وزيادة، وهو أن لهم بحكم شرع النبيّ محمد ﷺ أن يسنوا سنّة حسنة ممّا لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، وممّا لها أصل في الأحكام المشروعة وتسنينه إياها ما أعطاه له مقامه، وإنما حكم به الشرع وقرّره بقوله: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً**» الحديث، كمسألة بلال في الركعتين بعد الأذان، وإحداث الطهارة عند كل حدث، وركعتين عقيب كل وضوء، والقعود على طهارة، وركعتين بعد الفراغ من الطعام، وصدقة على وجه خاص بسنّة، وكل أدب مستحسن ممّا لم يعينه الشارع، فلهذه الأمّة تسنينه ولهم أجر من عمل بذلك غير أنهم كما قلنا لا يحلّون حراماً ولا يحرّمون حلالاً، ولا يحدثون حكماً، ثم لهم الرفعة الإلهية العامة التي تصحبهم في الدنيا والآخرة.

والقسم الثاني من النبوّة البشرية هم الذين يكونونْ مثل التلامذة بين يدي الملك ينزل عليهم الروح الأمين بشريعة من الله في حق نفوسهم يتعبدهم بها فيحلّ لهم ما شاء ويحرم

عليهم ما شاء ولا يلزمهم إتباع الرسل، وهذا كله كان قبل مبعث محمد ﷺ، فأمّا اليوم فما بقي لهذا المقام أثر إلاّ ما ذكرناه من حكم المجتهدين من العلماء بتقرير الشرع لذلك في حقّهم، فيحلّون بالدليل ما أدّاهم إلى تحليله اجتهادهم وإن حرمه المجتهد الآخر، ولكن لا يكون ذلك بوحي إلهيّ ولا بكشف، والذي لصاحب الكشف في هذه الأمّة تصحيح الشرع المحمّدي ما له حكم الاجتهاد، فلا يحصل لصاحب هذا المقام اليوم أجر المجتهدين ولا مرتبة الحكم، فإن العلم بما هو الأمر عليه في الشرع المنزّل يمنعهم من ذلك، ولو ثبت عند المجتهد ما ثبت عند صاحب هذا المقام من الكشف بطل اجتهاده وحرم عليه ذلك الحكم، ولذلك ليس للمجتهد أن يفتي في الوقائع إلاّ عند نزولها لا عند تقدير نزولها، وإنما ذلك للشارع الأصلي لاحتمال أن يرجع عن ذلك الحكم بالاجتهاد عند نزول ما قدر نزوله، ولذلك حرم العلماء الفتيا بالتقليد، فلعل الإمام الذي قلّده في ذلك الحكم الذي حكم به في زمانه لو عاش إلى اليوم كان يبدو له خلاف ما أفتى به فيرجع عن ذلك الحكم إلى غيره، فلا سبيل أن يفتي في دين الله إلاّ مجتهد أو بنص من كتاب أو سنّة لا بقول إمام لا يعرف دليله، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه فلم يبق في هذه الأمّة المحمدية نبوّة تشريع، فلا نطيل الكلام فيها أكثر من هذا، ولكن نطيل الكلام إن شاء الله أكثر من هذا في باب الرسالة البشرية لتقرير حكم المجتهدين والأمر الإلهيّ بسؤالهم فيما جهل من حكم الله في الأشياء. انتهى الجزء السادس ومائة.

(الجزء السابع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والخمسون ومائة
في معرفة مقام النبوّة الملكية

[نظم: البسيط]

أوحى الإلهُ إلى الأَمْلاكِ تَعْبُدُهُ ... بأمره ما لهم في النَّهْي من قَدَمِ
وهم عبيدُ اختصاصٍ لا يقابله ... ضدٌّ وقد مُنحوا مَفَاتِحَ الكَرَمِ
لا يعرفون خروجاً عن أوامره ... ورأسُهم مَلَكٌ سمّاه بالقَلَمِ
أعطاه من عِلْمه ما لا يقدِّره ... خلقٌ وأنَّ له في رُتْبة القِدَمِ
حكماً كما قال في العُرجون خالقنا ... في سورة القلب جلّ الله من حَكَمِ
هم أنبياءٌ أحبّاءٌ بأجمعهم ... بلا خلافٍ وهم من جُمْلة الأُمَمِ
لكل شخصٍ من الأملاك مرتبةٌ ... معلومةٌ ظهرت للعين كالعَلَمِ
وهم على فضلهم على التَّفاضُل في ... تقريبهم ولهم جَوَامِعُ الكَلِمِ

قال الله تعالىٰ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وهم أرفع

الأرواح العلوية وليسوا بملائكة من حيث الاسم فإنه موضوع للرسل منهم خاصة، فمعنى الملائكة الرسل وهو من المقلوب وأصله مألكة والألوكة الرسالة والمألكة الرسالة، فما تختص بجنس دون جنس، ولهذا دخل إبليس في الخطاب بالأمر بالسجود لما قال الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] لأنه ممّن كان يستعمل في الرسالة فهو رسول فأمره الله فـ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤] وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فالرسالة جنس حكم يعمّ الأرواح الكرام البررة السفرة والجن والإنس، فمن كل صنف من أرسل ومنه من لم يرسل، فالنبوءة الملكية المهموزة لا ينالها إلاّ الطبقة الأولى الحافون ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ولهذا ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] وأفراد من ملائكة الكرسي والسموات وملائكة العروج، وآخر نبي من الملائكة إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وكل واحد منهم على شريعة من ربه متعبد بعبادة خاصة وذلك قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فاعترفوا بأن لهم حدوداً يقفون عندها لا يتعدّونها، ولا معنى للشريعة إلاّ هذا، فإذا أتى الوحي إليهم وسمعوا كلام الله بالوحي ضربوا بأجنحتهم خضعاناً يسمعونه كسلسلة على صفوان فيصعقون ما شاء الله، ثم ينادون فيفيقون فيقولون: ماذا؟ فيقال لهم: ربكم، فيقولون الحق، وهو قوله تعالىٰ في حقّهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣] فجاؤوا في ذكرهم بالاسم العلي في كبريائه إن كان من قولهم فإنه محتمل أن يكون قول الله أو يكون حكاية الحق عن قولهم والعالون هم الذين قالوا لهؤلاء الذين أفاقوا ربكم وهم الذين نادوهم وهم العالون، فلهذا جاء بالاسم العليّ لأن كل موجود لا يعرف الحق إلاّ من نفسه ولذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فجاء بمن وهي نكرة فعم كل عارف من كل جنس وعلّق المعرفة بالربوبية، وكذا قال العالون لهؤلاء الذين صعقوا حين استفهموهم ربكم وما قالوا إلهكم وهم العالون فقالوا: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٣].

واعلم أن العبادة في كل ما سوى الله على قسمين: عبادة ذاتية وهي العبادة التي تستحقها ذات الحق وهي عبادة عن تجلّ إلهيّ وعبادة وضعية أمرية وهي النبوّة، فكل من عبده عن أمره ووقف عند حدّه كـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة الصافات: الآيات ١ ـ ٣] ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ٥] ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [سورة النازعات: الآيات ٢ ـ ٥] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] وهم صنف من الملائكة التاليات ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [سورة المرسلات: الآيات ٣ ـ ٤] ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤] وهم إخوان المدبرات من الملائكة حضرتهم متجاورة، وكل هؤلاء أنبياء ملكيون عبدوا الله بما وصفهم به، فهم في مقامهم لا يبرحون إلاّ من أمر منهم بأمر يبلغه.

وسيأتي في الرسالة الملكية وهو قول جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] فهم تحت تسخير رب محمد ﷺ من الاسم الذي يخصّه، ولله ملائكة في الأرض سياحون فيها يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلس ذكر نادى بعضهم بعضاً: هلموا إلى

بغيتكم وهم الملائكة الذين خلقهم الله من أنفاس بني آدم، فينبغي للمذكر أن يراقب الله ويستحي منه ويكون عالماً بما يورده وما ينبغي لجلال الله، ويجتنب الطامات في وعظه، فإن الملائكة يتأذون إذا سمعوا في الحق وفي المصطفين من عباده ما لا يليق وهم عالمون بالقصص، وقد أخبر ﷺ: «**إنَّ العَبْدَ إذَا كَذَبَ الكِذْبَةَ تَبَاعَدَ عَنْهُ المَلَكُ ثَلاثِينَ مِيلاً مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَهُ فَتَمْقُتُهُ المَلاَئِكَة**» فإذا علم المذكر أن مثل هؤلاء يحضرون مجلسه فينبغي له أن يتحرى الصدق ولا يتعرض لما ذكره المؤرخون عن اليهود من زلاّت من أثنى الله عليهم واجتباهم ويجعل ذلك تفسيراً لكتاب الله ويقول: قال المفسرون، وما ينبغي أن يقدم على تفسير كلام الله بمثل هذه الطوام كقصة يوسف وداود وأمثالهم عليهم السلام ومحمد ﷺ بتأويلات فاسدة وأسانيد واهية عن قوم قالوا في الله ما قد ذكر الله عنهم، فإذا أورد المذكر مثل هذا في مجلسه مقتته الملائكة ونفروا عنه ومقته الله، ووجد الذي في دينه رخصة يلجأ إليها في معصيته ويقول: إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا فمن أكون أنا؟ وحاشا والله الأنبياء ممّا نسبت إليهم اليهود لعنهم الله، فينبغي للمذكر أن يحترم جلساءه ولا يتعدّى ذكر تعظيم الله بما ينبغي لجلاله ويرغب في الجنة ويحذر من النار وأهوال الموقف والوقوف بين يدي الله من أجل من عنده من البطالين المفرطين من البشر، وقد ذكرنا في شرح كلام الله فيما ورد من ذكر الأنبياء عليهم السلام من التنزيه في حقّهم ما هو شرح على الحقيقة لكلام الله، فهؤلاء المذكورون نقلة عن اليهود لا عن كلام الله لما غلب عليهم من الجهل، فواجب على المذكر إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام، والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء من المثالب ونقلة المفسرين خذلهم الله، ومنها مراعاة من يحضر مجلسه من الملائكة السياحين، فمن يراعي هذه الأمور ينبغي أن يذكر الناس ويكون مجلسه رحمة بالحاضرين ومنفعة.

الباب الثامن والخمسون ومائة

في مقام الرسالة وأسرارها

[نظم: الوافر]

ألا إن الرسالةَ بَرْزَخيَّهْ ... ولا يَحتاج صاحبُها لنيَّهْ
إذا أعطَتْ بُنَيَّتُه قواها ... تلقَّتْها بقوَّتها البُنَيَّهْ
فيُضحي مقْسِطاً حكماً عليماً ... سؤوساً في تَصَاريف البريَّهْ
يُصَرِّفُهم ويصْرفه إليها ... كما تعطي مراتبها العَليَّهْ
فمن فَهِمَ الذي قلناه فيها ... نَفَى أحكامَ كَسْبٍ فَلْسَفيَّهْ
وأن الاختصاص بها مَنُوطٌ ... كما دلَّتْ عليه الأشْعريَّهْ
وما من شرطها عملٌ وعلمٌ ... ولا من شرطها نَفْسٌ زكيَّهْ
ولكنَّ العوائدَ أن تراه ... على خَيْرٍ وأحوالٍ رَضِيَّهْ

اعلم أن الولاية هي المحيطة العامة وهي الدائرة الكبرى، فمن حكمها أن يتولى الله

من شاء من عباده بنبوّة وهي من أحكام الولاية وقد يتولاه بالرسالة وهي من أحكام الولاية أيضاً، فكل رسول لا بدّ أن يكون نبياً، وكل نبيّ لا بدّ أن يكون ولياً، فكل رسول لا بدّ أن يكون ولياً، فالرسالة خصوص مقام في الولاية، والرسالة في الملائكة دنيا وآخرة لأنهم سفراء الحق لبعضهم وصنفهم ولمن سواهم من البشر في الدنيا والآخرة. والرسالة في البشر لا تكون إلاَّ في الدنيا وينقطع حكمها في الآخرة، وكذلك تنقطع في الآخرة بعد دخول الجنة والنار نبوّة التشريع لا النبوّة العامة، وأصل الرسالة في الأسماء الإلهيّة، وحقيقة الرسالة إبلاغ كلام من متكلم إلى سامع فهي حال لا مقام، ولا بقاء لها بعد انقضاء التبليغ وهي تتجدّد وهو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فالإتيان به هو الرسالة، وحدوث الذكر عند السامع المرسل إليه هو الكلام المرسل به، وقد يسمّى الكلام المرسل به رسالة وهو علم يوصله إلى المرسل إليه، ولهذا ظهر علم الرسالة في صورة اللبن والرسل هو اللبن، لكن للرسالة مقام عند الله منه يبعث الله الرسل، فلهذا جعلنا للرسالة مقاماً وهو عند الكرسي ذلك هو مقام الرسالة ونبوّة التشريع وما فوق ذلك فنبوّة لا رسالة، فالرسل لا يفضل بعضهم بعضاً من حيث ما هم رسل، وإنما فضل الله بعض الرسل على بعض وبعض النبيين على بعض.

وما من جماعة يشتركون في مقام إلاَّ وهم على السواء فيما اشتركوا فيه، ويفضل بعضهم بعضاً بأحوال أخر ما هي عين ما وقع فيه الاشتراك، وقد يكون ما يقع به المفاضلة يؤدّي إلى التساوي وهو مذهب أبي القاسم بن قسي من الطائفة ومن قال بقوله، فيكون كل واحد من الرسل فاضلاً من وجه مفضولاً من وجه، فيفضل الواحد منهم بأمر لا يكون عند غيره، ويفضل ذلك المفضول بأمر ليس عند الفاضل، فيكون المفضول من ذلك الوجه الذي خصّ به يفضل على من فضله، وعندنا قد لا يكون التساوي ويجمع لواحد جميع ما عند الجماعة، فيفضل الجماعة بجمع ما فضل به بعضهم على بعض لا بأمر زائد، فهو أفضل من كل واحد واحد ولا يفاضل فيكون سيد الجماعة بهذا المجموع، فلا ينفرد في فضله بأمر ليس عند آحاد الجنس، هكذا هو في نفس الأمر في كل جنس، فلا بدَّ من إمام في كل نوع من رسول ونبيّ ووليّ ومؤمن وإنسان وحيوان ونبات ومعدن وملك، وقد نبهنا على ذلك قبل هذا في الاختيارات.

فمقام الرسالة الكرسي لأنه من الكرسي تنقسم الكلمة الإلهية إلى خبر وحكم، فللأولياء والأنبياء الخبر خاصة، ولأنبياء الشرائع والرسل الخبر والحكم، ثم ينقسم الحكم إلى أمر ونهي، ثم ينقسم الأمر إلى قسمين: إلى مخيّر فيه وهو المباح، وإلى مرغب فيه، ثم ينقسم المرغب فيه إلى قسمين: إلى ما يذمّ تاركه شرعاً وهو الواجب والفرض، وإلى ما يحمد بفعله وهو المندوب ولا يذمّ بتركه. والنهي ينقسم قسمين: نهي عن أمر يتعلق الذمّ بفاعله وهو المحظور، ونهي يتعلق الحمد بتركه ولا يذمّ بفعله وهو المكروه.

وأما الخبر فينقسم قسمين: قسم يتعلق بما هو الحق عليه، وقسم يتعلق بما هو العالم عليه. والذي يتعلق بما هو الحق عليه ينقسم قسمين: قسم يعلم وقسم لا يعلم، فالذي لا

يعلم ذاته، والذي يعلم ينقسم قسمين: قسم يطلب نفي المماثلة وعدم المناسبة وهو صفات التنزيه والسلب مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والقدّوس وشبه ذلك، وقسم يطلب المماثلة وهو صفات الأفعال، وكل اسم إلهيّ يطلب العالم، وهذه الأقسام كلها مجموع الرسالة وبه أتت الرسل، والرسالة إذا ثبتت وثبت أنها اختصاص إلهيّ غير مكتسبة يثبت بها كون الحق متكلماً أي موصوفاً بالكلام فإنه مبلغ ما قيل له قل، ولو كان مبلغاً ما عنده أو ما يجده من العلم في نفسه لم يكن رسولاً ولكان معلماً، فكل رسول معلم وما كل معلم رسول، وما سميت رسالة إلاً من أجل هذه الأقسام التي تحتوي عليها، ولولا هذه الأقسام لم تكن رسالة، لأن الأمر الواحد من غير معقولية سواه لا تقع الفائدة بتبليغه عند المرسل إليه لأنه لا يعقله، ولهذا لا يعقل الذات الإلهية لأنها لا سوى لها ولا غير، وتعقل الألوهية والربوبية لأن سواها المألوه والمربوب، فتنبه لما أشرنا إليه تعثر على العلم المخزون ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] تنبيه على التتابع والكثرة ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [سورة الصافات: الآية ٣] يتلو بعضها بعضاً، فالرسالة يتلو بعضها بعضاً ولهذا انقسمت والله الهادي.

الباب التاسع والخمسون ومائة
في مقام الرسالة البشرية

[نظم: البسيط]

إن الرسولَ لسانُ الحقِّ للبَشَرِ ... بالأمر والنَّهْي والإعلام والعِبَرِ

هم أذكياءُ ولكنْ لا يُصَرِّفُهم ... ذاك الذكاءُ لما فيه من الغَرَرِ

ألا تراهم لتَأْبير النخيل وما ... قد كان فيه على ما جاء من ضَرَرِ

هم سالمون من الأفكار إن شرعوا ... حكماً بِحِلٍّ وتَحْريم على البَشَرِ

إن الرسالةَ في الدنيا قَدِ انقطعَتْ ... في وقتنا للذي قد جاء في الخَبَرِ

وقد مضى حكمُها دنيا وآخرةً ... وما لها في وجود العين من أَثَرِ

لولا التكاليفُ لم يُخْتَصَّ صاحبُها ... عن غيره لوجود الوَحْي والنَّظَرِ

النَّحْلُ يوحَى إليه دائماً أبداً ... إلى القيامة في السُّكْنَى وفي الثَّمَرِ

الرسالة نعت كوني متوسط بين مرسل ومرسل إليه والمرسل به قد يعبر عنه بالرسالة، وقد تكون الرسالة حال الرسول، وهي بالجملة ليست بمقام وإنما هي نسبة حال، وتنقطع بانقطاع التبليغ بالفعل، ويزول حكمها بانقضاء التبليغ، قال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] وأوجب عليه ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فالرسالة هنا هي التي أرسل بها وبلّغها، وهكذا وردت في القرآن حيثما وردت، ولا يقبلها الرسول إلاّ بوساطة روح قدسي أمين ينزل بالرسالة على قلبه وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً، وكل وحي لا يكون بهذه الصفة لا يسمّى رسالة بشرية، وإنما يسمّى وحياً أو إلهاماً أو نفثاً أو إلقاء أو وجوداً، ولا تكون الرسالة إلاّ كما

ذكرنا، ولا يكون هذا الوصف إلاّ للرسول البشري، وما عدا هذا من ضروب الوحي فإنه يكون لغير النبيّ والرسول، والفرق بين النبيّ والرسول أن النبيّ إذا ألقى إليه الروح ما ذكرناه اقتصر بذلك الحكم على نفسه خاصة ويحرم عليه أن يتبع غيره فهذا هو النبيّ، فإذا قيل له: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إما لطائفة مخصوصة كسائر الأنبياء، وإما عامة للناس ولم يكن ذلك إلاّ لمحمد ﷺ لم يكن لغيره قبله، فسمّي بهذا الوجه رسولاً والذي جاء به رسالة، وما اختصّ به من الحكم في نفسه وحرّم على غيره من ذلك الحكم هو نبيّ مع كونه رسولاً، وإن لم يخصّ في نفسه بحكم لا يكون لمن بعث إليهم فهو رسول لا نبيّ، وأعني نبوة الشرائع التي ليست للأولياء، فكل رسول لم يخصّ بشيء من الحكم في حق نفسه فهو رسول لا نبيّ، وإن خصّ مع التبليغ فهو رسول ونبيّ، فما كل رسول نبيّ على ما قلناه، ولا كل نبيّ رسول بلا خلاف.

ثم إن الورثة وهم الأتباع الذين أمروا بالتبليغ كمعاذ وعلي ودحية رسل رسول الله ﷺ ولا يزال كل متأخر مأموراً بالتبليغ ممّن أمر بالتبليغ متصل الطريق مأموراً عن مأمور إلى رسول الله ﷺ يسمّى رسولاً، ولكن ما هي الرسالة التي انقطعت والرسالة التي انقطعت هي تنزل الحكم الإلهيّ على قلب البشر بوساطة الروح كما قررناه، فذلك الباب هو الذي سدّ، والرسالة والنبوّة التي انقطعت، وأما الإلقاء بغير التشريع فليس بمحجور، ولا التعريفات الإلهية بصحة الحكم المقرّر أو فساده فلم تنقطع، وكذلك تنزّل القرآن على قلوب الأولياء ما انقطع مع كونه محفوظاً لهم ولكن لهم ذوق الإنزال وهذا لبعضهم.

ولهذا ذكر عن أبي يزيد أنه ما مات حتى استظهر القرآن أي أخذه عن إنزال وهو الذي نبّه النبيّ ﷺ فيمن حفظ القرآن، يعني على هذا الوجه أن النبوة قد أدرجت بين جنبيه ولم يقل في صدره، وهذا معنى استظهار القرآن أي أخذه عن ظهر، فله مثل هذا التنزّل مستمر فيمن شاء الله من عباده، لكن على هذا النعت والصفة وهو قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فالرسل مبشرون ومنذرون، والورثة منذرون خاصة لا مبشرون لكنهم مبشرون اسم مفعول، فإذا بشّر الوليّ أحداً بسعادة فما هو من هذا الباب، بل البشارة في ذلك بتعيين السعيد، وبشارة الأنبياء متعلقة بالعمل المشروع وهو أنه من عمل كذا كان له كذا في الجنة أو نجاه الله من النار بعمل كذا، هذا لا يكون إلاّ للرسل ليس للوليّ فيه دخول، وله أن يعطي تعيين السعيد لا من حيث العمل فيقول في الكافر وهو في حال كفره إنه سعيد، وفي المؤمن في حال إيمانه إنه شقيّ فيختم لكل واحد بالسبب الموجب لسعادته أو شقاوته تصديقاً لقول الوليّ هذا القدر بقي للأولياء من نبوّة الإخبار لا من نبوّة التشريع، ولها من الحروف ياء العلة وله الدعوى والآيات وصاحبها مسؤول، وله الكشف في أوقات وهو قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦] وهي وإن نزلت من الكرسي فإذا رجعت فلا تتعدى سدرة المنتهى.

والرسالة تنزل معاني وتعود إلى السدرة صوراً ينشئها العبد إنشاء، وهذا له من الاسم الخلاّق الذي أعطى ومعراجها براقي ورفرفي ولكن من السموات، ورئيس أرواحها النازلين

بها جبريل وهو أستاذ الرسل وهو الموكل بهذا المقام وما يتصور لهذا المقام نسخ، وإنما الأشخاص تختلف، وكل شخص يجري فيه إلى أجل مسمّى، ولهذا جاء: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] وقال: رسلنا تترى ولا يقع فيها تفاضل، وإنما التفاضل بين المرسلين لا من كونهم مرسلين بل من مقام آخر، ولا يشترط على الرسول فيها إقامة الدليل للمرسل إليه بل لها الجبر، ولهذا مع وجود الدليل ما نجد وقوع الإيمان في محل المرسل إليه من كل أحد بل من بعضهم، فلو كان لنفس الدليل لعم ونراه يوجد ممّن لم يرد ليلاً، فدل أن الإيمان نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لا لعين الدليل فلهذا لم نشترط فيه الدليل، فالإيمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه، وكل من آمن عن دليل فلا يوثق بإيمانه فإنه معرض للشبه القادحة فيه لأنه نظري لا ضروري، وقد نبهتك في هذا على سرّ غامض لا يعرفه كل أحد ولا تشترط أيضاً في حقّه العصمة إلاّ فيما يبلغه عن الله خاصة ويلزمه تبيين ما جاء به حتى يفهم عنه لإقامة الحجة على المبلغ إليه، فإن عصم من غير هذا فمن مقام آخر وهو أن يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسي به فيكون التأسّي به أصلاً، فإن انفرد بأمر لزمه أن يبينه لا بدّ من ذلك كما قال في نكاح الهبة خالصة لك من دون المؤمنين، ومن شرط صاحب هذا المقام طهارة القلب من الفكر فله الراحة فإنه لا يشرع إلاّ ما يوحى به إليه، وأما مشورته لأصحابه ففي غير ما شرع له وليس للرسول من حيث رسالته المشاورة، فإذا انضاف إلى رسالته أن تكون جامعة فلمقام الخلافة المشورة، ولما كان رسول الله ﷺ من الخلفاء قيل له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فينبغي لك أن تعرف الفرق بين الخلافة والرسالة.

الباب الستون ومائة
في معرفة الرسالة الملكية

[نظم: الطويل]

تـنـزَّلَـتِ الأمـلاكُ لـيـلاً عـلـى قـلـبـي ... ودارتْ عـلـيـه مـثـلَ دائـرة الـقُـلْـبِ
حـذاراً مِـنِ ٱلـقـاء الـلـعـيـن إذا يـرى ... نـزولَ عـلوم الـغَـيْـب عـينـاً على قَلْبِ
وذلـك حِـفْـظُ الله فـي مـثـل طَـوْرنـا ... وعـصْـمَـتُـه فـي الـمـرسَـلـيـن بـلا رَيْـبِ
فـنـحـن وإيـاهـم مـصـانـون بـالـحِـمَـى ... تـخاطبُنا الأسماءُ من حَضْرةِ القُرْبِ
ويـفـتـرق الـصِّـنْـفـان عـنـد رُجـوعـهـم ... من المَشْهد الأعلَى إلى عَالَم التُّرْبِ
فـيـظـهـر هـذا بـالـرسـالـة واضـعـاً ... حـدوداً وأحـكـامـاً عـن الـرُّوح والـرَّبّ
وذلـك مـأمـورٌ بـسَـتْـر مَـقَـامِـهِ ... وإن كـان قـد داناه فـي الـذَّوْق والـشُّـرْبِ
فـسـبـحـان مـن أعـطى الـوجـودَ بـجـوده ... وقـسَّـمـه قـسـمـيـن لـلـكـشـف والـحَـجْـبِ
فـأشـهـد ذا فـضـلاً وسَـبْـقَ عِـنَـايـةٍ ... وأوقـف ذا خـلـف الـحـجـاب بـلا ذَنْـبِ
فـقـفْ وتـأدَّبْ واتَّـعِـظْ ثـم ولا تَـقُـلْ ... حُـجِـبْـتُ بـلا ذنـب وهـذا مـن الـذنْـبِ
ألا إنـمـا الـعُـقْـبَـى لـمـن بـات سـرُّه ... يرى البُعْدَ والتَّقْريبَ في الذنب والعَتْبِ

قال تعالىٰ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٣، ١٤] يعني التذكرة التي هي الرسالة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٥] والسفرة هم الرسل من الملائكة هنا، كذلك ما يجودون به على المرسلين إليهم في رسالتهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس: الآية ١٦] أي محسنين، فهؤلاء هم سفراء الحق إلى الخلق بما يريد أن ينفذه فيهم من الحكم من عالم الأركان، فإذا أراد الله إنفاذ أمر في خلقه أوحى إلى الملك الأقرب إلى مقام تنفيذ الأوامر وهو الكرسي فيلقي إليه ذلك الأمر على وجوه مختلفة، ثم يأمره بأن يوحي به إلى من يليه ويوحي إليه أن يوحي إلى من يليه أن يوحي به إلى من يليه من أعلى إلى أدنى إلينا، هذا من حد انقسام الكلمة، وأما من أحدية الكلمة فهو نزولها من رتبة زلفى إلى مقام أدنى إلى مكان أزهى إلى محل أسنى إلى رفرف أبهى إلى عرش أعلى إلى كرسي أجلى، فتنقسم هناك الكلمة، أي يتعين هنالك ما أريد بها من حكم أو خبر، ثم تنزل إلى سدرة المنتهى إلى سماء فسماء إلى السماء الدنيا، فينادى بملك الماء فيودع تلك الرسالة فيضعها في الماء، وينادى ملائكة اللمات وهم ملائكة القلوب فيلقنوها فيجعلها لمات في قلوب العباد فتعرف الشياطين ما جاءت به الملائكة فتأتي بأمثاله إلى قلوب الخلق فتنطق الألسنة بما تجده في القلوب وهي الخواطر قبل التكوين بأنه كان كذا واتفق كذا لما لم يكن، فما يكون منه بعد الكلام به فذلك ممّا جاءت به الملائكة، وما لم يكن فهو ممّا ألقته الشياطين، ويسمّى ذلك في العالم الأرجاف، وتراه العامة مقدّمات التكوين.

وأما ملك الماء فيلقي ما أوحي به إليه في الماء فلا يشرب الماء حيوان إلاً ويعرف ذلك السرّ إلاً الثقلين، ولكن لا يعرف من أين جاء ولا كيف حصل، ومن هذا المنزّل هو البلاء الذي ينزل في كانون فلا يجد إناء فيه ماء غير مغطّى إلاً دخل فيه. ومن هذا الباب ما يجده الإنسان من بغض شخص وحبّ شخص من غير سبب ظاهر معلوم له ويكون بالسماع وبالرؤية، وورد خبر في مثل هذا ومن هذا الباب السياسة الحكمية لمصالح العالم التي لم يأت بها شرع عند فقد الأنبياء عليهم السلام وأزمنة الفترات تنزل بها ملائكة الإلهام واللمات على قلوب عقلاء الزمان وحكماء الوقت فيلقونها في أفكارهم لا على أسرارهم فيضعونها ويحملون الناس عليها والملوك وما فيها شيء من الشرك، فهذه هي الرسالة الملكية التي فيها مصالح العالم في الدنيا، وهي البدع الحسنة التي أثنى الله على من رعاها حق رعايتها ابتغاء رضوان الله، وثم رسالات أخر أيضاً على أيدي الملائكة بتسخير العالم بعضه لبعض مطلقاً.

الباب الأحد والستون ومائة

في المقام الذي بين الصدّيقية والنبوّة وهو مقام القربة

[نظم: البسيط]

جـمـاعـةٌ مـن رجـال الله أنـكـرَهُ ... ولـيس من شأنهم إنكارُ ما جَهِلُوا

هـو الـمَـقَـامُ الـذي قـامـت شَـوَاهِـدُه ... في الحَرْق والقَتْل والباقي الذي فَعَلُوا

لـو أنـهـم دبَّـروا الـقـرآن لاحَ لـهـم ... وجهُ الحقيقة فيما عنه قد غَفَلُوا

وما تخصَّصَ عنهم في مَقَامِهِمُ إلاَّ الذين عن الرحمن قد عَقَلُوا
ومنه أيضاً أبو بكر ومِيْزَتُهُ بالسرِّ لو نظروا في حكمنا كَمُلُوا
فليس بين أبي بكر وصاحبه إذا نظرتَ إلى ما قلته رَجُلُ
هذا الصحيحُ الذي دلَّتْ دلائِلُهُ في الكَشْف عند رجالِ الله إذ عَمِلُوا

القربة نعت إلهيّ وهو مقام مجهول أنكرت آثاره الخاصة من الرسل عليهم السلام مع الافتقار إليه منهم، وشهادة الحق لصاحبه بالعدالة والاختصاص وهو مقام الخضر مع موسىٰ، وما أذهله إلاً سلطان الغيرة التي جعل الله في الرسل عليهم السلام على مقام شرع الله على أيديهم فللَّه أنكروا، وتكرّر منه عليه السلام الإنكار مع تنبيه العبد الصالح في كل مسألة، ويأبى سلطان الغيرة إلاً الاعتراض لأن شرعه ذوق له، والذي رآه من غيره أجنبيّ عنه وإن كان علماً صحيحاً، ولكن الذوق أغلب والحال أحكم، ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ولم يقل له قل ربّ زدني حالاً، فلو زاد حالاً لزاد إنكاراً، وكلما زاد علماً زاد إيضاحاً وكشفاً واتساعاً وانشراحاً وتنزّهاً في الوجوه التي سفرت من براقعها وظهرت من وراء ستورها وكللها، فارتفع الضيق والحرج وشوهد الكمال في النقص، ولما حصلت في هذا المقام السنيّ قلت مشيراً ومنبهاً: [الطويل]

وإني لأهوَى النَّقْصَ مَنْ أجلِ مَنْ أهوَى لأنَّ به كان الكمالُ لمن يَدْري
وما جاء بالنُّقْصان إلاَّ مخافةً من العينِ مثل البَدْر من آخر الشَّهْرِ
وما نَقَصَ البدرُ الذي تُبْصرونه ولكنه بدرٌ لمن غاصَ بالفِكْرِ
يراه تماماً كاملاً في ضِيائه على أكملِ الحالات في البَطْن والظَّهْرِ
فلو لم يكنْ في الكون نقْصٌ محقَّقٌ لكان الوجودُ الحقُّ ينقص في القَدْرِ
فبي كان للحق الوجودِ كَمَالُه مع النقص فانظُرْ ما تضَمَّنه شِعْري
غزالٌ من الفردوس جاء منقِّباً مِنَ اجلي وما يخْفى على الله ما يَجْري
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن وحَيَاةِ الحبِّ قد ضَمَّه صَدْري
أَهيم بها حباً على كل حالةٍ حياةً وموتاً في القيامة والحَشْرِ
لقد سَفَرَتْ يوماً فلاحَتْ مَحَاسنٌ تخبِّر عنها أنها ليلةُ القَدْرِ
سجَدْتُ لها حباً فلما رأيتُها علمتُ بأني ما تعلَّقت بالغَيْرِ
فكبَّرتُ إجلالاً لكوني هَويتُني فسرى الذي قد كان هَيَّمه جَهْري
وحقَّقْتُ أني عينُ من قد هَويتُه فلم أخْشَ من بَيْنٍ ولم أخْشَ من هَجْرِ
فبغدادُ داري لا أرَى لي موطناً سواها فإن عَزَّتْ جَنَحْتُ إلى مِصْري

هذا المقام دخلته في شهر محرّم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر بمنزل أبحيسل ببلاد المغرب فتهت به فرحاً ولم أجد فيه أحداً، فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلّة والافتقار فلم يجد في ذلك المنزل من أحد وذلك المنزل هو موطني فلم أستوحش فيه لأن الحنين إلى الأوطان ذاتي لكل موجود، وأن الوحشة مع الغربة، ولما دخلت هذا

المقام وانفردت به وعلمت أنه إن ظهر عليّ فيه أحد أنكرني فبقيت أتتبع زواياه ومخادعه ولا أدري ما اسمه مع تحققي به وما خصّ الله به من أتاه إياه، ورأيت أوامر الحق تترى علي وسفراءه تنزل إليّ تبتغي مؤانستي وتطلب مجالستي، فرحلت وأنا على تلك الحال من الاستيحاش بالانفراد والأنس إنما يقع بالجنس، فلقيت رجلاً من الرجال بمنزل يسمّى آنحال فصليت العصر في جامعه، فجاء الأمير أبو يحيىٰ بن واجتن وكان صديقي وفرح بي وسألني أن أنزل عنده فأبيت ونزلت عند كاتبه وكانت بيني وبينه مؤانسة، فشكوت إليه ما أنا فيه من انفرادي بمقام أنا مسرور به، فبينا هو يؤانسني إذ لاح لي ظل شخص فنهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجاً فعانقني فتأملته فإذا به أبو عبد الرحمن السلميّ قد تجسدت لي روحه بعثه الله إليّ رحمة بي فقلت له: أراك في هذا المقام، فقال: فيه قبضت وعليه مت فأنا فيه لا أبرح، فذكرت له وحشتي فيه وعدم الأنيس، فقال: الغريب مستوحش، وبعد أن سبقت لك العناية الإلهيّة بالحصول في هذا المقام فاحمد الله ولمن يا أخي يحصل هذا، ألا ترضى أن يكون الخضر صاحبك في هذا المقام وقد أنكر عليه موسىٰ حاله مع ما شهد الله عنده بعدالته ومع هذا أنكر عليه ما جرى منه، وما أراه سوى صورته فحاله رأى وعلى نفسه أنكر، وأوقعه في ذلك سلطان الغيرة التي خصّ الله بها رسله، ولو صبر لرأى، فإنه كان قد أعدّ له ألف مسألة كلها جرت لموسىٰ وكلها ينكرها على الخضر.

قال شيخنا أبو النجا المعروف بأبي مدين: لما علم الخضر رتبة موسىٰ وعلو قدره بين الرسل امتثل ما نهاه عنه طاعة لله ولرسوله فإن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] فقال له في الثانية: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٦] فقال: سمعاً وطاعة، فلما كانت الثالثة ونسي موسىٰ حالة قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤] وما طلب الإجارة على سقايته مع الحاجة فارقه الخضر بعدما أبان له علم ما أنكره عليه ثم قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] لأنه كان على شرعة من ربه ومنهاج وفي زمانها بخلاف حاله بعد بعث محمد ﷺ فإنه الفرى كل الصيد في جوفه، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن لا أعرف لهذا المقام اسماً أميزه به، فقال لي: هذا يسمّى مقام القربة فتحقق به فتحققت به فإذا به مقام عظيم لعلماء الرسوم من أهل الاجتهاد فيه قدم راسخة لكنهم لا يعرفون أنهم فيه، ورأيت الإمداد الإلهيّ يسري إليهم من هذا المقام، ولهذا ينكر بعضهم على بعض ويخطىء بعضهم بعضاً لأنهم ما حصل لهم ذوقاً ولا يعلمون ممّن يستمدّون مشاهدة وكشفاً، فكل واحد منهم على حق، كما أنه لكل نبيّ تقدّم هذا الزمان المحمديّ شرعة ومنهاجاً، والإيمان بذلك كله واجب على كل مؤمن وإن لم نلتزم من أحكامهم إلاّ ما لزمناه، فالمجتهدون من علماء الشريعة ورثة الرسل في التشريع وأدلتهم تقوم لهم مقام الوحي للأنبياء، واختلاف الأحكام كاختلاف الأحكام إلاّ أنهم ليسوا مثل الرسل لعدم الكشف، فإن الرسل يشد بعضهم من بعض، وكذلك أهل الكشف من علماء الاجتهاد، وأما غير أهل الكشف منهم فيخطىء بعضهم بعضاً، ولو قال الخضر لموسىٰ

من أول ما صحبه: ما أفعل شيئاً ممّا تراني أفعله عن أمري ما أنكره عليه ولا عارضه ولقد أنطقه الله بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٩] والصبر لا يكون إلاَّ على ما يشق عليه، فلو قدّم الصبر على المشيئة كما يفعل المحمديّ لصبر ولم يعترض، فإن الله قدّمه في الإعلام تعليماً لمحمد ﷺ، فمن أراد أن يحصل علم الله في خلقه فليقف عند ترتيب حكمته في الأشياء، فيقدّم ما قدم الله ويؤخّر ما أخّر الله، فإن من أسمائه المقدّم والمؤخّر، فإذا أخّرت ما قدمه أو قدمت ما أخّره فهو نزاع خفي يورث حرماناً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٣، ٢٤] فأخّر الاستثناء وقدمه موسىٰ فلم يصبر فلو أخّره لصبر، وهذه الآية مذكورة باللسان العبرانيّ في التوراة، فالله يا إخواننا من أهل هذه الملة المحمدية قفوا على مشاعر الله التي بيّنها لكم ولا تتعدوا ما رسم لكم، ألا تراه ﷺ لما صعد على الصفا في حجة الوداع قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] ثم قال: «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**» وما قال ذلك إلاَّ تعليماً لنا ولزوم أدب مع الله، ولولا أنه جائز له أن يبدأ بالمروة في سعيه لما قال هذا، ورجح ما بدأ الله به على ما في المسألة من التخيير من أجل الواو، فإنه ما بدأ الله به إلاَّ لسرّ يعلمه، فمن لم يبدأ به حرم فائدته. وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» وتقديم الصفا في السعي من المناسك.

ولقد رويت في هذا المعنى حكاية عجيبة عن يهودي أخبرني بها موسىٰ بن محمد القرطبي القباب المؤذن بالمسجد الحرام المكيّ بالمنارة التي عند باب الحزورة وباب أجياد رحمه الله سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: كان رجل بالقيروان أراد الحج فتردّد خاطره في سفره بين البرّ والبحر فوقتاً يترجح له البر ووقتاً يترجح له البحر فقال: إذا كان صبيحة غد أول رجل ألقاه أشاوره فحيث يرجح لي أحكم به، فأول من لقي يهودياً فتألم ثم عزم وقال: والله لأسألنه، فقال: يا يهودي أشاورك في سفري هذا هل أمشي في البرّ أو في البحر؟ فقال له اليهودي: يا سبحان الله وفي مثل هذا يسأل مثلك؟ ألم تر أن الله يقول لكم في كتابكم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٢] فقدم البرّ على البحر، فلولا أن لله فيه سرّاً وهو أولى بكم ما قدمه وما أخّر البحر إلاَّ إذا لم يجد المسافر سبيلاً إلى البرّ، قال: فتعجبت من كلامه وسافرت في البرّ يقول الرجل: فوالله ما رأيت سفراً مثله، ولقد أعطاني الله فيه من الخير فوق ما كنت أشتهي.

وقد أنكر أبو حامد الغزالي هذا المقام وقال: ليس بين الصديقية والنبوّة مقام، ومن تخطّى رقاب الصدّيقين وقع في النبوّة باب مغلق فكان يقول: لا تتخطوا رقاب الصديقين، ولا شك أن الأنبياء أصحاب الشرائع هم أرفع عباد الله من البشر، ومع هذا لا يبعد أن يخصّ الله المفضول بعلم ليس عند الفاضل، ولا يدل تميزه عنه أنه بذلك العلم أفضل منه بل قال له: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وما قال له أنا أفضل منك بل علم حق موسىٰ وما ينبغي له وامتثل أمره فيما نهاه عنه من صحبته احتراماً منه لمقام موسىٰ وعلو منزلته، وسكوت موسىٰ عنه حين فارقه ولم يرجع عن نهيه لأنه علم أن الخضر ممّن لم يسمع نهي موسىٰ عليه السلام، ولا سيما وقد قال له: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ

أَمْرِيۚ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] فعلم موسىٰ أنه ما فارقه إلاَّ عن أمر ربّه، فما اعترض عليه في فراقه إياه، وحصل لموسىٰ مقصوده ومقصود الحق في تأديبه، فعلم أن لله عباداً عندهم من العلم ما ليس عنده، ولم يكن إلاَّ علم كون من الأكوان من علوم الكشف وهو من أحوال المريدين أصحاب السلوك، فكيف لو كان من العلوم المتعلقة بالجناب الإلهيّ؟

أما من العلم المحكم أو المتشابه ومن هذا المقام حصل لأبي بكر الصديق السرّ الذي وقر في نفسه وظهرت قوّة ذلك السرّ مع وقته. وقول عائشة لرسول الله ﷺ في مرضه حين أمر أن يصلي بالناس إنه رجل أسيف ورسول الله ﷺ يعرف منه بالسرّ الذي حصل عنده ما لا تعرفه الجماعة فما بقي أحد يوم مات رسول الله ﷺ إلاَّ ذهل في ذلك اليوم وخولط في عقله وتكلّم بما ليس الأمر عليه إلاَّ أبو بكر الصديق فما طرأ عليه من ذلك أمر بل رقى المنبر وخطب الناس وذكر موت النبيّ ﷺ فقال: من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ثم تلا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤] الآية، فسكن جأش الناس حتى قال عمر: والله ما كأني سمعت بهذه الآية إلاَّ في ذلك اليوم، وهذا قوله ﷺ: «**إِذَا وَجَبَ ـ يَعْنِي المَوْت ـ فَلاَ تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ**» وأما قبل وقوع الموت فالبكاء محمود، وكذا فعل أبو بكر لما قام رسول الله ﷺ فقال: «**مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ خُيِّرَ فَاخْتَارَ لِقَاءَ اللَّهِ**» فبكى أبو بكر وحده دون الجماعة، وعلم أن رسول الله ﷺ قد نعى لأصحابه نفسه، فأنكر الصحابة على أبي بكر بكاءه وهو كان أعلم، فلما مات ﷺ بكى الناس وضجوا إلاَّ أبا بكر امتثالاً لقوله ﷺ: «**إذا وجب فلا تبكين باكية**» هذا كله من السرّ الذي أعطاه هذا المقام، فالذي ينبغي أن يقال: ليس بين محمد ﷺ وأبي بكر رجل لا أنه ليس بين الصديقية والنبوّة مقام، فإن الصديق تابع بطريق الإيمان فما أنكره متبوعه أنكر وما قرره متبوعه قرّر، هذا حظ الصديق من كونه صديقاً، ومن كون مقام آخر لا يحكم عليه حال الصديقية فاعلم ذلك.

انتهى السفر الرابع عشر بانتهاء الجزء السابع ومائة من الفتوحات المكية.

[السفر الخامس عشر]
(الجزء الثامن ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني والستون ومائة
في معرفة الفقر وأسراره

[نظم: البسيط]

الفَقْرُ أمرٌ يَعُمُّ الكونَ أجْمَعَهُ ... عيناً وحكماً ولكن ليس يَنْطلِقُ

إلاَّ على مُمْكنٍ أسماءُ خالقِه ... تَبْغيه فهي لهذا الأمر تَسْتَبِقُ

إن القويَّ بالاستعداد قُوَّتُه ... مثلُ الضعيف ففي الأحكام تَتّفِقُ

إن الحقائقَ تجري في مَيَادنها ... وكلُّ حق له في نفسه طَلَقُ
إن الفقيرَ الذي استولَتْ خَصَاصَتُه ... عليه في كل شيء ثَوْبُه خَلَقُ
في كل حالٍ من الأحوال تُبْصِرهُ ... كأنه طَبَقٌ من فوقه طَبَقُ
وليس يمنعه عن عين مُوجِدِهِ ... على طريقته الآفاتُ والعُلَقُ

ومن ذلك: [البسيط]

الفَقْرُ حكمٌ ولكنْ ليس يدركه ... إلاَّ الذي جلَّ عن أهلٍ وعن وَلَدِ
الفَقْرُ حكمٌ يعمُّ الكونَ أجمَعَه ... ولا أحَاشي من الأعيان من أحَدِ
لأنها كلُّها بالذات تَطْلُبه ... والفقرُ يَطْلُبها بالذات في البَلَدِ
فكلُّها عددٌ لأنها عددٌ ... والكلُّ شَفْعٌ سوى المدعوِّ بالأَحَدِ
وما سواه من الأعيان فهو كما ... قلناه كالواهِبِ المِحْسَانِ والصَّمَدِ
سبحانه جلَّ أن يَحْظَى به أَحَدٌ ... فلا يُولَد في عَقْلٍ وفي جَسَدِ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] يعني بأسمائه، كما نحن فقراء إلى أسمائه، ولذلك أتى بالاسم الجامع للأسماء الإلهية حقيقة سرّه ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] فلو اتصفوا بحقيقة سنكتب ما قالوا سببه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ نزاهته ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] بيانه، ودليله الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه جزاؤه ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٥]، وباب الفقر ليس فيه ازدحام لاتساعه وعموم حكمه، والفقر صفة مهجورة وما يخلو عنها أحد وهي في كل فقير بحسب ما تعطيه حقيقته وهي ألذ ما ينالها العارف، فإنها تدخله على الحق ويقبله الحق لأنه دعاه بها، والدعاء طلب وتقرّب منها أختها وهي الذلّة. قال أبو يزيد: قال لي الحق: تقرّب إليّ بما ليس لي الذلّة والافتقار، فذلّه وحجبه فهاتان صفتان في اللسان نعتان للممكنات ليس لواجب الوجود منهما نعت في اللسان، تعالىٰ الله حجاب مسدل وباب مقفل مفتاحه معلّق عليه يراه البصير ولا يحسّ به الأعمى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٩] وفي هذه الآية أعني آية قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تسمّى الحق لنا باسم كل ما يفتقر إليه غيرة منه أن يفتقر إلى غيره، فالفقير هو الذي يفتقر إلى كل شيء ولا يفتقر إليه شيء، وهذا هو العبد المحض عند المحققين فتكون حاله في شيئية وجوده كحاله في شيئية عدمه دواء نافع لداء عضال، قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] قضية في عين قضية عامة ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٧] تنبيه على شرف الرتبة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] مع وجود عينه لأن الحين الدهري أتى عليه، فالفقر احتياج ذاتي من غير تعيين حاجة لجهله بالأصلح له ومن أسماء الله المانع وهو قد أعطى كل شيء خلقه حتى الغرض لما خلقه فينا أعطاه خلقه، فلا نزال أصحاب أغراض فما يمنع إلاَّ للمصلحة، كما يملي لقوم ليزدادوا

إثماً، فقد أعطاهم الإثم كما أعطى الإثم خلقه فالحق لا يتقيد إنعامه، والقوابل تقبل بحسب استعداداتها فمنعه عطاء لعلمه بالمصالح لذلك.

حكي عن بعضهم أنه سئل عن الفقير ما هو؟ فقال: من ليست له إلى الله حاجة يعني على التعيين ونبّه أن الاحتياج له ذاتي، والله قد أعطى كل شيء خلقه، فقد أعطاك ما فيه المصلحة لك لو علمت فما بقي لصاحب هذا المقام ما يسأل الله فيه، وما شرع السؤال إلاَّ لمن ليس له هذا الشهود ورآه يسأل الأغيار فغار فشرع له أن يسأله ولما سبق في علمه أنه يخلق قوماً ويخلق فيهم السؤال إلى الأغيار ويحجبهم عن العلم به أنه المسؤول في كل عين مسؤولة يفتقر إليها من جماد ونبات وحيوان وملك وغير ذلك من المخلوقات، أخبرنا أن الناس فقراء إلى الله أي هو المسؤول على الحقيقة فإنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة يس: الآية ٨٣] فالفقر إلى الله هو الأصل، فالعلماء بالله هم الذين يحفظون أحوالهم.

وصل: الغنيّ بالله فقير إليه، فالنسبة بلفظ الفقر إلى الله أولى من النسبة بالغنى، لأن الغنى نعت ذاتيّ يرفع المناسبة بين ذات الحق والخلق، وكل طلب فيؤذن بمناسبة، فإن الحاصل لا يبتغى فلا يكون الطلب إلاَّ في شيء ليس عند الطالب في حال الطلب، ولهذا لا يتعلق إلاَّ بالعدم الذي هو عين المعدوم، وقد يكون ذلك المطلوب في عين موجودة ولا عين موجودة ما في الكون إلاَّ طالب، فما في الكون إلاَّ فقير لما طلب، ويتميز الفقر عن سائر الصفات بأمر لا يكون لغيره وهو أنه صفة للمعدوم والموجود، وكل صفة وجودية من شرطها أن تقوم بالموجود، ألا ترى الممكن في حال عدمه يفتقر إلى المرجح فإذا وجد افتقر أيضاً إلى استمرار الوجود له وحفظه عليه فلا يزال فقيراً ذا فقر في حال وجوده وفي حال عدمه، فهو أعمّ المقامات حكماً، فالذي يكتسب من هذه الصفة إضافة خاصة وهي الفقر إلى الله لا إلى غيره وبه يثني عليه، وهو الذي يسعده ويقرّبه إلى الله، ويشركه في هذه الإضافة كل وصف جبل عليه الإنسان مثل البخل والحرص والشره والحسد وغير ذلك تشرف وتعلو بالإضافة والمصرف وتتضع وتسفل بالإضافة والمصرف، لا فقر أعظم من فقر الملوك لأنه مفتقر إلى مشاعلي وإلى كل ما يصحّ له به الملك، وهو فقير إلى ملكه الذي يبقى عليه اسم الملك.

قيل للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لما ذكر أبو القمح المنجم أن ريحاً عظيمة في هذه السنة تكون لا تمرّ على شيء إلاَّ جعلته كالرميم، فأشار عليه بعض جلسائه أن يتخذ في الأرض سرباً يكون فيه ليلة هبوب تلك الريح، فقال: ويهلك الناس؟ قيل له نعم، فقال: إذا هلك الناس فعلى من أكون ملكاً أو سلطاناً، لا خير في الحياة بعد ذهاب الملك، دعني أموت ملكاً والله لا فعلت، فانظر ما أحسن هذا. فكل موجود إضافي متحقق بالفقر وإن لم يشعر بذلك، وإن وجده فلا يعلم أن ذلك هو المسمّى فقراً، وإذا كان حكمه هذا فالفقر إلى الله تعالىٰ الذي بيده ملكوت كل شيء ثابت وموجود ولذلك الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] أي

سنوجبه أي سيعلمون أنّ الفقر نعت واجب لا يشكون فيه وجوباً ذاتياً من أجل قولهم: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لأنهم انحجبوا عما هو الأمر عليه من فقرهم، ولذلك كانوا كافرين فستروا ما هم به عالمون ذوقاً من أنفسهم لا يقدرون على إنكاره، وإن باهتوا فالحال يكذبهم فقالوا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وليسوا بأغنياء، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وليس بفقير من حيث ذاته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقد تقدّم في مواضع من هذا الكتاب معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وأنه ليس مثل قوله ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] ولا مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [سورة محمد: الآية ٣٨] فإذا علمت أن الفقر بهذه المثابة فالزم استحضاره في كل نفس وعلى كل حال وعلّق فقرك بالله مطلقاً من غير تعيين فهو أولى بك، وإن لم تقدر على تحصيل عدم التعيين فلا أقلّ أن تعلّقه بالله تعالىٰ مع التعيين، أوحى الله تعالىٰ إلى موسىٰ: يا موسىٰ لا تجعل غيري موضع حاجتك وسلني حتى الملح تلقيه في عجينك، هذا تعليم الله نبيه موسىٰ عليه السلام، ولقد رأيته سبحانه وتعالىٰ في النوم فقال لي: وكلني في أمورك فوكلته فما رأيت إلاّ عصمة محضة لله الحمد على ذلك، جعلنا الله تعالىٰ من الفقراء إليه به فإن الفقر إليه تعالىٰ به هو عين الغنى لأنه الغنيّ وأنت به فقير، فأنت الغنيّ به عن العالمين فاعلم ذلك.

الباب الثالث والستون ومائة

في معرفة مقام الغنى وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الغِنَى صفةٌ سلبيَّةٌ ولذا تمتاز عن نِسَب الأسماء رُتْبَتُها
يخُصُّه حكمُها والعينُ في عَدَم منها وليس لها كونٌ فينعتُهَا
إن الدلالةَ في التحقيق مَجْهَلَةٌ ممّن يقول بها والعقلُ يُثْبتُهَا
لذاك قال غنيٌّ في تَنَزُّله عن عالم الكون جاءت فيه آيتُهَا
في العنكبوت فدبِّرْه تجِدْهُ على ما قلت من نَفْي ما تُعطي دلالتُهَا
وليس يعرف إلاَّ من علامَتُه دنيا وآخرة والشرعُ مُثْبِتُهَا

اعلم أيدك الله أن الغنى صفة ذاتية للحق تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٦] أي المثنى عليه بهذه الصفة. وأمّا الغنى للعبد فهو غنى النفس بالله عن العالمين. قال رسول الله ﷺ: **«لَيسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ لَكِنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ»** خرّجه الترمذيّ والعرض المال، وهذه كلمة نبوية صحيحة، فإنّ غنى الإنسان عن العالم لا يصحّ، ويصحّ غناه عن المال، فإن الله سبحانه قد جعل مصالح العبد في استعمال أعيان بعض الأشياء وهي من العالم، فلا غنى له عن استعمالها فلا غنى له عن العالم فلذلك خصّصه بالمال، فلا يوصف بالغنى عن العالم إلاّ الله تعالىٰ من حيث ذاته جلّ وتعالىٰ، والغنى في الإنسان من العالم فليس الإنسان بغنيّ عن الغنى فهو فقير إليه.

واعلم أنّ الغنى وإن كان بالله والعزّة وإن كانت بالله فإنهما صفتان لا يصحّ للعبد أن يدخل بهما على الله تعالىٰ، وإن كان بالله فيهما فلا بدّ أن يتركهما فيدخل فقيراً ذليلاً، ومعنى الدخول التوجّه إلى الله، فلا يتوجه إلى الله بغناه به ولا بعزّته به، وإنما يتوجه إلى الله بذلّه وافتقاره، فإن حضرة الحق لها الغيرة ذاتية فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً وهذا ذوق لا يقدر أحد على إنكاره من نفسه. قال تعالىٰ مؤدّباً لنبيه ﷺ في ظاهر الأمر وهو يؤدّبنا به لنتعلم ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [سورة عبس: الآية ٥ ـ ٦] فكان مشهود محمد ﷺ الصفة الإلهية وهو الغنى فتصدّى لها لما تعطيه حقيقتها من الشرف، والنبيّ في ذلك الوقت في حال الفقر في الدعوة إلى الله وأن تعمّ دعوته، وعلم أن الرؤساء والأغنياء تبع الخلق لهم أكثر من تبع من ليس له هذا النعت، فإذا أسلم من هذه صفته أسلم لإسلامه خلق كثير، والنبيّ ﷺ له على مثل هذا حرص عظيم، وقد شهد الله تعالىٰ عندنا له بذلك فقال: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عنادكم يعزّ عليه للحق المبين ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] في أن تسلموا وتنقادوا إلى ما فيه سعادتكم وهو الإيمان بالله وما جاء من عند الله، ومع هذا الحضور النبويّ أوقع العتب عليه تعليماً ولنا وإيقاظاً له، فإنّ الإنسان محل الغفلات وهو فقير بالذات، وقد استحق الجاه والمال أن يستغني بهما من قاما به ولذلك قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وما قال: أما من هو غنيّ فإنه على التحقيق ليس بغنيّ بل هو فقير لما استغنى به فقال ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي»** فمن مكارم الأخلاق الإقبال على الفقراء والإعراض عن الأغنياء بالعرض من جاه أو مال، فإذا رأى ممّن هذه صفته الفقر والذلّة بنزوله عن هاتين المرتبتين وجب على أهل الله الإقبال عليه، فإنهم إن أقبلوا عليه وهم مستحضرون لما هم عليه من الجاه والمال تخيلوا أن إقبال أهل الله عليهم لجاههم ولما لهم فيزيدون رغبة في بقاء ما هم عليه، فلذلك منع الله أهله أن يقبلوا عليهم إلاّ بصفة الزهد فيهم، فإذا اجتمع في مجلس أهل الله من هو فقير ذليل منكسر وغنيّ بماله ذو جاه في الدنيا أظهر القبول والإقبال على الفقير أكثر من إظهاره على الغنيّ ذي الجاه لأنه المقصود بالأدب الذي أدّب الله تعالىٰ به نبيّه ﷺ، غير أن صاحب هذه الصفة يحتاج إلى ميزان الحق في ذلك، فإن غفل عنه كان الخطأ أسرع إليه من كل شيء، وصورة الوزن فيه أن لا يرى في نفسه شغوفاً عليه ولا يخاطبه أعني لا يخاطب هذا الغنيّ ولا ذا الجاه بصفة قهر تذلّه، فإنه لا يذلّ تحتها بل ينفر ويزيد عظمة وأنت مأمور بالدعوة إلى الله فادعوه كما أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو الناس تعليماً له ولنا فإنا مخاطبون بالدعاء إلى الله كما قال: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وقال له: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥] وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] هذه هي الصفة اللازمة التي ينبغي أن يكون الداعي عليها، ولا يجعل في نفسه عند دعائه لمن هذه نعوته من عباد الله طمعاً فيما في أيديهم من عرض الدنيا ولا فيما هو عليه من الجاه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: الآية ٨] فلا تخلعنّ ثوباً ألبسكه الله، وليس له تصرّف إلاّ في هذا الموطن فهذا معنى الحكمة، وما عتب الله نبيه ﷺ في الأوّل إلاّ

لعزّة قامت بنفس أولئك النفر مثل الأقرع بن حابس وغيره فقالوا: لو أفرد لنا محمد مجلساً جلسنا إليه فإنا نأنف أن نجالس هؤلاء الأعبد يعنون بذلك بلالاً وخباباً وغيرهما فرغب النبيّ ﷺ لحرصه على إيمانهم ولعلمه أنه يرجع لرجوعهم إلى الله بشر كثير فأجابهم إلى ما سألوا وتصدّى إليهم لما حضروا وأعرض عن الفقراء فانكسرت قلوبهم لذلك فأنزل الله ما أنزل جبراً لقلوب الفقراء فانكسر الباقي من نفوس أولئك الأغنياء الأعزاء، وقيل له: ما عليك إلاّ البلاغ وليس عليك هداهم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢] ونزل الله عليه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [سورة عبس: الآية ١] الآيات، وأنزل عليه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] الآيات وفيها: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] ثم ذكر ما للظالمين عند الله في الآخرة.

فطريقة الإرشاد والدعاء إلى الله ميزانها الغنى بالله عمّا في أيديهم وما يكون بسببهم، فإن لم تكن في نفسك بهذه المثابة فلا تدع واشتغل بدعاء نفسك إلى الاتصاف بهذه الصفات المحمودة عند الله، ولا تتعدّ الحدّ الذي أنت عليه ولا تخط في غير ما تملكه فتكون غاصباً، والصلاة في الدار المغصوبة لا تجوز بخلاف، والدعاء إلى الله صلاة والإخلاص فيها الحرية عن استرقاق من يدعوهم إليه، فهذا هو محل الغنى بالله، وهنا يستعمل فإن عدلت به إلى غير هذا فقد أخسرت الميزان والله يقول: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِى ٱلۡمِيزَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٨] فتخرجوه عن حدّه وهو قوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] والغلو والطغيان هما الرفعة فوق الحد الذي يستحقه المتغالي فيه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون ومائة

في معرفة مقام التصوف

اعلم [نظم: البسيط]

أن التصوُّف تشبيهٌ بخالقنا ... لأنه خَلْقٌ فانظُرْ تَرَى عَجَبَا
كيف التخلُّق والمَكْرُ الخفيُّ له ... في خلقه وبهذا القَدْر قد حُجِبَا
وذمَّهُ في صفات الخلق فاعتَبِرُوا ... فيه فذا مَثَلٌ للعقل قد ضُرِبَا
إن الحديدَ إذا ما الصُّنْعُ يَدْخله ... في غير منزلَةٍ يردُّه ذَهَبَا
كذلك الخُلُقُ المَذْمومُ يرجع محـ ... ـموداً إذا هو للرحمن قد نُسِبَا
إن التصوُّفَ أخلاقٌ مطهَّرَةٌ ... مع الإله فلا تَعْدُلْ به نَسَبَا

قال أهل طريق الله: التصوّف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوّف. وسئلت عائشة أمّ المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**» وأن الله أثنى عليه بما أعطاه من ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] ومن شرط المنعوت بالتصوّف أن يكون حكيماً ذا حكمة، وإن لم يكن فلاحظ له في هذا اللقلب فإنه حكمة كله فإنه

أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية، وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام فينظر إلى ما وصف الحق به نفسه وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفيّ بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنف، فأمر التصوّف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق، ولا يستنبط لنفسه أحكاماً ويخرج عن ميزان الحق في ذلك، فإنه من فعل ذلك لحق ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٣ و ١٠٤] فإن الله لا يقيم له ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٥] كما أنهم لم يقيموا للحق هنا وزناً فعادت عليهم صفتهم فما عذبهم بغيرهم، فتأمّل قوله تعالىٰ في كتابه فإنه ما ذكر صفة قهر وشدّة إلاَّ وإلى جانبها صفة لطف ولين حيثما كان من كتاب الله.

ثم إن أفرد صفة منها ولم يذكر إلى جانبها ما يقابلها اطلبها تجد مقابلها في موضع آخر مفرداً أيضاً، فذلك المفرد المقابل هو لهذا المفرد المقابل والغالب الجمعية قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٩] ثم أردف بالمقابل فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٥٠] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ثم أردف بالمقابل فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٦٧] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ ثم أردف قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٦] وتتبع هذا تجده كما ذكرناه لك. ثم إنه ما ذكر نعتاً من نعوت أهل السعادة إلاَّ وذكر إلى جانبه نعتاً من نعوت أهل الشقاء إما بتقديم أو تأخير، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [سورة عبس: الآية ٣٨، ٣٩] في أهل السعادة، ثم عطف فقال: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس: الآية ٤٠ ـ ٤٢] وقال تعالىٰ في حال أهل السعادة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٢، ٢٣] ثم عطف فقال في أهل الشقاء: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٤ ـ ٢٥] والوجوه هنا عبارة عن النفوس الإنسانية لأن وجه الشيء حقيقته وذاته وعينه لا الوجوه المقيدة بالأبصار فإنها لا تتصف بالظنون، ومساق الآية يعطي أن الوجوه هنا هي ذوات المذكورين.

وقال في الأشقياء: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢ ـ ٤] ثم عطف بالسعداء فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٨ ـ ١٠] وقال في أحوال السعداء: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٩] فذكر خيراً، ثم عطف وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٥] فذكر شراً. وكذلك قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٨] ثم عطف وقال: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٩] وقال في العناية: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ ثم عطف فقال: ﴿وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٩] ثم عطف: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٥ ـ ٧] ثم عطف وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ

بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٨ ـ ١٠] فالصوفي من قام في نفسه وفي خلقه، وفي خلقه قيام الحق في كتابه وفي كتبه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] فقد رميت بك على الطريق، وليس التصوّف بشيء زائد عند القوم سوى ما ذكرته لك وبينته، ولكن الله أنزل الميزان والعلم بالمواطن وبالأحوال، فلا تخرج شيئاً عن مقتضى ما تطلبه الحكمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالتخلق به والوقوف عنده يزيل المرض النفسيّ لا بدّ من ذلك ولكن للمؤمنين ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٢] لأنهم يعدلون به عن موطنه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٣] فيعمّمون الخاص ويخصّصون العامّ، فسمّوا ظالمين قاسطين. والحكماء هم المقسطون ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] وما وصفه الله بالكثرة فإن القلة لا تدخله، وسبب وصفه بالكثرة لأن الحكمة سارية في الموجودات لأن الموجودات وضع الله، ثم خلق الإنسان وحمّله الأمانة بأن جعل له النظر في الموجودات والتصرّف فيها بالأمانة ليؤدي إلى كل ذي حق حقه، كما أنّ الله أعطى كل شيء خلقه، فجعل الإنسان خليفة في الأرض دون غيره من المخلوقين، فهو أمين على خلق الله فلا يعدل بهم عن سنّة الله، فالموجودات بيد الإنسان أمانة عرضت عليه فحملها، فإن أدّاها فهو الصوفي، وإن لم يؤدّها فهو الظلوم الجهول، والحكمة تناقض الجهل والظلم، فالتخلق بأخلاق الله هو التصوّف، وقد بيّن العلماء التخلّق بأسماء الله الحسنى وبيّنوا مواضعها وكيف تنسب إلى الخلق ولا تحصى كثرة، وأحسن ما تصرف فيه مع الله خاصة، فمن تفطن وصرفها مع الله أحاط علماً بتصريفها مع الموجودات فذلك المعصوم الذي لا يخطىء أبداً، والمحفوظ من أن يتحرك أو يسكن سدى، جعلنا الله من الصوفية القائمين بحقوق الله والمؤثرين جناب الله.

الباب الخامس والستون ومائة

في معرفة مقام التحقيق والمحققين

[نظم: مجزوء الكامل]

الحقُّ في حقِّ الطبيعَهْ كالآل تبصره بِقِيْعَهْ

فتظنُّه ماءً فتأ تِ لعين مائك أن تُضيعَهْ

انظُرْ وحقِّقْ ما رأيْـ تَ فربما كانت خَديعَهْ

صُورُ التجلِّي هكذا الحقُّ فيها كالوَديعَهْ

وأتَتْ بها نُكْراً وإقـ راراً نصوصٌ في الشريعَهْ

لا تلتفِتْ للقاع وانظُـ رْ في منازلك الرَّفيعَهْ

تَجِدِ المُعَمَّى ينجلي من خلف أستار بديعَهْ

في غير شكْلٍ لا ولا صُوَرٍ تؤلِّفها الطَّبيعَهْ

فــإذا رأيــتَ الــحــقَّ فــازْ ... جِــعْ والــتــزمْ سَــدَّ الــذَّريــعَــهْ
وانــطُــقْ بــمــا نــطــق الــحَــ ... ـديــثُ بــه مــن الــفــاظ شــنــيــعَــهْ
وإذا الــغــريــزةُ نــازعــتــ ... ـك فــقــل لــهــا كُــونــي مُــطــيــعَــهْ
كــونــي الــكَــتُــومــةَ لا تــكــو ... نــي بــيــن صــحــبــك بــالــمــذيــعَــهْ
وإذا دُعِــيْــتِ بــمــثــل ذا ... كــونــي الــمــجــيــبــةَ والــسَّــمــيــعَــهْ
جَــمِّــلْ صــنــيــعَــكَ فــي الــقَــبُــو ... ل فــقــد تُــجَــازَى بــالــصَّــنــيــعَــهْ

اعلم أيّدك الله أن التحقيق هو المقام الذي لا يقبل الشبه القادحة فيه، وصاحب هذا النعت هو المحقق، فالتحقيق معرفة ما يجب لكل شيء من الحق الذي تطلبه ذاته فيوفيه ذلك علماً، فإن اتفق أن يعامله به حالاً فهو الذي ظهر عليه سلطان التحقيق، وإن لم يظهر عليه فهو عالم بأنه أخطأ، ولا يقدح ذلك الخطأ في تحقيقه لأنه بصير بنفسه وبما أخطأ فيه لأنه أخطأ عن تعمّل، وهنا سرّ إلهيّ وهو أن الله هو الحكيم المطلق وهو الواضع للأمور في مواضعها وهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فليس في الكون خطأ بنسبة الترتيب لله. وقد علم رب هذا التحقيق والمحقق به أن الأمر هكذا هو، وقد علم أنه أخطأ ولكن بالنسبة إلى ما أمر به لا بالنسبة إلى ما هو الأمر عليه من حيث إن الله هو الواضع له في ذلك المحل المسمّى هنا الفعل خطأ، فصاحب التحقيق مأجور في خطئه، أي مثنى عليه عند الله كالمجتهد ما هو مخطىء في نفس الأمر فإن حكمه مقرّر، وإنما خطؤه بالنسبة إلى غيره، حيث لم يوافق دليله دليل غيره وكل شرع وكل حق، فهكذا منزلة التحقيق والمحققين.

ومن شرط صاحب هذا المقام أن يكون الحق سمعه وبصره ويده ورجله وجميع قواه المصرفة له، فلا يتصرّف إلاّ بحق في حق لحق، ولا يكون هذا الوصف إلاّ لمحبوب، ولا يكون محبوباً حتى يكون مقرّباً، ولا يكون مقرّباً إلاّ بنوافل الخيرات، ولا تصحّ له نوافل الخيرات إلاّ بعد كمال الفرائض، ولا تكمل الفرائض إلاّ باستيفاء حقوقها ولذلك منعنا أن تصحّ لأحد على التعيين نافلة إلاّ بإخبار أو مشاهدة، وذلك أن الفرائض تستغرقها بالتكميل منها، فإنه قد ورد في الصحيح عن الله تعالىٰ أنه يقول يوم القيامة: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامّة كتبت له تامّة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: أنظروا هل لعبدي من تطوّع؟ فإن كان له تطوّع وهو النافلة قال: أكملوا لعبدي فريضته من تطوّعه.

قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَىٰ ذَاكُمْ**» وما شهد الله بنافلة لأحد إلاّ لرسول الله ﷺ. فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وهو مقام القرب والسيادة المشهودة للكون، فمن كان الحق سمعه فلا تدخل عليه شبهة فيما يسمع بل يدري ما سمع، ومن سمع وبمن سمع، وما يقتضيه ذلك المسموع فيعمل بحسب ذلك فلا يخطى سمعه، وكذلك إذا كان الحق بصره علم بمن أبصر وما أبصر فلم يدخل في نظره شبهة ولا في حسّه غلط ولا في عقله حيرة فهو لله بالله، وكذلك في جميع حركاته وسكناته حركات عن تحقيق من محقق، ولا ينظر في ذلك إلى تخطئة الغير فيها فإنه من

المحال قطعاً أن يكون في الوجود أمر يوافق أغراض الجميع، فإنّ الله خلق نظرهم متفاوتاً، وما جعل في موجوداته من تفاوت في نفس الأمر كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [سورة الملك: الآية ٣] فمنع أن يكون هناك تفاوت بل أراه الأمور على وضع الحكمة الإلهية، فمن أعطى هذا العلم فقد أعطى ما يجب لكل أحد من خلق الله، وهذا مقام عزيز قلّ أن ترى له ذائقاً إلاّ من كان له هذا المقام، وعلامة صاحب هذا المقام أن يكون عنده لكل ما يسمّى خطأ في الوجود وجه إلى الحق يعرفه ويعرف به إن سئل عنه عند من يعرف منه القبول عليه هذه علامته، وهو الذي يرى ربه بكل عقيدة وبكل عين وفي كل صورة، وليس هذا إلاّ لصاحب هذا المقام، فإذا ادعاه أحد ووقع أمر في العالم يقع فيه الإنكار ولا يكون عند مدعي هذا المقام له مخرج لحق جملة واحدة فدعواه في هذا المقام محال، فإنّ صاحب هذا المقام يعلم أين وجه الحق في ذلك الأمر الذي صحبه النكر، وأكثر ما يكون ذلك في العقائد والأمور الشرعية، وما عدا هذين الموضعين فإنه يسهل وجود الحق فيما يقع فيه الإنكار العرضي ولا يلزم من إظهار حق ذلك الأمر أن يكون لسان الحمد يجري عليه ليس ذلك المطلوب بل هو مذموم مثلاً مع كونه حقاً، فما كل حق محمود شرعاً ولا عقلاً، وإنما المراد بالتحقيق علم ما يستحقه كل أمر عدماً كان أو وجوداً حتى الباطل يعطيه حقّه ولا يتعدّى به محله، ومن كان هذا نعته فهو الإمام المبين وهو مجلى العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي هذا الباب قلت أخاطب نفسي: [مجزوء الرجز]

يا نفسُ كوني للذي ... أُوْرِدُهُ مُوَافِقَهْ
والتزمي وانتظمي ... مع النفوس الصَّادقَهْ
فإنها مَوْقوفَةٌ ... على شُهودِ السَّابقَهْ
جَنْبَ براهينِ النُّهى ... فإنّ منها الحالِقَهْ
فما له فَرُدَّهُ ... إليك بالموافَقَهْ
من سيِّىء لا يُرْتَضَى ... لا تُنْعَتي بالخَالِقَهْ
حضْرَةُ فِعْلِ الله لا ... تَحْتَمِلُ المُشَاقَقَهْ
نَفْسَكَ غالِطْ عندها ... لا تركَبِ المُحَاقَقَهْ
شَقْوَتُها مقرونةٌ ... بالبحث والمُضايَقَهْ
لا تلْتَفِتْ لما يُرَى ... من الأمور الخارقَهْ
ما لم تكُنْ مسلِّماً ... لها على المُطابَقَهْ
إن الحكيمَ المُجْتَبَى ... في حَلْبة المُسَابَقَهْ
يجري على حِكْمته ... مع العُقول الفَارقَهْ
في حَضْرة النُّور التي ... لها الشُّموسُ الشارقَهْ

فاعلم أيّدك الله أنّ من التحقيق أن تعطي المغالطة في موضعها حقها، فإن لها في كتاب الله موضعاً وهو قوله في عمال الكفار: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [سورة النور: الآية ٣٩]

والحق هو الذي أعطاه في عين هذا الرائي صورة الماء وهو ليس بالماء الذي يطلبه هذا الظمآن فتجلّى له في عين حاجته، فإذا جاءه لم يجده شيئاً فنكر وما قال لم يجده الماء، فإن السراب لم يكن ذلك المحل الذي جاء إليه محل السراب، ولو كان لقال وجد السراب وما كان سراباً إلاّ في عين الرائي طالب الماء فرجع هذا الرائي لنفسه لما لم يجد مطلوبه في تلك البقعة، فوجد الله عنده فلجأ إليه في إغاثته بالماء أو بالمزيل لذلك الظمأ القائم به، فبأي أمر أزاله فهو المعبّر عنه بالماء، فلما نفى عنه اسم الشيء جعل الوجود له سبحانه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فما هو شيء بل هو وجود، فأنظر ما أدق هذا التحقيق، فهذا كنار موسىٰ فتجلّى له في عين حاجته فلم تكن ناراً، كما قلنا: [البسيط]

كنارِ موسىٰ يراها عَيْنَ حاجته ... وهو الإلهُ ولكنْ ليس يَدْريهِ

الباب السادس والستون ومائة

في معرفة مقام الحكمة والحكماء

[نظم: الكامل]

إنَّ الحكيمَ مرتِّبُ الأشياء ... في أعينِ الأكوان والأسْمَاءِ
يجري مع العلم القديم بحُكْمِهِ ... في الحِكْمةِ المُزْدانة الغَرَّاءِ
فتراه يعطي كلَّ شيء خَلْقَهُ ... في حالة السَّرَّاء والضَّرَّاءِ
وعن العَوَارض لا يزال مُنَزَّهاً ... في بدء ما تَهْوَى من الأشياءِ
لكنه المَعْصومُ في أفعاله ... في كل ما يجري من الأَهْوَاءِ

اعلم أيّدك الله أن الحكمة علم بمعلوم خاص وهي صفة تحكم ويحكم بها ولا يحكم عليها، واسم الفاعل منها حكيم فلها الحكم، واسم الفاعل من الحكم الذي هو أثرها حاكم وحكم، وبهذا سمّى الرسن الذي يحكم به الفرس حكمة، فكل علم نه هذا النعت فهو الحكمة، والأشياء المحكوم عليها بكذا تطلب بذاتها واستعدادها ما يحتاج إليه فلا يعطيها ذلك إلاّ من نعته الحكمة واسمه الحكيم، فهل للاستعدادات حكم في هذا المسمّى حكيماً أو الحكمة لها الحكم أو المجموع؟ فأما الاستعداد على الانفراد فلا أثر له فإنا نرى من يستحق أمراً ما باستعداده وهو بين يدي عالم لكنه ليس بحكيم فلا يعطيه ما يستحقه لكونه جاهلاً، وقد يمنعه ما يستحقه مع كونه موصوفاً بالعلم بما يستحقه ذلك الأمر وما يفعل فلا بالمجموع ولا بالإنفراد، فعلمنا أن ذلك راجع إلى أمر رابع ما هو الحكمة، ولا العليم بالحكمة، ولا استعداد الأمر الذي يطلب الحكمة، وذلك الأمر الزائد هو الذي يبعثه على إعطاء ذلك الأمر حقّه لعلمه بما يستحقه وحينئذ يسمّى حكيماً، وما لم يكن منه ذلك فهو عالم بالحكمة، وبما تستحقه وما يستحقه ذلك الأمر باستعداده فلا يسمّى حكيماً إلاّ بوجود هذا الاستعمال وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] من اسمه الحكيم، فبالإعطاء الذي تعطيه الحكمة يسمّى حكيماً فهو علم تفصيليّ عمليّ.

والعلم بالمجمل علم تفصيليّ فإنه فصله عن العلم التفصيليّ، ولولا ذلك لم يتميز المجمل من المفصل، فمن الحكمة العلم بالمجمل والتجميل والمفصل والتفصيل، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ عملاً ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] في المقال، فالحكيم يجري مع كل حال وموطن بحسب ذلك الحال وذلك الموطن، وليس هذا إلاَّ للملامية خاصة، فهم المجهولون في الدنيا لأنهم لا يتميزون بأمر يخرجهم عن حكم ما يعطيه موطن الدنيا، فإن قام به حال يناقض الموطن من وجه وهو حال النبوّة أعني الرسالة فإنه لا بدّ أن يحكم عليه الحال وهو الذي تعطيه الحكمة، فيتميز في موطن الدنيا بأنه عند الله بمكان ولم يكن له ذلك، ولكن حال التبليغ يطلب الدلالة على صحة ما يدعو إليه فهذا هو حكم الحال، فإن كان ولياً دون رسول تعين عليه الجري بحكم الموطن لا بحكم الحال، فإن ظهر من هذا الوليّ ما يدل على منزلته من ربه بما يعطي من التمكن والتصرّف في العالم وليس برسول فهو رعونة وصاحب نقص، فإن ظهر بعلم غريب فهل يكون مثل صاحب الحال النفسيّ المؤثر أم لا؟ قلنا: لا، فإن العلم الذي لا يكون معه أثر كوني سوى نفسه لا يقوم عند العامة ولا عند الخاصة له ذلك الوزن، ولا لصاحبه ذلك التميز إلاَّ عند الأكابر من أهل الله وممّن له تحقق واستشراف على ذلك المقام الأعلى، ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] من أجل الموطن وما أظهر آية في دعائه إلى الله في كل وقت ولا عند كل مدعوّ مع حاجته إلى ذلك، ولكن لما كان مأموراً بالتبليغ ما عليه إلاَّ البلاغ فإن شاء الحق أيّده بالمعجزات، وإن شاء زاد دعاؤه من أرسل إليهم فراراً ممّا دعاهم إليه من توحيده كنوح عليه السلام فأخبر فقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [سورة نوح: الآية ٥] وللحكماء السياسة في العالم بالطريقة المشروعة التي شرع الله لعباده ليسلكوا فيها فيقودهم ذلك السلوك إلى سعادتهم. انتهى الجزء الثامن ومائة.

(الجزء التاسع ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والستون ومائة

في معرفة كيمياء السعادة

[نظم: البسيط]

إن الأكاسيرَ بُرْهَانٌ يدلُّ على ... ما في الوجود من التَّبْديل والغِيَرِ
إن العدوّ بإكسير العناية إذ ... يُلْقَى عليه بميزان على قَدَرِ
في الحين يخرج صِدْقاً من عَدَاوته ... إلى ولايته بالحُكْم والقَدَرِ
فَصَحِّحِ الوزنَ فالميزانُ شِرْعَتُنا ... وقد أَبَنْتُ فكُنْ فيه على حَذَرِ

الـكِـيـمـيَـاءُ مـقـاديـرٌ مُـعَـيَّـنَـةٌ لأنَّ كَـمْ عَـدَدٌ فـي عـالـم الـصُّـوَرِ
فـكـن بـه فَـطِـنـاً إن كـنْـتَ ذا نَـظَـرٍ ولا تـرِدَنَّـكَ الأَهْـوَا عـن الـنَّـظَـرِ
تَـلْـحَـقْ بـرتـبـة أمـلاكٍ مـطـهَّـرةٍ وتَـرْتَـقـي رُتـبـاً عـن عـالـم الـبَـشـرِ

الكيمياء عبارة عن العلم الذي يختص بالمقادير والأوزان في كل ما يدخله المقدار والوزن من الأجسام والمعاني محسوساً ومعقولاً، وسلطانها في الاستحالات أعني تغيّر الأحوال على العين الواحدة فهو علم طبيعيّ روحانيّ إلهيّ، وإنما قلنا إلهيّ لورود الاستواء والنزول والمعية وتعدّد الأسماء الإلهية على المسمّى الواحد باختلاف معانيها: [البسيط]

فـالأمـرُ مـا بـيـن مَـطْـويّ ومَـنْـشُـورِ كـالـكَـيْـف والـكَـمّ أحـوالُ الـمـقـاديـرِ
تـاهَـتْ مـراكـبُـنـا عـلـى بَـسَـائـطـهـا تِـيْـهَ امـتـيـازٍ بـسـرٍّ غـيـر مَـقْـهُـورِ
والـوحـيُ يـنـزل أحـكـامـاً يُـشَـرِّعُـهَـا والـحـكـم مـا بـيـن مَـنْـهِـيٍّ ومَـأْمـورِ

فعلم الكيمياء العلم بالإكسير وهو على قسمين أعني فعله: إما إنشاء ذات ابتداء كالذهب المعدني، وإما إزالة علة ومرض كالذهب الصناعي الملحق بالذهب المعدني كنشأة الآخرة والدنيا في طلب الاعتدال. فاعلم أن المعادن كلها ترجع إلى أصل واحد، وذلك الأصل يطلب بذاته أن يلحق بدرجة الكمال وهي الذهبية، غير أنه لما كان أمراً طبيعياً عن أثر أسماء إلهية متنوعة الأحكام طرأت عليه في طريقه علل وأمراض من اختلاف الأزمنة وطبائع الأمكنة مثل حرارة الصيف، وبرد الشتاء، ويبوسة الخريف، ورطوبة الربيع، ومن البقعة كحرارة المعدن وبرده. وبالجملة فالعلل كثيرة، فإذا غلبت عليه علة من هذه العلل في أزمان رحلته ونقلته من طور إلى طور وخروجه من حكم دور إلى حكم دور واستحكم فيه سلطان ذلك الموطن ظهرت فيه صورة نقلت جوهرته إلى حقيقتها فسمّي كبريتاً أو زئبقاً وهما الأبوان، لما يظهر من التحامهما وتناكحهما من معادن لعلل طارئة على الولد، فهما إنما يلتحمان ويتناكحان ليخرج بينهما جوهر شريف كامل النشأة يسمّى ذهباً فيشرف به الأبوان، إذ كانت تلك الدرجة مطلوبة لكل واحد من الأبوين من حيث جوهريتهما، إلاّ أن ذلك الأصل في الإلهيات نفس وفي الطبيعة بخار إلاّ أنّ الأبوين أمر وطبيعة.

وإنما قلنا إن ذلك الأمر كان مطلوباً للأبوين من حيث جوهرهما ومن حيث صورتهما لأن الحكم في الجوهر الهيولانيّ إنما هو للصور، فلما حالت العلة التي طرأت عليه في معدنه فصيرته كبريتاً وزئبقاً علمنا أيضاً أن في قوّتهما إذا لم يطرأ عليهما علة تخرجهما عن سلطان حكم اعتدال الطبائع وتعدل بهما عن طريقه أن الولد الخارج بينهما الذي يستحيل أعيانهما إليه أنهما يلحقان بدرجة الكمال وهو الذهب الذي كان مطلوباً لهما ابتداء، فإذا التحما وتناكحا في المعدن بحكم طبيعة ذلك المعدن الخاص وحكم قبوله لأثر طبيعة الزمان فيه وهو على صراط مستقيم مثل الفطرة التي فطر الله الناس عليها وأبواه هما اللذان يهوّدان الولد أو ينصرانه أو يمجسانه، كذلك إذا كثرت فيه كمية الأب الواحد لعرض معدني من عرض زماني غلب بذلك إحدى الطبائع على أخواتها، فزاد وأربى ونقص الباقي عن مقاومة الغالب حكم على الجوهر

فردّه لما تعطيه حقيقة ذلك الطبع، وعدل به عن طريق الاعتدال التي هي المحجة التي تخرج بك إلى المدينة الفاضلة الذهبية الكاملة التي من حصل فيها لم يقبل الاستحالة إلى الأنقص عنها، فإذا غلب عليه ذلك الطبع قلب عينه فظهرت صورة الحديد أو النحاس أو القصدير أو الآنك أو الفضة بحسب ما يحكم عليه.

ومن هنا تعرف قوله تعالىٰ في الاعتبار: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] أي تامّة الخلقة وليس إلاّ الذهب، وغير تامّة الخلقة وهي بقية المعادن، فتتولاه في ذلك الوقت روحانية كوكب من الكواكب السيارة السبعة وهو ملك من ملائكة تلك السماء يجري مع ذلك الكوكب المسخّر في سباحته، لأنّ الله هو الذي وجهه إلى غاية يقصدها عن أمر خالقه إبقاء لعين ذلك الجوهر، فيتولى صورة الحديد ذلك الملك الذي جواده هذا الكوكب السابح من السماء السابعة من هنا وصورة القزدير وغيره، وكذلك كل صورة معدنية يتولاها ملك يكون جواده هذا الكوكب السابح في سمائه وفلكه الخاص به الذي وجهه فيه ربه تعالىٰ، فإذا جاء العارف بالتدبير نظر في الأمر الأهون عليه، فإن كان الأهون عليه إزالة العلة من الجسد حتى يردّه إلى المجرى الطبيعيّ المعتدل الذي انحرف عنه فهو أولى، فإنّ الكوكب السابح يراه صاحب الرصد وقتاً في المنزلة عينها، ووقتاً عادلاً عنها منحرفاً فوقها أو تحتها، فيعمد العارف بالتدبير إلى السبب الذي ردّه حديداً أو ما كان، ويعلم أنه ما غلب الجماعة إلاّ بما فيه من الكمية، فنقص من الزائد وزاد في الناقص، وهذا هو الطب والعامل به العالم هو الطبيب فيزيل عنه بهذا الفعل صورة الحديد مثلاً أو ما كان عليه من الصور، فإذا ردّه إلى الطريق أخذ يحفظ عليه تقويم الصحة وإقامته فيها فإنه قد يعافى من مرضه وهو ناقه فيخاف عليه فهو يعامله بتلطيف الأغذية ويحفظه من الأهوية ويسلك به على الصراط القويم إلى أن يكسو ذلك الجوهر صورة الذهب، فإذا حصلت له خرج عن حكم الطبيب وعن علته، فإنه بعد ذلك الكمال لا ينزل إلى درجة النقصان ولا يقبله، ولو رامها الطبيب لم يتمكن له ذلك، فإنّ القاضي ما عنده نص في هذه المسألة حتى يحكم فيها بما يراه، وسبب ذلك على الحقيقة أنّ القاضي عادل ولا يحكم إلاّ على من خرج عن طريق الحق وهذا الذهب عليه فلا يقضي عليه بشيء لأنه لم يتوجّه للخصم عليه حق فهذا سببه. فمن لزم طريق الحق ارتفع عن درجة الحكم عليه وصار حاكماً على الأشياء، فهذه طريقة إزالة العلل، وما رأيت عليها أحداً يعرف ذلك ولا نبّه عليه ولا أشار، ولا تجده إلاّ في هذا الباب أو في كلامنا.

وأما إذا أراد صاحب هذه الصنعة إنشاء العين المسمّى إكسيراً ليحمله على ما يشاء من الأجساد المعدنية فيقلبها لما تحكم به طبيعة ذلك الجسد القابل والدواء واحد الذي هو الإكسير، فمن الأجساد من يرده الإكسير إلى حكمه فيكون إكسيراً يعمل عمله وهو المسمّى بالنائب، فيقوم في باقي الأجساد المعدنية ويحكم بحكمه، مثل أن يأخذ وزن درهم أو أيّ وزن شاء من عين الإكسير فيلقيه على ألف وزن من أيّ جسد شئت من الأجساد، فإن كان قزديراً أو حديداً أعطاه صورة الفضة، وإن كان نحاساً أو رصاصاً أسود

أو فضة أعطاه صورة الذهب، وإن كان الجسد زيبقاً أعطاه قوّته وتركه نائباً عنه يحكم في الأجساد حكمه ولكن بوزن يخالف وزن باقي الأجساد، وذلك وزن درهم من الإكسير فيلقيه على رطل الحكمة خاصة من الزيبق فيردّه إكسيراً كله، فيلقي من ذلك النائب وزناً على ألف وزن من بقية الأجساد مثل الإكسير فيجري في الحكم مجراه، فهذه صورة الإنشاء، والأولى صنعة إزالة المرض.

وإنما جئنا بهذا لنعلمك بارتباط الحكمة في مسمّى الكيمياء بين الطريقين، ولماذا سميت كيمياء السعادة، لأن فيها سعادة لا بد وزيادة ما عند الناس من أهل الله خير منها وهو أنه يعطيك درجة الكمال الذي للرجال، فإنه ما كل صاحب سعادة يعطي الكمال، فكل صاحب كمال سعيد وما كل سعيد كامل، والكمال عبارة عن اللحوق بالدرجات العلى وهو التشبّه بالأصل، ولا يتخيل أن قول النبيّ ﷺ **«كمل من الرجال كثيرون»** أنه أراد الكمال الذي ذكره الناس وإنما هو ما ذكرناه، وذلك بحسب ما يعطي الاستعداد العلمي في الدنيا، فلنتكلم إن شاء الله على كيمياء السعادة بعد هذا التمهيد، والله الموفق لا رب غيره.

وصل في فصل: اعلم أن الكمال المطلوب الذي خلق له الإنسان إنما هو الخلافة، فأخذها آدم عليه السلام بحكم العناية الإلهية وهو مقام أخص من الرسالة في الرسل لأنه ما كل رسول خليفة، فإن درجة الرسالة إنما هي التبليغ خاصة قال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] وليس له التحكم في المخالف إنما له تشريع الحكم عن الله أو بما أراه الله خاصة، فإذا أعطاه الله التحكم فيمن أرسل إليهم فذلك هو الاستخلاف والخلافة والرسول الخليفة، فما كل من أرسل حكم، فإذا أعطى السيف وأمضى الفعل حينئذ يكون له الكمال فيظهر بسلطان الأسماء الإلهية، فيعطي ويمنع، ويعزّ ويذلّ، ويحيي ويميت، ويضرّ وينفع، ويظهر بأسماء التقابل مع النبوّة لا بدّ من ذلك، فإن ظهر بالتحكّم من غير نبوّة فهو ملك وليس بخليفة، فلا يكون خليفة إلاَّ من استخلفه الحق على عباده لا من أقامه الناس وبايعوه وقدموه لأنفسهم وعلى أنفسهم، فهذه هي درجة الكمال.

وللنفوس تعمل مشروع في تحصيل مقام الكمال وليس لهم تعمّل في تحصيل النبوّة، فالخلافة قد تكون مكتسبة، والنبوّة غير مكتسبة، لكن لما رأى بعض الناس الطريق الموصل إليها ظاهر الحكم ومن شاء الله يسلك فيه تخيّل أنّ النبوّة مكتسبة وغلط، فلا شك أن الطريق يكتسب، فإذا وصل إلى الباب يكون بحسب ما يخرج له في توقيعه، وهنالك هو الاختصاص الإلهيّ، فمن الناس من يخرج له توقيع بالولاية، ومنهم من يخرج له توقيع بالنبوّة وبالرسالة، وبالرسالة والخلافة، ومنهم من يخرج له توقيع بالخلافة وحدها، فلما رأى من رأى أن هؤلاء ما خرج لهم هذا التوقيع إلاّ بعد سلوكهم بالأفعال والأقوال والأحوال إلى هذا الباب تخيّل أن ذلك مكتسب للعبد فأخطأ.

واعلم أن النفس من حيث ذاتها مهيأة لقبول استعداد ما تخرج به التوقيعات الإلهية، فمنهم من حصل له استعداد توقيع الولاية خاصة فلم يزد عليها، ومنهم من رزق استعداد ما

ذكرناه من المقامات كلها أو بعضها، وسبب ذلك أن النفوس خلقت من معدن واحد كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١] وقال بعد استعداد خلق الجسد: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] فمن روح واحد صحّ السر المنفوخ في المنفوخ فيه وهو النفس، وقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] يريد الاستعدادات، فيكون بحكم الاستعداد في قبول الأمر الإلهيّ، فلما كان أصل هذه النفوس الجزئية الطهارة من حيث أبوها ولم يظهر لها عين إلاّ بوجود هذا الجسد الطبيعيّ فكانت الطبيعة الأب الثاني خرجت ممتزجة فلم يظهر فيها إشراق النور الخالص المجرّد عن المواد ولا تلك الظلمة الغائية التي هي حكم الطبيعة، فالطبيعة شبيهة بالمعدن، والنفس الكلية شبيهة بالأفلاك التي لها الفعل، وعن حركاتها يكون الانفعال في العناصر، والجسد المكوّن في المعدن بمنزلة الجسم الإنساني، والخاصية التي هي روح ذلك الجسد المعدني بمنزلة النفس الجزئية التي للجسم الإنساني وهو الروح المنفوخ، وكما أن الأجساد المعدنية على مراتب لعلل طرأت عليهم في حال التكوين مع كونهم يطلبون درجة الكمال التي لها ظهرت أعيانهم، كذلك الإنسان خلق للكمال، فما صرفه عن ذلك الكمال إلاّ علل وأمراض طرأت عليهم إما في أصل ذواتهم، وإما بأمور عرضية فاعلم ذلك. فلنبتدىء بما ينبغي أن يليق بهذا الباب وهو أن نقول:

إن النفوس الجزئية لما ملكها الله تدبير هذا البدن واستخلفها عليه وبين لها أنها خليفة فيه لتتنبه على أن لها موجداً استخلفها فيتعين عليها طلب العلم بذلك الذي استخلفها هل هو من جنسها أو شبيه بها بضرب ما من ضروب المشابهة أو لا يشبهها؟ فتوفرت دواعيها لمعرفة ذلك من نفسها، فبينما هي كذلك على هذه الحالة في طلب الطريق الموصلة إلى ذلك وإذا بشخص قد تقدمها في الوجود من النفوس الجزئية فأنسوا به للشبه فقالوا له: أنت تقدمتنا في هذه الدار فهل خطر لك ما خطر لنا؟ قال: وما خطر لكم؟ قالوا: طلب العلم بمن استخلفنا في تدبير هذا الهيكل فقال: عندي بذلك علم صحيح جئت به ممّن استخلفكم وجعلني رسولاً إلى جنسي لأبين لهم طريق العلم الموصل إليه الذي فيه سعادتهم، فقال الواحد: إياه أطلب فعرفني بذلك الطريق حتى أسلك فيه. وقال الآخر: لا فرق بيني وبينك فأريد أن استنبط الطريق إلى معرفته من ذاتي ولا أقلدك في ذلك، فإن كنت أنت حصل لك ما أنت عليه وما جئت به بالنظر الذي خطر لي فلماذا أكون ناقص الهمة وأقلدك؟ وإن كان حصل لك باختصاص منه كما خصّنا بالوجود بعد أن لم نكن فدعوى بلا برهان، فلم يلتفت إلى قوله وأخذ يفكر وينظر بعقله في ذلك، فهذا بمنزلة من أخذ العلم بالأدلة العقلية من النظر الفكري.

ومثال الثاني مثال أتباع الرسول ومقلديه فيما أخبر به من العلم بصانعهم، ومثال ذلك الشخص الذي اختلف في اتباعه هذان الشخصان مثال الرسول المعلم فشرع هذا المعلم يبين الطريق الموصل إلى درجة الكمال والسعادة على ما اقتضاه نظر الشخص الواحد من الشخصين اللذين نظرا في شأن هذا المعلم وهو الذي لم يتبعه، ولكن ما وقعت الموافقة معه إلاّ في بعض ما يقتضيه الأمر الطبيعي من مخالفة الطبع، ولا كل مخالفة الطبع إلاّ بوزن خاص

ومقدار معين، وبهذا سمّي كيمياء لدخول التقدير والوزن، فلما رأى ذلك هذا الشخص فرح بذلك حيث استقل به دون تقليده، ورأى أن له شفوفاً على صاحبه الذي قلّده فاغتر به. وأما المقلد فبقي على ما كان عليه من تقليد المعلم، وزاد غير المقلد وهو ذلك الشخص بما رأى من الموافقة زهداً في تقليد هذا الشخص وانفراداً بنظره من أجل هذه الموافقة، فسلك الرجلان أو الشخصان إن كانا امرأتين أو أحدهما امرأة في الطريق الواحد بحكم النظر والآخر بحكم التقليد وأخذا في الرياضة وهي تهذيب الأخلاق والمجاهدة وهي المشاق البدنية من الجوع والعبادات العملية البدنية كالقيام الطويل في الصلاة والدؤب عليها، والصيام والحج والجهاد والسياحة هذا بنظره، وهذا بما شرع له أستاذه ومعلمه المسمّى شارعاً، فلما فرغا من حكم أسر الطبيعة العنصرية وما بقي واحد منهما يأخذ من حكم الطبيعة العنصرية إلاّ الضروري الذي يحفظ به وجود هذا الجسم الذي بوجوده واعتداله وبقائه يحصل لهذه النفس الجزئية مطلوبها من العلم بالله الذي استخلفها خاصة، فإذا خرجا عن حكم الشهوات الطبيعية العنصرية وفتح لهما باب السماء الدنيا تلقى المقلد آدم عليه السلام ففرح به وأنزله إلى جانبه، وتلقى صاحب المستقل روحانية القمر فأنزله عنده.

ثم إن صاحب النظر الذي هو نزيل القمر في خدمة آدم عليه السلام وهو كالوزير له مأموراً من الحق بالتسخير له ورأى جميع ما عنده من العلوم لا يتعدّى ما تحته من الأكر ولا علم له بما فوقه وأنه مقصور الأثر على ما دونه، ورأى آدم أن عنده علم ما دونه وعلم ما فوقه من الأمكنة وأنه يلقي إلى نزيله ممّا عنده ممّا ليس في وسع القمر أن يعرفه، وعلم أنه ما أنزله عليه إلاّ عناية ذلك المعلم الذي هو الرسول، فاغتمّ صاحب النظر وندم حيث لم يسلك على مدرجه ذلك الرسول واعتقد الإيمان به، وأنه إذا رجع من سفرته تلك أن يتبع ذلك الرسول ويستأنف من أجله سفراً آخر.

ثم إن هذا التابع نزيل آدم علمه أبوه من الأسماء الإلهية على قدر ما رأى أنه يحمله مزاجه، فإن للنشأة الجسمية العنصرية أثراً في النفوس الجزئية، فما كلها على مرتبة واحدة في القبول فتقبل هذه ما لا تقبل غيرها، وفي أول سماء يقف من علم آدم على الوجه الإلهي الخاص الذي لكل موجود سوى الله الذي يحجبه عن الوقوف مع سببه وعلته، وصاحب النظر لا علم له بذلك الوجه أصلاً، والعلم بذلك الوجه هو العلم بالإكسير في الكيمياء الطبيعية فهذا هو إكسير العارفين، وما رأيت أحداً نبّه عليه غيري، ولولا أني مأمور بالنصيحة لهذه الأمة بل لعباد الله ما ذكرته، فعلم كل واحد منهما ما لهذا الفلك من الحكم الذي ولاّه الله به في هذه الأركان الأربعة والمولدات، وما أوحى الله في هذه السماء من الأمر المختصّ بها في قوله ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وما علم صاحب النظر نزيل القمر من ذلك إلاّ ما يختص بالتأثيرات البدنية والاستحلالات في أعيان الأجسام المركبة من الطبيعة العنصرية، وحصل التابع ما فيها من العلم الإلهي الحاصل للنفوس الجزئية ممّا هو لهذا الفلك خاصة، وما نسبة وجود الحق من ذلك، وما له فيهم من الصور، ومن أين صحّت الخلافة

لهذه النشأة الإنسانية، ولا سيّما وآدم المنصوص عليه صاحب هذه السماء، فعلم التابع صورة الاستخلاف في العلم الإلهيّ، وعلم صاحب النظر الاستخلاف العنصري في تدبير الأبدان وعلل الزيادة والربو والنموّ في الأجسام القابلة لذلك والنقص، فكل ما حصل لصاحب النظر حصل للتابع، وما كل ما حصل للتابع حصل لصاحب النظر، فما يزداد صاحب النظر إلاّ غماً على غم، وما يصدق متى ينقضي سفره ويرجع إلى بدنه، فإنهم في هذا السفر مثل النائم فيما يرى في نومه وهو يعرف أنه في النوم فلا يصدق متى يستيقظ ليستأنف العمل ويستريح من غمّه، وإنما يتقلق خوفاً ممّا حصل له في سفره أن يقبض فيه فلا يصحّ له ترق بعد ذلك، فهذا هو الذي يزعجه.

والتابع ليس كذلك فإنه يرى الترقي بصحبه حيث كان من ذلك الوجه الخاص الذي لا يعرفه إلاّ صاحب هذا الوجه، فإذا أقاما في هذه السماء ما شاء الله وأخذا في الرحلة وودع كل واحد منهما نزيله وارتقيا في معراج الأرواح إلى السماء الثانية، وفي هذه السماء الأولى هو النائب السابع الإلهيّ الموكل بالنطفة الكائنة في الأرحام التي تظهر فيها هذه النشأة الإنسانية، وهو يتوكل بها في الشهر السابع من سقوط النطفة، والطفل في هذا الشهر الجنين يزيد وينمو في بطن أمه بزيادة القمر ويذبل وتقل حركته في بطن أمه في نقص القمر وذلك هو العلامة، فإن ولد في هذا الشهر لم يكن في القوّة مثل الذي يولد في الشهر السادس. فإذا قرعا السماء الثانية وفتحت لهما صعدا فنزل التابع عند عيسىٰ عليه السلام وعنده يحيىٰ ابن خالته، ونزل صاحب النظر عند الكاتب فلما أنزله الكاتب عنده وأكرم مثواه اعتذر إليه وقال له: لا تستبطئني فإني في خدمة عيسىٰ ويحيىٰ عليهما السلام وقد نزل بهما صاحبك فلا بدّ لي من الوقوف عندهما حتى أرى ما يأمراني به في حق نزيلهما، فإذا فرغت من شأنه رجعت إليك، فيزيد صاحب النظر غماً إلى غمّه وندامة حيث لم يسلك مسلك صاحبه ولا ذهب في مذهبه، فأقام التابع عند النبيّ الخالة ما شاء الله فأوقفاه على صحة رسالة المعلم رسول الله ﷺ بدلالة إعجاز القرآن فإنها حضرة الخطابة والأوزان، وحسن مواقع الكلام، وامتزاج الأمور، وظهور المعنى الواحد في الصور الكثيرة، ويحصل له الفرقان في مرتبة خرق العوائد.

ومن هذه الحضرة يعلم علم السيمياء الموقوفة على العمل بالحروف والأسماء لا على البخورات والدماء وغيرها، ويعرف شرف الكلمات وجوامع الكلم وحقيقة ﴿كُن﴾واختصاصها بكلمة الأمر لا بكلمة الماضي ولا المستقبل ولا الحال، وظهور الحرفين من هذه الكلمة مع كونها مركبة من ثلاثة، ولماذا حذفت الكلمة الثالثة المتوسطة البرزخية التي بين حرف الكاف وحرف النون وهي حرف الواو الروحانية التي تعطي ما للملك في نشأة المكون من الأثر مع ذهاب عينها، ويعلم سرّ التكوين من هذه السماء، وكون عيسىٰ يحيي الموتى، وإنشاء صورة الطير ونفخه في صورته وتكوين الطائر طائراً هل هو بإذن الله أو تصوير عيسىٰ خلق الطير ونفخه فيه هو بإذن الله؟ وبأيّ فعل من الأفعال اللفظية يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة، الآية ١١٠]وبإذن الله هل العامل فيه يكون أو تنفخ؟ فعند أهل الله العامل فيه يكون،

وعند مثبتي الأسباب وأصحاب الأحوال العامل فيه تنفخ، فيحصل لمن دخل هذه السماء واجتمع بعيسىٰ ويحيىٰ علم ذلك ولا بدّ، ولا يحصل ذلك لصاحب النظر، وأعني حصول ذوق وعيسىٰ روح الله ويحيي له الحياة، فكما أن الروح والحياة لا يفترقان كذلك هذان النبيان عيسىٰ ويحيىٰ لا يفترقان لما يحملانه من هذا السرّ، فإن لعيسىٰ من علم الكيمياء الطريقين: الإنشاء وهو خلقه الطير من الطين والنفخ وظهر عنه الصور باليدين والطيران بالنفخ الذي هو النفس فهذه طريقة في علم الكيمياء الذي قدّمناه في أوّل الباب.

والطريق الثانية إزالة العلل الطارئة وهو في عيسىٰ إبراء الأكمه والأبرص وهي العلل التي طرأت عليهما في الرحم الذي هو من وظيفة التكوين، فمن هنا يحصل لهذا التابع علم المقدار والميزان الطبيعيّ والروحانيّ لجمع عيسىٰ بين الأمرين، ومن هذه السماء يحصل لنفس هذا التابع الحياة العلمية التي يحيي بها القلوب كقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] وهي حضرة جامعة فيها من كل شيء، وفيها الملك الموكل بالنطفة في الشهر السادس، ومن هذه الحضرة يكون الإمداد للخطباء والكتاب لا للشعراء. ولما كان لمحمد ﷺ جوامع الكلم خوطب من هذه الحضرة وقيل: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] لأنه أرسل مبيناً مفصلاً، والشعر من الشعور فمحله الإجمال لا التفصيل وهو خلاف البيان. ومن هنا تعلم تقليبات الأمور، ومن هنا توهب الأحوال لأصحابها، وكلما ظهر في العالم العنصري من النيرنجيات الأسمائية فمن هذه السماء.

وأما الفلقطيرات فمن غير هذه الحضرة، ولكن إذا وجدت فأرواحها من هذه السماء لا أعيان صورها الحاملة لأرواحها، فإذا حصل علم هذه الكائنات وسرعة الإحياء فيها من شأنه أن لا يقبل ذلك إلاَّ في الزمان الطويل، فإن ذلك من علم عيسىٰ لا من الأمر الموحى به في ذلك الفلك، ولا في سباحة كوكبه، وهو من الوجه الخاص الإلهيّ الخارج عن الطريق المعتادة في العلم الطبيعيّ الذي يقتضي الترتيب النسبيّ الموضوع بالترتيب الخاص، وهذه مسألة يغمض دركها، فإن العالم المحقق يقول بالسبب فإنه لا بدّ منه، ولكن لا يقول بهذا الترتيب الخاص في الأسباب، فعامّة هذا العلم إما ينفون الكل وإما يثبتون الكل، ولم أر منهم من يقول ببقاء السبب مع نفي ترتيبه الزماني، فإنه علم عزيز يعلم من هذه السماء، فما يكون عن سبب في مدة طويلة يكون عن ذلك السبب في لمح البصر أو هو أقرب، وقد ظهر ذلك فيما نقل في تكوين عيسىٰ عليه السلام، وفي تكوين خلق عيسىٰ الطائر، وفي إحياء الميت من قبره قبل أن يأتي المخاض للأرض في إبراز هذه المولدات ليوم القيامة وهو يوم ولادتها، فألق بالك واشحذ فؤادك عسى أن يهديك ربك سواء السبيل.

ومن هذه السماء قوله في ناشئة الليل إنها ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٦] فإذا حصل التابع هذه العلوم وانصرف الكاتب إلى نزيله وردّ النظر إليه أعطاه من العلم المودع في مجراه ما يعطيه استعداده ممّا له من الحكم في الأجسام التي تحته في العالم العنصري لا من أرواحه، فإذا كمل فذلك قراه يطلب الرحيل عنه فجاء إلى صاحبه التابع وخرجا يطلبان السماء

الثالثة، وصاحب النظر بين يدي التابع مثل الخادم بين يدي مخدومه، وقد عرف قدره ورتبة معلمه وما أعطاه من العناية أتباعه لذلك المعلم، فلما قرعا السماء الثالثة فتحت فصعدا فيها فتلقى التابع يوسف عليه السلام، وتلقى صاحب النظر كوكب الزهرة فأنزلته وذكرت له ما ذكره من تقدّم من كواكب التسخير فزاده ذلك غماً إلى غمه، فجاء كوكب الزهرة إلى يوسف عليه السلام وعنده نزيله وهو التابع وهو يلقي إليه ما خصّه الله به من العلوم المتعلقة بصور التمثّل والخيال، فإنه كان من الأئمة في علم التعبير، فأحضر الله بين يديه الأرض التي خلقها الله من بقية طينة آدم عليه السلام وأحضر له سوق الجنة وأحضر له أجساد الأرواح النورية والنارية والمعاني العلوية، وعرّفه بموازينها ومقاديرها ونسبها ونسبها، فأراه السنين في صور البقر، وأراه خصبها في سمنها، وأراه جدبها في عجافها، وأراه العلم في صورة اللبن، وأراه الثبات في الدين في صورة القيد، وما زال يعلمه تجسد المعاني والنسب في صورة الحس والمحسوس وعرّفه معنى التأويل في ذلك كله، فإنها سماء التصوير التام والنظام.

ومن هذه السماء يكون الإمداد للشعراء والنظم والإتقان والصور الهندسية في الأجسام وتصويرها في النفس من السماء التي ارتقى عنها. ومن هذه السماء يعلم معنى الإتقان والإحكام والحسن الذي يتضمن بوجوده الحكمة، والحسن الغرضي الملائم لمزاج خاص. وفي هذه السماء هو النائب الخامس الذي يتلقى تدبير النطفة في الرحم في الشهر الخامس. ومن الأمر الموحى من الله في هذه السماء حصل ترتيب الأركان التي تحت مقعر فلك القمر فجعل ركن الهواء بين النار والماء، وجعل ركن الماء بين الهواء والتراب، ولولا هذا الترتيب ما صحّ وجود الاستحالة فيهن ولا كان منهن ما كان من المولدات ولا ظهر في المولدات ما ظهر من الاستحالات، فأين النطفة من كونها استحالت لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وأعصاباً؟ ومن هذه السماء رتب الله في هذه النشأة الجسمية الأخلاط الأربعة على النظم الأحسن والإتقان الأبدع، فجعل ممّا يلي نظر النفس المدبرة المرّة الصفراء ثم يليها الدم ثم يلي الدم البلغم ثم يلي البلغم المرّة السوداء وهو طبع الموت، ولولا هذا الترتيب العجيب في هذه الأخلاط لما حصلت المساعدة للطبيب فيما يرومه من إزالة ما يطرأ على هذا الجسد من العلل أو فيما يرومه من حفظ الصحة عليه. من هذه السماء ظهرت الأربعة الأصول التي يقوم عليها بيت الشعر، كما قام الجسد على الأربعة الأخلاط وهما السببان والوتدان: السبب الخفيف والسبب الثقيل، والوتد المفروق والوتد المجموع، فالوتد المفروق يعطي التحليل، والوتد المجموع يعطي التركيب، والسبب الخفيف يعطي الروح، والسبب الثقيل يعطي الجسم، وبالمجموع يكون الإنسان، فانظر ما أتقن وجود هذا العالم كبيره وصغيره.

فإذا حصلا هذه العلوم هذان الشخصان وزاد التابع على الناظر بما أعطاه الوجه الخاص من العلم الإلهيّ، كما اتفق في كل سماء لهما، انتقلا يطلبان السماء الوسطى التي هي قلب السموات كلها، فلما دخلاها تلقى التابع إدريس عليه السلام وتلقى صاحب النظر كوكب الشمس فجرى لصاحب النظر معه مثل ما تقدّم فزاد غماً إلى غمه، فلما نزل التابع بحضرة

إدريس عليه السلام علم تقليب الأمور الإلهية ووقف على معنى قوله عليه السلام: **«القَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِع الرَّحْمٰنِ»** وبماذا يقلبانه، ورأى في هذه السماء غشيان الليل النهار والنهار الليل، وكيف يكون كل واحد منهما لصاحبه ذكراً وقتاً وأنثى وقتاً، وسر النكاح والالتحام بينهما، وما يتولد فيهما من المولدات بالليل والنهار، والفرق بين أولاد الليل وأولاد النهار، فكل واحد منهما أب لما يولد في نقيضه وأمّ لما يولد فيه، ويعلم من هذه السماء علم الغيب والشهادة، وعلم الستر والتجلي، وعلم الحياة والموت، واللباس والسكن والمودّة والرحمة، وما يظهر من الوجه الخاص من الاسم الظاهر في المظاهر الباطنة، ومن الاسم الباطن في الظاهر من حكم استعداد المظاهر، فتختلف على الظاهر الأسماء لاختلاف الأعيان. ثم رحلا يطلبان السماء الخامسة فنزل التابع بهارون عليه السلام ونزل صاحب النظر بالأحمر فاعتذر الأحمر لصاحبه ونزيله في تخلّفه عنه مدة اشتغاله بخدمة هارون عليه السلام من أجل نزيله، فلما دخل الأحمر على هارون وجد عنده نزيله وهو يباسطه فتعجب الأحمر من مباسطته فسأل عن ذلك فقال: إنها سماء الهيبة والخوف والشدة والبأس وهي نعوت توجب القبض، وهذا ضيف ورد من أتباع الرسول تجب كرامته، وقد ورد يبتغي علماً ويلتمس حكماً إلهياً يستعين به على أعداء خواطره خوفاً من تعدّي حدود سيده فيما رسم له، فأكشف له عن محياها وأباسطه حتى يكون قبوله لما التمسه على بسط نفس بروح قدس ثم ردّ وجهه إليه وقال له: هذه سماء خلافة البشر فضعف حكم إمامها وقد كان أصلها أقوى المباني فأمر باللين بالجبابرة الطغاة فقيل لنا: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] وما يؤمر بلين المقال إلاّ من قوّته أعظم من قوّة من أرسل إليه وبطشه أشدّ، لكنه لما علم الحق أنه قد طبع على كل قلب مظهر للجبروت والكبرياء وأنه في نفسه أذلّ الأذلاء أمرا أن يعاملاه بالرحمة واللين لمناسبة باطنه واستنزال ظاهره من جبروته وكبريائه ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] ولعل وعسى من الله واجبتان، فيتذكر بما يقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه ليكون الظاهر والباطن على السواء، فما زالت تلك الخميرة معه تعمل في باطنه مع الترجي الإلهيّ الواجب وقوع المترجي، ويتقوى حكمها إلى حين انقطاع يأسه من أتباعه، وحال الغرق بينه وبين أطماعه، لجأ إلى ما كان مستسراً في باطنه من الذلّة والإفتقار ليتحقق عند المؤمنين وقوع الرجاء الإلهيّ فقال: ﴿ ءَامَنتُ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] فأظهر حالة باطنه وما كان في قلبه من العلم الصحيح بالله وجاء بقوله الذي آمنت به بنو إسرائيل لرفع الإشكال عند الإشكال كما قالت السحرة لما آمنت: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٤٧، ٤٨] أي الذي يدعوان إليه فجاءت بذلك لرفع الارتياب، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] خطاب منه للحق لعلمه أنه تعالى يسمعه ويراه، فخاطبه الحق بلسان العتب وأسمعه الآن أظهرت ما قد كنت تعلمه ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩١] في أتباعك، وما قال له: وأنت من المفسدين فهي كلمة بشرى له عرّفنا بها لنرجو رحمته مع إسرافنا وإجرامنا، ثم قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] فبشره قبل قبض روحه ﴿بِبَدَنِكَ

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] يعني لتكون النجاة لمن يأتي بعدك آية علامة، إذا قال ما قالته تكون له النجاة مثل ما كانت لك، وما في الآية أن بأس الآخرة لا يرتفع ولا أن إيمانه لم يقبل، وإنما في الآية أن بأس الدنيا لا يرتفع عمّن نزل به إذا آمن في حال رؤيته إلاّ قوم يونس، فقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إذ العذاب لا يتعلق إلاً بظاهرك، وقد أريت الخلق نجاته من العذاب، فكان ابتداء الغرق عذاباً فصار الموت فيه شهادة خالصة بريئة لم تتخللها معصية، فقبضت على أفضل عمل وهو التلفظ بالإيمان، كل ذلك حتى لا يقنط أحد من رحمة الله والأعمال بالخواتم، فلم يزل الإيمان بالله يجول في باطنه وقد حال الطابع الإلهيّ الذاتيّ في الخلق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية فلم يدخلها قط كبرياء.

وأما قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: الآية ٨٥] فكلام محقق في غاية الوضوح، فإن النافع هو الله فما نفعهم إلاّ الله. وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٥] يعني الإيمان عند رؤية البأس الغير المعتاد، وقد قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] فغاية هذا الإيمان أن يكون كرهاً وقد أضافه الحق إليه سبحانه، والكراهة محلها القلب، والإيمان محله القلب، والله لا يأخذ العبد بالأعمال الشاقة عليه من حيث ما يجده من المشقة فيها بل يضاعف له فيها الأجر. وأما في هذا الموطن فالمشقة منه بعيدة بل جاء طوعاً في إيمانه وما عاش بعد ذلك كما قال في راكب البحر عند ارتجاجه: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٧] فنجاهم، فلو قبضهم عند نجاتهم لماتوا موحدين، وقد حصلت لهم النجاة فقبض فرعون ولم يؤخر في أجله في حال إيمانه لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى.

ثم قوله تعالىٰ في تتميم قصته هذه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] وقد أظهرت نجاتك آية أي علامة على حصول النجاة، فغفل أكثر الناس عن هذه الآية وقضوا على المؤمن بالشقاء. وأما قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [سورة هود: الآية ٩٨] فما فيه نص أنه يدخلها معهم بل قال الله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [سورة غافر: الآية ٤٦] ولم يقل أدخلوا فرعون وآله، ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر، وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق والله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢] فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه، وهذا آمن لله خالصاً، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال، فرجح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفظ بالإيمان وجعل ذلك الغرق نكال الآخرة والأولى، فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج وقبضه على أحسن صفة، هذا ما يعطي ظاهر اللفظ وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٦] يعني في أخذه﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٥]، وقدّم ذكر الآخرة وأخّر الأولى ليعلم أن ذلك العذاب أعني عذاب الغرق هو نكال الآخرة فلذلك قدّمها في الذكر على الأولى وهذا هو الفضل العظيم.

فانظر يا ولي ما أثرت مخاطبة اللين وكيف أثمرت هذه الثمرة، فعليك أيها التابع باللين في الأمور فإنّ النفوس الأبية تنقاد بالاستمالة، ثم أمره بالرفق بصاحبه صاحب النظر، وكان سبب هذا الأمر من هارون لأنه حصل له هذا ذوقاً من نفسه حين أخذ موسىٰ برأسه يجره إليه فأذاقه الذلّ بأخذ اللحية والناصية فناداه بأشفق الأبوين فقال: يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ولا ﴿تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٠] لما ظهر عليه أخوه موسىٰ بصفة القهر، فلما كان لهٰرون ذلّة الخلق مع براءته ممّا أذل فيه تضاعفت المذلة عنده فناداه بالرحم، فهذا سبب وصيته لهذا التابع، ولو لم يلق موسىٰ الألواح ما أخذ برأس أخيه، فإنّ في نسختها الهدى والرحمة تذكرة لموسىٰ، فكان يرحم أخاه بالرحمة وتتبين مسألته مع قومه بالهدى، فلما سكت عنه الغضب أخذ الألواح فما وقعت عينه ممّا كتب فيها إلاّ على الهدى والرحمة فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥١]. ثم أمره أن يجعل ما تقتضيه سماؤه من سفك الدماء في القرابين والأضاحي ليلحق الحيوان بدرجة الأناسي إذ كان لها الكمال في الأمانة، ثم خرج من عنده بخلعة نزيله وأخذ بيد صاحبه وقد أفاده ما كان في قوّته من المعارف بما يقتضيه حكمه في الدور لا غير.

وانصرفا يطلبان السماء السادسة فتلقاه موسىٰ عليه السلام ومعه وزيره البرجيس فلم يعرف صاحب النظر موسىٰ عليه السلام فأخذه البرجيس فأنزله ونزل التابع عند موسىٰ فأفاده اثني عشر ألف علم من العلم الإلهيّ سوى ما أفاده من علوم الدور والكور، وأعلمه أن التجليّ الإلهيّ إنما يقع في صور الاعتقادات وفي الحاجات فتحفظ، ثم ذكر له طلبه النار لأهله فما تجلّى له إلاّ فيها إذ كانت عين حاجته فلا يرى إلاّ في الافتقار، وكل طالب فهو فقير إلى مطلوبه ضرورة، وأعلمه في هذه السماء خلع الصور من الجوهر وإلباسه صوراً غيرها ليعلمه أن الأعيان أعيان الصور لا تنقلب فإنه يؤدي إلى إنقلاب الحقائق، وإنما الإدراكات تتعلق بالمدركات تلك المدركات لها صحيحة لا شك فيها، فيتخيل من لا علم له بالحقائق أن الأعيان انقلبت وما انقلبت، ومن هنا يعلم تجلي الحق في القيامة في صورة يتعوّذ أهل الموقف منها وينزهون الحق عنها ويستعيذون بالله منها وهو الحق ما هو غيره وذلك في أبصارهم، فإنّ الحق منزّه عن قيام التغيير به والتبديل. قال عليم الأسود لرجل وقف فضرب بيده عليم إلى أسطوانة في الحرم فرآها الرجل ذهباً ثم قال له: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراه لحقيقتك بربك، يشير إلى تجلي الحق يوم القيامة وتحوّله في عين الرائي.

ومن هذه السماء يعلم العلم الغريب الذي لا يعلمه قليل من الناس، فأحرى أن لا يعلمه الكثير وهو معنى قوله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام وما علم أحد ما أراد الله إلاّ موسىٰ ومن اختصه الله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٧، ١٨] والسؤال عن الضروريات ما يكون من العالم بذلك إلاّ لمعنى غامض. ثم قال في تحقيق كونها عصا ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٨] كل ذلك من كونها عصا، أرأيتم أنه أعلم الحق تعالىٰ بما ليس معلوماً عند الحق، وهذا جواب علم ضروري عن

سؤال عن معلوم مدرك بالضرورة فقال له: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٩] يعني عن يدك مع تحققك أنها عصا ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ﴾ يعني تلك العصا ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠] فلما خلع الله على العصا أعني جوهرها صورة الحية استلزمها حكم الحية وهو السعي حتى يتبين لموسىٰ عليه السلام بسعيها أنها حية، ولولا خوفه منها خوف الإنسان من الحيات لقلنا: إن الله أوجد في العصا الحياة فصارت حية في الحياة فسعت لحياتها على بطنها، إذ لم يكن لها رجل تسعى به فصورتها لشكلها عصا صورة الحيات، فلما خاف منها للصورة قال له الحق: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وهذا هو خوف الفجأة إذ كان، ثم قال له: ﴿ سَنُعِيدُهَا﴾ الضمير يعود على العصا ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢١] فجواهر الأشياء متماثلة وتختلف بالصور والأعراض والجوهر واحد أي ترجع عصا مثل ما كانت في ذاتها، وفي رأي عينك كما كانت حية في ذاتها، وفي رأي عينك ليعلم موسىٰ من يرى وما يرى وبمن يرى، وهذا تنبيه إلهي له ولنا، وهو الذي قاله عليم سواء من أن الأعيان لا تنقلب، فالعصا لا تكون حية ولا الحية عصا، ولكن الجوهر القابل صورة العصا قبل صورة الحية فهي صور يخلعها الحق القادر الخالق عن الجوهر إذا شاء، ويخلع عليه صورة أخرى.

فإن كنت فطناً فقد نبهتك على علم ما تراه من صور الموجودات وتقول هو ضروري من كونك لا تقدر على إنكاره، وقد بان لك أن الاستحالات محال، ولله أعين في بعض عباده يدركون بها العصا حية في حال كونها عصا وهو إدراك إلهيّ وفينا خيالي، وهكذا في جميع الموجودات سواء، انظر لولا قوّة الحسّ ما قلت هذا جماد لا يحسّ ولا ينطق وما به من حياة، وهذا نبات، وهذا حيوان يحسّ ويدرك، وهذا إنسان يعقل هذا كله أعطاه نظرك، ويأتي شخص آخر يقف معك فيرى ويسمع تسليم الجمادات والنبات والحيوان عليه وكلا الأمرين صحيح، وبالقوة التي تستدل بها على إنكار ما قاله هذا بها بعينها يستدل هذا الآخر، فكل واحد من الشخصين دليله عين دليل الآخر والحكم مختلف، فوالله ما زالت حية عصا موسى وما زالت عصا كل ذلك في نفس الأمر لم تخط رؤية كل واحد ما هو الأمر عليه في نفسه، وقد رأينا ذلك وتحققناه رؤية عين، فهو الأوّل والآخر من عين واحدة، وهو في التجلي الأوّل لا غيره، وهو في التجلي الآخر لا غيره، فقل إله، وقل عالم، وقل أنا، وقل أنت، وقل هو، والكل في حضرة الضمائر ما برح وما زال، فزيد يقول في حقك هو، وعمرو يقول عنك أنت، وأنت تقول عنك أنا، فأنا عين أنت وعين هو، وما هو أنا عين أنت ولا عين هو، فاختلفت النسب، وهنا بحور طامية لا قعر لها ولا ساحل، وعزّة ربي لو عرفتم ما فهت به في هذه الشذور لطربتم طرب الأبد ولخفتم الخوف الذي لا يكون معه أمن لأحد تدكدك الجبل عين ثباته وإفاقة موسىٰ عين صعقته: [البسيط]

انظُرْ إلى وجهه في كل حادثةٍ   من الكيان ولا تُعْلِمْ به أَحَدا

أيها التابع المحمدي لا تغفل عما نبهتك عليه، ولا تبرح في كل صورة ناظراً إليه، فإن المجلّى أجلى، ثم أخذ بيده البرجيس وجاء به إلى صاحب النظر فعرّفه ببعض ما يليق به ممّا

علمه التابع من علم موسىٰ بما يختص من تأثيرات الحركات الفلكية في النشآت العنصرية لا غير فارتحلا من عنده المحمدي على رفرف العناية وصاحب النظر على براق الفكر، ففتح لهما السماء السابعة وهي الأولى من هناك على الحقيقة، فتلقاه إبراهيم الخليل عليه السلام، وتلقى صاحب النظر كوكب كيوان فأنزله في بيت مظلم قفر موحش وقال له: هذا بيت أخيك يعني نفسه فكن به حتى آتيك، فإني في خدمة هذا التابع المحمدي من أجل من نزل عليه وهو خليل الله، فجاء إليه فوجده مسنداً ظهره إلى البيت المعمور والتابع جالس بين يديه جلوس الابن بين يدي أبيه وهو يقول له: نعم الولد البارّ، فسأله التابع عن الثلاثة الأنوار فقال: هي حجتي على قومي، آتانيها الله عناية منه بي لم أقلها إشراكاً لكن جعلتها حبالة صائد أصيد بها ما شرد من عقول قومي، ثم قال له: أيها التابع ميّز المراتب واعرف المذاهب وكن على بينة من ربك في أمرك ولا تهمل حديثك فإنك غير مهمل ولا متروك سدى، اجعل قلبك مثل هذا البيت المعمور بحضورك مع الحق في كل حال، واعلم أنه ما وسع الحق شيء ممّا رأيت سوى قلب المؤمن وهو أنت، فعندما سمع صاحب النظر هذا الخطاب قال: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وعلم ما فاته من الإيمان بذلك الرسول وأتباع سنته ويقول: يا ليتني لم أتخذ عقلي دليلاً ولا سلكت معه إلى الفكر سبيلاً، وكل واحد من هذين الشخصين يدرك ما تعطيه الروحانيات العلى وما يسبح به الملأ الأعلى بما عندهما من الطهارة وتخليص النفس من أسر الطبيعة وارتقم في ذات نفس كل واحد منهما كل ما في العالم فليس يخبر إلاّ بما شاهده من نفسه في مرآة ذاته، فحكاية الحكيم الذي أراد أن يُرِيَ هذا المقام للملك فاشتغل صاحب التصوير الحسن بنقش الصور على أبدع نظام وأحسن إتقان، واشتغل الحكيم بجلاء الحائط الذي يقابل موضع الصور وبينهما ستر معلق مسدل، فلما فرغ كل واحد من شغله وأحكم صنعته فيما ذهب إليه جاء الملك فوقف على ما صوّره صاحب الصور فرأى صوراً بديعة يبهر العقول حسن نظمها وبديع نقشها، ونظر إلى تلك الأصبغة في حسن تلك الصنعة فرأى أمراً هاله منظره، ونظر إلى ما صنع الآخر من صقالة ذلك الوجه فلم ير شيئاً فقال له: أيها الملك صنعتي ألطف من صنعته، وحكمتي أغمض من حكمته، ارفع الستر بيني وبينه حتى ترى في الحالة الواحدة صنعتي وصنعته، فرفع الستر فانتقش في ذلك الجسم الصقيل جميع ما صوّره هذا الآخر بألطف صورة ممّا هو ذلك في نفسه فتعجب الملك.

ثم إن الملك رأى صورة نفسه وصورة الصاقل في ذلك الجسم فحار وتعجب وقال: كيف يكون هكذا؟ فقال: أيها الملك ضربته لك مثلاً لنفسك مع صور العالم إذا أنت صقلت مرآة نفسك بالرياضات والمجاهدات حتى تزكو وأزلت عنها صدأ الطبيعة وقابلت بمرآة ذاتك صور العالم انتقش فيها جميع ما في العالم كله، وإلى هذا الحدّ ينتهي صاحب النظر وأتباع الرسل وهذه الحضرة الجامعة لهما، ويزيد التابع على صاحب النظر بأمور لم تنتقش في العالم جملة واحدة من حيث ذلك الوجه الخاص الذي لله في كل ممكن محدث ممّا لا ينحصر ولا ينضبط ولا يتصوّر، يمتاز به هذا التابع عن صاحب النظر.

ومن هذه السماء يكون الاستدراج الذي لا يعلم والمكر الخفي الذي لا يشعر به والكيد المتين والحجاب والثبات في الأمور والتأني فيها، ومن هنا يعرف معنى قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] لأنّ لهما في الناس درجة الأبوّة فلا يلحقهما أبداً. قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] ومن هذه السماء يعلم أن كل ما سوى الإنس والجان سعيد لا دخول له في الشقاء الأخروي، وأن الإنس والجان منهم شقيّ وسعيد، فالشقي يجري إلى أجل في الأشقياء لأن الرحمة سبقت الغضب، والسعيد إلى غير أجل، ومن هنا يعرف تفضيل خلق الإنسان وتوجّه اليدين على خلق آدم دون غيره من المخلوقات، ويعلم أنه ما ثم جنس من المخلوقات إلاّ وله طريقة واحدة في الخلق لم تتنوّع عليه صنوف الخلق تنوّعها على الإنسان فإنه تنوّع عليه الخلق، فخلق آدم يخالف خلق حوّاء، وخلق حوّاء يخالف خلق عيسىٰ، وخلق عيسىٰ يخالف خلق سائر بني آدم وكلهم إنسان، ومن هنا زيّن للإنسان﴿ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[سورة فاطر: الآية ٨]، وعند تجلي هذا التزيين يشكر الله تعالىٰ التابع على تخلّصه من مثل هذا.

وأمّا صاحب النظر فلا يجد فرجاً إلاّ في هذا التجلي يعطيه الحسن في السوء وهو من المكر الإلهيّ، ومن هنا تثبت أعيان الصور في الجوهر التي تحت هذا الفلك إلى الأرض خاصة، ومن هنا تعرف ملة إبراهيم أنها ملة سمحاء ما فيها من حرج، فإذا علم هذه المعاني ووقف على أبوّة الإسلام أراد صاحب النظر القرب منه فقال إبراهيم للتابع: من هذا الأجنبيّ معك؟ فقال: هو أخي، قال: أخوك من الرضاعة أو أخوك من النسب؟ قال: أخي من الماء، قال: صدقت لهذا لا أعرفه لا تصاحب إلاّ من هو أخوك من الرضاعة، كما أني أبوك من الرضاعة، فإن الحضرة السعادية لا تقبل إلاّ إخوان الرضاعة وآباءها وأمّهاتها فإنها النافعة عند الله، ألا ترى العلم يظهر في صورة اللبن في حضرة الخيال هذا لأجل الرضاع، وانقطع ظهر صاحب النظر لما انقطع عنه نسب أبوّة إبراهيم عليه السلام ثم أمره أن يدخل البيت المعمور فدخله دون صاحبه وصاحبه منكوس الرأس، ثم خرج من الباب الذي دخل ولم يخرج من باب الملائكة وهو الباب الثاني لخاصية فيه وهو أنه من خرج منه لا يرجع إليه.

ثم ارتحل من عنده يطلب العروج، ومسك صاحبه صاحب النظر هناك وقيل له قف حتى يرجع صاحبك فإنه لا قدم لك هنا هذا آخر الدخان، فقال: أسلم وأدخل تحت حكم ما دخل فيه صاحبي، قيل له: ليس هذا موضع قبول الإسلام إذا رجعت إلى موطنك الذي منه جئت أنت وصاحبك فهناك إذا أسلمت وآمنت واتبعت سبيل من أناب إلى الله إنابة الرسل المبلغين عن الله قبلت كما قبل صاحبك فبقي هنالك، ومشى التابع فبلغ به سدرة المنتهى فرأى صور أعمال السعداء من النبيين وأتباع الرسل، ورأى عمله في جملة أعمالهم، فشكر الله على ما وفقه إليه من أتباع الرسول المعلم، وعاين هنالك أربعة أنهار منها نهر كبير عظيم وجداول صغار تنبعث من ذلك النهر الكبير، وذلك النهر الكبير تتفجر منه الأنهار الكبار

الثلاثة، فسأل التابع عن تلك الأنهار والجداول فقيل له: هذا مثل مضروب أقيم لك، هذا النهر الأعظم هو القرآن، وهذه الثلاثة الأنهار الكتب الثلاثة: التوراة والزبور والإنجيل، وهذه الجداول الصحف المنزّلة على الأنبياء، فمن شرب من أي نهر كان أو أي جدول فهو لمن شرب منه وارث وكل حق فإنه كلام الله، والعلماء ورثة الأنبياء بما شربوا من هذه الأنهار والجداول، فاشرع في نهر القرآن تفز بكل سبيل للسعادة فإنه نهر محمد ﷺ الذي صحت له النبوّة وآدم بين الماء والطين، وأوتي جوامع الكلم وبعث عامّة ونسخت به فروع الأحكام ولم ينسخ له حكم بغيره، ونظر إلى حسن النور الذي غشي تلك السدرة فرأى قد غشاها منه ذاك الذي غشي، فلا يستطيع أحد أن ينعتها للغشاء النوري الذي لا تنفذه الأبصار بل لا تدركه الأبصار.

ثم قيل له: هذه شجرة الطهور فيها مرضاة الحق، ومن هنا شرع السدر في غسل الميت للقاء الله الماء والسدر ليناله طهور هذه السدرة، وإليها تنتهي أعمال بني آدم السعادية، وفيها مخازنها إلى يوم الدين، وهنا أوّل أقدام السعداء. والسماء السابعة التي وقف عندها صاحبك منتهى الدخان ولا بدّ لها ولمن هو تحتها من الاستحالة إلى صور كانت عليها أو على أمثالها قبل أن تكون سماء.

ثم قيل لهذا التابع: ارق فرقي في فلك المنازل فتلقاه من هنالك من الملائكة والأرواح الكوكبية ما يزيد على ألف وعشرات من الحضرات تسكنها هذه الأرواح، فعاين منازل السائرين إلى الله تعالىٰ بالأعمال المشروعة. وقد ذكر من ذلك الهرويّ في جزء له سمّاه منازل السائرين يحتوي على مائة مقام كل مقام يحتوي على عشرة مقامات وهي المنازل، وأما نحن فذكرنا من هذه المنازل في كتاب لنا سميناه مناهج الارتقاء يحتوي على ثلاثمائة مقام كل مقام يحتوي على عشرة منازل ففيه ثلاثة آلاف منزل، فلم يزل يقطعها منزلة منزلة بسبع حقائق هو عليها كما يقطع فيها السبع الدراري ولكن في زمان أقرب حتى وقف على حقائقها بأجمعها، وقد كان أوصاه إدريس بذلك، فلما عاين كل منزل منها رآها وجميع ما فيها من الكواكب تقطع في فلك آخر فوقها فطلب الإرتقاء فيه ليرى ما أودع الله في هذه الأمور من الآيات والعجائب الدالة على قدرته وعلمه، فعندما حصل على سطحه حصل في الجنة الدهماء فرأى ما فيها ممّا وصف الله في كتابه من صفة الجنات وعاين درجاتها وغرفها، وما أعد الله لأهلها فيها ورأى جنته المخصوصة به، واطلع على جنات الميراث، وجنات الاختصاص، وجنات الأعمال، وذاق من كل نعيم منها بحسب ما يعطيه ذوق موطن القوّة الجنانية، فلما بلغ من ذلك أمنيته رقي به إلى المستوى الأزهى والستر الأبهى، فرأى صور آدم وبنيه السعداء من خلف تلك الستور فعلم معناها، وما أودع الله من الحكمة فيها وما عليها من الخلع التي كساها بني آدم، فسلمت عليه تلك الصور فرأى صورته فيهنّ فعانقها وعانقته واندفعت معه إلى المكانة الزلفى فدخل فلك البروج الذي قال الله فيه فأقسم به: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] فعلم أن التكوينات التي تكون في الجنان من حركة هذا الفلك، وله الحركة

اليومية في العالم الزماني، كما أن حركة الليل والنهار في الفلك الذي فيه جرم الشمس، والتكوينات التي تكون في جهنم من حركة فلك الكواكب وهو سقف جهنم أعني مقعره وسطحه أرض الجنة والذي يسقط من الكواكب وينتثر ضوءها فتبقى مظلمة وفعلها المودع فيها باق، وهذا كله سبب التبديل الذي يقع في جهنم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] كل ذلك بإذن الله مرتب الأشياء مراتبها. كما أن الشمس إذا حلّت بالحمل جاء زمن الربيع فظهرت زينة الأرض وأورقت الأشجار وازّينت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] وإذا حلّت بالجدي أظهرت النقيض.

والقوابل تقبل بحسب ما هي عليه من المزاج، فمهما اختلف مزاجها كان قبولها لما يحدث الله عند هذه الحركات الفلكية بحسب ما هي عليه، وكذلك في الجنان في كل حين من خلق جديد ونعيم جديد حتى لا يقع ملل، فإن كل شيء طبيعيّ، وإذا توالى عليه أمر ما من غير تبدّل لا بدّ أن يصحب الإنسان فيه ملل فإنّ الملل نعت ذاتي له، فإن لم يغذه الله بالتجديد في كل وقت ليدوم له النعيم بذلك وإلاّ كان يدركهم الملل، فأهل الجنان يدركون في كل نظرة ينظرونها إلى ملكهم أمراً وصورة لم يكونوا رأوها قبل ذلك فينعمون بحدوثها، وكذلك في كل أكلة وشربة يجدون طعماً جديداً لذيذاً لم يكونوا يجدونه في الأكلة الأولى فينعمون بذلك وتعظم شهوتهم، والسبب في سرعة هذا التبدّل وبقائه أن الأصل على ذلك فيعطى في الكون بحسب ما تعطيه حقيقة مرتبته ليكون خلافاً على الدوام، ويكون الكون فقيراً على الدوام، فالوجود كله متحرّك على الدوام دنيا وآخرة لأن التكوين لا يكون عن سكون، فمن الله توجهات دائمة وكلمات لا تنفذ وهو قوله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فعند الله التوجّه وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ وكلمة الحضرة وهي قوله لكل شيء يريده ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] بالمعنى الذي يليق بجلاله، وكن حرف وجودي فلا يكون عنه إلاّ الوجود ما يكون عنه عدم، لأن العدم لا يكون لأن الكون وجود.

وهذه التوجهات والكلمات في خزائن الجود لكل شيء يقبل الوجود، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] وهو ما ذكرناه. وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] من اسمه الحكيم، فالحكمة سلطانة هذا الإنزال الإلهيّ وهو إخراج هذه الأشياء من هذه الخزائن إلى وجود أعيانها وهو قولنا في أوّل خطبة هذا الكتاب: الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه وعدم العدم وجود، فهو نسبة كون الأشياء في هذه الخزائن محفوظة موجودة لله ثابتة لأعيانها غير موجودة لأنفسها، فبالنظر إلى أعيانها هي موجودة عن عدم، وبالنظر إلى كونها عند الله في هذه الخزائن هي موجودة عن عدم العدم وهو وجود، فإن شئت رجحت جانب كونها في الخزائن فنقول: أوجد الأشياء من وجودها في الخزائن إلى وجودها في أعيانها للنعيم بها أو غير ذلك، وإن شئت قلت: أوجد الأشياء عن عدم بعد أن تقف على معنى ما ذكرت لك فقل ما شئت، فهو الموجد لها على كل حال في الموطن الذي ظهرت فيه لأعيانها.

وأما قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فهو صحيح في العلم لأن الخطاب هنا لعين الجوهر، والذي عنده أعني عند الجوهر من كل موجود إنما هو ما يوجده الله في محله من الصفات والأعراض والأكوان وهي في الزمان الثاني أو في الحال الثاني كيف شئت قل من زمان وجودها أو حال وجودها تنعدم من عندنا وهو قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ وهو يجدّد للجوهر الأمثال أو الأضداد دائماً من هذه الخزائن، وهذا معنى قول المتكلمين: إن العرض لا يبقى زمانين، وهو قول صحيح خبر لا شبهة فيه لأنه الأمر المحقق الذي عليه نعت الممكنات، وبتجدّد ذلك على الجوهر يبقى عينه دائماً ما شاء الله وقد شاء أنه لا يفنى فلا بدّ من بقائه، فيعلم التابع من هذه الحضرة التكوينات الجنانية وجميع ما ذكرناه.

وأما صاحب النظر رفيق التابع فما عنده خبر بشيء من هذا كله لأنه تنبيه نبويّ لا نظر فكري، وصاحب النظر مقيد تحت سلطان فكره وليس للفكر مجال إلاَّ في ميدانه الخاص به وهو معلوم بين الميادين، فإنه لكل قوّة في الإنسان ميدان يجول فيه لا يتعدّاه، ومهما تعدّت ميدانها وقعت في الغلط والخطأ ووصفت بالتحريف عن طريقها المستقيم. وقد يشهد الكشف البصري بما تعثر فيه الحجج العقلية، وسبب ذلك خروجها عن طورها، فالعقول الموصوفة بالضلال إنما أضلتها أفكارها، وإنما ضلت أفكارها لتصرّفها في غير موطنها، وإنما تصرف ما تصرّف منها في غير موطنه وجال في غير ميدانه ليظهر فضل بعض الناس على بعضهم. وإنما ظهر الفضل في العالم ليعلم أن الحق له عناية ببعض عباده، وله خذلان في بعض عباده، وليعلم أن الممكن لم يخرج عن إمكانه، وأن المرجح له نظر خصوصي لمن شاء من هذه القوىٰ بما يشاء ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤].

ثم يخرج بالتابع مع حامله إلى الكرسي فيرى فيه انقسام الكلمة التي وصفت قبل وصولها إلى هذا المقام بالوحدة، ويرى القدمين اللتين تدلتا إليه، فينكب من ساعته إلى تقبيلهما القدم الواحدة تعطي ثبوت أهل الجنات في جناتهم وهي قدم الصدق، والقدم الأخرى تعطي ثبوت أهل جهنم في جهنم على أي حالة أراد وهي قدم الجبروت، ولهذا قال في أهل الجنان: «عطاء غير مجذوذ» فما وصفه بالانقطاع. وقال في أهل جهنم الذين شقوا ليحكم هذا القدم الجبروتي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ما قال إن الحال التي هم فيها لا تنقطع كما قال في السعداء، والذي منع من ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقوله: «إن رحمتي سبقت غضبي في هذه النشأة»، فإن الوجود رحمة في حق كل موجود، وإن تعذب بعضهم ببعض فتخليدهم في حال النعيم غير منقطع، وتخليدهم في حال الانتقام موقوف على إرادة، فقد يعود الانتقام منهم عذاباً عليهم لا غير ويزول الانتقام، ولهذا فسّره في مواضع بالألم المؤلم وقال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٣] ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٥٠] وفي مواضع لم يقيد العذاب بالأليم وأطلقه فقال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٢] يعني وإن زال الألم، وقال في عذاب جهنم ولم ينعته بأنه أليم وقال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ من كونه عذاباً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب

﴿مُبْلِسُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٥] أي مبعدون من السعادة العرضية في هذا الموطن، لأن الإبلاس لفظة مختصة بأهل جهنم في بعدهم، فلهذا جاء بذكر الإبلاس ليوقع هذا الاصطلاح اللغوي في موضعه عند أهله ليعلموه، فإنه لموطن جهنم لغة ليست لأهل الجنان، والإبلاس منها، فيعرف التابع من هذا المقام ما لكل دار.

ثم إنه يفارق هذا الموضع ويزج به في النور الأعظم فيغلبه الوجد، وهذا النور هو حضرة الأحوال الظاهر حكمها في الأشخاص الإنسانية، وأكثر ما يظهر عليهم في سماع الألحان فإنها إذا نزلت عليهم تمر على الأفلاك، ولحركات الأفلاك نغمات طيبة مستلذة تستلذ بها الأسماع كنغمات الدولاب، فتكسو الأحوال وتنزل بها على النفوس الحيوانية في مجالس السماع، فإن كانت النفس في أي شيء كانت من تعلق بجارية أو غلام أو يكون من أهل الله فيكون تعلّقه حب جمال الإلهيّ متخيل اكتسبوه من ألفاظ نبوية مثل قوله في الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» وقوله في التجريد: «**اعْبُد اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فيأخذه الوجد على ما تخيله، ومنهم من يغمره الحال لا من حضرة التخيّل بل يجد أمراً لا يُكَيَّفُ ولا يدخل تحت الحصر والمقدار.

ومنهم من تهب عليه من هذه الأحوال التي تعطي الوجد روايح على نفوس غير عاشقة إلاّ بنسبة جزئية لا كلية، فتعطيه من الحكم لذلك معنى يسمى التواجد، ثم يخرج من ذلك النور إلى موضع الرحمة العامة التي وسعت كل شيء وهو المعبر عنه بالعرش، فيجد هنالك من الحقائق الملكية إسرافيل وجبريل وميكائيل ورضوان ومالك، ومن الحقائق الملكية البشرية آدم وإبراهيم ومحمداً سلام الله عليهم، فيجد عند آدم وإسرافيل علم الصور الظاهرة في العالم المسمّاة أجساماً وأجساداً وهياكل، سواء كانت نورية أو غير نورية، ويجد عند جبريل ومحمد عليهما السلام علم الأرواح المنفوخة في هذه الصور التي عند آدم وإسرافيل، فيقف على معاني ذلك كله ويرى نسبة هذه الأرواح إلى هذه الصور وتدبيرها إياها، ومن أين وقع فيها التفاضل مع انبعاثها من أصل واحد، وكذلك الصور، علم من هذه الحضرة ذلك كله ويعلم من هذه الحضرة علم الأكاسير التي تقلب صور الأجساد بما فيه من الروح، وينظر إلى ميكائيل وإبراهيم عليهما السلام فيجد عندهما علم الأرزاق وما يكون به التغذي للصور والأرواح، وبماذا يكون بقاؤها، ويقف على كون الإكسير غذاء مخصوصاً لذلك الجسد الذي يردّه ذهباً أو فضة بعدما كان حديداً أو نحاساً وهو صحة ذلك الجسم، وإزالة مرضه الذي كان قد دخل عليه في معدنه فصيّره حديداً أو غير ذلك، وكل هذا من هذه الحضرة يعلمه.

ثم ينظر إلى رضوان ومالك فيجد عندهما علم السعادة والشقاء والجنة ودرجاتها وجهنم ودركاتها وهو علم المراتب في الوعد والوعيد، ويعلم حقيقة ما تعطى كل واحدة منهما، وإذا علم هذا كله علم العرش وحملته وما تحت إحاطته وهو منتهى الأجسام، وليس وراءه جسم مركّب ذو شكل ومقدار، فإذا علم هذا كله عرج به معراجاً آخر معنوياً في غير صورة متخيلة إلى مرتبة المقادير، فيعلم منها كميات الأشياء الجسمية وأوزانها في الأجسام المقدرة من

المحيط إلى التراب وما فيهنّ وما بينهنّ من أصناف العالم الذين هم عمار هذه الأمكنة. ثم ينتقل إلى علم الجوهر المظلم الكل الذي لا جزء له ولا صورة فيه وهو غيب كل ما وراءه من العالم، ومنه ظهرت هذه الأنوار والضياءات في عالم الأجسام وهي الأنوار المركبة سلخت من هذا الجوهر فبقي مظلماً كما سلخ النهار من الليل فبانت الظلمة، وهذا هو أصل الظلمة في العالم وأصل العالم في الأحكام الناموسية.

ثم ينتقل من هذا المقام إلى حضرة الطبيعة البسيطة فيعلم حكمها في الأجسام مطلقاً من اختلاف تركيباتها وأحوالها، ومن أين وقع الغلط لبعض الطبيعيين فيما غلطوا فيه من العلم بأحكامها، وذلك لجهلهم بالعلم بذاتها، فصاحب هذا الكشف يعلم ذلك كله. ثم ينتقل من النظر في ذلك إلى شهود اللوح المحفوظ وهو الموجود الانبعاثي عن القلم وقد رقّم الله فيه ما شاءه من الكوائن في العالم، فيعلم هذا التالي لما في هذا اللوح علم القوتين وهما: علم العلم وعلم العمل، ويعلم الانفعالات الانبعاثية، ومن كون هذا الروح لوحاً يعلم ما سطره فيه من سماه لوحاً بالقلم الإلهي ممّا أملاه الحق عليه، وكتابته فيه نقش صور المعلومات التي يجربها الله في العالم في الدنيا إلى يوم القيامة خاصة، وهي علوم محصورة مسطرة صوراً كصور الحروف المرقومة في الألواح، والكتب المسمّاة كلمات، وعدد أمهاتها ما يكون من ضرب درجات الفلك في مثلها سواء من غير زيادة ولا نقصان. ومن هنا جعل الله في الفلك الذي تقطع فيه الكواكب بسباحتها ثلاثمائة درجة وستين درجة، وفيها انحصرت السنة في الدار الدنيا بسباحة الشمس والقمر، قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٥] وتتكرر بالسنين من أوّل وجودها وما هو تكرار على الحقيقة إلى أن ينتهي إلى قدر ما خرج من ضرب الثلاثمائة والستين في مثلها من السنين يكون عمر عالم الدنيا، ثم يملي أمراً آخر وعلوماً تختص بالقيامة وبالموازين أيضاً إلى أجل مسمّى يتميز في الدارين وهو انتهاء مدة الانتقام على أهل دار الشقاء خاصة، ثم يستأنف فيه كتابة العذاب في هذه الدار مع الخلود الدائم في الدارين لأهلها، غير أنه لا بدّ مهما كانت الكتابة أن تجري إلى أجل مسمّى لاستحالة دخول ما لا يتناهى في الوجود.

ثم ينتقل هذا التابع من هذا المقام إلى مشاهدة القلم الأعلى فيحصل له من هذا المشهد علم الولاية، ومن هنالك هو ابتداء مرتبة الخلافة والنيابة، ومن هناك دونت الدواوين وظهر سلطان الاسم المدبّر والمفصل وهو قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وهذا هو علم القلم، ويشاهد تحريك اليمنى إياه التحريك المعنويّ اللطيف ومن أين يستمدّ وأنه من ذاته له علم الإجمال والتفصيل، والتفصيل يظهر بالتسطير وهو عين ذواته، فلا افتقار له إلى معلم يستمد منه سوى خالقه عزّ وجلّ وكتابته نقش ولهذا تثبت فلا تقبل المحو، وبهذا سمّي اللوح بالمحفوظ يعني عن المحو، فلو كانت كتابته مثل الكتابة بالمداد قبلت المحو كما يقبله لوح المحو في عالم الكون بالقلم المختص به الذي هو بين أصبعي الرحمن، فيفرّق من هذا المشهد بين الأقلام والألواح وأنواع الكتبة ويعلم علم الأحكام والأحكام، ومن هنا يعلم

أنه لم يبق في الإمكان ما ينبغي أن يكون دليلاً على الله إلاً وقد ظهر من كونه دليلاً وإن كثرت الأدلة فيجمعها كمالية الدلالة خاصة.

ثم ينظر عن يمين هذا المشهد فينظر إلى عالم الهيمان وهو العالم المخلوق من العماء، ثم ينتقل إلى العماء وهو مستوى الاسم الرب كما كان العرش مستوى الرحمن، والعماء هو أوّل الأينيات ومنه ظهرت الظروف المكانيات والمراتب فيمن لم يقبل المكان وقبل المكانة ومنه ظهرت المحال القابلة للمعاني الجسمانية حسراً وخيالاً وهو موجود شريف الحق معناه وهو الحق المخلوق به كل موجود سوى الله وهو المعنى الذي ثبتت فيه واستقرت أعيان الممكنات، ويقبل حقيقة الأين وظرفية المكان ورتبة المكانة واسم المحل ومن عالم الأرض إلى هذا العماء ليس فيها من أسماء الله سوى أسماء الأفعال خاصة ليس لغيرها أثر في كون ممّا بينهما من العالم المعقول والمحسوس، غير أن صاحب التابع الذي هو صاحب النظر لما تركه صاحبه بالسماء السابعة ورحل عنه امتدت منه رقيقة على غير معراج التابع ظهرت للتابع في الفلك المكوكب وفقدها في الجنة، ثم ظهرت له في فلك البروج ثم فقدها أيضاً في الكرسي وفي العرش، ثم ظهر له في مرتبة المقادير وفي الجوهر المظلم، ثم فقده في الطبيعة ثم ظهر له في النفس من جهة كونها نفساً لا من جهة كونها لوحاً، ثم ظهر له في العقل الإبداعي من كونه عقلاً لا من كونه قلماً، ثم فارقه بعد ذلك فلم ير له عيناً، ومن هذا العماء يبتدي بالترقي والمعراج في أسماء التنزيه إلى أن يصل إلى الحضرة التي يشهد فيها أن التنزيه يحدّه ويشير إليه ويقيده ويستشرف على العالم بأسره المعنويّ والروحانيّ والجسميّ والجسمانيّ، فلا يجد في مشهده ذلك ما ينبغي أن ينزّه عنه من ظهر فيه ويرى ارتباطه به ارتباط المرتبة بصاحبها، فلا يتمكن له التنزيه الذي كان يتخيله، ولا يتمكن له التشبيه فإنه ليس ثم بمن: [الطويل]

فـمـا ثَـمَّ إلاَّ الله لا شـيءَ غـيـره ... ومـا ثَـمَّ إلاَّ وحـدةُ الـوَحَـدَاتِ

ثم فارق أسماء الأفعال وتسلمته أسماء التنزيه فرأى صاحبه صاحب النظر يوافقه إلى أن وصل إلى الحضرة التي لا تقبل التنزيه ولا التشبيه فيتنزه عن الحدّ بنفي التنزيه وعن المقدار بنفي التشبيه، فيفقد رفيقه صاحب النظر هنالك، ثم ينقلب يطلب ما منه خرج فسلك به الحق تعالىٰ طريقاً غير طريقه الأولى وهو طريق لا يتمكن أن ينقال ولا يعرفه إلاَّ من شاهده ذوقاً، ورجع صاحبه على معراجه ذلك إذ لم يكن تابعاً إلى أن وصل إلى جسده فاجتمع مع رفيقه فبادر من حينه صاحب النظر إلى الرسول إن كان حاضراً أو لوارثه فيبايعه بيعة الإيمان والرضوان على بينة من ربه وآية من نفسه، وتلاه شاهد منه وهو التابع فآمن بالله من حيث ما شرع له الإيمان به لا من حيث دليله فوجد عنده وفي قلبه نوراً لم يكن يجده قبل ذلك، فرأى في اللمحة الواحدة وهو في مكانه بذلك النور جميع ما رآه مع التابع في معراجه الأول ولم يقف بل ترقى مرقى التابع حتى بلغ العماء والغاية القصوى، ورأى الشيء في الأشياء، ورأى وجوب وجود ما أحال وجوده فكرة وعقلاً وهو في مكانه ذلك لم يبرح، وأعطى إكسير

التكوين ورأى حشر الأجساد من طور إلى طور باختلاف حكم ولاختلاف دور، فتغيرت الأشكال وتقلبت الأحوال ورأى ما قلناه في مثل ذلك: [مجزوء الرجز]

إذا السماءُ انفطَرَتْ حقيقةً تَصَوَّرَتْ
تطلبُ بانْكِدَارها جبالَ صَخْرٍ سُيِّرَتْ
سَعَّرها مُوقِدُها لجنَّةٍ قد أُزلِفَتْ
قلتُ لها ما تبتغي قالت وحوشٌ حُشِرَتْ
فمن لها بها لها إذا النجومُ انْكَدَرَتْ
تَنْظُرُ في تسييرها جحيمَ نارٍ سُعِّرَتْ
يدخلها طائفةٌ من قبرها قد بُعْثِرَتْ
وإن ترى نفسيَ ما قد قدَّمتْ وأخَّرَتْ

ولما أسلم صاحب النظر وآمن ورأى من مقامه جميع ما رآه التابع في معراجه مشاهدة عين سأل أن يرى مقام المجرمين وهم المستحقون تلك الدار التي دخلوها بحكم الاستحقاق، وعلموا أن العلم أشرف حلة وأن الجهل أقبح حلية، وأنّ جهنم ليست بدار لشيء من الخير، كما أن الجنة ليست بدار لشيء من الشر، ورأى الإيمان قد قام بقلب من لا علم له بما ينبغي لجلال الله، ورأى العلم بجلال الله وما ينبغي له قد قام بمن ليس عنده شيء من الإيمان، وهذا العالم بعدم الإيمان قد استحق دار الشقاء وأنّ الجاهل المؤمن قد استحق بالإيمان دار السعادة والدرجات في مقابلة الدركات، فسلب هذا العالم المستحق دار الشقاء علمه حتى كأنه ما علمه أو لم يعلم شيئاً فيتعذب بجهله أشدّ منه من عذابه بحسّه وهو أشدّه عليه، فخلع علمه على هذا الجاهل المؤمن الذي دخل الجنة بإيمانه فنال المؤمن بذلك العلم الذي خلع عن هذا الذي استحق الإقامة بدار الشقاء درجة ما يطلبه ذلك العلم فيتنعم به نفساً وجسماً، وفي الكثيب عند الرؤية ويعطي ذلك الكافر جهل هذا المؤمن الجاهل فينال بذلك الجهل درك ذلك من النار، وتلك أشدّ حسرة تمر عليه فإنه يتذكر ما كان عليه من العلم ولا يعلم ذلك الآن ويعلم أنه سلبه، ويكشف الله عن بصره حتى يرى مرتبة العلم الذي كان عليه في الجنان، ويرى حلة علمه على غيره ممّن لم يتعب في تحصيله ويطلب شيئاً منه في نفسه فلا يقدر عليه، وينظر هذا المؤمن ويطلع على سواء الجحيم فيرى شرّ جهله على ذلك العالم الذي ليس بمؤمن فيزيد نعيماً وفرحاً فما أعظمها من حسرة. واتفق لي في هذه المسألة عجباً وذلك أن بعض علماء الفلاسفة سمع مني هذه المقالة فربما أحالها في نفسه أو استخف عقلي في ذلك فأطلعه الله بكشف لم يشك فيه في نفسه بحيث أن تحقق الأمر على ما قلناه فدخل عليّ باكياً على نفسه وتفريطه وكانت لي معه صحبة فذكر لي الأمر وأناب واستدرك الفائت وآمن وقال لي: ما رأيت أشدّ منها حسرة، وتحقق قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فهذا قد جمع بين خطاب لطف ولين وعنف وشدّة لأن الواحد شيخ فخاطبه باللطف والآخر شاب فخاطبه

بالشدّة، نفعنا الله بالعلم وجعلنا من أهله، ولا يجعلنا ممّن يسعى بخيره في حق غيره ويشقى آمين بعزّته. انتهى الجزء التاسع ومائة.

(الجزء العاشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والستون ومائة في معرفة مقام الأدب وأسراره

[نظم: الكامل]

إن الأديبَ هو الحكيمُ لأنه ... مجموعُ خَيْرٍ والمسابُ مُجَمَّعُ

فإذا رأيتَ نُعوتَه في خَلْقِهِ ... كنهاً ففيك لكل نَعْتٍ مَوْضِعُ

لا ترعوي عنها فأنتَ مِنَ أهلها ... والحقُّ يعطي ما يشاء ويَمْنَعُ

أدباءُ أهل الله خَيْرٌ كلُّهم ... فلذاك تبصرها تضرُّ وتَنْفَعُ

مثل الإساءة يَرَى العَليلُ صَنِيعَهُمْ ... حسناً وتَكْره نَفْسُه ما يَصْنَعُ

اعلم أيّدك الله أن الله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فالأديب إمَّعَة لما عنده من السعة، فهو مع كل مقام بحسب ذلك المقام، ومع كل حال بحسب ذلك الحال، ومع كل خلق ومع كل غرض، فالأديب هو الجامع لمكارم الأخلاق والعليم بسفسافها لا يتصف بها، بل هو جامع لمراتب العلوم محمودها ومذمومها، لأنه ما من شيء إلاّ والعلم به أولى من الجهل به عند كل عاقل، فالأدب جماع الخير وهو ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله.

القسم الأوّل: أدب الشريعة وهو الأدب الإلهيّ الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام به أدّب نبيه ﷺ، وبه أدّبنا نبيه ﷺ فهم المؤدّبون المؤدّبون. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أدّبني فأحسن أدبي**».

والقسم الثاني: أدب الخدمة وهو ما اصطلحت عليه الملوك في خدمة خدمها وملك أهل الله هو الله فقد شرع لنا كيفية الأدب في خدمته وهو معاملتنا إياه فيما يختص به دون معاملة خلقه، فهو خصوص في أدب الشريعة لأن حكم الشريعة يتعلق بما هو حق لله وبما هو حق للخلق.

والقسم الثالث: أدب الحق وهو الأدب مع الحق في اتباعه عند من يظهر عنده ويحكم به فترجع إليه وتقبله ولا تردّه ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة وظهر الحق عند من هو أصغر منك سناً أو قدراً، أو ظهر الحق عند معتوه تأدّبت معه وأخذته عنه واعترفت بفضله عليك فيه، هذا هو الاتصاف، وما رأيت من تحقق بهذا خلقاً في عمري إلاّ سيد واحد يقال له أبو عبد الله بن جبير لقيته بمدينة سبتة وقصر كتامة وهو جزء من آداب الشريعة فإن أدب الشريعة هو الأم لباقي الأقسام.

والقسم الرابع: أدب الحقيقة وهو ترك الأدب بفنائك وردّك ذلك كله إلى الله. وسيأتي في الباب الذي يلي هذا الباب وهو في المقامات كالوهب في أصناف العطاء، وهو أن يعطي

لينعم لا لسبب آخر، وكذا المأدبة الاجتماع على طعام ما له سبب إلاَّ الدعوة إليه خاصة من غير تقييد من صفة وليمة أو ختان أو ضيافة أو عقيقة وغير ذلك، وكذا جامع الخير لا لسبب بل لكون جامع ذلك له نفس فاضلة خيرة بالذات فذلك هو الأديب.

وللأدب حال ومقام وهذا باب معرفة مقامه، فمقامه هو ما يثبت له دائماً وليس ذلك إلاً الأدب مع الحق فإنه له الدوام في الدنيا والآخرة، وما فاز به إلاَّ أهل الفتوة من الملامية لا غير سلكوا فيه كل مسلك واستخرجوا كنوزه وحصلوا فوائده كما قال الله تعالىٰ أنه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو كل عالم علوي ﴿ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهو كل عالم سفلي، السماء من عالم الصلاح، والأرض من عالم الفساد، ومنه اشتقت اسم الأرضة لما تفسده في الثياب والورق والخشب، ويسمّى أيضاً السوس والعث ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الروم: الآية ٨] من العالم، فهذا الحق المخلوق به هذا العالم هو الذي نتأدب معه فإنه سبب وجود أعيان العالم، وبه يحكم الله يوم القيامة بين عباده وفي عباده، وبه أنزل الشرائع فقال لرسوله داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦]. وإن كان مخلوقاً بالحق فإنه ممّا بين السماء والأرض أو هو عين الأرض، فمقام الأدب العمل بالحق والوقوف عند الحق، وإياك أن تتوهم من هذا القول أن الصدق هو الحق من حيث إنك تقول: قال حقاً إذا صدق في قوله وقال صدقاً، بل الحق حاكم على الصدق وعلى الكذب بالحسن والقبح، فالحق في موطن يحمد الصدق وفي موطن يذمّه وينهى عنه ويثني على الكذب الذي هو ضده ويحرض عليه ويوجب العمل به، وفي موطن آخر يذم الكذب وينهى عنه ويحمد الصدق ويأمر به، وهذا مقام الأدب الذي ينفع صاحبه في كل موطن فالزمه وتتبع مواضعه ودلائله في الشرائع وفي أفعال الرسول المتأسّى بها لا غير لا ما اختصّ به فإنه ليس بأدب مع الحق.

وأما مقام أدب الخدمة فهو أن يعطي ذات المخدوم كان ما كان ما تستحقه من حيث عينها خاصة. وهو أن تقف مع ما تطلبه بذاتها فتبادر إليه من قبل أن تأمرك به أو تسائلك فيه حتى لا يظهر عليها ذلّة المسألة، ولو كان أكبر منك وسألك في أمر فهو من حيث سؤاله إياك في ذلك الأمر أن تفعله إظهار حاجة إليك ولو عادت عليك منفعته، ولكن مقام السؤال يقتضي ذلك، فمقام أدب الخدمة الحضور دائماً مع كل ذات مشهودة لك تنظر فيما تستحقه بما يعطيه الزمان أو المكان أو الحال، فتقوم لها بذلك من غير سؤال ولا تنبه من أحد سوى حضورك، فهذا مقام أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الشريعة فهو أن تقوم بأمرها خاصة لا بما تعطيك ذاتها إلاَّ إن أمرتك بذلك، فيكون قيامك بما تعطيك ذاتها من حيث أمرها لا غير، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] وكل خدمة عن أمر فمن أدب الشريعة لا من أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الحقيقة فإنا نذكره إن شاء الله. ومن أدب الشريعة أخذك لأحكامها المشروعة والوقوف عند رسومها وحدودها واتصافك بها لمجرّد الخدمة والاشتغال لا لتحلية النفس بالعلم بها دون العمل، ومن آداب الخدمة أن لا يشغلك ولا يبعثك عليها ما تنتجه لك من

المخدوم من القبول وملاحظات التأميل، فإن شغلك ذلك فما خدمت سوى غرضك ونفسك.
ومن آداب الحق أن لا يتعدى علمك في الأشياء علمه فيها وهو الموافقة وإن أعطاك علمك خلاف ذلك، ولا سيّما فيما أضافه الحق إلى الخلق من الأعمال فأضفها أنت إلى من أضافها الله اترك علمك لعلمه فإنه العليم وأنت العالم وهو الصادق فيما يخبر، فما أضاف أمراً إلى من أضافه إلاّ وينبغي لذلك المضاف إليه تلك الإضافة، فلا ترجح علمك على علمه من حيث قيام الدليل لك على أنه لا فاعل إلاّ الله فليس هذا من الأدب فصاحب الموافقة له كل تجلّ وشهود فاعلم ذلك.

الباب التاسع والستون ومائة

في معرفة مقام ترك الأدب وأسراره

[نظم: الكامل]

أَضِفِ الأمورَ إلى الإله جميعَها ... وإذا فعلْتَ فلا يُقال أديبُ
نَسَبَ الخليلُ إليه علَّةَ نفسه ... وشفاءَها لله وهو مُصِيبُ
وكذاك أستاذُ المكلَّم عندما ... خَرَقَ السفينةَ والجدارَ عجيبُ
فالعبدُ إن نظرَ الأمور بنفسه ... تُبْصِرْه يخطىء تارةً ويُصيبُ
فانظرْ بربك في الأمور فإنه ... فيها فتَخْضُرُ تارةً وتَغيبُ

قال تعالىٰ آمراً: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] في معرض الذمّ لهم، أي هو الذي حسن الحسن وقبح القبيح. وقال تعالىٰ مخبراً: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] وذكر المذموم والمحمود. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] ذلك الأوّل في الباطن فإنه في الإرادة، وهذا في الظاهر إذ لا يعتبر إلاّ بعد الوقوع، فالتارك للأدب أديب من حيث لا يعلم فإنه مع الكشف وبحكمه لا مع الذي هم المحجوبون فيه فهو يعاين علم الله في جريان المقادير قبل وقوعها فيبادر إليها فينطلق عليه بلسان الموطن أنه غير أديب مع الحق فإنه مخالف بل هذا هو غاية الأدب مع الحق ولكن أكثر الناس لا يشعرون.

ومنهم من يقام في الإدلال كعبد القادر الجيلي ببغداد سيد وقته. ومنهم من يكون وقته في ذلك كنت سمعه وبصره، والأدب يستدعي الغير، وثم مقام يفني الأغيار فيزول الأدب لأنه ما ثم مع من، وأما بلسان عامة الطريق وخواص أكثرهم فإن مقام ترك الأدب مع الحقيقة هو الواقع المشروع في العموم والخصوص وهو مقام جليل لا يقف معه إلاّ الذكران من أهل الله وفحول أصحاب المقامات لا أصحاب الأحوال، والقرآن كله نزل في هذا المقام إلاّ آيات مفردات قد ذكرناها في أوّل الباب، وما يحار في هذا المقام إلاّ رجلان: مكاشف به ومشاهد له، فالحقيقة تطلبه والحق الموضوع يطلبه، والأدب مع أحدهما ترك الأدب مع الآخر، وحصلت أنت في مقام الترجيح وليس لك ذلك، فمن الرجال من يترك أدب الحق الموضوع من اعتقاده وباطنه ويترك أدب الحقيقة من ظاهره، ويكون أديباً مع الحق في ظاهره غير أديب

مع الحقيقة في ظاهره، ويكون أديباً مع الحقيقة في باطنه غير أديب مع الحق في باطنه لما رأوا أن النجاة في ذلك والسعادة، وأن عكس الأمر شقاء فهو يطرد ولا ينعكس.

وثم طائفة تقول: إنّ الأدب مع الحق الذي هو الشرع أدب مع الحقيقة، فمن تركه هنا تركه هنا، ولا يعرفون من وجه، وذلك لأن الحق المشروع بين الأمر الذي لأجله حكم بالمنع فقال: «**ومن غيرته حرم الفواحش**» لا أنه جعلها فواحش بالتحريم، وهذا المذهب أدخل في باب الحكمة، ومذهب المخالف أدخل في أحدية العين، ولهذا المقام رجال ولمخالفه رجال، وبالجملة فهو موضع حيرة لا يخلص لهؤلاء من جميع الوجوه ولا لهؤلاء من جميع الوجوه، فإن الإخبارات الإلهية أكثرها تعارض الأدلة العقلية في هذا الباب، وأية حيرة أعظم من هذه الحيرة، وهذا هو المتشابه الذي ينبغي أن يقول فيه من لم يطلعه الله على العلم به ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧] وهم الآخذون بلب العقل لا بقشره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السبعون ومائة

في معرفة مقام الصحبة وأسراره

[نظم: مجزوء الخفيف]

صُحْبَةُ الله بالأدبْ ... صحبةُ الله في السَّبَبْ

صُحْبَةُ الكون كُلِّهِ ... بالذي فيه من نَسَبْ

فإذا ما علمتَ ذا ... أجْلِ أن شئتَ في الطَّلَبْ

لم يزَلْ كلُّ من يَرى ... صُحْبَةَ الحقِّ في تَعَبْ

ذلَّ مَنْ يَصْحَبُ الإلـ ... ـهَ على صحة النَّسَبْ

اعلم أن الصحبة نعت إلهيّ للخبر الوارد: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**». يقول النبيّ ﷺ في سفره لله والخليفة في الأهل، كما جعل الله الرسول خليفة في العالم جعله العالم إذا فارقوا أهلهم خليفة في أهلهم وهو قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] وأوحى إلى من أوحى إليهم: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢] يقول له: فالصحبة تطلب أعيان الأغيار ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] والمعية صحبة عامّة، والخلة صحبة خاصة، وسيرد بابها إن شاء الله، غير أن في الصحبة أمراً يتعذر من وجه في الجناب الإلهيّ وهو المناسبة والمشاكلة، إما من كل وجه، وإما من أكثر الوجوه ولا مناسبة كما يرد في باب مقام ترك الصحبة فلا صحبة وقد وردت الصحبة فلا بدّ لها من وجه يستدعيها فإنه إخبار إلهيّ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] فلا تثبت الصحبة إلاّ إذا لم تأخذ في حدّها الكفاءة، فإذا أزلت الكفاءة في الصحبة ثبتت الصحبة في الجناب الإلهيّ، فهو تعالىٰ يصحبنا في كل حال نكون عليه، ونحن لا نصحبه إلاّ في الوقوف عند

حدوده، فما نصحب على الحقيقة إلاَّ أحكامه لا هو، فهو معنا ما نحن معه لأنه يعرفنا ونحن لا نعرفه، لذا أتى يصحبنا ولم يجيء نصحبه، فإنه يحفظنا له لا لنا من هذه الحقيقة نطلبه لنا لا له، فإن طالبناه طالبناه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فشرع تعالىٰ لنا ما شرع فقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٦] وهو قولنا نطلبه لنا لا له. وقال: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] تحقيقاً لطلبنا إياه لنا لا له، وحقيقة طلبه إيانا له لا لنا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فأوجدنا له لا لنا، فطلبناه لنا لا له بما خلقنا له ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩].

فأمر الصحبة عظيم وشأنها كبير وما يرعاها إلاَّ الأكابر، وأحسن ما بلغني في رعي حقّها والقيام به ما حكي عن الحجاج رحمه الله أنه أمر بضرب عنق شخص فقال له: أمر أحبّ أن أذكره للأمير قبل أن يقتلني، فقال له الحجاج: قل، قال: أيها الأمير لا أحب أن أقوله لك إلاَّ حتى تتركني مكتوفاً بحالي أمشي معك في إيوانك هذا من أوّله إلى آخره وما على الأمير في ذلك من بأس ولا يحول ذلك بينه وبين ما يريده مني ويقضي لي بهذا حاجة، فقال لحاجبه: اصعد به إليّ، وقام الحجاج يسايره في الإيوان ويصغي إليه ليرى ماذا يقول له، فلما بلغ معه إلى آخر الإيوان وعاد إلى مكانه قال: أيها الأمير إن الكريم يراعي حق صحبة ساعة وقد صحبني الأمير وصحبته في هذه المشية والأمير أولى من رعى حق الصحبة، فقال الحجاج: خلوا سبيله فوالله لقد صدق ولقد نبّه عاقلاً فلو قتلته لكنت ألأم الناس، ثم أمر أن يجزل له في الأعطية وخيّره في صحبته والإقامة عنده، فما أدري بعد ذلك هل أقام عنده أم لا؟ فهذا من حسن ما يسمع في حق الصحبة من الوفاء به والرعاية، هذا من الحجاج، فلا بدّ لعبيد الله أن يخلصوا مع الله نفساً واحداً يصحّ به إطلاق الصحبة مع الله، فلا بدّ أن يرعى الله حق ذلك النفس.

وأما صحبة أهل الله بعضهم مع بعض أو صحبتهم للخلق أو صحبة الخلق إياه فهم يطالبون أنفسهم بحق ما يجب للصاحب على الصاحب، فإن كان عين الحق له حقاً عنده لزمه الوفاء به امتثالاً لأمر سيده ووقوفاً عند حدّه، وإن كان لم يأته في ذلك أمر وأبيح له وجعل له الاختيار في ذلك فليرجح مع صاحبه مكارم الخلق بترك غرضه وعمله لغرض صاحبه ما لم يسخط الله في واجب معين فصحبة الله أولى، وكذلك في صحبة غير الأشكال وغير الجنس، مثل صحبته لما يملكه من الدواب والأشجار وما يصحبه من ذلك وإن لم يملكه، فإن رأى شجرة ذابلة لاحتياجها إلى الماء وإن لم يكن مالكها حاضراً وقدر على سقيها في صحبة تلك الساعة حيث استظل بها أو استند إليها طلباً لراحة من تعب أو وقف عندها ساعة لشغل طرأ له فهذه كلها صحبة وهو قادر على الماء فتعين عليه رعي حق الصحبة أن يسقيها لذلك لا لأجل صاحبها ولا طمعاً فيما تثمر، سواء أثمرت أو لم تثمر، أو كانت مملوكة أو مباحة، وكذلك الحيوانات المؤذية وغير المؤذية فإنه في كل ذي كبد رطبة أجر، وقد وردت في ذلك أخبار نبوية: من سقي البغيِّ الكلب فشكر الله فعلها فغفر لها. وكوالي بخارى وكان ظالماً فوهبه الله لكلب أحسن في صحبته ثلاثة أيام فنودي كنت كلباً فوهبناك لكلب.

الباب الحادي والسبعون ومائة

في معرفة مقام ترك الصحبة

[نظم: السريع]

مـن تـرَكَ الـصُّـحْـبَـةَ فـهـو الـذي ... يـراه مـن قـيـده الـجـاهِـلُ

وصُـحْـبـةُ الـحـقّ عـلـى كُـنْـهِـهِ ... يُـحـيـلـهـا الـعـالـمُ الـعـاقـلُ

فـهـو مـع الـعـالـم فـي أَيْـنِـهِ ... ومـا لـه أيـنٌ ولا حـامِـلُ

فـانـظـرْ إلـى الـحـكـمـة فـي قـولـه ... إنّـي مـع الأكـوان يـا غـافِـلُ

هـل هـو بـالـذات عـلـى حُـكْـمِ مَـنْ ... يـراه أو بـالـوَصْـف يـا عـاقِـلُ

اعلم أيّدك الله لما كانت الصحبة تطلب المناسب وهو يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ودليل العقل يقضي به فله السيادة والعالم عبيد. فخدمة لا صحبة، وإنما امتنعت الصحبة من الطرف الواحد وصحّت من الطرف الآخر لما نذكره، فالحق ليس بصاحب لأحد من المخلوقين إلاَّ بالصحبة التي أرادها الشارع في قوله: «**أنت الصاحب في السفر**» بذلك المعنى كما اتخذناه وكيلاً فيما هو ملكه ولأنه الفعّال لما يريد كما قال ما يكون فعالاً لما تريد أنت إلاَّ أن توافق إرادتك إرادته ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] إن تشاؤوا فمن حيث إنه أراد فعل لا من حيث إنك أردت، والصاحب من يترك إرادته لإرادة صاحبه، وهذا في جناب الحق محال، فلا يصحب الرب إلاَّ ربوبيته لكن يصحبه العالم لصحة هذا الشرط منه، فمن صحبه من العالم ترك إرادته وغرضه ومحابه ومراضيه لإرادة سيده، وإن كره ذلك العبد فإن دعواه في الصحبة تجعله أن يوافق ويحمل ذلك، وكذلك النبيّ لا يصحب إلاَّ نبوّته، فإنه لا يتمكن للنبيّ أن يكون مع صاحبه بحيث ما يريد صاحبه منه، وإنما هو مع ما يوحى إليه به لا يفعل إلاَّ بحسبه فيصحب ولا يصحب ولهذا ليست الصحبة فعل فاعلين، وكذلك الملك لا يصحب سوى ملكه فيصحب أيضاً ولا يصحب، فإن الناس مع الرسول في صحبتهم بحكم ما يشرع لهم ما هم بحكم إرادتهم برهانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥] فلذلك صحبوه وما صحبهم، والورثة أهل الإلقاء الإلهيّ يُصحبون ولا يَصحبون، فإنهم مع ما يلقي الله إليهم، كتقرير حكم المجتهد يحرم عليه العدول عنه، فلا يصحب مؤمن مؤمناً أبداً لأنه لا يمكن له الوفاء معه على الإطلاق بحق الصحبة، فإن المؤمن تحت حكم شرعه، قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا**» فالمحكوم عليه لا يمكن أن يكون صاحباً لأحد، كالعبد لا يتمكن له أن يصحب غير سيّده لأنه ما هو بحكم نفسه فيمشي على أغراض صاحبه بل هو بحكم سيده، فالصحبة لا تصحّ إلاَّ من الطرف الواحد وهو الأدنى وقد نبهناك، فاعلم وقف عند حدّك حتى تعلم أنك صاحب أو مصحوب، فاعمل بحسب ذلك، والكامل من لا يزال صاحباً أبداً.

الباب الثاني والسبعون ومائة
في معرفة مقام التوحيد

[نظم: المديد]

دُمْيَةٌ في القلب قد نُصِبَتْ ... ما لها روحٌ ولا جَسَدُ
كُتبتْ فيه عقيدتُها ... بمدادٍ كلُّه جَسَدُ
أَحَدٌ ما مثلُه أَحَدٌ ... بجمال النَّعت مُنفَرِدُ
مَصْدَرُ الأكوان حَضْرَتُه ... وهو لا شَفْعٌ ولا عَدَدُ
الذي قام الوجودُ به ... أمرنا عليه يَنْعَقِدُ
وأنا العبدُ الفقيرُ به ... وهو المِحْسَانُ والصَّمَدُ
فاعجبوا من حكمةٍ وُجِدَتْ ... نَعَّمَ الرحمنُ ما وَجَدُوا
حكمةٌ تحوي على حِكَمٍ ... نالها الحُسَّادُ إذ حَسَدُوا
أَبَدٌ يَغْنو إلى أزلٍ ... أزلٌ يمدُّه الأبدُ
كلُّ من يجري إلى أمدٍ ... سيُرَى وماله أَمَدُ
هكذا التوحيدُ فاعتبروا ... واحدٌ في واحدٍ أَحَدُ

اعلم أن التوحيد التعمّل في حصول العلم في نفس الإنسان أو الطالب بأن الله الذي أوجده واحد لا شريك له في ألوهيته، والوحدة صفة الحق والاسم منه الأحد والواحد، وأما الوحدانية فقيام الوحدة بالواحد من حيث أنها لا تعقل إلاَّ بقيامها بالواحد وإن كانت نسبة وهي نسبة تنزيه، فهذا معنى التوحيد كالتجريد والتفريد، وهو التعمّل في حصول الانفراد الذي إذا نسب إلى الموصوف به سمّي الموصوف به فرداً أو منفرداً أو متفرداً إذا سمّي به، فالتوحيد نسبة فعل من الموحّد يحصل في نفس العالم به أن الله واحد، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده، فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحداً ما صحّ وجود العالم، هذا دليل الحق فيه على أحديته وطابق الدليل العقلي في ذلك، ولو كان غير هذا من الأدلة أدلّ منه عليه لعدل إليه وجاء به وما عرّفنا بهذا ولا بالطريق إليه في الدلالة عليه، وقد تكلف قوم الدلالة عليه بطريق آخر وقدحوا في هذه الدلالة فجمعوا بين الجهل فيما نصبه الحق دليلاً على أحديته وبين سوء الأدب، فأما جهلهم فكونهم ما عرفوا موضع الدلالة على توحيده في هذه الآية حتى قدحوا فيه. وأما سوء الأدب فمعارضتهم بما دخلوا فيها بالأمور القادحة فجعلوا نظرهم في توحيده أتم في الدلالة ممّا دلّ به الحق على أحديته، وما ذهب إلى هذا إلاَّ المتأخرون من المتكلمين الناظرين في هذا الشأن، وأما المتقدمون كأبي حامد وإمام الحرمين وأبي إسحاق الإسفراييني والشيخ أبي الحسن فما عرّجوا عن هذه الدلالة وسعوا في تقريرها وأبانوا عن استقامتها أدباً مع الله تعالىٰ وعلماً بموضع الدلالة منها.

واعلم أن الكلام في توحيد الله من كونه إلهاً فرع عن إثبات وجوده وهذا باب التوحيد فلا حاجة لنا في إثبات الوجود فإنه ثابت عند الذي نازعنا في توحيده. وأما إثبات وجوده فمدرك بضرورة العقل لوجود ترجيح الممكن بأحد الحكمين، ولنا في توحيده طريقان: الطريق الواحدة أن يقال للمشرك: قد اجتمعنا في العلم بأن ثم مخصصاً وقد ثبت عينه وأقل ما يكون واحداً فمن زاد على الواحد فليدل عليه فعليك بالدليل على ثبوت الزائد الذي جعلته شريكاً فليكن الخصم هو الذي يتكلف إثبات ذلك. والطريقة الأخرى قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] هذه مقدمة، والمقدمة الأخرى السماء والأرض وأعني بهما كل ما سوى الله ما فسدتا، وهذه هي المقدمة الأخرى، والجامع بين المقدمتين وهو الرابط الفساد، فأنتجنا أحدية المخصص وهي المطلوب.

وإنما قلنا ذلك لأنه لو كان ثم إله زائد على الواحد لم يخل هذا الزائد إما أن يتفقا في الإرادة أو يختلفا، ولو اتفقا فليس بمحال أن يفرض الخلاف لننظر من تنفذ إرادته منهما، فإن اختلفا حقيقة أو فرضاً في الإرادة فلا يخلو إما أن ينفذ في الممكن حكم إرادتهما معاً وهو محال لأن الممكن لا يقبل الضدّين، وإما أن لا ينفذا، وإما أن ينفذ حكم إرادة أحدهما دون الآخر، فإن لم ينفذ حكم إرادتهما فليس واحد منهما بإله وقد وقع الترجيح، فلا بدّ أن يكون أحدهما نافذ الإرادة، وقصر الآخر عن تنفيذ إرادته فحصل العجز، والإله ليس بعاجز، فالإله من نفذت إرادته وهو الله الواحد لا شريك له، وهكذا استدلّ الخليل عليه السلام في الأقوال فأعطاه النظر أن الأفول يناقض حفظ العالم، فالإله لا يتصف بالأفول أو الأفول حادث لطروّه على الآفل بعد أن لم يكن آفلاً، والإله لا يكون محلاً للحوادث لبراهين أخر قريبة المأخذ، وهذه الأنوار قد قبلت الأفول فليس واحد منها بإله وهذه بعينها طريقة قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وكل دليل لا يرجع إلى هذا المعنى فلا يكون دليلاً.

ثم قال الله تعالىٰ في قصة إبراهيم هذه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] ولم يكن له غير هذا، فقوله حجتنا أي مثل حجتنا التي نصبناها دليلاً على توحيدنا وهي قولنا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهذه الأدلة وأمثالها إنما المطلوب بها توحيد الله أي ما ثم إله آخر زائد على هذا الواحد. وأما أحدية الذات في نفسها فلا تعرف لها ماهية حتى يحكم عليها لأنها لا تشبه شيئاً من العالم ولا يشبهها شيء، فلا يتعرض العاقل إلى الكلام في ذاته إلاً بخبر من عنده، ومع إتيان الخبر فإنا نجهل نسبة ذلك الحكم إليه لجهلنا به بل نؤمن به على ما قاله وعلى ما يعلمه، فإن الدليل ما يقوم إلاّ على نفي التشبيه شرعاً وعقلاً، فهذه طريقة قريبة عليها أكثر علماء النظر.

وأما الموحد بنور الإيمان الزائد على نور العقل وهو الذي يعطي السعادة وهو نور لا يحصل عن دليل أصلاً وإنما يكون عن عناية إلهية بمن وجد عنده ومتعلقه صدق المخبر فيما أخبر به عن نفسه خاصة ليس متعلق الإيمان أكثر من هذا، فإن كشف متعلق الخبر فبنور آخر ليس نور الإيمان لكن لا يفارقه نور الإيمان، وذلك النور هو الذي يكشف له عن أحدية نفسه،

وأحدية كلِ موجود التي بها يتميز عن غيره، سواء كانت ثم صفة يقع فيها الاشتراك أو لا يكون، لا بدّ من أحدية تخصه يقع بها الامتياز له عن غيره، فلما كشف للعبد هذا النور أحدية الموجودات علم قطعاً بهذا النور أن الله تعالىٰ له أحدية تخصّه، فإما أن تكون عينه فيكون إحدى الذات إحدى المرتبة وهي عينها، وإما أن يكون أحدية المرتبة فيوافق الكشف الدليل النظري ويعلم قطعاً أن الذات على أحدية تخصّها هي عينها وهذا معنى قول أبي العتاهية: [المتقارب]

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ

وتلك الآية أحدية كل معلوم سواء كان كثيراً أو غير كثير، فإن للكثرة أحدية الكثرة لا تكون لغيرها البتة، والأحدية صفة تنزيه على الحقيقة، فلا تكون بجعل جاعل كما يراه بعض أصحابنا، فمن قال إنه وحّد الواحد ويريد به ما يريد بالوحدة فليس بصحيح، وإن أراد بقوله وحد الواحد ويعني به القائل الثاني فهذا يصحّ، وإنما الواحد من حيث عينه هو واحد لنفسه، فأهل طريق الله رأوا أن التوحيد إذا ثبت أنه عين الشرك فإن الواحد لنفسه لا يكون واحداً بإثباتك إياه واحداً فما أنت أثبته بل هو ثابت لنفسه، وأنت علمت أنه واحد لا أنك أثبت أنه واحد، فلهذا قال من أصحابنا قوله، إذ كل من وحده جاحد لأن الواحد لا يوحد لأنه لا يقبل ذلك لأنه لو قبل ذلك لكان اثنين: وحدته في نفسه، ووحدة الموحد التي أثبتها له، فيكون واحداً بنفسه وواحداً بإثبات الوحدة له من غيره، فيكون ذا وحدتين فينتفي كونه واحداً، وكل أمر لا يصحّ إثباته إلاَّ بنفيه فلا يكون له ثبوت أصلاً، فالتوحيد على الحقيقة مناله سكوت خاصة ظاهراً وباطناً، فمهما تكلم أوجد، وإذا أوجد أشرك، والسكون صفة عدمية فيبقى توحيد الوجود له وما دخل الشرك في توحيده إلاَّ بإيجاد الخلق لأن الخلق استدعى بحقائقه نسباً مختلفة تطلب الكثرة في الحكم وإن كانت العين واحدة، فما طرأت الآفة في التوحيد إلاَّ من الإيجاد، فالتوحيد جنى على نفسه لم تجن عليه الموجودات، وهذا هو علم التوحيد الوهبي الذي لا يدرك بالنظر الفكري، وكل توحيد يعطيه النظر الفكري هو كسبي عند الطائفة.

واعلم أن الشرع ما تعرّض لأحدية الذات في نفسها بشيء وإنما نص على توحيد الألوهية وأحديتها بأنه لا إله إلاَّ هو، وإنما ذلك من فضول العقل لأن العقل عنده فضول كثير أدّاه إليه حكم الفكر عليه وجميع القوى التي في الإنسان، فلا شيء أكثر تقليداً من العقل وهو يتخيل أنه صاحب دليل إلهيّ وإنما هو صاحب دليل فكري، فإن دليل الفكر يمشي به حيث يريد، والعقل كالأعمى بل هو أعمى عن طريق الحق، فأهل الله لم يقلدوا أفكارهم فإن المخلوق لا يقلد المخلوق فجنحوا إلى تقليد الله فعرفوا الله بالله، فهو بحسب ما قال عن نفسه ما هو بحسب ما حكم فضول العقل عليه. وكيف ينبغي للعاقل أن يقلد القوة المفكرة وهو يقسم النظر الفكري إلى صحيح وإلى فاسد، ولا بدّ له أن يحتاج إلى فارق بين صحيحه وفاسده، ومحال أن يفرّق بين صحيح نظر الفكر وفاسده بالنظر الفكري، فلا بدّ أن يحتاج إلى الله في ذلك، فالذي نلجأ إليه في تمييز النظر الفكري صحيحه من فاسده حتى نحكم به نلجأ إليه ابتداء في أن يعطينا العلم بذلك المطلوب من غير استعمال فكر، وعليه عولت الطائفة

وعملت به وهو علم الأنبياء والرسل وأولي العلم من أهل الله ولم تتعد بأفكارها محالها، وعلمت أن غايتها في الإدراك الصحيح في زعمها أن تبني أدلتها على الأمور الحسية والبديهية، وقد حكمت بغلط الحس ابتداء في أشياء وبالقدح في البديهيات، ثم رجعت تأخذها مصادرة لتعذر الدلالة عليها، فالرجوع إلى الله أولى في الأمور كلها كما قال ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وهذا من جملة الأمر، فلا علم إلاَّ العلم المأخوذ عن الله، فهو العالم سبحانه وحده، والمعلم الذي لا يدخل على المتعلم منه فيما يأخذه عنه شبهة ونحن المقلدون له، والذي عنده حق فنحن في تقليدنا إياه فيما أعلمنا به أولى باسم العلماء من أصحاب النظر الفكري الذين قلّدوه فيما أعطاهم لا جرم أنهم لا يزالون مختلفين في العلم بالله، والأنبياء مع كثرتهم وتباعد ما بينهم من الأعصار لا خلاف عندهم في العلم بالله لأنهم أخذوه عن الله، وكذلك أهل الله وخاصته، فالمتأخر يصدق المتقدم ويشدّ بعضهم بعضاً، ولو لم يكن ثم إلاَّ هذا لكفى ووجب الأخذ عنهم.

وهذا الباب أعني باب التوحيد يعطي المناسبة من وجه، وقد قال بذلك جماعة من أهل الله كأبي حامد وغيره من شيوخنا ولا يعطي المناسبة من وجه، وقد قال به جماعة من أصحابنا كأبي العباس بن العريف الصنهاجي ونفوا المناسبة جملة، والذي أذهب إليه وأقول به على ما أصلناه أوّلاً أن لا نقلد في علمنا بالله وبغير الله إلاَّ الله، فنحن بحسب ما يلقي إلينا في حق نفسه، فإن خاطبنا بالمناسبة قلنا بها حيث خاطبنا لا نتعدى ذلك الموضع ونقتصر عليه، وإن خاطبنا برفع المناسبة رفعناها في ذلك الموطن الذي رفعها فيه لا نتعداه فيكون الحكم له لا لنا، فلا نزال نصيب أبداً ولا نخطىء، وهو المعبر عنه بالعصمة في حق الأنبياء عليهم السلام والحفظ في حق الأولياء، ومتى ما لم يخبر عن الله فالإصابة إذا حصلت منه للحق اتفاقية بالنظر إليه مقصودة بالنظر إلى الحق، هذا هو الذي نعتمد عليه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف رفع للمناسبة الشيئية وتمام الآية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إثبات للمناسبة، والآية واحدة، والكلمات مختلفة، فلا نعدل عن هذه المحجة فهي أقوى حجة، وهي ما ذهبنا إليه من تقليد الحق فإنه طريق العلم والنجاة في الدنيا والآخرة، وهي طريق النبيين والمرسلين والقائلين بالفيض من الإلهيين، فإذا جاءك من الله علم فلا تدخله في ميزان الفكر، ولا تجعل لعقلك سبيلاً إلى ذلك فتهلك من ساعتك، فإن العلم الإلهي لا يدخل في الميزان لأنه الواضع له، فكيف يدخل واضعه تحت حكمه؟ النائب لا يحكم على من استخلفه وإنما يحكم على من استخلف عليه، والعلم يناقض العقل فإن العقل قيد والعلم ما حصل عن علامة، وأدل العلامات على الشيء نفس الشيء، وكل علامة سواها فالإصابة فيها بالنظر إلينا اتفاقي، وهذا القدر في هذا الباب على حكم طريقنا كاف في الغرض المقصود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصل: في الوتر وهو نوع من أنواع التوحيد. اعلم أن الوتر في لسان العرب هو طلب الثأر، فأحدية الحق إنما اتصفت بالوتر لطلبها الثأر من الأحدية التي للواحد الذي أظهر الاثنين

بوجوده فما زاد إلى ما لا يتناهى من الأعداد، فلما أزال بهذا الظهور حكم الأحدية فصارت أحدية الحق تطلب ثأر الأحدية المزالة التي أذهب عينها هذا الواحد الذي بوجوده ظهرت الكثرة وتطلب الوحدانية فتسمى بالوتر لهذا الطلب، فوكل هذا الواحد من ينوب عنه في الذبِّ عنه فأقام العارف وكيلاً بلسان حق فقال: أيها الحاكم الطالب ثأر الأحدية ما ذهبت الأحدية بل هذا الذي تطلبه ما أعطى الاثنينية ولا الثلاثة ولا الأربعة فصاعداً فإنه لا يعطي ما لا يقتضيه حقيقته، وإنما الذي أعطانا الاثنين أحدية الاثنين وأحدية الثلاثة والأربعة بالغاً ما بلغ العدد، وذلك لتستدل أعيان الأعداد بأحديتها تلك على أحديتك، فما سعت إلاَّ في حقك ومن أجلك، إذ تعلم أن الأعداد ما ظهرت في الكون إلاَّ من حكم الأسماء الإلهية فإنها كثرة ومع كثرتها فالأحدية لها متحققة، فأراد هذا الواحد أن لا يجهل أعيان الأعداد أحدية الأسماء حتى لا تتوهم الكثرة في جناب الله، فأعطى في كل عدد أحدية ذلك العدد غيرة من وجود الكثرة المذهبة لعين الأحدية والوحدة، فقبل عذره وعلم أنه متخلق في ذلك بأخلاق أحدية الحق في إقامة أحدية الأسماء الكثيرة ومشى عليه اسم الوتر للغيرة، فالله وتر يحب الوتر، وسيأتي في الباب الذي بعد هذا العلم بالكثرة والاشتراك إن شاء الله.

وصل: في الفرد. وأما الفرد فهو من حكم هذا الباب ويسمّى به لانفراده بما يتميز به عن خلقه، فما هو فرد من حيث ما هو واحد، فإنه واحد لنفسه وفرد لتميزه عن أحدية كل شيء، ولا يصحّ الفرد لغيره سبحانه، فإنه كل ما سوى الله فيه اشتراك بعضه مع بعض ويتميز بأحديته ولا ينفرد، فإن صفة الاشتراك تمنع من ذلك، فلا يصحّ اسم الفرد على الحقيقة إلاَّ لله الحق خاصة فإنه الفرد من جميع الوجوه، إذ لم تكن له صفة اشتراك كما لسواه من الموجودات، ولذلك تطلب الحدود الموجودات والله لا يطلبه حد ولا يقابله مثل ولا ضد تعالىٰ الله. وأسماؤه كلها لها الفردية فإنها له نسب لا أعيان، فيأخذ الحد ذلك الاسم إذا دلّ على الحادث ولا يأخذه الحد إذا سميت به الله تعالىٰ فتحد اللفظ ولا تحد مدلوله إلاَّ إذا كان مدلوله حادثاً لا غير، ولا يلزم من الاشتراك في اللفظ الاشتراك في المعنى لأن اللفظ لك لا له وأنت مشترك فيك، فلهذا قيل: اللفظ الاشتراك، ألا ترى الألفاظ المشتركة كالمشتري ليس الاشتراك إلاَّ في إطلاق الاسم ولهذا يقع التفصيل إذا طولب بالحد صاحبه فيقال: أي مشتر تريد المشتري الذي هو كوكب في السماء أو المشتري الذي هو عاقد البيع فإذا حدّه تميز كل عين عن صاحبتها فليس في اللفظ من ماهية المدلول شيء فبهذا تقول في الحق سميع وبصير، وله يد ويدان أو أيد وأعين ورجل، وجميع ما أطلقه على نفسه ممّا لا يتمكن للعقل أن يطلقه عليه لأنه لم يعلم ذلك الإطلاق إلاَّ على المحدثات.

ولولا الشرع والأخبار النبوية الإلهية ما جاءت بها ما أطلقناها عقلاً عليه، ومع هذا فننفي التشبيه ولا يتناول أمراً بعينه لجهلنا بذاته، وإنما نفينا التشبيه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا بما أعطاه الدليل العقلي حتى لا يحكم عليه إلاَّ كلامه تعالىٰ، وبهذا نحب أن نلقاه إذا لقيناه وكشف عن بصائرنا وأبصارنا غطاء العمى إن كان يمكن

كشفه مطلقاً أو يكشف منه ما يمكن كشفه، إما على التساوي في حق الجميع، وإما على التفاضل في حق العباد، فينفرد كل شخص برؤية لا تكون لغيره، ولا يصحّ الكشف في علم التوحيد إلاّ عند من يقول بالمناسبة ولا عند من يقول بنفي المناسبة، لأن التوحيد ليس بأمر وجودي وإنما هو نسبة، والنسب لا تدرك كشفاً وإنما تعلم من طريق الدليل، فإن الكشف رؤية ولا تتعلق الرؤية من المرئي إلاّ بكيفيات يكون المرئي عليها، وهل في ذلك الجناب الإلهي كيفية أم لا؟ فالدليل ينفي الكيفية، فإن كان يريد أنه لا كيفية له في ذاته فلا يكشف، وإن كان يريد أنه لا تعقل كيفيته فيمكن أن يكشف من حيث ما له كيفية لا نعقل لكن يحصل العلم بها عند الكشف، فإن كل كيفية حصلها العقل من نظره في الأشياء فإنها تستحيل عليه عنده مع ثبوت الإيمان بأسمائها لا بمعقوليتها من نزول واستواء ومعية وتقليب وتردّد وضحك وتعجّب ورضى وغضب، فإن جسد الله هذه المعاني في حضرة التمثيل كالعلم في صورة اللبن فذلك له وحينئذ تنال كشفاً وإلاّ فلا تنال أبداً، ولا يعلم من أين أخذتها النبوة هل تلقتها خبراً أو كشفاً؟ فإن كان خبراً فقد وقع التساوي، وإن كان عن كشف فهو بحسب ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والسبعون ومائة

في معرفة مقام الشرك وهو التثنية

[نظم: السريع]

الـشِّـرْكُ فـي الأسـمـاء لا يُـجْـهَـلُ ... عـلـيـه أهـل الـكـشـف قـد عَـوَّلُـوا

قـالـوا ومـا الـرحـمـنُ قـلـنـا لـهـم ... هـو الإلـهُ الـحَـكَـمُ الأوّلُ

لا فـرقَ بـيـن الله فـي كَـوْنِـهِ ... دلَّ عـلـى الـذَّات يُـسْـأَلُ

بـه مـن الأسـمـاءِ فـي كـلِّ مـا ... يَـلْـفُـظُـهُ الـلافـظُ أو يَـعْـقِـلُ

والـشِّـرْكُ مـحـمـودٌ عـلـى بـابـه ... عـنـد الـذي يَـعـلـم أو يَـجْـهَـلُ

هـو الـوجـودُ الـمَـحْـضُ لا يَـمْـتـري ... فـيـه إمـامٌ حُـكْـمُـه فَـيْـصَـلُ

وإنـمـا الـمـذمـومُ مـنـه الـذي ... أثْـبَـتَـه فـي عَـقْـده الـمُـبْـطِـلُ

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فاعلم أن الله تعالىٰ من حيث ذاته فهو الواحد الأحد. وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] إذا دعوته عرفت من يجيبك، وما يجيبك هل يجيبك من حيث ذاته أو من حيث نسبة يطلبها ذلك الاسم ما هي عين الذات ولا يجيبك تعالىٰ مع ارتفاع وجود تلك النسبة، فإذا عرفت هذا عرفت أموراً كثيرة في عين واحدة لا تعقل الذات عند الدعاء بهذه الأسماء دون هذه النسب، ولا تعقل النسب دون هذه الذات، فإذا قلت: يا عليم، علمت أن معقوله خلاف معقول يا قدير، وكذلك يا مريد ويا سميع ويا بصير ويا شكور ويا حيّ ويا قيوم ويا غنيّ إلى ما شئت من الأسماء الحسنى، فهذه النسب وإن كثرت

فالمسمّى واحد والمنسوب إليه هذه النسب واحد، فإذاً لا تعقل الكثرة في هذا الواحد إلاً هكذا، فكل اسم قد شارك الاسم الآخر وغيره من الأسماء الإلهية في دلالته على الذات مع معقولية حقيقة كل اسم أنها مغايرة لمعقولية غيره من الأسماء وتميز كل واحد منها عن صاحبه واشتراكهم في ذات المسمّى وليست هذه الأسماء لغير من تسمّى بها، فالأسماء الإلهية مترادفة من وجه متباينة من وجه مشتبهة من وجه، فالمترادفة: كالعالم والعلام والعليم وكالعظيم والجبار والكبير. والمشتبهة: كالعليم والخبير والمحصي. والمتباينة: كالقدير والحيّ والسميع والمريد والشكور.

وأما الضرب الآخر من الشركة في إيجاد العالم فهو باستعداد الممكن لقبول تأثير القدرة فيه إذ المحال لا يقبل ذلك، فما استقلت القدرة بالإيجاد دون استعداد الممكن، ولا استقل استعداد الممكن دون القدرة الإلهية بالإيجاد، وهذا سار في كل ممكن، ثم اشتراك آخر خصوص في بعض الممكنات وهو إذا أراد إيجاد العرض فلا بدّ من الإقتدار الإلهي والإرادة الإلهية لتخصيص ذلك العرض المعين، ولا بدّ من العلم به حتى يقصده بالتخصيص، ولا بدّ من استعداد ذلك المراد لقبول الإيجاد، ولا بدّ من وجود المحل لصحة إيجاد ذلك العرض، إذ كان من حقيقته أنه لا يقوم بنفسه، فلا بدّ له من محل يقوم به، ولا بدّ لذلك المحل أن يكون على استعداد يقبل وجود ذلك العرض فيه، وهذا كله ضرب من الشركة في الفعل، فهذا معنى الشركة والكثرة المطلوبة في الإلهيات في هذا الباب، ولا يحتمل هذا الباب أكثر ممّا أومأنا إليه من هذه الأصول. وتلخيص هذا الباب أن كل أمر يطلب القسمة فلا يصحّ فيه توحيد، وأعمّه المعلوم فنقول: المعلومات تنقسم بوجه إلى ثلاثة أقسام: إلى واجب وجائز ومستحيل، ثم ما من شيء نذكره بعد هذا من موجود ومعدوم وغير ذلك إلاً ويقبل القسمة، فأين التوحيد في كل مذكور أو معلوم فلم يبق إلاً توحيد الكثرة في معلوم معين يسمّى الله، وهو الذي ينبغي أن يكون على كذا وكذا وتذكر ما لا تصحّ الألوهية إلاً به، وحينئذ يصحّ أن يكون الله ولا يشاركه في هذه الصفات بمجموعها واحد آخر فذلك يعني بقوله واحد بأحدية هذا المجموع مع أحدية العين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والسبعون ومائة

في معرفة مقام السفر وأسراره

[نظم: البسيط]

إن السُّفورَ دليلُ الخَوْف والحَذَرِ ... هذا هو العُرْفُ في الإعراض بالخَبَرِ

فإن رأيتَ فتاةَ الحَيِّ قد سَفَرَتْ ... فكنْ فدَيْتُك من هذا على حَذَرِ

لذا نقول بأن المُمْكناتِ على ... أصولها ما لها عينٌ من الصُّوَرِ

ولا تَقُلْ بحلول إنَّها عَدَمٌ ... وقد يكون لها التكوينُ في السُّوَرِ

قال تعالىٰ في وصف أهل الله: السائحون. والسياحة الجولان في الأرض على طريق

الاعتبار، والقربة إلى الله لما في الأنس بالخلق من الوحشة. فاعلم أن أهل الله ما طلبوا السياحة في الأرض ولزوم الفقر وسواحل البحار إلاَّ لما غلب عليهم من الأنس بالجنس الذين هم أشكاله من الأناسي، وهو وإن كان ذلك الأنس في الظاهر فهو استيحاش في الباطن من حيث لا يشعر طالب السياحة، ولا يعلم طالب السياحة أنه ما دعاه إلى ذلك إلاَّ الوحشة إلاَّ بعد وقوفه على ما تنتج له السياحة، وذلك أن الله خلق الإنسان الذي هو آدم وكل خليفة على صورته نفى عنه المماثلة فقال: إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وسرت هذه الحقيقة في الإنسان، فإذا جنح إلى الله وتاب استشرفت نفسه على هذه المرتبة أعني نفي المثلية، فلما رأى أمثاله من الناس غار أن يكون له مثل كما غار الحق أن يكون ثم من ينسب إليه الألوهية غيره، فاستوحش من المخلوقين وطلب الانفراد بذاته من أمثاله حتى لا يبقى له أنس إلاَّ بذاته وحده ولا يرى له مثلاً، ففرّ بنفسه إلى الأماكن القاصية عن رؤية أمثاله، فلازم الجبال وبطون الأودية وهذه الحالة هي السياحة، فأسفرت له هذه السياحة عن مطلوبه فأنس بذاته فذلك تشبهه بمقام قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٦] لأنه لم يبق مدّع كان يدعي الألوهية موجوداً كذلك هذا ما بقي له في الفقر الذي هو فيه من يتسمّى بإنسان الذي هو مثله غير الوحش، فالوحش وغير الجنس له بمنزلة العالم من الله فلهذا طلب السفر أي المعنى الذي يظهر ما ذكرناه، ولهذا المعنى أشار الشبلي حين بات عند بعض إخوانه فسامره الشبلي فقال له صاحبه: يا شبلي قم نتعبد، فقال له الشبلي: العبادة لا تكون بالشركة، وكذلك الربوبية لا تكون بالشركة، فبقوة الصورة التي خلق الإنسان عليها طلب الفرار من الناس دون غيرهم من المخلوقين، ولهذا ما ادّعى أحد من الخلق الألوهية إلاَّ هذا الجنس الإنسانيّ، فلم يرد السائح أن يرى مثله لهذا الذي ذكرناه، هذا مقام هذا السفر.

وأما السفر في المعقولات بالفكر وفي مراتب المعارف والعلوم فله باب آخر في هذا الكتاب يرد بعد هذا إن شاء الله في باب من أبواب الأحوال، فهذه سياحة الخصوص من أهل الله، وأما سياحة العموم منهم فسبب سياحتهم قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٦] فنظروا ما هي أرض الله؟ فقالوا: كل أرض موات لا يكون عليها ملك لغير الله فتلك أرضه الخاصة به المضافة إليه البريئة من الشركة فيها البعيدة من المعمور، فإن الأرض الميتة القريبة من العمران يمكن أن يصل إليها بعض الناس فيحييها فيملكها بأحيائها والبعيدة من العمران سالمة من هذا التخيل فقالوا: ما أمرنا الله بالعبادة فيها إلاَّ ولها خصوص وصف، وليس فيها من خصوص الأوصاف إلاَّ كونها ليس فيها نفس لغير الله ففيها نفس الرحمن، فإذا عبد الإنسان ربه في مثل هذه الأرض وجد أنساً من تلك الوحشة التي كانت له في العمران، ووجد لذة وطيباً في قلبه وانفراده، وذلك كله من أثر نفس الرحمن الذي نفس الله به عنه ما كان يجده من الغمّ والضيق والحرج في الأرض المشتركة، فهذا الذي أدّى العامة من أهل الله إلى السياحة، ثم إنهم رأوا في هذه الأرض من الآيات والعجائب والاعتبارات ما دعاهم إلى النظر فيما ينبغي لمالك هذه الأرض، فأنار الله قلوبهم بأنوار العلوم،

وفتح لهم في النظر في الآيات وهي العلامات الدالة على عظمة من انقطعوا إليه وهو الله تعالىٰ ورثاً نبوياً من قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] ثم قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فعرج به إلى السموات إلى أن بلغ به الإسراء إلى حيث قدره الله له من المنازل العالية، فأراه من الآيات ما زاده علماً بالله إلى علمه لذا قرن به ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما خوطب به ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] لما شاهده من الآيات فالسايحون من عباد الله يشاهدون من آيات الله ومن خرق العوائد ما يزيدهم قوّة في إيمانهم ونفسهم ومعرفتهم بالله وأنسابه ورحمة بخلقه وشفقة عليهم، فإذا رأوا قمة جبل شامخ تذكروا علوّا لهم حيث لم يطلبوا من الله إلاَّ الأنفس، وهو الانفراد به في خلوة من أشكالهم حذراً من الشغل بسواهم، وإذا كانوا في بطن واد أو قاع من القيعان ذكرهم ذلك بعبوديتهم وتواضعهم تحت جبروت سلطان خالقهم، فذلّوا في أنفسهم وعرفوا مقدارهم، وعلموا أن ما ينالونه من الرفعة إنما ذلك بعناية الله لا باستحقاق.

ثم إذا كانوا على ساحل بحر تذكروا بالبحر سعة علم الله وسعة عظمته ورحمته، ثم يرون مع هذه العظمة ما تحدث فيه الرياح من تلاطم الأمواج وتداخل بعضها في بعض، فيذكرهم ذلك في جناب الحق تعارض الأسماء الإلهية وتداخل بعضها في بعض في تعلقاتها مثل الاسم المنتقم والسريع الحساب والشديد العقاب عند معصية العاصي، ويجيء أيضاً في مقابلة هذه الأسماء الاسم الغفار والعفوّ والمحسان، فتتقابل الأسماء على هذا العبد العاصي، وكذلك التردّد الإلهيّ يعتبرونه في تموّج هذا البحر فيفتح لهم في بواطنهم في علوم إلهية لا ينالونها إلاَّ في مشاهدة ذلك البحر في سياحتهم، فيكثر منهم التكبير والتعظيم لجناب الله، ثم ما يحصل لهم من خرق العوائد في استئناس الوحوش بهم وإقبالهم عليهم، وفيهم من تكلمه الوحوش بلسانه، وفيهم من يعلم منطقها وترى ما هم عليه من عبادة الله ما يزيدهم ذلك حرصاً واجتهاداً في طاعة ربهم. والحكايات في كتب القوم في ذلك كثيرة جدّاً، ولولا أن كتابنا هذا مبناه على المعارف والأسرار لسقنا من الحكايات ما شاهدناه بنفوسنا في سياحتنا واجتماعنا بهذه الطائفة وما رأينا فيهم من العجائب، وهذا القدر كاف في الغرض المقصود من هذا الباب، حتى يرد الكلام إن شاء الله في السفر ومراتبه فيما بعد عند ذكر المسافر والسالك والطريق. والله يهدي من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

الباب الخامس والسبعون ومائة

في مقام ترك السفر

[نظم: البسيط]

احذَرْ بأن تَجْعَلِ الأعيانَ واحدةً ... إذا أتتك بها الآياتُ والسُّوَرُ

من قوله أنت عبدي والإلهُ أنا ... وما لنا عندكم عَيْن ولا أَثَرُ

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

لُغُوبٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٥] قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فقطع المسافات زيادة تعب بل تعب خاصة فإنه ما يحركني إلاّ طلبه، فلولا أني جعلته مطلوبي ومقصدي بهذه السياحة والسفر ما طلبته، وقد أخبرني أنه معي في حال انتقالاتي، كما هو معي في حال الإقامة وله في كل شيء وجهة فلماذا أجول؟ فالحركة لتحصيله دليل على عدم الوجدان في السكون، فأطلب وجهه في موضع إقامتي، فإذا عرفته فيه كنت منزلاً من منازل القمر مقصوداً لا قاصداً ولا نازلاً، تطلبني الأسماء ولا أطلبها، وتقصدني الأنوار ولا أقصدها، وقفت مع من لا يجوز عليه التحرّك والانتقال، فصاحب السفر مع قوله: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا وصاحب الإقامة مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] والسكون أولى من الحركة، فإن العبد مأمور بالسكون تحت مجاري الأقدار، وما يأتي به الله إليه في الليل والنهار، وقال في ذم من بادر الأقدار: «**بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**» والمبادرة حركة، ما قال الله لنا آمراً: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] إلاّ لنسكن ويكون هو سبحانه الذي يتصرف في أمر عبده حتى يوفيه ما قدر له من كل ما يصيبه، حتى أنه لو كان مما يصيبه السفر والانتقال لنقله الحق بهذه الصفة التي هو عليها من السكون في محفة عناية إلهية لا يعرف الحركة المتعبة مستريحاً مظللاً عليه مخدوماً، هذا سفر تارك السفر إذا كان مقدراً له السفر، وقد ذقنا الأمرين، ورأينا السكون أرجح من الحركة وأقوى في المعرفة مع انتقال الأحوال عليه في كل نفس، وذاك الانتقال عليه لا بدّ منه له، فهو طريق مطرقة يسلك فيها ولا يسلك، فإذا انتقل هو بذاته فلا يزيد شيئاً على تلك الانتقالات عليه إلاّ التعب خاصة، فكان المسافر يستعجل عذاباً ومشقة، فإن الأمور الجارية على العبد مثل الرزق، والأجل إن لم تأت إليه أتى إليها لا بدّ من ذلك: [الوافر]

ولا مَغنَى لشكوى الشَّوْق يوماً إلى من لا يزول من العَيَانِ

السكون مع المشاهدة والحركة مع الفقد إلاّ الحركة المأمور بها، لأنك لا تخلو أن تتحرك في طلبه فأنت فاقداً، وفي غير طلبه فأنت خاسر، فالسكون بكل حال أولى من الحركة التي في مقام ذلك السكون، وأنت في مقام أن تتحرك بالله، فالسكون بالله مع الله أولى لراحة الوقت، فإنه والله إن كنت فاقداً له في السكون فأنت في الحركة المحسوسة أفقد بما لا يتقارب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] لو لم يكن من شرف السكون إلاّ ورود الأسماء الإلهية عليك ونزول الحق إليك لأنك إن تحركت إليه حددته، وإن سكنت معه عبدته، الحركة إليه عين الجهل به، والسكون معه عين العلم به، ما أسرى برسول الله ﷺ ليراه، وإنما أسرى به ليريه من آياته من قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] فمن رجح ترك السفر فقد أصاب في النظر وقصد عين الخبر إذا كان جليس الذاكر فإلى أين يرحل، فهذا قد أبنت لك عن السفر وتركه، فكن بحسب ما يقع لك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون ومائة

في معرفة أحوال القوم رضي الله عنهم عند الموت

[نظم: البسيط]

للقوم عند حُلول الموتِ أحوالُ ... تنوَّعت وهي أمثالٌ وأشكالُ

فمنهم من يرى الأسماءَ تَطْلُبُه ... ومنهم من يرى الأملاكَ والحالُ

في ذاك مختلفٌ عند الوجود لما ... تُعطي الحقائقُ والتَّفصيلُ إجمالُ

ومنهم من يرى الأرْسَالَ مُقْبِلَةً ... إليه تُتْحِفُه والرُّسْلُ أعمالُ

ومنهم من يرى التَّنزيه يطلبه ... وهو الذي عنده التَّشبيهُ إضلالُ

وكلُّهم سعدوا والعينُ واحدةٌ ... وعندهم في جنان الخُلْد أشغالُ

هذا هو الحقُّ لا تبغي به بَدَلاً ... فهو الصحيحُ الذي ما فيه إشكالُ

قال رسول الله ﷺ: «**يَمُوتُ المَرْءُ عَلَىٰ مَا عَاشَ عَلَيهِ وَيُحْشَرُ عَلَىٰ مَا عَلَيهِ مَاتَ**».

وقال تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] يعني عند الموت أي يعاين ما هو أمره عليه الذي ينفرد به أهل الله العابدون ربهم إذا أتاهم اليقين، يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] يعني الموت لأنه أمر متيقن لا اختلاف في وقوعه في كل حيوان، وإنما وقع الخلاف في ماهيته، قال شاعرهم:

فخَالَفَ الناسُ حتى لا اتِّفَاقَ لهم ... إلاَّ على شَجَبٍ والخُلْفُ في الشَّجَبِ

يعني ما هو والشجب الموت، فإذا حضرتهم الوفاة رضي الله عنهم فلا بدّ لهم من مشاهد اثنتي عشرة صورة يشهدونها كلها أو بعضها لا بدّ من ذلك وهنّ: صورة عمله، وصورة علمه، وصورة اعتقاده، وصورة مقامه، وصورة حاله، وصورة رسوله، وصورة الملك، وصورة اسم من أسماء الأفعال، وصورة اسم من أسماء الصفات، وصورة اسم من أسماء النعوت، وصورة اسم من أسماء التنزيه، وصورة اسم من أسماء الذات، وكان الأولى أن تكون هذه الصور كلها بالسين لا بالصاد، فإنها منازل معان إلاَّ أنه لما تجسدت المعاني وظهرت بالأشكال والمقادير لذلك تصورت في صور، إذ كان الشهود بالبصر وحكمت الحضرة بذلك الخيالية البرزخية، فالموت والنوم سواء فيما تنتقل إليه المعاني، فمنهم من يتجلى له عند الموت عمله العمل فيتجلى له عمله في الزينة والحسن على قدر ما أنشأه العامل عليه من الجمال، فإن أتم العمل كما شرع له ولم ينقص منه شيئاً يشينه انتقاصه كان في أتم نشأة حسنة ظهرت من تمام أركان ذلك العمل الظاهرة والباطنة من الحضور وشهود الرب في قلبه وفي قبلته إذا صلَّى، وكل عمل مشروع فهو صلاة، ولهذا قال ﷺ عن الله تعالىٰ أنه يقول يوم القيامة: «**انْظُرُوا فِي صَلاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامةً، وَإِنْ كَان انْتقصَ مِنْهَا شَيئاً قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَكْمِلُوا لِعَبْدِي فَرِيضَته مِنْ تَطَوُّعِهِ**» ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم، فإن كان العمل غير ذات العامل كمانع الزكاة

وكغاصب أمر ما حرم عليه اغتصابه كسى ذلك المال صورة عمل هذا العبد من حسن أو قبح، فإن كان قبيحاً طوق به كما قال في مانع الزكاة: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٠] وقال فيه عليه السلام يمثل له ماله شجاعاً أقرع الحديث وفيه يقول له: «**أَنَا كَنْزُكَ فَيُطَوَّقُ**» والكنز من عمل العبد في المال، وهكذا لعباد الله الصالحين فيما يجودون به من الخير بما يرجع إلى نفوسهم وإلى التصرّف في غير ذواتهم فيرى علامات ذلك كله، وهذا داخل تحت قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] وهذا الموطن من بعض مواطن ما يرى فيه عمله فيشاهد العبد الصالح عند الاحتضار عمله الصالح الذي هو لروحه مثل البراق لمن أسرى به عليه فيرفع تلك الروح الطيبة إلى درجاتها حيث كانت من عليين، فإن عباد الله على طبقات في أعمالهم في الحسن والأحسن والجميل والأجمل العلم.

ومنهم رضي الله عنهم من تجلى له عند الموت علمه بالجناب الإلهي وهم رجلان: رجل أخذ علمه بالله عن نظر واستدلال، ورجل أخذ علمه عن كشف وصورة الكشف أتم وأجمل في التجلّي، لأن الكشف واقتناء هذا العلم ينتجه تقوى وعمل صالح وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فيظهر له علمه عند الموت صورة حسنة أو نوراً يلتبس به فيفرح به، فإن صحبته دعوى في اقتنائه ذلك العلم نفسية فهو في الصورة الجميلة دون من لم تصحبه دعوى في اقتناء ذلك العلم بل يراه منحة إلهية وفضلاً ومنة لا يرى لنفسه تعمّلاً بل يكون ممّن فني عن عمله في عمله فكان معمولاً به، كالآلة للصانع يعمل بها وينسب العمل إليه لا إليها، فيقع الثناء على الصانع العامل بها لا عليها، فهكذا يكون بعض عباد الله في اقتناء علومهم الإلهية، فتكون صورة العلم في غاية من الحسن والجمال الاعتقاد.

ومنهم المعتقد الذي لا علم عنده إلاَّ أن عقده موافق للعلم بالأمر على ما هو عليه، فكان يعتقد في الله ما يعتقده العالم، لكن عن تقليد لمعلمه من العلماء بالله، ولكن لا بدّ أن يتخيل ما يعتقده، فإنه ليس في قوّته أن يجرده عن الخيال وهو عند الاحتضار، وللاحتضار حال استشراف على حضرة الخيال الصحيح الذي لا يدخله ريب ما هو الخيال الذي هو قوّة في الإنسان في مقدم دماغه، بل هو خيال من خارج كجبريل في صورة دحية، وهو حضرة مستقلة وجودية صحيحة ذات صور جسدية تلبسها المعاني والأرواح فتكون درجته بحسب ما اعتقده من ذلك المقام، فإن كان هذا العبد صاحب مقام قد لحق بدرجة الأرواح النورية فإنها التي ذكر الله عنها أنها قالت: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فيظهر له مقامه في صورة فينزل فيها منزلة الوالي في ولايته فيكون بحسب مقامه، وهذه كلها بشارات الحياة الدنيا الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٣، ٦٤].

الحال: فإن كان صاحب حال في وقت احتضاره يرد عليه من الله حال يقبض فيه فهو له، كالخلعة لا كالولاية، فيتلبس بها ويتجمل بحسب ما يكون ذلك الحال دلّ على منزلته، والحال قد تكون ابتداء وقد تكون عن عمل متقدم وبينهما فرقان، وإن كان الحال موهوباً على

كل وجه، ولكن الناس على قسمين: منهم من تتقدم له خدمة فيقال: إنه مستحق لما خلع عليه. ومنهم من لم يتقدم له ذلك فتكون المنة والعناية به أظهر لأنه لا يعرف له سبب مع أن الأحوال كلها مواهب والمقامات استحقاق الرسل.

ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار رسوله الذي ورثه إذ كان العلماء ورثة الأنبياء، فيرى عيسىٰ عند احتضاره أو موسىٰ أو إبراهيم أو محمداً أو أي نبيّ كان على جميعهم السلام، فمنهم من ينطق باسم ذلك النبيّ الذي ورثه عندما يأتيه فرحاً به لأن الرسل كلهم سعداء، فيقول عند الاحتضار عيسىٰ أو يسميه المسيح كما سمّاه الله وهو الأغلب فيسمع الحاضرون بهذا الولي يتلفظ بمثل هذه الكلمة فيسيؤون الظن به وينسبونه إلى أنه تنصر عند الموت وأنه سلب عنه الإسلام، أو يسمّى موسىٰ أو بعض أنبياء بني إسرائيل فيقولون: إنه تهود وهو من أكبر السعداء عند الله، فإن هذا المشهد لا تعرفه العامة بل يعرفه أهل الله من أرباب الكشوف، وإن كان ذلك الأمر الذي هو فيه اكتسبه من دين محمد ﷺ، ولكن ما ورث منه هذا الشخص إلاّ أمراً مشتركاً كان لنبي قبله وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] فلما كانت الصورة مشتركة جلى الحق له صاحب تلك الصورة في النبي الذي كانت له تلك الصفة التي شاركه فيها محمد ﷺ مثل قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [سور طٰه، الآية ١٤] وذلك ليتميز هذا للشخص بظهور من ورثه من الأنبياء عمّن ورث غيره، فلو تجلى في صورة محمدية التبس عليه الشخص الذي ورث محمداً ﷺ فيما اختصّ به دون غيره من الرسل الملك.

ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار صورة الملك الذي شاركه في المقام فإنهم الصافون، ومنهم المسبحون، ومنهم التالون، إلى ما هم عليه من المقامات، فينزل إليه الملك صاحب ذلك المقام مؤنساً وجليساً تستنزله عليه تلك المناسبة، فربما يسميه عند الموت ويرى من المحتضر تهمماً به وبشاشة وفرحاً وسروراً، وما وصفنا في هذا الاحتضار إلاّ أحوال الأولياء الخارجين عن حكم التلبيس ما ذكرنا من أحوال العامة من المؤمنين فإن ذلك مذاق آخر، وللأولياء هذا الذي نذكره خاصة، فلذلك ما نتعرض لما يطرأ من المحتضر من العامة ممّا يكره رؤيته ويتمعر وجهه ليس ذلك مطلوبنا، ولا يرفع بذلك رأساً أهل الله، وإن تعرض لهم فإنهم عارفون بما يرونه.

أسماء الأفعال: ومنهم من يتجلى له عند الموت هجيره من الأسماء الإلهية، فإن كان من أسماء الأفعال كالخالق بمعنى الموجد والباري والمصوّر والرزاق والمحيي وكل اسم يطلب فعلاً فهو بحسب ما كان عليه في معاملته معه ظهر له بما يناسب ذلك العمل فيراه في أحسن صورة فيقول له: من أنت يرحمك الله؟ فيقول: هجيرك، وسيأتي ذكر الهجيرات من هذا الكتاب في باب أحوال الأقطاب من آخره إن شاء الله.

أسماء الصفات: فإن كان هجيره كل اسم يستدعي صفة كمال كالحي والعالم والقادر والسميع والبصير والمريد فإن هذه الأسماء كلها أسماء المراقبة والحيا، فهم أيضاً بحسب ما

كانوا في حال حياتهم عند هذه الأذكار من طهارة النفوس عن الأعراض التي تتخلل هذه النشأة الإنسانية التي لا يمكن الانفكاك عنها، وليس لها دواء إلاَّ الحضور الدائم في مشاهدة الوجه الإلهي الذي له في كل كون عرضي وغير عرضي.

أسماء النعوت: فإن كان هجيره أسماء النعوت وهي أسماء النسب كالأوّل والآخر وما جرى هذا المجرى فهو فيها بحسب ما يقوم به من علم الإضافات في ذكره ربه بمثل هذه الأسماء فيعرفه أن لها عيناً وجودياً كمثبتي الصفات أو لا عين لها.

أسماء التنزيه: ومنهم من يتجلى له عند الاحتضار أسماء التنزيه كالغني، فإن كان مثل هذا الاسم هجيره في مدة عمره فهو فيه بحسب شهوده هل يذكره بكونه غنياً عن كذا ويذكره غنياً حميداً من غير أن يخطر له عن كذا وكذا فيما يماثله من أسماء التنزيه سواء.

أسماء الذات: ومنهم من كان هجيره الاسم الله أو هو، والهو أرفع الأذكار عندهم كأبي حامد. ومنهم من يرى أنت أتم وهو الذي ارتضاه الكتاني مثل قوله: يا حيّ يا قيوم يا لا إله إلاَّ أنت. ومنهم من يرى أنا أتم وهو رأي أبي يزيد فإذا احتضر من هذا ذكره فهو بحسب اعتقاده في ذلك من نسبة تلك الكناية من توهم تحديد وتجريد عن تحديد. ومنهم من يرى أن التجريد والتنزيه تحديد ومن المحال أن يعقل أمر من غير تحديد أصلاً فإنه لا يخلو إمّا أن يعقل داخلاً أو خارجاً أو لا داخل ولا خارج، أو هو عين الأمر لا غيره وكل هذا تحديد، فإن كل مرتبة قد تميزت عن غيرها بذاتها ولا معنى للحد إلاَّ هذا، وهذا القدر كاف. انتهى الجزء العاشر ومائة.

(الجزء الحادي عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع والسبعون ومائة

في معرفة مقام المعرفة

[نظم: السريع]

مَن ارتَقَى في دَرَجِ المَعْرِفَهْ	رأى الذي في نَفْسه مِنْ صِفَهْ
لأنها دلَّتْ على واحدٍ	للفَرْق بين العِلْم والمَعْرِفهْ
لها وجودٌ في وجودِ الذي	أرسله الحقُّ وما كَلَّفَهْ
فهو إمامُ الوقت في حالِهِ	ويشتهي الواقفُ أن يعرِفَهْ
تَجري على الحِكْمة أحكامُه	في الرُّتْبَة العالية المُشْرفَهْ

اعلم أن المعرفة نعت إلهيّ لا عين لها في الأسماء الإلهية من لفظها، وهي أحدية المكانة لا تطلب إلاَّ الواحد، والمعرفة عند القوم محجة، فكل علم لا يحصل إلاَّ عن عمل وتقوى وسلوك فهو معرفة لأنه عن كشف محقق لا تدخله الشبه، بخلاف العلم الحاصل عن

النظر الفكري لا يسلم أبداً من دخول الشبه عليه والحيرة فيه والقدح في الأمر الموصل إليه. واعلم أنه لا يصحّ العلم لأحد إلاً لمن عرف الأشياء بذاته، وكل من عرف شيئاً بأمر زائد على ذاته فهو مقلد لذلك الزائد فيما أعطاه، وما في الوجود من علم الأشياء بذاته إلاً واحد، وكل ما سوى ذلك الواحد فعلمه بالأشياء وغير الأشياء تقليد، وإذا ثبت أنه يصحّ فيما سوى الله العلم بشيء إلاً عن تقليد فلنقلد الله ولا سيما في العلم به، وإنما قلنا لا يصحّ العلم بأمر ما فيما سوى الله إلاً بالتقليد، فإن الإنسان لا يعلم شيئاً إلاً بقوّة ما من قواه التي أعطاه الله وهي الحواس والعقل، فالإنسان لا بدّ أن يقلد حسّه فيما يعطيه وقد يغلط وقد يوافق الأمر على ما هو عليه في نفسه، أو يقلد عقله فيما يعطيه من ضرورة أو نظر، والعقل يقلد الفكر ومنه صحيح وفاسد فيكون علمه بالأمور بالاتفاق فما ثم إلاً تقليد.

وإذا كان الأمر على ما قلناه فينبغي للعاقل إذا أراد أن يعرف الله فليقلده فيما أخبر به عن نفسه في كتبه وعلى ألسنة رسله، وإذا أراد أن يعرف الأشياء فلا يعرفها بما تعطيه قواه، وليسع بكثرة الطاعات حتى يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فيعرف الأمور كلها بالله ويعرف الله بالله إذ ولا بدّ من التقليد، وإذا عرفت الله بالله والأمور كلها بالله لم يدخل عليك في ذلك جهل ولا شبهة ولا شك ولا ريب، فقد نبهتك على أمر ما طرق سمعك، فإن العقلاء من أهل النظر يتخيلون أنهم علماء بما أعطاهم النظر والحسّ والعقل وهم في مقام التقليد لهم، وما من قوّة إلاً ولها غلط قد علموه، ومع هذا غالطوا أنفسهم وفرّقوا بين ما يغلط فيه الحسّ والعقل والفكر وبين ما لا يغلط فيه، وما يدريهم لعل الذي جعلوه غلطاً يكون صحيحاً، ولا مزيل لهذا الداء العضال إلاً من يكون علمه بكل معلوم بالله لا بغيره، وهو سبحانه عالم بذاته لا بأمر زائد، فلا بدّ أن تكون أنت عالماً بما يعلمه به سبحانه لأنك قلدت من يعلم ولا يجهل ولا يقلد في علمه، وكل من يقلد سوى الله فإنه قلد من يدخله الغلط وتكون إصابته بالاتفاق.

فإن قيل لنا: ومن أين علمت هذا وربما دخل لك الغلط وما تشعر به في هذه التقسيمات وأنت فيها مقلد لمن يغلط وهو العقل والفكر؟ قلنا: صدقت ولكن لما لم نر إلاً التقليد ترجح عندنا أن نقلد هذا المسمّى برسول والمسمّى بأنه كلام الله، وعلمنا عليه تقليداً حتى كان الحق سمعنا وبصرنا، فعلمنا الأشياء بالله وعرفنا هذه التقاسيم بالله، فكان إصابتنا في تقليد هذا بالاتفاق لأنا قلنا مهما أصاب العقل أو شيء من القوىٰ أمراً ما على ما هو عليه في نفسه إنما يكون بالاتفاق، فما قلنا إنه يخطىء في كل حال، وإنما قلنا لا نعلم خطأه من إصابته، فلما كان الحق جميع قواه وعلم الأمور بالله عند ذلك علم الإصابة في القوىٰ من الغلط وهذا الذي ذهبنا إليه ما يقدر أحد على إنكاره فإنه يجده من نفسه، فإذا تقرّر هذا فاشتغل بامتثال ما أمرك الله به من العمل بطاعته ومراقبة قلبك فيما يخطر فيه والحياء من الله والوقوف عند حدوده والانفراد به وإيثار جنابه حتى يكون الحق جميع قواك فتكون على بصيرة من أمرك وقد نصحتك، إذ قد رأينا الحق أخبر عن نفسه بأمور تردها الأدلة العقلية والأفكار الصحيحة مع إقامة أدلتها على تصديق المخبر ولزوم الإيمان بها، فقلد ربك إذ ولا بدّ من

التقليد، ولا تقلد عقلك في تأويله، فإن عقلك قد أجمع معك على التقليد بصحة هذا القول إنه عن الله، فما لك منازع منك يقدح فيما عندك، فلا تقلد عقلك في التأويل، واصرف علمه إلى الله قائله، ثم اعمل حتى تنزل في العلم به كهو، فحينئذ تكون عارفاً، وتلك المعرفة المطلوبة والعلم الصحيح ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

وبعد أن تقرّر هذا فلنرجع إلى الطريقة المعهودة في هذا الباب التي بأيدي الناس من أهله، فإن هذه الطريقة التي نبهناك عليها طريقة غريبة فنقول: إن المحاسبي ذكر أن المعرفة هي العلم بأربعة أشياء: الله والنفس والدنيا والشيطان. والذي قال رسول الله ﷺ إن المعرفة بالله ما لها طريق إلاّ المعرفة بالنفس فقال: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وقال: «**أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّهِ**» فجعلك دليلاً، أي جعل معرفتك بك دليلاً على معرفتك به، فإمّا بطريقة ما وصفك بما وصف به نفسه من ذات وصفات وجعله إياك خليفة نائباً عنه في أرضه. وإمّا بما أنت عليه من الافتقار إليه في وجودك. وأما الأمران معاً لا بدّ من ذلك، ورأينا الله يقول في العلم بالله المعبر عنه بالمعرفة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فأحالنا الحق على الآفاق وهو ما خرج عنا وعلى أنفسنا وهو ما نحن عليه وبه، فإذا وقفنا على الأمرين معاً حينئذ عرفناه وتبين لنا أنه الحق فدلالة الله أتم، وذلك أنا إذا نظرنا في نفوسنا ابتداء لم نعلم هل يعطي النظر فيما خرج عنا من العالم وهو قوله في الآفاق علماً بالله ما لا تعطيه نفوسنا أو كل شيء في نفوسنا، فإذا نظرنا في نفوسنا حصل لنا من العلم به ما يحصل للناظر في الآفاق، فأما الشارع فعلم أن النفس جامعة لحقائق العالم فجمعك عليك حرصاً منه كما قال فيه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] حتى تقرب الدلالة فتفوز معجلاً بالعلم بالله فتسعد به.

وأما الحق فذكر الآفاق حذراً عليك ممّا ذكرناه أن تتخيل أنه قد بقي في الآفاق ما يعطي من العلم بالله ما لا تعطيه نفسك فأحالك على الآفاق، فإذا عرفت عين الدلالة منه على الله نظرت في نفسك فوجدت ذلك بعينه الذي أعطاك النظر في الآفاق أعطاك النظر في نفسك من العلم بالله، فلم تبق لك شبهة تدخل عليك لأنه ما ثم إلاّ الله وأنت وما خرج عنك وهو العالم، ثم علمك كيف تنظر في العالم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] لآية ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وكل آية طلب منك فيها النظر في الآيات كما قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] ويتفكرون، ويسمعون، ويفقهون، وللعالمين وللمؤمنين، ولأولي النهى، ولأولي الألباب.

لما علم أنه سبحانه خلق الخلق أطواراً فعدّد الطرق الموصلة إلى العلم به، إذ كل طور لا يتعدّى منزلته بما ركب الله فيه، فالرسول عليه السلام ما أحالك إلاّ على نفسك لما علم أنه سيكون الحق قواك فتعلمه به لا بغيره فإنه العزيز والعزيز هو المنيع الحمى، ومن ظفر به غيره فليس بمنيع الحمى فليس بعزيز، فلهذا كان الحق قواك، فإذا علمته وظفرت به يكون ما علمه

ولا ظفر به إلاَّهو فلا يزول عنه نعت العزّة وهكذا هو الأمر، فقد سدّ باب العلم به إلاَّ منه ولا بدّ، ولهذا ينزّهه العقل ويرفع المناسبة من جميع الوجوه ويجيء الحق فيصدقه في ذلك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] يقول لنا صدق العقل فإنه ﴿أَعْطَىٰ﴾ ما في قوته لا يعلم غير ذلك فإني أعطيت ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ والعقل من جملة الأشياء فقد أعطيناه خلقه وتمّم الآية فقال: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين، فبين سبحانه أمراً لم يعطه العقل ولا قوّة من القويّ، فذكر لنفسه أحكاماً هو عليها لا يقبلها العقل إلاَّ إيماناً أو بتأويل يردّها تحت إحاطته لا بدّ من ذلك.

فطريقة السلامة لمن لم يكن على بصيرة من الله أن لا يتأوّل ويسلم ذلك إلى الله على علمه فيه هذه طريقة النجاة، فالحق سبحانه يصدق كل قوّة فيما تعطيه فإنها وفت بجميع ما أعطاها الله وبقي للحق من جانب الحق ذوق آخر يعلمه أهل الله وهم أهل القرآن أهل الله وخاصته فيعتقدون فيه كل معتقد، إذ لا يخلو منه تعالىٰ وجه في كل شيء هو حق ذلك الوجه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان إلهاً، ولكان العالم يستقل بنفسه دونه وهذا محال، فخلوّ وجه الحق عن شيء من العالم محال، وهذه المعرفة عزيزة المنال فإنها تؤدي إلى رفع الخطأ المطلق في العالم، ولا يرتفع الخطأ الإضافي وهو المنسوب إلى مقابله فهو خطأ بالتقابل وليس بخطأ مع عدم التقابل، فالكامل من أهل الله من نظر في كل أمر على حدة حتى يرى خلقه الذي أعطاه الله ووفاه إياه، ثم يرى ما بين الله لعباده ممّا خرج عن خلق كل شيء فينزل موضع البيان من قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ موضعه وينزل كل خلق على ما أعطاه خالقه، فمثل هذا لا يخطىء ولا يخطىء بإطلاق في الأصول والفروع، فكل مجتهد مصيب إن عقلت في الأصول والفروع وقد قيل بذلك.

وبعد أن تقرّر ما ذكرناه فلنقل إن المعرفة في طريقنا عندنا لما نظرنا في ذلك فوجدناها منحصرة في العلم بسبعة أشياء، وهو الطريق التي سلكت عليه الخاصة من عباد الله: الواحد: علم الحقائق وهو العلم بالأسماء الإلهية. الثاني: العلم بتجلي الحق في الأشياء. الثالث: العلم بخطاب الحق عباده المكلفين بألسنة الشرائع. الرابع: علم الكمال والنقص في الوجود. الخامس: علم الإنسان نفسه من جهة حقائقه. السادس: علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل. السابع: علم الأدوية والعلل. فمن عرف هذه السبع المسائل فقد حصل المسمّى معرفة، ويندرج في هذا ما قاله المحاسبيّ وغيره في المعرفة.

العلم الأوّل: وهو العلم بالحقائق، وهو العلم بالأسماء الإلهية وهي على أربعة أقسام: قسم يدل على الذات وهو الاسم العلم الذي لا يفهم منه سوى ذات المسمّى لا يدل على مدح ولا ذم، وهذا قسم لم نجده في الأسماء الواردة علينا في كتابه ولا على لسان الشارع إلاَّ الاسم الله وهو اسم مختلف فيه. وقسم ثان وهو يدل على الصفات وهو على قسمين: قسم يدل على أعيان صفات معقولة يمكن وجودها، وقسم يدل على صفات إضافية لا وجود لها في الأعيان. وقسم ثالث وهو يدل على صفات أفعال وهو على قسمين: صريح ومضمن.

وقسم رابع مشترك يدل بوجه على صفة فعل مثلاً، وبوجه على صفة تنزيه. أما علم الأسماء الإلهية وهو العلم الأوّل من المعرفة فهو العلم بما تدل عليه ممّا جاءت له وهو في هذه الأقسام التي قسمناها حتى نبينها في هذا الباب إن شاء الله، والعلم أيضاً بخواصها والكلام فيه محجور على أهل الله العارفين بذلك لما في ذلك من كشف أسرار وهتك أستار، وتأبى الغيرة الإلهية إظهار ذلك، بل أهل الله مع معرفتهم بذلك لا يستعملونها مع الله، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ أعلم الناس بها وبإجابة الله تعالىٰ من دعاه بها لما هي عليه من الخاصية في علم الله بها، وقد دعاه رسول الله ﷺ في أمّته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعه ذلك ولم يجبه وإن كان قد عوضه فمن باب آخر وهو أن كل دعاء لا يرد جملة واحدة وإن عوقب صاحبه، ولكن يرد ما دعا به خاصة إذا دعا فيما لا يقتضيه خاصية ذلك الاسم، وأجاب دعاء بلعام بن باعورا في موسىٰ عليه السلام وقومه لما دعاه بالاسم الخاص بذلك وهو قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٥] فلم يكن له من الاسم إلاَّ حروفه فنطق بها ولهذا قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فكانت في ظاهره كالثوب على لابسه وكما تنسلخ الحية من جلدها، ولو كان في باطنه لمنعه الحياء والمقام من الدعاء على نبيّ من الأنبياء وأجيب لخاص الاسم وعوقب وجعل مثله كمثل الكلب ونسي حروف ذلك الاسم.

فلو أن رسول الله ﷺ يدعو بالاسم الخاص ويستعمله لأجابه الله في عين ما سأل مع علمنا بأنه علم علم الأوّلين والآخرين وأنه أعلم الناس، فعلمنا أن دعاءه لم يكن بخاص الاسم وتأدّب وسبب ذلك الأدب الإلهي، فإنه لا يعلم ما في نفس الله كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] فلعل ذلك الذي يدعوه فيه ما له فيه خيرة فعدلوا عليهم السلام إلى الدعاء فيما يريدون من الله بغير الاسم الخاص بذلك المراد، فإن كان لله في علمه فيه رضى وللداعي فيه خيرة أجاب في عين ما سئل فيه، وإن لم يكن عوض الداعي درجات أو تكفيراً في سيئات، ومعلوم عند الخاص والعام أن ثم إسماً عاماً يسمى الاسم الأعظم وهو في آية الكرسي وأوّل سورة آل عمران، ومع علم النبيّ عليه السلام به ما دعا به في ما ذكرناه، ولو دعا به أجابه الله في عين ما سأل فيه، وعلم الله في الأشياء لا يبطل، فلهذا أدّب الله أهله فهذا من علم الأسماء الإلهية.

ومن الأسماء ما هي حروف مركبة، ومنها ما هي كلمات مركبة مثل الرحمن الرحيم هو اسم مركب كبعلبك، والذي هو حروف مركبة كالرحمن وحده. واعلم أن الحروف كالطبائع وكالعقاقير بل كالأشياء كلها، لها خواص بانفرادها، ولها خواص بتركيبها، وليس خواصها بالتركيب لأعيانها ولكن الخاصية لأحدية الجمعية، فافهم ذلك حتى لا يكون الفاعل في العالم إلاَّ الواحد لأنه دليل على توحيد الإله، فكما أنه واحد لا شريك له في فعله الأشياء كذلك سرت الحقيقة في الأفعال المنسوبة إلى الأكوان أنها لا تصدر منها إذا كانت مركبة إلاَّ لأحدية ذلك التركيب، وكل جزء منها على انفراده له خاصية تناقض خاصية المجموع، فإذا اجتمع اثنان فصاعداً أعطى أثراً لا يكون لكل جزء من ذلك المجموع على انفراده كسواد

المداد حدث السواد عن المجموع لأحدية الجمع، وكل جزء على انفراد لا يعطي ذلك السواد، وهكذا تركيب الكلمات كتركيب الحروف.

ومن هنا تعلم أن الحرف الواحد له عمل ولكن بالقصد كما عمل ش في لغة العرب عند السامع أن يشي ثوبه وهو حرف واحد، وق أن يقي نفسه من كذا، وع أن يعي ما سمعه مع كونه حرفاً واحداً. وأما ﴿كُن﴾ فهو من فعل الكلمة الواحدة لا من فعل الحروف وخاصيته في الإيجاد، وله شروط مع هذا يتأدّب أهل الله مع الله، فجعلوا بدله في الفعل بسم الله، وقد استعمله رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وما سمع منه قبل ذلك ولا بعده، وإنما أراد إعلام الناس من علماء الصحابة بمثل هذه الأسرار بذلك، فالذي نذكر في هذا الباب العلم بما ذكرناه من أقسام الأسماء الإلهية أسماء الذات التي هي كالأعلام، فلا أعرف بيد العالم في كتاب ولا سنّة منها شيئاً إلاَّ الاسم الله في مذهب من لا يرى أنه مشتق من شيء، ثم إنه مع الاشتقاق الموجود فيه هل هو مقصود للمسمّى أو ليس بمقصود للمسمّى كما يسمّى شخصاً بيزيد على طريق العلمية وإن كان هو فعلاً من الزيادة ولكن ما سميناه به لكونه يزيد وينمو في جسمه وفي علمه، وإنما سميناه به لنعرفه ونصيح به إذا أردناه، فمن الأسماء ما يكون بالوضع على هذا الحدّ، فإذا قيلت على هذا فهي أعلام كلها، وإذا قيلت على طريق المدح إن كانت من أسماء المدح فهي أسماء صفات على الحقيقة، ومن شأن الصفة أنها لا يعقل لها وجود إلاَّ في موصوف بها لأنها لا تقوم بنفسها، سواء كان لها وجود عيني أو إضافي لا وجود له في عينه، فهي تدل على الموصوف بها بطريق المدح أو الذمّ وبطريق الثناء، وبهذا وردت الأسماء الحسنى الإلهية في القرآن، ونعت بها كلها ذاته سبحانه وتعالىٰ من طريق المعنى، وكلمة الله من طريق الوضع اللفظي، فالظاهر أن الاسم الله للذات كالعلم ما أريد به الاشتقاق وإن كانت فيه رائحة الاشتقاق كما يراه بعض علماء هذا الشأن من أصحاب العربية.

وأما أسماء الضمائر فإنها تدل على الذات بلا شك وما هي مشتقة مثل: هو، وذا، وأنا، وأنت، ونحن، والياء من إني، والكاف من إنك، فلفظة هو اسم ضمير الغائب، وليست الضمائر مخصوصة بالحق بل هي لكل مضمر، فهو لفظ يدل على ذات غائبة مع تقدم كلام يدل عليه عند السامع، وإن لم يكن كذلك فلا فائدة فيه، ولذلك لا يجوز الإضمار قبل الذكر إلاَّ في ضرورة الشعر لما يتقيد به الشاعر من الأوزان وأنشدوا في ذلك: جزى ربه عني عدي بن حاتم. فأضمر قبل الذكر فإنه أراد أن يقول: جزى عني عدي بن حاتم ربه فلم يتزن فقدّم الضمير من أجل الوزن ومن الضمائر لفظة ذا وهي من أسماء الإشارة مثل قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٢] وكذلك لفظة ياء المتكلم مثل قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] وكذلك لفظة أنت وتاء المخاطب مثل قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] ولفظة نحن ولفظ إنا مشدّدة ولفظة نا مثل قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] وكذلك حرف كاف الخطاب: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: الآية ٨] فهذه كلها أسماء ضمائر وإشارات وكنايات تعمّ كل مضمر ومخاطب ومشار إليه

ومكنى عنه وأمثال هذه، ومع هذا فليست أعلاماً ولكنها أقوى في الدلالة من الأعلام، لأنّ الأعلام قد تفتقر إلى النعوت وهذه لا افتقار لها، وما منها كلمة إلاّ ولها في الذكر بها نتيجة.

وما أحد من أهل الله أهل الأذواق رأيناه نبّه على ذلك في طريق الله للسالكين بالأذكار إلاّ على لفظ هو خاصة وجعلوها من ذكر خصوص الخصوص لأنها أعرف من الاسم الله عندهم في أصل الوضع، لأنها لا تدل إلاّ على العين خاصة المضمرة من غير اشتقاق، وإنما غلبها أهل الله على سائر المضمرات والكنايات لكونها ضمير غيب مطلق عن تعلّق العلم بحقيقته، وقالوا: إن لفظة هو ترجع إلى هويته التي لا يعلمها إلاّ هو، فاعتمدوا على ذلك ولا سيما الطائفة التي زعمت أنه لا يعلم نفسه تعالىٰ الله عن ذلك وما علمت الطائفة أن غير لفظة هو في الذكر أكمل في المرتبة مثل الياء من أني، والنون من نزلنا، ولفظة نحن، فهؤلاء أعلى مرتبة في الذكر من هو في حق السالك لا في حق العارف، فلا أرفع من ذكر هو عند العارفين في حقهم، وكما هي عندهم أعلى في الرتبة من لفظة هو كذلك هي أعلى من أسماء الخطاب مثل كاف المخاطب وتائه وأنت، فإنه لا يقول أني وأنا ونحن إلاّ هو عن نفسه، فمن قالها به فهو القائل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فنتيجته أعظم لأن الذكر يعظم بقدر عظم علم الذاكر ولا أعلم من الله، وباقي أسماء الضمائر مثل هو وذا وكاف الخطاب هي من خواص عين المشار إليه، فهي أشرف من الهو، ومع هذا فما أحد من أهل الله سنّ الذكر بها كما فعلوا بلفظة هو، فلا أدري هل منعهم من ذلك عدم الذوق لهذا المعنى وهو الأقرب فإنهم ما جعلوها ذكراً، فإن قالوا: فإنها تطلب التحديد. قلنا: فذلك سائغ في جميع المضمرات، ونحن نقول بالذكر بذلك كله مع الحضور على طريق خاص.

وقد ورد في الشرع ما يقوي ما ذهبنا إليه من ذلك قوله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» وقوله عن الله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسانَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» والحق بلا شك هو القائل بالنون وأنا وأنا ونحن وأني فلنذكره بها نيابة عنه، أو نذكره به لأنه الذاكر بها على لساني، فهو أتم في الحضور بالذكر وأقرب فتحاً للوقوف على ما تدل عليه. ولهذه الأسماء أيضاً أعني المضمرات خواص في الفعل لم أر أحداً يعرف منها من أهل الله إلاّ لفظة هو، فإذا قلت هو كان هو، وإن لم يكن هو عند قولك هو ولكن يكون هو عند قولك هو، وكذلك ما بقي من أسماء الإضمار، فاعلم ذلك فإنه من أسرار المعرفة بالله ولا يشعر به ولا نبّه أحد عليه من أهل الله غيرة وبخلاً أو خوفاً لما يتعلق به من الحظر لما يظهر فيه من تكوين الله عند لفظة هو من العبد، إذ كان الله يقولها على لسان عبده آية ذلك من كتاب الله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِيۖ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فإن تكوين الله بلفظ هو من العبد هو ظهوره في مظهر خاص في ذلك الوقت، إذ لا يظهر غيره ولا قال هو إلاّ هو فهو أظهر نفسه، فهو الظاهر المظهر والباطن المبطن والعزيز المعزّ والغنيّ المغني، فقد نبهتك على سر هذا الذكر بهذا الاسم، وعلى هذا تأخذ جميع أسماء الضمائر والإشارات والكنايات، ولكن الطهارة والحضور والأدب والعلم بهذه الأمور لا بدّ منه حتى تعرف من تذكر، وكيف تذكر، وممن يذكر، وبمن تذكر، والله خير الذاكرين له ولك.

القسم الثاني: من علم الأسماء الإلهية. وهذا القسم ينقسم قسمين: العلم بأسماء صفات المعاني مثل الحيّ وهو اسم يطلب ذاتاً موصوفة بالحياة والعلم يسمّى الموصوف به عالماً، والقادر للموصوف بالقدرة، والمريد للموصوف بالإرادة، والسميع والبصير والشكور للموصوف بالسمع والبصر والكلام، وهذه كلها معان قائمة بالموصوف أو نسب على خلاف ينطلق عليه منها أسماء، ولها أحكام في الموصوف بها، وتلك الأسماء وإن كانت تدل على ذات موصوفة بصفة تسمّى علماً وقدرة ولكن لها مراتب كمن قام به العلم يسمّى عالماً وعليماً وعلاّماً وخبيراً ومحصياً ومحيطاً، هذه كلها أسماء لمن وصف بالعلم، ولكن مدلول كونه عالماً خلاف مدلول كونه عليماً وخبيراً، يفهم من ذلك ما لا يفهم من العالم، فإن عليماً للمبالغة فيفهم منه ما لا يفهم من العالم، فإن من يعلم أمراً ما من المعلومات يسمّى عالماً، ولا يسمّى عليماً ولا علاماً إلاّ إذا تعلّق علمه بمعلومات كثيرة وخبير التعلّق العلم بعد الإبتلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وكذا المحصي يتعلق بحصر المعلومات من وجه يصح فهو تعلق خاص يطلبه العلم، وكذلك المحيط له تعلق خاص وهو العلم بحقائق المعلومات الذاتية والرسمية واللفظية، وما يتناهى منها أنه متناه، وما لا يتناهى منها أنه غير متناه، فقد أحاط به علماً أنه لا يتناهى، فإن هنا زلت طائفة كبيرة من أهل العلم، وهكذا تأخذ جميع الصفات كالقادر والمقتدر والقاهر كل ذلك تطلبه القدرة وبين هذه الأسماء فرقان وإن كانت الصفة الواحدة تطلبها فإن القاهر في مقابلة المنازع، والقهار في مقابلة المنازعين، والقادر في مقابلة القابل للأثر فيه مع كونه معدوماً في عينه ففيه ضرب من الامتناع وهي مسألة مشكلة، لأنّ تقدم العدم للممكن قبل وجوده لا يكون مراداً ولا هو صفة نفسية للممكن فهذا هو الإشكال فينبغي أن يعلم.

والمقتدر لا يكون إلاّ في حال تعلّق القدرة بالمقدور لأنه تعمل في تعلّق القدرة بالمقدور لإيجاد عينه كالمكتسب والكاسب، فقد بان لك الفرقان بين الأسماء وإن كانت تطلب صفة واحدة ولكن بوجوه مختلفة، إذ لا يصحّ الترادف في العالم لأن الترادف تكرار وليس في الوجود تكرار جملة واحدة للاتساع الإلهيّ فاعلم ذلك.

وما وجدنا في الشرع للكلام اسماً إلهياً إلاّ الشكور والمجيب، فالكلام ما وجدنا اسماً من لفظ اسمه في الشرع، وكذلك الإرادة ليس لها اسم في علمي من لفظ اسمهما غير أن من أسمائها من جهة معناها أسماء الأفعال فإنه قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] ولها تعلّق صعب التصوّر وهو إرادته أن يقول وليس قوله من الأفعال ولا هو نسبة عدمية ولا صفة عدمية، وكذلك يتصوّر في القدرة أيضاً، وذلك أن يقال الحق قادر أن يكلم عباده بما شاء، فهنا علم ينبغي أن يعرف، وذلك أن الله أدخل تعلّق إرادته تحت حكم الزمان فجاء بإذا وهي من صيغ الزمان فقال: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] والزمان قد يكون مراداً ولا يصحّ فيه إذاً لأنه لم يكن بعد فيكون له حكم، فعلم هذا من علوم غامض الأسماء الإلهية.

ثم اعلم أن الذي يعتمد عليه أهل الله تعالىٰ في أسمائه سبحانه هي ما سمّي به نفسه في

كتبه أو على ألسنة رسله. وأما إذا أخذناها من الاشتقاق أو على جهة المدح فإنها لا تحصى كثرة والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] وورد في الصحيح: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» وما قدرنا على تعيينها من وجه صحيح، فإن الأحاديث الواردة فيها كلها مضطربة لا يصحّ منها شيء، وكل اسم إلهيّ يحصل لنا من طريق الكشف أو لمن حصل فلا نورده في كتاب وإن كنا ندعو به في نفوسنا لما يؤدّي إليه ذلك من الفساد في المدعين الذين يفترون على الله الكذب وفي زماننا منهم كثير. ولما فحصنا عن الحفاظ لم نر أحداً اعتنى بها مثل الحافظ أبي محمد علي بن سعيد بن حزم الفارسي، وغاية ما وصلت إليه قدرته ما أذكره من الأسماء الحسنى هذا مبلغ إحصائه فيها من الطرق الصحاح على ما حدثناه علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الفرياني عن أبي محمد عبد الحق بن عبد الله الأزدي الإشبيلي، وحدثناه عبد الحق إجازة وغيرواحد ما بين سماع وقراءة وإجازة عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينيّ عن أبي محمد علي بن حزم الفارسي قال: إنما تؤخذ ـ يعني الأسماء ـ من نص القرآن ومّما صحّ عن النبيّ ﷺ، وقد بلغ إحصاؤنا ما نذكره وهي:

الله، الرحمٰن، الرحيم، العليم، الحكيم، الكريم، العظيم، الحليم، القيوم، الأكرم، السلام، التوّاب، الرب، الوهاب، الأقرب، سميع، مجيب، واسع، العزيز، الشاكر، القاهر، الآخر، الظاهر، الكبير، الخبير، القدير، البصير، الغفور، الشكور، الغفار، القهار، الجبار، المتكبر، المصوّر، البر، المقتدر، الباري، العليّ، الغنيّ، الوليّ، القويّ، الحيّ، الحميد، المجيد، الودود، الصمد، الأحد، الواحد، الأوّل، الأعلى، المتعال، الخالق، الخلاّق، الرزاق، الحق، اللطيف، الرؤوف، العفوّ، الفتاح، المتين، المبين، المؤمن، المهيمن، الباطن، القدوس، الملك، المليك، الأكبر، الأعزّ، السيد، السبوح، الوتر، المحسان، الجميل، الرفيق، المسعر، القابض، الباسط، الشافي، المعطي، المقدم، المؤخر، الدهر.

فهذا الذي روينا عن أشياخنا عن أشياخهم عنه في إحصائه، وعندنا من القرآن أسماء أخر جاءت مضافة وهي عندنا من الأسماء وليست عنده من الأسماء وكذلك في الأخبار، ومن أراد أن يقف على أسماء الله تعالىٰ على الحقيقة فلينظر في قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] وعلى الحقيقة فما في الوجود إلاّ أسماؤه، ولكن حجبت عيون البصائر عن العلم بها أعيان الأكوان فإنه سبحانه الواقي لا غيره فهو المحتجب بكل واق وشبه هذا فهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١] وجاعل الملائكة رسلاً، وجاعل الليل سكناً، وجاعل في الأرض خليفة، ونور السموات والأرض، وقيام السموات والأرض، وهو الصبور، وقابل التوب، والسريع الحساب، وشديد العقاب، ورفيع الدرجات، وذو العرش، وذو المعارج، وقد رميت بك على الطريق، فهذا قسم الصفات الدالة على المعاني والنسب والإضافات كالأوّل والآخر والظاهر والباطن.

القسم الثالث: وهو أسماء الأفعال وهي صريح كالمصوّر ومضمن مثل قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وأسماء الأفعال كلها أسماء الإرادة.

القسم الرابع: أسماء الاشتراك كاسمه المؤمن والرب، فالمؤمن المصدّق، والمؤمن معطي الأمان، والرب المالك، والرب المصلح، والرب السيد، والرب المربي، والرب الثابت، فإذا حصل بيدك اسم من الأسماء الإلهية فانظر في أية مرتبة هو من هذه المراتب فادع به من حيث مرتبته لا تخرجه عنها جملة واحدة، ولا تغفل عن دلالته على الذات التي لها هذه النعوت كلها تكن أحديّ العين في عين الكثرة فتكون الواحد الكثير، فإن المراتب والحقائق تطلب الأسماء لمن هي صفاته، حتى إذا دعى بها زهت وعلمت أنّ الله بها عناية حيث أطلق عليه من أحكامها أسماء، وحيث جعل ذاته محلاً لأحكامها، فالحلم معنى معقول يطلق منه اسم على من ظهر فيه حكمه وهو الحليم مع المقدرة والمتجاوز والصفوح والعفوّ، وكذلك مرتبة الكرم معنى معقول يطلق منه اسماً على من ظهر منه حكمه كالكريم والمعطي والجواد والوهاب والمنعم، وهكذا تأخذ جميع الأسماء على حد ما أشرت إليك ولا تتعد بها مراتبها، مع علمك أنه ليس في أسماء الله ترادف وأنها كلها متباينة، فهذا قد أبنت لك عن العلم الأوّل من المعرفة الذي لأهل الله مجملاً مع نبذ من التفصيل فتفهم ذلك.

النوع الثاني من علوم المعرفة وهو علم التجلي: اعلم أن التجلي الإلهيّ دائم لا حجاب عليه، ولكن لا يعرف أنه هو، وذلك أن الله لما خلق العالم أسمعه كلامه في حال عدمه وهو قوله: ﴿كُن﴾ وكان مشهوداً له سبحانه، ولم يكن الحق مشهوداً له، وكان على أعين الممكنات حجاب العدم لم يكن غيره فلا تدرك الموجود وهي معدومة كالنور ينفر الظلمة، فإنه لا بقاء للظلمة مع وجود النور كذلك العدم والوجود، فلما أمرها بالتكوين لإمكانها واستعداد قبولها سارعت لترى ما ثم لأن في قوّتها الرؤية كما في قوّتها السمع من حيث الثبوت لا من حيث الوجود، فعندما وجد الممكن انصبغ بالنور فزال العدم وفتح عينيه فرأى الوجود الخير المحض فلم يعلم ما هو، ولا علم أنه الذي أمره بالتكوين، فأفاده التجلي علماً بما رآه لا علماً بأنه هو الذي أعطاه الوجود، فلما انصبغ بالنور التفت على اليسار فرأى العدم فتحققه فإذا هو ينبعث منه كالظل المنبعث من الشخص إذا قابله النور فقال: ما هذا؟ فقال له النور من الجانب الأيمن: هذا هو أنت فلو كنت أنت النور لما ظهر للظل عين فأنا النور وأنا مذهبه، ونورك الذي أنت عليه إنما هو من حيث ما يواجهني من ذاتك، ذلك لتعلم أنك لست أنا، فأنا النور بلا ظل وأنت النور الممتزج لإمكانك، فإن نسبت إليّ قبلتك وإن نسبت إلى العدم قبلك، فأنت بين الوجود والعدم، وأنت بين الخير والشر، فإن أعرضت عن ظلّك فقد أعرضت عن إمكانك، وإذا أعرضت عن إمكانك جهلتني ولم تعرفني، فإنه لا دليل لك على أني إلهك وربك وموجدك إلاّ إمكانك وهو شهودك ظلك، وإن أعرضت عن نورك بالكلية ولم تزل مشاهداً ظلّك لم تعلم أنه ظل إمكانك وتخيلت أنه ظلّ المحال، والمحال والواجب متقابلان من جميع الوجوه، فإن دعوتك لم تجبني ولم تسمعني، فإنه يصمك ذلك المشهود عن دعائي، فلا تنظر إليّ نظراً يفنيك عن ظلك فتدّعي أنك أنا فتقع في الجهل، ولا تنظر إلى ظلّك نظراً يفنيك عني فإنه يورثك الصمم فتجهل ما خلقتك له فكن تارة وتارة، وما خلق الله

لك عينين إلاّ لتشهدني بالواحدة وتشهد ظلّك بالعين الأخرى، وقد قلت لك في معرض الامتنان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: الآية ٨ ـ ١٠] أي بيّنا له الطريقين: طريق النور والظل ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] فإن العدم المحال ظلمة، وعدم الممكن ظل لا ظلمة، ولهذا في الظل راحة الوجود.

واعلم أن التجلي الأوّل الذي حصل للممكن عندما اتصف بالوجود وانصبغ بالنور هو التجلي للأرواح النورية التي ليست لها هذه الهياكل المظلمة، ولكن لها ظل إمكانها الذي لا يبرح فيها، وهي وإن كانت نوراً بما انصبغت به فظلها فيها لا ظهور له عليها وحكمه فيها لا يزول، وهذه المرتبة كان يريد أن يكون بها رسول الله ﷺ إذ كان يقول في دعائه: «**اللهمّ اجعلني نوراً**» ثم بعد هذا التجلي الإبداعي الذي هيّم بعض الأرواح النورية تجلّ تجلياً لبعض هذه الأرواح المبدعة، فعلم منه في هذا التجلي جميع المراتب التي تظهر عنه في عالم الأنوار والظلم واللطائف والكثائف والبسائط والمركبات والجواهر والأعراض والأزمنة والأمكنة والإضافات والكيفيات والكميات والأوضاع والفاعلات والمنفعلات إلى يوم القيامة. وأنواع العالم ومبلغها مائتا ألف مرتبة وسبع آلاف مرتبة وستمائة مرتبة، وقام هذا العدد من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها، ثم أضيف إليها ثمانية وسبعون ألفاً فكان المجموع ما ذكرناه، وهو علم العقل الأوّل وعمر العالم من حين ولي النظر فهي هذا المفعول الإبداعي وما قبل ذلك فمجهول لا يعلمه إلاّ الله تعالىٰ.

فلما علم العقل من هذا التجلي هذه المراتب وهي علومه كان من جملة ذلك انبعاث النفس الكلية عنه وهي أوّل مفعول انبعاثي وهي ممتزجة بين ما انفعل عنها وبين ما انفعلت عنه، فالذي انفعلت عنه نور، والذي انفعل عنها ظلمة وهي الطبيعة، فظهر ظل النفس في ظاهرها ممّا يلي جانب الطبيعة، لكن لم يمتدّ عنها ظلّها كما يمتدّ عن الأجسام الكثيفة، وانتقش فيها جميع ما للعقل من العلوم التي ذكرناها. ولها وجه خاص إلى الله لا علم للعقل به فإنه سرّ الله الذي بينه وبين كل مخلوق لا تعرف نسبته ولا يدخل تحت عبارة ولا يقدر مخلوق على إنكار وجوده فهو المعلوم المجهول، وهذا هو التجلي في الأشياء المبقي أعيانها. وأما التجلي للأشياء فهو تجلّ يفني أحوالاً ويعطي أحوالاً في المتجلى له، ومن هذا التجلي توجد الأعراض والأحوال في كل ما سوى الله، ثم له تجلّ في مجموع الأسماء فيعطي في هذا التجلي في العالم المقادير والأوزان والأمكنة والأزمان والشرائع وما يليق بعالم الأجسام وعالم الأرواح والحروف اللفظية والرقمية وعالم الخيال. ثم له تجلّ آخر في أسماء الإضافة خاصة كالخالق وما أشبهه من الأسماء، فيظهر في العالم التوالد والتناسل والانفعالات والاستحالات والأنساب، وهذه كلها حجب على أعيان الذوات الحاملات لهذه الحجب عن إدراك ذلك التجلي الذي لهذه الحجب الموجد أعيانها في أعيان الذوات، وبهذا القدر تنسب الأفعال للأسباب ولولاها لكان الكشف فلا يجهل ولكن كما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩].

ووقوع خلاف المعلوم محال، فبالتجلي تغيّر الحال على الأعيان الثابتة من الثبوت إلى الوجود، وبه ظهر الانتقال من حال إلى حال في الموجودات، وهو خشوع تحت سلطان التجلي، فله النقيضان يمحو ويثبت ويوجد ويعدم، وقد بيّن الله لنا ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] فنقله من حال الشموخ إلى حال الخشوع والاندكاك. وقال ﷺ في الحديث الذي صحّحه الكشف: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ**» فالله متجلّ على الدوام، لأن التغيرات مشهودة على الدوام في الظواهر والبواطن والغيب والشهادة والمحسوس والمعقول فشأنه التجلي، وشأن الموجودات التغيير بالانتقال من حال إلى حال، فمنا من يعرفه ومنا من لا يعرفه، فمن عرفه بعده في كل حال، ومن لم يعرفه أنكره في كل حال. ثبت في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال: «**الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**» فأثنى عليه على كل حال لأنه المعطي بتجليه كل حال، وأوضح من هذا في التبليغ ما يكون مع إقامة الحدود وإنكار ما ينبغي أن ينكر، فإن المنكر بالتغيير أنكر ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] أحوال إلهية في أعيان كيانية بأسماء نسبية عينتها تغييرات كونية، فتجلى إحدى العين في أعيان مختلفة الكون فرأت صورها فيه فشهد العالم بعضه بعضاً في تلك العين، فمنه المناسب وهو الموافق، ومنه غير المناسب وهو المخالف، فظهرت الموافقة والخلاف في أعيان العالم دنيا وآخرة، لأنه لا تزال أعيان العالم تبصر بعضها بعضاً في تلك العين المنجلية، فتنعكس أنوارها عليها بما تكتسبه من تلك العين، فيحدث في العالم ما يحدث دنيا وآخرة عن أثر حقيقة تلك العين لما تعلقت بها أبصار العالم، كالمرآة تقابل الشمس فينعكس ضوءها على القطن المقابل لانعكاس النور فيحدث فيه الحرق، هذا عين ما يظهر في العالم من تأثير بعضه في بعض من شهود تلك العين، فالمؤثر روحاني والذي تأثّر طبيعيّ، وما من شيء تكون له صورة طبيعية في العالم إلاّ ولها روح قدسي، وتلك العين لا تنحجب أبداً، فالعالم في حال شهود أبداً، والتغيير كائن أبداً، لكن الملائم وغير الملائم وهو المعبر عنه بالنفع والضرر، فهذا علم التجلي من أحد أقسام المعرفة إن لم يحصل للإنسان مع بقية إخوانه فليس بعارف ولا حصل له مقام المعرفة.

النوع الثالث من المعرفة: وهو العلم بخطاب الحق عباده بألسنة الشرائع. اعلم وفّقك الله أن ما عدا الثقلين من كل ما سوى الله على معرفة بالله ووحي من الله وعلم بمن تجلّى له مفطور على ذلك سعيد كله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فعمَّ، ثم فصل ليبين للناس ما نزل إليهم فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: الآية ٢٤] يقول: وما هم قليل يعني أنهم كثير فهو قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] وسبب ذلك أن وكّله من حيث نفسه الناطقة الموجودة بين الطبيعة والنور بما جعل الله فيها من الفكر ليكتسب به المعرفة بالله تعالىٰ اختياراً من الله وأعطاها العقل كما أعطى

سائر الموجودات، وأعطاه صفة القبول وعشقه بالقوّة المفكّرة لاستنباط العلوم من ذاته لتظهر فيه قوّة إلهية، فإنه يحب الرياسة والظهور والشفوف على أبناء جنسه لاشتراكهم في ذلك، ثم لما أعطاهم القوّة المفكرة نصب لهم علامات ودلائل تدل على الحدوث لقيامها بأعيانهم، ونصب لهم دلائل وعلامات تدل على القدم الذي هو عبارة عن نفي الأوّلية عن وجوده.

وتلك الدلائل بأعيانها هي التي نصبها للدلالة على الحدوث، فسلبها عن الذات القديمة المسماة الله هو الدليل ليس غير ذلك، فللأدلة وجهان وهي عين واحدة يدل ثبوتها على حدوث العالم وسلبها على موجد العالم، فلما نظر بهذا النظر وقال: عرفت الله بما نصبه من الأدلة على معرفتنا بنا وبه وهي الآيات المنصوبة في الآفاق وفي أنفسنا حتى يتبين لنا أنه الحق وقد تبين، وهو الذي عبرنا عنه بالتجلي، فإن التجلي إنما هو موضوع للرؤية وذلك قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فذكر الرؤية والآيات للتجلي، فيتبين لهم أنه الحق يعني ذلك التجلي الذي رأوه علامة أنه علامة على نفسه، فيتبين لهم أنه الحق المطلوب ولهذا تمّم فقال في الآية عينها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يعني أن يكون دليلاً على نفسه، وأوضح الدلالات دلالة لشيء على نفسه بظهوره، فلما حصلت لعقولهم هذه المعرفة بالتنزيه عمّا نسبوه إلى ذوات العالم وهو دليل واحد العين متردّد في الدلالة بين سلب لمعرفة الله وبين إثبات لمعرفة العالم أقام الحق لهذا الجنس الإنساني شخصاً ذكر أنه جاء إليهم من عند الله برسالة يخبرهم بها فنظروا بالقوّة المفكرة فرأوا أن الأمر جائز ممكن فلم يقدموا على تكذيبه ولا رأوا علامة تدل على صدقه، فوقفوا وسألوه: هل جئت إلينا بعلامة من عنده حتى نعلم أنك صادق في رسالتك؟ فإنه لا فرق بيننا وبينك، وما رأينا لك أمراً تميزت به عنا وباب الدعوى مفتوح، ومن الدعوى ما يصدق ومنها ما لا يصدق، فجاء بالمعجزة فنظروا فيها نظر إنصاف وهي بين أمرين: الواحد أن تكون مقدورة لهم فيدعي الصرف عنها مطلقاً فلا تظهر إلاّ على يدي من هو رسول إلى يوم القيامة هذا إذا كانت معجزة لا آية فقط، فإن المعجزات نصبت للخصم الألد الفاقد نور الإيمان. والأمر الآخر أن تكون المعجزة خارجة عن مقدور البشر بالحسّ والهمة معاً، فإذا أتى بأحد هذين الأمرين وتحققه الناظر دليلاً آمن برسالته وصدقه في مقالته وأخباره عن ربه إذا كانت الدلالة على المجموع بحسب ما وقعت به الدعوى، ولا يمكن في ذوق طريقنا تصديقه مع الدلالة إلاّ بتجلّ إلهيّ لقلبه من اسمه النور، فإذا انصبغ باطنه بذلك النور صدقه فذلك نور الإيمان، وغيره لم يحصل عنده من ذلك النور شيء مع علمه بأنه صادق من حيث الدلالة لا من حيث النور المقذوف في القلب فجحد مع علمه وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: الآية ١٤] ودونهم في هذه الرتبة من قيل فيه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] فذلك نور العلم به لا نور الإيمان، فلما صدقه من صدقه وأظهر صدقه واعتمد على عقله حيث قاده إلى الحق ولم يحصل له ضوء من نور الإيمان يستضيء به وما علم أنه بذلك النور صدقه لا بنور علمه الذي هو عند من جحده مع علمه بصدق دعواه، فلما اعتمد على عقله هذا المصدق وجاء آخر من

المصدقين به أيضاً كشف الله له عن نور إيمانه ونور علمه فكان نوراً على نور.

وجاء ثالث ما عنده من نور العلم النظري شيء ولا يعرف موضع الدلالة من تلك الآية المعجزة وقذف الله في قلبه نور الإيمان فآمن وصدق وليس معه نور علم نظري ولكن فطرة سليمة وعقل قابل وهيكل منور بعيد من استعمال الفكر فسارع في القبول، فقعد هؤلاء الثلاثة الأصناف بين يدي هذا الرسول الذي صدقوه، فأخذ الرسول يصف لهم مرسله الحق تعالىٰ ليعرفهم به المعرفة التي ليست عندهم ممّا كانوا قد أحالوا مثل ذلك على الحق تعالىٰ وسلبه عنه أهل الأدلة النظرية، وأثبتوا تلك الصفات للمحدثات دلالة على حدوثها، فلما سمعوا ما تنكره الأدلة العقلية النظرية وتردّه افترقوا عند ذلك على فرق، فمنهم من ارتدّ على عقبه وشكّ في دليله الذي دلّه على صدقه وأقام له في ذلك الدليل شبهات قادحة فيه صرفته عن الإيمان والعلم به فارتدّ على عقبه. ومنهم من قال: إن في جمعنا هذا من ليس عنده سوى نور الإيمان ولا يدري ما العلم ولا ما طريقه وهذا الرسول لا نشك في صدقه وفي حكمته ومن الحكمة مراعاة الأضعف، فخاطب هذا الرسول بهذه الصفات التي نسبها إلى ربه أنه عليها هذا الضعيف الذي لا نظر له في الأدلة وليس عنده سوى نور الإيمان رحمة به لأنه لا ينبت له الإيمان إلاّ بمثل هذا الوصف، وللحق أن يصف نفسه بما شاء على قدر عقل القابل، وإن كان في نفسه على خلاف ذلك، واتكل هذا المخبر بهذا الوصف، والمراعي حق هذا الأضعف على ما يعرفه من علمنا به وتحققه من صدقنا فيه ووقوفنا مع دليلنا فلا يقدح شيء من هذا فيما عندنا، إذ قد عرفنا مقصود هذا الرسول بالأمر، فثبتوا على إيمانهم مع كونهم أحالوا ما وصف الرسول به ربه في أنفسهم وأقرّوه حكمة واستجلاباً للأضعف.

وفرقة أخرى من الحاضرين قالوا: هذا الوصف يخالف الأدلة ونحن على يقين من صدق هذا المخبر وغايتنا في معرفتنا بالله سلب ما نسبناه لحدوثها، فهذا أعلم بالله منا في هذه النسبة فنؤمن بها تصديقاً له ونكل علم ذلك إليه وإلى الله، فإن الإيمان بهذا اللفظ ما يضرنا، ونسبة هذا الوصف إليه تعالىٰ مجهولة عندنا لأن ذاته مجهولة من طريق الصفات الثبوتية والسلب فما يعول عليه والجهل بالله هو الأصل، فالجهل بنسبة ما وصف الحق نفسه به في كتابه أعظم، فلنسلم ولنؤمن على علمه بما قاله عن نفسه.

وفرقة أخرى من الحاضرين قالوا: لا نشك في دلالتنا على صدق هذا المخبر وقد آتانا في نعت الله الذي أرسله إلينا بأمور إن وقفنا عند ظاهرها وحملناها عليه تعالىٰ كما نحملها على نفوسنا أدّى إلى حدوثه وزال كونه إلهاً وقد ثبت فننظر هل لها مصرف في اللسان الذي جاء به، فإن الرسول ما أرسل إلاّ بلسان قومه، فنظروا أبواباً ممّا يؤول إليها ذلك الوصف ممّا يقتضي التنزيه وينفي التشبيه، فحملوا تلك الألفاظ على ذلك التأويل. فإذا قيل لهم في ذلك: أي شيء دعاكم إلى ذلك؟ قالوا: أمران القدح في الأدلة فإنا بالأدلة العقلية أثبتنا صدق دعواه ولا نقبل ما يقدح في الدلالة العقلية فإن ذلك قدح في الدلالة على صدقه. والأمر الآخر قد قال لنا هذا الصادق إن الله الذي أرسله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ووافق

الأدلة العقلية فتقوى صدقه عندنا بمثل هذا. فإن قلنا ما قاله في الله على الوجه الذي يعطيه ظاهر اللفظ ونحمله عليه كما نحمله على المحدثات ضللنا فأخذنا في التأويل إثباتاً للطريقين.

وفرقة أخرى وهي أضعف الفرق لم يتعدّوا حضرة الخيال وما عندهم علم بتجريد المعاني ولا بغوامض الأسرار ولا علموا معنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولا قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] وهم واقفون في جميع أمورهم مع الخيال، وفي قلوبهم نور الإيمان والتصديق وعندهم جهل باللسان، فحملوا الأمر على ظاهره ولم يردّوا علمه إلى الله فيه، فاعتقدوا نسبة ذلك النعت إلى الله مثل نسبته إلى نفوسهم. وما بعد هذه الطائفة طائفة في الضعف أكثر منها فإنهم على نصف الإيمان حيث قبلوا نعت التشبيه ولم يعقلوا نعوت التنزيه من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

والفرقة الناجية من هؤلاء الفرق المصيبة للحق هي التي آمنت بما جاء من عند الله على مراد الله وعلمه في ذلك مع نفي التشبيه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذه يا وليّ ألسنة الشرائع في العالم فجاء بالصورة في حق الحق، والعين، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، والرضى، والغضب، والتردّد، والتبشبش، والتعجب، والفرح، والضحك، والملل، والمكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، والسعي، والهرولة، والنزول، والاستواء، والتحديد في القرب، والصبر على الأذى، وما جرى هذا المجرى ممّا هو نعت المخلوقين، ذلك لنؤمن عامة ولنعلم أن التجلي الإلهيّ في أعيان الممكنات أعطى هذه النعوت فلا شاهد ولا مشهود إلاَّ الله، فألسنة الشرائع دلائل التجليات، والتجليات دلائل الأسماء الإلهية، فارتبطت أبواب المعرفة بعضها ببعض، فكل لفظ جاءت به الشريعة فهو على ما جاءت به، لكن عالمنا يعرف بأي لسان تكلم الشرع؟ ولمن خاطب؟ وبمن خاطب؟ وبما خاطب؟ ولمن ترجع الأفعال؟ وإلى من تنسب الأقوال؟ ومن المتقلب في الأحوال؟ ومن قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١ ـ ٣٢] لنقول: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، هذا أراد أن يسمع منا، وقد قلناه والحمد لله.

النوع الرابع من علوم المعرفة: وهو العلم بالكمال والنقص في الوجود. اعلم أنه من كمال الوجود وجود النقص فيه، إذ لو لم يكن لكان كمال الوجود ناقصاً بعدم النقص فيه، قال تعالىٰ في كمال كل ما سوى الله ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فما نقصه شيئاً أصلاً حتى النقص أعطاه خلقه، فهذا كمال العالم الذي هو كل ما سوى الله إلاَّ الله، ثم الإنسان فللّه كمال يليق به وللإنسان كمال يقبله. ومن نقص من الأناسي عن هذا الكمال فذلك النقص الذي في العالم لأن الإنسان من جملة العالم، وما كل إنسان قبل الكمال وما عداه فكامل في مرتبته لا ينقصه شيء بنص القرآن، قال ﷺ فِي الإِنْسَانِ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ، وَمِنَ النِّسَاءِ مَرِيمُ وَآسِيَةُ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ الطَّعَامِ**» فما ظهر في العالم نقص إلاَّ في هذا الإنسان، وذلك لأنه مجموع حقائق العالم وهو المختصر الوجيز والعالم هو المطوّل البسيط، فأما كمال الألوهية فظاهر بالشرائع، وأما بأدلة العقول فلا، فعين ما

يراه العقل كمالاً هو النقص عند الله لو كان كما يقتضيه دليل العقل فجاء العقل بنصف معرفة الله وهو التنزيه وسلب أحكام كثيرة عنه تعالىٰ، وجاء الشارع يخبر عن الله بثبوت ما سلب عنه العقل بدلالته وتقرير ما سلبه عنه، فجاء بالأمرين للكمال الذي يليق به تعالىٰ فحيّر العقول فهذا هو الكمال الإلهيّ، فلو لم يعط الحيرة لما ذكره لكان تحت حكم ما خلق، فإن القوىٰ الحسية والخيالية تطلبه بذواتها لترى موجدها، والعقول تطلبه بذواتها وأدلتها من نفي وإثبات ووجوب وجواز وإحالة لتعلم موجدها، فخاطب الحواس والخيال بتجريده الذي دلّت عليه أدلة العقول والحواس تسمع فحارت الحواس والخيال وقالوا: ما بأيدينا منه شيء، وخاطب العقول بتشبيهه الذي دلّت عليه الحواس والخيال والعقول تسمع فحارت العقول وقالت: ما بأيدينا منه شيء فعلاً عن إدراك العقول والحواس والخيال، وانفرد سبحانه بالحيرة في الكمال فلم يعلمه سواه ولا شاهده غيره فلم يحيطوا به علماً ولا رأوا له عيناً، فآثار تشهد، وجناب يقصد، ورتبة تحمد، وإله منزّه، ومشبه يعبد، هذا هو الكمال الإلهيّ.

وبقي الإنسان متوسط الحال بين كمال الحيرة والحدّ وهو كمال العالم، فبالإنسان كمل العالم، وما كمل الإنسان بالعالم، فلما انحصرت في الإنسان حقائق العالم بما هو إنسان لم يتميز عن العالم إلاّ بصغر الحجم خاصة، وبقيت له رتبة كماله فجميع الموجودات قبلت كمالها، والحق كامل، والإنسان انقسم قسمين: قسم لم يقبل الكمال فهو من جملة العالم غير أنه مجموع العالم جمعية المختصر من الكبير. وقسم قبل الكمال فظهرت فيه لاستعداده الحضرة الإلهية بكمالها وجميع أسمائها، فأقام هذا القسم خليفة وكساه حلّة الحيرة فيه، فنظرت الملائكة إلى نشأة جسده فقالت فيه ما قالت لتنافر حقائقه التي ركب الله فيها جسده، فلما أعلمها الحق بما خلقه عليه وأعطاه إياه حارت فيه فقالت: لا علم لنا والحائر لا علم له، فأعطاه علم الأسماء الإلهية التي لم تسبحه الملائكة بها ولا قدّسته كما قال عليه السلام: «**إِنَّهُ يَحْمَدُ اللَّهَ غَداً فِي القِيَامَةِ عِنْدَ سُؤَالِهِ فِي الشَّفَاعَةِ بِمَحَامِدَ لاَ يَعْلَمُهَا الآنَ يَقْتَضِيهَا المَوْطِنُ**» فإن محامد الله تعالىٰ بحسب ما تطلبها المواطن والنشآت فأعطت نشأة آدم ومن أشبهه من أولاده الأهلية للخلافة في العالم وما كان ذلك لغيرهم، فكان كمال الإنسان بهذا الاستعداد لهذا التجلي الخاص، فظهر بأسماء الحق على تقابلها وأعطاه الحق فيما بيّن له مصارفها، فهو يظهر بما ظهر من استخلفه وهي المسمّى في الخلافة بالحق والعدل، قال الله لداود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فيهوي بمتبعه عن هذه الدرجة التي أهلت لها وأهلت لك ولأمثالك، كما قال أبو العتاهية: [المتقارب]

أتَتْه الخلافةُ مُنقَادةً ... إليه تُجَرِّرُ أذيالَهَا
ولم تَكُ تَصْلُحُ إلاّ لَهُ ... ولم يكُ يَصْلُحُ إلاّ لَهَا
ولو رامَهَا أحدٌ غَيْرُه ... لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا

فإذا أعطى التحكم في العالم فهي الخلافة، فإن شاء تحكم وظهر كعبد القادر الجيلي، وإن شاء سلم وترك التصرف لربه في عباده مع التمكن من ذلك لا بدّ منه كأبي مسعود بن

الشبلي، إلاً أن يقترن به أمر إلهيّ كداود عليه السلام فلا سبيل إلى ردّ أمر الله، فإنه الهوى الذي نهى عن اتباعه، وكعثمان رضي الله عنه الذي لم يخلع ثوب الخلافة عن عنقه حتى قتل لعلمه بما للحق فيه، فإن رسول الله ﷺ نهاه أن يخلع عنه ثوب الخلافة، فكل من اقترن بتحكمه أمر إلهيّ وجب عليه الظهور به ولا يزال مؤيداً، ومن لم يقترن به أمر إلهيّ فهو مخيّر إن شاء ظهر به ظهر بحق وإن شاء لم يظهر فاستتر بحق وترك الظهور أولى، فتلحق الأولياء الأنبياء بالخلافة خاصة ولا يلحقونهم في الرسالة والنبوة فإن بابهما مسدود، فللرسول الحكم فإن استخلف فله التحكّم، فإن كان رسولاً فتحكمه بما شرع، وإن لم يكن رسولاً فتحكمه عن أمر الله بحكم وقته الذي هو شرع زمانه فإنه بالحكم ينسب إلى العدل والجور. انتهى الجزء الحادي عشر ومائة.

(الجزء الثاني عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الخامس من علوم المعرفة: وهو علم الإنسان بنفسه من جهة حقائقه. اعلم أن الإنسان ما أعطى التحكّم في العالم بما هو إنسان وإنما أعطي ذلك بقوة إلهيّة ربانية، إذ لا تتحكم في العالم إلاً صفة حق لا غير وهي في الإنسان ابتلاء لا تشريف، ولو كانت تشريفاً بقيت معه في الآخرة في دار السعداء، ولو كانت تشريفاً ما قيل له: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فحجرت عليه والتحجير ابتلاء والتشريف إطلاق، ولا نسب في التحكم إلى عدل ولا إلى جور، ولا وليّ الخلافة في العالم إلاً أهل الله، بل ولى الله التحكم في العالم من أسعده الله به ومن أشقاه من المؤمنين، ومع هذا أمرنا الحق أن نسمع له ونطيع ولا نخرج يداً من طاعة وقال: فإن جاروا فلكم وعليهم، وهذه حالة ابتلاء لا حالة شرف، فإنه في حركاته فيها على حذر وقدم غرور، ولهذا يكون يوم القيامة على بعض الخلفاء ندامة، فإذا وقف الإنسان على معرفة نفسه واشتغل بالعلم بحقائقه من حيث ما هو إنسان فلم ير فرقاً بينه وبين العالم، ورأى أن العالم الذي هو ما عدا الثقلين ساجد لله فهو مطيع قائم بما تعين عليه من عبادة خالقه ومنشيه طلب الحقيقة التي يجتمع فيها مع العالم، فلم يجد إلاً الإمكان والافتقار والذلة والخضوع والحاجة والمسكنة، ثم نظر إلى ما وصف به الحق العالم كله فرآه قد وصفه بالسجود له حتى ظلّه، ورأى أنه ما وصف بذلك من جنسه إلاً الكثير لا الكل، كما وصف كل جنس من العالم فخاف أن يكون من الكثير الذي حق عليه العذاب، ثم رأى أن العالم قد فطروا بالذات على عبادة الله، وافتقر هذا الإنسان إلى من يرشده ويبين له الطريق المقربة إلى سعادته عند الله لما سمع الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فعبده بالافتقار إليه كما عبد سائر العالم، ثم رأى أن الله قد حدّ له حدوداً ورسم له أموراً ونهاه أن يتعداها وأن يأتي من أمره سبحانه ما استطاع، فتعين عليه العلم بما شرع الله له ليقيم عبادة الله الفرعية كما أقام العبادة الأصلية، فإن العبادة الأصلية هي التي تطلبها ذوات

الممكنات بما هي ممكنات، والعبادات الفرعية هي أعمال يفتقر فيها العبد إلى إخبار إلهيّ من حيث ما يستحقه سيده وما تقتضيه عبوديته، فإذا علم أمر سيده ونهيه ووفى حق سيده تعالىٰ وحق عبودته فقد عرف نفسه، وكل من عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه عبده بأمره، فما ثم من جمع بين العبادتين: عبادة الأمر وعبادة النهي إلاَّ الثقلان فإن الأرواح الملكية لا نهي عندها، ولهذا قال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ولم يذكر لهم نهي، وقال في عبادتهم الذاتية: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٨] ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فإن حقيقة نشأتهم تعطي ذلك، فهذه هي العبادة الذاتية، وهي عبادة سارية في كل ما سوى الله.

ولما كان الإنسان مجموع حقائق العالم كما قلنا وعرف نفسه من جهة حقائقه تعين عليه أن يقوم وحده من حيث هو بعبادة جميع العالم، وإن لم يفعل فما عرف نفسه من جهة حقائقه لأنها عبادة ذاتية، وصورة معرفته بذلك أن يشاهد جميع حقائقه كلها في عبادتها كشفاً كما هي عليه في نفسها سواء كوشف بذلك أو لم يكاشف، فهذا الذي أريده بالعلم بحقائقه أي عن الكشف، فإذا شاهدها لم يتمكن له مخالفة أمر سيده فيما أمر به من عبادته بالوقوف عند حدوده ومراسمه فيما دخل فيه وفيما خرج عنه، فإذا قال: سبحان الله بكله على ما رسمنا انتقش في جوهر نفسه جميع ما قاله العالم كله من حيث تلك التسبيحة، وهذه هي النفس الزكية التي تسمي لسان العالم بحيث لو صحّ أن يتعطل شيء من العالم في عبادة ربه لقام هذا العبد العارف بهذا القدر مقامه فيما فرط فيه وسدّ مسده لو تصور هذا، ويجازي هذا العبد من جانب الحق بهذا القدر وهو مجازاة الأصغر بجائزة الأكبر يقول: لو قدرنا العالم كله ما سوى الإنسان غفل عن عبادة الله طرفة عين وكان هذا الإنسان ذاكر الله قائماً بحقه في تلك اللحظة ناب مناب العالم وسدّ مسده، فجوزي بجزاء العالم كله، وإن كان لا يتصور من العالم غفلة فإنه ليس من أهل الغفلة إلاَّ الثقلان خاصة، فانظر ما أعطاك العلم بنفسك وبما أنت عليه من حقائق الكون.

النوع السادس من علوم المعرفة: وهو علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل. وهذا ركن عظيم من أركان المعرفة، وهذا هو علم البرزخ، وعلم عالم الأجساد التي تظهر فيها الروحانيات، وهو علم سوق الجنة، وهو علم التجلي الإلهي في القيامة في صور التبدّل، وهو علم ظهور المعاني التي لا تقوم بنفسها مجسدة مثل الموت في صورة كبش، وهو علم ما يراه الناس في النوم، وعلم الموطن الذي يكون فيه الخلق بعد الموت وقبل البعث وهو علم الصور، وفيه تظهر الصور المرئيات في الأجسام الصقيلة كالمرآة، وليس بعد العلم بالأسماء الإلهية ولا التجلي، وعمومه أتم من هذا الركن فإنه واسطة العقد إليه تعرج الحواس وإليه تنزل المعاني وهو لا يبرح من موطنه، تجبى إليه ثمرات كل شيء، وهو صاحب الإكسير الذي تحمله على المعنى فيجسده في أي صورة شاء لا يتوقف له النفوذ في التصرف والحكم تعضده الشرائع وتثبته الطبائع، فهو المشهود له بالتصرف التام، وله التحام المعاني بالأجسام، يحير الأدلة والعقول، فلنبينه إن شاء الله في هذا الفصل بأوجز ما يمكن وأبلغ، والله الموفق لا رب غيره.

اعلموا يا إخواننا أنه ما من معلوم كان ما كان إلاَّ وله نسبة إلى الوجود بأي نوع كان من أنواع الوجود فإنه على أربعة أقسام: فمنها معلوم يجمع مراتب الوجود كلها. ومنها معلوم يتصف ببعض مراتب الوجود ولا يتصف ببعضها، وهذه المراتب الأربعة التي للوجود منها الوجود العيني وهو الموجود في نفسه على أي حقيقة كان من الاتصاف بالدخول والخروج أو بنفيهما فيكون مع كونه موجوداً في عينه لا داخل العالم ولا خارج لعدم شرط الدخول والخروج وهو التحيّز وليس ذلك إلاَّ لله خاصة، وأما ما هو من العالم قائم بنفسه غير متحيز كالنفوس الناطقة والعقل الأول والنفس والأرواح المهيمنة والطبيعة والهباء، وأعني بهذه كلها أرواحها، فكل ذلك داخل في العالم، إلاَّ أنه لا داخل أجسام العالم ولا خارج عنها فإنها غير متحيزات.

والمرتبة الثانية: الوجود الذهني وهو كون المعلوم متصوراً في النفس على ما هو عليه في حقيقته، فإن لم يكن التصور مطابقاً للحقيقة فليس ذلك بوجود له في الذهن.

والمرتبة الثالثة: الكلام وللمعلومات وجود في الألفاظ وهو الوجود اللفظي، ويدخل في هذا الوجود كل معلوم حتى المحال والعدم فإن له الوجود اللفظي، فإنه يوجد في اللفظ، ولا يقبل الوجود العيني أبداً أعني المحال، وأما العدم فإن كان العدم الذي يوصف به الممكن فيقبل الوجود العيني، وإن كان العدم الذي هو المحال فلا يقبل الوجود العيني.

والمرتبة الرابعة: الوجود الكتابي وهو الوجود الرقمي، وهو نسبته إلى الوجود في الخط أو الرقم أو الكتابة، ونسبة المعلومات كلها من المحال وغير المحال نسبة واحدة، فهذا المحال وإن كان لا يوجد له عين فله نسبة وجود في اللفظ والخط، فما ثم معلوم لا يتصف بالوجود بوجه، وسبب ذلك قوّة الوجود الذي هو أصل الأصول وهو الله تعالىٰ، إذ به ظهرت هذه المراتب وتعينت هذه الحقائق، وبوجوده عرف من يقبل مراتب الوجود كلها ممّن لا يقبلها، فالأسماء متكلماً بها كانت أو مرقومة ينسحب وجودها على كل معلوم، فيتصف ذلك المعلوم بضرب من ضروب الوجود، فما في العلم معدوم مطلق العدم ليس له نسبة إلى الوجود بوجه ما هذا ما لا يعقل فافهم هذا الأصل وتحققه.

ثم اعلم بعد هذا أن حقيقة الخيال المطلق هو المسمّى بالعماء الذي هو أوّل ظرف قبل كينونة الحق، ورد في الصحيح أنه قيل لرسول الله ﷺ: «**أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ**» وإنما قال هذا من أجل أن العماء عند العرب هو السحاب الرقيق الذي تحته هواء وفوقه هواء، فلما سماه بالعماء أزال ما يسبق إلى فهم العرب من ذلك، فنفى عنه الهواء حتى يعلم أنه لا يشبهه من كل وجه، فهو أوّل موصوف بكينونة الحق فيه، فإنّ للحق على ما أخبر خمس كينونات: كينونة في العماء وهو ما ذكرناه، وكينونة في العرش، وهو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] وكينونة في السماء في قوله: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا**» وكينونة في الأرض وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] وكينونة عامة وهو مع الموجودات على مراتبها

حيثما كانت كما بيّن ذلك في حقنا فقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وكل هذه النسب بحسب ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تشبيه ولا تصوّر بل كما تعطيه ذاته، وما ينبغي أن ينسب إليها من ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يصل أحد إلى العلم ولا إلى الظفر بحقيقته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] الذي نزل لعباده في كلماته، فقرب البعيد في الخطاب لحكمة أرادها تعالىٰ، ففتح الله تعالىٰ في ذلك العماء صور كل ما سواه من العالم، إلاَّ أن ذلك العماء هو الخيال المحقق، ألا تراه يقبل صور الكائنات كلها ويصوّر ما ليس بكائن؟ هذا لاتساعه فهو عين العماء لا غيره، وفيه ظهرت جميع الموجودات وهو المعبر عنه بظاهر الحق في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] ولهذا في الخيال المتصل يتخيل من لا معرفة له بما ينبغي لجلال الله بتصوّره، فإذا تحكم عليه الخيال المتصل فما ظنك بالخيال المطلق الذي هو كينونة الحق فيه وهو العماء؟ فمن تلك القوّة ضبطه الخيال المتصل، ثم جاء الشرع في أماكن يقرر ما ضبطه الخيال المتصل من كينونة الحق في قبلة المصلي وفي مواجهة المصلي إياه فقبله الخيال المتصل وهو من بعض وجوه الخيال المطلق الذي هو الحضرة الجامعة والمرتبة الشاملة، وانتشاء هذا العماء من نفس الرحمن من كونه إلهاً لا من كونه رحماناً فقط، فجميع الموجودات ظهر في العماء بكن أو باليد الإلهية أو باليدين إلاَّ العماء فظهوره بالنفس خاصة، ولولا ما ورد في الشرع النفس ما أطلقناه مع علمنا به، وكان أصل ذلك حكم الحب والحب له الحركة في المحب، والنفس حركة شوقية لمن تعشق به وتعلق له في ذلك التنفس لذة وقد قال تعالىٰ كما ورد: «**كُنتُ كَنزاً لَمْ أُعرَفْ فَأَحبَبْتُ أَنْ أُعرَفَ**» فبهذا الحب وقع التنفس فظهر النفس فكان العماء، فلهذا أوقع عليه اسم العماء الشارع لأنّ العماء الذي هو السحاب يتولد من الأبخرة وهي نفس العناصر لما فيه من حكم الحرارة فلهذا الالتفات سمّاه عماء، ثم نفى عنه الهواء الذي يحيط به كما يحيط بجسم السحاب ويصرّفه الهواء حيث شاء، فنفى أن يكون هذا العماء يتحكم فيه غيره، إذ هو أقرب الموجودات إلى الله الكائن عن نفسه، فلما عمر هذا العماء الخلاء كله الذي هو مكان العالم أو ظرفه، إذ لو انعدم العالم لتبين الخلاء وهو امتداد متوهم في غير جسم، فهذا العماء هو الحق المخلوق به كل شيء، وسمّي الحق لأنه عين النفس والنفس مبطون في المتنفس هكذا يعقل، فالنفس له حكم الباطن، فإذا ظهر له حكم الظاهر فهو الأوّل في الباطن والآخر في الظاهر ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فإنه فيه ظهر كل شيء مسمّى من معدوم يمكن وجود عينه ومن معدوم يوجد عينه.

ثم ظهر في عين هذا العماء أرواح الملائكة المهيمة وما هم ملائكة بل هم أرواح مطهرة، ثم ما زال يظهر فيه صور أجناس العالم شيئاً بعد شيء وطوراً بعد طور إلى أن كمل من حيث أجناسه، فلما كمل بقيت الأشخاص من هذه الأجناس تتكون دائماً تكوين استحالة من وجود إلى وجود لا من عدم إلى وجود، فخلق آدم من تراب، وخلق بني آدم من نطفة وهي الماء المهين، ثم خلق النطفة علقة فلهذا قلنا في الأشخاص إنها مخلوقة من وجود لا من عدم، فإن الأصل على هذا كان وهو العماء من النفس وهو وجود وهو عين الحق

المخلوق به، وأجناس العالم مخلوقون من العماء، وأشخاص العالم مخلوقون من العماء أيضاً. ومن أنواع أجناسه فما خلق شيء من عدم لا يمكن وجوده بل ظهر في أعيان ثابتة وهو قولنا في أوّل هذا الكتاب: الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه عن عدم من حيث أنه لم يكن لها عين ظاهرة، وعدمه وعدم العدم وجود، أي وإن لم يكن لها عين فهذه العين من وجود ظهرت على الحقيقة فأعدمت العدم الأوّل الذي أثبته بنسبة ما، فهو من حيث تلك النسبة ثابت، ومن هذه النسبة الأخرى منفي، وإذا تحققت هذا فإن شئت قلت: هو عن عدم، وإن شئت قلت: هو عن وجود بعد علمك بالأمر على ما هو عليه، ولولا قوّة الخيال ما ظهر من هذا الذي أظهرناه لكم شيء فإنه أوسع الكائنات وأكمل الموجودات، ويقبل الصور الروحانيات وهو التشكل في الصور المختلفة من الاستحالة الكائنة، والاستحالة منها ما فيها سرعة كاستحالة الأرواح صوراً جسدية، والمعاني صوراً جسدية تظهر في كون هذا العماء، وثم استحالات فيها بطء كاستحالة الماء هواء والهواء ناراً والنطفة إنساناً والعناصر نباتاً وحيواناً، فهذه كلها وإن كانت استحالات فما لها سرعة استحالة الصور في القوة المتخيلة في الإنسان وهو الخيال المتصل، ولا في استحالات صور الأرواح في صور الأجسام أجساداً، كالملائكة في صور البشر فإن السرعة هنالك أقوى، وكذا زوالها أسرع من استحالات الأجسام بعد الموت إلى ما تستحيل إليه.

ثم إذا فهمت هذا الأصل علمت أن الحق هو الناطق والمحرك والمسكن والموجد والمذهب، فتعلم أن جميع الصور بما ينسب إليها ممّا هو له خيال منصوب، وأن حقيقة الوجود له تعالىٰ، ألا ترى إلى واضع خيال الستارة ما وضعه إلاً ليتحقق الناظر فيه علم ما هو أمر الوجود عليه فيرى صوراً متعدّدة حركاتها وتصرّفاتها وأحكامها لعين واحدة ليس لها من ذلك شيء، والموجد لها ومحرّكها ومسكنها بيننا وبينه تلك الستارة المضروبة وهو الحدّ الفاصل بيننا وبينه به يقع التمييز فيقال فيه إله، ويقال فينا عبيد وعالم أي لفظ شئت، ثم إن هذا العماء هو عين البرزخ بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود، وبين الأجسام النورية والطبيعة كالعلم والحركة هذا في النفوس وهذه في الأجسام، فتتجسد في حضرة الخيال كالعلم في صورة اللبن، وكذلك تعيين النسب وإن كانت لا عين لها لا في النفس ولا في الجسم كالثبات في الأمر نسبة إلى الثابت فيه يظهر هذا الثبات في صورة القيد المحسوس في حضرة الخيال المتصل، وكالأرواح في صور الأجسام المتشكلة الظاهرة بها كجبريل في صورة دحية، ومن ظهر من الملائكة في صور الذر يوم بدر هذا في الخيال المنفصل وكالعصا والحبال في صور الحيات تسعى كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعني إلى موسىٰ ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ أي من علمهم بما فعلوه ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٦] فأقاموا ذلك في حضرة الخيال، فأدركها موسىٰ مخيلة ولا يعرف أنها مخيلة بل ظن أنها مثل عصاه في الحكم ولهذا خاف فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٨] فالفرقان بين الخيال المتصل والخيال المنفصل أن المتصل يذهب بذهاب المتخيل، والمنفصل حضرة ذاتية قابلة دائماً للمعاني والأرواح فتجسدها

بخاصيتها لا يكون غير ذلك، ومن هذا الخيال المنفصل يكون الخيال المتصل، والخيال المتصل على نوعين: منه ما يوجد عن تخيل، ومنه ما لا يوجد عن تخيل، كالنائم ما هو عن تخيل ما يراه من الصور في نومه، والذي يوجد عن تخيل ما يمسكه الإنسان في نفسه من مثل ما أحسّ به أو ما صورته القوّة المصوّرة إنشاء لصورة لم يدركها الحسّ من حيث مجموعها، لكن جميع آحاد المجموع لا بدّ أن يكون محسوساً، فقد يندرج المتخيل الذي هو صورة الملك في صورة البشر، وهو من الخيال المنفصل في الخيال المتصل فيرفعه في الخيال المتصل وهو خيال بينهما صورة حسية لولاها ما رفع مثالها الخيال المتصل، ومن هذا الباب التجلي الإلهيّ في صور الاعتقادات وهذا ممّا يجب الإيمان به.

خرّج مسلم في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدريّ وهو حديث طويل وفيه: «**حَتَى إذَا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ فَيَأْتِيهِمْ رَبُّ العَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَيَقُولُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إلَيهِم وَلم نُصَاحِبْهُمْ، قَالَ: فيقولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً حَتَىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَن يَنْقَلِبَ فيقولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ آيَةٌ تَعرفُونَهُ بها؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ قَالَ: فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَلا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلاَّ أَذِنَ لَهُ بِالسُّجُودِ، ولاَ يَبْقَى مَنْ كانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إلاَّ جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّما أَرَادَ أَنْ يَسْجُد خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيها أَوّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ قالَ: فَيَقُولُونَ: نَعَمْ أَنْتَ رَبُّنَا**» الحديث، فانظر نظر المنصف في هذا الخبر من تحوّل الحق سبحانه في الصور وهو سبحانه لا غيره، فأنكر في صورة وأقرّ به في صورة والعين واحدة والصور مختلفة، فهذا عين ما أردناه من اختلاف الصور في العماء أعني صور العالم، فالصور بما هي صور هي المتخيلات، والعماء الظاهرة فيه هو الخيال، وفي هذا الحديث شفاء لكل صاحب علة إذا استعمله بالنظر السديد على الإنصاف وطلب الحق، وهكذا تجليه على القلوب وفي أعيان الممكنات فهو الظاهر وهو الصور بما تعطيه أعيان الممكنات باستعداداتها فيمن ظهر فيها، فالممكنات هو العماء، والظاهر فيه هو الحق، والعماء هو الحق المخلوق به، واختلاف أعيان الممكنات في أنفسها في ثبوتها، والحكم لها فيمن ظهر فيها، وهكذا أيضاً تجلّي الحق للنائم في حال نومه ويعرف أنه الحق ولا يشك وكذلك في الكشف، ويقول له عابر الرؤيا: حقاً رأيت وهو في الخيال المتصل فما أوسع حضرة الخيال، وفيها يظهر وجود المحال بل لا يظهر فيها على التحقيق إلاَّ وجود المحال، فإن الواجب الوجود وهو الله تعالىٰ لا يقبل الصور، وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة فقد قبل المحال الوجود الوجود في هذه الحضرة، وفيها يرى الجسم في مكانين، كما رأى آدم نفسه خارجاً عن قبضة الحق فلما بسط الحق يده فإذا فيه آدم وذريته الحديث، فهو في القبضة وهو عينه خارج عن القبضة فلا تقبل هذه الحضرة إلاَّ وجود المحالات. وكذلك الإنسان في بيته نائم ويرى نفسه على صورته المعهودة في مدينة أخرى وعلى حالة أخرى تخالف حاله الذي هو عليها وهو

عينه لا غيره لمن عرف أمر الوجود على ما هو عليه، ولولا هذه الرائحة ما قدر العقلاء على فرض المحال عند طلب الدلالة على أمر ما لأنه لو لم يقبل المحال الوجود في حضرة مّا ما صحّ أن يفرض ولا يقدر فإذا قلت مثل هذا لمن فرضه ينسى بالخاصية حكم ما فرضه ويقول: لا يتصوّر وجود المحال، وهو يفرض وجوده ويحكم عليه بما يحكم على الواقع فلو لم يتصوّره ما حكم عليه، وإذا تصوّره فقد قبل الوجود بنسبة ما فتحقق ما قلناه تجد الحق.

ومن هذا الباب مشاهدة المقتول في سبيل الله في المعركة وهو في نفس الأمر حي يرزق ويأكل يدركه المؤمن بإيمانه والمكاشف ببصره، وكالميت في قبره يشاهده ساكتاً وهو متكلم يسأل ويجيب، فإن قلت لمن يرى هذا إثم إنه خيّل له يقول لك: بل أنت خيل لك أنه ساكت وهو متكلم وخيل لك أنه مضطجع وهو قاعد، ويعضده في قوله الإيمان بالخبر الصحيح الوارد فهو أقوى في الدلالة منك فعينه أتم نظراً من عينك، والكامل النظر الذي هو أكمل من الاثنين يقول لكل واحد: صدقت هو ساكت متكلم مضطجع قاعد مقتول حيّ، وكل صورة مشهودة فيه من الباب الذي ذكرناه، ومن ذلك الصورة في المرآة، وكل جسم صقيل إن كان الجسم الصقيل كبيراً كبرت الصورة المرئية فيه، ثم إذا نظرت إلى الصورة من خارج وجدتها غير متنوعة فيما ظهر فيها من التنوّع بتنوّع المرائي حتى في تموجّ الماء تظهر الصورة متموجة، وكل عين أي كل نظرة تقول للأخرى إنها في مقام الخيال وأن الحق بيدها وتصدق كل نظرة منها، فتعلم قطعاً أن الصورة المرئية في المرائي والأجسام الصقيلة إنما ظهورها في الخيال كرؤية النائم وتشكل الروحاني سواء، وأنها ليست في المرآة ولا في الحسّ، فإنها تخالف صورة الحسّ من حيث تعلّقه الخاص به دون المرآة، وليس في الوجود في الغيب والشهادة إلاّ ما ذكرناه.

وكذلك إدراكات الجنة فاكهتها﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣] مع وجود الأكل وارتفاع الحجر فيأكلها من غير قطع بمجرد القطف وقربه من الشخص وعدم امتناعها من القطف ووجود الأكل، وبقاء العين في غصن الشجرة فتشاهدها غير مقطوعة وتشهدها قطفاً في يدك تأكلها وتعلم، ولا تشك أن عين ما تأكله هو عين ما تشهده في غصن شجرته غير مقطوع. وكذلك سوق الجنة تظهر فيه صور حسان إذا نظر إليها أهل الجنان، فكل صورة يشتهيها دخل فيها فيلبسها ويظهر بها في ملكه ولعينه وهو يراها في السوق ما انفصلت ولا فقدت، ولو اشتهاها كل من في الجنة دخل فيها وهي على حالها في السوق ما برحت، فهذا كله نظير الحقائق كالبياض في كل أبيض بذاته لا أنه انقسم ولا تجزأ بل حقيقة البياضية معقولة ما انتقص منها شيء مع وجودها في كل أبيض، وكذلك الحيوانية في كل حيوان، والإنسانية في كل إنسان، فيعترف بهذا جميع العقلاء وينكرون ما ذكرناه من هذه الأمور في التجلي وغيره، فما جاء من ذلك في الكتاب والسنّة اعترف به المؤمنون وساعدوا أهل الكشف وأنكره أصحاب النظر، وإن قبلوه قبلوه بتأويل بعيد أو بتسليم لمن قاله إذا كان القائل الله أو رسوله، فإن ظهر عنك مثله جهلوك وأنكروا ذلك ونسبوك إلى فساد الخيال فهم يعترفون بما أنكروه فإنهم أثبتوا الخيال وفساده، ولا يدلّ

فساده على عدمه، وإنما هو فساده حيث لم يطابق عنده الصحيح الذي هو صحيح، وسواء عندنا قلت فيه صحيح أو فاسد قد ثبت عينه، وأن تلك الصورة في الخيال فدعها تكون صحيحة أو فاسدة ما أبالي ولم يكن مقصودنا إلاّ إثبات وجود الخيال، لم تتعرّض إلى صحة ما يظهر فيه ولا إلى فساده، فقد ثبت أن الحكم له بكل وجه، وعلى كل حال في المحسوس والمعقول والحواس والعقول، وفي الصور والمعاني، وفي المحدث وفي القديم وفي المحال وفي الممكن وفي الواجب، ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة، وهذا الركن من المعرفة إذا لم يحصل للعارفين فما عندهم من المعرفة رائحة.

ثم إنه ممّا يؤيّد ما ذكرناه أنك لا تشك أنك مدرك لما أدركته أنه حق محسوس لما تعلق به الحسّ، وأن الحديث الوارد عن النبيّ ﷺ في قوله: **«النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»** فنبّه أن ما أدركتموه في هذه الدار هو مثل إدراك النائم بل هو إدراك النائم في النوم وهو خيال، ولا تشك أن الناس في البرزخ بين هذه الدار والدار الآخرة وهو مقام الخيال، فانتباهك بالموت هو كمن يرى أنه استيقظ في النوم في حال نومه فيقول في النوم: رأيت كذا وكذا وهو يظن أنه قد استيقظ، ويعضد هذا الخبر قوله تعالىٰ في حق الميت: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] أي تدرك ما لم تكن أدركته بالموت فهو يقظة بالنسبة لما كنت عليه في حال الحياة الدنيا، ثم إذا بعثت في النشأة الآخرة يقول المبعوث: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا﴾ [سورة يس: الآية ٥٢] فكان كونه في مدة موته كالنائم في حال نومه، مع كون الشارع سمّاه يقظة، وهكذا كل حال تكون فيه لا بدّ لك من الانتقال عنه وتبقى مثل ما كنت عليه في خيالك المتصل وفي قوّة كونه كان على الحقيقة في الخيال المنفصل إذ لو كان حقيقة ما تغيّر ولا انتقل، فإن الحقائق لا تتبدل، وحقيقة الخيال التبدّل في كل حال والظهور في كل صورة فلا وجود حقيقي لا يقبل التبديل إلاّ الله فما في الوجود المحقق إلاّ الله، وأما ما سواه فهو في الوجود الخيالي، وإذا ظهر الحق في هذا الوجود الخيالي ما يظهر فيه إلاّ بحسب حقيقته لا بذاته التي لها الوجود الحقيقيّ، ولهذا جاء الحديث الصحيح بتحوله في الصور في تجليه لعباده وهو قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] فإنه لا يبقى حالة أصلاً في العالم لا كونية ولا إلهية إلاّ وجهه يريد ذاته، إذ وجه الشيء ذاته فلا تهلك أين الصورة التي تحوّل فيها من الصورة التي تحوّل عنها، هذا حظ الصورة التي تحوّل عنها من نسبة الهلاك إليها، فكل ما سوى ذات الحق فهو في مقام الاستحالة السريعة والبطيئة، فكل ما سوى ذات الحق خيال حائل وظل زائل، فلا يبقى كون في الدنيا والآخرة وما بينهما ولا روح ولا نفس ولا شيء ممّا سوى الله، أعني ذات الحق على حالة واحدة بل تتبدل من صورة إلى صورة دائماً أبداً وليس الخيال إلاّ هذا فهذا هو عين معقولية الخيال، انظره في الأصل حيث قال في العماء فشبه بالسحاب والتشبيه تخيل، والعماء هو جوهر العالم كله، فالعالم ما ظهر إلاّ في خيال فهو متخيل لنفسه فهو هو وما هو هو.

وممّا يؤيد ما ذكرناه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى عين ما أثبت أي تخيلت أنك رميت ولا شك أنه رمى ولهذا قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم قال: الرمي صحيح ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة

الأنفال: الآية ١٧] أي ظهرت يا محمد بصورة حق فأصابت رميتك ما لا تصيبه رمية البشر، كما نفخ عيسىٰ في صورة الطير فكان طيراً، فظهر في نفخ عيسىٰ النفخ الإلهيّ وهو قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] والنفخ نفس والعماء عين ذلك النفس فهو نفخ في وجود الحق، فتشكل منه خلق في حق، فكان الحق المخلوق به ما ظهر من صور العالم فيه، وما ظهر من اختلاف التجلي الإلهيّ فيه، وهذا القدر كاف فيما ذهبنا إليه من علم الخيال، وقد تقدّم في هذا الكتاب معرفة الأرض التي خلقت من بقية طينة آدم عليه السلام وهي ما ظهر من صور العالم فيها، فالعلم بتلك الأرض جزء من هذه المسألة.

النوع السابع من المعرفة وهو علم العلل والأدوية. ويحتاج إليه من يربي من الشيوخ، ولا تنفع هذه الأدوية إلاّ فيمن يقبل استعمالها، فإن لم يستعملها العليل فلا يظهر لها أثر، فلنبين إن شاء الله العلل بطريق الحصر لأمهاتها، ثم نذكر الأدوية المختصة بها العلل في هذه الطريقة ليس لها محل إلاّ النفوس خاصة لا حظ للعقول فيها البتة ولا للأبدان، فإن علل العقول معروفة، وعلل الأجسام معروفة، وأدوية علل الأجسام موقوفة على الأطباء، وأدوية علل العقول اتخاذ الخلوات بالميزان الطبيعي، وإزالة التفكّر فيها، ومداومة الذكر ليس غير ذلك، وما بقي لنا الخوض فيه إلاّ علل النفوس وهي ثلاثة أمراض: مرض في الأقوال، ومرض في الأفعال، ومرض في الأحوال. وأما مرض الاعتقادات فهو مرض العقول وقد ذكرناه، فلنذكر أمراض الأقوال، فمنها التزام قول الحق وهو من أكبر الأمراض دواؤه معرفة المواطن التي ينبغي أن يصرفه فيها، فإن الغيبة حق وقد نهى عنها، والنميمة حق وقد نهى عنها، وما يفعله الرجل مع أهله في فراشه إذا أفضى إليها فيقول في ذلك حقاً، وهذا القول من الكبائر والنصيحة في الملأ بالحق حق وهو فضيحة، ولا تقع إلاّ من الجهلاء وأصحاب الأغراض لأن الفائدة المطلوبة من النصيحة حصول المنفعة وثبوت الودّ، فإذا وقع النصح في الملأ لم يحصل القبول وأثمر عداوة وذمّه الله فإنه يخجل بتلك النصيحة في الملأ، ويجعل الشخص الذي خاطبه بالنصح في الملأ يكذب في اعتذاره عن ذلك ويجد عليه فيه، ويكون ذلك سبباً إلى فساد كبير، فلو نصحه في خلوة بطريقة حسنة بأن يظهر له عيب نفسه في نفس الأمر ولا يشعره أنه يقصده بذلك ليعلمه إن كان جاهلاً بقبح ذلك الأمر الذي نصحه فيه شكره في نفسه وأحبه ودعى له وأثمر له الخير وكان في ميزانه فما كل حق مأمور به ولا مستحسن شرعاً ولا عرفاً، وكذلك من يجبه الناس بما يكرهون وإن كان حقاً فإنه يدل على لؤم الطباع والجهل وقلة الحياء من الله فإنه بعيد أن يسلم في نفسه من عيب يكون فيه لا يرضي الله، فلو اشتغل بالنظر في عيبه لشغله ذلك عن عيب غيره، ومن التزم تتبع حركات صاحبه بحيث أن يقيد عليه أنفاسه فهو من أشد الأمراض، فإنه شغل بما لا يعنيه وغفلة عن نفسه والنفس تخزنه عندها في زمان صداقته ليوم مّا وهو لا يشعر، ويحجبه عن هذا الشعور محبته فيه في الوقت، فإذا وجد في نفسه أدنى كراهة في صاحبه أو إعراض لملل أو هفوة صدرت منه في حقه أخرج ما كان عنده مخزوناً من القبائح التي كان خباءها عنده واختزنها له في نفسه في تتبعه فيقول له

في معرض التوبيخ: ألم تقل كذا في يوم كذا؟ ألم تفعل كذا في يوم كذا؟ ثم إذا عدد عليه ما كان اختزنه يقول له: وهذا كله يدل على قلة الدين أو عدم الدين وأنا كنت أرى منك هذا كله وأقول: لعل له في هذا وجهاً ولا وجه لك فيه في الشرع، وهذا خلاف الحق فيسمعه ما يكره وما كان غافلاً عنه، وما كان يعلم أن هذا يحصى عليه أنفاسه ويرجع عليه من أكبر الأعداء، وأصل هذا كله من التتبع لمثالبه واختزانه إياها في خزانة نفسه وذلك لسوء الطبع ودناءة الأصل والفرع، وهذا يوجد في الأصحاب والأصدقاء كثيراً وقد قيل في ذلك: [مجزوء الكامل]

احذَرْ عدوَّكَ مرةً ... واحذَرْ صديقَكَ ألفَ مَرَّةْ
فَلَرُبَّما هَجَرَ الصديـ ... ـقُ فكان أعرفَ بالمَضَرَّةْ

وهذا كله وبال يعود على قائله وإن كان حقاً. ومن أمراض الأقوال السؤال عن أحوال الناس وما يفعلون، ولم جاء فلان؟ ولم مشى فلان؟ والسؤال عن كل ما لا يعني، وسؤاله عن أهله ما فعلوا في غيبته دواه التأسي برسول الله ﷺ في كونه ما أتى أهله من سفره ليلاً ونهيه أصحابه عن ذلك حتى لا يفجأهم فيرى منهزماً يكره، والاستئذان من هذا الباب إبقاء للستر فإنه قد علم أن لكل أحد هنات، وأيضاً فما كل ما يعمله الإنسان وإن كان خيراً يحب أن يعلمه منه كل أحد، فإذا ألحّ هذا السائل عن العلم به أضر بالمسؤول حيث جعله ينطبق بما لا يريده أو يكذب، فإن لم ينطق أثر في نفس السائل حزازة ويقول: لو كنت عنده بمكانة ما ستر عني ما سألته عنه فنقص من خلوص مودته التي كانت له في نفسه، ولو حصلت له تهمة في نفسه تؤدّيه إلى مثل هذا الفعل فليس له ذلك شرعاً ولا عقلاً ولا مروءة، وهذا باب قلّ أن يقع إلاّ من خبيث الباطن لا دين له سيىء السريرة، قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**».

ومن أمراض الأقوال الامتنان والتحدّث بما يفعله من الخير مع الشخص على طريق المن، والمن الأذى دواؤه لما كان يسوءه ذلك ويحبط أجر رب النعمة، فإن الله تعالىٰ قد أبطل ذلك العمل بقوله: ﴿**لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] وأي أذى أعظم من المن فإنه أذى نفسي، ودواؤه أنه لا يرى أوصل إليه ممّا كان في يديه إلاّ ما هو له في علم الله، وأن ذلك الخير إنما كان أمانة بيده ما كان له لكنه لم يكن يعرف صاحبها، فلما أخرجها بالعطاء لمن عين الله في نفس الأمر حينئذ يعرف صاحب تلك الأمانة، فشكر الله على أدائها، ومن أعطى هذا النظر فلا تصحّ منه منة أصلاً.

ومن أمراض الأقوال أيضاً أن يفعل الرجل الخير مع بعض أولاده لأمر في نفسه، وبعض أولاده ما فعل معهم ذلك الخير، فيقول له قائل بحضور من لم يفعل معه ذلك من أولاده: لِمَ لَمْ تفعل مثل ذلك مع هذا الولد الآخر؟ فهذا من فضول الكلام حيث قاله بحضور ولده، ويثمر في نفس الولد عداوة لأبيه، ولا يقع مثل هذا إلاّ من جاهل كثير الفضول فإنها كلمة شيطانية وليس لها دواء بعد وقوعها. وأما قبل وقوعها فدواؤها أن ينظر في قول النبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**» ومن أمراض الأقوال أيضاً أن يقول

الإنسان: أنا أقول الحق ولا أبالي عزّ على السامع ذلك أو لم يعزّ عليه من غير أن ينظر إلى فضول القول ومواطنه، ثم يقول: قلت لفلان الحق وعزّ عليه سماعه ويزكي نفسه ويجرح غيره وينسى قوله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وهو دواء هذه العلة الدواء ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ ولها مواطن وصفة مخصوصة وهو أن يأمره في السرّ لا في الجهر، فإن الجهر علة لا يشعر بها لأنه قد يعطيها لغير الله، ثم قال: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وقول المعروف هو القول في موطنه الذي عينه الله ويرجو حصول الفائدة به في حق السامع فهذا معنى ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ فمن لم يفعل فهو جاهل وإن ادّعى العلم، ثم قال: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] فيعلم أن مراد الله التوادد والتحابب فيسعى في ذلك، وإن لم يجعل الكلام في موضعه أدّى إلى التقاطع والتنافر والتدابر، ثم بعد هذا كله قال في حق المتكلم: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] ولا يكون ذلك إلاّ ممّن يعلم ما يرضي الله ولا يعلم ما يرضي الله إلاّ بالعلم بما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله، فيرى عندما يريد أن ينطق بالأمر هل نطقه به في ذلك الموطن يرضي الله من جميع الوجوه، فإن وجد وجهاً يقدح فيه فالكل غير مقبول وغير مرضي عند الله فإنه لا يحتلم التجزي ولا الانقسام وهذا موضع غلط، ودواءه ما قلنا من العمل المشروع والعلم بما يرضي الله.

ومن أمراض الأقوال أيضاً تغيير المنكر على شخص معين من سلطان وغيره دون أن يعمّ دواءه معرفة الميزان في ذلك وبراءته في نفسه من كل منكر يعلم أن الشرع ينكره عليه في مذهبه واجتهاده لا غير ولا يلزمه ما هو عند غيره منكر وعنده مباح، ثم الذي هو عنده منكر ينظر إلى من يغير عليه ذلك إن كان ممّن هو عنده معروف كالنبيذ عند الحنفيّ المتخذ من التمر إذا رآه يشربه أو يتوضأ به وهو عنده حرام فلا يغيره إلاّ على من يعتقد تحريمه خاصة أو يكون من المنكر المجمع عليه فهذا هو الميزان، وتفاريع الأقوال كثيرة، وحصر عللها وأدويتها في أمرين: الواحد أن تتكلم إذا اشتهيت أن تسكت وتسكت إذا اشتهيت أن تتكلم. والأمر الآخر: أن لا تتكلم إلاّ فيما إن سكت عنه كنت عاصياً وإن لم فلا، وإياك والكلام عندما تستحسن كلامك وتستحليه، فإن الكلام في ذلك الوقت من أكبر الأمراض وما له دواء إلاّ الصمت لا غير إلاّ أن تشهد على رفع الستر، هذا هو الضابط.

وصل: وأما أمراض الأفعال فهو أن يكون أداؤك لذلك الفعل الذي هو عبادة كالصلاة مثلاً في الملأ أحسن من أدائك في السرّ، يقول ﷺ في مثل هذه الفعلة: «**تِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ فِي رَجُلٍ حَسَّنَ صَلاتَهُ فِي المَلإِ وَأَسَاءَهَا فِي الخُلْوَةِ**» وهذا من أصعب الأمراض النفسية ودواءه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٧] وأمثال هذه الآيات والأخبار، ولهذا دواء آخر ولكن يغمض تركيبه، وهو أن ينوي بتحسينه تعليم الجاهل وتذكرة الغافل. ومن الأمراض الفعلية أيضاً ترك العمل من أجل الناس وهو الرياء عند الجماعة، وأما العمل من أجل الناس

فذلك شرك ما هو رياء عند السادة من أهل الله ودواؤه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وما أشبه هذه الآية، فاعلم ذلك.

وصل: وأما أمراض الأحوال فصحبة الصالحين حتى يشتهر في الناس أنه منهم وهو في نفسه مع شهوته، فإن حضروا سماعاً وهو قد تعشق بجارية أو غلام والجماعة لا تعلم بذلك فأصابه وجد وغلب عليه الحال لتعلّقه بذلك الشخص الذي في نفسه فيتحرّك ويصيح ويتنفس الصعداء ويقول: الله الله، أو هو هو، ويشير بإشارات أهل الله، والجماعة تعتقد في حاله أنه حال إلهيّ مع كونه ذا وجد صحيح وحال صحيحة ولكن فمن دوائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] وما أشبه هذه الآية من الأخبار. ومن أمراض الأحوال أيضاً أن يلبس دون ما في نفسه دواؤه أن يلبس ما في نفسه ممّا يحل له لباسه وأمثال هذا، فمن عرف هذه العلل وأدوائها واستعملها مع نفسه نفعها.

حُكي عن الشيخ روزبهار أنه كان قد ابتلي بحب امرأة مغنية وهام فيها وجداً وكان كثير الزعقات في حال وجده في الله بحيث إنه كان يشوش على الطائفين بالبيت في زمن مجاورته فكان يطوف على سطوح الحرم وكان صادق الحال، ولما ابتلي بحب هذه المغنية لم يشعر به أحد، وانتقل حكم ذلك الذي كان عنده بالله بها، وعلم أن الناس يتخيلون فيه أن ذلك الوجد لله على أصله فجاء إلى الصوفية وخلع الخرقة ورمى بها إليهم وذكر للناس قصته وقال: لا أريد أن أكذب في حالي، ولزم خدمة المغنية، فأخبرت المرأة بحاله ووجده بها وأنه من أكابر أهل الله فاستحت المرأة وتابت إلى الله ممّا كانت فيه ببركة صدقه ولزمت خدمته وأزال الله ذلك التعلّق بها من قلبه، فرجع إلى الصوفية ولبس خرقته ولم ير أن يكذب مع الله في حاله، فهكذا صدقهم، فهذا حصر الأمر، فإن الإنسان لا يخلو أن يقام في قول أو فعل أو حال وما ثمَّ رابع، وكذلك صاحب القيام في حال الوجد إذا قام بوجده ثم زال عنه جلس من حينه ولا يتواجد فإن تواجد ولم يقل للحاضرين أنه متواجد فهو صاحب مرض فهذا جماع هذه المسألة، وتفاريع الأقوال والأفعال والأحوال كثيرة فليحذر من الكذب في ذلك وليلزم الصدق ولا يظهر للناس إلاَّ بما يظهر لله في الموطن الذي ينبغي، فإن العلم بحكم الله في تفاصيل هذه الأمور شرط في أهل الله ولا بدّ من ذلك، فما عبد الله من لم يعلم حكمه فإن الله ما اتخذ ولياً جاهلاً، فهذا قد ذكرنا جماع أبواب المعرفة وفصولها التي إذا حصلها الإنسان سمي عارفاً خاصة، فإن زاد على هذا العلم بالله وما يجب له وما يجوز عليه وما يستحيل ويفرق بين علمه بذاته وبين علمه بكونه إلهاً فهذا مقام العلماء بالله لا مقام العارفين، فإن المعرفة محجة وطريق والعلم حجة، والعلم نعت إلهيّ، والمعرفة نعت كيانيّ نفسي ربانيّ، وهذا الباب للمعرفة، غير أن أصحابنا من أهل الله قد أطلقوا على العلماء بالله اسم العارفين، وعلى العلم بالله من طريق الذوق معرفة، وحدّوا هذا المقام بنتايجه ولوازمه التي تظهر عن هذه الصفة في أهلها.

سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، أي هو متخلق بأخلاق الله حتى كأنه هو وما هو هو وهو هو، فالعارف عند الجماعة من أشعر الهيبة نفسه والسكينة وعدم

العلاقة الصارفة عنه، وأن يجعل أوّل المعرفة لله وآخرها ما لا يتناهى، ولا يدخل قلبه حق ولا باطل، وأن توجب له الغيبة عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله ولا يرجع إلى غيره فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأن تكون المعرفة إذا دخلت قلبه تفسد أحواله التي كان عليها بأن تقلبها إليه تعالىٰ لا بأن تعدمها، فإنها عندهم كما قال الله تعالىٰ عن قول بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٤] وعندنا ليس كذلك، بل يجعلوا أعزّة أهلها بالله بعدما كانت بغير الله، وذلتها لله لا لغير الله، فلا حال عندهم للعارف لمحو رسومه وفناء هويته وغيبة أثره، وأنه لا تصحّ المعرفة وفي العبد استغناء بالله، وأن العارف أخرس منقطع مقتطع منقمع عاجز عن الثناء على معروفه، وأنه خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل وإن كان منوّراً لما عرّفه الشارع أن في الموت لقا الله فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقاً إلى ذلك اللقاء، فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق وهابه كل ناظر إذا رأى ذكر الله، وأنه ذو أنس بالله، وأن يكون مع الله بلا فصل ولا وصل، حيي في قلبه، تعظيم قلبه مرآة للحق، حليم محتمل فارغ من الدنيا والآخرة ذو دهش وحيرة، يأخذ أعماله عن الله ويرجع فيها إلى الله، بطنه جائع وبدنه عار، لا يأسف على شيء إذ لا يرى غير الله، طيار تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيع ماله ويقف مع ما للحق لا يشتغل عنه طرفة عين، عرف ربه بربه مهدي في أحواله، لا يلحظه الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق ذو فقر وذلة يورث غنى وعزّة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول استوت عنده الحالات في الفتح فيفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر ذو لوامع يسقط التمييز لا يكدّره شيء، ويصفو به كل شيء تضيء له أنواع العلم فيبصر بها عجائب الغيب، مستهلك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، نعته في تحوّله من صفة إلى صفة دائم لا يتعمّل ولا يجتلب أحيد الوقت يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة أمّعة مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد له وجود في عين فقد، ذو قهر في لطف ولطف في قهر، حق بلا خلق مشاهد قيام الله على كل شيء، فإن عنه به باق معه به غائب عن التكوين حاضر مع المكوّن، صاح بغيره سكران بحبه جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته قابل أمر ربه منزّه عن الشبيه، تجري عليه منه أحكام الشرع في عين الحقيقة ذو روح وريحان، قلبه طريق مطرقة لكل سالك صاحب دليل وكشف وشهود يكرم الوارد ويتأدّب مع الشاهد، بريء من العلل صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور بولهه، محبوس في الموقف ذاهب تحت القهر، رجوعه سلوك وحجابه شهود، سرّه لا يعلم به زره، كلما

ظهر له وجه علم أنه بطن عنه، وجه منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم قابل للزيادة موحّد بالكثرة صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجب من غير رفع حجاب، ذو نور طامس، شعاعاته محرقة وفجآت وارداته مقلقة يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه لكون خالقه كل يوم في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في موطنه، مريد لكل ما يراد منه ذو عناية إلهية تجذبه، سالك في سكون مقيم في سفره صاحب نظرة ونظر يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح عن رعونات النفوس، معلوم المراتب في البساط مؤمن بالناطق في سرّه مصغ إليه راغب فيما يرد به مشفق ممّا في باطنه مظهر خلاف ما يخفي لمصلحة وقته ولهه لا يحكم عليه غريب في الملأ الأعلى والأسفل، ذو همة فعالة مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع، لا يسترقه شيء يطالع بالكوائن على طريق المشورة باستجلاء في ذلك يجده يمنعه ذلك من الانزعاج لأنه لا يقتضيه مقام الكون له جماع الخير يتحكم بالمشيئة لا بالاسم، قد استوت طرفاه فأزله مثل أبده تدور عليه المقامات ولا يدور عليها، له يدان يقبض بهما ويبسط في عالم الغيب والشهادة عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمال أعباء المملكة يستخرج به غيابات الأمور ينشيء خواطره أشخاصاً على صورته محفوظ الأربعة فريد من النظراء له في الملكوت وقائع مشهودة ونعوت العارف أكثر من أن تحصى.

فهذه بعض إشارات الطائفة في حقيقة العارف والمعرفة، جئنا بها لنعلم مقاصدهم في ذلك حتى لا يقول أحد عنا أنا قد انفردنا بطريق لم يسلكوا عليها بل الطريق واحدة وإن كان لكل شخص طريق تخصه، فإن الطرق إلى الله تعالىٰ على عدد أنفاس الخلائق، يعني أن كل نفس طريق إلى الله وهو صحيح، فعلى قدر ما يفوتك من العلم بالأنفاس ومراعاتها يفوتك من العلم بالطرق، وبقدر ما يفوتك من العلم بالطرق يفوتك من غاياتها، وغاية كل طريق هو الله فإنه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣].

وأما صفة العارف عندنا من الموطن الإلهيّ الذي يشهده العارفون من الحق في وجودهم وهو شهود عزيز، وذلك أن يكون العارف إذا حصلت له المعرفة قائماً بالحق في جمعيته نافذ الهمة مؤثراً في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن على الميزان المعلوم عند أهل الله مجهول النعت والصفة عند الغير من جميع العالم من بشر وجن وملك وحيوان لا يعرف فيحد ولا يفارق العادة فيميز حامل الذكر مستور الحال عام الشفقة على عباد الله، يفرق في رحمته بين من أمر برحمته حتى يجعل له خصوص وصف عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد، فيريد بإرادة الحق لا ينازع ولا يقاوم ولا يقع في الوجود ما لا يريده وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق في سفسافها فينزلها منازلها مع أهلها تنزيل حكيم، بريء ممّن تبرأ الله منه محسّ إليه مع البراءة منه، مصدق بكل خبر في العالم كما يعلم عند الغير أنه كذب فهو عنده صدق مؤمن عباد الله من غوائله مشاهد

تسبيح المخلوقات على تنوّعات أذكارها، لا تظهر إلاّ لعارف مثله، إذا تجلّى له الحق يقول: أنا هو لقوّة التشبّه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كل ما قصده بهمته، لا يقول: ﴿كُن﴾ أدباً مع الله، يعطي المواطن حقها كبير بحق صغير لحق متوسط مع حق جامع لهذه الصفات في حال واحدة، خبير بالمقادير والأوزان لا يفرّط ولا يفرط، يتأثّر مع الأنات لتغير الأحوال فلا يفوته من العالم ولا ممّا هو عليه الحق في الوقت شيء ممّا يطلبه العالم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه بصورة ما هو عليه في قلبه عند خروج النفس، فإذا ورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب خلع على ذلك النفس خلعة الوقت فينصبغ ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب يستر مقامه بحاله وحاله بمقامه، فيجهله أصحاب الأحوال بمقامه، ويجهله أصحاب المقامات بحاله، له عنف على شهوته إذا لم يروجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له عطاءه غير معلول، لا يمن إذا أمتن، ويمتن بقبول المن، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جهله له وجه في العلم لا يشعر المعطي من عنده حين ما يعطيه يعرّفه أن ذلك أمانة عنده أمر بإيصالها إليه لا يعرّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو في أسفل بنظره، وينظر إلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع ويوسع المحجور، يسمع كل مسموع منه لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مبصر منه لا من حيث ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضي الخصمين، فيحكم لكل واحد لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يفاضل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما علم الحق العالم من علمه بنفسه، لا يؤاخذ بالجريمة فإن الجريمة استحقاق والمجرم المستحق عظمته في ذلّته وصغاره، لا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وآخرة، هو في علمه بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل وإن اقتضى أن لا عمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه ومفاتيحها بيده، ينزل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء من غير اشتعار، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود العبارات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، ينظر في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه كالمشير العالم الناصح في الخدمة القائم بالحرمة، لا أينية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون ليقابلها بما عنده لما سمع الله يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا تسعه سوى ربه فهو إبنه وعينه، مرتب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل لا تزلزله الحادثات، ليست في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهر في أيّ صورة شاء بصفة الحياة مع الوقوف عند المحدود، يعرف حقّه من حق خالقه، يتصرف في

الأشياء بالاستحقاق ويصرف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال ولا يتوجه للحق عليه حق، يتولى الأمور بنفسه لا بربه لأنه لا يرى نفسه لغلبته ربه، عليه تعود عليه صفات التنزيه مع وجود التشبيه، يحصي أنفاسه بمشاهدة صورها فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدء والمعاد فيرى إلتقاء طرفي الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل فيبدل صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكاناً إلاَّ حيي ذلك المكان بوطأته لأنه وطئه بحياة روحية، إذا قام قام لقيامه ربه ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦٠] لا يخطر له خاطر في شيء إلاَّ تكوّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه، له على الأشياء شرف العما لا شرف الاستواء، فهو وحيد في الكون غير معروف العين، من لجأ إليه خسر، ولا تقتضى حاجته إلاَّ به، فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، كما لا يمتنع عن قدرة خالقه محال ليصحّ الامتياز، فهذا وإن تأخّر بظاهره فهو متقدم بباطنه، ليجمع في شهوده بين الأوّل والآخر والباطن والظاهر، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلاَّ بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفى بحق لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير عنده قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكاً، يسبح أسماء الله بتنزيهها عن أن تنالها أيدي الغافلين غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمّى، إن ولي منصباً يعطي العلو لم ير فيه متعالياً بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغن عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، يعطي ما تحصل به المنفعة ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي فيكشف غامضها ويجليها في منصتها، يخترع من مشاهدة صورة موجده لا من نفسه، وليس هذا الكل عارف إلاَّ لمن يعلم المصارف، فإنه مشهد ضنين له البقاء في التلوين، يرث ولا يورث بالنبوّة العامة، يتصرّف ويعمل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي، يؤذى فيحلم عن مقدرة، وإذا آخذ فبطشه شديد لأنه خالص غير مشوب برحمة. قال أبو يزيد: بطشي أشد، فهذه صفة العارف عندي فتحقق فإن موطن هذا المأخذ عزيز والله ذو الفضل العظيم.

وصل: في تسمية هذا المقام بالمعرفة وصاحبه بالعارف.

اختلف أصحابنا في مقام المعرفة والعارف ومقام العلم والعالم، فطائفة قالت: مقام المعرفة ربانيّ، ومقام العلم إلهيّ، وبه أقول، وبه قال المحققون كسهل التستري وأبي يزيد وابن العريف وأبي مدين. وطائفة قالت: مقام المعرفة إلهيّ ومقام العلم دونه، وبه أيضاً أقول، فإنهم أرادوا بالعلم ما أردناه بالمعرفة، وأرادوا بالمعرفة ما أردناه بالعلم، فالخلاف فيه لفظي، وعمدتنا قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] فسماهم عارفين وما سماهم علماء. ثم ذكرهم

فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ لم يقولوا إلهنا ﴿ءَامَنَّا﴾ ولم يقولوا علمنا ولا شاهدنا فأقرّوا بالاتباع ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] وما قالوا نحن من الشاهدين. وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ﴾ ولم يقولوا ونقطع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ ولم يقولوا إلهنا ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾[المائدة: ٨٤] ولم يقولوا مع عبادك ﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٤] كما قالت الأنبياء. فقال الله لهؤلاء الطائفة التي صفتهم هذه: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ﴾ محل شهوات النفوس فأنزلناهم حيث أنزلهم الله. وقد استوفينا القول في الفرق بين المعرفة والعلم في كتاب مواقع النجوم، وبيّنا فيه أن القائل بمقام المعرفة إذا سألته عنه أجاب بما يجيب به المخالف في مقام العلم، فوقع الخلاف في التسمية لا في المعنى، ثم حدث لهم في هذا المقام خلاف آخر هل الموصوف به مالك جميع المقامات أم لا؟ والصحيح أنه ليس من شرطه التحكّم وإن ملك جميع المقامات بما يعطيه من الأحوال والتصرف في العالم، وإنما شرطه أن يعلم، فإذا أراد التحكم نزل إلى الحال لأن التحكم للأحوال إذا علم أن نزوله غير مؤثر في مقامه، ولهذا لا ينزلون إلى الحال إلاّ عن أمر إلهيّ، فإذا سمع من شيخ محقق في هذا الطريق أن صاحب هذا المقام مالك جميع المقامات فإنه يريد بالعلم لا بالحال، وقد يعطي الحال ولكن ما هو بشرط، فإن قال أحد إنه شرط فهو مدع لا معرفة له بطريق الله ولا بأحوال الأنبياء وأكابر الأولياء ويرد عليه هذا القول، فإن الكامل كلما علا في المقام نقص في الحال أعني في الدنيا، وأما في الآخرة فلا، كما أن المشاهدة تغني عن رؤية الأغيار كذلك المقام يذهب بالأحوال لأن الثبوت يقابل الزوال. انتهى الجزء الثاني عشر ومائة.

(الجزء الثالث عشر ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واعلموا أن الله تعالىٰ لما خلق القوّة المسمّاة عقلاً وجعلها في النفس الناطقة ليقابل بها الشهوة الطبيعية إذا حكمت على النفس أن تصرفها في غير المصرف الذي عين لها الشارع فعلم الله أنه قد أودع في قوّة العقل القبول لما يعطيه الحق ولما تعطيه القوّة المفكرة، وقد علم الله أنه جعل في القوّة المفكرة التصرف في الموجودات والتحكم فيها بما يضبطه الخيال من الذي أعطته القوىٰ الحسيّة، ومن الذي أعطته القوّة المصورة ممّا لم تدركه من حيث المجموع بالقوّة الحسية، فعلم أنه لا بدّ أن تحكم عليه القوّة المفكرة بالتفكّر في ذات موجده وهو الله تعالىٰ، فأشفق عليها من ذلك لما علمه من قصورها عن درك ما ترومه من ذلك فخاطبها قرآناً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٠] يقول: ما حذرناكم من النظر في ذات الله إلاّ رحمة بكم وشفقة عليكم لما نعلم ما تعطيه القوّة المفكرة للعقل من نفي ما نثبته على ألسنة رسلي من صفاتي فتردونها بأدلتكم فتحرمون الإيمان فتشقون شقاوة الأبد، ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينهانا أن نفكر في ذات الله كما فعل بعض عباد الله فأخذوا يتكلمون في ذات الله من أهل النظر، واختلفت مقالاتهم في ذات الله وكل تكلم بما اقتضاه نظره، فنفى

واحد عين ما أثبته الآخر، فما اجتمعوا على أمر واحد في الله من حيث النظر في ذاته وعصوا الله ورسوله بما تكلموا به ممّا نهاهم الله عنه رحمة بهم فرغبوا عن رحمة الله ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] فقالوا: هو علة، وقال آخرون: ليس بعلة، قال آخرون ذات الحق: لا تصحّ أن تكون جوهراً ولا عرضاً ولا جسماً بل عين أنيتها عين ماهيتها وأنها لا تدخل تحت شيء من المقولات العشرة وأطنبوا في ذلك وكانوا كما جاء في المثل: اسمع جعجعة ولا أرى طحناً، ثم جاء الشرع بنقيض ما دلت عليه العقول فجاء بالمجيء والنزول والاستواء والفرح والضحك واليد والقدم، وما قد روينا في صحيح الأخبار ممّا هو من صفات المحدثات، ثم جاء بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] مع ثبوت هذه الصفات، فلو استحالت كما يدل عليه العقل ما أطلقها على نفسه، ولكان الخبر الصدق كذباً إذ ما بعث الله رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] ما أنزل إليهم ليفهموا، وقد بيّن ﷺ وبلغ وأشهد الله على أمته أنه بلغ، فجهلنا النسبة بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ خاصة، وفهمنا معقول هذه الألفاظ الواردة وأن المعقول منها واحد بالنظر إلى الوضع، فتختلف نسبتها باختلاف المنسوب إليه ما تختلف حقائقها لأن الحقائق لا تتبدّل، فمن وقف مع هذه الألفاظ ومعانيها وقال بعدم علم النسبة إلى الحق فهو عالم مؤمن، ومن نسبها على وجه من وجوه المصارف الخارجة عن التجسيم فلا مؤمن ولا عالم، فلو أنصف هذا الناظر في ذات الله ما نظر في ذات الله وآمن بما جاء من عند الله، إذ قد دلّه دليل على صدق المخبر وهو الرسول، فهذا منعني في هذا الباب من الكلام في ذات الله بما تعطيه أدلة العقول، وعدلنا إلى علم ذلك بما جاء من النقول مع نفي المماثلة في النسبة والعلم الصحيح بحقيقة الصفة الواردة الموصوف بها ذاتاً مجهولة وقد نصحتك، فاعلم واثبت على ما جاءتك به الشريعة تسلم فهو أعلم بنفسه وأصدق في قوله، وما عرفنا إلاّ بما هو عليه ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠ ـ ١٨٢].

الباب الثامن والسبعون ومائة

في معرفة مقام المحبة

[نظم: البسيط]

الحبُّ يُنْسَبُ للإنسان واللهِ ... بِنِسْبةٍ ليس يدري علمُنا ما هِي

الحبُّ ذوقٌ ولا تُدْرَى حقيقتُه ... أليس ذا عجب والله واللهِ

لوازمُ الحبِّ تكسوني هويَّتُها ... ثوبَ النقيضَيْن مثل الحاضر السَّاهي

بالحبِّ صحَّ وجوبُ الحقِّ حيث يُرَى ... فينا وفيه ولسنا عَيْنَ أَشْباهِ

أستغفرُ الله ممّا قلتُ فيه وقد ... أقولُ من جهة الشُّكر لله

وممّا يتضمن هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

أحببتُ ذاتيَ حُبَّ الواحد الثاني ... والحبُّ منه طبيعيٌّ وروحاني
والحبُّ منه إلهيٌّ أتتك به ... ألفاظُ نور هُدًى في نَصِّ قرآنِ
وقد سألت وما أدري سؤالكُمُ ... عن أي حب ولا عن أي ميزان
فكل حبٍّ له بدءٌ يحققُهُ ... علمي سوى حبِّ ربٍّ ما له ثاني
وكل حب له بدءٌ وليس له ... نهايةٌ غير حبِّ الطَّبْع واثنانِ
لا يُوصَفَان إذا حقَّقْتَ شأنَهُمَا ... وما هما بنهاياتٍ ونُقْصانِ
فغايةُ الحب في الإنسان وُصْلَتُه ... روحاً بروح وجُثْماناً بجُثْمانِ
وغايةُ الوَصْل بالرحمن زَنْدَقَةٌ ... فإن إحسَانَه جُزْءُ إحسانِ
إن لم أصوِّره لم تَعْلَمْ بمن كَلِفَتْ ... نفسي وتَصْويرُه ردٌّ لبُرْهانِ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا: [الرمل]

أنا محبوبُ الهَوَى لو تعلموا ... والهَوَى محبوبُنَا لو تَفْهَمُوا
فإذا أنتُمْ فهمتُمْ غَرَضي ... فاحْمَدوا الله تعالىٰ واعلمُوا
ما لِقَومي عن كلامي أعْرضوا ... أَبِهِمْ عن دَرْكِ لفظي صَمَمُ
ما لقومي عن عَيَانٍ ما بَدَى ... من حبيبي في وجودي قد عَمُوا
لستُ أهْوَى أحداً من خَلْقِهِ ... لا ولا غير وجودي فافْهَمُوا
مذ تألَّهتُ رجعْتُ مظهراً ... وكذا كنتُ فبي فاعْتَصِمُوا
أنا حَبْلُ الله في كَوْنِكُمُ ... فالزموا البابَ عَبِيداً واخْدُمُوا
وإذا قلتُ هوَيْتُ زينباً ... أو نظاماً أو عَنَاناً فاحكُمُوا
أنَّه رمزٌ بديعٌ حَسَنٌ ... تحته ثوبٌ رفيعٌ مُعْلَمُ
وأنا الثَّوبُ على لابِسِهِ ... والذي يَلْبَسُهُ ما يعْلَمُ
ليس في الجُبَّةِ شيءٌ غير ما ... قاله الحلاَّجُ يوماً فانْعَمُوا
وحَيَاةِ الحبِّ لو أشهده ... لاعترانِي لشُهُودي بَكَمُ
ما يرى عينَ وجودِ الحقِّ من ... أَضَلُّهُ في كلِّ حالِ عَدَمُ

وممّا يتضمنه هذا الباب قولنا: [البسيط]

إن الوجودَ لَحَرْفٌ أنتَ معناه ... وليس لي أملٌ في الكون إلاّ هُو
الحرفُ معنًى ومعنَى الحرفِ ساكِنُه ... وما تشاهدُ عَيْنٌ غيرَ معناهُ
والقلبُ من حيثُ ما تُعْطيه فِطْرتُه ... يجولُ ما بين مَغْنَاه ومَعْنَاهُ
عزَّ الإلهُ فما يحويه من أحدٍ ... وبعد هذا فإنا قد وَسِعْنَاهُ
وما أنا قلتُ بل جاء الحديثُ به ... عن الإلهِ وهذا اللَّفْظُ فَحْوَاهُ
لما أراد الإلهُ الحقُّ يسْكُنه ... لذاك عدَّلَهُ خلقاً وسَوَّاهُ
فكان عَيْنُ وجودي عَيْنَ صورته ... وَحْيٌ صحيحٌ ولا يدريه إلاّ هُو
الله أكبرُ لا شيءٌ يُمَاثِلُهُ ... وليس شيءٌ سواه بل هو إيَّاهُ

فما تَرَى عينُ ذي عَيْنٍ سوى عدم فصَحَّ أن الوجودَ المُدْرَكَ الله
فلا يرى الله إلاَّ الله فاعتبروا قولي ليُعْلَمَ مَنْحَاه ومَغْزَاهُ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا في واقعة رأيت الحق فيها يخاطبني بمعنى ما في هذه الأبيات وسمّاني باسم ما سمعت به قط إلاَّ منه تعالىٰ في تلك الواقعة وهو نرديار فسألته تعالىٰ عن تفسير هذا اللفظ فقال: ممسوك الدار وهي هذه الأبيات، وقد تقدمت في هذا الكتاب بأطول ممّا هي هنا وما سقت منها هنا إلاَّ ما وقع: [الطويل]

مَسَكْتُكَ في داري لإظهار صورتي فسُبْحانَكُم مُجْلَى وسُبْحَانَ سُبْحَانَا
فما نظرتْ عيناك مثليَ كاملاً ولا نظرتْ عَيْنٌ كمثلك إنسانَا
فلم يَبْقَ في الإمكان أكملُ منكُمُ نَصَبتُ على هذا من الشَّرْع بُرْهَانَا
فأيُّ كمالٍ كان لم يَكُ غيركُمْ على كل وجهٍ كان ذلك ما كانَا
ظهَرْتُ إلى خلقي بصورة آدم وقرَّرْتُ هذا في الشرائع إيمانَا
فلو كان في الإمكان أكملُ منْكُمُ لكان وجودُ النَّقْص فيَّ إذا كانَا
لأنك مخصوصٌ بصورة حَضْرتي وأكْمَلُ مني ما يكونُ فقد بَانَا

وممّا ضمنته هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

الله أكبرُ أن يَحْظَى به أَحَدٌ وهو الحبيبُ العَليُّ السَّيِّدُ الصَّمَدُ
الشمسُ تدركنا والشمسُ ندركها نَعَمْ ومنها إلينا العَطْفُ والرَّفَدُ
وإننا لنراها وهي ظاهرةٌ مثل التَّجَلِّي ولم يظفَرْ به أَحَدُ
النورُ يمنعنا من أن نُكَيِّفَها فكيف من لا له كَيْفٌ فيَتَّحِدُ
الكيفُ والكمُّ من نَعْتِ الجُسوم وما هناك جسمٌ ولا حالٌ ولا عَدَدُ

وممّا يتضمنه هذا الباب أيضاً قولنا: [البسيط]

بادِرْ لجَبْرِ الذي قد فات من عُمُرِكْ ولتتَّخذْ زادَكَ الرَّحمنَ في سَفَرِكْ
وقل له بالهوى يا مُنْتَهَى أملي ما أشْوَقَ السرَّ والمعنى إلى خَبَرِكْ
لقد علمتُ بأني حين أبصِرُ مَنْ كان الوجودُ به ما زلتُ من نَظَرِكْ
لولا الفناءُ ونَفْيُ المِثْل عنك وما قد جاء عنك من الإحراق من بَصَرِكْ
ما كان لي أملٌ في غير مَشْهَدِكُمْ ولا قرأتُ كتاباً ليس في سِيَرِكْ
إني سألتُكَ يا من لا شَبِيهَ له أمراً أراد به المَحْتُومَ من قَدَرِكْ
فقال لي من قضائي أن تَرَى قَدَري يردُّه قَدَري والكلُّ من أَثَرِكْ
قد جاءكُمْ عن نبيٍّ في إزالة ما قَضَيْتُه وبما يزيد في عُمُرِكْ
لكم كلامٌ نفيسٌ كلُّه دُرَرٌ وذا من الدرِّ فلْنُلْحِقْه في دُرَرِكْ

وممّا يتضمنه هذا الباب في حب الحب قولنا: [الطويل]

ولما رأيتُ الحبَّ يَعْظُمُ قَدْرُهُ وما لي به حتى المَمَات يَدَانِ

تعشَّقْتُ حُبَّ الحبِّ دهري ولم أقلْ كفاني الذي قد نلْتُ منه كَفَاني
فأبْدَى ليَ المَحْبُوبُ شَمْسَ اتِّصالِهِ أَضَاءَ بها كَوْني وعَيْنَ جِنَانِي
وذاب فؤادي خِيفَةً من جلالهِ فوقَّعَ لي في الحين خَطَّ أَمَانِ
ونزَّهَني في رَوْضِ أُنْسِ جَمَالهِ فغبْتُ عن الأرواح والثَّقَلانِ
وأَحْضَرَني والسرُّ منِّي غائبٌ وغيَّبني والأمرُ منِّيَ داني
فإن قلتُ أنا واحدٌ فوجوده وإن أثبتوا عيني فمُزْدَوجانِ
ولكنَّه مَزْجٌ رقيقٌ منزَّهٌ يُرَى واحداً والعلمُ يَشْهَد ثاني
فقلتُ له وهو القَؤُولُ وأنه عبارته المُثْلَى جَرَتْ بلسانِ
أيا من بَدَى في نفسه لنفيسه ولا عَدَدٌ فالعينُ منِّيَ فاني
فنفْسَك شاهدْت النَّفيسةَ مُنْعِماً بنفسك وانظر في المِراةِ تَرَاني
فيا غائباً من كان هذا مَقَامُه يُرَى في جنان النَّاعِمات بجانِ
فلا والذي طارتْ إلى حُسْنِ ذاته قلوبٌ فأفناها عن الطيَرانِ

اعلم وفّقك الله أن الحب مقام إلهيّ فإنه وصف به نفسه وتسمّى بالودود، وفي الخبر بالمحب، وممّا أوحى الله به إلى موسىٰ في التوراة: يا ابن آدم إني وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، وقد وردت المحبة في القرآن والسنّة في حق الله وفي حق المخلوقين، وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم، وذكر الصفات التي لا يحبها الله، وذكر الأصناف الذين لا يحبهم الله فقال تعالىٰ لنبيه ﷺ آمراً أن يقول لنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] وقال في ذكر الأصناف الذين يحبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٨] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] ﴿يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] ويحب الشاكرين ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: الآية ٤] كما نفى عن نفسه أن يحب قوماً لأجل صفات قامت بهم لا يحبها، ففحوى الخطاب أنه سبحانه يحب زوالها ولا تزول إلاّ بضدها ولا بدّ فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥] وضده الصلاح فعين ترك الفساد صلاح وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٦] ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٨] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٥] ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٨] ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٧].

ثم إنه سبحانه حبّب إلينا أشياء منها بالتزيين ومنها مطلقة فقال ممتناً علينا ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٧] وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [سورة آل عمران:

الآية ١٤] الآية، وقال في حق الزوجين: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ونهانا أن نلقي بالمودّة إلى أعداء الله فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] والمحبة الواردة في القرآن كثيرة.

وأما الأخبار فقوله ﷺ عن الله أنه قال: «**كُنْتُ كَنْزاً لَم أُعْرَفْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ فَعَرَفُونِي**» فما خلقنا إلا له لا لنا، لذلك قرن الجزاء بالأعمال فعملنا لنا لا له، وعبادتنا له لا لنا، وليست العبادة نفس العمل، فالأعمال الظاهرة في المخلوقين خلق له فهو العامل، ويضاف إليه حسنها أدباً مع الله مع كونها كل من عند الله لأنه قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧ ـ ٨] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٢] فدخلت أعمال العباد في ذلك. وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنوَافِلِ حَتَىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» الحديث. ومن هذا التجلّي قال من قال بالاتحاد، وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وبقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وفي الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ مفتن تَوَاب**» وفي الخبر: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ**» وفي الخبر: «**أَحِبّوا اللَّه لِمَا أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ**» وفي الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُ الجَمَالَ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُ أَنْ يُمْدَحَ**» وقال عليه السلام: «**حبّب إليّ من دنياكم ثلاث**» الحديث، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، واعلم أن مقامها شريف وأنها أصل الوجود: [مجزوء الرمل]

وَعَنِ الحُبِّ صَدَرْنَا وعلى الحبِّ جُبِلْنَا
فلهذا جِئْنَاهُ قَصْداً ولهذا قد قُبِلْنَا

ولهذا المقام أربعة ألقاب: منها الحب وهو خلوصه إلى القلب وصفاؤه عن كدورات العوارض فلا غرض له ولا إرادة مع محبوبه.

واللقب الثاني: الودّ وله اسم إلهيّ وهو الودود، والودّ من نعوته وهو الثابت فيه، وبه سمّي الودّ ودّاً لثبوته في الأرض.

واللقب الثالث: العشق وهو إفراط المحبة، وكنى عنه في القرآن بشدة الحب في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] وهو قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٠] أي صار حبها يوسف على قلبها كالشغاف وهي الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب فهي ظرف له محيطة، وقد وصف الحق نفسه في الخبر بشدة الحب غير أنه لا يطلق على الحق اسم العشق، والعاشق والعشق التفاف الحب على المحب حتى خالط جميع أجزائه، واشتمل عليه اشتمال الصماء مشتق من العشقة.

واللقب الرابع: الهوى وهو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلّق به في أوّل ما يحصل في القلب وليس لله منه اسم، ولحصوله سبب نظرة أو خبر أو إحسان وأسبابه كثيرة، ومعناه في الخبر الإلهي الصحيح حب الله عبده إذا أكثر نوافل الخيرات، وكذلك اتباع الرسول فيما

شرع، وهذا منزلته فينا مسمّى الهوى، قال بعضهم في الحب المولد عن الخبر: [البسيط]

يا قَوْمُ أذني لبعض الحَيِّ عاشقةٌ والأذنُ تعْشَقُ قبل العَيْن أَحْيَانَا

ولنا في الحب المولد عن النظر والخبر في الغزليات: [البسيط]

حُبِّي لغيرك مَوْقُوفٌ على النَّظَرِ إلاَّ هواكَ فمَبْنَاه على الخَبَرِ
الله يعلم أني ما عَلِمْتُ لها على الذي قيل لي أُخْتاً من البَشَرِ
فَبُغْيَتي من عُزْلتي أن أفوزَ بها وأن تَجُودَ علي عينيَّ بالنَّظَرِ

ولنا أيضاً في هذا المعنى: [مجزوء الرجز]

حقيقتي هِمْتُ بها وما رآها بَصَري
ولو رآها لَغَدَا قتيلَ ذاك الحَوَرِ
فعندما أبصرْتُها صِرْتُ بحُكْمِ النَّظَرِ
فَبِتُّ مَسْحوراً بها أهيمُ حتَّى السَّحَرِ
يا حَذَري من حَذَري لو كان يُغْني حَذَري
حُكْمُ القَضاء والقَدَرْ وإنَّما هَيَّمني
واللَّهِ ما هيَّمني جمالُ ذاك الخَفَرِ
يا حُسْنَها من ظَبْيَةٍ تَرْعَى بذات الخَمَرِ
إذا رَنَتْ أو عَطَفَتْ تَسْبي عقولَ البَشَرِ
تَفْتَرُّ عن ظَلَمٍ وعن حَبِّ غَمَامٍ نَشِرِ
كأنما أَنْفَاسُها أعرافُ مِسْكٍ عَطِرِ
كأنها شَمْسُ ضُحَى في النُّور أو كالقَمَرِ
إن سَفَرَتْ أبرزَها نورُ صباحٍ مُسْفِرِ
أو سَدَلَتْ غيَّبَها ظلامُ ذاك الشَّعَرِ
يا قمراً تحت دُجَى خذي فؤادي وَذَرِ
عيني لكَيْ أُبصركم إذ كان حَظِّي نَظَري
فإنَّ مَبْنَى كَلَفي بحبِّها من خَبَري

ولنا أيضاً في هذا المعنى: [البسيط]

الأذنُ عاشقةٌ والعينُ عاشقةٌ شَتَّانَ ما بين عَشْقِ العينِ والخَبَرِ
فالأذنُ تعشق ما وَهْمي يُصَوِّره والعينُ تعشق مَحْسُوساً من الصُّوَرِ
فصاحبُ العين إن جاء الحبيبُ له يوماً ليُبْصرَه يَلْتَذُّ بالنَّظَرِ
وصاحبُ الأُذن إن جاء الحبيبُ له في صورة الحِسِّ ما يَنْفَكُّ عن غِيَرِ
إلاَّ هَوَى زَيْنَبٍ فإنه عَجَبٌ قَدِ اسْتَوَى فيه حَظُّ السَّمْع والبَصَرِ

وألطف ما في الحب ما وجدته وهو أن تجد عشقاً مفرطاً وهوى وشوقاً مقلقاً وغراماً ونحولاً، وامتناع نوم، ولذة بطعام ولا يدري فيمن ولا بمن ولا يتعين لك محبوبك وهذا

ألطف ما وجدته ذوقاً، ثم بعد ذلك بالاتفاق، أما يبدو لك تجلّ في كشف فيتعلق ذلك الحب به، أو ترى شخصاً فيتعلق ذلك الوجد الذي تجده به عند رؤيته فتعلم أن ذلك كان محبوبك وأنت لا تشعر، أو يذكر شخص فتجد الميل إليه بذلك الهوى الذي عندك فتعلم أنه صاحبك، وهذا من أخفى دقائق استشراف النفوس على الأشياء من خلف حجاب الغيب، فتجهل حالها ولا تدري بمن هامت ولا فيمن هامت ولا ما هيمها، ويجد الناس ذلك في القبض والبسط الذي لا يعرف له سبب، فعند ذلك يأتيه ما يحزنه فيعرف أن ذلك القبض كان لهذا الأمر، أو يأتيه ما يسرّه فيعرف أن ذلك البسط كان لهذا الأمر، وذلك لاستشراف النفس على الأمور من قبل تكوينها في تعلّق الحواس الظاهرة وهي مقدمات التكوين، ويشبه ذلك أخذ الميثاق على الذرية بأنه ربنا فلم يقدر أحد على إنكاره بعد ذلك، فتجد في فطرة كل إنسان افتقاراً لموجود يستند إليه وهو الله ولا يشعر به، ولهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] يقول لهم ذلك الافتقار الذي تجدونه في أنفسكم متعلقه الله لا غيره ولكن لا تعرفونه، فعرفنا الحق به، ولما ذقنا هذا المقام قلنا فيه: [الطويل]

عَلِقْتُ بمن أهواه عشرين حِجَّةً ... ولم أَدرِ من أَهوى ولم أَعرفِ الصَّبْرَا
ولا نَظَرَتْ عيني إلى حُسْن وَجْهِهَا ... ولا سَمِعَتْ أذنايَ قطُّ لها ذِكْرَا
إلى أن تَرَاءى البَرْقُ من جانب الحِمَى ... فنَعَّمَني يوماً وعذَّبني دَهْرَا

ولنا أيضاً في هذا المعنى ذوقاً فإنا لا نعبر إلاً عمّا ذقناه: [الطويل]

عَلِقْتُ بمن أَهْوَاه من حَيْثُ لا أدري ... ولا أدري من هذا الذي قال لا أَدْري
فقد حِرْتُ في حالي وحَارَتْ خَوَاطري ... وقد حَارَتِ الحَيْرَاتُ فيَّ وفي أَمْري
فبَيْنا أنا من بعدِ عشرين حِجَّةً ... أُتَرْجِمُ عن حبٍّ يعانقه سِرِّي
ولم أدر مَنْ أهوى ولا أعرفُ اسْمَهُ ... ولا أدر من هذا الذي ضَمَّه صَدْري
إلى أن بدا لي وَجْهُهَا من نِقَابها ... كمثل سَحَابِ اللَّيْلِ أَسْفَرَ عن بَدْرِ
فقلتُ لهم من هذه قِيلَ هذه ... كمثل عَيْنِ القلب بِنْتُ أخ الصَّدْرِ
فكبَّرْتُ إجلالاً لها ولأصلها ... فَلَيْلي بها أَرْبَى على ليلَةِ القَدْرِ

ولنا في هذا المعنى ذوقاً في أوّل دخولي إلى الشام وجدت ميلاً مجهولاً مدّة طويلة في قصة طويلة إلهية متخيلة في صورة جسدية فقلنا نخاطبها في ذلك بالحال ولسانه: [الطويل]

أقولُ وعندي من هَوَاك الذي عِنْدي ... مَقَالَةُ من قال الحبيبُ له قُلْ لي
ولما دَخَلْتُ الشامَ خُولِطتُ في عقلي ... فلم أَرَ قبلي في الهوى عاشقاً مِثْلي
عَشِقْتُ وما أدري الذي قد عَشِقْتُه ... أخالقي المَحْبُوبُ أم هو من شَكْلي
ولا سمعَتْ أذناي قطُّ بذكره ... فهل قال هذا عاشقٌ غيرنا قَبْلي
فجُبْتُ بلادَ الله شرقاً ومَغْرباً ... لعلي أَرَى شخصاً يُوافِقُني عَلِّي
فلم أر إلاَّ ذا حبيبٍ معين ... يُلازمه طبعاً مُلازَمَةَ الظِّلِّ
فقلتُ إلهي إن قلبي مُهَيَّمٌ ... ولم أدرِ فانظُرْ في مقامي وفي ذُلِّي

فنَادَى مُنَادي الحبِّ من بين أضلعي لقد غُصْتَ يا مِسْكينُ في أَبْحُر الجَهْلِ
ألا فاستَمِعْ قولي وخُذْ سرَّ حِكْمتي فإنِّيَ من أهل التَّعاليم والفَضْلِ
بسبعٍ وعشرٍ ثم خمسينَ بعدها إذا أنتَ حَصَّلْتَ اثنتين على وَصْلي
يقومُ لكُمْ شَكْلٌ بديعٌ مربَّعٌ تماماً على الوَصْل الذي فيه والفَصْلِ
كَمِثْل اسمِه الله بياناً مُحَقَّقاً فكان اسمُ مَحْبُوبي على صورة الأَصْلِ
فذاك اسمُ مَنْ تَهْواه إن كنتَ عالماً وهذا من العِلْم المُضَافِ إلى البُخْلِ
فإن كنتَ ذا فَهْم فلا تَبْتَغي سوى مُثَلَّثَةِ التَّرْبيع جامِعَةِ الشَّمْلِ
فَثُلَيْثُها بَيْتٌ وبَيتٌ مُصَحَّف لها حُسْنُ إدلالٍ يدلُّ على دَلِّي
فبيت إليّ العين ثم لمَاجِدٍ هما أهلُ بيتٍ للسَّمَاحَةِ والبَذْلِ*
وأوَّلُه حرْفٌ نزيهٌ مسَبَّعٌ من السِتَّةِ الأعلام من أحرف الفَصْلِ

وهذا ألطف ما يكون من المحبة، ودونه حب الحب وهو الشغل بالحب عن متعلَّقه. جاءت ليلى إلى قيس وهو يصيح: ليلى ليلى ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده فتذيبه حرارة الفؤاد فسلمت عليه وهو في تلك الحال فقالت له: أنا مطلوبك، أنا بغيتك، أنا محبوبك، أنا قرّة عينك، أنا ليلى. فالتفت إليها وقال: إليك عني، فإن حبك شغلني عنك. هذا ألطف ما يكون، وأرق في المحبة، ولكن هو دون ما ذكرناه في اللطف.

وكان شيخنا أبو العباس العريبيّ رحمه الله يسأل الله أن يرزقه شهوة الحب لا الحب، واختلف الناس في حدّه فما رأيت أحداً حدّه بالحدّ الذاتي بل لا يتصوّر ذلك، فما حدّه من حدّه إلاّ بنتائجه وآثاره ولوازمه، ولا سيما وقد اتصف به الجناب العزيز وهو الله. وأحسن ما سمعت فيه ما حدثنا به غير واحد عن أبي العباس ابن العريف الصنهاجيّ قالوا: سمعناه يقول وقد سئل عن المحبة فقال: الغيرة من صفات المحبة، والغيرة تأبى إلاّ الستر فلا تحدّ.

واعلم أن الأمور المعلومات على قسمين: منها ما يحد، ومنها ما لا يحد، والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها من الأمور التي لا تحد، فيعرفها من قامت به ومن كانت صفته ولا يعرف ما هي ولا ينكر وجودها. واعلم أن كل حب لا يحكم على صاحبه بحيث أن يصمه عن كل مسموع سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلاّ عن ذكر محبوبه وذكر من يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية تقدمته، وإما عن وصف ينشىء منه الخيال صورة فيكون كما قيل: [الطويل]

خَيَالُكَ في عيني وذكْرُكَ في فمي ومَثْوَاكَ في قلبي فأَيْنَ تَغِيبُ

فبه يسمع، وله يسمع، وبه يبصر، وله يبصر، وبه يتكلم، وله يتكلم، ولقد بلغ بي قوّة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ﷺ فلا أقدر أنظر إليه، ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه، ولقد تركني أياماً لا

* في الأصل:
فبيت إليَّ لعين عين وثم بيت لماجد... الخ. فتأمل.

أسيغ طعاماً، كلما قدّمت لي المائدة يقف على حرفها وينظر إليّ ويقول لي بلسان أسمعه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني فأمتنع من الطعام ولا أجد جوعاً وامتلىء منه حتى سمنت وعبأت من نظري إليه فقام لي مقام الغذاء، وكان أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من سمني مع عدم الغذاء لأني كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقاً، ولا أجد جوعاً ولا عطشاً، لكنه كان لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي وحركتي وسكوني.

واعلم أنه لا يستغرق الحب المحب كله إلاّ إذا كان محبوبه الحق تعالىٰ أو أحداً من جنسه من جارية أو غلام، وأما ما عدى من ذكرته فإنه لا يستغرقه حبّه إياه، وإنما قلنا ذلك لأن الإنسان لا يقابل بذاته كلها إلاّ من هو على صورته إذا أحبّه، فما فيه جزء إلاّ وفيه ما يماثله، فلا تبقي فيه فضلة يصحو بها جملة واحدة فيهيم ظاهره في ظاهره وباطنه في باطنه، ألا ترى الحق قد تسمّى بالظاهر والباطن؟ فتستغرق الإنسان المحبة في الحق وفي أشكاله وليس ذلك فيما سوى الجنس من العالم فإنه إذا أحبّ صورة من العالم إنما يستقبله بالجزء المناسب ويبقى ما بقي من ذاته صاحية في شغلها، وأما استغراق حبّه إذا أحبّ الله فلكونه على صورته كما ورد في الخبر، فيستقبل الحضرة الإلهية بذاته كلها، ولهذا تظهر فيه جميع الأسماء الإلهية، ويتخلق بها من ليست عنده صفة الحب ويكونها من عنده صفة الحب، فلهذا يستغرق الإنسان الحب، وإذا تعلّق بالله وكان الله محبوبه فيفنى في حبّه في الحق أشدّ من فنائه في حب أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقد في غيبته ظاهر المحبوب، وإذا كان الحق هو المحبوب فهو دائم المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم به ينمي ويزيد، فكلما زاد مشاهدة زاد حباً، ولهذا الشوق يسكن باللقا والاشتياق يهيج باللقاء، وهو الذي يجده العشاق عند الاجتماع بالمحبوب، لا يشبع من مشاهدته ولا يأخذ نهمته منا لأنه كلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً مع حضوره معه كما قيل: [الطويل]

ومــن عَــجَــبٍ أنــي أحــنُّ إلــيــهــمُ ... وأسـأل شـوقـاً عـنـهُـمُ وهُـمُ مَـعِـي
وتـبـكـيـهـمُ عـيـنـي وهـم فـي سـوادهـا ... وتَشْتَاقُهـم نفسي وهـم بيـن أَضْلُعِي

وكل حب يبقى في المحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه أو تعقّلاً فليس بحب خالص وإنما هو حديث نفس، قال بعضهم: ولا خير في حب يدبر بالعقل. وحكايات المحبين في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولنا في ازدياد المحبة مع المشاهدة والشوق: [الطويل]

أَغيبُ فيُفْني الشوقُ نفسي فألتقي ... فلا أَشْتَفِي فالشَّوْقُ غيباً ومَحْضَرَا
ويُـحـدث لـي لُـقْـيَـاهُ مـا لـم أظـنَّـه ... مـكـانَ الـشِّـفَـا داءَ مـن الـوجْـد آخَـرَا
لأنـي أرى شـخـصـاً يَـزيـدُ جَـمَـالُـه ... إذا مـا الـتـقـيـنـاه نـحـوةً وتَـكَـبُّـرَا
فـلا بـدَّ مـن وَجْـدٍ يـكـون مـقـارنـاً ... لـمـا زاد مـن حُـسْـنٍ نـظـامـاً مُـحـرَّرَا

أشير إلى تجليه سبحانه في صور مختلفة في الآخرة لعباده وفي الدنيا لقلوب عباده، كما ورد في صحيح مسلم من تحوُّله سبحانه في الصور، كما ينبغي لذاته من غير تشبيه ولا تكييف، فوالله لولا الشريعة التي جاءت بالخبر الإلهيّ ما عرف الله أحد، ولو بقينا مع الأدلة

العقلية التي دلّت في زعم العقلاء على العلم بذاته بأنه ليس كذا وليس كذا ما أحبه مخلوق، فلما جاء الخبر الإلهيّ بألسنة الشرائع بأنه سبحانه كذا وأنه كذا من أمور تناقض ظواهرها الأدلة العقلية أحببناه لهذه الصفات الثبوتية، ثم بعد أن أوقع النسب وثبت السبب والنسب الموجبات للمحبة قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فثبت الأسباب الموجبة للحب التي نفاها العقل بدليله، وهذا معنى قوله: «**فخلقت الخلق فتعرفت إليهم فعرفوني**» فما يعرف الله إلاّ بما أخبر به عن نفسه من حبّه إيانا ورحمته بنا، ورأفته وشفقته وتحببه ونزوله في التحديد لنمثله تعالىٰ ونجعله نصب أعيننا في قلوبنا وفي قبلتنا وفي خيالنا حتى كأنا نراه لا بل نراه فينا لأنا عرفناه بتعريفه لا بنظرنا.

ومنا من يراه ويجهله، فكما أنه لا يفتقر إلى غيره كذلك والله لا يحب في الموجودات غيره، فهو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب، وما في الموجود إلاّ محب، فالعالم كله محب ومحبوب، وكل ذلك راجع إليه، كما أنه لم يعبد سواه، فإنه ما عبد من عبد إلاّ بتخيل الألوهية فيه ولولاها ما عبد، يقول تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] وكذلك الحب ما أحب أحد غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالىٰ بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدنيا والدرهم والجاه وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لايعلمون، والعارفون لم يسمعوا شعراً ولا لغزاً ولا مديحاً ولا تغزلاً إلاّ فيه من خلف حجاب الصور، وسبب ذلك الغيرة الإلهية أن يحب سواه، فإن الحب سببه الجمال وهو له لأن الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال فيحب نفسه، وسببه الآخر الإحسان وما ثم إحسان إلاّ من الله، ولا محسن إلاّ الله، فإن أحببت للإحسان فما أحببت إلاّ الله فإنه المحسن، وإن أحببت للجمال فما أحببت إلاّ الله تعالىٰ فإنه الجميل، فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلاّ الله، ولما علم الحق نفسه فعلم العالم من نفسه فأخرجه على صورته فكان له مرآة يرى صورته فيه فما أحب سوى نفسه، فقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] على الحقيقة نفسه أحب إذ الاتباع سبب الحب، واتباعه صورته في مرآة العالم سبب الحب لأنه لا يرى سوى نفسه، وسبب الحب النوافل وهي الزيادات، وصورة العالم زيادة في الوجود فأحب العالم نافلة فكان سمعه وبصره حتى لا يحب سوى نفسه، وما أغمضها من مسألة، وما أسرع تفلتها من الوهم، فإنه اتفق في الوجود أمر غريب، وذلك أن ثم أموراً يتحقق بها العقل ويثبت عليها ولا يتزلزل وتتفلت من الوهم ولا يقدر يبقى على ضبطها مثل هذه المسألة يثبتها العقل ولا يقدر يزول عنها، وتتفلت من الوهم ولا يقدر على ضبطها، وثم أمور أخر بالعكس تتفلت من العقل وتثبت في الوهم ويحكم عليها ويؤثر فيها، كمن يعطيه العقل بدليله أن رزقه لا بدّ أن يأتيه سعى إليه أو لم يسع فيتفلت هذا العلم عن العقل ويحكم عليه الوهم بسلطانه أنك إن لم تسع في طلبه تمت فيغلب عليه فيقوم يتعمل في تحصيله، فحقه من جهة عقله زائل، وباطله من جهة وهمه ثابت لا يتزلزل، وكمن يرى حية أو أسداً على صورة لا يتمكن فيما يغطيه العقل أن يصل ضرره إليه فيغيب عن ذلك الدليل ويتوهم

ضرره فينفر منه ويتغير وجهه وباطنه بحكم الوهم وسلطانه وهذا موجود، فللوهم سلطان في مواطن، وللعقل سلطان في مواطن.

فلنذكر في هذا الباب إن شاء الله من لوازم الحب ومقاماته ما تيسّر فنقول: إن الحب تعلّق خاص من تعلّقات الإرادة، فلا تتعلق المحبة إلاّ بمعدوم غير موجود في حين التعلّق يريد وجود ذلك المحبوب أو وقوعه، وإنما قلت أو وقوعه لأنها قد تتعلق بإعدام الموجود وإعدام الموجود في حال كون الموجود موجوداً ليس بواقع، فإذا عدم الموجود الذي تعلقت به المحبة فقد وقع، ولا يقال وجد الإعدام فإنه جهل من قائله، وقولنا يريد وجود ذلك المحبوب وأن المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم، فذلك أن المحبوب للمحب هو إرادة أوجبت الاتصال بهذا الشخص المعين كائناً من كان، إن كان ممّن شأنه أن يعانق فيحب عناقه، أو ينكح فيحب نكاحه، أو يجالس فيحب مجالسته، فما تعلق حبّه إلاّ بمعدوم في الوقت هذا الشخص فيتخيل أن حبّه متعلق بالشخص وليس كذلك، وهذا هو الذي يهيجه للقائه ورؤيته، فلو كان يحب شخصه أو وجوده في عينه فهو في شخصيته أو في وجوده فلا فائدة لتعلق الحب به. فإن قلت: إنا كنا نحب مجالسة شخص أو تقبيله أو عناقه أو تأنيسه أو حديثه ثم نرى تحصل ذلك والحب لا يزول مع وجود العناق والوصال فإذاً متعلق الحب قد لا يكون معدوماً. قلنا: أنت غالط إذا عانقت الشخص الذي تعلقت المحبة بعناقه أو مجالسته أو موآنسته، فإن متعلق حبك في تلك حال ما هو بالحاصل وإنما هو بدوام الحاصل واستمراره، والدوام والاستمرار معدوم ما دخل في الوجود ولا تتناهى مدته، فإذا ما تعلق الحب في حال الوصلة إلاّ بمعدوم وهو دوامها وما أحسن ما جاء في القرآن قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] بضمير الغائب والفعل المستقبل، فما أضاف متعلق الحب إلاّ لغائب ومعدوم وكل غائب فهو معدوم إضافي.

فمن أوصاف المحبة أن يجمع المحب في حبه بين الضدين ليصحّ كونه على الصورة لما فيه من الاختيار، وهذا هو الفرق بين الحب الطبيعي والروحاني والإنسان يجمعهما وحده والبهائم تحب ولا تجمع بين الضدين بخلاف الإنسان، وإنما جمع الإنسان في حبّه بين الضدين لأنه على صورته وقد وصف نفسه بالضدين وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وصورة جمع الحب بين الضدين أن الحب من صفاته اللازمة له حب الاتصال بالمحبوب، ومن صفاته اللازمة حب ما يحبه المحبوب فيحب المحبوب الهجر، فإن أحب المحب الهجر فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة فإن المحبة تطلب الاتصال، وإن أحب الاتصال فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه ولم يفعل، فالمحب محجوج على كل حال، وغاية الجمع بينهما أن يحب حب المحبوب للهجر لا الهجر ويحب الاتصال، ولا تخرج هذه المسألة على أكثر من هذا كالراضي بالقضاء فيصحّ له اسم الرضا بالقضاء مع كونه لا يرضى بالمقضي إذا كان المقضي به كفراً، كذا ورد الشرع، وهكذا في مسألة الحب يحب المحب الاتصال بالمحبوب، ويحب حب المحبوب الهجر لا

يحب الهجر لأن الهجر ما هو عين حب المحبوب الهجر، كما أن القضاء ما هو عين المقضي، فإن القضاء حكم الله بالمقضي لا عين المقضي فيرضى بحكم الله، وحب الحيوان ليس كذلك لأنه حب طبيعي لا روحاني فيطلب الاتصال بمن يحب خاصة ولا يعلم أن محبوبه له حب في كذا لا علم له بذلك، فلهذا قسمنا الحب الذي هو صفة للإنسان إلى نوعين: فيه حب طبيعيّ وبه يشارك البهائم والحيوانات، وحب روحانيّ وبه ينفصل ويتميز عن حب الحيوان، وإذا تقرّر هذا وصل، فاعلم أن الحب منه إلهيّ وروحانيّ وطبيعيّ وما ثم حب غير هذا، فالحب الإلهيّ هو حب الله لنا وحبنا الله أيضاً قد يطلق عليه أنه إلهيّ، والحب الروحانيّ هو الذي يسعى به في مرضاة المحبوب لا يبقى له مع محبوبه غرض ولا إرادة بل هو بحكم ما يراد به خاصة، والحب الطبيعيّ هو الذي يطلب به جميع نيل أغراضه سواء سر ذلك المحبوب أو لم يسرّه، وعلى هذا أكثر حب الناس اليوم، فلنقدّم أوّلاً الكلام على الحب الإلهيّ في وصل، ثم يتلوه وصل في الحب الروحانيّ، ثم يتلوه وصل ثالث في الحب الطبيعيّ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوصل الأوّل: في الحب الإلهيّ: وهو أن يحبنا لنا ولنفسه أما حبه إيانا لنفسه فهو قوله: «أحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرّفت إليه فعرفوني» فما خلقنا إلاّ لنفسه حتى نعرفه. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فما خلقنا إلاّ لنفسه. وأمّا حبّه إيانا لنا فلما عرفنا به من الأعمال التي تؤدّينا إلى سعادتنا ونجاتنا من الأمور التي لا توافق أغراضنا ولا تلائم طباعنا، خلق سبحانه الخلق ليسبحوه فنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له، ثم عرفنا بذلك فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] أي بالثناء عليه بما هو عليه وما يكون منه، وعرفنا أيضاً فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٤١] فلزم ذلك وثابر عليه وخاطب بهذه الآية نبيه ﷺ الذي أشهده ذلك ورآه فقال له: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يقل: ألم تروا فإنا ما رأينا فهو لنا إيمان وهو لمحمد ﷺ عيان، وكذا قال له أيضاً لما أشهده سجود كل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فما ترك أحداً فإنه ذكر من في السموات ومن في الأرض فذكر العالم العلويّ والسفليّ فأشهده سجود كل شيء، فكل من أشهده الله ذلك ورآه دخل تحت هذا الخطاب، وهذا تسبيح فطريّ ذاتيّ عن تجلّ تجلى لهم فأحبوه فانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف بل اقتضاء ذاتي، وهذه هي العبادة الذاتية التي أقامهم الله فيها بحكم الاستحقاق الذي يستحقه، وكذلك قال في أهل الكشف وهم عامّة الإنس وكل عاقل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٨] هذا حظ النعيم البصري، ثم أخبر أن ذلك التفيؤ يميناً وشمالاً أنه سجود لله وصغار وذلة لجلاله فقال: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ فوصفهم بعقليتهم أنفسهم حتى سجدوا لله داخرين، ثم أخبر فقال متمماً: ﴿وَلِلَّهِ

يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ممّن يدب عليها يقول يمشي وهم يعني أهل السموات ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني التي ليست في سماء ولا أرض، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٩] يعني عن عبادة ربهم. ثم وصفهم بالخوف ليعلمنا أنهم عالمون بمن سجدوا له.

ثم وصف المأمورين منهم أنهم يفعلون ما يؤمرون، وهم الذين قال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ثم قال في الذين هم عند ربهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٨] أي لا يملون، كل ذلك يدل على أن العالم كله في مقام الشهود والعبادة إلاّ كل مخلوق له قوّة التفكّر وليس إلاّ النفوس الناطقة الإنسانية والجانية خاصة من حيث أعيان أنفسهم لا من حيث هياكلهم، فإن هياكلهم كسائر العالم في التسبيح له والسجود، فأعضاء البدن كلها بتسبيحه ناطقة، ألا تراها تشهد على النفوس المسخرة لها يوم القيامة من الجلود والأيدي والأرجل والألسنة والسمع والبصر وجميع القوى ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٢] وهذا كله من حكم حبّه إيانا لنفسه، فمن وفى شكره، ومن لم يوف عاقبه، فنفسه أحب، وتعظيمه والثناء عليه أحب، وأما حبّه إيانا لنا فإنه عرّفنا بمصالحنا دنيا وآخرة، ونصب لنا الأدلة على معرفته حتى نعلمه ولا نجهله، ثم إنه رزقنا وأنعم علينا مع تفريطنا بعد علمنا به وإقامة الدليل عندنا، على أن كل نعمة نتقلب فيها إنما ذلك من خلقه وراجعة إليه، وإنه ما أوجدها إلاّ من أجلنا لننعم بها ونقيم بذلك وتركنا نرأس ونربع. ثم أنه بعد هذا الإحسان التامّ لم نشكره والعقل يقضي بشكر المنعم، وقد علمنا أنه لا محسن إلاّ الله، فمن إحسانه أن بعث إلينا رسولاً من عنده معلماً ومؤدّباً فعلمنا بمالنا في نفسه، فشرع لنا الطريق الموصل إلى سعادتنا وأبانه وحذرنا من الأمور المردية واجتناب سفساف الأخلاق ومذامها، ثم أقام الدلالة على صدقه عندنا فجاء بالبينات وقذف في قلوبنا نور الإيمان وحبّبه إلينا وزيّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان فآمنا وصدقنا ثم منّ علينا بالتوفيق فاستعملنا في محابه ومراضيه، فعلمنا أنه لولا ما أحبنا ما كان شيء من هذا كله، ثم أن رحمته سبقت غضبه وإن شقي من شقي، فلا بدّ من شمول الرحمة والعناية والمحبة الأصلية التي تؤثر في العواقب.

ولما سبقت المحبة وحقّت الكلمة وعمّت الرحمة وكانت الدار الدنيا دار امتزاج وحجاب بما قدّره العزيز العليم خلق الآخرة ونقلنا إليها وهي دار لا تقبل الدعاوى الكاذبة، فأقرّ الجميع بربوبيته هناك، كما أقرّوا بربوبيته في قبضة الذر من ظهر آدم، فكنا في الدار الدنيا وسطاً بين طرفين: طرفي توحيد وإقرار، وفي الوسط وقع الشرك مع ثبوت الوجود فضعف الوسط ولذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فنسبوا العظمة والكبرياء إلى الله تعالىٰ في شركهم. ثم أخبر تعالىٰ أنه طبع على قلب كل من ظهر في ظاهر لقومه بصفة الكبرياء والجبروت، وما جعل ذلك في قلوبهم بسبب طابع العناية فهم عند نفوسهم بما يجدونه من العلم الضروري أذلاء صاغرين لذلك الطابع، فما دخل الكبرياء على

الله قلب مخلوق أصلاً، وإن ظهرت منه صفات الكبرياء فثوب ظاهر لا بطانة له منه، وهذا كله من رحمته ومحبته في خلقه ليكون المآل إلى السعادة، فلما ضعف الوسط وتقوّى الطرفان غلب في آخر الأمر وامتلأت الداران وجعل في كل واحدة منهما نعيماً لأهلها يتنعمون به بعدما طهرهم الله بما نالوه من العذاب لينالوا النعيم على طهارة، ألا ترى المقتول قوداً كيف يطهره ذلك القتل من ظلم القتل الذي قتل من قتل به فالسيف محاء، وكذلك إقامة الحدود في الدنيا كلها تطهير للمؤمنين حتى قرصة البرغوث والشوكة يشاكها، وثم طائفة أخرى تقام عليهم حدود الآخرة في النار ليتطهروا ثم يرحمون في النار لما سبق من عناية المحبة وإن لم يخرجوا من النار، فحب الله عباده لا يتصف بالبدء ولا بالغاية فإنه لا يقبل الحوادث ولا العوارض، لكن عين محبته لعباده عين مبدأ كونهم متقدميهم ومتأخريهم إلى ما لا نهاية له، فنسبة حب الله لهم نسبة كينونته كانت معهم أينما كانوا في حال عدمهم وفي حال وجودهم، فكما هو معهم في حال وجودهم هو معهم في حال عدمهم لأنهم معلومون له مشاهد لهم محب فيهم لم يزل ولا يزال لم يتجدد عليه حكم لم يكن عليه بل لم يزل محباً خلقه كما لم يزل عالماً بهم، فقوله: «فأحببت أن أعرف» تعريفاً لنا ممّا كان الأمر عليه في نفسه كل ذلك كمالاً يليق بجلاله لا يعقل تعالىٰ إلاّ فاعلاً خالقاً وكل عين فكانت معدومة لعينها معلومة له محبوباً له إيجادها ثم أخذت له الوجود بل أحدث فيها الوجود بل كساها حلة الوجود فكانت هي ثم الأخرى ثم الأخرى على التوالي والتتابع من أوّل موجود المستند إلى أولية الحق، وما ثم موجود آخر بل وجود مستمر في الأشخاص فالآخر في الأجناس والأنواع، وليس الأشخاص في المخلوقات إلاّ في نوع خاص متناهية في الآخرة وإن كانت الدنيا متناهية، فالأكوان جديدة لا نهاية لتكوينها لأن الممكنات لا نهاية لها فأبدها دائم كما الأزل في حق الحق ثابت لازم، فلا أوّل لوجوده فلا أوّل لمحبته عباده سبحانه ذكر المحبة يحدث عند المحبوب عند التعريف الإلهيّ لا نفس المحبة، القرآن كلام الله لم يزل متكلماً ومع هذا قال معرّفاً: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] **فحدث عندنا الذكر لا في نفسه من سيدنا ومالكنا ومصلحنا ومغذينا وما يأتينا** ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] **فحدث عندنا الذكر من الرحمن لا في نفسه**، فالرحمة والنعمة والإحسان في البدء والعاقبة والمآل، ولم يجر لاسم من أسماء الشقاء ذكر في الإتيان إنما هو رب أو رحمن ليعلمكم ما في نفسه لكم.

تكملة في الحب الإلهيّ: وهي كوننا نحب الله فإن الله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] ونسبة الحب إلينا ما هو نسبة الحب إليه والحب المنسوب إلينا من حيث ما تعطيه حقيقتنا ينقسم قسمين: قسم يقال فيه حب روحاني والآخر حب طبيعيّ، وحبنا الله تعالىٰ بالحبين معاً وهي مسألة صعبة التصور، إذ ما كل نفس ترزق العلم بالأمور على ما هي عليه، ولا ترزق الإيمان بها على وفق ما جاء من الله في إخباره عنه، ولذلك امتن الله بمثل هذا على نبيه ﷺ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فنحن بحمد الله ممّن شاء

من عباده وما بقي لنا بعد التقسيم في حبنا إياه إلاَّ أربعة أقسام وهي: إما أن نحبه له أو نحبه لأنفسنا أو نحبه للمجموع أو نحبه ولا لواحد ممّا ذكرناه، وهنا يحدث نظر آخر وهو لماذا نحبه، إذ وقد ثبت أنا نحبه فلا نحبه له ولا لأنفسنا ولا للمجموع، فما هو هذا الأمر الرابع؟ هذا فصل، وثم تقسيم آخر وهو وإن أحببناه فهل نحبه بنا أو نحبه به أو نحبه بالمجموع أو نحبه ولا بشيء ممّا ذكرناه؟ وكل هذا يقع الشرح فيه والكلام عليه إن شاء الله، وكذلك نذكر في هذه التكملة ما بدء حبنا إياه وهل لهذا الحب غاية فيه ينتهي إليها أم لا؟ فإن كانت له غاية فما تلك الغاية؟ وهذه مسألة ما سألني عنها أحد إلاَّ امرأة لطيفة من أهل هذا الشأن، ثم نذكر أيضاً إن شاء الله هل الحب صفة نفسية في الحب أو معنى زائد على ذاته وجوديّ أو هو نسبة بين المحب والمحبوب لا وجود لها؟ كل ذلك تحتاج إليه هذه التكملة، فاعلم أن الحب لا يقبل الاشتراك، ولكن إذا كانت ذات المحب واحدة لا تنقسم، فإن كانت مركبة جاز أن يتعلق حبها بوجوه مختلفة ولكن لأمور مختلفة وإن كانت العين المنسوب إليها تلك الأمور المختلفة واحدة أو تكون تلك الأمور في كثيرين فيه فتتعلق المحبة بكثيرين فيحب الإنسان محبوبين كثيرين، وإذا صحّ أن يحبّ المحب أكثر من واحد جاز أن يحب الكثير كما قال أمير المؤمنين: [الكامل]

مـلـكُ الـثَّـلاث الآنـسـاتِ عَـنَـانـي وحَـلَـلْـن مـن قـلـبـي بـكـلِّ مَـكَـانِ

هنا سرّ خفي في قوله عناني فأفرد وما أعطى لهؤلاء المحبوبين من نفسه أعنة مختلفة، فدلّ أن هذا المحب وإن كان مركباً فما أحب إلاَّ معنى واحداً قام له. في هؤلاء الثلاثة أي ذلك المعنى موجود في عين كل واحدة منهن، والدليل على ذلك قوله في تمام البيت: وحللن من قلبي بكل مكان، فلو أحب من كل واحدة معنى لم يكن في الأخرى لكان العنان الذي يعطي لواحدة غير العنان الذي يعطي الأخرى، ولكان المكان الذي تحلّه الواحدة غير المكان الذي تحلّه الأخرى، فهذا واحد أحب واحداً، وذلك الواحد المحبوب موجود في كثيرين فأحبّ الكثير لأجل ذلك، وهذا كحبّنا الله تعالىٰ له، ومنا من يحبه لنفسه ومنّا من يحبه للمجموع وهو أتم في المحبة لأنه أتم في المعرفة بالله والشهود، لأن منّا من عرفه في الشهود فأحبه للمجموع ومنّا من عرفه لا في الشهود ولكن في الخبر فأحبّه له، ومنا من عرفه في النعم فأحبّه لنفسه، ومنّا من أحبه للمجموع وذلك أن الشهود لا يكون إلاَّ في صورة والصورة مركبة والمحب ذو صورة مركبة فيسمع من وجه فيحبه للخبر مثل قوله على لسان نبيّه: هل واليت لي ولياً أو عاديت فيّ عدوّاً؟ فإذا أحببت الأشياء من أجله وعاديت الأشياء من أجله فهذا معنى حبّنا له ليس غير ذلك، فقمنا بجميع ما يحبه منّا أن نقوم به عن طيب نفس، ويكون من لا يشاهده من صورتي في حكم التبع كما هي الجوارح منّا وحيوانيتنا بحكم النفس الناطقة لا تقدر على مخالفتها لأنها كالآلات لها تصرّفها كيف تريد في مرضاة الله وفي غير مرضاته.

وكل جزء من جوارح الإنسان إذا ترك بالنظر إلى نفسه لا يتمكن له أن يتصرّف إلاَّ فيما يرضي الله فإنه له وجميع ما في الوجود بهذه المثابة إلاَّ الثقلان وهو قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا

﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] يريد بذلك التسبيح الثناء على الله لا للجزاء لأنه في عبادة ذاتية لا يتصوّر معها طلب مجازاة، فهذا من حبّه له سبحانه، إلاّ بعض النفوس الناطقة لما جعل لها في معرفة الله القوّة المفكرة لم تفطر على العلم بالله ولهذا قبض عليها في قبض الذرية من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم شهادة قهر فسجدت لله كرهاً لا طوعاً من أجل القبض عليها، ثم أرسلها مسرّحة من تلك القبضة الخاصة وهي مقبوض عليها من حيث لا تشعر فتخيلت أنها مسرّحة، فلما وجدت مدبرة لهذا الهيكل المظلم جرت في الأمور بحسب ما يعطيها غرضها لا تحب من الأمور إلاّ ما يلائم طبعها، وغفلت عن مشهد الإقرار بالربوبية عليها لموجدها، فبينا هي كذلك إذ قالت لها القوّة المفكرة: جميع القوىٰ قد استعملتها وغفلت عني وتركتني وأنا من بعض آلاتك وما لك بي عناية فاستعمليني فقالت لها: نعم لا تؤاخذيني فإني جهلت رتبتك وقد أذنت لك في التصرّف فيما تعطيه حقيقتك حتى أتحقق بما أنت عليه فأصرّفك فيه وأستعملك، فقالت: سمعاً، ثم ردّت وجهها القوّة الفكرية إليها كالمعلمة وقالت لها: لقد غفلت عن ذاتك وعن وجودك أنت لم تزالي هكذا موجودة لذاتك أو لم تكوني ثم كنت، قالت النفس: لم أكن ثم كنت، قال الفكر: فهذا الذي كوّنك عينك أو غيرك فكري وحققي واستعمليني فلهذا العمل أنا، ففكرت النفس فعلمت بما أعطاها الدليل أنها لم توجد لعينها وأنها موجودة لغيرها، فالفقر للموجد لها ذاتيّ بما تجده في نفسها ممّا يقوم بها من الآلام الطبيعية فتفتقر إلى الأسباب المعتادة لإزالة تلك الآلام، فبذلك الافتقار علمت أنها فقيرة في وجود لعينها للسبب الموجد لها، فلما ثبت لها حدوثها وثبت أن لها سبباً أوجدها ثم فكرت فعلمت أن ذلك السبب لا ينبغي أن يشبهها فيكون فقيراً مثلها وأنه لا يناسب هذه الأسباب المزيلة لآلامها لمشاهدتها حدوث هذه الأسباب بعد أن لم تكن وقبولها للاستحالات والفساد فثبت عندها أن لها موجداً أوجدها، وأوجد كل من يشبهها من الحوادث والأسباب المزيلة لآلامها فتنبهت أن ثم أمراً ما لولاه لبقيت ذات مرض وعلة، فمن رحمته بها أوجد لها هذه الأسباب المزيلة آلامها، وقد كانت تحب هذه الأسباب وتجري إليها بالطبع فانتقل تعلق ذلك الحب في السبب الموجد تلك الأسباب وقالت: هو أولى بي أن أحبه ولكن لا أعلم ما يرضيه حتى أعامله به، فحصل عندها حبّه فأحبته لما أنعم عليها من وجودها وجود ما يلائمها، وهنا وقفت وهي في ذلك كله غافلة ناسية إقرارها بربوبية موجدها في قبضة الذر، فبينا هي كذلك إذ جاءها داع من خارج من جنسها ادّعى أنه رسول من عند هذا الذي أوجدها فقالت له: أنت مثلي وأخاف أن لا تكون صادقاً فهل عندك من يصدقك؟ فإن لي قوّة مفكرة بها توصلت إلى معرفة موجدي، فقام لها بدليل يصدقه في دعواه ففكرت فيه إلى أن ثبت صدقه عندها فآمنت به، فعرّفها أن ذلك الموجد الذي أوجدها كان قد قبض عليها وأشهدها على نفسها بربوبيته وأنها شهدت له بذلك فقالت: ما عندي من ذلك خبر ولكن من الآن أقوم بواجب ذلك الإقرار فإنك صادق في خبرك ولكن ما أدري ما يرضيه من فعلي، فلو حددت حدوداً، ورسمت لي مراسم أقف عندها حتى تعلم أني ممّن وفى بشكره على ما أنعم به عليّ

فرسم لها ما شرع فقامت بذلك شكراً، وإن خالف غرضها ولم تفعل ذلك خوفاً ولا طمعاً لأنه لما رسم لها ما رسم ابتداء وعرفها أن وقوفها عند تلك المراسم يرضيه وما ذكر لها ما لها في ذلك من الثواب وما عليها إن خالفت من العقاب فبادرت هذه النفس الزكية لمراضيه في ذلك فقالت: لا إله إلاّ الله كما قيل لها، ثم بعد ذلك عرفها بما لها في ذلك من الثواب الجزيل والإنعام التام، وما لمن خالف شرعه من العقاب فانضاف إلى عبادتها إياه حباً ورضى خاصة عبادة أخرى تطلبها رغبة في الثواب ورهبة من العقاب، فجمعت في عبادتها بين أمرين: بين عبادة له وعبادة رغبة ورهبة، فأحبته له ولنفسها من حيث ما هي كثيرة بطبيعتها وروحانيتها، فتعلقت الرغبة والرهبة من حيث طبيعتها وتعلقت عبادتها إياه محبة له من روحانيتها، فإن أحبت شيئاً من الموجودات سواه فإنما تحبه من روحانيتها له ومن طبيعتها النيل غرضها.

فلما رآها الحق على ذلك وقد علم أن من حقيقتها الانقسام وقد جمعت بين الحبين وهو قد وصف نفسه بالغيرة فلم يرد المشاركة وأراد أن يستخلصها لنفسه فلا تحب سواه، فتجلّى لها في صورة طبيعية وأعطاها علامة لا تقدر على إنكارها في نفسها وهي المعبر عنها بالعلم الضروري، فعلمت أنه هو هذه الصورة فمالت إليه روحاً وطبعاً، فلما ملكها وعلم أن الأسباب لا بدّ أن تؤثر فيها من حيث طبيعتها أعطاها علامة تعرفه بها ثم تجلى لها بتلك العلامة في جميع الأسباب كلها فعرفته فأحبت الأسباب من أجله لا من أجلها فصارت بكلها له لا لطبيعتها ولا لسبب غيره، فنظرته في كل شيء فزهت وسرّت ورأت أنها قد فضلت غيرها من النفوس بهذه الحقيقة فتجلى لها في عين ذاتها الطبيعية والروحانية بتلك العلامة، فرأت أنها ما رأته إلاّ به لا بنفسها وما أحبته إلاّ به لا بنفسها، فهو الذي أحبّ نفسه ما هي أحبته، ونظرت إليه في كل موجود بتلك العين عينها فعلمت أنه ما أحبه غيره، فهو المحب والمحبوب والطالب والمطلوب، وتبين لها بهذا كله أن حبّها إياه له ولنفسها فما شاهدته في هذه المرتبة الأخرى من حبّها إياه إنما كان به لا بها ولا بالمجموع، وما ثم أمر زائد إلاّ العدم.

فأرادت أن تعرف ما قدر ذلك الحب وما غايته فوقفت على قوله: كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف وقد عرفته لما تجلى لها في صورة طبيعية فعلمت أنه يستحق من تلك الصورة التي ظهر لها فيها اسم الظاهر والباطن، فعلمت أن الحب الذي أحب به أن يعرف إنما هو في الباطن المنسوب إليه، وعلمت أن المحب من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس لما في ذلك التنفس من لذة المطلوب، فخرج ذلك النفس عن أصل محبة في الخلق الذي يريد التعرف إليهم ليعرفوه، فكان العماء المسمّى بالحق المخلوق به، فكان ذلك العماء جوهر العالم، فقبل صور العالم وأرواحه وطبائعه كلها وهو قابل إلى ما لا يتناهى، فهذا بدء حبه إيانا.

وأما حبنا إياه فبدؤه السماع لا الرؤية وهو قوله لنا ونحن في جوهر العماء: ﴿كُن﴾ فالعماء من نفسه والصور المعبر عنها بالعالم من كلمة ﴿كُن﴾ فنحن كلماته التي لا تنفد، قال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ وهي عيسىٰ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو

النفس، وتلك الحقيقة سارية في الحيوان، فإذا أراد الله إماتته أزال عنه النفس، فبالنفس كانت حياته، وسيأتي في باب النفس صور التكوينات عنه في العالم، فلما سمعنا كلامه ونحن ثابتون في جوهر العماء لم نتمكن أن نتوقف عن الوجود فكنا صوراً في جوهر العماء فأعطينا بظهورنا في العماء الوجود للعماء بعدما كان معقولي الوجود حصل له الوجود العيني، فهذا كان سبب بدء حبنا إياه، ولهذا نتحرك ونطيب عند سماع النغمات لأجل كلمة ﴿كُن﴾ الصادرة من الصورة الإلهية غيباً وشهادة، فشهادة صورة كلمة ﴿كُن﴾ إثنان: كاف ونون، وهكذا عالم الشهادة له وجهان: ظاهر وباطن، فظاهره النون وباطنه الكاف، ولهذا مخرج الكاف في الإنسان أدخل لعالم الغيب فإنه من آخر حروف الحلق بين الحلق واللسان والنون من حروف اللسان وغيب هذه الكلمة هو الواو بين الكاف والنون وهي من حروف الشفتين فلها الظهور وهي حرف علة لا حرف صحيح، ولهذا وجد عنه التكوين لأنه حرف علة، ولما كان من حروف الشفتين بامتداد النفس من خارج الشفتين إلى ظاهر الكون لهذا كان ظهور الحكم في الجسم للروح، فظهرت منه الأفعال والحركات من أجل روحه، وكان روحه غيباً لأن الواو لا وجود لها في الشهادة لأنها حذفت لسكونها وسكون النون فهي تعمل من خلف الحجاب فهي غائبة العين ظاهرة الحكم، فغاية حبنا إياه أن نعلم حقيقة ما حبنا؟ هل هو صفة نفسية للمحب أو معنوية فيه؟ أو نسبة بين المحب والمحبوب وهي العلاقة التي تجذب المحب لطلب الوصلة بالمحبوب؟ فقلنا: هي صفة نفسية للمحب. فإن قيل: نراها تزول. قلنا: من المحال زوالها إلاَّ بزوال المحب من الوجود والمحب لا يزول من الوجود فالمحبة لا تزول، وإنما الذي يعقل زواله إنما هو تعلقه بمحبوب خاص يمكن أن يزول ذلك التعلّق الخاص، وتزول تلك العلاقة بذلك المحبوب المعين، وتتعلق بمحبوب آخر وهي متعلقة بمحبوبين كثيرين، فتنقطع العلاقة بين المحب ومحبوب خاص وهي موجودة في نفسها فإنها عين المحب فمن المحال زوالها، فالحب هو نفس المحب وعينه لا صفة معنى فيه يمكن أن ترتفع فيرتفع حكمها، فالعلاقة هي النسبة بين المحب والمحبوب، والحب هو عين المحب لاغيره، فصف بالحب من شئت من حادث وغيره فليس الحب سوى عين المحب، فما في الوجود إلاَّ محب ومحبوب، لكن من شأن المحبوب أن يكون معدوماً ولا بدّ فيجب إيجاد ذلك المعدوم أو وقوعه في موجود ولا بدّ لا في معدوم، هذا أمر محقق لا بدّ منه، فالعلاقة التي في المحب إنما هي في ذلك الموجود الذي يقبل وجود ذلك المحبوب أو وقوعه لا وجوده إذا كان المحبوب لا يمكن أن يتصف بالوجود ولكن يتصف بالوقوع، مثال ذلك أن يحب إنسان إعدام أمر موجود لما في وجوده من الضرر في حقّه كالألم فإنه أمر وجودي في المتألم فيحب إعدامه فمحبوبه الإعدام وهو غير واقع، فإذا زال الألم فإزالته عدمه بعد وجوده بانتقاله إلى العدم، فلهذا قلنا في مثل هذا بالوقوع لا بالوجود، فالمحبوب معدوم أبداً ولا تصح محبة الموجود جملة واحدة إلاَّ من حيث العلاقة إذ لا تتعلق إلاَّ بموجود يظهر فيه وجود ذلك المحبوب المعدوم، وقد بيّناه قبل هذا في هذا الباب، فقد تبين لك في هذه التكلمة ماهية

الحب وبدؤه وغايته وبما أحب المحب وحبه لمحبوبه أو لنفسه، كل ذلك قد تبين، فلنعدل إلى الكلام في الوصل الثاني إن شاء الله تعالىٰ، فقد حصل في الحب الإلٰهيّ ما فيه غنية على قدر الوقت. انتهى الجزء الثالث عشر ومائة.

(الجزء الرابع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الوصل الثاني: في الحب الروحاني وهو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوبه لمحبوبه ولنفسه، إذ كان الحب الطبيعيّ لا يحب المحبوب إلاّ لأجل نفسه. فاعلم أن الحب الروحاني إذا كان المحب موصوفاً بالعقل والعلم كان بعقله حكيماً وبحكمته عليماً، فرتب الأمور ترتيب الحكمة ولم يتعد بها منازلها، فتعلم إذا أحب ما هو الحب وما معنى المحب وما حقيقة المحبوب وما يريد من المحبوب وهل لمحبوبه إرادة واختيار فيحب ما يحب المحبوب أم لا إرادة له فلا يحب إلاّ لنفسه؟ أو الموجود الذي لا يريد وجود محبوبه إلاّ في عين ذلك الموجود، فبهذا القدر نقول في الموجود أنه محبوب وإن لم يكن إلاّ فيه لا عينه، فذلك الموجود إن كان ممّن يتصف بالإرادة فيمكن أن يحبه له لا لنفسه، وإن لم يتصف بالإرادة فلا يحب المحب محبوبه إلاّ لنفسه أعني لنفس المحب لا لمحبوبه، فإن محبوبه غير موصوف بأن له محبة في شيء أو غرضاً، لكن الذي يوجد فيه هذا المحبوب قد يكون ذا إرادة فيتعين على المحب أن يحب محبوب ذلك الموجود فيحبه له، ولكن بحكم التبع هذا تعطيه المحبة فإن المحب يطلب بذاته الوصلة بعد طلبه وجود محبوبه فإن عين وجود محبوبه عين وصلته لا بدّ من ذلك وهو قولنا: [المتقارب]

زمــانُ الــوجــودِ زمــانُ الــوصــالْ ... زمــانُ الــودادِ كُــلُــوا واشْــرَبُــوا

وهذا البيت من قصيدة لنا في مجلى حقيقة تجلت لنا في حضرة شهودية وهي: [المتقارب]

تـعـجَّـبْـتُ مـن زيـنـبٍ فـي الـهـوى ... ولـيـس لـنـا غَـيْـرَهـا مَـذْهَـبُ
فـلـمـا تَـجَـلَّـى لـنـا نـورُ مَـنْ ... أنـار الـحَـشَـى فـانْـجَـلَـى الـغَـيْـهَـبُ
بـذلـتُ لـهـا نَـفْـسَـهـا ضِـنَّـةً ... بـهـا والـهـوى أبـداً مُـشْـعِـبُ
فـلـم يَـكُ بـيـن حُـصـول الـهَـوَى ... ونَـيْـلِ الـمُـنَـى أَمَـدٌ يُـضْـرَبُ

لأنه عندما يحصل الهوى يقع التنفس والتنهّد فيخرج النفس بشكل ما تصوّر في نفس المحب من صورة المحبوب فيظهره صورة من خارج يشاهدها فيحصل له مقصوده ونعيمه بها من غير زمان كما تقدم في ذكر وجود العماء فتممنا وقلنا بعد هذا في القصيدة عينها: [المتقارب]

تـعـجَّـبْـتُ مـن رحـمـة الله بـي ... ومـن مـثـل ذا يَـنْـبَـغـي تَـعْـجَـبُـوا
زمــانُ الــوداد زمــانُ الــوجــودِ ... زمــانُ الــوصــالِ كـلـوا واشْـربُـوا

فأين الغرامُ وأين السَّقامُ وأين الهُيَامُ ألا فاعْجَبُوا
مطهَّرَةُ الثَّوْبِ مَحْجُوبةٌ فليست إلى أحدٍ تُنْسَبُ

فإن المحبوب كما قلنا لا بدّ أن يكون معدوماً وفي حال عدمه فهو طاهر الثوب في أوّل ما يوجد لأنه ما اكتسب منه ممّا يشينه ويدنسه في أوّل ظهوره ووجوده، فالأصل الطهارة وهو قوله: «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**» وهي الطهارة. وقولنا: محجوبة هو عدمها الذي قلنا من شهود الوجود. وقولنا: فليست إلى أحد تنسب لأن المعدوم لا ينسب ولكن المحب يطلبه لنفسه، ثم تممنا فقلنا وهو آخر القصيدة: [المتقارب]

فقد وَجَبَ الشُّكْرُ لله إذ هي البِكْرُ لي وأنا الثَّيِّبُ

لأن المحبوب وجد عن عدم فهو بكر، وقد كنت أحببت قبل ذلك فأنا ثيب، فإذا كان المحبوب الذي هو المعدوم إذا وجد لا يوجد في موجود يتصف بالإرادة لم يتصف هذا المحب بأنه يريده له فيحبه لنفسه بالضرورة كالحب الطبيعيّ، فإذا كان المحبوب لا يوجد إلاّ في موجود متصف بالإرادة كالحق تعالىٰ أو جارية أو غلام وما ثم من يتعلق به حب المحب إلاّ من ذكرناه فحينئذ يصحُّ أن يحب ما يحب هذا الموجود الذي لا يوجد محبوبه إلاّ فيه، فإن اتفق أن يكون ذلك لا يريد ما أحب هذا المحب بقي المحب على أصله في محبته محبوبه لأن محبوبه ما له إرادة كما قلنا، فلا يلزم من هذا أن يحب ما أحب هذا الموجود الذي لا يحب ما يحبه هذا المحب، إذ كان ذلك الموجود ما هو عين المحبوب وإنما هو محل لوجود ذلك المحبوب، وليس في قوّة المحب إيجاد ذلك المحبوب في هذا الوجود إلاّ إن أمكنه من نفسه.

وأما إن كان المحبوب ممّن لا يكون وجوده في موجود فلا يتمكن له إيجاد المحبوب البتة إلاّ أن تقوم من الحق به عناية فيعطيه التكوين كعيسىٰ عليه السلام ومن شاء الله من عباده، فإذا أعطى هذا فبالضرورة يحمله الحب على إيجاد محبوبه، وهذه مسألة لا تجدها محققة على ما ذكرناه فيها في غير هذا الكتاب، لأني ما رأيت أحداً حقق فيها ما ذكرناه وإن كان المحبون كثيرين بل كل من في الوجود محب ولكن لا يعرف متعلق حبه، وينحجبون بالموجود الذي يوجد محبوبه فيه فيتخيلون أن ذلك الموجود محبوبهم وهو على الحقيقة بحكم التبعية، فعلى الحقيقة لا يحب أحد محبوباً لنفس المحبوب وإنما يحبه لنفسه هذا هو التحقيق، فإن المعدوم لا يتصف بالإرادة فيحبه المحب له ويترك إرادته لإرادة محبوبه، ولما لم يكن الأمر في نفسه على هذا لم يبق إلاّ أن يحبه لنفسه فافهم.

فهذا هو الحب الروحاني المجرد عن الصورة الطبيعية فإن تلبس بها وظهر فيها كما قلنا في الحب الإلهيّ وهو في الروحانيّ أقرب نسبة لأنه على كل حال صورة من صور العالم، وإن كان فوق الطبيعة فاعلم أنه إذا قبل الروح الصورة الطبيعية في الأجساد المتخيلة لا في الأجسام المحسوسة التي جرت العادة بإدراكها فإن الأجساد المتخيلة أيضاً معتادة الإدراك، لكن ما كل من يشهدها يفرق بينها وبين الأجسام الحقيقية عندهم، ولهذا لم يعرف الصحابة جبريل حين نزل في صورة أعرابيّ، وما علمت أن ذلك جسد متخيل حتى عرّفهم النبي ﷺ

لما قال لهم: هذا جبريل ولم يقم بنفسهم شك أنه عربي، وكذلك مريم حين تمثل لها الملك بشراً سوياً لأنه ما كانت عندها علامة في الأرواح إذا تجسدت، وكذا يظهر الحق لعباده يوم القيامة فيتعوّذون منه لعدم معرفتهم به، فكان الحكم في الجناب الإلهيّ والروحاني في الصور سواء في حق المتجلى له من الجهل به، فلا بدّ لمن اعتنى الله به من علامة بها يعرف تجلي الحق من تجلي الملك من تجلي الجان من تجلي البشر إذا أعطوا قوّة الظهور في الصور كقضيب البان وأمثاله، فإذا كان البشر بهذه النشأة الترابية العنصرية له قوة التحوّل في الصور في عين الرائي وهو على صورته فهذا التحوّل في الأرواح أقرب، فاعلم من ترى وبماذا ترى وما هو الأمر عليه؟ وقد بيّنا ذلك في باب المعرفة في علم الخيال فانظره هناك، فإذا تجلّى الروح في صورة طبيعية مشى الحكم عليها كما ذكرناه في الحب الإلهي، سواء من حيث قبول تلك الصورة للظاهر والباطن لا تعدل عن ذلك المجرى فاعلم ذلك، فيجمع الروحاني بين الحب الطبيعي والروحاني وبين الحب لنفسه ولمحبوبه إن كان محبوبه كما قلنا ذا إرادة، ويتبين لك بما قررناه أن الناس لا يعرفون ما يحبون، وأنه يندرج محبوبهم في موجود ما فيتخيلون أنهم يحبون ذلك الموجود وليس كذلك، فاعلم قدر ما أعلمتك به واشكر الله حيث خلصك من الجهل بي، وهذا القدر كاف في الغرض المقصود، فإن فيه تفاريع كثيرة وغرضنا في هذا الكتاب تحصيل الأصول والحمد لله.

الوصل الثالث: في الحب الطبيعي وهو نوعان: طبيعي وعنصري، ونسينا أن نذكر غاية الحب الروحاني فلنذكره في الحب الطبيعي لتعلقه بالصورة الطبيعية فغايته الاتحاد، وهو أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب، وذات المحب عين ذات المحبوب وهو الذي تشير إليه الحلولية ولا علم لها بصورة الأمر، فاعلم أن الصورة الطبيعية على أي حال كان ظهورها جسماً أو جسداً بأي نسبة كانت فإن المحبوب الذي هو المعدوم وإن كان معدوماً فإنه ممثل في الخيال فله ضرب من ضروب الوجود المدرك بالبصر الخيالي في الحضرة الخيالية بالعين الذي تليق بها، فإذا تعانق الحبيبان وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه وتخلل ذلك الريق في ذات كل واحد من الحبيبين وتنفس كل واحد من الصورتين عند التقبيل والعناق فخرج نفس هذا فدخل في جوف هذا ونفس هذا في جوف هذا وليس الروح الحيواني في الصور الطبيعية سوى ذلك النفس وكل نفس فهو روح كل واحد من المتنفسين وقد حيي به من قبله في حال التنفيس والتقبيل فصار ما كان روحاً لزيد هو بعينه يكون روحاً لعمرو، وقد كان ذلك النفس خرج من حب فتشكل بصورة حب فصحبته لذة المحبة، فلما صار روحاً في هذا الذي انتقل إليه، وصار نفس الآخر روحاً في هذا الآخر عبر عن ذلك بالاتحاد في حق كل واحد من الشخصين وصحّ له أن يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. وهذا غاية الحب الروحاني في الصور الطبيعية وهو قوله في القصيدة في أوّل هذا الباب: روحاً بروح وجثماناً بجثمان.

ثم نرجع إلى الحب الطبيعي فنقول: إن الحب الطبيعيّ هو العام، فإن كل ما تقدّم من الحب في الموصوفين به قبلوا الصور الطبيعية على ما تعطيه حقائقهم، فاتصفوا في حبهم بما

تتصف به الصور الطبيعية من الوجد والشوق والاشتياق، وحب اللقاء بالمحبوب ورؤيته والاتصال به، وقد وردت أخبار كثيرة صحاح في ذلك يجب الإيمان بها مثل قوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» مع كونه ما زال من عينه ولا يصحّ أن يزول عن عينه فإنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٧] و ﴿رَقِيبًا﴾ ومع هذا فجاء باللقاء في حقّه وفي حق عبده، ووصف نفسه بالشوق إلى عباده، وأنه أشد فرحاً ومحبة في توبة عبده من الذي ضلّت راحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوية ثم يجدها بعدما يئس من الحياة وأيقن بالموت فكيف يكون فرحه بها؟ فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الشخص براحلته مع غناه سبحانه وقدرته ونفوذ إرادته في عباده، ولكن انظر في سرّ قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فتعلم أنه ما تعدّى بالأمور استحقاقها وأن مرتبة العلم ما فوقها مرتبة وقد قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة قٓ: ٢٩] لأنه خلاف المعلوم فوقوعه محال، فالأمر وإن كان ممكناً بالنظرإليه فليس بممكن بالنظر إلى علم الله فيه بوقوع أحد الإمكانين وأحدية المشيئة فيه، وما تعلقت المشيئة الإلهية بكونه فلا بدّ من كونه، وما لا بدّ من وقوعه لا يتصف بالإمكان بالنظر إلى هذه الحقيقة، ولهذا عدل من عدل من الناظرين في هذا الشأن من إطلاق اسم الممكن عليه إلى اسم الواجب الوجود بالغير وهو أولى في التحقيق لأحدية المشيئة ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣٧] حيث ما قاله، ولو حرف امتناع لامتناع فقد سبقت المشيئة بما سبقت كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧١] فكان اسم وجوب الوجود بالغير أكمل في نسبة الأمر من اسم الممكن، إذ ما ثم إلاّ أمر واحد كلمح بالبصر فزال الاحتمال فزال الإمكان، فما ثم إلاّ وجوب مطلق أو وجوب مقيد.

ثم نرجع ونقول: اعلم أن الحب الطبيعيّ من ذاته إذا قام بالمحب أن لا يحب المحبوب إلاّ لما له فيه من النعيم به واللذة فيحبه لنفسه لا لعين المحبوب، وقد تبين لك فيما تقدم أن هذه الحقيقة سارية في الحب الإلهيّ والروحانيّ، فأما بدء الحب الطبيعيّ فما هو للإنعام والإحسان، فإن الطبع لا يعرف ذلك جملة واحدة، وإنما يحب الأشياء لذاته خاصة فيريد الاتصال بها والدنو منها وهو سار في كل حيوان وهو في الإنسان بما هو حيوان، فيحبه الحيوان في نفس الأمر لقوام وجوده به لا لأمر آخر، ولكن لا يعرف معنى قوام وجوده، وإنما يجد داعية من نفسه للاتصال بموجود معين ذلك الاتصال هو محبوبه بالأصالة، وذلك لا يكون إلاّ في موجود معين، فيحب ذلك الوجود بحكم التبعية لا بالأصالة، فاتصاله اتصال محسوس وقرب محسوس وهو قولنا: وجثماناً بجثمان، فهذا هو غاية الحب الطبيعيّ، فإن كان نكاحاً عين محبوبه في موجود ما، فغايته حصول ذلك المحبوب في الوجود فيطلب ويشتاق للمحل الذي يظهر فيه عين محبوبه ولا يظهر إلاّ بينهما لا في واحد منهما لأنها نسبة بين اثنين، وكذلك إن كان عناقاً أو تقبيلاً أو مؤانسة أو ما كان، ولا فرق بين أن تقول طبيعة الشيء أو حقيقته كل ذلك سائغ في العبارة عنه وهو في الإنسان أتم من غيره لأنه جامع حقائق العالم والصورة الإلهية فله نسبة إلى الجناب الأقدس فإنه عنه ظهر، وعن قوله: ﴿كُن﴾

تكوّن، وله نسبة إلى الأرواح بروحه وإلى عالم الطبيعة والعناصر بجسمه من حيث نشأته، فهو يحب كل ما تطلبه العناصر والطبيعة بذاته، وليس إلاّ عالم الأجسام والأجساد والأرواح، ومنها أجسام عنصرية وكل جسم عنصريّ فهو طبيعيّ، ومنها أجسام طبيعية غير عنصرية، فما كل جسم طبيعيّ عنصريّ، فالعناصر من الأجسام الطبيعية لا يقال فيها عنصرية، وكذلك الأفلاك والأملاك، ولهذا عرفنا أن الملأ الأعلى يختصمون فيدخلون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨] وهم يخالفون هؤلاء المرحومين مخالفيهم ولذلك خلقهم أي من أجل الخلاف خلقهم لأنّ الأسماء الإلهية متفاضلة، فمن هناك صدر الخلاف أين الضار من النافع والمعزّ من المذل والقابض من الباسط؟ وأين الحرارة من البرودة؟ وأين الرطوبة من اليبوسة؟ وأين النور من الظلمة؟ وأين العدم من الوجود؟ وأين النار من الماء؟ وأين الصفراء من البلغم؟ وأين الحركة من السكون؟ وأين العبودية من الربوبية؟ أليست هذه متقابلات فلا يزالون مختلفين، وأين التحليل من التحريم في العين الواحدة للشخصين؟ فيحرم على هذا ما يحلّ لهذا، فيتوارد حكمان مختلفان على عين واحدة، فانظر حكم الطبيعة المتضادة من أين صدرت وما كان سبب وجودها متقابلة من العلم الإلهيّ لتعلموا أنه ليس بيد أحد من المخلوقين ممّا سوى الله من الأمر شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى أن الآخرة ذات دارين: رؤية وحجاب، فالحمد لله الذي أبان لنا عن الأمور ومصادرها ومواردها وجعلنا من العارفين بها، فالله يجعلنا ممّن أسعده بما علمه، فقد تبين لك أن المحبوب هو الاتصال بموجود ما من كثيرين أو قليلين، ومع كونه مؤانسة ومجالسة وتقبيلاً وعناقاً وغير ذلك بحسب ما تقتضيه حقيقة الموجود فيه عين المحبوب، وبحسب حقيقة المحب، فالمحبوب واحد العين متنوّع وهو حب الاتصال خاصة، إما بحديث أو ضم أو تقبيل، هذا تنوّعه في واحد أو كثيرين، فلا يصحّ أن يحب المحب اثنين أصلاً لأنّ القلب لا يسعهما. فإن قلت: هذا يمكن أن يصحّ في حب المخلوق، وأما في حب الخالق فلا فإنه قال: يحبهم فأحب كثيرين قلنا: الحب معقول المعنى وإن كان لا يحد فهو مدرك بالذوق غير مجهول ولكن عزيز التصوّر وهو مجهول النسبة إلى الله تعالىٰ، فإنّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فقولك: وأما في حب الحق فلا، هذا تحكم منك فإنه لا يقول هذا إلاّ من يعرف ذات الحق وهي لا تعرف فلا تعرف النسبة وتعرف المحبة، فإنه ما خاطب عباده إلاّ بلسانهم وبما يعرفونه في لغتهم من كل ما ينسبه إلى نفسه ووصف أنه عليه ولكن كيفية ذلك مجهولة.

وصل: وأما القسم الثاني وهو الحب العنصري فهو وإن كان طبيعياً فبين القسمين فارق، وذلك أن الطبيعيّ لا يتقيد بصورة طبيعية دون صورة طبيعية وهو مع كل صورة كما هو مع الأخرى في الحب مثل الكهرباء مع ما يتعلق بها ومسكه بالخاصية، وأما العنصري فهو الذي يتقيد بصورة طبيعية وحدها كقيس ليلى، وقيس لبنى، وكثير عزة، وجميل بثنية، ولا يكون هذا إلاّ لعموم المناسبة بينهما كمغناطيس الحديد ويشبهه في الحب الروحانيّ، ﴿وَمَا مِنَّآ

إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤]، ويشبهه من الحب الإلهيّ التقييد بعقيدة واحدة دون غيرها، كما يشبه الروحانيّ الطبيعيّ في الطهارة، ويشبه الإلهيّ الطبيعيّ في الذي يراه في جميع العقائد عيناً واحدة.

وصل: واعلم أن الحب كما قلناه وإن كان له أربعة ألقاب، فلكل لقب حال فيه ما هو عين الآخر فلنبين ذلك كله، فمن ذلك الهوى ويقال على نوعين وهما في الحب: النوع الواحد سقوطه في القلب وهو ظهور من الغيب إلى الشهادة في القلب يقال: هوى النجم إذا سقط يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] فهو من أسماء الحب في ذلك الحال، والفعل منه هَوِيَ يَهْوَى بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المستقبل، والاسم منه هوى وهو الهوى، وهذا الاسم هو الفعل الماضي من الهويّ الذي هو السقوط، يقال: هوى بفتح عين الفعل في الماضي يهوي بكسرها في المستقبل والاسم منه هويّ، وسبب حصول المعنى الذي هو الهوى في القلب أحد ثلاثة أشياء أو بعضها أو كلها، إما نظرة أو سماع أو إحسان وأعظمها النظر وهو أثبتها فإنه لا يتغير باللقاء، والسماع ليس كذلك فإنه يتغير باللقاء فإنه يبعد أن يطابق ما صوّره الخيال بالسماع صورة المذكور، وأما حب الإحسان فمعلول تزيله الغفلة مع دوام الإحسان لكون عين المحسن غير مشهودة. وأما الهوى الثاني: فلا يكون إلاّ مع وجود حكم الشريعة وهو قوله لداود: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] يعني لا تتبع محابك بل اتبع محابي وهو الحكم بما رسمته لك، ثم قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يحيرك ويتلفك ويعمي عليك السبيل الذي شرعته لك وطلبت منك المشي عليه وهو الحكم به، فالهوى هنا محاب الإنسان، فأمره الحق بترك محابه إذا وافق غير الطريق المشروعة له. فإن قلت: فقد نهاه عمّا لا يصحّ أن ينتهي عنه فإن الحب الذي هو الهوى سلطانه قوي ولا وجود لعين العقل معه. قلنا: ما كلفه إزالة الهوى فإنه لا يزول، إلاّ أن الهوى كما قلنا يختلف متعلقه ويكون في موجودين كثيرين، وقد بيّنا أن الهوى الذي هو الحب حقيقته حب الاتصال في موجود ما أو كثيرين، فطلب منه تعالىٰ أن يعلّقه بالحق الذي شرع له وهو سبيل الله كما يعلقه بسبل كثيرة ما هي سبيل الله، فهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فما كلّفه ما لا يطيق، فإن تكليف ما لا يطاق محال على العالم الحكيم أن يشرعه، فإن احتججت بتكليف الإيمان من سبق في علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل وأمثاله قلنا: الجواب من وجهين: الوجه الواحد أني لست أعني بتكليف ما لا يطاق إلاّ ما جرت العادة به أنه لا يطيقه المكلف مثل أن يقول له: اصعد إلى السماء بغير سبب واجمع بين الضدّين فقم في الوقت الذي لا يقوم، وإنما كلفه ما جرت العادة به أن يطيقه وهو اعتقاد الإيمان أو التلفظ به، وكلاهما يجد كل إنسان في نفسه التمكن من مثل هذا كسباً أو خلقاً كيفما شئت فقل، ولهذا تقوم الحجة به لله على العبد يوم القيامة وقد قال قل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فلو كلّفه ما ليس في وسعه عادة لم يصحّ قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ بل كان يقول: ولله أن يفعل ما يريد، كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ومعنى ذلك أنه لا يقال للحق: لم كلفتنا

ونهيتنا وأمرتنا مع علمك بما قدّرته علينا من مخالفتك؟ هذا موضع ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] فإنه يقول لهم: هل أمرتكم بما تطيقونه أو بما لا تطيقونه عندكم؟ فلا بدّ أن يقولوا بما جرت العادة به أن نطيقه فقد كلفهم ما يطيقونه فثبت أن ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ فإنهم جاهلون بعلم الله فيهم زمان التكليف.

والجواب الثاني قد تقدم من أنه لا بدّ من الإيمان به وقد وقع في قبض الله الذرية. ويظهر حكمه في الآخرة فلا يبقى إلاّ مؤمن وهو في الدار الدنيا معترف بوجوده، وإن أشرك فما يشرك إلاّ بموجود، ولهذا ما طلب منه إلاّ توحيد الأمر له خاصة وهو محبوب الحق وهو معدوم منهم، وهو يحب توحيده أن يظهر في هؤلاء الموجودين، فهو وإن أحب واحداً فأحبه من كثيرين، فمن اتصف به أحبه الله لكون محبوبه وهو التوحيد ظهر فيه، ومن أبغضه فلكون محبوبه لم يظهر فيه وهو التوحيد، فمآل الكل إلى الإيمان، وقد قرّرنا ذلك في سبق الرحمة غضب الله فقد تبين لك معنى الهوى. وأما الحب فهو أن يتخلص هذا الهوى في تعلّقه بسبيل الله دون سائر السبل، فإذا تخلص له وصفا من كدورات الشركاء من السبل سمّي حباً لصفائه وخلوصه، ومنه سمي الحب الذي يجعل فيه الماء حباً لكون الماء يصفو فيه ويروق وينزل كدره إلى قعره، وكذلك الحب في المخلوقين إذا تعلق بجناب الحق سبحانه وتخلص له من علاقته بالأنداد الذين جعلها المشركون شركاء لله في الألوهة سمّي ذلك حباً بل قال فيه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥] وسبب ذلك أنه إذا كشف الغطاء ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٧] فزال حبّهم إياهم في ذلك الموطن وبقي المؤمنون على حبهم لله، فكانوا أشدّ حباً لله بما زادوا على أولئك في وقت رجوعهم عن حبهم آلهتهم حين لم تغن عنهم من الله شيئاً فلا يبقى مع المشركين يوم القيامة إلاّ حبهم لله خاصة فإنهم في الدنيا أحبوه وأحبوا شركاءهم على أنهم آلهة، ولولا ذلك التوهم والغلط ما أحبوهم فكان محبوبهم الألوهة، وتخيّلوها في كثيرين فأحبّوه وأحبّوا الشركاء، فإذا كان في القيامة كما ذكرنا لم يبق عندهم سوى حبّهم لله تعالىٰ فكانوا في الآخرة أشدّ حباً لله منهم له في الدنيا لكون حبّهم كان منقسماً فاجتمع عليه في الآخرة لما لم يعاين محبوبه وهو الألوهة إلاّ فيه خاصة، فلذلك كان سبق الرحمة وقوّة الطرفين وضعف الواسطة بما فيها من الشركة، وقد بيّنا ذلك كله فيما تقدم، فهذا الفرق بين الحب والهوى.

وأما العشق فهو إفراط المحبة أو المحبة المفرطة وهو قوله في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهو مع صفاته لو أخذ الذي هو مسمّى الحب وظهوره في حبة القلب الذي أيضاً به سمّي حباً، فإذا عمّ الإنسان بجملته وأعماه عن كل شيء سوى محبوبه وسرت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه وجرت فيه مجرى الدم في عروقه ولحمه وغمرت جميع مفاصله فاتصلت بوجوده وعانقت جميع أجزائه جسماً وروحاً ولم يبق فيه متسع لغيره وصار نطقه به وسماعه منه ونظره في كل شيء إليه ورآه في كل صورة وما يرى شيئاً إلاّ ويقول: هو

هذا، حينئذ يسمّى ذلك الحب عشقاً، كما حكي عن زليخا أنها افتصدت فوقع الدم في الأرض فانكتب به: يوسف يوسف، في مواضع كثيرة حيث سقط الدم لجريان ذكر اسمه مجرى الدم في عروقها كلها، وهكذا حكي عن الحلاج لما قطعت أطرافه انكتب بدمه في الأرض الله الله حيث وقع ولذلك قال رحمه الله: [السريع]

ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصَلٌ إلاّ وفيه لكم ذِكْرُ

فهذا من هذا الباب، وهؤلاء هم العشاق الذين استهلكوا في الحب هذا الاستهلاك وهو الذي يسمّى بالغرام، وسيأتي ذكره في نعت المحبين إن شاء الله.

وأما الودّ فهو ثبات الحب أو العشق أو الهوى أية حالة كانت من أحوال هذه الصفة فإذا ثبت صاحبها الموصوف بها عليها ولم يغيره شيء عنها ولا أزاله عن حكمها وثبت سلطانها في المنشط والمكره وما يسوء ويسر في حال الهجر والطرد من الموجود الذي يحب أن يظهر فيه محبوبه ولم يبرح تحت سلطانه لكونه مظهر محبوبه سمّي لذلك وداً وهو قوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٦] أي ثباتاً في المحبة عند الله وفي قلوب عباده، هذا معنى الودّ. وللحب أحوال كثيرة جداً في المحبين سأذكرها إن شاء الله مثل: الشوق والغرام والهيام والكلف والبكاء والحزن والكبد والذبول والانكسار، وأمثال ذلك ممّا يتصف به المحبون ويذكرونه في أشعارهم مفصلة إن شاء اللّه.

وقد يقع في الحب أغاليط كثيرة أوّلها ما ذكرناه وهو أنهم يتخيلون أن المحبوب أمر وجودي وهو أمر عدميّ يتعلق الحب به أن يراه موجوداً في عين موجودة، فإذا رآه انتقل حبّه إلى دوام تلك الحال التي أحبّ وجودها من تلك العين الموجودة، فلا يزال المحبوب معدوماً وما يشعر بذلك أكثر المحبين إلاّ أن يكونوا عارفين بالحقائق ومتعلقاتها وقد بيّنا ذلك، وأكثر كلامنا في هذا الباب إنما هو في المحبة المفرطة، فإنها تذهب بالعقول أو تورث النحول والفكر الدائم والهم اللازم والقلق والأرق والشوق والاشتياق والسهاد وتغيير الحال وكسوف البال والوله والبله، وسوء الظن بالمحبوب أعني الموجود الذي تحب ظهور محبوبك فيه الذي تزعم العامة فيه أنه المحبوب لها ونحن فيه على نوعين: طائفة منا نظرت إلى المثال الذي في خيالها من ذلك الموجود الذي يظهر محبوبه فيه ويعاين وجود محبوبه وهو الاتصال به في خياله فيشاهده متصلاً به اتصال لطف ألطف منه في عينه في الوجود الخارج، وهو الذي اشتغل به قيس المجنون عن ليلى حين جاءته من خارج فقال لها: إليك عني لئلا تحجبه كثافة المحسوس منها عن لطف هذه المشاهدة الخيالية فإنها في خياله ألطف منها في عينها وأجمل وهذا ألطف المحبة، وصاحب هذا النعت لا يزال منعماً لا يشكو الفراق، ولنا في هذا النعت اليد الطولى بين المحبين، فإن مثل هذا في المحبين عزيز الوجود لغلبة الكثافة عليهم، وسبب ذلك عندنا أنه من استفرغ في حب المعاني المجردة عن المواد فغايته إذا كثفها أن ينزلها إلى الخيال ولا ينزل بها أكثر، فمن كان أكثف حاله الخيال فما ظنك بلطافته في المعاني، وهذا الذي حاله هذا هو الذي يمكن أن يحب الله، فإن غايته في حبه إياه إذا لم يجرده عن التشبيه

أن ينزله إلى الخيال وهو قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»فإذا أحببنا ونحن بهذه الصفة موجوداً نحب ظهور محبوبنا فيه من المحسوسات عالم الكثائف نلطفه بأن نرفعه إلى الخيال لنكسوه حسناً فوق حسنه ونجعله في حضرة لا يمكنه الهجر معها ولا الانتقال عنها فلا يزال في اتصال دائم، ولنا في ذلك: [الخفيف]

مــا لــمَــجْــنُــونِ عــامــر مــن هــواه غــيــرُ شــكْــوَى الــبِــعَــادِ والإغْــتِــرابِ

وأنــا ضِــدُّه فــإنَّ حــبــيــبــي فــي خَــيَــالــي فــلــم أَزَلْ فــي اقْــتِــرَابِ

فــحــبــيــبــي مِــنِّــي وفِــيَّ وعــنــدي فــلــمــاذا أقــول مــا بــي ومــا بِــي

أما قولنا يذهب الحب بالعقول فإنهم قالوا: ولا خير في حب يدبر بالعقل. وقال أبو العباس المقراني الكساد: الحب أملك للنفوس من العقول. وإنما قالوا ذلك لأن العقل يقيد صاحبه، والحب من أوصافه الضلال والحيرة والحيرة تنافي العقل، فإن العقل يجمعك والحيرة تفرقك. قال إخوة يوسف ليعقوب: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٥] يريدون حيرته في حب يوسف، والحيرة تفرق ولا تجمع، ولهذا وصفت المحبة بالبث وهو تفرق هموم المحب في وجوه كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [سورة النساء: الآية ١] وكذلك قوله: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦] والمحب في حكم محبوبه فلا تدبير له في نفسه وإنما هو يحكم ما يعطيه ويأمره به سلطان الحب المستولي على قلبه، ومن ضلالته في حبه أنه يتخيل في كل شخص أن محبوبه حسن عنده وأنه يرى منه مثل ما يراه هذا المحب، وهذا من الحيرة وعلى هذا جرى المثل: حسن في كل عين من تود. يعني عندك أيها المحب تتخيل أن كل من يرى محبوبك يحسن عنده كما يحسن عندك، ومن ضلالة المحب أنه يتحير في الوجوه التي يرى أنه يحصل محبوبه منها فيقول: أفعل كذا لنصل بهذا الفعل إلى محبوبي أو كذا وكذا، فلا يزال يحار في أي الوجوه يشرع لأنه يتخيل أن وجود اللذة بمحبوبه في الحسّ أعظم منها في الخيال، وذلك لغلبة الكثافة على هذا المحب، ويغفل عن لذة التخيل في حال النوم فإنه أشد من التذاذه بالخيال لأنه أشد اتصالاً به من الخيال، والاتصال بالخيال أشد من الاتصال بالخارج وهو المحسوس، فلذته بمعنى أشدّ اتصالاً من الخيال، فيحار المحب في تحصيل الوجوه التي بها يصل إلى الاتصال من خارج، ويسأل عن ذلك من يعرف أن عنده خبراً من هذا الشأن عسى يجد عنده حيلة في ذلك ولا سيما وقد سمع في ذلك في قول القائل: لو صحّ منك الهوى أرشدت للحيل. يعني فيما تصنع حتى تتصل بالمحبوب.

وصل: فأوّل ما أذكره من نعوت المحبين ما حدثنا به يونس بن يحيىٰ بن أبي الحسن الهاشميّ العباسي القصار بمكة تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: أخبرنا ابن عبد الباقي أخبرنا أحمد بن أحمد أخبرنا أحمد بن عبد الله حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا أبو بكر الدينوري المفسّر سنة ثمان وثمانين ومائتين حدثنا محمد بن أحمد الشمساطيّ قال: سمعت ذا النون يقول: إنّ لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته وفسح أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوّق إليه أنفسهم وأدنى منه

فهمهم وصفت له صدورهم، فسبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم، إلهي لك تواضعت أبدانهم، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم ففتحت لهم أبواب سماواتك، وأبحت لقلوبهم الجولان في ملكوتك، بل ما نسيت محبة المحبين، وعليك معوّل شوق المشتاقين، وإليك حنت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك عكفت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد يئست الراحة من فتورهم، وقلّ طمع الغفلة فيهم، فهم لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعنيهم، ولا يفترون عن التعب والسهر، يناجونه بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم، يسألونه العفو عن زلاتهم، والصفح عما وقع من الخطاء في أعمالهم، فهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار، ومن نعوتهم رضي الله عنهم النحول، وهو نعت يتعلق بكثائفهم وبلطائفهم. فأما تعلّقه بلطائفهم فإنّ أرواح المحبين وإن لطفت عن إدراك الحواس ولطفت عن تصوير الخيال، فإنّ الحب يلطفها لطافة السراب لمعنى أذكره، وذلك أن السراب﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [سورة النور: الآية ٣٩] وذلك لظمئه لولا ذلك ما حسبه ماء لأنّ الماء موضع حاجته فيلجأ إليه لكونه مطلوبه ومحبوبه لما فيه من سرّ الحياة، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، وإذا لم يجده شيئاً وجد الله عنده عوضاً من الماء، فكان قصده حسّاً للماء والله يقصد به إليه من حيث لا يشعر، فكما أنه تعالىٰ يمكر بالعبد من حيث لا يشعر، كذلك يعتني بالعبد في الالتجاء إليه والرجوع إليه والاعتماد عليه بقطع الأسباب عنه عندما يبديها له من حيث لا يشعر، فوجود الله عنده عند فقد الماء المتخيل له في السراب هو رجوعه إلى الله لما تقطعت به الأسباب، وتغلقت دون مطلوبه الأبواب، رجع إلى من بيده ملكوت كل شيء، وهو كان المطلوب به من الله هذا فعله مع أحباه يردّهم إليه اضطراراً واختياراً، كذلك أرواحهم يحسبونها قائمة بحقوق الله التي فرضها عليها وأنها المتصرّفة عن أمر الله محبة لله وشوقاً إلى مرضاته ليراها حيث أمرها، فإذا كشف لها الغطاء واحتدّ بصرها وجدت نفسها كالسراب في شكل الماء، فلم تر قائماً بحقوق الله إلاّ خالق الأفعال وهو الله تعالىٰ، فوجدت الله عين ما تخيلت أنه عينها فذهبت عينها عنه وبقي المشهود الحق بعين الحق، كما فني ماء السراب عن السراب والسراب مشهود في نفسه وليس بماء، كذلك الروح موجود في نفسه وليس بفاعل، فعلم عند ذلك أن المحب عين المحبوب وأنه ما أحبّ سواه ولا يكون إلاّ كذلك، وألطف من هذا النحول في الأرواح فلا يكون.

وأما النوع المتعلق من النحول بكثائفهم فهو ما يتعلق به الحسّ من تغيّر ألوانهم وذهاب لحوم أبدانهم لاستيلاء جولان أفكارهم في أداء ما كلفهم المحبوب أداءه ممّا افترضه عليهم، فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود، إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك وعقدوا عليه في أيمانهم به وبرسوله وسمعوه يقول آمراً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] ولا تنقضوا الميثاق ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [سورة النحل: الآية ٩١] فهذا سبب نحول أجسامهم.

ومن نعوت المحبين الذبول وهو نعت صحيح في أرواحهم وأجسامهم، أمّا في أجسامهم فسببه ترك ملاذ الأطعمة الشهية التي لها الدسم والرطوبة وهي مستلذة للنفوس وتورث في الأجسام نضرة النعيم، فلما رأوا رضي الله عنهم أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاته ليلاً عند تجليه ونوم النائمين ورأوا أنّ الرطوبات الحاصلة في أجسامهم تصعد منها أبخرة إلى الدماغ تخدر الحواس وتغمرها فيغلبهم النوم عمّا في نفوسهم من القيام بين يدي محبوبهم لمناجاته في خلواتهم حين ينامون، ثم إن تلك الأبخرة تورث قوّة في أبدانهم تؤدّي تلك القوّة الجوارح إلى التصرف في الفضول الذي حجر عليهم التصرّف فيه محبوبهم، فتركوا الطعام والشراب إلاّ قدر ما تمس الحاجة إليه من ذلك فقلت الرطوبة في أجسامهم فزالت عنه نضرة النعيم وذبلت شفاههم واسترخت أبدانهم وراح نومهم وتقوى سهرهم فنالوا مقصودهم من القيام بين يديه ووجدوا المعونة على ذلك بما تركوه فذلك هو ذبول الأجسام. وأما ذبول أرواحهم فإنّ لهم نعيماً بالمعارف والعلوم لأن لهم نسبة إلى أرواح الملأ الأعلى ليأنسوا بالجنس رغبة في المعاونة لما سمعوا الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فتخيلوا أنهم المخاطبون بذلك وليس الأمر كذلك، فإن الذين خوطبوا بذلك هم الذين يليق بهم أن يتعاونوا على الإثم والعدوان ولذلك أردف بالنهي فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] وهذا ليس من صفات الملأ الأعلى، فلما عرفوا غلطهم في ذلك عدلوا عن هذه الآية إلى قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] أي احبسوا نفوسكم مع الله، فلما فارقوا الجنس بهذه الآية ذبلت أرواحهم وقد كانت في نضرة النعيم بمجالسة الجنس لأنها تعلقت بمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلم تعرف بينها وبينه مناسبة مثلية فتتعلق بها فقالت لها المعرفة بالله: هو ما خاطبك سبحانه إلاّ بلسانك ولحنك ولغتك وما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان الذين أنت منهم، فارجع إلى مفهوم ما خاطبك به فإنه لم يخرجه عن حقيقة مدلوله ولا تنال بجهلك النسبة إليه من ذلك، فإن تلك الصفة التي خاطبك بها تطلبه بذاتها لأنه وصف نفسه بها ولا تكون صفاته إلاّ بمناسبة خاصة منّا إليه، فإذا تعلقت أنت بتلك الصفة ولزمتها بالضرورة تحصلك عنده فتعلم عند ذلك صورة نسبتها إليه علم ذوق وتجلّ إلهيّ فيزيد ذبولك حتى تصير كالنقطة المتوهمة كما قال بعضهم: [مجزوء الكامل]

أصبحتُ فيك من الضّنا كالنُّقطة المُتَوَهَّمَهْ

وهي التي لا وجود لها إلاّ في الوهم، فهذا نعتهم في الذبول. وقد روينا في خبر مؤيد بكشف أن إسرافيل عليه السلام وهو من أرفع الأرواح العلوية يتضاءل في نفسه كل يوم لاستيلاء عظمة الله على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالوضع كما يحشر المتكبرون في نفوسهم على عباد الله يوم القيامة كأمثال الذر ذلة وصغاراً، وذلك لما ظهروا به في الدنيا من التعاظم والتكبّر، فهذا نعت ذبولهم في أرواحهم وأجسامهم.

ومن نعوت المحبين أيضاً الغرام وهو الاستهلاك في المحبوب بملازمة الكمد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥] أي مهلكاً لملازمة شهود المحبوب،

فإن الغريم هو الذي لزمه الدين وبه سمّي غريماً ومقلوبه أيضاً الرغام وهو اللصوق بالتراب فإن الرغام التراب يقال: رغم أنفه إذ كان الأنف محل العزّة قوبل بالرغام في الدعاء فألصقوه بالتراب فيكون الغرام حكمه في المغرم من المقلوب فهو موصوف بالذلّة لأن التراب أذلّ الأذلاء ولهذا وصفت الأرض بأنها ذلول على طريق المبالغة لكون الأذلاء يطؤونها، ولما لازم الحب قلوب المحبين والشوق قلوب المشتاقين والأرق نفوس الأرقين وكل صفة للحب موصوفها منه سمّي صاحب هذه الملازمات كلها مغرماً وسمّيت صفته غراماً، فهو اسم يعمّ جميع ما يلزم المحب من صفة الحب، فليس للمحب صفة أعظم إحاطة من الغرام.

ومن نعوت المحبين الشوق وهو حركة روحانية إلى لقاء المحبوب، وحركة طبيعية جسمانية حسيّة إلى لقاء المحبوب إذا كان من شكله ذلك المحبوب، فإذا لقيه أي محبوب كان فإنه يجد سكوناً في حركة فيتحير لماذا ترجع تلك الحركة مع وجود اللقاء ويراها تتزيد ويدركه معها خوف في حال الوصلة فيجد الخوف متعلقه توقع الفرقة ويجد الحركة الاستباقية تطلب استدامة حالة الوصلة وذلك يهيج باللقاء كما قيل في الشوق: [الوافر]

وأبْـرَحُ مـا يـكـون الـشَّـوْقُ يـومـاً ... إذا دَنَـتِ الـديـارُ مـن الـديـارِ

وقال الآخر فيما ذكرناه من الخوف في حال الوصلة: [الوافر]

وأبـكـي إن نَـأوا شـوقـاً إلـيـهـم ... وأبـكـي إن دَنَـوْا خَـوْفَ الـفِـراقِ

هذا جزاء من أحبّ غير عينه وجعل وجود عين محبوبه فيما هو خارج عنه، فلو أحب الله لم تكن هذه حالته، فمحب الله لا يخاف فرقة، وكيف يفارق الشيء لازمه وهو في قبضته لا يبرح وبحيث يراه محبوبه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧]. أين الفراق وما في الكون إلاّ هو؟ يقول الله تعالىٰ: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» الحديث، فهكذا ينبغي أن تعرف يا أخي قدر من أحبك لله أو لنفسه إذا كان الحق مع غناه عن العالم إذا أحبه عبده سارع إليه بالوصلة وقرّبه وأدنى مجلسه وجعله من خواص جلسائه، فأنت أولى بهذه الصفة، إذا أحبك شخص فقد أعطاك السيادة عليه وجعل نفسه محلاً لتحكمك فيه، فينبغي لك إن كنت عاقلاً أن تعرف قدر الحب وقدر من أحبك، ولتسارع إلى وصلته تخلقاً بأخلاق الله مع محبته، فإنه من بدأك بالمحبة فتلك يد له عليك لا تكافئها أبداً، وذلك لأن كل ما يفعله من الحب بعد ابتدائه معه فإنما هو نتيجة عن ذلك الحب الذي أحبك ابتداء.

ومن نعوت المحبين الهيام وهم المهيمون الذين يهيمون على وجوههم من غير قصد جهة مخصوصة، والمحبون لله أولى بهذه الصفة، فإن الذي يحب المخلوق إذا هام على وجهه فهو لقلقه ويأسه من مواصلة محبوبه، ومحب الله متيقن بالوصلة، وقد علم أنه سبحانه لا يتقيد ولا يختص بمكان يقصد فيه لأن حقيقة الحق تأبى ذلك ولذلك قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فمحبه مهيم في كل واد وفي كل حال لأن محبوبه الحق فلا يقصده في وجه معين بل يتجلى له في

أي قصد قصده على أي حالة كان، فهم أحق بصفة الهيمان من محبي المخلوقين، فهو تعالىٰ المشهود عند المحبين من كل عين، والمذكور بكل لسان، والمسموع من كل متكلم، هكذا عرفه العارفون، وبهذه الحقيقة تجلّى للمحبين.

ومن نعوت المحبين الزفرات وهي نار نور محرقة يضيق القلب عن حملها فتخرج منضغطة لتراكمها ممّا يجده المحب من الكمد فيسمع لخروجها صوت تنفس شديد الحرارة، كما يسمع لصوت النار صوت يسمّى ذلك الصوت زفرة، ولا يكون ذلك إلاً في الجسم الطبيعيّ خاصة، وقد يكون في الصورة المتجسدة، ولهذا تتصف الصورة المتجسدة عن المعنى المجرد إذا ظهر فيها، وقيل: هذه صورته بالغضب والرضى كالأجسام الطبيعية، كما قال ﷺ عن نفسه: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَأَرْضَىٰ كَمَا يَرْضَىٰ الْبَشَرُ**» وإذا كان الجناب الإلهي الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قد وصف نفسه بالرضى والغضب في هاتين الصفتين وفي أمثالهما ممّا وصف الحق بها نفسه ومن تلك الحقيقة ظهرت في العالم، ولهذا قلنا إن الله سبحانه علمه بنفسه علمه بالعالم لا يكون إلاً هكذا، فكل حقيقة ظهرت في العالم وصفة فلها أصل إلهيّ ترجع إليه لولا ذلك الأصل الإلهيّ يحفظ عليها وجودها ما وجدت ولا بقيت، ولا يعلم ذلك إلاً الآحاد من أهل الله فإنه علم خصوص، قال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣] ثم ورد في الخبر ما هو أشد من هذا لمن عقل عن الله وهو ما ورد في الحديث الصحيح من قول الأنبياء في القيامة: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**» فهذا أشدّ من ذلك حيث اتصف غضبه بالحدوث والزوال، وفي ذلك المقام يقول محمد ﷺ فيمن بدل من أصحابه بعده: «**سحقاً سحقاً**» لاقتضاء الحال والموطن، فإن صاحب السياسة يجري في أحكامه بحسب الأحوال والمواطن.

ومن نعوت المحبين الكمد وهو أشدّ حزن القلب لا يجري معه دمع إلاً أن صاحبه يكون كثير التأوّه والتنهّد، وهو حزن يجده في نفسه لا على فايت ولا تقصير، وهذا هو الحزن المجهول الذي هو من نعوت المحبين ليس له سبب إلاً الحب خاصة، وليس له دواء إلاً وصال المحبوب، فيفنيه شغله به عن الإحساس بالكمد، وإن لم تقع الوصلة بالمحبوب اتصال ذوات فيكون المحبوب ممّن يأمره فيشغله القيام بأوامره وفرحه بذلك عن الكمد، فأكثر ما يكون الكمد إذا لم يقع بينه وبين المحبوب ما يشغله عن نفسه، وليس للمحب صفة تزول مع الاشتغال غير الكمد، ونعوت المحبة كثيرة جداً مثل الأسف، الوله، البهت، الدهش، الحيرة، الغيرة، والخرس، السقام، القلق، الخمود، البكاء، التبريح، والوجد، والسهاد، وما ذكره المحبون في أشعارهم من ذلك، وكلامنا في هذا الباب ما يختصّ بحب الله لعباده وحب العباد لله لا غير ذلك، فالله سبحانه قد ذكر أقواماً بأنه يحبهم لصفة قامت بهم أحبهم لأجلها كما سلب محبته عن قوم لصفات قامت بهم، ذكر ذلك في كتابه وعن لسان رسول الله ﷺ. انتهى الجزء الرابع عشر ومائة بانتهاء السفر الخامس عشر.

[السفر السادس عشر]

(الجزء الخامس عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فمن ذلك الاتباع لرسوله ﷺ فيما شرع قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] فاعلم أن لله محبتين أو تعلقين: محبته لعباده الذي هو خصوص إرادة التعلّق الأول حبّه إياهم ابتداء بذلك الحب وفقهم للاتباع اتباع رسله سلام الله على جميعهم، ثم أنتج لهم ذلك الاتباع تعلقين من المحبة لأن الاتباع وقع من طريقين من جهة أداء الفرائض والتعلّق الآخر من جهة ملازمة النوافل، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال الحديث وفيه: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَوَافِلِ حَتَىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمُؤَيِّداً**» وإذا كان الحق سمع العبد وقواه في النوافل فكيف بالحب الذي يكون من الحق له بأداء الفرائض؟ وهو أن يكون الحق يريد بإرادة هذا العبد المجتبى، ويجعل له التحكّم في العالم بما شاء بمشيئته تعالىٰ الأولية التعلّق التي بها وفّقه فاندرج هذا التعلّق في الأوّل وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] وكل صفة ذكرها الحق أنه يحب من أجلها من قامت به فما حصلت له تلك الصفة إلاّ بالاتباع، فإن رسول الله ﷺ سنّها وذلك عن الله فإنه ما ينطق عن الهوى وأنه يفعل به وبنا، فنفى أن يكون الفعل له ولنا كما يراه بعضهم وهو قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] فهو قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٩] ومعنى الاتباع أن نفعل ما يقول لنا فإن قال: اتبعوني في فعلي اتبعناه، وإن لم يقل فالذي يلزمنا الاتباع فيما يقول فينتج لنا الاتباع فيما أمرنا به ونهانا عنه، والوقوف عند حدوده أن نتبعه في أفعاله في خلقه وهي المسمّاة كرامة وآية أي علامة على صدق الاتباع، والرسل أيضاً تابعون فإنه يقول عليه السلام: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فيكون ما يظهر عليه من الاتباع في فعل الله نتيجة اتباعه لأوامر الله آية، ويكون لنا ذلك كرامة وهو الفعل بالهمة والتوجّه من غير مباشرة، فيظهر على يد هذا العبد من خرق العوائد ممّا لا ينبغي أن يكون إلاّ على ذلك الوجه من غير سبب إلاّ مجرّد الإرادة إلاّ لله تعالىٰ، فإن ذلك الفعل إذا ظهر عن سبب موضوع ظاهر لم يكن من هذا الباب كطيران الطائر بسبب ظاهر وإن كان لا يمسكه إلاّ الله، أي الله الذي وضع له أسباب الإمساك في الهواء، والإنسان إذا اخترق الهواء ومشى فيه بمجرد الإرادة لا بسبب ظاهر معتاد أشبه فعل الحق في تكوين الأشياء بالإرادة، فهذا الفارق بينه وبين وقوع ذلك بالأسباب، وأصله التحقق بالاتباع، والمتبع في التشريع إنما هو الله، والمتبع في الفعل بالإرادة إنما هو الله، والكل بعناية الله ومشيئته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦].

ومن ذلك حبّه سبحانه التوّابين، فالتوّاب صفته، ومن أسمائه تعالىٰ يقول عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨] فما أحبّ إلاّ اسمه وصفته، وأحبّ العبد لاتصافه بها، ولكن إذا اتصف بها على حدّ ما أضافها الحق إليه، وذلك أن الحق يرجع على عبده في كل حال يكون العبد عليه ممّا يبعده من الله وهو المسمّى ذنباً ومعصية ومخالفة، فإذا أقيم العبد في حق من أساء إليه من أمثاله وأشكاله فرجع عليه بالإحسان إليه والتجاوز عن إساءته فذلك هو التواب ما هو الذي رجع إلى الله، فإنه لا يصحّ أن يرجع إلى الله إلاّ من جهل أن الله معه على كل حال، وما خاطب الحق بقوله: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨١] إلاّ من غفل عن كون الله معه على كل حال كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فإن رجعت إليه من حيث حساب أو سؤال فذلك رجوع في الحقيقة من حال أنت عليه حال ما أنت عليها.

ولما كانت الأحوال كلها بيد الله أضيف الرجوع إلى الله على هذا الوجه، فالراجع إلى الله إنما يرجع من المخالفة إلى الموافقة ومن المعصية إلى الطاعة، فهذا معنى حب التوّابين، فإذا كنت من التوّابين على من أساء في حقك كان الله تواباً عليك فيما أسأت من حقه فرجع عليك بالإحسان، فهكذا فلتعرف حقائق الأمور وتفهم معاني خطاب الله عباده وتميز بين المراتب فتكون من العلماء بالله وبما قاله، وجاء ذكره لهذه المحبة في التوّابين عقب ذكر الأذى الذي جعله في المحيض، وكذلك قال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ**» أي مختبر يريد أن يختبره الله بمن يسيء إليه من عباد الله فيرجع عليهم بالإحسان إليهم في مقابلة إساءتهم وهو التواب، لا أن الله يختبر عباده بالمعاصي، حاشا الله أن يضاف إليه مثل هذا وإن كانت الأفعال كلها لله من حيث كونها أفعالاً وما هي معاصي إلاّ من حيث حكم الله فيها بذلك، فجميع أفعال الله حسنة من حيث ما هي أفعال فافهم ذلك.

ومن ذلك حبّه للمتطهرين قال تعالىٰ: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] فالتطهير صفة تقديس وتنزيه وهي صفته تعالىٰ، وتطهير العبد هو أن يميط عن نفسه كل أذى لا يليق به أن يرى فيه وإن كان محموداً بالنسبة إلى غير وهو مذموم شرعاً بالنسبة إليه، فإذا طهر نفسه من ذلك أحبه الله تعالىٰ كالكبرياء والجبروت والتفخر والخيلاء والعجب، فمنها صفات لا تدخل القلب جملة واحدة للطابع الإلهيّ الذي على القلوب وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] فيظهر في ظاهره الكبرياء والجبروت على من استحق من قومه، إما في زعمه وتخيله، وإما في نفس الأمر وهو في قلبه معصوم من ذلك الكبرياء والجبروت لأنه يعلم عجزه وذلّته وفقره لجميع الموجودات، وأن قرصة البرغوث تؤلمه والمرحاض يطلبه لدفع ألم البول والخراءة عنه، ويفتقر إلى كسيرة خبز يدفع بها عن نفسه ألم الجوع، فمن صفته هذه كل يوم وليلة كيف يصحّ أن يكون في قلبه كبرياء وجبروت؟ وهذا هو الطبع الإلهيّ على قلبه فلا يدخله شيء من ذلك.

وأمّا ظهور ذلك على ظاهره فمسلم، ولكن جعل الله لها مواطن يظهر فيها بهذه الأوصاف ولا يكون مذموماً، وجعل لها مواطن يذمّه فيها، فمن طهر ذاته عن أن ترى عليه

هذه النعوت في غير مواطنها فهو متطهر ويحبه الله، كما نفى محبته عن كل مختال فخور، فإنه لا يظهر بهذه الصفة إلاّ من هو جاهل والجهل مذموم، ولهذا نهى الله نبيه ﷺ أن يكون جاهلاً. وقال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فإنه لا يخلو أن يفتخر على مثله أو على ربه وخالقه، فإن افتخر على مثله فقد افتخر على نفسه، والشيء لا يفتخر على نفسه، ففخره واختياله جهل، ومحال أن يفتخر على خالقه لأنه لا بدّ أن يكون عارفاً بخالقه أو غير عارف بأن له خالقاً، فإن عرف وافتخر عليه فهو جاهل بما ينبغي أن يكون لخالقه من نعوت الكمال، وإن لم يعرف كان جاهلاً فما أبغضه الله ولم يحبه إلاّ لجهله، إذ لم يكن هذا في غير موطنه إلاّ لجهله، والجهل موت والعلم حياة وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] يعني بالعلم ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ وذلك نور الإيمان والكشف الذي أوحى الله به إليه أو امتن به عليه، فالمتطهر من مثل هذه النعوت محبوب لله فافهم.

ومن ذلك حبّه المطهرين قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٨] وهم الذين طهروا غيرهم كما طهروا نفوسهم، فتعدّت طهارتهم إلى غيرهم فقاموا فيها مقام الحق نيابة عنه، فإنه المطهر على الحقيقة والحافظ والعاصم والواقي والغافر، فمن منع ذاته وذات غيره أن يقوم بها ما هو مذموم في حقّها عند الله فقد عصمها وحفظها ووقاها وسترها عن قيام أمثال هذه بها، فهو مطهر لها بما علمها من علم ما ينبغي لينفر عنه بنور العلم وحياته ظلمة الجهالة وموتها، فيكون في ميزانه يوم القيامة ومن الأنوار التي تسعى بين يديه وهو محبوب عند الله مخصوص بعناية ولاية إلهية واستخلاف، والولاة الخلفاء من المقربين ممّن استخلفهم عليهم لأنهم موضع مقصور من استخلفهم دون غيرهم، وكل إنسان وال على جوارحه فما فوق ذلك، وقد أعلمه الله بما هي الطهارة التي يطهر بها رعاياه.

ومن ذلك حبّه للصابرين وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] وهم الذين ابتلاهم الله فحبسوا نفوسهم عن الشكوى إلى غير الله الذي أنزل بهم هذا البلاء ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن حمله لأنهم حملوه بالله وإن شقّ عليهم لا بدّ من ذلك وإن لم يشق عليهم فليس ببلاء ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] لغير الله في إزالته ولجؤوا إلى الله في إزالته كما قال العبد الصالح: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] فرفع الشكوى إليه لا إلى غيره، فأثنى الله عليه بأنه وجده صابراً ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [سورة ص: الآية ٣٠] مع هذه الشكوى، فدل أن الصابر يشكو إلى الله لا إلى غيره بل يجب عليه ذلك لما في الصبر إن لم يشك إلى الله من مقاومة القهر الإلهيّ وهو سوء أدب مع الله، والأنبياء عليهم السلام أهل أدب وهم على علم من الله فإنك تعلم أن صبرك ما كان إلاّ بالله ما كان من ذاتك ولا من حولك وقوّتك فإن الله يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] فبأي شيء تفتخر وهو ليس لك؟ فما ابتلى الله عباده إلاّ ليلجؤوا في رفع ذلك إليه ولا يلجؤوا في رفعه إلى غيره، فإذا فعلوا ذلك كانوا من الصابرين وهو

محبوب الله. ومن أسمائه تعالىٰ النعتية الصبور فما أحب إلاً من رأى خلعته عليه، ثم إن هنا سراً وأقامك فيه مقامه، فإن الصبر لا يكون إلاً على أذى، وقد عرفنا أن في خلقه من يؤذي الله ورسوله ونعتهم لنا لنعرفهم فندفع ذلك الأذى عنه تعالىٰ بمقاتلتهم أو بتعليمهم إن كانوا جاهلين طالبين العلم وقد سمّى نفسه صبوراً، وقد رفع إلينا ما أوذي به وعرفنا بهم لنذب عنه وندفع الأذى مع الاتصاف بالصبور لنعلم أنا إذا شكونا إليه ما نزل من البلاء وسألناه في رفعه عنا وسؤالنا إياه لا يزول عنا اسم الصبر فلا تزول عنا محبته كما لم يزل عنه اسم الصبور بتعريفه إيانا من أذاه حتى ندفع عنه، فإنه ورد في الصحيح: «**لَيسَ أحَدٌ أصْبَرَ عَلَىٰ أذًى مِنَ اللَّهِ**» فاجعل بالك لما نبهناك عليه.

ومن ذلك حب الشاكرين، فوصف الحق نفسه في كتابه إنه يحب الشاكرين﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤] والشكر نعمته فإنه شاكر عليم، فما أحب من العبد إلاً ما هو صفة له ونعت، والشكر لا يكون إلاً على النعم لا على البلاء كما يزعم بعضهم ممّن لا علم له بالحقائق لأنه تعالىٰ أبطن نعمته في نقمته ونقمته في نعمته، فالتبس على من لا علم له بالحقائق أي بحقائق الأمور فتخيل أنه يشكر على البلاء وليس بصحيح، كشارب الدواء المكروه وهو من جملة البلاء ولكن هو بلاء على من يهلك به وهو المرض الذي لأجله استعمله، فالألم هو عدوّ هذا الدواء، إياه يطلب، ولكن لما قام البلاء بهذا المحل الواجد للألم ورد عليه المنازع الذي يريد إزالته من الوجود وهو الدواء فوجد المحل لذلك كراهة، وعلم أنه في طيّ ذلك المكروه نعمة لأنه المزيل للألم، فشكر الله تعالىٰ على ما فيه من النعمة وصبر على ما يكره من استعماله لعلمه بأنه طالب ذلك الألم حتى يزيله، فما سعى إلاً في راحة هذا المحل فتفطن لهذا، فلهذا كان شاكراً، فلما شكره على ما في هذا المكروه من النعمة الباطنة زاده نعمة أخرى وهي العافية وإزالة المرض وتصبره الدواء الكره عليه ولذلك قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] فزاده العافية، وكذلك أيضاً لما أوذي الحق وسعينا في إزالة ذلك المؤذي بأن آذيناه أو سسناه حتى رجع عن الأمر الذي كان يؤذي الحق به، فإن كنا قد آذينا هذا المؤذي بقتال وأمثاله كان ذلك للحق بمنزلة شرب الدواء الذي يكرهه المريض في الحال ويراه نعمة لما فيه من إزالة ذلك الأمر المؤذي، وإنما قلنا ذلك لأن الكل من فعله وقضائه وقدره، وقد أوحى الله لنبيه داود أن يبني له بيتاً يعني بيت المقدس فكلما بناه تهدم فقال له ربه فيما أوحى إليه أنه لا يقوم على يديك فإنك سفكت الدماء، فقال له: يا رب ما كان ذلك إلاً في سبيلك، فقال: صدقت ما كان إلاً في سبيلي ومع هذا أليسوا عبيدي؟ فلا يقوم هذا البيت إلاً على يد مطهرة من سفك الدماء، فقال: يا رب اجعله مني، فأوحى الله إليه أنه يقوم على يد ولدك سليمان فبناه سليمان عليه السلام، فهذا عين ما نبهتك عليه إن تفطنت، ومن هنا تعرف الأمر على ما هو عليه، وأن مبني الأمر الإلهي أبداً على هو لا هو، فإن لم تعرفه كذا فما عرفته ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فهذا عين ما قلناه من أنه هو لا هو، وهنا حارت عقول من لم يشاهد الحقائق على ما هي

عليه، فلما أزال العبد هذا الأذى عن جناب الحق وإن كان فيه ما في استعمال الدواء شكره الله على ذلك، والشكر يطلب المزيد، فطلب من عباده سبحانه بشكره أن يزيدوه فزادوه في العمل وهو قوله عليه السلام: «**أَفَلاَ أَكونُ عَبْداً شَكُوراً**» فزاد في العبادة لشكر الله له شكراً، فزاد الحق في الهداية والتوفيق في موطن الأعمال حتى إلى الآخرة حيث لا عمل ولا ألم على السعداء.

وأمّا التنبيه على استعمال الدواء الكره في إماطة الأذى عن الله فقد أبان عنه الحق في قوله في قبضه نسمة عبده المؤمن فوصف نفسه تعالىٰ بأنه يكره مساءة عبده لكون العبد يكره الموت ولا بدّ له منه مع أنه وصفه نفسه بأنه كاره لذلك، فهذا عين كراهة ما يجده المريض في شرب الدواء، لأن مرتبة العلم تعطي ذلك فإنه وقوع خلاف المعلوم محال، فلا بدّ من وجوب وجود العالم لما تعطيه الحقائق الإلهية وأين الإمكان من الوجوب! فاشحذ فؤادك واعلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] فأردف وصفه نفسه بالشكر وصفه بالعلم، فزد في عملك تكن قد جازيت ربك على شكره إياك على ما عملت له، وذلك العمل هو الصوم فإنه له ودفع الأذى عنه وهو قوله: «هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدوّاً». وهو قوله: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتجالسين فيّ»، والمتباذلين فيّ، والله يجعلنا ممّن أنعم عليه فرأى نعمة الله عليه في كل حال فشكر.

ومن ذلك حب المحسنين وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] والإحسان صفته وهو المحسن المجمل فصفته أحب وهي الظاهرة في نفسه، والإحسان الذي به يسمّى العبد محسناً هو أن يعبد الله كأنه يراه أي يعبده على المشاهدة، وإحسان الله هو مقام رؤيته عباده في حركاتهم وتصرّفاتهم وهو قوله: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فشهوده لكل شيء هو إحسانه فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك، فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله إذ هو الذي نقله تعالىٰ ولهذا سمّي الإنعام إحساناً فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلاّ من يعلمك، ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن على الدوام فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائماً، وليس الإحسان في الشرع إلاّ هذا وقد قال له: فإن لم تكن تراه فإنه يراك، أي فإن لم تحسن فهو المحسن، وهذا تعليم النبيّ ﷺ لجبريل بحضور الصحابة من باب قولهم: إياك أعني فاسمعي يا جارة، فالمخاطب غير مقصود بذلك العلم فإنه عالم به، والمقصود به من حضر من السامعين، وبهذا فسّره رسول الله ﷺ فقال في هذا الحديث: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم، ومن ذلك حب المقاتلين في سبيل الله بوصف خاص قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: الآية ٤] يريد لا يدخله خلل فإن الخلل في الصفوف طرق الشياطين والطريق واحدة وهي سبيل الله، وإذا قطع هذا الخط الظاهر من النقط ولم يتراص لم يظهر وجود للخط والمقصود وجود الحظ، وهذا معنى الرص لوجود سبيل الله، فمن لم يكن له تعمّل في ظهور سبيل الله فليس من أهل الله، وكذلك صفوف المصلين لا

تكون في سبيل الله حتى تتصل وتتراص الناس فيها، وحينئذ يظهر سبيل الله في عينه، فمن لم يفعل وأدخل الخلل كان ممّن سعى في قطع سبيل الله وإزالته من الوجود، فأراد الله من عباده في مثل هذا أن يجعلهم من الخالقين ولذلك قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] ولا يكون السبيل إلاَّ هكذا، كالخط الموجود من النقط المتجاورة التي ليس بين كل نقطتين حيز فارغ لا نقطة فيه وحينئذ تظهر صورة الحظ، كذلك الصف لا يظهر فيه سبيل الله حتى يتراص الناس فيه فهو يطلب الكثرة وهو في جناب الله تراص أسمائه تبارك وتعالىٰ، فيظهر عن تراصها سبيل الخلق فيكون الحيّ وإلى جانبه العليم ولا يكون بينهما فراغ لاسم آخر، ويكون إلى جانبه المريد، ويكون إلى جانبه القائل، ويكون إلى جانبه القادر، ويكون إلى جانبه الحكم، وإلى جانبه المقيت، وإلى جانبه المقسط، وإلى جانبه المدبر، وإلى جانبه المفصل، وإلى جانبه الرازق، وإلى جانبه المحيي، فهكذا يكون صف الأسماء الإلهية لإيجاد سبيل الخلق الذي يكون بهذا التراص وجوده، فإذا ظهرت هذه السبيل وليست بزائدة على تراص هذه الأسماء فاتصف الخلق بهذه الأسماء لأنها بتراصهاوهو حالها عن طريق الخلق، فلا تزال ظاهرة في الخلق لا تعقل إلاَّ هكذا، فالعالم حيّ عالم مريد قائل قادر حكم مقيت مقسط مدبر مفصل هكذا إلى بقية الأسماء الإلهية، وهو المعبر عنه في الطريق بالتخلق بالأسماء فتظهر في العبد كما تظهر في إيجاد الطريق المستقيم بتراصها، فإن دخلها في الكون خلل زال سبيل الله وظهرت سبل الشياطين التي تتخلل خلل الصفوف كما ورد في الخبر، فَاجْعَلْ بَالَكَ لِمَا نَبَّهْتُكَ عَلَيْهِ.

فإذا قام العبد بأسماء الحق مقام الأسماء في إيجاد الخلق وقاتل بهذه الصفة الأعداء الذين هم بمنزلة الشياطين التي تتخلل خلل الصف فبالضرورة ينصرون لأنه لم يبق هناك خلل يدخل منه العدوّ فأحب الله من هذه صفتهم، وكذا الإنسان وحده هو صف في كل ما هو فيه متحرك، فتكون حركاته كلها لله لا يتخللها شيء لغير الله فلا يقاومه أحد، فإن الأعداء أبصارهم إليه محدقة ينظرون في حركاته وأفعاله عسى يجدون خللاً يدخلون عليه منه، فيقطعون بينه وبين الله بقطع سبيل الله وكل فعل خط فإنه مجموع أسماء إلهية وصفات محمودة والأفعال كثيرة فيكثف الأمر ويعظم وتظهر صور المركبات في العالم، إذ كل خطين فما زاد سطح، وكل سطحين جسم، وكل جسم فمركب من ثمانية وهو صورة كمال ظهرت عن ذات وسبع صفات فغاية التركيب الجسم وليس وراءه مرتبة، وقد قام على ثمانية بلا خلاف بين الجميع، وما زاد على هذا فهو أجسم أي أكثر سطوحاً، وإذا كان أكثر سطوحاً كان أكثر خطوطاً، وإذا كان أكثر خطوطاً كان أكثر نقطاً، فلم يزد على ما تركب منه الجسم الذي هو أوّل الأجسام مادّة غير ما قبله الأوّل أو كان به الجسم الأوّل، فمن تراص في صفّه كان خلاقاً، قال تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأثبت لهم هذا الوصف وجعل نفسه أحسن لأوليته في ذلك إذ لولاه ما ظهرت أعيان هؤلاء الخالقين، فأثبت ما أثبت الله ولا تزله فتحرم فائدة العلم بموافقة الحق فتكون من المخالفين فتكون من

الجاهلين، فمن كان بهذه الصفة كان محبوباً لله تعالىٰ، ومن كان محبوباً لم يدر أحد ما يعطيه محبه إذ لنفسه يعطي، وقد تعرّضت هنا مسألة يجب بيانها وهي أن الله أحب أولياءه والمحب لا يؤلم محبوبه وليس أحد بأشدّ ألماً في الدنيا ولا بلاء من أولياء الله رسلهم وأنبيائهم وأتباعهم المحفوظين المعانين على اتباعهم، فمن أي حقيقة استحقوا هذا البلاء مع كونهم محبوبين؟ فلنقل إن الله قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] والبلاء أن لا يكون أبداً إلاّ مع الدعوى، فمن لم يدع أمراً مّا لا يبتلى بإقامة الدليل على صدق دعواه، فلولا الدعوى ما وقع البلاء، غير أن الرسول ما يطالب بالدليل فإنه ما ادّعى ولهذا يقال: ليس على النافي إقامة دليل، وليس الأمر كذلك بل عليه الدليل إذا ادّعى النفي، فإن ادّعى النفي في أمر مّا فذلك ثبوت عين الدعوى، فيطالب النافي من حيث دعواه على إقامة الدليل لأنه مثبت. ولما أحبّ الله من أحبّ من عباده رزقهم محبته من حيث لا يعلمون، فوجدوا في نفوسهم حبّاً لله فادعوا أنهم من محبي الله فابتلاهم الله من كونهم محبين وأنعم عليهم من كونهم محبوبين، فإنعامه دليل على محبته فيهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] وابتلاؤه إياهم لما ادعوه من حبهم إياه، فلهذا ابتلى الله أحبابه من المخلوقين. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن ذلك حب الجمال هو نعت إلهيّ، ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» فنبهنا بقوله جميل أن نحبه فانقسمنا في ذلك على قسمين: فمنا من نظر إلى جمال الكمال وهو جمال الحكمة فأحبه في كل شيء لأن كل شيء محكم وهو صنعة حكيم، ومنا من لم تبلغ مرتبته هذا وما عنده علم بالجمال إلاّ هذا الجمال المقيد الموقوف على الغرض وهو في الشرع موضع قوله: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فجاء بكاف الصفة فتخيل هذا الذي لم يصل إلى فهمه أكثر من هذا الجمال المقيد فقيده به كما قيده بالقبلة فأحبه لجماله، ولا حرج عليه في ذلك فإنه أتى بأمر مشروع له على قدر وسعه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وبقي علينا حبّه تعالىٰ للجمال. فاعلم أن العالم خلقه الله في غاية الإحكام والإتقان كما قال الإمام أبو حامد الغزالي من أنه لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم، فأخبر أنه تعالىٰ «خلق آدم على صورته» والإنسان مجموع العالم، ولم يكن علمه بالعالم تعالىٰ إلاّ علمه بنفسه إذ لم يكن في الوجود إلاّ هو فلا بدّ أن يكون على صورته، فلما أظهره في عينه كان مجلاه فما رأى فيه إلاّ جماله فأحب الجمال، فالعالم جمال الله فهو الجميل المحب للجمال، فمن أحب العالم بهذا النظر فقد أحبّه بحب الله، وما أحبّ إلا جمال الله، فإن جمال الصنعة لا يضاف إليها وإنما يضاف إلى صانعه، فجمال العالم جمال الله وصورة جماله دقيق أعني جمال الأشياء، وذلك أن الصورتين في العالم وهما مثلا شخصان مّمن يحبهما الطبع وهما جاريتان أو غلامان قد اشتركا في حقيقة الإنسانية فهما مثلان، وكمال الصورة التي هي أصول من كمال الأعضاء والجوارح وسلامة المجموع والآحاد من العاهات والآفات ويتصف أحدهما بالجمال فيحبه كل من رآه، ويتصف الآخر بالقبح فيكرهه كل من رآه، فما هو الجمال الذي انطلق عليه اسم الجمال حتى أحبه كل من رآه؟ فقد وكلناك في علم ذلك إلى نفسك ونظرك، فهذا إذا وقع حب الشخص من

مجرّد الرؤية خاصة لا بعد الصحبة والمعاشرة، فدبّر وانظر تعثر إن شاء الله على عين الأمر في وصف الحق نفسه بأنه جميل وبحبه للجمال مع خلقه المكروه والمضار وما لا يلائم الطباع ولا يوافق الأغراض، فهذا قد ذكرنا طرفاً من الصفات التي يحب الله من اتصف بها وهي كثيرة جداً، فقد نبهناك بما ذكرناه على مأخذها وكيف يتصرّف الإنسان فيها، فلنذكر طرفاً من نعوت الحب الذي ينبغي أن يكون المحب عليها إن شاء الله وبها يسمّى محباً فهي كالحدود للحب.

فمن ذلك أنه موصوف بأنه مقتول تالف سائر إليه بأسمائه طيار دائم السهر كامن الغم راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه، متبرّم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه، كثير التأوّه يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره، موافق لمحاب محبوبه، خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة، يستقل الكثير من نفسه في حق ربه، يستكثر القليل من حبيبه، يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته، خارج عن نفسه بالكلية لا يطلب الدية في قتله، يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره، هائم القلب مؤثر محبوبه على كل مصحوب ملتذ في دهش جاوز الحدود بعد حفظها غيور على محبوبه منه يحكم حبه فيه على قدر عقله، جرحه جبار، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقص بجفائه، ناس حظه وحظ محبوبه غير مطلوب بالآداب، مخلوع النعوت، مجهول الأسماء كأنه سال وليس بسال، لا يفرق بين الوصل والهجر هيمان متيم في إدلال، ذو تشويش خارج عن الوزن، يقول عن نفسه إنه عين محبوبه، مصطلم مجهود، لا يقول لمحبوبه: لم فعلت كذا أو قلت كذا مهتوك الستر سرّه علانية فضيحة الدهر لا يعلم الكتمان لا يعلم أنه محب كثير الشوق ولا يدري إلى من، عظيم الوجد ولا يدري فيمن، لا يتميز له محبوبه، مسرور محزون موصوف بالضدين، مقامه الخرس حاله يترجم عنه لا يحب العوض، سكران لا يصحو مراقب متحر لمراضيه مؤثر في المحبوب الرحمة به والشفقة لما يعطيه شاهد حاله ذو أشجان كلما فرغ نصب لا يعرف التعب، روحه عطية وبدنه مطية لا يعلم شيئاً سوى ما في نفس محبوبه قرير العين لا يتكلم إلاّ بكلامه، هم المسمّون بحملة القرآن لما كان المحبون جامعين جميع الصفات كانوا عين القرآن كما قالت عائشة وقد سُئِلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «**كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ**» لم تجب بغير هذا. وسُئِل ذو النون عن حملة القرآن من هم؟ فقال: هم الذين أمطرت عليهم سحاب الأشجان، وأنصبوا الركب والأبدان، وتسربلوا الخوف والأحزان، وشربوا بكأس اليقين، وراضوا أنفسهم رياضة الموقنين، فكان قرّة أعينهم فيما قلّ وزجا وبلغ وكفا وستر ووارى، كحلوا أبصارهم بالسهر، وغضوها عن النظر، وألزموها العبر، وأشعروها الفكر، فقاموا ليلهم أرقاً، واستهلت آماقهم نسقاً، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة، وشفاه ذابلة، ودموع زائلة، وزفرات قاتلة، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين، وغاية آمال الراغبين، فاضت عبراتهم من وعيده، وشابت ذوائبهم من تحذيره، فكان زفير النار تحت أقدامهم، وكان وعيده نصب قلوبهم.

ومن ألطف ما روينا في حال المحب عن شخص من المحبين دخل على بعض الشيوخ

فتكلم الشيخ له على المحبة فما زال ذلك الشخص ينحل ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحلل جسمه كله وصار على الحصير بين يدي الشيخ بركة ماء ذاب كله، فدخل عليه صاحبه فلم ير عند الشيخ أحداً فقال له: أين فلان؟ فقال الشيخ: هوذا، وأشار إلى الماء ووصف حاله، فهذا تحليل غريب واستحالة عجيبة حيث لم يزل ينحف عن كثافته حتى عاد ماء، فكان أولاً حياً بماء فعاد الآن يحيي كل شيء لأن الله قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فالمحب على هذا من يحيا به كل شيء.

وأخبرني والدي رحمه الله أو عمّي لا أدري أيهما أخبرني أنه رأى صائداً قد صاد قمرية حمامة أيكة فجاء ساق حر وهو ذكرها فلما نظر إليها وقد ذبحها الصائد طار في الجوّ محلقاً إلى أن علا ونحن ننظر إليه حتى كاد يخفى عن أبصارنا ثم إنه ضم جناحيه وتكفن بهما وجعل رأسه ممّا يلي الأرض ونزل نزولاً له دويّ إلى أن وقع عليها فمات من حينه ونحن ننظر إليه، هذا فعل طائر، فيأيها المحب أين دعواك في محبة مولاك؟

وحدّثنا محمد بن محمد عن هبة الرحمن عن أبي القسم بن هوازن قال: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت سمنوناً وهو جالس يتكلم في المسجد في المحبة وجاء طير صغير قريباً منه ثم قرب فلم يزل يدنو حتى جلس على يده ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ومات. هذا فعل الحب في الطائر قد أفهمه الله قول هذا الشيخ فغلب عليه الحال وحكم عليه سلطان الحب موعظة للحاضرين وحجة على المدعين، لقد أعطانا الله منها الحظ الوافر إلاَّ أنه قوّانا عليه، والله إني لأجد من الحب ما لو وضع في ظني على السماء لانفطرت، وعلى النجوم لانكدرت، وعلى الجبال لسيّرت، هذا ذوقي لها، لكن قواني الحق فيها قوّة من ورثته وهو رأس المحبين أني رأيت فيها في نفسي من العجائب ما لا يبلغه وصف واصف، والحب على قدر التجلّي والتجلّي على قدر المعرفة، وكل من ذاب فيها وظهرت عليه أحكامها فتلك المحبة الطبيعية، ومحبة العارفين لا أثر لها في الشاهد فإن المعرفة تمحو آثارها لسرّ تعطيه لا يعرفه إلاَّ العارفون، فالمحب العارف حيّ لا يموت روح مجرد لا خبر للطبيعة بما يحمله من المحبة، حبّه إلـهيّ وشوقه ربانيّ مؤيد باسمه القدّوس عن تأثير الكلام المحسوس، برهان ذلك هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن ذا حب ما كان هذا حاله فقد كان محباً ولم يذب حتى سمع كلام الشيخ فثار كامن حبه فكان منه ما كان، فالحب لا حكم له في المحب حتى يثيره كلام متكلم حب طبيعيّ لأن الطبيعة هي التي تقبل الاستحالة والإثارة إذ قد كان موصوفاً بالحب قبل كلام الشيخ ولم يذب هذا الذوبان الذي صيّره ماء بعدما كان عظماً ولحماً وعصباً، فلو كان إلـهيّ الحب ما أثرت فيه كلمات الحروف ولا هزّت روحانيته هذه الظروف، فاستحى من دعواه في الحب وقام في قلبه نار الحياء فما زال يحلله إلى أن صار كما حكى، فلا يلحق التغيير في الأعيان وانتقل في أطوار الأكوان إلاَّ صاحب الحب الطبيعيّ، وهذا هو الفرقان بين الحب الروحانيّ الإلـهيّ وبين الحب الطبيعيّ.

والحب الروحانيّ وسط بين الحب الإلهيّ والطبيعيّ فيما هو إلهيّ يبقى عينه، وبما هو طبيعيّ يتغير الحال عليه ولا يفنيه، فالفناء أبداً من جهة الحب الطبيعيّ، وبقاء العين من جانب الحب الإلهيّ جبريل لما كان حبّه روحانياً وهو روح وله وجه إلى الطبيعة من حيث جسميته، لأن الأجسام الطبيعية الخارجة عن العناصر لا تستحيل بخلاف الأجسام العنصرية فإنها تستحيل لأنها عن أصول مستحيلة، والطبيعة لا تستحيل في نفسها لأن الحقائق لا تنقلب أعيانها، فغشي على جبريل ولم يذب عين جوهر جسمه كما ذاب صاحب الحكاية فغشي عليه من حيث ما فيه من حب الطبيعة وبقي العين منه من حيث حبّه الإلهيّ، فالمحب الإلهيّ روح بلا جسم، والمحب الطبيعيّ جسم بلا روح، والمحب الروحانيّ ذو جسم وروح، فليس للمحب الطبيعيّ العنصري روح يحفظه من الاستحالة، فلهذا يؤثر الكلام في المحبة في المحب الطبيعيّ، ولا يؤثر في المحب بالحب الإلهيّ، ويؤثر بعض تأثير في المحب بالحب الروحانيّ حدّثنا محمد بن إسماعيل اليمني بمكة قال: حدثنا عبد الرحمن بن علي قال: أنبأنا أبو بكر بن حبيب العامري قال: أنبأنا علي بن أبي صادق قال: أخبرنا أبو عبد الله بن باكويه الشيرازي قال: أخبرنا بكران بن أحمد قال: سمعت يوسف بن الحسين قال: كنت قاعداً بين يدي ذي النون وحوله ناس وهو يتكلم عليهم والناس يبكون وشاب يضحك فقال له ذو النون: ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك! فأنشأ يقول: [الخفيف]

كُلُّهم يعبدونَ من خَوْفِ نارٍ ... وَيَرونَ النجاةَ حظاً جَزيلاَ
ليس لي في الجنان والنارِ رأيٌ ... أنا لا أبْتَغي بحبِّي بَديلاَ

فقيل له: فإن طردك فماذا تفعل؟ فقال: [الخفيف]

فإذا لم أَجِدْ من الحبِّ وصلاً ... رُمْتُ في النار منزلاً ومَقِيلا
ثم أَزْعَجْتُ أهلَها ببكائي ... بُكْرةً في ضَريعها وأصيلا
معْشَرَ المشركين نوحوا عليَّ ... أنا عَبْدٌ أحبَبْتُ مولًى جليلا
إن لم أكُنْ في الذي ادَّعيْتُ صدوقاً ... فجزاني منه العذابَ الوبيلا

وخدمت أنا بنفسي امرأة من المحبات العارفات بإشبيلية يقال لها فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي خدمتها سنين وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة، وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها وهي في هذا السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجمالها تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها، وكان لها حال مع الله، وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي وتقول: ما رأيت مثل فلان إذا دخل عليّ دخل بكله لا يترك منه خارجاً عني شيئاً، وإذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئاً. وسمعتها تقول: عجبت لمن يقول: إنه يحب الله ولا يفرح به وهو مشهوده عينه إليه ناظرة في كل عين لا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكاؤون كيف يدعون محبته ويبكون أما يستحيون إذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقربين إليه والمحب أعظم الناس قربة إليه فهو مشهوده فعلى من يبكي إن هذه لأعجوبة. ثم تقول لي: يا ولدي ما تقول فيما أقول؟ فأقول لها: يا أمي القول قولك،

قالت: إني والله متعجبة لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني فوالله ما شغلتني عنه. فذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة لما قالت: إن فاتحة الكتاب تخدمها، فبينا نحن قعود إذ دخلت امرأة فقالت لي: يا أخي إن زوجي في شريش شذونة أخبرت أنه يتزوج بها فماذا ترى؟ قلت لها: وتريدين أن يصل؟ قالت: نعم، فرددت وجهي إلى العجوز وقلت لها: يا أم ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة؟ قالت: وما تريد يا ولدي؟ قلت: قضاء حاجتها في هذا الوقت وحاجتي أن يأتي زوجها، فقالت: السمع والطاعة إني أبعث إليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تجيء بزوج هذه المرأة، وأنشأت فاتحة الكتاب فقرأتها وقرأت معها فعلمت مقامها عند قراءتها الفاتحة وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية فتبعثها عند ذلك، فلما أنشأتها صورة سمعتها تقول لها: يا فاتحة الكتاب تروحي إلى شريش وتجيئي بزوج هذه المرأة ولا تتركيه حتى تجيئي به، فلم يلبث إلاَّ قدر مسافة الطريق من مجيئه فوصل إلى أهله وكانت تضرب بالدف وتفرح فكنت أقول لها في ذلك فتقول لي: إني أفرح به حيث اعتنى بي وجعلني من أوليائه واصطنعني لنفسه، ومن أنا حتى يختارني هذا السيد على أبناء جنسي، وعزّة صاحبي لقد يغار عليّ غيرة ما أصفها ما ألتفت إلى شيء باعتماد عليه عن غفلة إلاَّ أصابني ببلاء في ذلك الذي التفت إليه ثم أرتني عجائب من ذلك فما زلت أخدمها بنفسي وبنيت لها بيتاً من قصب بيدي على قدر قامتها فما زالت فيه حتى درجت، وكانت تقول لي: أنا أمك الإلهية ونور أمك الترابية، وإذا جاءت والدتي إلى زيارتها تقول لها: يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبريه ولا تعقيه.

أخبرنا يونس بن يحيىٰ بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: أخبرنا أبو بكر بن الغزال قال: أخبرنا أبو الفضل بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا عثمان بن محمد العثماني قال: حدثنا محمد بن إبراهيم المذكر حدثنا محمد بن يزيد قال: سمعت ذا النون يقول: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام فبينا أنا أطوف إذ أنا بشخص متعلق بأستار الكعبة وإذا هو يبكي ويقول في بكائه: كتمت بلائي من غيرك، وبحت بسري إليك، واشتغلت بك عمّن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك، ثم أنشأ يقول: [الكامل]

ذوَّقْتَني طَعْمَ الوصال فَزِدْتَني ... شَوْقاً إليك مُخامِرَ الأحْشاءِ

ثم أقبل يخاطب نفسه فقال: أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما استحييت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت، ثم قال: عزيزي ما لي إذا قمت بين يديك ألقيت عليّ النعاس ومنعتني حلاوة مناجاتك لم قرة عيني لمه؟ ثم أنشأ يقول: [الكامل]

روَّعْتَ قلبي بالفراق فلم أجِدْ ... شيئاً أمرَّ من الفراق وأوْجَعَا

حَسْبُ الفراق بأن يفرِّقَ بيننا ... ولطالما قد كنتُ منه مُرَوَّعا

قال ذو النون: فأتيت إليه فإذا به امرأة.

حكاية محب أذاع سرّ محبوبه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف، حدثنا

عبد الرحمن بن علي، أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، وحدثني أيضاً عنهما يونس بن يحيىٰ قالا: أخبرنا حمد بن أحمد أخبرنا أحمد بن عبد الله، حدثنا أحمد بن محمد المتوكلي، حدثنا أحمد بن علي بن ثابت، أخبرنا علي بن القاسم الشاهد قال: سمعت أحمد بن محمد بن عيسىٰ الرازي قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: كان شاب يحضر مجلس ذي النون المصري مدة ثم انقطع عنه زماناً ثم حضر عنده وقد اصفرّ لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة عليه والاجتهاد فقال له ذو النون: يا فتى ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصّك بها؟ فقال الفتى: يا أستاذ وهل رأيت عبداً اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ثم أسر إليه سرّاً أيحسن أن يفشي ذلك السرّ؟ ثم أنشأ يقول: [البسيط]

مَنْ سارروه فأبدى السرَّ مجتهداً ... لم يَأْمَنوه على الأسرار ما عَاشَا
وباعدوه فلم يَسْعَدْ بقُرْبِهِمُ ... وأَبْدَلوه من الإيناس إيحَاشَا
لا يَصْطَفُون مذيعاً بعضَ سرِّهِمُ ... حاشى ودَادَهُمْ من ذلكُمْ حَاشَا

يقول: لا يصحّ لاجتهاد في سرّ المحبوب المحب بل ينتظر أمر محبوبه، فإن أمره بإذاعته أذاعه، وإن لم فالأصل الكتمان، ولقد منحني الله سرّاً من أسراره بمدينة فاس سنة أربع وتسعين وخمسمائة فأذعته فإني ما علمت أنه من الأسرار التي لا تذاع فعوتبت فيه من المحبوب، فلم يكن لي جواب إلاَّ أني قلت له: تولّ أنت أمر ذلك فيمن أودعته إياه إن كانت لك غيرة عليه فإنك تقدر ولا أقدر، وكنت قد أودعته نحواً من ثمانية عشر رجلاً فقال لي: أنا أتولى ذلك، ثم أخبرني أنه سله من صدورهم وسلبهم إياه وأنا بسبتة، فقلت لصاحبي عبد الله الخادم: إن الله أخبرني أنه فعل كذا وكذا فقم بنا نسافر إلى مدينة فاس حتى نرى ما ذكر لي في ذلك، فسافرت فلما جاءتني تلك الجماعة وجدت الله قد سلبهم ذلك وانتزعه من صدورهم فسألوني عنه فسكت عنهم، وهذا من أعجب ما جرى لي في هذا الباب، فللّه الحمد حيث لم يعاقبني بالوحشة التي قالها هذا الشاب لذي النون، ولما كان طريق الله ذوقاً تخيّل هذا الشاب أن الذي عامله به الحق هكذا يعامل به جميع الخلق، فذوقه صحيح وحكمه في ذلك على الله ليس بصحيح، وهذا يقع في الطريق كثيراً إلاَّ من المحققين فإنه لا يقع لهم مثل هذا لمعرفتهم بمراتب الأمور وحقائقها وهو علم عزيز المنال.

وروينا عن ذي النون من حديث محمد بن يزيد عن ذي النون قال: قلت لامرأة: متى يحوي الهموم قلب المحب؟ قالت: إذا كان للتذكار مجاوراً وللشوق محاضراً، يا ذا النون، أما علمت أن الشوق يورث السقام وتجديد التذكار يورث الحزن؟ ثم قالت: [الخفيف]

لم أَذُقْ طِيْبَ طَعْمِ وَصْلِكَ حتى ... زالَ عني محبَّتي للأنامِ

قال فأجبتها: [الكامل]

نِعْمَ المحبُّ إذا تزايَدَ وصلُهُ ... وعَلَتْ محبَّتُه بعقْبِ وِصالِ

فقالت: أوجعتني أوجعتني، أما علمت أنه لا يوصل إليه إلاَّ بترك من دونه، قلت: لو قالت لي مثل هذا قلت لها: إذا كان ثم.

وحدّثنا غير واحد منهم ابن أبي الصيف عن عبد الرحمن بن علي قال: أخبرنا إبراهيم ابن دينار قال: حدّثنا إسماعيل بن محمد أنبأنا عبد العزيز بن أحمد أخبرني أبو الشيخ عبد الله بن محمد قال: سمعت أبا سعيد الثقفي يحكي عن ذي النون قال: كنت في الطواف فسمعت صوتاً حزيناً وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: [مجزوء الرمل]

أنـــتَ تَـــدْري يـــا حـــبـــيـــبـــي ... يـــا حـــبـــيـــبـــي أنـــتَ تَـــدْري
ونُـــحُـــولُ الـــجـــســـم والـــرُّو ... ح يَـــبُـــوحـــان بـــســـرِّي
يـــا عـــزيـــزي قـــد كَـــتَـــمْـــتُ الـــحـــ ... ـبَّ حـــتـــى ضَـــاقَ صَـــدْري

قال ذون النون: فشجاني ما سمعت حتى انتحبت وبكيت، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي بحبك لي ألا غفرت لي، قال: فتعاظمني ذلك وقلت: يا جارية أما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي، فقالت: إليك يا ذا النون أما علمت أن لله قوماً يحبهم قبل أن يحبوه؟ أما سمعت الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له، فقلت: من أين علمت أني ذو النون؟ فقالت: يا بطّال جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفتك، ثم قالت: انظر من خلفك، فأدرت وجهي فلا أدري السماء اقتلعتها أم الأرض ابتلعتها، قلت: يقرب حديث هذه الجارية من حال موسىٰ عليه السلام مع ربه﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] لله تعالىٰ ميادين تسمّى ميادين المحبة كلها ثم يختص كل ميدان منها باسم من نعوت المحبة مثل ميدان الوجد وميدان الشوق وكل حال يكون فيه جولان وحركة فله ميدان هذا أمر كلي، وكذلك أيضاً للمعارف حضرات ومجالس ما هي ميادين إلاَّ إذا أشهدك سبحانه في معرفته تفرقة في أعيان الأكوان، فإن شاهدت أنه العين الظاهرة فيها بأسمائها فتلك ميادين الأسرار، وإن شاهدت معيته للأكوان بأسمائه فتلك ميادين الأنوار، وإن اختلط عليك الأمر فترى أمراً فتقول: هو هو، ثم ترى أمراً فتقول: ما هو هو، ثم ترى أمراً فتقول: لا أدري أهو هو أم لا هو هو؟ فتلك ميادين الحضرة، ولكل عين كون علامة يعرفها من جال في هذه الميادين، فيعرف بتلك العلامة من قامت به في عالم الشهادة في هذه الهياكل المظلمة بالطبع المنوّرة بالمعرفة، فمن هناك يسمونهم بأسمائهم مثل حال هذه الجارية.

وروينا من حديث موسىٰ بن علي الأخميمي عن ذي النون أنه لقي رجلاً باليمن كان قد رحل إليه في حكاية طويلة وفيها: ثم قال له ذون النون: رحمك الله ما علامة المحب لله؟ فقال له: حبيبي إن درجة الحب درجة رفيعة، قال: فأنا أحب أن تصفها لي، قال: إن المحبين لله شقّ لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب عزّ جلال الله فصارت أبدانهم دنياوية، وأرواحهم حجبية، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة وتشاهد تلك الأمور

باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم حباً له لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار، فشهق الفتى شهقة كانت فيها نفسه. قلنا: كان هذا القائل من العارفين فإنه ذكر ما يدل على ذلك وهي ثلاثة ألقاب ليس في الكون إلاً هي فقال: أبدانهم دنياوية لأنه قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] فلا بدّ أن يترك له من حقائقه من يكون معه في الدنيا إذ كان الإنسان مجموع العالم وليس إلاً بدنه لأنه أقرب إليه من حبل الوريد وهو عرق بدني، فلو مشى بكله لكان ناقص الحال، والثاني عقولهم سماوية لأن العقول صفات تقييد، فإن العقل يقيد إذا كان من العقال والسموات محال الملائكة المقيدة بمقاماتها فقالت: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] فلا تتعدّاه، قد حبسه فيه من أوجده له ولهذا فسّره بأن قال: تسرح بين صفوف الملائكة فهم بعقولهم في السموات وما في الكون المركب إلاً سماء وأرض، والثالث أرواحهم حجبية لأنه لما سوّى سبحانه الصورة البدنية احتجب بل حجبها عن ظهوره في عينها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فظهرت أرواحهم عن هذا الروح الحجابيّ، فهم مشاهدون أصلهم عالمون بأنه حجاب ليعلموا من هو الظاهر في أعيانهم ومن المسمّى فلاناً ولم سمّي، وهنا أسرار دقيقة، وحكايات المحبين العارفين كثيرة. انتهى الجزء الخامس عشر ومائة.

(الجزء السادس عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل: نختم به هذا الباب يسمّى عندنا مجالي الحق للعارفين المحبين في منصات الأعراس لإعطاء نعوت المحبين في المحبة، فمن ذلك منصة ومجلى نعت المحب بأنه مقتول وذلك لأنه مركب من طبيعة وروح: [الكامل]

والروحُ نورٌ والطبيعةُ ظُلمةٌ وكلاهما في عينه ضِدَّانِ

والضدّان متنافران والمتنافران متنازعان كل واحد يطلب الحكم له وأن يرجع الملك إليه، والمحب لا يخلو إما أن تغلب الطبيعة عليه فيكون مظلم الهيكل فيحب الحق في الخلق فيدرج النور في الظلمة اعتماداً على الأصل في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] والنهار نور، فعلم أنهما متجاوران وإن كانا ضدين، وأن أحدهما يجوز أن يكون مبطوناً في الآخر، فما يضرني أن أحب الحق في الخلق لأجمع بين الأمرين، وأما إن غلب عليه الروح فيكون منوّر الهيكل فيحب الخلق في الحق لقوله: «**أحِبُوا اللّهَ لِمَا يَغذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فأحبته في النعم عن أمره فمشهوده الحق، ومهما وقعت الغيرة بين الضدّين ورأى كل ضدٍ أن مطلوبه ربما يتخلص لضدّه يقول: أقتله حتى لا يظهر به ضدّي دوني، فإن قتلته الطبيعة مات وهو محبّ للأكوان، وإن قتله الروح كان شهيداً حياً عند ربه يرزق، فهو مقتول بكل حال كل محب في العالم وإن كان لا يشعر بذلك.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه تالف وذلك أنه خلقه الله من اسمه الظاهر والباطن فجعله عالم غيب وشهادة وخلق له عقلاً يفرق به بين حكم الاسمين لإقامة الوزن بين العالمين

في ذاته، ثم تجلى له في اسمه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فحيره فلم يعطه هذا التجلي إقامة الوزن ولا سيما وقد قال له: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فتلف من حيث لم ير حالاً توجب العدل وإقامة الوزن فخرج عن حدّ التكليف إذ لا يكلف إلاّ عاقل لما تقيد بعقله فهذا نعت المحب بأنه تالف.

منصة ومجلى: نعته بأنه سائر إليه بأسمائه وذلك أنه تجلّى له في أسماء الكون وتجلّى له في أسمائه الحسنى، فتخيل في تجليه بأسماء الكون أنه نزول من الحق في حقه ولم يك ذلك من أفقه، فلما تخلق بأسمائه الحسنى غلبه ما جرت عليه طريقة أهل الله من التخلق وهو يتخيل أن أسماء الكون خلقت له لا لله وأن منزلة الحق فيها بمنزلة العبد في أسمائه الحسنى فقال: لا أدخل عليه إلاّ بأسمائي، وإذا خرجت إلى خلقه أخرج إليهم بأسمائه الحسنى تخلقاً، فلما دخل عليه بما يظن أنها أسماؤه وهي أسماء الكون عنده رأى ما رأته الأنبياء من الآيات في إسرائها ومعارجها في الآفاق وفي أنفسهم، فرأى أن الكل أسماؤه تعالىٰ وأن العبد لا اسم له حتى أن اسم العبد ليس له وأنه متخلق به كسائر الأسماء الحسنى، فعلم أن السير إليه والدخول عليه والحضور عنده ليس إلاّ بأسمائه، وأن أسماء الكون أسماؤه، فاستدرك الغلط بعدما فرط ما فرط، فجبر له هذا الشهود ما فاته حين فرّق بين العابد والمعبود، وهذا مجلى عزيز في منصة عظمى كانت غايته أبي يزيد البسطامي دونها، فإن غايته ما قاله عن نفسه تقرّب إليّ بما ليس لي، فهذا كان حظّه من ربه ورآه غاية وكذلك هو فإنه غايته لا الغاية، وهذه طريقة أخرى ما رأيتها لأحد من الأولياء ذوقاً إلاّ للأنبياء والرسل خاصة من هذا المجلى وصفوه سبحانه بما يسمّى في علم الرسوم صفات التشبيه، فيتخيلون أن الحق وصف نفسه بصفات الخلق فتأوّلوا ذلك، وهذا المشهد يعطي أن كل اسم للكون فأصله للحق حقيقة وهو للخلق لفظاً دون معنى وهو به متخلق فافهم.

منصة ومجلى: [الكامل]

نَـعْـتُ الـمـحـبِّ بـأنـه طـيَّـارُ ... عِـلْـمٌ صـحـيـحٌ مـا عـلـيـه غُـبَـارُ

هذا بيت غير مقصود هو ما ذكرناه من أسماء الكون كان يتخيل أن تلك الأسماء وكره فلما تبين له أنه في غير وكره ظهر فطار عن كونه ووكره وحلق في جوّ كونه اسماً حقه فهو في كل نفس يطير منه إلى نفس آخر لأن عين الأسماء كلها لمن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فما من يوم وإلاّ والمحب يطير فيه من شأن إلى شأن هذا يعطيه شهوده.

منصّة ومجلى: نعت المحب بأنه دائم السهر لما رأى أن المحبوب ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] علم أن ذلك من مقام حبّه لحفظ العالم ودعاه إلى هذا النظر كون الحق يتجلّى في الصور وللصور أحكام، ومن أحكام بعض الصور النوم، ورآه في مثل هذه الصورة ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ من حيث هذه الصورة فعلم أن ذلك من مقام حبّه لحفظ العالم، وإذا كان المحب جليس محبوبه ومحبوبه بهذه الصفة فالنوم عليه حرام، فالمحب

يقول مع الفراق أن النوم عليه حرام فكيف مع الشهود والمجالسة؟ قال بعضهم في سهر الفراق: [الكامل]

النومُ بَعْدَكُمُ عليَّ حرامُ مَنْ فارقَ الأحبابَ كيفَ يَنَامُ

فالنوم مع المشاهدة أبعد وأبعد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كامن الغم أي غمّه مستور لا ظهور له، فسبب ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ثم يرى في شهوده أنه لا تتحرك ذرة إلاً بإذنه إذ هو محرّكها بما تتحرّك فيه، ويرى في شهوده ما يقابل الكون به خالقه من سوء الأدب، وما لا ينبغي أن يوصف به ممّا مدلوله العدم فيريد أن يتكلم ويبدي ما في نفسه من الغيرة التي تقتضيها المحبة، ثم يرى أن ذلك بإذنه لأنه ممّن يرى الله قبل الأشياء مقام أبي بكر فيسكن، ولا يتمكن له أن يظهر غمّه لأن الحب حكم عليه بأن ذلك الذي يعامل به المحبوب لا يليق به، ويرى أنه سلط خلقه عليه بما أنطقهم به وما عذرهم وأرسل الحجاب دونهم فكمن غمّ هذا المحب في الدنيا فإنه في الآخرة لا غم له، ولهذا يطلب الخروج من الدنيا.

منصّة ومجلى: نعت المحب بأنه راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه هو لما ذكرناه في هذا الفصل قبله لأن النفس من حقيقتها طلب الاستراحة والغم تعب وكمونه أتعب والدنيا محل الغموم، والذي تختص به هذه المنصة رغبته في لقاء محبوبه وهو لقاء خاص عينه الحق إذ هو المشهود في كل حال، ولكن لما عيّن ما شاء من المواطن وجعله محلاً للقاء مخصوص رغبنا فيه ولا نناله إلاّ بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء وهي الدار الدنيا، خير النبيّ ﷺ بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الأخرى فقال: الرفيق الأعلى، فإنه في حال الدنيا في مرافقة أدنى. وورد في الخبر: «**أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ـ يَعْنِي بِالْمَوْتِ ـ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**» فلقيه في الموت بما يكرهه وهو أن حجبه عنه، وتجلّى لمن أحب لقاه من عباده، ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه بالحياة الدنيا، فنسبة لقائنا له بالموت نسبة قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] والموت فينا فراغ لأرواحنا من تدبير أجسامها، فأرادوا حب هذا المحب أن يحصل ذلك ذوقاً، ولا يكون ذلك إلاّ بالخروج من دار الدنيا بالموت لا بالحال، وهو أن يفارق هذا الهيكل الذي وقعت له به هذه الألفة من حين ولد وظهر به بل كان السبب في ظهوره، ففرّق الحق بينه وبين هذا الجسم لما ثبت من العلاقة بينهما وهو من حال الغيرة الإلهية على عبيده لحبه لهم، فلا يريد أن يكون بينهم وبين غيره علاقة، فخلق الموت وابتلاهم به تمحيصاً لدعواهم في محبته، فإذا انقضى حكمه ذبحه يحيىٰ عليه السلام بين الجنة والنار، فلا يموت أحد من أهل الدارين، فهذا سبب رغبتهم في الخروج من الدنيا إلى لقاء المحبوب، لأن الغيرة نصب ويحيىٰ الموت بالذبح حياة خاصة كما حكمنا بعد الموت فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متبرم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه، هذا النعت أعم من الأوّل في المحب، فإن العارف ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه إلاّ العدم وما

هو ثم وليس الوجود سواه فهو شاهده في كل عين تراه، فليس بين المحب والمحبوب إلاً حجاب الخلق، فيعلم أن ثم خالقاً ومخلوقاً، فلم يقدر على رفع صحبة هذه الحقيقة فإنها عينه، والشيء لا يرتفع عن نفسه، ونفسه تحول بينه وبين لقاء محبوبه، فهو متبرم بنفسه لكونه مخلوقاً، وصحبته لنفسه ذاتية لا ترتفع أبداً، فلا يزال متبرماً أبداً فلهذا يتبرم، لأنه يتخيل أنه إذا فارق هذا الهيكل فارق التركيب فيرجع بسيطاً لا ثاني له فينفرد بأحديته فيضربها في أحدية الحق وهو اللقاء، فيكون الحق الخارج بعد الضرب لا هو فهذا يجعله يتبرم، والعارف المحب لا يتبرم من هذا لمعرفته بالأمر على ما هو عليه كما ذكرناه في رسالة الاتحاد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كثير التأوّه وهو قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٤] وصف الحق من كونه اسمه الرحمن أن له نفساً ينفس به عن عباده، وفي ذلك النفس ظهر العالم، ولذلك جعل تكوين العالم بقول: ﴿كُن﴾ والحرف مقطع الهواء فالهواء يولده ما هو هو لأنه لا يظهر الحرف إلاً عند انقطاع الهواء والهواء نفس، ولهذا الهواء في العناصر هو نفس الطبيعة ولهذا يقبل الحروف وهو ما يظهر فيه من الأصوات عند الهبوب، والظاهر من تلك الأصوات حرف الهاء والهمزة وهما أقصى المخارج مخارج الحروف فإنهما ممّا يلي القلب وهما أوّل حروف الحلق بل حروف الصدر فهما أوّل حرف يصوّره المتنفس وذلك هو التأوّه لقربه من القلب الذي هو محل خروج النفس وانبعاثه، فيظهر عنه جميع الحروف كما يظهر العالم بالتكوين عن قول: ﴿كُن﴾ وهو سرّ عجيب سأذكره في باب النفس بفتح الفاء إن شاء الله، فإذا تجلّى الحق من قلب المحب ونظرت إليه عين البصيرة لأن القلب وسع الحق ورأى ما يقع من الذم على هذه النشأة الطبيعية وهي تحتوي على هذه الأسرار الإلهية وأنها من نفس الرحمن ظهرت في الكون فذمّت وجهل قدرها فكثر منه التأوّه لهذه القادحة لما يرى في ذلك من الوضوح والجلاء، والناس في عماية عن ذلك لا يبصرون، فيتأوّه غيرة على الله وشفقة على المحجوبين لكون النبيّ ﷺ جعل كمال الإيمان في المؤمن أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، فلهذا يتأسف على من حرمه الله هذا الشهود ويتأوّه لحبه في محبوبه من أجل ما يراه من عمى الخلق عنه، ومن شأن المحب الشفقة على المحبوب لأن الحب يعطي ذلك.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] فسمّىٰ كلامه ذكراً. فاعلم أن أصل وجود الكون لم يكن عن صفة إلهية إلاً عن صفة الكلام خاصة، فإن الكون لم يعلم منه إلاً كلامه وهو الذي سمع فالتذّ في سماعه فلم يتمكن له إلاً أن يكون، ولهذا السماع مجبول على الحركة والاضطراب والنقلة في السامعين لأن السامع عندما سمع قول: ﴿كُن﴾ انتقل وتحرّك من حال العدم إلى حال الوجود فتكوّن، فمن هنا أصل حركة أهل السماع وهم أصحاب وجد ولا يلزم فيمن (. . .)، فإن الوجد لذاته يقتضي ما يقتضي، وإنما المحبوب يختلف، فالحب والوجد والشوق وجميع نعوت الحب وصف للحب كان المحبوب ما كان، إلاً أني اختصصت في هذا الكتاب الحب المتعلق بالله الذي هو المحبوب على الحقيقة، وإن كان غير

مشعور به في مواطن عند قوم ومشعوراً به عند قوم وهم العارفون، فما أحبوا إلاّ الله مع كونهم يحبون أرواحهم وأهليهم وأصحابهم فاعلم ذلك، حتى أن بعض الصالحين حكى لنا عنه أنه قال: إن قيساً المجنون كان من المحبين لله وجعل حجابه ليلى وكان من المولهين، وأخذت صدق هذا القول من حكايته التي قال فيها لليلى: إليك عني فإن حبك شغلني عنك وما قرّبها ولا أدناها. ومن شأن الحب أن يطلب المحب الاتصال بالمحبوب وهذا الفعل نقيض المحبة، ومن شأن المحب أن يغشى عليه عند فجأة ورود المحبوب عليه ويدهش وهذا يقول لها: إليك عني وما دهش ولا فني، فتحقق عندي بهذا الفعل صدق ما قاله هذا العارف في حق قيس المجنون وليس ببعيد، فللّه ضنائن من عباده، فمن هناك استراح المحبون إلى كلام المحبوب وذكره والقرآن كلامه وهو ذكر فلا يؤثرون شيئاً على تلاوته لأنهم ينوبون فيه عنه فكأنه المتكلم كما قال: فأجره حتى يسمع كلام الله، والتالي إنما هو محمد ﷺ، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته فهم الأحباب المحبون.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه موافق لمحابّ محبوبه هذا ما يكون إلاّ من نعوت المحبين لله خاصة لكونه تعالىٰ لا يحدّ ولا يتقيد وهو المتجلي في الاسم القريب كما يتجلّى في الاسم البعيد فهو البعيد القريب، قال المحب: وكل ما يفعل المحبوب محبوب. فإذا فعل البعد كان محبوبه البعد عن المحبوب لأنه محبوب المحبوب، فإنه أحبه لحب المحبوب لا بنفسه، ولا يحبه بحب المحبوب لا بنفسه حتى يكون المحبوب صفة له، وإذا كان المحبوب من صفات المحب قام به، وإذا قام به فهو في غاية الوصلة في عين البعد أوصل منه به في القرب لأنه في القرب بصفة نفسه لا بصفة محبوبه لأنه لا يقوم بالمحل علتان لمعلول واحد هذا لا يصحّ، فما يحب القرب إلاّ لنفسه كما لا يحب البعد إلاّ بمحبوبه، فهو في حب البعد أتم منه محبة في حب القرب، ولنا في هذا المعنى: [الوافر]

هَوًى بين المَلاحة والجَمَالِ ... يُقَاسيه القويُّ من الرجالِ
ويَضْعُفُ عنه كلُّ ضعيفِ قلبٍ ... تَقَلَّبَ في النَّعيم وفي الدَّلالِ
وتَقْليبي مع الهُجْران عندي ... أَلَذُّ من العِنَاق مع الوِصَالِ
فإني في الوصال عُبَيْدُ نفسي ... وفي الهُجْران عَبْدٌ للمَوَالي
وشُغْلي بالحبيب بكلِّ وجْهٍ ... أحبُّ إليَّ من شُغْلي بحالي

ففي هذا الشعر إيثار مآثره المحبوبة، ويتضمن ما أشرنا إليه في كلامنا قبله. وأما قولنا إن المحبوب صفة المحب فيما ذكرناه فهو قوله تعالىٰ: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» فجعل عينه سمع العبد وبصره فأثبت أنه صفته، فما أحب المحب البعد إلاّ بمحبوبه، وهذا غاية الوصلة في عين البعد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة وذلك أنه لا يخاف من هذا إلاّ عارف متوسط لم يبلغ التحقيق في المعرفة إلاّ أنه يشعر به من غير ذوق سوى ذوق الشعور وهو محب، والمحب مطيع لمحبوبه في جميع أوامره، وتحقيق الأمر

يعطي أن الآمر عين المأمور والمحب عين المحبوب، إلاّ أن الظاهر يظهر بحسب ما تعطيه حقيقة المظهر، وبالمظاهر تظهر التنوّعات في الظاهر وتختلف الأحكام والأسامي، وبها يظهر الطائع والعاصي، فالذي هو في مقام الشعور ولم يحصل في حد أن ينزل الأشياء منازلها في الظاهر يخاف أن يصدر منه ما يناقض الحرمة في خدمته إذ يقول: ليس إلاّ هو، كما يذهب إلى ذلك من يرى الأعيان عيناً واحدة ولكن لا يعرف كيف، فلا يزال يسيء الأدب لأنه أخذ ذلك عن غير ذوق، وهذا مذهب من يرى أن المدبر أجسام الناس روح واحدة، وأن عين روح زيد هو عين روح عمرو، وفيه من الغلط ما قد ذكرناه في غير هذا الموضع، وهو أنه يلزم ما يعلمه زيد لا يجهله عمرو لأن العالم من كلّ واحد عين روحه وهو واحد، والشيء الواحد لا يكون عالماً بالشيء جاهلاً به، فيخاف المحب إن صدرت منه قلة حرمة بهفوة وغلط أن يستند فيها بعد وقوعها إلى ما ذكرناه فيحصل في قلّة المبالاة بما يظهر عليه من ذلك، والمحبة تأبى إلاّ حرمة المحبوب وإن كان المحب مدلاً بحبه لغلبة الحب عليه وأنه يرى نفسه عين محبوبه فيقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. فهذا سبب خوفه لا غير.

منصة ومجلى: نعت المحب أن يستقل الكثير من نفسه في حق ربه ويستكثر القليل من حبيبه، وذلك أنه يفرق بين كونه محباً لما يرى في نفسه من الانكسار والذلة والدهش والحيرة التي هي أثر الحب في المحبين، ويرى نخوة المحبوب وتيهه ورياسته وإعجابه عليه، فيرى أنه إذا أعطاه جميع ما يملكه فهو قليل لما أعطاه من نفسه، وأن حق محبوبه أعظم عنده من حق نفسه بل لا يرى لنفسه حقاً، وإن كان في الحقيقة ما يسعى إلاّ في حق نفسه هكذا تعطيه المحبة. كان لبعض الملوك مملوك يحبه اسمه إياس فدخل على الملك بعض جلسائه ورأى قدمي المملوك في حجر الملك والملك يكبسهما فتعجب فقال إياس: يا هذا ما هذه أقدام إياس هذه قلب الملك في حجره يكبسه، هذا معنى قولنا: إن المحب في حق نفسه يسعى، فإنه له في ذلك الفعل لذة عظيمة لا ينالها إلاّ بذلك الفعل، فالمحبوب ممتن عليه إذا مكّنه ممّا تقع للمحب به لذة من المحبوب، فيرى المحب أي شيء جاء من المحبوب فهو كثير فهو إنعام سيد على عبد، وأي شيء كان من المحب في حق المحبوب ولو كان تلف الروح والمهجة في رضاه لكان قليلاً لأنه طاعة عبد لسيد محسان ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] فالمحبوب غنيّ فقليله كثير والمحب فقير فكثيره قليل ولكن وإن كان هذا نعت المحب عندهم فهو نعت محب ناقص المعرفة كثير الحب على عماية، لأن المحب إذا كان المخلوق ليس له شيء يملكه حتى يستقل أو يستكثر، وأما إذا كان المحب الله فإنه يستكثر القليل من عبده وهو قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وأما استقلاله الكثير في حق أحبابه من عباده فإن ما عند الله ما له نهاية، ودخول ما لا نهاية له في الوجود محال، فكل ما دخل في الوجود فهو متناه، فإذا أضيف ما تناهى إلى ما لا يتناهى ظهر كأنه قليل أو كأنه لا شيء وإن كان كثيراً، وهنا نظر يطول فاقتصرنا.

منصة ومجلى: نعت المحب يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته، قال شاعرهم: [الكامل]

تَـعْـصِـي الإلٰـهَ وأنـت تُـظْـهِـرُ حُـبَّـه   هـذا مـحـالٌ فـي الـقـيـاس بَـديـعُ
لـو كـان حـبُّـكَ صـادقـاً لأطَـعْـتَـهُ   إن الـمـحـبَّ لـمـن يـحـبُّ مُـطـيـعُ

المحب عبد والعبد من وقف عند أوامر سيده وتجنب مخالفة أوامره ونواهيه، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، لا يزال ماثلاً بين يديه، فإذا أمره رأى هذا المحب أنه قد امتنّ عليه حيث استعمله وأمره وأن هذا من عنايته به، وإن فقد رؤيته ومشاهدته فيما شغله به فهو في نعيم ولذة بكونه يتصرّف في مراسيم سيده وعن إذنه، فإن كان المحب الله فأمر المحبوب له دعاؤه ورغبته فيما يعن له ويحبه، ثم أنه يكره أشياء فيدعوه بصفة النهي مثل قوله ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨] ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فهذا سؤال بصفة نهي، فقد وقع منه الأمر والنهي لسيده وإجابة الحق هذا العبد من حيث هو محب لهذا العبد كالطاعة من العبد لأوامر سيده ومجانبة مخالفته.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خارج عن نفسه بالكلية. اعلم أن نفس الشخص الذي يتميز به عن كثير من المخلوقات إنما هو إرادته، فإذا ترك إرادته لما يريد به محبوبه فقد خرج عن نفسه بالكلية فلا تصرّف له، فإذا أراد به محبوبه أمراً ما وعلم هذا المحب ما يريده محبوبه منه أو به سارع أو تهيأ لقبول ذلك، ورأى أن ذلك التهيؤ والمسارعة من سلطنة الحب الذي تحكم فيه فلم ير المحبوب في محبه من ينازعه فيما يريده به أو منه لأنه خرج له عن نفسه بالكلية فلا إرادة له معه، ولكن مع وجود نفسه وطلبه الاتصال به، وإن لم يكن كذلك فهو في مرتبة الجماد الذي لا إرادة له، فما له لذة إلاّ اللذة التي متعلقها التذاذ محبوبه بما يراه منه في قبوله المحب الله. أوحى الله إلى موسىٰ: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك يعني الدنيا والآخرة لأنه العين المقصودة وهو رأس الأحباء محمد ﷺ فالكلّ في تسخير هذه النشأة الإنسانية الأفلاك وما تحتوي عليه والكواكب وما في سيرها هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر حتى نهاية الأمر وهو التجلّي الإلهيّ يوم الزور الأعظم، فهذا معنى خروج المحب عن نفسه بالكلية في كل ما يمكن أن يحتاج إليه المحبوب وما لا حاجة للمحبوب به ولا يعود عليه منه لذة وابتهاج فلا يدخل تحت هذا الباب.

منصة ومجلى: نعت المحب لا يطلب الديّة في قتله لأنا قد وصفناه أوّلاً بأنه مقتول قتل المحب شهادة فقتله حياته والحي لا دية فيه إنما يُودَى القتيل الذي يموت فله شرعت الدية. المحب الله، كون العبد محبوباً إرادته نافذة لا إرادة للمحب تنازع إرادته؛ المقتول لا إرادة له، ومن كان بإرادة محبوبه فلا إرادة له، وإن كان مريداً ولا ديّة له لأن الحي لا ديّة فيه والحياة الذاتية له وهو حب الفرائض إذا أدّاها أحبه الله، ففي النوافل يكون سمع العبد وبصره، وفي

الفرائض يكون العبد سمع الحق وبصره، ولهذا ثبت العالم، فإن الله لا ينظر إلى العالم إلاً ببصر هذا العبد فلا يذهب العالم للمناسبة، فلو نظر إلى العالم ببصره لاحترق العالم بسبحات وجهه، فنظر الحق العالم ببصر الكامل المخلوق على الصورة هو عين الحجاب الذي بين العالم وبين السبحات المحرقة.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره الإنسان مجموع الطبع والنور، فالطبع يطلبه والنور يطلبه، وكلف النور أن يغتبن ويترك كثيراً ممّا ينبغي له وتطلبه حقيقته لما يطلبه الطبع من المصالح، وأمر النور الذي هو الروح أن يوفيه حقه وهو قوله ﷺ لمن قال له: من أبرّ؟ قال: أمّك ثلاث مرات، ثم قال له في الرابعة: ثم أباك، فرجح برَّ الأم على برِّ الأب والطبيعة الأم وهو قوله ﷺ: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» وَهِيَ النَّفْسُ الحَيَوَانِيَّةُ «**وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» فهذا كله من حقوق الأمّ التي هي طبيعة الإنسان وأبوه هو الروح الإلهيّ وهو النور، فإذا ترك أموراً كثيرة من محابه من حيث نوريته فإنه يتصف بأنه مضرور وهو مأمور بالصبر، فهذا معنى يصبر على الضرّاء وإن كانت حقيقته تنفر من ذلك ولكن أمر الله أوجب، ثم قال له في صبره: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٧] فإن الله تسمّى بالاسم الصبور فكأنه قال له: أنا على عزّة جلالي قد وصفت نفسي بأني أؤذى وأني أحلم وأصبر وتسميت بالصبور وأنا غير مأمور ولا محجور عليّ، فأدخلت نفسي تحت محاب خلقي، وتركت ما ينبغي لي لما ينبغي لخلقي إيثاراً لهم ورحمة مني بهم، فأنت أحق بأن تصبر على الضرّاء بي أي بسبب أمري وبسبب كوني صبوراً على أذى خلقي حين وصفوني بما لا يقتضيه جلالي، وهذا من كون الله محباً في هذا المجلى، وأما كونه كذلك لما كلفه محبوبه من تدبير نشأته الطبيعية فإذا كان المحبوب الخلق والمحب الحق فصورة التكليف ما يطلبه العبد من سيده إذا عرف أنه محبوب لسيده من تدبير مصالحه بشرط الموافقة لأغراضه ومحابه فيفعل الحق معه ذلك، فهذا ذلك المعنى الذي نعت به المحب.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه هائم القلب لما كان القلب سمي بذلك لكثرة تصرّفاته وتقليبه كثرت وجوهه وتوجهاته وهذه صفة الهائم ولا سيما إذا كان الحق يظهر له في كلّ وجه يتوجه إليه، وفي كل مصرف يتصرّف فيه، فإنه ناظر إلى عين محبوبه في كل وجه المحب الله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ما تردّدت في شيء أنا فاعله، كثرة الوجوه في الأمر الواحد تؤدّي إلى التردّد أيها يفعل وكلها رضى المحبوب، فنحن لا نعرف الأرضى وهو يعرف الأرضى في حقنا، غير أنا نعرف الأرضى ما بين النوافل والفرائض فنقول: الفرائض أرضي ولكن إذا اجتمعت بحكم التخيير كالكفارة التي فيها التخيير لا يعرف الأرضى إلاً بتعريف مجدّد، وكذلك الأرضى في النوافل لا يعرف إلاً بتوقيف والنوافل كثيرة وما منها إلاً مرضي من وجه وأرضى من وجه، فلا بدّ من تعريف جديد، ففي مثل هذا يكون المحب هائم القلب أي حائراً في الوجوه التي يريد أن يتقلب فيها.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مؤثر محبوبه على كلّ مصحوب لما كان العالم كله

كل جزء منه عنده أمانة للإنسان وقد كلف بأداء الأمانة وأماناته كثيرة، ولأدائها أوقات مخصوصة له في كل وقت أمانة، منها ما نبّه عليه أبو طالب من أن الفلك يجري بأنفاس الإنسان بل بنفس كل متنفس، والمقصود الإنسان بالذكر خاصة لأنه بانتقاله ينتقل الملك ويتبعه حيث كان؛ لا يزال العالم يصحبه الإنسان لهذه العلة، ثم إن الإنسان مفتقر لهذه الأمانات التي عند العالم، ومع افتقاره إليها فإن المحبين من رجال الله العارفين شغلوا نفوسهم بما أمرهم به محبوبهم فهم ناظرون إليه حباً وهيماناً قد تيّمهم بحبه وهيّمهم بين بعده وقربه، فمن هنا نعتوا بأنهم آثروه على كلّ مصحوب لأنه صاحبهم لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وكل من في العالم يصحبه أيضاً لأجل الأمانة التي بيده، فيؤثر الإنسان لمحبته لله جناب الله على كل مصحوب، قيل لسهل: ما القوت؟ قال: الله، قيل له: ما نريد إلاً ما تقع به الحياة، قال: الله، فلم ير إلاَّالله، فلما ألحوا عليه وقالوا له: إنما نريد ما به عمارة هذا الجسم فلما رآهم ما فهموا عنه عدل إلى جواب آخر فقال: دع الديار إلى بانيها إن شاء عمرها وإن شاء خرّبها، يقول: ليس من شأن اللطيفة الإنسانية صحبة هذا الهيكل الخاص ولا بدّ تشتغل هي بما كلفها المحبوب الذي هو عين حياتها ووجودها، وأي بيت أسكنها فيه سكنته، هذا إن كان يقول بعدم التجريد عن النشأة الطبيعية كما نقول وكما أعطاه الكشف، وإن كان يقول بالتجريد عن الطبيعة وارتفاع العلاقة فهو على كل حال ممّن يؤثر الله على كل مصحوب.

المحب الله آثر الإنسان من كونه محبوبه على جميع العالم فأعطاه الصورة الكاملة ولم يعطها لأحد من أصناف العالم، وإن كان موصوفاً بالطاعة والتسبيح لله فقد آثره على كل مصحوب قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] أعطاه جميع الأسماء كلها الإلهية فسبحه بكل اسم إلهيّ له بالكون تعلق ومجده وعظمه لا اسم القصعة والقصيعة الذي ذهب إليه من لا علم له بشرف الأمور، ولذلك قالت الملائكة: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ولا يقدس ولا يسبح إلاً بأسمائه، فأعلمهم بأن لله أسماء في العالم ما سبحته الملائكة ولا قدسته بها وقد علمها آدم، فلما أحضر ما أحضره من خلقه ممّا لا علم للملائكة به فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] التي تسبحوني بها وتقدسوني ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢] فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] علموا أن لله أسماء لم يكن لهم بها علم يسبحه بها هؤلاء الذين خلقهم وعلمها آدم فسبح الله بها، كما قال للملائكة لما طافت به بالبيت: ما كنتم تقولون؟ قالت الملائكة: كنا نقول في طوافنا به قبلك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاً الله والله أكبر، فقال لهم آدم: وأنا أزيدكم لا حول ولا قوّة إلاً بالله أعطاها الله إياه من كنز من تحت العرش لم تكن الملائكة تعلم ذلك، فلو أراد المفسر بقوله حتى القصعة والقصيعة الاسم الإلهيّ المتوجه على الصغير والكبير فسبحه الصغير في تصغيره بما لا يسبحه به الكبير في تكبيره أصاب، وإنما قصد لفظة القصعة والقصيعة ولا شرف في مثل هذا فإنه راجع لما

يصطلح عليه، إذ لها في كلّ لسان اسم مركب من حروف لا يشبه الاسم الآخر، فليس المراد إلاّ ما تقع به الفائدة التي يماثل بها قول الملائكة في فخرها على الإنسان أنها مسبحة ومقدسة، فأراها الله تعالىٰ شرف آدم من حيث دعواها وهو ما ذكرناه ليس غيره، وما ثم في المخلوقات أشرف من الملك، ومع هذا فقد فضل عليه الإنسان الكامل بعلم الأسماء فهو في هذه الحضرة وهذا المقام أفضل فهذا حد إيثار الحق له.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه محو في إثبات، أمّا إثباته فظهر في تكليفه ومن العبادات الفعلية في صلاته فقسمها بينه وبين عبده فأثبته، وأما محوه في هذا الإثبات فقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٤] وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فهذا في غاية البيان من كتاب الله محو في إثبات، فالمحب ما له تصرّف إلاّ فيما يصرف فيه قد حيّره حبه الآن يريد سوى ما يريده به، والحقيقة في نفس الأمر تأبى إلاّ ذلك، وكل ما يجري منه فهو خلق لله وهو مفعول به لا فاعل فهو محل جريان الأمور عليه، فهو محو في إثبات المحب الله محو في إثبات لا تقع العين إلاّ على فعل العبد فهذا محو الحق، ولا يعطي الدليل العقلي والكشف إلاّ وجود الحق لا وجود العبد ولا الكون، فهذا إثبات الحق فهو محو في عالم الشهادة إثبات في حضرة الشهود.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه قد وطأ نفسه لما يريده به محبوبه، وذلك أن الحب لما حال بينه وبين رؤية الأسباب ولم يبق له نظر إلاّ إلى جناب محبوبه تعالىٰ جهل ما يحتاج العالم إليه فيه، ولا بدّ له في نفس الأمر أن يؤدّي إليه ما يطلبه به من حقوقه كما قال ﷺ: «**وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» فأتى بما يدخل فيه جميع العالم وهو الزيارة وهذا من جوامع كلمه، فوطأ هذا المحب نفسه لما يريده به محبوبه، فعلم ما للعالم من الحقوق عليه من جهة ما أراده به محبوبه من تصريفه فيما صرفه والحق حكيم فلا يحرّكه إلاّ في العمل الخاص، وأداء الحق الخاص فيما يطلبه به من كان من العالم في ذلك الوقت، فيعرف العالم من الله فيربح شهود الحق وهو قول الصديق: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلاَّ رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» فشاهد عين العالم في شهود الله المحب الله لما كان في نفس الأمر أن الحق سبحانه لا تقبل ذاته التصريف فيها وجعل في نفوس العالم الافتقار إليه فيما فيه بقاؤهم ومصالحهم وتمشية أغراضهم، فكأنه قد وطأ نفسه لجميع ما يريدونه منه وما يريدونه به، ولهذا إذا سألوه فيما لم يجيء وقته قال لهم: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فهو الفاعل في كلّ حال، وليست ذاته بمحل لظهور الآثار، فقد وقعت التوطئة أنه مهيىء لما يحتاج إليه الكون لا لنفسه، وله في كلّ ما أوجده تسبيح هو غذاء ذلك الموجود، فلهذا أخبر سبحانه أنه ما من شيء إلاّ وهو يسبح بحمده وقد ذكرناه في مقام الفتوة.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متداخل الصفات وذلك أن المحب يطلب الاتصال

بالمحبوب ويطلب اتباع إرادة المحبوب، وقد يريد المحبوب ما يناقض الاتصال، فقد تداخلت صفات المحب في مثل هذا المحب الله هو الأوّل من عين ما هو آخر، فدخلت آخريته على أوّليته ودخلت أوّليته على أخريته، وما ثم إلاً عينه، فأوّليته عينه وآخريته عبده وهو محبوبه فقد تداخلت صفاته في صفات محبوبه. فإن قلت عبد لم تخلص، وإن قلت سيد لم تخلص، وأنت صادق في الأمرين فهذا حكم التداخل.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ما له نفس مع محبوبه يقول ما هو مستريح مع محبوبه لأنه مراقب محبوبه في كل نفس يرى أين محابه فيتصرّف فيها، فلا يبرح ذا عناء ببذل المجهود في رضى المحبوب ورضاه مجهول فلا راحة للمحب، فهذا معنى قولهم: ما له نفس أي لا يستريح من التنفيس وهو إزالة الكرب والشدّة، وهذا نعت المحب الصادق في حبه المحب الله قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ولا يتصرّف إلاً في حق عباده، ولا يقصد من عباده إلاً أحبابه، وينتفع الباقي بحكم التبعية، يأكلون فضلات موائدهم فشغله بمصالحهم دنيا وآخرة، غير أنه موصوف بأنه لا يمسه لغوب يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وهو قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] يعني في كل نفس هو تعالىٰ في خلق جديد في عباده وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ وقال في أهل السعادة: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٨] مع كونهم في كل حال يتصرّفون في حق الله لا في حق نفوسهم، ثم إن ذلك يعود عليهم لا يقصدونه من أجل عوده عليهم بل الحقائق تعطي ذلك فلهذا وصف المحب بأنه لا نفس له مع محبوبه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كله لمحبوبه وذلك أنه مجموع وبحكم جمعيته ظهر عينه فآحاده لله إذ الأحدية لله وليس المجموع سوى هذه الآحاد فكله لله، فإن كل واحد من المجموع إذا ضربته في الواحد الحق كان الخارج من ذلك واحد الحق فهذا معنى كله لمحبوبه وهو واحد المجموع لأن المجموع له أحدية، وعلى هذا يخرج إذا كان المحب الله، فالكلّ في حق الله مع أحديته، إنما ذلك الأسماء الإلهية وهي التسعة والتسعون فظهرت الكثرة في الأسماء فصحّ اسم الكل، وآحاد هذا الكل عين كل اسم على حدة يطلب من العبد ذلك الاسم حقيقة واحدة يظهر سلطانه فيها ولا تكون إلاً واحدة فتضرب الواحد في الواحد فيظهر في الشاهد واحد العبد وهو المحبوب فكله لله لأن الأسماء كلها تظهر أحكامها في العبد والأسماء لله، فالكل للعبد المحبوب عند الله فما في الحضرة الإلهية شيء إلاً للعبد المحبوب فإن الله بذاته غنيّ عن العالمين، فهو غني عن الكثرة وعن الدلالة عليه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه يعتب نفسه بنفسه في حق محبوبه وذلك أن المحب يرى أنه يعجز عمّا لمحبوبه عليه من الحقوق التي أوجبها حبه عليه ولا علم له بطريق الإحاطة بمحاب محبوبه فيجهد في أنه يعمل بقدر ما علم من ذلك ثم يقول لنفسه: لو صدقت في حبك لكشف لك عن جميع محابه فإنك في دار التكليف وهي دار محصورة ومحاب الحبيب

فيها معينة، بخلاف الآخرة فإنك مسرح العين فيها لأنها كلها محابه فلا عتاب هناك، فلهذا عتب المحب هنا نفسه بنفسه في حق محبوبه. المحب الله وصف نفسه بالتردّد في حق حبه للعبد المؤمن، إذ من حق المحبوب أن لا يعمل له المحب ما يكرهه والمحبوب يكره الموت، والحق يكره مساءته من حيث ما هو محبوب له، فهذا معنى العتب ولا بدّ له من الموت لما سبق من العلم ولكن لجهل العبد بماله في اللقاء من الخير بخلاف المحبين فإنهم يحبون الموت لا للراحة بل للالتقاء مع المحبوب، ومن المحبين من يغلب عليه رضى المحبوب ويرى أنه لا يحصل ذلك على حالة يعرف بها قدر حب المحب إلاّ بوجود التحجير وتمييز ما يرضي ممّا يسخط ولا يكون له ذلك إلاّ في دار التكليف، وأما في الآخرة فلا تحجير فيقع التساوي فيرتفع تميز قدر المحب في تصرّفه من غير المحب فيكره بعض المحبين الموت لهذا المعنى وهذا لصدقهم في المحبة. والمحب الله أيضاً: في هذه الحقيقة وقد قضى بالموت على الجميع وكان غرض هذه الطائفة المخصوصة التي تريد التمييز أن لا يرتفع عنها التحجير لتعلم قدر محبتها لسيدها على غيرها من الطوائف، ويأبى سبق العلم بالكائن إلاّ أن يكون فهذا القدر يسمّى عتباً في حق الحق يميزه قوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] لا بل يميزه ويختار خاصة، والذي يفهم أيضاً من قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨] فهذا وأمثاله موجب العتب لا الإرادة ولا العلم فإن الحكم لهما فتفطن لما ذكرناه فكل ذلك أسرار إلهية غاروا عليها أصحابنا لما رأوا من عظيم قدرها وهو كما قالوه، غير أن هذا الذي أبرزنا منها بالنظر إلى ما عندنا من العلم بالله قشر، فهذا سبب إقدامنا على إبرازه ولما فيه من المنفعة في حق العباد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ملتذ في دهش. الدهش سببه فجأة المحبوب وهو المعبر عنه بالهجوم وسيأتي له باب في هذا الكتاب، ولما كان الحق دعا قلوب العباد إليه وشرع لهم الطريق الموصلة المشروعة وتعرّف إليهم بالدلالات فعرفوه وتحبّب إليهم بالنعم فأحبوه فلما تجلى لهم على غير موعد عندما دخلوا عليه وهم غير عارفين بأنهم في حال دخول عليه فجأهم تجليه فعرفوه بالعلامة فدهشوا لفجأة التجلي والتذوا لعلمهم بالعلامة في نفوسهم أنه حبيبهم ومطلوبهم فهذا التذاذهم في دهش. المحب الله: وصف نفسه بالاختيار وأنه على كل شيء قدير وأنه لو شاء فعل وأنه لا مكره له وهو الصادق في قوله وما حكم به على نفسه، وهو أيضاً المقيت فقد ترتبت الأمور ترتيب الحكمة فلا معقب لحكمه فهو في كل حال يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي فعل حكيم عالم بالمراتب فتأتيه أسئلة السائلين وما يوافق توقيت الإجابة في عين ما سألوه فيه وقد تقرر أنه لا مكره له، ولا بدّ من التوقف عند هذا السؤال لمناقضته إذا أجابه ترتيب الحكمة فهذا المقدار يسمّى دهشاً، وأما التذاذه فإن السائل في ذلك محبوب فهو يحب سؤاله ودعاءه كما قد ورد في الخبر: أن شخصين محبوب لله وبغيض سألا الله في حاجة فأوحى الله للملك أن يقضي حاجة البغيض مسرعاً حتى يشتغل عن سؤاله لكونه يبغضه ويبغض صوته ويقول للملك: توقف عن حاجة فلان فإني أحب أن

أسمع صوته وسؤاله فإني أحبه، فهذا مقضي الحاجة على بغض، وهذا غير مقضي الحاجة مع حب وعناية، فلو كشف لهذا المحبوب هذا السرّ في وقت تأخّر الإجابة ما وسعه شيء من الفرح بذلك فالتوقف عن الإجابة كتوقف الداهش لصدق قوله في أنه لا مكره له والالتذاذ علمه بأنه لا بدّ من وصوله إلى ما طلب وفرحه به فسبحان العزيز الحكيم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه جاوز الحدود بعد حفظها. هذا معين في أحباء أهل بدر فإنهم ممّن جاوزوا الحدود بعد حفظها فقال لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وأما في غير المعينين في العموم وهم معينون في الخصوص وقد عين الحق صفتهم فهو ما ذكر الله سبحانه في قوله: أذنب عبد ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب فقال في الرابعة أو في الثالثة: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، فأباح له وأخرجه من التحجير في الدنيا إذ كان الله لا يأمر بالفحشاء، فما عصى الله صاحب هذه الصفة بل تصرف فيما أباحه الله له، وقد كان قبل هذه الصفة من أهل الحدود فجاوزها بعد حفظها، فهذا أعطاه شرف العلم مع وجود عقل التكليف بخلاف صاحب الحال فإن حكم صاحب الحال حكم المجنون الذي ارتفع عنه القلم فلا يكتب لا له ولا عليه وهذا يكتب له ولا عليه، فهذا قدر ما بين العلم والحال، فما أشرف العلم فالمحب إذا كان صاحب علم هو أتم من كونه صاحب حال، فالحال في هذه الدار الدنيا نقص وفي الآخرة تمام، والعلم هنا تمام وفي الآخرة تمام وأتم. المحب الله: لما علم من عباده المحبين له أنهم غير مطالبين لله ما أوجبه لهم على نفسه جاوزوا الحدود بعد حفظها فأعطاهم ما أوجبه على نفسه وهو حفظها ثم أعطاهم بغير حساب وهو مجاوزته الحدود، فإن الحدّ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ومجاوزة الحدود الزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦] وهو حفظ الحد وزيادة وهي ما جاوز الحد، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه غيور على محبوبه منه. وهذا أحق ما يوجد في حق من يحب الله، وهذا مقام الشبلي أدّاه إلى ذلك تعظيم محبوبه في نفسه وحقارة قدره، فرأى أنه لا يليق بذلك الجناب العزيز إدلال المحبين، فإن المحبين لهم إدلال في الحضرة الإلهية إلاّ المحبين الموصوفين بالغيرة فإنهم لا إدلال لهم لما غلب عليهم من التعظيم فهم الموصوفون بالكتمان وسببه الغيرة والغيرة من نعوت المحبة فهم لا يظهرون عند العالم بأنهم من المحبين، وهذا مقام رسول الله ﷺ فإنه وصف نفسه بأنه أغير من سعد بعدما وصف سعداً بأنه غيور فأتى ببنية المبالغة في غيرة سعد، ثم ذكر أنه ﷺ أغير من سعد فستر محبته وما لها من الوجد فيه بالمزاح وملاعبة الصغير وإظهار حبه فيمن أحبه من أزواجه وأولاده وأصحابه، هذا كله من باب الغيرة، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] فلم يجعل عند نفسه أنه من المحبين فجهلته طبيعته وتخيلت أنه معها لما رأته يمشي في حقها أو يؤثرها، ولم تعلم بأن ذلك عن أمر محبوبه إياه بذلك فقيل: إن محمداً ﷺ يحب عائشة والحسن والحسين وترك الخطبة يوم الجمعة ونزل إليهما لما رآهما يعثران في أذيالهما وصعد بهما وأتم خطبته، هذا

كله من باب الغيرة على المحبوب أن تنتهك حرمته، وأن هذا ينبغي أن يكون الأمر عليه تعظيماً للجناب الأقدس أن يعين، ثم لا يظهر ذلك الاحترام من الكون فسدل ستر الغيرة في قلوب عباده المحبين المحب الله، قال ﷺ في هذا الحديث: «وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي» ومن غيرته حرّم الفواحش ليفتضح المحبون في دعواهم محبته فغار أن يدعي فيه الكاذب دعوى الصادق ولا يكون ثم ميزان يفصل بين الدعوتين فحرّم الفواحش، فمن ادّعى محبته وقف عند حدوده فتبين الصادق من الكاذب والكل بالله قائم فغار على محبوبه منه فأضاف الأفعال إليه لا إلى العبد حتى لا ينسب نقص للعبد.

منصة وجلى: نعت المحب بأنه يحكم حبه فيه على قدر عقله لأن عقله قيده فعقله قيده، وما خاطب تعالىٰ إلاّ العقلاء وهم الذين تقيدوا بصفاتهم وميزوها عن صفات خالقهم، فلما وقع التباين حصل التقييد فكان العقل، ولهذا أدلة العقول تميز بين الحق والعبد والخالق والمخلوق، فمن وقف مع عقله في حال حبه لم يتمكن أن يقبل من سلطان الحب إلاّ ما يقتضيه دليله النظري، ومن وقف مع قبول عقله لا مع نظر عقله فقبل من الحق ما وصف به نفسه تحكم فيه سلطان الحب بحسب ما قبله عقله من ذلك فالعقل بين النظر والقبول، فحكم الحب في العقل الناظر والقابل ليس على السواء فافهم فإن هنا أسراراً، المحب الله نسبة العقل إلينا نسبة العلم إليه فلا يكون إلاّ ما سبق به علمه كما لا يكون منا إلاّ قدر ما اقتضاه عقلنا فحكم حبه في خلقه لا يجاوز علمه، وحكم حبنا فيه لا يجاوز عقلنا نظراً أو قبولاً فافهم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مثل الدابة جرحه جبار.

حكي أن خطافاً راود خطافة كان يحبها في قبة لسليمان عليه السلام وكان سليمان عليه السلام في القبة فسمعه وهو يقول لها: لقد بلغ مني حبك أن لو قلت لي اهدم هذه القبة على سليمان لفعلت، فاستدعاه سليمان عليه السلام وقال له: ما هذا الذي سمعته منك؟ فقال: يا سليمان لا تعجل عليّ إن للمحب لساناً لا يتكلم به إلاّ المجنون وأنا أحب هذه الأنثى فقلت ما سمعت، والعشاق ما عليهم من سبيل فإنهم يتكلمون بلسان المحبة لا بلسان العلم والعقل، فضحك سليمان ورحمه ولم يعاقبه. فهذا جرح قد جعله جباراً وأهدره ولم يؤاخذه به، كذلك المحب لله كل ما أعطاه إدلال الحب وصدق المودّة من الخلل في ظاهر الأمر لا يؤاخذ به المحب فإن ذلك حكم الحب. والحب مزيل للعقل، وما يؤاخذ الله إلاّ العقلاء لا المحبين فإنهم في أسره، وتحت حكم سلطان الحب المحب الله جرحه جبار هو الصادق وتوعد على الخطيئة بما توعد به ثم عفا ولم يؤاخذ من غير توبة من العاصي بل امتناناً منه وفضلاً، فاهدر ما كان له أن يأخذ به كان ما اجترحه المسيء جباراً، وما توعده به الحق من وقوع الانتقام به جبار لأنه عفا عنه من غير سبب البهيمة لا تقصد ضرر العبادة ولا تعقل، فجرحها جبار المحب محكوم عليه فغيره هو القاتل فجرحه جبار ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩].

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يقبل حبّه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقص

بجفائه. هذا الحكم لا يكون إلاً في محب أحبه لذاته عن تجلّ تجلّى له فيه من اسمه الجميل فلا يزيد بالبر ولا ينقص بالإعراض، بخلاف حب الإحسان والنعم فإنه يقبل الزيادة والنقص وهو الحب المعلول، قالت المحبة: لو قطعتني إرباً إرباً لم أزدد فيك إلاً حباً، يعني أنه لا ينقص حبنا لذلك وهو قول المرأة المحبة يقال إن هذا قول رابعة العدوية المشهورة التي أربت على الرجال حالاً ومقاماً وقد فصلت وقسمت رضي الله عنها وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب: [المتقارب]

أحبُّكَ حُبَّيْنِ حبَّ الهوى ... وحباً لأنّك أهلٌ لذَاكْ
فأمّا الذي هو حبُّ الهَوَى ... فشُغلي بذكْرِكَ عمَّنْ سوَاكْ
وأمّا الذي أنتَ أهلٌ له ... فكَشْفُكَ للحُجْبِ حتى أراكْ
فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاك لي ... ولكنْ لكَ الحَمْدُ في ذا وذاكْ

وقالت الأخرى جارية عتاب الكاتب: [الخفيف]

يا حبيبَ القلوب من لي سواكَا ... ارْحَم اليومَ زائراً قد أتَاكَا
أنتَ سُؤلي وبُغيَتي وسُروري ... قد أبَى القلبُ أن يحبَّ سواكَا
يا مُنَايَا وسيِّدي واعْتِمَادي ... طالَ شَوْقي مَتَى يكونُ لقَاكَا
ليس سُؤلي من الجِنانِ نعيماً ... غيرَ أني أريدُها لأراكَا

ولنا في هذا النعت: [الوافر]

نعيمُك أو عَذَابُك لي سَوَاءٌ ... فحبُّكَ لا يَحُول ولا يَزيدُ
فحُبِّي في الذي تَخْتَارُ مني ... وحبُّك مثلُ خَلْقِكَ لي جَديدُ

هذا ميزان الاعتدال وهو الميزان الإلهي لا تؤثر فيه العوارض ولا يتأثر بالأحوال المحب الله لا ينتفع بالطاعة ولا يتضرر بالمخالفة، من أحبه من عباده لم تضرّه الذنوب ولا قدحت في منزله بل بشره فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٣] فقدم العفو على السؤال عندنا وعلى العتاب عند غيرنا: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقدم المغفرة على الذنب وليس يذنب عنده، وإنما ذكره لتعرف العناية الإلهية بأحبابه لا ذنب لمحبوب ولا حسنة لمحب عند نفسه ومع هذا كله فإنه مقام خفيّ غير جليّ سريع التفلت في المحب يتصوّر فيه المطالبة مع الأنفاس مدعيه حافظ لميزانه إن أخلّ به قامت الحجة عليه من الجانبين، فلا يحفظه إلاّ ذو معرفة تامّة وذو حب صادق قوي السلطان ثابت الحكم.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه غير مطلوب بالآداب. إنما يطلب بالأدب من كان له عقل وصاحب الحب ولهان مدله العقل لا تدبير له فهو غير مؤاخذ في كل ما يصدر عنه، إذا كان المحب الله فهو الكبير المالك مشرع الآداب في العقلاء مؤدّب أوليائه كما قال ﷺ: «**إنَّ اللّهَ أدَّبَني فَأحْسَنَ أدَبي**» والسيد لا يقال يتأدّب مع غلامه وإنما يقال: السيد يعطي ما يستحقه العبد المحبوب عنده المكرم لديه منة منه وفضلاً، فالسيد غير مطالب بالأدب مع عبده وإن كان محبوباً له.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ناس حظه وحظ محبوبه استفرغه الحب فأنساه المحبوب وأنساه نفسه، وهذا هو حب الحب والحقيقة الإلهية التي صدرت منها هذه الحقيقة لا تنقال، نعم تنقال إلاَّ أنها من الأسرار التي لا تذاع فمن كشفها عرفها ولا يجوز له أن يعرف بها وآيتها من كتاب الله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ومن نسي صورته نسي نفسه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مخلوع النعوت. المحب لا نعت له يقيد به ولا صفة، فإنه بحيث يريد محبوبه أن يقيمه فيه فنعته ما يراد به، وما يراد به لا يعرفه، فهو مخلوع النعوت المحب الله هو كامل لذاته لا يكمل بالزائد فلا نعت له ولا صفة لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠].

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مجهول الأسماء، قال الشاعر: [السريع]

لا تَـدْعُـني إلاَّ بـيـا عَـبْـدَهـا ... فـإنـه أَشْـرَفُ أسـمـائـي

فهذا مثل قولهم فيه إنه مخلوع النعوت، فالعبودية له ذاتية فما له اسم معين سوى ما يسميه به محبوبه، فبأي اسم سمّاه ودعاه به أجابه ولبّاه، فإذا قيل للمحب: ما اسمك؟ يقول: سل المحبوب فما سماني به فهو اسمي لا اسم لي، أنا المجهول الذي لا يعرف والنكرة التي لا تتعرّف المحب الله لا اسم له يدل على ذاته، وإنما المألوه الذي هو محبوبه نظر إلى ماله فيه من أثر فسمّاه بآثاره فقبل الحق ما سمّاه به فقال المألوه: يا الله، قال الله له: لبيك، قال المربوب: يا رب، قال له الرب: لبيك، قال المخلوق له: يا خالق، قال الخالق: لبيك، قال المرزوق: يا رزاق، قال الرزاق: لبيك، قال الضعيف: يا قويّ، قال القويّ: أجبتك. فأحوالنا تدعوه دعاء تحقيق فيتخذها أسماء، ولهذا تختلف ألفاظها وتركيب حروفها بحسب اللسان والمعنى الموجب للاسم معقول عند المخلوقين فيقول العربيّ: يا الله للذي يقول له الفارسيّ أي خداي، ويقول له الروميّ: ايشا، ويقل له الأرمنيّ أي إصفاج، ويناديه التركي: أي تنكري، ويناديه الإفرنجي: أي كر يطور، ويقول له الحبشيّ: واق، فهذه ألفاظ مختلفة لمعنى واحد مقصود من كل مخلوق، فلهذا قلنا إنه مجهول الأسماء إذ الأسماء دلائل، فالمحبوب بأي اسم دعا محبه أجابه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه كأنه سال وليس بسال، وهذا النعت يسمّى البهت والسبات ولا يكون له هذا إلاَّ في حال الاستغراق فيما عنده من حب محبوبه، حتى أن محبوبه ربما يكون بإزائه ولا يعرفه به ويناديه ولا يعرف صوته مع نظره إليه فهو كالسالي في حاله وهو في غاية الهيمان فيه، المحب الله يقول: و﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ويطالبهم بأنفاسهم أن يكون تنفسهم بذكره وأنه سميع الدعاء.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يفرق بين الوصل والهجر لشغله بما عنده من محبوبه فهو مشهوده دائماً أو يكون كما قال القائل: [البسيط]

فاللَّيْلُ إن وصَلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ ... أشكو من الطُّول ما أشكو من القِصَرِ

فهو في الحالتين صاحب شكوى فما تغير عليه الحال في عذاب دائم، وأما نحن فعلى

المذهب الأوّل ما لنا شغل إلاّ به فهو مشهودنا لا نعرف غيره ولا نشهد سواه ولنا في ذلك: [البسيط]

شُغْلي بها وَصَلَتْ ليلاً وإن هَجَرَتْ ... فما أُبَالي أَطَالَ اللَّيلُ أم قَصُرَا

المحب الله الكلمة الإلهية واحدة قال تعالىٰ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] لا تفريق عنده، فبعده عين قربه وقربه عين بعده، فهو البعيد القريب ما عنده وصل بنا فيقبل الفصل ولا هجر فيقبل الوصل: [الوافر]

فَعَيْنُ الوَصْلِ عَيْنُ الهَجْرِ فيه ... وما يَدْريه إلاّ مَنْ رآهُ

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه متيم في إدلال المتيم الذي تعبده الحب وأذلّه مع إدلال يجده عنده ولا يعرف سببه سوى ما تعطي الحقائق من أن المحب يعطي المحبوب سيادته عليه فكأنه ولاّه ومن حالته هذه فلا بدّ أن تشمّ منه رائحة إدلال في إذلال وخضوع وهذا يعطيه مقام الحب. المحب الله: عبدي جعت فلم تطعمني، ظمئت فلم تسقني، مرضت فلم تعدني، من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت منه ذراعاً، فضاعف التقريب ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ١١] تضاعف الأجر إدلال والسؤال سؤال.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه ذو تشويش، وسبب ذلك جهله بما في نفس المحبوب، فلا يدري بأيّ حالة يكون معه، أما إذا كان الحق محبوبه فإنه قد عرف ذلك بما شرع له فلا يبقى عليه تشويش في قلبه إلاّ فيما منحه من الأسرار وما حاباه به من اللطائف، وهو يحب أن يحببه إلى خلقه حتى تجتمع الهمم والقلوب كلها عليه، ولا يتمكن له ذلك إلاّ بإذاعة أسراره، لأنّ النفوس مجبولة على حب المنح والهبات والعطايا، ثم إنه لا يعلم هل يرضى إذاعة تلك الأسرار ربه أم لا؟ فهذا سبب تشويش قلوب المحبين لله. المحب الله نفذ الأمر الإلهيّ بأن يؤمن من سبق علمه فيه أنه لا يؤمن وقوله وعلمه واحد، فمن أي حقيقة قال آمراً من علم أنه لا يمتثل أمره فقد عرضه للمعصية و﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] فمن هنا صدر التشويش في العالم واختلاف الأغراض والمنازعات.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه خارج عن الوزن، التصرّفات على الوزن المعتبر في الحكمة يطلب الفكر الصحيح، والمحب لا فكرة له في تدبير الكون وإنما همّه وشغله بذكر محبوبه قد أفرط فيه الخيال فلا يعرف المقادير، فإن كان محبوبه الله لما وسعه قلبه فذلك الخارج عن الوزن فلا يزنه شيء، ألا ترى إلى التلفظ بذكره وهي لفظة لا إله إلاّ الله لا تدخل الميزان، ولما دخلت بطاقتها من حيث ما هي مكتوبة في الميزان لصاحب السجلات طاشت السجلات وما وزنها شيء، ولو وضعت أصناف العالم ما وزنتها وهي لفظة من قائل لم يتصف بالمحبة فما ظنك بقول محب؟ فما ظنك بحاله؟ فما ظنك بقلبه الذي هو أوسع من رحمة الله وسعته إنما كانت من رحمة الله، فهذا من أعجب ما ظهر في الوجود أن اتساع القلب من رحمة الله وهو أوسع من رحمة الله، يقول أبو يزيد: لو أن العرش وما حواه مائة

ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ بها فكيف حال المحب؟ المحب الله تعالىٰ عن الموازنة محبوب الحق عند الحق لأن المحب لا يفارق محبوبه وما عند الله باق فالمحبوب باق وما يبقى ما يوازنه ما يفنى.

منصة ومجلى: نعت المحب بكونه يقول عن نفسه إنه عين محبوبه لاستهلاكه فيه فلا يراه غير إله. قال قائلهم في ذلك: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. وهذه حالة أبي يزيد. المحب الله أحب بعض عباده فكان سمعه وبصره ولسانه وجميع قواه.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مصطلم مجهود لا يقول لمحبوبه لم فعلت كذا؟ لم قلت كذا؟ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعله؟ لأنه كان يرى تصريف محبوبه فيه وتصريف المحبوب في المحب لا يعلل بل يسلم لا بل يستلذ لأن المحب مصطلم بنار تحرق كلّ شيء تجده في قلبه ما سوى محبوبه غيره، فهو يبذل المجهود ولا يرى أنه وفى، ولا يخطر له أنه تحرّك فيما يرضى محبوبه، المحب الله في هذا الموطن لا تتحرك ذرة إلاّ بإذنه فكيف يقول لِمَ وما فعل إلاّ هو، يقول المحب لمحبوبه: أنا يدك اللازم له لكل محبوب تجلّ لا يكون لغيره فما يجتمع عنده اثنان ولا يصحّ، فهذا الاصطلام ونعته بالمجهود ما نسب إليه من التردّد.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه مهتوك الستر سرّه علانية فضيحة الدهر لا يعلم الكتمان، قال المحب الصادق: [الكامل]

مـن كـان يَـزْعُـمُ أَنْ سَـيَـكْـتُـمُ حُـبَّـه ... حـتـى يُـشَـكِّـكَ فـيـه فـهـو كَـذُوبُ
الـحـبُّ أغْـلَـبُ لـلـفـؤاد بـقَـهْـره ... مـن أن يـرى لـلـسَّـتْـر فـيـه نَـصـيـبُ
وإذا بـدا سـرُّ الـلَّـبـيـب فـإنـه ... لـم يَـبْـدُ إلاّ والـفَـتَـى مَـغْـلُـوبُ
إنـي لأحْـسُـدُ ذا هـوًى مُـتَـحَـفِّـظـاً ... لـم تَـتَّـهِـمْـه أعـيـنٌ وقُـلـوبُ

الحب غلاب لا يبقي ستراً إلاّ هتكه ولا سراً إلاّ أعلنه، زفراته متصاعدة، وعبراته متتابعة، تشهد عليه جوارحه بما تحمله من الأسقام والسهر وتنم به أحواله، إن تكلم تكلم بما لا يعقل، ما له صبر ولا جلد، همومه مترادفة، وغمومه متضاعفة. المحب الله إذا أحب الله العبد أوحى إلى الملك أن ينادي به في السموات إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض فتقبله البواطن، وإن أنكرته الظواهر من بعض الناس فلأغراض قامت بهم فإنهم في هذا الشأن مثل سجودهم لله كل من في العالم ساجد لله وكثير من الناس ما قال كلهم، وهكذا حب هذا العبد في قلوبهم وإن وضع له القبول في الأرض فتحبه بقاع الأرض كلها وجميع ما فيها وكثير من الناس على أصلهم في السجود لله سواء.

منصة ومجلى: نعت المحب بأنه لا يعلم أنه محب كثير الشوق لا يدري لمن، عظيم الوجد لا يدري فيمن، لا يتميز له محبوبه، القربُ المفرط حجاب فيجد آثار الحب وقد لبسته صورة محبوبه ممّا يحكم في خياله فيطلبه من خارج فلا يجد ما عانق من صورته في نفسه

لكثافة الظاهر عن لطف الباطن، المحب مع المعنى الذي يأخذه من المحبوب ويرفعه في نفسه، وذلك المعنى المرفوع عند المحب منه هو الذي يقلقه ويزعجه فهو فيه ولا يدري أنه هو فيه فلا يطلبه إلاّ به اللطيف يغيب عن الحواس يقول ولا يعقل ما يقول ولا بقوله: قلبي عند محبوبي: [المديد]

ضاعَ قلبي أين أَطْلُبُهُ ... ما أرى جسمي له وَطَنَا

ولا بقوله محبوبي في قلبي لا أدري في أي الحالتين هو أصدق يجمع بين الضدين هو عندي ما هو عندي. المحب الله تجلى الله لآدم ويداه مقبوضتان فقال: يا آدم اختر أيتهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته الحديث. فآدم في القبضة وآدم خارج القبضة، هكذا صورة المحبوب مع المحب هو فيه ما هو فيه، فنعوته كثيرة لا تحصى وليس لها حد فيبلغ بالبحث والاستقصا، غير أن مشارب الحب متنوعة باختلاف المحبوب، فإن عقلت عني فقد رميت بك على الطريق فإياك والتشبيه فالحب والوجد والشوق والكمد حقيقة واحدة لها نسب مختلفة لاختلاف المتعلق، فهي نعوت تحكم سلطانها فيمن قامت به لا يرجع منها إلى المحبوب نعت ولا له فيها حكم إلاّ أن يكون محباً فافهم، وهذا القدر كاف على الإيجاز في نعت المحبين في الجانبين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس عشر ومائة.

(الجزء السابع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والسبعون ومائة

في معرفة مقام الخلة

[نظم: السريع]

بِخَلَّةِ الكون يُسَدُّ الخَلَلْ ... بخَلَّةِ الحقِّ فأكرمْ بِهْ

مِن نَعْتِ حقٍ ورَسُولَيْ هُدًى ... وما له في الخَلْقِ من مُشْبِهْ

إن عجَزَتْ عنه نفوسُ الوَرَى ... فأنتَ من عَالَمِه قُمْ بِهْ

الخلة نعت إلهي يقول قائلهم: [الخفيف]

وتخلَّلْتَ مَسْلَكَ الروحِ مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاَ

يعضده حال الحلاج وزليخا انكتب بدم زليخا يوسف حيث وقع، وبدم الحلاج الله الله حيث وقع فأنشد: [السريع]

ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفْصَلُ ... إلاّ وفيه لكم ذِكْرُ

إذا تخللت المعرفة بالله أجزاء العارف من حيث ما هو مركب فلا يبقى فيه جوهر فرد إلاّ وقد حلّت فيه معرفة ربه فهو عارف به بكل جزء فيه، ولولا ذلك ما انتظمت أجزاؤه ولا ظهر

تركيبه ولا نظرت روحانيته طبيعته، فبه تعالىٰ انتظمت الأمور معنى وحساً وخيالاً، وكذلك أشكال خيال الإنسان لا تتناهى وما ينتظم منها شكل إلاَّ بالله، ويكون حكمها في تلك الحضرة في المعرفة بالله حكم ما ذكرناه في الصورة الحسية والروحانية هكذا في كل موجود، فإذا أحسّ الإنسان بما ذكرناه وتحقق به وجوداً وشهوداً كان خليلاً من حصل في هذا المقام كان حاله في العالم نعت الحق فبه يرزق مع كفر النعم ويملي ليزداد ذلك الشخص إثماً فيظهر عظم المغفرة وسلطان العفو والتجاوز.

حكاية: نزل ضيف من غير ملة إبراهيم عليه السلام بإبراهيم عليه السلام فقال له إبراهيم عليه السلام: وحد الله حتى أكرمك وأضيفك، فقال: يا إبراهيم من أجل لقمة أترك ديني ودين آبائي فانصرف عنه، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم صدقك. لي سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بي فتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة، فلحقه إبراهيم عليه السلام وسأله الرجوع إليه ليقريه واعتذر إليه فقال له المشرك: يا إبراهيم ما بدا لك؟ فقال: إن ربي عتبني فيك وقال لي: أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره بي وأنت تريد منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة، فقال المشرك: أو قد وقع هذا؟ مثل هذا ينبغي أن يعبد! فأسلم ورجع مع إبراهيم عليه السلام إلى منزله، ثم عمّت كرامته خلق الله من كل وارد ورد عليه فقيل له في ذلك فقال: تعلمت الكرم من ربي رأيته لا يضيع أعداءه فلا أضيعهم، فأوحى الله إليه: أنت خليلي حقاً، قال رسول الله ﷺ: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» قال الشاعر: [الطويل]

عن المرءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قرينه ... وكلُّ خليلٍ بالمُقارن مُقْتَدِ
إذا كنتَ في قومٍ فصاحِبْ خِيَارَهُمْ ... ولا تَصْحَبِ الأرْدَى فتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

قيل لبعضهم: من أحب الناس إليك؟ قال: أخي إذا كان خليلي، علامة الخليل أن يسد خلة صاحبه بما أمكنه فإذا لم يستطع قاسمه في همه كما قيل: [الوافر]

خليلي من يُقَاسِمُني هُمُومي ... ويَرْمي بالعَدَاوة مَنْ رَمَاني

وقال الآخر: [مخلع البسيط]

ما أنا إلاَّ لِمَنْ بَغَاني ... أرى خليلي كما يَرَاني

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] وقد قلنا بأن الخليل على دين خليله وهؤلاء الموصوفون بأنهم أعداء الله مع كون الله يحسن إليهم فذلك لجهلهم به وحجب الأسباب دونه في أعينهم فلا يعلمون إلاَّ ما شاهدوه، فمن أراد تحصيل هذا المقام وأن يكون خليلاً للرحمن يجمع بين الآية في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ مع جهل الأعداء به أن الإحسان منه تعالىٰ وهو محسن إليهم مع عداوتهم ولم يجعل في قلوبهم الشعور بذلك فينبغي للإنسان الطالب مقام الخلة أن يحسن عامة لجميع خلق الله كافرهم ومؤمنهم طائعهم وعاصيهم، وأن يقوم في العالم مع قوته مقام الحق فيهم من شمول الرحمة وعموم لطائفه من حيث لا يشعرهم أن ذلك

الإحسان منه، ويوصل الإحسان إليهم من حيث لا يعلمون، فمن عامل الخلق بهذه الطريقة وهي طريقة سهلة فإني دخلتها وذقتها فما رأيت أسهل منها ولا ألطف وما فوق لذتها لذة، فإذا كان العبد بهذه المثابة صحّت له الخلة، وإذا لم يستطع بالظاهر لعدم الموجود أمدهم بالباطن فدعا الله لهم في نفسه بينه وبين ربه، هكذا تكون حالة الخليل فهو رحمة كله، ولولا الرحمة الإلهية ما كان الله يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦١] وما كان الله يقول حتى يعطوا الجزية أليس هذا كله إبقاء عليهم، ولولا ما سبقت الكلمة وكان وقوع خلاف المعلوم محالاً ما تألمت ذرة في العالم، فلا بدّ من نفوذ الكلمة ثم يكون المآل للرحمة التي وسعت كل شيء، فهو في الدنيا يرزق مع الكفر ويعافي ويرحم فكيف مع الإيمان والاعتراف في الدار الآخرة على الكشف كما كان في قبض الذرية فعقابهم وعذابهم تطهير وتنظيف كأمراض المؤمنين وما ابتلوا به في الدنيا من مقاساة البلايا وحلول الرزايا مع إيمانهم، ثم دخول بعض أهل الكبائر النار مع إيمانهم وتوحيدهم إلى أن يخرجوا بالشفاعة، ثم إخراج الحق من النار من لم يعمل خيراً قط حتى الساكنين في جهنم لهم فيها حال يستعذبونها وبهذا سمّي العذاب عذاباً، فالخليل على عادة خليله وهو قوله ﷺ: «المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ» أي على عادة خليله، قال امرؤ القيس: [الطويل]

كدينكَ من أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلها وجارتِها أمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

يقول: كعادتك فمن كانت عادته في خلق الله ما عوّدهم الله من لطائف مننه وأسبغ عليهم من جزيل نعمه وأعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضب لا تشوبه رحمة ولا عداوة لا تتخللها مودّة، فذلك يستحق اسم الخلة لقيامه بحقها واستيفائه شروطها لو لم يكن من عظيم الرجاء في شمول الرحمة إلاّ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] فإذا استقرّت الرحمة في العرش الحاوي على جميع أجسام العالم فكل ما يناقضها أو يريد رفعها من الأسماء والصفات فعوارض لا أصل لها في البقاء لأن الحكم للمستولي وهو الرحمن فإليه يرجع الأمر كله، فابحث على صفات إبراهيم عليه السلام وقم بها عسى الله أن يرزقك بركته فإنه بالخلة قام بها ما هي أوجبت له الخلة، فلهذا دللناك على التخلق بأخلاق الله، وقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ» ومعنى هذا أنه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم وإلى سفساف وظهرت مكارم الأخلاق كلها في الشرائع على الأنبياء والرسل وتبين سفسافها من مكارمها عند الجميع وما في العالم على ما يقوم عليه الدليل ويعطيه الكشف والمعرفة إلاّ أخلاق الله فكلها مكارم فما ثم سفساف أخلاق، فبعث رسول الله ﷺ بالكلمة الجامعة إلى الناس كافة وأوتي جوامع الكلم، وكل نبيّ تقدمه على شرع خاص، فأخبر ﷺ أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق لأنها أخلاق الله، فالحق ما قيل فيه أنه سفساف أخلاق بمكارم الأخلاق فصار الكل مكارم أخلاق، فما ترك ﷺ في العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع فأبان لنا مصارف لهذا المسمّى سفساف أخلاق من حرص وحسد وشره وبخل وفزع وكل صفة مذمومة، فأعطانا لها مصارف إذا أجريناها على تلك المصارف عادت مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم وكانت محمودة فتمم الله به مكارم الأخلاق، فلا ضد له كما

أنه لا ضد للحق، وكل ما في الكون أخلاقه فكلها مكارم ولكن لا تعرف، وما أمر الله باجتناب ما يجتنب منها إلاّ لاعتقادهم فيها أنها سفساف أخلاق، وأوحى إلى نبيه أن يبين مصارفها ليتنبهوا، فمنا من علم ومنا من جهل، فهذا معنى قوله: إنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق وبه كان خاتماً.

الباب الثمانون ومائة

في معرفة مقام الشوق والاشتياق وهو من نعوت المحبين العشاق

[نظم: الكامل]

شَوْقٌ بتحصيل الوصال يَزُولُ ... والاشْتِيَاقُ مع الوِصَال يكونُ
إن التَّخَيُّلَ للفراق يُديمُه ... عند اللِّقَاء فَرَبُّه مَغْبُونُ
من قالَ هَوِّنْ صَعْبَه قُلنا له ... ما كلُّ صعبٍ في الوجود يَهُونُ
هو مِنْ صفاتِ العِشْقِ لا من غيره ... والعِشْقُ داءٌ في القُلوب دَفينُ
ما حُكْمُ هذا النَّعْت إلاَّ هَهُنا ... وهناك يذهب عَيْنُهُ ويَبِينُ

يقول بعض العشاق: [الوافر]

فأبكي إن نَأَوْا شوقاً إليهم ... وأبكي إن دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ

الشوق يسكن باللقاء فإنه هبوب القلب إلى غائب، فإذا ورد سكن، والاشتياق حركة يجدها المحب عند اجتماعه بمحبوبه فرحاً به لا يقدر يبلغ غاية وجده فيه، فلو بلغ سكن لأنه لا يشبع منه فإن الحسّ لا يفي بما يقوم في النفس من تعلّقها بالمحبوب، فهو كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، قال عليه السلام: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا**» من حيث ما هو محب في تحصيل كل واحد منهما وما للعلم غاية ينتهي إليها فلهذا لا يشبع، وكذلك الدنيا فإنها مشتهى النفوس والشهوة تطلبها وقد تجلّى ذلك المشتهى في صورة قريبة تسمّى دنيا فتعلقت الشهوة بها، ثم تنتقل إلى الآخرة في الجنة فتتبعها الشهوة فلا تشبع أبداً لأنها صورة لا يتناهى أمدها، ولولا الشهوة ما طابت الجنة فالشوق ما سكن والاشتياق ما بقي ولنا في هذا الباب: [الرمل]

ليس يصفو عَيْشُ من ذاق الهَوَى ... دون أن يَلْقَى الذي يعْشَقُهُ
فإذا أبْصَرَه يَسْكُنُه ... ذلك المعنى الذي يُقْلِقُهُ
وهو معنًى حُكْمُه مختلِفٌ ... عندَ مَنْ يعرف ما أَطْلَقَهُ

ولما كان الحب لا يتعلق إلاّ بمعدوم كما قدمناه في باب المحبة، كذلك الشوق لا يصحّ أن يتعلق بحاضر وإنما متعلقه غائب غير مشهود له في الحال، ولذا كان الشوق من أوصاف المحبة، ولهذا يطرد وينعكس فيقال: كل محب مشتاق وكل مشتاق محب، ومن ليس بمشتاق فليس بمحب، ومن ليس بمحب فليس بمشتاق، وقد ورد خبر لا علم لي بصحته: إن الله تعالىٰ ذكر المشتاقين إليه وقال عن نفسه أنه أشد شوقاً إليهم كما يليق بجلاله، فشوقه إليهم أن ينيلهم

الراحة بلقاء من اشتاقوا إليه، والوقت المقدر الذي لا يتبدل لم يصل، فلا بدّ من تأخّر وجود ما وقع الشوق الإلهي إليه هذا إن صحّ الخبر، ولا علم لي به لا من الكشف ولا من رواية صحيحة إلاّ أنه مذكور مشهور، وقد اتصفت الجنة بالاشتياق إلى علي وسلمان وعمار وبلال، وتكلم الناس في ذلك من حيث اشتقاق أسماء هؤلاء من العلو والسلامة والعمران والاستبلال ولكن ما هو محقق فإن الشوق أمر ذوقي، ولو خطر لي هذا الخبر حين رأيت الجنة لسألتها عن شوقها لهؤلاء دون غيرهم فإنها أعرف بالسبب الذي أدّاها إلى الشوق لهؤلاء الأربعة، وكذلك النبي ﷺ قد رأيته مراراً وسألته عن أشياء وما خطر لي أن أسأله عن شوق الجنة لهؤلاء بل شغلني ما كان أهم علي منه والشوق علم ذوق يعرفه كل مشتاق من نفسه.

الباب الأحد والثمانون ومائة

في معرفة مقام احترام الشيوخ

[نظم: البسيط]

مَا حُرْمَةُ الشَّيخِ إلاَّ حُرْمَةُ الله ... فَقُمْ بِهَا أدباً لله بالله
هُمُ الأدلاَّءُ والقُرْبَى تُؤيِّدهُمْ ... على الدِّلالة تأييداً على الله
الوارثون هُمُ للرُّسْلِ أجْمَعِهِم ... فما حديثُهم إلاَّ عن الله
كالأنبياء تَراهُمْ في مَحَارِبِهِمْ ... لا يَسْألُون من الله سوى الله
فإن بدا منهُمُ حالَ تَوَلُّهِهِمْ ... عن الشَّريعة فاتْرُكْهم مَعَ الله
لا تتَّبِعْهُمْ ولا تَسْلُكْ لهم أثراً ... فإنهم طُلَقَاءُ الله في الله
لا نقتدي بالذي زالَتْ شريعَتُه ... عنه ولو جاءَ بالأنْبَا عنِ الله

ولما رأينا في هذا الزمان جهل المريدين بمراتب شيوخهم قلنا في ذلك: [مجزوء الكامل]

جُهِلَتْ مقاديرُ الشُّيوخْ ... أهلِ المَشَاهِد والرُّسُوخْ
واسْتُنْزِلَتْ ألفاظُهُمْ ... جهلاً وكان لها الشُّمُوخْ

الشيوخ نوّاب الحق في العالم كالرسل عليهم السلام في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون، فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم ما لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص، هم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب من العالم بعلم الطبيعة، فالطبيب لا يعرف الطبيعة إلاّ بما هي مدبرة للبدن الإنساني خاصة والعالم بعلم الطبيعة يعرفها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً، وقد يجمع الشيخ بين الأمرين، ولكن حظ الشيخوخة من العلم بالله أن يعرف من الناس موارد حركاتهم ومصادرها، والعلم بالخواطر مذمومها ومحمودها، وموضع اللبس الداخل فيها من ظهور الخاطر المذموم في صورة المحمود، ويعرف الأنفاس والنظرة ويعرف ما لهما وما يحويان عليه من الخير الذي يرضي الله ومن الشر الذي يسخط الله، ويعرف العلل والأدوية، ويعرف الأزمنة والسنّ والأمكنة والأغذية وما يصلح المزاج وما يفسده، والفرق بين الكشف الحقيقي

والكشف الخيالي، ويعلم التجلّي الإلهي، ويعلم التربية وانتقال المريد من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ويعلم متى يترك التحكّم في طبيعة المريد ويتحكم في عقله، ومتى يصدّق المريد خواطره، ويعلم ما للنفس من الأحكام وما للشيطان من الأحكام وما تحت قدرة الشيطان، ويعلم الحجب التي تعصم الإنسان من إلقاء الشياطين في قلبه، ويعلم ما تكنه نفس المريد ممّا لا يشعر به المريد، ويفرق للمريد إذا فتح عليه في باطنه بين الفتح الروحاني وبين الفتح الإلهي، ويعلم بالشم أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون، ويعلم التحلية التي يحلي بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق وهم له كالماشطة للعروس تزينها، فهم أدباء الله عالمون بآداب الحضرة وما تستحقه من الحرمة.

والجامع لمقام الشيخوخة أن الشيخ عبارة عمّن جمع جميع ما يحتاج إليه المريد السالك في حال تربيته وسلوكه وكشفه إلى أن ينتهي إلى الأهلية للشيخوخة، وجميع ما يحتاج إليه المريد إذا مرض خاطره وقلبه بشبهة وقعت له لا يعرف صحتها من سقمها، كما وقع لسهل في سجود القلب، وكما وقع لشيخنا حين قيل له: أنت عيسىٰ ابن مريم فيداويه الشيخ بما ينبغي، وكذلك إذا ابتلي من يخرج ليسمع من الحق من خارج لا من نفسه بمحرم يؤمر بفعله أو ينهى عن واجب، فيكون الشيخ عارفاً بتخليصه من ذلك حتى لا يجري عليه لسان ذنب مع صحة المقام الذي هو فيه فهم أطباء دين الله، فمهما نقصهم شيء ممّا يحتاجون إليه في التربية فلا يحل له أن يقعد على منصة الشيخوخة، فإنه يفسد أكثر ممّا يصلح ويفتن كالمتطبب، يعل الصحيح ويقتل المريض، فإذا انتهى إلى هذا الحد فهو شيخ في طريق الله يجب على كل مريد حرمته والقيام بخدمته والوقوف عند مراسمه لا يكتم عنه شيئاً ممّا يعلم أن الله يعلمه منه يخدمه ما دامت له حرمة عنده، فإن سقطت حرمته من قلبه فلا يقعد عنده ساعة واحدة فإنه لا ينتفع به ويتضرر، فإن الصحبة إنما تقع المنفعة فيها بالحرمة، فمتى ما رجعت الحرمة له في قلبه حينئذ يخدمه وينتفع به فإن الشيوخ على حالين: شيوخ عارفون بالكتاب والسنّة قائلون بها في ظواهرهم متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأوّلون في الورع، آخذون بالاحتياط مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله ببغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الله وطريق الناس، يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدّون الحقوق إلى أهلها، يبرّون إخوانهم بل الناس أجمعهم، لا يقتصرون بالجود على معارفهم جودهم مطلق الكبير لهم أب والمثل لهم أخ وكفؤ والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة، يتفقدون حوائجهم، إن أطاعوا رأوا الحق موفقهم في طاعتهم إياه، وإن عصوا سارعوا بالتوبة والحياء من الله ولاموا نفوسهم على ما صدر منهم، ولا يهربون في معاصيهم إلى القضاء والقدر فإنه سوء أدب مع الله، هينون لينون ذوو مقة ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] في نظرهم رحمة لعباد الله كأنهم يبكون، الهم عليهم أغلب من

الفرح لما يعطيه موطن التكليف، فمثل هؤلاء هم الذين يقتدى بهم ويجب احترامهم، وهم الذين إذا رُؤوا ذكر الله.

وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال عندهم تبديد ليس لهم في الظاهر ذلك التحفّظ تسلم لهم أحوالهم ولا يصحبون ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعوّل عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع فإنه لا طريق لنا إلى الله إلاّ ما شرعه، فمن قال بأن ثم طريقاً إلى الله خلاف ما شرع فقوله زور، فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقاً في حاله ولكن يحترم، واعلم أن حرمة الحق في حرمة الشيخ وعقوقه في عقوقه، هم حجاب الحق الحافظون أحوال القلوب على المريدين، فمن صحب شيخاً ممّن يقتدى به ولم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه، والغفلة عن الله وسوء الأدب عليه يدخل عليه في كلامه ويزاحمه في رتبته، فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء والباب دون غير الأدباء مغلق، ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيوخ، قال بعض أهل الله في مجالس أهل الله: من قعد معهم في مجالسهم وخالفهم في شيء ممّا يتحققون به في أحوالهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فالجلوس معهم خطر، وجليسهم على خطر، واختلف أصحابنا في حق المريد مع شيخ آخر خلاف شيخه هل حاله معه من جانب الحق مثل شيخه أم لا؟ فكلهم قالوا بوجوب حرمته عليه، ولا بدّ هذا موضع إجماعهم، وما عدا هذا فمنهم من قال: حاله معه على السواء من حاله مع شيخه، ومنهم من فصل وقال: لا تكون الصورة واحدة إلاّ بعد أن يعلم المريد أن ذلك الشيخ الآخر ممّن يقتدى به في الطريق، وأما إذا لم يعرف ذلك فلا، ولهذا وجه وللآخر وجه النبيّ ﷺ يقول للمرأة: إنما الصبر عند الصدمة الأولى وكانت قد جهلت أنه رسول الله ﷺ، والمريد لا يقصد إلاّ الحق، فإذا ظهر مقصوده حيث ظهر قال به وأخذه، فإن الرجال إنما يعرفون بالحق لا يعرف الحق بهم، والأصل أنه كما لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع ولا امرأة بين زوجين، كذلك لا يكون المريد بين شيخين إذا كان مريد تربية، فإن كانت صحبة بلا تربية فلا يبالي بصحبة الشيوخ كلهم لأنه ليس تحت حكمهم، وهذه الصحبة تسمّى صحبة البركة غير أنه لا يجيء منه رجل في طريق الله فالحرمة أصل في الفلاح.

الباب الثاني والثمانون ومائة

في معرفة مقام السماع

[نظم: الكامل]

خُذْهَا إليكَ نصيحةً من مُشْفِقِ ... ليس السَّمَاعُ سوى السماع المُطْلقِ

واحذَرْ من التَّقْييد فيه فإنه ... قولٌ يفند عند كلِّ مُحَقِّقِ

إن السَّمَاعَ من الكتاب هو الذي ... يدريه كلُّ معلِّم ومُطَرِّقِ

إن التَّغَنِّي بالقُرَانِ سَمَاعُنا ... والحقُّ ينطق عند كلِّ منطقِ

والله يَسْمَعُ ما يقول عبيدُه — من قَوْلِهِ فَسَمَاعُه بِتَحَقُّقِ
أصلُ الوجود سمَاعُنا من قَوْلِ كُنْ — فبه نكون ونحن عَيْنُ المَنْطقِ
انظُرْ إلى تَقْديمه في آيةٍ — تَعْثُرْ على العلم الشَّريفِ المُزهِقِ
فالسَّمْعُ أشْرَفُ ما تَحَقَّقَ عارفٌ — بتَعَلُّقٍ وتَحَقُّقٍ وتَخَلُّقِ

قال تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ٢١] وقال: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦١] فقدمه على العلم، والبصر أوّل شيء علمناه من الحق وتعلق به منا القول منه والسماع منا فكان عنه الوجود، وكذلك نقول في هذا الطريق: كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع، فهذه رتبة السماع التي يرجع إليها أهل الله ويسمعون، فقوله تعالى للشيء قبل كونه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] هو الذي يراه أهل السماع في قول القائل وتهيؤ السامع المقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ للتكوين بمنزلة الوجد في السماع، ثم وجوده في عينه عن قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بمنزلة الوجود الذي يجده أهل السماع في قلوبهم من العلم بالله الذي أعطاهم السماع في حال الوجد، فمن لم يسمع سماع وجود فما سمع، ولهذا جعل القوم الوجود بعد الوجد، ولما لم يصحّ الوجود أعني وجود العالم إلاَّ بالقول من الله والسماع من العالم لم يظهر وجود طرق السعادة، وعلم الفرق بينها وبين طرق الشقاء إلاَّ بالقول الإلهي والسماع الكوني، فجاءت الرسل بالقول جميعهم من قرآن وتوراة وإنجيل وزبور وصحف فما ثم إلاَّ قول وسماع غير هذين لم يكن، فلولا القول ما علم مراد المريد ما يريده منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى تحصيل ما قيل لنا، فبالقول نتصرف، وعن القول نتصرف مع السماع، فهما مرتبطان لا يصحّ استقلال واحد منهما دون الآخر وهما نسبتان، فبالقول والسماع نعلم ما في نفس الحق إذ لا علم لنا إلاَّ بإعلامه وإعلامه بقوله، ولا يشترط في القول الآلة ولا في السماع، بل قد يكون بآلة وبغير آلة، وأعني بآلة القول اللسان وآلة السماع الأذن، فإذا علمت مرتبة السماع في الوجود وتميزه عن غيره من النسب فاعلم أن السماع عند أهل الله مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي عليه أهل الله ولكن يحتاجون فيه إلى علم عظيم بالموازين حتى يفرقوا بين قول الامتثال وبين قول الابتلاء وليس يدرك ذلك كل أحد، ومن أرسله من غير ميزان ضلّ وأضلّ، والمقيد هو السماع المقيد بالنغمات المستحسنات التي يتحرك لها الطبع بحسب قبوله، وهو الذي يريدونه غالباً بالسماع لا السماع المطلق، فالسماع على هذا الحد ينقسم على ثلاثة أقسام: سماع إلهيّ، وسماع روحاني، وسماع طبيعي. فالسماع الإلهيّ بالأسرار وهو السماع من كل شيء، وفي كل شيء، وبكل شيء، والوجود عندهم كله كلمات الله وكلماته لا تنفد، ولهم في مقابلة هذه الكلمات أسماع لا تنفد تحدث لهم هذه الأسماع في سرائرهم بحدوث الكلمات وهو قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فمنهم من أعرض بعد السماع، ومنهم من وقف عندما سمع، وهذا مقام لا يعلمه كل أحد وما في الوجود إلاَّ هو ولكن يجهل ولا يعلم وهو يتعلق بأسماء

الله تعالىٰ على كثرتها، فلكل اسم لسان، ولكل لسان قول، ولكل قول منا سمع والعين واحد من القائل والسامع، فإن كان نداء أجبنا وامتثلنا وكان من قوله أن قال لنا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] فكما قال، وسمعنا أمرنا عندما جعل فينا قوّة القول أن نقول فيسمع هو تعالىٰ فمنا من يقول به كما قال: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فكلام صاحب هذا المقام كله نيابة، ومنا من يقول بنفسه في زعمه وما هو كذلك في نفس الأمر، فإن الله عند لسان كل قائل، فكما أنه ليس في الوجود إلاً الله كذلك ما ثم قائل ولا سامع إلاً الله، وكما قسمنا قولنا بين من يقول بالله ويقوله بنفسه، كذلك سماعنا منا من يسمع بربه وهو قوله: «**كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به**»، ومنا من يسمع بنفسه في زعمه والأمر على خلافه فهذا هو السماع الإلهيّ وهو سار في جميع المسموعات.

وأما السماع الروحاني فمتعلقه صريف الأقلام الإلهية في لوح الوجود المحفوظ من التغيير والتبديل، فالوجود كله رق منشور والعالم فيه كتاب مسطور، فالأقلام تنطق وآذان العقول تسمع والكلمات ترتقم فتشهد وعين شهودها عين الفهم فيها بغير زيادة، ولا ينال هذا السماع إلاً العقول التي ظهرت لمستوى، ولما كان السماع أصله على التربيع وكان أصله عن ذات ونسبة وتوجّه وقول فظهر الوجود بالسماع الإلهيّ، كذلك السماع الروحاني عن ذات ويد وقلم وصريف قلم، فيكون الوجود للنفس الناطقة في سماع صريف هذه الأقلام في ألواح القلوب بالتقليب والتصريف، وكذلك السماع الطبيعي مبناه على أربعة أمور محققة، فإن الطبيعة مربعة معقولة من فاعلين ومنفعلين، فأظهرت الأركان الأربعة أيضاً، فظهرت النشأة الطبيعية على أربعة أخلاط وأربع قوىٰ قامت عليها هذه النشأة، وكل خلط منها يطلب بذاته من يحركه لبقائه وبقاء حكّه فإن السكون عدم، فأوجد في نفوس العلماء حين سمعوا صريف الأقلام ما ينبغي أن يحرك به هذه النشأة الطبيعية فأقاموا لها أربع نغمات لكل خلط من هذه الأخلاط نغمة في آلة مخصوصة وهي المسماة في الموسيقي وهو علم الألحان والأوزان بالبم والزير والمثنى والمثلث كل واحد من هذه يحرك خلطاً من هذه الأخلاط ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع الحركات، وهذا لها بما هي نشأة طبيعية لا بما هي روحانية، فإن الحركة في النشأة الطبيعية والسماع الطبيعي لا يكون معه علم أصلاً، وإنما صاحبه يجد طرباً في نفسه أو حزناً عند سماع هذه النغمات من هذه الآلات ومن أصوات القوالين ولا يجد معها علماً أصلاً، فإنه ليس هذا حظ السماع الطبيعي مع الحال الصحيح، والوجد الصحيح الذي يطلبه الطبع وهو سماع الناس اليوم، والسماع الروحاني يكون معه علم ومعرفة في غير مواد جملة واحدة، والسماع الإلهيّ يكون معه علم ومعرفة في مواد وفي غير مواد عام التعلّق يجده في السماع الطبيعي والروحاني لكن بالسمع الإلهي الذي يخصّ الطبع والعقل خاصة، ومنهم من يعلم ذلك، ومنهم من لا يعلمه مع كونه يجده ولا يقدر على إنكار ما يجد، فسماع الحق مطلق كما أن وجوده مطلق وتمييزه عسير.

وللنغمات في الكلام الإلهي والقول أصل تستند إليه وهو أقوى الأصول، ولهذا لها القوة

والتأثير في الطباع، فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه عند ورود النغمة وتعلق السمع بها إذا صادفت محلها ذلك الطرب أو الأثر الذي يجده السامع في نفسه فسلطانها قوي وذلك لقوة أصلها الذي تستند إليه، فإن الأسماء الإلهية وإن كانت لعين واحدة فمعلوم عند أهل الله ما بينها من التفاوت، ولما كان التفاوت معقولاً فيها وعلم ذلك بآثارها علمنا أن الحقائق الإلهية التي استندت إليها هذه النغمات أقوى من الذي استند إليه الكلام، فإنا نسمع قارئاً يقرأ أو منشداً ينشد شعراً فلا نجد في نفوسنا حركة لذلك بل ربما نتبرم من ذلك في أوقات لأنه جاء على غير الوزن الطبيعي، فإذا سمعنا تلك الآية أو الشعر من صاحب نغمة وفي حقها في الميزان أصابنا وجد وحركنا ووجدنا ما لم نكن نجد، فلهذا فرقنا بين ما استندت إليه النغمات الطبيعية وبين ما استند إليه القول هذا ميزان المحسوس، وأما ميزان العقل فينظر حكمة الترتيب الإلهيّ في العالم، فإن كان من أهل السماع الإلهي فينظر ترتيب الأسماء الإلهية فيكون سماعه من هناك، وإن كان من أهل السماع الروحاني فينظر ترتيب آثارها في العالم الأعلى والأسفل فيجد في كل مسموع فإن المسموعات كلها نغم عنده، فمنهم من تكون له حركة محسوسة، ومنهم من لا تكون له، وأما الحركة الروحانية فلا بدّ منها، ولله طائفة خرجت عن الحركات الروحانية إلى الحركات الإلهية وهو قول الجنيد: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ولكن في الحال التي تحسبها جامدة فتنسب الحركة إلى هذا الشخص نسبتها إلى الجناب الأقدس في فرحه بتوبة عبده وتبشبشه لمن أتى بيته، فهذه أحوال إلهية يجب الإيمان بها، ولا يعقل لها كيفية إلاّ من خصّه الله بها وكانت حركته في سماعه إلهية وهي من العلوم التي تنال ولا تنقال، وليس الخير بالنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة يشبه هذا الفرح ولا التبشبش لأن هذا الفرح عن سبب كوني ظهر وجوده سمع الحق عليه والنزول إلى السماء الدنيا عن أمر يتوقع لا عن أمر واقع، فالأول يلحق بباب السماع والثاني لا يلحق به فاعلم ذلك، وقد ربطنا السماع بما يجب له وحققناه ولم نترك منه فصلاً ولا قسماً إلاّ ذكرناه بأوجز عبارة ليوقف عنده وحكاياته كثيرة لا يحتاج إلى إيرادها، فإن كتابنا هذا مبناه على تحقيق أصول الأمور لا على الحكايات فإن الكتب بها مشحونة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثمانون ومائة

في معرفة مقام ترك السماع

[نظم: البسيط]

أَلـلَّـهُ أَلـلَّـهُ لا عـقـلٌ يـصـوِّرُهُ ... والـوَهْـمُ يـعـبـده فـي صـورة الـبَـشَـرِ

فـالـشَّـرْعُ يُـطْـلـقـه وقـتـاً ويَـحْـصُـرُه ... والـكـونُ يُـثْـبِـتُـه فـي سـائـر الـصُّـوَرِ

تَـرْكُ الـسَّـمـاع مَـقَـامٌ لـيـس يُـذْركـه ... إلاّ الـقـويُّ مـن الأقـوام فـي الـخَـبَـرِ

إن قـال كُـنْ فـلِـمَـنْ والـعـيـنُ واحـدةٌ ... ولـم يـكـن غَـيْـرُه فـي الـعـيـن والأَثَـرِ

فـمـا لـكُـنْ عـنـد هـذا الـقـول مـن أَثَـرِ ... بل عَيْنُ كُنْ لم تكن إن كنتَ ذا نَظَرِ

ولـم يَـقُـلْ بسَـمَـاع الـقَـوْلِ غـيـرُ فـتًـى مـتـيَّـم بـمـعـانـي الآي والـصُّـوَرِ
لـولا الـكـلامُ لـمـا كـان الـسَّـمَـاعُ وقَـدْ جـاء الـكَـلامُ فـكُـنْ مـنـه عـلـى حَـذَرِ

السماع المطلق لا يمكن تركه، والذي يتركه الأكابر إنما هو السماع المقيد المتعارف وهو الغناء، قيل لسيدنا أبي السعود بن الشبلي البغدادي: ما تقول في السماع؟ فقال: هو على المبتدىء حرام والمنتهي لا يحتاج إليه، فقيل له: فلمن؟ فقال: لقوم متوسطين أصحاب قلوب. وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ فَقَالَ لَهَا: إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ وَإِلاَّ فَلاَ**» فهو وإن كان مباحاً فالتنزيه عنه عند الأكابر أولى. وكان أبو يزيد البسطامي يكرهه ولا يقول به. وقيل لابن جريج فيه فقال: ليتني أخرج منه رأساً برأس لا عليّ ولا لي. وأمّا مذهبنا فيه فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه وإذا حضر لا يخرج بسببه وهو عندنا مباح على الإطلاق لأنه لم يثبت في تحريمه شيء عن رسول الله ﷺ، فإن كان الرجل مّمن لا يجد قلبه مع ربه إلاَّ فيه فواجب عليه تركه أصلاً فإنه مكر إلهيّ خفي، ثم إن كان يجد قلبه فيه وفي غيره وعلى كل حال ولكنه يجده في النغمات أكثر فحرام عليه حضوره، ولا أعني بالنغمات المسموعة في الشعر فقط وإنما أعني بوجود النغمة في الشعر وفي غيره حتى في القرآن إذا وجد قلبه فيه لحسن صوت القارىء ولا يجد قلبه فيه عندما يسمعه من قارىء غير طيب الصوت فلا يعوّل على ذلك الوجد ولا على ما يجد فيه من الرقة في الجناب الإلهيّ فإنه معلول وتلك رقة الطبيعة، فإن كان عارفاً بالتفصيل ويفرق بين سماعه الإلهيّ والروحاني والطبيعي ما يلتبس عليه ولا يخلط ولا يقول في سماع الطبيعة أنه سماعه بالله فمثل هذا لا يحجر عليه وتركه أولى، ولا سيما إن كان ممّن يقتدى به من المشايخ فيستتر به المدعي الكاذب أو الجاهل بحاله وإن لم يقصد الكذب.

الباب الرابع والثمانون ومائة

في معرفة مقام الكرامات

[نظم: البسيط]

بـعـضُ الـرجـالِ يَـرَى كَـوْنَ الـكـرامـاتِ دلـيـلَ حـقٍّ عـلـى نَـيْـلِ الـمَـقَـامـاتِ
وأنـهـا عَـيْـنُ بُـشْـرَى قـد أتَـتْـكَ بـهـا رُسْـلُ الـمُـهَـيْـمِـنِ مـن فَـوْق الـسَّـمٰـواتِ
وعـنـدنـا فـيـه تَـفْـصـيـلٌ إذا عـلـمَـتْ بـه الـجـمـاعـةُ لـم تَـفْـرَحْ بـآيـاتِ
كـيـف الـسـرورُ والاسـتـدراجُ يَـصْـحَـبُـهـا فـي حـقِّ قـوم ذوي جَـهْـلٍ وآفـاتِ
ولـيـس يـدرون حـقـاً أنـهـم جـهـلـوا وذا إذا كـان مـن أقْـوَى الـجَـهَـالاتِ
ومـا الـكـرامـةُ إلاَّ عِـصْـمَـةٌ وُجِـدَتْ فـي حـال قَـوْلٍ وأفـعـالٍ ونِـيَّـاتِ
تـلـك الـكـرامـةُ لا تـبـغـي بـهـا بَـدَلاً واحذَرْ من المَكْر في طَيِّ الكَرَامَاتِ

اعلم أيّدك الله أن الكرامة من الحق من اسمه البرّ ولا تكون إلاَّ للأبرار من عباده جزاء وفاقاً، فإن المناسبة تطلبها وإن لم يقم طلب ممّن ظهرت عليه وهي على قسمين: حسيّة

ومعنوية، فالعامة ما تعرف الكرامة إلاّ الحسيّة مثل الكلام على الخاطر والأخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية والأخذ من الكون والمشي على الماء واختراق الهواء وطيّ الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال، فالعامّة لا تعرف الكرامات إلاّ مثل هذا. وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلاّ الخواص من عباد الله والعامة لا تعرف ذلك، وهي أن تحفظ عليه آداب الشريعة، وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها، والمحافظة على آداء الواجبات مطلقاً في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظنّ، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء، وتفقد آثار ربه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها ودخولها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه، ويخرجها وعليها خلعة الحضور، فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج، بل هي دليل على الوفاء بالعهود وصحة القصد والرضى بالقضاء في عدم المطلوب ووجود المكروه، ولا يشاركك في هذه الكرامات إلاّ الملائكة المقرّبون وأهل الله المصطفون الأخيار.

وأما الكرامات التي ذكرنا أن العامة تعرفها فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفيّ، ثم إنا إذا فرضناها كرامة فلا بدّ أن تكون نتيجة عن استقامة أو تنتج استقامة لا بدّ من ذلك وإلاّ فليست بكرامة، وإذا كانت الكرامة نتيجة استقامة فقد يمكن أن يجعلها الله حظ عملك وجزاء فعلك، فإذا قدمت عليه يمكن أن يحاسبك بها، وما ذكرناه من الكرامات المعنوية فلا يدخلها شيء ممّا ذكرناه، فإن العلم يصحبها وقوّة العلم وشرفه تعطيك أن المكر لا يدخلها، فإن الحدود الشرعية لا تنصب حبالة للمكر الإلهيّ، فإنها عين الطريق الواضحة إلى نيل السعادة والعلم يعصمك من العجب بعملك، فإن العلم من شرفه أنه يستعملك وإذا استعملك جرّدك منه وأضاف ذلك إلى الله وأعلمك أن بتوفيقه وهدايته ظهر منك ما ظهر من طاعته والحفظ لحدوده، فإذا ظهر عليه شيء من كرامات العامة ضجّ إلى الله منها وسأل الله ستره بالعوائد وأن لا يتميز عن العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم لأن العلم هو المطلوب وبه تقع المنفعة ولو لم يعمل به فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالعلماء هم الآمنون من التلبيس، فالكرامة من الله تعالىٰ بعباده إنما تكون للوافدين عليه من الأكوان ومن نفوسهم لكونهم لم يروا وجه الحق فيهما، فأسنى ما أكرمهم به من الكرامات العلم خاصة لأن الدنيا موطنه، وأما غير ذلك من خرق العادات فليست الدنيا بموطن لها، ولا يصحّ كون ذلك كرامة إلاّ بتعريف إلهيّ لا بمجرّد خرق العادة، وإذا لم تصحّ إلاّ بتعريف إلهيّ فذلك هو العلم، فالكرامة الإلهية إنما هي ما يهبهم من العلم به عزّ وجلّ.

سُئِل أبو يزيد عن طيّ الأرض فقال: ليس بشيء فإن إبليس يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة وما هو عند الله بمكان. وسُئِل عن اختراق الهواء فقال: إن الطير يخترق الهواء والمؤمن عند الله أفضل من الطير فكيف يحسب كرامة من شاركه فيها طائر؟ وهكذا علل جميع ما ذكرناه ثم قال: إلهي إن قوماً طلبوك لما ذكروه فشغلتهم به وأهلتهم له،

اللهم مهما أهلتني لشيء فأهلني لشيء من أشيائك، يقول من أسرارك، فما طلب إلاّ العلم لأنه أسنى تحفة وأعظم كرامة، ولو قامت عليك به الحجة فإنه يجعلك تعترف ولا تحاجج فإنك تعلم ما لك وما عليك وما له، وما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يطلب منه الزيادة من شيء إلاّ من العلم لأن الخير كله فيه وهو الكرامة العظمى، والبطالة مع العلم أحسن من الجهل مع العمل، وأسباب حصول العلم كثيرة، ولا أعني بالعلم إلاّ العلم بالله والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولأيّ شيء وضعت حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان، فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً، والعلم صفة إحاطية إلهية فهي أفضل ما في فضل الله كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] رحمة منا، فاعلم أن العلم من معدن الرحمة فقد أعلمتك ما هي الكرامة وأنها التعريف الإلهيّ بأن هذا الذي أتحفك به كرامة منه لا ينقص لك حظاً من آخرتك، ولا هو جزاء لشيء من عملك إلاّ لمجرّد قدومك، وأن قدومك عليه لم يكن إلاّ لجهلك به حيث لم تره في أوّل قدم كما اتفق لأبي يزيد لما خرج في طلب الحق من بسطام في أوّل أمره فلقيه بعض الرجال فقال له: ما تطلب يا أبا يزيد؟ قال: الله، قال له: الذي تطلبه تركته ببسطام، فتنبّه أبو يزيد كيف يطلبه وهو تعالىٰ يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فلا علم ولا إيمان، فإذا حرمك الله تحصيل علم مشاهدته فلا أقل من الإيمان به، فلهذا قلنا ما قدم عليه إلاّ من جهله، فلما لم يكن لهذه الطائفة همّ إلاّ به وبطلبه كانوا وافدين عليه فأتحفهم بما أتحفهم به وعرّفهم أن ذلك جائزة الوفود خاصة، ومهما لم يعلموا ذلك منه بإعلامه إياهم وإلاّ فيخاف من المكر الإلهيّ في ذلك أو نقص حظ أخروي يتمنون في الآخرة أنهم لم يعطوا شيئاً من ذلك في الدنيا.

الباب الخامس والثمانون ومائة
في معرفة مقام ترك الكرامات

[نظم: الكامل]

تَـرْكُ الـكَـرَامـة لا يـكـون دلـيـلاَ	فـأَصِـخْ لـقـولـي فـهـو أَقْـوَمُ قِـيـلاَ
إن الـكـرامـةَ قـد يـكـون وجـودُهـا	حَـظَّ الـمـكـرَّم ثـم سَـاءَ سـبـيـلاَ
فـاحْـرِصْ عـلـى الـعِـلْـم الـذي كُـلِّـفْـتَـهُ	لا تـتَّـخِـذْ غَـيْـرَ الإلـه بَـديـلاَ
سـتْـرُ الـكـرامـة واجـبٌ مُـتَـحَـقِّـقٌ	عـنـد الـرجـالِ فـلا تَـكُـنْ مَـخْـذُولاَ
وظُـهُـورُهـا فـي الـمُـرْسَـلـيـن فَـريـضـةٌ	وبـهـا تَـنَـزَّلَ وَحْـيُـهُ تَـنْـزيـلاَ

كما أن الآيات والكرامات واجب على الرسول إظهارها من أجل دعواه، كذلك يجب على الوليّ التابع سترها، هذا مذهب الجماعة لأنه غير مدّع ولا ينبغي له الدعوى فإنه ليس بمشرّع وميزان الشرع موضوع في العالم قد قام به علماء الرسوم أهل الفتاوى في دين الله، فهم أرباب التجريح والتعديل، وهذا الوليّ مهما خرج عن ميزان الشرع الموضوع مع وجود عقل التكليف عنده سلم له حاله للاحتمال الذي في نفس الرحمن في حقّه، وهو أيضاً موجود

في الميزان المشروع، فإن ظهر بأمر يوجب حدّاً في ظاهر الشرع ثابت عند الحاكم أقيمت عليه الحدود ولا بدّ ولا يعصمه ذلك الاحتمال الذي في نفس الأمر من أن يكون من العبيد الذين أبيح لهم فعل ما حرم على غيرهم شرعاً فأسقط الله عنهم المؤاخذة ولكن في الدار الآخرة فإنه قال في أهل بدر ما قد ثبت من إباحة الأفعال لهم، وكذلك في الخبر الوارد: «**افعَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» ولم يقل أسقطت عنك الحد في الدنيا، فالذي يقيم عليه الحدّ مأجور وهو في نفسه غير مأثوم وكالحلاج ومن جرى مجراه، ثم إن ترك الكرامة قد يكون ابتداء من الله وهو أنه عزّ وجلّ لا يمكن هذا الوليّ في نفسه من شيء من ذلك جملة واحدة مع كونه عنده من أكابر عباده وأعني خرق العوائد الظاهرة لا العلم بالله، وقد يكون هذا الوليّ أعطاه الله تعالىٰ في نفسه التمكّن من ذلك فيترك ذلك كله لله فلا يظهر عليه منه شيء أصلاً، وقد رأينا ممن هو على هذا القدم جماعة كما قال سيدنا أبو السعود بن الشبل عاقل زمانه وقد سأله بعض من لا يكتمه من حاله شيئاً: هل أعطاك الله التصرّف وهو أصل الكرامات؟ فقال: نعم منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفاً فالحق بتصرف لنا، يريد رضي الله عنه أنه امتثل أمر الله في اتخاذه عزّ وجلّ وكيلاً فقال له السائل: ما ثم؟ فقال: الصلوات الخمس وانتظار الموت الرجل مثل ساعي الطير فم مشغول وقدم تسعى، وكان يقول: ما أعجبني فيما قيل إلاَّ قوله: [الطويل]

وأَثْبَتَ فـي مُسْتَنْقع المـوت رِجْلَهُ وقال لـها من دونَ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

هكذا هو الرجل وإلاَّ فلا يدّعي أنه رجل، وفي حين تقييدي هذا الوجه من هذه النسخة خاطبني الحق في سري: من اتخذني وكيلاً فقد ولاّني ومن ولاّني فله مطالبتي وعليَّ إقامة الحساب فيما ولاّني فيه، فانعكس الأمر وتبدّلت المراتب، هذا صنع الله مع عباده الذين ارتضاهم واصطفاهم، وما فوق هذا الامتنان امتنان ترتقي الهمة إلى طلبه، فالعبد المحقق لا تخرجه هذه الرتبة عن علمه بقدره، فما يتخذ الله وكيلاً إلاَّ من كان الحق قواه وجوارحه إذ يستحيل تبدّل الحقائق، فالعبد عبد والرب رب، والحق حق والخلق خلق.

فإذا ظهر خرق عادة على مثل هذا فما هي كرامة عندنا لأن الكرامة تعود على من ظهرت عليه، وإنما يتفق لمن هذا مقامه مثل ما اتفق لنا في مجلس حضرنا فيه سنة ست وثمانين وخمسمائة وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوّة على الحدّ الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد وأن الحقائق لا تتبدّل، وكان زمان البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل ناراً فقال المنكر المكذب: إن العامة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم تحرقه والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للإحراق وإنما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه وحنقه فهي نار الغضب وكونه ألقي فيها لأن الغضب كان عليه وكونها لم تحرقه أي لم يؤثر فيه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار وأنها لو كانت آلهة ما أفلت فركب له من ذلك دليلاً، فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين ممّن كان له هذا المقام والتمكن: فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالىٰ في النار أنها لم تحرق إبراهيم وأن الله

جعلها عليه كما قال برداً وسلاماً وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام في الذب عنه لا أن ذلك كرامة في حقي، فقال المنكر: هذا لا يكون، فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة؟ قال: نعم، قال: تراها في نفسك ثم ألقى النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده، فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردّها إلى المنقل، ثم قال له: قرب يدك أيضاً منها فقرب يده فأحرقته فقال له: هكذا كان الأمر وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالىٰ الفاعل لما يشاء، فأسلم ذلك المنكر واعترف، فمثل هذا يظهر على تارك الكرامات فإنه يقيمها في زمانه نيابة عن الرسول ﷺ في المعجزة والآية على صدقه فجاء بها لإقامة الدليل على صدق الشارع والدين لا على نفسه أنه وليّ لله بخرق هذه العادة، فهذا معنى ترك الكرامات ولها رجال وهم الملامية خاصة، وأما الصوفية فيظهرون بها وهي عند الأكابر من رعونات النفوس إلاً على حدّ ما ذكرناه.

الباب السادس والثمانون ومائة

في معرفة مقام خرق العادات

[نظم: البسيط]

خَـرْقُ الـعـوائـد أقـسـامٌ مـقَـسَّـمَـةٌ ... أتـى بـهـا الـنَّـظـرُ الـفـكـريُّ مَـخْـصُـورة

مـنـهـا مـعـيَّـنَـةٌ بـالـحـق قـائـمـةٌ ... كـالـمعجزات على الإرسال مَقْصُورَهْ

ومـا سـواهـا مـن الأقـسـام مُـحْـتَـمَـلٌ ... ولـيـس لـلـعـلـم فـي تَـعْـيـيـنـه صُـورَهْ

وكـلُّـهـا فـي كـتـاب الله بَـيِّـنَـةٌ ... فـقِـفْ عـلـيـه تَـجِـدْهَـا فـيـه مَـسْـطُـورَهْ

بُـشْـرَى وسـحـرٌ ومَـكْـرٌ أو عَـلاَمَـتُـه ... وكـلُّـهـا فـي كـتـاب الله مَـذْكُـورَهْ

فـهـذه خـمـسـةٌ أقـسـامُـهـا انـحَـصَـرتْ ... لـلـنـاظـريـن وفـي الأكـوان مَـشْـهُـورَهْ

اعلم أن مقام خرق العادات على وجوه كثيرة منها ما يكون عن قوى نفسية فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية هكذا جعل الله تعالىٰ الأمر فيها، وقد تكون عن حيل طبيعية معلومة كالفلقطيرات وغيرها وبابها معلوم عند العلماء، وقد تكون عن نظم حروف بطوالع وذلك لأهل الرصد، وقد تكون بأسماء يتلفظ بها ذاكرها فيظهر عنها ذلك الفعل المسمّى خرق عادة في ناظر عين الرائي لا في نفس الأمر، وقد تكون في نفس الأمر على قدر قوّة ذلك الاسم، وهذه كلها تحت قدرة المخلوق بجعل الله، وثم خرق عوائد مختصة بالجناب الإلهي ليس للعبد فيها تعمل ولا قوّة ولكن يظهرها الله عليه أو تظهر عنه بأمر الله وإعلامه وهي على مراتب: منها ما تسمى معجزة ولها شروط ونعت خاص معلوم، ومنها ما تسمّى آية لا معجزة، ومنها ما تكون كرامة، ومنها ما تكون مؤيّدة، ومنها ما تكون منبهة وباعثة، ومنها ما يكون جزاء، ومنها ما يكون مكراً واستدراجاً، وكلها لها علامات عند أهل الله مع كون هؤلاء لا علم لهم بشيء من ذلك بخلاف الصنف الأوّل فإنهم على علم بما يصدر منهم، وما من شيء ممّا ذكرناه في الصنف الثاني المضاف عمله إلى الله تعالىٰ إلاّ والاحتمال يدخله هل هو

عن عناية أو لا عن عناية إلاّ المعجزة والآية فإنها عن عناية ولا بدّ أنها الصدق المخبر والمؤيدة كذلك، وما عدا هذين فيتطرق إليه الاحتمال كما ذكرنا.

ثم نرجع إلى ما تقضي به طريقنا أن خرق العادة في الأولياء لا يكون إلاّ لمن خرق العادة في نفسه بإخراجها عن حكم ما تعطيه حقيقتها وهو تصرفها في المباح، أو ما يلقي إليها الشيطان بالتزيين من إتيان المحظور أو ترك الواجب، فمن خرق في نفسه هذه العادة خرق الله له عادة في الكون بأمر يسمّى كلاماً على الخاطر أو مشياً في الهواء أو ما كان، وقد ذكرنا فصول هذه الكرامات وبيّنا مراتبها وما ينتجها في كتاب مواقع النجوم ما سبقنا إليه في علمنا أعني إلى ترتيبه لا إلى علم ما فيه، وهو كتاب صحيح الطريق عظيم الفائدة صغير الجرم بنيناه على المناسبة، فإن المناسبة أصل وجود العالم وخرق العوائد من العالم.

وقد جعل الله آياته في العالم معتادة وغير معتادة، فالمعتادة لا يعتبرها إلاّ أهل الفهم عن الله خاصة، وما سواهم فلا علم لهم بإرادة الله فيها، وقد ملأ الله القرآن من الآيات المعتادة من اختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وإخراج النبات وجري الجواري في البحر، واختلاف الألسنة والألوان والمنام بالليل والنهار لابتغاء الفضل، وكل ما ذكر في القرآن أنه آية لقوم يعقلون، ويسمعون، ويفقهون، ويؤمنون، ويعلمون، ويوقنون، ويتفكرون، ومع هذا كله فلا يرفع بذلك أحد من الناس رأساً إلاّ أهل الله وهم أهل القرآن خاصة الله، وأما الآيات الغير المعتادة وهي خرق العوائد فهي التي تؤثر في نفوس العامة مثل الزلازل والرجفات والكسوف ونطق حيوان ومشي على ماء واختراق هواء وإعلام بكوائن في المستقبل تقع على حدّ ما أعلم، والكلام على الخواطر والأكل من الكون وإشباع القليل من الطعام الكثير من الناس هذا تعتبره العامة خاصة، ومتى لم يكن خرق العادة عن استقامة أو منبهاً وباعثاً على الرجوع إلى الله ويرجع وليس له فيه تعمل فهو مكر واستدراج من حيث لا يعلم وهذا هو الكيد المتين تحف الله مع المخالفات، وفيه سرّ عجيب للعارفين لولا ما في إذاعته من الضرر في العموم لذكرناه، وما كل ما يدرى يقال، وليس خرق العوائد إلاّ أوّل مرّة، فإذا عاد ثانية صار عادة، وأما في الحقيقة فالأمر جديد أبداً وما ثم ما يعود فما ثم خرق عادة، وإنما هو أمر يظهر زيّ مثله لا عينه فلم يعد فما هو عادة فلو عاد لكان عادة وانحجب الناس عن هذه الحقيقة، وقد نبهتك على ما هو الأمر عليه إن كنت تعقل ما أقول، فالألوهة أوسع من أن تعيد، ولكن الأمثال حجب على أعين العمى الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ وهو وجود عين المثل الثاني ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] فهم ﴿فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فالممكنات غير متناهية، والقدرة نافذة، والحق خلاق، فأين التكرار إذ لا يعقل إلاّ بالإعادة فالإعادة خرق العادة.

انتهى الجزء الثالث من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الرابع

أوله: الباب السابع والثمانون ومائة في معرفة مقام المعجزة



فهرس محتويات
الجزء الثالث
من
الفتوحات المكية



فهرس المحتويات

